مجموعة الببليوجرافيا التاريخية

الكتب والمكتبات في العصور الحديثة

المجلد الأول

الكتاب فى الغرب المتألق

تأليف

الدكتور شعبان عبد العزيز خليفة

الدار المصرية اللبنانية

الكتب والمكتبات
فـــى
العصور الحديثة

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت. ص . ب 2022 برقيا دار شادو. القاهـرة. ت : 3923525 - 3936743. فاكس : 3909618

رقم الإيداع : 10251 / 2001
تجهيزات فنية : الإســراء ت : 3143632

الترقيم الدولى : 4 - 681 - 270 - 977
طبع: أمــون ت : 7944356 - 7944517
الطبعة الأولى : شوال 1422 هـ يناير 2002 م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

* إلى الزهرة التى تفتحت فى حياتى

فعطرتها بأريجها الفواح.

* إلى الشعلة التى أضاءت حياتى

بنورها الوهاج.

* إلى ولدى **شريف شعبان خليفة**

الذى عشق الكتب والقراءة منذ نعومة أظفاره.

* لقد آثرت أن أقدم لك باقة من الورد

فى سلة قديمة.

على أن أقدم لك باقة من العشب

فى سلة جديدة.



والله. والله. والله. لن يُفهم الحاسب الإلكتروني وملفاته الآلية، ولن تفهم أقراص الليزر إلا على ضوء لفافة البردي وكراس الرق.

شعبان خليفة

مقدمة

كان الكتاب عبر مسيرة البشر وعاء لحمل المعلومات فى الزمان والمكان، وكانت المكتبة أداة ومؤسسة لحفظ وتنظيم وتيسير الإفادة من تلك الكتب؛ ومن هذا وذاك يكمن التقدم الإنسانى، حيث أن التقدم يعنى أن نبدأ من حيث انتهى الآخرون والمكتبات عندما تجمع مصادر المعلومات وتنظمها فإنها تكشف لنا عن النقطة التى انتهى إليها الآخرون.

من هنا كانت فكرة مجموعة الكتب التى أُصدرها «التأريخ لمسيرة الكتب والمكتبات عبر العصور»؛ ولقد أصدرت من قبل تأريخاً للكتب والمكتبات فى العصور القديمة ثم تأريخاً للكتب والمكتبات فى الشرق المسلم والشرق الأقصى ثم الغرب المسيحى والدولة البيزنطية واليهود فى العصور الوسطى.

أما العملان اللذان نطرحهما اليوم فانهما يستكملان مسيرة الكتب والمكتبات، حيث خصصا للعصور الحديثة التى اصطلح على بدايتها مع القرن الخامس عشر وحتى اليوم. وقد اختص أحد العملين بتاريخ الكتاب فى الغرب، وكرس الثانى لتاريخ المكتبة الغربية فى العصور الحديثة على أمل أن نردفهما بتاريخ الكتب والمكتبات فى الشرق خلال نفس الفترة.

وعلى الرغم من أن عملية «التأريخ» يجب أن تقف على بعد نصف قرن على الأقل من الظاهرة المدروسة ـ وقد فعلت ذلك فى معالجة الخط الرئيسى للعملين ـ إلا أننى رأيت أن ألقى الضوء على ظاهرة التحول الخطير التى تعرض لها الكتاب والمكتبة منذ الربع الأخير من القرن العشرين وأغلب الظن أنها سوف تستمر ردحاً من الزمن خلال القرن الواحد والعشرين وربما ما بعده من قرون فقد علمنا التاريخ أن الظواهر المتعلقة بالكتب ومؤسساتها لاتتبلور بين يوم وليلة أو خلال

عقد أو قرن بل قد تمتد قرونا، فظاهرة تحول شكل الكتاب من اللفافة إلى الكراس استمرت خمسة قرون على الأقل، وظاهرة إعادة تحميل المعلومات من البردى إلى الرق استغرقت قرنين أو أكثر وظاهرة انتقال الأرقام إلى العرب حدثت فى عدة قرون وكذلك ظاهرة انتقالها من العرب إلى الأوربيين. وقد تحدث الظاهرة لفترة محدودة ثم تختفى أو تخمد وبعد زمن قد يطول أو يقصر تعاود الظاهرة البروز وتستقر.

من هذا المنطلق لم أمس ظاهرة التحول الجديد فى شكل الكتاب وشكل المكتبة فى نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين إلا مساً خفيفاً ومن باب التبشير بالوافد الجديد فقط، ذلك أننا نعيش فى قلب الظاهرة ونحن جزء منها، وهى من جانب آخر لم تصل إلى المحطة النهائية بعد وأغلب الظن أنها لن تصل ولن تستقر إلا فى المستقبل غير المنظور؛ وربما تجهض فى الطريق أو تولد مبتسرة ولا تصل إلى المحطة الأخيرة.

إن المصغرات الفيلمية التى دخلت إلى عالم المعلومات منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان، وقيل عنها أنها دقت المسامير فى نعش اختراع يوحنا جوتنبرج، لما تزل تتعثر فى الطريق ولم تحدث فى المطبوعات إلا خربشات سطحية وينظر البعض إليها على أنها «موضة» قديمة لن تلبث أن تخرج من السوق. وحتى الآن لم تحدث أقراص الليزر وملفات الحاسب الآلى أى ما يطلق عليه الكتب الإلكترونية هى الأخرى سوى خربشات غير غائرة فى جسد الكتاب المطبوع والدورية المطبوعة.

لقد احتاج الورق إلى عشرة قرون على الأقل كى يقضى على البردى والرق كمادتين للكتابة وإن استمر الرق حتى القرن التاسع عشر الميلادى مادة للطباعة إلى جانب الورق، فهل يحتاج الكتاب الإلكترونى والدورية الإلكترونية إلى تلك الفترة للقضاء على الكتاب الورقى والدورية الورقية؟ وهل يحتاج النشر الإلكترونى إلى تلك الفترة كى يقضى على النشر التقليدى وحيث احتاجت الطباعة إلى فترة طويلة حتى تقضى على الخطاطة وحتى تجتاح أرجاء المعمورة

ذلك أن الظاهرة لاتنتشر بنفس السرعة فى كل مكان وكل مجتمع على الأرض؛ بل قد تحتاج إلى قرون طويلة لتغطية الأرض كلها أو معظمها.

لقد ظل الاعتقاد بأن يوحنا جوتنبرج هو مخترع الطباعة بالحروف المتحركة طيلة نحو خمسة قرون عدداً إلى أن كشفت الوثائق أن له منازعاً فى هذا الصدد هو لورنز كوستر الهولندى الذى سبقه إلى هذا الاختراع بنحو ربع قرن من الزمان.

إن المكتبة شكلا وقالبا وإدارة وعمليات وخدمات تتلون حتما بلون الكتاب، تساير قالبه وقلبه وينعكس تطوره وبشدة على تطورها حتى لأكاد أقول إنها ذيله وإناؤه وكل إناء بما فيه ينضح. وقد حدث تحول واضح فى هيئة المكتبة مع التحول الواضح فى هيئة الكتاب أيضا مع الربع الأخير من القرن العشرين، ولكن هذا التحول هو الآخر ما يزال فى بداية الطريق ولم يصل إلى المحطة النهائية بعد.

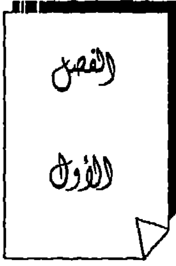
لقد آثرت أن أكرس الفصل الأخير من المجلد الثانى لإلقاء الضوء فقط وليس لدراسة هذا التحول وهذا المنعطف ولذلك جاء هذا الفصل تحت عنوان «الكتب والمكتبات فى نهاية القرن العشرين: مرحلة انتقال أم فوضى التكنولوجيا».

لقد سجلت مسيرة الكتب والمكتبات عبر العصور فى ستة مجلدات لعلى أتبعها بأربعة أخرى.

والله المستعان

أ. د. شعبان عبد العزيز خليفة

الجيزة ٢٠٠١



من الخطاطة إلى الطباعة

الكتب ـ سواء كانت مكتوبة بخط اليد، أو مطبوعة، أو صوتية، أو بصرية ـ هى سجلات للمعرفة والفكر والحقائق. وفى العصور البدائية القديمة كانت الكتابة عادةً حكرًا على الكهنة الذين استخدموها لتسجيل المعلومات الدينية والكهنوتية، وكانت نتيجة ذلك أن الكاتب وكتابته كانا ينظر إليهما برهبة، ومن هنا اكتسبت الكلمة المكتوبة حجتها. أما فى الحضارة اليونانية والرومانية فقد كان الأمر مختلفًا، حيث كان الفكر ينتقل شفاهة. وفى اليهودية والمسيحية والإسلام نجد تأكيدات على قدسية الكلمة المكتوبة، ويرى «رودلف هيرش» أن الإيمان والعقيدة يقلان مع اتساع انتشار الكتابة والقراءة بين الناس، لأنه مع انتشار التعليم والنقد والتحليل ازدهر الفكر العلمانى! وقد لعبت الطباعة دورًا هامًّـا فى هذا التطور الذى أدى إلى علمانية كاملة للكتاب والفكر.

ولم يكن الانتقال من الخطاطة إلى الطباعة حادًّا ودراميًّـا، ذلك أن الشكل المادى لأوائل المطبوعات احتذى نفس الشكل المادى لأواخر المخطوطات. ولقد صمم الطابعون الأوائل حروفهم على شكل الحروف المستخدمة فى الخطاطة. وكما طبعوا المخطوطات التى عرفوا ـ أو ظنوا ـ أنها تروق للناس ويزداد الإقبال عليها.. بل واستخدموا نفس الاختصارات والحروف المزدوجة والمرتبطة التى استخدمها الناسخون. كما احتفظ الكتاب المطبوع بشكل الكراس الذى ورثه من المخطوط. ولعل الفارق الوحيد كمن فى توحيد شكل الحروف فى الكتب المطبوعة وهو الأمر الذى كان يعجز عنه أمهر النساخين والخطاطين، كما خلق نوعًا من التطابق بين نسخ الطبعة الواحدة حتى فى الأخطاء الطباعية، وهو الأمر الذى كان مستحيلاً فى ظل الخطاطة حتى لو خرجت كل النسخ من تحت يد خطاط واحد!

ولعل أخطر آثار الطباعة هى الإنتاج بالجملة. ومهما كان عدد النسخ قليلاً فى الطبعة الواحدة فى العقود الأولى للطباعة؛ فإنها كانت أكثر مما كان يستطيع النساخون إخراجه، سواءً فى ذلك أكان نسخة بنسخة أو عدداً من النسخ، مع استخدام عدد من النساخين فى وقت واحد. ولهذا عرف الناس قيمة الطباعة بسرعة.

وننقل هنا ما قاله أسقف أليريا الكاردينال «جوان أندريا دى بوس» حين كتب إلى البابا «بول الثانى» سنة ١٤٦٨ : «لقد أعطى الله العالم المسيحى نعمة تساعد حتى الفقير على امتلاك الكتب. . ». لقد انخفضت أسعار الكتب ٨٠٪، وانقسم معاصرو الطباعة إلى فريقين فريق يمجد فوائدها، وفريق يحذر من مخاطر طوفان الكتب التى تخرجها المطابع. وسوف أنقل من هنا وهناك تعليقات مختلفة لتصوير ما كان يشعر به الناس فى القرن الخامس عشر والسادس عشر إزاء الكتب والقراءة. وسوف نرتحل بعيداً عن العبارات الحماسية التى قالها الكاردينال بوسيه أو غليوم فيشبه اللذين قارنا، فى معرض حديثهما عند دخول الطباعة فى باريس، الفن الجديد بالشمس التى تشع بنورها إلى التعليق الساخر الذى قاله ريبيله من أن الطباعة سوف تؤثر على الأخلاق والدين وعلى العلم نفسه. ومهما يكن من أمر فقد كان نجاح الطباعة أمراً ساحقاً بعد فترة الاختبار التى انتهت حوالى سنة ١٤٦٠. أما تأثير الاختراع وانتشار الطباعة على الحضارة الغربية فهو مثار تأويلات عديدة استمرت حتى اليوم.

لقد كان الطريق بين المخطوطات مستمراً متصلاً ولكنه كان متكسراً فى نفس الوقت. وأستطيع الزعم بأن كل الاكتشافات العظيمة فى العالم - والتى اصطلحنا أن نطلق عليها اسم «الحركات الجديدة» - تصادف نفس العناصر المتضادة المتناقضة: الاستمرارية، والتحفظ. هذه الظاهرة واجهت الحركة الإنسانية، حركة النهضة الأوربية، حركة القومية، حركة الرأسمالية، حركة الإصلاح، حركة الشيوعية، تحطيم الذرة، غزو الفضاء. . . كذلك فإن الاستمرارية والتحفظ لازما حركة التنوير التى جاءت بها الطباعة؛ بما يتطلب منا أن ننظر فيما بعد وفيما قبل هذه الحركة فى عملية مكوكية التغيرات الأساسية التى فصلت وميزت عالم المخطوطات عن عالم المطبوعات.

لقد كان القرن الخامس عشر ـ فيما يقول «أ. ف جاكوب» ـ «مزيجًا من القديم والجديد إلى درجة شديدة التعقيد».

ولقد كان هناك قبل الطباعة تحولان فى عالم الكتاب: تحول شكل الكتاب من اللفافة إلى الكراس، وثم الرق إلى الورق. وفى كتابنا «الكتب والمكتبات فى العصور القديمة» أثبتنا أن التحول من اللفافة إلى الكراس تم فيما بين القرنين الأول والخامس الميلادى. لقد كمن شكل الكراس فى أسلافه: ألواح الخشب وألواح العاج. وتغلب الرق على البردى لأسباب عديدة، منها: المتانة وقوة التحمل، بالرغم من أن البردى كان مادة الكتابة الأساسية في الحضارة القديمة (المصرية ـ اليونانية ـ الرومانية)، كما أن الرق كان يناسب الشكل الجديد أكثر من البردى. ولقد استمر شكل اللفافة سائدًا فى بعض الاستخدامات ـ مثل الوثائق والأمور القانونية والدينية ـ التى لاتقبل التغيير والتحول بسهولة. ومازال استخدام اللفافات قائمًا حتى اليوم فى بعض الأمور الدينية اليهودية، وذلك رمزاً للتمسك بالقديم على الرغم من مرور ١٥٠٠ سنة على هذا التحول.

ولم يكن التحول من الرق إلى الورق بأقل أهمية من التحول إلى شكل الكراس. لقد خرج الورق من الصين واتجه غربًا إلى العالم الإسلامى فى الشرق الأوسط، ثم إلى شمال إفريقيا، ثم عبر إلى أوربا عن طريق تونس والأندلس كما شرحت ذلك فى كتابى عن «الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى». وقد صنع الورق ـ أول ماصنع ـ على الأرض الأوربية فى إسبانيا، حيث أدخله العرب هناك حوالى ١١٠٠م. وقد بدأ استخدامه على استحياء وتردد، ثم لم يلبث بعد ذلك أن انتشر فى الدول الأوربية المختلفة، إذ دخل إلى إيطاليا فى القرن الثالث عشر، ثم إلى فرنسا وألمانيا فى القرن الرابع عشر، وإنجلترا فى نهاية القرن الخامس عشر. وكلما انتشر استخدام الورق كلما تقلص استخدام الرق. وقد كان الإيقاع بطيئًا فى البداية، ثم أسرع الخطى بعد ذلك اعتباراً من القرن الرابع عشر فصاعدًا. ولقد كسب الورق المعركة فى الوقت الذى ازدهرت فيه الطباعة بسبب المميزات الكثيرة الموجودة فى المادة الجديدة؛ حيث ناسبت الطباعة أكثر من الرق؛ إذ الورق أكثر ليونة مع الآلة من الرق، كما أنه يتشرب الحبر

(1) Rudolf Hinsch. Printing, Selling and Reading, 1450 - 1550 .- Wiesbaden: Otto Hassassowitz, 1967. 165p. 24 cm.

أسرع وأفضل منه، ويمكن تصنيعه بكميات ضخمة بسرعة حسب الطلب وبأسعار أرخص. . في حين نعجز عن تصنيع نفس الكميات الكبيرة من الرقوق لأن ذلك مرتبط بالماشية التي تذبح للحمها. والورق كان أرخص وأسعاره تتناقص باتِّئاد مع زيادة الإنتاج. ولم يختف الرق بطبيعة الحال مرة واحدة، فقد استمر النساخ والطابعون في استخدامه لأغراض محدودة: دينية واجتماعية حيث، استمر استخدامه في كتب الشعائر وصكوك الغفران، ونسخ جماعي الكتب وأثرياء القوم، ونسخ الإهداء. وربما استمر ذلك حتى القرن التاسع عشر.

لقد انتشرت الطباعة بسرعة أكبر من سرعة التحول نحو الكراس والورق وتطورت فنيًّا واقتصاديًّا وفكريًّا أكثر وأسرع منهما؛ ففي خلال قرن واحد امتدت آثار الطباعة طولاً وعرضًا وعمقًا. . فالكتاب العادي في سنة ١٥٥٠م لم يكن بجاذبية الكتاب المقدس ذي الاثنين والأربعين سطرًا، ولكنه من الناحية التكنولوجية كان أكثر تطوراً، وخرجت من المطابع طبعات في خمسة آلاف نسخة، وزادت سرعة الإنتاج زيادة واضحة.

ولم تقتصر طباعة الكتب على اللاتينية والألمانية وحدهما، بل تعدت ذلك إلى اللغات المحلية الأوربية وإلى اللغة اليونانية والسلافية والعبرية والعربية وغيرهما من اللغات الشرقية. لقد طبعت النوتات الموسيقية بالحروف المتحركة في تلك الفترة الباكرة، بل وشهدت تلك الفترة الطباعة الملونة بعدة ألوان. ولقد ابتكر الطابعون صفحة العنوان في المطبوعات حيث لم يكن ذلك موجودًا في المخطوطات. وطبع الطابعون آنذاك الخرائط والكرات الأرضية، وصنعوا الأغلفة الورقية. وشهدت تلك الفترة العلامات المائية في الورق. لقد وضع هؤلاء الطابعون نظامًا دقيقًا ليس فقط لإنتاج ملايين النسخ من الكتب؛ بل كذلك لتوزيعها وتسويقها. لقد انتشرت الطباعة خلال مائة سنة أفقيًّا ورأسيًّا، وتطور تصميم الحرف، وصف الحروف وإنتاج الإيضاحيات، وتحسن إنتاج الورق. . بل وارتفعت مستويات الكتب التي تطبع وتطورت معايير اختيارها بما يعكس أذواق دائرة القراء الجدد. ولم تختف المخطوطات خلال المائة سنة الأولى للطباعة، بل استمرت في الوجود بعد ذلك لفترة ولم تختف إلا بالتدريج.

وخلال أكثر من ألف وخمسمائة عام لم تشهد البشرية في عالم الكتاب سوى ثلاثة تحولات كبرى في إعداد وتمثيل النصوص. ولم تكن الكتب في وقت من

الأوقات تنتج فى فراغ ولكنها كانت استجابة لحاجات القراء. وكان كل تحول يعكس ويؤثر فى المنتج والقارئ على السواء وخاصة إذا ارتبط التحول بأحداث تاريخية هامة كانت فى حالة الكراس انتشار المسيحية وانهيار الإمبراطورية الرومانية وفى حالة الكتاب المطبوع كان الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة. ولقد جاء التقبل السريع للكتاب المطبوع مناقضاً تماماً للتطور البطىء للكتاب منذ العصور القديمة حتى اختراع الطباعة.

لقد كانت الطباعة بكتل الخشب هى حلقة الوصل بين الخطاطة والطباعة بالحروف المتحركة فقد استخدمت كتل الخشب فى طباعة صور القديسين وبعض مناظر من الكتاب المقدس، وخاصة من حياة المسيح وفى أحيان قليلة كانت تستخدم فى طباعة بعض المناظر والنصوص العلمانية. ولقد قدر «و. ل. شرايبر» أن مطبوعات الكتل الخشبية هذه كانت تطبع بنسخ تتراوح بين ٢٠٠ - ٣٠٠ نسخة فى الطبعة الواحدة، وهى أرقام تتواكب مع نفس أرقام أوائل المطبوعات بالحروف المتحركة. وكانت مطبوعات الكتل الخشبية هذه تباع بين قوافل الحجيج، وأمام الكنائس وفى الأسواق والمعارض وأحياناً من منزل إلى منزل عن طريق الباعة الجائلين. والحقيقة أن مطبوعات الكتل الخشبية هذه كان لها رواج كبير بين الناس وسوق أكبر من سوق المخطوطات سواء كان الدافع إلى ذلك هو التقوى أو الخوف أو مجرد الرغبة فى اقتناء صورة جميلة. وكانت بساطة التصميم فى صور الكتل الخشبية - وأيضاً فى كتب الصور الأول وخاصة تلك التى أنتجها «بفستر» فى بامبرج - تجذب الناس البسطاء وتروق لهم ومن ثم أقبلوا على اقتنائها وكان من بين هؤلاء الناس أميون وشبه أميين. وفكرة طبع صور كبيرة مصحوبة بنص قصير (بدلاً من نص كبير تصحبه إيضاحيات تفسره) يفسرها ويشرحها تفترض وجود مشترين ذوى قدرة محدودة على القراءة. لقد وجدت الصور المرسومة بخط اليد منذ القرن الثالث عشر على الأقل، ولكن إنتاج تلك الصور ميكانيكياً بكميات كبيرة لهو دليل على وجود الرغبة والقدرة على إنفاق مبالغ صغيرة من المال لشراء مثل هذه الأشياء التى يرغبون فى اقتنائها. إن وجود سوق كبيرة كان مسألة ضرورية لنجاح طباعة الكتل الخشبية (زيلوجرافيا) ونجاح الطباعة

بالحروف المتحركة (تيبوجرافيا). ومن الطريف أن طبع وتوزيع صور الكتل الخشبية وكتب الصور كان أوسع انتشاراً فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة (بيزنطة) منه فى إيطاليا وفرنسا على سبيل المثال. وانتشار هذه المطبوعات هناك يحتاج إلى تفسير: فلم تكن الصور مجرد زخارف أو وسيلة لجذب القراء ولكنها كانت أيضاً أداة هامة لفهم النص، ويستتبع ذلك بالضرورة أن هذه الصور وخاصة التى توضح النصوص المكتوبة باللغات المحلية كانت ترسم وتوجه أساساً إلى الأشخاص الذين كانت قدرتهم على القراءة والاستيعاب محدودة. وهناك من يقول بأن صور الكتل الخشبية المصحوبة بنصوص، ونصوص الكتل الخشبية المصحوبة بصور كانت تستهدف أساساً أشباه الأميين وأنصاف المتعلمين وأن هؤلاء بطيئى القراءة كانوا دائماً على استعداد لاقتنائها فى ألمانيا وهولندا على وجه الخصوص قبل أى بلد آخر. ولقد كان هذا الاستعداد لشراء عدد كبير من تلك المطبوعات ذات الأسعار المعقولة والمنتجة ميكانيكياً موجوداً فى أنحاء مختلفة من أوربا مما أدى إلى انتشار تلك المطبوعات والإقبال عليها فى عموم أنحاء أوربا.

وكان التعليم قد بدأ ينتشر فى تلك الفترة التى شهدت نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث. وسوف نعرض فى فصل تالٍ للخلاف حول اختراع الطباعة، ذلك أن هناك من يقول بأنه تم فى هولندا قبْل ألمانيا وعلى يد «لورنز كوستر» الهولندى وليس «يوحنا جوتنبرج» الألمانى. ولدينا أيضا وثائق تقول بأن بروكوبيوس والدفوجيل ـ الصائغ فى براغ ـ اشترك ١٤٤٤ ـ ١٤٤٦ فى أفجنون مع صانع ساعات ومع صانع أقفال فى تيريير ومع قاضٍ شاب من جاسكون، اشتركوا جميعاً فى اختراع طريقة للكتابة الميكانيكية. ويقرر «ف. أ. شميت» ـ كونز ميللر بوضوح وإقناع أن إمكانيات الطباعة الميكانيكية كانت موجودة قبل القرن الخامس عشر فى أوربا. وكانت موزعة بين أكثر من صناعة وكانت مهارة المخترع أنه جمع شتاتها من تلك الصناعات وخرج منها بذلك الاختراع الجديد، وهو الطباعة المتحركة.

لقد كان اختيار النصوص وطريقة الطبع فى المراحل الأولى للطباعة يتم بنفس الأسلوب الذى كان متبعاً فى عصر الخطاطة، فكلاهما كان يتألف من ملازم وفى

حالة تمييز الملازم كان يستخدم علامات من حروف ونادراً ما كانت الأرقام تستخدم لترقيم الملازم. وكان الهدف من عملية وضع علامات الملازم هو تسهيل تتابع النص وسهولة ترتيب الملازم عند التجليد الترتيب الصحيح. ولقد أمكن تتبع علامات الملازم هذه حتى القرن الثامن الميلادى حيث كانت تستخدم التعقيبات بدلاً من الحروف لتمييز الملازم ـ وقد استخدمت فيما بعد للأوراق وليست فقط للملازم ـ وكان استخدام التعقيبات فى الكتاب المطبوع نادراً وأكثر منها استخدام علامات الملازم بالحروف الهجائية. ثم أعقب ذلك طريقة أكثر تقدماً ـ وإن كانت قديمة ـ لتأمين سهولة ترتيب النص وهى ترقيم الأوراق. وكانت قد استخدمت فى ترقيم الدروج فى ورق البردى. وكان ترقيم الأوراق من الظواهر المستخدمة فى كتب العصور القديمة ولكنها انقطعت أو نسيت فترة طويلة لعدة قرون إلى أن تم استئنافها من جديد فى القرن الثامن أو التاسع، وكانت تستخدم من حين لآخر فى القرن الثالث عشر بطريقة غير منتظمة إلى أن انتظمت بعد ذلك القرن، وأصبحت ممارسة قياسية فى كتب القرن السادس عشر إلى أن استبدلت بترقيم الصفحات عوضاً عن ترقيم الأوراق. لقد بدأ ترقيم الصفحات فى إنجلترا فى القرن الثالث عشر وشق طريقه ببطء من هناك إلى قارة أوربا حيث استخدم فقط فى الأجزاء الشمالية منها مع قليل من الاستثناء. كما استخدم فى جنوب ووسط القارة فيما بعد واستخدم فى وادى الراين الأعلى. وكان أول ظهور الترقيم بالصفحات فى كتاب مطبوع كان فى كولون فى كتاب «**أوراق معاصرة**» للكاتب رولفنك[1] الذى نشر حوالى ١٤٧٣ - ١٤٧٤م. وهو أحد مظاهر تأثير المخطوطات على المطبوعات فى مكان معين. وقد يكون من المستغرب أن إدراك قيمة الترقيم بالأوراق أو الصفحات أو حتى التكشيف الهجائى قد جاء متأخراً ولكن أسباب ذلك كثيرة منها أن المخطوط كان فريداً فى كل نسخة من نسخه وأنه كان يخدم فرداً واحداً أو أفراداً قليلين، بينما الكتاب المطبوع كانت كل نسخه متطابقة ويخدم أفراداً كثيرين ربما أكثر من عدد النسخ ومن هنا فإن تيسير الوصول إلى المحتويات يصبح أمراً ملحاً وكذلك كان من الضرورى ترقيم الأوراق أو الصفحات وإعداد قوائم محتويات وكشافات لهذه الكتب. وفى حالة

(1) Rolewinck: Fasciculus tempaqsum L. no. 6917 in L. Hain. Repertorium bibliographicum.- Stutgart, 1826 - 1838.

المخطوطات يكون الاستشهاد بالصفحة أو الورقة أو الفصل عبثاً لا طائل من ورائه لعدم تطابق النسخ. لقد تطور الاستشهاد وأصبح أمراً دقيقاً وعلمياً بعد دخول الطباعة وتوحيد النسخ وترقيم الصفحات أو الأوراق ووجود بيانات ببليوجرافية تحدد هوية كل كتاب وتصبح الإشارة إلى كتاب معين من طبعة معينة وبصفحة محددة مسألة يمكن الإمساك بها ومراجعتها. وقد بدأت الاستشهادات تتخذ محلاً لها أولاً داخل النص نفسه ثم فى الهوامش، وأخيراً استقرت فى الحواشى - أى الهامش السفلى.

لقد كان النساخون محكومين حتماً بالتقاليد ولم يكن ينتقصهم الخيال أو الإبداع ولم يكونوا فى الواقع ينسخون اعتباطاً أو بدون تفكير - حتى ولو كان كثير منهم مسئولين عن أخطاء نسخ سخيفة وغبية - فالنساخون الذين أعادوا استخدام ترقيم أبيات الشعر الفردية فى القرن الثالث عشر بعد أن نسيت فترة طويلة بعد توقف استخدام البردى (كما فى ترقيم الأوراق)، هم من النساخين المبدعين، إبداع «الدوس مانيتوس» الذى استخدمها فى مطبوعاته سنة ١٤٩٩ وفاخر بها فى مقدمه طبعته لكتاب بروتوس. وهذا أيضاً نوع من الفارق بين الناسخ والطابع حيث الناسخ نادراً ما كان يفاخر بإنجازاته بينما الطابع يملأ الدنيا صياحاً حولها. لقد تغير أسلوب الكتابة وشكل الحروف بالتدريج فى المخطوطات وسار الخط القديم والخط الجديد معاً جنباً إلى جنب لفترات طويلة، وعلى سبيل المثال تداخل الخطان الكارولنجى والغوطى المبكر لمدة مائة سنة من القرن الثانى عشر وحتى القرن الثالث عشر. أما خط «القديم»[1] الذى ابتدعه الإنسيون لاستخدامهم الخاص. ولقد تم تبنى الكتابة الإنسية بسرعة غريبة فى إيطاليا لكتابة النصوص الكلاسيكية والإنسية ولكنها لم تتقدم فيما وراء الألب. لقد خلقت الطباعة ظروفاً من خلالها تستطيع مطبعة واحدة ذات إنتاج غزير نسبياً وتداول واسع أن تحدث تأثيراً عظيماً بين الجموع، ولكن المطابع استخدمت أنواعاً مختلفة من الخطوط سارت جميعاً جنباً إلى جنب فترات طويلة. لقد أحدث الخط المائل

(1) Antiqua.

الذى ابتدعه «الدوس مانيتوس» سنة ١٥٠١ تأثيراً كبيراً فى طباعة النصوص الكلاسيكية والإنسية فى كل أنحاء أوربا رغم أنه لم يحل محل استخدام الحرف الرومانى. لقد قام الطابعون الأوائل بتشكيل حروفهم على نفس النمط الذى وجدوا عليه خط اليد فى المخطوطات فى منطقتهم. ولكن بعد فترة من الزمن لم تعد الحروف الطباعية تتقيد بخط اليد وخصائصه فى منطقتها، وبدأ توحيد شكل الحرف فى المطابع الأوربية جميعا بالتدريج وعلى استحياء، إلى أن اختفت الخصائص والسمات المحلية تماماً.

حتى المصممون الذين كانوا يصممون صور الكتل الخشبية لم يكونوا بمنأى عن الأساليب المحلية الموجودة فى مخطوطاتهم، رغم أن ذلك لم يمنع استخدام تلك الكتل الخشبية وإعادة استخدام الصور المحلية فى مناطق بعيدة. ولم يأبه الأشخاص الذين يشترون الكتب ما إذا كانت الصور جديدة أو قديمة محلية أو غير محلية طالما أنهم لم يجدوا صعوبة فى قراءة النص وتفسير وفهم الصور وطالما أنهم كانوا يستمتعون بها. ولا أعتقد أن الكبرياء المحلى أو الوطنى فى تلك الفترة ـ إن كان موجوداً ـ كان يؤثر فى اختيار نوع الحرف أو شكل صور الكتل الخشبية.

والحقيقة أن الخصائص الفيزيقية ـ أى المادية ـ للمخطوطات والكتب المطبوعة على السواء تتخذ دليلاً وقرينة حية على الظروف الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى عصرها، وأى تفسير يبنى على الشكل المادى للكتب هو فى أغلب الأحيان تفسير موضوعى، على العكس من القضايا المتعلقة بالجوانب الاقتصادية والقانونية والفكرية للطباعة وحيث تكون القرائن مرتبطة بالظروف والتفسيرات التى نخرج بها غالباً ما تكون ذاتية وغامضة. وحيث لايمكن تمثيل مشاكل التأليف وانتقال النصوص واللغة والأسلوب والتعلم والتحولات الاقتصادية فى إنتاج وتوزيع الكتب وتطور القواعد التشريعية والتنظيمية والآثار الاجتماعية الفكرية للكتابة والطباعة إلا عن طريق أمثلة ونماذج متفرقة ومنعزلة ولاتمثل سياقاً متصلاً.

ولكى نصل إلى نتائج صلبة وأحكام تاريخية صحيحة فإننا يجب أن نتقدم

بحذر وحيطة. فالمعلومات عن انتشار الكتابة والقراءة فى القرن الخامس عشر والسادس عشر على سبيل المثال محدودة للغاية ولابد من تدعيمها بتحليل المحتوى الموضوعى لكل الإنتاج الفكرى، وهو أمر فى حد ذاته بالغ الصعوبة ويحتاج إلى فرق عمل كثيرة. وهذا الأمر هو فى حد ذاته يقدم قرينة مرتبطة بالظروف والبيئة عن تكوين مجتمع القراء. فكتاب عن الطهى[١] يعاد طبعه أكثر من ثمانى مرات فى القرن الخامس عشر لابد وأن يكون قد استعمل بواسطة الناس المهتمين بإعداد الطعام. وكتاب عن سلوك البنات الصغيرات[٢] يطبع عدة مرات ١٤٨٥/ ١٤٩٠ ـ ١٤٩٧ لابد وأن يكون له رواج كبير بين الآنسات فى ذلك القرن.

لقد كانت العصور الوسطى فترة المؤلف المجهول والناسخ المجهول والفنان المجهول والتى أنتجت لنا بالتالى كتباً مجهولة المؤلف مجهولة الناسخ مجهولة الفنان فى الأعم الأغلب. لقد فشلوا فى التعريف بأنفسهم فى كثير من الأحيان (على الأقل فيما وصلنا من نماذج)، ورغم أن الفخر بإنجاز المؤلف أو الناسخ نجده أحياناً فى مقدمات الكتب أو نهاية النص وحرد المتن. وفى الحالات التى نجد فيها المؤلف أو الناسخ أو الفنان فإننا نجد أن كلاً منهم ينظر إلى نفسه على أنه ممثل أو وكيل أو جزء من حركة أو قضية وليس كفرد مبدع. ولم يكن القارئ الذى يشترى المخطوط أو يقرؤه يحفل كثيراً بالمؤلف أو يتحقق من ذاتية الناسخ أو الفنان. ولقد ضرب لنا «رودلف هيرش» مثالاً صارخاً على غموض بيان المؤلف والناسخ والفنان فى مخطوطات العصور الوسطى من كتاب عنوانه **«عظات بونافنتورية»** والذى يحتمل التأويلات الآتية:

أ ـ عظات وضعها القديس «بونافنتور» من فيدنزا.

ب ـ عظات وضعها كاتب ما يسمى «بونافنتور».

جـ ـ عظات نسخها عضو فى جماعة دينية اسمه بونافنتور.

(1) Kuchenmeistesei: Nünnberg, 1480.
(2) Doctoiral des Filles.- Lyons and Pasis, 1485/ 1490 - 1497.

د ـ عظات نسخها عضو مجهول فى جماعة دينية ينتسب إلى بيت القديس بنافنتور.

هـ ـ عظات يلقيها عضو فى جماعة دينية اسمه بونافنتور وهى ليست من جمعه أو تأليفه.

و ـ مجلد عظات كان مملوكاً فى يوم من الأيام لعضو فى جماعة دينية يسمى «بونافنتور».

ز ـ مجلد عظات كان مملوكاً فى يوم من الآيام لبيت يسمى بونافنتور.

حـ ـ مجلد عظات لعدد من المؤلفين كانت أهمها أو أغلبها من وضع مؤلف اسمه «بونافنتور»؛ وبالتالى وضعت فى المكتبة تحت اسم «بونافنتور».

وهذه الاحتمالات جميعاً لا تدعو إلى اللخبطة وحسب وإنما هى أيضاً مؤشر على فروسية التأليف فى ذلك الزمان، والتى تفتقر إلى التحديد والوضوح الببليوجرافى. لقد حدث التغيير فى اتجاه المؤلف نحو كتابه مع مجىء الحركة الإنسية واختراع الطباعة. لقد فطن الطابع ـ الموزع والناشر ـ الموزع إلى أهمية المؤلف، لأنه بالنسبة له كان عنصراً هاماً من عناصر تسويق الكتاب ولذلك أظهره على صفحة العنوان وفى إعلاناته عن الكتاب. حقاً إن الطباعة فى مرحلتها الأولى لم تحفز المؤلفين على الكتابة ولكن المؤلفين أنفسهم سرعان ما أدركوا أهمية مخاطبة الجمهور الواسع من خلال المطابع. ونجد أول إشارة إلى تلك الحقيقة وإلى أهمية استخدام المطبعة فى الوصول إلى جمهور أكبر فى العظة التى قدمها «فيرنر رولفنك» والمطبوعة فى كولون سنة ١٤٧٠ حيث يقول:

«لم أجد طريقة أسهل لتوصيل هذه العظة إلى عدد كبير من الناس، سوى أن آمر بطبعها بنسخ كثيرة».

لقد كان مفهوم الملكية الفكرية أو اهتمام المؤلف بحقوقه فى كتبه معروفاً فى روما القديمة ولكنه لم يطبعه فى العصور الوسيطة. وكانت أول إشارة إلى حق للمؤلف أو امتياز له تلك التى ظهرت فى أعمال «بترارك» الذى أصر فى خطاباته

أنه هو الوحيد الذى له حق منح أو منع نسخ كتبه وهو الوحيد الذى له حق التصديق على صحة النص. ولم يكن هناك فى حدود معرفتى قواعد أو عرف مستقر كما لم يكن هناك قانون يحمى المؤلف من الاعتداء على حقوقه أو يجرم النسخ غير المشروع. وكانت الكنيسة وحدها هى التى تفرض نوعاً من الضبط والتحكم على التعليمات التى تصدرها وعلى نسخ النصوص المقدسة (الكتاب المقدس) وتفسيرها وشرحها وحماية العقيدة المسيحية. ولقد جلبت الطباعة (وخاصة إعادة الطبع) معها مشاكل جديدة لم يعرفها عصر الخطاطة، حيث ساعدت على نشر النصوص الخلافية والجدلية وسرعة انتقالها. ولقد شغل المؤلفون والناشرون بنوع آخر من الضبط وهو طلب الحماية ضد إعادة الطبع وذلك بالحصول على ضمانات وامتيازات ضدها من السلطات المحلية. وأول امتياز معروف لنا فى هذا الصدد صدر من جمهورية البندقية إلى «سابليكو» سنة ١٤٦٨ لحماية كتابه «تاريخ فينيسيا»[١] حتى قبل أن يذهب الكتاب إلى المطبعة وللأسف لم يطبع ذلك الامتياز داخل الكتاب نفسه. أما القوانين الموضوعة خصيصاً لحماية حقوق المؤلفين فإنها لم تصدر إلا عندما أصبحت عملية التأليف مهنة مقبولة اجتماعياً وقانونياً يتكسب المؤلف من ورائها لقمة العيش نتيجة المبيعات والعائد من ورائها وليس من وراء الرعاة والمحسنين وهو ما لم يتحقق قبل القرن السابع عشر ـ الثامن عشر الميلادى.

والحقيقة أن كثيرا من المشكلات الخاصة بعلاقات المثلث: المؤلف ـ الناشر ـ المستهلك بقيت بدون حل تقريباً. وحيثما نجد بعض ملاحظات فى هذا الشأن فإنها مجرد ملاحظات شخصية لا يمكن الركون إليها كثيراً، فقد يصدق قول «هـ. ج. شايتور» الذى قال بأن ذاكرتنا قد ضعفت بسبب الطباعة ولكن يمكن تعديل تلك المقولة بحيث يمكن القول بأن ذاكرتنا كانت لها وظيفة أهم قبل (وليس بعد) الطباعة التى أغرقتنا بوابل من النصوص وأدت إلى توسع هائل فى التعليم. ومن المؤكد أن حشو الذاكرة بالمعرفة قد تناقص مع الزيادة الكبيرة فى النصوص والأدوات المرجعية. وقد اكتشف «شايتور» علاقة وثيقة بين الاستخدام المتزايد

(1) Sabellico. Histosy of Venice, 1468.

للنشر فى الأدب وزيادة رقعة التعليم. ويمكن بنفس الطريقة أن نستنتج من الاختفاء التدريجى للحوليات الشعرية المقفاة خلال المائة سنة الأولى للطباعة وظهور أعداد كبيرة من الحوليات المنثورة والتواريخ الشعبية والقصص التاريخية النثرية وطبعتها، نستنتج امتداد القراءة إلى طبقات جديدة من الناس. ويمكن كذلك أن نستنتج أن هذه التغيرات فى الكتابة التاريخية نتجت عن تطور وقبول مدخل تحليلى إلى الماضى.

ويرى البعض أن الطباعة قد ساهمت فى توحيد اللغة والخط فى كثير من الدول الأوربية وخير مثال على ذلك ألمانيا. ولا يجادل أحد فى أن الطباعة قد ضاعفت عدد الكتب الصادرة وعدد النسخ ووصلت إلى أعداد غفيرة من القراء وفى ظل هذه الظروف لابد وأن تؤثر الطباعة فى الأسلوب والنحو وقواعد الإملاء والهجاء. لقد بدأ كثير من التغيرات فى الأسلوب واللغة خلال عصر الخطاطة ولكنها دخلت منعطفاً خطيراً مع دخول الطباعة وانتشارها. كذلك أدرك المؤلفون والمحررون والمترجمون والناشرون ضرورة جعل كتبهم ومادتهم العلمية شيقة وجذابة ومفهومة من جانب العدد الأكبر من القراء.

وعندما ينتقد البعض فى كتاباتهم نظام التعليم فى العصور الوسطى على نحو ما فعل الإنسيون والإصلاحيون، وعندما يهاجمون المستوى المتدنى للمدارس ووجود أعداداً ضخمة من الأميين فهل كانوا يقررون حقيقة واقعة أم كانوا يبالغون ويزعمون لغرض ما فى نفوسهم. عندما وصف «مارتن لوثر» الجامعات ومدارس الأديرة سنة ١٥٢٤م بأنها «اصطبلات للحمير»، وأنها «مدارس الشيطان» فهل كان محقاً فى ذلك أم أنه كان يسعى إلى كسب تأييد مجالس المدن لمدارسه الجيدة.

لقد كانت أهم الأحداث التى أدت إلى تقدم التعليم فى نهاية العصور القديمة وبداية العصور الحديثة فى رأينا هى:

١ ـ بعث البحث العلمى وإحياؤه على يد كثير من الجماعات مثل الإنسيين، وإخوان الحياة العامة، والإصلاحات التى أدخلت على كثير من الأديرة

وخاصة فى كونستانس وبازل، وانتشار التقوى الجديدة وخاصة بين الطبقات الدنيا والتى أدت إلى بعث رغبتهم فى القراءة بأنفسهم أجزاء من الكتاب المقدس وكتب التكريس.

٢ ـ التحسن الكبير الذى دخل على طرق المواصلات، والزيادة الكبيرة فى ثروات الطبقة الوسطى والزيادة التدريجية فى عدد المدارس الابتدائية والعالية خارج سلطة الكنيسة.

٣ ـ إنشاء جامعات جديدة لتعليم أشخاص لم يكن همهم الأول الاشتغال كقساوسة أو الاشتغال بمهنة معينة (اشتغل بعض هؤلاء طابعين فيما بعد).

٤ ـ نشر كثير من المخطوطات رخيصة الثمن والفضل يرجع فى ذلك إلى المناسخ التجارية التى تعمل ليس من أجل الصفوة التى تقرأ باللاتينية وإنما فقط من أجل هؤلاء الذين يقرأون ويكتبون ويتحدثون لغتهم الوطنية وحدها.

وتكشف النسخ التى وصلتنا من مخطوطات القرن الخامس عشر عن حجم إنتاج كبير وخاصة إذا أضفنا إلى ما وصلنا عدد آخر كبير لم يصلنا بسبب الضياع والتدمير والاستهلاك وإعادة الاستخدام فى جلود كتب أخرى وما إلى ذلك. ونستطيع أن نقرر هنا بشىء من الاطمئنان فئات الكتب التى كانت أسرع إلى الاختفاء من غيرها:

١ ـ الكتب الرخيصة بصفة عامة.

٢ ـ الكتب الصغيرة بصفة عامة.

٣ ـ كتب التدبير المنزلى مثل كتب الطهى وأدلة إعداد الأنبذة والخل وغيرها.

٤ ـ الكتب العلمية وشبه العلمية كالتقاويم والوصفات الطبية وكتب تفسير الأحلام وكتب الأسرار.

٥ ـ الكتب التكنولوجية مثل كيفية تقوية الحديد، الكتابة بالحبر السرى.

٦ ـ الكتب الطبية مثل كتب الأدوية ضد الأوبئة والأعشاب الطبية واستخداماتها.

٧ ـ الكتب المدرسية مثل كتب مبادئ القراءة والحساب وقواعد اللغة.

٨ ـ كتب الأدب الشعبى.

٩ ـ كتب الصلوات الخاصة والأساطير الشعبية.

١٠ ـ كتب الهرطقة أو التى حكم بهرطقتها، والكتب الموجهة ضد السلطة المدنية.

١١ ـ النشرات الإخبارية.

١٢ ـ أدلة إدارة الأعمال مثل كتب الحساب التجارى، الخطابات التجارية وغيرها.

وعلى العكس من المخطوطات كانت الكتب المطبوعة تصدر بكميات وفيرة من النسخ وذلك للتقليل من مخاطر الاختفاء الكامل، ويصدق هذا أكثر ما يصدق على كتب القرن الخامس عشر التى تم جمعها وخزنها لفترات طويلة لدرجة أن الفقد كان محدوداً حتى بين أوائل المطبوعات (بما فيها الملازم المفردة واللوحات) والتى يقدر الفاقد من بينها بين ١٠٪ و٢٥٪، ونفس النسبة تقريباً بين مطبوعات القرن السادس عشر، بينما كانت النسبة فى المخطوطات أعلى بكثير، وربما كان ما فقد منها يفوق أضعاف ما وصلنا منها. ومن المشاكل المتعلقة بحصر الفاقد من المخطوطات أن سجلاتنا عنها مليئة بالفجوات بينما سجلاتنا عن المطبوعات كاملة، والفضل فى هذا يرجع للببليوجرافيين العظماء من أمثال «كونرا» و«جزنر» بحيث نستطيع الحكم من سجلات الكتب المطبوعة على نوع القراء وأذواقهم فى القرن الخامس عشر.

ولما لم تكن الطباعة مجرد فن أو حرفة بل أيضاً تجارة فإنها كانت محاطة بالعديد من المشاكل الاقتصادية والقانونية، وبعض هذه المشاكل كانت موجودة فى عصر الخطاطة، ولكن اشتدت حدتها مع الإنتاج الكبير بالجملة. وتجارة الكتب من أحسن الأمثلة على ذلك؛ ذلك أن متاجر الكتب فى عصر الخطاطة كانت موجودة فقط فى مراكز النسخ والتى كان عددها محدوداً. وكانت تجارة المخطوطات يقوم بها عادة تاجر يتجر فى بضائع أخرى متعددة أى أنه لم يكن ليقتصر على بيع المخطوطات وحدها؛ ولم تكن غالباً همه الأكبر. أما فى نهاية القرن الخامس عشر عندما أصبح حجم هذه التجارة كبيرا يبرر استقلالها بذاتها،

فقد ظهر متجر الكتب بالمعنى الذى نعرفه عليه اليوم. وقد بدأ أولاً كفرع فى دار الطباعة أو دار النشر.

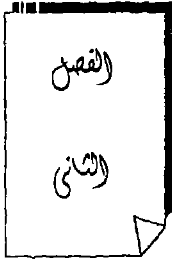
والرقابة كقضية قانونية أو سياسية لها تاريخ طويل. لقد كانت الكتب قضية مصيرية بالنسبة لمؤلفيها ومالكيها على الدوام قبل اختراع الطباعة. ولكن طالما لم يكن اهتمام الكنيسة أو الحكومة المدنية منصباً أساساً على كتابة وقراءة كتب الهرطقة والكتب والنشرات المعادية ولكن بنشر وبث الأفكار السامة الخطرة بين دائرة أوسع من القراء، فإن المشكلة كان من السهل تطويقها لأن الكتب كانت تنسخ بخط اليد وببطء. ولما بدأت الكتب تنشر وتطبع بنسخ كثيرة ويتم تداولها بين دائرة واسعة من القراء، هنا أصبحت المشكلة أكبر وتستدعى اتخاذ خطوات أوسع للتحكم والسيطرة على النصوص التى تنشر. ومن المعروف أن الكنيسة كانت تصدر قائمة بالكتب الممنوع تداولها بين حين وآخر.

لقد جلبت الطباعة معها مشاكل جديدة، ذلك أنها منذ البداية كانت مشروعات استثمارية رأسمالية، كانت تتطلب فى كل الأحوال حتى فى المطابع الصغيرة استثمار أموال كبيرة نسبياً فى العتاد والمواد. ولقد تطورت هذه الصناعة خارج سيطرة النقابات ومن هنا كانت متحررة من القيود بعيدة عن الحماية. وهى تشبه فى هذه النشأة صناعة الورق التى أخذت فى الازدهار قبل دخول الصناعة، غير أن هذه الصناعة الأخيرة - أى صناعة الورق - كانت تحتاج إلى رأسمال أكبر، لأنها تحتاج إلى مبانٍ ذات مساحات أوسع وتجهيزات أكثر بينما المطبعة يكفيها مكان صغير.

لقد كانت ملكية الكتب فى أوربا فى عصر المخطوطات ملكية مؤسسات (المكتبات بالدرجة الأولى) ولم تكن ملكية فردية وإن كانت هذه الأخيرة موجودة بصورة ما. ولكن اعتباراً من القرن الثالث عشر وحتى الخامس عشر حدث تحول تدريجى طفيف. ومع دخول الطباعة تعمق هذا التحول بحث لم تأت سبعينات

القرن الخامس عشر حتى انقلب الوضع، فأصبحت الملكية الفردية للكتب تفوق الملكية المؤسسية. ويبدو أنه فى عصرنا الراهن ـ نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين ـ سوف تنقلب الآية مرة أخرى فتعود الكتب ملكية مؤسسات أكثر منها ملكية أفراد.

* * *



الطباعة والطابعون

ليس معروفاً لدينا على وجه اليقين ـ كما سنرى فى فصول تالية ـ أين اخترعت الطباعة ومن اخترعها ومتى تم هذا الاختراع وما هى طبيعة هذا الاختراع وكيف تم التوصل إليه؟

لقد شغلت هذه القضايا المؤرخين والباحثين أكثر من أربعمائة وخمسين عاماً شأن الطباعة فى هذا شأن كل الاكتشافات التكنولوجية، حيث الظروف والتفاصيل الأولى للتطور غالباً ما تكون غامضة وغير واضحة وغير مؤكدة. واعتباراً من ١٦٤٠م بدأ العالم يحتفل بمئويات اختراع الطباعة بما يعنى أن ذلك الاختراع ظهر إلى حيز الوجود سنة ١٤٤٠م. وليست لدى مشكلة شخصية مع هذا التاريخ إلا أننى أؤكد أنه ليس هناك أى سند أو قرينة تاريخية مؤكدة تدعمه وترسخه. لقد قام «جوتفريد زدلر» بتجميع وترتيب الإنتاج الباكر للمطابع بين سنة ١٤٤٥ و١٤٥٥، واكتشف أن تحديد تواريخ الطباعة داخل السلسلة بنى على خطأ حيث أن «**التقويم الفلكى**»[1]، الذى قدر له تاريخ ١٤٤٧ لايمكن أن يكون قد طبع إلا سنة ١٤٥٧ كما سنرى فى فصل تال من هذا الكتاب.

كذلك يبدو لى أن البحث حول شخصية المخترع ومعرفة الخطوات السليمة التى أدت إلى حل المشكلات التكنولوجية بنجاح وتاريخ أول تطبيق عملى، سيخرج هو الآخر بنتائج غير يقينية وغير مؤكدة إلا إذا وقعت فى أيدينا وثائق جديدة تنير الطريق على أن تكون وثائق صحيحة. ولايهمنى فى هذا السياق ما إذا كان «يوحنا جوتنبرج» وسنة ١٤٤٠ هما نقطة الانطلاق. وإننا فى هذا المقام نقبل تعريف «شميدت ـ كونزموللر» للطباعة على أنه:

(1) Astronomical Calendar

«تكوين آلة نستطيع استخدامها فى استنساخ أو صب حرف معين فى نسخ معدنية قياسية ومتطابقة، ومركب على جسم يسمح بصف سهل ومركز لهذه الحروف».

لقد كان إعداد وتجهيز نسخ صحيحة ومضبوطة من نفس النص فكرة قديمة موجودة قبل ١٤٤٠، حيث نعرف من وثائق القرن الثالث عشر أن الوراقين فى بولونيا وباريس كانوا مسئولين عن دقة المخطوطات التى تنسخ من الأصول الموجودة لديهم. كما سمعنا عن النسخ عن طريق الإملاء وخاصة النصوص القانونية. ولقد قام الإنسيون بجمع المخطوطات وإعداد نسخ منها لاستخداماتهم واستخدامات أصدقائهم وكانوا يراعون الدقة والصحة فى نسخها. ولابد أن نشير هنا أيضاً إلى نشاط **إخوان الحياة العامة** الذين سجلت نشاطاتهم بكل التقدير فى سجلات الطوائف الدينية والمناسخ التجارية والتى أشادت بدقتهم فى النسخ، وكان النساخون مثل الطابعين يشيرون فى حرد المتن إلى المعاناة التى تكبدوها فى سبيل دقة النسخ وصحته واكتماله.

ولقد أشار كثير من الباحثين وعلى رأسهم «كارل فيمر» و«أرنو شيروكاور» أن إنتاج المخطوطات فى القرن الخامس عشر كان كافياً لسد الطلب آنذاك قبل دخول الطباعة، ولكن على الجانب الآخر من الصورة فإن اتساع رقعة التعليم وازدياد الطلب على الكتب وظروف أخرى هو الذى خلق الضرورة لاختراع وسيلة لإنتاج نسخ الكتب بطريقة أوتوماتيكية. وبمعنى آخر كان القراء من أصحاب الإمكانيات يستطيعون اقتناء كفايتهم من المخطوطات التى تسد حاجتهم. أما هؤلاء الذين لديهم القدرة والوقت لاستنساخ المخطوطات ويستطيعون الوصول إليها فإنهم كانوا يقومون بذلك لأنفسهم. أما هؤلاء الأقل ثراء والذين كان عليهم أن يقضوا الوقت فى كسب العيش فإنهم هم الذين خلقوا الضغوط والظروف التى جعلت أنه من المناسب والمربح إنتاج كميات أكبر من الكتب بأسعار أرخص. وعلى سبيل المثال فإن «فسباسيانو دا بستيش» بائع الكتب الشهير وصاحب المنسخ الكبير فى فلورنسا والذى يعمل له فيه خمسة وأربعون ناسخاً أو أكثر، كان يورق المخطوطات ويعد نسخاً من جميع لكتب التى يحتاجها «كازيمو دى مديتش» وغيره

من جماعى الكتب. وفى نفس الوقت الذى طبع فيه الكتاب المقدس ذى الاثنين والأربعين سطراً (١٤٥٣ ـ ١٤٥٥) كتب «جانوس بانونيوس» إلى صديق له يقول إن من السهل فى فلورنسا أن تحصل على كل الكتب التى تريدها بمجرد أن ترسل ثمنها إلى «فسباسيانو».

وسواء كان الوراق رجلاً متخصصاً فى المخطوطات الفاخرة مثل «فسباسيانو» فى فلورنسا، أو كان رجلاً يعمل بالطريقة التقليدية للعصور الوسطى مثل «بارتولوميو لوبوتو» فى جنوا والذى كان ينتج الكتب المدرسية بأعداد كبيرة من النسخ ككتب دوناثوس، سنيكا، ترينسى وينتج كذلك أعداداً كبيرة من كتب الشعائر الدينية، أو مثل «ديبولد لاوبر» فى هاجيناو الذى كان يتعامل بالدرجة الأولى فى مخطوطات الآداب المحلية وكثير منها مصور وكان ينتجها بالدرجة الأولى للنبلاء ورجال الدين والصفوة والأشراف.. سواء كان الوراق هذا أو ذاك فإنهم جميعاً كانوا ينتجون المخطوطات بأسعار معقولة.

والسؤال الذى يدور حول لماذا اخترعت الطباعة فى هذا الوقت بالذات أى فى منتصف القرن الخامس عشر، لانجد له إجابة شافية لا فى المحيط التكنولوجى ولا فى المحيط الاقتصادى ولا فى المحيط الاجتماعى ولا فى المحيط الفكرى وحده وإنما يجب أن نبحث عن إجابته فى مزيج من هذه العناصر الأربعة. فقد كان من الضرورى توافر الرغبة والميل إلى القراءة لدى قطاع كبير نسبياً من السكان لديهم وقت فراغ وقدرة اقتصادية واستقرار اقتصادى وتقدم حضارى ودرجة من التعليم للحرفيين والصناع حتى نضمن نجاح الاختراع واستمراره. إلى هذا كله لابد وأن نضيف عنصر الصدفة أى ظهور شخص له بصيرة وله قدرة ربما مثل «يوحنا جوتنبرج». وربما يكون قد توافر فى القرون التى سبقت المناخ الفكرى والظروف الاقتصادية والاجتماعية فى مناطق محدودة، ولكن لم تتوافر المعرفة التكنولوجية الكافية ولم يكن التعليم قد انتشر بالدرجة الكافية التى تدعم إنتاج أعداد كبيرة من الكتب عن طريق الطباعة. أضف إلى ذلك أن الورق لم يكن متاحاً بكميات كبيرة تكفى لهذا الإنتاج الكبير من الكتب والنسخ. ولو كانت تلك الحقائق تكفى لقبول تفسير توقيت اختراع الطباعة فى ذلك الوقت فإنها

لاتجعل من المحتوم اختراعها فى أرض الراين. وأعتقد أنه من الخطأ أن نمنطق أو نحاول إيجاد تفسير منطقى لتطورات جاءت أو حدثت نتيجة عدد أو حشد من العوامل والعناصر التى اجتمعت معاً، ولا يمكننا أن نعزل أو نحلل أو نقيس إلا عدداً محدوداً منها. فلو أننا قبلنا وجود الثروة والعلاقات الدولية والحياة الفكرية المزدهرة ووجود الحرفيين الممتازين كعناصر أساسية لهذا الاختراع، فقد كانت هذه الظروف موجودة فى كثير من المدن والحواضر فى أوربا، وربما بدرجة أعلى مما كان عليه الحال فى ماينز نفسها وعلى سبيل المثال فلورنسا وفينسيا وباريس وستراسبورج ونوريبرج. ولماذا إذن لم تدخل الطباعة إلى فلورنسا إلا سنة ١٤٧١ فقط، ولم تدخل إلى باريس إلا سنة ١٤٧٠؟.

إن من المفيد أن نشير إلى العوامل التى تؤكد نجاح الطباعة ولانجادل كثيراً فى الأسباب حول كيف بدأت الطباعة وترسخت فى مكان محدد فى وقت بالذات أو حول لماذا لم تبدأ فى مكان آخر وفى وقت آخر. وأعتقد أن بلاد الراين تجمعت فيها كل العناصر التى تجعل منها أرضاً خصبة لنجاح التجارب المتعلقة بالطباعة وأعني بها : الظروف التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية الملائمة. وطالما اخترعت الطباعة فإن نجاحها كان مضموناً ولايمكن تجنبه، ولكن انتشارها وتطورها المبكر كان يعتمد بالضرورة على وجود الرغبة والقدرة من جانب القراء على امتصاص واستيعاب الإنتاج الصادر من المطابع بكميات كبيرة لدعم وتشجيع الطابعين ورعاتهم الماليين. ومن المفيد أن نفحص إنتاج المطابع فى فترة ما قبل الوفرة التى حدثت فى منتصف ستينات القرن الخامس عشر؛ وهذا يساعدنا فى تحديد جماعات المستهلكين الذين ساعدوا الفن الجديد عن طريق مشترياتهم منه ودعموه. إننا نستطيع أن نتميز الفئات الآتية من الإنتاج الفكرى : الكتب المقدسة وكتب الشعائر الدينية؛ مجموعات القوانين؛ قاموس بالبوس (كاثوليكون)؛ الكتب الدراسية؛ التقاويم، صكوك الغفران، المراسيم البابوية التى تحرض الصليبين ضد الأتراك؛ المنشورات السياسية، الكتب الأدبية ذات المغزى الأخلاقى المكتوبة أساساً بالألمانية. ومن هذه القائمة يمكننا أن نستنتج أن الزبائن فى ذلك الوقت المبكر كانوا رجال الدين، (وكانت الكنيسة طوال العصور الوسطى هى المستهلك الأول للكتب) يليهم المدرسون ثم الطلاب، وفئة غير محددة الملامح

من رجال المدينة. وكانت الكنيسة والحكومات المدنية قد أخذت فعلاً فى استخدام المطبعة لتحقيق أغراضها الخاصة، وقد شكلا معاً قطاعاً عريضاً من سوق الكتاب. وربما كان سكان وادى الراين ذوو الثقافة والظروف الاقتصادية المواتية كانوا أسرع إدراكا لمزايا وإمكانيات الفن الجديد عن غيرهم من سكان المناطق الأخرى. ومع سنة ١٤٦٠ كانت الطباعة فعلاً قد انتشرت فيما وراء الراين وكانت منتجات مطابع ماينز تباع فيما وراء حدود تلك المنطقة.

وطالما أن الطباعة ازدهرت أول ما ازدهرت داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية المقدسة وانتشرت منها إلى الخارج، فقد كان من الطبيعى أن يقوم العديد من المصادر بإطراء ومدح ألمانيا لهذا الاختراع العظيم. وكان من بين هؤلاء الذين أثنوا عليها جماعة الإنسيين الإيطاليين الذين أثنوا بكلمات عطرة على ذلك الألمانى العبقرى الذى اخترع الطباعة. إن هذا الثناء العاطر والكبرياء لاينبغى مع ذلك فى مقام العلم أن يقود إلى مبالغة وطنية أو تحيز وعدم موضوعية من أى نوع كما حدث فى حالات كثيرة. وطالما أن الطباعة اخترعت فى أرض الراين فليس من المدهش أو الغريب أن يكون الطابعون الأول قبل ١٤٧٠ كلهم من أصل ألمانى مع استثناء واحد: «بنارتز» في سوبياكو وروما الذى جاء من براغ وأقام علاقات وطيدة مع سوينهايم. ولقد استمر كذلك الطابعين الألمان خلال سبعينات القرن الخامس عشر فى كل أنحاء أوربا حتى الأطراف البعيدة منها. وبدأت أعدادهم تقل فقط اعتباراً من سنة ١٤٨٠ وخاصة فى إيطاليا؛ ومع مرور الوقت أصبحت صناعة الكتاب فى أيدى الوطنيين من أبناء البلد. وبينما كانت الخطوات الأولى لتطور هذا الاختراع والقبول به خطوات غير وئيدة وغير منتظمة بل ومعقدة، فإن انتشار الطباعة بعد ١٤٦٢ كان سريعاً متلاحقاً ويشع من أرض الراين فى كل الاتجاهات حتى وصلت فى نهاية القرن الخامس عشر كل المناطق المأهولة بالسكان فى أوربا. وعلى الرغم من أن «كليمنس باتافينوس» - وهو قسيس وأول مواطن إيطالى المولد يعمل بالطباعة (فينسيا ١٤٧١) - زعم بأنه علم نفسه بنفسه فن الطباعة [1] فإننا لاينبغى أن نأخذ تلك العبارة حرفياً. ذلك أن تفاصيل المعلومات

(1) Ars imprimindi.

التكنولوجية فى ذلك الوقت كانت قد أعلنت على الملأ، وربما كان «كليمنس» يعنى أنه تعلم الطباعة بنفسه ولم يلجأ إلى طابع آخر ولم يكن صبياً فى مطبعة وأنه حصل على المهارات اللازمة دون معلم.

ولابد لنا أن ندرك أن الطباعة لم تكن قَط عمل شخص واحد وأنه ـ مع استثناءات قليلة ـ كان لابد للأسطى وأن يستخدم بعض الأعوان والصبيان. ونظراً لأنه لم تكن هناك نقابة خاصة للطابعين فى ذلك الوقت فلم تكن ثمة قيود تفرض على المتدربين والصبيان الذين يعملون فى المطابع إلا إذا قام الأسطى نفسه بوضع مثل تلك القيود. وكان هؤلاء المعاونون هم الرجال الذين تعلموا الصنعة وتشربوها ثم انتشروا يعملون لحسابهم فنشروا الطباعة فى أنحاء متفرقة، إذا أدركوا إمكانيات الحرفة والتجارة الجديدة، وإذا استطاعوا تحصيل المعرفة والإدارة الكافية وإذا كانت لديهم موهبة المبادرة، وإذا استطاعوا الحصول على رأس المال اللازم لذلك. وللأسف فإن معلوماتنا عن هؤلاء الأشخاص الذين نشروا فن الطباعة فى الأنحاء وطريقة تدريبهم وإعدادهم قليلة وغير كافية لتكوين صورة عامة. وطبقاً للمعلومات والقرائن التى بين أيدينا حتى الآن ـ وهى من إعداد باحثين على قدر كبير من الأهمية والثقة ـ فإن أول مدينة خرجت منها الطباعة هى ماينز. وكان أول طابع باستراسبورج هو «ج. منتلين» (١٤٦٠ أو قبلها بقليل) وهو مولود فى شلتزتادث القريبة من ماينز وربما يكون قد تعلم الطباعة هناك. وكانت ثالث مدينة تدخلها الطباعة هى بامبرج (١٤٦٠-١٤٦١)، وليست لدينا معلومات مؤكدة عن العلاقة بين المدينتين ولكن أول طابع بها وهو «أ. بفستر» استخدم حرف الكتاب المقدس ذى الـ ٣٦ سطراً الذى ترجع أصوله إلى مدينة ماينز. وأول من أدخل الطباعة إلى كولون هو أولرخ زيل (١٤٦٤) وهو مولود فى هاناو القريبة هى الأخرى من ماينز وتعلم الطباعة من خلفاء «يوحنا جوتنبرج»، أى «فوست وشوفر». وكان «س. سوينهايم» الذى زرع الطباعة مع شريك له على الأرض الإيطالية لأول مرة هو الآخر مولوداً بالقرب من ماينز حيث يحتمل أن يكون قد تعلم الطباعة بها. ولا أعتقد أننا بحاجة إلى الاستمرار فى تتبع علاقة مراكز

الطباعة المختلفة بالموطن الأصلى لها وهو ماينز. حوالى سنة ١٤٧٠ كان قد أقيم عدد كاف من المطابع فى ألمانيا وإيطاليا، يذكر بعض المصادر أنه وصل إلى الثلاثين. وكان يعمل فى هذه المطابع عدد كبير من الصبية والمتدربين وعلى رأسهم الحرفيون الجائلون، وبعضهم استقل بنفسه بعد ذلك، ومن ثم فقد زاد عدد المطابع ومحلات الطباعة سريعاً. وكانت ستراسبورج وبازل تعمل كمراكز فرعية لمدينة ماينز.

لقد انتشرت الطباعة كحرفة وكتجارة بسرعة لم يكن أحد يتوقعها ولم يكن أحد يتنبأ بآثارها الكاملة سواء الاجتماعية أو السياسية أو الفكرية، ولذلك لم يكن الطابعون الأوائل مضطرين إلى الخضوع لقواعد مثل تلك التى تضعها النقابات، حيث كان عددهم محدوداً وكانت القواعد هم الذين يضعونها ويطبقونها.

ومع مرور الوقت تم استيعاب إمكانيات الطباعة وتفهمها جزئياً أو كلياً ولكن كان الأوان قد فات حتى فى مدينة مثل باريس حيث كانت هناك سوابق للسيطرة والتحكم فى الإنتاج الفكرى وتجارة الكتب. لقد كان نمو تجارة الكتب والطباعة سريعاً وظاهرة عامة جعلت تدخل الجامعة أو الدولة مسألة صعبة. وكان لغياب مثل تلك القواعد والتنظيمات أثره فى دخول رجال من مشارب مختلفة إلى هذا الميدان. لقد كان كثير من الطابعين لهم علاقة سابقة بالكتاب والكتابة وكان من السهل أن ينتقل الرجل من فرع إلى آخر من فروع صناعة الكتب. والانتقال الطبيعى هو أن يتحول الرجل من ناسخ مخطوطات إلى طابع، كما تحول بعض الطابعين ـ فيما بعد أو لنقل ارتدوا ـ إلى ناسخين. وبعض الطابعين مارس النسخ فى نفس الوقت مع الطباعة. وكان من بين فروع صناعة الكتاب الأخرى التى تحول رجالها إلى الطباعة : التصوير، التحمير، الزخرفة بل ودخل إلى الميدان مصممو الكتل الخشبية، صانعو ورق اللعب، المجلدون، باعة الكتب بل والمؤلفون والإكليريون والموثقون (الكتاب العدول). ولم يكن هؤلاء الأفراد على ألفة بصناعة الكتاب وحسب (ولذلك كانوا فى أغلب الأحوال متعلمين) ولكنهم

أيضاً كانوا على علاقة وثيقة بالأشخاص الذين يقدمون لهم النصح والمشورة وخاصة فى اختيار المخطوطات التى تصلح للطباعة وأسواق الكتب المربحة.

لقد قدم لنا «إ. فوليم» بيانات هامة عن المجالات التى جاء منها الطابعون الأول[1]. ومن تلك البيانات نعرف أنه كان من بينهم : خطاطون وخاصة الذين يكتبون بالحروف المذهبة؛ تجار مخطوطات؛ تجار ورق؛ رجال دين؛ إكليريون متزوجون؛ حامل أختام؛ موثقون شرعيون؛ سكرتيرون؛ متخرجون فى الكليات (ماجستير وبكالوريوس)؛ طلاب لم يتموا تعليمهم؛ مهنيون؛ مواطنون ذوو حيثيات (من بينهم على سبيل المثال المهندس المعمارى الذى بنى كاتدرائية روزنبرج وهو م. روريتزر)؛ مشتغلون بالأعمال المعدنية. ويضاف إليهم من كولون مثلا أمين الجامعة. ويجب أن نشير هنا إلى بعض الأنشطة التكميلية للطابعين التى تفسر لنا حقيقة أن الطباعة كانت حرفة وتجارة فى نفس الوقت كان يدخل فيها تجارة الكتب إلى جانب عملية إنتاجه نفسها. وخير مثال على ذلك «جوهان كولهوف» (الأكبر) الذى كان طابعاً وناشراً ١٤٧٢-١٤٩٣ كان فى الأصل تاجر أصواف وكان يبيع الكتب ليس فى منطقته فقط وإنما أيضاً فى ليفلا، اسكاندينافيا، إيطاليا. وابنه أيضاً «جوهان كولهوف» (الأصغر) ١٤٩٣-١٥٠٢ كان تاجر مواشى ونبيذ وأجبان وألبان. كذلك فإن «هنريتش كوينتل» (١٤٧٨-١٥٠١) كان هو الآخر طابعاً ناجحاً فى كولون أوصل تجارة الكتب إلى البلطيق فى الشمال وإلى إيطاليا فى الجنوب. ولدينا مثال على ترك الطباعة والعودة إلى الخطاطة وهو : كورنيليوس زايركزى» الذى ترك مطبعته لابنه سنة ١٥٠٩ وعاد ليصبح كاتب مدينته ميدلبرج من جديد.

وكان الطابعون الألمان فى الخارج يشبهون إلى حد كبير أقرانهم داخل ألمانيا نفسها، بينما كانت الخلفية لدى الطابعين المولودين فى إيطاليا أو فرنسا أو غيرهما من الدول مختلفة تماماً. وفى إيطاليا كان الطابعون من طبقات المجتمع العليا ذوى نزعات تحررية خاصة. وبعض النماذج والأمثلة قد توضح المطلوب: فهذا

(1) E. Voulliémé. Die deutschen Drucker des 15 Jahrbunderts.- Berlin, 1922.

هو «ليجنامين» فى روما (والذى ربما لم يطبع الكتب بنفسه) والذى كان أهم ناشر، لم يكن إيطالى المولد ولكنه كان من أشراف صقلية. وهذا هو «بالداسار أزوجيدى» الطابع الأول فى بولونيا كان أكثر أبناء إحدى الأسر الغنية المحلية تعلماً. كما أن «بترو باولو بورو» الطابع فى تورينو كان يعمل فى دار سك النقود الخاصة بدوق ساقوى. وهو يذكر بعلاقة «يوحنا جوتنبرج» بدار سك النقود فى ماينز أو «نيقولا جنسون» الطابع الفرنسى فى فينسيا الذى كان يعمل بدار سك النقود فى باريس. كذلك فإن «بيرناردو سينينى» أول طابع فى فلورنسا كان نحاتًا. لقد كانت رابطة الطبقات العليا والنبلاء والأشراف والأطباء والأساتذة. . . بالطابعين، وظهور أسمائهم جنبًا إلى جنب مع أسطوات المطابع فى بيانات الطبع، مسألة أكثر شيوعًا فى إيطاليا من أى مكان آخر. وكثير من هؤلاء الأغنياء الشركاء فى دور الطباعة لم يكونوا أبدًا ليوسخوا أياديهم فى محلات الطباعة ودكاكينها ولكنهم كانوا فقط شركاء برأس المال والإدارة، وكانوا فى بعض الأحيان يتدخلون فى تحديد المخطوطات التى يتم طبعها، وإذا كانوا من بين المتعلمين فإنهم كانوا يعدون النص ويحررونه للطبع؛ ويقومون بقراءة وتصحيح البروفات. ويذكرنا ذلك بتقسيم العمل والمسئولية بين الحرفيين والإدارة (والذى أدى فيما بعد إلى انفصال الطابع عن الناشر) كما حدث فى حالة «يوحنا فوست» فى ماينز الذى كان يمول «جوتنبرج» فى البداية ثم بعد ذلك خلال شراكته مع بيترشوفر اختص أساساً بالجانب التجارى والتسويقى من العمل تاركًا الجانب الفنى للسيد/ شوفر.

وإذا انتقلنا سريعاً إلى فرنسا نجد موقفًا خاصاً فى باريس، ذلك أنه خلال السنوات ١٤٧٠-١٤٨٠ كانت نسبة كبيرة من الطابعين من المتعلمين تعليمًا أكاديميًا، وربما يرجع ذلك إلى أن تجار الكتب والناسخين نظروا إلى طلاب الجامعة والأساتذة على أنهم السوق الرئيسية لهم. وليس من المستغرب كذلك أن نجد من بين الطابعين فى فرنسا اثنين من وراقى الجامعة الذين حلفوا اليمين بأن يلتزموا بالقواعد والتنظيمات التى تضعها جامعة السوربون. وعلى العكس من ذلك نجد واحداً فقط من الطابعين فى ليون فى نفس الفترة (الطباعة دخلت هناك

سنة ١٤٧٣) من خريجى الجامعة[1]. وبعد ذلك بفترة أصبح من الواضح للطابعين فى باريس أن الحاجة إلى منتجاتهم امتدت لما وراء الأكاديميين؛ وأن سيطرة الجامعة لم تعد ذات فعالية كبيرة.

وبعد أن رسخت الطباعة وأصبح الصبية الأشراق من صغار السن وبدون خلفية من تجارة أو حرفة أخرى، ولكن الأسطوات فقط هم الذين بقوا على خلفياتهم المختلفة الذين جاءوا منها سلفاً. أما الرفاق (الجائلون) الذين كانوا أصحاب تخصصات قريبة من الطباعة مثل مصممى الحروف، مصممى السبائك، المحررين، المصححين فإنهم احتاجوا بالضرورة إلى تدريب جديد على أعمال الطباعة.

والحقيقة أنه لم تأت سنة ١٥٠٠م إلا وكانت الطباعة قد رسخت فى أكثر من مائتى مدينة أوربية وربما كان عدد المطابع يصل إلى ضعف هذا العدد أو أكثر ومن المؤكد أن عدد الأفراد العاملين فى مجال الطباعة حتى ذلك التاريخ كان يصل إلى بضعة آلاف من الأفراد. وقد غدا من السهل فى ذلك التاريخ أن يستأجر صاحب العمل منضدى الحروف والطابعين للقيام بالأعمال الفنية فى المطبعة. كما غدا من السهل على رجال الأعمال من أية مهنة ومن أية وظيفة أن يؤسس دار طباعة وأن يدير دار نشر. ولعل أشمل معاجم التراجم الخاصة بالطابعين الناشرين فى القرن السادس عشر هى تلك التى توفر عليها «جوزيف بنزنج» للمناطق المتحدثة بالألمانية وسوف نستقى بعض النماذج من معجمه المعنون «قاموس الطابعين»[2].

وإذا بدأ بدمينة نورنبرج على سبيل المثال فإننا نحصل على الخلفيات الآتية التى جاء منها الطابعون الأول فى هذه المدينة كما وردت فى المعجم المذكور:

---

(1) A. Claudin. Histoire de L'Emprimerie en France.- Paris, 1900'

P. Renouard. Documents sur les imprimeurs' Libraires,Cartiers... à Paris de 1450 à 1600.. Paris, 1901.

(2) Joseph Benzing. Der Buchdruck der 16. Yahrhunderts im deutschen sprachgebeir.. Leipzig, 1936.;

Joseph Benzing. Buchdrucker Lexicon.- frank Furt,1952.

واحد قسيس؛ عدة مصممى كتل خشبية؛ واحد يحمل ماجستير فى الآداب؛ واحد مزخرف كتب؛ عدة كتبة رسائل؛ عدة تجار كتب، واحد فلكى. فهذا هو «جوهان شونر» الذى كان متخصصاً فى إنتاج الكتب الفلكية والرياضية يكرر فى عشرينات القرن السادس عشر ما كان سلفه الشهير «ريجيومونتانوس» (جوهان موللر فون كونجزبيرجر) قد بدأه بالفعل فى سبعينات القرن الخامس عشر فى نفس المدينة نورنبرج. وإذا انتقلنا إلى ستراسبورج فإننا نضيف إلى القائمة السابقة أستاذاً جامعياً سابقاً وراهباً فرنسيسكانيًا سابقاً اعتنق قضية الإصلاح، وأستاذ طب، ومجلد كتب، ورسامًا بالزيت (مصوراً). وفى بازل نصادف طابعين على الأقل ممن درسوا الطب وأصبحوا طابعين ناشرين فى غاية الأهمية وهما «هنريكبترى» فى أوبرينوس، وهذا الأخير ارتبط بالطابع «بارا سيلسوس» قبل أن يرسخ فى نشاط الطباعة ويحقق فيه شهرة واسعة. ولانعرف على وجه اليقين لماذا ترك هؤلاء الرجال مهنهم الأصلية واتجهوا للطباعة وامتهنوها اللهم إلا فى حالات قليلة جداً. وبدلاً من أن نطيل فى الأمثلة المأخوذة من الدول الناطقة بالألمانية فإننا يمكن أن نتجه إلى دول أوربية أخرى.

فى إيطاليا نجد مؤلفاً موسيقياً يحترف الطباعة هو «أندرياس أنتيكوس» طابع النوتات الموسيقية الشهير وعدداً من البحاثة اليونانيين والكريت (منهم كالييرجيس الذى بدأ الطباعة بالفعل فى القرن الخامس عشر) كما نجد عدداً من المؤلفين (منهم مثلاً أخيليس بوتش) ونجد مراهقاً فى سنة الخامسة عشر (هو إيركول ابن الكونت جيامباتستا بوتريجارى)، كما نصادف مهندسًا معماريًا (هو انسلمو جياكاريللى)؛ ومصممى حروف (من بينهم مثلا فرانسسكو دى بولونيا). فإذا توجهنا صوب فرنسا فسوف نصادف خليطاً شبيهاً بهذا وذلك. بعض أثرياء باريس الذى يتاجرون فى العقارات يتجهون للطباعة وفى إنجلترا نجد أحد القضاة فى محكمة الادعاء العام (جون بتلر) يتحول للطباعة، ونجد فى اسكوتلندا أحد التجار الناجحين فى إدنبرة يصبح أول طابع فى اسكوتلندا كلها (هو والترتشابمان)؛ ونجد واحداً من أكبر الشركاء فى إحدى الشركات يمول طبع الكتب التى طبعها «ريتشارد جرافتون» وزميله «إ. هوايتشيرش» (أنطونى مارلكس).

وطالما انتشرت المطابع بأعداد كبيرة فقد كان من السهل على أى شخص خارج صناعة الكتاب أن يشترى مطبعة ويدخل إلى الميدان. وحتى قبل ذلك الانتشار فقد كان الزواج من بنت صاحب المطبعة أو من أرملة صاحب المطبعة طريقة أخرى لدخول البعض إلى هذه المهنة، وسوف نرى كثيرًا من الحالات من هذا القبيل بعد ذلك. وعلى سبيل المثال فقد تزوج «بيتر شوفر» من ابنة «فوتست»؛ كما تزوجت إحدى بنات منتلين من أدولف رُوش ثالث طابع فى ستراسبورج، وبنت أخرى تزوجت من الطابع «مارتن شوت» الذى ظلت شركته تعمل حتى ١٥٤٥ . كما تزوج «ألدوس مانتيوس» الأشهر من بنت الطابع الفينيسى «أندرياس توريسانوس». أيضًا تزوج هنريتش ابن آدم بترى (وقد أطلق على نفسه اسمًا واحدا مربكا هو هنريكبترى) ابنة الطابع الشهير هيرونيموس فروبن من بازل. وتزوج جوهان كلاين فى ليون من أرملة الطابع الهام جوهان تريشسل، وغير تلك الحالات كثيرون، وربما كانت أغرب حالة لامرأة تربط عدة طابعين ناشرين معًا تلك المرأة المدعوة «جيون قيارت» التى تزوجت ثلاث مرات من أعضاء فى هذه الحرفة وهم على التوالى : دميان هيجمان، هنرى إستين (الأب)، سايمون دى كولنز، بل وأكثر من هذا فإن ابنتها من زوجها الأول أصبحت زوجة للطابع ريجنولد شودير؛ وثلاثة من أبنائها من زوجها الثانى أصبحوا هم بدورهم طابعين (وهم على التوالى تشارلز؛ روبرت؛ هنرى)، وقد فشل زواجها الثالث فقط فى إنجاب من يرث المهنة. هذه مجرد عينة صغيرة فقط استقيناها من قائمة طويلة توفر على إعدادها كارل شوتنلوهر[1]. ومن المعروف أن زوجات وبنات الطابعين قد تعلمن الطباعة من خلال مساعدتهن فى المطبعة ونعرف عدداً من النساء اللاتى تملكن مطابع وأدرنها وسوف يأتى فى هذا الكتاب ذكر عدد منهن. ومن المعروف أنه فى عصر الخطاطة كانت بعض النسوة تعملن ناسخات وخطاطات ورسامات ومزخرفات ومحمرات، وفى عصر الطباعة قمن بالعديد من الوظائف والأدوار الجديدة.

(1) Karl Schottenloher. Die Druckersippen der Frühdruckzeit.- Centralblatt Für Bibliothekswesen, vol. LVII, 1940.

لقد مارس الطباعة والنشر (وبعد عدة عقود تجارة الكتب) أشخاص من خلفيات مختلفة وقدرات متنوعة بل وشخصيات متباينة. ومن هنا كان إنتاجهم مختلفاً للغاية. وكانت مراكزهم فى المجتمع تغطى دائرة واسعة بدءا من الوكلاء الذين شبههم «جيلر» بالبهلوانات وملاحظى الحمامات العامة وانتهاء بالمواطنين الذين احتلوا مناصب مرموقة ودرجات الشرف العليا. من بين هذه الفئات الأخيرة كان «نيقولاس جنسون» الذى أعطاه البابا «سكستوس الرابع» لقب فارس و«أندرياس فرزنر» الذى كان طابعًا بالشراكة فى نورنبرج وكان أستاذا للاهوت ورئيسا لجامعة ليبزج سنة ١٤٨٢؛ ومن بينهم «أنطون كوبرجر» الطابع الناشر فى نورنبرج وكان قد انتخب عضوا فى مجلس المدينة التى انحدر منها. وفى خلال فترة الإصلاح سلم عدد من الطابعين حرفتهم كى يديرها الأكليريون البروتستانت، وهى فترة انخراط القساوسة فى مجال الطباعة.

ولابد للمرء وأن يفترض أن خلفية الطابع من الضرورى أن تؤثر وبشدة فى برامجه الطباعية، وإن لم يكن ذلك بالأمر الحتمى دائماً فثمة اعتبارات تجارية تؤثر فى اختيار النص الذى يطبع، وربما تكون هذه الاعتبارات أقوى من الخلفية وأقوى من الذوق الخاص للطابع. ولدينا نماذج عديدة لطابعين شكلوا برامج النشر بحيث تلائم خلفياتهم وأذواقهم الخاصة ولكنهم لايمثلون ظاهرة يمكن تعميمها. ولكن النشر الذى يتلاءم مع الأهداف التجارية كان هو السمة الغالبة. وهذا الرأى عليه شبه إجماع ولقد عبر عنه وبقوة «إ. ب. جولد شميت» وإن لم يكن صحيحًا على إطلاقه حين قال: لقد كانت الطباعة منذ البداية مشروعا تجارياً ومع ذلك فقد كان غالبًا مايخسر الطابعون والناشرون أموالهم فيه طوال القرون الخمسة الماضية.. فلم يذهب كتاب إلى المطبعة إلا والطابع يعتقد عن حق أو باطل أنه سيربح فيه. والحقيقة أن تصنيف دوافع الطبع لدى الطابعين هى مسألة فى غاية الخطورة، لأن الطابعين أنفسهم نادراً ما يفصحون عن دوافع الطباعة لديهم فضلاً عن أنهم قد لايعرفونها، بل إنهم حين يعبرون عنها فإننا يجب أن نأخذ كلماتهم بحذر لأننا لاينبغى أن نصدق كل ما يقولونه. كما أنه على الجانب

الآخر قد لايكون الطابع نفسه هو الذى اختار النص الذى يطبعه بل اختاره له آخرون وحتى عندما يكتب الطابع مقدمة لعمل ما فربما تكون قد كتبت له ووضع اسمه عليها فقط. وعلى سبيل المثال فقط عندما نقرأ المقدمات التى كان يكتبها «جوهان فروبن» فى الكتب التى كان يطبعها نشعر بصدق تلك المقولة. لقد كان «فروبن» طابعًا ماهراً، وكان ذا نزعة إنسية وكان صديقا حميمًا للمؤلف الشهير «إراسموس». وكان طابع بازل المقدم فى العقد الثالث من القرن السادس عشر حتى وفاته سنة ١٥٢٧ وقد عمل تحت إمرته فى مطابعه صفوة المتعلمين كمحررين ومصححي بروفات، ولكنه هو نفسه لم يكن باحثًا ولا دارسًا لاتينيًّا على عكس النحو الذى يبدو به فى مقدمات كتبه التى يطبعها وكما عبر ذلك صراحة صديقه ومؤلفه إراسموس. والمقدمة التى كتبها سنة ١٥١٧ لكتاب «كوليوس ريتشيريوس»[1] ووجهها للقارئ بلغة لاتينية بليغة كانت فى الحقيقة من اقتراح وكتابة إراسموس نفسه، وذلك لتأكيد تفوق طبقة فروبن من هذا الكتاب على طبعة منافسه «جودوكوس باديوس» التى صدرت فى نفس السنة. وكل ما فعله فروبن أنه قرأ المقدمة وقبلها ووضع اسمه عليها.

ومن اليسير علينا أن نستدل من كتاب كونراد بيرجر «الطابعون والناشرون فى القرن الخامس عشر»[2] أن الطابعين الذين تخرجوا فى الجامعة وتعلموا تعليماً أكاديميا كانوا يفضلون إخراج كتبهم على طريقة العصور الوسطى، بينما هؤلاء الطابعون الذين تعلموا تعليماً بسيطًا والذين تدربوا على الطباعة كصبية كانوا يفضلون إخراج الكتب على الطريقة الكلاسيكية والإنسية وفضلوا طباعة الكتب فى هاتين الفئتين. وكان بعض الطابعين حريصين وكان بعضهم جسورًا، ولكن غالبيتهم لم يطبعوا الكتب التى تروق لهم وتتمشى مع أذواقهم، ولكنهم طبعوا ما شعروا وما أعتقدوا أن هناك حاجة إليه. وحتى النجاح الذى حققوه أو الفشل الذى منوا به فى برامجهم النشرية ليس بالضرورة مؤشرًا لحسن أو سوء تقديرهم، طالما كانت هناك مؤثرات خارجية مثل إعادة الطبع والمنافسة، أو الاستثمار

---

(1) Coclius Richerius. Lectiones.- 1917.

(2) Konrad Burger. Printers and Publishers of the Xvth Century. London: 1902.

العالى فى الأجهزة، أو أى نوع آخر من الظروف غير المواتية يمكن أن تتسبب فى الفشل أو على الأقل فى خسارة من نوع ما.

ولقد ألمحت من قبل إلى تقسيم العمل الذى أدى فى وقت من الأوقات إلى فصل الأنشطة المختلفة التى كانت خلال القرن الخامس عشر تعتبر جزءاً متكاملاً من الطباعة: التمويل، شراء الأجهزة والمعدات، اختيار النصوص التى تطبع، سبك الحروف، التنضيد، الطبع، بيع المطبوعات. لقد كان تقسيم وفصل هذه الوظائف قاصراً فى بادئ الأمر على المطابع الكبرى ولكن تطور بالتدريج. وعلى الرغم من أننا كنا نجد فى ذلك الوقت أشخاصاً يقتصرون فقط على عمل الناشر أو عمل الطابع أو على عمل بائع الكتب فإن هذا التقسيم للعمل حتى اليوم لايشكل نمطاً قاطعاً محدداً. لقد كان تمويل المطبعة على يد واحد أو اثنين خارجيين هو الشكل المبكر من أشكال تقسيم المسئولية وكان بمثابة فصل **الإدارة** عن **الحرفة**، والذى يمكن القول عنه إنه يمثل عودة إلى العمل فى النسخ الذى كان ينتج الكتب حسب الطلب ولم يكن معنياً بقضية التمويل. وكانت الخطوة الثانية التى جاءت فيما بعد هى فصل عملية بيع الكتب عن عملية إنتاجها. وكانت عملية تسويق الكتب تتم بداية عن طريق باعة جائلين لهم جداول ترحال محددة بالتعاقد مع واحد أو أكثر من الطابعين. وبعد فترة من الزمن قام الطابعون والناشرون الكبار بإنشاء مؤسسات تسويق خاصة بهم ومنهم على سبيل المثال «كوبرجر» فى نورنبرج. وفى نفس الوقت تقريباً نصادف أول باعة كتب مستقلين يتخصصون فى الكتب المطبوعة وحدها. ولم يكن سبك الحروف عملاً مستقلاً طوال القرن الخامس عشر.

كذلك كانت الفروق فى نوعية الكتابة فى المخطوطات وأشكال الحروف التى كانت ظاهرة ملموسة فى المنطقة الواحدة بل وفى المدينة الواحدة، أمراً من الأمور التى ميزت عمل طابع عن آخر وفرقت بينهم. ومن هذا المنطلق قد قنع الطابعون الفقراء والمحافظون بالأنماط بدائية الخط والحرف والطبع المتواضع ذى

النوعية البدائية. وبالضبط كما نتحدث عن مدرسة فكرية وأخرى، فإننا نتحدث عن نوعية طباعة مطبعة وأخرى ومن الخطورة بمكان أن نعمم نوعاً معيناً من الطباعة فى مدينة بذاتها أو منطقة أو دولة بأكملها. ومن المسلم به أن المطابع الصغيرة فى المدن قليلة الأهمية أو النائية كانت تقليدية، وكان إنتاجها أقل جودة من المطابع الكبرى فى المدن الرئيسية. لقد كان التجويد فى طباعة الكتب أمراً أساسياً - وإن لم يكن مطلقاً - فى المطابع الموجودة فى العشرين أو الثلاثين مدينة كبرى فى أوربا، تلك المدن مراكز الفكر والمخطوطات والتى كانت حساسة لأية تطورات فى مجال الطباعة فى عهد الجيل الأول من الطابعين.

وعندما انتقد «بترارك» الخط اليدوى فى عهده، لم يكن يقصد الجوانب الجمالية فيه أو شكل الحروف (خط المخطوطات الغوطية)، أو يقصد العودة إلى الشكل الكلاسيكى؛ بل كان يقصد انقرائية الخط، كان يريد خطاً خالياً من الغموض والتصحيف، ولم يكن يعيب نوع الخط فى ذاته بل يقصد الطريقة التى كان يكتب بها فى زمانه. وكان الخط الإنسى الذى ابتكره زملاؤه الإنسيون خطاً حاداً خالياً من الرتوش قليل الاختصارات وبلغ درجة عالية من الوضوح والانقرائية. وقد واكب هذا التطور فى الخط انتشار التعليم بين أشخاص لم تكن لهم اهتمامات لاهوتية أو قانونية وليس لهم اهتمام بما تدْعو إليه حتى الحركة الإنسية ولا بتلك الكتب الدينية والقانونية التى كتبت فى القرن الرابع عشر والخامس عشر بخط متعرج معوج كثير الاختصارات (وإن كان مقروءاً واضحاً بالنسبة لرجال الدين والمحامين ولكنه للقارئ العادى كان مشكلة كبيرة). لقد احتاج التجار والحرفيون الناجحون ورجال الطبقات العليا من غير المشتغلين بمهن معينة، والقراء الجدد فى الطبقات الدنيا، إلى خط واضح قليل الاختصارات ولكن لأسباب عملية بحتة: فكثير من هؤلاء الناس يقرأون ببطء وبصعوبة بالغة. ومن ثم فقد كانت هناك رغبة عامة فى خط مقروء مقبول، وكانت هذه الرغبة العامة هى دافع التحول نحو خط أكثر وضوحاً وانقرائية ليس فقط فى مخطوطات اللغات المحلية ولكن فى مخطوطات القرن الخامس عشر عموماً حتى تلك المكتوبة باللاتينية والمطبوعة أيضاً.

ولو كان هذا الافتراض صحيحاً فقد كانت هناك حركتان أخريان عملياً فى نفس هذا الاتجاه وسعيتا نحو تحقيق نفس الهدف. فلقد تتبع «رودلف جوشهوف» الاختفاء التدريجى لرابطات الحروف والاختصارات فى الكتب المطبوعة ولاحظ أنها اختفت فى حالة الخط الرومانى بأسرع من الخط الغوطى، ومن المعروف أن الخط الرومانى هذا تطور عن خط اليد الإنسى. وفى كلتا الحالتين يمكننا تتبع حركة هذا الاختفاء التدريجى بل وفى أبناط الطباعة التى تمزج بين الخطين (الرومى والغوطى) والذى أطلق عليه شبه الغوطى أو الغوطى القديم، والذى استجد بعد البنط الإيطالى. وقد كانت الحروف الخالية من الرابطات والاختصارات إيذاناً حقيقياً ببدء التوحيد والتنميط فى كتابة حروف المطبعة. وربما كانت الحروف الجديدة - غير المربوطة - تحتل حيزاً أكبر من الحروف المربوطة ولكن زيادة مبيعات الكتب عوضت ذلك. كما لجأ الطابعون إلى استخدام بنط أصغر للحروف وقللوا المسافات بين السطور. وقد استخدموا عدداً أقل من أشكال الحروف، وربما وجد منضدو الحروف أنفسهم أكثر تحرراً وأسرع من ملامح مخطوط العصور الوسطى. وبحلول القرن السادس عشر كانت الكتب المطبوعة قد تخلصت من معظم رابطات الحروف والاختصارات الموجودة فى الكتابة، وإن كانت تلك الرابطات والاختصارات قد قاومت فى النصوص الدينية لفترة أطول. كذلك أدت المسافات الجديدة بين الحروف غير المربوطة، والمسافات الواسعة بين السطور والهوامش العريضة وتفقير النص إلى وضوح الخط وانقرائيته.

ولقد بدأ الطابعون بعد فترة من التردد فى كتابة أسمائهم على المطبوعات، فسجل «فوست» و«شوفر» اسميهما سنة ١٤٥٧ فى حرد متن كتاب «المزامير»، جرياً على عادة الناسخين الذين دأبوا على كتابة أسمائهم بعد ختام النص. وقد ظهرت علاقة الطابع أيضاً هنا فى بعض نسخ المزامير تلك، وهو تاريخ مبكر جدا لظهورها. وليس كعلامة الطابع سابقة معروفة لنا فى المخطوطات؛ رغم أن الوثائق وخاصة العقود والمراسلات كانت تمهر بعلامة مميزة دلالة على صحتها

ورسميتها. ورغم ظهور اسم الطابع مبكراً فى العقد الأول للطباعة؛ إلا أن كثيراً من أوائل المطبوعات قد صدرت بدون اسم الطابع ومكان الطبع بل وحتى أحيانا بدون تاريخ الطبع. وربما كان ذلك موروثاً أيضاً من عصر الخطاطة حيث لم يكن كل الناسخين حريصين على تسجيل أسمائهم فى مخطوطاتهم، فلم يكن كل الطابعين أيضاً حريصين على ذلك إلى أن جاء وقت رأوا فيه أن بيان الطبع الكامل هام لأغراض التسويق من جهة ولإثبات الذات من جهة ثانية. ولقد قام «إ. فون كاثن»[1] بدراسة إحصائية لأوائل المطبوعات من واقع المجلدات السبعة الأولى من الفهرس الموحد بالمهاديات وأخذ من كل المداخل عينة قدرها ٢٠٪ من مجموع الكتب المطبوعة التى صدرت طوال القرن الخامس عشر، فوجد أن ٥٧ر٤٪ من المهاديات الصادرة حتى ١٤٨٠م تخلو من اسم الطابع، وأن ٥٣٪ من مهاديات العقد التالى (١٤٨١-١٤٩٠)، وأن ٤٥ر٣٪ من مهاديات العقد الأخير تخلو من ذكر اسم الطابع. ونحن نعلم أن صفحة العنوان لم يكن لها وجود حقيقى فى المخطوطات وأنها قد وجدت بطريقة بدائية فجة فى كتاب مطبوع سنة ١٤٧٠، وأن نقل البيانات الأساسية من حرد المتن الموجود فى نهاية النص، إلى صفحة القوادم كانت خطوة فى اتجاه صفحة العنوان. وقد نظر إلى صفحة العنوان على أنها خروج على الختام التقليدى الراسخ منذ عصر الخطاطة. ولذلك لا نستغرب وجود حرد المتن الكامل فى نهاية المخطوط مع وجود صفحة العنوان فى نفس الكتاب المطبوع. وكانت مسألة إعطاء التفاصيل التعريفية بشكل مركز فى بداية الكتاب المطبوع (اسم المؤلف، العنوان، مكان الطبع، اسم الطابع، تاريخ الطبع)، بحيث تستوعب من نظرة فوقية طائرة كانت خطوة متقدمة لقيت قبولاً عاماً فى خلال جيل واحد من الطابعين الأوائل.

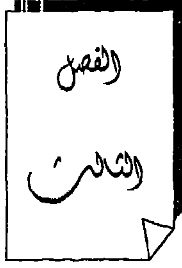
لقد نظر إلى الكتاب المطبوع على أنه سلعة ورقية وبالتالى فإن المجلد الكبير الثقيل يخدم الهدف السلعى تماماً. وكان الكتاب النحيف موجوداً بالفعل فى العصور الوسطى وكان الأوسع انتشاراً منذ القرن الثالث عشر فصاعداً، ولذلك

(1) Psalter.- 1457.

مرت طباعة الكتب بنفس التجربة فبدأت بالمجلد الضخم كبير الحجم قطع الربع، ثم إلى قطع الثمن ثم إلى أصغر من ذلك فى بعض الأحيان. وكان بيع الكتب «سهلة التناول» أى ذات الحجم المعقول إلى الأفراد عملاً رائجاً للغاية فى ذلك الوقت. وكان «الدوس مانتيوس» هو أول من أدرك تلك الحقيقة فبدأ فى سنة ١٥٠١ سلسلته من طبعات حجم الثمن (حجم الجيب) للكتب الكلاسيكية والإنسية. وقد لقيت فكرته هذه نجاحاً كبيراً، وتناقلها الطابعون والناشرون فى أماكن مختلفة منها ليون وبازل وغيرهما.

ولقد دخلت تطورات وتجديدات أخرى كثيرة على المطبوعات بأسرع من المخطوطات وذلك لزيادة عدد النسخ المطبوعة من الكتاب الواحد أكثر كثيراً من نسخ المخطوط. ولأول مرة فى تاريخ الكتاب كان لدى صناع الكتب الفرصة الكاملة للملاحظة وملاحقة مايحدث فى عالم الكتاب فى أى مكان فى أوربا.

* * *



اختراع الطباعة بالحروف المتحركة

فى تاريخ الكتاب هناك أربع ثورات عاتية نقلت كل منها الكتاب نقلة حضارية ضخمة. وقعت الأولى منها فى الألف السادسة قبل الميلاد، وهى اختراع الكتابة حيث أمكن للإنسان أن يخرج المعلومات من رأسه ويضعها على وسيط خارجى قابل لنقل المعلومات إلى الآخرين فى الزمان والمكان. ولئن بدأت الكتابة إيديوجرافية ثم تصويرية إلا أنها انتهت فى الأعم الأغلب أبجدية على النحو الذى بدأه قدماء المصريين فى الألف الثانية قبل الميلاد فيما عرف بالأبجدية السينائية التى اشتقت منها الأبجدية الفينيقية أو الكنعانية أو السامية ـ أياً كان اسمها ـ أم أبجديات العالم جميعاً.

أما الثورة الثانية فى تاريخ الكتاب فقد جاءت فى مطلع القرن الثانى الميلادى عندما اخترع «تساى لون» الصينى الورق الذى نستخدمه الآن فى الكتابة والطباعة وكان الإنسان قبل ذلك يكتب على مواد طبيعية يجدها فى بيئته أو يصنعها من موارد بيئية مثل ورق البردى أو ألواح الطين أو الرقوق الجلدية. وكان اختراع الورق الصينى وانتشاره فى جميع أنحاء العالم بعد عدة قرون من بقائه فى الصين عاملاً هاماً من عوامل انتشار الثورة الثالثة.

الثورة الثالثة فى تاريخ الكتاب ومسيرته جاءت يوم اخترع الإنسان الطباعة بالحروف المتحركة، تلك الثورة التى خرجت من أوربا وغزت العالم كله فى فترات مختلفة من حياة العالم بعد اختراع.الطباعة فى القرن الخامس عشر الميلادى؛ هذه الثورة غيرت وجه الكتاب ووجه العمل الفكرى فى العالم، ونقلت البشرية نقلة ضخمة فى مدارج الحضارة.

وتأتى الثورة الرابعة فى القرن العشرين، ونعنى بها ثورة الحاسبات والليزر وتكنولوجيا الاتصالات، وهى ثورة ما تزال تعتمل ولم تصل إلى محطتها النهاية كما وصلت الثورات الثلاث السابقة عليها، ونحن فى مطلع القرن الواحد والعشرين نعيش فى خضم تلك الثورة الرابعة ومن ثم لا نستطيع التأريخ لها وإنما فقط يمكننا أن نصفها ونسجلها ولا نحكم عليها.

أى اختراع مهما كان ليس وليد يومه أو سنته، بل وليد عقود وربما قرون ولكنه يولد كالطفل فى وقت محدد ينسب إليه ومن مخترع معين يعزى إليه، فالاختراع هو عمل زمن طويل وجهود بشرية متعاقبة، وقد لا تسير تلك الجهود فى خطوط متصلة بل قد تتداخل وتتباعد بل وتتضارب ولكنها فى النهاية تؤدى إلى الاختراع. واختراع الطباعة بالحروف المتحركة من هذا النوع الذى جاء عبر زمن طويل وتداخلت فيه جهود بشرية من أماكن مختلفة وبأساليب شتى.

لقد عرف الصينيون والكوريون قبل الأوربيين الطباعة بالكتل الخشبية كما عرفوا أيضاً الطباعة بالحروف المتحركة وربما كان ذلك لأسباب دينية وخاصة لطبع النصوص الدينية التى لا تحتاج إلى تغيير من وقت لآخر. وقد بلغت الطباعة بالكتل الخشبية أوج عظمتها وجمالها فى الصين فى ظل أسرة سونج (٩٦٠-١٢٧٩م) واستخدمت على نطاق واسع فى طبع النصوص المقدسة البوذية والكونفوشية. ومن المعروف أن رحالة أوربيين منهم «ماركو بولو» قد شهدوا الطباعة الصينية بالكتل الخشبية ولكن ما من مؤرخ يذكر التأثير المباشر للطباعة الصينية على اختراع الطباعة فى أوربا. ويشرح لنا المؤرخ الفارسى «رشيد الدين» فى (جامع التواريخ) عملية الطباعة الصينية بالكتل الخشبية وكيف احتكرتها الحكومة الصينية. ومن الثابت تاريخياً أن النقود الورقية الصينية المطبوعة كانت متداولة فى كل أنحاء آسيا وكانت تطبع فى تبريز سنة ١٢٩٤م.

لقد عرفت أوربا الطباعة بالكتل الخشبية قبل اختراع الطباعة بالحروف المتحركة بأكثر من نصف قرن واسخدمت أول ما استخدمت فى طباعة القماش وقد

وصلتنا قطعة قماش يرجح أن تاريخها سنة ١٣٥٠م وإن كان البعض يرى أنها سنة ١٤٠٠م. وفى بداية النصف الثانى من القرن العشرين اكتشفت كتلة خشب كانت تستخدم فى الطباعة فى برجانديا وكان حجمها ٢٤ X $\frac{١}{٢}$ ٩ بوصة وهو حجم أكبر من مقاس أى ورق كان معروفاً آنذاك وربما كانت معدة لاستخدامها فى طباعة القماش وعلى هذه الكتلة صورة تخطيطية لعملية الصلب وثلاثة جنود وجزء من الصليب. ويبدو أن هذه الكتلة كانت واحدة من عدة كتل معدة لإنتاج صور على ورق أو على قماش لعملية صلب المسيح.

ولقد كانت الصور الأولى لاستخدام الكتل الخشبية عبارة عن صور دينية ذات خطوط بسيطة يستخدمها الوعاظ أثناء وعظهم الناس وكما كانت تستخدم لطبع صور المسيح والقديسين لتوزيعها على الناس الذين يرتادون الكنائس والمزارات الدينية، ثم تطور الأمر بعد ذلك إلى طباعة مطويات ذات صور وأيضاً كلمات أو جمل بسيطة، وتطور فن الكتل الخشبية بعد ذلك لطباعة كتب بأكملها. وقد عرفت تلك الكتب باسم «كتب الكتل الخشبية». وكانت معظم كتب الكتل الخشبية هذه تطبع على ورق وبحبر سائل. ولم تكن هوامش تلك الكتب لتتساوى بسبب عدم السيطرة التامة على إنتاج تلك الكتل.

ويذكر المؤرخون الثقاة أن كتب الكتل الخشبية الباكرة ظهرت فى حدود سنة ١٤٥٠م فى هولندا ودول الراين الأسفل. ورغم أن الطباعة بالكتل الخشبية هذه قد سبقت الطباعة بالحروف المتحركة إلا أنها استمرت ـ كما سنرى فيما بعد ـ بعدها بزمان طويل، وقد وصلتنا نماذج من كتب الكتل الخشبية المطبوعة فى مطابع الحروف المتحركة وبحبر أسود ومطبوعة من الناحيتين.

وكما سبق أن ألمحت؛ كان الكثير من كتب الكتل الخشبية عبارة عن نسخ من الصور التى كانت موجودة بالفعل فى المخطوطات وكانت عملية طباعتها عملية بدائية وربما كانت المرسومة بخط اليد أفضل منها كثيراً. وكانت الصور فى الأعم الأغلب عبارة عن خطوط بسيطة بدون تظليل أو بالحد الأدنى من الظلال.

وعلى الرغم من ذلك وصلتنا كتب ذات صور رائعة وجذابة تنم عن فن أصيل.

لقد لقيت كتب الكتل الخشبية - وخاصة المصورة - رواجاً وإقبالاً كبيراً وكان يتم إنتاجها بأعداد كبيرة على يد فنانين محترفين سواء داخل الأديرة أو خارجها. وعلى الرغم من أن بعض تلك الكتب كان يطبع بكميات كبيرة من النسخ إلا أن ما وصلنا منها هو قليل للغاية.

ويقسم «نورمان بنز» كتب الكتل الخشبية هذه إلى ثلاث فئات رئيسية هى:

١- كتب تشتمل على الصور والنص معاً فى نفس الصفحة وإن كانت الصورة تشغل الجزء الأكبر من الصفحة.

٢- كتب تشتمل على الصورة فى صفحة لوحدها والنص فى الصفحة المقابلة لوحده.

٣- كتب لاتضم إلا النص فقط دون صور مصاحبة.

ولعل **إنجيل الناس الفقراء**[١] الذى لم يعرف مؤلفه هو خير مثال على الفئة الأولى. وكان الهدف منه تقديم حقائق الكتاب المقدس عن طريق الصور، وتقديم الأحداث الواردة فى العهد القديم والعهد الجديد بأسلوب مصور يقربه إلى العامة. ويرى البعض أن هذا الإنجيل كان يقتصر على الصور فقط عندما وضعه مؤلفه وأضيفت إليه النصوص الشارحة للصور فى تاريخ لاحق. وأول طبعة معروفة لدينا من إنجيل الناس الفقراء تقع فى أربعين صفحة مصورة على جانب واحد من الصفحة وبحبر بنى اللون. والملزمة تتكون من ورقتين فقط وبدون ترقيم. وكل صفحة مقسمة إلى تسعة إطارات: خمسة منها تشتمل على الصور، وأربعة على النص، والصور الثلاثة الرئيسية تأتى فى وسط الإطارات الخمسة، والصورة الوسطى تمثل مشهداً من العهد الجديد، بينما الصورتان اللتان على جانبيها تستقيان من العهد القديم وتدوران حول فكرة صورة الوسط. أما فى الإطارين الأول والخامس فإننا نصادف صورتين فى أما إطارات النص الأربعة فقد

(1) Biblia Pauperum.

وزعت على الأركان الأربعة للصفحة الواحدة. وبصفة عامة فإن الصور فى هذا الكتاب مرسومة بدقة وبعمق ومليئة بالظلال وتكشف عن أنها من صنع فنان موهوب، وعلى العكس من ذلك يبدو النص فى الأركان الأربعة مهزوزاً ومسافات السطور غير مضبوطة وصعبة القراءة.

وهناك فى مبلغ علمنا عشرة طبعات منفصلة من هذا الإنجيل بعضها باللاتينية وبعضها بالألمانية. وقد وصلنا من هذا الكتاب نحو خمسين نسخة كلها مطبوعة على ورق، رغم أن نوعية الورق وحجمه يختلف من نسخة إلى نسخة. ويعتبر هذا الكتاب حلقة وصل بين الطباعة بالكتل الخشبية والطباعة بالحروف المتحركة ذلك أنه قد طبعت منه سنة ١٤٦٢ طبعة بالحروف المتحركة توفر عليها «أولبرشت بفستر» من بامبرج.

وقد وصلنا من هذه الفئة أيضاً كتاب «**تاريخ إنجيل القديس يوحنا**»[١] وهو يضم نصاً قصيراً للغاية وسلسلة من الصور المتعاقبة كل صفحة تستوعب صورتين فقط. ومعظم الصور هنا عبارة عن خطوط بسيطة باللون الأسود ورسمت بطريقة بدائية. وقد طبع من هذا الكتاب ستة طبعات على الأقل بطريقة الكتل الخشبية إحداها تشتمل على خمسين وُرقة والأخريات على ثمان وأربعين. وكل طبعة تنطوى على ملامح خاصة بما يشى أنها من طبع طابع مختلف.

وربما كان أجمل كتاب فى هذه الفئة الأولى كتاب «**صور العذراء مريم من أغنية الأغانى**»[٢]. وهو يشتمل على ستة عشرة صفحة من القطع الصغير ومطبوع بالحبر البنى على وجه واحد فقط. وكل صفحة تتضمن صورتين فقط إحداهما تحت الأخرى متبوعة بنص شارح باللاتينية فى إطار يحيط بالصورة. والصور مفصلة وممتلئة وبها قدر معقول من التظليل. وبصفة عامة فإن هذا الكتاب يكشف عن فنان موهوب وطابع ماهر لأنه أفضل كثيراً من الكتابين السابقين. وقد وصلنا من هذا الكتاب طبعتان متميزتان.

(1) Historia Sancti Johannis Evanglistae egusque Visiones Apocalypticae.

(2) Historia Seu Providentia Virginis Mariae ex Cantico Canticorum.

فاذا انتقلنا إلى الفئة الثانية وجدنا من النماذج الممثلة لها كتاب «**كيف تتذكر الإنجليين**»[1]. وربما كان هذا الكتاب هو أول كتاب مطبوع على كتل خشبية وصلنا ويقع فى ثلاثين صفحة خصصت منها خمس عشرة صفحة للصور وخمس عشرة صفحة للنصوص وكل صفحة مطبوعة بالحبر البنى على جانب واحد فقط. وقد نظم الكتاب بحيث تطبع الصورة على صفحة والنص الشارح لها على الصفحة المقابلة. والصور نفسها فى غاية الغرابة حيث مُثِّل القديس «متى» بالملاك والقديس «مرقص» بالأسد والقديس «لوقا» بالثور والقديس «يوحنا» بالنسر. وكل صورة تتضمن أشكالاً جانبية رمزية إلى جانب كل منها أرقام كشفية تشير إلى فصول الإنجيل التى استقيت منها الأحداث المصورة. أما صفحات النص فإنها قد طبعت بحروف كبيرة بدائية مضغوطة فى إطار مسطر.

ويدخل فى الفئة الثانية أيضاً من كتب الكتل الخشبية كتاب «**آرس موريندى**»[2] وهو كتاب مجهول المؤلف ولكن يظن أنه كتب فى القرن الخامس عشر وليس قبل ذلك. والهدف الواضح منه هو إبراز المغريات التى تحيط برجل يموت. والكتاب ينطوى على مقدمة نصية فى صفحتين تتلوهما إحدى عشرة صفحة من الصور الكاملة تصور الرجل وهو يموت وحول سريره الشياطين تغريه فى الصورة الأولى؛ وفى الصورة الثانية يحاط الرجل بحراس من الملائكة. والصور الست التالية (من الثالثة حتى الثامنة) تصوره وقد أغرته شياطين اليأس والقنوط وعدم الرجاء. أما فى الصورة التاسعة فإن هذه الشياطين تنصحه بترك كل ممتلكاته لأصدقائه؛ بينما فى الصورة العاشرة نجد الملائكة تنصحه بعدم الاستماع للشياطين وإهمال وتجاهل نصائحهم وتقديم ممتلكاته للكنيسة. وفى الصورة الأخيرة نجد روح الميت تغادر جسده وتتلقاها الملائكة، بينما الشياطين تنصرف محبطة يائسة. ومن الواضح من هذا الكتاب أنه كان يستخدم لدفع الناس إلى ترك ممتلكاتهم للكنيسة.

---

(1) Ars Moreindi.

(2) Ars Memorandi.

وقد وصلنا من هذا الكتاب عشر طبعات، سبع منها باللغة اللاتينية وثلاث باللغة الألمانية. والنص فى هذا الكتاب متسق ومتوازن رغم أن تصميم الصور ونوعية قطعها وطباعتها يختلف من طبعة إلى طبعة. والطبعات الأولى مطبوعة بالحبر البنى على جانب واحد من الورقة، بينما الطبعات الأخيرة طبعت بالمطبعة وبحبر أسود وعلى وجهى الورقة.

وفى هذه الفئة الثانية أيضاً نصادف كتاب «**مرآة الخلاص الإنسانى**»[1] وهو ثالث أهم كتب هذه الفئة. وقد وصلنا منه حتى الآن أربع طبعات من القطع الصغير: اثنتان باللاتينية واثنتان بالهولندية. الطبعة اللاتينية تشتمل على ثلاث وستين ورقة بينما الهولندية تشتمل على اثنتين وستين ورقة. وكل هذه الطبعات تفتقر إلى تاريخ الطبع كما تفتقر إلى مكان الطبع واسم الطابع. ويعتقد بعض الثقاة أن هذا العمل من إنتاج «لورنز كوستر» من هارلم الذى يقترن اسمه باختراع الطباعة منافساً لـ «يوحنا جوتنبرج»، ولكن الدليل على ذلك ضعيف.

وهذا الكتاب يقف هو الآخر فى مرحلة الانتقال بين طباعة الكتل الخشبية وطباعة الحروف المتحركة حيث أن طبعتين من طبعاته الأربع مطبوعتان على ماكينة الطبع واثنتان مطبوعتان بالطريقة التقليدية وبالحبر البنى. وكل الطبعات مطبوعة على وجه واحد من الفرخ. ويشبه هذا الكتاب كتاب (إنجيل الناس الفقراء) فالتصميمات والحفر على الخشب واحدة وربما قام بها فنان واحد. والكتاب يشتمل على ثمانية وخمسين صورة كل منها تمثل ترويسة الصفحة. وكل منها مقسومة إلى قسمين بعمود هندسى، والقسم الأيسر يضم صورة من العهد الجديد والقسم الأيمن يضم نظيرتها من العهد القديم، ونصادف من حين إلى آخر صوراً تمثل موضوعات خارجة عن نطاق الكتاب المقدس. الجزء الأسفل من كل صفحة يشغل عمودين من النصوص.

لقد كان هذا الكتاب شائعاً كمخطوط منذ القرن الثالث عشر وتوجد منه نسخ مخطوطة فى معظم الأديرة الأوربية، ومن المرجح أن طبعات الكتل الخشبية قد بنيت على هذا الشكل المخطوط.

---

(1) Speculum Humanae Salvationes.

ومن ناحية أخرى وصلتنا مجموعة متميزة أخرى من هذه الفئة الثانية، من بينها كتاب «**ضد المسيح**» وصناعته بدائية وقد وصلتنا منه طبعة واحدة فى ثمان وثلاثين ورقة، وكتاب «**عجائب روما**» وهو دليل إرشاد للحجاج الألمان إلى روما. وكتاب «**قراءة الكف**» من تأليف جون هارتليب ويضم ٤٤ خريطة لراحة كف الإنسان وربما يكون قد كتب سنة ١٤٤٨م. وكتاب «**حياة القديس مينرات**»، وكتاب «**إغراءات الشيطان**» وكتاب «**رقصة الموت**» وكتاب «**الكرة الأرضية والتقويم**» وهذا الأخير مكتوب بالألمانية.

وإذا توجهنا نحو الفئة الثالثة من كتب الكتل الخشبية لوجدنا على رأسها «**كتاب النحو**» الذى وضعه إليوس دوناتوس[1]. وكان أوسع كتب النحو اللاتينى انتشاراً فى العصور الوسطى. وهو الكتاب الوحيد الذى يقتصر على النص فقط وقد ظهر الكتاب فى طبعتين: إحداهما تتألف من ٣٤ صفحة مطبوعة بحروف كبيرة، والثانية فى تسع صفحات بحروف صغيرة. وعلى خلاف كتب الكتل الخشبية الأخرى طبع هذا الكتاب فى المطبعة وعلى رق وليس ورق وبالحبر الأسود. وللأسف لم تصلنا من هذا الكتاب أية نسخة كاملة.

ومن المؤكد أن طباعة الكتل الخشبية كانت مرهقة للغاية، وكان تقطيع الحروف وتصميمها ورسمها على الخشب يحتاج إلى مهارة عالية. وكان كل حرف لابد وأن يرسم ويقطع مقلوباً، وكانت كتابة وتقطيع الجملة الواحدة تحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل وتركيز حاد وكانت عرضة للفشل فى كثير من الأحيان؛ وربما لذلك السبب كانت كتب الكتل الخشبية لا تشتمل إلا على الحد الأدنى من النص. يضاف إلى ذلك أن النص كان يبقى ثابتاً.

وكلما زاد الطلب على كتب الكتل الخشبية هذه ظهرت الحاجة إلى نصوص أطول؛ مما دفع الطابعين إلى البحث عن طريقة أسهل فى طباعة الكتب وربما لجأ أكثر من طابع إلى تقطيع الكتل الخشبية إلى حروف منفصلة وإعادة ترتيبها للخروج بنص جديد، وربما كان أحد الطابعين يصنع كتلة خشبية لنص معين

(1) Donatus de Octibus Partibus Orationis.

فانفرط منه النص وهو يقطعها، ففكر فى الحروف المفردة يصنع كل منها على حدة ويجمعها معاً لنص معين ثم يفرقها بعد الطبع ليستخدمها فى نص جديد. المهم أننا لا نعرف على وجه الدقة كيف اخترعت الحروف المتفرقة: هل جاءت عمداً أو محض صدفة. المهم أنه فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ولد الاختراع الجديد «الطباعة بالحروف المتحركة أو المتفرقة»؛ ومن أية مادة صنعت الحروف المتفرقة الأولى؛ هل من الخشب ـ امتداداً للكتل الخشبية ـ أم صنعت بداية من المعدن، وهل كان فى ذهن المخترع الأوربى تجارب وخبرات أسلافه فى الصين وكوريا الذين صنعوها أيضاً من الخشب، بل ومن الفخار؟ الحقيقة أن الوثائق التى بين أيدينا لا تقدم دليلاً شافياً إلى أى اتجاه. ومن المعروف أن الحروف المصنوعة لوحدها من الخشب لا تلبث بعد شىء من الاستعمال أن تتمدد ثم تتقوس وتنتفخ وربما تتكسر. وسبك المعادن لم يكن شيئاً جديداً على البشرية بل هو معروف منذ قدماء المصريين، وقد سك الرومان العملات المعدنية وكتبوا عليها ومن ثم يمكن افتراض أن الطابعين الأول قد جربوا الخشب ثم جربوا المعدن بعد ذلك، ويفترض أيضاً أن هذا المعدن كان النحاس أو الرصاص أو مزيجاً يقوى لذلك الغرض.

إننا يجب أن ننظر إلى اختراع الطباعة بالحروف المتحركة على أنه ليس عملاً سهلاً ولا اكتشافاً فردياً ولكنه جاء نتيجة تجارب عديدة ووجهات نظر مختلفة. فقبل سبك الحروف لابد من الحصول على معدن رخو يمكن أن يذوب بسهولة وفى نفس الوقت لا ينكمش عند التبريد، وبعد التبريد يجب أن يكون صلباً يتحمل الضغط والكبس دون أن يتكسر أو ينثنى. واكتشاف هذا المعدن هو أن يكون خليطاً من الصفيح والرصاص والأنتيمون. وهذا المزيج من المعادن الثلاثة هو أحد الملامح الهامة فى اختراع الطباعة ومن ثم لاينبغى أن نفكر فى هذا الاختراع على أنه عمل فرد واحد. فى نفس الوقت كان لابد من تجارب عديدة ومريرة لإنتاج نوع من الحبر يناسب الطباعة الجديدة؛ ذلك أن الحبر البنى الذى استخدم فى كتل الخشب كان سائلاً أكثر مما ينبغى للاستخدام مع الحروف المتحركة، ومن هنا صنع نوع جديد من الحبر بتركيبة مختلفة. وطباعة الكتل الخشبية لم تكن تصلح إلا لطبع وجه واحد من الورقة ولم يكن يصلح معها

استخدام الرقوق التى كانت تحتاج لضغط شديد حتى يثبت الحبر عليها. وكان اختراع آلة الطبع قد تمثل بكل تأكيد فى الطابعات أو لنقل الضاغطات الأخرى مثل عصارات النبيذ وضغاطات الورق وضغاطات الملابس وغيرها من من الضاغطات التى كانت مستخدمة فى الحياة اليومية. ومن المشكلات الأخرى التى صادفت اختراع الطباعة وتؤكد أنه لم يكن عملاً فردياً، مشكلة كيف تضم الحروف الفردية معاً لتكون كلمات، والكلمات معاً لتكون سطوراً فى كلٍّ واحد متماسك كى لاينفرط عقدها تحت ضغط الكبس على آلة الطبع.

مخترع الطباعة بالحروف المتحركة.

بعد المقدمة السابقة لا نستطيع حتى الآن أن نجزم بأى قدر من اليقين من هو مخترع الطباعة بالحروف المتحركة. ذلك أن هناك شخصاً آخر ينازع «يوحنا جوتنبرج» اختراع الطباعة بالحروف المتحركة، وادعاءات كل منهما تستحق منا وقفة تأمل وتفكير وتدبر.

«يوحنا جوتنبرج» - الذى يعزى إليه اختراع الطباعة بصورة أقوى من غيره - ولد فى مدينة ماينز حوالى سنة ١٣٩٨م ومات فيها سنة ١٤٦٨م أو قبلها بقليل. وكان ينتمى إلى طبقة الأشراف، وكان أبوه «فريلو جنزفلايش» المحاسب العام لمدينة ماينز. وطبقاً للعادات والتقاليد المحلية تسمى يوحنا باسم عائلة أمه «إلسن جوتنبرج» لأنها كانت آخر جيل العائلة واسم العائلة يوشك أن ينقرض. وفى سنة ١٤٢٠ ثار مواطنو ماينز ضد حكم الأشراف وهرب عدد من أسرة «جنزفلايش» إلى خارج ماينز ومنهم «جوتنبرج» نفسه الذى لجأ إلى ستراسبورج، وقد اشتهر هناك بصناعة المرايا، وتشير سجلات تلك المدينة أنه كان يقترض المال من حين لآخر، وكان مطلوباً من العدالة بسبب الحنث فى اليمين والخلف بالوعد والتهرب من ضرائب النبيذ.

وفى سنة ١٤٣٨م دخل «جوتنبرج» فى شراكة مع اثنين من المساعدين حيث يساعدانه بالمال لتنفيذ فن معين، يعتقد الثقاة أنه فن الطباعة؛ وقد ظل فى ستراسبورج حتى ١٤٤٠م فليس له ذكر فى سجلاتها بعد ذلك التاريخ. وربما

يكون قد عاد إلىماينز سنة ١٤٤٨م إذ سجل فى تلك السنة مرة أخرى كمواطن فيها.

وفى سنة ١٤٥٠م دخل فى شراكة مع «يوحنا فوست» وهو صائغ أقرضه مبالغ من المال بضمان آلاته. وفى سنة ١٤٥٥م طالبه «فوست» برد القرض، ومن واقع سجلات المحكمة يثبت لنا أن الشراكة كانت تتعلق بالطباعة. ولقد كسب «فوست» القضية مما أدى إلى إفلاس «جوتنبرج». ومنذ ذلك التاريخ لم نعد نسمع شيئاً كثيراً عن نشاطه. ويقال أنه فتح مطبعة صغيرة يعمل فيها لنفسه دون شركاء بعد ذلك التاريخ ولكن ليس هناك ما يؤكد ذلك. وفى سنة ١٤٦٥ قبل وظيفة متواضعة قدمها له كبير أساقفة مايزن. وتوفى سنة ١٤٦٨م أو قبلها ويقال إنه دفن فى كنيسة الفرنسسكان فى ماينز.

والأدلة التى تثبت أن «يوحنا جوتنبرج» هو صاحب اختراع الطباعة بالحروف المتحركة تقع فى فئتين : **الأولى** كتابات المعاصرين له أو كتابات المؤرخين الذين أعقبوا تلك الفترة مباشرة. **والثانية** المعلومات التى تمدنا بها الوثائق الرسمية على النحو الذى صادفناه من قبل فى سجلات ستراسبورج وماينز.

ومن بين أهم الكتابات التى عاصرته أو لحقته نأتى على:

١ - فرنسا - دار سك النقود الملكية.

حيث يوجد نص مستخرج من السجلات الخطية يعتقد أنه مكتوب فى القرن الخامس عشر. والنص يسير على النحو الآتى:

لقد علم «تشارلز السابع» ملك فرنسا فى أكتوبر ١٤٥٨م باختراع الطباعة فى مدينة ماينز على يد «يوحنا جوتنبرج» وعليه أمر «نيقولاس جنسون» مدير دار سك النقود بالذهاب إلى ماينز سراً والحصول على تفاصيل الفن الجديد.

٢- تعاليم جو ستنيان(١)

فى حرد المتن فى إحدى طبعات هذا العمل التى طبعها «بيتر شوفر» فى مدينة ماينز سنة ١٤٥٨م نصادف قصيدة باللاتينية تشير عن طريق التورية إلى اختراع

---

(1) Institutiones of Justinian.

الطباعة فىماينز على يد كل من الجوهانين (مثنى جون : جوهان) «أول من صف حروف الكتب» واللذين لحق بهما بيتر فيما بعد (من الواضح أنه بيتر شوفر نفسه)، والذى «وإن جاء متأخراً كان أول من حقق الهدف وتفوق عليهما فى فن الحفر».

٣- غليوم فيشيت. أستاذ فى السوربون . باريس.

فى خطاب له إلى «روبرت جاجوين» مؤرخ فى رأس السنة الجديدة ١٤٧١م يشير إلى اختراع الطباعة ويقر أنه بناء على تقارير قدمها كل من «كرانتز»، «فرايبورجر»، «جيرنج» ـ وهم جميعاً من الألمان وأوائل الطابعين فى فرنسا ـ فإن «يوحنا جوتنبرج» من ماينز هو أول من اكتشف طريقة عجيبة جديدة فى إنتاج الكتب بواسطة حروف معدنية متفرقة.

هذا الخطاب وجد مطبوعاً فى الفرخ الأخير من كتاب (ضبط الهجاء) لـ «جاسبارينى بيرجامنسيس»[١]. ولأن هذا الخطاب صدر عن شخص محايد لا مصلحة له فإنه يعتبر دليلاً هاماً فى نسبة الاختراع إلى «يوحنا جوتنبرج».

٤- جوهان فيلبوس دى لجنامين.

فى تتمته التى قام بها للحوليات التى بدأها «ريكو بالدوس» من فيرارا[٢] ونشرت فى روما سنة ١٤٧٤م، يضع «دى لجنامين» أول إشارة تاريخية إلى اختراع الطباعة فتحت رأس سنة ١٤٥٨-١٤٥٩ يقرر أن يعقوب (جاكوب) الشهير جوتنبرج وهو مواطن من ستراسبورج وشخصاً آخر اسمه «فوست»، كلاهما برع فى الطباعة على الرقوق بحروف معدنية. وقد عرف عن كل منهما أنه يطبع ٣٠٠ فرخ فى اليوم فى مدينة ماينز فى ألمانيا.

٥- ماتياس بالمر.

فى طبعة جديدة من جداول «يوسبيوس» الحولية[٣] التى نشرها «إيراهاردت

(1) Gasparini Bergamensis Orthographiae Liber.

(2) Chronica Summorum Pontificum.

(3) Chronological tables of Eusebius.

راتدولت» سنة ١٤٨٣؛ يضع «ماتياس بالمر» عبارات محددة تحت سنة ١٤٥٧م ومن بينها «لقد اكتشفت نظرية طباعة الكتب سنة ١٤٤٠م على يد «يوحنا جوتنبرج» سوم جونجن الفارس فىماينز على نهر الراين بعبقريته الفذة غير العادية».

٦- حولية كولون لجوهان كولهوف.[1]

يخصص هذا الكتاب فصلاً كاملاً عن اختراع الطباعة ويقدم تفاصيل ممتعة عن كل الأحداث الباكرة والخلافات التى وقعت فى السنوات الأولى لهذا الاختراع. وهو يقرر أن الاختراع «حدث حوالى سنة ١٤٤٠م ومنذ تلك السنة وحتى سنة ١٤٥٠م تمت معرفة كل أسرار هذا الفن بالكامل. ولقد بدأ الطبع سنة ١٤٥٠ وكان أول كتاب هو الكتاب المقدس اللاتينى وقد طبع بحروف كبيرة. وعلى الرغم من أن هذا الفن كما يمارس الآن قد اكتشف فى ماينز، إلا أنه اكتشف فى هولندا واستخدم فى وقت مبكر فى طباعة كتاب دوناتوس، ولكنه كان هناك بدائياً ثم تم تطويره وتحسينه بعد ذلك. ولم يكن هذا الاختراع ـ كما قرر «أومنيبونوس» فى مقدمته لأعمال «كوينتنيان» ـ من اكتشافات «نيقولاس جنسن» الفرنسى، ولكنه اكتشاف مواطن من ماينز ولد فى ستراسبورج ويدعى السير«جون جوتنبرج». ومن ماينز انتقل الفن إلى كولون أولاً ثم إلى ستراسبورج وبعدهما إلى فينسيا. ويقرر كاتب هذه الفقرة أن المعلومات قد قدمت له شفوياً من «أولرخ زيل» الطابع فى كولون سنة ١٤٩٩م (الفصل الرابع من الكتاب).

٧- يوحنا شوفر.

«يوحنا شوفر» هو ابن «بيتر شوفر» شريك «يوحنا فوست». وهو يقرر فى مقدمة لأعمال ليفى والمنشورة سنة ١٥٠٥م «أن فن الطباعة قد اخترع سنة ١٤٥٠م على يد يوحنا جوتنبرج، وقد أتم الاختراع وأتقنه كل من يوحنا فوست وبيتر شوفر».

ويعتبر هذا التقرير دليلاً هاماً فى هذا المقام لأن ابن «بيتر شوفر» كان معاصراً للأحداث وشاهداً عليها. ورغم خلافات والده مع «يوحنا جوتنبرج» إلا أنه يشهد بأن هذا الأخير هو صاحب الاختراع.

---

(1) Johann Koelhoff's Cologne Chronicle, 1499.

٨- بوليدور فيرجيل.

فى كتابه عن «تاريخ الاختراعات»[1] (الطبعة الثانية؛ بازل سنة ١٥٢٤م) يقرر «فيرجيل» أن يوحنا جوتنبرج، ألمانى من أسرة عريقة هو أول من اخترع الطباعة بالحروف المتحركة من مدينةماينز بألمانيا وبالبحث المتأنى توصل إلى نوع جديد من الحبر لتلك الطباعة. وكان فيرجيل فى الطبعة الأولى من كتابه قد ذكر أن الطباعة قد اخترعت على يد «بيتر ما».

٩- جوهان تريتهايم : حولية هيرشاو[2].

كتبت هذه الحوليات سنة ١٥١٤م ولم تنشر إلا سنة ١٦٩٠، وتتضمن قطعة يمكن ترجمتها بتصرف على النحو الآتى:

«فى هذا الوقت وفى مدينة ماينز الألمانية على نهر الراين وليس فى إيطاليا كما زعم البعض زوراً وبهتاناً، اخترع فن الطباعة الذى لم يكن معروفاً من قبل على يد «يوحنا جوتنبرج» مواطن ماينز فى اللحظة التى وصل فيها إلى مرحلة اليأس لأنه كان قد أنفق كل ثروته على هذا الاختراع وحيث كان يعمل فى فقر مدقع. وبمساعدة من «يوحنا فوست» وهو مواطن آخر من ماينز استطاع أن يتمم ما بدأه ويكمل نواقصه. وفى البداية طبعا القاموس المعروف باسم: «الدواء العام»[3] باستخدام الحروف المقطوعة من كتل الخشب ولكن نظراً لثبات النص عليها فلم يتمكنا من طبع أى شىء آخر سواها. ولكن بعد ذلك توصلا إلى طرق جديدة لإعداد حروف متفرقة من المعدن تمثل الحروف اللاتينية. ومن هذه الحروف النحاسية أو الصفيح يمكن إعادة صف أى نص من جديد بدلاً من حفر الحروف على الخشب فى كل مرة يدوياً. وفى الحقيقة - وكما قال لى منذ ثلاثين سنة مضت «بيتر أوبليو» من جيرنشايم وهو مواطن من ماينز أيضاً، وهو زوج ابنة المخترع الأول للطباعة - إن فن الطباعة قد واجه صعوبات عديدة منذ البداية.

(1) Polydore Vergil. History of Inventions.

(2) Johann Tritheim : Chronicle of Hirschau.

(3) Catholicon.

ولقد طبعا الكتاب المقدس وقد كلفهما ذلك ٤٠٠٠ فلورين قبل أن يتما القسم الثالث. ولكن «بيتر أوبليو» نفسه. . . وهو رجل ألمعى استطاع اختراع طريقة أسهل لصب الحروف مما أوصل فن الطباعة إلى ما هو عليه الآن من كمال. وهؤلاء الرجال الثلاثة احتفظوا بسر الطباعة حتى تم الكشف عنه أولاً فى ستراسبورج وبعد ذلك فى كل بلد عن طريق الخدم الذين اضطروا إلى الاستعانة بهم فى عملهم».

هذا إلى جانب الكتابات التى كتبها معاصروه أو لاحقوه. أما على جانب الفئة الثانية وهى الوثائق الرسمية، فهناك ثلاث وثائق أو تقارير عن وثائق تتعلق بنشاطات وهى:

أ- سجلات محكمة ستراسبورج لسنة ١٤٣٩م.

دخل «يوحنا جوتنبرج» فى نوع من الشراكة مع «أندرياس دريتزن» و «أندرياس هيلمان»، وقد وافق فى حالة وفاة أيهما أن يدفع لورثته مائة جولدن؛ وعندما مات دريتزن وطالب الورثة بالمال أو يحلوا محله فى الشراكة، استطاع «جوتنبرج» أن يثبت أن دريتزن كان مديناً له بخمسة وثمانين جولدن، وقدم للورثة خمسة عشر جولدن وقضت المحكمة لصالحه. وقد قرر شهود القضية أنه عند وفاة دريتزن اتخذ «جوتنبرج» خطوات سريعة لإزالة أجزاء المطبعة من بيت «دريتزن» حتى لا يتعرف أحد على طبيعة العمل الذى كانا يقومان به.

ومن سوء الحظ أن الوثائق الدالة على أن «يوحنا جوتنبرج» وشركاه كانوا يعملون فى مجال الطباعة قد دمرت سنتى ١٧٩٣ و١٨٧٠، وأن التقرير الدال على وجود تلك الوثائق ومحتوياتها قام بإعداده شخص يدعى «دانييل شوبفيلين» وقد عرف عنه فى سياقات أخرى أنه غير دقيق بل وغير أمين مما يضع تقريره هذا موضع الشك، ولكن من جهة ثانية لا يمكن لأى شخص يرغب فى تزييف وثائق لصالح «جوتنبرج» أن يزيفها بهذه الدقة وينسبها إلى المحكمة.

٢ ـ سجلات المحكمة فىماينز سنة ١٤٥٥.

فى سنة ١٤٥٠ اقترض «جوتنبرج» مالاً من «فوست» بضمان آلاته، ثم بعد ذلك اقترض مبالغ أخرى لنفس الغرض وبنفس الضمان. وعندما عجز عن رد تلك الأموال اضطر «فوست» إلى مقاضاته لتسديد الديون. وقد تردد فى السجلات والوثائق كلمات: الأجور، الإيجار، الورق، الحبر، الرقوق و«المال المخصص لصناعة الكتاب»، مما يؤكد أن «جوتنبرج» كان يشتغل بالطباعة. وقد حكمت المحكمة لصالح «فوست». وعندما عجز «جوتنبرج» عن سداد القروض استولى «فوست» على أجهزة الطباعة.

٣ ـ دعوى رفعها الدكتور كونراد هيومرى.

وثمة مطالبة قدمها الدكتور «كونراد هيومرى» يطالب فيها كبير أساقفة ماينز بتسليمه حروف طباعية معينة وأجهزة خلفها «جوتنبرج» عند وفاته زاعماً أن هذه الحروف والأجهزة «كانت وما تزال ملكى». وقد أرخت هذه الدعوى سنة ١٤٦٨م.

وثمة قرينة أخرى لصالح «جوتنبرج» قدمها مؤيدوه، وهى أن «فوست» و«شوفر» شركاء «جوتنبرج» لم يزعما خلال حياته أنهما من أصحاب اختراع الطباعة بالحروف المتحركة. ولو كان لديهما أى حق فى هذا فإنهما لم يكونا ليترددا فى ادعائه. ورغم الخلافات بين «فوست» و«جوتنبرج» إلا أنه لم يزعم شيئاً من ذلك.

أما الشخص الثانى الذى يدعى اختراعه لفن الطباعة فهو الهولندى «لورنز جانسزون كوستر»[1] وهو من مدينة هارلم فى هولندا ونحن لا نعرف شيئاً كثيراً عن حياته إلا أنه عاش فى تلك المدينة هارلم بين ١٤٣٦ و١٤٨٣م. وكان حارس فندق وتاجراً وتولى وظيفة حارس غرفة المقدسات فى كنيسة هارلم. أما الأدلة على أنه مخترع الطباعة فإنها تقع فى فئتين: الأولى إشارات المؤرخين وغيرهم إلى اختراعه، والثانية النماذج الفعلية التى وصلتنا من المطبوعات الباكرة التى يقال إنها من إنتاجه.

(1) Laurens Janszoon Coster.

والإشارات التى وصلتنا من الفئة الأولى هى:

١- حولية كولون

وقد سبقت الإشارة إليها حيث يسير الجزء الخاص بهولندا على النحو التالى: «وعلى الرغم من أن هذا الفن كما يمارس الآن اكتشف فى ماينز، إلا أنه اكتشف فى هولندا واستخدم فى وقت مبكر فى طباعة دوناتوس، ولكنه كان هناك بدائياً ثم تم تطويره وتحسينه بعد ذلك...».

٢- حوار جان فان زورين حول الاختراع الأول للطباعة.[1]

تشير مقدمة هذا الكتاب الذى طبع لأول مرة بين ١٥٤٩ و ١٥٦١م وأعيد طبعه كما هو فى القرن السابع عشر على يد «بتروس سكريرفيرويوس» من هارلم أن فن الطباعة الذى وصل مرحلة الكمال فى ماينز كان قد اخترع بشكل بدائى فى هارلم. ولقد بدأ هناك فى منزل خاص على الرغم من أنه آل بعد ذلك إلى أجنبى، وترك الظروف الصعبة فى الدولة الأم وتضاعفت أجهزته وأخيراً ظهر على الملأ فى ماينز».

٣- ديرك فولكرتزون كورنهارت : الإهداء فى إحدى طبعات شيشرون المطبوعة فى هارلم سنة ١٥٦١[2]

يقرر «كورنهارت» فى هذا العمل أن الطباعة الأولى قد تمت فى هارلم، وقد سرق هذا الاختراع عامل غير أمين إلى ماينز وتم تطويره هناك وتحسينه إلى درجة أن نسب فضل هذا الاختراع إلى تلك المدينة دون هارلم. ويزعم أنه قد شاهد منزل المخترع الأول فى هارلم وذكر له اسمه الذى نسيه مع ذلك.

٤- أدريان دى جونهى (هادريانوس جونيوس). مؤرخ هولندى.

فى كتابه «**باتافيا**»[3] الذى كتبه سنة ١٥٦٨ ونشره فى أنتويرب سنة ١٥٨٨م

---

(1) Jan Van Zuren's Dialogue on the First Invention of Printing.

(2) Dirke Volkertzoon Coornhert : Dedication of Cicero's De Officiis, Printed in Haarlem in 1561.

(3) Adrian de Jonghe (Hadrianus Junius), Dutch Historian : Batavia.

يقدم لنا «جونيوس» تقريراً مطولاً حول الاختراع الهولندى للطباعة، وهو لا يكتفى بالاتفاق مع المصادر السابقة ولكنه يحدد اسم «كوستر» على أنه المخترع الأول للطباعة. وهذا التقرير هو الوثيقة الرئيسية التى يبنى عليها مؤيدو «كوستر» دفوعهم باعتباره صاحب اختراع الطباعة. وقد ورد فى هذا التقرير أن «كوستر» كان يعيش فى بيت كبير فى هارلم سنة ١٤٤٠م وأنه كان يعيش بالقرب من الغابة وكان يسلى نفسه بقطع حروف بالمقلوب على جذع شجرة الخوخ، وبعد ذلك كان يحبر تلك الحروف ثم يطبعها على الورق فتصير كتابة مقروءة يسلى بها أحفاده!

ولما نجحت هذه العملية طلب مساعدة زوج ابنته واستطاعا اختراع نوع من الحبر يصلح لطباعة هذا النوع من الحروف. وبهذه الطريقة استطاع أن يطبع صفحات بأكملها من النصوص وأن يضيف صفحات إلى الكتب المطبوعة بالكتل الخشبية. ويستمر «جونيوس» فى القول «وقد رأيت كتاباً صغيراً من هذه الطباعة ويعتبر من باكورة إنتاجه البدائى، وهو مطبوع على وجه واحد من الورقة دون الظهر وهو كتاب مكتوب باللغة العامية وغير معروف المؤلف ولكن عنوانه كان «مرآة خلاصنا». ومن الملاحظ فى ذلك الإنتاج الذى ما يزال فى مهده لصق الأوراق ظهراً لظهر بلاصق معين حتى لا تظهر الجوانب غير المطبوعة. وبعد فترة من الزمن استخدم «كوستر» الرصاص فى تصنيع حروفه ثم بعد ذلك استخدم الصفيح الذى كان أمتن من الرصاص. وقد أثار اختراعه اهتمام العامة وحب الاستطلاع لديهم مما اضطره إلى الاستعانة ببعض العمال الذين كان من بينهم واحد يدعى «يوحنا» وربما كان «يوحنا فوست» (!!) الذى أصبح شريكاً «ليوحنا جوتنبرج» فيما بعد. هذا الرجل تعلم كل شىء عن فن الطباعة. وفى ليلة الكريسماس عندما كان كل الناس فى الكنيسة اقتحم غرفة الطباعة وسرق كل أدواتها ومعداتها. ومن ثم لم يعد «كوستر» قادراً على مواصلة العمل وأدى به ذلك إلى الفاقة والفقر. وذهب اللص بعد ذلك إلى ماينز وفتح محلاً للطباعة ونال الجوائز العظام من وراء سرقته. ولقد نشر بعض الكتب من بينها كتاب (التعاليم) لـ «ألكسندر جاللوس»[1] الذى صدر سنة ١٤٤٢ وطبعه بنفس الحروف التى صنعها «كوستر» فى هارلم. ويختتم

(1) Alexander Gallus : Doctrinale.

«جونيوس» قصته بقوله: «إن هذه المعلومات قد قصها عليه «كورنيليس» المجلد العجوز المحترم فى هارلم الذى كان زميلاً وصديقاً للص»!

هذه القصة ـ كما يرى البعض ـ تنطوى على عدة بيانات تثير الشك والريبة، **أولها** أن شخصاً استوعب سر الطباعة، وفهمه جيداً ومارسه لم يكن فى حاجة إلى سرقة قوالب السبك وأجهزة الطبع والحروف، ذلك أنه يعرض نفسه للمخاطرة من جهة ومن السهل عليه أن يصنع غيرها فى أى مكان آخر. **وثانيها:** أن سرقة هذه المعدات والقوالب لم تكن لتعرض صاحبها للدمار والفاقة، طالما أنه يعرف كيف يعوضها ويصنع غيرها. **وثالثها:** أن فحص الحروف الأولى المستخدمة فى ألمانيا تؤكد أنه لا علاقة لها بالأصل الهولندى. **ورابعها:** تؤكد القصة إلى أن «فوست» كان هو العامل الذى سرق ذلك الاختراع، ولا نعتقد أنه قدمه إلى «يوحنا جوتنبرج» يدعيه لنفسه. **وخامسها:** أن القصة كلها مجرد رواية منقولة شفاهة وتم تسجيلها بعد ١٣٠ سنة من حدوثها، ومن هنا فإنها تثير الشك والريبة حولها.

ولكن على الجانب الآخر فإن هذه القصة تؤكد على أن «كوستر» شخصية حقيقية كان لها وجود فعلى، بيد أنه ليس هناك أية أوراق رسمية معاصرة تثبت علاقته بالطباعة على النحو الذى صادفناه بالنسبة «ليوحنا جوتنبرج». كما ثبت لنا بالفعل وجود مجلد يحمل اسم «كورنيليس» عاش فى هارلم فى الفترة المذكورة وأننا قد عثرنا على قطع من المطبوعات الباكرة استخدمها ذلك الشخص فى تجليد كتب قديمة. وهذه القطع تمثل الدليل القوى؛ وهى مطبوعة بثمانية أشكال متميزة من الحروف لا يمكن نسبة أيها إلى أى طابع ألمانى معروف لدينا. وهناك أدلة دافعة ومعلومات لايرقى إليها الشك عن وجود طباعة باكرة فى هولندا، من بينها ما نجده فى دفتر حسابات «جين روبرت» أسقف دير سانت أوبيرت فى كامبراى، حيث يقول ما معناه إنه دفع ٢٠ سو فى يناير ١٤٤٥ ثمناً لنسخة مطبوعة من كتاب معين يشترى من بروغيز.

وتشير النماذج التى وصلتنا من المطبوعات الهولندية الباكرة أن الطباعة بالحروف المتحركة فى هولندا سبقت نظيرتها فى ألمانيا رغم أنها كانت بدائية وناقصة النضج. وربما يكون «كوستر» هو المخترع الأول للطباعة بالحروف المتحركة رغم أنه يعوزنا الدليل القاطع على ذلك. ومن جهة ثانية فسواء كانت الطباعة بالحروف المتحركة قد بدأت فى ماينز أم لا فإنها قد بلغت مرحلة النضج والكمال هناك.

لقد وصلتنا من هولندا النماذج الآتية من أوائل المطبوعات بالحروف المتحركة:

١- مرآة الخلاص الإنسانى. وقد سبق أن أشرت إليه حيث طبع بالكتل الخشبية ويمثل مرحلة انتقال هامة بين الكتل الخشبية والحروف المتحركة فالصور مطبوعة بالكتل الخشبية والنص مطبوع بالحروف المتحركة.

٢- كتاب دوناتوس فى النحو. وقد سبقت الإشارة إليه أيضاً. وقد وصلنا منه عشرين طبعة مختلفة من هولندا ولم يصل إلينا أى نسخة كاملة من هذه الطبعات بل هى مجرد قطع.

٣- تعالم العقيدة(١) وسبقت الإشارة إليه. وقد وصلتنا منه ثمانى طبعات.

٤- دوبيتات (مقاطع شعرية كل منها يتألف من بيتين فقط) ديونيسيوس كاتو(٢). وقد وصلنا منها ثلاث طبعات.

ونحن فى حقيقة الأمر أمام مشكلة حقيقية فى نسبة اختراع الطباعة إلى مخترعه الحقيقى: من بدأه ومن أتمه وأكمله؟ ومما يضاعف حيرتى أنه تحت يدى الآن كتابان عن وثائق «يوحنا جوتنبرج»، **أولهما** قام بإعداده الدكتور «كارل شورباخ» أمين مكتبة ستراسبورج سنة ١٩٠٠ وترجمه إلى الإنجليزية الببليوجرافى الألمعى «دوجلاس ماكمرتيرى» ونشر فى نيويورك سنة ١٩٤٠ بمناسبة مرور خمسة قرون على اختراع الطباعة بالحروف المتحركة. وقد قصد من وراء جمع

(1) Doctrinale.

(2) Distichs of Dionysius Cato.

هذه الوثائق إثبات بنوة الطباعة بالحروف المتحركة إلى «يوحنا جوتنبرج». **وثانيهما** قام بإعداده «كارل شورباخ» لينفى فيه وبه نسبة اختراع الطباعة إلى «يوحنا جوتنبرج» ويفند الوثائق التى سيقت فى هذا الصدد.

ولست فى هذا المقام بصدد الدخول فى تفاصيل تلك الوثائق فهذا موضوع آخر، ولكننى سأمر سريعاً على الكتابين:

أ- شورباخ، كارل. وثائق يوحنا جوتنبرج/ مع ترجمات النصوص إلى الإنجليزية، إعداد دوجلاس ماكمرتيرى.- نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٤٠. ٢٣٩ ص، ٢٤سم[1].

وقد ورد فى هذا الكتاب سبع وعشرون وثيقة هى حسب ورودها على النحو الآتى (ترقيمها فى الأصل بالأرقام اللاتينية):

١- نزاع قانونى بين جوتنبرج وأقاربه. وتشير إلى نزاع قانونى بين يوحنا جوتنبرج وشقيقه وزوج شقيقته و باتز بلاشوف (ماينز ١٤٢٠).

٢- تحويل سناهية (مرتب سنوى مدى الحياة) من فرايل و يوحنا جوتنبرج. وثيقة بمقتضاها يحول فرايل و يوحنا جوتنبرج مبلغ ٢٠ جولدن إلى يوحنا إمجراس كسناهية مدى الحياة (ماينز ١٤٢٧ - ١٤٢٨).

٣- سناهية مدفوعة إلى جوتنبرج يحولها إلى أمه. إشعار بتحويل نصف سناهية من جوتنبرج إلى أمه إلزى زو جوتنبرج (ماينز ١٦ يناير ١٤٣٠).

٤- الصلح بين مدينة ماينز والأشراف المنفيين. وثيقة تتضمن البنود الرسمية للتصالح بين مدينة ماينز وأشرافها المنفيين (مينز ٢٨ مارس ١٤٣٠).

٥- توزيع عقارات وميراث أم يوحنا جوتنبرج. وثيقة تتضمن ملخصاً لتقسيم ميراث أم يوحنا جوتنبرج بين ورثتها (ماينز ٢ أغسطس ١٤٣٣).

(1) Schorbach, Karl. The Gutenberg documents : with translations of the texts into English by Douglas C. McMurtrie.- New York : Oxford University Press, 1941.

٦- الإفراج عن إكليريكي (كاتب) مدينة ماينز من الحجز. وثيقة رسمية صادرة من يوحنا جوتنبرج بالإفراج من الحجز عن كاتب مدينة ماينز بعد أن قبض عليه لسداد دين عليه واجب السداد إلى يوحنا جوتنبرج. (ستراسبورج ١٤ مارس ١٤٣٤).

٧- سناهية أخيه فرايل محولة إلى جوتنبرج. إشعارات مختصرة عن اتفاق بمقتضاه يتسلم يوحنا جوتنبرج سناهية كانت تدفع لأخيه من قبل (ماينز ٣٠ مايو ١٤٣٤).

٨- بنود تتعلق بيوحنا جوتنبرج فى دفاتر حسابات مدينة ماينز. إشارات فى دفاتر حسابات مدينة ماينز تشير إلى مبالغ محددة تدفع إلى جوتنبرج ١٤٣٦-١٤٣٧.

٩- بنود تتعلق بيوحنا جوتنبرج فى دفتر ضرائب مدينة ستراسبورج. إشارات فى دفتر ضرائب النبيذ تشير إلى دفع يوحنا جوتنبرج تلك الضرائب سنة ١٤٣٦ و ١٤٣٩.

١٠- إجراء نقض الوعد ضد يوحنا جوتنبرج. ملخصات وثائق تشير إلى اتخاذ إجراء قانونى لخلف الوعد وإجراء قذف وتشهير ضد جوتنبرج (ستراسبورج ١٤٣٦-١٤٣٧).

١١- دريتزن يقاضى جوتنبرج للدخول فى شراكة معه. أجزاء من سجلات رسمية حول دعوى مقامة من جيرج دريتزن ضد يوحنا جوتنبرج تتعلق بشراكته مع أندرياس دريتزن المتوفى (ستراسبورج ١٤٣٩).

١٢- جوتنبرج يكفل يوحنا كارل فى قرض. عقد بقرض رسمى بمقتضاه يظهر يوحنا جوتنبرج و لوثولد فون رامشتاين كفيلين لسداد القرض.

١٣- قروض سانت توماس تشابتر إلى جوتنبرج و برشتر. عقد قرض رسمى مقدم من القديس توماس تشابتر من ستراسبورج إلى كل من يوحنا جوتنبرج و مارتين برشتر. (ستراسبورج ١٧ نوفمبر سنة ١٤٤٢).

١٤- بنود أخرى تتعلق بيوحنا جوتنبرج فى سجلات الضرائب. إشارات متعددة فى سجل ضرائب النبيذ تشير إلى تسديد يوحنا جوتنبرج لضرائب النبيذ ١٤٤٢-١٤٤٤.

١٥- يوحنا جوتنبرج يطلب إليه تقديم الخيول. قائمة بأسماء الأشخاص الذين طلب إليهم تقديم الخيول للدفاع عن مدينة ستراسبورج وتضم اسم جوتنبرج (حوالى سنة ١٤٤٣).

١٦- جوتنبرج بين الصاغة المطلوبين للخدمة العسكرية. قائمة بالأشخاص - من بينهم يوحنا جوتنبرج - الأعضاء فى نقابة الصاغة فى ستراسبورج والمطلوبين للخدمة العسكرية. (ستراسبورج ٢٢ يناير سنة ١٤٤٤).

١٧- بنود تتعلق بيوحنا جوتنبرج فى سجلات القديس توماس تشابتر. سجلات تتضمن دفع فوائد القروض مسددة من يوحنا جوتنبرج إلى القديس توماس تشابتر فى استراسبورج ١٤٤٤-١٤٤٥ وحتى ١٤٥٧-١٤٥٨.

١٨- كفيل يضمن يوحنا جوتنبرج فى سداد قرض. العقد الرسمى لقرض حصل عليه يوحنا جوتنبرج بكفالة من أرنولد جلثوس. (ماينز السابع عشر من أكتوبر سنة ١٤٤٨).

١٩- يوحنا جوتنبرج يشهد فى وصية شرعية. وصية شرعية بنقل ممتلكات هانز شوشمان إلى راهبات دير سانت كلارا وقد ورد فيها اسم يوحنا جوتنبرج كشاهد على الوصية.

١٩م- [هكذا فى الأصل] مزيد من البنود المتعلقة بيوحنا جوتنبرج فى دفاتر الحسبات. سجلات تفيد دفع مدينة ستراسبورج سناهية إلى يوحنا جوتنبرج فى سنة ١٤٥٣ و ١٤٥٥.

٢٠- سجلا هلماسبرجر تثبت قروضاً دفعها فوست. الوثيقة الرسمية المسجلة التى تتضمن جانباً من الإجراءات القانونية التى اتخذها يوحنا فوست ضد جوتنبرج. (ماينز ٦ نوفمبر ١٤٥٥).

٢١- جوتنبرج يشهد مرة أخرى على وثيقة قانونية. وثيقة بنقل ملكية من المدعو دايلنهنى إلى يوحنا جنزفلايش الابن وتتضمن اسم يوحنا جوتنبرج كشاهد عليها. (ماينز ٢١ يونية سنة ١٤٥٧).

٢٢- جوتنبرج يعجز عن سداد الفوائد إلى القديس توماس. سجلات تثبت عجز يوحنا جوتنبرج عن دفع فوائد ديونه إلى القديس توماس تشابتر فى ستراسبورج ١٤٥٧-١٤٦١.

٢٣- القديس توماس تشابتر يبحث عن وسيلة يجبر بها جوتنبرج على تسديد فوائد القروض. خطاب من القديس توماس تشابتر من ستراسبورج إلى البلاط الإمبراطورى فى روتفيل يطلب فيه اتخاذ إجراء ضد يوحنا جوتنبرج لعجزه عن سداد فوائد الديون (ستراسبورج ١٠ إبرايل ١٤٦١).

٢٤- الحسابات الختامية لجوتنبرج فى سجلات القديس توماس. آخر ما ورد من بيانات عن تسوية حسابات الفوائد المستحقة على يوحنا جوتنبرج للقديس توماس تشابتر من ستراسبورج : ١٤٦١-١٤٦٢ حتى ١٤٧٣-١٤٧٤.

٢٥- كبير الأساقفة يعين جوتنبرج خادماً وحارساً. الوثيقة الرسمية التى بمقتضاها قام كبير أساقفة ماينز بتعيين يوحنا جوتنبرج خادماً فى الكنيسة وحارساً (لتفيل ١٧ يناير ١٤٦٥).

٢٦- بنود تتعلق بجوتنبرج فى سجلات سانت فيكتور. ظهر اسم يوحنا جوتنبرج فى سجل عضوية جماعة إخوان سانت فيكتور فى مدية ماينز (ماينز ١٤٦٧ أو ١٤٦٨).

٢٧- سندات إبراء ذمة هومرى من آلات طباعة استخدمها المخترع. إبراء ذمة الدكتور كونراد همفرى من بعض آلات الطباعة التى كانت فى حوزة يوحنا جوتنبرج عند وفاته (ماينز ٢٦ فبراير ١٤٦٨).

هذه هى الوثائق التى عليها إجماع فى صحتها وسلامتها. وقد أضاف هذا الكتاب فى الملحق الثانى وثيقتين أشار إلى أنهما مزورتان. ولسوف أعود إلى هذه

القضية بعد عرض الكتاب الثانى. ولقد قصدت أن أبدأ بالكتاب الحالى لأنه أسبق ولأنه الأساس الذى بنى عليه الكتاب الثانى، وحتى لا أكرر ذكر الوثائق مرة ثانية.

ب- هيسيلز، جان هدريك. قصة يوحنا جوتنبرج : فحص تحليلى للوثائق المتعلقة بيوحنا جوتنبرج يكشف عن أنه لم يكن مخترع الطباعة.ـ لندن: ألكسندر مورنج، ١٩١٢.- ٢١٩ ص؛ ٢٤سم(١).

وقبل التعليق على هذا الكتاب أود أن أشير إلى أن للمؤلف كتابات أخرى فى نفس هذا الاتجاه الذى ينفى عن يوحنا جوتنبرج اختراعه للطباعة ويجعلها من اختراع كوستر. وبعض هذه الكتابات هى:

- أسطورة هارلم فى اختراع الطباعة، تعليم ل.ج كوستر؛ دراسة أ. فان لندى، ترجمها عن الهولندية ج.هـ. هيسيلز مع مقدمة وقائمة بمطبوعات كوستر.- لندن: ١٨٧١(٢).

- جوتنبرج: هل كان هو مخترع الطباعة؟ دراسة تاريخية.ـ لندن: ١٨٨٢(٣).

- هارلم : مهد الطباعة وليست ماينز.ـ لندن : ١٨٨٧(٤).

وهو فى الأعمال الثلاثة المذكورة كان قد فحص ما تيسر آنذاك من وثائق يوحنا جوتنبرج سواء الوثائق الصحيحة أو المزورة والتى تتعلق باختراعه لفن الطباعة. وهو فى دراسته المعنونة «جوتنبرج : هل كان هو مخترع الطباعة والتى

---

(1) Hessels, Jan Hendrik. The Gutenberg fiction : a critical examination of the documents relating to Gutenberg showing that He was not the inventor of printing .- London : Alexander Moring, 1912.

(2) The Haarlem Legend of the invention of printing by L.J. Coster, examined by A. Van der Linde, translated from Dutch by J. H. Hessels with an introducation and list of Costeriana .- London : 1871.

(3) Gutenberg : was He the inventor of printing? an historical investigation.- London : 1882.

(4) Haarlem : The birthplace of printing, not Mentz.- London: 1887.

نشرها فى لندن الناشر «كواريتش» سنة ١٨٨٢ يقول بأنه قد منع من الدراسة التفصيلية للاستدعاء القانونى بين فوست وجوتنبرج سنة ١٤٥٥ ولم يتوصل إلى أى سجل رسمى موثق له الذى قيل إنه كان فى حوزة شخص يدعى فاوست فون أشافنبرج سنة ١٦٠٠ ويزعم أنه منحدر من سلالة يوحنا فوست ودخل فى حوزة كوهلر سنة ١٧٤١م، وبعد تلك السنة انقطعت صلتنا به إلا من نسخات منه حتى تم اكتشافه مرة أخرى سنة ١٨٨٩م حيث قبل أن هذا الاستدعاء هو أقوى وثائق جوتنبرج الدالة على اختراعه الطباعة بالحروف المتحركة وأنه ليس هناك من شخص منصف يمكن أن يشكك فيه وفى اختراع جوتنبرج للطباعة.

ومنذ ذلك التاريخ صدرت بحوث وكتابات كثيرة حول جوتنبرج وأوائل المطبوعات التى تعزى إليه، وظهرت مقالات جديدة تحمل على كوستر وهارلم لادعاءاتهما اختراع الطباعة. ويقول «هيسيلز» إن هذه الكتابات ألقت أضواء جديدة على القضية مما دفعه إلى البحث من جديد بل ويذهب إلى أبعد من هذا فيذكر بأن تلك الوثائق التى تغطى الفترة من ١٤٢٠ وحتى ١٤٦٨-١٤٧٤ لاتؤسس أى حق لجوتنبرج فى ادعاء اختراع الطباعة، بل إنه يتساءل هل حقاً طبع جوتنبرج أى شيء؟

إن الوثائق التى جمعها «كارل شورباخ» وشرحها وعلق عليها واستنتج منها أن يوحنا جوتنبرج هو صاحب الاختراع، ليست دليلاً على ذلك من وجهة نظر «هيسيلز»، ولقد أتى هيسيلز فى كتابه على نفس الوثائق السبعة والعشرين الواردة فى كتاب شورباخ وترجمته الإنجليزية باعتبارها الوثائق الأصلية الصحيحة التى لا يرقى إليها الشك، ولكنه أضاف إلى ذلك ثمانية وثائق أخرى مزورة (من بينها قطع خشبية يقال إنها كانت فى مطبعة جوتنبرج). وقد سبق القول بأن شورباخ لم يورد فى متن كتابه إلا الوثائق الصحيحة. وقد أورد اثنتين من الوثائق المزيفة فى الملحق الثانى وذكر وثائق أخرى مزورة عرضاً فى الحواشى.

ويقول هيسيلز متفقاً مع شورباخ: إن هذه الوثائق المزورة إنما وضعت لكى تسد فجوات معينة فى حياة جوتنبرج أو لإثبات أنه عاش فى مدن معينة فى وقت معين حسب قصد مزور الوثيقة.

والوثائق المزورة التى أوردها هيسيلز وضعها مكررة الترقيم مع الوثائق الأصلية حفاظاً على السياق التاريخى وهى على النحو الآتى:

١م- خطاب مزعوم من جوتنبرج إلى أخته المزعومة (لا وجود لها) مؤرخ فى ٢٤ مارس سنة ١٤٢٤م.

١١م- بقايا مزعومة من مطبعة جوتنبرج ترجع لسنة ١٤٤١م.

١٩م- سنة ١٤٥٣ كتبت فى الهامش السفلى لآخر ورقة من إحدى نسخ الكتاب المقدس ذى الاثنين والأربعين سطراً، كتبت بالأرقام العربية وليس باللاتينية وهذه النسخة محفوظة فى مجموعة كليم فى ليبزج.

٢٠م- نسخ مزورة من **صكوك الغفران** لسنة ١٤٥٥م وجدت فى حوزة الهر كولمان بعد وفاته.

٢٢م١-١٤٥٨
٢٢م٢-١٤٥٩
٢٢م٣-١٤٦٠
٢٤م-١٤٦٣
كلها وثائق مزورة لإثبات أن جوتنبرج استمر يعمل فى الطباعة بعد انفصاله عن فوست و شوفر.

٢٦م- جزء من سجل مؤرخ فى الثانى من فبراير سنة ١٤٦٨ ليس مزوراً ولكنه يحمل اسم «جوهان زوم جنزفلايش» يعتقد أنه قريب لأحد أعمام جوتنبرج ولكنه نسب خطأً إلى يوحنا جوتنبرج نفسه.

ويقول هيسيلز إنه حتى الوثائق السبع والعشرين التى يفترض فيها أنها صحيحة يتطرق الشك إلى بعضها، أو أعلن فى ألمانيا نفسها عن أنها مزورة وعلى سبيل

المثال فإن الدكتور «بوكينهايمر» يرفض أربعة منها ويعتقد أنها مجرد قصص. وهى على وجه الحصر:

رقم ٦ - الخاصة بقضية الخلف بالوعد ١٤ مارس ١٤٣٤م.

رقم ١٠- وهى خاصة أيضاً بنفس القضية سنة ١٧٣٧م.

رقم ١١- الدعوى القضائية سنة ١٤٣٩م فى ستراسبورج.

رقم ٢٠- الدعوى القضائية المرفوعة فى السادس من نوفمبر ١٤٥٥م.

فالوثيقة رقم ٦ إن كانت صحيحة فإنها تثبت فقط أن يوحنا جوتنبرج قد عاش فى ستراسبورج سنة ١٤٣٤ ولا تحتاج إلى تعليق أكثر من هذا فيما ذهب هيسيلز كما لا نحتاج لأكثر من ذلك الوثائق أرقام من ١-٥، ٧-٩، ١٢، ١٤-١٦، ١٩؛ والتى لا تقدم سوى معلومات عن وجوده وأماكن إقامته. كذلك فإن الوثيقة رقم ١٠ لا تقدم أية معلومات خاصة بالطباعة ولكنها تتعلق بنقض عهد قطعه على نفسه. ولكننا يجب أن نتذكر أن شوبفيلين كرر الإشارة إلى هذه الوثيقة مرتين فى سنة ١٧٤٠، مرة فى سنة ١٧٤١، مرة فى ١٧٦٠، مرة ١٧٦١. وقد وصفها بأنها «حجة» وأنها وصلته من وينكر. وكان شوبفيلين ينشر كل وثيقة يصل إليها، ويشير إلى رقم ١٠ هذه. وفى سنة ١٧٦١ عندما طلبت منه نسخة من تلك الوثيقة ذكر أنها لا وجود لها وأن محتوياتها وجدت كتعليق وأن هذا التعليق قد تم تداوله كتابة ومع فإن هذا التعليق لم يصل إلينا ولم يره أحد. ومع ذلك فإن شوبفيلين يقرر وبقوة أن جوتنبرج قد تزوج السيدة وكون أسرة وأنجب أطفالاً سنة ١٤٤٤م.

إذا تركنا جانباً الوثائق المزعومة، وتلك التى لا تساعدنا فى الخلاف حول اختراع الطباعة يبقى لدينا إلى جانب الدعوى القضائية لسنة ١٤٣٩ مجموعتان من الوثائق تلقى الضوء على حياة جوتنبرج وعلى علاقات العمل مع فوست وادعائه شرف اختراع الطباعة:

المجموعة الأولى تضم الوثائق ١٣ (١٤٤٢)، ١٧ (١٤٤٢-١٤٥٨)، ١٨ (١٤٤٨)، ٢٠ (١٤٥٥)، ٢٢ (١٤٥٧-١٤٦١)، ٢٣ (١٤٦١)، ٢٤ (١٤٦١-١٤٧٤)، ٢٥ (١٤٦٥)، ٢٧ (١٤٦٨). هذه الوثائق تكشف عن أن ظروف يوحنا جوتنبرج كانت مضطربة وبالغة الصعوبة منذ سنة ١٤٤٢ فصاعداً وكيف أنه فى سنة ١٤٤٢، ١٤٤٨، ١٤٥٠، ١٤٥٢ كان يقترض المرة تلو المرة ويعجز عن السداد، بل ويعجز عن أداء العمل الذى اقترض من أجله المال.

أما المجموعة الثانية فإنها تضم الوثيقتين الباقيتين رقم ٢١ (١٤٥٧)، رقم ٢٦ (١٤٦٧-١٤٦٨) وتكشفا عن أن جوتنبرج كان وثيق الصلة بالقديس «فيكتور ستفت» بالقرب من ماينز، وأنه بسبب إقامته المؤقتة فى ذلك الدير إضافة إلى ظروف أخرى يمكننا تتبع قصة اختراعه للطباعة.

وليس هناك من بين الوثائق المطروحة واحدة تشير إلى اختراع الطباعة سواء فى ستراسبورج أو ماينز، وليس من بينها واحدة تتحدث عن جوتنبرج كمخترع للطباعة على الرغم من وجود العديد من الأسباب التى تدعو إلى إعلان اختراعه هذا على الملأ. وهناك ثلاث وثائق فقط تشير إلى جوتنبرج فى علاقته بالطباعة أو الكتب وهى على وجه التحديد: سجلات الدعوى القضائية فى ستراسبورج سنة ١٤٣٩ (وثيقة رقم ١١)، سجلات هيلماسبرجر فى الدعوى القضائية فى ماينز سنة ١٤٥٥ (وثيقة رقم ٢٠)؛ سندات إبراء الذمة الخاصة بالدكتور هومرى سنة ١٤٦٨ (وثيقة رقم ٢٧).

ويعتقد هيسيلز أن سجلات الدعوى القضائية فى ستراسبورج سنة ١٤٣٩ لأنها لو كانت حقيقية وصحيحة لكان يوحنا جوتنبرج قد اخترع الطباعة وطبع كتباً فى ستراسبورج سنة ١٤٣٦ أو قبلها، أى قبل تمكنه من الطباعة فى ماينز بأربعة عشر عاماً.

ورغم أن الدكتور بوكينهايمر يعتقد أن سجلات هيلماسبرجر فى دعوى ماينز مزورة، إلا أن هيسيلز يرى أنها أصلية وصحيحة، تلك السجلات التى ترجع إلى

سنة ١٤٥٥. وقد توفر على دراسة محتوياتها بجدية وكل النظريات التى بنيت عليها فيما يتعلق باختراع جوتنبرج للطباعة ونشاطاته من سنة ١٤٥٠ وحتى ١٤٥٥ وقبل ذلك الوقت وبعده، وقد حلل الوثيقة وقلب كلماتها ومعانيها ذات الشمال وذات اليمين فلم يجد فيها كلمة واحدة قالها فوست أو القضاة أو أى من الشهود أو حتى جوتنبرج نفسه تشير إلى أنه مخترع الطباعة على الرغم من أنه كان من المفيد له أن يذكر ذلك إذا كان الأمر حقيقياً.

ورغم ما زعم عن عبقرية يوحنا جوتنبرج وطاقاته الخلاقة المبدعة ونشاطه الذى لا يتوقف وهمته التى لا تكل فى تنفيذ خططه فإن كل السجلات والظروف والمعلومات المسجلة فى وثيقة هيلماسبرجر وغيرها تؤكد أن جوتنبرج لم يتمكن من طبع شىء قبل سنة ١٤٥٠م، ولو كان طبع أى شىء فى تلك السنة أو فى أى وقت آخر قبل نوفمبر سنة ١٤٥٥م فلابد أن يكون شيئاً يسيراً محدوداً لا يصل بحال من الأحوال إلى قوة وعظمة الكتاب المقدس ذى الاثنين والأربعين سطراً (الذى انتهى منه سنة ١٤٥٦) والذى يوصف بأنه كتاب جوتنبرج المقدس؛ والذى يجب أن يعزى إلى بيتر شوفر لو أننا درسناه دراسة ببليوجرافية واعية. وإذا كنا فى حيرة من أمرنا لا نعرف من توفر عليه فلا يجب أن نعزوه بحال إلى يوحنا جوتنبرج الذى كانت ظروفه السيئة من ١٤٤٢ وحتى ١٤٥٥ تعجزه عن تحمل أعباء طباعة مثل هذا العمل المكلف ولا يمكن أن يكون قد طبعه بتكلفة من أموال فوست أو غيره.

وحيث يقول عنه شورباخ إنه فى سنة ١٤٤٣م كان ما يزال فى مدينة ستراسبورج وكانت ثروته هناك تضعه بين أفقر الطبقات. وفى سنة ١٤٥٠ حين اقترض من فوست مبلغاً من المال فى ماينز كان بالفعل مثقلاً بدين آخر فى ستراسبورج قائماً عليه منذ سنة ١٤٤٢م، وآخر فى ماينز منذ سنة ١٤٤٨م ولم يستطع أن يقدم إلى فوست رهناً إلا أدوات ومعدات كان يصنعها من أجل كسب المال. وفى سنة ١٤٥٢م أقرضه فوست مبلغاً آخر من المال ولكنه اضطر سنة

١٤٥٥م إلى رفع قضية يطالبه فيها بالقرضين والفوائد. ولم يكن فوست ليرفع تلك القضية لو أن جوتنبرج كان يستثمر تلك الأموال فى عمل ما كلفه به فوست. ومن الواضح أن يوحنا جوتنبرج قد أضاع السنوات الخمس دون أن ينفذ العمل الذى اقترض من أجله المال من فوست سنة ١٤٥٠، ١٤٥٢. لقد انتظر فوست بفارغ الصبر أى نتيجة ولكن لم يحصل على ما وعده به جوتنبرج. ولو أن جوتنبرج قد أنجز أى شيء يستحق الذكر لكشف عنه خلال الدعوى القضائية التى أقيمت ضده فى نوفمبر ١٤٥٥. ولم يكن لأحد أن يلوم فوست فى اتخاذ الإجراءات القانونية ضد يوحنا جوتنبرج، وكان من الطبيعى من الناحية العملية أن شخصاً مثل جوتنبرج يعتمد على اقتراض المال من ١٤٤٢ وحتى ١٤٥٥م أن يفلس فى سنة ١٤٥٧ - ١٤٥٨ ويعجز عن تسديد الديون بل وحتى عن تسديد فوائد تلك الديون.

ونجد فى ص ص ١٨٥-١٩٤ من الكتاب المذكور ملخصاً لدراسة هيسيلز حول الدعوى القضائية ضد جوتنبرج سنة ١٤٣٩ فى ستراسبورج وشرحاً وافياً لقصة اختراع الطباعة فى تلك المدينة. وفى ص ص ١٩٥-٢٠٠ نجد دراسة وافية لسجلات هيلماسبربجر سنة ١٤٥٥، وفى ص ص ٢٠٠-٢١١ نجد بحثاً وافياً عن قصة اختراع الطباعة فى ماينز.

وخلاصة القول أن جان هندريك هيسيلز ينفى نفياً قاطعاً أن تكون الطباعة قد اخترعت فى ماينز أو ستراسبورج أو أن يكون مخترعها هو يوحنا جوتنبرج؛ ويميل إلى أن تكون الطباعة اختراعاً هولندياً فى هارلم وعلى يد كوستر.

* * *

ومن جانبه أورد شورباخ وثيقتين مزورتين فى الملحق الثانى من كتابه الذى ترجمه وعلق عليه دوجلاس ماكمرتيرى، وقد قال بأن اسم جوتنبرج قد ذكر فيهما وأنهما تستحقان الوقوف أمامهما لما أثاراه من اهتمام بالغ خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر. ويعزى اكتشاف هاتين الوثيقتين إلى «فرانز

جوزيف بودمان» (المتوفى سنة ١٨٢١) الذى كان فى يوم من الأيام مديراً لأرشيف جامعةماينز. وقد نشرتا لأول مرة سنة ١٨٠٠، ١٨٠١ على التوالى وقد نشرهما كل من فيشر وأوبرلين. ولكن بعد نشرهما قام بعض العلماء بدراستهما وأعلن «س.أ. شَعْب» سنة ١٨٣٠م أنهما مزورتان. وقد تم التسليم بأن الذى قام بالتزوير هو بودمان نفسه وقد عاش لمدة عشرين عاماً بعد نشر الوثيقتين ولم يتبرأ من الاكتشاف الذى نسبه إليه. وربما يكون بودمان قد فعل ذلك كمجرد نكتة بريئة يضحك بها على زميليه فيشر وأوبرلين اللذين كانا يعدان فى ١٨٠٠-١٨٠٢ بحثاً عن تاريخ الطباعة ويبحثان عن مادة وثائقية يسدان بها الفجوات الموجودة فى حياة جوتنبرج بين ١٤٢٠-١٤٣٠، ١٤٥٥-١٤٦٠. والوثيقتان اللتان زورهما بودمان تقعان فى تلك الفترتين. وقد ذكر «س.أ. شعب» أن بودمان «كان متمرساً بلغة الوثائق فى العصور الوسطى وكان قادراً على تقليد أى نوع من الكتابة وإعداد أى نوع من الوثائق» ومن هنا كان مؤهلاً للقيام بالتزوير.

والوثيقة الأولى المزورة عبارة عن خطاب مؤرخ من ستراسبورج فى ٢٤ مارس سنة ١٤٢٥م وموقع باسم «حنا جنزفلايش جنانت سورجنلوش» وموجه إلى شقيقته المزعومة «بيرثى» الراهبة فى دير سانت كلارا فى ماينز. وقد نشر هذا الخطاب لأول مرة فى ترجمة فرنسية توفر عليها «ج. ج أوبرلين» فى مقال له بعنوان «مقال عن حوليات حياة يوحنا جوتنبرج مخترع الطباعة» (ستراسبورج ١٨٠١)[١]. وقد ألحق النص الألمانى بالترجمة الفرنسية. وقد أعاد نشر النص الألمانى «جوتهيلف فيشر» فى مقال له بعنوان «مقال عن الآثار الطباعية «ليوحنا جوتنبرج» (ماينز ١٨٠٢)[٢]. وفيشر يذكر فقط أن زميله بودمان اكتشف الوثيقة فى أرشيف ماينز على الرغم من أنه لم ير قَط أو يتحقق من وجود النسخة المخطوطة من الخطاب، كما أن أوبرلين يقرر ببساطة أن بودمان هو الذى اكتشفها.

(1) J. J. Oberlin. Essai d'annales de la vie de Jean Gutenberg, inventeur de la typographie.- Strasbourg, 1801.

(2) Gotthelf Fischer. Essai sur les monuments typographique de Jean Gutenberg.- Mainz, 1802.

والوثيقة المزورة الثانية مؤرخة فى عشرين يوليو سنة ١٤٥٩م ومكتوبة بأسلوب وثائقى رسمي ومختومة بأربعة أختام مدلاة. وهذه الوثيقة تقرر أن «حنا جنزفلايش فون سولجيلوش جنانت جودنبرج» و«فرايل جنزفلايش» يتنازلان فى يوم القدسية مارجريت سنة ١٤٥٩ عن حقهما فى كل ما أخذته شقيقتهما «هبيرلى» معها إلى دير سانت كلارا، ويعد حنا جنزفلايش بالذات أن أى كتاب قدمه لمكتبة الدير سوف يصبح ملكاً لها إلى الأبد وأنه سوف يقدم لنفس المكتبة الكتب التى طبعها ـ أى حنا ـ أو سوف يطبعها فى المستقبل».

وهذه الوثيقة نشرها لأول مرة «ج. فيشر» فىماينز سنة ١٨٠٠م. وقد اعتمد فى نشرها على نسخة نسخها له البروفيسور بودمان من الأصل المخطوط المحفوظ فى أرشيف جامعة ماينز. وقد نشرت ترجمة فرنسية للنص الألمانى سنة ١٨٠١ توفر عيها أوبرلين فى المقالة سابقة الذكر. وفى سنة ١٨٠٢ توفر فيشر على نشر النص باللغتين الألمانية والفرنسية فى مقاله سابق الذكر أيضاً. وقد جرى تداول هذه الوثيقة أيضاً بين عدد من المؤلفين إلى أن جاء «شعب» وكشف عن أنها مزورة سنة ١٨٣٠.

وقد عدد «شَعْبْ» ما لا يقل عن تسعة عشر سبباً تحمله على الاعتقاد فى زيف وثيقتى بودمان. وعلى سبيل المثال فإنه لم يجد أية إشارة من أى نوع بين أوراق بودمان التى خلفها بعد موته إلى هاتين الوثيقتين وكيف تم اكتشافه لهما. وأكثر من هذا ليس هناك أى أثر لأصل الوثيقتين من أرشيف جامعة ماينز الذى يقال إنهما كانتا فيه. كذلك ليست هناك أية إشارة إلى وجود أية مطبوعات ليوحنا جوتنبرج فى دير سانت كلارا حتى تاريخ إغلاق هذا الدير سنة ١٧٨١م. وأخيراً ليس هناك أية راهبة باسم بيرثى أو هبيرلى بين راهبات ذلك الدير مسجلة فى سجل وفيات الدير والذى تحتفظ به مكتبة بلدية ماينز.

وخلاصة القول أن الأدلة التى جمعها «شَعْب» ضد وثيقتى بودمان قاطعة ونهائية فى أنهما مزورتان.

وتحت يدى الآن ثلاثة كتب منشورة فى فترات مختلفة من القرن الثامن عشر تؤرخ للطباعة، وفى اعتقادى أنها أول كتب تكتب حول هذا الموضوع، وأقرب الكتب إلى الزمن الذى اخترعت فيه الطباعة وإن زادت عن قرنين ونصف من الزمان. هذه الكتب حسب ترتيب نشرها:

١ ـ جيمس واطسون. تاريخ فن الطباعة. لندن: ج. جونسون، ١٧١٣م.

٢ س. بالمر. تاريخ عام للطباعة منذ بداية اختراعها فى مدينة ماينز وحتى انتشارها وتقدمها فى معظم ممالك أوربا وخاصة دخولها ونجاحها هنا فى إنجلترا، مع حروف معظم الطابعين المشاهير من أول مخترعى هذا الفن حتى سنة ١٥٢٠ و١٥٥٠، وأيضاً تقرير عن أعمالهم والتحسينات المعتبرة التى أدخلوها عبر السنين . ـ لندن: س. بالمر، ١٧٣٣.

٣ ـ فيليب لوكومب. تاريخ وفن الطباعة فى جزءين. ـ لندن: ج. جونسون، ١٧٧١م.

هذه هى الأعمال الثلاثة عن اختراع فن الطباعة وتطوره فى ماينز وعلى يد يوحنا جوتنبرج. وما تزال قضية ادعاء اختراع الطباعة بين هولندا وألمانيا؛ بين يوحنا جوتنبرج ولورنز كوستر قضية ساخنة تحتاج إلى مزيد من الأدلة والقرائن لحسمها.

ومهما يكن من أمر الاختراع والمخترع فلقد انتشرت الطباعة فى ألمانيا وخرجت منها إلى أنحاء متفرقة من أوربا ثم بعد ذلك غزت العالم كله، وأحدثت ثورة عاتية فى الفكر والاقتصاد بما لم يشهده العالم من قبل. ولننظر الآن كيف امتدت موجات الطباعة عبر العالم.

انتشار الطباعة فى ألمانيا.

أ ـ مدينة ماينز.

كانت مدنية ماينز هى أول المدن الألمانية التى تظهر فيها الطباعة، ولدينا على ذلك مجموعة من القطع المطبوعة عثرنا على معظمها حديثاً وقد اكتشفنا جانبا كبيراً منها مستخدمة كجلود فى بعض الكتب. ولعل أهم تلك القطع هى ما يلى:

(١) قطعة على ورق من قصائد اليوم الآخر[1]، وهى عبارة عن ورقة واحدة تتضمن قصيدة باللغة الألمانية حول الآخرة ولذلك يطلق عليها عادة قطعة اليوم الآخر. وقد عثر عليها فى جلدة قديمة فىماينز سنة ١٨٩٢م ويرجح أنها طبعت ١٤٥٤م.

(٢) قطع رقوق من ثلاث طبعات مختلفة من نحو دوناتوس عثر على اثنتين منها فى جلدة كتاب مطبوع فى ستراسبورج سنة ١٤٨٨م.

(٣) قطعة رق مقسومة إلى قسمين وتبلغ مساحة القسمين قدمين × تسعة بوصات ويشكلان نصف حجم جداول فلكية. وقد عثر عليها فى جلدة كتاب قديم فى فسبادن سنة ١٩٠١ ويرجح أنه كان تقويماً فلكياً لسنة ١٤٤٨م ومن ثم يمكن أن يكون قد طبع فى السنة السابقة (١٤٤٧). ولكن البحث الحديث الذى قام به الدكتور «كارل فيهمر» أنه لم يكن جداول فلكية ولم يكن تقويماً فلكياً بل خريطة لمواقع النجوم مبسطة لاستخدام المبتدئين. كما أن هذه الجداول الفلكية لم تعبر عن سنة ١٤٤٨ رغم أن الأصل اللاتينى قد وضع لذلك الفرض. وكان التعديل الشعبى الألمانى لهذه الجداول صالحاً لمدة ثلاثين سنة بعد ذلك التاريخ.

ورغم أن الحروف المستخدمة فى طباعة هذه القطع تختلف فى تفاصيلها إلا أنها جميعاً تشترك فى خصائص عائلة الحرف الذى طبع به الإنجيل ذو الستة وثلاثين سطراً لحساب أسقف بامبرج، وأغلب الظن أنه طبع هناك سنة ١٤٥٩ - ١٤٦٠م.

وبين سنتى ١٤٥٤ و١٤٦٠ طبعت أعمال أخرى بنفس الحروف المستعملة فى الجداول الفلكية أو شبيهة بها. وأهم تلك الأعمال ما يلى:

١ - ست عشرة إصدارة إضافية من نحو دوناتوس.

٢ - كتيب من ست عشرة صفحة بعنوان (تحذير للعالم المسيحى ضد الأتراك)[2]

(1) Sibyllenbuch.

(2) Ein Manung der Cristenheit Widder die Durken.

ويعرف بين العامة بالتقويم التركى لسنة ١٤٥٥. والفحص الداخلى لهذا الكتيب يثبت أنه طبع فى ديسمبر سنة ١٤٥٤.

٣ ـ تقويم طبى[1] لسنة ١٤٥٧م يعتقد أنه طبع سنة ١٤٥٦م.

٤ ـ منشور بابوى ضد الأتراك صادر عن البابا «كاليكتوس الثالث» يرجح طباعته سنة ١٤٥٧.

٥ ـ بروفة كتاب مقدس من ٤٢ سطراً لم يكتمل مطبوع على عمودين.

ونتيجة للأبحاث التى قام بها الدكتور فيهمر يعتقد أنه كان هناك فى مدينة ماينز خلال الفترة ١٤٥٥ ـ ١٤٦٠م إضافة إلى جوتنبرج و شركة فوست وشوفر؛ طابع ثالث توفر على طبع تقويم الترك المشار إليه ويمكن أن يعزى إليه أيضاً الجداول الفلكية المذكورة سابقاً وإصدار طبعات مختلفة من نحو دوناتوس بسطور ستة وعشرين وسبعة وعشرين سطراً، ويعزى إليه كذلك تقويم الترك لسنة ١٤٥٥ والتقويم الطبى لسنة ١٤٥٧. وكذلك يعزى إليه بروفة الكتاب المقدس ذى الاثنين والأربعين سطراً. وعندما غادر ماينز إلى بامبرج طبع الكتاب المقدس ذا الستة وثلاثين سطراً هناك.

وقد بدأ البابا «نيقولاس الخامس» بمنح صكوك الغفران البابوية سنة ١٤٥٤م وذلك فى مقابل إتاوة تفرض على من يحصل عليها لتمويل حملة البابا ضد الأتراك. وهناك طبقتان متميزتان من تلك الصكوك صدرتا سنة ١٤٥٤م وهى أول المطبوعات المؤرخة. الطبعة الأولى فيها واحد وثلاثون سطراً فى الصفحة، وقد أعيد طبع هذه الطبعة فى ثلاثة إصدارات متتالية فى تلك السنة مع إصدار رابع منها سنة ١٤٥٥. أما الطبعة الثانية فإنها تتألف من ثلاثين سطراً فى الصفحة وقد صدر منها إصدار واحد سنة ١٤٥٤ واثنتان سنة ١٤٥٥. والمتن الرئيسى فى كلتا الطبعتين طبع ببنط صغير واضح مع طبع الكلمات الهامة ببنط

---

(1) Bloodletting Calendar.

أكبر. فى الطبعة الأولى ذات الواحد والثلاثين سطراً تشبه الكلمات ذات البنط الأكبر - وإن لم تتطابق مع - تلك الأبناط المستعملة فى التقويم التركى ويمكن أن نعزو إلى طابعه تلك الطبعة الأولى من صكوك الغفران. بينما الكلمات ذات البنط الأكبر فى الطبعة الثانية ذات الثلاثين سطراً تشبه - وإن لم تتطابق مع - تلك المستعملة فى الكتاب المقدس ذى الاثنين والأربعين سطراً والذى تم طبعه قبل ١٤٥٦م.

لقد أطلقت أسماء عديدة على ذلك الكتاب المقدس ذى الاثنين والأربعين سطراً. لقد أطلق عليه أحياناً وخطأ اسم «كتاب جوتنبرج المقدس»، كما سمى «كتاب مازارين المقدس»، لأن أول نسخة عثر عيها ولفتت الانتباه كانت تلك التى عثر عليها فى مكتبة الكاردينال مازارين فى باريس؛ وربما تم الفراغ من هذه النسخة فى ١٤٥٥م لأنها تتضمن كتابة يدوية بخط «هنريتش كريمر» كاهن كنيسة ماينز؛ هذه الكتابة مؤرخة بتاريخ ١٥ من أغسطس سنة ١٤٥٦ الذى انتهى فيه كريمر من تحمير وتجليد تلك النسخة.

وهذا الكتاب المقدس غير مؤرخ ولم يسجل فيه أين طبع ومن طبعه. وأغلب الظن أن الذى خطط لطباعته هو يوحنا جوتنبرج نفسه، وربما تكون المراحل الأولى من طباعته قد تمت تحت إشرافه ولكنه لم يتم طباعته، ولكن الذى أتم طباعته هما فوست وشوفر بعد أن قطعا علاقتهما به. وفى هذه الحالة لا ينبغى أن نعزو الكتاب إليه. ومن المعروف أن جوتنبرج - كما سبق أن أسلفت - استدان مبالغ مالية من فوست، ولو كان أتم طباعة الكتاب وباعه لوفر مبلغاً كبيراً من المال يسد به ديونه وزيادة وهو ما لم يفعله. ونحن لا نعرف فى الواقع أساس الخلاف بين جوتنبرج وفوست، ولو أن جوتنبرج أكمل طباعة الكتاب المقدس وواصل عمله إلى النهاية لما تذمر فوست ولما نشب الخلاف بينهما أصلاً.

لقد توفر العديدون من الببليوجرافيين الثقاة على فحص واختبار الكتاب المقدس ذى الاثنين والأربعين سطراً وخرجوا علينا بمجموعة ممتعة من الحقائق

حوله وحول إنتاجه الحقيقى. لقد خطط لهذا الكتاب المقدس من البداية أن يكون فى أربعين سطراً فقط للصفحة ولكنهم ظلوا يصغرون حجم الحرف لزيادة عدد السطور إلى واحد وأربعين ثم إلى اثنين وأربعين فى الصفحة. وبعد طباعة عدة صفحات تقررت زيادة حجم الطبعة وبالتالى تمت إعادة جمع الصفحات التى طبعت من قبل وتمت إعادة طبعها. وقد تمت عملية طبع العمل على ست طابعات مختلفة على التوازى. ويرى «أ. و. بولارد» أن عدد نسخ الطبعة الزائدة وصل إلى ١٥٠ نسخة على ورق وثلاثين نسخة على رق.

ارتبط اسم يوحنا جوتنبرج أيضاً بطباعة كتاب **«الدواء العام»** أو الترياق[1] وهو قاموس لاتينى من وضع «جوان بالبوس» فى القرن الثالث عشر وطبع فى ماينز سنة ١٤٦٠م، وليس هناك دليل مؤكد على ذلك ولكن معظم الخبراء الببليوجرافيين متفقون على نسبته إلى جوتنبرج أكثر من نسبته إلى أى شخص آخر. لقد كان هذا القاموس من حجم الفوليو ويتكون من ٣٤٣ ورقة ومطبوع على عمودين ببنط صغير، وبه حرد متن طويل نسبياً ولكنه غامض لايتضح من اسم الطابع. ولو كان جوتنبرج هو فعلاً طابع ذلك القاموس فإن الأمر لابد وأن يكون قد وقع بعد خلافه مع فوست و شوفر وانفصاله عنهما وعلى الأدوات والأجهزة التى أعارها إياه الدكتور كونراد هيومرى الذى أشرت إليه من قبل. وقد طرح هذا القاموس بعد ذلك فى سوق البواقى ووصلت نسخ منه إلى بيتر شوفر الذى أعلن فى سنة ١٤٦٩ أن لديه نسخاً للبيع من هذا القاموس.

أعمال فوست و شوفر فى ماينز.

كان يوحنا فوست من أثرياء الصاغة فى مدينة ماينز، وكان قد أعجب بالتجارب التى يقوم بها جوتنبرج فى الطباعة وقد أقرضه مبالغ كبيرة من المال ليساعده فى تنفيذ هذا الاختراع. ولأنه كان رجل أعمال بارع فلم يكن راضياً عن بطء جوتنبرج فى إنجاز طباعة الكتاب المقدس ذى الاثنين والأربعين سطراً كما كان

(1) Catholicon.

متشككاً فى قدرة جوتنبرج على سداد القروض. ومن جهة أخرى فقد كان بعد النظر واستقرأ كميات المال التى يمكن أن تدرها عليه الطباعة بالحروف المتحركة الجديدة، وعندما عجز جوتنبرج عن تنفيذ طبع الكتاب المقدس تولى هو بنفسه العمل كلية.

أما بيتر شوفر فقد كان فى الأصل ناسخ مخطوطات، وربما كان يعمل بالأجرة عند يوحنا جوتنبرج فى صف الحروف وتصحيح البروفات والمراحل الأولى فى طباعة الكتاب المقدس ذى الاثنين والأربعين سطراً. وعندما استولى فوست على المطبعة وآلات الطبع استبقى شوفر فيها، ويعزى إتمام طبع الكتاب المقدس بهذا النجاح إلى مهارة شوفر وذكائه. ولقد تزوج شوفر بعد ذلك من ابنة فوست.

وأول عمل مطبوع صدر عن مطبعة فوست وشوفر هو مزامير داود المؤرخة فى ١٤٥٧م. وهذا الكتاب هو أول عمل مطبوع يسجل فيه تاريخ الطبع واسم الطابع وقد جاءت هذه البيانات فى حرد متن المزامير. وحرد المتن يسير على النحو الآتى:

«كتاب المزامير الحالى يزدان بحروف جميلة كبيرة، وزخرفت حروفه الأولى بالحمرة، وقد أنتج عن طريق اختراع الطباعة العبقرى وطبع دون جرة من قلم وبدعاء إلى الله تم الانتهاء منه باجتهاد يوحنا فوست، مواطن من ماينز، و بيتر شوفر من جنشايم فى سنة سيدنا ١٤٥٧ عشية عيد مريم».

لقد طبعت المزامير ببنط جديد أكبر من أى بنط استخدم قبل ذلك. ولقد صدرت منها طبعتان منفصلتان سنة ١٤٥٧م إحداهما تقع فى ١٤٣ ورقة والثانية بزيادة ٣٢ ورقة. وفى كلتا الطبعتين نصادف ترك مسافات بيضاء خالية وذلك لإضافة أية نصوص يدوية بخط اليد من جانب المستفيدين. وقد وصلنا من هذه المزامير عشر نسخ ثلاثة منها من طبعة الـ ١٤٣ ورقة وأربع منها من طبعة الـ ١٧٥ ورقة، وثلاث نسخ ناقصة من أولها وآخرها، ومن ثم لا نعرف انتماءها إلى أى منهما.

وكل النسخ فى هاتين الطبعتين تمت طباعتها على رقوق، وتمت طباعتها دون

نظر إلى التكلفة حيث يبدو أن الهدف من إنجاز العمل لم يكن تجارياً وقد يكون تم لحساب بعض رجال الكنيسة الأثرياء من الدوقيات المختلفة الذين مولوا هذا العمل.

وهذه المزامير علامة بارزة فى الطباعة بسبب الحروف الأولى المزخرفة فيها والتى يصل عددها إلى نحو ٣٠٠ حرف صنعت من كتل خشبية لهذا الغرض. والحروف الأولى الصغيرة كتبت بالحبر الأحمر بينما الكبيرة كتبت باللونين الأخضر والأزرق الفاتح، وطبع اللونين فى الحروف الكبيرة شديد الوضوح وكل لون محدد بدقة مما يوحى بأن الطبع قد تم بإتقان شديد. ويذكر بعض الثقاة أن كل حرف قد طبع من كتلة منفصلة وثبت الحرفان داخل بعضهما بعد ذلك، وبالتالى يمكن تلوين الحرف الخارجى وطباعته أولاً وبعد ذلك تدرج الكتلة الداخلية وتلون وتطبع، ويرى آخرون أن كل حرف كان يطبع من كتلتين منفصلتين كل منهما تستخدم على حدة فى الطبع. ويرى فريق ثالث أن الحرفين صنعا من كتلة واحدة وتم تحبير كل منهما بلون مختلف وطبعا فى وقت واحد. وأياً كانت طريقة طباعة الحروف الأولى فإن النتيجة كانت عملاً رائعاً وإنجازاً عظيماً، وقد تم بزخرفة أركانه وتصحيح بعض الهفوات بخط اليد، وربما كان التصحيح بيد شوفر نفسه.

وتضم الصفحة الواحدة من مزامير ١٤٥٧ هذه عشرين سطراً. وفى سنة ١٤٥٩م صدرت طبعة أخرى فى ثلاثة وعشرين سطراً للصفحة. وقد مول هذه الطبعة «سانت جيمس» من ماينز. وقد وصلنا من هذه الطبعة ثلاث عشرة نسخة كلها مطبوعة على رق.

ولقد استخدمت حروف وأوائل طبعة المزامير (١٤٥٧) مرة أخرى فى طبع كتاب **«قانون القداس»**[1] الذى طبعه فوست و شوفر على رق سنة ١٤٥٨م. ولم تصلنا من هذا الكتاب سوى نسختين كاملتين إحداهما فى مكتبة بودلى فى جامعة أكسفورد والثانية فى المكتبة الوطنية فى فيينا.

(1) Canon missae.

وفى سنة ١٤٥٩م أدخل فوست وشوفر حرفاً جديداً صغيراً طبعا به عملهما التالى وهو «شرح الشعائر الدينية»[1] الذى كتبه الراهب الدومنيكانى «جوليلموس دوراندوس». وقد طبع على عمودين واشتمل على ثلاثة أوائل (حروف أولى) مطبوعة بلونين. وقد أتبع فى سنة ١٤٦٠ بكتاب تعاليم البابا كليمنت الخامس[2] الذى طبع على عمودين ضيقين ببنط كبير وقد أحيطا بحاشية مكتوبة بالبنط الصغير الجديد. وقد استخدم الطابعان نفس هذا البنط فى إعلانات كلا المتنافسين على أبرشية (كبير أساقفة) ماينز. وكان طموح فوست و شوفر أن يطبعا الكتاب المقدس ذا الثمانى والأربعين سطراً. وهو الكتاب المقدس الذى طبع فى مجلدين سنة ١٤٦٢م. وقد طبع المتن بالحروف الصغيرة بالحبر الأسود بينما الرؤوس والأوائل بالحبر الأحمر. وكان هذا الكتاب المقدس هو أول كتاب مقدس يحمل علامة الطابع ذات الدرع المزدوج لفوست و شوفر.

يبدو أن اجتياح ماينز وسلبها قد أثر على نشاط فوست و شوفر واضطرهما إلى مغادرة المدينة إلى فرانكفورت. ومع ذلك فقد استأنفا الطباعة فى ماينز ١٤٦٤. ولقد ازدهرت أعمالهما وراجت كتبهما فى كل أنحاء ألمانيا وفرنسا. ولقد توفى فوست سنة ١٤٦٦ فى باريس خلال قيامه بعقد صفقات بيع كتبهما هناك.

وبعد وفاة فوست انفرد شوفر بالعمل وتوسع توسعاً كبيراً وأسس فروعاً له فى باريس و أنجرت لبيع كتبه وكتب الآخرين. وفى سنة ١٤٧٩ نقل مقر عمله إلى فرانكفورت ولكنه استمر يعيش فى ماينز حيث كان يشرف على عمليات الطبع وأصبح من الشخصيات الهامة هناك وحاكماً للمدينة. وتوفى الرجل فى سنة ١٥٠٢ بعد أن أصدر ١١٥ كتاباً بالاشتراك مع فوست و٥٩ كتاباً بمفرده بعد رحيل فوست. وقد خلفه فى عمله ابنه يوحنا شوفر.

تشتت طابعى ماينز.

بين ١٤٥٩ و١٤٦٢ كان هناك صراع مرير على أبرشية ماينز بين كل من «ديتر

(1) Gulielmus Durandus. Rationale Divinorum. Officiorum.

(2) ClementV.

فون أيزنبرج» و «أدولف» من ناساو. وكان أدولف قد حصل على تأييد البابا مما ساعده على تحضير وإعداد قوات كافية للاستيلاء على المدينة عنوة فى نهاية ١٤٦٢م. وطبقا لبعض التقارير طرد من ماينز كل الذكور القادرين على حمل السلاح من الجانب المناوئ له. وسواء صح ذلك القول أم لا فإن من الثابت أن قسماً كبيراً من المدينة قد سلب ونهب على يد المنتصرين، وأكثر من هذا فطالما كان «أدولف» نصيراً للأشراف فقد كان ضد النقابات المهنية وكانت نتيجة ذلك أن غادر كثير من الطابعين المهرة ماينز باحثين عن مكان أكثر أمانا واستقراراً يستثمرون فيه أموالهم وطاقاتهم.

ب ـ مدينة بامبرج.

بدأت الطباعة بالفعل فى مدينة بامبرج قبل سلب ونهب مدينة ماينز وربما كان الكتاب المقدس ذو الستة والثلاثين سطراً قد طبع هناك بين ١٤٥٩ و١٤٦٠ على يد «طابع التقويم التركى» الذى يعتقد أنه رحل إلى هناك من ماينز. وأول طابع معروف لنا من بامبرج نفسها هو «**أولبرشت بفستر**» الذى ربما يكون عمل على تأسيس مطبعة «طابع التقويم التركى» لأنه عندما بدأ يطبع لنفسه استخدم فى كتبه الأولى نفس الحرف الذى استخدم فى الإنجيل ذى الستة والثلاثين سُطراً. وكان بفستر أول طابع يستخدم الإيضاحيات المصنوعة من كتل الخشب.

وكان معظمها بدائياً، لأن قاطعى كتل الخشب المهرة نظروا إلى طباعة الحروف المتحركة على أنها منافسة لهم ومن ثم رفضوا التعاون مع بفستر مما اضطره إلى أن يقوم بالعمل بنفسه أو يستعين بالهواة. وكان بفستر طابعاً مهملاً كسولاً لايهتم بتجويد وتطوير عمله. وكانت الكتب التى يطبعها موجهة أساساً للعامة ومن ثم لم يصلنا أى منها بحالة جيدة. وعلى الرغم من أنه لم يكن ليهتم بتأريخ كتبه أو وضع اسمه عليها إلا أننا نستطيع أن نتميز تسعة تنسب إليه، وسبعة منها فيها إيضاحيات ورسوم وهى:

١ ـ شكوى الأرمل من الموت[1]. وربما كان هذا العمل هو أول مطبوعات

(1) Der Ackermann aus Bohmen.

بفستر، وهو غير مؤرخ ولكن يرجح أنه طبع سنة ١٤٦٠. به خمس صفحات كاملة الصور.

٢ ـ طبعة أخرى من نفس العمل السابق ولكن يرجح صدورها سنة ١٤٦٣.

٣ ـ قصص ألمانية[1]. مجموعة من الخرافات الألمانية القديمة جمعها «أولرخ بونر» مزودة بنحو ١٠١ لوحة من الكتل الخشبية مؤرخة فى ١٤ فبراير سنة ١٤٦١ وهو أول كتاب مؤرخ باللغة الألمانية.

٤ ـ طبعة أخرى من نفس الكتاب غير مؤرخة ولكن يرجح طباعتها سنة ١٤٦٤م، وتتضمن لوحتين زيادة عن الطبعة السابقة.

وإلى هذه المدينة انتقل «يوحنا سنسنشمدت» (أى جون مصمم الحروف) الذى بدأ الطباعة فى مدينة نورمبرج، وكان انتقاله إلى بامبرج سنة ١٤٨١م. وقبل انتقاله إليها لم يكن بها طابعون منذ ١٤٦٤. وربما كان أهم عمل قام به هو طباعة كتاب «قداس بامبرج» سنة ١٤٨٨م وهو مطبوع ببنط كبير، وكثير من حروفه ثلاثة أرباع البوصة ارتفاعاً. يعتبر هذا الكتاب مساوياً فى الأهمية من وجوه عديدة لمزامير فوست و شوفر.

ج ـ مدينة ستراسبورج.

ولعل أول طابع فى هذه المدينة هو «يوحنا منتلين» الذى بدأ الطباعة فيها حسب بعض التقارير سنة ١٤٥٨. وعلى عكس كل منافسيه لم يحاول طباعة الكتب الكلاسيكية، ولكن كان تركيزه كله تقريباً على الكتب الدينية المطبوعة فى ألمانيا. وظل الرجل نشيطاً فى الطباعة حتى ١٤٧٨ وطبع أكثر من أربعين كتاباً معظمها بحروف كبيرة. ولأن كتبه كانت ضخمة لا يسهل تناولها فقد سلمت إلى حد كبير من عوامل التلف ووصلتنا فى حالة جيدة. وكانت لكتبه شعبية خاصة ولذلك راجت بين الجموع وكون من ورائها ثروة كبيرة. وربما كان من الطابعين الألمان الذين يستخدمون الحروف الرومانية وقد استخدمها لأول مرة فى الكتاب

(1) Den Edelstein.

المقدس اللاتينى الذى طبعه سنة ١٤٦٠، وربما كان أنجح استخداماته لها فى الطبعة ثمانية المجلدات لكتاب «سانت فنسنت من بوفيه»؛ (الفكر التاريخى)[1] الصادر سنة ١٤٧٣. وكان «منتلين» هو أول طابع ألمانى يصدر فهارس وصفية مطولة بكتبه. ومعظم كتبه غير مؤرخة وقد مر عشرون عاما قبل أن يؤرخ كتاباً.

ومن الجائز أن يكون «أدولف رش» ـ الذى أصبح زوج ابنته فيما بعد ـ مساعداً له فى مطبعته، وقد خلفه فى العمل بعد وفاته سنة ١٤٧٩. ويؤخذ على «رش» أنه لم يؤرخ ولم يكتب اسمه على أى من كتبه ولكنه كان مشهوراً باستخدام البنط الرومانى وكان حرفR عنده عجيباً مميزاً ولذلك اشتهر بين الببليوجرافيين بالطابعR ! وربما استخدم الحرف الرومانى لأول مرة فى طباعة كتاب دوراندوس سابق الذكر سنة ١٤٦٤. وكان أعظم أعمال «رش» هو الكتاب المقدس اللاتينى الذى يقع فى أربعة مجلدات المطبوع سنة ١٤٨٠ لحساب «أنتونى كوبيرجر» من نورمبرج. وإلى جانب الطباعة كان «رش» يدير أعمالاً أخرى وتجارة فى الورق.

من الشخصيات الطابعة التى لمعت فى سماء ستراسبورج «هنريتش ايجيشتاين» خريج الجامعة، وقد بدأ الاشتغال بالطباعة سنة ١٤٦٤م وأصبح المنافس الرئيسى للطابع منتلين و رش. وقد طبع نحو خمسين كتاباً معظمها بدون اسمه، ولعل أهمها جميعاً ثلاثة كتب مقدسة باللاتينية وكتاب آخر من حجم الفوليو الكبير سنة ١٤٧١.

وثمة طابع آخر هو «يوحنا راينهارد» أو «جرونجر»، الذى تخصص فى كتب اللاهوت والشعر والأعمال الشعبية باللغة الألمانية. وقد نشر عدداً من الكتب ذات الصور استخدم فيها كبار الرسامين والحفارين. وقد طبع كتباً مثل رش لحساب كوبيرجر من نورمبرج لعل أهمها (جغرافية بطليموس) والذى نشر ١٥٢٥م.

د ـ مدينة أوجزبرج

دخلت الطباعة إلى أجزبرج حوالى سنة ١٤٦٨؛ وكان أول الطابعين هناك هو

(1) St. Vincent of Beauvais. Speculum Historiale.

«جونتر زينر» وهو أصلا مواطن من روتلنجن، ونشر أول كتبه هنا سنة ١٤٦٨ وكان من أوائل الطابعين الذين استخدموا الإيضاحيات المصنوعة من كتل الخشب رغم مناهضة مصممى كتل الخشب لذلك خوفاً من منافسة الطباعة الجديدة لفنهم القديم، ولم يكتفوا بعدم التعاون معه ومعارضته بشدة بل ذهبوا إلى أبعد من هذا فأنكروا عليه حقه فى المواطنة. ولكن مع تدخل الأب «ملشوار» رئيس دير أولرخ و أفرا سمح له بإنتاج كتب مصورة، بل وأن يكون عضواً فى نقابة مصممى كتل الخشب وتسابقوا فى التعاون معه. وبسبب ذلك استطاع زينر أن يطبع سلسلة من الكتب المصورة البهيجة راجت وأصبحت لها شعبية كبيرة بين العامة. وكان أول هذه الكتب كتاب «حياة القديسين»(١) الذى ألفه «يعقوب دى فوراجين»، وقد عرف أيضاً باسم «الأسطورة الذهبية»(٢). وقد نشر هذا الكتاب فى جزءين سنة ١٤٧١ و١٤٧٢م. وبطلب من الأب ملشوار أصدر طبعة مصورة من كتاب «مرآة الخلاص الإنسانى»(٣) الذى سبق ذكره من قبل. وفى سنة ١٤٧٥ و١٤٧٧ طبع نسخاً كبيرة من الكتاب المقدس مستخدماً فيها الحروف الكبيرة الأولى. وكان فى كل طبعة يدرج رسمة كبيرة مصنوعة بكتل الخشب. وكان زينر يجود ويطور بصفة مستمرة فى طباعته وطرق إنتاج الكتب لدرجة أنه فى سنة ١٤٧٣ طبع كتاباً كاملاً به عناوين الفصول وعلامات الفقرات والأحرف الأولى المزخرفة وكان ذلك هو كتاب «المبادئ الأساسية»(٤). ومات زينر سنة ١٤٧٨ عن مائة كتاب طبعها، من بينها عشرون كتاباً مصوراً.

فى سنة ١٤٧٢ قام الأب ملشوار بتركيب مطبعة عنده فى دير أولرخ و أفرا. وقد خرج من هذه المطبعة أحد الطابعين ويدعى «أنطون سورج» وأخذ يطبع لحسابه سنة ١٤٧٥م وأنتج كثيراً من الكتب المصورة من بينها طبعة مصورة من الكتاب المقدس سنة ١٤٧٧ وأول ترجمة ألمانية من كتاب «رحلات ماندفيل»(٥) سنة ١٤٨١.

(1) Jacobus de Voragine. Leben der Heiligen.

(2) Legenda Aurea.

(3) Speculum Huminae Salvationis.

(4) De Regimine Principum.

(5) Travels of Mandeville.

كذلك اشتغل «يوحنا باملر» بالطباعة فى أوجزبرج سنة ١٤٧٢ وكان فى الأصل ناسخاً. وكان صديقاً ومنافساً للطابع سالف الذكر جونتر زينر. وكثير من صور الكتل الخشبية إما استعاره من زينر أو نسخها من الكتل التى استخدمها.

ولعل أعظم طابعى أوجزبرج هو «إيرهارت راتدولت» الذى اشتغل بالطباعة فى البندقية واشتهر هناك بين ١٤٧٦ و١٤٨٦. وكان راتدولت قد ولد فى أوجزبرج وعاد إليها سنة ١٤٨٧ بناء على طلب «فردريتش فون هوبنزولرن» أسقف مدينة أوجزبرج، وقد استمر فى مزاولة نشاط الطباعة حتى وفاته فى سنة ١٥٢٧م أو ١٥٢٨م وكان أول كتاب له قد طبع سنة ١٤٨٧ وبه أول صور ملونة من كتل الخشب. وكان راتدولت وهو فى البندقية يطبع شراكة مع «بيتر لوزلاين» و«بيرنهارد مالر»، وهذا الأخير كان رساماً ومواطناً من أوجزبرج أيضاً. ومن بين الملامح الخاصة فى مطبوعاتهم الحروف الأولى المصنوعة من كتل الخشب والتى لم تكن تحتاج إلى تحمير بعد الطبع، كما قاموا بطباعة تقاويم سنوات ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٨٢م. وكان تقويم سنة ١٤٧٦ يحمل أول صفحة عنوان مزخرفة بالكامل. وفى سنة ١٤٨٢ أصدروا طبعة من كتاب إقليدس «مبادئ الهندسة» والذى ضم لبعض الحروف الأولى والإطارات الجميلة وما يربو على ٤٠٠ رسم هندسى يرجح أنها أخذت عن رسومات على سطح معدنى. وكانت معظم مطبوعات راتدولت فى أوجزبرج عبارة عن كتب فى اللاهوت والشعائر الدينية والرياضيات والفلك.

هـ ـ مدينة نورمبرج.

رغم أن أول طابع فى مدينة نورمبرج كان يوحنا سنسنشمدت المشار إليه سابقاً الذى انتقل إلى مدينة بامبرج؛ إلا أن أشهر طابع فى هذه المدينة كان «أنطون كوبرجر» حيث أسس مطبعة سنة ١٤٧٠ وأصدر أول كتاب له سنة ١٤٧١. وكان أهم كتاب نشره هو كتاب «قضايا فلسفية»(1) لمؤلفه بوثيوس. وكانت أول طبعة

(1) Boethius. De Consolatione Philosophiae.

لأشهر كتاب مخطوط. وكان كوبرجر رجل أعمال ناجح للغاية وقد امتد نشاطه واتسع وتشعبت علاقاته لدرجة أنه فى سنة ١٥٠٠م كان يدير ٢٤ مطبعة مختلفة وفتح مجالاً ومنافذ لتوزيع كتبه فى كل أنحاء أوربا. ورغم أنه كان يدير مطابعه إلا أنه احتاج إلى خدمات الطابعين الآخرين ليطبعوا له بعض كتبه، وكان من بينهم الطابع رش سابق الذكر و جروننجر فى ستراسبورج.

لقد تخصص كوبرجر فى طبع الكتاب المقدس وكتب اللاهوت الأرثوذكسى وكانت معظمها باللاتينية. ولقد أصدر ثلاث عشرة طبعة مختلفة من الكتاب المقدس: اثنتا عشرة منها باللاتينية وواحدة بالألمانية. والطبعة الألمانية المطبوعة سنة ١٤٨٣ من أجمل طبعات الكتاب المقدس بالألمانية. ولقد زينت بصور مصنوعة بكتل الخشب استخدمها قبل ذلك «هنريتش كوينتل» فى طبعته للكتاب المقدس باللغة الألمانية والتى طبعها فى كولون قبله بعدة سنوات. وربما كان مشروع كوبرجر الطموح هو ذلك الكتاب المقدس الذى طبعه من مخطوطة الكاردينال «هوجو» من القرن الثالث عشر وقد طبع فى سبعة مجلدات وطبع بين ١٤٩٧ و١٥٠٣ لحسابه فى بازل على يد «يوحنا أميرباخ»، وتسبب له فى خسارة مالية.

ويرى الخبراء أن أعظم مطبوعات كوبرجر هو كتاب «الحوليات»[1] الذى وضعه كل من هارتمان شيدل و جورج ألت ونشر سنة ١٤٩٣ واشتهر بين الناس بحوليات نورمبرج[2]. هذه الموسوعة التى تضم التاريخ والجغرافيا وعجائب العالم طبعت بالحجم الكبير فى ٥٩٦ صفحة ومزودة بـ ١٨٠٩ صورة من كتل الخشب توفر عليها الفنانان الرسامان مايكل وولجموث و فيلهلم بليدنوورف. وقد استخدم فى إعداد هذه الصور ٦٤٥ كتلة خشب مختلفة، ومعنى ذلك أن هناك ١١٦٤ قطعة قد استخدمت أكثر من مرة داخل هذا العمل. وعلى سبيل المثال فإن الكتاب ينطوى على ٢٢٤ صورة لملوك مختلفين، بينما عدد الكتل التى تمثل

(1) Hartmann Schedel and Georg Alt .Liber Chronicarum.

(2) Nuremberg Chronicle.

التيجان ٤٤ فقط، وحيث التاج الواحد يمكن استخدامه لأكثر من ملك. ولقد توفى «كوبرجر» سنة ١٥١٣، ويعزى إليه نشر ٢٣٦ عملاً مختلفًا.

و ـ مدينة كولون.

كان «أولرخ زيل» هو أول طابع فى هذه المدينة، ويقال إنه كان أحد عمال جوتنبرج فى ماينز. وكان مواطنًا من هاناو، ولكن عند انتقاله إلى كولون سُجِّل فى سجل الجامعة على أنه كاتب دوقية ماينز. وكان أول كتبه للمؤلف الرومانى الشهير «شيشرون»[1] وهو واحد من أول الكتب الكلاسيكية التى تطبع على الإطلاق.

وعلى العكس من معظم معاصريه؛ كان يطبع كتب اللاهوت الشعبية فى قطع الربع باللغة اللاتينية فوجدت رواجًا سريعًا. وقد استمر فى نشاطه الطباعى حتى سنة ١٤٩٤. حتى بلغ عدد الكتب التى نشرها نحو مائتى كتاب. وكانت طباعة «زيل» متقنة بالرغم من أنها لم تكن متميزة عن غيرها. وقد اشتهر بسبب أنه كان أستاذ «كاكستون» الطابع الإنجليزى الأشهر عندما جاء إلى كولون. وربما لأنه هو الذى ذكر فى حولية كولون سنة ١٤٩٩ أن اختراع الطباعة فى ماينز سبقه اختراع بدائى لها فى هولندا.

وثمة طابع آخر فى كولون هو «هنريتش كوينتل»، أخصب طابعى كولون وأغزرهم، وهو معروف بكتاب (كولون المقدس) الذى طبعه سنة ١٤٧٨ وقد استخدم كتله الخشبية طابعون آخرون كثيرون.

وكان الطابع «أرنولد ثير هورنين» منافسًا عنيدًا لزيل فى كولون، وقد مارس نشاطه الطباعى هناك من ١٤٧٠ وحتى ١٤٨٢. وقد طبع فى سنة ١٤٧٠ واحدًا من أوائل الكتب ذات صفحة العنوان المستقل.

أما «يوحنا كولهوف» (الأب) فقد تركز نشاطه الطباعى فى كولون من ١٤٧٢

(1) Cicero. De Officiis.

وحتى ١٤٩٣، وخلال هذه الفترة التى امتدت لما يربو على عشرين عامًا، طبع نحو مائة وخمسين كتابًا. وكان أول من استخدم علامات الملازم لمساعدة المُجَلِّدين فى تجميع الملازم. وكان ابنه «يوحنا كولهوف» (الابن) هو طابع حوليات كولون الشهيرة سنة ١٤٩٩.

ز ـ مدينة بازل.

كانت مدينة بازل جزءًا من الإمبراطورية الألمانية حتى انضمامها للاتحاد السويسرى سنة ١٥٠١م. ويفضل أن تدرس طباعتها ضمن الطباعة الألمانية للعلاقة الوثيقة بينهما.

وكان أول طابع فى بازل هو «بيرثولد روبل» من هاناو، والذى يحتمل أن يكون قد تعلم الطباعة من «يوحنا جوتنبرج»، والذى شهد معه فى المحكمة فى قضيته الشهيرة سنة ١٤٥٥. وليس من بين كتبه كتاب واحد مؤرخ، ولكن من خلال تاريخ مكتوب بخط اليد فى نسخة من نسخ طبعته لكتاب (سانت جريجورى) يستنتج أنه بدأ الطباعة فى بازل فى وقت ما قبل سنة ١٤٦٨. وقد طبعت كتبه مثل كتب «مايكل فنسلر» و «برنارد ريتشل» ثانى وثالث الطابعين فى بازل، وبالحرف الغوطى.

لقد أدخل الحرف الرومانى إلى بازل سنة ١٤٨٦م فى إحدى طبعات كتاب (أعمال الرسل) لمؤلفه «فيليلجو»[1]، والذى أدخلها هناك هو «يوحنا أميرباخ» الذى مارس نشاطاته الطباعية فى بازل من ١٤٧٨ وحتى ١٥١٢، وطبع بعض الكتب الكلاسيكية إلى جانب أعمال آباء الكنيسة وغيرها من الكتب الصغيرة. وقد تابع نشاط مطبعته الأكاديمى، تلميذه وخليفته «يوحنا فروبن» الذى ولد فى هاملبرج سنة ١٤٦٠ ودرس فى جامعة بازل وتخصص فى الدراسات اللاتينية واليونانية (الكلاسيكية). وعلى الرغم من أنه بدأ نشاطه الطباعى سنة ١٤٩١،

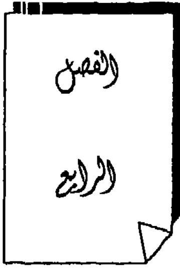
(1) Filelgo. Epistolare.

إلا أنه لم يحقق نجاحًا كبيرًا حتى وفاة أستاذه أميرباخ سنة ١٥١٢ . وكان نشاطه واسع المدى والصدى لدرجة أصبحت معها بازل مركز تجارة الكتاب الألمانى فى طبعاته الكلاسيكية. وقبل وفاته فى سنة ١٥٢٧ كان قد طبع ما لايقل عن ٢٥٠ عملاً معظمها باللاتينية أو اليونانية. ولقد رسخ استخدام الحروف الرومانية، كما أدخل الأبناط اليونانية والمائلة. ولقد حاز على تقدير عال بين الطابعين وذلك لجمال طباعته، ودقة النصوص التى يطبعها، والتى حرر كثيرًا منها بنفسه. ويبدو أنه حذا حذو «ألدوس مانتيوس» الإيطالى فى البندقية، سواء فى استخدام الحروف، أو طبع الكتب صغيرة الحجم رخيصة السعر، أو الأسلوب العام فى الطباعة. . مما جعلهم يطلقون عليه «ألدوس الألمانى»!

لقد كان «يوحنا فروبن» صديقًا شخصيًّا للباحث «إراسموس» الذى كان حلقة الوصل بينه وبين «ألدوس»، حيث كان يعمل مؤلفًا ومصحح بروفات مع الاثنين. وكان «فروبن» يمنح «إراسموس» أجرًا نظير هذه العملية، وهى من المرات النادرة التى سمعنا فيها عن ناشر يكافئ مؤلفًا على كتبه فى ذلك الوقت الباكر من ظهور الطباعة.

وكانت كتب «فروبن» تزين بالحروف الأولى المصنوعة من كتل الخشب والإطارات والإيضاحيات التى يصممها له كبار الفنانين من أمثال «أورز جراف» و «هانز هولبن» اللذين خدماه وخدما غيره من الطابعين فى بازل. ولقد استطاع «هانز هولبن» من خلال علاقته مع «فروبن» و «إراسموس» أن يحصل على إقامة فى إنجلترا سنة ١٥٢٦ تحت كفالة «هنرى الثامن».

وفى سنة ١٥٣٨ قام الطابع «أندرياس كراتاندر» ـ بمساعدة آخرين ـ بطباعة أعمال «جالينوس» فى طبعة من خمسة مجلدات، استخدم فى مقدمتها الحروف المائلة. ويرجح أن مصمم هذه الحروف هو «توماس وولف» الذى كان فى ذلك الوقت الطابع الرسمى لمدينة بازل، وكان أول من استخدم الحروف الكبيرة المائلة بدلاً من تلك الرأسية.



الطباعة فى فرنسا

أ ـ مدينة باريس

كانت أولى محاولات إنشاء مطبعة فى فرنسا هى تلك التى حدثت سنة ١٤٥٨م عندما أمر الملك «شارل السابع»؛ «نيقولاس جنسن» مدير دار سك النقود الملكية فى تورز بالتوجه إلى ماينز لاكتشاف سر الطباعة ولإقامة مطبعة فى باريس عند عودته. ولكنه عندما رجع جنسن إلى باريس سنة ١٤٦١ كان «شارل السابع» قد مات وكانت هناك معارضة شديدة لإقامة مثل هذه المطبعة من جانب النساخين الحرفيين ورعاة الفكر الأغنياء. ومن هنا فكر جنسن فى إقامة مطبعته فى مكان آخر، وعندما لمع اسمه وسمعنا عنه مرة أخرى كان ذلك فى فينسيا (البندقية) كطابع.

أما الدخول الحقيقى للمطبعة إلى فرنسا فقد كان على يد اثنين من الدارسين هما «جان هنلين» و «غليوم فيشيه» الأستاذين فى جامعة السوربون بباريس. فقد صادف هنلين نماذج من المطبوعات فى بازل وحمل الفكرة إلى فيشيه وبعض الدعاة الأثرياء فى باريس. وكان من نتيجة ذلك أن دعى ثلاثة من الطابعين الألمان إلى باريس لإنشاء مطبعة داخل الحرم الجامعى. وكان هؤلاء الثلاثة هم: «مايكل فرايبورجر»، «أولرخ جيرنج»، «مارتن كرانتز». ورغم أن هنلين و فيشيه كانا مرتبطين بالمطبعة على الأقل فى تصحيح البروفات وتحرير النصوص إلا أن هذه المطبعة لم تكن مرتبطة رسمياً بالجامعة.

وكان أول كتاب يصدر عن هذه المطبعة هو «خطابات جاسبارينو بارزيزى» وقد صدر سنة ١٤٧٠م وكان فى حجم الربع (الكوارتو)، وببنط كبير واضح بنى على بنط «سوينهايم» و «بنارتز» الذى طبعا به كتاب «حواشى قيصر» فى روما سنة ١٤٦٩م. وقد جاء بعد هذا الكتاب ما لايقل عن عشرين كتاباً أخرى بين

سنتى ١٤٧٠ و١٤٧٢؛ معظمها من الكلاسيكيات والكتب الدراسية المقررة على طلبة الجامعة.

وفى سنة ١٤٧٢ غادر كل من هنلين و فيشيه باريس مخلفين وراءهما الألمان الثلاثة فى مطبعتهم حيث نشروا فى سنتى ١٤٧٢م و ١٤٧٣م أربعة كتب عامة، وبعدها تركوا الجامعة هم أيضاً وأقاموا مقراً لهم فى شارع القديس جاك ونشروا أول كتاب لهم من المقر الجديد فى مايو ١٤٧٤ - وهو دليل عمل للإكليريين[1] - واستخدموا فيه الحرف الرومانى/ الغوطى. وقد أتبعوه بعدة كتب فى اللاهوت كان من بينها أول كتاب مقدس ينشر فى فرنسا.

وكانت ثانى المطابع فى باريس هى تلك التى أسسها سنة ١٤٧٣ الألمانيان «بيتر كيسيرى» و «يوحنا ستول»، وكانا من بين عمال «فرايبورجر» و «جيرنج» و«كرانتز» فى مطبعة السوربون.

وكان أول كتاب يطبع باللغة الفرنسية فى باريس هو كتاب «حوليات فرنسا الكبرى»[2] سنة ١٤٧٧ فى ثلاثة مجلدات والذى نشره «باسكوير بونووم» بائع الكتب لدى الجامعة.

وربما كان أول طابع فرنسى فى باريس هو «أنطوان فيرار»[3] الذى بدأ حياته حفاراً ومزخرفاً للكتب وبدأ يدخل ميدان الطباعة سنة ١٤٨٥ واشتهر فيما بعد كناشر، واستخدم فى عمله كبار المصممين والطابعين والرسامين فى زمنه. وكان أول كتبه قد نشر سنة ١٤٨٥ بالفرنسية وقد طبعه له «جان دى بريه» وهو كتاب (ويكاميرون)، ومن بين أعماله الجيدة سنة ١٤٨٦ «مائة قصة جديدة»، ومجموعة من أربع رسائل عن فن الحياة والموت فى مجلد واحد سنة ١٤٩٢، و«حوليات فرنسا» سنة ١٤٩٣ فى ثلاثة مجلدات من إعداد «جان موران»؛ وطبعة جميلة فى خمسة مجلدات من «كتاب المرآة التاريخية للقديس فنسنت من بوفيه ١٤٩٥ - ١٤٩٦»؛ ومجموعة طبعات جميلة من «كتاب الساعات» أصدرها من ١٤٨٨ فصاعداً. وفى سنة ١٥٠٠ نشر طبعة غير مؤرخة من كتاب (ترينس

(1) Manipulus Curatorum.
(2) Grandes chroniques de France.
(3) Antoine Vérard.

فرانسوا) استخدم فيها إيضاحيات من كتل الخشب. وبعد سنة ١٤٩٣ تخصص فى الكتب الغالية ذات الزخرفة الفخمة والمطبوعة غالباً على رقوق والتى يقبل عليها البلاط الملكى وأفراد الأسرة المالكة والأثرياء. وكانت كتبه المصورة عادة ما تتضمن تلويناً يدوياً راقياً أرقى من ذلك التلوين المأخوذ من كتل الخشب والذى كان يتغير حسب احتياجات المشترين وأذواقهم. ويعزى إلى فيرار نشر ٢٨٦ كتاباً فى الفترة من ١٤٨٥ وحتى ١٥١٤. ورغم أنه كان ناشراً رائعاً إلا أنه لم يسلم من الخطايا فقد كان لا يتردد فى السطو على كتب الناشرين الآخرين. ويرى بعض الخبراء أن هناك مبالغات فى تقدير قيمة الإيضاحيات فى كتبه وأنه مثل «كوبرجر» فى نورمبرج كان يستخدم الكتلة الخشبية الواحدة فى أكثر من موضوع. وقد سجل الببليوجرافى الشهير «أ. و. بولارد» على سبيل المثال استعارته خمس كتل خشبية من كتاب سابق، واستخدمها أربعاً وستين مرة فى كتاب جديد، بل والأكثر من هذا أنه كان أحياناً يضع فى كتبه إيضاحيات لا علاقة لها بالنص إطلاقاً.

ونظراً لأهمية «كتاب الساعات»[1] الذى نشر فى عالمنا العربى تحت عنوان «كتاب السواعى» فسوف نتوقف عنده بعض الوقت، فقد راج فى باريس رواجاً كبيراً وتوفر على طبعه عديد من الطابعين فى باريس. ومن المعروف أن هذا الكتاب يتناول الصلوات المختلفة وقد وضع لاستخدام رجال الدين ولعامة الناس كذلك. وقبل دخول الطباعة بالحروف المتحركة كان هذا الكتاب لا يتاح إلا فى نسخ مخطوطة غالية الثمن مكتوبة على رقوق ومصورة ومزخرفة بألوان بديعة زاهية. ولما جاءت الطباعة ساعدت فى نشر نسخ رخيصة جداً وجميلة أيضاً ومن ثم أتاحتها للجمهور العام على نطاق واسع.

والوضع الرئيسى فى كتاب الساعات هذا هو التركيز على الساعات السبع للسيدة مريم العذراء، وكل ساعة منها مصحوبة برسم يصور حادثاً معيناً فى حياة السيدة مريم العذراء أو حياة المسيح. وبالإضافة إلى ذلك هناك من ساعتين إلى ست ساعات جانبية يصحب كل منها رسمة تصور حدثاً معيناً مثل حادث البشارة وحادث الصلب. وقد صدرت من هذا الكتاب طبعات متأخرة موسعة تضم

(1) Iivre D' Heures, Horae, Book of Hours.

مفردات أخرى كالتقاويم، قطع من الأناجيل، صلوات خاصة، المزامير، الابتهالات، صلوات الميت، وكل من هذه المفردات تصحب بصورة تناسبها. وفى النسخ المطبوعة من هذا الكتاب كانت الصور المرسومة باليد (فى المخطوطات) تستبدل بصور الكتل الخشبية، وبنفس الطريقة كانت الحواف المذهبة والمفضضة فى المخطوط تستبدل بصور صغيرة من كتل الخشب تجمع معًا فى شكل إطار حول الصفحة على شكل شريط. وكلما زادت شعبية كتاب الساعات واتسع انتشاره وتداوله أهملت تلك الإطارات التى كانت تزين حوافه بصور دينية وربما حل محلها فى بعض الأحيان زخارف وحليات علمانية، وربما استخدمت الحليات والزخارف فى الطبعات المتعاقبة.

ولعله من نافلة القول أن فيرار كان أول ناشر ينشر «كتاب الساعات» مطبوعاً سنة ١٤٨٧، وكان هذا الكتاب المطبوع المصور هو حلقة الانتقال بين المخطوط والمطبوع وقد زود بتسعة صور مأخوذة عن كتل خشبية ولونت تلويناً يدوياً بواسطة المزخرفين. ولعل أجمل طبعة من كتاب الساعات هى تلك التى توفر عليها «جان دى بريه» سنة ١٤٨٩م[١] وفى هذه الطبعة ـ التى اعتبرت نموذجاً لطبعات كثيرة لاحقة ـ نجد أن إطارات الصفحات والإيضاحيات قد طبعت من لوحات نحاسية. وكانت الطبعة الثانية من هذا الكتاب لهذا الناشر ـ دى بريه ـ قد صدرت سنة ١٤٩٠ وتمثل إحدى المحاولات الباكرة لطبع صور ملونة من كتل الخشب واستخدمت فيها الألوان: الأحمر والأخضر والأزرق. وبعد طبعة دى بريه الثانية هذه قام فيرار بطبع طبعة من هذا الكتاب عرفت بعنوان «الساعات الكبرى»[٢] أنتجت أطرها وصورها عن طريق كتل الخشب. وربما كان أحسن ناشر لكتاب الساعات هو «بيير بيجوشيه» الذى أصدر أولى طبعاته من هذا الكتاب سنة ١٤٩١م وسرعان ما أضفى عليه صبغة خاصة عرفت به. ولعل طبعاته التالية التى أعدها خصيصاً للناشر الباريسى «سيمون فوستر» هى أجمل

(1) Horae ad Usum Romanorum.

(2) Grandes Heures.

طبعات هذا الكتاب على الإطلاق. ولقد قلد بيجوشيه فى عمله هذا وبنجاح كبير الناشر «تلمان كيرفر» الذى بدأ فى نشر هذا الكتاب اعتباراً من سنة ١٤٩٧ وأصبح أحسن رابع ناشر لهذا الكتاب (كتاب الساعات).

لقد تم إنتاج أجمل طبعات كتاب الساعات بين ١٤٩٠ و١٥٠٠. لقد شهدت نهاية القرن الخامس عشر تدهوراً فى الذوق. وعندما توقف بيجوشيه عن العمل سنة ١٥٠٥ وبدأت الكتب تفقد خاصيتها الفرنسية الخفيفة وتقع تحت التأثير الألمانى الجاف شديد التفاصيل. وفى سنة ١٥٢٥ صدر كتاب الساعات من جديد من قبل الناشر «جيوفرى تورى» فى طبعة أنيقة ذات ذوق رفيع وقد امتزجت فيها الأطر المزخرفة والصور الجيدة مع الحرف الرومانى اللطيف. وقد صدرت عدة طبعات على هذا المستوى من الكتاب بين ١٥٢٥ و١٥٥٠، ولكن بعد ذلك التاريخ بدأ هذا العمل يفقد شعبيته بين العامة وتوقف نشر هذا الكتاب سنة ١٥٦٨ بعد صدور قرار من البابا بوقف تداول هذا الكتاب بين رجال الدين. وهذا البابا هو «بيوس الخامس».

ب ـ مدينة ليون.

كانت ليون هى ثانى أكبر مراكز الطبع فى فرنسا بعد باريس، وقد تطورت فيها الطباعة تطوراً عظيماً وسريعاً بعد دخولها إليها سنة ١٤٧٠ على يد «غليوم لو روى». وكان الطابعون فى ليون فى غاية الهمة والنشاط وكثير منهم توفر على طبع الأعمال الناجحة التى نشرت فى باريس والبندقية. أما الأعمال التى انفردوا بنشرها فقد تضمنت كمية كبيرة من الأدب الخفيف وكتباً باللغة العامية على النقيض تماماً من الكتب التى كانت تنشرها مراكز الطبع الأخرى فى أوربا أى الأعمال الكلاسيكية واللاهوتية. وكان أحسن نموذج على ذلك الطبعة الأولى التى نشرها «تريشيل» سنة ١٥٣٨ من كتاب «رقصة الموت»[1].

ومن الطابعين الفرنسيين المشاهير فى ليون «جوكيوس باديوس» وهو طابع

(1) Les Simulachres et Historiés Faces de la mort.

عالم عمل فى ليون مع جان تريشيل سابق الذكر كمصحح وقارئ بروفات، وعندما مات تريشيل سنة ١٤٩٨م انتقل باديوس إلى باريس حيث اشتغل بالطباعة وتدريس الكلاسيكيات. وقد اشتهرت مطبعته منذ سنة ١٥٠٤م بسبب دقة طباعة ما تنشره والصبغة العلمية لما تطبعه وجودة الطباعة. ومن بين الأعمال القوية التى نشرت سلسلة الكلاسيكيات اللاتينية وأول طبعة فرنسية من أعمال براندت وبعض أعمال بوديوس. وقد اشتهر بسبب علامة الطابع التى ظهرت لأول مرة على طبعته من كتاب (برشيان) فى قواعد اللغة[1] سنة ١٥٠٧ وكانت هذه العلامة عبارة عن شكل طابعة تعمل.

ومن هذه البدايات فى باريس وليون امتدت الطباعة سريعاً فى أنحاء متفرقة من فرنسا، بل ودخلت إلى المدن الصغيرة عن طريق الطابعين الجائلين الذين أتوها من ألمانيا وهولندا. وكانت المحاولات الأولى فى الطباعة فى فرنسا فى القرن الخامس عشر تقليداً لما كانت عليه المخطوطات، ولكن بالتدريج أدخل الطابعون الفرنسيون تطويرات خاصة على أساليب الطباعة.

وفى القرن السادس عشر كانت الطباعة الفرنسية ما تزال مشدوهة إلى تقليد المخطوطات. وظلت الحروف الغوطية مستخدمة إلى جانب حروف أخرى اشتقت من الحروف المختصرة الموجودة فى المخطوطات. ولكن مع عشرينات القرن السادس عشر بدأ نفر من أحسن الطابعين الفرنسيين فى استخدام الحرف الرومانى.

وربما كان أكثر الطابعين الفرنسيين تأثيراً فى الاتجاه نحو الاستخدام العام للحرف الرومانى هو «جيوفروى تورى». ولقد ولد تورى هذا فى بورجيز سنة ١٤٨٠م تقريباً ودرس فى مدينته تلك وأيضاً فى مدينة روما، وقد أبدى وهو شاب استعداداً طيباً فى دراسة الأدب مما أهله لأن يعين أستاذاً فى كلية بليسيس بباريس. وهو فى هذه الوظيفة تقابل مع «هنرى إستين» حيث عمل محرراً لديه، وتحت إشرافه وتوجيهاته رغب فى عملية إنتاج الكتب وأحبها ومال إليها. ولقد

(1) Priscian. Institutiones Grammaticae.

استغل وقت فراغه فى حفر تصميمات لأطر الصفحات ولبعض الحروف، واستغرقه هذا العمل تماماً بحيث أنه فى سنة ١٥١٥ استقال من كرسى الأستاذية وارتحل إلى إيطاليا لدراسة تصميمات الحروف والزخارف الأصلية. وعند عودته إلى باريس سنة ١٥١٨م اشتغل بعض الوقت مزخرفاً للمخطوطات، ولكنه لم يلبث أن ترك ذلك واشتغل بحفر الخشب وتقدم فى هذا الفن وأصبح خبيراً فيه. وفى تلك الأثناء سجل نفسه فى سجل تجار الكتب وبدأ يعد العدة لإصدار طبعته الخاصة من «كتاب الساعات» وقد طبع له هذه الطبعة الطابع الشهير «سيمون دى كولنز» سنة ١٥٢٥. وكانت طبعة لطيفة تنسجم فيها الحروف مع الاستهلاليات مع الإيضاحيات فى توافق تام، ولقيت الطبعة نجاحاً تاماً.

وبعد ذلك توفر تورى على تصميم العديد من الحروف والأطر والعلامات للطابع سيمون دى كولنز. وبعدها بدأ فى دراسة تصميمات الحرف الرومانى من أجل وضع تصميم خال من العيوب الموجودة فى شكل الأبجدية الأصلى المخطوط. ولقد وضع خلاصة عمله فى كتاب نشره سنة ١٥٢٩[1] وقد قسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول ناقش فيه طبيعة اللغة الفرنسية كوسيط للتعبير الأدبى واقترح كثيراً من الإصلاحات فى الأشكال المستعملة للنطق والهجاء وأدخل استخدام علامات الهجاء. وفى الجزءين الثانى والثالث وضع أسس نظرياته الهندسية فى تصميم الحروف ووضع نماذج مصورة لها مستخدماً كتل الخشب. وقد توج هذا النجاح سنة ١٥٣٠ بتعيينه الطابع الملكى للملك «فرانسوا الأول»، ولكن للأسف لم يَدُم هذا النجاح طويلاً فقد توفى الرجل بعد عامين فقط سنة ١٥٣٢م.

وتعتبر عائلة إستين من العائلات العريقة فى الطباعة فى فرنسا. ويعتبر هنرى إستين مؤسس هذه العائلة الطابعة الناشرة سنة ١٥٠١ تقريباً حين تزوج «جيون فيارت» أرملة طابع اسمه جان هيجمان وقد أبدى مهارة عظيمة فى إدارة المطبعة خلال عام واحد من تسلمه المطبعة. ولقد حقق خلال الثمانية عشر عاماً التى عمل بالطباعة والنشر فيها شهرة كبيرة بسبب مهارته الشديدة ودقته فى نشر

(1) Geoffray Tory. Champfleuny.

طبعات ممتازة من الكلاسيكيات اللاتينية واليونانية. وكان يستخدم فى عمله محررين أكفاء وفاهم حقهم من التقدير فى حرد المتن فى كتبه. وكان من الطابعين الفرنسيين الأوائل القلائل الذين يشرفون بأنفسهم على دقة الطباعة وخلوها من الأخطاء.

وكان الرجل الأول والساعد الأيمن لإستين هو «سيمون دى كولنز» سابق الذكر وقد أدار المطبعة بكفاءة واقتدار بعد اعتزال هنرى إستين العمل. وعندما مات إستين تزوجت أرملته من سيمون دى كولنز سنة ١٥٢٠م. ولما كان ابن هنرى إستين (روبرت إستين) صغيرا لم يبلغ السابعة عشرة فى ذلك الوقت فقد عمل صبياً لزوج أمه حيث تعلم منه أصول الحرفة على أساس متين، كما درس فى نفس الوقت الدراسات الكلاسيكية. وعندما أتقن الحرفة وانتهى من الدراسة استقل عن زوج أمه وأقام عمله المستقل كطابع وتاجر كتب. وكان ذلك فى سنة ١٥٢٤.

ولقد استمر سيمون دى كولنز فى عمله حتى وفاته سنة ١٥٤٦. ولأنه كان باحثاً وفى نفس الوقت فناناً موهوباً فى الطباعة فقد اقتصر فى عمله على طبع الأعمال الكلاسيكية وهو الذى أدخل إلى فرنسا طبعات قطع الـ ١٦ شبيهة بتلك التى نشرها ألدوس فى إيطاليا وساهم فى إحلال الحرف الرومانى محل الحرف الغوطى. وقد اشتهر أكثر بتفوقه فى الحرف اليونانى الذى طبع به أربعة عشر كتابا مستقلاً. ولقد أفاد الرجل كثيراً من علاقته مع جيوفروى تورى سابق الذكر الذى طبع له كتاب الساعات والذى توفر له على طبعته الأولى وربما استخدم فيه أيضا الحروف المائلة. وكان الطابع الفرنسى الوحيد الذى يطبع كتابًا كله بالحروف المائلة. ولقد بلغ عدد الطبعات التى نشرها ما يربو على خمسمائة طبعة كثير منها مصور.

أما روبرت إستين فإنه بعد عامين فقط من إنشاء مطبعته الخاصة تزوج من «بيريت» ابنة الطابع جوكيوس باديوس سابق الذكر. وإضافة إلى أنها كانت امرأة غنية فإنها كانت دارسة ضليعة فى الدراسات اللاتينية وربما تكون قد ساعدته فى

اختيار وتحرير النصوص الكلاسيكية التى طبعت فى مطبعتهما. ويقال إن جميع المناقشات والمحادثات فى مطبعة إستين كانت تتم باللاتينية. وقد جمع روبرت حوله نخبة من المساعدين المتعلمين استعان بهم كمترجمين ومحررين وبفضلهم أعد وطبع عدداً من القواميس اليونانية واللاتينية والعبرية سرعان ما أصبحت القواميس المعتمدة القياسية والتى سطا عليها الطابعون المزورون.

لقد كانت معايير عمل روبرت إستين مرتفعة للغاية، فكثير من كتبه طبعت على ورق فاخر وتوفر على تصميم حروفها الفنان الشهير «جاراموند» وأتم زخرفتها ووضع إطارات صفحاتها وأولياتها الفنان سابق الذكر تورى. وروبرت مثل والده سعى إلى أن تكون كتبه على أتم دقة فى نصوصها وتخلو من أية أخطاء لدرجة أنه كان يعلق بروفات كتبه خارج المطبعة ويقدم مكافأة لمن يكتشف خطأ فيها.

لقد استرعت الدقة المتناهية فى عمل روبرت إستين انتباه الملك الفرنسى «فرانسوا الأول»، فقام بتعيينه فى سنة ١٥٣٩ الطابع الملكى وبائع الكتب العبرية واللاتينية. وهذا التعيين إلى جانب أنه مسألة مهمة فى حياة روبرت كوظيفة وراتب وقيمة فى حد ذاتها، فإنه أيضاً حماه من الاضطهاد الدينى فى سنة ١٥٢٢ عندما كان صبياً تحت إشراف سيمون دى كولنز انتقد بشدة طبعة الكتاب المقدس بالمطبعة فى الجامعة مما أثار عليه غضب رجال الدين فى جامعة السوربون وانتهزوا كل فرصة للنيل منه وتجريحه، وقد تم تفتيش بيته عدة مرات، ولكى يتجنب القبض عليه لجأ إلى البلاط الملكى. وفى كل مرة كان يحاول الدفاع عن نفسه دفاعاً علمياً مقنعاً وأنه لم يقصد إلى نقد مضمون الكتاب المقدس أو العهد الجديد وأن كتبه كلها بعيدة عن الهرطقة، ولكن ذلك لم يثن أعداءه من تعقبه. ولما مات الملك فرانسوا سنة ١٥٤٧م عرض الملك «هنرى الثانى» عليه الاستمرار فى الوظيفة ولكن الوظيفة كانت قد تضاءلت إلى حد كبير آنذاك مما اضطر الطابع فى سنة ١٥٥٠ ـ ١٥٥١م إلى مغادرة باريس واللجوء إلى جنيف التى تحولت فى ظل حكم «كالفن» إلى مركز حقيقى للفنانين والعلماء فى حركة الإصلاح. وقد فتح مطبعة فى جنيف واستمر فى طبع الكتب ذات المستوى العالى حتى وفاته سنة

١٥٥٩. وكان أهم أعماله فى فترة إقامته فى جنيف طبعته الأنيقة من «تعاليم» جالفى.

لقد كان روبرت إستين بلا منازع واحداً من أهم الناشرين ـ الطابعين الذين أثروا فى تاريخ الطباعة فى زمانه. ولقد حاول تخليص الطباعة الفرنسية من مؤثرات المخطوط عليها، ولقد خدم البحث العلمى بالدفاع عنه ونشر الكتب الجادة ورد هجمات المعارضين للتقدم. ولقد قام بطباعة طبعات دقيقة من الكتاب المقدس والكتب الكلاسيكية ووضعها فى متناول باحث ذلك الوقت.

ومن بين أعضاء أسرة إستين الآخرين شارل إستين شقيق روبرت، الذى أدار مطبعة روبرت فى باريس من ١٥٥٠ ـ ١٥٦١ عندما ارتحل روبرت إلى جنيف. ورغم أنه أدارها بنجاح فى البداية إلا أنه فشل فى الاستمرار فى هذا النجاح ومات فى سجن الديون سنة ١٥٦٤. أما شقيق روبرت الثانى واسمه فرانسوا فقد اشتغل بتجارة الكتب وكان وكيلاً لأخيه وللطابع الآخر سيمون دى كولنز. هذا ولقد بقى ابن روبرت الأكبر واسمه روبرت الثانى فى باريس خلال فترة هروب والده إلى جنيف واستمر على عقيدته الكاثوليكية؛ ولهذا عهد إليه بإدارة المطبعة الملكية وعين رسمياً فيها سنة ١٤٦٣ وقد نجح فى مهمته نجاحاً كبيراً وحقق مكانة كبيرة تقرب مكانة والده. أما ابن روبرت إستين الأصغر واسمه هنرى إستين الثانى والذى ولد سنة ١٥٣١ فقد كان باحثاً كبيراً ولحق بأبيه فى جنيف سنة ١٥٥١ وتابع أعمال مطبعة أبيه هناك بعد وفاته سنة ١٥٥٩. وقد عاد بعد ذلك إلى باريس واستمر فى طباعة الكتب الكلاسيكية. وفى سنة ١٥٧٨ نشر **المحاورات الساخرة** التى جلبت عليه المتاعب مما اضطره فى نهاية حياته أن يتجول من مكان إلى مكان ويدير أعماله من منفاه الاختيارى إلى أن توفى فى ليون سنة ١٥٩٨.

وبفضل تأثير كل من تورى و سيمون دى كولنز و إستين وغيرهم من الطابعين التقدميين؛ وصلت الطباعة الفرنسية إلى مستوى عالٍ حيث تحررت الحروف من

تأثيرات المخطوطات غير المرغوبة عليها وحلت الحروف الرومانية محل الحروف الغوطية فى جيع فئات الكتب فيما عدا كتب الطقوس الدينية. وأصبحت النصوص المطبوعة أكثر وضوحاً وأفسح مسافات. وقد طبقت معظم الاقتراحات التى قدمها تورى - وخاصة ما يتعلق منها بالنطق والهجاء - وأدخلت إصلاحات تكنولوجية كثيرة على الطباعة كاستخدام الحواشى وعلامات الملازم وترقيم الصفحات على النحو الذى أشرنا إليه من قبل وتم تطبيق صفحة العنوان الكاملة فى الكتب الفرنسية، واستخدمت التعقيبات أيضاً، وتضمنت صفحة العنوان اسم المؤلف وعنوان الكتاب وبيانات الطبع. وكان لرعاية فرانسوا الأول وخلفائه للطباعة والطابعين أثره فى دفع الطباعة الفرنسية قدماً إلى الإمام. وفى سنة ١٦٤٠ وبفضل تأثير «ريشيليو» وبأمر من «لويس الثالث عشر» تم تأسيس المطبعة الملكية فى قصر اللوفر حيث صممت أبناط جميلة وخرجت مطبوعات رائعة تحت الرعاية الملكية.

وفى القرن الثامن عشر ظهرت أسرة طابعة فرنسية جديدة مثل أسرة إستين سابقة الذكر وهى أسرة **ديدوت**[1]. ومؤسس هذه الأسرة هو فرانسوا ديدوت (١٦٨٩ - ١٧٥٩) الذى بدأ كتاجر كتب سنة ١٧١٣م وبعد فترة أضاف إلى منشآته المطبعة. وأهم أعماله المجموعة المكونة من واحد وعشرين مجلداً من مؤلفات «آبى بريفوست» المطبوعة طبعاً أنيقاً والمصدرة بالخرائط والحفورات.

وكان لهذا المؤسس فرانسوا ديدوت ولدان، الأكبر «فرانسوا أمبرواز ديدوت» الكباس على لوحات الحروف المعدنية بحركة واحدة من يده. وتوفر على تصميم العديد من الأبناط الرومانية والمائلة القريبة من حروف باسكرفيل فى إنجلترا و بوروني فى إيطاليا. كما صمم حروفاً دقيقة قوية تميزت بخطوطها الحادة فى سمك الشعرة. وكان الطابع الشهير «فورنيير» قد اقترح **النقطة** لقياس حجم الحرف سنة ١٧٣٧، وكان ديدوت هو أول من طبقها وعممها وثبت النقطة عند حد من البوصة (وعلى وجه الدقة فإن ٧٢ نقطة = ٠ر٩٩٦٢ من البوصة).

---

(1) Didot Family.

ولهذا السبب بطل استعمال الأسماء القديمة للأبناط بالتدريج وأصبح تصميم الحروف يتم بعد ذلك بناء على عدد النقط. كذلك أدخل ديدوت نوعاً جديداً من الورق عرف بورق الرق الفرنسى[1]. ولقد حاز ديدوت نتيجة هذه الجهود على شهرة واسعة وتقدير عال، وثَمَّنَ الناس طبعاته الدقيقة الخالية من الأخطاء.

أما بيير فرانسوا ديدوت - شقيق فرانسوا أمبرواز ديدوت - (١٧٣٢ - ١٧٩٣) فقد عين طابعاً لدى دوفان سنة ١٧٥٩، وقد أصدر عدداً رائعاً من المطبوعات ولكنه اكتسب شهرته الأكبر من مصنع الورق الذى أنشأه فى إيسون والذى أصبحت بمقتضاه أسرة ديدوت أشهر وأكبر صناع الورق فى فرنسا. وكان المشرف العام على هذا المصنع نيقولاس - لويس روبرت قد اخترع ماكينة صنع الورق الشهيرة المعروفة اليوم باسم (فوردنيير).

وكان لفرانسوا أمبرواز ديدوت ولدان هو الآخر حاز كل منهما نوط الامتياز والشرف فى عمله. فقد كان الابن الأكبر بيير ديدوت (١٧٦١ - ١٨٥٣) طابعاً وناشراً ونشر كثيراً من الكتب الكلاسيكية الفرنسية واللاتينية من القطع الكبير، ومن بين الأعمال القوية التى نشرها كتب راسين (راسان) التى حازت فى معرض ١٨٠١ على جائزة أحسن طباعة على الإطلاق. أما أخوه فيرمين (فيرمان) ديدوت (١٧٦٤ - ١٨٣٦) فقد أدخل كثيراً من الإصلاحات على الأبناط التى صممها أبوه وكما كان باحثاً من الطراز الأول فقد كان أيضاً طابعاً من الطراز الأول، وقد حازت مطبوعاته التقدير والجوائز أينما عرضت. وفى سنة ١٨٣٠ عرضت عليه إدارة المطابع الملكية. وقد عرف عنه أنه أول شخص أدخل الطباعة المجسمة فى عمله.

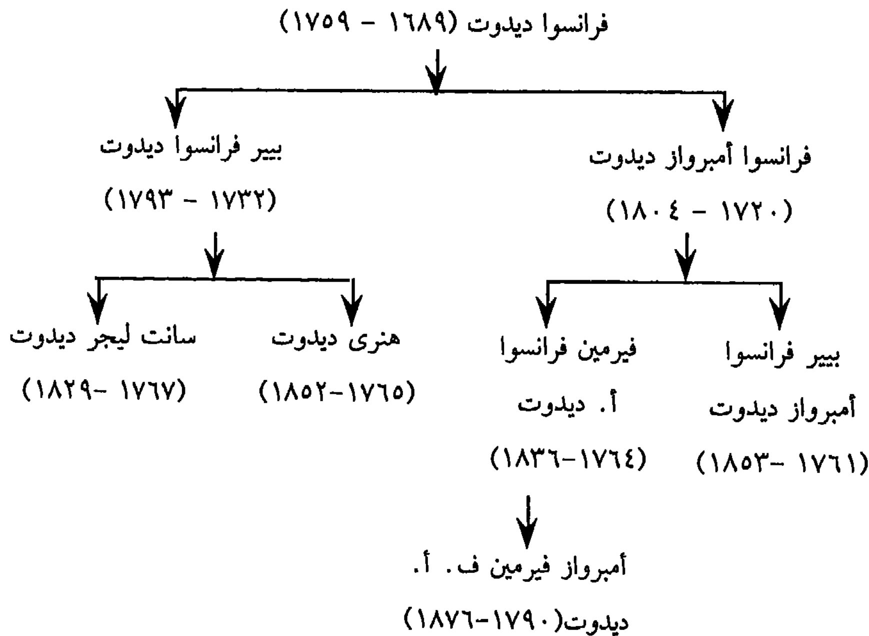
أما أمبرواز فيرمين ديدوت (١٧٩٠ - ١٨٧٦) ابن فيرمين ديدوت فقد تتلمذ طباعياً على والده وهو الذى أدخل طابعة ستانهوب إلى فرنسا وهو الذى صمم البنط المعروف بالبنط الإنجليزى المضلع[2]، وكتب عدداً من الكتب الثقاة فى تاريخ الطباعة وكتل الخشب، وكان جَمّاعًا من الطراز الأول.

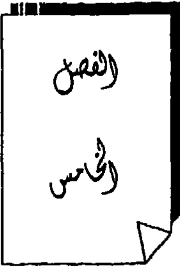
---
(1) Papier Vélin de France.

(2) English Cursive.

وكان لبيير فرانسوا ديدوت ولدان هما : هنرى ديدوت (١٧٦٥ - ١٨٥٢)؛ والقديس سانت ليجر ديدوت (١٧٦٧ - ١٨٢٩)، اشتغلا هما الآخران بالطباعة وألفا كتبًا فيها. وقد صمم هنرى أبناطاً ميكروسكوبية حازت قبولاً شديداً. وعرف عن سانت ليجر أنه أول من صنع لفافات الورق اللانهائية، وهو تجديد أحدث ثورة فى صناعة الورق، وأدى إلى تقدم كبير فى طابعات الجرائد على وجه الخصوص.

وفى سنة ١٨٤٠ تحولت مؤسسة ديدوت إلى شركة مساهمة تحت اسم شركة الطباعة العامة، وانشغل آخر أبناء أسرة ديدوت بإدارة أعمال الشركة الجديدة أكثر من انشغالهم بالطباعة. ورغم أن أرباحهم زادت زيادة واضحة إلا أن نوعية الطباعة ساءت، واختفى الاسم فى نهاية القرن. والتخطيط التالى يبرز تسلسل أفراد الأسرة.





الطباعة فى إيطاليا

أ- مدينة روما.

كان أول طابعين يدخلان إيطاليا هما الألمانيان «كونراد سوينهايم» و«أرنولد بنارتز» وهما من ماينز. وقد رأينا كيف استولى «أدولف» من «ناساو» على تلك المدينة سنة ١٤٦٢ مما أدى إلى فرار الطابعين منها وكان من بينهم جوتنبرج نفسه. هرب كونراد سوينهايم وأرنولد بنارتز من ماينز قاصدين روما لإقامة مطبعة هناك وهما فى الطريق مرا على دير «سوبياكو البندكتى» وكان يعرف باسم «القديس سكولاستيكا». وسوبياكو قرية صغيرة على مرمى رحلة يوم واحد من روما، وكان رئيس هذا الدير هو «چوان تور يكسريماتا» (الكاردينال فيما بعد). وكان هذا الدير استراحة للحجاج الألمان، وكان معظم الرهبان فيه والموظفين الرهبان من الألمان. وقد أدخل رئيس هذا الدير الطابعين الألمانيين فى حمايته ودعاهما إلى إنشاء مطبعة داخل الدير.

ومما يذكر أن أول كتاب طبعاه داخل الدير هو كتاب دوناتوس فى النحو وقد سبق ذكره، وقد وصلنا من هذه الطبعة عدد من النسخ. وهذا الكتاب ذكر فى قائمة مطبوعاتهما التى صدرت سنة ١٤٧٢م. وقد طبعا بعد هذا الكتاب طبعة من كتاب شيشيرون فى الخطابة وربما كان ذلك قبل سبتمبر من سنة ١٤٦٥م. وكان الكتاب من قطع الربع فى ١٠٩ ورقة وكانت الطبعة ممتازة مما يوحى بأن الطابعين كانت لهما خبرة كبيرة بالطباعة ومتمرسين فيها. وجاء بعد هذين الكتابين كتابهما الثالث وهو أول كتاب مؤرخ لهما وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٤٦٥ وهو كتاب (تعاليم لاكتانتيوس المقدسة) فى ١٨٨ ورقة من حجم الفوليو الصغير ومطبوع ببنط غوطى - رومانى انتقالى. وهذا البنط هو الذى جعله «هـ. هورنباى»

أساساً لبنط سوبياكو الذى استخدمه فى مطبعة أشيندين. وكان كتاب لاكتنتيوس هذا هو أول كتاب تطبع فيه فقرات يونانية. والكتاب الرابع والأخير الذى طبعاه فى دير سوبياكو هو «المدينة المقدسة» (مدينة الله) من القطع الكبير فى ٢٧٠ ورقة ونشر فى يونية ١٤٦٧.

ولم يلبث الطابعان الألمانيان بعد ذلك أن رحلا إلى روما حيث دعاهما الأخوان «بيترو وفرنسسكو دى ماسيمى» إلى إنشاء مطبعة داخل قصر ماسيمى تحت رعاية هذه الأسرة ورعاية «جوان أندريا» أسقف أليريا وكان رجل كنيسة وعالماً توفر على تحرير وتحقيق العديد من الكتب التى طبعاها. وقد استخدما فى هذه المطبعة أبناطاً جديدة رومانية أكثر فى خصائصها، وقد طبعا بها العديد من الأعمال الكلاسيكية ولكن كانت هناك منافسة شديدة من جانب آخرين مما جعلهما يعجزان عن تسويق كتبهما، بما دعاهما سنة ١٤٧٢م إلى طلب المساعدة المالية من البابا، ذاكرين أن لديهما بيتاً مملوءاً بالكتب ولا يملكان قوت يومهما. ويبدو أن المعونة المالية التى أتت عن البابا كانت محدودة مما اضطرهما إلى فض الشركة سنة ١٤٧٣. واستمر بنارتز يطبع وحده بينما تحول سوينهايم إلى صناعة الحفر. وفى خلال فترة الشراكة بينهما أنتجا تسعة وعشرين كتاباً.

أما الطابع الثانى فى روما فقد كان «أولرخ هان» وهو أصلاً بافارى ألمانى وربما جاء إلى روما بدعوة من الكاردينال «توريكريماتا». وكان أول كتاب طبعه من تأليف توريكريماتا نفسه عن حياة المسيح(1) ونشر فى ديسمبر سنة ١٤٦٧. وقد طبع ببنط غوطى كبير واشتمل على ثلاثة وثلاثين صورة من كتل الخشب وهى أول صور تظهر فى كتاب يطبع فى إيطاليا. وبعد فترة ترك هان الحرف الغوطى واتجه نحو الحرف الرومانى على الأقل بالنسبة لمتن الكتاب، وظل يطبع فى روما حتى توفى سنة ١٤٧٠ ويقال إنه خلف وراءه ثمانين كتاباً مطبوعاً معظمها من الكلاسيكيات اللاتينية.

ومن الطابعين المشاهير فى روما فى تلك الفترة الباكرة : «سكستوس رايزنجر»؛ «جورج لاور»؛ «ستيفن بلانك»؛ «جوهان فليبوس دى ليجنامين».

---

(1) Turrecremata. Meditationes De vita Christi.

ب- مدينة البندقية (فينسيا).

رغم أهمية مدينة روما فى عالم الطباعة، إلا أن فينسيا أصبحت بعد فترة قصيرة من دخول الطباعة إلى إيطاليا هى المركز الأساسى لها. وكانت هناك أسباب عديدة لذلك من بينها أن فينسيا كانت مركز الثقافة والعلم وموطن أغنى النبلاء فى إيطاليا؛ كما كانت فى العصور الوسطى مركز بيع وشراء وتبادل المخطوطات ومن ثم كانت مقصد الطابعين الذين يبحثون عن مخطوطات ينشرونها؛ وكانت بها صناعة ورق مزدهرة. ومن الناحية الجغرافية كانت الموطن المثالى للطبع والنشر. وأكثر من هذا فإن حكومة البندقية كانت تعطى الحماية والحرية للقاطنين فيها كما شجعت الطبع والنشر عن طريق إعطاء امتيازات وتسهيلات.

وأول طابع فى فينسيا هو «جون من سباير» الذى حصل من حكومة البندقية ١٤٦٩ على ترخيص باحتكار الطباعة هناك لمدة خمس سنوات. ولم يكسب كثيراً من وراء هذا الاحتكار حيث توفى فى السنة التالية ١٤٧٠ ولم يطبع إلا ثلاثة كتب وجزءاً من الكتاب الرابع. وكانت كتبه الكاملة هى : رسائل شيشيرون (فى طبعتين ١٤٦٩)؛ التاريخ الطبيعى لبلينى (١٤٦٩)؛ تاريخ روما لمؤلفه ليفى. أما الكتاب الرابع الذى لم يتمه فقد أتمه أخوه «وندلين من سباير» وهو كتاب «مدينة الله» لسانت أوغسطين. وكانت هذه الكتب جميعاً قد طبعت طباعة أنيقة وبحرف رومانى جميل الشكل.

وقد خلف جون سباير كما رأينا أخوه «وندلين» الذى واصل عمله لمدة ثمانى سنوات سواء وحده أو مع شركاء. ويقال إنه أول طابع يدخل التعقيبات فى هامش صفحاته الأسفل.

ومن الطابعين البارزين فى البندقية أيضاً الفرنسى «نيقولاس جنسن»، وقد صادفناه من قبل. وقد ولد فى سمفوار حوالى ١٤٢٠ وكان يعمل فى دار سك النقود الملكية الفرنسية فى باريس وعين مديراً لدار سك النقود فى تورز. وفى سنة ١٤٥٨ تلقى أوامر الملك «شارل السابع» بالذهاب إلى ماينز لدراسة وتعلم فن الطباعة واكتشاف هذا السر الجديد وذلك لإنشاء مطبعة فى باريس بعد

عودته. ولكنه بعد عودته سنة ١٤٦١ كان شارل السابع قد مات ورفض خليفته «لويس الحادى عشر» تنفيذ المشروع، ولم نسمع عن جنسن بعد ذلك إلا سنة ١٤٧٠م عندما أسس مطبعته فى فينسيا. وربما كان فى الفترة ما بين ١٤٦١ و ١٤٧٠ يدرس بعمق فن تصميم الحروف، لأن أول مطبوعاته توحى.بأنها من صنع خبير ويرجح أنه جاء إلى البندقية سنة ١٤٦٥ وعمل فى تصميم الحروف لبعض الطابعين هناك.

وكانت كتب جنسن الأولى أساساً من الكلاسيكيات اللاتينية المطبوعة بالحرف الرومانى الكامل المبنى على خط اليد الكارولنجى الجديد آنذاك. ورغم أن الفحص الدقيق يكشف عن عيوب فى تلك الحروف فرادى إلا أنها مجتمعة تبدو رائعة وجميلة مما جعل الطابعين الذين أتوا بعده يعتمدون عليها. وكان جنسن من القلائل الذين سعوا إلى تخليص الحروف من أثر خطوط المخطوطات. نعم لقد اعتمد فى تصميمه لحروفه على شكل الحرف المخطوط كما يكتب باليد ولكنه عالج كل حرف على حدة وكوحدة مستقلة وشكله بالشكل المثالى الذى يجب أن يكون عليه. وظهر هذا الحرف الجديد أول ما ظهر فى طبعة كتاب يوسيبيوس سنة ١٤٧٠م. ولسوء الحظ بعد وقت قصير من تصميم الحرف، أعيد تصميمه من جديد ليكون من حجم أصغر اقتصاداً فى النفقات، ولكن الحرف الصغير رغم احتفاظه بخصائص الحرف الكبير لمْ يأت بجمال ذلك الحرف على الصفحة المطبوعة.

وقبل سنة ١٤٧١ كان جنسن يترك فراغات فى كتبه كى يدرج فيها فقرات يونانية بخط اليد، ولكنه فى تلك السنة صمم حروفاً يونانية كى يستخدمها فى كتاب شيشرون : الرسائل. وجاء هذا الحرف اليونانى مثل قرينه اللاتينى متميزاً وسرعان ما انتشر وبنى عليه الطابعون التالون. وقد أتبع ذلك بتصميم حروف غوطية لاستخدامها فى النصوص القانونية واللاهوتية سنة ١٤٧٣ و ١٤٧٤ وذلك لتوفير الحيز قدر الإمكان.

ورغم امتياز حروف جنسن إلا أن طباعة جنسن كانت باهتة فى بعض الأحيان

وربما يعزى ذلك إلى نقص الحبر وضعف الضغط من جانب الكبَّاس. وقد فسر بعض الخبراء ذلك بأن الطابع كان يحاول الحصول على قيمة صبغية ونسيجية شبيهة بتلك الموجودة فى المخطوطات.

وكما كان جنسن مصمم حروف وطابعاً ممتازاً كان كذلك ناشراً ممتازاً وقد كون ثروة كبيرة من خلال عمله فى البندقية طوال عشر سنوات. وقد كرمه البابا بأن جعله سنة ١٤٧٥م كونت البلاتين. وفى سنة ١٤٧٥ حول عمله إلى شركة وفى سنة ١٤٨٠ أعاد تشكيلها بإدماجها مع شركة «جون كولون» و«جون مانثن». وتوفى الرجل سنة ١٤٨١م بعد أن طبع ١٥٠ كتاباً بمفرده.

ومن الطابعين المهمين الذين يعتبرون حلقة الوصل بين جنسن وألدوس «مانتيوس أندرياس توريانوس»، الذى اشترى بعض أجهزة وأدوات وحروف جنسن بعد وفاته واستخدمها فى طباعة كتبه. وكان أول كتبه التى ذكر فيها اسمه قد طبع سنة ١٤٧٩ ومنذ ذلك التاريخ وحتى وفاته فى سنة ١٥٢٨ عمل بمفرده، كما اشترك مع آخرين فى طبع الكتب وتخصص أساساً فى الكتب الدينية. وكانت طباعته فوق المتوسط بالنسبة لسائر كتب البندقية. وقد تزوج ألدوس مانتيوس من ابنة هذا الرجل بسنة ١٤٩٩ أو ١٥٠٠م وأدى ذلك إلى إدماج المطبعتين فى واحدة.

وربما كان أشهر الطابعين الإيطاليين هو ألدوس مانتيوس، وقد ولد فى باسيانو سنة ١٤٥٠م. وقد درس فى شبابه الكلاسيكيات فى جامعتى روما وفيرارا. وفى فيرارا قابل الكونت «بيو» أمير كابرى زميله فى الدراسة واتفق معه سنة ١٤٨٢ على أن يكون المدرس الخصوصى لابنى أخته «كاترينا بيا». وبينما كان فى خدمة كاترينا طلب بعض أوائل المطبوعات فاستحوذت على اهتمامه ووجد فى الفن الجديد وسيلة طيبة لنشر وبث الفكر الكلاسيكى اليونانى واللاتينى. ووهب نفسه من ذلك الحين لهذا الغرض؛ وقد شجعته كاترينا على ذلك وساعدته وأمدته بالأموال اللازمة لبدء المشروع، وجاء إلى البندقية وأقام مطبعته فى كامبو باترنيان سنة ١٤٩٠م.

وكانت سنواته الأربع الأولى فى فينسيا هى سنوات الاستعداد، استأجر خلالها عدداً من الباحثين لاختيار وتحرير وإعداد النصوص للطبع كما تعاقد مع عدد من الفنيين لطباعتها. وقد فتح بنفسه مسبقاً منافذ التسويق، وصنع أحباره بنفسه ورتب عمليات الحصول على الورق من مصنع الورق فى فابريانو. وكان لديه قوالب لتصنيع الحروف اليونانية تصل إلى ستمائة قالب. وبسبب الافتقار إلى قاموس يونانى كلف «لاسكاريس» ـ وهو عالم لاجئ من الشرق - بإعداد هذا القاموس الذى ظل لعدة قرون القاموس اليونانى اللاتينى المعتمد.

وأول كتب مطبعة ألدوس صدرت سنة ١٤٩٤م، ونشر القاموس ١٤٩٥. وقد طبعت كتب أرسطو فى خمسة مجلدات رائعة بين ١٤٩٥ و ١٤٩٨م، وهى التى كونت سمعة طيبة له وجعلته ناشراً من الطراز الأول وفتحت الطريق إلى مزيد من الكتب اليونانية. وعندما نشر إنيادة فيرجيل سنة ١٥٠١ فتحت الطريق أيضاً إلى عدد من الكتب الكلاسيكية فى حجم الثمن الصغير، وعندما نشر كتاب دانتى وضع فيه علامته المميزة الدولفين والهلب.

ولقد تميزت كتب ألدوس الكلاسيكية بدقتها وحسن تحريرها وضبط نصوصها ويرجع ذلك إلى إشرافه بنفسه على العمل وحسن اختياره للمحررين ومصححى البروفات الذين كان من بينهم «تيودور جازا» من أثينا، «جون جريجوروبوليس» من كانديا، «هيرمونيموس ألكسندر» و«بيترو بيمبو» وكلاهما أصبح كاردينالاً؛ «ماركوس موزوروس»؛ «دزيديريوس إراسموس» وكلاهما من كبار الباحثين آنذاك.

وفى أوج ازدهارها ضمت هذه المطبعة ثلاثة وثلاثين شخصاً من العاملين بمن فى ذلك المصححين وقراء البروفات. وكان ألدوس لا يسمح بالتخاطب إلا باللغة اليونانية. وفى بداية القرن السادس عشر بدأ ألدوس يشعر بأن السوق قد ازدحم بالكتب المطبوعة، كما أن كتبه بدأت تزور على يد منافسيه سواء فى البندقية أو غيرها. ووجد أيضاً أن هناك فيضاً من الكتب الرخيصة والطبعات الشعبية للكتب الكلاسيكية التى ينشرها، والتى اقتبست ليس فقط حروفه بل وأيضاً

علامته التجارية. وفى سنة ١٥٠٣ كانت هناك انتفاضة شعبية فى البندقية واضطر ألدوس سنة ١٥٠٦ إلى إغلاق مؤسسته ومغادرة البندقية. وعندما عاد إليها أدمج مؤسسته فى مؤسسة والد زوجته وبدأ الطبع من جديد سنة ١٥٠٧م ليتوقف مرة أخرى بسبب الحريق الهائل الذى اجتاح المدينة. ورغم أنه أعاد الكَرَّة سنة ١٥١٢م إلا أنه لم يعد إلى وضعه القديم قط، ومع وفاته سنة ١٥١٥ غلف النسيان مطبعته كما غلف صاحبها.

لقد كان لألدوس مانتيوس تأثير كبير على الطابعين المتعاقبين الذين جاءوا بعده من خلال الحروف اليونانية والرومانية والمائلة التى صممت له واستخدمها. والحروف الرومانية التى أدخلها تعرف الآن بالوجه القديم، وقد استعملها لأول مرة سنة ١٤٩٥، وربما تكون قد بنيت على نفس خط اليد الكارولنجى الجديد الذى بنى عليه جنسن حروفه ولكنها تتميز عنها بإدخال حروف كابيتال صغيرة. وقد استخدمت بعد ذلك كنموذج على يد جاراموند سابق الذكر، واستخدمت فى قرننا العشرين على يد شركة مونوتيب الذى سمت به اسم حرفها (بمبو). ولعل أحسن حروف ألدوس تلك التى نحتها له «فرنسسكو دا بولونيا»، وهو صائغ مقيم فى البندقية وقد استخدمه سنة ١٤٩٩.

ويذكر الخبراء أن الحرف اليونانى الذى أدخله ألدوس كان أقل حروفه نجاحاً. وقد بنى على خط يد «ماركوس موزوروس» وتضمن نحو ٦٠٠ قالب وكان مليئاً بالاختصارات وعلامات القطع وعلامات النطق وعلى الرغم من أنه كان مقروءاً بصفة عامة إلا أنه كان أقل مستوى من ذلك الذى أدخله جنسن فى طبعاته. وكان عبئاً على الطابعين الآخرين الذين استخدموه بعده وعلى الدارسين الذين يقرأونه.

أما الخط المائل الذى استخدمه ألدوس فى مطبوعاته فقد صممه له أيضاً فرنسسكو دا بولونيا وبنى على خط اليد الديوانى، وهو خط مدور يستخدم أساساً فى الوثائق القانونية. وليس هناك سند وثائقى يؤيد أنه بنى على خط يد

بترارك كما تردد فى بعض المصادر. وقد ظهر أول ما ظهر فى إنيادة فيرجيل سنة ١٥٠١م وبعد ذلك فى سلسلة الكلاسيكيات من قطع الثمن حيث ناسبها أكثر من غيرها حيث يسمح بطبع كمية كبيرة من المادة على الصفحة الصغيرة، ومن خصائصه الرئيسية ميل الحرف جهة اليمين وتشابك الحروف فى الكلمة الواحدة ولطافة حروفه الكبيرة (الكابيتال) التى هى أصغر من الحروف الكابيتال العادية.

ولقد شاعت حروف ألدوس المائلة هذه وانتشرت انتشاراً كبيراً لدرجة أنها كانت تهدد فى وقت من الأوقات الحرف الرومانى وكادت تخرجه من السوق وتحل محله. ورغم احتكار ألدوس لهذا الحرف من قبل السلطات المدنية والدينية إلا أن هذا الحرف كان يزور ويستخدم فى جميع أنحاء أوربا. وكان بعض هؤلاء الطابعين يستخدمونه فى غير موضعه وفى كتب لا تناسبه. وكان سبب انتشاره هو أصالته أكثر من جماله.

لقد كان لألدوس خلال العشرين عاماً التى نشط فيها تأثير قوى على البحث العلمى والطباعة وإنتاج الكتب بصفة عامة. وكان أول ناشر ينشر الكلاسيكيات المحققة تحقيقاً جيداً والصحيحة على نطاق واسع. ولقد لقيت قبولاً واسعاً من حيث الشكل والمضمون والسعر. وكان تأثيره على مصممى الحروف الذين أعقبوه كبيراً أيضاً على الرغم من سوء حرفه اليونانى.

وعندما مات ألدوس فى سنة ١٥١٥ خلفه حموه «أندرياس توريسانوس». وعندما مات توريسانوس سنة ١٥٢٩ توقف إنتاج المطبعة إلى أن كبر «باولوس مانتيوسَ» (ابن ألدوس) حيث حاول هو وابنه ألدوس مانتيوس الثانى ترميم ما أفسده الدهر وإعادة المطبعة إلى مكانتها ولكن نجاحهما كان محدوداً. وعندما مات ألدوس الأصغر سنة ١٥٩٧م أغلقت المطبعة أبوابها وإلى الأبد.

ولعل ثـالـث أعظـم طـابعى البندقية هو إيرهـارد راتدولت، وهـو مـن مـواليد أوجـزبرج فى ألمانيا واشتهر فى فينسيا بين ١٤٧٦ و ١٤٨٦م نشر خلالها أحد عشر كتـاباً. وكـان الرجل موهوباً ومتـقـناً لعمله. وقام بالاشتراك مـع «بيرنهارد مالر» و«بيتر لوزلاين» بإدخال العديد من الإصلاحات والتجديدات

على العمليات الطباعية بما فى ذلك أول صفحة عنوان مزخرفة، وأول استخدام للحبر الذهبى فى الطباعة وربما أول من استخدم عدة ألوان فى الطباعة. وقد أنتج مجموعة جميلة من الكتب ذات الأطر والأوليات المزخرفة.

وكانت أسرة **جوينتا** من الأسر الطابعة المنافسة لألدوس مانتيوس، رغم أن المقر الرئيسى لعملهم كان فى فلورنسا، إلا أنهم كانت لهم مطابع فى البندقية وليون، وقد سرقوا من ألدوس كثيراً من تصميماته وزوروا كتبه. ومع ذلك كانوا من الطابعين الأكفاء بطريقتهم الخاصة؛ وكان من بين مطبوعاتهم مطبوعات مصورة جميلة وكتب موسيقى كنسية رائعة.

لقد أدى النشاط الزائد لمطابع البندقية إلى إغراق السوق وتشبعه بالمطبوعات ففى سنة ١٤٨٠ كان هناك على الأقل خمسون طابعاً فى المدينة؛ وقد ارتفع هذا العدد فى سنة ١٥٠٠ إلى مائة وخمسين طابعاً. وكان ذلك هو الحال تقريباً فى كل مراكز الطبع والنشر الإيطالية. وهذه المنافسة الزائدة عن الحد أدت بطبيعة الحال إلى انحفاض عام فى أسعار الكتب ومن ثم إلى هبوط معايير ومستويات الإنتاج، واستمر هذا الوضع المتردى حتى القرن الثامن عشر. وقد لوحظ أن الكتاب الإيطالى منذ القرن السادس عشر لم يعد فيه تجديد وبدأ الطابعون يكررون طباعة كتب القرن الخامس عشر ولكن على ورق ردىء وطباعة سيئة وحروف قبيحة وإيضاحيات بدائية.

وفى القرن الثامن عشر بدأ الأمل يتجدد وظهر طابع أدار عمله بكفاءة واقتدار وأعاد للطباعة الألمانية قدرها، ذلك هو: «جيامباتستا بودونى»؛ وهو ابن لأحد الطابعين؛ ولد فى سالوزو سنة ١٧٤٠ ودرس الطباعة فى روما، وقبل وظيفة فى **مطبعة الإعلانات والدعاية** التى كانت تطبع الكتب الدينية بعدة لغات. وفى هذه المطبعة درس الطباعة الشرقية وأصبح متمرساً بها خبيراً فيها وساعده ذلك على تصميم الحروف الشرقية لحسابه.

وكان «بودونى» صديقاً لمدير هذه المطبعة «روجييرى» وعندما انتحر هذا المدير لم يستطع بودونى الاستمرار فى العمل بالمطبعة وغادر روما قاصداً إنجلترا إلا أنه مرض فى الطريق. وفى أثناء فترة النقاهة فى مسقط رأسه سالوزو قابل «فرديناند» دوق بارما الذى دعاه إلى إدارة مطبعته الدوقية الخاصة سنة ١٧٦٨. وقد قبل العمل وبقى فى بارما طوال العشرين عاماً التالية حتى حقق فيها مكانة عالية وشهرة واسعة وجعل من المطبعة مزاراً يأتى إليه الناس من كل أوربا. ومن الأعمال الهامة التى طبعت هنا **«أغنيات الزفاف»**[1] سنة ١٧٧٥ وهو عمل طبع بخمسة وعشرين لغة مختلفة وصور، وزخرف بمحفورات نحاسية على يد كبار الفنانين وغير ذلك من الأعمال.

وفى سنة ١٧٨٩ دعاه البابا إلى إنشاء مطبعة فى البلاط البابوى فى روما. وفى ذلك الوقت لم يستطع الدوق فرديناند الاستغناء عنه وأمده بالمزيد من المال ومطبعة أكبر وحرية أكبر فى أن يطبع فى أى مكان يريد. وبهذه الإمكانيات أصبح من السهل عليه أن يوسع مجال عمله بحيث يطبع مطبوعات بالفرنسية والإنجليزية والألمانية والروسية. وكان من بين مطبوعاته القوية إلياذة هوميروس (١٨١٨) وفنيلون (١٨١٢).

وقد لقى بودونى التكريم تلو التكريم فى حياته وعين الطابع الملكى للملك «كارلوس الثالث» ملك أسبانيا ومنح معاشاً خاصاً من كل من «كارلوس الرابع» والإمبراطور «نابليون». وقد سكت ميداليات باسمه فى كل من بارما وباريس. وعندما مات سنة ١٨١٣ شيعت الجنازة تشييعاً ملكياً.

وكانت الحروف الأولى التى استعملها بودونى من تصميم «فورنيير» الباريسى الذى تأثر به كثيراً خلال سنواته الأولى. وعندما بدأ فى تصميم حروفه بنفسه وضعها على غرار تصاميم أستاذه الفرنسى. وكان كثير من كتبه الأولى مصوراً تصويراً رائعاً. وبعد فترة من الزمن وتحت تأثير باسكرفيل وديدوت هجر رسومات وحروف فورنيير وأعد تصميمات جديدة رائعة وعملية تفوق فيها على

(1) Epithamalia.

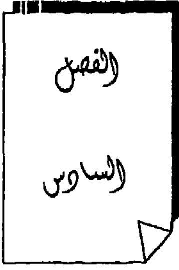
باسكرفيل نفسه فيما يقول «دوجلاس ماكمرترى»[1]. وأغلب إنتاجه لم يقصد به عامة الناس بل كان موجهاً أساساً لعلية القوم والأثرياء، الذين يتذوقون الإنتاج الراقى ويقدرون على دفع ثمنه.

واشتهر بودونى أيضاً بتصميماته الراقية للحروف. وفى سنة ١٧٨٨ نشر أول طبعة من كتابه «دليل الطباعة»[2] والذى ضمنه نماذج من حروف الطباعة : ١٥٠ نموذجاً للحروف اللاتينية، ٢٨ نموذجاً للحروف اليونانية كلها من تصميمه ووضعه. وقد نشرت من هذا الكتاب طبعة ثانية بعد وفاته بخمس سنوات تضمنت ٢٩١ أبجدية كاملة، بما فيها الأبجدية اليونانية والأبجدية الشرقية.

* * *

(1) "he out Baskervilled Baskerville"

(2) Manuale Typographique.



الطباعة فى هولندا

أصبح من الثابت تاريخياً أن الطباعة بالحروف المتحركة قد بدأت فى هولندا على نحو ما عالجته تفصيلاً من قبل وأنها سبقت بفترة الطباعة فى ألمانيا. وقد كشف فحص القطع المتفرقة من كتاب دوناتوس فى النحو والتى طبعت هناك أنها طبعت بحروف متحركة بطريقة أو بأخرى، كما تكشف الحروف المستخدمة عن أن الفن لم يكن قد نضج بما فيه الكفاية فالحروف لم تكن تامة الصنع والوضوح وكانت السطور غير مستوية بل ومهزوزة أحياناً مما يعنى أن من قام بها لم يكن قد سيطر بعد على الصنعة وأنه لم يتقنها تماماً. وللأسف لم تتضمن أية قطعة من قطع المطبوعات الباكرة فى هولندا اسم الطابع أو حتى مكان الطبع ولا تاريخه. ولهذا فإنه على الرغم من أنها تبدو سابقة تماماً على الطباعة فى ألمانيا إلا أن الزعم بأنها طبعت فى هارلم وعلى يد «لونزكوستر» لم يثبت بالدليل القاطع بعد مما يفتح الباب واسعاً أمام جدل عنيف فى هذا الشأن. وعلى أية حال فإن الطباعة فى هولندا لم تتقدم أكثر من ذلك ولم تطبع كتب بعد تلك القطع إلا بعد ظهور عدد من الكتب الألمانية التى ذكر فيها اسم الطابع وتاريخ الطبع. وأول طابع معروف فى هارلم هو «جاكوب بللارت» الذى بدأ الطباعة هناك سنة ١٤٨٣م.

أما أول كتاب مؤرخ ومذكور فيه اسم الطابع فى هولندا فقد طبع فى أوترخت سنة ١٤٧٣م وكانت طبعة من كتاب «كومستورز»: تاريخ الفلسفة النصرانية[1]؛ وقد توفر على طبعه «نيقولاس كيتلاير» و «جيرارد دى لمبت» اللذين كونا شراكة

(1) Comestors. Historia Scholastica. - Utrecht: Nicolaus Ketelaer and Gerard de Leempt, 1473.

متينة ونشيطة على مدى اثنى عشر عاماً وقد طبعا عدداً من الكتب بنفس الخط الغوطى المستخدم فى هذا الكتاب. ومن بين الطابعين الباكرين أيضاً فى أوترخت «وليام هيز» الذى بدأ فى سنة ١٤٧٥ و «جان فلدنر» الطابع الجوال الذى طبع أول كتاب له فى أوترخت سنة ١٤٧٨.

ولم تأت سنة ١٥٠٠ إلا وكانت المطابع قد أسست فى خمسة عشر مدينة فى شمالى هولندا. وكان قسم كبير من الكتب المطبوعة فى هولندا قد تم على يد الطابعين الجائلين الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى مكان ويقيمون مطابعهم حيث تتوافر الأسواق. وكان من بين هؤلاء الطابعين الجائلين: «بيتر فان أوس»؛ «جيرارد ليو»؛ «ريتشارد بافرايت».

ولقد بدأت الطباعة فى جنوبى هولندا سنة ١٤٧٣ فى **ألوست** وكان أول طابعين هناك هما «ثييرى مارتنز» و «جون من فستفاليا» (المعروف أيضاً بـ جون بادر بورن). وقد طبعا حتى سنة ١٤٧٤م أربعة كتب، وانفضت الشراكة بينهما وانتقل جون من فستفاليا إلى لوفان، وقبل بلوغه إياها كانت قد أنشئت بها مطبعة هناك على يد «جان فلدنر» سابق الذكر. وقد تنافس هذان الطابعان لمدة خمس سنوات حتى انتقل فلدنر إلى أوترخت. وقد استمر جون الفستفالى الذى كان أحسن الاثنين فى عمله حتى سنة ١٤٩٦. وقد اعتاد أن يضع فى حرد المتن فى بعض كتبه صورة شخصية له من كتل الخشب وربما كان ذلك أول صورة حقيقية لطابع فى القرن الخامس عشر.

وتذكر الإحصاءات أنه كان هناك فى جنوبى هولندا سنة ١٥٠٠م ثلاثة وثلاثون مطبعة من بينها ثلاثة فى ألوست؛ أربعة فى بروغير؛ واحدة فى بروكسل؛ واحدة فى أودينارد، اثنتان فى غنت؛ إحدى عشرة فى لوفان؛ إحدى عشرة فى أنتويرب. ومن المعروف أنه كانت هناك صلة حميمة بين الطباعة فى بروغير و إنجلترا حيث أن كاكستون الطابع الإنجليزى الشهير دخل فى شراكة مع «كولارد مانسيون» وأصدرا أول كتب مطبوعة بالإنجليزية معاً.

وفى سنة ١٤٧٥ قامت جماعة إخوان الحياة العامة بإنشاء أول مطبعة فى بروكسل فى ديرهم المعروف باسم «نازاريث». وكان أول كتاب طبعته هذه الجماعة سنة ١٤٧٦، وقد طبعت بين تلك السنة وسنة ١٤٨٤ خمساً وثلاثين كتاباً على الأقل وليس من بينها سوى كتاب واحد ذكرت فيه بيانات الطبع. ومن المعروف عن جماعة إخوان الحياة العامة أنها أنشأت العديد من الأديرة فى أنحاء متفرقة من ألمانيا وهولندا، وقبل دخول الطباعة كان لها اهتمام شديد بنسخ المخطوطات وتوزيعها بهدف التثقيف العام. ويبدو أنها قد تعلمت الطباعة فى بادئ الأمر فى ديرها فى كولون تحت إشراف «أولرخ زيل» الذى رحل إلى كولون بعد سلب ماينز وانتهابها سنة ١٤٦٢م. وبعد إنشاء أول مطبعة لها فى مارينثال، انتقلت الفكرة إلى أديرتها الأخرى بما فى ذلك دير بروكسل. ومع سنة ١٤٩٠ كانت الجماعة قد أقامت ستين مطبعة مختلفة؛ وربما كانت هذه الجماعة هى التى أنشأت مدرسة الطباعة فى كولون التى تعلم فيها «كولارد مانسيون» وربما «وليام كاكستون» الطباعة.

وقد دخلت الطباعة إلى أنتويرب على يد ماتيوفان دير جوز الذى أصدر أول كتاب مؤرخ له فى أبريل ١٤٨٢م. وقد جاء بعده سنة ١٤٨٤ جيرارد ليو سابق الذكر الذى كان يطبع فى جودا منذ ١٤٧٧. وقد عرف ليو بطباعته الجيدة عموما وقد طبع ما بين ١٤٨٦ و١٤٩٣ كتاباً واحداً فى النحو؛ أربع قصص، كتابين فى الدين كلها باللغة الإنجليزية. وقد بقى فى أنتويرب حتى سنة ١٤٩٣ وعمل الكثير لرفع مستوى الطباعة هناك. وتوفى سنة ١٤٩٣ من أثر جروح وقعت له فى مشاجرة بلانتن[1] بينه وبين واحد من عماله فى المطبعة.

ولعل أعظم طابع فى أنتويرب كان «كريستوفر بلانتن». وكان رجلاً فرنسياً ولد بالقرب من تورز سنة ١٥٢٠ وقد تعلم صنعة الطباعة من «روبرت ماسيه» من كاين. وقد حاول الاشتغال بالطباعة فى باريس سنة ١٥٤٦م ولكنه لم يتقدم هناك وغادر باريس متجهاً إلى أنتويرب سنة ١٥٤٨م، التى كانت فى ذلك الوقت تغص بالطابعين لدرجة أنه كان هناك ما لايقل عن ستة وخمسين طابعاً. وقرر بلانتن ألا

(1) Christophe Plantin.

يدخل فى منافسة مع هؤلاء الطابعين، وبدلاً من ذلك أقام محلاً صغيراً على أطراف المدينة حيث كان يبيع فيه الكتب والصور المطبوعة وصناديق الحلى والمصنوعات الجلدية اللطيفة المبصومة. وقد حقق من وراء ذلك نجاحاً كبيراً، إلى أن طعن بطريق الخطأ ذات ليلة فى ذراعه الأيمن. وقد حالت الإصابة دون استمراره فى استخدام يده اليمين فى بصم المنتجات الجلدية وتصنيعها ومن ثم فقد توقف عن ممارسة هذه التجارة. وبدأ مشروعاً صغيراً فى النشر. وقد نشر عدداً من الكتب اتسمت بالطباعة الجميلة كان من بينها كتب باللاتينية واليونانية وطبعة فرنسية من كتاب بوكاتشيو: ديكاميرون، وقاموس بأربع لغات. ولما تقدم فى عمله أقام مطبعة وأصبح يطبع فيها لحسابه؛ إلا أن سوء الحظ حالفه مرة أخرى سنة ١٥٦٢، ذلك أنه ظهرت فى السوق طبعة من كتاب غير أرثوذكسى فى الصلاة بعنوان «التعاليم المختصرة فى الصلاة»[1] ورغم أنه كان غائباً فى باريس عند نشر ذلك الكتاب ولم يطبع الكتاب عنده أو لحسابه فقد نسبت الكنيسة هذا العمل إليه وتعقبته واعتبرته مسئولاً عنه وحكمت عليه وعلى عمال مطبعته بالموت وصودرت كل أعماله وممتلكاته وبيعت بالمزاد. ومن حسن حظه أن أصدقاءه اشتروها من المزاد واحتفظوا بها له عند عودته من باريس إلى أنتويرب حيث أثبت أن الكتاب قد طبع وهو غائب عن المدينة دون علمه ودون موافقته ولعميل لا علاقة له بمؤسسته. وبمساعدة من أصدقائه أعاد إقامة المطبعة واستعاد السوق التى فقدت منه وحقق تقدماً كبيراً بحيث أصبحت مؤسسته سنة ١٥٧٠م أحد المزارات فى أوربا. ويقال إنها كانت تضم ما بين اثنتين وعشرين و خمسة وعشرين مطبعة وكان فيها أكثر من ١٥٠ عاملاً فى وقت واحد وقد ربت أجورهم فى اليوم على ٢٠٠٠ كرونا. وكان كبار مصممى الحروف الفرنسيين من أمثال «جرانجون»، «جاراموند» يصممون له حروفاً مخصوصة. وفى سنة ١٥٧٠ عين بلانتن الطابع الملكى للملك «فيليب الثانى» ملك أسبانيا.

(1) Briefve Instruction Pour Prier.

وفى تلك الفترة أنتج لنا بلانتن عدداً كبيراً من الكتب من بينها أعمال فيرجيل (١٥٦٤)؛ جوفينال (١٥٦٥)؛ أوفيد (١٥٦٥) إلى جانب عدد من الكتب الطبية والعلمية. ولكن العمل الذى توج به مسيرته الطباعية هو «الكتاب المقدس متعدد اللغات»[1] الذى طبعه ما بين ١٥٦٨ و١٥٧٣. هذا العمل الذى يقع فى ثمان مجلدات كبار يتضمن النص المقدس باللغة اليونانية واللاتينية والعبرية والكلدانية على التوازى. ولتغطية نفقات الطباعة طلب بلانتن المساعدة المالية من ملك أسبانيا فيليب الثانى الذى وعده بستة آلاف دوكات فى مقابل اثنتى عشرة نسخة على رق عند انتهاء الطبع. وأكثر من هذا قام فيليب بتعيين الباحث الأسبانى «نتانوس» لمساعدة بلانتن فى تحرير وإعداد النصوص المقدسة. ولتحقيق ذلك الغرض استعان مونتانوس بأعضاء هيئة التدريس فى كلية اللاهوت بجامعة لوفان والكاردينال جرانفيل. ولقد تطلب هذا العمل الكثير من الاستعدادات وقام بلانتن بتدريب فريق من العمال لهذا الكتاب خصيصاً لدرجة أنه طبع لهم كتاباً مخصوصاً فى قواعد اللغة العبرية. وقد اشترى ٣٠٠٠ رزمة ورق و٤٠٠ دستة رق. وقام «جرانجون» فى ليون و «جراموند» فى باريس بتصميم حروف خاصة له واتخذت الترتيبات لحفظ حق احتكار طبع هذا الكتاب فى هولندا وسائر أنحاء أوربا.

لقد زادت التكاليف كثيراً عما كان مقدراً لها فقد خطط لكى يطبع الكتاب فى ستة مجلدات فقط ولكن العمل ارتفع إلى ثمانية مجلدات، وارتفعت أسعار المواد أثناء فترة الطبع، والمال الذى وعد به الملك فيليب لم يأت سريعاً، بل وأكثر من هذا كلفه الملك الأسبانى بطباعة بعض الكتب الدينية للكنيسة وتأخر فى دفع مستحقاته أيضاً عن هذه الكتب. ولذلك كان على بلانتن أن يلجأ إلى الاقتراض من المرابين كى يدفع رواتب العاملين. بل وأكثر من هذا سحب فيليب تصريحه بطبع الكتاب حتى يصدر البابا مرسوم الموافقة على طبعه. وقد أعلن البابا القائم آنذاك ـ «بيوس الخامس» ـ بأنه على الرغم من إعطاء شهادة أرثوذكسية من جانب كلية

(1) Polyglot Bible.

اللاهوت في لوفان بطبع الكتاب، إلا أن أى تداول للكتاب سوف يعتبر خطراً وبناء عليه علق موافقته. وقد انتظر طبع الكتاب حتى تولى البابا الجديد «جريجورى الثالث عشر» البابوية ومن ثم أعطى الترخيص بطبع الكتاب. وفى سنة ١٥٧٢ كان بلانتن قد حصل على حق احتكار طبع الكتاب على الأقل فى كل من: هولندا، أسبانيا، فرنسا؛ ألمانيا؛ إيطاليا. وقد تم الحصول على تراخيص الاحتكار فى هذه الدول بصعوبة ومن خلال الجهود التى بذلها مونتانوس الذى كان عليه أن يرتحل من بلاط إلى بلاط لضمان الحصول عليها. ورغم صدور المرسوم البابوى بطبع الكتاب إلا أنه لم يسلم من نقد عنيف من جانب إحدى الجماعات الدينية التى يرأسها «ليون دى كاسترو» من سلامانكا. ونتيجة لذلك شكلت لجنة تحقيق وتقصى فى الأمر استغرقت وقتاً طويلاً حتى تبث فى القضية ولم يتم الإفراج عن الكتاب ويسمح بتداوله إلا سنة ١٥٨٠م. وبسبب كل تلك الصعوبات وتأخر تداول العمل وتسويقه خسر الكتاب خسارة كبيرة أوقعت بلانتن فى ديون طائلة.

لقد جاءت طبعة الكتاب المقدس متعدد اللغات فى ١٢٠٠ نسخة ورقية واثنتى عشرة نسخة على رق. وفى بعض أعمال سابقة استخدم بلانتن الإيضاحيات المحفورة على لوحات نحاسية؛ وقد أعاد استخدام نفس الطريقة فى الإيضاحيات وصفحات العنوان فى هذا الكتاب المقدس. وكل اللوحات الموجودة فى هذا العمل ثمانية وعشرون لوحة ونجد فى المجلد الأول ثلاث صفحات عنوان مزخرفة توفر على تصميمها «فان دير هايدن».

ولقد عوض بلانتن خسارته من مشروعات طباعية أخرى حصل على امتيازاتها من جهات متعددة. ولكن سوء الحظ حالفه مرة أخرى؛ ففى سنة ١٥٧٦ تمرد الجنود الأسبان على الملك الأسبانى وسلبوا ونهبوا مدينة أنتويرب وقد اضطر بلانتن إلى أن يدفع لهم إتاوة ثمانى مرات حتى يتجنب تدميرهم لمؤسسته وممتلكاته، وتقلص عملة لدرجة أنه لم تَبْقَ لديه سوى مطبعة واحدة تعمل ودخل فى ضائقة مالية اضطر معها إلى أن يبيع مكتبته الخاصة لسد ضرورياته.

وفى سنة ١٥٨٣ ساءت الأوضاع للغاية ولم يجد مفراً من مغادرة أنتويرب ليتولى المنصب المعروض عليه وهو الطابع الرسمى لجامعة ليدن براتب سنوى ٢٠٠ فلورين. ومع ذلك فإنه عاد مرة أخرى إلى أنتويرب سنة ١٥٨٥م واستأنف عمله هناك وعوض خسارته وطبع ما لايقل عن أربعين كتاب خلال الاثنتى عشر شهراً الأولى لعودته. ومات بلانتن سنة ١٥٨٩م. وطبقاً للوصية التى تركها آلت مؤسسته الطباعية إلى زوج ابنته «جون موريتوس» على أن تنتقل بعد ذلك إلى أى من ورثته يستطيع إدارتها إدارة جيدة حسبما تراه الأسرة مناسباً. وهكذا ضمن استمرار مؤسسته التى بقيت على نشاطها الطباعى الفعال حتى سنة ١٨٧٥ حين اشترتها بلدية أنتويرب وحولتها إلى «متحف بلانتن للطباعة».

ويذكر بعض الثقاة أنه على الرغم من أن بلانتن كان طابعاً ماهراً ويقظاً واعياً إلا أنه لم يقدم أية إضافات فى تصميم الحروف، ومع ذلك فقد كان أحد الطابعين الأوائل الذين أدخلوا فكرة إنتاج الإيضاحيات من اللوحات النحاسية وكان ذلك فى حد ذاته تجديداً هاماً. وقد كان وجه شهرته أساساً فى كونه ناشراً حيث كانت لديه الشجاعة والخيال الخصب فى اقتحام مجالات نشرية خدم بها البحث العلمى والأدب.

وقد كانت علامته التجارية التى ظهرت فى عدة صيغ عبارة عن زوج من البوصلة تحملهما يد تخرج من السحب؛ وكانت تصحب عادة بشعاره «العمل والمثابرة»[١].

أسرة إلزفير.[٢]

ثمة اسم آخر لمع ومازال يلمع فى سماء الطبع والنشر فى هولندا هو اسم إلزفير. ومؤسس هذه الأسرة هو لويس إلزفير فى مدينة ليدن: مدينة الجامعة. وقد تواصل عمله على يد أبنائه وأحفاده، ولم تقتصر فروع شركته على ليدن بل

(1) Labore et Constantia.

(2) Elzevirs Family.

امتدت إلى أمستردام؛ أوترخت، لاهاى. وتداخل الأجيال والأشخاص فى هذه العائلة شديد التعقيد بحيث يفضل عادة الرجوع إلى شجرة العائلة الموجودة فى نهاية هذه المعالجة.

ولد لويس إلزفير سنة ١٥٤٦ أو ١٥٤٧ فى لوفان وقد بدأ فى شبابه ممارسة مهنة التجليد. وفى سنة ١٥٦٥م انتقل إلى أنتويرب حيث اشتغل فى إحدى ورش بلانتن سابق الذكر، ولأنه كان من طائفة البروتستانت فقد وجد من الأحوط أن يغادر المدينة سنة ١٥٦٧ عندما دخل دوق ألفا وجيوشه المدينة. ومن سنة ١٥٦٧ وحتى ١٥٧٠ على الأقل عاش فى لييج حيث اشتغل بتجارة الكتب، وارتحل منها إلى ويسيل، ثم إلى دوواى ثم استقر به المقام فى ليدن. ورغم المنافسة الشديدة هنا إلا أنه دخل المجال فى بداية الأمر كمجلد كتب ثم بائع كتب ثم ناشر كتب وخاصة مع جامعة ليدن حيث عين فيها سنة ١٥٨٦ شماساً.

وفى سنة ١٥٨٧ منحته جامعة ليدن الإذن بإقامة متجر كتب داخل حرم الجامعة، ومن ثم أصبح تاجر الكتب الرسمى بالجامعة ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بدأ يزدهر، حتى غدا فيما بعد الناشر الرسمى لكتب الجامعة. ولم ينشئ مطبعة ولم يطبع لنفسه وإنما تولى ذلك طابعون آخرون لحسابه مما أتاح له الفرصة لتوسيع علاقاته فى الدول الأجنبية سواء عن طريق المراسلة .أو عن طريق الزيارات الشخصية إلى العديد من المعارض ومراكز الكتاب فى عموم أوربا. وفى سنة ١٥٩٤ كان قد وضع أسس عمل ضخم وعند وفاته سنة ١٦١٧ كان قد نشر مائة كتاب على الأقل باسم مؤسسته. وكان معظم هذه الكتب كتباً بحثية باللغة اللاتينية. وكان قد اتخذ لنفسه علامة تجارية هى النسر الذى يحمل سبعة رماح فى مخالبه وقد استمرت أسرته فى استعمال نفس هذا الشعار لمدة ثلاثين سنة بعد وفاته.

وعندما مات لويس إلزفير سنة ١٦١٧ عقدت أسرته اجتماعاً تم بمقتضاه الاتفاق على أن يتولى الابن الأكبر «ماتيو» وثانى أصغر الأبناء «بونافنتورا»

مشاركة إدارة العمل. وكانا أكثر نجاحاً من والدهما، وبنيا شبكة توزيع عظيمة غطت أوربا كلها على الرغم من الظروف الصعبة التى خلقتها حرب الثلاثين عاماً. وفى سنة ١٦١٨م أنشئت مطبعة عظيمة للمؤسسة توفر على إدارتها ابن ماتيو المدعو «إسحاق». وفى نحو ١٦٢٠ أصبح إسحاق الطابع الرسمى لجامعة ليدن وقد منحته الجامعة الأماكن التى يمارس فيها العمل داخل الجامعة بدون إيجار كما منحته راتباً سنوياً قدره خمسون فلورين. وفى سنة ١٦٢٥ اشترى للجامعة جميع معدات «تيودوروس إيربينوس» بحروفها الشرقية وكان الطابع الوحيد فى كل هولندا الذى لديه مثل هذه الأبناط.

وفى سنة ١٦٢٢ ترك ماتيو العمل لابنه «أبراهام» الذى اشترك مع عمه بونافنتورا فى إدارة جانب النشر، تاركين لإسحاق إدارة جانب الطبع لهما وللجامعة. وعندما اعتزل إسحاق العمل بالطباعة سنة ١٦٢٥م أدمجت مؤسسة الطباعة مع مؤسسة النشر. وفى سنة ١٦٢٩ بدأوا فى نشر سلسلة كتب من القطع المتوسط من الكلاسيكيات اللاتينية وبدأوا بأعمال هوراس و أوفيد، وقد صمم لها «كريستوف فان دايك» حروفاً صغيرة مخصوصة. وشأنها فى ذلك شأن كتب ألدوس مانتيوس الكلاسيكية كانت هذه الكتب موجهة أساساً للطلاب.

وفى سنة ١٦٤١ بدأوا فى إصدار سلسلة من الأعمال الدرامية الفرنسية المعاصرة، ثم بعد فى سنة ١٦٤٢م أخذوا فى إصدار سلسلة الأعمال الأدبية الفرنسية الكبرى. وقد مات كل من بونافنتورا و أبراهام إلزفير سنة ١٦٥٢. وانتقل العمل إلى يد دانييل ابن بونافنتورا و جون ابن أبراهام. وقد عمل الاثنان معاً لمدة ثلاث سنوات أصدرا خلالها العديد من الكتب الجيدة، من بينها طبعات راقية من المزامير وغيرها. وفى سنة ١٦٥٥ فض دانييل الشراكة مع جون وذهب إلى أمستردام حيث عمل مع ابن عمه لويس.

ومات جون سنة ١٦٦١ وتوفرت أرملته عدة سنوات على إدارة العمل، ولما توفيت سنة ١٦٨١م حل محلها ابنها أبراهام الذى لم يكن كفؤا لا فى الطباعة

ولا فى النشر ولا فى إدارة الأعمال. وقد شكت الجامعة مراراً من هبوط مستوى مطبوعاته وانهار العمل تدريجيا حتى توقف تماماً مع وفاته سنة ١٧١٢م.

فى سنة ١٥٩٠ قام لويس إلزفير الثانى ابن لويس من ليدن بفتح متجر كتب فى لاهاى. وفى وقت لاحق أضاف إليه مطبعة. وبين ١٥٩٠ و١٦٢١ طبع تسعة كتب؛ ثلاثة منها بالحرف المائل. وفى سنة ١٦٢١ خلفه جاكوب الابن الثالث لماتيو إلزفير وقد بقى يدير العمل حتى سنة ١٦٣٦م وقد طبع لحسابه ثلاثة كتب فى تلك الفترة وقام جوس إلزفير - الابن الرابع للويس إلزفير الأول - بافتتاح متجر كتب فى أوترخت عمل فى بعض الوجوه كفرع للمؤسسة الأم فى ليدن. وفى سنة ١٦٦٧ قام حفيده بيير إلزفير بإنشاء مطبعة ظل يطبع فيها الكتب حتى سنة ١٦٧٥.

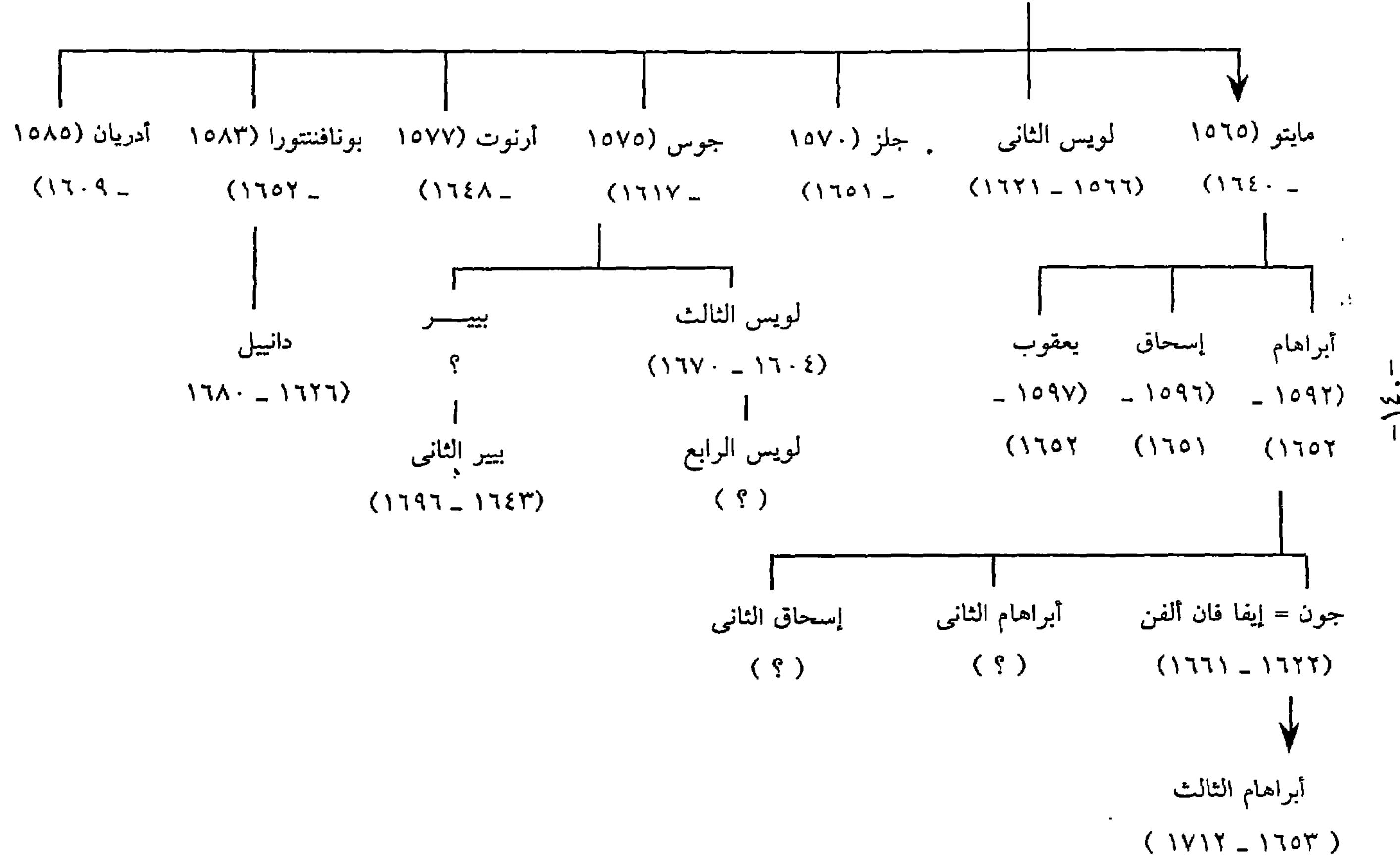
وفى ١٦٣٨م قام لويس إلزفير الثالث - ابن جوس إلزفير سالف الذكر - بفتح منشأة للنشر والتوزيع فى أمستردام؛ وبعد عامين أضاف إليها مطبعة وظل يدير هذا العمل وحده لمدة سبعة عشر عاماً نشر خلالها ١٨٠ كتاباً مختلفاً. وفى سنة ١٦٥٥ لحق به دانييل ابن بونافنتبورا والشريك السابق لجون إلزفير فى ليدن. وقد تشارك ابنا العم مدة تسع سنين طورا خلالها العمل فى أمستردام لدرجة فاقت شهرة المؤسسة الأم فى ليدن. وقد اعتزل لويس العمل سنة ١٦٦٤ - ١٦٦٥ واستمر دانييل فى العمل وحده حتى ١٦٨٠، وبعد وفاته فى تلك السنة أدارت أرملته العمل حتى انتهت من طبع مجموعة كتب مات عنها ولم يتمها، وبعدها أقفلت المؤسسة أبوابها سنة ١٧١٢.

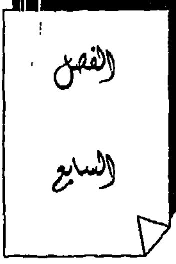
وبين تأسيس هذه المؤسسة فى ١٥٨٥ وإغلاقها سنة ١٧١٢ نشرت أسرة إلزفير ما يربو على ١٦٠٠ كتاب كان معظمها باللاتينية، وضمت طبعات من الكلاسيكيات، وكتب اللاهوت والتاريخ والطب، إلى جانب عدد من كتب الدراما الفرنسية والأعمال الأدبية الفرنسية ومجموعة من الكتب من تأليف مؤلفين أوربيين معاصرين. لقد كانت أسرة إلزفير ناشرة أكثر منها طابعة، وكانت

كتبهم موجهة للباحثين أكثر منها لجماعى الكتب. وهم كناشرين أتقنوا عملهم إلى درجة الإعجاز. وكانت قائمة كتبهم دائماً متميزة من حيث الكم والكيف والأسعار؛ وكان لنشاطهم هذا أثره على دنيا البحث والدرس.

ورغم توقف النشاط الرئيسى فى بداية القرن الثامن عشر؛ وانصراف أفراد الأسرة إلى نشاطات أخرى، إلا أنه قد نبتت لهم ذرية أخرى بعد حين ما تزال تمارس نشاط النشر وتجارة الكتب - وخاصة الدوريات - حتى وقتنا الحاضر فى مطلع القرن الواحد والعشرين. ونقدم فيما يلى شجرة العائلة حتى سنة ١٧١٢م لبيان تسلسل هذا النشاط.

* * *


لوٗيس إلزفير (١٥٤٦ ـ ١٦١٧)
مايتو (١٥٦٥ ـ ١٦٤٠)
لويس الثانى (١٥٦٦ ـ ١٦٢١)
جلز (١٥٧٠ ـ ١٦٥١)
جوس (١٥٧٥ ـ ١٦١٧)
أرنوت (١٥٧٧ ـ ١٦٤٨)
بونافنتورا (١٥٨٣ ـ ١٦٥٢)
أدريان (١٥٨٥ ـ ١٦٠٩)
أبراهام (١٥٩٢ ـ ١٦٥٢)
إسحاق (١٥٩٦ ـ ١٦٥١)
يعقوب (١٥٩٧ ـ ١٦٥٢)
لويس الثالث (١٦٠٤ ـ ١٦٧٠)
بيير ؟
دانييل (١٦٢٦ ـ ١٦٨٠)
لويس الرابع (؟)
بيير الثانى (١٦٤٣ ـ ١٦٩٦)
جون = إيفا فان ألفن (١٦٢٢ ـ ١٦٦١)
أبراهام الثانى (؟)
إسحاق الثانى (؟)
أبراهام الثالث (١٦٥٣ ـ ١٧١٢)



الطباعة فى أسبانيا

هناك من الشواهد ما يدل على أن الطباعة بالحروف المتحركة دخلت إلى أسبانيا فى سنة ١٤٧٣ . وكان الطابعون الأوائل من الألمان أو الهولنديين الذين هاجروا إلى أسبانيا وعلموا الأسبان هذا الفن الذى سرعان ما أتقنوه وسيطروا عليه. ومع نهاية القرن الخامس عشر انتشرت المطابع فى معظم المدن الأسبانية. وتشير «هايبلر» إلى أن من بين السبعة والأربعين طابعاً الذين عملوا فى أسبانيا بين ١٤٧٤ و١٥٠٠ كان هناك على الأقل أربعة وثلاثون طابعاً أجنبياً. وكان أغلب هؤلاء الأجانب من الطابعين الجائلين الذين كانوا يتشاطرون العمل لتبادل المصالح وكانوا يستوردون حروفهم وكتلهم أساساً من ألمانيا وهولندا وغلب عليهم الطابع الألمانى فى الطباعة وأسلوب العمل؛ ثم بعد ذلك سرعان ما غلب الطابع الأسبانى عليهم فقام الفنانون الأسبان بتصميم كتل الخشب وحلت الحروف الجديدة محل الحروف القديمة واصطبغت الحروف الغوطية المدورة بخصائص أسبانية واضحة وكانت كل المطبوعات الأسبانية الأولى تقريباً باللغة المحلية؛ وكانت الحروف والإيضاحيات والطبع كلها على مستوى راقٍ.

وأول قطعة أسبانية مطبوعة وصلتنا كانت صك غفران صادر من الكاردينال «رودريجو بورجيا» سنة ١٤٧٣م؛ ولا نعرف طابعه ولا مكان طبعه. وإن كانت سجلات مدينة سراقوسة التى اكتشفت حديثاً ترجح أن هذا الصك ربما يكون من طباعة طابع يدعى «هنريتش بوتل» وشركاه فى وقت ما بين مارس وأكتوبر ١٤٧٣ . وجاء بعد هذا الصك كتاب **الأشعار الدينية**[1] وهو مجموعة قصائد فى

(1) Bernardino Fenollar. Oprese Trobes. - 1474.

حب السيدة مريم العذراء كتبها «برناردينو فينولار» وآخرون، وربما يكون قد طبع فى بلنسية خلال مؤتمر أو بعد مؤتمر عقد هناك فى شهر مارس ١٤٧٤.

وأول كتاب مؤرخ فى أسبانيا توفر على طباعته «لامبيرت بالمارت» وهو طابع هولندى يعتقد أنه تعلم الطباعة فى البندقية، وجاء إلى بلنسية (فالسنيا) بدعوة من «جاكوب فسلاندت»، وهو تاجر كتب ألمانى استقر فى أسبانيا، ودخل فى شراكة مع مواطن أسبانى يدعى «ألونسو فرنانديز» من قرطبة وهو صانع فضيات وربما مصمم حروف أيضاً. هذا الكتاب للمؤلف «سالوست»[١] نشر سنة ١٤٧٥ وتبعه كتاب آخر في نفس السنة للمؤلف جوهان[٢]. وهناك من يعزو كتاب الأشعار الدينية إليه أيضاً، ونشر عدداً آخر من الكتب لم يذكر اسمه فيها طبعت بحرف رومانى بدائى. وفى سنة ١٤٧٧م أصدر أول كتاب مؤرخ وذكر اسمه فيه وهو كتاب «توما الإكوينى»: (الشامل)[٣]. وبعد ١٤٨٢ هجر بالمارت الحروف الرومانية كلية وطبع كل كتبه بعد ذلك بالحرف الغوطى الأسبانى المدور. ومات سنة ١٤٩٠ عن عدد من الكتب يناهز خمسة عشر كتاباً.

أما ثانى المطابع فى أسبانيا فقد كانت تلك التى أنشأها «ماتيو فلاندرو» (ماتيو الهولندى) فى سراقوسة الذى أصدر أول كتاب له فى أكتوبر سنة ١٤٧٥م وكان أول كتاب مؤرخ ومذكور اسم طابعه فى كل أسبانيا[٤]. وينسب إليه كذلك طبع أربعة كتب أخرى فى سراقوسة وذلك لتشابه حروفها مع هذا الكتاب؛ وهناك خامس طبع فى برشلونة سنة ١٤٨٤م ربما يكون من طبعه أو طبعه آخر بنفس حروفه هناك.

وفى إشبيلية (سيفيل) قام طابعون أسبان محليون بطباعة عدد من الكتب فى المطبعة التى أسسها هناك سنة ١٤٧٧م «أنطونيو مارتينز» و «ألونسو دل بيترو» و«بارتولومى سيجورا» وكان أول كتاب طبع فى هذه المطبعة هو كتاب «الأسرار

(1) Sallust. Bullum Jugurthinum. - 1475.
(2) Johannes. Compnehensorium. - 1475.
(3) Thomas Aquinas. Summa. - 1477.
(4) Manipulus Curaturum.

المقدسة»[1] من تأليف «سانشيز دى فيرسيال» ونشر فى أغسطس سنة ١٤٧٧. وقد نشروا بعده عدة كتب من بينها كتاب رولفنك «أوراق معاصرة» سنة ١٤٨٠ وهو أول كتاب مصور يطبع فى أسبانيا[2].

ويعتقد أن «نيقولاس سبنلدر» و«درو برون» اللذين طبعاً كتاب بيروتوس فى النحو ونشر[3] فى تورتوزا سنة ١٤٧٧ كانا أول من أنشأ مطبعة فى برشلونة ربما بالاشتراك مع «بدرو بوزا»؛ وهو راهب قطالونى وكان من الطابعين الأسبان الأوائل. ويعزى إلى بوزا طبع ثمانية وعشرين كتابًا. وقد بدأ الطبع بالحروف الرومانية أولاً ثم هجرها إلى الحروف الغوطية الأسبانية وطبع بعض الكتب الجميلة. ومن بين المطابع التى أقيمت فى برشلونة مطبعة «يوحنا روزنباخ» سنة ١٤٩٢ وكان طابعًا متجولاً من هيدلبرج ظهر أول الأمر فى بلنسية وطبع فيها كتاب الصلوات اليومية[4] سنة ١٤٩٢ قبل أن ينتقل إلى برشلونة التى طبع بها التسعة وعشرين كتاباً وكثيرًا غيرها فى مدن أسبانية أخرى. وكان روزنباخ واحداً من أحسن الطابعين فى أسبانيا وواحداً من أول من أدخلوا الإيضاحيات المصنوعة من كتل الخشب وكان عمله بسيطًا ولكنه كان مؤثرًا وأفاد كثيرًا من استخدام إطارات الصفحات والأوليات ويعتقد أنه ظل منتجاً حتى ١٥٣٠. ومن المعروف أن أحسن ما أنتج هو خطاب «كرسيتوفر كولومبوس» الذى يسجل فيه نجاح رحلته إلى أمريكا. والنسخة الوحيدة الباقية من هذا الخطاب محفوظة فى مكتبة نيويورك العامة.

ومن المطابع الأسبانية الشهيرة فى أسبانيا أيضًا تلك المطبعة التى أنشأها فى سراقوسة الأخوان «بابلو» و «خوان هورروس» وقد ازدهرت ما يربو على ثلاثة أرباع القرن، وحازت شهرتها من المطبوعات الجميلة ذات الحرف الغوطى الممتاز وإيضاحياتها المتقنة من كتل الخشب التى توفر على تصميمها كبار المصممين فى

(1) Sanchez de Vercial. Sacremental.
(2) Rolewincke. Fasciculus Temporum.
(3) Perottus. Rudimenta Grammaricae.
(4) Boyonne Breviary.

أولم و أوجزبرج. وكان الأخوان «هورس» أول من أدخل علامة الطابع فى الكتب الأسبانية. وفى سنة ١٥٠٠ انتقلت المطبعة إلى يد ثلاثة شركاء آخرين هم: «جورج كوس»؛ «ليونارد هوتز»؛ «وولف أبرنتيجر». وقد أصدروا ـ فيما يذكر الببليوجرافيون ـ واحداً من أجمل وأهم الكتب التى أخرجتها المطابع على الإطلاق والذى اشتمل على أكثر من خمسين صورة معدة بالكتل الخشبية، وأكثر من ١٠٠٠ حرف بداية (أوليات)[1]. وفى سنة ١٦٠٥م انفرد «جورج كوس» بملكية المطبعة حتى وفاته سنة ١٥٤٠. وفى هذه الفترة أصدر عدداً من كتب الشعائر الدينية، وكتب الشعر والتاريخ وعدداً من الكتب العامة واتسمت طباعته بالجمال والدقة ورقة الحرف وحلاوة التشطيب. وكانت أحسن كتبه أعمال ليفى (١٥٢٠)؛ الذى أخذت صوره من الكتل الخشبية التى أعدها شوفر فى مطبعته فى ماينز والذى أعدت له صفحة عنوان بثلاثة ألوان. ومن بين أعماله الممتازة أيضًا كتاب بدور دى لا فيجا الذى نشره سنة ١٥٢١ والذى جاءت صفحة عنوانه بأكثر من خمسة ألوان[2].

ومع نهاية القرن الخامس عشر كانت كبرى المدن الأسبانية قد أسست بها مطابع. ومن هنا كان مطلع القرن السادس عشر ساحة للتنافس والتوسع فى المجال. وفى تلك الفترة كانت معظم الكتب المطبوعة تميل إلى النمطية القياسية فهى غالبًا من القطع الكبير وبالخط الغوطى الأسبانى المدور التى تضفى على الكتب نوعًا من الجلال. وبعض تلك الكتب كانت مصورة بصور رائعة مأخوذة من كتل الخشب، وفى بعضها الآخر اقتصرت الزخارف على صفحة العنوان وأطر الصفحات والأوليات. وقد اتخذت صفحة العنوان فى الكتاب الأسبانى أشكالاً عديدة، إذ أن بعضها اقتصر على العنوان القصير المعد على كتل خشبية، وبعضها جاء مفصلاً مزدحمًا بالزخارف . ومن حين لآخر نجد على صفحة العنوان صورة للمؤلف وهو يكتب الكتاب أو وهو يقدمه لملك أو نبيل. وفى

(1) Officia Quotidiona.

(2) Pedro dela Vega. Flos Sanctorum.

كتب أخرى نجد إطارات زخرفية بيضاء على خلفية سوداء، واستخدام لونين أو أكثر فى كتابة بيانات صفحة العنوان. وكانت أول ثلاث مطابع أسبانية فى مطلع القرن السادس عشر هى مطبعة «جورج كوس فى سراقوسة» وقد سبق ذكرها ومطبعة «كرومبرجر» فى إشبيلية (سيفيل) ومطبعة القلعة (الكالا) التى أسسها «أرنولد جويلين دى بروكار».

ويعود تاريخ مطبعة كرومبرجر فى إشبيلية إلى سنة ١٤٩١م حين توفر على إنشائها كل من «مناردوس أونجوت» و «ستانسلاوس» من بولندا. ولما توفى أونجوت سنة ١٥٠٢م قام ستانسلاوس بإشراك جاكوب كرومبرجر معه فى عمله. ولم يلبث ستانسلاوس أن أنشأ مطبعة فى القلعة (الكالا) تاركا كرومبرجر فى مطبعة إشبيلية، وفى سنة ١٥٠٤م أصبحت مطبعة إشبيلية ملكًا خالصًا لكرومبرجر الذى كان طابعًا من الطراز الأول والذى تخصص فى نشر كتب الأدب حيث نشر فيها نماذج رائعة. وفى سنة ١٥٠٧ كلفه الملك «مانويل» ملك البرتغال بطبع الأوامر الملكية فى طبعة أنيقة. ولم يقم كرومبرجر بطباعتها بنفسه وإنما عهد إلى طابع آخر هو «فالنتين فرنانديز دى مورافيا» القيام بذلك ولم تأت الطباعة على المستوى المطلوب. ولذلك قام كرومبرجر بطباعة طبعة أخرى بنفسه سنة ١٥٢٠ فى لشبونة، وطبعة ثالثة سنة ١٥٣٩ فى إشبيلية على يد ابنه جون كرومبرجر والذى كان قد أتقن هذا الفن سنة ١٥٢٧ واكتسب شهرة عالية من وراء طبع الروايات الرومانسية وكتب الفروسية. كما اشتهر بأنه أول من أدخل الطباعة إلى نصف الكرة الغربى. وكان الرجل ميالاً إلى أمريكا محباً لها، وهو الذى طبع العديد من رسائل «كورتيز» أثناء تقدمه صوب المكسيك. وقد طلب إليه أن يطبع أحد المخطوطات التعليمية المكتوبة باللغة المكسيكية، ولكى يتحرى الدقة فى الطبع طلب أن يكون الطبع هناك على الطبيعة ولذلك جهز مطبعة كاملة وأرسل بها إلى المكسيك تحت إدارة إيطالى يدعى «خوان بابلوس» وقد أقيمت المطبعة هناك دون صعوبة وطبع الكتاب التعليمى سنة ١٥٣٩. ولما أقفلت المطبعة

أبوابها بعد أربع سنوات بسبب نقص الورق، كانت قد طبعت ثمانية كتب تحمل علامة كرومبرجر وبياناته.

أما مطبعة الكالا (القلعة) فقد أنشئت داخل جامعة الكالا التى أسست سنة ١٥٠٠م على يد الكاردينال «زيمندس». وكان طابع هذه الجامعة الأول هو ستانسلاوس سابق الذكر. وفى سنة ١٥١١م كان الكاردينال زيمندس يعد نسخة من الكتاب المقدس متعددة اللغات ودعا «أرنولد جويلين دى بروكار» إلى الكالا ليطبع له هذا الكتاب. وكان دى بروكار طابعًا جائلاً من جنوبى فرنسا، وطبع عدداً من الأعمال الجيدة فى مدن أسبانية أخرى. وقد أنجز هذا الكتاب فى ستة مجلدات كبار بين ١٥١٤ و١٥١٨. وقد أطلق على هذه الطبعة اسم (كتاب كومبلوتوم المقدس متعدد اللغات).[1] و كومبلوتوم هو الاسم اللاتينى للقلعة (الكالا). وقد طبع هذا الكتاب باللغات اللاتينية واليونانية والعبرية ويقال إن الكاردينال زيمندس قد أنفق خمسين ألف دوكات على طباعته وقد تأخرت طباعته بسبب تأخر صدور تصريح البابا بطبعه حتى سنة ١٥٢٢. ومن الملامح المميزة فيه الحرف اليونانى الجميل الذى استخدم فى مجلد العهد الجديد سنة ١٥١٤. وربما يكون ذلك قد بنى على خط يد يونانى سابق أجمل من الخط الذى استخدمه دى بروكار قبلاً، وربما كان ذلك الحرف هو أجمل الحروف اليونانية التى تم تصميمها على الإطلاق. وبعد طبع هذا الكتاب المقدس استقر دى بروكار فى القلعة حيث أصدر مجموعة من الكتب الجميلة من بينها بعض كتب شيشرون الذى طبع بحرف رومانى غوطى انتقالى. وقد خلفه فى المطبعة «ميجيل دى اجويا» ثم «خوان دى بروكار» وكلاهما كان على مستوى عالٍ فى الصنعة.

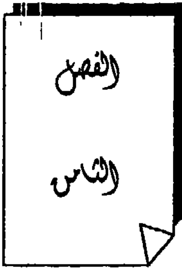
ومن المؤسف أن الطباعة الأسبانية قد تدنت فى النصف الثانى من القرن السادس عشر بعد أن حققت تقدمًا كبيراً قبل ذلك، وقد وصل بها الحال إلى أن أصبحت قبيحة وغير جذابة. وغدا الفن الرفيع الذى كانت ترعاه الكنيسة وأثرياء القوم ويعمل به الباحثون والطابعون الممتازون، غدا مهنة وضيعة يمتهنها أردأ

(1) Complutension Polyglot. Complutum = Acalò.

الصناع الذين يتقاضون أجوراً منحطة وينظر إليهم المجتمع بكل شك وريبة بل ونظرة عدائية. واعتباراً من سنة ١٥٦٦ فصاعداً حل الحرف الرومانى ردىء التصميم محل الحرف الغوطى الأسبانى المتميز ولم تعد الطباعة فنًا ولا حتى حرفة.

وفى القرن الثامن عشر بدأ بصيص من الأمل يبرق هنا وهناك، ويبرز طابع متميز بين حين وآخر. من هؤلاء «يواقيم إيبارا» الذى ولد فى سراقوسة سنة ١٧٢٥م والذى كان أول وآخر الطابعين الأسبان المحترمين منذ أوائل القرن السادس عشر. وقد اشتهر باستخدامه للحرف الرومانى والمائل قريب الشبه بما كان يستخدمه باسكرفيل، بودونى؛ ديدوت، وإن كان البعض يرى أن حرفه كان أجمل من حروف هؤلاء كلها. وقد أدخل الرجل مثلما فعل باسكرفيل أنواعًا جديدة من الحبر والورق وآلات الطباعة وأنتج أجمل حبر شهدته الطباعة الأسبانية وطريقة لطبع الورق على الساخن على نحو ما فعل باسكرفيل. وقد طبع مجموعة رائعة من الكتب مزج فيها بنجاح غريب الإيضاحيات المحفورة، بالأبناط الجميلة والورق الجيد والجمع من الطراز الأول والطبع الخلاب والإخراج العام الممتاز. ولعل أحسن كتبه طبعته من سالوست (١٧٧٢)؛ دون كيشوت (١٧٨٠). وهناك إجماع على أن طبعته من دون كيشوت هى أجمل طبعة أخرجتها المطابع على الإطلاق. وقد عين إيبارا طابع البلاط الملكى لملك أسبانيا كارلوس الثالث. وتوفى فى مدريد سنة ١٧٨٥.

* * *



الطباعة فى إنجلترا

كان «وليام كاكستون» هو أول طابع فى الجزر البريطانية. وقد ولد الرجل فى ويلد من أعمال كنت سنة ١٤٢٢ أو ١٤٢٣. وفى سنة ١٤٣٨ عمل صبيًا عند «روبرت لارج» تاجر الأقمشة الغنى فى لندن والذى أصبح فيما بعد اللورد عمدة لندن فى السنة التالية ١٤٣٩. وعندما توفى لارج فى سنة ١٤٤١م ترك له ثروة تقدر بعشرين ماركًا (وحدة عملة إنجليزية قديمة تعادل ١٣ شلنًا و٤ بنسات). ولا نعرف الشىء الكثير عن نشاط كاكستون بين ١٤٣٩ و١٤٤٩، وربما يكون قد أرسل إلى هولندا وهو ما يزال صبياً. وعندما أتم فترة تعليمه ١٤٤٦ ظل فى الخارج وبدأ عمله الخاص فى بروغيز. ولمدة ثلاثين عامًا عاش الحياة العادية للتجار الإنجليز فى الخارج وكان كثير الرحلات فى أوربا، وقد ازدهر عمله ازدهارًا كبيرًا. وفى سنة ١٤٦٣ عين نقيبًا للتجار الإنجليز فى أوربا، وهى جمعية عرفت باسم «التجار المغامرون» أو «الأمة الإنجليزية التى تعيش فى الخارج». وكان مكتبه على نفس درجة الأهمية والأبهة التى عليها مكتبة السفير أو القنصل البريطانى.

وفى سنة ١٤٦٧م اعتلى الدوق «تشارلز الجسور» عرش برجانديا. وفى يونية ١٤٦٨ تزوج الأميرة «مارجريت» أخت «إدوارد الرابع» ملك إنجلترا. وأسرع كاكستون بترك منصب نقيب التجار وغدا سكرتيرًا للأميرة مارجريت ومستشارها المالى. وكان هذا المنصب الجديد من المناصب العاطلة التى أتاحت له فسحة من الوقت والتشجيع لمتابعة وإشباع ميوله الفكرية. فبدأ فى مارس سنة ١٤٦٩

بترجمة كتاب راؤول لوفيفر: **سجل الأحداث التاريخية**[1] ولكن لم يلبث أن تركه جانبًا بعد ترجمة أربعين صفحة، وبعد عامين أبدت مارجريت إعجابها بالكتاب وطلبت إليه أن يتمه، فأتمه فى سبتمبر سنة ١٤٧١م.

وكانت الترجمة عظيمة وناجحة لدرجة طلب معها أصدقاء فى البلاط نسخاً منها. ولما كان من الصعب عليه إعداد نسخ خطية كثيرة لتلبية تلك الطلبات فقد قرر أن يتعلم فن الطباعة الجديد؛ الذى شاهد بعض نسخه عندما كان فى منصب النقيب، وذهب إلى كولون وتعلم فن الطباعة هناك لمدة خمسة أشهر، حيث ساعد هناك فى جمع كتاب **خصائص الأشياء** من تأليف « بارتولوماؤس أنجليكوس».[2] وبعدها أقام مطبعته الخاصة فى بروغيز بالشراكة مع «كولارد مانسيون» الخطاط والطباع الموهوب. وقد استعان فى أعمال الجمع والطبع بمواطن من لورين اسمه «وينكن دى وورد» تبعه بعد ذلك إلى إنجلترا وخلفه فى مطبعته هناك.

وكان أول كتاب نشره كاكستون هو ترجمته للكتاب الذى أشرنا إليه والذى نشر تحت عنوان: **سجل الأحداث التاريخية**[3]. وهذا الكتاب من القطع الكبير ويقع فى أكثر من ٧٠٠ صفحة وغير مؤرخ وغير مذكور فيه اسم الطابع أو مكانه. ولكن من المتفق عليه أنه طبع فى بروغيز بين ١٤٧٢ و١٤٧٥. وكان هذا الكتاب ظهر لطابع رائد باللغة العامية وليس باللاتينية الكلاسيكية، وقد طبع بالفرنسية الأصلية على النحو الذى أشرت إليه سابقاً وربما يكون الذى طبعه بالفرنسية هو مانسيون. وقد توفر كاكستون بعد هذا الكتاب على نشر كتاب آخر هو «أصول لعبة الشطرنج» الذى ألفه «جاكوبوس (يعقوب) دى سيسوليس»[4] وهو كتاب عن الأخلاق ظهرت فيه الشخصيات كلاعبى الشطرنج، وقد نشر بعده ثلاثة كتب أخرى بالفرنسية ربما يكون طبعها له مانسيون أيضاً.

وفى يونية ١٤٧٦م هزم تشارلز الجسور على يد السويسريين فى موراث، وهى المعركة التى أنهت حكم بورجانديا وأنهكت قوة البورجانديين. وهذا الانهيار الذى

---

(1) Raoul le Fevre. Receuil des Histoires de Troie.
(2) De Proprietatibus Rerum.
(3) The Recuyell of the Historyes of Troye.
(4) Jacobus de Cessolis. The Game and Playe of Chesse.

حدث للأسرة الملكية التى ترعى كاكستون، جعلته يفكر فى العودة إلى بريطانيا.

وفى خريف ١٤٧٦ استأجر مقراً فى ألمونرى بالقرب من كنيسة ويستبنستر حيث أقام مطبعته بحروف ومعدات أتى بها من بروغيز. وأول مطبوع معروف لنا طبعه فى إنجلترا هو صك غفران من فرخ واحد صدر فى ديسمبر ١٤٧٦، منحه الأب فى أبنجدون إلى «هنرى» و«كاترين لانجلى». أما أول كتاب مؤرخ له فقد صدر فى الثامن عشر من نوفمبر ١٤٧٧ وكان بعنوان: **أمالى أو أقوال الفلاسفة**[1] الذى ترجمه عن الفرنسية صديقه «إيرل ريفرز» الذى يدو أنه طبع لحسابه. هذا الكتاب المؤرخ سبقه عدة كتب غير مؤرخة صدرت من المقر الجديد فى ويستمنستر، ومن بينها كتاب ترجمه هو عن الفرنسية بعنوان **جاسون**[2].

وبين سنة ١٤٧٦ وسنة وفاته ١٤٩١ توفر كاكستون على طبع نحو مائة كتاب وكان أشهرها طبعاته المتعددة من قصص تشوسر: **قصص كانتربرى**[3] التى أصدرها ١٤٧٨؛ **حوليات إنجلترا**[4] ١٤٨٠؛ **الأسطورة الذهبية** من تأليف فوراجين[5] ١٤٨٤، **موت آرثر** من تأليف مالورى ١٤٨٥[6]. وبسبب قلة عدد العاملين فى مطبعته فإن رقم المائة كتاب يعتبر من الناحية العددية والنوعية إنجازاً مهماً.

وعلى عكس معظم معاصريه من الطابعين الأوربيين لم يكن كاكستون طابعاً للكتب الدينية أو الكلاسيكية، رغم أنه أصدر عدداً من الكتب الدينية. لقد كان حرصه الأساسى على أن ينشر باللغات المحلية الكتب المعاصرة مثل الروايات الرومانسية والأساطير وأشعار «جاوار» و «ليدجيت» وغيرهما. وقد طبعت مثل أعماله على ورق مصنوع فى هولندا وطبع اثنان فقط فى حدود علمنا على رق.

وبفحص كتب كاكستون نجد أنها طبعت بثمانية تصميمات من الحروف كلها

(1) Dictes or Sayengis of the Philosophres.
(2) Le Févre. Jason.
(3) Chaucen. Canterbury Tales.
(4) Chronicles of England.
(5) Voragine. Golden Legend.
(6) Malory. Morte D, Arthur.

غوطية: الأول حرف هولندى (فلمنكى) مضلع خشن، ربما يكون قد اشتق من خط يد «كولار مانسيون» نفسه، وقد يكون هو الذى قام بصبه أو صبه له «جان فلدينر» من لوفان. وقد استخدم كاكستون هذا التصميم فى كتبه الخمسة الأولى التى طبعها فى بروغيز، كما استخدمها مانسيون وحده بعد أن غادر كاكستون إلى إنجلترا. أما التصميم الثانى فربما يكون قد ابتدعه سنة ١٤٧٤ وقد بنى هو الآخر على أساس خط يد مانسيون ولكنه كان أكثر حدة ووضوحاً وحياة. وقد استخدم فى كتاب سادس فى بروغيز وجلبه كاكستون معه إلى إنجلترا واستخدمه فى كتاب (الأمالى أو أقوال الفلاسفة) الذى سبق ذكره والذى طبعه ١٤٧٧. أما التصميم الثالث فقد كان حرفاً أسود رسمياً إنجليزياً أكثر فى طابعه من سابقيه واستخدمه فى ثلاثة كتب فقط. والتصميم الرابع - وكان المفضل لدى كاكستون - فهو عودة إلى الشكل الهولندى (الفلمنكى) الثانى سابق الذكر ولكنه مضغوط أكثر ويرى الخبراء أن هذا الحرف خشن وغير مريح للعين. والتصميم الخامس حرف إنجليزى أسود آخر كان إلى حد ما تعديلاً للنموذج الثالث، وجاء التصميم السادس مشتقاً من النموذج الثانى سابق الذكر. أما التصميم السابع فهو حرف نظيف صغير مضغوط أسود. والتصميم الثامن كان حرفاً أسود تقليدياً.

وكانت علامات الترقيم فى كتب كاكستون محدودة وتقتصر على : الشاولة أو الفاصلة من طولين، ثم الفاصلة المنقوطة (شبه الشارحة) والنقط التى على شكل معين. ولم يكن استخدامه لعلامات الترقيم منسقاً ومنتظماً ولم يستخدمها فى كتب الشعر. وكتب كاكستون الأولى طبعت فى سطور غير متساوية الأطراف ولم يكن هناك ترقيم للصفحات ولاعناوين جارية ولاعلامات ملازمة ولا تعقيبات ولكنه اعتباراً من ١٤٨٠ فصاعداً وضع علامات للملازم واستوت أطوال سطوره، وربما دفعه إلى ذلك منافسة الآخرين له. وبعض كتبه الأولى طبعت بطريقة خاصة حيث أن الحروف تطبع بالأحمر والأسود فى وقت واحد. وليس من بين كتبه كتاب واحد يحمل صفحة عنوان. ولم يستخدم الإيضاحيات المأخوذة من كتل الخشب إلا منذ ١٤٨٠ ولكن نوعيتها كانت رديئة واستخدم الأوليات فى

الزخرفة ولكنها كانت فى معظم الأحيان فى غير موضعها. واستخدم حرفى اسمه WC مع علامة الطابع فى كتبه. وطبقاً للعلامات المائية فى ورق كتبه يمكننا القول إنه جاء من موردين مختلفين فى هولندا.

ولأن «كاكستون» كان رجل أدب ومتذوقاً له فقد كان أكثر اعتناءً بالنص منه اعتناءً بإخراج النص وطباعته. ولهذا فإنه قنع بمجرد أن تكون طباعة كتبه مقبولة وصالحة لحمل النص ولم يحاول إدخال تحسينات على فنيات الطباعة تاركاً ذلك للآخرين؛ ولم يدخل أية تحسينات إلا تحت ضغط المنافسة. وإذا حكمنا على جودة طباعة كتبه بالمقاييس والمعايير المرعية فإنها كانت مقبولة ومرضية، ولكن إذا حكمنا عليها بمقاييس التميز فإن أياً من كتبه لم يكن متميزاً. ولسوف يذكره تاريخ النشر والطبع والكتاب ليس فقط كرائد الطبع فى إنجلترا ولكن أيضاً كمترجم بارع وكمحرر وشارح ومعلق. ويذكر له أيضاً أنه حفظ الأشعار والقصص الرومانسية الإنجليزية المعاصرة له من الاندثار وخلدها فى كتبه.

ويجىء بعد وليام كاكستون صبيه وتلميذه **«وينكن دي ويرد»** من لورين. وكما ذكرنا كان يساعد كاكستون فى مطبعته فى بروغيز. وعندما عاد كاكستون ١٤٧٦ إلى إنجلترا جاء معه أو تبعه فيما بعد. وكان يعمل جامع حروف وطبَّاعاً فى مطبعة كاكستون فى ويستمنستر وربما أصبح الرجل الأول هناك. ورغم أنه لم يكن مثل كاكستون ذواقة للأدب والفكر، إلا أنه كان طابعاً ماهراً وعلى درجة عالية من الكفاءة وعمل معه على أساس من الصداقة المتينة. وعندما مات كاكستون سنة ١٤٩١ خلفه وينكن دى ويرد فى إدارة المطبعة وإن منعته الوصية من الملكية الكاملة لها. ولم يزد إنتاجه فى السنتين التاليتين عن ستة كتب ربما كان قد تم التعاقد عليها قبل وفاة كاكستون. وقد طبعت الكتب الخمسة الأولى منها بنفس حروف كاكستون، أما السادس الذى طبع سنة ١٤٩٣[1] فقد كان بحروف صممها دى ويرد من خط يده وكان أول كتاب يحمل اسمه كطابع.

---

(1) Liber Festivalis.

وفى سنة ١٤٩٥م استطاع دى ويرد أن يتملك المطبعة ملكية كاملة. . ولذلك نجده فى تلك السنة يطبع سبعة كتب منها ثلاثة ذات أهمية خاصة، أحدها[1] كان كاكستون قد أتم ترجمته من الفرنسية يوم وفاته. وطبع فى حجم كبير فى عمودين وبالتصميم الثامن من حروف كاكستون المشار إليه من قبل ومصور بعدد من صور الكتل الخشبية الإنجليزية الرديئة. وثانيها كتاب «خصائص الأشياء» الذى صادفناه من قبل. وفى المقدمة التى كتبها دى ويرد للكتاب يذكر أن كاكستون كان قد تعلم الطباعة فى كولون كى يساعد فى طبع طبعة سابقة من هذا الكتاب. وقد أشار دى ويرد أيضاً إلى ورق الكتاب فقال إنه جاء من مصنع جوتيت فى هيرتفوردشاير أو مصانع الورق فى إنجلترا. وثالثها كان إعادة طبع من كتاب «رانولف هيجدن»[2] وهو أول كتاب إنجليزى يشتمل على موسيقى مطبوعة.

وفى سنة ١٤٩٦ طبع دى ويرد أربعة عشر كتاباً كان أهمها طبعة كتاب «**كتاب القديس أولبانز**»[3]. وهو نشرة صغيرة فى الصيد، والبيزرة والتطاعن بالسلاح وقد تضمنت بعض إيضاحيات مأخوذة من الكتل الخشبية وملونة باليد. وقد أضيف إليها فصل عن صيد السمك بالسنارة وهو أول عمل عن الصيد بالسنارة فى إنجلترا. وطبع الكتاب على ورق رق بحروف عريضة مربعة من صنع «جيفارت فان أوز» من جودا. ويبدو أن دى ويرد لم يحب ذلك الحرف لأنه لم يستخدمه بعد ذلك قَط.

ومع حلول سنة ١٥٠٠م كان دى ويرد قد طبع مائة كتاب معظمها غير مؤرخ والكتب القليلة المؤرخة كانت أساساً إعادة طبع لكتب طبعها كاكستون مثل الأسطور الذهبية، قصص كانتربرى، موت آرثر وكلها طبعت سنة ١٤٩٨ ..وفى تلك الفترة أيضاً طبع مجموعة من الكتب العلمية القيمة، كما طبع سلسلة من أربعة روايات رومانسية هى : بيفيس من هامتون؛ السيد إجلامور؛ غلام

(1) Vitas Patrum.
(2) Polychronicon.
(3) Boke of St. Albans.

واروبك؛ روبين هود[1]. وهذه الكتب كان تداولها واسع النطاق بحيث لم تصلنا منها نسخة كاملة. ولم نعرفها إلا من خلال بعض قطع استخدمت فى تجليد كتب قديمة.

فى سنة ١٥٠٠م انتقل دى ويرد إلى شارع فليت (الأسطول) الذى أصبح آنذاك مركز تجارة الكتاب الإنجليزى فى لندن ثم بعد ذلك شارع الصحافة أو شارع الحبر كما يطلق عليه لكمية الأحبار التى تستهلك فى طباعة الصحف. وكانت مطبعة دى ويرد الجديدة فى مكان يعرف بعلامة الشمس بالقرب من كنيسة سانت برايد[2]. وقبل الانتقال للمقر الجديد باع بعض أدواته القديمة إلى «جوليان نوتارى» و«هوجو جوز» من يورك حيث عرف أنهما استخدماها فيما بعد. ومع ذلك فإنه أبقى لديه بعض حروف كاكستون ولكنه صمم نوعين جديدين من الحروف. كان أحدهما الحرف الأسود للاستخدام فى النص، وثانيهما الحرف الصغير للحواشى. وقد استخدما فى جل الكتب التالية له. وفى سنة ١٥٢٠ بدأ فى استخدام الحرف الرومانى ولكن يبدو أنه لم يحبه ولم يكن ميالاً لها. وقد استخدم الحروف المائلة أول مرة فى طبعته من كتاب «خطاب ويكفيلد»[3] سنة ١٥٢٤م؛ واستخدمها بعد ذلك من حين لآخر فى العديد من كتبه ذات الطابع العلمى.

ومنذ بدأ الطباعة سنة ١٤٩١ وحتى وفاته سنة ١٥٣٥ طبع دى ويرد نحو ثمانمائة كتاب؛ معظمها للأسف غير مؤرخ. وبعد سنة ١٥٠٩ كان يبيع كتبه من خلال محل ثان فى ساحة كنيسة سانت بول. ويلاحظ على طباعته أنها لم تكن مستوية السطور رغم أنه كان طابعاً ماهراً. وكانت مطبوعاته ذات مستويات عادية جداً، بل كان بعضها رديئاً للغاية. وقد طبق فى كتبه بعض التحسينات الفنية التى وجدت فى سوق الطباعة مثل صفحة العنوان المستقلة واستخدام إيضاحيات الكتل الخشبية على الرغم من أنه كان يفتقر إلى حسن اختيار المناسب منها. وعلى الرغم من أنه طبع بعض الكتب ذات الطابع البحثى والأدبى إلا أنه كان

(1) Bevis of Hampton' Sir Eglamour' Guy of Worwick ' Robin Hood.

(2) Sign of the Sun - St. Bride Church - Fleet Street.

(3) Wakefield. Oratio.- 1524.

يفتقر إلى ذوق كاكستون الأدبى وحسه الفكرى وكان بصفة عامة قانعاً بالطبيعة الشعبية للكتب التى كان يطبعها كاكستون.

لقد استخدم دى ويرد علامات طباعية مختلفة بنى معظمها على العلامة التى اتخذها كاكستون لنفسه. ولقد ورث أدوات التجليد التى خلفها كاكستون وظل مجلده يستخدمها حتى مطلع القرن السادس عشر، بعدها استخدم أدوات البصم التى لم يستخدمها أحد فى زمانه.

ومن المطابع الإنجليزية التى اشتهرت فى نهاية القرن الخامس عشر مطبعة لوتو وماشلينيا التى أسسها فى سنة ١٤٨٠م «جون لوتو» (جون الليتوانى أى من لتوانيا) وكان المنافس الرئيسى لمطبعة كاكستون. ويبدو أنه تعلم الطباعة فى روما من «جون بوللى»، وهو مواطن من بريمن لأن الحروف الغوطية الرومانية التى استخدمها فى البداية كانت شبيهة بتلك التى استخدمها بوللى. ومن الواضح أنه كان خبيراً ومتمرساً بفن الطباعة عندما أسس مطبعته فى إنجلترا. وفى سنة ١٤٨٠ طبع لوتو طبعة من كتاب «تساؤلات أنطونى أندريا»[1]. وكان أول كتاب يطبع على عمودين فى إنجلترا، وطبع طبعة ثانية فى نفس السنة، كما طبعت ثلاث طبعات من صك غفران أصدره جون كندال. وبعد هذه المطبوعات مباشرة دخل فى شراكة مع «وليام دى ماشلينيا» وهو بلجيكى. وفى خلال هذه الشراكة طبعا خمسة كتب فى القانون ـ كلها غير مؤرخة ـ بحروف سوداء سيئة الصب مليئة بالزوائد والروابط. وفى سنة ١٤٨٢ أو ١٤٨٣ اعتزل لوتو العمل ولم يعد أحد يسمع عنه.

واستمر ماشلينيا فى العمل وحده حتى ١٤٩٠ - ١٤٩١، وقد طبع فى تلك الفترة نحو اثنين وعشرين كتاباً كان معظمها من كتب القانون وغير مؤرخة. وعندما توقف عن العمل فى ١٤٩٠-١٤٩١م انتقل عمله إلى بنسون على نحو ما سنعالجه فى الفقرة التالية. وكان ماشلينيا هو أول من أصدر كتاباً ذا صفحة عنوان مستقلة فى إنجلترا وكان هذا الكتاب هو «رسالة عن مرض الطاعون»[2] الذى ألفه «كانوتوس» أسقف فسترايس فى السويد.

(1) Quaestiones Antonii Androe.
(2) Canutus. Treatise of Pestilence.

كان **ريتشارد بنسون** نورماندى المولد، وربما بدأ عمله كوكيل لترتيب عملية طباعة الكتب الإنجليزية خارج بريطانيا. ويعتقد أنه تعلم الطباعة فى مطبعة «غليوم لوتالير» من رووين لأنه اقتبس علامته الطباعية فيما بعد. ولقد حل بنسون محل ماشلينيا سنة ١٤٩٠-١٤٩١. وكان أول كتاب مؤرخ له هو كتاب «العقيدة» من تأليف «ألكسندر جاللوس»[١] وقد نشره سنة ١٤٩٢. وربما يكون قد أسبقه بطبعة غير مؤرخة مصورة من الحجم الكبير من قصص كانتربرى وأربعة كتب أخرى غير مؤرخة طبعت بنوعين من الحروف من أصل فرنسى.

وفى سنة ١٥٠٠ كان عدد الكتب التى طبعها بنسون قد بلغ ثمانية وثمانين كتاباً، كان أشهرها «**كتاب القداس**»[٢] الذى طبع لحساب الكاردينال «جون مورتون» وتم فى العاشر من يناير ١٥٠٠. وكان واحداً من أجمل الكتب التى طبعت فى إنجلترا خلال القرن الخامس عشر، وقد طبعت منه نسخ على ورق ونسخ أخرى على رق، وقد اشتمل على زخارف فى أطر الصفحات والحروف الأولى من تصميم مصممين إنجليز.

وفى خلال تلك الفترة كانت هناك موجة عداء للأجانب وتعرض بنسون وعماله للاعتداءات المتكررة فى الشوارع، ولذلك نقل مطبعته فى سنة ١٥٠٠م إلى شارع فليت فى موقع يقال له علامة جورج فى ركن شانسرى لين[٣]. وفى هذا المكان أصدر عدداً من الكتب ذات الطباعة الجميلة فى موضوعات عامة إلى جانب كتب القانون التى تخصص فيها بعد ماشلينيا. ولقد جذبت طباعته الأسرة المالكة، ولذلك كلف سنة ١٥٠٣ - ١٥٠٤ بطباعة بعض الكتب للملك «هنرى السابع» وربما كان أحسن كتبه فى تلك الفترة كتاب «قلعة العمل»[٤] الذى طبعه بحرف أسود أنيق وزخرف بأوليات جروتيسك ذات أصول فرنسية ومجموعة من الصور المأخوذة من الكتل الخشبية، وكانت أجمل ما ظهر من إيضاحيات فى

---

(1) Alexander Gallus. Doctrinale.

(2) Sarum Missal.

(3) Sign of George on the Corner of Chancery Lane.

(4) Esquire.

الكتب الإنجليزية حتى ذلك التاريخ. والكتاب نفسه غير مؤرخ ولكن يرجح أنه طبع ١٥٠٥م.

وفى سنة ١٥٠٨م خلف بنسون الطابع الملكى «وليام فاكس» فى هذا المنصب وعمل للملك «هنرى الثامن». وكان المرتب الذى ربط له هو جنيهان فى السنة زيدت سنة ١٥١٥ إلى أربعة جنيهات وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت وأكبر مرتب فى مجال الطبع الحكومى. مع حقه فى استخدام لقب «مبجل»[(١)].

وفى سنة ١٥٠٩م أدخل بنسون الحرف الرومانى إلى إنجلترا[(٢)]. وفى نفس سنة ١٥٠٩م استخدم هذا الحرف فى طبعتين من كتاب الخطابة للمؤلف «ريتشارد بيس»[(٣)]. كما استخدمه فى ترجمة كتاب باركليى المصور[(٤)] حيث مزج بين الحرف الرومانى والحرف الإنجليزى الأسود.

وقد اعتزل بنسون العمل سنة ١٥٢٨م، ويبدو أن عمله انتقل إلى يد طابع فى زمنه. وقد توافر لديه أنواع جميلة من الحروف أجاد استخدامها. وكانت طباعته متفوقة على كل الطابعين الآخرين. واستخدم الإيضاحيات بكفاءة أكبر من دى ويرد وكان ناجحاً موفقاً فى استخدامه لأطر الصفحات المزخرفة والأوليات . ولقد استخدم خمس علامات طباعية مختلفة. وكانت العلامة الأولى تتألف من خطوط وحروف بسيطة، اشتقت منها العلامات الثلاثة التالية ولكن مع شىء من التفصيل. أما العلامة الخامسة والأخيرة فهى تتألف من حاجز الدروع واستخدمت أول مرة سنة ١٥٠٩.

وهناك مطبعة أخرى بدأت إنتاجها فى إنجلترا سنة ١٤٩٦م، أسسها ثلاثة من الطابعين هم: «جوليان نوتارى» و«جون باربر» و«جين هوفين». وقد اتخذت هذه المطبعة مقراً لها فى لندن فى سانت توماس الرسولى. وقد بدأت المطبعة بكتاب

---

(1) Esquire.

(2) Sermo Fratris Hieronymi de Ferraria.

(3) Richard Pace. Oratio .- 1509.

(4) Barclay. Narrenschiff.

النحو الذى وضعه «ألبرتوس ماجنوس»[1]. ولم يذكر فى هذا الكتاب اسم المطبعة ولكنه تضمن فى آخر ورقة من الكتاب علامة الطابع التى تألفت من ثلاث مجموعات من الحروف هى:

Julyan Notary = I.N.

John Barbour = I.B.

Jean Huvin = I.H.

و«جوليان نوتارى» هو رجل فرنسى الأصل، و«جون باربر» من كوفنترى طابع استخدم اسم «جين باربيير» فأحدث بلبلة بينه وبين الطابع الفرنسى الشهير الذى يحمل هذا الاسم. أما «جين هوفين» فهو طابع من رووين. أما كتابهم الثانى فقد كان كتاب الساعات[2] الذى صادفناه مراراً من قبل، وقد طبع سنة ١٤٩٧م وفيه ذكرت أسماؤهم بالكامل، وسجل فيه أنهم طبعوه لحساب وينكن دى ويرد. ويبدو أن «وينكن» كان مسئولاً عن إدارة تلك المطبعة فى سنواتها الأولى، لأنها انتقلت سنة ١٤٩٨ إلى شارع كنج (الملك) فى ويستمنستر بالقرب من مطبعته ومن هذا المقر طبع هؤلاء الطابعون **كتاب القداس**[3] سابق الذكر. وفى هذا الكتاب الذى طبع لحساب دى ويرد استخدمت نفس العلامة الطباعية ولكن مع استبعاد الاختصار .I.H مما يعنى أن «جين هوفين» قد خرج من الشراكة؛ وفى السنة التالية خرج «باربور» أيضاً، واستمر «بوتارى» فى العمل وحده مستخدماً نفس العلامة ولكن مع كل الاختصارات الثلاثة وإضافة اسمه بالكامل.

وفى سنة ١٥٠٠ طبع بوتارى أول كتاب إنجليزى مصغر وهو من قطع ٦٤ وحجمه بوصة واحدة X بوصة وربع، وكان هذا الكتاب هو «كتاب الساعات» سابق الذكر. وفى سنة ١٥٠٢-١٥٠٣ ترك ويستمنيستر وانتقل إلى مقر جنسون القديم فى أبرشية سانت كليمنت دين، وقد استقر به المقام هنا سنة ١٥١٥ ثم انتقل بعدها إلى علامة الملوك الثلاثة فى كنيسة سانت بول. وكان معظم كتبه

(1) Albertus mangus. De Modis Significandi.

(2) Sarum Book of Hours.

(3) Sarum Missal.

عبارة كتب دينية من كتب الخدمة فى الكنيسة، ولكن إلى جانب ذلك طبع كثيراً من الكتب العامة. ولعل أهم كتبه الأسطورة الذهبية - سابق الذكر - ١٥٠٤م؛ حوليات إنجلترا ١٥١٥ وقد سبق ذكره أيضاً. وكتاب الأسطورة الذهبية يضم إيضاحيات مأخوذة عن كتل خشبية كانت من قبل مملوكة للطابع وليام كاكستون ووينكن دى ويرد ومن لوحات نحاسية مجهولة المصدر.

وفى القرن السادس عشر ظهر عدد من الطابعين المهمين نذكر من بينهم «وليام ريتشارد فاكيس»، «روبرت كوبلاند»، «جون» و«وليام راستيل»، «ربوبرت ردمان»، «توماس بيرتليت»، «ريتشارد جرافتون»، «جون ديى». وسوف أتناول بشيء من التفصيل الثلاثة الأواخر لشأنهم العظيم فى الطباعة الإنجليزية فى القرن السادس عشر.

«توماس بيرتليت» من ويلز أصلاً. وقد تعلم الطباعة على يد بنسون سابق الذكر، وعندما مات بنسون فى فبراير ١٥٣٠ خلفه بيرتليت فى وظيفة الطابع الملكى. وقد بدأ الطباعة لحسابه الخاص سنة ١٥٢٨ حيث أقام مطبعته أيضاً فى شارع فليت فى مربع علامة لوكريتيا رومانا، وأصدر أول كتبه سنة ١٥٢٨ وكان ترجمة لكتاب بينيل(١).

وبعد تعيينه طابعاً ملكياً أصدر كتاباً عن أشهر الجامعات(٢) سنة ١٥٣٠. وهو قطعة من الدعاية للملك «هنرى الثامن» بعد طلاقه من «كاترين الأرغوانية» (أرجوان)، وزواجه من «آن بولين». وفى سنة ١٥٣١ طبع كتاب سير «توماس إليوت» المعنون : «**كتاب اسمه الحاكم**»(٣). وهو كتاب فى حجم الثمن مطبوع بالحرف الغوطى الجميل. وقد طبع بعد ذلك فى عدة طبعات؛ إلى جانب طبعات أخرى من كتب «إليوت» من بينها القاموس اللاتينى الشهير سنة ١٥٣٨.

---

(1) Paynell. Regimen Sanitatis Salerni.

(2) Determinations of the most famous universities.

(3) Thomas Elyot. Boke named Governour.

وفى سنة ١٨٣٢ طبع كتاباً لـ «جاوار» بصفحة عنوان أخاذة ونص مطبوع على عمودين بالحرف الغوطي الجميل الذى استخدمه فى «كتاب اسمه الحاكم». وفى سنة ١٥٣٣م استخدم بيرتليت حرفاً غوطياً أجمل فى طبعته لكتاب «إراسموس». وفى سنة ١٥٣٥ طبع كتاب «سلوك الرجل المسيحى». وهو كتاب فى الإرشاد والتوجيه الدينى توفر على إعداده جماعة من الأساقفة ونشر تحت رعاية الملك. ورغم أنه ترك وظيفة الطابع الملكى بعد وفاة الملك «هنرى الثامن» فقد استمر فى نشر عدد من الأعمال حتى وفاته فى سنة ١٥٥٥م. ولقد كان الرجل طابعاً عظيماً كان لديه عدد من نوعيات الحروف، عرف كيف يستخدمها. وكان استخدامه للإيضاحيات استخداماً مسرفاً ولكنه فعال. وبصفة عامة امتازت طباعته بإتقان الصنعة والذوق الرفيع.

أما «ريتشارد جرافتون» فقد بدأ كصبى بقال وتم ترخيصه وكيلاً لشركة البقالين سنة ١٥٣٤. وفى ١٥٣٧م عهد إليه هو و«ادوارد هويتشيرش» بإنتاج طبعة من الكتاب المقدس إعداد «كوفرديل»، والتى طبعها «جاكوب فان ميترن» فى أنتويرب. وكان توماس مايتوز قد أهداها إلى الملك هنرى الثامن ومنحه الملك ترخيصاً بها ولذلك عرف بكتاب ماتيوز المقدس. وقد طبع من هذا الكتاب ١٥٠٠ نسخة.

وفى سنة ١٥٣٨ ذهب «جرافتون» و«هويتشيرش» إلى باريس للإشراف على طباعة الكتاب المقدس الإنجليزى فى مطبعة «فرانسوا ريجنولت» حيث كانت الطباعة الفرنسية والورق الفرنسى أحسن وأرخص من الإنجليزى. وعلى الرغم من أن «فرانسوا الأول» أعطاهما ترخيص الطبع، إلا أن دعوى الهرطقة قد أقيمت ضدهما فهرب جرافتون إلى إنجلترا وصودرت المطبعة والحروف والملازم المطبوعة. وقد تم العمل فى إنجلترا سنة ١٥٣٩ وصدر قرار بأن تقتنى كل أبرشية نسخة من هذا العمل.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت طباعة الكتاب المقدس مباحة فى إنجلترا، ولذلك قام «جرافتون» و«هويتشيرش» سنة ١٥٤٠-١٥٤١ بطباعة ست طبعات أخرى منه. وفى سنة ١٥٤٣ منحا الترخيص بطباعة كتب الخدمة للكنائس. وفى سنة ١٥٤٥ منحا ترخيصاً آخر بطباعة أدلة الصلاة. وعند اعتلاء «إدوارد السادس» العرش حصل جرافتون على الترخيص بأن يكون له الحق الوحيد فى طباعة الأوامر واللوائح الملكية وعين الطابع الملكى مكان «توماس بيرتليت». ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً شغل بالطباعة الرسمية وحدها حتى وفاة الملك «إدوارد الرابع». وعند اعتلاء الليدى «جين جريى» العرش، أصدر إعلان دعاية لها وقعه بصفته «طابع الملكة»، ولذلك طردته الملكة «مارى» من الوظيفة ووضعته فى السجن، ولحسن حظه استطاع الهرب. وبعد تحرره لم يعد إلى الوظيفة مرة أخرى ولم ينشط فى الطباعة بعد ذلك حتى وفاته سنة ١٥٧٢.

أما «جون ديى» فقد ولد فى دونويتش سنة ١٥٢٢، وربما تعلم فن الطباعة على يد «توماس رينولد» أو «توماس جيبسون». وفى سنة ١٥٤٦ دخل فى شراكة مع «وليام سيريس» حيث طبعا معاً مجموعة هامة من الكتب الدينية مستخدمين نوعين من الحروف: الحرف الأسود الخفيف والحرف الرومانى (الكابيتال). وفى تلك المرحلة لم تكن طباعته متميزة، ولم تكن سطوره مستوية، ولم تكن صفحات كتبه مرقمة.

وفى سنة ١٥٥١ فضت الشراكة وانتقل ديى من هولبورن إلى أدلرزجيت، وسجن خلال حكم الملكة مارى لفترة فى برج لندن قضى بعدها فترة فى الخارج. وعاد إلى الطباعة مرة أخرى سنة ١٥٧٧م، وفى تلك السنة ظهر اسمه فى **ميثاق شركة الوراقين**[1].

وكان أول مطبوعات «ديى» الممتازة هو طبعة كتاب «وليام كننجهام»؛ «نشأة الكون»[2] الذى صدر سنة ١٥١٩. وقد طبع بحرف مائل كبير من تصميم

(1) Charter of the Stationers, Company.

(2) William Cunningham. Cosmographicall Glasse.

جديد، وزين بعدد من الإيضاحيات المأخوذة من كتل الخشب والأوليات الجيدة. وبين ١٥٦٠ و ١٥٦٤ قام «ديى» بطبع الأعمال الكاملة للمؤلف «توماس بيكون» فى ثلاثة مجلدات. وقد استخدم فى طباعتها نوعين من الحروف من فصيلة الحرف الأسود ولكن بأحجام مختلفة ممزوجة بكمية من الحروف الرومانية والمائلة. وقد استخدمت الأولويات التى جاءت فى كتاب «نشأة الكون» هنا مرة أخرى. وقد أخرجت صفحة العنوان فى كل مجلد داخل إطار يحمل فى أسفله علامة ديي التى تصور شخصاً نائماً يستيقظ مع شعاره «استيقظ إنه النهار»[1] بما فيه من تورية لطيفة.

وفى تلك الفترة نشر «ديى» أيضاً العظات التى وضعها كل من «كالفن»، «لاتيمر»، «بولنجر». ولكن يبدو أن أحسن أعماله التالية كتاب فوكس «كتاب الشهداء»[2] فقد قابل ديى «فوكس» على أرض القارة الأوربية أثناء طبع الطبعة اللاتينية من «كتاب الشهداء» الذى وضعه «أوبرينوس» سنة ١٥٥٩م[3]. وبعد ذلك جاء فوكس إلى إنجلترا واستقر فى أدكرزجيت وكان يزور مطبعة ديى أسبوعياً خلال طبع الطبعة الإنجليزية من الكتاب. ويقع كتاب الشهداء فى ٢٠٠٨ صفحة من القطع الكبير، وقد طبع على عمودين ببنط أسود صغير ممزوج بحروف رومانية ومائلة بأحجام مختلفة. وبأمر ملكى تم توزيع نسخ هذا الكتاب على كل كنائس الأبرشيات فى إنجلترا.

وفى سنة ١٥٦٧ طبع ديى للأسقف «ماتيو باركر» كتاب العهد القديم[4] والذى صمم له حروفاً مخصوصة من الطراز الأنجلوساكسونى. ومن الأعمال الهامة أيضاً التى طبعها ديى كتاب «فاندرنوت»: «مسرح لمحبى الدنيا» سنة ١٥٦٩م[5] تضمن بعض أشعار «سبنسر»؛ ثم كتاب نورتون «مأساة

(1) "Arise it is a day".
(2) Foxe. Book of Martyrs
(3) Oporinus. Book of Martyrs.
(4) Matthew parker. Testomonie of Antiquitie.
(5) Vandernoot. Theatre for Worldlinegs.

جوربودوك»[١] صبى السادسة عشرة (١٥٧٠)؛ ثم كتاب «آشام»: «ناظر المدرسة»[٢] سنة ١٥٧٠ كذلك. وقد تضمن كتاب «إصلاح النظام الكنسى»[٣] الذى نشره سنة ١٥٧١ علامته الطباعية الجديدة وهى عبارة عن يدين تحملان لوحة عليها بوتقة فيها قلب محاط بشعلات نارية. وفى سنة ١٥٧٢ طبع ديى أول كتاب يخرج من مطبعة إنجليزية خاصة، وهو كتاب الأسقف «باركر» عن «الكنيسة البريطانية القديمة»[٤] الذى طبع فى مطبعة «باركر» الخاصة فى لامبيث. وقد اشتملت هذه الطبعة على خمسين نسخة فقط من الحجم الكبير وبحرف مائل جديد.

وفى ١٥٨٠ أصبح باركر «**رئيس شركة الوراقين**» ومات سنة ١٥٨٤م. وكان أنجح طابع فى زمانه، وأدخل أنواعاً جميلة من الحروف والأوليات وخاصة الحرف المائل الذى كان له تأثير كبير. وكان أول إنجليزى يصب الحروف ليمزج الحرف الرومانى مع الحرف الإيطالى من نفس الحجم حتى يحدثا أكبر تأثير ممكن.

ومن المعاصرين لهذا الطابع العظيم جون ديى الطابع «ريجنالد وولف»، الذى بدأ الطبع سنة ١٥٤٢ ووصل إلى المستوى الراقى الذى وصل إليه ديى، واختير رئيساً لشركة الوراقين سنوات ١٥٦٠، ١٥٦٤، ١٥٦٧، ١٥٧٢. وبعد وفاة وولف سنة ١٥٧٣م اشترى «هنرى باينمان» كثيراً من حروفه وأدواته، طبع بها سنة ١٥٧٤ طبعة جميلة من كتاب «توماس وولسنجهام»: «مختصر التاريخ»[٥] وذلك لحساب كبير الأساقفة «ماتيو باركر». وقد طبع هنرى باينمان عدداً من الكتب الجميلة، وعندما مات سنة ١٥٨٣ كان عنده ثلاث مطابع.

ومن المعاصرين أيضاً «جون كاوود» رئيس شركة الوراقين سنة ١٥٦١، ١٥٦٢، ١٥٦٦، الذى خلف «جون جرافتون» فى وظيفة الطابع الملكى عند

---

(1) Norton. Tragedy of Gorbuduc.- 1570.
(2) Ascham. Scholemaster.- 1570.
(3) Reformatio legum Ecclesiasticarum.- 1571.
(4) Archibishop Parker. De Antiquitate Britannicae Ecclesiae.- 1572.
(5) Thomas Walsingham. Histroia Brevis.- 1574.

اعتلاء الملكة مارى العرش. وكان إنتاجه راقياً وإن لم يكن متميزاً. وربما جاء وجه شهرته من «**كتاب الصلوات العامة**»[١] الذى طبعه بالاشتراك مع «ريتشارد جوجى»، ومن ترجمة كتاب «باركليى»: «سفينة المغفلين» الذى طبع بالإيضاحيات الأصلية[٢].

أما ريتشارد جوجى فقد بدأ الطبع سنة ١٥٤٨ وأصبح كبير طابعى الملكة «إليزابث». وكان هو طابع أول طبعة من **كتاب الأسقف المقدس**[٣] الشهير سنة ١٥٦٩.

ومن بين المعاصرين «توماس فوترولبير»، وهو أجنبى انضم إلى شركة الوراقين سنة ١٥٦٤، وحصل بعدها مباشرة على ترخيص بطباعة كتب «أوفيد» وغيره من المؤلفين الكلاسيكيين اللاتين. وقد أنشأ له مطبعة فى بلاكفريار

وفى سنة ١٥٨٠ زار أدنبره بدعوة من الجمعية العمومية فيها، وذلك لتسويق الكتب هناك. وعادة إليها مرة أخرى سنة ١٥٨٤ وأنشأ بها مطبعة لم تعش طويلاً وقد عاد إلى لندن سنة ١٥٨٦ بعد أن طبع ثمان كتب فى اسكوتلندة حيث استأنف نشاطه الأصلى وتوفى سنة ١٥٨٧. ولقد كان إنتاج توماس فوترولبير متميزاً وذا مستوى عال، استخدم فيه بعض الأبناط الرومانية والمائلة استخداماً جيداً. ولعل وجه شهرته يرجع إلى كتاب «بترارك»: «الحيوات»[٤]. سنة ١٥٧٩م. والذى وضع فى بداية كل ترجمة ميدالية دائرية تحمل صورة المترجم له.

ومن الذين لمعوا فى زمن ديى أيضاً «ريتشارد توتل» رئيس شركة الوراقين سنة ١٥٧٩، ١٥٨٤، وكان طابعاً ذات إمكانيات شخصية خاصة. وقد اكتسب وجه شهرته من طباعة كتاب:

«أغانى وقصائد، كتبها الكاتب المبجل اللورد هنرى إدوارد الإيرل الأخير ل سوريى وآخر»[٥].

(1) Book of Common Prayers.
(2) Barclay. Ship of Fools.
(3) Bishop Bible.
(4) Petrarch. Lives.- 1579.
(5) Songes and Sonnettes, Written by the Ryght Honorable Lord Henry Edwarde, Late earl of Surrey and other.

ويعرف هذا الكتاب اختصاراً بعنوان «**مجموع توتل**»[1].

ومن المعاصرين أيضاً للطابع جون ديى نتوقف أخيراً عند «كريستوفر باركر» الذى بدأ عمله كناشر سنة ١٥٦٩ ثم أنشأ مطبعة سنة ١٥٧٦. وكان من أنجح الطابعين فى زمانه، وعين الطابع الملكى للملكة إليزابث، وخلفه بعد وفاته ابنه «روبرت باركر».

ومثل عدد من الدول الأوربية هبط مستوى الطباعة وانحط فى إنجلترا فى طوال القرن السابع عشر. فقد أعيدت طباعة بعض الكتب التى طبعت فى القرن الخامس عشر والسادس عشر ولكن فى طبعات رديئة، وغالباً ما كان يتوفر على طباعتها قراصنة الطابعين الذين كان كل همهم أن يطبعوا طبعات كثيرة النسخ رخيصة السعر قدر الإمكان. وتوقف تصميم الحروف فى بريطانيا أو كاد ولم يعد هناك تجديد أو ابتكار، وأصبحت بريطانيا تستورد معظم حروفها من هولندا.

واستمر الحال تقريباً فى طوال القرن الثامن عشر وإن لم يخل الأمر من طابع يلمع هنا أو هناك. ومن بينهم «جون باسكت» الذى اشتهر بطبعته من الكتاب المقدس ١٧١٦ ـ ١٧١٧.. هذا الكتاب الذى عرف من إحدى الصفحات المغلوطة نال اسمه: **كتاب الخل**[2]. ورغم وجود بعض الأخطاء الطباعية فى النص إلا أنه مطبوع بعناية شديدة بحرف رومانى كبير ممزوج بحرف مائل مناسب كلها ذات أصول إنجليزية من تصميم «وليام كاسلون».

وظهر فى هذا القرن أيضاً «وليام بوبر» (الأب) الذى بدأ الطباعة ١٦٩٩ وبنى مطبعة عظيمة كان لها شأنها، ولكن الحريق دمرها لسوء الحظ سنة ١٧١٢. وكان له أصدقاء فى المهنة واشتراكات عوضوه عن خسارته بمبلغ ١١٦٢ جنيهاً استرلينياً بالإضافة إلى منحة ملكية قدرها ١٣٧٧ جنيهاً استرلينياً ساعدته على أن يبدأ عمله

(1) Tottels Miscellany.

(2) Vinegar Bible.

من جديد. وفى سنة ١٧٢٢ نشر طبعة من أعمال «سيلدن» بحروف من تصميم «وليام كاسلون». ولقد أسدى هذا الرجل خدمات جليلة إلى الطباعة الإنجليزية فى ذلك القرن حيث ساعد كاسلون على أن يبنى مسابك للحروف قادرة على سبك حروف أحسن من تلك التى كانت تستورد سابقاً من هولندا.

فى مطلع القرن الثامن عشر أيضاً ظهر فى جلاسجو الأخوان «روبرت» و «أندرو فوليس»، وكلاهما درس دراسة أكاديمية عالية قبل الانخراط فى مهنة الطباعة وكانت لهما معرفة فكرية وببليوجرافية واسعة. وقد بدأ روبرت فوليس حياته فى جلاسجو كتاجر كتب سنة ١٧٤١، ثم بدأ نشاطه الطباعى فى السنة التالية ١٧٤٢ وعين طابعاً لجامعة جلاسجو سنة ١٧٤٣م. وفى سنة ١٤٤٤م بدأ يستخدم الحروف التى يصممها له الدكتور «أندرو ويلسون» وفى نفس السنة أشرك معه أخاه أندرو. وقد تخصص الأخوان فى طبع الكتب الكلاسيكية. ورغم أن طباعتهما كانت سهلة سلسة وواضحة إلا أنها فى نفس الوقت تميزت بمستوى عالٍ من الذوق والدقة. وكان من بين أعمالهما الباكرة طبعة من كتاب «هوراس» وتعرف الآن فى بريطانيا باسم «الطاهر»[١]. وكان الطابعان يعلقان بروفات هذا الكتاب فى ساحة الكلية ويمنحان مكافأة لمن يكتشف فيها أخطاء طباعية. ورغم أن أحداً لم يكتشف فيها أخطاءً فقد وجد الطابعان بنفسهما ستة أخطاء فى تلك البروفات. ومن بين الطبعات الأخرى طبعة «سوفوكليس»؛ و٢٢ مجلداً بأعمال «شيشرون» وطبعة من «هوميروس» يقال أنها كانت تتويجاً لأعمال المطبعة. وقام الأخوان كذلك بطبع طبعات جميلة للمؤلفين الإنجليز من بينها كتاب **الجنة المفقودة**[٢] وقصائد «جريى» و «بوب».

ولقد حاول الأخوان فوليس بما توافر لديهما من مال أن ينشئا مدرسة لطلاب الفنون، ولكنها للأسف كانت مشروعاً فاشلاً تماماً عجل بوفاة روبرت سنة ١٧٧٥م وآندرو سنة ١٧٧٦م.

---

(1) Immaculate.

(2) Paradise lost.

أما الطابع الإنجليزى الذى أضفى على القرن الثامن عشر أهمية خاصة فى تاريخ الطباعة - شأنه فى ذلك شأن وليام كاكستون - فقد كان «**جون باسكرفيل**»[1]، الذى ولد فى وولفرلى من أعمال ووركسترشاير سنة ١٧٠٦م. وكان لموهبته فى التأليف والكتابة أثر كبير فى تعيينه مدرساً للكتابة فى مدرسة الملك إدوارد فى بيرمنجهام. وفى سنة ١٧٣٦م أعجب بتاجر خردوات يدعى «جون تيلور» وظل يتعقبه من محل إلى محل وهو يبيع بضاعته. وقام باسكرفيل بعد ذلك بنفس النشاط حتى كون منه فى سنة ١٧٤٩ ثروة طيبة قرر بعدها الاتجاه إلى نشاط الطباعة.

بدأ باسكرفيل نشاطه الطباعى وهو فى سن الخمسين، وكان يرغب فى خلق نوع جديد من الطباعة فى البلاد. ولذلك بدأ أول ما بدأ بتصميم الحروف، وقد بنى عمله هنا إلى حد كبير على عمل كاسلون سابق الذكر والذى قدم له الشكر فى مقدمة كتاب «**الجنة المفقودة**»[2]. وفى نفس هذه المقدمة حدد أهدافه على النحو التالى:

«ليس فى نيتى طبع كتب كثيرة، ولكن أريد فقط أن أطبع الكتب ذات القيمة المستمرة والقيمة الرفيعة والتقرير الراسخ... بسعر يتمشى مع العناية الفائقة والخبرة الكبيرة التى بذلت فيها».

وقد استأجر باسكرفيل أحد الحرفيين - واسمه «هاندى» - لتصميم حروفه، وبين سنتى ١٧٥٠ و١٧٥٢ أسس مسبكه الخاص وتقدم تقدماً كبيراً فى تصميم وصب وسبك الحروف. وفى نفس الوقت أقام مطبعة بكامل أدواتها فى بيته. وكانت لحروفه خصائص خاصة وجمال من نوع معين. كذلك توفر باسكرفيل على تصميم حروف يونانية لم تنجح كثيراً لجامعة أكسفورد.

وفى سنة ١٧٥٢م أنشأ باسكرفيل واحدة من مطابعه المتعددة التى توالت تباعاً والتى كانت تقليدية فى حروفها، ولكن أدخل طريقة جديدة فى الطبع؛ ذلك أن

(1) BaskerVill.

(2) Paradise Iost.

الأفرخ بعد طباعتها كانت تمرر بين لوحين ساخنين من النحاس المورنش مما يضفى على الأفرخ سطحاً لامعاً وتظهر الحروف فى أحسن حالاتها.

وعلى مدى ٢٠٠ سنة كان الطابعون الإنجليز يطبعون كتبهم بحبر أسود غير نقى. ولكن لما جاء باسكرفيل بذل قصارى جهده فى إنتاج نوع جيد ونقى من الحبر. وبعد تجارب عديدة نجح فى إنتاج حبر فائق الجودة أسود، أساسه من زيت بذر الكتان.

وليس لدينا سجلات تكشف عن أن باسكرفيل كان صانع ورق، وإن كان هناك ما يدل على أنه قد قام بتجارب عديدة فى هذا الاتجاه، وكان أول من أدخل الورق المنسوج فى الكتاب الإنجليزى. وربما صنع له هذا الورق خصيصاً بعد إشرافه فى مصانع وارتمان فى ميدستون. وقد استخدم هذا الورق لأول مرة فى طبعة من إنيادة فيرجيل سنة ١٧٥٧ (وإن كان قد بدأ فيها سنة ١٧٥٤م). وقد حقق هذا الكتاب نجاحاً فورياً وبنى شهرة باسكرفيل. وقد أتبعه سنة ١٧٥٨ بطبعة من كتاب «ملتون» فى مجلدين، وقد حقق هو الآخر نجاحاً ملحوظاً لدرجة أنه طبع بعد ذلك ثلاث مرات فى سنتين. كذلك فإن طبعته من كتاب الصلاة العامة سنة ١٧٦٠ حققت هى الأخرى نجاحاً لا يقل عن نجاح الكتابين السابقين، وقد انتشر فى الكثير من الكنائس. وبعد هذه الكتب نشر كتاب «أديسون» ثم «خرافات آيسوب»[1] سنة ١٧٦١ (وكان قد طبع فى تلك السنة لحساب روبرت دودزلى) ثم طبع أعمال «هوراس» سنة ١٧٦٢. وفى سنة ١٧٦٣ نشر باسكرفيل أكثر أعماله طموحاً ونعنى به (الكتاب المقدس) من القطع الكبير والذى طبعه فى كمبردج للجامعة ورغم أنه نجح طباعياً إلا أنه فشل مالياً حيث لم يستطع أن يبيع أكثر من نصف الطبعة واضطر أن يبيع سائر النسخ فى سوق البواقى. وكان من بين كتبه الناجحة سلسلة كتب كلاسيكية سنة ١٧٦٢م.

كانت كتب باسكرفيل تتسم بالبساطة الطباعية وغياب الزخارف، وكان لكتبه

(1) Aesop,s Fables.

تقدير خاص داخل القارة الأم أكثر من داخل بريطانيا. وربما يعزى عدم نجاحه مالياً إلى أنه أنفق الكثير من المال على إنتاج حروف جديدة بدلا من استخدام الحروف القديمة التى كان يستخدمها معاصروه. وقد انعكس أثره على الطباعة فى القارة فى أعمال «ديدوت» فى فرنسا، «بودونى» فى إيطاليا، «إيبارا» فى أسبانيا.

وفى نهاية القرن الثامن عشر ظهر عدد من الطابعين الإنجليز الذين أثروا الحياة الطباعية فى تلك الفترة فى إنجلترا من بينهم **توماس بنسلى** الذى بدأ الطباعة فى نهاية الثمانينات من ذلك القرن، وطبع عدداً من الكتب الجميلة. وقد توفر على تصميم حروفه «جوزيف جاكسون» ثم من بعده «فنسنت فينجنز». ومن بين أعماله الرائعة كتاب طومسون «المواسم»[1] سنة ١٧٩٧م، الكتاب المقدس فى سبعة مجلدات سنة ١٨٠٠؛ كتاب هيوم «تاريخ إنجلترا»[2] سنة ١٨٠٦. وقد تعاون أيضاً مع «فردريتش كوننج» فى تطوير الطابعة الدوارة.

وكان «وليام بلمر» واحداً من الطابعين المجيدين فى تلك الفترة، وقد ولد وتعلم الطباعة فى نيوكاسل، وهناك كون صداقة عمره مع مصمم الكتل الخشبية «توماس بيويك». وقد جاء إلى لندن وعمل فى خدمة «جون بيل» الذى كان يعد لنشر كتاب مصغر فى الشعراء الإنجليز فى سنة ١٧٨٧. ومن خلال وساطة «جورج نيكول» بائع الكتب أصبح طابعاً فى مطبعة شكسبير التى كان الهدف من إنشائها نشر طبعة مصورة من أعمال «وليام شكسبير». وتستقى الإيضاحيات فى تلك الطبعة من صور ورسومات شكسبير الموجودة فى معرض جون بويدل بول مول. وقد ظهرت طبعة أعمال شكسبير هذه فى تسعة مجلدات بين سنتى ١٧٩١ و١٨٠٥ وطبعت بحروف مخصوصة صممها الفنان «وليام مارتن». ومن بين الأعمال الأخرى التى اشتهر بها بلمر طبعة من ثلاث مجلدات من أعمال «ملتون» بين سنوات ١٧٩٤ ـ ١٧٩٥ ـ ١٧٩٧؛ وطبعة من قصائد «جولد سميث وبارنل»، مصورة بأناقة شديدة بصور مأخوذة من كتب الخشب من تصميم «توماس» و «جون بيويك». فى مقدمة هذا الكتاب يشير بلمر إلى الجهود التى بذلها هو وزملاء له فى سبيل رفع مستوى الطباعة الإنجليزية. لقد

(1) Thomson. The Seasons.

(2) Hume. History of England.

حقق هذا العمل نجاحاً مباشراً، وأتبع فى السنة التالية بطبعة شبيهة من كتاب «سومرفيل»: «الصيد»[1]. ومن بين الأعمال الأخرى التى طبعها بلمر كتاب «دبدن» «أوائل المطبوعات»[2] فى أربعة مجلدات سنة ١٨١٢، «الدليل الببليوجرافى»[3] فى ثلاث مجلدات سنة ١٨١٧ ـ ١٨١٨. ولسنوات عديدة لم تعد الأساليب الطباعية التى أدخلها بلمر فى كتبه مقبولة، على الرغم من أنها أصبحت محل تقدير مرة أخرى فى النصف الأول من القرن العشرين.

وفى مطلع القرن التاسع عشر برز فى إنجلترا طابعون على قدر من الأهمية، من بينهم «تشارلز ويتنجهام» (الأكبر) الذى أسس سنة ١٨١٠ مطبعة تشيزويك، وكان طابعاً على قدر كبير من الأهمية، وقد أصدر عدداً من الكتب الصغيرة المصورة تصوراً أنيقاً بكتل الخشب؛ وقد خلفه فى هذه المطبعة ابن أخيه «تشارلز ويتنجهام» (الأصغر)، وكان هذا الأخير طابعاً من الطراز الأول وجماعاً للكتب وكان قد دخل فى شراكة مع عمه بين ١٨٢٤ ـ ١٨٢٨، بعدها أقام مطبعة لنفسه فى تسانسرى لين. وفى سنة ١٨٢٩ تقابل مع «وليام بيكرنج»، وهو ناشر وتاجر كتب له نفس ميوله واهتماماته. وكان بيكرنج قد حقق نجاحاً كبيراً من وراء سلسلة كتب مصغرة عوفت باسم «كلاسيكيات الماسة»[4]. وقد أصبح الرجلان أصدقاء مدى الحياة ورفاق عمل، وطبعا أعمالاً كثيرة تمتاز بجمال طباعتها وحسن إخراجها وروعة تصميماتها وصورها وإطارات صفحاتها وزخرفتها. وكانت هذه الكتب تطبع على ورق مصنوع يدوياً وبحبر من نوعية راقية. ومن بين كتبهم الممتازة طبعات من أعمال «ميلتون» و «بيكون»، «والتون»، أشعار «ألدين» التى نشرت فى سلسلة متعاقبة بين ١٨٣٠ ـ ١٨٤٤.

وعند وفاة عمه فى سنة ١٨٤٠ قام تشارلز ويتنجهام (الأصغر) بإدارة مطبعة

(1) Sommerville. The Chase.

(2) Dibdin. Typographical Antiquities.

(3) Dibdin. Bibliographical Decameron.

(4) Diamond Classics.

تشيزويك، ورغم أنه ظل يطبع كتبه فى المطبعتين: مطبعة تشيزويك و مطبعة تشانسرى لين، إلا أن كل أعماله كانت تحمل بيانات مطبعة تشيزويك.

وفى سنة ١٨٤٠م قام ويتنجهام و بيكرنج بإحياء حرف كاسلون القديم الذى كان قد صممه سنة ١٧٢٠م واستخدماه فى أربعة كتب لهما نشرت ١٨٤٠؛ وفى قصة نشراها سنة ١٨٤٤ بعنوان «مذكرات الليدى ويلوبى»[1] وطبعة من «هجائيات جوفينال»[2] سنة ١٨٤٥. وكان إحياء هذا الحرف القديم بداية لإحياء الحروف القديمة على يد كل من «ميللر» و «ريتشارد» من أدنبرة.

ولقد اعتزل ويتنجهام الأصغر نشاط الطباعة سنة ١٨٦٠، وعندما مات سنة ١٨٧٦م انتقلت مطبعة تشيزويك إلى «جورج بيل». وفى هذه المطبعة قام ويليام موريس بتجاربه الأولى فى الطباعة قبل أن ينشئ مطبعة كيلمزكوت التى كانت علامة بارزة فى تاريخ الطباعة الإنجليزية الراقية.

لم تقتصر الطباعة فى إنجلترا على لندن وحدها، ولكنها بطبيعة الحال خرجت منها إلى مدن إنجليزية أخرى، كما خرجت إلى الولايات البريطانية الأخرى فى سكوتلندا و أيرلندا و ويلز.

ومنذ دخول الطباعة إلى إنجلترا وحتى سنة ١٥٥٧، انتشرت المطابع فى عشر مدن إقليمية إنجليزية على الأقل كانت حسب الترتيب الزمنى هى: أكسفورد، سانت أولبانز، يورك، كمبردج ماتافستوك، آبنجدون، إبسويتسن، ووكستر، كانتربرى، نورويتش. ومنذ سنة ١٥٥٧ صدر ميثاق يعطى شركة الوراقين وحدها حق الطبع، ولذلك توقف الطبع فى مدن الأقاليم واقتصر فقط على لندن وأكسفورد وكامبردج.

فى أكسفورد كان أول كتاب طبع هو كتاب «قانون الإيمان عند الرسل

---

(1) Lady Willoughby,s Diary.

(2) Juvenal Satires.

المسيحيين»[1] من تأليف «روفينوس» أسقف أكويليا، ولم يذكر فيه اسم الطابع ولكن ذكر فيه أنه طبع فى أكسفورد سنة ١٤٦٨م، ويذكر بعض الببليوجرافيين إن هذا التاريخ كتب خطأ حيث أن صحته هى ١٤٧٨ لأن الطابع أنقص عشر سنوات عن طريق السهو لأن التاريخ مكتوب بالأرقام الرومانية. وهذا الخطأ أدى إلى اعتقاد خاطئ بأن الطباعة فى إنجلترا بدأت فى أكسفورد وليس فى لندن. وقد جاء بعد هذا الكتاب كتاب آخر هو «**كتاب الأخلاق عند أرسطو**»[2] سنة ١٤٧٩؛ ثم جاء الكتاب الثالث فى أكسفورد سنة ١٤٧٩ أو ١٤٨٠[3]. وهذه الكتب الثلاثة جاءت خلواً من أية زخارف وطبعت من حرف ذى أصول كولونية (أى من مدينة كولون الألمانية) ويعتقد أن هذه الكتب كانت من طباعة «تيودوريك روود» وهو مواطن من كولون ارتبطت باسمه مجموعة أخرى من الكتب فى نفس المدينة، أولها كتاب ذكر فيه اسمه وكان شرحاً لكتاب أرسطو من تأليف «ألكسندر من هيلز»[4]. وفى سنة ١٤٨٣ دخل روود فى شراكة مع وراق فى جامعة أكسفود يدعى «توماس هنت»، وظل الاثنان يعملان معاً حتى سنة ١٤٨٥ حيث يعتقد أن روود ترك إنجلترا فى تلك السنة. وقد خلفت لنا هذه المطبعة سبعة عشر كتاباً استخدمت فيها أنواع مختلفة من الحروف. وكانت هذه المطبعة هى أول مطبعة فى أكسفورد رغم أننا لا نعرف اسمها، وربما لأنها كانت الأولى هناك فلم تكن بحاجة إلى اسم تتسمى به. وقد توقف الطبع بعد ذلك فى أكسفورد حتى سنة ١٥١٧ حين أسست مطبعة أخرى على يد طابع اسمه «جوهان سكولار»، أصدر أول كتاب له[5] مؤرخ فى تلك السنة ١٥١٧ وكان تعليقاً على أعمال أرسطو كتبه «والتر بيرلى». وقد عمل سكولار تحت كفالة الجامعة وأصدر بعض كتبه طبقاً لامتياز خاص، ويعتقد أنه أصدر ستة كتب، وقد

(1) Exposicio Sancti Ieronimi in Simbolum Apostolorum.
(2) Textus Ethicorum Aristotelis.
(3) De Piccato Originali.
(4) Alexander Hales. De Anima.
(5) Walter Burley. Super Libros Posteniorum Aristotelis.

خلفه فى سنة ١٥١٩ «كارولوس كيرفورث» الذى طبع كتاباً فى الحساب[١] وربما كتاباً آخر من تأليف «جاسبار لايت»[٢]. وبعد ظهور هذه الكتب الثمانية توقفت الطباعة مرة أخرى فى أكسفورد حتى سنة ١٥٨٥.

ولم تتأثر الطباعة فى أكسفورد بميثاق شركة الوراقين لسنة ١٥٥٧م، ومن ثم استمر إنشاء المطابع فيها.

وجاء إنشاء ثالث مطبعة سنة ١٥٨٥م بفضل جهود «إيرل ليكستر» أمين جامعة أكسفورد من ١٥٦٤ وحتى ١٥٨٨. ففى سنة ١٥٨٤ شكل مجلس الجامعة لجنة أقرضت وراق الجامعة وكان اسمه «جوزيف بارنز» مائة جنيه لإنشاء مطبعة. وفى السنة التالية ١٥٨٥ صدر قرار من غرفة النجمة بتقييد الطباعة فى إنجلترا، وبمقتضى هذا القرار سمح لمدينة أكسفورد بمطبعة واحدة وطابع واحد وصبى واحد. وأصدر بارنز أول كتاب له سنة ١٥٨٥ من تأليف «جون كيس»[٣]؛ وفى السنة التالية أصدر ثانى كتاب له واستخدم فيه الحرف اليونانى[٤]؛ وفى سنة ١٥٩٦ طبع كتابا «ويرموللر»: «اللؤلوة الروحية والأثمن»[٥]. وقد اعتزل بارنز سنة ١٦١٧ بعد أن طبع ما لا يقل عن ثلاثمائة كتاب معظمها كتب لاهوتية باللاتينية واليونانية. وقد خلفه «ويليام رينش» و«جون ليشفيلد».

وفى سنة ١٦٣٢م استطاع «لود»، كبير الأساقفة وأمين جامعة أكسفورد من ١٦٣٠ وحتى ١٦٤١، أن يحصل على رخصة ملكية تسمح لجامعة أكسفورد باستخدام ثلاثة طابعين كل منهم يدير مطبعتين واثنين من الصبية. وقد أعطى لود اهتماماً بالغاً بمطبعة أكسفورد. وفى سنة ١٨٣٦ استطاع الحصول على وثيقة أخرى تبيح للجامعة طباعة جميع أنواع الكتب. وبعد هذا الترخيص طبعت الجامعة عدة تقاويم، ولكن بناء على طلب من شركة الوراقين وافقت الجامعة على تأجيل حق طبع «الكتاب المقدس» وكتب النحو والتقاويم فى مقابل ٢٠٠ جنيه سنوياً تحصل عليها من الشركة.

---

(1) Compotus Manualis ad Usum Oxoniensium.

(2) Josper Laet. Prognostication.

(3) John Case. Speculum Moralium Questionum.

(4) St. Chrystostom.

(5) Wermuellen. Spiritual and most Precious Pearl.

وخلال الحرب الأهلية اتخذ «تشارلز الأول» من جامعة اكسفورد مقراً له. وهكذا فإن بين ١٦٤٢ و١٦٤٤ طبع له كل من «ليونارد ليتشفيلد» و «هنرى هول» كل المنشورات والأوامر والتعليمات الملكية. وعند استسلام الملك ١٦٤٦ عانت المطبعة كثيراً ووصلت إلى حافة الانهيار؛ وقد تم الاستغناء عن ليتشفيلد و هول، وقام السير «توماس فيرفاكس» بتعيين «هنرى هيلز» و «جون هاريس» مكانهما ولم يكن أى منهما على قدر من الكفاءة أو الخبرة المطلوبة.

ومع بداية النصف الثانى من القرن السابع عشر خفت قبضة البرلمان على الطباعة فبدأ استئناف صدور المطبوعات، وبدأت مطبعة جامعة أكسفورد فى استئناف النشاط، وأفادت كثيرا من نشاط الدكتور «جون فيل» الذى كان رئيس كنيسة المسيح من ١٦٦٠ إلى ١٦٨٦ وأسقف أكسفورد من ١٦٧٥ وحتى ١٦٨٦. وفى سنة ١٦٦٧ قدم للجامعة مسبك حروف كامل بكل مشتملاته من آلات ومعدات وقوالب وأمهات ومجموعة قيمة من قوالب الحرف الرومانى، الساكسونى، المائل، الغوطى من أصل هولندى بل وأكثر من هذا ساعد فى إنشاء مصنع للورق بالقرب من أكسفورد فى وولفركوت. وكان من المتحمسين جداً لممارسة حقوق الجامعة فى الطباعة فى مواجهة معارضة عنيفة كذلك من جانب شركة الوراقين. ومنذ سنة ١٦٦٧ وحتى ١٦٦٩ كانت المطبعة والمسبك يداران من محلات مستأجرة بواسطة «فيل». ولكن فى سنة ١٦٦٩ تم إنشاء مبنى مخصوص عرف باسم «مسرح شلدونيان» تحت إشرافه انتقلت إليه المطبعة والمسبك. وفى سنة ١٦٧١ دخل فى شراكة مع ثلاثة آخرين، وأدار المطبعة لحسابه وأنفق كثيراً من ماله عليها.

وفى سنة ١٦٣٧ تجدد اتفاق شركة الوراقين مع جامعة أكسفورد لتأجيل قيام الجامعة بطبع التقاويم والكتاب المقدس وكتب النحو حتى سنة ١٦٧٢. وفى تلك السنة انتهى الاتفاق ومارست الجامعة امتيازاتها وطبع أول كتاب مقدس فى أكسفورد سنة ١٦٧٤ ـ ١٦٧٥ فى مبنى المطبعة فى مسرح شلدونيان. وفى سنة

١٦٧٧ قدم متبرع آخر هو «فرانسيس جونيوس» للجامعة مجموعة من الحروف الرونية، والغوطية، والساكسونية، والأيسلندية، والدنمركية، والسويدية، والرومانية، والمائلة.

وفى سنة ١٦٨٨ تسببت المطابع الثقيلة والآلات الكثيرة فى تصدعات فى مبنى مسرح شلدونيان مما أدى إلى شطر المطبعة إلى قسمين: **المطبعة العلمية** ونقلت إلى منزل صغير بالقرب من الجامعة، **ومطبعة الكتاب المقدس** ووضعت فى منزل فى شارع سانت ألديتس.

وفى مطلع القرن الثامن عشر حصلت الجامعة على حق طبع كتاب «كليرندون»: «**تاريخ الثورة**»[1]. وفى سنة ١٧١٣م أقيم مبنى كليرندون الذى صممه «فانبرو» من أرباح مبيعات ذلك الكتاب، واستخدم هذا المبنى لجمع شمل المطبعة من جديد.

وقد احتلت مطبعة الكتاب المقدس النصف الشرقى من المبنى. وفى تلك الفترة كانت مطبعة الكتاب المقدس أكثر نشاطاً من المطبعة العلمية، واستطاعت سنة ١٧٧٠م أن تنشئ فى لندن مخازنها الخاصة فى منطقة باتيرنوستر رو. وقد تم إحياء الاهتمام بالمطبعة العلمية إثر نشرة صغيرة كتبها سير «وليام بلاكستون» وصفها فيها بأنها «تئن تحت وطأة الإهمال والنسيان». وبعد ذلك انتقلت المطبعتان إلى مبنى جديد لأن مبنى كليرندون ضاق بهما. وتم النقل إلى مبنى شارع والتون بين ١٨٢٦ و١٨٣٠. وقد احتلت مطبعة الكتاب المقدس الجناح الغربى، بينما احتلت المطبعة العلمية الجناح الشمالى، وتم توحيد المطبعتين تحت إدارة واحدة سنة ١٨٨٣. وقد ذاعت شهرة مطبعة جامعة اكسفورد فى القرن التاسع عشر، وجاء جانب من هذه الشهرة من استخدام **ورق أكسفورد الهند**، ومن خلال سلسلة الكتب الدراسية التى توفرت عليها مطبعة كليرندون وعلى الأخص بعد إصدار قاموس أكسفورد الجديد.

---

(1) Clarendon: History of the Rebellion.

أما ثانى المطابع الإقليمية فى إنجلترا فقد أقيمت فى سانت أولبانز. وقد طبعت هنا ثمانية كتب مجهولة الطابع، وإن كنا قد وجدنا إشارات مرجعية إلى «وينكن دى ويرد» سابق الذكر على أنه «كان لبعض الوقت ناظر مدرسة فى سانت أولبانز»[١] وكان أول كتاب طبع هنا غير مؤرخ ولكن يرجح أنه طبع سنة ١٤٧٩ وكان للمؤلف «أوغسطينوس داتوس»[٢]. وقد وردت فى حرد متن هذا الكتاب صراحة أنه طبع فى سانت أولبانز[٣]. وكان أول كتاب مؤرخ طبع هنا هو كتاب «البلاغة الجديدة» لمؤلفه «لورنتوس دى ساؤونا»[٤] المطبوع سنة ١٤٨٠م، وقد جاء بعد هذا الكتاب أربعة كتب باللاتينية. ولعل أحسن كتابين صدرا هنا طبعة كتاب «حوليات إنجلترا» وقد سبق ذكره، حيث زخرفت أولياته بالأحمر ووضعت دروع سانت أولبانز فى علامة الطبع، وكتاب «كتاب سانت أولبانز»[٥] الشهير الذى ربما يكون قد كتبته السيدة «جوليانا بيرنر»؛ وقسمته إلى مجموعة أقسام عن الصيد والبيزرة و التطاعن بالسلاح. وهذا الكتاب الأخير من القطع الصغير ويقع فى تسعين ورقة ويضم أول نماذج من صور ملونة عرفتها إنجلترا. وقد طبعت الأوليات وصور الدروع التى بلغت ١١٧ صورة فى قسم الرنوك بالأحمر والأزرق والأصفر والأخضر الزيتونى.

وعندما أقفلت هذه المطبعة أبوابها سنة ١٤٨٦ لم تعد هناك طباعة فى تلك المدينة «سانت أولبانز»[٦] بناء على طلب «روبرت كاتون» أب الدير هناك. وربما كانت مطبعة هيرتفورد قد قامت داخل الدير نفسه، لأنه طبع فى سنة ١٥٣٦ كتاب آخر كتبه «جون جوينث» الراهب فى الدير[٧]. وقد طبع أيضاً ثلاثة كتب بناء على طلب «ريتشارد ستيفيناج» آخر آباء دير سانت أولبانز. ويبدو أنه طبع فى

(1) "Sometyme Scole master of Saynt Albans"
(2) Auguslinus Datus. Super Eleganciis Tullianis.
(3) "Apud Sanctum Albanum" (At St. Albans).
(4) Laurentius de Saona. Rhetotica Nova.
(5) (Dame) Juliana Berners Boke of St. Albans.
(6) Lydegate. Lyfe and Passion of Seina Alban.
(7) John Gwynneth. Confutation of Friths Book.

سنة ١٥٣٩ كتاباً غير أرثوذكسى مما أسخط عليه السلطات وعوقب بالنفى إلى لندن، ومن ثم أقفلت المطبعة أبوابها.

وفى يورك لم تبدأ الطباعة إلا فى القرن السادس عشر، ولعل أول من أدخلها هناك كان «هوجو جوز» الذى طبع فى سنة ١٥٠٩ - ١٥١٠ طبعة من كتاب «الدليل المقدس»(١) الذى استخدم فيه حرفاً استخدمه من قبل وينكن دى ويرد. وينسب إليه أيضاً طباعة كتابين آخرين أحدهما دوناتوس الصغير [فى النحو](٢) وثانيهما: علم الصرف(٣)، ولم تصلنا منهما أية نسخ. أما ثانى الطابعين فى يورك فقد كان «أورسين ملنر» الذى طبع ثلاثة كتب أحدهما عن مريم العذراء سنة ١٥١٣م(٤) وملحق الصلوات غير مؤرخ(٥)، والنحو اللاتينى سنة ١٥١٦ لمؤلفه «روبرت ويتنتون»(٦). ومن الجدير بالذكر أن كتاب مريم العذراء لم تصلنا منه نسخ.

ولم تدخل الطباعة إلى كامبردج هى الأخرى إلا فى مطلع القرن السادس عشر، وبدأت على يد «جون لير»، وهو مواطن ألمانى من سيجبورج بالقرب من كولون. وقد جاء إلى كمبردج قبيل أوفى سنة ١٥٢٠ تحت اسم «جون سبيرش». وفى سنة ١٥٢٠ أو ١٥٢١ أقرضته الجامعة عشرين جنيهاً لإنشاء مطبعة. وقد طبع عدداً من الكتب بين ١٥٢١ و١٥٢٢ وصلتنا عينات من تسع منها، ثمانية فى نسخة كاملة والتاسع مجرد قطع فقط. والكتاب الأول عبارة عن خطبة ألقاها «هنرى بولوك» عندما زار الكاردينال «وولس» الجامعة سنة ١٥٢٠؛ وقد أرخ هذا الكتاب لسنة ١٥٢١ واستخدم فى طباعته حرف رومانى جديد. والكتاب الثانى من تأليف «أوغسطين» عن العقيدة المسيحية(٧) وكان أول مطبوع فى إنجلترا يستخدم فيه الحرف اليونانى.

---

(1) Directorium Sacer dotum.
(2) Dandtus Minor.
(3) Accidence.
(4) Festum Visitationis Beate Marie Virginis.
(5) Breviary Supplement.
(6) Robert Whittinton. Latin Grammer.
(7) Augustine. Cuiusdam Fidelis Christiani Epistila ad Christianos Omnes.

ولا نعلم ما إذا كان «سبيرش» قد استمتع بالطبع الرسمى لدى جامعة كمبردج أم لا، ولكننا نعلم أنه بعد تركه للجامعة لم يخلفه أحد فى العمل مباشرة. ورغم أن الجامعة كانت قد حصلت مثل جامعة أكسفورد على وثيقة من الملك «هنرى الثامن» بإدارة مطبعة سنة ١٥٣٤م إلا أن الطبع بالجامعة توقف طيلة خمسين سنة حتى ١٥٨٣ حين أقام توماس توماس مطبعة فى الجامعة؛ وكان عمله هناك محفوفًا بالمصاعب؛ ففى البداية صادرت شركة الوراقين مطبعته بحجة أنه كان يحذف امتيازات وحقوق تلك الشركة، ولكن الجامعة اعترضت نيابة عنه وأبرزت وثيقة ١٥٣٤. ورغم أن الشركة أعادت له مطبعته إلا أنها كانت تزور كل كتاب كان يحصل على حق طبعه. ولكنه مع ذلك استطاع فى خلال خمس سنين بين ١٥٨٣ و١٥٨٨ سنة وفاته، طبع عشرين كتابًا، وكان أنجح كتبه القاموس اللاتينى الذى طبعة سنة ١٥٨٧ والذى طبع منه العديد من الطبعات. وقد خلفه فى مطبعة الجامعة «جون ليجيت» الذى واجه هو الآخر مصاعب جمة فى علاقته مع شركة الوراقين فى لندن ولكنه طور علاقته فى النهاية بها لدرجة أنه أصبح رئيسًا لها سنة ١٦٠٤. وتطور عمله كثيرًا فى مطبعة الجامعة.

وفى تافيستوك لم تبدأ الطباعة إلا سنة ١٥٢٥ حين أنشئت مطبعة ديرية بدأت فى تلك السنة بطبع «كتاب الخلاص»[1] وهو الترجمة الإنجليزية لكتاب بوثيوس[2]. وكان الطابع فى تلك المطبعة هو «توماس ريتشارد» الراهب فى الدير وقد طبع هذا الكتاب لحساب شخص يدعى «روبرت لانجدون» فى كيفيرل وهو من الأثرياء، ويظهر الدرع الخاص به فى نهاية الكتاب. ورغم أن المطبعة طبعت تسعة كتب إلا أننا لا نعرف منها سوى الكتاب سابق الذكر وكتابًا ثانيًا عبارة عن وثيقة صادرة للسكان فى مقاطعة ديفونشاير[3].

وفى أبنجدون دخلت الطباعة سنة ١٥٢٨ على يد «جوهان سكولار» الذى

(1) Boke of Comfort.

(2) Boethius. De Consolarione Philosophiae.

(3) Confirmation of the Charter Perteyninge to All the Tynners within the County of Devonshire.

كان لفترة طابعاً فى أكسفورد على النحو المشار إليه، حيث طبع كتاب «الصلوات اليومية»[1] لحساب دير البندكتيين فى سانت مارى. ولم تصل إلينا سوى نسخة واحدة من هذا الكتاب؛ وهى مطبوعة على عمودين بالأحمر والأسود وتشتمل على بعض الأوليات العجيبة المأخوذة من كتل الخشب.

ولم تدخل الطباعة إلى إبسويتش إلا سنة ١٥٤٧م، وكان أول كتاب طبع هناك هو ذلك الكتاب المعنون: «سجل أو حساب كل السنين من بداية العالم حتى سنتنا الحالية وهى سنة ١٥٤٧م»[2] وقد طبعه «أنتونى سكولوكر» الذى نشر أيضاً مجموعة من الكتب الصغيرة من قطع الثمن بنط ألمانى قبل أن ينتقل إلى لندن سنة ١٥٤٨. وكان ثانى طابع فى إبسوتش يدعى «جون أوفرتون»؛ وحيث نص حرد المتن صراحة فى كتاب «فهرس الكتّاب البريطانيين»[3] الذى أعده بيل والذى نشر سنة ١٥٤٨ على أن الطبع تم على يد «أوفرتون» فى إبسويتش. وثمة نسخ أخرى من هذا الكتاب ذكر على صفحة عنوانها أنها طبعت فى ويزل. وربما بسبب عدم وجود كتب أخرى طبعها أوفرتون هنا فربما كان البيان الوارد فى حرد المتن مزوراً حتى يجنب الرجل مغبة الوقوع تحت طائلة القانون الذى يمنع استيراد الكتب من الخارج. وكان ثالث طابع فى إبسويتش وأهمهم جميعاً هو «جون أوسوين» الذى طبع فى النصف الأخير من سنة ١٥٤٨م عشرة كتب قبل أن يترك إبسويتش إلى ووركستر.

وفى ووركستر استطاع جون أوسوين عقب وصوله إليها بوقت قصير، أن يؤمن عقد احتكار بطباعة كتب الخدمة فى الكنيسة وكتب الصلاة وغيرها من الكتب الدينية. وكان أول كتبه الهامة هنا كتاب الصلاة الذى طبعة سنة ١٥٤٩، جاء بعده فى نفس السنة كتاب المزامير ثم العهد الجديد سنة ١٥٥٠. وبين ١٥٥٠ و١٥٥٣ طبع عدة كتب دينية أخرى. وبعد تلك السنة لم نعد نسمع عنه.

---

(1) Breviary.

(2) The Just Reckennynge on Accompt of the Whole Nombre of yeares from the Beginning of the Worlde unto this Presenr yeare of 1547.

(3) Bale. Catalogue of British writers.

أما فى كانتربرى فقد دخلت الطباعة على يد «جون ميشيل» الذى بدأ الاشتغال بالطباعة فى لندن ثم انتقل إلى كانتربرى سنة ١٥٤٩. وكانت أول أعماله هناك طبعة من المزامير لم تصلنا منها سوى نسخة واحدة؛ أعقبتها عدة كتب دينية صغيرة. وقد بلغ عدد الكتب التى طبعت فى هذه المدينة أحد عشر كتابا بين ١٥٤٩ و١٥٥٦م.

ودخلت الطباعة إلى نورويتش سنة ١٥٦٦ على يد رجل هولندى يدعى «أنتونى دى سوليمن» الذى أسس فى تلك السنة مطبعة طبع عليها عدة كتب بالهولندية ليبيعها للاجئين الهولنديين هناك. والكتاب الوحيد الذى طبعه بالإنجليزية هو: «بعض أشعار توماس بروك»[1] المؤرخ فى سنة ١٥٧٠م. وقد استمر دى سوليمن فى عمله حتى ١٥٧٩.

ولقد وجد فى إنجلترا بعض مطابع سرية تطبع كتبًا غير شرعية ـ أى غير مرخص بها ـ خلال القرن السادس عشر خاصة، وقد عرفت هذه الكتب بأنها تحرض على الفتنة. ومن بين تلك المطابع مطبعة استرود، ومطبعة ماربريليت التى كان يملكها «روبرت والدجريف». وكان والدجريف فى الأصل طابعًا فى لندن وعضوًا فى شركة الوراقين، وسجن مرتين لطباعته كتب طائفة البيوريتان (المتطهرين) المحظورة آنذاك ودمرت مطبعته. وبعد ذلك اضطر بالانتقال بمطبعته من مكان إلى مكان أن يطبع رسائل «مارتين ماربريليت»[2] ووصل إلى مرحلة الخطر مما اضطر السلطات إلى دفعه إلى خارج البلاد. ووصل إلى أدنبرة سنة ١٥٩٠، وفى نفس السنة عينه الملك «جيمس السادس» طابعًا ملكيًا لاسكتلندة. وعند أصبح جيمس السادس ملك إنجلترا سنة ١٦٠٣ عاد والدجريف إلى لندن، ومات فى السنة التالية.

* * *

وفى اسكتلندة دخلت الطباعة سنة ١٥٠٨ حيث منح الملك «جيمس الرابع»،

(1) Thomas Brooke. Certayne Versis Written by Thomas Brooke.

(2) Martin Marprelare Tracts.

فى السنة التى سبقت ترخيصًا بحق طبع «كتاب أبردين فى الصلاة اليومية»[1] وامتياز فتح مطبعة لكل من «والتر شبمان» و «أندرو ميللر». وكان شبمان تاجراً من إدنبره، وصديقًا للملك الذى كثيرًا ما استخدمه ككاتب لرسائله الملكية وكحامل للأختام الملكية. وكان ميللر هو الآخر من اسكوتلندة وكان تاجر كتب للملك وقد تدرب على أعمال الطباعة فى رووين. وقد تشارك الاثنان فى إنشاء المطبعة: شبمان برأس المال و ميللر بالمجهود. وأنشئت المطبعة فى الجزء الجنوبى من إدنبره. وفى ربيع سنة ١٥٠٨ كانا قد طبعا عدة روايات رومانسية وعدداً من الكتب العامة الصغيرة حيث اكتشف منها أحد عشر عملاً فى مجلد واحد سنة ١٧٨٥ موجودة الآن فى مكتبة اسكوتلندة الوطنية، وهى مطبوعة بالحرف الأسود، تسعة منها بحرف واحد واثنان بنوع آخر من الحروف. وقد انتهى الفراغ من المجلد الأول من «كتاب صلاة أبردين اليومية» فى الثالث عشر من فبراير، والثانى فى الرابع من يونية سنة ١٥١٠. ولم يصلنا من هذا العمل سوى أربع نسخ فقط كلها بها نواقص. وهى مطبوعة بحرف أسود صغير، والحروف الكابيتال هى حروف لومباردية مطبوعة بالأحمر. وعلى الرغم من أن الكتاب يذكر صراحة أن طابعه هو شبمان، ولكن يحتمل أن يكون ميللر هو الذى أشرف على الطبع أو ربما يكون قد مات أو أنهى شراكته مع شبمان فى ذلك الوقت. وقد استمر شبمان فى الطبع بمفرده. ورغم أنه لم تصلنا نسخ فردية من عمله إلا أن السجلات تكشف عن أنه استمر يعمل فى طبع الكتب المدرسية وكتب الخدمة فى الكنيسة بعد ذلك التاريخ.

فى إحدى النسخ الأربعة التى وصلتنا من كتاب أبردين جلدت مع المجلد الأول ثمانى ورقات ليست منه، طبع عليها عملان صغيران «مقام سيدتنا سيدة الرحمة»[2]، «أسطورة مخلفات القديس أندرو»[3]. وفى حرد المتن ذكر أن الطبع تم فى إدنبره على يد «جون استورى» لحساب «تشارلز ستول».

---

(1) Aberdeen Breviary.

(2) The Office of Our Lady of Piry.

(3) The Legend of the Advent of the Relics of St. Andrew.

ويبدو أن الطباعة قد توقفت فى اسكوتلندة بعد ذلك وحتى سنة ١٥٤١ - ١٥٤٢ حين عين «توماس ديفيدسون» المواطن من إدنبرة طابعًا لوقائع البرلمان فى عهد جيمس الخامس، التى حملت عنوان «الوقائع الجديدة والقوانين للبرلمان . . . ١٥٤٠»[١] وكان العمل عبارة عن ٢٧ ورقة من القطع الكبير ويحمل لوحة للدروع الملكية الاسكوتلندية مأخوذة من كتل الخشب على صفحة العنوان. وهناك عدد من الصور الصغيرة التى تناثرت داخل النص، مع صورة كبيرة لعملية صلب المسيح فى آخر صفحة. ومن الواضح أن دافيدسون كان يعمل فى الطباعة قبل هذا التاريخ حيث وصلنا بعض قطع غير مؤرخة من إنتاجه. وقد وصلتنا من وقائع البرلمان نسختان فقط كلاهما على رق.

والطابع الثانى فى اسكوتلندة هو «جون اسكوت» الذى يبدو أنه اشتغل بالطباعة فى لندن قبل مجيئه إلى إدنبرة سنة ١٥٣٩. وربما يكون هو طابع بعض الأعمال غير المشروعة التى فيها قذف وتشهير والتى صدرت فى دندى سنة ١٥٤٧. ولكن أول كتاب معروف لنا هو طبعته من كتاب الأسقف هاملتون «عن العقيدة»[٢]. وهذا الكتاب يقع فى ٢٢٠ ورقة من قطع الربع، وطبع بالحرف الأسود مع عناوين الفصول بالحرف الرومانى. وهذا الكتاب صدر فى سانت أندروز سنة ١٥٥٢م، ورغم عدم ذكر الطابع فيه إلا أنه يرجح أنه من طباعة سكوت. وقد طبع بعد هذا الكتاب وقائع أخرى للبرلمان وعدد من الكتب الدينية. وفى سنة ١٥٦١ أتهم بأنه طابع الكتاب البروتستانتى «اعتراف العقيدة»[٣] وفى سنة ١٥٦٢ بعد التحقق من أنه طابع كتاب «ننيان ونزت»: «آخر دقات الطبلة»[٤] قبضت عليه سلطات إدنبرة وسجنته، وتوقف عن الطبع حتى ١٥٦٧ - ١٥٦٨؛ حين طبع كتاب سير «دافيد لندساى» لحساب «هنرى تشارتريس» وبعدها

(1) The New Actis and Constitutionis of Parliament ... 1540.

(2) Catechism of Archbishop Hamilton.

(3) Confessioun of Faith.

(4) Niniane Winzet. Last Plast of the Trompet.

استمر يطبع فى سانت أندروز و إدنبرة على السواء، وقد وزع نشاطه بين المدينتين حتى وفاته سنة ١٥٧١م أو بعدها بقليل.

ومن المعاصرين للطابع سكوت كان «روبرت ليكبرويك» الذى يحتمل أن يكون قد تعلم الصنعة من سكوت بل ربما من ديفيدسون. وفى سنة ١٥٦١ طبع فى إدنبره عدداً من الكتب للدفاع عن حركة الإصلاح، ومن بينها طبعة من كتاب «اعتراف العقيدة» سابق الذكر. وفى سنة ١٥٦٤ حصل على امتياز طبع وقائع الملكة مارى، ومزامير داود داخل نطاق اسكوتلندة. وفى عام ١٥٦٧ ـ ١٥٦٨ عين الطابع الملكى مع ترخيص احتكار طبع مجموعة من الأعمال الهامة بما فى ذلك نحو دوناتوس، وقائع البرلمان، طبعة جنيف من الكتاب المقدس بالإنجليزية. وفى خلال السنوات الثلاث التالية طبع نحو خمسين كتابًا، ولكن فى سنة ١٥٧١ أدين بتهمة الطبع لرجال الملك واضطر إلى مغادرة إدنبره إلى ستيرلنج حيث إقامة الطفل جيمس السادس. وهنا طبع كتابين على الأقل، ومن ثم يكون أول طابع فى ستيرلنج. ومن ١٥٧٢ إلى ١٥٧٣ طبع الكتب فى سانت أندروز؛ وعاد إلى إدنبرة سنة ١٥٧٣ ولم يلبث أن قبض عليه سنة ١٥٧٤ وسحب منه ترخيص الطبع وسجن؛ وعفى عنه وأطلق سراحه ١٥٨١ أو قبلها بقليل، وهى السنة التى ظبع فيها عدة كتب قليلة قبل أن يختفى تماماً من على مسرح الطباعة.

وفى سنة ١٥٧٤ ـ ١٥٧٥ تقدم طابعان هما «توماس باساندين» و«ألكسندر أربوثنوت» بطلب إلى الجمعية العمومية يلتمسان فيه طبع الكتاب المقدس فى اسكوتلندة مع احتكار بيع هذا الكتاب لهما وحدهما دون تاجر الكتب «لكبرويك» على أن يكون معلومًا أن كل الأبرشيات سوف تشترى هذا الكتاب من الطابعين بسعر متفق عليه هو: ٤ جنيه و١٣ شلنًا و ٤ بنسات للنسخة. وقد تمت الموافقة على هذا العرض وحصل الطابعان على صك الامتياز سنة ١٥٧٦. وطبع المجلد الخاص بالعهد الجديد أولاً وصدر سنة ١٥٧٦ تحت علامة وبيانات طبع باساندين ولم يلبث باساندين أن توفى ١٥٧٧ ولم يطبع العمل بالكامل إلا سنة ١٥٧٩. وقد حملت صفحة العنوان اسم أربوثنوت كطابع للعمل. وقد طبع

هذا الكتاب المقدس بالقطع الكبير وبالحرف الرومانى الكبير للنص والحرف الرومانى الصغير فى الهوامش. وكل صفحة عنوان طبعت عليها الدروع الملكية الإسكتلندية المأخوذة من كتل الخشب، كما وضعت صور داخل العهد القديم مأخوذة هى الأخرى من كتل الخشب.

وفى اسكوتلندة أيضًا نشط «جون روس» فى الفترة من ١٥٧٤ وحتى ١٥٨٠، وقد طبع أحد الكتب[1] لحساب هنرى تشارتريس تاجر الكتب الذى سبق ذكره والذى لم يصلنا منه سوى نسخة واحدة.

وفى سنة ١٥٨٠ دعت الجمعية العمومية الاسكتلندية «توماس فوترولبير» الطابع- تاجر الكتب فى لندن لإقامة مطبعة فى إدنبرة تحت رعايتها؛ ولكنه بعد فترة فى إدنبرة لم يجد رواجًا لبضاعته فقفل عائداً إلى لندن بعد أن طبع ثمانية كتب هناك فى إدنبرة.

وكان آخر الطابعين المجيدين فى اسكوتلندة خلال القرن السادس عشر هو روبرت والدجريف ـ سابق الذكر ـ والذى عين طابعًا للملك جيمس السادس بين ١٥٩٠ و١٦٠٣.

* * *

وفى أيرلندا دخلت الطباعة فى منتصف القرن السادس عشر حين أقام «همفرى بوول» أولَ مطبعة فى دبلن سنة ١٥٥١، وكان بوول يعمل طابعًا فى لندن. وقد منحه الملك «إدوارد السادس» منحة قدرها عشرون جنيهًا لإقامة المطبعة. وكان أول كتاب طبع هناك «كتاب إدوارد السادس فى الصلاة» الذى صدر سنة ١٥٥١. ويقال أن بوول استمر يطبع فى دبلن حتى سنة ١٥٦٦.

وفى سنة ١٥٧١ قدمت الملكة إليزابث قوالب أول حرف أيرلندى إلى «جون أوكيرنى»، أمين صندوق سانت باتريك لاستخدامها فى طباعة كتاب تعليم العقيدة، وهو الكتاب الذى ظهر فى نفس السنة وكان طابع هذا الكتاب هو

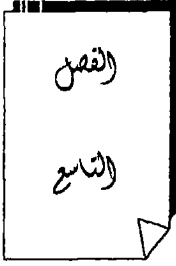
(1) The Seuin Seages.

«جون فرانكتون». وفى سنة ١٦٠٤ عين فرانكتون طابعًا ملكيًا مدى الحياة. ولكن بعد خمسة عشر عامًا باع هذا الاحتكار لثلاثة من أعضاء شركة الوراقين فى لندن؛ ثم آلت هذه الحقوق بعد ذلك إلى «ويليام بليدين» سنة ١٦٤١ . . وبهذا أنهى احتكار أهل لندن للطباعة فى أيرلندا.

* * *

أما فى ويلز فقد كان أول كتاب يطبع بلغة الويلش مطبوعًا فى لندن على يد «جون ويلى» سنة ١٥٤٧، وكان هذا الكتاب قاموساً بالانجليزية والويلزية من تأليف «وليام سالزبوريى» وكان من القطع الصغير المطبوع بالحرف الأسود والحرف المائل. وقد أتبع هذا القاموس بعدد من الكتب بلغة الويلش لطابعين مختلفين من ووركستر وحتى شروزيرى. وفى حدود معلوماتنا لم تنشأ مطبعة فى ويلز نفسها حتى سنة ١٧١٨، حين أقام «إسحق كارتر» مطبعته فى تريدين. وكانت أولى قطعه المطبوعة قصتان من القصص الشعرية (بالاد). ولم يصلنا إلا نسخة واحدة من كل منهما. وهما موجودتان الآن فى المكتبة الوطنية فى ويلز.

* * *



المطابع الشخصية والرسمية

منذ يوحنا جوتنبرج وحتى الآن، كان الطابعون والناشرون الذى أنشأوا منشآت الطباعة والنشر على النحو الذى بسطناه سابقاً، يهدفون إلى الربح والترزق والتعيش من وراء هذا النشاط. ومن هذا المنطلق قاموا باستثمار أموالهم وجهودهم فى المطابع والورق والمطبوعات. وقد جرت محاولات عديدة خلال تلك العقود إلى جعل صناعة الكتاب وتجارة الكتب عملية غير ربحية لدرجة أن أعلنت بعض الجماعات أن دافع الربح هو الخطيئة الثامنة القاتلة.

وفى كثير من الأحيان كان الساعون وراء هذه المشروعات غير الربحية يهدفون إلى كسر احتكار هذه التجارة، وتحطيم أسعار الكتب وخدمة جمهور لم تلتفت إليه المطابع ودور النشر التجارية. من هذا المنطلق مثلاً قامت **جمعية تشجيع العلم**[1] سنة ١٧٣٦ ولكنها استسلمت لدافع الربح بعد اثنتى عشرة سنة. ومن هذا القبيل أيضاً ما قام به الدكتور «جون ترسلور» وهو مناضل مكافح فى مجال اللاهوت والطب والصحافة والطباعة ومصمم حروف طباعية حيث حاول عمل ثورة داخل تجارة الكتب فأنشأ فى سنة ١٧٦٥م **الجمعية الأدبية**[2] التى هدفت إلى طبع الكتب على حسابها الخاص ومنح المؤلفين كل الأرباح الناتجة عن بيع كتبهم. ولم تفقد فكرة أن جمهور القراء أو المؤلف أو كليهما يمكن أن يكونا أفضل بدون وساطة الناشر بينهما.

لم تفقد هذه الفكرة جاذبيتها قط لدى المصلحين فى أوربا فقامت «**جمعية نشر المعرفة النافعة**»[3] لتحقيق أهداف مماثلة ونجحت إلى حد كبير فى

(1) Society For the Encouragement of Learning, 1736.

(2) Literary Society, 1765.

(3) The Society For the Diffusion of useful Knowledge.

مشروعيها «**مجلة المليم**»[1] ١٨٣٢ - ١٨٤٥ و«**موسوعة المليم**»[2] ١٨٣٣ - ١٨٤٤، ويعزو البعض هذا النجاح إلى حماس الناشر الذى نشرهما لحساب الجمعية وقناعته؛ هذا الناشر هو «تشارلز نايت». وتعتبر نوادى الكتب الحديثة هى وريثة هذه الجمعيات.

وكان النشر عن طريق الاشتراكات هو الآخر طريقة أخرى لاستبعاد وتجنب وساطة الناشر بين المؤلف والقارئ، ولجعل الربح يتدفق مباشرة إلى جيب المؤلف. ويبدو أن هذه الطريقة ظهرت إلى الوجود مبكراً فى مطلع القرن السابع عشر. ومن الأمثلة على ذلك اللغوى البريطانى الشهير فى لندن «جون منشيو» الذى **نشر قاموسه متعدد اللغات**[3] سنة ١٦١٧ بطريقة الاشتراكات وكذلك قام معاصره جون تيلور «شاعر الماء» بنشر دواوينه بنفس الطريقة. وقد بلغت هذه الطريقة قمة اتساعها فى القرن الثامن عشر، حيث كانت الأعمال الضخمة المستفيضة يتم نشرها بهذه الطريقة، وعلى سبيل المثال ترجمة الإلياذة والأوديسة لهوميروس فى إنجلترا وألمانيا فقد نشرتا بهذا الأسلوب. وقد حققت الترجمتان نجاحاً كبيرا للمترجم الناشر، فقد حقق «بوب» دخلا قدره ٥٣٢٠ جنيهاً استرلينياً من ترجمته الإنجليزية للإلياذة سنة ١٧٢٠م؛ وحقق «فوس» الألمانى ١٢٤٠ اشتراكاً لترجمته الألمانية للأوديسة سنة ١٧٨١.

ومع هذا فقد كان النشر خارج الطريقة الربحية يتم عن طريقة المطابع الرسمية والشخصية. والمطابع الرسمية تمثلت غالباً فى المطابع الجامعية والمطابع الحكومية؛ والمطابع الشخصية تمثلت فى مطابع الأفراد أو الجماعات الخاصة. وفى كلتا الحالتين فإن أصحاب هذه المطابع يطبعون الكتب التى تفى بالتزاماتهم السياسية أو البحثية أو الدراسية أو الشخصية. والاعتبارات الربحية هنا لا تلعب إلا دوراً هامشياً.

(1) Penny Magazine, 1832 - 1845.

(2) Penny Cyclopedia, 1833 - 1844.

(3) Guide to [eleven] Tongues, 1617.

ولقد بدأ إنشاء المطابع الرسمية بصورة واضحة مع النصف الثانى من القرن السادس عشر. وكانت أولى المطابع من هذا النوع هى تلك التى أنشأها فى جامعة السوربون كل من «فيشيه» و «هنلين» على النحو الذى شرحته فى معالجتى للمطبعة فى فرنسا. وكان ذلك سنة ١٤٧٠، وفى جامعة القلعة (الكالا) فى أسبانيا على يد الكاديناد زيمنس سنة ١٥٠٨ ولم يستمر هذا المد طويلاً ومتصلاً.

وقد استدعى البابا «بيوس الرابع» «بول مانتيوس» ابن «ألدوس مانتيوس» إلى روما سنة ١٥٦١ ليعمل مستشاراً فنيا للمطبعة التى اعتزم البابا جعلها أداة دعاية وترويج للكاثوليك. ولأن «بول» كان يفتقر إلى الخبرة والحنكة التى تمتع بها أبوه فإنه لم ينجح كثيراً فى تحقيق ما أراده البابا **لمطبعة الفاتيكان**[1]، وهو ما قام به العبقرى «سكستوس الخامس» الذى وضع المطبعة البابوية على الطريق الصحيح فالمنشور البابوى المؤرخ فى ٢٢ من يناير ١٥٨٧ هو الذى أدى حقيقة إلى إنشاء «مجامع الكراولة» ومن ثم إلى قيام حكومة الكنيسة فى روما. وعهد إلى أحد أجهزة هذه الحكومة بإدارة مطبعة الفاتيكان. وقد رأس هذا الجهاز ألدوس مانتيوس (الأصغر) ابن بول وكان أول ثمرات هذه المطبعة **الكتاب المقدس اللاتينى**[2] المنقح. ويقال أن سكستوس نفسه قرأ بروفات هذا الكتاب وتدخل فى الترجمة تدخلاً كبيراً وأعلن أن هذه الطبعة هى الوحيدة المعتمدة، ولكن بعد وفاته أدان أعداؤه هذه الطبعة. وفى سنة ١٥٩٢ قامت لجنة أخرى بإعداد ترجمة جديدة للكتاب المقدس وطبع تحت عنوان **«الكتاب المقدس اللايتينى كليمنتاين»**[3] الذى ما يزال حتى اليوم الكتاب المقدس الرسمى لدى الكاثوليك الرومان.

وفى سنة ١٦٢٢ أنشئت **إدارة مخصوصة للدعاية**[4] وتوفرت فى سنة ١٦٢٦ على إنشاء مطبعة خاصة لها[5] قامت بطبع الكتب الموجهة فقط لأغراض التبشير

---

(1) Stamperia Vaticana, Vatican Press.
(2) Vulgate [Bible].
(3) Clementine Vulgate.
(4) Congregatio de Propaganda Fide.
(5) Typografia della Congregazione de Propaganda Fide.

ولهذا سبكت لها حروف تقريباً بكل اللغات. وكان أول مدير لهذه المطبعة - «ستيفانو باولينو» مصمم حروف من الطراز الأول. وقد وضع نفسه قلباً وقالباً فى العمل الجديد وقد اشتمل كتاب العينات الذى وضعه سنة ١٦٢٨ على حروف عشرين لغة آسيوية وإفريقية كان زملاؤه يجهلون حتى أسماءها. ومع نهاية القرن الثامن عشر كان عدد الأبجديات قد ارتفع فى هذه المطبعة إلى نحو أربعة وأربعين. وفى هذه المطبعة تدرب «جيمامباتستا بودونى» سابق الذكر على أعمال الطباعة. ولكن كوادر الثورة الفرنسية خربوا هذه المطبعة وحملوا كل ما فيها من قوالب وأبناط وحروف ومسابك سنة ١٧٩٩ و١٨١٢ إلى فرنسا وقدموها إلى المطبعة الوطنية الفرنسية وما تزال هناك حتى اليوم «لإثراء فرنسا»[١].

والمطبعة الوطنية الفرنسية هى فى حقيقة الأمر أقدم المطابع العلمانية التى ما تزال قائمة منذ إنشائها. وقد تطورت هذه المطبعة عن مطبعة الملك الشخصية والتى حولها الملك «لويس الثالث» عشر إلى مطبعة ملكية سنة ١٦٤٠[٢]. وقد انعكست هذه النشأة الملكية على فخامة المطبوعات التى مازالت عليها المطبعة حتى اليوم[٣].

أما مطابع الجامعتين الإنجليزيتين القديمتين فإنها ترجع إلى عهد الملكة إليزابث الأولى: كمبردج سنة ١٥٨٣؛ أكسفورد سنة ١٥٨٥، رغم أن هذين التاريخين لايتفقان أبداً مع التاريخ الممتد والمعقد لهاتين المؤسستين. وفى سنة ١٧٠٠ قاد «ريتشارد بنتلى» جامعة كمبردج إلى تجربة نشر فاشلة مالية، ولذلك توقفت تجربة النشر حتى سنة ١٨٧٢م. والحقيقة أن تجربة كلتا الجامعتين فى الطبع والنشر أصبحت النموذج الذى تحتذيه مطابع الجامعات الأخرى حتى فى الولايات المتحدة. ومهما يكن من أمر فإن الإنجازات الطباعية العظيمة التى حققتها الجامعتان، هى إنجازات حديثة العهد ترجع إلى تاريخ تعيين كل من «بروس روجرز»، و«التر لويس»، «ستانلى موريسون» فى كامبردج و «هوراس هارت»، «جون جونسون» فى أكسفورد.

(1) "Pour Enricher La Fnance.
(2) Imprimeyie Royale.
(3) Edition de Luxe.

لقد حاول الدكتور «فيل»، «ريتشارد بنتلى»، «جون باسكرفيل» رفع مستوى الطباعة فى المطابع الجامعية ولكن النجاح الذى حققوه لم يستمر طويلاً.

إننا لا يمكن بحال من الأحوال أن نزعم أن مطابع الجامعات كانت فى يوم من الأيام منافساً للناشر التجارى الذى يهدف للربح، ذلك أن الجانب الأكبر من مطبوعاتها كان ذا صبغة أكاديمية ودراسية بحتة ولم تكن له جاذبية تجارية بين العامة. وربما كان العملان الوحيدان للجامعتين اللتين كانت لهما سوق رائجة بين العامة هما الكتاب المقدس وكتاب الصلاة العامة المتبعة فى الكنسية الإنجليزية. وهما الكتابان اللذان احتكرتهما المطابع الجامعية وطابعو الملكة. وقد رأينا من قبل كيف خصصت مطبعة قائمة بذاتها للكتاب المقدس فى جامعة أكسفورد منذ ١٦٨٨ منفصلة عن المطبعة العلمية، إلى أن ضمهما «هوراس هارت» معاً مرة أخرى سنة ١٩٠٦.

ويتوقف «س. هـ. شتاينبرج» فى كتابه «خمسة قرون من الطباعة» عند حادثة فريدة فى تاريخ مطبعة جامعة أكسفورد، ويشد الانتباه إليها. ذلك أن الإيرل الأول في كلَيرندون ١٦٠٩ ـ ١٦٧٤ ـ وقد أشرت إليه من قبل طويلاً ـ ترك مخطوطة كتاب: «القصة التاريخية الحقيقية للثورة والحروب الأهلية فى إنجلترا»[1] تركها للجامعة التى كان أمينا لها ١٦٦٠ ـ ١٦٦٧. ولقد رأى ابنه أول إيرل فى روشستر هذا الكتاب وهو يطبع فى المطبعة ١٧٠٢ ـ ١٧٠٤ بعد تمرير قانون حق الطبع فأسرع باستصدار أمر خاص من البرلمان باستثناء هذا الكتاب من الطبع العام وقصره فقط على مطبعة أكسفورد، وبهذا حرم السوق العامة من أهم قطعة من قطع التاريخ الإنجليزى. وهو مجرد مثال واحد على الآثار السلبية لعملية احتكار الطبع وقصه على جهة معينة واحدة.

أما المطابع الشخصية وما كان أكثرها فقد كان أصحابها ينشئونها لسبب من ثلاثة:

(1) Edition de Luxe.

أ ـ الرغبة فى إنتاج مطبوعات فاخرة لا يقدر عليها الطابع التجارى.

ب ـ طبع أعمال غير مناسبة لسبب أو لآخر للطابع التجارى العادى.

جـ ـ ركوب فرس الهواية والاستمتاع بالطباعة فى حد ذاتها.

ولا نريد أن نذهب مع ما ذهب إليه الدكتور «دزموند فلاور» من اعتبار التكليف من شخص غنى أو ملك أو أمير بطبع طبعة خاصة لحسابه بمواصفات معينة فى مطبعة تجارية عادية بمثابة طبع خاص أو مطبعة شخصية؛ كذلك لانريد أن نعتبر كتب الاشتراكات أيضاً طبعاً خاصاً أو مطبعة شخصية. فالمطبعة الشخصية يجب أن تكون مملوكة لفرد لسبب من الأسباب الثلاثة المذكورة بعاليه. ومن هذا المنطلق يكون «فون لوهنزن» رئيس مناهج برونزويك فى جبال هارتز فى ألمانيا أول من ملك مطبعة شخصية حيث أقام تلك المطبعة سنة ١٥٩٦ فى زيللرفيلد طبع فيها عدداً من الكتب فى أعمال المناجم والفروسية. وسبق أن ذكرنا أيضاً المطبعة الشخصية الخاصة بالملك لويس الثالث عشر. وقد أصبحت المطابع الشخصية موضة بين الطبقة الأرستقراطية. ومطبعة «مدام بومبادور» الشخصية فى فرساى علامة بارزة فى تاريخ الطباعة كما كانت مزرعة «مارى أنطوانيت» النموذجية علامة بارزة فى تاريخ الزراعة.

وسوف نتوقف فيما يلى أمام بعض المطابع الشخصية فى بريطانيا حيث انتشرت انتشاراً كبيراً فيها لظروف خاصة بهذا البلد. ويذكر «نورمان بنز» أن المطابع الشخصية فى بريطانيا كانت أنجح منها فى أى مكان آخر بل كان لها تأثير عظيم على الطباعة المعاصرة وعلى إنتاج الكتاب بصفة خاصة. وقد عرفت المطابع الشخصية هناك بأنها تلك التى يقيمها شخص ما لإشباع ميول واتجاهات خاصة لديه ولا يهدف من ورائها إلى مشروع تجارى للربح، أو تديرها جماعة صغيرة محدودة وليس شركة عامة، وعادة ما يطبع فى هذه المطابع عدد محدود من الكتب بنسخ قليلة ليست للتوزيع العام فقط بل للتوزيع بين الأصدقاء أو المعارف، وإن بيعت بعض النسخ فإنها تباع فقط بسعر التكلفة والتوزيع هنا يكون

توزيعاً خاصاً ولا يتخذ سبيله إلى منافذ التسويق العامة العادية، وقد يكون عن طريق الاشتراكات. المهم هو الملكية الشخصية للمطبعة والتحكم الشخصى فيما يطبع فيها.

ويقول بنز أيضاً إن المطابع الشخصية فى بريطانيا قامت بشىء من ثلاثة: إما لطباعة الكتب الجيدة التى لا تطبع فى السوق العامة؛ وإما لإنتاج كتب فاخرة الطباعة والصنعة، وإما لطباعة الكتب الجيدة طباعة فاخرة.

ويذكر شتاينبرج أنه كانت هناك فى بريطانيا فى القرن الثامن عشر مطبعتان خاصتان فقط تستحقان الوقوف عندهما. . الأولى هى تلك التى أنشأها «هوراس ولبول» وأدارها فى الفترة من ١٧٥٧ وحتى ١٧٨٩ (وإن كان بنز يرى أنها استمرت حتى ١٧٩٧ كما سنرى فيما بعد) فى بيته الريفى فى ستروبيرى هيل بالقرب من تويكنهام. ولقد بدأت بطبع بعض القصائد الغنائية من تأليف «توماس جريى» نفسه وكتابات سريعة ودرجة ثانية من تأليف ولبول نفسه ولكنه طبع فيها أيضاً الببليوجرافيات الحيوية العظيمة التى قام بها تحت عنوان «المؤلفون والنحاتون الملكيون والنبلاء»[1] والعمل القيم «حكايات من التصوير الزيتى فى إنجلترا»[2] وأهم من هذا كله كتاب «قلعة أوترانتو» سنة ١٧٦٤ التى فتحت الباب أمام قصص الرعب والجريمة الغوطية[3].

والمطبعة الثانية التى توقف عندها شتاينبرج هى مطبعة «وليام بليك» الشخصية ١٧٦٧ ـ ١٨٢٧ والتى طبع فيها بنفسه مجموعة من الكتب الرائعة الفريدة فى طباعتها ومحتوياتها. وكان يرسم ويحفر كل صفحة بنصوصها ورسومها كتلة واحدة على الطراز القديم الذى ظهر فى كتل الخشب فى القرن الخامس عشر، بل وكان يلون الصور بيده. . وهكذا أراد أن يمزج ما كان يفعله خطاط عصر ما قبل الطباعة بما أفرزته تكنولوجيا الطباعة فى عصره. ومما يذكر له أنه حقق

(1) Horace Walpole. Royal and Noble Authors and Engravers.

(2) Anecdotes of Painting in England.

(3) The Castle of Otranto, 1764.

إنجازات طباعية عالية المستوى، ولكنها إنجازات فرد عبقرى أشبع بها هواية شخصية مثلما كان يفعل بأشعاره وقصائده.

يقول بنز أنه باستثناء مطبعة «ستروبيرى هيل» (١٧٥٧ - ١٧٩٧) ومطبعة «دانييل» (١٨٧٤ - ١٩١٩) ومطبعة أو اثنتين آخريين كانت النماذج الأولى للمطابع الشخصية فى بريطانيا، فإن حركة إنشاء المطابع الشخصية اتخذت شكل الظاهرة اعتباراً من سنة ١٨٩١ عندما أنشأ «وليام موريس» مطبعة كيلموسكوت. وهو يقسم المطابع الشخصية منذ ذلك الحين إلى أربع مجموعات:

١ - مجموعة المطابع الشخصية الكبرى. وكانت ثلاثة هى على وجه التحديد: مطبعة كيلموسكوت؛ أشيندين؛ دوفيس. وكل منها كانت تطبع بحروف صنعت لها خصيصاً، وقد بنيت تلك الحروف على أشكال الحروف فى العصور الوسطى.

٢ - مجموعة المطابع من الدرجة الثانية، وهى أقل من المجموعة الأولى ولكنها كانت مع ذلك ذات أهمية خاصة وكانت لها الحروف الخاصة بها التى صممت من أجلها وكانت فى مجموعها تقليداً وتأثراً بما بدأه موريس. ومن أمثلة هذه المطابع: فيل؛ إسيكس هاوس؛ إيراجنى.

٣ - مطابع شخصية إقليمية أنشئت خصيصاً لطباعة كتب لمؤلفين محليين باللغات المحلية. ومن أمثلتها مطبعة كوالا فى أيرلندا ومطبعة جرجيونج فى ويلز.

٤ - مطابع شخصية حديثة نسبياً كان هدفها الرئيسى طبع طبعات فاخرة من الدرجة الأولى من الكتب القيمة. ولم تتقيد هذه المطابع بحرف معين بل حركت بين مجموعة كبيرة من الحروف حسبما وجدته مناسباً لكل كتاب. ومن أمثلة هذه المطابع الشخصية مطبعة نونصتش و مطبعة جولدن كوكريل وغيرهما.

لقد كان لهذا المد الكبير من المطابع الشخصية أثر بالغ من حيث الارتقاء بمستوى الطبع وإخراج الكتب. ونقدم فيما يلى عرضاً لأهم المطابع الشخصية فى بريطانيا لنرى كيف أثرت فى مجريات تاريخ الكتاب فى العصور الحديثة بادئين بأقدمها.

لعل أهم تلك المطابع الشخصية كانت مطبعة ستروبيرى هيل التى ألمحت إليها قبلاً والتى أسسها «هوراس وولبول» وهو رابع إيرل لأكسفورد. ففى سنة ١٧٤٧ استأجر هوراس وولبول فيللا «تشويد سترو هول» فى تويكنهام ثم اشتراها كلية بعد ذلك بعام، ومنذ ذلك الوقت وسع الفيللا وغير فيها بما يتفق مع ذوقه بحيث تحولت إلى ما يشبه القلعة الغوطية، وملأها بالقطع الفنية من كل نوع. وقد أعيدت تسمية الفيللا إلى «قلعة ستروبيرى هيل» أى قلعة تل الفراولة وتم إنشاء مطبعة فى كوخ صغير ملحق بالفيللا فى سنة ١٧٥٧.

وقد استخدم وولبول فى مطبعته الشخصية هذه طابعاً أيرلندياً اسمه «وليام روبنسون» كان سعيداً به جداً فى البداية ولكنه اضطر لطرده لخلاف بينهما سنة ١٧٥٩. وبعده استخدم أربعة من الطابعين على التوالى ولم ينجح فى استخدام طابع يستطيع الاستمرار معه حتى سنة ١٧٦٥ حين استخدم «توماس كيرجيت» وهو طابع ممتاز ظل فى خدمته حتى وفاة وولبول نفسه سنة ١٧٩٧، وقد عمل كيرجيت بأفضل الشروط، وكان إلى جانب الطبع يعمل سكرتيراً لرب العمل.

وكان أول كتاب تصدره هذه المطبعة كما ألمحت سابقاً هو القصائد الغنائية من تأليف «توماس جريى». وكان وولبول قد خطط لأن يكون أول كتاب يطبعه فى المطبعة هو كتاب هنتزر: «رحلة داخل إنجلترا فى ١٥٩٨»[1] ولكنه عندما رأى كتاب جريى أعجب به وطلب منه الإذن له بطبعه فى مطبعته. وكانت أول طبعة من الكتاب تتألف من ١٠٠٠ نسخة كانت النسخة تباع بشلن واحد (!!) وقد أتبع هذا العمل بأعمال أخرى من بينها فهرس المؤلفين الملكيين والنبلاء سابق الذكر فى مجلدين سنة ١٧٥٨، وفهرس النحاتين سنة ١٧٦٣. ومن بين الأعمال الهامة أيضاً «حياة اللورد هربرت من تشيربرى»[2] الذى طبع سنة ١٧٦٤، «ذكريات الكونت جرامونت»[3] سنة ١٧٧٢. وطبع وولبول كذلك عدداً من الكتب الصغيرة فى طبعات محدودة للتوزيع الخاص فقط، كما طبع مطويات

(1) Hentzer. Journey into England in 1598.

(2) Life of Lord Herbert of Cherbury.

(3) Memoirs du Conte Gramont.

وتذاكر زيارة بيته. ومن الأشياء المحببة إلى نفسه أن يلقى الشعر تلقائياً على زوار بيته ثم يقوم بطباعة هذا الشعر فى التو والحال ويوزعه عليهم. ومن الغريب - فيما يذكر بنز - أن يقوم وولبول بإرسال قصته الرائعة التى أشرت إليها من قبل «قلعة أوترانتو» لتطبع فى مطبعة خارجية.

وعلى الرغم من أن مطبعة ستروبيرى هيل قد استمرت فى الطباعة حتى سنة ١٧٩٧م إلا أنها لم تطبع شيئاً مهماً له قيمة بعد ١٧٨٩، وكان إنتاجها بعد تلك السنة ذا مستوى طباعى منخفض متذبذب وذلك بسبب التغير المستمر فى الطابعين، ومع ذلك فقد كان مستوى الطبع عالياً بالنسبة لزمانها. وكانت نماذج جيدة على ذلك الوقت وكانت ملائمة للكتب التى طبعت بها بل وكانت فى بعض الأحيان تبدو أنيقة. وكانت صفحات العنوان جذابة للغاية وتحمل صورة صغيرة لتل الفراولة (ستروبيرى هيل).

وكانت مطبعة ستروبيرى هيل هى أول مطبعة إنجليزية شخصية من أى حجم ظلت تعمل بهمة ونشاط فترة طويلة من الزمن. وبصفة عامة فقد كان إنتاجها جيداً بل فوق المتوسط، وقد جذبت الانتباه بفضل مكانة صاحبها.

لقد أثرت هذه المطبعة العمل الطباعى طوال أربعين عاماً (١٧٥٧ - ١٧٩٧) وإن كان شتاينبرج يقف بإنتاجها حتى ١٧٨٩ فربما كان ذلك لأن ما أصدرته بعد ١٧٨٩ لم يكن على نفس مستوى وأهمية ما صدر قبل ذلك.

ومن المطابع الشخصية الهامة أيضاً مطبعة دانييل التى أسسها «س. هـ. أ. دانييل» (١٨٣٦ - ١٩١٩) وهو ابن المبجل ألفرد دانييل من فروم، سومرست ويقال إنه بدأ الطباعة وهو فى سن التاسعة مستخدماً صفاً واحداً من الحروف التى يحبرها بإصبعه ويكبسها على الورق بيده. وبعد ذلك بفترة قصيرة اشترى مطبعة لعبة، وفى سنة الرابعة عشرة اشترى مطبعة حقيقية صغيرة كانت تباع تحت الاسم التجارى (ألبيون)[1] ظل يطبع بها هو وأخوته حتى ١٨٦٣. وحتى ذلك

---

(1) Albion Press.

الوقت طبع أحد عشر كتاباً فى تلك المنطقة - فروم - إلى جانب عدد من القطع الوقتية الصغيرة.

وفى سنة ١٨٥٨ تخرج دانييل فى كلية ووركستر فى أكسفورد. وفى سنة ١٨٦٣ تم اختياره زميلاً فى الكلية ومن ثم انتقل للعيش فى ووركستر هاوس مما اضطر معه إلى إحضار مطبعة فروم إلى هذا المكان سنة ١٨٧٤، وظل يستخدم هذه المطبعة حتى ١٨٨١م حين استبدلها بمطبعة أخرى جديدة من ماركة «مطبعة هو بكنسون ألبيون المطورة»[1] ظل يطبع بها حتى سنة ١٩٠٦ تقريباً. وكان كل ما يقوم به من عمل طباعى هو مجرد هواية لأنه أصبح بعد زمالة الكلية، أمين صندوق الكلية ثم عميداً لها ثم نائباً للرئيس ثم رئيساً لها.

وفى ١٨٧٦م اكتشف دانييل **حروف فيل** الشهيرة - التى أشرنا إليها من قبل - والتى كانت مهملة مخبأة وغيرمستعملة فى مخازن الجامعة منذ القرن الثامن عشر وطالب سلطات الجامعة السماح له باستخدامها واستخدام حروف باسكرفيل وبعض أبناط الزينة والزخارف الموجودة فى مطبعة جامعة أكسفورد. ومنذ ذلك الحين استخدم كل ذلك فى مطبعته الخاصة وطبع بها عدداً من الكتب. ومنذ ١٩٠٦ وحتى ١٩٢٠ بقيت مطبعة ألبيون فى كلية ووركستر دونما استعمال؛ وبعد سنة من وفاة دانييل ١٩٢٠ أهديت المطبعة إلى مكتبة الجامعة (مكتبة بودلى) حيث استخدمت مرة أخرى فى طباعة «ببليوجرافية مطبعة دانييل»[2] التى أعدها «فالكونر مادان».

لقد توفر دانييل فى أكسفورد على طبع ما يقرب من خمسين كتاباً، لم تحقق ما طبعت منها قبل ١٨٧٦ مستوى كبيراً، ولكن بعد استخدامه حروف فيل بدأ الإنتاج فى التحسن بل وأخرج دانييل أعمالاً ممتازة. وتصور علامته الطباعية دانييل وهو فى عرين الأسد. وكان يساعده فى عمله بالمطبعة زوجته، وابنتاه فيما بعد. وكان يطبع كتبه على ورق عادى حتى سنة ١٨٧٧ وبعدها طبع جميع كتبه

(1) Hopkinson Improved Albion Press.

(2) Falconer Madan. Bibliography of the Daniel Press.

على ورق مصنوع يدوياً من مصانع «فان جلدر» و «هواتمان» و «ألتون» وكان تجليد هذه الكتب يتم فى الأعم الأغلب بالجلود الورقية الكارتون وإن كان بعضها يجلد بالجلد الذى كانت تتوفر عليه زوجته.

وكانت معظم كتب دانييل تطبع للتوزيع الخاص بين الأصدقاء والمعارف. وكانت تطبع عادة فى طبعات محدودة تتراوح نسخها ما بين ١٠٠ إلى ١٥٠ نسخة. ولعل أحسن كتبه فى هذا الصدد كتاب «جارلاند راشيل»[(١)]، وهو مجموعة قصائد لشعراء مختلفين، وقد أصدره احتفالاً بعيد الميلاد الأول لابنته راشيل. ولم يطبع من هذا الكتاب سوى ست وثلاثين نسخة، ثمانى عشرة منها حملت كل منها صفحة عنوان مختلفة وجلدت تجليداً خاصاً بجلد غالٍ لإهدائها إلى كل شاعر له قصيدة فى الكتاب. وفى هذا الكتاب استغل دانييل حروف فيل أحسن استغلال. ومن بين الإنتاج الجيد لهذه المطبعة أيضاً مجموعة كتب «روبرت بردجيز» الذى كان صديقاً شخصياً للطابع.

ومن المطابع الشخصية التى اشتهرت فى نهاية القرن التاسع عشر «مطبعة كيلموسكوت»[(٢)] التى أسسها «وليام موريس» سنة ١٨٩١م وأقيمت فى بادئ الأمر، فى رقم ١٦، السوق العلوى، هامرسميث. وفى سنة تأسيسها كان وليام موريس قد بلغ السابعة والخمسين من العمر وكان مشهوراً بأنه كاتب ومصمم منسوجات وبسط وسجاجيد وورق حائط وأثاث. وكان الذى أيقظ فيه الرغبة والاهتمام بالطباعة صديقه «إمرى ووكر» الذى طلب إليه أن يلقى محاضرة مصورة حول الطباعة فى معرض الفنون والحرف سنة ١٨٨٨. وكان ووكر فى هذه المحاضرة يريد أن يعالج العناصر التى تجعل من الكتاب المطبوع قيمة جمالية متكاملة، وأثناء تحضيره لهذه المحاضرة ناقش الموضوع مع صديقه موريس؛ حيث قاما معاً بفحص عدد كبير من المخطوطات وأوائل المطبوعات، وقد عرضت على الشاشة نماذج توضيحية مكبرة للحروف وصفحات العنوان، وقد أثار ذلك العرض موريس

(1) Garland of Rachel.

(2) Kelmoscot Press.

واقترح على ووكر أن يقوما معاً بتصميم حروف جديدة، وقد وافق ووكر فى الحال وبدأ موريس فى إنشاء مطبعة خاصة به.

ولما اتخذت الفكرة طابع الجد ودخلت فى حيز التنفيذ، بدأ موريس فى دراسة فنون الطباعة وإنتاج الكتب دراسة جدية، واشترى كثيراً من المخطوطات وأوائل المطبوعات لذلك الغرض وفحص مئات غيرها، واكتسب خبرة كبيرة بأنواع الورق والأحبار وخصائص أحسنها، وقضى ساعات طويلة فى ملاحظة جمع الحروف وطباعة النصوص. وقد قام بتجارب عديدة بنفسه خلال طبع كتابين له فى مطبعة تشيزويك وهما: «بيت وولفنج»[1]، ١٨٨٨. و «جذور الجبال»[2] ١٨٨٩. وعندما جاء وقت إقامة المطبعة كان قد أتقن كل مراحل وعمليات إنتاج الكتاب وكون نظرياته الخاصة وممارساته فى فن الطباعة.

وقد افتتحت مطبعة كيلموسكوت فى يناير ١٨٩١، وقد اشتقت اسمها من اسم المنطقة الريفية التى كان يقطنها موريس وهى منطقة كيلموسكوت مينور، بالقرب من ليشلاء ـ أكسفورد؛ ورغم أنه عرض على ووكر المشاركة فى المطبعة إلا أنه رفضها، ومع ذلك قدم ووكر كل خبرته ومعرفته تحت أمر موريس. وكان أول من عمل مع موريس فى المطبعة «وليام بودين» ـ وهو رئيس طابعين متقاعد ـ وابن بودين وابنته. وتوفر على تصميم الإيضاحيات له الفنان «إدوارد بيرن ـ جونز» ونفذها له «كاترسون سميث» ونحتها له «هـ. و. هوبر».

وكانت الآلات الأساسية فى هذه المطبعة تتألف من طابعة ألبيون وطابعة بروفات، وبعد فترة أضاف موريس طابعتين أخريين من طراز ألبيون. وكان الحبر يجلب من مصنع جاينك فى هانوفر، وكان الورق يصنع يدوياً على حسب مواصفات موريس لدى «جوزيف باتشيلور» فى ليتل تشارت بالقرب من أشوفرود فى كنت. وكانت هناك أربعة أحجام من الورق يستخدمها موريس فى كتبه:

(1) Willam Morris. House of the Wolfings.

(2) William Morris. The Roots of the Mountains.

الحجمان الأولان بهما علامة مائية عبارة عن زهرة مع الحرفين W. M، والحجم الثالث يحمل علامة السارية مع الحرفين، والحجم الرابع يحمل علامة التفاحة والحرفين. وكان موريس يحصل على الرقوق فى بادئ الأمر من تاجر محلى اسمه «هـ. باند» من برنفورد.

وتوفر موريس على تصميم ثلاثة حروف خصيصاً للاستخدام المطلق فى مطبعته، وقد قام «إدوارد برنس» بتنفيذ قوالبها وصبت فى مسبك السير «تشارلز ريد» فى شارع فان. وقد أطلق على الحرف الأول الذى ابتدعه اسم «البنط الذهبى»[1] من حجم ١٤ نقطة رومانى الشكل بنى على شكل قديم استخدمه نيقولاس جنسون سالف الذكر. وبمساعدة من ووكر صديقه استطاع موريس تصوير هذا الحرف تصويراً فوتوغرافياً؛ كل حرف بصورة خاصة له مكبرة، ومن هذه الصور استخرج حروفه الخاصة الجديدة حيث تم تصويرها هى الأخرى ودرست بدقة قبل التنفيذ على يد كل من موريس وصديقة ووكر. وعندما استدعت الضرورة كانت الحروف يعاد رسمها بالحجم الكبير ثم يصغر مرة أخرى حتى يتم التوصل إلى الشكل المقبول والمناسب. وقد تم إنجاز هذا العمل سنة ١٨٩١ وقد تألفت السبيكة الكاملة من واحد وثمانين حرفاً وعلامة. والشكل الثانى من الحروف أطلق عليه اسم «بنط تروى»[2] وكان بحجم ١٨ نقطة غوطى الشكل بنى أساساً على حروف شوفر، منتلن، زينر. وقد استخدم التصوير الفوتوغرافى هنا أيضاً ودرست الصور دراسة وافية قبل التنفيذ. وقد استخدم حرف تروى هذا لأول مرة سنة ١٨٩٢. أما الحرف الثالث من تصميم موريس فقد أطلق عليه «بنط تشوسر»[3] وهو من حجم ١٢ نقطة ويشبه حرف تروى ولكن بحجم أصغر، واستخدم هو الآخر لأول مرة سنة ١٨٩٢.

وتوفر موريس أيضاً على تصميم أولياته من كتل الخشب وزخارفه وإطارات

(1) Golden Type.
(2) Troy Type.
(3) Chaucer Type.

صفحاته، وكان بعضها شديد التفاصيل. وقد أنتج من تلك الزخارف ٦٤٤ شكلاً في غضون ست سنوات فقط.

ولقد أصدرت مطبعة كيلموسكوت فيما بين ١٨٩١ و١٨٩٨م اثنين وخمسين كتابًا في ستة وستين مجلدًا كان أولها «قصة السهل المتألق»[١] التي نشرت سنة ١٨٩١. وكان موريس قد خطط لطبع عشرين نسخة فقط لتوزيعها على أصدقائه، ولكن عندما ذاع الخبر جاءته طلبات كثيرة تطلب نسخًا من الكتاب ومن ثم قرر زيادة عدد النسخ إلى ٢٠٠ نسخة، تم بيعها بالكامل بعد وقت يسير بالرغم من عدم معرفة الناس بالسعر مقدمًا.

ولعل أعظم إنجاز لمطبعة كيلموسكوت هو طبع أعمال «جيوفرى تشوسر»[٢] وهى طبعة تذكارية نشرت سنة ١٨٩٦، وجاءت فى مجلد واحد كبير على عمودين ببنط «تشوسر» الذى أشرت إليه سابقًا مع عناوين فرعية بالأسود والأحمر ببنط «تروى». وقد تضمنت سبعًا وثمانين صورة مأخوذة من كتل الخشب من تصميم «بيرن ـ جونز»، كل منها محاطة بإطار صممه موريس نفسه، وكل صفحة تقريبًا حملت أوليات أو كلمات مزخرفة من تصميم موريس أيضًا. وبالرغم من أن الطابع الغوطى للحروف المستخدمة فى هذا الكتاب يجعل من الصعوبة بمكان قراءة النص قراءة متواصلة مستمرة، إلا أن الكتاب هو قطعة فنية وعلامة من علامات إنتاج الكتب، وأيما صفحة تفتحها لا تقع عيناك إلا على كل جميل.

لقد مات موريس سنة ١٨٩٦م، وقام مجلس أوصيائه بإدارة المطبعة بعد ذلك لمدة ثمانية عشر شهرًا لإتمام بعض الأعمال التى كانت قيد الطبع. وبعد الانتهاء من ذلك أغلقت المطبعة أبوابها تمامًا سنة ١٨٩٨. وقد آلت التصميمات الخشبية إلى المتحف البريطانى بالكامل بشرط ألا تستخدم فى الطبع قبل مائة عام. أما الحروف نفسها فقد وضعت تحت سيطرة مجلس الأوصياء، واستخدمت فقط فى

(1) The Story of the Glittering Plain.

(2) The Works of Geoffery Chaucer.

إعادة طبع أعمال موريس وحده، أما طابعات ألبيون فقد أخذها السيد «س. ر. آشبيي» من دار إيسكس للطباعة والذى سيأتى ذكره.

وإلى جانب أعمال «جيوفرى تشوسر»، توفرت مطبعة كيلموسكوت على نشر أعمال أخرى ممتازة من بينها «قصائد وليام شكسبير»[1] التى صدرت سنة ١٨٩٣، «المدينة الفاضلة»[2] للكاتب مور أيضاً فى نفس سنة ١٨٩٣، «قصائد من جون كيتس»[3] فى سنة ١٨٩٤ «الأعمال الشعرية لـ بيرسى بيش شيللى»[4] فى ثلاثة مجلدات ١٨٩٤ - ١٨٩٥؛ «قصة بيوولف»[5] سنة ١٨٩٤؛ «القصائد التى اختيرت خارج أعمال صمويل تيلور كوليردج»[6] ونشرت سنة ١٨٩٦.

واليوم تنتقد كتب مطبعة كيلموسكوت بأنها ذات تفاصيل كثيرة فى زخارفها وإخراجها، ومن الصعب قراءة الحروف التى طبعت بها فى وبعض الأحيان يكون القطع غير مريح. وتفضل فى الوقت الحاضر البساطة والسلاسة. ولابد أن نقرر هنا أنه بينما «البنط الذهبى» مريح ومناسب فإن البنطين الآخرين - تروى وتشوسر - غير مناسبين للقراءة المتصلة، وقد خرج القطع الكبير الآن من موضة الطباعة. ويبقى مع كل ذلك أن كثيراً من كتب هذه المطبعة قد أخرجت إخراجًا جميلاً ودخلت تاريخ الطباعة الفاخرة من أوسع أبوابه، وعادت بالصنعة إلى عقودها الأولى. ولقد أثبت موريس أن تبنى أعلى مستويات العمل والتقيد بمعاييره فى المواد والتصميم والجمع والتوضيب والطبع كلها ليست فقط جمالية وإنما أيضًا مربحة.

ومن المطابع الشخصية أيضًا التى كان لها شأن كبير فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مطبعة أشيندين[7] التى أسسها «س. هـ. سانت جون هورنباى» سنة ١٨٩٤. ولقد قضى فترة تعليمه فى هارو و أكسفورد وفى

(1) Poems of Willam Shakespeare.
(2) More' s Utopia.
(3) Poems of John Keats.
(4) Poetical Works of Percy Bysshe Shelly.
(5) The Tale of Beowulf.
(6) Poem Chosen out of the works of Samuel Taylor Coleridge.
(7) Ashendene Press.

سنة ١٨٩٣م التحق بشركة «و. هـ. سميث»، وكان فى صغره يرغب فى أن يكون طابعاً وتجددت هذه الرغبة عندما زار مطبعة كيلموسكوت سنة ١٨٩٣. ونتيجة لهذه الزيارة قام هورنباى بإنشاء مطبعة فى بيت أبيه فى أشيندين فى هيرتفورد شاير وكُنَّ أخواته البنات يساعدنه فى أعمال الطباعة. ولقد طبع أحد عشر كتاباً بحروف كاسلون، أكسفورد، فيل ولم يعرض أياً منها للبيع. وفى سنة ١٨٩٩م انتقل هورنباى إلى بيت شيللى فى شيلسى حيث طبع كتابين آخرين بحرف فيل. وفى سنة ١٩٠٠ توفر كل من إمرى ووكر و سيدنى كوكريل على تصميم حرف مخصوص له عرف باسم **حرف سوبياكو**[1]. هذا الحرف بنى على حرف شبه غوطى كان قد استخدمه سوينهايم و بنارتز وطبعا به فى سوبياكو سنة ١٤٦٥. وقد نفذ القوالب إدوارد برنس أما السبك نفسه فقد قام به كل من «ميللر» و «ريتشارد» من إدنبره. وقد استخدم هذا الحرف لأول مرة فى طبع كتاب لدانتى سنة ١٩٠٢ وبعدها استخدم فى جميع كتب هذه المطبعة حتى ١٩٢٧ حين أدخل حرف جديد هو «بطليموس»[2]، وقد بنى الحرف بطليموس على أساس حرف كان قد استخدم فى أولم فى طبع كتاب جغرافية بطليموس سنة ١٤٨٢. واستخدم فى مطبعة أشيندين لأول مرة لطباعة «دون كيشوت» سنة ١٩٢٧. وكان هذا الحرف يشبه الحرف الغوطى وقريباً من حرف سوبياكو ولكنه أخف وأحد منه.

فى سنة ١٩٠١ استخدم هورنباى فى مطبعته أحد الطباعين ومن حين لآخر كان يستخدم أحد الجماعين ولكنه كان يقوم بنفسه بمعظم الأعمال فى مطبعته والإشراف الكامل على كل شيء. ولقد تأثر النشر بأحداث الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، ولكنه استؤنف بعد ذلك سنة ١٩٢٠ واستمر حثيثاً حتى إغلاق المطبعة نهائياً سنة ١٩٣٦.

وكانت كتب أشندين تطبع على ورق باتشيلور المصنوع يدوياً، وقد كان الحبر يجلب من مصنع جاينكى فى هانوفر سابق الذكر، كما كان الرق يشترى من

(1) Subiaco Type.

(2) Ptolemy.

«هـ. بأند» فى برنتفورد سابقة الذكر، وكانت الجلود تعد إما من الكرتون أو الكرتون المقوى بالكتان والتيل أو بالجلد الكامل أو بالرقوق، على الرغم من أن الكتب التى كانت تطبع للتوزيع المحدود على الأصدقاء كان تغلف بغلاف ورقى رقيق فقط.

ويذكر بعض الببليوجرافيين من مؤرخى الكتاب أن أحسن ما أصدرته هذه المطبعة كان مجلداً كبير الحجم باللغة الإيطالية يضم أعمال «دانتى» سنة ١٩٠٩ وكانت الصفحة مطبوعة على عمودين. وكانت فيه إيضاحيات مأخوذة من كتل الخشب من تصميم «س. م. جير» وتوفر على تنفيذها «و. هـ. هوبر». هذا العمل يوضع فى مصاف كتاب «تشوسر» الذى طبعته مطبعة كيلموسكوت وطبعة الكتاب المقدس الذى قامت به مطبعة دوفيس التى سنأتى على ذكرها فيما بعد. ومن بين الأعمال الجيدة الأخرى التى توفرت هذه المطبعة على إخراجها كتاب «سبنسر»: «ملكة فايرى»[1] سنة ١٩٢٤؛ «قصائد صغيرة»[2] سنة ١٩٢٥؛ «شئون كنسية»[3] سنة ١٩٣٢.

لقد كان نجاح هورنباى يرجع فى أساسه إلى أنه استطاع أن يجمع فى كتبه كل العناصر الجميلة الموجودة عند مطبعتى كيلموسكوت و دوفيس، وتوسط بين الزخرفة المبالغ فيها والمفصلة عند موريس والبساطة المفرطة عند دوفيس. ولم يكن استخدامه للإيضاحيات والزخارف فى موضعه أحيانا ولكنه كان فعالاً. لقد جمعت كتبه بين الجمال والوظيفية. وكانت طباعته جمعا وطبعا على أعلى مستوى.

ومن المطابع الشخصية كذلك **مطبعة فيل**[4] التى أسسها سنة ١٨٩٦م «تشارلز ريكيتس» فى شارع وارويك عند علامة دايال ثم انتقلت فى سنة ١٨٩٩ إلى شارع كرافن، ستراند حيث استمر الطبع فى ذلك المقر حتى إغلاق المطبعة سنة ١٩٠٣. واسم فيل مأخوذ من اسم منطقة سكنية فى تشيلس عاش فيها ريكيتس

---

(1) Fairie Queene.

(2)Minor Poems.

(3) Ecclesiasticus.

(4) Vale Press.

وأصدر فيها بالتعاون مع «تشارلز شانون» منذ ١٨٨٩م مجلة عرفت باسم «المزولة»(١). وفى سنة ١٨٩٣م أصدرا أيضاً طبعة من «دافنس و تشلو»(٢). وفى سنة ١٨٩٤م أصدرا كتاب ماريو و تشابمان «هيرو و ليندر»(٣). وقد طبع هذان الكتابان بحرف كاسلون. وقد اشتمل الكتابان أيضاً على إيضاحيات من كتل الخشب صممها ريكيتس وشانون على نحو ما جاء فى حرد متن الكتابين. وبعد نجاح هذه الأعمال صمم الاثنان على إنشاء مطبعة ولكن لم يكن مسموحاً بذلك فى منطقة فيل التى كانت منطقة سكنية بحتة، ومن هنا اتخذت الترتيبات لطبع كتب مطبعة فيل فى مطبعة بالانتاين، وحيث كانت التصميمات كلها من إعداد ريكيتس أو تحت إشرافه وعلى طابعة خصصت فقط لاستعماله وحده. ولقد توفر ريكيتس على تصميم ثلاثة حروف لمطبعته، أطلق على الأول اسم حرف قيل(٤) استخدم لأول مرة فى طبعة مطبعة فيل من كتاب «قصائد باكرة لـجون ميلتون» الذى طبع سنة ١٨٩٦ . وكان هذا الحرف مزدوج الوجه، يشبه إلى حد ما «البنط الذهبى» الذى صممه موريس. وقد تم طبع معظم كتب هذه المطبعة من هذا الحرف. أما الحرف الثانى فقد كان مفلطح الوجه من نوع الأونسيال الرومانى وقد أطلق عليه «بنط الملك»(٥). وقد استخدم فى ثلاثة كتب فقط طبع أحدها سنة ١٩٠٢، واثنان سنة ١٩٠٣ . . ورغم أنه كان حاداً قاطعاً إلا أنه كان مرهقاً فى القراءة. أما الحرف الثالث فقد أطلق عليه اسم «بنط آفون»(٦) وكان من حجم ١٢ نقطة وكان أصغر من الحرفين السابقين، وقد صمم خصيصاً ليستخدم فى طباعة المجلد التاسع والثلاثين من أعمال شكسبير التى كانت تنشرها المطبعة على فترات شهرية بين أبريل ١٩٠٠ وأغسطس ١٩٠٣. وكان ريكيتس هو مصمم كل الزخارف والرسوم بل والعلامات المائية التى ظهرت فى كتب مطبعة فيل.

---

(1) Dial.

(2) Daphnis and Chloe.

(3) Hero and Leander.

(4) Vale Type.

(5) King' s Fount.

(6) Avon Faunt.

لقد أصدرت هذه المطبعة فى الفترة من ١٨٩٦ وحتى إقفالها سنة ١٩٠٣ ثلاثة وثمانين كتاباً. ولقد أقفلت المطبعة فى تلك السنة جزئياً بسبب الحريق الذى نشب فى مطبعة بالانتاين ودمر جانباً كبيراً من الكتل والحروف، وجزئياً لأن ريكيتس شعر بأنه قد نفذ طباعة الكتب التى خطط لطباعتها منذ البداية. ولما أغلق المطبعة حمل أمهات الحروف وقوالبها وقذف بها فى نهر التيمز، وعندما انتهى من طبع ببليوجرافية كتب مطبعة فيل سنة ١٩٠٤ صهر الحرف جميعاً.

لقد طبعت كتب مطبعة فيل على ورق يدوى من صنع مصنع آرنولد، نستطيع أن نميز منها ثلاثة أنواع استخدمت فى تلك المطبعة، كل نوع منها كانت له علامة مائية خاصة. النوع الأول حمل العلامة .V. P أى اسم المطبعة واستخدم فى معظم الكتب من حجم الثمن. والنوع الثانى كان يحمل علامة عروس البحر واستخدم فى كتب شكسبير خاصة. والنوع الثالث كان يحمل علامة النقاش وإكليلين من الزهور واستخدم فى الكتب الثخينة.

وكانت جلود الكتب عادة تعد من الكرتون الأزرق مع أشرطة بيضاء، وبعض الجلود كانت مزخرفة بالزهور. وكانت هناك كتب تجلد بجلد سميك من البكرم وبعضها يجلد بجلد الخنزير أو الجلد المراكشى وبزخارف كلها منْ تصميم ريكيتس.

ومن بين أجمل ما أنتجته تلك المطبعة نجد «القصائد الباكرة لـجون ميلتون»[١] سنة ١٨٩٦؛ «الملاح القديم»[٢] سنة ١٨٩٩؛ «القواعد الطبية»[٣] سنة ١٩٠٢؛ «حكايات رمزية من الأناجيل»[٤] سنة ١٩٠٣.

ومن المطابع الخاصة أيضاً مطبعة إراجنى[٥] التى تسمت باسم قرية إراجنى فى نورمانديا والتى أسسها سنة ١٨٩٤ «لوسيان بيسّارو»، الذى أظهر منذ طفولته موهبة

(1) Early Poems of John Milton.
(2) Ancient Mariner.
(3) Religio Medica.
(4) Parbles From the Gospels.
(5) Eragny Press.

كبيرة فى تصميم كتل الخشب أثناء فترة تعلمه تحت إشراف «لوبير» من باريس. وقد كلف بتصميم إيضاحيات كتاب من تأليف «أوكتاف ميرابو». وقد نشر هذا الكتاب سنة ١٨٨٦، ولكن تصميماته لم يكتب لها النجاح ولم تلق قبولاً حسناً لدى القراء؛ ومن ثم فقد غادر باريس إلى لندن يحمل توصيات ريكيتس و شانون ولذلك استعانا به فى بعض رسوم الكتاب الذى نشراه تحت عنوان «المزولة» والذى سبق ذكره.

وبسبب علاقته مع ريكيتس أصبح بيسَّارو مهمتاً بعملية إنتاج الكتب. وفى سنة ١٨٩٤م أنتج أول كتاب له وهو كتاب «ملكة السمكات»[1] وهو كتاب صغير من قطع الثمن ويقع فى سبع عشرة ورقة. وهذا الكتاب كتب بخط يد بيسَّارو واستنسخ بطريقة التصوير، ومعظم الكتاب بعد ذلك عبارة عن لوحات مأخوذة من كتل الخشب. ولم يلبث ريكيتس أن سمح له بأن يستخدم حروفه من بنط فيل سابق الذكر بشرط أن يستخدمها فقط فى الكتب التى يصدرها بيسارو عن طريق مطبعة فيل. وهكذا فإن الكتب الستة عشر الأولى التى تحمل اسم مطبعة إراجنى وعلامتها قد وزعت عن طريق مطبعة فيل. وأول هذه الكتب «كتاب روث وكتاب إيثر»[2] الذى صدر سنة ١٨٩٦، وبعد كتاب آخر سنة ١٨٩٧ انتقل بيسارو إلى مطبعة أخرى هى مطبعة تشيزويك حيث طبع ثمانية كتب أخرى بنفس حرف فيل. وفى سنة ١٩٠٠م انتقل إلى دار أخرى عرفت باسم الـ «بروك» فى هامرسميث، وطبع فيها هى الأخرى خمسة كتب بنفس حرف فيل. وعندما أدرك أن مطبعة فيل على وشك الإغلاق، صمم لنفسه حرفا خاصاً به عرف باسم «بنط بروك»[3]، كان قريب الشبه ومبنياً على حرف فيل. وقد استخدم هذا البنط فى كل الكتب التى طبعتها مطبعة إراجنى بعد ذلك؛ وظهر أول ما ظهر فى كتاب عن المطبعة ذاتها بعنوان «تقرير مختصر عن تاريخ مطبعة إراجنى»[4] الذى نشر سنة

(1) The Queen of the Fihes.
(2) The Book of Ruth and The Book of Esther.
(3) Brook Type.
(4) A Brief Account of the Origin of Eragny Press.

١٩٠٣. وفى سنة ١٩٠٥ صمم بيسّارو قوالب خاصة للموسيقى مزجها مزجاً طيبا مع «حرف بروك» فى كتابين.

وعلى وجه العموم كانت كل كتب إراجنى صغيرة ونحيفة باستثناء كتاب واحد. وقد اشتملت على صور ملونة بهيجة مأخودة من كتل الخشب صممها بيسّارو ونحتها هو أو زوجته الإنجليزية «إيثر». والاستثناء الوحيد الذى ذكرناه هو كتاب ميلتون[1] الذى يقع فى نحو أربعين صفحة من حجم ٢/١ ١٠ × ٢/١ ٨ بوصة وطبع على عمودين. وقد صدرت طبعته الأولى فى أكتوبر سنة ١٩٠٣ ولكن نسخه أتت عليها النيران فى ورشة التجليد، ولذلك اضطر إلى طبع إصدارة أخرى فى مارس ١٩٠٤.

لقد طبعت معظم كتب إراجنى على ورق يدوى من صنع «فان جلدر» أو «آرشيز» أو «آرنولد» كما طبع بعضها على رق يابانى. وكانت مطبعة إراجنى هى أول مطبعة تحاول طبع صور ملونة على رقوق. وكانت الجلود عادة من الكرتون المزخرف بزخارف زهرية بسيطة.

وعندما أغلقت المطبعة أبوابها سنة ١٩١٤ كانت حصيلتها من الكتب قد بلغت اثنين وثلاثين كتاباً؛ كان من بينها الكتابان اللذان يتضمنان نوتات موسيقية وهما «بعض القصائد الغنائية الفرنسية والإنجليزية القديمة»[2] الذى تم طبعه سنة ١٩٠٥ و كتاب «أغانى بن جونسون»[3] الذى طبع سنة ١٩٠٦.

من المطابع الخاصة أيضاً مطبعة دار إسيكس[4] التى بدأت كفرع من نقابة الحرف اليدوية والتى أسسها «س. ر. آشبى» بهدف تشجيع وحفظ حقوق الحرفيين الذين يمارسون الحرفة. وقد أسست هذه النقابة سنة ١٨٨٨ فى توينبى هول ثم انتقلت بعد ذلك إلى دار إسيكس فى طريق مايل إند. وكان من الحرف التى تمارسها صناعة الأثاث، والبناء، والأشغال المعدنية.

(1) Milton. Areopagitica.
(2) Some old French and English Ballads.
(3) Songs of Ben Jonson.
(4) Essex House Press.

أنشئت المطبعة سنة ١٨٩٨م، أى بعد سنتين من وفاة وليام موريس سابق الذكر حيث اشترى آشبى بعض الطابعات والأدوات من مطبعة كيلموسكوت ونقل كذلك من تبقى من موظفيها. وفى سنة ١٩٠٢ انتقلت النقابة الأم إلى تشبنج كامدن، فى حين انتقلت المطبعة إلى مصنع قديم للحرير وحافظت على نفس اسمها القديم وأطلقته على هذا المبنى الجديد، وقد استمرت فى هذا المكان حتى سنة ١٩٠٧ حين انتقلت مرة أخرى بالقرب من نورمان تشابل، وعلى الرغم من أن النقابة كانت قد سجلت كشركة ذات مسئولية محدودة سنة ١٩٠٢ فإن المطبعة قد استمرت كمطبعة خاصة يديرها مجلس إدارة. وقد ظل آشبى مديراً لها حتى سنة ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ حين خلفه الدكتور «أ. و. كومارسوامى». وقد توقف العمل فى المطبعة ١٩١٠، وبسبب الحرب العالمية الأولى لم يستأنف الطبع فيها ومن ثم بيعت الطابعات، ولكن أشبى احتفظ بالحروف والقوالب والكتل الخشبية.

وقد طبعت الكتب الخمسة عشر الأولى للمطبعة بحرف كاسلون ولكن فى سنة ١٩٠١ قام آشبى بتصميم حرف جديد بحجم ١٢ نقطة عرف باسم «حرف إنديفور»[1] وبعده صمم حرفاً باسم «حرف كتاب الصلاة»[2] وكان بحجم ١٨ نقطة، وهذا الأخير صمم خصيصاً ليستخدم فى «كتاب صلاة الملك إدوارد السابع»[3] الذى طبع سنة ١٩٠٣.

ولقد طبعت كتب مطبعة إسيكس على ورق يدوى من صنع «باتشيلور»، وكانت العلامة المائية التى على الورق هى شعار نقابة دار إسيكس «القرنفلة» وكان الحبر والرق يجلبان من نفس الموردين الذين يوردون لمطبعة كيلموسكوت. وكان التجليد العادى بالكرتون والجلد. وفى سنة ١٩٠١ أنشئت ورشة تجليد كانت تجلد بالجلد المراكشى وخشب البلوط والرقوق، وذلك للتجليد حسب الطلب من جانب الزبائن.

(1) Endeavor Type.

(2) Prayer Book Type.

(3) The Prayer Book of King Edward VII.

ومن الكتب التى تميزت بها هذه المطبعة: «مزامير كرينمر»[1] سنة ١٩٠١، «كتاب صلاة الملك إدوارد السابع»، وقد سبق ذكره سنة ١٩٠٣. «كتاب أغانى دار إسيكس»[2] سنة ١٩٠٤ وسلسلة من ١٤ كتاباً تحت عنوان «القصائد العظيمة للغة»[3]؛ وهذه السلسلة مطبوعة كلها على رقوق، رسمت صورها وزخارفها بخط اليد وطبعت فى عدد محدود جداً من النسخ، وقد أعلنت الدار عن عزمها طبع طبعة من الكتاب المقدس سنة ١٩٠٤ ولكن نبذت الفكرة لعدم وجود تأييد عام لها.

من المطابع الخاصة التى كان لها شأن يذكر فى بداية القرن العشرين «**مطبعة دوفيس**»[4] التى أسسها «توماس جيمس كوبدين ـ ساندرسون» و «إيمرى ووكر» ـ سابق الذكر ـ سنة ١٩٠٠ فى رقم ١هامرسميث تراس، هامرسميث. وكان كوبدين ـ ساندرسون مجلد كتب مشهوراً وكان صاحب ورشة تجليد دوفيس. ولكنه فى ذلك الوقت كانت معرفته بالطباعة محدودة. وكان جاره إيمرى ووكر وراء فكرة إنشاء مطبعة كيلموسكوت التى أسسها موريس، ومن ثم كان من الطبيعى أن يلجأ كوبدين ساندرسون إليه بطلب النصح والمشورة، ودخل الرجلان فى شراكة بحيث قدم كوبدين ساندرسون المال وقدم ووكر الجهد والفكر.

وقد تم تصميم حرف مخصوص لاستخدام هذه المطبعة وحدها. وقد بنى هذا الحرف على الحرف الرومانى الذي استخدمه «نيقولاس جنسون» فى طبعته من كتاب التاريخ الطبيعى لـ «بلينى» والذى طبع فى البندقية (فينسيا) سنة ١٤٧٦. وعند تصميمه لهذا الحرف استخدم ووكر نفس طريقة التصوير الفوتوغرافى لتكبير الحرف الأصلية وتعديل تصميماتها حرفاً بحرف ثم تصغير الحروف بعد ذلك بالحجم المطلوب. وحتى تكتمل الصبة قام بتصميم مجموعة كاملة من

---

(1) Cramer' s Psalten.
(2) The Essex House Song Book.
(3) Great Poems of the Language.
(4) Doves Press.

الأرقام وعلامات الترقيم. ورغم أن الحرف الذى تم تصميمه وسمى باسم (بنط دوفيس)[1]. كان صيغة جميلة من حرف جنسون الأصلي، إلا أنه كان أجمل الحروف جميعاً فى زمانه أى فى مطلع القرن العشرين، وكانت فيه سلاسة وبساطة وقوة لم نعهدها فى أى حرف قبل ذلك، كما كانت فيه جاذبية خاصة. وقد توفر على تنفيذ الحرف «إدوارد برنس» ووضع القوالب والصبة «ميللر» و «ريتشارد» فى إدنبرة. وكانت المطبعة تطبع كتبها على ورق يشترى من «جوزيف باتشيلور» وهو الورق اليدوى الذى سبق ذكره مراراً وقد وضع تصميم العلامة المائية له «كوبدين ـ ساندرسون» بنفسه وكانت العلامة عبارة عن حمامتين تتصدران إكليلاً من الغار وبينهما الحروف C.S, E.W وتاريخ الصنع. أما الرقوق فكان يتم الحصول عليها من «هـ. باند» من برنتفورد.

وكان أول كتاب يصدر عن المطبعة هو «الزراعة» من تأليف تاكيتوس[2] والذى تم نشره ١٩٠١. وهو مطبوع باللاتينية، وكان إلى حد ما حقل تجارب حاول فيه كوبدين ـ ساندرسون أن يطبق فكرته فى حذف الشرطة من نهاية السطور، وهو إجراء عدل عنه فى الكتب اللاحقة. وبعد هذا الكتاب جاءت طبعة دوفيس من «الجنة المفقودة» لـ «ميلتون»[3] وقد طبع سنة ١٩٠٢. ويعتبر بعض الناس أن هذا الكتاب هو أجمل ما أنتجته المطبعة، وربما كانت أجمل طبعة لهذه القصيدة على الإطلاق. وقد طبع قرين هذا الكتاب «الجنة المستعادة»[4] سنة ١٩٠٥. وبين ١٩٠٢ و ١٩٠٥ طبع الشريكان عملهما الطموح وهو الكتاب المقدس العظيم فى خمسة مجلدات. وهذا الكتاب رائع سواء فى تنفيذه أو طباعته أو إخراجه العام وصفحاته الأولى وخاصة السطر الأول الذى صممت حروفه كخط اليد ولونت بالأحمر من صنع الخطاط «إدوارد جونستون» وحيث يمتد حرف I فى كلمة "In The Begining" من أول الصفحة حتى آخرها بطول الهامش الأيسر. فى هذه

---

(1) Doves Type.
(2) Tacitus. Agricola
(3) Milton. Paradise Lost.
(4) Milton. Paradise regained.

الطبعة من الكتاب المقدس لم يتبع الطابعون الطريقة العادية فى تقسيم النص إلى أقسام، بل تركوا النص يتتابع واستخدموا فقط علامات الفقرات لتحديد الأقسام. وقد طبع من هذه الطبعة خمسمائة نسخة على ورق وثلاث نسخ فقط على رقوق. وبسبب رداءة بعض المواد التى استخدمت فى صناعة هذه الطبعة فإن النسخ الورقية التى وصلتنا جميعها تعانى اليوم من تحلل واضح فى القسم الأول من المجلد الأول، ورغم أن هذه الطبعة من الكتاب المقدس طبعة جميلة ورائعة إلا أن كثيرين انتقدوها بسبب خروجها على المألوف فى تقسيم النص طباعياً، والبعض يجد صعوبة فى قراءتها.

وفى سنة ١٩٠٨ فض كوبدين - ساندرسون شراكته مع ووكر، لأنه شعر أنه يتحمل عبئاً أكبر منه. وقد نشب نزاع مرير بينهما حول ملكية «الحرف»، ذلك أنه بمقتضى اتفاق مكتوب من كوبدين - ساندرسون سنة ١٩٠٣ يكون ـ فى حالة فض الشركة ـ من حق ووكر أن يأخذ الحرف دوفيس لاستخدامه الشخصى. ولم يكن ووكر آنذاك فى حاجة إلى استخلاص هذا الحق، مما أتاح لزميله كوبدين ـ ساندرسون احتكار استخدامه. وعلى أية حال فطالما كانت الشراكة قائمة بينهما فإن حرف دوفيس كان يستخدم باسم مطبعة دوفيس، وكانا معاً لهما ملكية هذا الحرف. وكما انفضت الشركة وصل النزاع على الحرف إلى طريق مسدود، ولكن تدخل بينهما سيدنى كوكريل الذى رأى أن كوبدين ـ ساندرسون كان أكبر بعشرين عاماً من ووكر ومن ثم اقترح على ووكر أن يترك له استخدام الحرف ما تبقى له فى الحياة على أن يسترده بعد مماته أو يستمر فى استخدامه إذا مات ووكر أولاً، ووقع بينهما اتفاق مكتوب بذلك.

وبعد فض الشراكة استمر كوبدين ـ ساندرسون فى إدارة المطبعة دون نجاح يذكر، ورغم الاتفاق الموقع بينهما فإنه أعلن سنة ١٩١١م أنه ـ وللأبد ولورثته من بعده هو ـ صاحب الحق الوحيد فى استخدام حرف دوفيس، وأن الحرف سوف يتم تدميره فى حالة إغلاق المطبعة. وقد ترددت هذه الفكرة فى صحفه التى كان يطبعها من ١٩١١ فصاعداً وطبقها بالفعل فى مارس ١٩١٣ عندما قذف

بالأمهات فى نهر التيمز. وفى خريف ١٩١٦ عندما رمى بالحروف نفسها إلى ذلك النهر. وقد أفقده ذلك التصرف الكثير من الأصدقاء وأحدث قطيعة كاملة مع ووكر. ولم يستطع ووكر أن يعوض خسارته قبل وفاة كوبدين ـ ساندرسون فى سنة ١٩٢٢.

لقد كانت كتب مطبعة دوفيس تطبع على ورق يدوى من صنع باتشيلور. وكان قليل من النسخ فقط يطبع على رقوق تشترى من هـ. باند فى برنتفورد. وكان التجليد العادى لكتب هذه المطبعة يتم بالورق المقوى بكعوب من جلد وبعض النسخ كانت تجلد كلها بالجلد، وكان لون الجلود عادة أزرق مشوباً باللون الرمادي. وفى سنة ١٩٠٧ أعلن أن النسخ يمكن تجليدها فى ورشة دوفيس بالجلد المراكشى أو جلد عجل البحر. وباستثناء الكتاب المقدس وكتاب أو اثنين آخرين فإن كل كتب مطبعة دوفيس كانت من قطع الربع (كوارتو) الصغير أى حوالى ٩ X ٦، وباستثناء **الفهرس المشروح**[١] للمطبعة الذى أخرجته سنة ١٩١٦ ليس هناك أى كتاب مصور فى مطبوعات هذه الدار، والزخارف الوحيدة فى هذه المطبوعات هى الأوليات التى صممها يدوياً إدوارد جونستون سالف الذكر وجرايلى هيويت فى إيثيل أوفر. ويكمن جمال كتب مطبعة دوفيس فى بساطتها المفرطة التى تبرز بالفعل فاعلية الحرف وسهولة قراءته. وكان جمع الحروف والطبع على أعلى مستوى وقد بذلت كل الجهود لضمان كمال النسخ.

وثمة مطبعة شخصية أخرى هى **مطبعة كوالا**[٢] التى عرفت فى البداية باسم مطبعة «دون إيمر» والتى توفرت على تأسيسها الآنستان «إليزابث» و «للى ييتس» شقيقتا الشاعر الأيرلندى الشهير «و.ب. بيتس» والآنسة «إيفلين جليسون». وقد أقيمت المطبعة فى منزل هذه الأخيرة فى دوندروم فى مقاطعة دبلن سنة ١٩٠٢. وقد سميت المطبعة فى بادئ الأمر باسم دون إيمر نسبة إلى السيدة إيمر الخياطة الشهيرة فى أيرلندا. وكانت هذه المطبعة نسائية مائة فى المائة إذ عمل بها النساء فقط حيث كانت تديرها الآنسة إليزابث ييتس التى درست فن الطباعة على يدى إيمرى ووكر سابق الذكر. وكان الهدف من ذلك «تحقيق

(1) Catalogue Raisonné.

(2) Cuala Press.

فرص عمل للبنات الأيرلنديات وتمكينهن من الحياة فى أيرلندا فى عمل مفيد».

ولقد طبع فى هذه المطبعة خلال فترتها فى دوندروم وتحت اسم مطبعة دون إيمر أحد عشر كتاباً. وفى سنة ١٩٠٨ نقلت المطبعة إلى مكان أرحب وأوسع فى دوندروم أيضاً وأطلق عليها اسم جديد هو كوالا نسبة إلى بارونية قديمة جنوب دبلن وشمال ويكلو. وفى سنة ١٩٢٤ وكذلك فى سنة ١٩٢٥م نقلت المطبعة إلى أماكن أخرى أكثر ملاءمة فى مدينة دبلن.

وقد بلغ عدد العاملات فى المطبعة فى أوقات الذروة اثنتا عشرة امرأة. وكانت الأدوات عبارة عن طابعة واحدة من طراز ألبيون وحروف كاسلون من حجم ١٤ نقطة وجه قديم. وطبعت الكتب على ورق صنع ماكينة من مصانع ساجيرث فى مقاطعة دبلن. وكان التجليد يتم فى مدينة دلن بالكرتون باللون الأزرق أو البنى مع كعب من التيل. وجل كتب المطبعة كانت من قطع الثمن. وكان جمع الحروف والطبع على وجه العموم جيداً ونادراً ما كانت هناك طبعات متميزة أو ذات أخطاء. وتكتسب هذه المطبعة أهميتها من ارتباط اسمها بعائلة الشاعر ييتس الذى كان لعدة سنوات طويلة يتوفر على تحرير الكتب التى تطبعها هذه المطبعة والذى طبع عددًا كبيراً من كتبه لأول مرة.

وتعتبر **مطبعة كوكريل الذهبية**[1]. من المطابع الخاصة ذات الأهمية فى هذا القطاع. وقد أسست هذه المطبعة سنة ١٩٢٠ على يد «هـ.م. تيلور» من وولتهام سانت لورانس فى بيركشاير. وكان القصد منها أن تكون مشروعاً مشتركاً يساعد المؤلفين الشبان على طبع ونشر كتبهم واقتسام العائد بينهم وبين المطبعة. واتفق على أن تطبع كل الكتب بأسعار مخفضة قدر الإمكان. وبعد أن ترسخ المطبعة وتثبت أركانها فإنه من الممكن أن تطبع بعض الكتب طباعة فاخرة متميزة سواء من تأليف المؤلفين الجدد أو من الكلاسيكيات المشهورة. وفى خلال فترة إدارة تيلور للمطبعة تم طبع ونشر ثمانية عشر كتاباً تضمنت بعض كتب المشاهير من أمثال: «أ. إ. كوبارد»، «ريتشارد هوز»، «مارتين أرمسترونج»، «هافيلوك إليس» إلى جانب خمس طبعات جيدة الإخراج لكتب كلاسيكية.

(1) Golden Cockerel Press.

وبسبب اعتلال صحته تخلى تيلور عن إدارة المطبعة فى يناير ١٩٢٤م وانتقلت إدارة المشروع كله إلى «روبرت» و «موئيرا جيبنجز». ولقد كان روبرت جيبنجز رسام كتب ناجحاً ووجد فى إدارة المطبعة عملاً مناسباً له، وكان من الطبيعى أن يدعو الفنانين الشبان إلى التعاون معه. وكثير من فنانى الكتل الخشبية الذين أصبحوا فيما بعد رسامى كتب نشروا أولى أعمالهم هنا عن طريق مطبعة كوكريل الذهبية. وقد نشرت المطبعة تحت إدارة جيبنجز واحداً وسبعين كتاباً اشترك فى إعداد رسوماتها هو والعديد من الفنانين من أمثال «إيريك جيل»، «إيريك رافيليوس»، «إجنس ميللر باركر»، «بلير هوز - ستانتون»، «دافيد جونز»، «بول ناش». وكان كثير من هذه الكتب على مستوى فكرى عالٍ ومستوى طباعى راقٍ. وكان من النماذج الرائعة على ذلك قصص كانتربرى والأناجيل الأربعة وكلا الكتابين تمت زخرفتهما بزخارف مأخوذة من كتل الخشب من إعداد إيريك جيل.

وفى سنة ١٩٣٣م انتقلت إدارة المطبعة إلى «كريستوفر سانفورد» و «أوين روتر» وقد ساعدهما فى ذلك من ١٩٣٣ـ١٩٣٦ «فرانسيس نيوبرى»، ومن ١٩٣٦-١٩٣٧م «أنتونى سانفورد» ومن ١٩٣٧ فصاعداً «مايكل صامويلسون». وحتى سنة ١٩٣٩ كانت المطبعة قد طبعت خمسين كتاباً كثير منها لمؤلفين بارزين وتوفر على رسوماتها فنانون مشاهير. ومن الملامح الهامة فى عمل تلك الفترة نشر سلسلة من المذكرات والوثائق الشخصية ذات الأهمية التاريخية والجغرافية. وقد أغلقت المطبعة أبوابها خلال فترة الحرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ثم عاودت نشاطها بعد انتهاء الحرب مباشرة.

والفاحص لكتب مطبعة كوكريل الذهبية يجد أنها طبعت بأبناط مختلفة، وإن كان السائد هو حرف كاسلون القديم. وليس هناك توحيد فى القطع المستخدم أو الورق أو التجليد، رغم أن التفضيل كان عادة للورق الإنجليزى المصنوع يدوياً والتجليد بجلد البكرم أو ربع التجليد الذى كان ينفذه للمطبعة «سانجوركى» و سوتكليف.

فى هذا العرض لأهم المطابع الخاصة يجب أن نتوقف كذلك أمام مطبعة جريجينوج[1] التى أسستها فى الثانى والعشرين من ديسمبر ١٩٢٢ الآنستان: «ج.إ.» و «م.س. ديفيز» فى جريجينوج بالقرب من نيوتاون، مونتجومريشاير وقد حددت الآنستان أهداف هذه المطبعة على النحو الآتى:

١- إدخال وتشجيع الطباعة الراقية فى ويلز.

٢- طباعة الإنتاج الفكرى المتعلق بويلز وشعب ويلز سواء باللغة الإنجليزية أو لغة الويلش، والذى يندر وجوده فى أماكن أخرى.

٣- طباعة الأعمال الكلاسيكية الإنجليزية.

٤- الاهتمام بزخرفة وتصوير الكتب والقيام داخل المطبعة بكل شىء بدءاً من تصميم الكتل الخشبية والزخارف والإيضاحيات والأولويات.

٥- القيام بكل أعمال التجليد داخل ورشة تجليد المطبعة.

وحتى ١٩٣١ كان مدير المطبعة هو «روبرت أ. مينارد» الذى توفر هو وصديقه «هوراس بريس» على إعداد معظم الكتل الخشبية اللازمة للزخارف والإيضاحيات. وكان يتم الحصول على الورق اليدوى اللازم للطبع من مصانع هولى ويل فى فلنتشاير، وأيضاً من جوزيف باتشيلور الشهير. وكانت ورشة تجليد المطبعة تحت إشراف «جورج فيشر». وكان التجليد العادى يتم بالكرتون المزخرف المقوى بكعوب من جلد أو بدون. ولكن جرت العادة على أن تجلد الخمس وعشرون نسخة الأولى من كل طبعة تجليداً كاملاً بالجلد المراكشى. وكان التجليد بالجلد المراشكى آية فى الذوق وجمال الصنعة ويسعى جماعو الكتب إلى اقتناء هذه النسخ. وفى سنة ١٩٣١ انتقلت إدارة المطبعة إلى «بلير هوز - ستانتون» وهو آخر فنان كتل خشبية من الطراز الأول.

ولقد طبعت كتب هذه المطبعة بحروف مختلفات ولكن غلب عليها حروف كل من : جاراموند، بوليفيلوس، باسكرفيل وكانت هذه الحروف تصب أولاً على

(1) Gregynog Press.

آلات مونوتيب ثم بعد ذلك تنضد يدوياً. وكانت بعض الأعمال تتم فى المطبعة اليدوية ولكن معظم العمل كان يتم على الطابعات الآلية.

ومن بين الأعمال الهامة التى نشرتها تلك المطبعة طبعات من دواوين «و. هـ. ديفيز»، «كريستينا روزتى»، «هنرى فوجان»، «جورج هربرت». وربما كان أفضل ثلاثة كتب من الناحية الطباعية والرسوم: «حياة سانت ديفيد»[1] الذى تضمن خمسة وعشرين لوحة ملونة يدوياً ومأخوذة عن كتل الخشب، وكذلك أيضاً كتاب «سرقة الفرسة»[2] الذى زخرف زخرفة جميلة فى صفحة الابتداء والأوليات. والكتاب الثالث هو كتاب «خرافات آيسوب»[3] الذى تضمن رسوماً وإيضاحيات جميلة من إعداد «إجنس ميللر باركر».

لقد أحسنت هذه المطبعة مزج الحروف مع الزخرفة مع الإيضاحيات فى كل متكامل داخل كل عمل على حدة. وقد اشتهرت أيضاً بورشة التجليد التى أخرجت بعض روائع التجليد فى النصف الأول من القرن العشرين. وقد توقفت المطبعة عن ممارسة نشاطها سنة ١٩٤٠ ولم تستأنفه بعدها.

والنموذج الأخير فى هذه العجالة عن المطابع الخاصة هو «مطبعة نونصتش»[4] التى أسست سنة ١٩٢٣ على يد الآنسة «فيرا مندل» والسيد «فرانسيس مينيل» مع السيد «دافيد جارنيت» المستشار العلمى للمطبعة. وقد حدد الهدف من هذه المطبعة فى مقدمة دليل المطبعة على النحو الآتى:

«إن جمهور الكتب يمكن تقسيمه إلى ثلاث فئات. فئة ترغب فى قراءة الكتب ولا ترغب فى تملكها وهذه تتوجه إلى المكتبات لإشباع هذه الرغبة. وفئة تقتنى الكتب ولا تقرؤها. ويمكن للمطابع اللعبة أن تطبع لهم الكتب التى يجمعونها. وفئة تجمع الكتب وتقرؤها. ولقد قامت مطبعة نونصتش لإشباع حاجة هذه الفئة

---

(1) Life of St. David.

(2) The Stealing of the mare.

(3) Aesop's fables.

(4) Nonesuch Press.

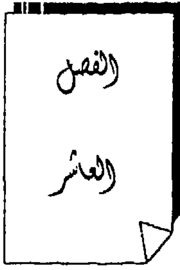
الثالثة التى تقتنى الكتب وتقرؤها. لقد أنشئت هذه المطبعة وهى مصممة على اختيار وطبع الكتب التى تحقق المثل الثلاثة: **الموضوع الهام، الصنعة الجميلة؛ السعر المعتدل.**

ولقد توفر فرانسيس مينيل بنفسه على تصميم معظم كتب المطبعة وكان كل كتاب تتوافر فيه المثل الثلاثة بقدر الإمكان. وكان طبع الكتب يتم على طابعات مطابع مختلفة من بينها تشيزويك، كاينوك، جامعة أكسفورد، بليكان، ميفلاور، ويستمنتر. وقد كان اختيار الحرف يتم بما يناسب كل كتاب على حدة على الرغم من أنه كان هناك تفضيل لحروف : جاراموند، بيل، بلانتين، باسكرفيل، كاسلون.

ومن أهم أعمال هذه المطبعة الكتاب المقدس فى خمسة مجلدات والذى توفر على تصميم صفحات العنوان فيه «ستيفن جودن»، أعمال شكسبير فى سبعة مجلدات، أعمال تشارلز ديكنز فى ثلاثة وعشرين مجلداً. ومن بين الأعمال ذات المجلد الواحد نصادف الإلياذة والأوديسة لهوميروس، بعض أعمال دانتى وهيرودوت. وربما كانت أنجح أعمال هذه المطبعة بعد الحرب العالمية الثانية: مجلدات شكسبير الأربعة (١٩٥٣)؛ «قصائد بليك» فى مجلد واحد[1] سنة ١٩٥٧. ومنذ سنة ١٩٦٠ لم تعد المطبعة مطبعة خاصة بل غدت دار نشر عادية تهدف إلى الربح شأنها فى ذلك شأن سائر دور النشر فى النصف الثانى من القرن العشرين.

* * *

(1) Poems of Blake.



الطباعة فى العالم الجديد (أمريكا)

يمثل انتشار الطباعة فى المساحة الشاسعة للأمريكتين صورة مختلفة تماماً عن صورة انتشارها فى أوربا. ففى العالم القديم تطورت الطباعة وانتشرت فى مجتمعات كان لكل منها خلفيتها الثقافية التى تطورت عبر قرون عديدة. أما عبر الأطلنطى فقد استخدمت الطباعة كأداة لزرع وبث التراث الفكرى للحضارة الأوربية فى بيئات جديدة كلية وغريبة تماماً. وفى الأمريكتين صحبت الطباعة الصليب والفأس والمحراث فى أكبر وأروع مغامرة شهدها العالم.

ومن المعروف أن الطباعة دخلت إلى المكسيك وبعدها بيرو قبل نهاية القرن السادس عشر. وقد دخلت الطباعة إلى الولايات المتحدة سنة ١٦٣٨م أى بعد ثمانية عشر عاماً فقط من نزول بعثة «آباء الحاج»(١) إلى الأراضى الجديدة. وكانت أول مطبعة وأول آلات طباعية هبطت الأرض الأمريكية جاءت من إنجلترا على يد المبجل «جوزيه كلوفر» وهو مستوطن باكر ربما قصد بها أن تستخدم لإنتاج المطبوعات لكلية هارفارد التى كانت قد أسست حديثاً وكان يأمل أن يكون رئيساً لها. وبينما كان كلوفر فى بريطانيا يجمع التبرعات والأموال للكلية الجديدة والمطبعة قابل «ستيفن داى» - وهو صانع أقفال فى كمبردج - وابنيه «ستيفن» و«ماتيو» الطابعين. ويبدو أن الاتفاق مع ستيفن الأب كان على أساس أن يقوم هو بتركيب المطبعة ويقوم ابناه بالعمل الطباعى نفسه. ولكن كلوفر مات أثناء رحلة العودة إلى أمريكا وبالتالى تغيرت الخطة حيث اقترحت زوجة جلوفر إنشاء المطبعة فى كمبردج ماساشوستس حيث بدأ العمل هناك سنة ١٦٣٨ تحت إشراف

(1) Pilgrim Fathers.

وإدارة ستيفن داى. ولم تصلنا معلومات عن المطبوعات الأولى التى خرجت من هذه المطبعة إلا عن عملين فقط صدرا عن المطبعة فى أول سنة لها، **أولهما:** إعلان عريض يضم «قسم الرجل الحر»[1] وهو قسم لابد وأن يقسمه كل المقيمين الذكور والذين يريدون الحصول على جنسية مستعمرة خليج ماساشوستس. أما المطبوع الثانى فهو تقويم «وليام بيرسى» لسنة ١٦٣٩[2] وللأسف لم تصلنا أية نسخ من أى من المطبوعين.

أما أول كتاب وصلنا من مطبوعات هذه المطبعة فهو ذلك الذى طبع سنة ١٦٤٠م تحت عنوان «كتاب المزامير الكامل مترجم بكل أمانة إلى اللغة الإنجليزية»[3] ويعرف اختصاراً باسم «كتاب مزامير الخليج»[4]. وعلى الرغم من أنه قد طبع من هذا الكتاب ١٧٠٠ نسخة إلا أنه لم يصلنا منه إلا إحدى عشرة نسخة ليس من بينها سوى أربع نسخ فقط كاملة. وهذا الكتاب يقع فى ١٤٧ ورقة غير مرقمة ولم تسجل عليه بيانات الطبع. وربما يكون ستيفن داى قد طبع كتباً أخرى بين ١٦٤٠ و ١٦٤٣. على الرغم من أنه لم تصلنا عن تلك الفترة إلا قائمة بالرسائل العلمية التى ناقشتها كلية هارفارد وتاريخ طبع القائمة ١٦٤٣. وفى سنة ١٦٤٧ سلم ستيفن داى إدارة المطبعة إلى ابنه ماتيو، وفى تلك السنة ظهر الكتاب الأول والأخير الذى يحمل بيانات طبع ماتيو داى رغم أنه طبع عدة كتب أخرى لم يظهر عليها بيان الطبع بين ١٦٤٧ و ١٦٤٩ تاريخ وفاته.

وبعد وفاة ماتيو انتقلت المطبعة إلى «صامويل جرين» .الذى لم تكن له فى البداية خبرة أو معرفة بالطباعة إلا أنه لم يلبث أن تعلمها بسرعة وظل طابعاً نشيطاً حتى اعتزاله العمل سنة ١٦٩٢. وكانت أهم قطعة أخرجها من المطبعة هى الكتاب المقدس بلغة الهنود الحمر تحت إشراف المبجل «جون إليوت» وبتمويل من

(1) Freeman's Oath.
(2) William Pierce Almanack for 1639.
(3) Whole Booke of Psalmes Faithfully Translated into English Metre.
(4) Bay Psalm Book.

«هيئة نشر ودعم إنجيل يسوع المسيح فى نيو إنجلاند»[١]، وهى هيئة أنشئت خصيصاً بقرار من البرلمان وتعرف بشركة نيو إنجلاند وقد أرسل الورق والمعدات اللازمة من إنجلترا خصيصاً لهذا العمل وفى سنة ١٦٦٠م أرسلت الشركة طابعاً متمرساً من إنجلترا يدعى «مارمادوك جونسون» لمساعدة جرين فى طباعة هذا الكتاب. وقد ظهر «العهد الجديد» سنة ١٦٦١ فى طبعة من ١٥٠٠ نسخة لم يوزع منها إلا خمسمائة نسخة فقط. أما الألف الباقية فقد ظلت حتى سنة ١٦٣٣ حين اكتمل طبع العهد القديم وتم تجليد العهدين معاً فى مجلد واحد فى تلك السنة.

وبعد مشاجرة عائلية مع جرين غادر جونسون أمريكا عائداً إلى إنجلترا سنة ١٦٦٤، ولكن الشركة طالبته بالعودة وفعلاً عاد، ولكنه اعتزم إقامة مطبعة خاصة به فى بوسطون. وفى سنة ١٦٦٥ صدر أمر عام[٢] بمنع الطباعة فى المستعمرة إلا فى كمبردج فقط ومن ثم كان عليه أن يبقى هناك فى كمبردج حتى إلغاء ذلك الأمر العام سنة ١٦٧٤. ورغم أنه رحل فعلاً إلى بوسطون إلا أنه توفى قبل أن يتم إقامة المطبعة.

وفى سنة ١٦٩١م أشرك جرين ابنه «بارتولوميو» فى المطبعة ولكنه بعد أن اعتزل العمل سنة ١٦٩٢ وتوقف ابنه عن الطبع لم يعد هناك طباعة فى كمبردج لمدة تزيد عن مائة سنة قادمة.

وبعد خمسين سنة تقريباً من إنشاء مطبعة ماساشوستس، جاء «وليام برادفورد» الطابع من لندن إلى فيلادلفيا وأقام مطبعة هناك سنة ١٦٨٥ تحت رعاية جمعية الأصدقاء أو الكويكرز التى كان يرأسها آنذاك «وليم بن». وفى نفس السنة قام طابع إنجليزى آخر هو «وليم نوتهيد» بإنشاء مطبعة له فى مدينة سانت مارى فى ميريلاند بعد أن حاول لمدة ثلاث سنوات إقامتها فى فرجينيا دون جدوى لأن حكومة تلك المنطقة كانت تحظر الطباعة حظراً كاملاً. وعلى الرغم من عدم

(1) Corporation for the Promoting and Propagating the Gospel of Jesus Christ in New England.

(2) General Order of 1665.

وجود حظر على المطابع فى بنسلفانيا إلا أن الطباعة كانت مقيدة بقيود وتعليمات رسمية لاحد لها مما وضع وليام برادفورد فى مشاكل كثيرة مع السلطات هناك وكان أول إنتاجه تقويماً متواضعاً لسنة ١٦٨٦ ولكن ظهر فى بيان الطبع اسم «اللورد بن» ولكن السلطات وجدت ذلك غير لائق ومن ثم أعطته تعليمات صارمة بما يجب وما لايجب عمله. وبعد تسوية الخلاف بينه وبين السلطات قام برادفورد سنة ١٦٩٢ بطبع كتيب لحساب «جورج كيث» أحد أعضاء الكويكرز إلا أن المطبوع لم يرق لأعضاء الجمعية وقد قبض على برادفورد وآخرين بتهمة طبع وتوزيع كتيب محظور. ولقد تظلم للحاكم المشترك لكل من بنسلفانيا ونيويورك «بنيامين فلتشر» فأفرج عنه وأرضاه بأن عينه الطابع الملكى فى نيويورك. وهكذا حقق وليام برادفورد الحسنيين فى أن يكون أول طابع فى فيلادلفيا ونيويورك. ومن ثم تكون الطباعة قد دخلت إلى نيويورك لأول مرة سنة ١٦٩٣.

وترجع شهرة دخول الطباعة إلى فيلادلفيا (بنسلفانيا)، إلى أن هذه المدينة كانت موطن الخالد «بنيامين فرانكلين» لمدة سبعين عاماً على الأقل، كما أن هذه المدينة كانت النقطة المحورية للثورة الأمريكية. وقد قام الطابعون فى تلك المدينة من كلا الطرفين بتقديم كمية رائعة من المطبوعات تعتبر وثائق هامة وخطيرة فى تاريخ الصراع بين المستوطنين ووطنهم الأم. ومن بين العلامات الفارقة فى تاريخ الطباعة هنا الكتاب المقدس باللغة الإنجليزية وهو أول طبعة تصدر على الأرض الأمريكية، وكان ذلك سنة ١٧٨٢ من مطبعة «روبرت إيتكن». وكان للهجرة الألمانية الواسعة إلى بنسلفانيا وتحلق المهاجرين الألمان حول فيلادلفيا نتائج أساسية فى تطوير الطباعة هناك، وأنشئت أول مطبعة باللغة الألمانية فى كل أمريكا فى تلك المستعمرة أو المستوطنات سنة ١٧٣٨.

وفى ميريلاند لم يكن للطابع وليام نوتهيد أثر يذكر إلا أنه كان أول طابع يطأ أرض تلك المستوطنة وكان عمله فيها قصيراً ومات سنة ١٦٩٥، وقد خلفته فى عمله أرملته دينا أول امرأة تدير مطبعة فى أمريكا ورغم أنها كانت أمية تماماً إلا أنها استطاعت تحقيق بعض النجاح وقد تركت هذا العمل سنة ١٦٩٦. أما أول

طابع ناجح حقيقى فى ميريلاند فهو «وليام باركر» المواطن من لودلو فى إنجلترا وكان يعمل قبل ذلك لمدة عشر أو إحدى عشرة سنة فى مدينة أنابوليس اعتباراً من سنة ١٧٢٦ . وفى سنة ١٧٣٠م أقام فرعاً لمطبعته فى وليامزبيرج (فيرجينيا) ومن ثم فقد أصبح أول طابع حقيقى يدير طباعة فى المنطقة العتيقة. وفى سنة ١٧٣٧م ترك عمله فى أنابوليس وتفرغ كلية للطباعة فى فيرجينيا حتى وفاته سنة ١٧٥٠م.

وقد خلف باركز فى مطبعة أنابوليس «جوناس جرين» حفيد ساموبل جرين الذى أشرت إليه فى كامبردج (ماساشوستس) من قبل، والذى كان لخلفائه امتداد فى تاريخ الطباعة الأمريكية لمدة قرنين. وقد ابتدأ جرين الطباعة فى ميريلاند سنة ١٧٣٩م ومات هناك سنة ١٧٦٧م وقد أدارت أرملته وثلاثة من أبنائه وحفيده العمل حتى سنة ١٨٣٩ .

وثمة علم آخر فى تاريخ الطباعة الأمريكية هو «وليام جودارد» الذى أقام مطبعة فى بالتيمور سنة ١٧٧٣ بعد أن قضى فترة فى العمل الطباعى فى برفيدانس (رود آيلاند) وفى فيلادلفيا. وكان جودارد على قدر عال من الوطنية وقد اشترك فى النضال مع المستوطنين ضد بريطانيا. وفى سنة ١٧٧٤ وضع مطبعته فى بالتيمور فى يد أخته القديرة «مارى كاترين جودارد»، وتفرغ كلية لإنشاء شبكة بريد أمريكية تحل محل الشبكة البريطانية الضعيفة. وقد اعتمدت هذه الشبكة (مكتب البريد الأمريكى على أسس دستورية) سنة ١٧٧٥ من جانب الكونجرس القارى كبريد رسمى للحكومة الجديدة ثم تغير اسم الشبكة بعد ذلك إلى «مكاتب بريد جودارد» وهى الشبكة التى ما تزال تعمل حتى الآن فى الولايات المتحدة تحت اسم «خدمات البريد بالولايات المتحدة».

وفى نيويورك حقق وليام برادفورد منذ ١٦٩٣ وحتى اعتزاله العمل سنة ١٧٤٤ نجاحاً يحسد عليه كطابع وكمواطن. وفى سنة ١٧٢٥ بدأ طبع ونشر «مجلة نيويورك»[1]. وقد انتقل «آندور برادفورد» ـ أحد ولديه ـ إلى فيلادلفيا

(1) New York Gazette.

وأسس مطبعة ناجحة هناك استمرت على يد ابن أخيه وابنه بالتبنى «وليام برادفورد» الأصغر، وقد استمر ابن وليام برادفورد الأصغر وحفيده فى وراثة هذه المطبعة حتى سنة ١٨١٣.

ولعل الحدث التاريخى الهام فى حياة الطباعة فى نيويورك هى المحاولة التى قام بها «جون بيتر زنجر» حيث أرسى مبدأ حرية الصحافة وحرية الطباعة فى شمال أمريكا البريطانية. وقد كان زنجر صبياً ثم شريكاً فى مطبعة وليام برادفورد المشار إليها سابقاً. ولقد توفر على طبع ونشر «جريدة نيويورك الأسبوعية»[1] سنة ١٧٣٣ وكان ينشر فيها هجوماً مستتراً على الحاكم العام لمنطقة نيويورك ـ «وليام كوسباى» ـ وعلى إدارته. وقد أمر ذلك الحاكم بسجن زنجر بسبب ما جاء فى إحدى إصدارات تلك الجريدة، ولكن لجنة القضاء الكبرى رفضت ذلك. وعند محاكمة ذلك السجين زنجر كان المحامى الذى يدافع عنه فى أغسطس سنة ١٧٣٥ هو آندرو وهو محام قدير من فيلادلفيا. وقد دافع هذا المحامى دفاعاً مجيداً عن حرية الصحافة والطباعة فى نشر الوقائع والحقائق، تلك الحرية التى لم يكن يسمع عنها إلا فى إنجلترا وبعض دول محدودة.

أما فى منطقة كونكتكت فقد كان أول دخول الطباعة سنة ١٧٠٩م عندما ارتحل إليها «توماس شورت» قادماً إلى نيولندن من بوسطون وأخذ فى طبع المطبوعات الحكومية لحكومة مستوطنة كونكتكت. وكانت تلك المطبوعات ولمدة ثلاثين عاماً تطبع لدى صامويل جرين فى كمبردج أو لدى أخيه بارتولوميو فى بوسطون. وكان توماس شورت مرتبطاً برابطة مصاهرة مع أسرة جرين وربما كان شريكاً مع بارتولوميو فى عمله الطباعى. ولكن توماس شورت هذا أول طابع فى كونكتكت لم يلبث أن توفى سنة ١٧١٢ وعادت المستوطنة مرة أخرى إلى الاستعانة بأسرة جرين لطبع مطبوعاتها الحكومية. وقد استجاب لهذه الدعوة «تيموثى جرين» الأخ الأصغر لـ «بارتولوميو» وأقام مطبعة هناك سنة ١٧١٤..

(1) New York Weekly Journal.

وقد استمر هو وعشرة من خلفائه في الطباعة في كونكتكت لمدة قرن على الأقل.

وفى نيوجيرسى كان وليام برادفورد الذى أدخل الطباعة إلى بنسلفانيا ثم إلى نيويورك هو أيضاً أول طابع هناك، حيث كان قد طبع أوراق النقد الخاصة بتلك المستوطنة كما طبع القوانين واللوائح الخاصة بها سنة ١٧٢٣ فى بيرث أمبوى. وكان برادفورد قبل ذلك التاريخ وبعده أحياناً يطبع مطبوعات نيوجيرسى فى مطبعته فى نيويورك. وحوالى سنة ١٧٢٨م قام «صمويل كيمر» من فيلادلفيا وصبيه المدعو «بنيامين فرانكلين» بإقامة مطبعة فى بيرلنجتون لطباعة أوراق النقد الخاصة بمستوطنة نيوجيرسى والقوانين واللوائح الخاصة بها. ولكن أول مطبعة دائمة فى نيوجيرسى لم تبدأ إلا فى سنة ١٧٥٤ على يد «جيمس باركر» الذى أنشأ مطبعة فى وود بريدج مسقط رأسه بعد أن عمل فى نيويورك ما يربو على عشر سنوات.

وبعد نيوجيرسى كانت المحطة التالية لدخول الطباعة هى مستوطنة رود أيلاند التى كان أول طابع فيها هو «جيمس فرانكلين» أكبر إخوة ومدير مطبعة بنيامين فرانكلين لفترة. وقد ارتحل جيمس فرانكلين من بوسطون بسبب خلافاته الدائمة مع السلطات هناك إلى نيوبورت التى أنشأ بها مطبعته سنة ١٧٢٧، وقد توفى بها بعد ثمانى سنوات تاركاً مطبعته إلى أرملته «آن سميث فرانكلين» التى أدارت العمل بنجاح شديد طوال ثلاثين عاماً وكانت تستعين فى عملها بابنها وابنتيها الذين كانوا قد تدربوا على العمل تدريباً كبيراً. وكان جيمس فرانكلين الابن قد ذهب إلى فيلادلفيا حيث تدرب على الطباعة هناك فى مطابع عمه بنيامين فرانكلين وعاد إلى نيوبورت وأصبح شريكاً لأمه.

ومن الناحية التاريخية البحتة يعتبر وليام جودارد سابق الذكر من بين الطابعين الهامين فى رود أيلاند الذى تعلم الطباعة على يد جيمس باركر فى نيوهافن ونيويورك، وقد أقام مطبعته الخاصة فى بروفيدانس سنة ١٧٦٢، وقد ساعدته فى

عمله هذا أمه المدعوة «سارة أبدايك جودارد» ثم قاده عمله بعد ذلك إلى فيلادلفيا وأخيراً إلى بالتيمور، وقد أشرت من قبل إلى دوره الفعال فى إنشاء شبكة البريد الأمريكية، ولكن لابد من الإشادة بعمله الطباعى المتميز الذى جعله يسود ربما كافة المطابع التى كانت موجودة فى جميع أمريكا فى حينه.

وقد منع حظر الطباعة فى فيرجينيا قيام أية مطابع هناك حتى سنة ١٧٣٠ حين أنشأ وليم باركر المشار إليه سابقاً مطبعة فى وليامزبورج فى تلك السنة. ولقد كان باركر طابعاً ممتازاً بسبب ميله الطبيعى إلى الطباعة والأدب. ولعله من الطريف أن نشير إلى أن واحداً من أوائل مطبوعاته كان كتيباً من ١٦ صفحة عن الطباعة بعنوان : «التيبوغرافيا : قصيدة غنائية عن الطباعة»[1] كتبها باحث محلى وعرف عنه أن أنشأ مطبعة هنا فى وليامزبورج، وتعتبر هذه القصيدة أول عمل عن الطباعة فى أمريكا.

ومنذ سنة ١٧٢٢ قامت مقاطعة جنوب كارولينا بالبحث عن طابع يطبع لها لوائحها وقوانينها، ولكن دون جدوى حتى ١٧٣١ حين أعلنت المقاطعة عن مكافأة قدرها ١٠٠٠ جنيه بعملة المقاطعة لمن يتقدم لذلك، وقد تنافس ثلاثة من الطابعين فى الانتقال إلى تشارلستون للحصول على وظيفة الطابع الرسمى والثلاثة هم: «جورج ويب»، «توماس ويتمارش»، «إليعازر فيلبس الابن». وحتى الآن لا نعرف من هو أول طابع بينهم طبع فى جنوب كارولينا. ولكن «دوجلاس ماكمرتيرى» فى سنة ١٩٣٢ عثر على وثيقة فى دار الوثائق البريطانية (مكتب السجل العام) مؤرخة فى الرابع من نوفمبر سنة ١٧٣١م وتحمل بيان طبع «تشارلز تاون طبعها جورج ويب» وعلى وثيقة مطبوعة أخرى فى نفس دار الوثائق وتحمل بيان طبع «ويتمارش» ولكنها تحمل تاريخ طبع السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٧٣١م؛ كذلك.

ويبدو أن ويب وفيلبس لم يقوما بدور كبير فى طباعة مطبوعات جنوب

(1) Typographia : An ode on printing.

كارولينا الرسمية لأنهما لم يخلفا لنا آثاراً كثيرة، ويعتقد أن فيلبس توفى فى الوباء الذى اجتاح مدينة تشارلستون سنة ١٧٣٢، وكذلك توفى ويب حول ذلك التاريخ، ومن ثم يكونان قد تركا الساحة للطابع الثالث ويتمارش. وكان ويتمارش قد ذهب إلى تشارلتون (مدينة تشارلز) كشريك للطابع الشهير بنيامين فرانكلين الذى كان يعمل معه فى فيلادلفيا. وعندما توفى فى سنة ١٧٣٣ خلفه «لويس تيموثى» كشريك للطابع بنيامين فرانكلين كذلك فى تشارلستون. ولقد كون لويس تيموثى ومن بعده أرملته - إليزابث - وابنه «بيتر» وزوجة ابنه «آن» وحفيده «بنيامين فرانكلين تيموثى»، أسرة طابعة مؤثرة استمرت حتى ١٨٠٢م.

وكانت مقاطعة جنوب كارولينا منطقة زراعية ليس فيها إلا عدد قليل مما يمكن أن يسمى حواضر، ومع ذلك فقد تطورت الطباعة فى تلك المنطقة وإن كان ببطء وخرجت من مدينة تشارلستون إلى ما حولها فى غضون ذلك القرن الثامن عشر. وربما كان هذا هو نفس السبب ـ سيادة الزراعة ـ فى تأخر دخول الطباعة إلى شمال كارولينا، حيث لم تدخلها إلا سنة ١٧٤٩ عندما انتقل «جيمس ديفز» إلى نيوبيرن من فيرجينيا على الأغلب وأقام مطبعته هناك استجابة لطلب الحكومة الملح لطباعة قوانين المقاطعة ولوائحها. وقد استمر فى العمل هناك حتى وفاته سنة ١٧٨٥. ولم تتطور الطباعة فى هذه المقاطعة إلا ببطء شديد وكانت مقصورة فى الأعم الأغلب على المدن الصغيرة القليلة على شاطئ البحر حوله.

وطالما أننا فى سياق عرض تاريخى زمنى لدخول الطباعة إلى أمريكا الشمالية نقول إنه خارج ما يعرف الآن بالولايات المتحدة وداخل ما هو الآن كندا، فإنه فى شمال أمريكا البريطانية لم تدخل الطباعة إلا سنة ١٧٥٢ حين انتقل «جون بوشيل» من بوسطون إلى هاليفاكس (نوفا سكوتيا) وقد كانت مدينة جديدة لتوها وأقام مطبعته هناك. وكان المغامر الأول فى تلك المنطقة هو الطابع «بارتولوميو جرين» الذى سبق ذكره حفيد طابع كامبردج الذى أراد أن يجرب حظه فى برارى نوفاسكوتيا وهو فى سن الخمسين؛ ولكنه توفى هناك بعد بضعة أسابيع من وصوله إلى هاليفاكس ومن ثم وقعت الريادة فى الطباعة على عاتق وأكتاف

«بوشيل» سنة ١٧٥٢م المواطن من بوسطون الذى اكتسب شهرته فقط من أنه كان أول طابع فى كندا.

ولنعد مرة أخرى فى سياقنا التاريخى إلى الولايات المتحدة وحيث دخلت الطباعة لأول مرة سنة ١٧٥٦ إلى نيوهامبشاير حيث أقام «دانييل فويل» مطبعته فى بورتيسماوث بعد أن مل من العقبات التى وضعتها أمامه سلطات مدينة بوسطون. وفى منطقة دلاور رغم صعوبة الحياة الاقتصادية أقام «جيمس آدامز» مطبعته فى ويلنجتون سنة ١٧٦١ وكان أول طابع هناك. وفى جورجيا آخر المستوطنات لم تدخل الطباعة إلا فى سنة ١٧٦٣م أى بعد أكثر من قرن من بداية دخول الطباعة إلى أرض أمريكا الشمالية البريطانية. وكان أول من أدخل الطباعة إلى جورجيا هو «جيمس جونستون» ـ مهاجر سكوتلندى جديد ـ حيث أقام مطبعته فى مدينة سافانا أساساً لطبع المطبوعات الحكومية.

وفى سنة ١٧٦٤ قام «وليام براون» و «توماس جيلمور» ـ وكلاهما من فيلادلفيا ـ بالارتحال شمالاً خارج حدود الولايات المتحدة أى داخل كندا وأقاما مطبعة فى كويبك وأصبحا الطابعين الرسميين لدى حكومتها. وكان أول مطبوع نشراه هو «مجلة كويبك»[1] التى طبعت بالإنجليزية والفرنسية، وقد أتبعت بالعديد من المطبوعات الرسمية وبعض كتب تعليم القراءة والكتابة. وعندما توفى جيلمور سنة ١٧٧٢م استمر براون فى العمل وكون ثروة معتبرة من ورائها.

ويعتقد بعض الثقاة أن هناك شكوكاً حول المعلومات التى تواترت بأن الأسقف «بونتبرياند» ـ آخر الرؤساء الكنسيين لدوقية كويبيك فى الحكم الفرنسى ـ كانت لديه مطبعة شخصية صغيرة حوالى سنة ١٧٥٩. وقد دخلت الطباعة إلى لويزيانا تحت الرعاية الفرنسية سنة ١٧٦٤ على يد «دينيس برود»، وهو أول طابع يقيم مطبعة هناك. وكان أول مطبوع طبعه هو إعلان رسمى عام يعلن فيه ملك فرنسا أنه تخلى عن لويزيانا للأسبان.

(1) Quebec Gazette.

وعودة إلى كندا حيث كان أول طابع فى مونتريال هو «فليرى ميسبليت» وهو رجل فرنسى، وكان أول عمل يطبعه هناك كتاب باللاتينية لحساب مؤسسة دينية صقلبية وجاء بعنوان «مطبوع رسمي للحكومة»[1] سنة ١٧٧٧ وبعده مباشرة أصدر «المجلة الأدبية»[2] وكلها باللغة الفرنسية. وقد أغضبت مقالاتها السلطات الحاكمة التى كانت تنظر إلى الطابع نظرة شك منذ البداية، ولم تلبث أن وضعت ميسبليت فى السجن بعد انتهاء السنة الأولى للمجلة، ولكن بعد فترة أخلى سبيله وسمح له بممارسة الطباعة مرة أخرى سنة ١٧٨٢ ولذلك كان مطبوعه الثانى هو «مجلة مونتريال»[3] التى حققت نجاحاً كبيراً. وقد توفى فليرى ميسبليت سنة ١٧٩٤.

وقد دخلت الطباعة إلى كندا العليا بمبادرات من جانب الحاكم العام «جون سيمكو» الذى عين «لويس روى» طابعاً ملكياً فى تلك المقاطعة. وكان روى يعمل قبل ذلك فى كويبك. وقد أسست مطبعة فى نيو آراك سنة ١٧٩٣م توفرت على إصدار «جريدة كندا العليا»[4] وعلى العديد من المطبوعات الحكومية التى ساهمت مساهمة فعالة فى تطوير تلك المنطقة.

وفى الولايات المتحدة عوقت الثورة الأمريكية انتشار الطباعة إلى مناطق أخرى ولكن فى سنة ١٧٨٠ ـ وقد قاربت الثورة على نهايتها ـ قام «جودا بادوك سبونر» وهو يمت إلى عائلة جرين بصلة المصاهرة، بإنشاء مطبعة فى الولاية الجديدة: فيرمونت وذلك فى مدينة ويستمنتر. وبعد أن وضعت الثورة أوزارها قام «بنيامين تتكومب» بإنشاء مطبعته فى فالماوث (بورتلاند الآن) سنة ١٧٨٥ ومن ثم أصبح أول طابع فى منطقة مين التى كانت مجرد مقاطعة تحت إدارة ماساشوستس.

ومن الجدير بالذكر أن الطابعين فى المستوطنات الأمريكية البريطانية غالباً ما

(1) Officium in Domini Nostri.
(2) Gazette Litteraire.
(3) Montreal Gazette.
(4) Upper Canada Gazette.

كانوا يصدرون جرائد إلى جانب المطبوعات غير الدورية حتى لا تتوقف مطابعهم عن العمل. وربما كان الدافع الحقيقى وراء انتشار المطابع فى المستوطنات الأمريكية هو ضرورة طبع القوانين واللوائح وتوزيعها على أوسع نطاق ممكن بين الناس للعمل بها. وكانت هناك منافسة حادة بين المستوطنات على تعيين «طابع ملكى» أو «طابع الملك» أو «طابع التاج» وكانت مثل هذه الوظيفة تضمن للطابع وضعاً رسمياً ودخلاً ثابتاً. وفى نهاية الثورة الأمريكية كانت بوسطون، نيويورك، فيلادلفيا قد برزت كمراكز طباعية هامة فى أمريكا، وغدت المطابع المحلية المصدر الرئيسى لإمداد المواطنين بالمواد القرائية لسد احتياجاتهم الثقافية.

وفى الأعم الأغلب ـ كما كان الحال فى العقود الأولى للطباعة فى أوربا - كان الطابع فى أمريكا هو الناشر فى نفس الوقت وإن كان بعض الناشرين غير الطابعين قد بدأوا فى الظهور.

وكان مكتب المطبعة هو فى نفس الوقت متجر الكتب فى كثير من المدن. وكان الطابعون يعلنون بانتظام عن الكتب التى يستوردونها من إنجلترا أو من المراكز الأمريكية الكبرى، كما يعلنون عن الكتب والكتيبات التى يطبعونها سواء بسواء.

وفى ظل الحكم البريطانى لأمريكا كانت حكومات المستوطنات تضع المطابع تحت سيطرتها المباشرة الصارمة، وكانت تسرع بسحق أى طابع يخرج عن حدود الحرية المسموح له بها. وتحفل الوثائق والسجلات بالعديد من الحالات التى أنذر فيها الطابعون أو غرموا غرامات متفاوتة، بل وسجنوا كما رأينا من قبل لأنهم جرأوا على طباعة شىء لم توافق عليه السلطات، أو كان الطابع لم يحصل على إذن مسبق بطباعته. ومن هنا جاءت الجرائد الأمريكية بلا طعم أو لون واشتملت غالباً على أخبار خارجية دون أية أخبار محلية تقريباً، وقبل أن تسوء العلاقات بشدة مع الموطن الأم كان هناك أعمدة رأى خفيفة تنقد الحكومة بطريقة غير مباشرة إن أمكن.

ولكن بعد حصول المستوطنات على الاستقلال رفعت القيود تماماً عن الصحف وأكثر من هذا فإنه بعد قيام الحكومة الجديدة للولايات المتحدة فتح الغرب الأمريكى للهجرة والتوطن ومن ثم فتحت آفاق جديدة للريادة فى كل المجالات. ومن ثم اندفع المهاجرون صوب الغرب وزحفت المطابع معهم حتى خلف المناطق المحددة للهجرات، أى ما وراء نهر مونوجاهيلا و نهر أليجانى. وقد بدأ الطباعة فى ذلك الغرب طابعان من فيلادلفيا هما «جون سكول» و «جوزيف بويد» اللذان أصدرا «مجلة بتسبرج»[1] والتى ظهر أول عدد منها فى التاسع والعشرين من يوليو ١٧٨٦ وهو تاريخ فارق فى حياة الصحافة الأمريكية لأنه أول عدد من صحيفة تتجه نحو الغرب الأمريكى.

وفى السنة التالية - أى ١٧٨٧م - بدأ «جون برادفورد» - وهو صحفى من فيرجينيا - بإصدار «مجلة كنتكى»[2] فى لكسنجتون. وكان شقيقه «فيلدنج برافورد» قد تعلم ما استطاع تعلمه من الطباعة خلال تتلمذه على يد «جون سكول» فى بتسبرج وقد جهز مطبعة صغيرة عبر بها نهر أوهايو. ومن خلال المساعدة الفنية التى استطاعا الحصول عليها من «توماس بارفين» - وهو طابع عجوز من فيلادلفيا - أدخل الأخوان برادفورد الطباعة إلى كنتكى التى ظلت المطبعة الوحيدة لمدة جيل كامل فى الغرب الأمريكى كله. وفى سنة ١٧٩١ قام «جورج رولستون» - وهو طابع من مدينة سالم - ماساشوستس كان يعمل فى فايتفيل - كارولينا الشمالية مع «روبرت كشريك، قام بعبور الجبال مع معداته الطباعية وأقام مطبعة فى روجزفيل هى الأولى فى تنيسى. وفى سنة ١٧٩٣ قام وليام ماكسويل وهو طابع ومحارب قديم فى الثورة الأمريكية بعد اشتغاله بالطباعة لفترة فى لكسنجتون بالعبور إلى أوهايو وإقامة أول مطبعة هناك فى أوهايو فى سنسناتى وقد نشر فى التاسع من نوفمبر من تلك السنة العدد الأول من «مئوية منطقة الشمال الغربى»[3].

ولقد نما الغرب الأمريكى وتطور بسرعة فائقة حيث تقاطر السكان بمعدل كبير يدعو للدهشة. وفى سنة ١٨٠٤م أصبح هناك عدد كاف من المستوطنين فى

---

(1) Pittsburgh.

(2) Kentucky Gazette.

(3) Centinel of the North - Western.

براري إنديانا يحتاج إلى خدمات طباعية. ولقد قام «إليهو ستوت» ـ الذى عمل مع جون برادفورد فى كنتكى ـ بإدخال الطباعة إلى تلك المنطقة فى فيسينز مقر حكومة المنطقة فى ذلك الوقت. وفى سنة ١٨٠٨م عبرت المطبعة نهر المسيسبى لأول مرة عندما أسس «جوزيف تشارلس» ـ وهو طابع أيرلندى عمل فى فيلادلفيا ثم فى كنتكى بـ لكسنجتون و لويزفيل ـ «معجلة ميسورى» فى المستعمرة الفرنسية القديمة فى سانت لويس. ولقد دخلت الطباعة واستقرت فى ميتشجان سنة ١٨٠٩ على يد المبجل «جابرييل ريتشارد» وهو قسيس من قساوسة البعثات التبشيرية الكاثوليكية الشجعان ـ حيث جلب الطابع جيمس ميللر من يوتيكا فى ولاية نيويورك لطبع الكتب الدراسية والدينية له فى ديترويت. ولقد كانت هناك مطبعة سابقة فى ديترويت قبل ذلك، حيث تكشف الوثائق عن أن طابعاً اسمه «جون ماك كول» كان يعمل هناك فى الفترة من ١٧٩٦ إلى ١٨٠٥.

وفى نفس الوقت اندفعت الطباعة نحو الجنوب فدخلت إلى فلوريدا سنة ١٧٩٣ على يد «جون ويلز» و «وليام تشارلز ويلز» وهما لاجئان من المدينة الثائرة مدينة تشارلستون، وقد استأنفا فى مدينة سانت أوغسطين إصدار جريدة كانا يصدرانها هناك فى مدينتهما فى كارولينا الجنوبية. ومع ذلك لا يمكننا القول بأن الطباعة قد استقرت في فلوريدا قبل سنة ١٨٢١م أى بعد أن اشترت الولايات المتحدة تلك المقاطعة من أسبانيا. وفى المسيسبى قام «أندرو مارشولك» ـ وهو طابع وضابط سابق فى الجيش ـ بإنشاء مطبعة صغيرة فى وولنت هيلز بالقرب من ناتشيز سنة ١٧٩٨. ولقد استمر مارشولك فى عمله الطباعى هناك فى المسيسبى طيلة أربعين عاماً. وفى ألاباما قام طابع مجهول بالطباعة هناك منذ ١٨٠٧ بحروف قديمة متهالكة فى موقع يقال له ويكفيلد وقد اختفى هذا الموقع الآن. ولعل أقدم طابع فى ألاباما وصلنا ذكره هو «ب. ج. فوستر» الذى ظهر بيانه فى سانت ستيفنز مبكراً فى ١٨١١. وفى نهاية نفس السنة قام كل من «صامويل

ميللر» و «جون ب. هود» بإصدار جريدة فى مدينة فورت ستودرت، وهى منشأة عسكرية مؤقتة على بعد أميال قليلة من مدينة موبيل.

وقد اقتطعت منطقة إلينوى من إنديانا سنة ١٨٠٩ واتخذت عاصمة لها مدينة كاسكاسكاى، وهى مدينة صغيرة كانت على نهر المسيسبى ولم تلبث أن اختفت منذ فترة طويلة. ولما لم تكن هناك طباعة فى المنطقة الجديدة هذه فقد تم طبع أول كتاب لقوانينها فى سنة ١٨١٣ فى روسيلفيل - كنتكى على يد الطابع «ماتيو دونكان». وهى المدينة التى جاء منها أول حاكم لإلينوى «نتيان إدواردز». ولكن مع ربيع ١٨١٤ مست الحاجة إلى وجود طابع محلى، ولذلك تم إغراء ماتيو دونكان بالانتقال إلى كاسكاسكاى من روسلفيل، ومن ثم أصبح أول طابع فى إلينوى.

ومع سنة ١٨٣٠م أنشئت خمس ولايات جديدة فى الغرب وضمت إلى الاتحاد، ومن ثم دخلت الطباعة فى فترات متلاحقة وصدرت هناك نحو مائتى جريدة وعشرات المطبوعات التى تلبى احتياجات السكان الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية. وحتى ذلك الوقت كان المهاجرون إلى الغرب يتبعون نهر أوهايو أو يعبرون مضايق الجبال من فيرجينيا وكارولينا الشمالية إلى تنيسى. ولكن الموجة الثانية من المهاجرين التى جاء أغلبها من نيوإنجلاند ونيويورك اتبعت وادى الموهول وعبرت البحيرات العظمى، وهذه الموجة هى التى عمرت ميتشجان والأجزاء الشمالية من أوهايو و أنديانا وإلينوى ووصلت إلى ويسكوسن ويمكننا تركيز انتشار الطباعة فى منطقة غرب المسيسبى فى التواريخ الآتية:

- تكساس ١٨١٧
- أيوا ١٨٣٦
- منيسوتا ١٨٤٩
- نيفادا ١٨٥٨
- كولورادو ١٨٥٩

ولقد قامت جماعة المورمون بإنشأ مطبعة فى مدينة سولت ليك فى يوتا اعتباراً من ١٨٤٩ . وفى كاليفورنيا و نيومكسيكو دخلت الطباعة سنة ١٨٣٤ بجهود مكسيكية فى الحالتين. وقد حفظت لنا السجلات بعض محاولات الهواة قبل ذلك التاريخ بسنتين أو أكثر فى إنتاج مطبوعات بدائية فى كاليفورنيا قبل إنشاء المطابع الرسمية المنتظمة هناك. وقد دخلت الطباعة إلى أوريجون لأول مرة سنة ١٨٤٦ وإلى واشنطون (الولاية) سنة ١٨٥٢ وإلى أريزونا سنة ١٨٥٩ . وقد أدت رغبة المبشرين المسيحيين فى إدخال الهنود الحمر فى الدين المسيحى إلى إدخال الطباعة إلى المنطقة التى تعرف الآن بـ: تكساس ١٨٣٤ و أوكلاهوما ١٨٣٥ وإيداهو سنة ١٨٣٩ . وكانت آخر الولايات التى دخلتها الطباعة هى مونتانا ويومنج حيث دخلت الطباعة إلى كل من الولايتين سنة ١٨٦٣ و داكوتا الشمالية التى بدأت الطباعة فيها سنة ١٨٦٤ .

وحيثما استقر السكان الجدد، ذهبت الطباعة إليهم لتطبع لهم الجرائد الصغيرة فى المستوطنات البدائية، وعلى الأطراف وفى البرارى بعيداً عن العمران القديم. ولقد عرض الطابعون الأول هناك أنفسهم للمهالك والأخطار. وفى الحقيقة لقد لعب هؤلاء الرواد دوراً كبيراً فى كسب الغرب الأمريكى وصنع أمريكا.

بعض الطابعين الناشرين فى الولايات المتحدة.

لاحظنا فى العقود الأولى للطباعة أن أوائل المطبوعات على الأقل فى المائة سنة الأولى من ظهور الطباعة فى أوربا كانت تحتذى المخطوطات الرائعة وتقلدها ثم بدأ بعد ذلك فى فترة الرفاهية الطباعية التفنن فى إنتاج كتب جميلة مبتكرة حيث كان الوقت متسعاً أمام المصممين والطابعين لإنتاجها بهدوء وحيث وجد المشترون الذين يدفعون فيها الثمن الغالى. ومن الغريب أنه لم يبرز فى أمريكا طابع على مستوى عالمى قبل العقد الأخير من القرن التاسع عشر يضع اسمه على قائمة الأسماء التى تضم مشاهير الطابعين فى أوربا. ونستعرض على الصفحات

التالية بعض الطابعين - الناشرين الذين كانت لهم على الأقل بصمات على الكتاب الأمريكى المطبوع؛ وذلك حسب الترتيب الزمنى لحياتهم الخاصة والعملية.

بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ - ١٧٩٠)[١].

اجتذبت الطباعة الأوربية بعض مواليد أمريكا ليتعلموها هناك من أصولها فى إنجلترا ودول أوربا القارة، ومن بين هؤلاء «بنيامين فرانكلين» الذى كان طابعاً جائلاً وقضى سنتين فى مطابع لندن كمنضد للحروف. وفى سنة ١٧٣٠ وهو فى سن الرابعة والعشرين أسس مطبعته الخاصة فى فيلادلفيا. وقد دفعه نجاحه المالى السريع خلال العشرين سنة التالية إلى اعتزال الطباعة وهو فى أوائل الأربعينيات من عمره ويعمل فى مجالات أخرى عديدة تلائم أفقه الواسع. ونحن نعلم أنه كان متيماً بكتب باسكرفيل، بودونى، ديدوت، وفعلاً أنتج بعض الكتب الجميلة وربما كان أحسن إنتاجه والذى يقال إنه المفضل عنده هو كتاب شيشرون «الكاتو الكبير»[٢] والذى طبع بحرف كاسلون الذى استورده فرانكلين، وقد جاءت صفحة عنوان هذا الكتاب فى لونين. وهذا الكتاب عادى ليس أكثر من جهد إنسان واحد متقن لصنعته. وقد قام بترجمة النص إدارة العدالة فى ولاية بنسلفانيا. وقد قال فرانكلين فى مقدمة كتابه [من الطابع إلى القارئ] «أمنيتى القلبية أن تكون هذه الترجمة الأولى لكتاب كلاسيكى فى نصف الكرة الغربى مقدمة لكتب أخرى تتلوها تحقق نفس المستوى ونفس النجاح، وأن تكون بشير فأل حسن فى أن تصبح فيلادلفيا مقعد ربات الفنون الأمريكية».

إشعيا توماس (١٧٤٩ - ١٨٣١)[٣].

كان «إشعيا توماس» واحداً من أنجح الطابعين الناشرين الأوائل فى المستوطنات الأمريكية. وقد أقام مطبعة فى ماساشوستس سنة ١٧٧٠م، وقد توسعت حتى غدت اثنتى عشرة مطبعة ومكاتب فرعية وورش تجليد ومصنع ورق. ويبرز من بين مطبوعاته العديدة أول طبعة من الكتاب المقدس فى أمريكا

(1) Benjamin Franklin.

(2) Cicero. Cato Major. Philadelphia, 1744.

(3) Isaiah Thomas.

مصور ومن القطع الكبير ١٧٩١، وكذلك أول كتاب فى النحو اليونانى، وأول قاموس أمريكى وكتاب نماذج الأبناط، إلى جانب الجرائد والمطبوعات الرسمية. وقد قضى السنوات الأخيرة من حياته فى كتابة كتاب علمى عن الطباعة فى مجلدين ونشر سنة ١٨١٠ بعنوان: تاريخ الطباعة فى أمريكا[1] واستعرض فيه أيضاً تطور الطباعة الأوربية منذ يوحنا جوتنبرج، ولو لم يكن الرجل مبدعاً مجدداً فى فن الطباعة لأصبح باحثاً متميزاً فى الولايات المتحدة. وهو الذى أسس جمعية العاديات الأمريكية فى ووركستر - ماساشوستس التى مازالت موجودة حتى الآن.

ومما ورد فى ذلك الكتاب أنه فى سنة ١٨٠٧ قام «فراى» و «كاميرر» فى فيلادلفيا بطبع مجلد صغير من قطع متوسط بعنوان «كولومبياد»[2] وهو قصيدة ملحمية طويلة كتبها «جويل بارلو» وكانت الحروف المستخدمة من تصميم وسبك «بنى» و «رونالدسون» أول أنجح صاحبى مسبك حروف فى أمريكا. وكانت تلك الحروف أقرب ما تكون إلى حروف «بلمر» فى لندن. وكان هذا الكتاب حالة فردية فى إنجازه المتميز فى ظل الإمكانيات المحدودة فى القارة الأمريكية فى القرن التاسع عشر.

ومع تقدم العقود فى القرن التاسع عشر بدأ الفصل بين الطابع والناشر يتضح، وغدت نيويورك هى مركز النشر الأول فى الولايات المتحدة، وظهر فيها فى نهاية القرن الناشرون اللامعون من أمثال «هاربر»، «سكربنر»، «بوتنام»، «آبلتون»، وغيرهم كثيرون.

تيودور لو دى فين (١٨٢٨ - ١٩١٤)[3].

بدأ «تيودور لو دى فين» فى تعليم الطباعة سنة ١٨٤٣ وهو فى سن الرابعة عشرة، وكان يعمل منضداً عندما كانت الكتب والدوريات ماتزال تجمع باليد.

---

(1) Isaidh Thomas. History of printing in America, 1810.

(2) Joel Barlow. Columbiad.

(3) Theodore Low de Vinne.

وعندما أقام مطابعه الخاصة رحب بالتطورات الجديدة التى حدثت فى مجال التنضيد والطبع والتجليد بحيث عندما وافته المنية فى سنة ١٩١٤ كانت دار طباعته التى تتألف من ستة طوابق فى نيويورك تضم أحدث الآلات والماكينات. وكان دى فين يطبع مجلة «القرن»(١) بحرفها المتميز، «قاموس العصر» ومجلات هاربور ومجلات سكربنر التى بذل فى إخراجها كل ما فى جعبته من فن طباعى جميل. ورغم أن دى فين لم يكن من المصممين المبدعين إلا أنه حافظ على المعايير والمستويات العالمية وحاز احتراماً واسعاً فى صناعة الكتاب. وكانت له مكتبة شخصية كبيرة قوامها ستة آلاف مجلد من بينها حوالى مائة مهادية أفاد منها كثيراً فى كتابة مؤلفه القدير عن «اختراع الطباعة»(٢) الذى نشر سنة ١٨٦٦. وقد كتب عنه ستانلى موريسون بعد مائة سنة ١٩٦٣: «لم يحل أحد محل أستاذية دى فين فى هذا المجال». ومن كتب فين الأخرى دليل من أربعة مجلدات عن ممارسة الطباعة بعنوان «ممارسة الطباعة»(٣) والذى يضم فكر الرجل وخبرته العملية فى المجال. ونظراً لمكانة الرجل وإسهاماته العديدة تلقى بعض الدرجات الفخرية من جامعتى كولومبيا وييل. والرجل هو مؤسس والرئيس الأول لـ «نادى جروليبه»(٤) سنة ١٨٨٤. هذا النادى يهدف إلى «دراسة وتطوير فنون إنتاج الكتاب».

والحقيقة أن الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى أمريكا شهد تطورات كبيرة فى مجال صناعة الكتاب. فى سنة ١٨٧٠م أسست متاحف الفنون الكبرى فى نيويورك و بوسطون. وأصبح هناك تيار من الوعى الشامل بالفنون والحرف، وعقب ذلك مباشرة قامت جماعات من أهل نيويورك بتكوين «نادى جروليبه» فى نيويورك كما أسلفت و «نادى المجلدات غير العادية»(٥) فى بوسطون. وقد ضم مركز الثقافة الأمريكية - نيويورك - فى التسعينات خليطاً رائعاً من شباب:

(1) Century.
(2) Theodore Low de Vinne. The invention of printing, 1876.
(3) Theodore Low de Vinne. The practice of typogaphy.
(4) Grolier Club.
(5) The Club of Odd Volumes.

الطابعين، المصممين، الناشرين من ذوى المواهب الخاصة فى مجال صناعة الكتاب. من بين هذا الخليط خرج «دانييل بيركلى أبدايك» الطابع الباحث؛ «بروس روجرز» مصمم الحروف العظيم، وهما أول أمريكيين يكون لهما بصمات واضحة فى تاريخ وتطور الكتاب المطبوع.

توماس بيرد موشر (١٨٥٢ ـ ١٩٢٣)[1].

بدأ «توماس بيرد موشر» الطباعة فى بورتلاند بولاية مين سنة ١٨٩١ واستمر حتى ١٩٢٣، وقد نشر خلال تلك الفترة ٤٠٠ عنوان وكانت كتبه متواضعة فى صنعتها وأسعارها وتصميماتها ولكنها كانت ذات جاذبية خاصة، وكان يتوفر على تصميم كتبه بنفسه ويشرف على إنتاج الكتب فى المطابع الصغيرة المجاورة. وكما عبر موشر فى بداية حياته العملية كان يتمنى أن يأتى اليوم الذى ينشر فيه كتباً «جميلة الإخراج تكون أسعارها فى متناول هؤلاء الذين يتذوقون الجمال ولكن لا يقدرون على دفع تكاليف اقتنائه». وقد انتهز فرصة عدم وجود قانون أمريكى لحماية المؤلفين وطفق بنشر أعمال المؤلفين الإنجليز التى لم تنتشر على نطاق واسع فى أمريكا. ولقد اتهم بالقرصنة ولكن أحداً من المؤلفين الذين نشر أعمالهم لم يعترض. وفى سنة ١٨٩٢ كتب «جورج ميريدث» إلى موشر: «سيدى إن القرصان الأنيق هو شبه معذور. وهو فى هذه الحالة يكسر فقط القوانين العليا. ولسوف أتلقى بكل سرور نسخة من «الحب الحديث» التى يفترض أن تبعث بها إلى. إن مما يدخل السرور على قلبى أن يقرأ الأمريكيون كتبى».

دانييل بيركلى أبدايك (١٨٦٠ ـ ١٩٤١)[2].

دانييل بيركلى أبدايك هو سليل أسرة عريقة شهيرة فى نيوإنجلاند. وقد بدأ حياته سنة ١٨٨٠ كساعى فى شركة هوتون، ميفلين وشركاهما للنشر، وهى الشركة التى نشرت للمؤلفين الكبار من أمثال «ثورو»، «هوثورون» وغيرهما. وكان هؤلاء الناشرون هم فى نفس الوقت أصحاب مطبعة ريفر سان، وهى دار طباعة

(1) Thomas Bird Mosher.

(2) Daniel Berkeley Updike.

من الطراز الأول. وبعد عشر سنوات فى المطبعة قرر أبدايك الصغير ـ كما قال فى مذكراته[1] ـ أن «يشتغل عند نفسه». وكان فى البداية يحاول أن يصمم ويخرج الكتب للمطابع الراسخة، ولكنه بعد ذلك قرر أن يكون له مطبعته الخاصة حتى يتحكم فى إخراج الكتب. وفعلاً أسس مطبعته سنة ١٨٩٣ تحت اسم «مطبعة ميريمونت»[2] ولقد نجح فى أعمال الطباعة نجاحاً كبيراً، وقد فسر ذلك فى مذكراته بعبارة كلاسيكية بليغة حين قال «ربما كان السبب فى استمرارى على الرغم من أخطائى أنه كلما سنحت لى فكرة جديدة قمت على الفور بتنفيذها، وطالما أنه كان لى مطبعتى الخاصة فقد كانت عندى الحرية الكاملة فى تنفيذها».

لقد أعطى أبدايك للمطبعة مكانة مرموقة ووقاراً وقيمة علمية لأنه جاء من بيئة غير عادية، فكانت مطبعته ومكتبته الكبيرة وعملاؤه وعمله انعكاساً لهذا التراث. لقد تأثر فى البداية بما كانت عليه مطبعة كيلموسكوت التى أشرت إليها من قبل، ولكنه لم يلبث أن طور نموذجه الخاص وأسلوبه المتميز المختلف عن الأسلوب الإنجليزى فى القرن الثامن عشر. لقد كان لعمله بنية وعمق. ولقد كان الرجل يختار بعناية حروفه وزخارفه فى وقت كانت المصادر فيه عزيزة وقليلة ومبعثرة. وقد كلف المعمارى «برترام جروسفينور جودهو» الذى كان قد صمم شلتنهام بتصميم حرف «ميريمونث» الذى لم ينجح كثيراً، ولقد كان عملاء أبدايك الرئيسيون: الجامعات، دور النشر، جماعو الكتب، نوادى الكتب، المؤسسات الثقافية، والكنيسة. لقد خلد أبدايك نفسه فى الكتاب الذى طبعه تحت عنوان «كتاب الصلاة العامة»[3] الذى طبعه سنة ١٩٣٠، والذى كشف عن خبرة طباعية غير عادية ومعرفة واسعة باللاهوت ومعرفة واسعة بطباعة كتب الشعائر.

ولقد أهدى أبدايك عالم الطباعة كتابه الأكاديمى الرائع «أبناط الطباعة: تاريخها وأشكالها واستخداماتها»[4] والذى جاء ثمرة سلسلة من المحاضرات ألقاها

---

(1) Danil Berkeley Updike. Notes on the Press and its work.
(2) Merrymaunt Press.
(3) The Book of Common Prayer.
(4) Daniel Updike. Printing types: their history, Forms and use. 1922.

فى جامعة هارفارد، ونشرته مطبعة جامعة هارفارد سنة ١٩٢٢م وأعيد طبعه عدة مرات. وهذا الكتاب يعتبر حجر زاوية فى أية دراسة عن تاريخ الطباعة. وكما سبق القول فإن أبدايك لم يكن طابعاً عادياً بل طابعاً باحثاً.

جون هنرى ناش (١٨٧١ ـ ١٩٤٧)(١)

مطبعة جرابهورن (١٩١٩ ـ ١٩٦٥)

تتغزل المصادر فى مطبعة جرابهورن بقولها: إن هذه المطبعة هى مركز ثقافى إقليمى وحضرى على شاطئ المحيط الهادى الأمريكى خلال النصف الأول من القرن العشرين؛ أنتج مجموعة من الطابعين المثقفين المهرة، ويقف خلفه نوادى كتب مخلصة فى سان فرنسسكو و لوس أنجلوس، ومكتبة هنتنجتون فى سان مارينو، ومجموعة متميزة من جماعى الكتب. لقد كان «جون هنرى ناش» هو أول مصمم ـ طابع متميز ذائع الصيت كان جماعو الكتب يلهثون وراء كتبه كبيرة الحجم، وهو أول من طبع فهرساً مفصلاً لبعض جماعى الكتب الأغنياء الذين يعيشون فى كاليفورنيا. وينظر النقاد إلى طبعته لأعمال «دانتى» ١٩٢٩ ذات المجلدات الأربعة على أنها أحسن ما طبع. كذلك فإن الكتب التى كان يطبعها «إدوين» و«روبرت جرابهورن» فى مطبعتهما «جرابهورن» فى سان فرنسيسكو على أنها من أفخم الكتب التى كان جامعو الكتب يسعون إليها طوال أربعين عاماً. ومازال الجماعون يلهثون وراء كتابهم كبير الحجم «جون مونديفيل»(٢) المطبوع سنة ١٩٢٨ والمأخوذة صوره عن الكتل الخشبية التى صممها «فالنتى أنجيلو» واستخدمت فيه حروف «جيسين» من تصميم «كوخ» وطبع لحساب دار راندوم فى نيويورك. ويقال إن كتاب مطبعة جرابهورن المعنون «أوراق الحشيش»(٣) المطبوع سنة ١٩٣٠ بحروف جودى «الأسلوب الجديد» هو أحسن عمل أخرجوه، ولكن البعض يؤكد على أن كتاب «جون مونديفيل» أكثر جاذبية وروعة.

---
(1) John Henry Nash, Grabhorn Press.
(2) John Maundeville.
(3) Leaves of Gnass.

إلمر أدلر (١٨٨٤ ـ ١٩٦١)[1].

عمل «إلمر أدلر» فى شبابه مدير إعلانات لشركة ملابس كانت تملكها أسرة كبيرة فى روشستر فى نيويورك. وعندما اشتغل فى الدعاية والإعلانات لدى المطابع ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمطبوعات الماضى وقاده ذلك إلى تكوين مكتبة شخصية رائعة من الكتب القديمة والمعاصرة والصور. ولقد أراد هذا الرجل أن يتحدى نفسه فقرر إنشاء مطبعة فى نيويورك سيتى سنة ١٩٢٢ باسم «بنسون للطباعة»[2]، وذلك لطباعة الكتب الجميلة ومواد الدعاية للناشرين وجماعى الكتب ولشركات الأثاث. وعلى مدى الثمانية عشر عاماً التى عاشتها هذه المطبعة كانت ملتقى لصناع الكتب وجامعيها، وخلالها أيضاً كان أدلر رئيس التحرير والطابع والناشر للمجلة العظيمة «حرد المتن»[3] وهى مجلة موجهة أساساً لجامعى الكتب الجميلة. ويجمع النقاد على أن رائعة أدلر وتحفته الطباعية هى كتاب «فولتير»: «كانديد»[4] المنشور سنة ١٩٢٨ والذى توفر على إعداد رسومه الفذة الفنان «روكويل كنت»، وصمم حروفه «لوسيان بيرنهارد».

دارد هنتر (١٨٨٣ ـ ١٩٦٦).

كان «دارد هنتر» ابنا لأحد ناشرى الجرائد فى تشيليكوث فى أوهايو، ويقال إنه كان ظاهرة أمريكية. وكان دارد وهو صغير متيماً بالورق، وتتبع تاريخه، وقد وضع دراسته للورق موضع التنفيذ فأصبح يصنع الورق بنفسه يدوياً على أجهزة بدائية أعدها بنفسه أيضاً، وقد جاب أنحاء الأرض يزور ما تبقى هناك من مصانع الورق اليدوية وكثير منها كان فى الشرق حيث كان العمل يمارس بأساليب وطرق عتيقة. وقد جمع عينات من ذلك الورق الذى جلبه من تلك الأصقاع استخدمها فى كثير من كتبه. وقد وضع لنا مؤلفاً قيماً من عشرة مجلدات عن صناعة الورق من الناحية التاريخية وكما خبرها فى المصانع العتيقة التى زارها. وقد ظهر أول

(1) Elmer Adler.
(2) Pynson Printers.
(3) The Colophon.
(4) Voltaire. Candide, 1928.

كتاب له سنة ١٩٢٣ عن «صناعة الورق القديمة»[1]. ومن الطريف أن هنتر قام بطباعة هذا المجلد وما تلاه من مجلدات فى مطبعته اليدوية وبحروف صممها بنفسه، بل وصنعها وطبع هذه المجلدات على ورق يدوى من صناعته كذلك. وجاءت هذه المجلدات من القطع الكبير وقد طبع منها أقل من مائتى نسخة. ولعل آخر كتاب له ويعتبر درة كتبه وأوج عظمته هو كتاب «صناعة الورق يدوياً فى أمريكا»[2]. وتوفر هنتر كذلك على تأليف كتابين آخرين نشرا نشراً تجارياً فى دار نشر «ألفرد كنوبف» فى نيويورك وهما: «صناعة الورق: تاريخ وأساليب الحرفة القديمة»[3] سنة ١٩٤٧. والثانى سيرته الذاتية التى صدرت سنة ١٩٥٨ بعنوان «حياتى مع الورق»[4].

فيكتور هامر (١٨٨٢ - ١٩٦٧)[5].

كان «فيكتور هامر» رجلاً متعدد المواهب: هو رسام ونحات ومعمارى وطابع عاش وعمل بروح النهضة الإيطالية، ولقد ولد فى فينيا حيث أصبح رساماً مشهوراً. وقد أسس مطبعته[6] فى فلورنسا وهناك صمم حرفين جديدين من نوع أونسيال وأنتج أحسن الكتب. وقد ارتحل الرجل إلى الولايات المتحدة سنة ١٩٣٩ لحساب كلية ويللز فى أورورا فى نيويورك ليعمل فى قسم الفنون بها. وقد طبع بعض الكتب المتميزة طباعة يدوية بحرف إيمرسون خلال إقامته فى تلك الكلية، وفى نفس تلك الفترة وضع تصميم حرفه «أونسيال». وفى سنة ١٨٤٨م التحق بكلية ترانسلفانيا فى لكسنجتون (كنتكى) أستاذاً للفنون بها. وفى هذه الكلية تفجرت إبداعات الرجل وأثمرت بمساعدة من زملاء مخلصين له. وهنا فى تلك البلدة أتم فى سنة ١٩٤٩ رائعته الطباعية «قصائد هولدرلين»[7] على مطبعته

(1) Dard Hunter. Old papermaking, 1923.

(2) Dard Hunter. papermaking by hand in Amenica, 1950.

(3) Dard Hunter. Papermaking: The History and technique of an ancient Crabt, 1947.

(4) Dard Hunter. My life with paper, 1958.

(5) Victor Hammen.

(6) Stamperia del Samtuccio.

(7) Holderlin poems.

اليدوية حيث صفت الحروف صفاً رائعاً وطبعت كأحسن ما تكون الطباعة بالحرف الأونسيال الذى صممه هنا فى الولايات المتحدة. وقد طبع من هذا الكتاب واحد وخمسون نسخة فقط.

لقد اقتضت ظروف الاختصار أن نقتصر فى السياق التاريخى هذا على عدد محدود من الشخصيات الأمريكية الطابعة - الناشرة وهناك العديد غيرهم من المصممين والطابعين الذين يحفل بهم تاريخ الكتاب الأمريكى من بينهم فى الشرق الأمريكى: «ويل برادلى»، «فردريك جودى»، «كارل بيورنجتون رولنز»، «والترجيليس»، «هنرى كنت»، «وليام إدوين رودج»، «ت. م. كليلاند»، «رودلف روزيكا»، «و. أ. دويجنز» والناشر الذى ذكر عرضاً وهو «ألفرد أ. كنوبف». ولقد برز فى العشرينات من القرن العشرين كثير من الشباب الناجح رجالاً ونساءً والذين يعتبرون علامات فى تاريخ الكتاب الأمريكى لا يمكننا الحكم الآن لأنهم مازالوا على قيد الحياة يعملون وينتجون ومازال الحكم عليهم ينتظر صدور الوثائق والإفراج عنها، حتى تأتى الأحكام موضوعية محايدة.

بروس روجرز (١٨٧٠ - ١٩٥٧)(١).

ونختتم هذه البانوراما التاريخية بشخصية أشرت إليها عرضاً من قبل، هى شخصية «بروس روجرز» الذى ولد فى وسط الغرب الأمريكى سنة ١٨٧٠. وقد قال عنه فرانسيس مينيل»: «إنه أعظم فنان كتب عاش حتى الآن» [١٩٧٣]. وبعد أن تخرج الرجل فى جامعة بوردو، انتقل إلى بوسطون ليعمل مصمماً فى مجلة «الفن الحديث»(٢). وفى ذلك الوقت عاين كتب كيلموسكوت، وخبر طباعة موريس، ومن هنا كرس بقية حياته لإنتاج الكتب. ولقد نبذ الفكرة القائلة بأن الكتاب الجميل لا يكون جميلاً إلا بالرسومات والصور التى يبدعها الرسام فقط وأصر على أن يكون الكتاب الجميل جميلا بالتناسق والتناغم بين الحروف والورق، ومن ثم فقد وجه دراساته نحو الكيان المادى الفيزيقى للكتب

(1) Bruce Rogers.

(2) Modern Art.

المطبوعة. وقد التحق روجرز سنة ١٨٩٦ بمطبعة ريفرسايد حيث صمم الكتب التجارية والإعلانات عن الكتب طوال السنوات الأربع التالية. وفى نهاية التسعينات من القرن التاسع عشر دفع «جورج ميفلين» الشريك الأكبر فى المطبعة إلى أن ينشئ قسما خاصاً لإنتاج الطبعات المحدودة. ولقد كانت الفرصة رائعة - صاحب واحدة من أكبر المطابع وأرسخها فى كامبردج - ماساشوستس يعطى الفرصة لمصمم فنان شاب لإبراز مواهبه فى مطالع القرن الجديد.

وفى خلال الاثنتى عشرة سنة التالية ١٩٠٠ - ١٩١٢م أنجز روجرز ستين طبعة تعتبر كلها مدخلا جديداً تماماً إلى فن تصميم الكتب. لقد أخرجت هذه الكتب بأسلوب نادر متميز وكما قيل من «قلبى مضىء». وكل كتاب كان مغامرة جديدة للمصمم الشاب ومفاجأة جديدة لجماعى الكتب؛ كل كتاب كان مختلفاً فى تصميمه وحجمه وحروفه وورقه وتجليده، وبعض هذ الأعمال كانت ابتكارية تجريبية وبعضها كان مزجاً غير مباشر وإلماعات من أعمال سابقة. وتقول المصادر أن كلاً من «بروس روجرز» و «دانييل أبدايك» لم يحتذيا أى نمط أو تقاليد أمريكية سابقة؛ وكانا فى بحثهما عن المعايير والمستويات يتبعان الأسلوب العلمى ويغوصان فى المصادر التاريخية المختلفة. ولما كان أبدايك سليل الإنجليز فى نيوإنجلاند فقد كان من الطبيعى أن يتوجه فى مثله العليا إلى النمط الإنجليزى والطباعة الإنجليزية، فى حين كانت روح روجرز تتجه بكليتها وتعاطفها مع تقاليد فينسيا القرن الخامس عشر ورقة وعذوبة فرنسا القرن السادس عشر، ولكن مع تطلعه إلى تلك التقاليد العريقة فقد خرج منها جميعاً وما أضافه إليها بأسلوبه ونمطه الخاص به. هنا من مطبعة ريفرسايد خرجت الطبعات المحدودة التى حققت اثنتا عشرة طبعة منها على الأقل نجاحاً كبيراً واعتبرت من القطع السيادية، من عمل فنان قدير. ويرى البعض أن بروس هو أول مصمم حديث للكتب وفنان الكتب المقدم على سائر الفنانين.

وبعد ستة عشر عاماً من العمل فى مطبعة ريفرسايد، مل الرجل وضجر، ونجده فى أحد خطاباته يقول: «لقد تطلعت دائماً إلى الحياة لعدة سنوات على

الأقل، سواء فى إنجلترا أو فى القارة الأم.. إن عقدى الحالى مع مطبعة ريفرسايد ينتهى العام المقبل.. إنهم يدفعون مرتباً مجزياً ولكنهم لا يعطونى سوى أسبوعين أجازة فقط كل عام، ولقد آن الأوان لأستمتع بحياتى لأنها أهم الآن من المال». وقد قضى صيف ١٩١٢ فى إنجلترا ولم يجد فيها أى فرص عمل، وعاد بعده إلى الولايات المتحدة لقضاء خمس سنوات أخرى فى راحة ودعة ولكنه أنتج فيها الحرف الجديد الذى سماه «القنطور»[1] [طائر خرافى نصف طير ونصف فرس] وهو إنتاج عبقرى. وقد استخدمه لأول مرة فى كتاب «موريس دى جيريل»: «القنطور»[2] والذى طبعه سنة ١٩١٥م فى طبعة من مائة وخمس وثلاثين نسخة بمطبعة مونتاجيو، وهى المطبعة المثالية فى دايك ميل فى ماساشوستس والتى كان يملكها «كارل بيورنجتون رولنز»، الطابع لدى جامعة ييل فيما بعد.

وفى سنة ١٩١٦ دعا إمرى ووكر، روجرز للحضور إلى إنجلترا للاشتراك فى إنتاج عمل طباعى رائع على نفس نمط إنتاج مطابع كيلموسكوت و دوفيز اللتين أشرت إليهما من قبل. ولقد قبل روجرز تكليف نادى جروليبه له وعلى حسابهم إعادة طبع كتاب «ديرر» المسمى «الهندسة»[3] الذى يعالج موضوع تصميم الحروف للنقوش. وقد صدرت الطبعة الجديدة سنة ١٩١٧ حاملة العنوان «تشكيل الحروف بالضبط»[4] فى ظروف بالغة القسوة حيث كانت الحرب الأولى مشتعلة. ومن هنا أخفقت الشراكة مع إيمرى وفضت وعاش بروس عيشة ضنكاً، وقرر أن يرجع إلى الولايات المتحدة، ولكنه تقابل مع «سيدنى كوكريل» مدير متحف فتز ويليام، وكان قبل ذلك سكرتير وليام موريس فى مطبعة كيلموسكوت الذى قرر أن يساعد روجرز فى العمل بمطبعة جامعة كامبردج البريطانية. ورغم ظروف الحرب فقد قرر مجلس الجامعة أن يعين روجرز مستشاراً للمطبعة وأطلق يده لتحسين إنتاج الكتب بها. وقد وضع روجرز تقريراً صريحاً ومباشراً عن حال

(1) Centaur.

(2) Maurice de Guérin. The Centaur, 1915.

(3) Diirer. Geometry.

(4) Diirer. On the just shaping of Letters, 1917.

المطبعة جاء فيه «لا أتصور مطبعة عريقة مثل مطبعة جامعة كامبردج يمكن أن تستمر بتلك الآلات الوضيعة! إنها فى رأيى أسوأ مما يمكن تصوره». وقد تبنى مجلس الجامعة التوصيات التى جاءت فى هذا التقرير وحاول تنفيذها بما سمحت به ظروف الحرب وما بعد الحرب. وفى سنة ١٩٥٠ كتب «بروك كرتشلى» - طابع الجامعة آنذاك: «إنه أمثال بروس روجرز الذين يستطيعون إصلاح حال مطبعة الجامعة، وأمثال تقريره هى التى يمكن أن تدفع الحياة الجديدة فيها. وإنه لبعد ثلاثة وثلاثين عاماً مما عمله نأتى لنقدم له الاعتراف بالجميل والدين فى جامعة كامبردج بل والعالم كله، هذا الدين الذى ندين به لفنان عظيم وطابع رائع».

وهكذا حقق روجرز ما كان يعتمل فى نفسه وطفق عائداً إلى الولايات المتحدة سنة ١٩١٩ واشتغل مستشاراً لمطبعة جامعة هارفارد. ومن حسن حظه قابل «وليام إدوين رودج» الذى كانت عمارته الجديدة فى مونت فيرنون خارج مدينة نيويورك تضم مؤسسة طباعية فيها أحسن الآلات والأجهزة. وقد غدت هذه المطبعة جنة روجرز طوال العشرينات، وعلى حسب تعبير بروس روجرز نفسه قال: «لقد قضيت ثمانى سنوات خصبة ومثمرة مع رودج ولم يكن هناك تعاون أسعد من تعاونى معه، فلقد أطلق يدى وآزرنى بنبل حتى فى مشروعاتى غير الواعدة، وأمدنى بالحروف الجديدة والورق والمعدات وكل شىء سواء كان المشروع يبشر بالنجاح أو لا». لقد كان سن روجرز عندما بدأ تعاونه مع رودج وهو فى سن الخمسين، وفى خلال الثمانى سنوات كان قد أنجز مائة كتاب، أصبح كثير منها علامات بارزة فى تاريخ الطباعة الأمريكية. وفى سنة ١٩٢٧م بدأ روجرز يجتر القطع السيادية التى حققها من قبل. وقد أغرى «ت. إ. لورانس» بترجمة أوديسة هوميروس. ولكن المترجم أعرب عن مخاوفه من أن كلماته قد لا ترقى إلى مستوى فن روجرز. وفى خلال فترة الترجمة جاءت روجرز دعوة من أصدقائه الإنجليز ليزورهم مرة أخرى ويتجول خلال الريف الإنجليزى، إلى جانب أن مصانع المونوتيب أرادت صناعة حرفه الشهير «القنطور» تحت إشرافه هناك. ولقد أبحر سنة ١٩٢٨ إلى إنجلترا، حيث قام خلال السنوات الأربع التالية بإنتاج أروع عمل له.

فى خلال الحرب العالمية الأولى فقد الكثير من الكنديين أرواحهم فى المدينة البلجيكية وايبرس[1] والتى استباحها الجنود بعد ذلك. وبعد عشر سنوات شيدت الحكومة الكندية كنيسة تذكارية فى المكان الذى مات فيه شبابها. ولقد أراد ملك إنجلترا أن يقدم كتاباً مقدساً إلى كندا جديراً بهذه المناسبة من الحجم الذى يوضع على مقرأة، ولم يكن هناك كتاب مقدس طبع فى إنجلترا أحسن من كتاب باسكرفيل المقدس سنة ١٤٧٣، ومن ثم سعت مطبعة جامعة أكسفورد فى الحال إلى إضافة المحذوفات من تلك الطبعة. وقد كلف بروس روجرز المقيم آنذاك فى لندن ـ باعتباره أحسن طابع فى ذلك الوقت سنة ١٩٢٨ ـ بتصميم كتاب مقدس جديد من القطع الكبير باسم الملك جيمس فى مجلد لا يزيد على ١٢٥٠ صفحة، واقترح «جون جونسون» مدير مطبعة جامعة أكسفورد آنذاك استخدام حرف «القنطور» المشار إليه سابقاً بعد تعديله ليلائم هذا العمل. وقد قص علينا بروس روجرز قصة إعداد هذه الطبعة من الكتاب المقدس فى نشرة صغيرة أصدرتها شركة مونوتيب سنة ١٩٣٦، تلك العملية التى استغرقت أربع سنوات كاملة.

ولقد شهدت تلك السنوات الأربع قمة عبقرية بروس روجرز، فقد وقع الاختيار على ثلاثة من أعماله كأحسن الأعمال وهى: أوديسة هوميروس ١٩٣٢ والتى طبعت مع إيمرى ووكر؛ «فرا لوكا من باكيولى»[2] لسنة ١٩٣٣ والمطبوع فى مطبعة جامعة كامبردج لحساب نادى جروليه؛ والعمل العظيم الذى نحن بصدده وهو «كتاب أكسفورد المقدس الكبير»[3] المنشور سنة ١٩٣٥. ويذكر «جوزيف بلومنتال» وعلى عهدته الشخصية أن هذه الطبعة من الكتاب المقدس هى أهم وأخطر كتاب طبع فى القرن العشرين.

---

(1) ypres.

(2) Fra Luca de pacioli.

(3) Oxford Lectern Bible.

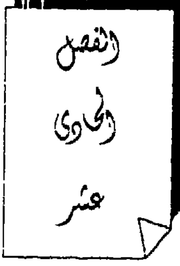
وبعد عودة بروس روجرز إلى نيوفيرفيلد فى كونكتكت سنة ١٩٣٢ بقى له فى الدنيا ربع قرن من العمر قضاه فى تصميم وإخراج بضعة مجلدات فاخرة وخاصة لنادى الطبعات المحدودة فى نيويورك[1].

ولقد قضى بروس روجرز معظم حياته الطويلة فى خدمة فن الطباعة، ولقد بدأ فنه فيها وهى فى مرحلة الطباعة اليدوية، وتجلت عبقريته عندما رحل معها إلى مرحلة الطباعة الآلية وظل فنه فيها راقياً، وعندما تحول معها أثبت فعلاً أنه رجل زمانه، رجل لكل العصور.

* * *

---

(1) Limited Editions Club in New York.



الطباعة فى منطقة الكاريبى

كان الأسبان هم أول الأوربيين الذين وطأوا منطقة الكاريبى ومن ثم كانوا أول من أدخل الطباعة واستخدم المطابع هناك. ولم يقوموا مباشرة بجلب المطابع إلى تلك المنطقة فى بادئ الأمر ولكنهم غالباً ما اعتمدوا فى المرحلة الأولى من الاستيطان على المطابع التى كانت موجودة فى أمريكا الشمالية أو فى أمريكا الجنوبية وربما يكونون قد اعتمدوا على المطابع الرسمية فى أسبانيا الأم. وكان هذا هو حال الإدارة الأسبانية التى استقرت فى جزر الهند الغربية. وقد عبر أحد رجال الدين المسيحى عن هذا الواقع ولو أنه وصف به منطقة أخرى سنة ١٦٧١ حين قال بيركلى الحاكم الدينى فى فيرجينيا:

«أحمد الله على عدم وجود مدارس مجانية، وعلى عدم وجود مطابع، وآمل ألا توجد مثل هذه الأشياء لمئات السنين لأن التعليم قد جلب المعاصى والهرطقة والطائفية إلى هذا العالم.. وقد ساعدت الطباعة على انتشارها وعلى الثورة ضد أحسن الحكومات، وقانا الله شرهما [التعليم والطباعة]».

ومايزال حتى الآن كتاب «أشعيا توماس»: «تاريخ الطباعة فى أمريكا»[1] الذى نشر سنة ١٨٧٤ هو المصدر الأساسى حتى الآن فيما يتعلق بانتشار الطباعة فى منطقة الكاريبى الأسبانية؛ حيث يقرر أن «مطبعة دخلت إلى المنطقة الأسبانية فى جزيرة سانتو دومينجو (هيسبانيولا) ربما فى بداية القرن السابع عشر. وكان من

(1) Isaiah Thomas. The history of printing in America. - 2nd ed. - Albany, 1874.

النادر أن تستخدم إلا فى طباعة قوائم الدخول والخروج وغيرها من الأوراق الرسمية لأفرع الإدارة الحكومية المختلفة» ويقتبس أشعيا توماس نصاً من كتاب «مورو دى سانت ميرى» المعنون «وصف الجزء الأسبانى من سان دومينجو»[١] «لا يمكن طباعة أى شيء يخص المستعمرات بدون إذن مجلس جزر الهند [الغربية] ومن المعلوم جيداً أن لايهتم بإعطاء مثل هذا الإذن.. وعندما يطبع أى عمل فى سان دومينجو فلابد من تسليم عشرين نسخة للرئيس ليرسلها بدوره إلى مجلس جزر الهند [الغربية] لتقبر هناك مثل أى شيء آخر أرسل إلى هناك».

ولا نعرف أى معلومات أخرى حول تلك المطبعة المذكورة. وثمة معلومات شبيهة ذكرت حول مطبعة أخرى أقيمت فى القرن السابع عشر فى «سانتياجو دى كوبا» سنة ١٦٩٨، وقد قدم لنا هذه المعلومات «أمبروزيو فالينتى» فى «جداول حولياته»[٢] التى نشرت فى نيويورك سنة ١٨٥٣ ولكن ناقضه فى ذلك «هنرى هاريس» الذى قال بأنه «لم يصلنا أى كتاب من كوبا يكون قد طبع فى القرن السابع» وقد أيده فى ذلك «خوزيه توريبيو ميدينا» الذى ذكر أن أول كتاب طبع فى كوبا هو ذلك الذى ألفه «فرانشيسكو جونزاليز ديل آلامو» بعنوان «رسالة فى الطب»[٣] وطبع فى هافانا سنة ١٧٠٧م وقد سجله فى ببليوجرافيته الببليوجرافى المكسيكى الشهير «بريستين إى سوسا».

إذن فكلٌ من «هاريس» و«ميدينا» يؤكد على أن الطباعة فى كوبا كانت فى هافانا فى مطلع القرن الثامن عشر وليس فى القرن السابع عشر. ويقدمان كتابا آخر طبع أيضاً فى هافانا سنة ١٧٢٤ على يد الطابع «كارلوس هابريه»[٤]. وقد أشار إلى هذا الكتاب كتاب آخر طبع فى هافانا سنة ١٨٦١م عن تاريخ الفكر

(1) Moreau de St. Meny. Description of the spanish part of St. Domingo.

(2) Ambrosio Valiente. Tabla Cronologica de Los sucesos occuridos en la cuidad de Santiago de Cuba.- New York, 1853.

(3) Gonzalez del Alamo. Disertacion Medica sobra que las Cernes de Cedro son Saludables en las Islas de Barlovento.- Havana, 1707.

(4) Meritos que ha justificado y probado el Ldv. D. Antonio de sossa.- havana: Carlos Habré, 1724.

والتعليم العام فى جزيرة كوبا، وكان من تأليف «أنطونيو باتشيللر إى موراليس»[1]. وقد أشار فى إحدى حواشى هذا الكتاب إلى خريطة طبعت فى هافانا سنة ١٧٢٠م. ومن ثم فإنه يمكن القول بأنه باستثناء هاتين الإشارتين : إشارة «بريستين إى سوسا» وإشارة «أنطونيو باتشيللر إى موراليس» فليست هناك طباعة كوبية قبل سنة ١٧٢٤.

الطباعة في جامايكا

ذكر أشعيا توماس فى كتابه المذكور سابقاً بأن الطباعة دخلت إلى جزيرة جامايكا سنة ١٧٢٠ تقريباً. وبعد سنة أو سنتين من هذا التاريخ صدرت إحدى الجرائد فى كنجزتون حيث صدرت فى أغسطس سنة ١٧٢٢ جريدة بعنوان «جريدة جامايكا الأسبوعية»[2]. كما يذكر أن جريدة أخرى صدرت سنة ١٧٥٥ على فرخ واحد من حجم النصف، ولكنه لايتذكر بالضبط شهر صدورها أو متى توقفت عن الصدور.

والمشكلة لدى أشعيا توماس أنه لايعطينا أسماء المطابع أو الطابعين فى جامايكا. ولكننا نجد بغيتنا عند فرانك كوندال فى كتابه الموثق «الطباعة والطابعون فى جامايكا قبل سنة ١٨٢٠»[3]. وكان هذا الكتاب عبارة عن بحث قدم لجمعية الآثار الأمريكية، وقد تناول فى ذلك البحث الطباعة حتى ١٩١٦. وقد ورد فى هذا الكتاب أن أول طابع فى جامايكا هو جون ليتس الذى نشر تقويماً على فرخ واحد سنة ١٧٣٤. وبعض الثقاة يميلون إلى أن الطباعة دخلت إلى جامايكا قبل هذا التاريخ، على حسب ما ذكر أشعيا توماس لأنه منذ سنة ١٧٢١ فصاعدا كانت «الجمعية العمومية» تحث السكرتير أو كاتب المضابط على ضرورة طبع المضابط ووقائع الجمعية.

وليس لدينا سوى مفتاحين اثنين حول الطابعين فى تلك الجزيرة خلال تلك الفترة : العقد الثالث من القرن الثامن عشر. وفى سنة ١٧٣٠ كلفت الجمعية

---

(1) Antonio Bachiller y Morales. Apuntes para la historia de las litteras, y de La Instruccion publica de la Isla de Cuba.- Havana, 1861.

(2) The Weekly Jamaica Courant.

(3) Frank Cundall. The Press and Printers of Jamaica prior to 1820.

العمومية كاتبها بتجليد كتابين، وإذا لم يجد أى مجلد فى المدينة الأسبانية فعليه أن يأخذ الكتابين إلى السيدة (بالدوين) فى كنجزتون لتجليدهما. ويعتقد «كوندال» أن شركة بالدوين كانت شركة توزيع كتب ووراقة، لم تكن بالضرورة شركة تجليد أو طباعة. ولكن من المصادفات العجيبة أن يشير «صاموبل كيمر» فى جريدته التى كانت تصدر فى ذلك الوقت فى باربادوس إلى أن الطابع الرسمى فى جامايكا كانت امرأة كانت لها عربة تجوب بها المناطق المحيطة.

وربما كانت السيدة بالدوين هى أم «بيتر روبرت بالدوين» اللذين طبع لهما جون ليتس سابق الذكر قطعة بعنوان «خطاب من دون توماس جيرالدينو رداً على دون بلاس دى ليزوس فى قرطاجنة»[١] سنة ١٧٤٠. وهذا العمل هو ثانى قطعة مطبوعة تصل إلينا من أوائل المطبوعات فى جامايكا.

لقد تتبع كوندال بدقة تاريخ الطباعة فى جامايكا منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى سنة ١٨٢٠، وهو تاريخ إقفال مقالته فى هذا الصدد. وقد أمكن لبعض الباحثين أن يضيفوا نتفاً من المعلومات إلى ما جاء به، وحيث تم اكتشاف بعض الطابعين الذين لم يصل إليه خبرهم. كما يمكن إضافة بعض المطبوعات إلى ما جاء فى قائمته حتى ١٩١٦.

لقد طبع كتاب «محاكمة السير كالونر أوجل» سنة ١٧٤٢ فى «المدينة الأسبانية» فى نفس تلك السنة أو بعدها بقليل. وتوفر وليام دانييل الطابع وبائع الكتب على طبع محاضر «الجمعية العمومية» سنة ١٧٤٩. وفى سنة ١٧٥٠ طبع كتاب «جون ويليامز»: «مقال عن الحمى أو الحمى الصفراء فى جامايكا»[٢] والذى طبع فى «مكتب الطبع العام الجديد، فى ركن خط المياه فى شارع الملك بالقرب من مبنى المحكمة». كذلك فإن كوندال يسجل دانييل سنة ١٧٥٠ كطابع

(1) A letter from Don Thomas Geraldino in answer to Don Blas de Lezos at Carthagena.

(2) John Williams. An Essay on the bilious, or yellow fever of Jamaica, 1750.

لكتاب «صديق الجيب للتاجر، أو تقويم سنة ١٧٥١»[١]. وهذا هو أول تقويم يصدر فى جامايكا وصل إلينا. وبعد عشر سنوات طبع أحد الطابعين فى جامايكا - لم يصلنا اسمه - لحساب «جيمس فورسيث»، بائع الكتب والوراق، فى كنجزتون «تقويم وسجل لجامايكا عن سنة ١٧٦٠»[٢].

ونستطيع أيضاً أن نضيف إلى قائمة كوندال حول كتب التقاويم بعض الطبعات لسنة ١٧٦٧ توفر على طباعتها «ويثرباى» و«ماكمان» وهى شركة وطابع (**ماكمان**) لم يذكرها كوندال، وبعض الطبعات لسنة ١٧٧٥ حيث نجد «طبع فى كنجزتون على يد جوزيف ويثرباى فى شارع الميناء»، ولسنة ١٧٨٧ نجد «التقويم والسجل الملكى»[٣]؛ «طبع كنجزتون على ألكسندر إيكمان، طابع جلالة الملك المعظم جداً.».

ومن الملاحظ أن التقاويم كانت تصدر فى جامايكا بصفة منتظمة من منتصف القرن الثامن عشر فصاعداً على الرغم من وجود فجوات فيما وصلنا من نسخ حتى ثمانينات وتسعينات ذلك القرن.

ويبدو أن الحاجة كانت ملحة هناك فى جزر الهند الغربية إلى الجرائد، وكانت الحاجة فى جامايكا أكثر إلحاحاً، ويبدو ذلك جلياً من صدور خمس عشر جريدة هناك قبل سنة ١٨٠٠، وصدور أربع جرائد فى العقدين الأولين من القرن التاسع عشر. وقد صدرت هذه الجرائد فى كنجزتون وسانت جاجو (المدينة الأسبانية) وهما المركزان الرئيسيان للطباعة فى الجزيرة، وفى فالماوث وخليج ومنتيجو وسافانا - لا - مار. ولما كانت هذه الجرائد البالغة عشرين تقريباً تصدر فى وقت واحد فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر فلابد أن يكون عدد الطابعين هناك قد بلغ أربعين طابعاً على الأقل فى تلك الفترة.

ولم يكن موقف الجرائد فى القرن الثامن عشر فى الجزر الأخرى مختلفاً عنه

(1) Merchant's Packet Companion, or an Almanack for 1751.
(2) An Almanack and register for Jamaica, for the year 1760.
(3) The Royal Almanack and Register, 1787.

فى جامايكا، ففى ذلك القرن كان فى جزيرة أنتيجوا ما لا يقل عن أربع جرائد. . ثلاث منها كانت جارية فى وقت واحد، وكانت فى جزيرة غرناطة (جرانادا) أربع جرائد، وكان فى كل من سانت كيتس والمارتنيك وهايتى ثلاث جرائد ، وكان هناك جريدتان فى باربادوس والدومنيكان. وفى كل من باهاما، برمودا، سانتا كروز جريدة واحدة. وفى سنة ١٨١٠ كانت هناك جريدتان فى سانت توماس. وفى سنة ١٨٢٦ صدرت جريدة واحدة فى سانت فنسنت.

ولأن الدخل العائد من وراء الجرائد على الطابعين لم يكن مجزياً فكان لابد من الطبع للحكومة لتعويض الدخل وزيادته. ولذلك كانت مكافآت الطباعة للجمعية العمومية وحكومة المستعمرة سخية. ولكن لابد من أن نضع فى اعتبارنا العدد الكبير من المطابع الذى كان موجوداً فى جامايكا فى القرن الثامن عشر والمنافسة الحادة التى كانت قائمة بينها آنذاك، ولذلك كان الطبع للحكومة والجمعية العمومية بالنسبة للطابعين مسألة حياة أو موت، وعلى سبيل المثال فإن «دافيد دوجلاس»، الممثل الذى اعتزل خشبة المسرح واشتغل بالطباعة الرسمية لدى الجمعية العمومية فى جامايكا فى ثمانينات القرن الثامن عشر، والذى مات سنة ١٧٨٦ ، هذا الممثل قبضت أرملته بعد ثلاث سنوات من وفاته ١٣٩٩ جنيهاً و أربعة شلنات وستة بنسات عن مطبوعات طبعت للجمعية العمومية، وهو مبلغ ضخم بمعايير ذلك الزمان، كذلك قبض ألكسندر إيكمان أربعة آلاف جنيه إسترلينى كحساب لمطبوعات سنة ١٧٩٧ .

الطباعة في باربادوس

تجمع المصادر على أن بنيامين فرانكلين كانت له يد عليا فى انتشار الطباعة فى جزر الهند الغربية، وكثيراً ما يتوقف تاريخ الطبعة فى العالم الجديد عند تأثير فرانكلين على الطباعة هناك. فهو لم يكتف بإرساء أول طابع بمعداته إلى جزيرة أنتيجوا سنة ١٧٤٨ ولكنه جعل ابن أخيه خليفة هذا الطابع الأول. كما كان فرانكلين أيضاً المسئول عن دخول الطباعة وانتشارها فى جزيرة باربادوس.

في ديسمبر ١٧٢٨ بدأ «صامويل كيمر» إصدار جريدة فيلادلفيا، ولكن بعد تسعة شهور لم يزد عدد المشتركين فى هذه الجريدة عن مائة مشترك، وتبعاً لذلك باع كل شىء إلى فرانكلين وتوجه إلى جزر الهند الغربية. وقد عمل كل من فرانكلين وشريك له طابع اسمه «دافيد هارى» فى ورشة كيمر هذه التى اشتراها منه فرانكلين وهارى. ولكن كما ذكر فرانكلين فى مذكراته فإن هارى هذا عاش حياة اللهو وأهمل العمل فأهمله العمل، وكانت نتيجة ذلك أيضاً أن حزم هارى هو الآخر أمتعته وغادر إلى جزر الهند الغربية.

ولما استقر هارى فى جزيرة باربادوس قابل صديقه القديم الذى كان يعمل عنده صامويل كايمر، ولما اشتغل هارى بالطباعة هناك سنة ١٧٣٠ طاب له أن يوظف عنده صامويل كيمر كطابع جوال. وطالما تخلص فرانكلين من المنافسين له فقد بدأ نشاطه كما ذكرت فى فيلادلفيا وترك كلا من كيمر وهارى يتناطحان فى جزر الهند الغربية. وقد لاحظ أشعيا توماس على سلوك دافيد هارى أنه لم يتغير عما كان عليه فى فيلادلفيا مع فرانكلين، وعاش أيضاً حياة الدعة فى باربادوس وكانت اتفاقاته أكثر من دخوله.

لقد أنشأ هارى مطبعته فى بردجتاون. وكان من سوء الحظ أن يصبح المعلم (كيمر) طابعاً جوالاً عند صبيه السابق (هارى). ولكن مرة أخرى ـ كما لاحظ أشعيا توماس ـ هذا الحال لم يدم طويلاً إذ بعد بضعة أشهر فشل هارى فشلاً تاماً وباع مطبعته ومعداته إلى كيمر. وفى سنة ١٧٣١م بدأ كيمر فى نفس مدينة بردجتاون إصدار جريدة «مجلة باربادوس»[١] وهى أول جريدة فيما يقول توماس فى كل جزر الكاريبى وأول جريدة تصدر فى أمريكا مرتين فى الأسبوع فى أى وقت من الأوقات. وكان فى هذه الجريدة المجلة باب اسمه «شئون الكاريبى»[٢]. وهو عبارة عن مجموعة مقالات وقصائد ومقتطفات متنوعة. وقد

(1) The Barbadoes Gazette.

(2) Caribbeana.

جمعت مادة هذا الباب ونشرت فى كتاب فى لندن سنة ١٨٤١ . وقد أمكن من خلال دراسة هذا الباب وملامح أخرى فى هذه الجريدة أن نستشف تاريخ إصدار أول عدد. . ففى عدد السبت، العشرين من نوفمبر سنة ١٧٣١م، كتب أحد القراء إلى مؤلف الجريدة (هكذا كانوا يسمونه هناك) ما نصه «إننى واحد من هؤلاء الذين سعدوا منذ البداية باقتراحك نشر جريدة أسبوعية والتعهدات التى تعهدت بها فى جريدتك» كذلك نصادف فى إصدارة الحادى عشر من ديسمبر سنة ١٧٣١ كذلك رقم ١٠، مما يعنى أن هذه الجريدة لابد وأن تكون قد صدرت فى خريف تلك السنة.

ولقد استمر كيمر فى عمله الطباعى حتى سنة ١٧٣٨م، ولكنه مات مباشرة بعد ذلك التاريخ، ومع ذلك استمر صدور تلك الجريدة على يد خلفائه، والذين اقتصروا على إصدارها مرة واحدة فى الأسبوع. وكان أقرب خلفاء كيمر إليه «وليام بيبى» الذى طبع كتاب وليام ديوك الموسوم «بعض ذكريات أول مستوطنة فى باربادوس وغيرها من جزر الكاريبى» سنة ١٧٤١ .

وفى سنة ١٧٦٢م أنشأ «جورج إزماند» وشركاه مطبعة فى بردجتاون ونشر هناك جريدة «عطارد باربادوس»(١) وذلك فى «مكتب الطبع الجديد فى شارع ظهر الكنيسة» وكانت قيمة الاشتراك فى الجريدة (بيستول واحد)(٢) فى السنة. وقد حير الباحثين أن أحد الناشرين للتقاويم فى تلك المدينة وهو «ماتياس هولست» قد أرسل إلى لندن تقويم جون دولوند(٣) عن سنة ١٧٦٥ كى يطبع هناك، رغم وجود مطبعة إزماند هناك منذ ١٧٦٢ . ومهما يكن تفسير ذلك فإن مطبعة إزماند كانت متخمة بالعمل سنة ١٧٦٦ وقد أصدرت فى تلك السنة:

أ- «بعض ملاحظات صريحة حول نشرتين مؤخراً وهما: خطاب إلى لجنة

---

(1) Barbadoes Mercury.

(2) Pistole.

(3) John Dollond's Almanac, 1765.

المراسلات فى باربادوس - بقلم مواطن من أمريكا الشمالية.. مواطن من باربادوس. وخطاب إلى مواطن من أمريكا الشمالية»[1].

ب- مقالة حول تبرئة لجنة المراسلات فى باربادوس بقلم مواطن من باربادوس (المبجل كينث موريسون)[2].

وفى السنة التالية لثورة النشرات هذه التحق وليام ووكر بالعمل مع جورج إزماند وقد طبعا كتاب «جون سنجلتون»: «وصف عام لجزر الهند الغربية»[3] الذى كتب شعراً، وقد أطلق على الشركة فى السنوات التالية على الأقل حتى سنة ١٧٧١ اسم «شركة إزماند ووووكر». ولقد توفى ووكر سنة ١٧٧٣م. وقد ظلت الطباعة موجودة فى باربادوس حتى سنة ١٧٩٨ على الأقل وذلك لأن كتاب هنرى ثورنهيل الموسوم «قصة العصيان المسلح والثورة فى جزيرة غرناطة (جريناداا)»[4] لأسباب لا نعرفها، ولكن ربما لأن الثورة التى قامت هناك فى مارس سنة ١٧٩٥ قد تسببت فى هروب الطابعين وإغلاق مطابعهم حتى نهاية ذلك القرن، وربما لأسباب سياسية ورقابية بحتة.

الطباعة فى أنتيجوا

يبدو أن سوء الحظ الذى حاق بـ «دافيد هارى» فى باربادوس سنة ١٧٣٠ و ١٧٣١ قد حاق أيضاً بالطباع الذى أرسله بنيامين فرانكلين إلى جزر الهند الغربية بعد خمسة عشر عاماً لينشئ مكتب طبع فى أنتيجوا. ففى ذلك الوقت كانت الطباعة قد ازدهرت فى جامايكا وسانت كيتس وباربادوس، ومن ثم توقع فرانكلين أن يجد مناخاً ملائماً للطباعة فى سان جونز وأنتيجوا ومقر الحكومة فى

(1) Candid observations on two pamphlets Lately published, Viz : "An address to the Committee of Correspondence in Barbados".- by a North American.. by a native of Barbados. and
A letter to the North American.

(2) An Essay towards the vendication of the Committee of Correspondence in Barbados, by a Barbadoian [Rev. Kenneth Morrison].

(3) John Singleton. A general description of the west Indian Islands, 1767.

(4) Henry Thornhill. A narrative of the insurrection and rebellion in the Island of Grdnada, 1798.

جزر ليوارد، وبالتالى أرسل طابعة «توماس سميث» إلى جزيرة أنتيجوا سنة ١٧٤٨ . ومن المعروف أن سميث قد عمل مع فرانكلين فى فيلادلفيا وفى مكتب فرع فرانكلين فى نيويورك تحت إشراف «جيمس باركر».

وقد كتب فرانكلين إلى صديقه «وليام ستراهان» فى لندن أن توماس سميث شاب معتدل للغاية وأمين ويعتمد عليه. وفعلاً لقد نجح سميث فى أن يصدر جريدة أسبوعية بعنوان : «مجلة أنتيجوا»[1]. كما نجح فى إدارة عملية الطباعة ولكننا نلاحظ أن فرانكلين قد كتب إلى أخته عندما أرسل ابنها «بنيامين ميكوم» ليحل محل سميث الذى توقف بعد أربع سنوات.

إن سميث كان يتمتع بصحة جيدة طوال السنوات الأربع ولكنه غدا مهملاً فى عمله، ويسهر حتى ساعة متأخرة فى الحانات ولذلك طلبت من «بينى» أن يتجنبه، واستمر يقول لها إن ميكوم سوف يجد كل شىء على مايرام وأن كل شىء سيكون مستقراً وأن الجزيرة مزدهرة وليس هناك مكتب طباعة سوف ينافسه أو يضطره إلى ضرب أسعاره وتخفيضها.

ولكن هذه الأحوال المثالية المواتية لم تكن لتدوم طويلاً، ولم يلبث ميكوم الشاب أن ووجه بمنافسه حادة من جانب «صامويل جونز» وربما أيضاً من جانب «ريتشارد أوفتى». وعلى أية حال فإن ميكوم قد استطاع أن يرتب أموره بحيث يسدد ما عليه من ديون لخاله ويعود إلى أمريكا مع نهاية سنة ١٧٥٦ ثم ينقل أعماله إلى بوسطون.

ولقد طبع توماس سميث فى أنتيجوا سنة ١٧٤٩ كتاب «وليام شيرفنجتون»: «قصائد المناسبات»[2] وهو أول كتاب طبع فى أنتيجوا وصل إلينا، كذلك توفر سميث على طبع النماذج والاستمارات وهى إحدى الثوابت لدى أى طابع فى القرن الثامن عشر، ولكن لعل أهم ما طبعه كان «مقالة حول الفلاحة»[3] والتى

(1) Antigua Gazette.

(2) William Shervington. Occational Poems, 1749.

(3) Samuel Martin. An Essary upon plantership, 1750.

نشرت سنة ١٧٥٠، وكان مؤلفها قد استخدم عبارة متخذة هى «بقلم فلاح قديم»[1] ولكن «برادفورد سوان» يؤكد أنها من تأليف «صامويل مارتين» وكان واحداً من أكبر ملاك الأراضى الناجحين فى أنتيجوا. وقد غدا هذا الكتاب من أروج الكتب، وقد طبع منه سميث طبعة ثانية فى نفس السنة طبق الأصل من الطبعة الأولى. وبعد ذلك تولى إصدار هذا الكتاب فى أنتيجوا صامويل جونز فى طبعة ثالثة سنة ١٧٥٦ «فى مكتب الطبع الجديد». أما الطبعة الرابعة ـ والتى لم تصلنا منها نسخ ـ فقد طبعت أيضاً فى أنتيجوا قبل ١٧٦٥ على يد «صامويل كلابهام». وحيث صدرت منها طبعة فى لندن لحساب «أ. ميللر»، تحتسب على أنها الخامسة من هذا الكتاب. وقد قام طابع من أنتيجوا لم يذكر اسمه بإصدار الطبعة السادسة من كتاب مارتين سنة ١٧٦٧. وتوفر الطابع روبرت ميرنز على إصدار الطبعة السابعة من هذا العمل سنة ١٧٨٥. وهناك قرائن على أن كتاب مارتين هذا قد طبع فى جامايكا ١٨٠٢م على نحو ما ذكره كوندال رغم أنه لم يقع على أية نسخة من هذه الطبعة. ومن الواضح أنه كانت لهذا الكتاب سوق رائجة طوال نصف قرن حيث نشرت منه ثمان أو تسع، طبعات وعلى الرغم من أن المطبوعات التى نشرت فى جزيرة أنتيجوا فى أوائل عصر الطباعة نادرة وقليلة شأنها فى ذلك شأن سائر جزر الكاريبى، إلا أن برادفورد سوان قد استطاع جمع قائمة باثنين وثلاثين عملاً وهو لايزعم أنها كاملة حيث يمكن أن تزاد إلى أربعين عنواناً. وأن هذه الأربعين عملاً كانت من طبع عشرة أو أحد عشر طابعاً. وكان أكثر الطابعين إنتاجاً بنيامين ميكوم ومنافسه وليام جونز. ومن الطابعين البارزين أيضاً ريتشارد أوفتى الذى طبع كتاب «الوقائع العسكرية»[2] فى مطبعته فى مرفأ ثيبو فى سانت جونز سنة ١٧٥٦. وفى سنة ١٧٦٣ توفر أحد الطابعين واسمه «إدوارد هوز» على طبع «مجاميع وليام شيرفنجتون»[3]، وكما رأينا من قبل كان من بين الطابعين أيضاً صامويل كلابهام.

(1) by an Old Planter.

(2) Militia Acta, 1756.

(3) William Shervington. Miscellanis, 1763.

وكان «ألكسندر شيبتون» هو طابع «محضر أعمال الجمعية التى انعقدت فى جزيرة أنتيجوا ١٧٧٦»[1]. وفى سنة ١٧٦٨ قام الطابع روبرت ميرنز بطبع تقويم على أفرخ لحساب «جيمس ألبى» وشركاه. وهذه هى أول إشارة إلى تقويم من أنتيجوا، وإن كان هناك من يذكر اكتشاف تقويمين آخرين سابقين عليه أحدهما نشر سنة ١٧٦٢ والثانى نشر سنة ١٧٦٤، ورغم أنهما طبعا فى أنتيجوا إلا أنهما لا يحملان اسم الطابع. وربما كان ميرنز أنجح طابعى الجزيرة. وكان أول الطابعين عملاً هناك، فقد استمر فى العمل على الأقل من ١٧٦٨ وحتى ١٧٨٥ أو بعدها. ولقد طبع عظة الجنازة التى ألقيت عند وفاة «ناتانيل جلبرت» سنة ١٧٧٤. وفى سنة ١٧٧٥ نشر «رسالة قصيرة حول استبعاد الزنوج فى المستعمرات البريطانية»[2] وهى من تأليف «صامويل مارتين الأب» وفيها يؤكد على أن الزنوج كانوا أسعد حالاً فى بلدهم الأفريقى الأصلى بدلاً من التعسف الذى يتعرضون له من قبل الحكومات الاستعمارية، أسعد على الأقل مثلهم هناك فى ذلك مثل العمال الفقراء فى كل من بريطانيا العظمى وأيرلندا. وكان ثمن هذا الكتيب الذى يقع فى ١٢ صفحة هو «٢ بت»[3].

ولقد كان شيبتون هو ناشر «مجلة أنتيجوا»[4] والتى أخذها من بعده الطابع «ميرنز»، وكان قد استمر فى طباعتها حتى يونية ١٦٨٥ على الأقل حيث نشر فيها إعلاناً عن كتيب فى الماسونية يمكن الحصول عليه من مكتبة المجلة أو من السيد «ماكدونو» فى مكتب البريد. وقد سبب هذا الإعلان شيئاً من الخلط لدى مؤرخى الطباعة فى جزر الهند الغربية، إذ كان لمكتب البريد مطبعته الخاصة التى كانت تعمل هناك فى أنتيجوا سنة ١٧٨١ حيث نشر ذلك المكتب نشرة قانونية خاصة بالدعوى القضائية التى أقامها شخص يدعى «بيبجر» ضد شخص يدعى «بيبجر». وكان من المألوف فى مطبوعات أنتيجوا الباكرة أن يقوم أحد الطابعين

(1) An Act of Assembly, passed in the Island of Antigua, 1766.

(2) Samuel martin. A short treatise on the Slavery of Negroes in the British Colonies, 1775.

(3) two bitts.

(4) Antigua Gazette.

بطباعة كتاب ما لحساب ناشر أو تاجر كتب دون ذكر اسم الطابع، بل فقط يذكر اسم الناشر أو بائع الكتب. ومن هذا المنطلق فإنه بعد تنازل ميرنز عن المجلة المذكورة صار يطبعها لحساب وليام كولنز. كما صار مكتب طبع الملكة يطبع تقويم جون جونستون اعتباراً من سنة ١٧٩١م، كما طبع العدد الثانى من المجلد الأول من «حولية أنتيجوا»[١] الذى ظهر فى يناير ١٧٨١م والذى - كما جاء فى بيان الطبع - «طبع لمدير مكتب البريد». وفى سنة ١٧٨٦م أصبح طابع هذه الحولية هو «جيمس هارجروف». ولقد بدأ صدور «جورنال أنتيجوا»[٢] سنة ١٧٨٨ على حسب ما ذكر «فيرى ل. أوليفر» مؤرخ أنتيجوا والتى استمرت فى الصدور حتى سنة ١٧٩٩ حيث انتقلت إلى الطابع «جون هاردكاسيل». ومما يذكر عن جون هاردكاسيل أنه هو الذى طبع كتاب «إجراء أكثر فاعلية لإصدار ودعم وتوسيع نطاق بعض التعليمات لحماية العبيد، والدعوة إلى - وتشجيع - زيادة أعدادهم.. وبصفة عامة لتحسين أوضاعهم»[٣]. وقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٧٩٩ وقد نشر عنه إعلان فى جورنال أنتيجوا فى الثانى والعشرين من أكتوبر من تلك السنة تحت عنوان «إجراء تحسين الأوضاع»[٤] ونوه إلى أنه يباع فى مكتب الجريدة. وربما كان جون هاردكاسيل هو ناشر «جورنال أنتيجوا» على الأقل فى السنوات الأخيرة من القرن.

والحقيقة أن المصادر التى تصدت لدراسة الطباعة فى جزر الهند الغربية لم تقل لنا لماذا زاد عدد الطابعين هناك فى ثلاثة أرباع القرن الأخيرة. ونحن نعرف مصير رجال من أمثال دافيد هارى وتوماس سميث وبنيامين ميكوم أنهم ثبتوا أقدامهم فى مكان واحد، ولما ضاق بهم العيش فيه لم ينتقلوا إلى غيره وهى الطريقة التقليدية للرجل الأبيض فى المنطقة الاستوائية، ولم يكن لديهم الجلد على الاستمرار فى الجزر.

لقد كان هناك طابعون آخرون تدفقوا على الجزر وتنقل بعضهم من مكان إلى

(1) Antigua Chronicle.
(2) Antigua Journal.
(3) "An Act more effectually to provide for the support and to extend certain regulations for the protection of the Slaves, to promote and encourage their increase and generally to meliorate their condition".
(4) Milioration Act.

مكان كما فعل صامويل جونز الذى عمل فى أنتيجوا سنة ١٧٥٥م وبعد سنتين أصدر جريدة فى باسيتير بالقرب من سانت كريستوفر التى هى الآن سانت كيتس قبل أن ينتقل إلى لندن حيث مات هناك سنة ١٧٦٢م فيما يذكر أشيعا توماس بعد مرض أصابه فى رئتيه لمدة ثمانية أيام. ومثال آخر: إدوارد هوز الذي اشتغل بالطباعة فى أنتيجوا سنة ١٧٦٣، قضى تسعة أعوام بعدها فى تشارلستون فى جنوب كاليفورنيا وكصاحب جريدة (مجلة جنوب كاليفورنيا) بالاشتراك مع «توماس بويل» و«بيتر تيموثى» وقد توفى فى شهر يولية ١٧٧٢.

ويبرز بين طابعى جزر الهند الغربية الطابع ذو القصة الممتعة، «دافيد دوجلاس» الذى ألمحت إليه سابقاً والذى تعلم الطباعة فى إنجلترا ثم ارتحل منها إلى جامايكا سنة ١٧٥٠، ولكنه ارتبط بفن التمثيل المسرحى مع «لويس هالام» فى فرقة مسرحية عرفت باسم «فرقة هالام فرجينيا الكوميدية». وبعد وفاة هالام تزوج دافيد دوجلاس من أرملته وأخذ الفرقة ورحل بها إلى أمريكا الشمالية سنة ١٧٦١ وقدم عروضاً مسرحية فى ويليامزبيرج، نيوبورت، بروفيدانس خلال سنة ١٧٦٢. وعندما تم حظر العروض المسرحية فى أمريكا سنة ١٧٧٤م عاد دوجلاس إلى جامايكا ودخل مهنة الطباعة من جديد، وتولى منصبين قضائيين وعمل طابعاً فى جامايكا واحتكر كل أعمال الطباعة لدى «الجمعية العمومية» ومات غنياً جداً على نحو ما قدمت بالأرقام هناك عند حديثى عن الطباعة فى جامايكا.

الطباعة فى جزر برمودا وبهاما ودومنيكا وغرناطة ومونتسيرات وسانت كيتس

من الواضح أن الطابعين قد زاد عددهم فى جزر جامايكا وباربادوس وأنتيجوا على وجه الخصوص، فى حين قل عددهم فى الجزر الأخرى. ففى برمودا ذكر أشعيا توماس طابعاً واحداً هو «جون استوكديل» الذى أنشأ مطبعة لفترة قصيرة فى تلك الجزيرة قبل سنة ١٧٨٤م؛ حيث طبع فيها «مجلة برمودا»[1]. وفى جزر البهاما

(1) The Bermud Gazette.

نجد الطابع «جون ويلز» الذى جاء إلى ناسو سنة ١٧٨٣ عقب السلام مباشرة، وقد جاء - كما ذكر أشعيا توماس - من جنوب كاليفورنيا، وقد أصدر فى ناسو «مجلة البهاما الملكية»[١].

أما فى جزيرة دومنيكا فقد دخلتها الطباعة سنة ١٧٦٥م على يد «وليام سميث» الذى أصدر فيها «مجلة الميناء الحر أو معلن دومينكا»[٢] وذلك فى مدينة روسو. وبعد عامين - أى فى سنة ١٧٦٧م - طبع وليام سميث «تحطم السفينة»[٣] وهى قصيدة من ثلاثة أجزاء «كتبها بحار ووجهها إلى صاحب السمو الملكى دوق يورك. والثمن دولاران». وقد طبع طابع مجهول فى مدينة روسو أيضاً سنة ١٧٧٢ «إجراء لفرض ضريبة فى دومنيكا أرض الخشب»[٤]. ويذكر أشعيا توماس أنه كانت هناك جريدة فرنسية وأخرى إنجليزية فى جزيرة دومنيكا سنة ١٧٧٥م يطبعها طابع اسمه جونز. وهى نفس السنة التى صدر فيها «قانون من المجلس التشريعى لجزيرة دومنيكا لإنشاء محاكم الدعاوى العامة والخطأ ومقعد الملك وجلسات السلم الكبيرة»[٥] فى مدينة روسو. وهناك مطبوع آخر يحتمل طباعته فى روسو هو «يوميات دفاع جزيرة دومنيكا ضد غزو الجمهوريين الفرنسيين وثورة الدومنيكان فى منطقة كولهوت فى يونية ١٧٩٥»[٦] وقد ظهر عليه بيان الطابع واسمه «روبرت براون . . . رسو، دومنيكا فى الثالث من ديسمبر ١٧٩٥».

وفى جزيرة غرناطة (جرينادا) كان هناك عدد من الطابعين الذين يطبعون بالفرنسية والإنجليزية على السواء. ويذكر-أشعيا توماس أن جريدة «مجلة غرناطة

(1) The Royal Bahama Gazette.

(2) The Freeport Gazette, or, The Dominica Advertiser.

(3) The shipwreck.

(4) An Act for laying a taxon Woodland, Dominica.

(5) An Act of the Ligislature of the Island of Dominica for establishing courts of Common PLEAS, ERROR, King's bench and grand sessions of the peace.

(6) A diary of the defence of the Island of Dominica, against the invation of the French Republicans & the revolt of the Dominicans of the Quarter of Colyhaut, in June 1795.

الملكية»[1] صدرت فى جورجتاون فى يناير ١٧٦٥ «على فرخ من القطع الكبير وطبعت بحرف بيكا الجديد الصغير والعناوين بالحروف الطويلة وتوفر على طبعها وليام ويلاند فى مكتب الطبع الجديد». ويستمر فى القول بأنه كان فى الجزيرة داران للطباعة وإحداهما أنشئت قبل مطبعة ويلاند بعدة سنوات. وكان ويلاند يطبع «قوانين المجلس التشريعى»[2] سنة ١٧٧٤م.

وفى سنة ١٧٧٩ بعد احتلال الجزيرة من قبل قوات «الكونت ديستانج»، كان هناك طابع اسمه «ألكسندر ميدلتون» يطبع الكتب باللغة الفرنسية فى سان جورج بجزيرة غرناطة، وفى تلك السنة طبع كتابين باللغة الفرنسية أحدهما عن جزيرة غرناطة[3] والثانى عن الموقعة البحرية التى حدثت فى غرناطة والمواجهة بين قوات الملك الفرنسى وملك إنجلترا فى السادس من يولية سنة ١٧٧٩»[4]. وكما أشرت من قبل فإنه رغم وجود مطبعة فى غرناطة سنة ١٧٩٥م إلا أن كتاب أحداث الجزيرة قد طبع فى باربادوس سنة ١٧٩٨. وفى نفس سنة ١٧٩٥ طبع فى مدينة سانت جورج فى غرناطة كتاب، «ت.ث.وايز» الموسوم «عرض للأحداث التى وقعت فى غرناطة منذ بداية الغزو المسلح فى أول مايو : بقلم مخلص يتمنى الخير للمستعمرة»[5]. وربما يكون طابع هذا الكتاب فى الجزيرة هو «ماتيو جالاجهر» الذى كان يطبع «الجريدة الأسبوعية ومعلن الكاريبى»[6] (فى سانت جورج، شارع هاليفاكس على ثلاثة أبواب من المعرض) وذلك فى الشهور الأولى من ١٧٩٤. وقد أعلن جالاجهر فى إصدارة العشرين من فبراير ١٧٩٤ عن تقويم جيب تلك السنة «والذى سوف ينشر يوم السبت ويطلب من الطابع المذكور

(1) The Royal Grenada Gazette.
(2) Laws of the ligislature.
(3) Relation de la prise de la Grenade.
(4) Relaton du Combat naval de la Grenade, donne entre L'armee du Roi et celle du Roi d'Angleterre, Le6 Juillet, 1779.
(5) A Review of the events which have happened in Grenada from the commencement of the insurrection to the lst of May: by a sincere well-wisher to the colony.
(6) Weekly Courant and Charibbee Advertiser.

- والثمن دولار واحد». ويذكر «برادفورد سوان» عن التقويم المذكور أن الطابع جالاجهر لم ينشر تقويمه إلا بعد مضى شهرين من السنة، واستنتج من ذلك أنه كان لتوه قد افتتح المطبعة فى سانت جورج.

وعلى الرغم من أن «قوانين مونتسيرات من ١٦٦٨ وحتى ١٧٧٨»(١) قد طبعت فى منطقة الكاريبى سنة ١٧٨٠م إلا أنه لم يكن هناك طابع فى تلك السنة فى مونتسيرات. ويقول أشعيا توماس إن جريدة «المجلة الملكية الدنمركية الأمريكية»(٢) قد صدرت عن مطبعة فى كريستيانستد قبل ١٧٧٠ وأن الطباعة لم تدخل إلى تلك الجزيرة (سانتا كروز) قبل صدور هذه الجزيرة بفترة طويلة. ولم يذكر لنا أشعيا توماس ـ مصدرنا الوحيد فى هذا الصدد ـ من كان طابع تلك الجريدة ولا أية معلومات عن مطبعته. ويذكر أشعيا توماس أيضاً أن الطباعة دخلت إلى سورينام فى باراماريبو قبل سنة ١٧٧٥ . ويقول بأن الهولنديين أدخلوا الطباعة إلى جزرهم : كوراكوا وسانت أوستاسيوس؛ ذلك أن «صامويل أوغسطوس ماتيوس» أراد أن يكتب رداً على كتاب «ج.ب. موريتون»: «العادات والتقاليد فى جزر الهند الغربية»(٣) فأخذ هذا الرد وذهب به إلى شركة «إدوارد ل.لو وشركاه» لطباعته، وقد صدر كتاب ماتيوس تحت عنوان «البطل الكاذب أو الرد على كتاب موريتون: العادات والتقاليد فى جزر الهند الغربية»(٤) وهو يحمل بيانات الطبع (سانت أوستاسيوس، طبع لدى إدوار ل.لو وشركاه لحساب المؤلف ١٧٩٣). ونحن نعرف أن لو كان طابعاً فى باسيتير وسانت كيتس سنة ١٧٨٥ و ١٨٩٠ على التوالى ولا نعرف السبب وراء قيامه بنقل مطبعته إلى سانت أوستاسيوس سنة ١٧٩٣، فى حين كانت سانت كيتس مركزاً نشيطاً للطباعة طيلة ثلاثة عقود.

---

(1) Laws of Montsserrat from 1668 to 1778.

(2) The Royal Danish American Gazette.

(3) J. B. Moreton. Manners and costums of the West India Islands.

(4)Samuel Augustus Mathews. The lyinghero, or, an answer to J. B. Moreton's manners and costums in the west Indies.

وفى باستير قام الطابع «دانييل ثيبو» بطباعة جريدة «مجلة سانت كريستوفر»[١]. التى صدر أول أعدادها فى الثانى من نوفمبر سنة ١٧٦٥ وذلك حسبما نستقيه من مقالة متبادلة فى «عطارد نيوبورت» عدد التاسع من ديسمبر من نفس السنة. ويقول أشعيا توماس - وهو مايزال مصدرنا الوحيد فى هذا الصدد - إنه رغم أن «توماس هاو» كان أول طابع هناك فى باسيتير، إلا أن الطباعة ربما تكون قد دخلت سنة ١٧٤٦ أو قبل هذا التاريخ بسنتين أو ثلاثة. ويستمر فى القول بأن ثمة مطبعتين قد أنشئتا فى تلك الجزيرة قبل سنة ١٧٧٥، ولكن يبدو أنه كان هناك أكثر من طابعين موجودين فى باسيتير فى تلك الفترة لأننا نعرف أنه - بالإضافة إلى كل من هاو وثيبو - هناك وثائق تدل على أن صامويل جونز الذى كان قد فتح «مكتب الطبع الجديد» سنة ١٧٥٥ أو ١٧٥٦ فى سانت جونز وأنتيجوا كان طابعاً ومدير مكتب البريد فى باسيتير سنة ١٧٥٧م. وأن «إدوارد دوبسون» كان يمارس الطباعة فى باسيتير فى وقت ما بعد سنة ١٧٦٧م.

ونحن نعرف أن ثيبو هو الذى طبع «وقائع الجمعية العمومية... سانت كريستوفر... من ١٧١١ إلى ١٧٦٩»[٢] فى سانت كريستوفر سنة ١٧٦٩. كما أنه قد تولى طباعة «مجلة سانت كريستوفر»[٣] اعتباراً من سنة ١٧٦٥. وقد استمرت هذه المجلة حتى ١٧٧٥ وما بعده، وكان هاو فى ذلك الوقت مايزال يمارس نشاطه فى سانت كريستوفر ربما حتى سنة ١٧٨٠ حيث أصدر «مقال عن تخفيض الفائدة»[٤]. ولقد تولى «إداورد لوثر لو» طبع مجلة سانت كريستوفر اعتباراً من التاسع عشر من نوفمبر سنة ١٧٨٥ حيث بدأ طباعة العدد ٦٩٣ من تلك الجريدة (فى شارع كايون - رقم ٨٤). وقد وصلتنا معلومات عن ثلاثة كتب طبعها «إداورد لوثر لو» فى سانت كرستوفر سنة ١٧٩٠ وهى:

---

(1) St. Christopher Gazette.

(2) Acts of Assembly... St. Christopher... 1711 to 1769.

(3) St. Christopher Gazette.

(4) An Essay on the reduction of interest.

أ- ريتشارد نسبت : منبع الفضيلة؛ قصيدة[١].

ب- تمبل هنرى كروكر : من أنا؟ وكيف جئت إلى هنا؟[٢]

ج- ج. بيتركين : رسالة عن الإنبات من أصيل طبيعى أو صناعى.- الطبعة الثانية[٣].

ولقد قام الطابع «جوزيف بيرو» بطبع «قوانين جزيرة سانت فنسنت وملحقاتها من أول تأسيس المجلس التشريعى حتى نهاية سنة ١٧٨٧»[٤] وذلك فى سنة ١٧٨٨ ، وقد سار بيان الطبع فى هذا العمل على النحو الآتى (سانت فنسنت، بتفويض من المجلس التشريعى، طبعه جوزيف بيرو ١٧٨٨.) وقد تم طبع قوانين سانت فنسنت سنوياً من ١٧٩٢ وحتى ١٧٩٩ .

وعلى الرغم من أنه قد وصلنا تقويمان مطبوعان يحملان بيان الطبع «طبع فى مطبعة ج.ب. ثونين»؛ إلا أن ثونين لم تكن له مطبعة فى سانت لوتشيا بإجماع المصادر وربما يكون قد طبع هذين التقويمين سنة ١٧٨٩ و ١٧٩٠م إما فى جزر المارتنيك ـ حيث كانت شركة ثونين وفوشيه قد نشرت «صديق الحرية وعدو الفوضى»[٥] وهى جريدة عامة سنة ١٧٩١ ـ وإما فى بورت - أو - برنس (هايتى) حيث كان ب.ج. ثونين وشركاه يمارسون الطباعة فى مكتبهم بشارع دى فرونت - فورت سنة ١٧٩٣ ، وكانت الشركة تنشر آنذاك «الجريدة السياسية فى بورت - أو برنس والمعلنون الأمريكيون»[٦].

---

(1) Richard Nisbet. The Source of virtue : a poem.

(2) Temple Henry Croker. Where am I?, How I Came Here.

(3) J. Peterkin. A Treatise on planting from the origin of semen to ebullition .- the second edition.

(4) The Laws of the Island of Saint vincent and its Dependencies, from the first establishment of a ligislature to the end of the year 1787.

(5) The Friend of liberty and the enemy of licentiousness.

(6) Journal Politique De Port - au - Prince et Affiches Americaines.

الطباعة فى جزر المارتنيك

كان ثونين واحداً من طابعين عدة يمارسون الطباعة فى الجزر الفرنسية. وقد زاد هؤلاء الطابعون وزاد عدد الجرائد التى يصدرونها زيادة واضحة فى السنوات التى أعقبت الثورة الفرنسية. وعلى سبيل المثال لاحظ أشعيا توماس أن جريدة «مجلة المارتنيك»[1] قد بدأت فى الصدور فى سان بيير فى ديسمبر ١٧٨٤م وكان يتوفر على طبعها «بيير ريتشارد» بتصريح من الحكومة «مع بداية الثورة فى فرنسا». ويستمر فى القول بأن الصحف والمطابع كانت تقوم بدون قيود ليس فقط فى فرنسا الأم وإنما أيضاً فى مستعمراتها التى نشرت بها صحف عامة من كل نوع. وقد ظهرت الصحف الآتية فى المارتنيك:

١- صديق الحرية وعدو الفوضى. التى نشرها ثونين وفوشيه سنة ١٧٩١.

٢- المجلة الوطنية والسياسية[2]. من مطبعة ج.ب. ثونين فى سان بيير. طابع الشعب فى سنة ١٧٩٣. وقد سمى ثونين نفسه: طابع لجنة الأمن وطابع مجتمع الوطنية.

٣. المعلن الأدبى والسياسى للمارتنيك[3]. طبعت فى بورت رويال لدى «ب. ريتشارد» و«لاكادى». هذان الطابعان لم يلبثا أن طبعا «مجلة المارتنيك فى سان بيير»[4]. ويذكر أشعيا توماس أنه «فى ترينتى فى تلك الجزيرة سنة ١٧٩٢ ظهرت جريدة من مطبعة X.y.Z».

الطباعة فى هايتى

رغم أن أول مطبوع وصلنا من هايتى هو «ذكريات الكونت دى لاكروا...»[5]. الذى جاء فى حرد متنه أنه طبع فى بورت - أو - برنس بوردون سنة ١٧٨٩م، إلا أن أشعيا توماس يقول بأن مطبعة ملكية قد أنشئت فى

(1) Gazette de la Martinique.
(2) Gazzette National and Political.
(3) Literary and Political Advertiser of Martinique.
(4) Gazette de La Martinique.
(5) Memoire pour le Comte de la Croix, Capitaine des Vaisseaux, de sa majeste, appellant et demandeur, contre monsieur Jean - Baptiste - Francois de la tour.

بورت - أو - برنس سنة ١٧٥٠ وطبع عليها فى نفس تلك السنة تقرير عن الزلزال العظيم الذى وقع آنذاك فى تلك الجزيرة. ومن الأعمال الأخرى التى سمح بطباعتها فى المطبعة الملكية مجلد صغير عن مذكرات معهد أدبى فى المستعمرة وقد نشر هذا المجلد سنة ١٧٨٨ . ويقول أشعيا توماس كذلك أن «م. موزارد» كان طابعاً فى بورت - أو - برنس سنة ١٧٩٠ وربما لعدة سنوات قبل ذلك التاريخ. وقد أصبح موزارد بعد ذلك قنصلاً لجمهورية فرنسا فى بوسطون. ويقول توماس عنه إنه أحضر معه مطبعته المنقولة وحروفاً كثيرة صغيرة صنع باريس وباعها إلى «جون ميريل».

ويعتبر كتاب أشعيا توماس عن تاريخ الطباعة فى أمريكا ـ مرة أخرى ـ هو مصدرنا الوحيد عن الطباعة الباكرة فى هايتى؛ فيذكر أن صحيفة تجارية نشرت فى بورت - أو - برنس، وذلك بترخيص رسمى من الحكومة قبل اندلاع الثورة فى فرنسا، وأنها كانت تنشر سنة ١٧٩٠ لدى الطابع بوردون، «الطابع الملكى». ويستمر فى القول بأنه فى كاب فرانسوا كانت هناك صحيفة عامة تتضمن معلومات بحرية وأوامر الحكومة. . . وكانت تطبع فى المطبعة الملكية، وكانت مستمرة فى الصدور سنة ١٧٩٠ بإذن من السلطات البلدية. وفى كاب هايتين توفر الطابع «باتيليون» وشركاه على نشر مجموعة من الأعمال سنة ١٧٩٢ منها «إعلان باسم الأمة، باسم القانون وباسم الملك. . . .»[١].

وفى سنة ١٨٠٤م أصدر حاكم جواديلوب قراراً إلى كل القادة الأمريكيين بحظر دخول أية صحف أو مجلات أو إعلانات من أى نوع ومن أى مكان فى العالم إلى المستعمرة، ومن يخالف يغرم بـ ٢٠٠ دولار.

وفى سنة ١٨١٤ بدأ الحكم الذاتى الفعلى لجزر الهند الغربية. وفى مدينة كاب هنرى فى هايتى، وفى نفس سنة ١٨١٤ قام الطابع «ب. روكسى» بطبع «رفض خطاب الجنرال الفرنسى «دوزيون لافاييس» . . بقلم الفارس دى بريزو»[٢] وكان بريزو سكرتيراً لصاحب الجلالة «هنرى الأول».

---

(1) Proclamation, Au nom de La National de la Loi, et du Roi. Etienne Polverel, Jean - Antoine Ailhaud et Leger - Felicite Sonthonax.

(2) Refutation de la lettre du General Francis Dauzion Lavaysse. Par le chevalier de Prezeau.

الطباعة فى جزر الأنتيل الهولندية

تتكون جزر الأنتيل الهولندية من ست جزر فى منطقة الكاريبى؛ ثلاث منها يطلق عليها «ليوارد»[1]. وهى جزر (أروبا، بونئير، كوراكاو) ويتكلم الناس فيها لغة بابيامنتو وهى مزيج من الأسبانية والهولندية والإنجليزية وعناصر أخرى محلية ترجع إلى القرن الثامن عشر. والثلاث الأخرى يطلق عليها «ويندوارد»[2] وهى (سانت مارتن، سابا، سانت أوستيس) ويتكلم الناس فيها اللغة الإنجليزية. وتتمتع هذه الجزر الست بالحكم الذاتى، ولكنها جزء من حكومة مملكة هولندا ولذلك فإن اللغة الرسمية هى اللغة الهولندية. ومن المعروف أن الجزء الجنوبى من سانت مارتن يخضع للسيادة الفرنسية، وهناك جرف من المحيط الأطلنطى يمتد بطول ٥٥٠ ميل يفصل بين جزر ليوارد و ويندوارد. والجزر نفسها صغيرة ومبعثرة السكان، ولايزيد عدد سكان كوراكاو عن ١٥٠ر٠٠٠ نسمة (١٩٨٠)، أروبا عن ٧٠ر٠٠٠ نسمة (١٩٨٠) وهذه الزيادة النسبية ترجع إلى وجود معامل تكرير النفط الضخمة هناك، فى حين أن عدد السكان فى الجزر الأربع الأخرى لا يربو فيها جميعا على ١٥٠٠٠ نسمة (١٩٨٠)، والجزء الفرنسى من سانت مارتن يسكنه نحو سبعة آلاف نسمة (١٩٨٠).

وفى خلال القرن الثامن عشر كانت جزيرة سانت أوستيس هى أهم الجزر وأكثرها ازدهاراً لأنها تقع على طريق ملاحى هام يربط المستعمرات الإنجليزية والفرنسية والدنمركية والأسبانية، وقد ازدهرت الجزيرة باعتبارها «الميناء أو الجسر» الذى يربط ما بين فنزويلا الحالية؛ بالمستعمرات البريطانية فى أمريكا الشمالية. وخلال حرب الاستقلال الأمريكية كانت سانت أوستيس مركزاً هاماً جداً لتوريد وتوصيل المحاصيل الاستوائية إلى المستعمرات الثلاث عشرة الثائرة، كما كانت تمدها بالبارود ومعدات الحرب. ولذلك فقد عرفت هذه الجزيرة بأنها «الصخرة الذهبية» إلى أن احتلها الأدميرال البريطانى «جورج بريدجز رودنى» سنة ١٧٨١

(١) إتجاه الريح Leeward.

(٢) عكس الريح Windward.

ومن ثم وضع حداً لمساعدة الثوار عن هذا الطريق. ولكن لم يلبث الازدهار أن عاد إلى الجزيرة مرة ثانية ونشرت فيها أول قطعة فى جزر الأنتيل سنة ١٧٩٠ وهى «مجلة سان أوستيس»[1] وهى جريدة أسبوعية لم تصلنا منها سوى أعداد قليلة. ويرجح الثقاة أن يكون أول عدد منها قد صدر فى مارس ١٧٨٩، وآخر عدد معروف لنا مؤرخ فى ٢٥ من يناير ١٧٩٣، ولا نعرف ما إذا كانت استمرت فى الصدور بعد ذلك التاريخ أم لا، وإن كنا نعرف أن اقتصاد الجزيرة قد انهار بعد ١٧٩٤، وكذلك نعرف أنه لم تنشأ مطابع بعد ذلك التاريخ فى سانت أوستيس.

وطبقاً لبيان الطبع فى الأعداد التى وصلتنا من هذه الجريدة فإن الطابع هو إداوارد لوثر لو - الذى سبق أن صادفناه من قبل - خلفاً للسيد «هنرى هـ. هافيى». وفى الأعداد الأخيرة من الجريدة نجد كلمات «وشركاه» وقد أضيفت إلى اسم إداورد لوثر لو. ولا نعرف عن لو إلا أنه جاء من جزيرة سانت كيتس على ما تعرضت له سابقاً. ومحتويات هذه الجريدة التى كانت تصدر على شكل فرخ عريض مساحته ٤٥ X ٢٧سم (١٨١/٢ X ١٠١/٢ بوصة)، ليست لها قيمة أو فكرة، وإنما مجرد إعلانات عابرة بعضها بالهولندية ولكن أغلبها بالإنجليزية، إضافة إلى بعض السخافات التى ربما تكون مسلية لناس ذلك الوقت. وأنقل هنا فقط لقطع الملك نصا كنموذج على ما كان ينشر فيها من الإعلانات الإنجليزية:

«لقد هربت منى البارحة زوجتى «بريدجت كول»، ممشوقة القوام ونظيفة الجسم. وقد فقدت رجلاً. وكانت قد شوهدت تركب خلف قسيس الأبرشية عبر «تيرموى». ولم نكن قط قد تزوجنا، ولن أدين لأحد لو تعاقدت معه. فى حديثها لثغة وتتحدث دائما عن العفاريت ولا فائدة منها إلا لمن يتملكها».

ورغم أن الطباعة قد دخلت إلى سانت أوستين قبل ويليم كول كوراكاو بعشرين سنة على الأقل، إلا أنها تأخرت كثيرا عن جزر الكاريبى الأخرى.

فى الفترة من ١٨٠٧ و١٨١٦ خلال احتلال «نابليون» لهولندا وضعت

(1) St. Eustatius Gazette.

كوراكاو تحت الحكم البريطانى. وفى خطاب مؤرخ فى ١٦ من فبراير سنة ١٨٠٨ من الحاكم العام «روبرت نيكولاس» إلى نائب الحاكم «جيمس كوكبورن»، يقترح الحاكم العام نيكولاس على السير جيمس كوكبورن ألا يستورد فقط البضائع من إنجلترا ولكن أيضاً أن يجلب مطبعة من هناك تطبع المطبوعات الرسمية. ويبدو أن السير جيمس قد سمع النصيحة وعمل بها وجلب المطبعة، حيث أن أول قطعة مطبوعة معووفة لنا فى كوراكاو تحمل تاريخ ١٨١٢.

وفى يوم الخميس الموافق ٢٦ من مارس سنة ١٨١٢ تعرضت مدينة كاراكاس (فنزويلا الآن) لزلزال خربها عن آخرها. وبعد تلك الكارثة انتقل طابع سكوتلندى كان يعمل هناك بمطبعته إلى جزيرة كوراكاو، وكان هذا الطابع هو وليام لى. وربما تكون له دوافع سياسية أيضاً، ذلك أن مقاطعة فنزويلا كانت قد دخلت فى حرب الاستقلال ضد أسبانيا، وربما كان «وليام لى» الذى كان مؤلف كتيبات سياسية قد ركب الجواد الخاسر. وطبقاً للسجلات البريطانية فإنه كان هناك مطبعة إنجليزية فى كوراكاو سنة ١٨١٢ ولكن لم يذكر اسم وليام لى فى تلك السجلات، وكان عمره فى ذلك الوقت ٢٦ سنة فقط.

ومهما يكن من أمر فقد أقام «لى» مطبعته فى شارع هيرين، الشارع الرئيسى الآن، وحينذاك فى وليمشتاد. وقد أخذ يطبع «مجلة كوراكاو والمعلن التجارى»[١] والتى صدر أول أعدادها فى الحادى عشر من ديسمبر ١٨١٢. وهكذا كانت كوراكاو هى آخر الجزر الرئيسية فى المنطقة التى تدخلها الطباعة حيث دخلت جامايكا (١٧١٧؟)، المارتنيك (١٧٢٧)، سانتو دومنجو (١٧٥٠).

وقد أعلنت «مجلة كوراكاو» بكل الفخر عن تعيين وليام لى طابعا للملك «صاحب الجلالة المعظم». وعندما عادت جزيرة كوراكاو إلى السيادة الهولندية سمح لـ «وليام لى» بالاستمرار فى المنصب والاستمرار فى الطباعة. وقد أعيدت تسمية الجريدة إلى «جريدة كوراكاو»[٢] للدلالة على السيادة الهولندية. وقد ظلت

(1) Curacao Gazette and Commercial Advestiser.

(2) Curacaosche cornamr.

مستمرة منذ ذلك الوقت وحتى الآن أسبوعية؛ ولها صبغة شبه رسمية وهى المسئولة عن كل المطبوعات الحكومية.

ولقد تزوج لى من فتاة محلية من الجزيرة سنة ١٨٢٢ بيد أنه مات فى السنة التالية، واستأنفت أرملته العمل بعده طيلة عشر سنين ثم باعت المطبعة لاثنين من العاملين فيها، وهما «أ. ل. ستاتيوس موللر» و«ج. ف. نيومان». وقد استمر خلفاؤهما فى العمل حتى ١٩٠٨م حين اشترت أسرة جورسيرا المطبعة، والتى تديرها فى الوقت الحاضر. وقد ظلت هذه الأسرة بالمطبعة فى نفس شارع هيرين حتى ١٩٢٩م وانتلقت مرتين بعد ذلك إلى أن استقرت فى مبنى حديث سنة ١٩٥٠ فى شارع جديد آنذاك يحمل اسم «وليام لى» صاحب المطبعة الأصلى. وتعتبر هذه الشركة هى أكبر مطابع الجزيرة فى الوقت الحاضر.

ومن الإعلانات التى كانت تنشر فى «جريدة كوراكاو» يتضح لنا أن هذه المطبعة فى عقودها الأولى كانت تنشر الكتب إلى جانب الجريدة. وكانت الكتب التى تنشرها ذات صبغة دينية، وللأسف لم تصلنا أية نسخ من تلك الكتب.

وقد وصلتنا قطعة مطبوعة فى جزيرة كوراكاو سنة ١٨٢٥ باللغة المحلية (بابيامنتو) وهى عبارة عن كتيب تعليمى فى المذهب الكاثوليكى(١) من تأليف المبعوث الرسولى للبعثة الكاثوليكية الرومانية واسمه «م. ج. نيوفندت». والكتيب يقع فى ١٦ صفحة وهو مطبوع طباعة بدائية. ويرجح أن نيوفندت الذى كان قسيساً ورئيس البعثة كانت لديه مطبعة يدوية وتوفر على طبع الكتاب بنفسه. ولم يصلنا من هذا العمل إلا نسخة واحدة، وربما لم يقم نيوفندت بطبع أية أعمال أخرى.

ومما يذكر عن هذا القسيس ـ مونسيجنور نيوفندت ـ أنه قد أنشأ مطبعة فى وقت لاحق سنة ١٨٤٣ فى مدينة باربور، ورغم أن الوثائق الأرشيفية الأسقفية

---

(1) J. M. Niewindt. Declaration Corticu di Catesimo pa uso di Catholica di Curaçao, pa M. J. Niewindt, prefecto apostilica di Mision di Curacao, Ao, 1825.

تكشف عن وجود ثلاثة طابعين جائلين فى تلك المدينة سنة ١٨٥٣م، إلا أنه لم يصلنا أى إنتاج قد طبعوه. وفى سنة ١٨٧١ أو ١٨٧٢ نقلت مطبعة نيوفندت إلى ويلمشتاد، وفى سنة ١٨٨٤م آلت إلى «أوغسطين بيثنكورت» الذى سيأتى ذكره بعد ذلك.

ولقد أقامت البعثة الكاثوليكية مطبعة أخرى سنة ١٨٤٨ نتيجة مبادرة من قسيس آخر هو «جاكوبوس ج. بوتنام» الذى كان يعمل بين سكان الريف والعبيد فى سانتا روزا منذ ١٨٣٧. وفى سنة ١٨٤٨ ذهب إلى هولندا وعاد ومعه معدات الطباعة وأحد الطابعين المهرة واسمه «جوهان فان هيربين». وقد تعاون الاثنان على إنتاج عدد من الكتب المدرسية البسيطة حفظ كثير منها فى الأرشيف الأسقفى. ويبدو أن نشاط هذه المطبعة قد توقف بعد سنوات قليلة من رحيل بوتنام إلى هولندا سنة ١٨٥٣.

أما أول مكتب طبع حديث فى كوراكاو فقد أنشئ سنة ١٨٦٠ على يد أوغسطين بيثنكورت سابق الذكر والذى ولد فى جزر الكنارى. وقد ارتحل وهو شاب إلى فنزويلا حيث عاش هناك تسعة عشر عاماً. وقد أراد الرجوع إلى بلده ومن ثم فقد ذهب إلى كوراكاو كى يبحر من هناك، ولكن بدلاً من ذلك استقر هناك وفتح متجر كتب ثم مطبعة ذات معدات أمريكية. وقد كان يكتب فى بيان الطبع بعد فترة (بيثنكورت وأولاده) وتطورت أعمال هذه الشركة تطوراً كبيراً. ولم تقتصر الشركة على طبع الكتب للاستهلاك المحلى وإنما أيضاً للتصدير إلى قارة أمريكا الجنوبية. ولقد نشرت هذه الشركة أول جريدة يومية فى كوراكاو سنة ١٨٧٩. وقد استمرت المطبعة فى العمل حتى ١٩٣٣ حين أغلقت أبوابها، بيد أن تجارة الكتب الخاصة بهذه الأسرة مازالت مستمرة حتى اليوم.

ولم تدخل الطباعة إلى جزيرة أروبا إلا فى نهاية القرن التاسع عشر. ولم تدخل الطباعة إلى سائر جزر المارتنيك حتى سنة ١٩٦٤ عندما أسست مطبعة فى جزيرة سانت مارتن.

بعد هذا العرض السريع لانتشار الطباعة فى جرز الهند الغربية أو جزء الكاريبى، تبقى لنا بعض الملاحظات العامة ـ أو لنقل النتائج العامة والخصائص المشتركة للطباعة ـ بين الجزر المختلفة. من بين تلك الملاحظات ما يتعلق باشتراك الزنوج ومساهماتهم فى الطباعة فى جزر الكاريبى، حيث لاحظ برادفورد سوان أن الزنوج قد كانت لهم مساهماتهم فى الطباعة فى أمريكا الشمالية أو على الأقل كانوا يستخدمون أو يعملون فى الطابع الأمريكية، ولكنه يستبعد أن تكون لهم مثل هذه المساهمات فى الكاريبى، وإن كان «كوندال» فى كتابه عن الطباعة فى جامايكا ـ والذى أشرت إليه من قبل ـ قد وصف لنا حالة محددة فى هذا الصدد. فقد ذكر أنه فى سنة ١٧٩٤ عندما كان «ألكنسدر إيكمان» يطبع ٢٠٠ نسخة من محاضر أعمال الجمعية العمومية فى جامايكا وأنه كان هناك عدد من النسخ سوف يرسل إلى إنجلترا، ومن ثم فلابد أن يكون الطبع على مستوى عالٍ. ولذلك دبر طابعاً أبيض ليشرف على عملية الطبع التى يقوم بها الزنوج فى مطبعته.

ولو كان هناك ما يميز الطباعة فى جزر الهند الغربية عن الطباعة فى أمريكا الأم ـ أى فى المستعمرات البريطانية فى أمريكا الشمالية فى القرن الثامن عشر ـ فهو الاختلاف الجذرى فى النظرة إلى السلطة الحاكمة. فقد كانت الصحف فى أمريكا الشمالية تناصب الحكومة العداء ـ كما رأينا من قبل ـ إذا لزم الأمر.. وعلى سبيل المثال فعندما فرضت ضريبة التمغة[1] التى هددت بالفعل وجود الصحف مما أدى بناشرى الصحف إلى الثورة العامة ولم يهدأ لهم بال حتى قامت حرب الاستقلال والتحرير. فى حين كان الموقف فى جزر الهند الغربية مختلفاً، وربما كان ذلك بسبب سوق الصحافة هناك، ذلك أن الجرائد والمجلات كان يمكن أن تجد لها عدداً كبيراً من المشتركين بين من نسميهم الآن الشعب العامل: فلاحون، تجار، عمال، صناع... ممن كانوا يتأثرون بالإجراءات والضرائب التى يفرضها البرلمان. وكذلك فإن كبار المستثمرين ـ الذين بدورهم كانوا يتأثرون بتلك القوانين

(1) Stamp Act.

- كانوا راغبين على الدوام فى تأييد الصحف ولم يحاولوا إلغاء اشتراكاتهم فيها حتى ولو كانت تلك الصحف شديدة المعارضة للسلطة البريطانية وسياساتها.

ولم يكن فى جزر الهند الغربية مايعرف بالشعب العامل بالمعنى الموجود فى أمريكا الشمالية. وكانت الأرستقراطية الزراعية فى تلك الجزر تشعر بأن القوانين التى تصدر فى أمريكا الأم صممت لحماية المزارعين وليست للإضرار بهم؛ وأكثر من هذا فإن مجتمع جزر الهند الغربية كان مثقلاً بالرسميين من ذوى الامتيازات فى الوظائف العليا والذين كانوا يدينون بالولاء المطلق والأعمى للتاج لأنهم كانوا يستمدون من هذا التاج سلطانهم وعزتهم. ولم يكن هناك طباعة شبه حرة إلا فى الجزر الغربية التابعة للسلطة البريطانية، وفيما عدا هذا كانت المطابع فى سائر الجزر الغربية مقيدة تقييداً تاماً من قبل الحكومات المحلية على نحو ما عرضنا له سابقاً.

وفى الجزر الغربية البريطانية كان أقل القليل من الضغط على أية جريدة يعيد إلى الصواب كل الجرائد هناك. نعم لقد طبع ألكسندر شيبتون - طابع أنتيجوا - جريدته على ورق غير مدموغ خلال أزمة قانون التمغة، ولكن لأنه لم يكن هناك ورق مدموغ (مختوم) فى تلك الفترة فإن ذلك لم يعتبر عصياناً مدنيا. ومن جهة أخرى فقد سجل «جون لوفمان» فى «وصف مختصر لجزيرة أنتيجوا»[1] المطبوع فى لندن سنة ١٧٨٨م حالة حية عن سرعة خنق وكبت حرية الطباعة والصحافة هناك.

كتب جون لوفمان يقول «فى تلك الجزيرة تصدر ثلاثة جرائد أسبوعية[2] هى على وجه التحديد: حولية أنتيجوا؛ مجلة أنتيجوا، جورنال أنتيجوا. . وكم كنت أتمنى لو أنه كانت إحداها حرة. إن الحرية للأسف لا تعرف لها طريقا فى هذا المكان. لقد حاولت الجريدة الأولى المذكورة هنا مؤخراً جداً كسر الطوق

(1) John Luffman. A Brief account of the Island of Antigua. - London, 1788.

(٢) هذه الجرائد على التوالى هى:

- Antigua Chronicle.
- Antigua Gazette.
- Antiga Journal.

المفروض عليها ووضعت شعاراً يعطى آمالاً كاذبة فى النجاح، وجاءتها بعض الخطابات التى تعكس سوء الأوضاع الموجودة فى الإدارات العامة، وخطابات أخرى يفترض أنها تؤثر فى المشاعر العامة وتعكس بيروقرطية موظفى المكاتب وسخافاتهم والهالات التى ينسجونها حول أنفسهم. ولكن ماذا كانت نتيجة تلك الخطابات التى نشرت فى مجلة أنتيجوا؟ كانت النتيجة هى أن ثلاثة وثلاثين شخصاً بالعدد ـ بعضهم له وزن فى الجزيرة وبعضهم لاوزن له ـ احتجوا على تلك الرسائل المنشورة فى ورقة مكتوبة بأسمائهم ووقعها واحد منهم نيابة عنهم وأرسلوا بها إلى مكتب المحرر مهددين بانسحابهم من الاشتراك فى هذه الجريدة إذا لم توقف عملية نشر تلك الرسائل. وكان لهذا التخويف والتهديد المهول أثره المطلوب، ولم تحاول أية شخصيات عامة مد يد المساعدة إلى هذا الطابع عن طريق مزيد من الاشتراكات أو المعونات، بل تركوه يعانى معاناة شديدة حتى اضطر فى النهاية إلى الرضوخ وأوقف نشر تلك الرسائل. وهكذا اختفت حرية الصحافة والطباعة وكان ذلك درساً للصحفيين الآخرين، ولم تحاول أى منهما رفع شعار «حرية التفكير أو حرية التعبير».

وكان للطابع صامويل كيمر تجربة أخرى مع السلطة سنة ١٧٣٣ حيث سيق إلى المحكمة الكبرى فى الجزيرة لنشره قذفاً وتشهيراً فى جريدته (مجلة باربادوس) بحق السيد «آدامز»، أحد أعضاء مجلس الملك. وقد قرر المحامى العام أنه ليس هناك أى أساس للقصد الجنائى، ومع ذلك فقد وضع صامويل كيمر تحت المراقبة لمدة ستة أشهر مما يكشف عن اتجاه السلطة نحو الطباعة والصحافة.

ولم يكف عداء السلطة نحو كيمر، إذ واجه أيضاً مشاكل حادة مع المشتركين حيث أن عدداً كبيرا منهم قد تأخر فى سداد اشتراكه فى الجريدة مما اضطره إلى نشر نداء حزين كتبه شعراً يطالب فيه الرجال المهذبين بسداد ما عليهم من ديون، هؤلاء الرجال الذين تلقوا الجريدة ولم يدفعوا ما عليهم قط، ولاينوون أن يدفعوا. وهناك حالات كثيرة مماثلة فى التأخر فى سداد الاشتراكات، ليس فى

جزر الكاريبى وحدها وإنما أيضاً فى أمريكا الأم وفى أستراليا ونيوزيلندا على نحو ما عرضنا وسوف نعرض له فيما بعد.

ولايرى المراقبون والباحثون اختلافاً جوهرياً فى شكل مطبوعات المطابع فى الجزر الكاريبية عنها فى المستمرات البريطانية الأخرى فى أمريكا الشمالية، وذلك من واقع النماذج التى وصلتنا وأفلتت من عوادى الزمن والزلازل والحرائق والحشرات وظروف المناخ فى تلك البيئات الاستوائية.

وعندما نفحص ما وصلنا من تلك المطبوعات من الكاريبى فإن أول ما نلاحظه هو ندرة كتب الوعظ والإرشاد والكتب الدينية عموماً، والكثرة الواضحة فى كتب الأدب. . وفيما عدا هذا كانت مطابع وصحافة جزر الهند الغربية تسير فى خطوط متوازية مع تلك الموجودة فى أمريكا الأم.

وكانت الكتابات الدينية القليلة المنشورة فى جزر الكاريبى تتعلق بالدرجة الأولى بقضية العبيد والرق، فى حين كانت الكتابات الدينية الغزيرة التى خرجت من المطابع فى نيو إنجلاند على سبيل المثال تتعلق بقضايا لاهوتية عويصة. وعندما كانت تحدث كارثة طبيعية أو ظاهرة ما فإن المطبوعات كانت تسجلها على هذا الأساس، ولكنها تتحول إلى مادة للوعظ والإرشاد وتترجم على أنها انتقام من الله. أما فى جزر الكاريبى فإن جل الاهتمام بهذه الكوارث والظواهر الطبيعية يكون على المنابر وفى الكنائس كوعظ وتخويف شفوى وزجر، ولا تتحول إلى مطبوعات إلا فيما ندر ومن زاوية مختلفة؛ على نحو ما حدث مع زال سنة ١٦٩٢ ونشر عنه فى لندن. ونشر عنه فيما بعد سنة ١٨٠٠ فى جامايكا المطبوع المعنون: «شكل من الصلاة يستخدم فى جامايكا للصيام الأبدى المقرر بحكم القانون فى اليوم السابع من يونية فى ذكرى الزلزال المخيف الذى وقع فى سنة ١٦٩٢»(١).

(1) A Form of Prayen to be used in the Island of Jamaica, for apepetual Fast established by law, on the seventh day of June in Commemoration of the dreadful earthquake in the year 1692.

وكان من الطبيعى أن تصدر مطابع جزر الهند الغربية نسبة كبيرة من المطبوعات حول المشاكل الطبية والصحية فى المناطق الاستوائية. ورغم تشبيه تلك المناطق أحيانا بالجنة الموعودة إلا أن كل شخص هناك لابد وأن يكون مصاباً بمرض أو آخر. ولذلك فليس مستغرباً أن يكون ثالث كتاب ينشره الطابع توماس سميث فى أنتيجوا هو إعادة طبع لكتاب طبى نشر قبلاً فى لندن للمؤلف «جون ثيوبالد».

ونفس القصة نجدها فى جامايكا وإن كانت على نطاق أوسع.. ففى تلك الجزيرة كان هناك المؤلف الطبى غزير الإنتاج الدكتور «توماس دانسر». وكان هذا المؤلف هو وأى طبيب عسكرى مصاحب للبعثات والقوات العسكرية العديدة فى الكاريبى يشعر بالتزام أخلاقى أن ينشر بعض التقارير والكتيبات عن المشاكل الطبية لتلك المناطق الاستوائية والتى واجهها هناك. فقد كتب «بنيامين موسلى» عن الوقاية من وعلاج الدوسنتاريا (الزحار) بين الجنود. وكتب «ج. ف. نيمبهارد» دراسة عن طبيعة وعلاج المصع[1] (مرض جنسى شبيه بالسفلس واسع الانتشار فى المناطق الاستوائية). كما دخل طبيبان من مواطنى جامايكا هما «جون ويليامز» و«باركر بنت» معركة الجدل الذى كان دائراً حول علاج الحمى الصفراء، وأدى بهما هذا الجدل إلى الدخول فى مبارزة بالسلاح قتلا معاً فيها.

لقد كان الجانب الأكبر من الأعمال التى طبعت حول قضية العبيد والرق فى جزر الهند الغربية هى فى الواقع إجابات أو ردود على اقتراحات الذين طالبوا بإلغائه؛ تلك الاقتراحات التى نبعت أساساً فى الدولة الأم (أمريكا) وطبع معظمها فى لندن، وكان هناك أيضاً فى جزر الهند الغربية مطبوعات عديدة تؤيد إلغاء الرق. وكان هناك على الجانب الآخر من يدين استمرار الرق وجلب العبيد ومن بينهم الكولونيل «صامويل مارتن» الذى كتب كتيبا عن الفلاحة على نحو ما شرحت سابقاً، والذى كان من أصحاب الأراضى الزراعية والفلاحين الأكفاء، وكان عنده ما لايقل عن ٣٠٠ عبد وكان يحث أصحاب الأراضى ممن لديهم عبيد أن يعاملوهم معاملة رقيقة وكريمة. وقد قام هو بنفسه بتحرير عدد منهم فى حياته

(1) yaws.

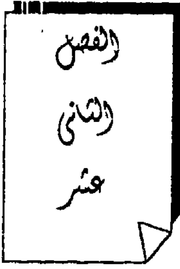
وأوصى بتحرير عدد آخر فى وصيته. وقد يقال بأن دفاعه عن وقف الرق جاء نتيجة حادثة شهدها فى طفولته حيث قام العبيد وهو طفل فى العاشرة أو الحادية عشرة بقتل أبيه فى يوم الكريسماس سنة ١٧٠١م.

وقد صدر كتابان آخران عن الفلاحة، وبعض كتب قليلة عن صنع الأشياء فى العقود الباكرة للطباعة فى جزر الهند الغربية. ومن بين الكتب حول صنع الأشياء كتب عن صناعة (الروم) وصناعة السكر والتى نشرت فى جامايكا، ويلاحظ برادفور سوان أن أصحاب الأفكار الجديدة فى المصنعات كانوا يحرصون على إبقائها طى الكتمان ولاينشرونها خشية المنافسة.

وليس من المستغرب فى مجتمع العبيد فى جزر الهند الغربية أن يكون لديهم هناك وقت فراغ طويل يدفعهم إلى نظم الشعر وكتابة التاريخ وأن كلا الموضوعين قد حظيا بكتابات كثيرة فى العقود الأولى للطباعة. وعلى سبيل المثال وصلنا أربعة كتب قصائد شعرية وكتاب فى النحو الإنجليزى من جزيرة واحدة هى أنتيجوا فى القرن الثامن عشر. وفى جامايكا كان «برايان إدواردز» يكتب التواريخ والأشعار. وكان كتابه الشهير حول تاريخ جزر الهند الغربية الإنجليزية قد طبع خمس طبعات متلاحقة فى زمن قصير.

وإلى جانب الكتب والجرائد، اعتمد الطابعون كما أشرت سلفاً على المطبوعات الرسمية الحكومية، وعلى طبع النماذج والاستمارات وعلى التقاويم السنوية، اعتمدوا عليها فى زيادة دخولهم، أو بمعنى أدق فى دخولهم الأساسية المنتظمة التى يعيشون عليها، وبعضهم بلاشك كان إلى جانب الطبع يدير بعض أعمال الاستيراد الصغيرة والبضائع الأوربية حتى يفى بمتطلبات معيشته؛ حيث لم يكن محظوظاً من بينهم إلا من يعمل طابعاً حكومياً. ومهما يكن من أمر فقد كان الطابعون هناك صبورين وجادين وجعلوا الطباعة تستمر وتنتج فى تلك الجزر المترامية الأطراف: جزر الكاريبى. . ونقدم فيما يلى جدولاً بجزر الهند الغربية أو جزر الكاريبى مع مساحة كل منها بالكيلو متر المربع والميل أيضاً:

الجزيرة	كم٢	ميل٢
أنتيجوا	٢٨٠	١٠٨
أروبا	١٧٩	٦٩
البهاما (جزر)	١١١٤	٤٣٠
باربادوس	٤٣٠	١٦٦
برمودا	٣٠	١٤
بونئير	٢٤٥	٩٥
كوبا	١١٤٠٠٠	٤٤٠٠٠
كوراكاو	٥٤٩	٢١٢
دومنيكا	٧٥٣	٢٩١
غرناطة (جرينادا)	٣٤٤	١٣٣
جواديلوب		
الأراضى العليا	٦٨٢	٢٥٥
الأراضى السفلى	٨٨٣	٣٤١
هيسبانيولا (هايتى أو سانتو دومينجو)	٧٢٥٠٠	٢٨٠٠٠
جامايكا	١٠٨٩٦	٤٢٠٧
المارتنيك	٩٨٤	٣٨٠
مونتسيرات	٨٥	٣٣
سابا	١٣	٥
سانت أوسيكى	٢١	٨
سانت كيتس	١٦٣	٦٣
سانت لوتشيا	٦٠٣	٢٣٣
سانت مارتين	٩٨	٣٨
سانت توماس	٨٥	٣٣
سانت فنسنت	٣٦٢	١٤٠
سانتا كروز	٢٢١	٨٤



الطباعة فى أستراليا

دخلت الطباعة إلى أستراليا فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر. نستشف ذلك من عبارة وردت فى تقرير وضعه «ديفيد كولنز» سنة ١٧٩٨. وقد ورد فيه ما نصه: «كانت هناك مطبعة صغيرة أحضرها شخص إلى المستوطنة [نيوثاوث ويلز] يدعى «فيليب» وقد بقيت دون استخدام منذ ذلك الوقت، وقد استطعنا الإفادة منها، ذلك أن شاباً وديعا جداً يدعى «جورج هوز» لديه بعض المهارات الطباعية، وجدنا فيه الكفاءة على تشغيل تلك المطبعة والقيام بالعمل كله. ومن هنا فقد تم طبع جميع الأوامر بعدد كاف من النسخ أكثر مما كان مقرراً من قبل».

وهذه هى الإشارة الوحيدة التى تكشف عن دخول الطباعة لأول مرة إلى أستراليا، أى إلى «الطرف الآخر من الأرض». وهذه هى الإشارة الوحيدة إلى أول طابع وصل إلى تلك المستعمرة، ومن ثم يكون أول مطبوع هناك هو تلك الأوامر الرسمية التى طبعت بأعداد كافية من النسخ بقصد الاتصال المكتوب. وهى تعنى أيضاً عدم وجود طابعين قبل ١٧٩٥ التى حدث فيها ذلك الطبع.

تشير بعض المصادر إلى أن ذلك الطابع ـ جورج هوز ـ كانت لديه مهارات أخرى إلى جانب الطباعة، فقد ظهر اسمه كممثل على بعض الإعلانات العريضة التى ربما يكون قد طبعها بنفسه ومن هنا يمكن أن نستنتج أن تلك الإعلانات أيضاً كانت من المطبوعات الباكرة فى أستراليا فى مطلع القرن التاسع عشر. والمشكلة أننا لا نعرف إلا معلومات قليلة عن هذا الطابع الأول فى أستراليا؛ والنبذة التى

قدمها عنه «معجم التراجم الأسترالية»(١) لا تتضمن أشياء عن أصله ولا تواريخ ميلاده ووفاته ولا متى وصل إلى أستراليا وكيف وصل. كذلك فإن اسمه ليس مدرجاً على كشوف الركاب الذين حملتهم السفن إلى سيدنى فى السنوات التى سجلها كولنز فى تقريره. وربما يكون الرجل محكوما عليه بالسجن أو جندياً أو بحاراً أو أحد المستوطنين الذين جاءوا بمفردهم وبمبادرة شخصية من جانبهم والذين وصلوا إلى أستراليا فى السنوات الأول للاستيطان. ولم نعثر فى سجلات المطابع على ما يدل أنه قد عمل صبياً فى إحدى المطابع التجارية فى أوربا، ويبدو أن جهوده الأولى فى الطباعة تدل على أنه كان من بين الهواة وليس محترفاً.

وإلى جانب ما ذكر من مطبوعات فقد كان من بين أوائل الوثائق التى طبعت مذكرة رسمية بعنوان «تعليمات إلى رجال الحراسة فى أقسام المدنية(٢) » طبعت بأمر الحاكم العام هنتر ومؤرخة فى ١٨ من نوفمبر سنة ١٧٩٦م أى بعد ٣٥٠ سنة من اختراع الطباعة وتطورها فى أوربا. والطباعة جيدة على وجه العموم. ولا ينبغى لنا أن نتوقع أن تأتى طباعة هذا المنشور دقيقة فاخرة على تلك الطابعة الخشبية التى أقيمت فى إحدى غرف بيت الحكومة فى سيدنى، والتى بقيت عاطلة عن العمل منذ نقلت على أول أسطول. وهى قديمة لأنها «أرسلت للاستخدام فى المستوطنات» بمعنى أنها استبعدت «أوكهنت» من إحدى مطابع لندن أو الأقاليم. وليس لدينا وثائق عن التاريخ الذى وصلت فيه الحروف والورق والحبر اللازم لتلك المطبعة فى المستعمرة، ولكن يستنتج أنها وصلت فى نفس الوقت أو بعد وصول الطابعة مباشرة، وربما كان ذلك بين ١٧٩٥ ـ ١٧٩٦. ونظراً لأن هوز قد أخذ يجرب المواد والأدوات التى وجدها وفى غياب أى دليل على أنه قد تعلم الطباعة من قبل، فمن المحتمل أن يكون قد علم نفسه عن طريق الخطأ والصواب. ومن الواضح أن نوعية المواد التى طبعها بدائية وأقل من مستوى الطابعين المحترفين فى زمانه.

---

(1) Australian Dictionary of Biography.
(2) Instructions to the watchmen of the towndivision.

وإلى جانب «التعليمات» المشار إليها سابقاً قام هوز بطباعة عدد محدود من أوامر الحاكم وبعض تذاكر المسرح. ولكن أياً منها لا تحمل اسمه كطابع. ويبدو أنه عاد إلى إنجلترا فى وقت ما بعد مارس سنة ١٨٠٠ حيث ظهر اسمه على بعض تذاكر المسرح كممثل. ولكن ليس هناك أى سجل خاص بتحركاته.

ومهما يكن من أمر الحاكم العام هنتر ومهما وجه إليه من نقد فقد طبعت الوثائق الأولى على أرض هذه القارة الجديدة فى عهده. ومنذ ذلك الوقت: نوفمبر ١٧٩٦ وحتى أكتوبر ١٨٠١ ليس هناك أى أثر يدل على أن المطبعة القديمة فى بيت الحكومة قد استخدمت فى طباعة أى شيء.

وفى التاسع من أكتوبر سنة ١٨٠١م أصدر الحاكم الجديد «كنج» المذكرة الهامة المعنونة «ملخص مطبوع للأوامر العامة من ٢٨ سبتمبر ١٨٠٠ وحتى ٨ أكتوبر ١٨٠١»[1] وقد وزع هذا الملخص لتذكير السكان على أوسع نطاق بتلك الأوامر والتعليمات. وبحيث تعلق على مكان ظاهر من بيوت السكان الذين أرسلت إليهم. والحقيقة أنه لم تصلنا أية نسخة من هذه «الأوامر العامة» التى يبدو أنها كانت أول كتاب مطبوع يصدر على أرض القارة الأسترالية. وإذا لم تكن تلك **الأوامر العامة** كتاباً بالمعنى المفهوم وإنما كانت مجرد إعلانات عريضة جمعت معاً وخيطت أو لصقت على هيئة كتيب؛ فهى على العموم أول مطبوع يضم عدداً من الأوراق وليس كما كان الحال من قبل مجرد إعلانات عريضة على فرخ واحد. ونحن لا نعرف من طبع هذا الكتيب أو هذا الملخص فى عهد الحاكم كنج، ومهما يكن من أمر فإن جورج هوز هو أول من طبع على أرض استراليا.

أما الطابع الذى خلف جورج هوز[2] فإنه «جورج هاو»[3] الذى وصلتنا عنه معلومات أكثر باعتباره الطابع الرسمى لإدارة المستعمرات، فقد ولد جورج هاو

(1) A printed abridgement of Certain General Orders from 28 th September 1800 to the 8th October 1801.

(2) George Hughes.

(3) George Howe.

سنة ١٧٦٩ فى سانت كريستوفر فى جزر الهند الغربية حيث كان والده «توماس هاو» يعمل هناك طابعاً أيضاً. وقد تعلم جورج أصول صناعة الطباعة فى بيت والده كما تلقى تعليماً كلاسيكياً على نحو ما كانت تقضى به العادات فى القرن الثامن عشر. ولكى يزيد من خبرته وعلمه ويتقن الصناعة سافر إلى لندن سنة ١٧٩٠ وعمل لدى عدد من الصحف من بينها جريدة تايمز كطابع ومحرر فى نفس الوقت. وفى سنة ١٧٩٩ حكم عليه بالإعدام فى حادث سرقة محل ولكنه خفف إلى النفى مدى الحياة. وفى نوفمبر سنة ١٨٠٠ وصل إلى البحرية الملكية وقد سمح له باصطحاب زوجته وابنه ولكن زوجته ماتت أثناء الرحلة.

وبعد وصوله إلى أستراليا مباشرة عهد إليه بإدارة المطبعة التى تركها سلفه جورج هوز، ولقد أظهر كفاءة عالية ومهارة فى استخدام الإمكانيات المحدودة التى وجدها هناك من حروف وحبر وورق، وقد أعجب الحاكم به مما جعله يعطيه عفواً مشروطاً بثلاث سنوات، منذ ساعة وصوله. وفى السنوات الأولى القليلة كان هاو يطبع الأوامر الحكومية وكان يلقب بالطابع الحكومى. وهو أول من يلقب بذلك من بين الموظفين الرسميين فى أستراليا، وفى سنة ١٨٠٢ طبع هاو أول مطبوع يمكن أن يطلق عليه أول كتاب أسترالى وهو عبارة عن تركيم للمذكرات والتعليمات الحكومية والقواعد والأوامر التى صدرت فى مستعمرة المساجين. وقد جاء هذا المطبوع تحت عنوان «الأوامر العامة النافذة فى نيوثاوث ويلز»[1] وكان بيان الطبع يسير على النحو الآتى: «سيدنى، طبع فى المطبعة الحكومية، ١٨٠٢».

وكانت مستعمرة أو مستوطنة نيوثاوث ويلز فى ذلك الوقت لايزيد عدد سكانها عن تسعة آلاف نسمة؛ نسبة التعليم بينهم لاتتعدى ٣٠٪. وفى ظل ظروف اجتماعية واقتصادية صعبة أصدر هاو «مجلة سيدنى ومعلن نيوثاوث ويلز»[2] من

(1) New Southwales General Standing Orders.

(2) Sydney Gazette and New South Wales Advertizer.

٥ مارس ١٨٠٣ وحتى نهاية ١٨٤٢م حيث كانت تلك المجلة إحدى ضحايا الانهيار الاقتصادى فى ذلك الوقت.

لقد تحدث كثيرون عن المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى واجهت هذه الجريدة التى تعتبر أول دورية أسترالية، والتى كان يحررها عدد محدود من الكتاب. ومن وجهة نظر هاو كطابع كانت العقبة الرئيسية هى نقص الحروف والورق والحبر وعدم كفاءة الطابعة الخشبية. وكانت البواخر بين سيدنى ولندن كثيراً ما تتأخر، وبالتالى فإن إمدادات تلك المواد كانت عرضة للتأخير كذلك.

وفى سنة ١٧٩٩/ ١٨٠٠ يبدو أن مطبعة أخرى قد وصلت إلى تلك المستعمرة نيوثاوث ويلز. نستشف ذلك من رسالة بعث بها دافيد كولنز ـ صاحب التقرير السابق ـ إلى وكيل الوزارة «سوليفان» يطلب منه بعض الإمدادات اللازمة للمستوطنة الجديدة، وكانت تلك الرسالة بتاريخ ٢٤ من ديسمبر سنة ١٨٠٢ وكانت المستوطنة الجديدة فى بورت فيليب، وقد حملت تلك الرسالة أول إشارة إلى بعثة كان كولنز سيقوم بها للاستكشاف سنة ١٨٠٣. وفى سياق رسالته وضع فاتورة شراء حروف طباعة، وهى ذات أهمية كبيرة تدل على وجود مطبعة أخرى فى نيوثاوث ويلز. وكما سنرى من نسخة هذه الفاتورة كان هناك طلب ورق للطباعة، بالإضافة إلى دستين حبر طباعة. وقد أشار طلب الحروف إلى المصدر الذى يجلب منه إما من شركة المرحوم «كاسلون» أو من السيد «فيجينز» مما يكشف عن وجود معرفة تامة بأحدث أبناط الطباعة، فقد كان هناك إعلان عريض عن حروف فيجينز الجديدة نشره «ت. بنسلى» سنة ١٨٠٢، وربما كانت نسخة من هذا الإعلان قد وصلت إلى نيوثاوث ويلز فى الوقت الذى كتب فيه كولنز طلبه هذا. وعلى أية حال فإن حروف كاسلون كانت مقبولة لدى العامة فى بريطانيا وكانت حروفه مستخدمة منذ ستينات القرن الثامن عشر. وليس هناك ما يدل على أن حروف فيجينز قد وصلت إلى أستراليا فى مطلع القرن التاسع عشر

وربما كان ذلك لأن شركة فيجينز لم تكن مستعدة لتسليم الحروف قبل ١٨١٥. وكانت حروف كاسلون هى المعتمدة فى معظم الوثائق التى وصلتنا من تلك الفترة.

فاتورة حروف طباعة	جنيه	شلن	بنس
ـ قوالب حرف رومانى بيكا صغير وزن ٨٠ رطلا ومعها اثنتا عشرة مسطرة فرنسية معدنية مقاس ٣، m٤ وست مجموعات من الأبجدية ذات السطرين ذات الوجه الكامل للحروف فيما عد حروف A, E. R. T التى يجب أن يكون منها تسع مجموعات من كل حرف.	٦	–	–
ملحوظة ـ هذه القوالب الصغيرة لإنجاز الأعمال ويجب أن تتضمن كميات معقولة من الحرف الصغير، الحرف الكبير، علامات الترقيم ولاينبغى أن تتضمن أى حرف مزدوج أو حرف F الطويل ولكن تتضمن كمية مضاعفة من S'S المستديرة.			
ـ عشرون رطلا من بيكا الرومانى المزدوج على النحو المذكور بعاليه بالنسبة للحرف الصغير وعلامات الترقيم ـ	١	١٠	–
أربعون رطلا من بيكا الرومانى المزدوج لزوم العمل على النحو الموضح بعاليه، على أن تتضمن ثمانى مجموعات من أبجدية الحرف المائل من صنف الحرف المزدوج المذكور بعاليه وأربع عشرة مجموعة من الحروف الصغيرة: a, c, d, e, h, m, n, o, r, s, t, w وثمانية من بقية حروف الأبجدية.	٢	–	–

وهذه القوالب لابد وأن تكون على أحدث تصميم وكذلك بالنسبة لعلامات الترقيم.

البند			
- دستة واحدة من مساطر النحاس الطويلة الحجم العادى، أربع منها فقط تكون من الحجم السميك.	-	٥	-
- دستة واحدة من لفات الخيوط السميكة وغمد رفيع.	-	٣	-
- دستان من حبر الطباعة الجيد.	٢	٨	-
	١٢	٦	-

هذه القوالب والحروف يجب أن تشترى من مسابك شركة المرحوم كاسلون أو السيد/ فيجينز.

- ورق للطباعة.

وفى التاسع من مايو سنة ١٨٠٣م أعاد الحاكم كنج طلب بعض المستلزمات اللازمة لـ «الإدارة العامة» وختم رسالته بالطلب الخاص الآتى: «لقد أرفقت قائمة بالمواد اللازمة جداً لمطبعتنا إذا وافقتم سيادتكم عليها». وقد تضمنت هذه القائمة بعض قوالب الزخارف الطباعية وهى على وجه التحديد أشكال: ٤ سفن، بارجة واحدة، سلوب واحد (مركب شراعى بصارى واحد)، ١٢ مسطرة زخارف فرنسية، ٦ دروع ملكية. وقد قدمت فى تلك القائمة أحجام كل منها وكذلك ٦ رطل من أشكال الزهور الطويلة الأولى من أحجام مختلفة لم تحدد. ومن بين الطلبات أيضاً عشر رزم من ورق الطباعة. وجاءت جملة الختام مشككة فى إمكانية تنفيذ هذه الطلبية بالكامل حيث تقول هذه الجملة: «إذا رأيتم أن هذه [الطلبية] مرتفعة الثمن فإنه يمكن تخفيض الكميات إلى النصف فقط».

ومن الجدير بالذكر أن ديفيد كولنز الذى كان يتمتع بخلفية ثقافية وتعليمية أعلى من معظم أقرانه العسكريين فى أستراليا كان مؤمناً تماماً بأهمية وجود مطبعة فى المستوطنة الجديدة. وإذا كان أول طابع فى أستراليا قد سجل نفسه فى سجل

تاريخ الطباعة هناك عن طريق تشغيل المطبعة الموجودة فى بيت الحكومة فى سيدنى، فليس أقل من ذلك أهمية الظروف التى طبعت فيها أول وثائق رسمية فى مستوطنة كورت فيليب. لقد وصل كولنز على ظهر السفينة كلكتا فى التاسع من أكتوبر ١٨٠٣ وبعد أن أنزل من السفينة المعدات والآلات والمستلزمات فى العاشر من أكتوبر ١٨٠٣ طفق مباشرة يقيم المطبعة اليدوية على شاطئ خليج سوليفان تحت شجرة صمغ. وفى السادس عشر من أكتوبر من نفس السنة وبمساعدة السجين «جورج كلارك» تلقى **الأوامر العامة**[1] الأولى اليومية وكذلك **أوامر جاريسون**[2] وطبعتها. كما هو حال جورج هوز ـ أول طابع فى أستراليا ـ ليست لدينا معلومات عن جورج كلارك ولا عن خلفيته فى الطباعة، ولكننا نعرف أن كولنز كان يشرف عليه فى طباعة تلك الأوامر إشرافا مباشراً. ومن المؤسف أنه لايوجد فى أستراليا نفسها أى من تلك الأوامر اليوم، والمجموعة الوحيدة التى وصلتنا منها موجودة الآن فى «دار الوثائق العامة» فى لندن[3]. وعلى أية حال فإن النسخ الخطية نفسها موجودة الآن فى مكتبة «ميتشيل» فى سيدنى. وكانت آخر الأوامر العامة التى طبعها كولنز قد تمت فى الخامس والعشرين من يناير ١٨٠٤، ذلك اليوم الذى كان عليه أن يغادر مستوطنة بورت فيليب على متن الباخرة «ليدى نيلسون» تاركا المستوطنة لأهلها.

دخول الطباعة إلى تسمانيا

كان العرض السابق يتعلق بدخول الطباعة إلى ولاية نيوثاوث ويلز أهم وأول الولايات الأسترالية إذا جاز لنا استعمال مصطلح ولاية بالنسبة لذلك الوقت من نهاية القرن الثامن عشر. والآن حان وقت معالجة دخول الطباعة إلى ولاية تسمانيا؛ وهى جزيرة منفصلة عن أستراليا الأم إلى الجنوب الشرقى منها تبلغ مساحتها ٦٧٨٥٠كم٢ وهى أصغر الولايات مساحة.

---

(1) General Orders.

(2) Garrison Orders.

(3) Public Records Office.

وقد انتقل دافيد كولنز إلى تسمانيا وألقى مطبعته على شاطىء نهر ديرونت وبدأ بنفس الطريقة فى طبع **الأوامر العامة وأوامر جاريسون** بمساعدة صديقه القديم جورج كلارك وطابع جديد اسمه «ج. بارنز». وقد بذل كولنز مجهوداً كبيراً لإصدار جريدة تحت إشراف الحكومة، تلك الجريدة التى لم تصدر إلا فى سنة ١٨١٠ تحت اسم «نجمة ديرونت ومخبر أرض فان ديمين»[١]. وقد أشير إلى كل من كلارك وبارنز على أنهما «طابعا الحكومة» وهو الأمر الذى يؤكد تقدير كولنز لأهمية المطبعة فى حياة المستوطنات الجديدة. ورغم أن هذه الجريدة لم تستمر لأكثر من بضعة أسابيع ولم يصلنا منها سوى ثلاثة نسخ من العدد السابع الذى يشرح فيه كولنز مشاكل الجريدة.

وقد اختفت أية أخبار أو معلومات تتعلق بالطابع ج. بارنز بعد سنة ١٨١٠م أى بعد توقف الجريدة، وفى سنة ١٨١٢ نصادف اسم جورج كلارك كطابع حكومى وحيد على صفحات سلسلة جديدة من «نجمة ديرونت». وفى نفس السنة التحق سجين آخر اسمه «آندور بنت» بالمطبعة، واعتباراً من ١٨١٥ ظهر هو الآخر كطابع حكومى وحيد فى تسمانيا حتى تاريخ وضعه فى السجن سنة ١٨٥٢ وتغريمه بتهمة القذف والتشهير.

وكان آندرو بنت قد تعلم الطباعة فى لندن ويقال إنه كان صبياً فى مطابع جريدة تايمز. ونستشف من المطبوعات التى قام بها فى أستراليا أنه ارتقى بفن الطباعة هناك لدرجة أن بعض المصادر أشارت إليه على أنه «فرانكلين تسمانيا». وقد أصدرت السلطات التسمانية على يديه «مجلة مدينة هوبارت والمراسل الصحفى الجنوبى»[٢] اعتباراً من الأول من يونية سنة ١٨١٦ رغم أنه قد وصلتنا نسخة من هذه المجلة مؤرخة فى ١١ من مايو سنة ١٨١٦ وربما كان ذلك عدداً تجريبياً، وتحمل تلك النسخة رقماً مسلسلاً «مجلد العدد الثالث ١٥٨». وفى هذا العدد نجد إلى جانب تقرير عن رحلة السفينة الملكية كانجارو من بورت جاكسون إلى سيلان ملحوظة هامة، وهى أنه «نظراً لنقص الأبناط فإننا لم نتمكن من

(1) Deront star.

(2) Hobart Town Gazette and Southern Reporter.

إدراج الإعلانات وخلافه، ولسوف تظهر فى عدد إضافى يوم الاثنين القادم» ولم يصلنا ذلك العدد الإضافى وليست هناك إليه سوى الإشارة السابقة.

فى الشواطئ الشمالية لتسمانيا دخلت الطباعة على يد ابنين من أبناء جورج هاو وهما «روبرت وجورج تيرى» اللذين أقاما مطبعة جديدة طبعا فيها سنة ١٨٢٥ جريدة «معلن تسمانيا وبورت دالرمبل»(١) وقد استمرت فقط حتى شهر مايو من نفس السنة عندما دعا الحاكم العام جورج آرثر أحد الأخوين جورج تيرى ليكون طابعاً حكومياً لتسمانيا مع «جيمس روس».

ولقد قام «إ. موريس ميللر» بدراسة نضال الصحف فى سبيل الحرية الفكرية وحلل ظهور واختفاء الصحف وظهور واختفاء عدد من الطابعين الممتازين الذين ارتبطوا بهذا النضال بما يخرج عن نطاق دراستنا هذه. ويمكن الرجوع إلى دراسة ميللر للحصول على تفاصيل ذلك النضال(٢).

وفى سنة ١٨٢٨ قام المستثمر ـ فى كل شىء ـ «جون باسكو فوكنر» من لونسستون (أقصى شمال تسمانيا) بشراء المطبعة القديمة من آندرو بنت.. تلك المطبعة التى كانت ملك دافيد كولنز كما رأينا من قبل، والتى استخدمها جورج كلارك وغيره فى طباعة الأوامر العامة وأوامر جاريسون على نحو ما قدمت. وقد أخذ فوكنر المطبعة ونقلها إلى لونسستون مع كمية من الحروف - وكانت رحلة شاقة كادت المطبعة والحروف أن تفقد عدة مرات - وقد أصدر فوكنر هناك «معلن لونسستون»(٣) سنة ١٨٢٩ وهى جريدة إعلانية أساساً لم تستمر فى حوزة فوكنر طويلاً حيث كان عليه أن يرحل مع بعثته إلى ولاية فيكتوريا.

دخول الطباعة إلى فيكتوريا

رأينا فيما سبق أن دافيد كولنز قد أنزل مطبعته الثانية إلى بورت فيليب فى

---

(1) Tasmanian and Port Dalrymple Advertiser.

(2) Miller, E. Morris. An Unrecorded Hobart Town Gazette.- in .- Papers and Proceedings of the Tasmanian Historical Research Association, 1964, Vol. 7.

(3) Launceston Advertiser.

أكتوبر ١٨٠٣ وطبع بها بعض الأوامر العامة وأوامر جاريسون فى السادس عشر من ذلك الشهر. ويقع هذا الميناء (بورت فيليب) جغرافيا فى المنطقة التى سميت بولاية فيكتوريا جنوبى نيوثاوث ويلز، وهى ولاية أيضا ذات مساحة صغيرة تصل إلى ٢٢٧٧٠٠كم٢. وبعد ذلك رحل كولنز بمطبعته إلى تسمانيا كما أشرت سابقاً. وبعد جيل كامل من هذه البداية قام فوكنر ـ الذى صادفناه فى شمالى تسمانيا من قبل ـ بإصدار جريدة مخطوطة فى البداية باسم «معلن ملبورن»[١] وكان قد أصدر منها تسعة أعداد خطية فى انتظار أن ترد المطبعة التى خلفها وراءه فى مدينة «لونسستون». وعندما وصلت المطبعة طبع عليها الأعداد من العاشر حتى السابع عشر. وكانت «معلن ملبورن» أول جريدة تطبع هناك وقد حملت كلمة المحرر البيان التالى الذى يتعلق بطباعة أول عدد: «نلتمس بشدة من الجمهور العذر فى أول عدد مطبوع فى غياب المنضد الذى تزوج، ومن ثم اضطرتنا الحاجة أن يصدر العدد الأول المطبوع هذا على يد فان ديمونيان الشاب فى الثامنة عشرة من عمره وهو لم يعمل بالطباعة إلا منذ عام واحد فقط من سن العاشرة حتى الحادية عشرة ١٨٣٠-١٨٣١. والمشكلة الثانية أن الطابع الأمين الذى اشترينا منه الحروف قد باعنا كل الزبالة القديمة من الحروف الموجودة لديه وسماها حروفاً، ونحن الآن مضطرين إلى استخدامها وليس لدينا الكمية الكافية من برادة اللؤلؤ[٢] لتنظيف الحروف القذرة».

وتقول المصادر عن هذا البيان أنه القصة المعتادة التى نصادفها فى العديد فى عمليات الطباعة الباكرة فى المستوطنات البريطانية فى أستراليا. ومن المؤكد أن جهود فوكنر كطابع وناشر هى جهود محمودة وإن كانت هناك دوافع سياسية تكمن خلفها. وينظر المراقبون إلى أن إنتاجه لم يكن متميزاً وأقل جودة من الطابعين الذى صادفناهم من قبل فى سيدنى وهوبارت.

(1) Melbourne Adertiser..

(2) Pearl Ash.

دخول الطباعة إلى أستراليا الجنوبية

كان دخول الطباعة إلى سيدنى، هوبارت، لونسستون ثم ملبورن أمراً طبيعياً لأن المستوطنين سواء كانوا من الأحرار أو المساجين، كانوا فى مسيس الحاجة إلى وسيلة اتصال داخلية تربطهم إلى بعضهم البعض. إلا أن الآراء فيما يتعلق بدخول الطباعة إلى أستراليا الجنوبية كان مختلفاً من حيث الظروف السياسية والاجتماعية التى أحاطت بإنشاء المطبعة هناك. ذلك أن المناضلين البريطانيين والدعاة إلى حرية الصحافة قد أوعزوا إلى من يريدون الهجرة إلى أستراليا الجنوبية أن حياتهم هناك لن تطيب لهم ولن يحققوا المدينة الفاضلة التى ينشدونها والمجتمع الحر الذي يبغونه إلا إذا دعمت مستوطناتهم منذ البداية بصحافة حرة ومطابع حرة. وبسبب الرغبة والشوق إلى الجنة الحرة الموعودة وقبل الرحيل من العالم القديم؛ قام روبرت توماس بإصدار جريدة «مجلة أستراليا الجنوبية وسجل المستعمرة»[1] فى لندن وبقصد أن يصدر العدد الأول فى عاصمة بلد متحضر (إنجلترا) وأن يصدر العدد الثانى فى مدينة البرارى التى لم يكن موقعها قد تحدد بعد، على نحو ما ذكر «بت» فى كتابه عن الصحافة والطباعة فى أستراليا الجنوبية[2]. ومع ذلك فلم يصدر العدد الثانى من تلك المجلة إلا بعد عام كامل من صدور العدد الأول فى لندن، وكان المكان الجديد هو «أديلاد» سنة ١٨٣٧. وقد قام روبرت توماس وشريكه باصطحاب مطبعتين معهما عندما جاءا إلى أستراليا الجنوبية؛ كانت إحداهما من الحديد «الصب» ماركة ستانهوب والثانية مطبعة خشبية. وكانت مطبعة ستانهوب أحدث من أية مطبعة أخرى موجودة فى شرقى أستراليا حتى ذلك الوقت. ومن الطبيعى ألا يغفل روبرت توماس الحاجة إلى وجود طابع كفء فى تلك البرارى، وفعلا اتفقا مع «روبرتث فيشر» الطابع الجوال على العمل معهما على أن يعاونه فى عمله صبى يدعى «أسبورن» ولكن هذا الصبى توفى بمجرد النزول إلى شاطئ جزيرة كانجارو. وبسبب بعد النظر

(1) South Australian Gazette and Colonial Register.

(2) G. H. Pitt. The Press in South Australia: 1838-1850 .- Adelaide, Wakefield Press, 1964.

سمح الشريكان بأخذ الحروف المخصصة لطباعة المجلة إلى «هوبارت» بدلاً من إنزالها إلى جلنلج، وعندما عين روبرت توماس وشريكه كطابعين حكوميين فى الرابع من يناير ١٨٣٧ لم يعد لديهما حروف زيادة لطباعة الأعمال الصغيرة. ومهما يكن من أمر فقد أقاما «أول كنيسة» (مطبعة) فى خيمة تحت واحدة من أشجار الصمغ التاريخية الكثيرة فى أستراليا. وفى الحادى عشر من يناير سنة ١٨٣٧ طبعا مائة نسخة من الإعلان العام للحاكم «هندمارش» الذى كان قد أصدر منذ أيام قليلة قبل طبعه (٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٣٦). وقد طبع إعلان ثانٍ فى الخامس من يناير من نفس السنة. وفى الثالث والعشرين من يناير أيضاً طبع نداء من «إداورد ستيفنز» (الاسم المستعار لـ «جورج ستيفنسون» شريك «جورج توماس» والسكرتير الخصوصى للحاكم العام).

وفى نهاية شهر مايو سنة ١٨٣٧م أمكن لـ «جورج توماس» أن ينقل مطبعته من تحت خيمة شجرة الصمغ من الطين داخل المدينة. وفى الثالث من يونية سنة ١٨٣٧ صدر العدد الثانى من «مجلة أستراليا الجنوبية»، ومنذ ذلك التاريخ أحرزت الطباعة تقدماً ملموساً فى تلك الولاية.

دخول الطباعة إلى أستراليا الغربية وكوينزلاند

دخلت الطباعة إلى بيرث أستراليا الغربية قبل دخولها إلى ملبورن (فيكتوريا) وأديلاد (أستراليا الجنوبية) بنحو ست أو سبع سنوات. ويشير المؤرخ الأسترالى القدير «ج.س. باتى» فى كتابه «أستراليا الغربية : التاريخ منذ الاكتشاف وحتى الاندماج فى الكومنولث»[1] إلى أن الطباعة هى أحد مظاهر الحضارة، ويعتبر الطباعة والصحافة أمرين متكاملين فى حياة وتاريخ الشعب. وقد ذكر أن الصحف كانت من الضرورات الملحة فى المجتمعات البريطانية الجديدة، وكذلك لجأ الناس فى أستراليا الغربية إلى إصدار جريدة مخطوطة بعنوان «حولية أستراليا الغربية

(1) Batty, J. S. Western Australia : A history from its discovery to the inauguration of the Commenwealth.- Oxford : Clarendon Press, 1924.

ومجلة بيرث»[1] التى لم يصدر منها سوى أربعة أعداد فقط ثم توقفت سنة ١٨٣١. وفى نفس سنة ١٨٣١م جلبت إلى مدينة فريمانتل إحدى المطابع من تسمانيا لأن تسمانيا فيما يبدو كانت المصدر الأول للمطابع خلال ٢٥-٣٠ سنة الأولى فى تاريخ هذه المستعمرة. وكان الشخص الذى استورد تلك المطبعة يعرف باسم «تشارلز ماكفول» وشركاه، وقد طبع فى هذه المطبعة جريدة «مراقب فريمانتل : مجلة بيرث وحولية أستراليا الغربية»[2] التى صدر العدد الأول منها فى الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٨٣١. وقد أقيمت المطبعة فى بادئ الأمر فى سقيفة قمح، ولكن النزاع بين مالك المطبعة والناشر جعل المنتصر فى النزاع ينقل المطبعة إلى مكان يعرف بتل هاميلتون حيث استأنفت المجلة صدورها لمدة اثنى عشر شهراً قبل أن تتوقف نهائياً عن الصدور بسبب عدم وجود أخبار تنشر وبسبب نقص إمدادات الورق. وقد قام صاحب المطبعة بعد ذلك بإصدار جريدة أخرى بعنوان «المحقق العام»[3] التى لم تدم طويلاً بسبب بسيط؛ هو أن اثنين من محرريها وجدا أن يسويا خلافاتهما السياسية عن طريق المبارزة بالسلاح حيث جرح أحدهما جرح الموت.

وفى نفس الوقت صدرت جريدة أخرى فى بيرث بعنوان «أخبار مستعمرة أستراليا الغربية»[4]. وقد استمرت لمدة ثمانية عشر شهراً (من نهاية ١٨٣١ حتى مطلع ١٨٣٣) حيث حلت محلها جريدة أخرى بإشراف ماكفول الدؤوب وتحت عنوان «مجلة بيرث وجورنال أستراليا الغربية»[5] التى تعتبر ثانى أقدم الدوريات هناك. وكان ماكفول يطبع هذه الجريدة على طابعة ستانهوب التى نجح فى استيرادها ١٨٣٢. ومازالت هذه الجريدة مستمرة تحت عنوان «الأسترالى الغربى»[6]. وتعتبر حلقة الوصل بين بدايات الطباعة فى أستراليا الغربية والتطورات الحديثة الحالية.

(1) West Australian Chronicle and Perth Gazette.
(2) Fremantle Observer : Perth Gazette and Western Australian Chronicle.-
(3) The Inquisitor.
(4) Western Autralian Colonial News.
(5) The Perth Gazette and Western Australian Journal.
(6) The West Australian.

وكانت برسبين هى آخر عواصم الولايات (كوينزلاند) التى دخلت إليها الطباعة، وحيث قام «جيمس سوان» وكفيله «أ. س. ليون» بإنشاء مطبعة هناك وأصدرا منها جريدة «بريد خليج موريتون»[1] مستفيدين فى ذلك من جو الحرية النسبية فى تلك الولاية. وقد صدر العدد الأول من تلك الجريدة فى العشرين من يونية سنة ١٨٤٦ واستمرت فى الصدور حتى الآن؛ وإن غيرت اسمها إلى «حامل البريد»[2].

مستلزمات الطباعة الباكرة فى أستراليا

إذا كان الافتقار إلى الطابعين المهرة فى أستراليا فى بداية القرن التاسع عشر قد عطل تقدم الطباعة وتحسين نوعيتها بصرف النظر عن المعوقات السياسية والاجتماعية التى وقفت فى طريق قيام طباعة وصحافة حرة، فإن الافتقار إلى المستلزمات الطباعية كان هو الآخر عاملاً رئيسياً فى تخلف الطباعة الباكرة هناك. وقد أشرت سريعاً إلى الطلبات الكثيرة التى أرسلت إلى الوطن الأم (إنجلترا) تطلب سرعة إمدادها بالحبر والورق والحروف. وحتى فى الوقت الحاضر - رغم مرور قرنين على دخول الطباعة إلى أستراليا وعلى المحاولات الأولى لإنتاج مواد الطباعة ومستلزماتها هناك فى أستراليا - مايزال هناك اتجاه قوى نحو الاعتماد على المصانع البريطانية فى الحصول على المستلزمات ذات الجودة العالية. وقد أشرت لماماً إلى الطبيعة الهشة للورق المستخدم فى المطبوعات الأولى فى أستراليا حيث لم يكن ينظر فى ذلك الوقت إلى الإعلانات العريضة والأوامر الحكومية والمذكرات العامة على أنها يمكن أن تدخل فى عداد الوثائق التاريخية ولكن مجرد وسائل لتوصيل الأخبار والتعليمات الوقتية. ويلاحظ أن الورق الذى كان يرسل إلى المستعمرات فى مطلع القرن التاسع عشر، كان خفيفاً ومقاوماً للرطوبة. ولذلك لم تكن هناك رغبة أو ميل إلى الورق الذى يحمل نسبة عالية من الصلصال فى مكوناته وكان يفضل عليه ورق قش الأرز الموجود بكثرة فى شرق

(1) Moreton Bay Coureir.

(2) The courier Mail.

آسيا، ولذلك لا نتعجب إذا لم تصلنا إلى نسخ محدودة من الوثائق الأصلية التى تمثل الطباعة الباكرة فى أستراليا. لقد استمرت أزمة الورق ونقص إمداداته فى أستراليا خلال الخمسين سنة الأولى من القرن التاسع عشر. وخلال القرن التاسع عشر كله ومطالع القرن العشرين لم تستطع مصانع الورق فى أستراليا سد الاستهلاك المحلى حتى من ورق الصحف. ونجد صدق ما نقول فيما نشرته جريدة سيدنى[1] فى عددها الصادر فى الثانى عشر من يناير ١٦٠٨ : «إلى المشتركين. إن ندرة الورق التى نشعر بها جميعاً منذ فترة طويلة فى المستعمرة تعوق استمرار إصدار هذا المطبوع لفترة طويلة. ورغبة منا فى نفس الوقت فى استمرار سلسلة «وقائع المستمرة» دون توقف كامل فإن تخفيض الأعداد يصبح ضرورة ملحة، ومن ثم فلابد من تغيير فترات التردد لهذه النشرة مما لانعتقد أن يعترض عليه الجمهور. إن هذه الجريدة ولهذا السبب سوف تصدر مرة كل ١٤ يوماً بدلاً من مرة كل أسبوع. وسوف يتم هذا التغيير من الأحد القادم حتى تأتى الإمدادات. ولذلك وجب إحاطة المعلنين بذلك». وهذا التنويه هو مجرد صرخة واحدة من القلب حول هذا الموضوع. وكان أول مصنع من مصانع الورق قد أقيم فى أستراليا فى خليج النبات (بوتانى بيى) وحيث نجد إعلانا فى «مجلة سيدنى» بتاريخ ١٨ من أبريل سنة ١٨١٨ يطلب مواد خام لصناعة الورق. يقول هذا الإعلان «إن وارين ودونكان يستأذنان فى إخبار الجمهور أنهما حصلا على إذن بإنشاء مصنع ورق على مسافة قصيرة من الطريق الجديد إلى بوتانى بيى. وهما يريدان الخرق البالية من التيل والقطن، وسوف يدفعان ثمناً مناسباً. وكانت الخرق والتيل والقطن تستورد من أوربا. وفى الستينات أنشئ المزيد من مصانع الورق فى نيوثاوث ويلز. ولكن فى ولاية فيكتوريا تأخر إنشاء تلك المصانع حتى ١٨٦٨ عندما قام «صامويل رامزدن» وهو رجل أعمال مستقل بإنشاء مصنع هناك فى تلك السنة، وقد نجح نجاحاً كبيراً ولم يلبث أن اشترى المصنعين المنافسين.

(1) Sydney Gazette.

وكان الحصول على حروف الطبع هو الآخر إحدى المشكلات الرئيسية. وقد ذكرت من قبل أن أول وصول الحروف هناك كان فى نهاية التسعينات. وربما لم تكن الحروف المصدرة إلى استراليا فى بادئ الأمر جديدة وإنما كانت فى الأعم الأغلب مستعملة. ومع كثرة استعمالها هناك فى أستراليا تتآكل الحروف وتتقصف. وقد عرضنا من قبل شكوى الطابع فى فيكتوريا من الحروف القديمة التى صدرت إليه من البائع. ورأينا كيف لاحق جورج هاو الحاكم ماكواري ليطلب من سكرتير المستعمرة إمداده بحروف جديدة وليس هناك فى السجلات مايدل على إجابة هذا الطلب كلياً أو جزئياً. ولما خلف روبرت هاو والده كطابع حكومى ١٨٢١ كرر نفس الطلب فى إحلال حروف جديدة محل الحروف القديمة حيث قال: «لقد اكتشفت وجود حاجة إلى إحلال حروف جديدة محل الحروف القديمة التى تستخدم منذ فترة طويلة بصفة مستمرة مما أدى إلى تآكلها وتشوهها».

وكان الاعتماد على استيراد الحروف من الخارج عملاً شاقاً ويستغرق وقتاً طويلاً، ومن ثم فقد جرت فى منتصف القرن الثامن عشر محاولات لإنتاج الأمهات والحروف محليا فى أستراليا. ولذلك فإن جريدة «سيدنى هيرالد الصباحية»[(١)]. فى عددها الصادر فى السابع من يناير ١٨٤٣ تقول بكل فخر: «إن مجلة الحكومة[(٢)] تطبع الآن بحرف طويل جيد تم سبكه فى المستعمرة على يد السيد «طومسون» الذى وصل إلى هنا منذ عامين. وإن نجاح هذا المسبك سوف يكون ذا فائدة؛ حيث يمكن إعادة سبك الحروف القديمة هنا بدلاً من إرسالها إلى إنجلترا بتكاليف عالية للغاية. ونحن نثق فى قدرة السيد «طومسون» على إنتاج حروف ممتازة تلبى احتياجات الطابعين على نحو ما نشاهدها عليه فى مجلة الحكومة من جمال يضارع تلك الحروف المسبوكة فى لندن وجلاسجو».

وكان الحبر كذلك يستورد إلى أستراليا فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، ولكن جرت محاولات ناجحة لإنتاج هذه المادة الهامة من مواد الطباعة فى

(1) Sydney Morning Herald.

(2) Government Gazette.

أستراليا على النحو الذى سجلته «مجلة سيدنى»[1] سنة ١٨٢٩ حين ذكرت «إن من بين الصناعات التى تمت المحاولات فيها فى المستعمرة والتى يزداد عددها ونوعها، والتى نقدتها بكل البهجة والسرور : صناعة حبر الطباعة. لقد قام الدكتور «ووكر» من تشاميلتون بالدخول إلى هذه العملية الصعبة ولكن القيِّمة؛ ونجح بكل تأكيد نجاحاً يفوق توقعاتنا بكثير. ولقد تتبعنا إعلاناته عن ذلك المنتج وتصورنا أنه من نوعية رديئة وأنه لا يستحق الاستخدام، ولكن منذ أيام قليلة مضت طلبنا عينة لتجريبها، ولدهشتنا الكبرى وجدنا حبره أفضل بكثير من الحبر الإنجليزى المستورد والموجود بكميات كبيرة فى مخازننا الآن! ويمكن للجمهور أن يحكم بنفسه لأن جريدة سيدنى الآن تطبع بحبر الدكتور ووكر باستثناء نسبة صغيرة من الحبر الإنجليزى الذى خلطناه به».

وفى نهاية أربعينات القرن التاسع عشر استقرت الطباعة فى جميع عواصم الولايات الأسترالية وكانت الصناعات المكملة لها قد خطت خطوات مبدئية كذلك وإن كانت بداياتها متواضعة. وكانت جريدة «نجمة المساء»[2] التى بدأت تصدر فى ملبورن فى أكتوبر سنة ١٨٦٧ تفخر بأنها أول جريدة أسترالية تطبع بالكامل على ورق أسترالى الصنع وبحبر كله أسترالى الصنع.

ويبقى لنا فى هذا السياق أن نعرج على عمليتين لهما علاقة وثيقة بإنتاج الكتب والروسمات، ذلك أنه قبل اختراع التصوير الفوتوغرافى كانت الصور والإيضاحيات يتم إنتاجها عن طريق الكتل الخشبية والمعدنية أو برسمها على الحجر. وكان الحفارون أو لنقل «رسامو الصور على الخشب» وقاطعها الأستراليون الأول قلة قليلة يبرز منهم: «ب. إسليجر»، «ب. بريستون»، «أ. ر. براون» وكانوا يعملون فى تصميم وحفر رسومات كتب «أبالوم ويست» السجين الذى وصل إلى سيدنى ١٧٩٨ ثم أصبح صاحب مصنع بيرة وصاحب فندق، وقد اكتسب شهرته الكبيرة فى عالم الكتاب الأسترالى عندما مول ونشر

(1) Sydney Gazette.

(2) Evening star.

لوحات «جون إير» الرائعة فى كتاب بعنوان «مناظر من سيدنى»[1] الذى نشر لأول مرة سنة ١٨١٢.

ويبدو أن الرسم على الحجر لم يدخل أستراليا إلا سنة ١٨٢١ وعلى يد سير «توماس برسبين» حاكم أستراليا عالم الفلك. وقد قادته نزعاته وميوله العلمية إلى أن يؤسس مطبعتى حجر فى مرصد باراماتا[2] الذى عين فيه «س.س.ل. رومكر» مديرا له. وعندما مل رومكر المنصب واستقال منه سنة ١٨٢٣ آلت إحدى المطبعتين إلى المصور «أ. و. إير» الذى قام باستخدامها لإنتاج ثلاثة إيضاحيات لكتابه «مناظر فى أستراليا»[3] سنة ١٨٢٦.

وفى ختام هذه المعالجة لدخول الطباعة وانتشارها فى أستراليا، أود أن أشير إلى أننى قد اقتصرت على الخطوط العريضة فقط دون الدخول إلى تفاصيل الحكايات والقصص والمغامرات المتعلقة بالناشرين الأوائل واستيراد الآلات المستعملة ونزاعات أسطوات الطباعة مع صبيانهم ومشاكل قطع الغيار ونقص المستلزمات وتآكل الحروف وتشوهاتها.

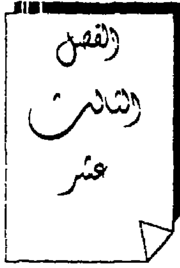
وقد يكون مفيداً أن نختم هذه المعالجة لانتشار الطباعة فى استراليا ببعض البيانات عن مساحات الولايات والمناطق المكونة للدولة القارة:

كوينزلاند	١٫٧٣١٫٤٠٠	كيلو متر مربع	(برسبين)
نيوثاوث ويلز	٨٠٤٫٧٠٠	كيلو متر مربع	(سيدنى)
فيكتوريا	٢٢٧٫٧٠٠	كيلو متر مربع	(ملبورن)
المناطق الشمالية	١٫٢٨٨٫٠٠٠	كيلو متر مربع	——
أستراليا الجنوبية	١٫١٥٢٫٦٠٠	كيلو متر مربع	(أديلاد)
أستراليا الغربية	٢٫٥٢٧٫٦٠٠	كيلو متر مربع	(فريمانتل)

(1) John Eyre. Views of Sydney, 1812.

(2) Parramatta Observatory.

(3) A. W. Earle. Views in Australia.



الطباعة فى نيوزيلندة

دخلت الطباعة إلى نيوزيلندة نتيجة التوسع المسيحى فى القرن التاسع عشر حيث كان من الضرورى طباعة الكتب الدينية باللغات المحلية لتيسير عملية التبشير. ولقد تسابقت الطوائف الدينية والمذاهب المسيحية فى عمليات التبشير هناك. وعلى عكس الحركات التبشيرية فى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر حيث ذهبت البعثات الدينية فى حماية القوات العسكرية على نحو ما حدث من البرتغال فى آسيا ومن الأسبان فى أمريكا الجنوبية، على عكس ذلك جاءت البعثات التبشيرية إلى نيوزيلندة قبل التوسع السياسى والعسكرى ولم تكن مدعومة من قبل السلطة العلمانية أو السياسية فى القرن التاسع عشر. ومن ثم دخلت إلى قلوب الناس هناك من منطلق إنسانى بحت والعمل على الرخاء المادى والروحى فى وقت واحد لكل السكان هناك. وكان لابد من استخدام لغة هؤلاء السكان الأصليين حتى تكون التعاليم مفهومة ووسيلة الاتصال فعالة.

وعلى الرغم من أن أستراليا ونيوزيلندة متجاورتان جغرافياً، إلا أن دخول الطباعة إلى الدولتين اتخذ مساراً مختلفاً. فمن المعروف أن أستراليا قد اتخذت كمستعمرة للعقاب ونفى المجرمين والمساجين والمحكوم عليهم إليها من بريطانيا ومن هنا فقد دخلت الطباعة الأولى لطبع المطبوعات الرسمية والجرائد على النحو الذى بسطته من قبل، وكانت اللغة المستخدمة فى تلك المطبوعات هى الإنجليزية. أما فى نيوزيلندة فقد دخلت الطباعة على يد المبشرين، ولذلك كان الكتاب المقدس والمطبوعات الدينية هى المطبوعات الأولى هناك وبلغة ماورى[1]. ويقول

(1) Maori Language.

«أوليفر» فى «قصة نيوزلندة»[1] أن أقصى شمال نيوزيلندة كان يسكنه صيادو الحيتان والتجار والمساجين الهاربين من سيدنى فى مطلع القرن التاسع عشر. ومن هنا فقد قامت «جمعية مبشرى الكنيسة»[2] سنة ١٨١٤م التى غلبت عليها الصبغة الإنجليزية والإنجليكانية بتأسيس بعثة تبشيرية هناك. ولم يرسل التاج البريطانى مستوطنين هناك فى تلك الناطق إلا اعتباراً من سنة ١٨٤٠ حين بدأت مستوطنة رسمية هناك. وكان تركيز المبشرين هناك على السكان الوطنيين الذين وجدوهم هناك وهم الماوريون. وكان الصراع مستمراً بين صيادى الحيتان والتجار الذين كان هدفهم استغلال المنطقة والأهالى من جهة، وبين البعثات التبشيرية من جهة أخرى. وربما لهذا السبب رحبت البعثات التبشيرية بقدوم الحكم البريطانى إلى هناك ودعمت وجوده بقدر الإمكان بما حملته معها من مطابع.

ولقد كان الماوريون أميين يعيشون عيشة العصر الحجرى ولكنهم على قدر كبير من الذكاء ولهم تراث فكرى فولكلورى شفوى غنى، ومن هنا تقبلوا بسرعة وشغف الكتابة والقراءة وقصص الكتاب المقدس التى راقت لتفكيرهم وخيالهم. ولذلك فإن العهد الجديد عندما طبع بلغة الماورى فى ديسمبر ١٨٣٧م أصبح أثمن هدية تقدم لهم. وكانت المهمة الأولى للبعثات التبشيرية هى وضع أبجدية لكتابة لغة الماورى. وكان «لى» و«كندال» قد قاما سنة ١٨٢٠ بوضع «قواعد ومفردات لغة نيوزيلندة»[3]، وفى هذا الكتاب قننا قواعد النحو والإملاء، تلك القواعد التى تحسنت مع جهود البعثات التبشيرية والباحثين الذين عملوا معها. وكانت المهمة الكبرى بعد ذلك هى ترجمة الكتاب المقدس وكتب الصلاة والعبادة، وكلما انتهت ترجمة جزء تمت طباعته إما فى سيدنى أو فى لندن. وقد وجد أن ذلك الأمر غير كاف وأنه من الضرورى أن تكون هناك مطابع تحت يد البعثات التبشيرية فى نيوزيلندة.

---

(1) W. H. Oliver. The Story of New Zealand.- London : Faber and Faber, 1960.

(2) Church Missionary Society.

(3) Lee and Kendall. Grammar and vocabulary of the Language of New Zeland. 1820.

وكان أول فجر للطباعة فى نيوزيلندة فجراً كاذباً. ففى سنة ١٨٣٠م قام المبجل «وليام بيت» الذى كان فى سيدنى يشرف على طباعة بعض الأشياء بنقل مطبعة من سيدنى إلى كيرى كيرى، وكانت تلك المطبعة الصغيرة قد بعثت بها «جمعية مبشرى الكنيسة» سابقة الذكر بناء على طلب البعثات التبشيرية. ولم يكن وليام بيت يعرف الطباعة ولكنه اصطحب معه شاباً فى الخامسة عشر من عمره يعرف الطباعة لمساعدته فى إنجاز ما يريد. وقد قاما بطبع بعض ملازم من التراتيل ولم تصلنا منها نسخ، كما طبعا كتيبا من ست صفحات وهو كتيب تعليمى وصلتنا منه نسختان. وكانت الطباعة رديئة للغاية ومؤسفة إذا قارناها بطباعة خلف بيت المدعو «وليام كولنسو»، وربما كان ذلك لصعوبة الأمر على «بيت» لجهله أمور الطباعة، وربما لأن الشاب الذى صحبه - جيمس سميث - قد تركه وغادر المنطقة وربما لم يكن هناك وقت لدى «بيت» لتجويد الطباعة مع مشاغل التبشير. نحن لا نعرف السبب وراء ذلك المستوى المتدنى للطباعة التى جاء عليها ذلك الكتيب التعليمى فى كيرى كيرى حتى يناير ١٨٣٥ حين بيعت إلى شخص اسمه «بنيامين إسحق» الذى طبع عليها أول جريدة فى نيوزيلندة ثم أخذها معه حين غادر إلى سيدنى.

أما كاكستون نيوزيلندة فقد كان الطابع المبشر العالم المؤلف وليام كولنسو ١٨١١-١٨٩٩، الذى شكلت حياته فترة الطباعة الباكرة فى نيوزيلندة. كان كولنسو مواطناً من بنزاس وابن عم الجدلى الأسقف «جون وليام كولنسو»، أسقف ناتال. وقد تعلم الطباعة كصبى لمدة ست سنوات لدى طابع فى بنزاس قبل رحيله إلى لندن حيث وجد عملاً لدى شركة «ريتشارد واطس» وابنه الذين كانوا يطبعون لجمعية الكتاب المقدس البريطانية والخارجية، ولجمعية مبشرى الكنيسة. ولقد تولدت رغبة كولنسو فى العمل التبشيرى فى ظل الجو الدينى القوى فى بنزاس وعمله فى طباعة الكتاب المقدس؛ مما أهله لوظيفة الطابع مع بعثة تبشير نيوزيلندة عندما قررت «جمعية مبشرى الكنيسة» إرسال مطبعة إلى نيوزيلندة سنة ١٨٨٣.

وبدون الرجوع إلى مستشار الطباعة قامت «جمعية مبشرى الكنيسة» باختيار المطبعة والحروف والمعدات من شركة واطس وأرسلتها إلى نيوزيلندة بصحبة كولنسو. وقد هبط كولنسو إلى محطة البعثة التبشيرية فى بائهيا فى خليج الجزر فى الثلاثين من ديسمبر ١٩٣٤، وبدأ فى اليوم التالى فى تفريغ معداته ولم يكن هناك من يساعده فى هذا العمل. ومن المعروف أن طابعة ستانهوف ثقيلة للغاية وكذلك كانت صناديق حروف الطباعة. ومهما يكن من أمر فقد استطاع كولنسو مؤخراً أن يقيم المطبعة فى غرفة كبيرة من غرف البيوت الحجرية التى شيدتها البعثة هناك فى ظل صعوبات كبيرة ونقص فى المعدات الفرعية. وبهذه الإمكانيات بدأ كولنسو فى طبع ترجمة إلى لغة ماورى من رسائل إلى أهل فيليبوس إفيسوس. وفى السابع عشر من فبراير سنة ١٨٣٥م صححت البروفات ثم طبع أول كتاب على أرض نيوزيلندة. والفارق بين طباعة هذه الرسائل وطباعة الكتاب التعليمى الذى طبعه «بيت» هو الفارق بين محترف وهاو. وقد طبع هذه الرسائل ذات الست عشرة صفحة على ورق وجد فى مخازن البعثة التبشيرية، وكان عدد النسخ ألفى نسخة وجلدت لتوزع على المبشرين والمؤمنين.

والحقيقة أن الظروف التى عمل فيها كولنسو كانت صعبة، ولابد أن يعزى إليه وحده الفضل فى إنجاز هذه المطبوعات ذات المستوى المهنى الراقى. لقد كان المكان الذى تنزل فيه البعثة مكاناً جيداً عبارة عن شريط مستو من الأرض بين التلال وبين ساحل بائهيا ذى الرمل الأبيض الناعم، كما أن مناخ خليج الجزر معتدل شتاء ودافئ وكانت البيوت مبنية من الحجر والزلط وكانت مقسمة إلى غرف وإن كانت بدائية. وكان المبشرون الثلاثة يسكنون مع عائلاتهم الكبيرة، فى حين سكن كولنسو فى البداية فى غرفة الضيافة بالقرب من الكنيسة، وكان يتناول وجباته مع إحدى العائلات. وعندما نقل أحد المبشرين إلى محطة تبشير أخرى وأخلى جانباً من المنزل، حل كولنسو محله. وكان يعد حاجياته بنفسه فى المكان الجديد بمساعدة بعض الخدم الماوريين. وتكشف السجلات عن أن مرتبه كان ٣٠ جنيهاً إسترلينياً فى السنة يتقاضاه من جمعية مبشرى الكنيسة بالإضافة إلى جراية: وهذه الجرايات الخارجية كانت تصرف بتقتير كل ستة شهور مرة واحدة. وتذكر

المصادر أنها لم تكن كافية حتى للفرد الواحد؛ فما بالنا لأسرة؟! ومن الطريف أن تذكر السجلات أن جراية كولنسو من السكر قد زيدت من رطل واحد إلى رطل ونصف فى الأسبوع والشاى زيد من أوقيتين إلى ثلاث أسبوعياً. وكان لحم الخنزير هو اللحم الوحيد الذى يتاح وليس بانتظام، وقد منع تناول اللبن والزبد لعدة سنوات بعد مجىء كولنسو. أما البطاطس والبطيخ والخنزير والسمك فكان يتم الحصول عليها من الماوريين عن طريق المقايضة.

وكانت المساعدة الوحيدة التى يتلقاها كولنسو فى تدبير المنزل وأعمال ورشة الطباعة خلال السنوات العشر الأولى هناك كانت تجيئه من جانب بعض الماوريين غير المدربين وغير المهرة ومن أربعة طابعين أمريكيين كانوا يجيئون إلى نيوزيلندة فى أوقات مختلفة ضمن طاقم سفن صيد الحيتان، وكان الواحد منهم يمكث بضعة شهور فقط.

وقد ترك الورق ولم يطلب مع الطلبية الأساسية من المعدات، وقد استغرق الأمر ثمانية عشر شهراً حتى يصل الورق من إنجلترا مع بعض الأشياء الأخرى الناقصة.

ولقد وجد أحد المساعدين الذين ساعدوا كولنسو فى إعداد صناديق للحروف توْفر كولنسو نفسه على تصميمها. ولقد تطلبت لغة الماورى استخدام خمسة حروف متحركة فقط وتسعة صوامت، مما حدا به إلى إعدادها؛ ومن ثم أبقى الحروف الأصلية الباقية فى عبواتها ريثما يحتاج إلى استخدامها فى طباعة نص باللغة الإنجليزية، للسلطات الرسمية، وهو ما حدث عند طبع اتفاقية ويتنانجى. وقد استمر كولنسو فى هذا العمل من سنة ١٨٣٥م إلى ١٨٤٢ عندما ترك نيوزيلندة لكى يدرس لرسامة الكهانة. وقد قدرت كمية العمل التى نفذها ما بين يناير ١٨٣٥ ويناير ١٨٤٠ بلغت ٧٤١٠٠ كتيب من أربع صفحات فأكثر. وقد طبع كولنسو ما بين ١٨٣٥ و١٨٤٣ ستين صنفاً مختلفاً فى طبعات تتراوح ما بين عشرين ألف نسخة من كتاب الصلاة ومائة نسخة فقط من الإعلانات الرسمية

الحكومية. وإلى جانب العهد الجديد[1] وكتاب الصلاة العامة[2] تضمنت هذه المطبوعات أجزاء من العهد القديم وبعض الرسائل ضد البابوية وبعض الكتب المدرسية والكتب التعليمية والمنشورات الدورية ومذكرات وتقارير البعثة التبشيرية. وتذكر المصادر أن أهم ما خرج من مطبعة البعثة التبشيرية هو العهد القديم بلغة الماورى وقد تمت الترجمة على يد لجنة من المبشرين يرأسها «وليام ويليامز». وقد بدأ تنضيد الكتاب عندما جاءت الأخبار فى يونية ١٨٣٦ من سيدنى بأن الورق الذى طال انتظاره قد وصل. وقد انتهى طبع الكتاب ذى ٣٥٦ صفحة فى منتصف ديسمبر من نفس السنة، ونجح كولنسو فى تجليد بعض النسخ كى يقدمها هدية السنة الجديدة إلى المبشرين. وقد طبع من هذا العمل خمسة آلاف نسخة منها ألف نسخة لبعثة وليسليان. وقد أشرف كولنسو بنفسه على تجليد نحو ألفى نسخة وأرسل الألفين الآخرين إلى سيدنى على دفعات كل منها خمسمائة نسخة لتجلد وتوزع هناك. وأرسلت بعثة ويسليان الألف نسخة الحاضرة لتجلد فى إنجلترا. ولقد وصف كولنسو نفسه أهمية وقيمة هذا العمل حيث قال: «لقد حدثت أحداث هامة فى ذلك الوقت تكشف عن الأهمية الكبرى التى أنيطت بهذا الكتاب المقدس من قبل الماوريين الذين تنصروا ومن قبل رؤساء قبائل الماورى. وكانوا جميعاً يريدون البرهنة على أنهم راغبون فى الحصول عليه. وسوف أقص واحدة أو اثنين فقط عن تلك الرغبة: لقد كتب رئيس كايتايا (بالقرب من آهيبارا ورأس الشمال) واسمه باناكاريو بعد أن تنصر اتخذ اسم نوبيرا أى النبيل، كتب خطابا إلى [كولنسو] يطلب فيه نسخة واحدة، ولكى يطمئن إلى وصول الخطاب أرسله مع رسول خاص فى رحلة طويلة تستغرق عدة أيام عبر غابة غير مطروقة، واسعة، موحشة وغير معروفة. ومع هذه الرسالة أرسل جنيهاً واحداً إسترلينياً ذهباً ثمن النسخة وهكذا حدد طلبه فى نسخة واحدة!! وكان هذا الجنيه هو أول عملة يراها كولنسو فى يد أحد من الماوريين

(1) New Testament.

(2) Book of Conmon Prayer.

حيث كانت التعاملات تتم عن طريق المقايضة (وكانت العملة الفضية أيضا نادرة هناك). وكان قد جرى تأمين الخطاب والجنيه بلفهما لفاً محكماً فى قطعة من القماش مطوية عدة مرات. وقد وضعها الرسول فى عمامة رأسه المحكمة الإغلاق.

ومن بين المطبوعات الهامة أيضاً التى طبعها كولنسو فى مطبعة البعثة التبشيرية كتاب «الصلاة العامة» الخاصة بكنيسة إنجلترا ويقع فى ٣٧٢ صفحة سنة ١٨٣٩. وفى الطبعة الأولى هذه تم طبع ٧٠٠٠ نسخة مختصرة و٧٠٠٠ نسخة كاملة، وكانت هناك طبعات أخرى من نفس هذا العمل سنة ١٨٤٠ و١٨٤٢.

ولعل أول عمل يطبع بالإنجليزية فى نيوزيلندة هو ذلك التقرير الذى يقع فى ثمانى صفحات والذى طبعه كولنسو سنة ١٨٣٦ وجاء بعنوان: «تقرير عن تكوين وتأسيس جمعية الاعتدال فى نيوزيلندة»[١] وقد ساهم هو بنفسه فى تأسيس تلك الجمعية. وعبر الخليج من بائهيا تقع مدنية كوروراريكا[٢] أقدم المستوطنات فى نيوزيلندة التى كان سكانها فى الأصل صيادى حيتان وتجاراً. وهناك كان الكثير من وجوه الانحراف وعدم ضبط النفس؛ وكان انحلال الماوريين يؤرق جفن البعثة التبشيرية ويقض مضجعها، ومن هنا جاءت فكرة جمعية الاعتدال هذه. كما كانت تسعى أيضاً قوى الفوضى والاستغلال التى كانت سائدة فى كوروراريكا مما حدا بالمبشرين إلى أن يتعاونوا مع حكومة التاج فى نيوثاوث ويلز لضم نيوزيلندة تحت سلطانها. ولذلك قام الكابتن «وليام هوبسون» أول حاكم عسكرى فى نيوزيلندة بتوقيع «اتفاقية ويتانجى»[٣] سنة ١٨٤٠ والتى بمقتضاها سلم كل رؤساء الماوريين زمام السلطة المطلقة على أراضيهم للملكة فيكتوريا مقابل حمايتهم، وقد أرفق بالأمر الذى أصدره الحاكم المنشور الذى وزع على رؤساء الماوريين للتوقيع على الاتفاقية، وقد طبع كولنسو منه ومن إعلانات أخرى مائتى نسخة مع نص الاتفاقية. وفى نفس سنة ١٨٤٠م أغلقت بأمر من الحكومة

(1) Report of the Formation and Establishment of the New Zealand Temperance Society, 1836.

(2) Kororaneka.

(3) Waitangi Treaty.

أول جريدة نيوزيلندية وذلك لمعارضتها سياسة الحكومة إزاء ملكية الأراضى. وقد طلب إلى كولنسو أن يطبع أول مجلة لحكومة نيوزيلندة المسماة: «مجلة غير عادية»[1] وقد صدر العدد الأول منها فى الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٤٠.

ونقرأ فى يوميات كولنسو عن هذا اليوم ما نصه:

٣٠ ديسمبر، الحكومة. نيوزيلندة

تنضيد «مجلة غير عادية» العدد رقم ١

٤ صفحات نصف كوارتو (مادة فى ١٢ عمود) ٦ جنيه ٦ شلن ـ بنس

طباعة ١٥٠ نسخة من نفس الشيء ـ جنيه ١٨ شلن ـ بنس

٣١/٢ رزمة ورق نصف لنفس الشيء على ٦/٢ ـ جنيه ٨ شلن ٩ بنس

ولم يكن لدى الحكومة ميزانية تغطى هذا الدين حتى سبتمبر ١٨٤١. على نحو ما ذكره «ج. م. ميكلجون» فى كتابه: «الصراعات الأولى للمطبعة والحكومة»[2].

وفى الأول من يناير سنة ١٨٤٣ تولى «جون تيلفورد» رسمياً إدارة المطبعة، ولكن كان مجد تلك المطبعة قد رحل مع كولنسو. وفى سنة ١٨٤٤ عندما عين أول أسقف فى نيوزيلندة قامت جمعية مبشرى الكنيسة بإهدائه المطبعة. وقد أخذها معه عندما انتقل إلى أوكلند.

أما ثانى مطبعة فى نيوزيلندة فهى تلك التى أقامتها بعثة الميثوديست ويسليان التبشيرية فى مانجونجو على نهر هوكيانجا. وكانت هذه البعثة قد أسست فى سنة ١٨٢٢ على خليج هوانجارو فى أقصى الشمال، ولكن المبشرين اضطروا إلى مغادرة الموقع بسبب عداء الماوريين لهم، وبعد بضعة شهور قليلة فى سيدنى عادوا إلى نيوزيلندة. وتقع مانجونجو على الشاطئ المقابل لبائهيا، ولكن نظرا

(1) Gazette Extraordinary.

(2) G. M. Meiklejohn. Early Conflicts of Press and government. - Aukland: Wilson and Morton, 1953.

لضيق هذا اللسان الشمالى من نيوزيلندة حدث تقارب وود بين البعثتين التبشيريتين وبين مطبعتيهما.

لقد كان أتباع الميثوديست هم الآخرون تواقون للكتب. وقد كتب أحد المبشرين إلى إدارته الرئيسية فى لندن يقول لها «لقد أعدت المطبعة الآن للعمل وأصبحت جاهزة للطبع ونحن نصبح حالاً قادرين على نشر بعض الكتب التى أعتقد أنها ستصبح بركة دائمة ونعمة لهؤلاء النيوزيلندنيين الفقراء الذين يستطيع عدد كبير منهم أن يقرأ ولكنهم فى حاجة إلى الكتب». ولم يلبث السيد «وون» أن بدأ بطباعة مختارات من الأناجيل كان مبشرو الكنيسة قد نشروها على هدى من ذلك العمل الذى نشرته «جمعية المدرسة البريطانية والخارجية». وقد وافق أعضاء البعثة التبشيرية على التصميم الذى وضعه السيد «وون». ولسوء الحظ لم يجدوا فى مطبعتهم الحروف المناسبة لبعض المواضع فى الكتب ذات الاثنتى عشرة صفحة فبعثوا يستعيرونه من أصدقائهم فى البعثة الأخرى فى الخليج. وطفق المبشر يقول «وعندما تنتهى من طبع الكتاب فإننا لن نجد فى المطبعة شيئا للتجليد فليس فى المطبعة كلها مواد مناسبة للتجليد. وآمل عند تسلمك هذه الرسالة أن تبعث إلينا بمواد للتجليد حتى تستطيع تلبية طلبات الآهال هنا».

لقد كان الطابع «ويليام وون» (١٨٠٣ ـ ١٨٥٨) مواطناً من ترورو وتعلم الطباعة هناك. وكان مع بعثة تبشيرية من بعثات ويسليان فى «الجزر الصديقة» حيث كان يعمل طابعا لها ثم أرسل إلى نيوزيلندة لأسباب صحية سنة ١٨٣٤ . وكانت معرفته بلغة تونجيز عاملاً مساعداً له فى تعلم لغة ماورى بسرعة. وفى نفس سنة ١٨٣٤ عين طابعاً ومساعداً عاماً، وفى سنة ١٨٣٦ رقى إلى «مساعد مبشر» ولقد كان هذا الرجل ضخم الجسم مفتول العضلات له صوت جهورى ولكنه كان وديعاً كالطفل. ولقد ظل وون فى مانجونجو حتى سنة ١٨٤٥ حين نقل إلى محطة تبشيرية أخرى. وقد تقرر بعدها أن يتم الطبع على أساس التعاقد مع مطبعة فى أوكلاند بتكاليف أقل وجودة أكبر. ومن هذا فإن معظم مطبوعات

بعثة الميثوديست كانت تتم عن طريق شركة ويليامسون، ويظن أن مطبعة البعثة قد آلت إليه عن طريق البيع. ولا نعرف مصير وون بعد ذلك إذ ربما يكون قد قام بالطبع أو تعليم الطباعة فى موقعه الجديد. وأيا كان الأمر فإن عدد المطبوعات التى توفر عليها فى الفترة ما بين ١٨٣٧ و١٨٤٥ يصل إلى نحو ثلاثين عملاً تتراوح مابين أجزاء من الكتاب المقدس، وكتب تعليمية، رسائل سريعة، نشرات، تراتيل. وبعض الرسائل كان ضد الكاثوليك.

وقد واجهت هذه المطبعة فى بدايتها متاعب جمة كتلك التى واجهتها المطبعة الأولى فى خليج الجزر. وكان أول كتاب طبع فى هذه المطبعة قد تم إنجازه فى أبريل سنة ١٨٣٧. وقد كتب المبشر إلى إدارته يقول «لقد انتهى السيد وون لتوه من إنتاج كتاب قيم من الطبعة... وفى نيتنا أن نطبع المزيد بصفة مستمرة بحيث نبقى المطبعة فى حالة عمل دائم قدر الإمكان، ولكننا فى الوقت الحاضر لاورق لدينا ونحن ننتظر كميات كبيرة منه كل يوم... وإن السيد وون ليستخدم كل مواهبه ووقته فى العمل الطباعى وفى تعليم الآهال».

وكما رأينا من قبل سلمت للميثوديست ألف نسخة من العهد الجديد سنة ١٨٣٧ من تلك التى طبعها كولنسو فى بائهيا. ولكن الحاجة إلى الكتب كانت ماتزال ماسة لدرجة أن وون نفسه كتب سنة ١٨٣٩ «هناك طلبات كثيرة على الكتب مما يفرض على أن أعمل ليل نهار».

وفى سنة ١٨٣٨ جاء المبجل «جون هوبز» إلى نيوزيلندة من تونجا. وقد كان قد عمل بها فى فترة سابقة معلماً للغة ماورى. وفى تونجا كان قد تعلم الطباعة وكان من قبل يعمل فى صناعة العربات والحدادة. ومن هنا كان قادراً على المساعدة فى أعمال الطباعة وخاصة فيما يتعلق بالأعمال الميكانيكية وصب الحروف. وكان وون كما سبق وأن ذكرت قد درب بعض الماوريين على أعمال الطباعة لمساعدته فى المطبعة على النحو الذى تكشف عنه القصة الآتية: «كان بعض المعلمين من أبناء الماورى يتصلون ببعض الآهال الذين اعتنقوا المذهب

الكاثوليكى الرومانى. وبعضهم كان ذات يوم يمر بالمطبعة عندما كان أحد الأهالى ويدعى ابن عزير يطبع كتاباً، فحيوه بطريقتهم الخاصة وشاكسوه بأنهم وحدهم المسيحيون الحقيقيون فأجابهم باقتباسات قاسية من الكتاب المقدس دلالة على أنه هو الآخر مسيحى حقيقى».

أما ثالث مطبعة تدخل إلى نيوزيلندة فقد كانت مطبعة البعثة التبشيرية الكاثوليكية الرومانية ـ المنافس الكريه للبعثتين الأخريين ـ. وقد أقيمت تلك المطبعة فى كوروراريكا فى خليج الجزر. ولقد كان «جين بابتست بومبالييه» قد نصب مبعوثاً رسولياً فى إقيانوسة الغربية من قبل روما فى يونية ١٨٣٦. وقدم المجمع المقدس له الأموال اللازمة للبعثة وقام «اتحاد دعم الإيمان»[1] والأسقف وأربعة قساوسة من «جمعية مريم»[2] بالانطلاق من بين لأسقف فى ليون. وبعد أن ترك اثنين من القساوسة فى جزر واليس و فوتونا فى المحيط الهادى، بلغ بومبالييه نيوزيلندة فى العاشر من يناير ١٨٣٨ هو والقسيسان الآخران. وقد مكث لبعض الوقت فى توتارا بوينت[3] فى هوكيسانجا حيث كان هناك بالفعل كنيسة مستعملة للكاثوليك الرومان. ولكن فى سنة ١٨٣٩ قرر أن ينقل مقره إلى كوروراريكا التى أصبحت بعد ذلك مباشرة العاصمة المؤقتة، حيث كانت آنذاك أكبر مستوطنة ومركز العناصر غير المؤمنة بين السكان. وهو مكان كان تأثير نساء البيض على الماوريين فيه شديداً على نحو ما شرحت سابقاً. ومن هنا كان هذا المكان التحرى الحقيقى لأى بعثة تبشيرية وهو ما قبل به الأسقف بومبالييه.

فى ذلك الوقت كانت مطبعتا البعثة الأولى والثانية: بعثة «جمعية مبشرى الكنيسة» وبعثة الويسليان الميثوديست قد ازدهرتا واستقرتا، فى حين كانت نقطة الضعف الأساسية لدى الكاثوليك الرومان هى عدم قدرتهم على تقديم الكتب للماوريين، وحيث كتب بومبالييه لإدارته فى روما يقول «الهراطقة [يقصد المذهبين الآخرين] لديهم مطبعتان تحت أمريهما، إحداهما فى هوكيانجا والثانية فى

(1) Association For the Propagation of Faith.
(2) Societry of Mary.
(3) Totara Point.

خليج الجزر. ولقد غطوا البلد كله بالنشرات والرسائل والكتب الصغيرة والتى تمتلئ بكل أنواع المغالطات والاتهامات ضد عقيدة الكنيسة الكاثوليكية وخاصة عند تقديم وتعليم مبادئ الخلاص الأولية. وبعد أن عرضنا على مبشرى الميثوديست الموجودين هنا فى هوكيانجا أن ننسحب من البلد أصدرت مطبعة البروتستانت نشرة من أربع صفحات بعنوان «ضد المسيح»[1] تؤكد فيها للأهالى أن الكنيسة الكاثوليكية ورئيسها فى روما وأسقفها فى نيوزيلندة هم ضد المسيح وأن تعاليمنا مليئة بالأغلاط وخطرة على البلد. ولكن أهالى نيوزيلندة لم يعطوا اهتماماً كبيراً لتلك النشرة على الرغم من توزيع عدد كبير من نسخ تلك النشرة بين الأهالى. وكان الأهالى إذا مروا بى حيونى لهذا السبب باسم «ضد المسيح» وبدون أية نية عدوانية على الإطلاق، ولكن عندما قلت لهم إن اسمى الحقيقى هو «إبسكوبو»[2] وهو الاسم الذى أراد المبشرون إطلاقه على دون علم منى، كان الأهالى يتراجعون عن تسميتى بالاسم الأول [ضد المسيح]، والذى لم يكن يعرفون المعنى السيئ له. وباللحسرة فإننا كى ننافس جهود الهراطقة بما ينشرونه ضدنا من آلاف المطبوعات فليس أمامنا سوى حناجرنا وأقلامنا».

لقد كانت للبعثة الكاثوليكية أيضاً مطبعتها الشبح على نحو ما كان عليه الحال بالنسبة لبعثة «جمعية مبشرى المسيح» سنة ١٨٣٠. أى أنه كانت هناك وعود بمطبعة، ولكن لم تنفذ فى حينها، وما أحيا هذه الوعود هى مطالب بومبالييه حيث سجل فى مذكراته: «ومع ذلك فإن الزيارة التى قمت بها فى سبتمبر ١٨٣٩ [إلى مانجونوى] شجعت هؤلاء الذين كانوا فى انتظارى حيث وضعت مطالبى فى قائمة وقلت للإدارة أن ترسلها مع القساوسة الجدد الذين يجب أن يعرفوا لغة الماورى، ولسوف أوزع عليهم بعض المطبوعات التى طبعتها فى كورورارىكا. والحقيقة إن هذه العبارة أعطت الانطباع بأن مطبعة قد جاءت إلى البعثة الكاثوليكية مع القساوسة الجدد الذين جاءوا ليدعموا جهود هذه البعثة.

(1) Anti - Christ.

(2) Episcopo.

ولكن الحقيقة أن المطبعة الكاثوليكية هذه لم ترد إلى البعثة إلا سنة ١٨٤١م وتم تركيبها وطبع عليها أول كتاب كاثوليكى فى سنة ١٨٤٢ وكان الطابع هو السيد «إيفرت» تحت إشراف الأب «باتى» ولم تعرف معلومات كثيرة عن ذلك الطابع إلا أنه نورماندى مهذب الذى جاء إلى نيوزيلندة لأول مرة مع بعثة علمية. وكان الأب «جارين» هو المسئول عن المحطة الكاثوليكية فى كوروراريكا حيث كان القسيس الوحيد آنذاك، وكان إيفرت يساعده فى كتابة تقاريره وأعماله. أما فى سنة ١٨٤٤ فإن السجلات تكشف عن وجود ثلاثة طابعين بين أعضاء البعثة الكاثوليكية - فى كوروراريكا وهم: الأخ «لوقا»، نجار وطابع. الأخ «إيمرى»، ترزى وطابع. السيد «إيفرت»؛ طابع وخازن كتب.

ولم يطبع فى هذه المطبعة بين ١٨٤٢ - ١٨٤٧ سوى سبع قطع كلها بلغة الماورى وكلها كتب تعليمية حول العقيدة الكاثوليكية. فى سنة ١٨٤٧ حدثت قطيعة بين الأسقف بومباليية و«جمعية مريم» التى كان يعمل جميع المبشرين من خلالها فى نيوزيلندة، وجاء جانب من المشكلة من اعتراض الجمعية على بعض كتابات الأسقف بومباليية. وحدث بعد ذلك أن قسمت نيوزيلندة إلى دوقيتين: دوقية بومباليية فى الشمال؛ دوقية ويلنجتون فى الجنوب حيث انسحب إليها أتباع مارست والتى ضمت أيضاً جزيرة الجنوب. ولم تر الجمعية صاحبة المطبعة الفعلية أية ضرورة لسحبها إلى دوقية الجنوب، ومن ثم باعتها فى مطلع خمسينات القرن الثامن عشر إلى شركة ويليامسون التى أشرنا إليها من قبل فى أوكلاند. وقد استخدمت منذ ١٨٥٦ فى طبع جريدة «رسول الماوريين»[1].

انتشار الطباعة فى ربوع نيوزيلندة.

كانت بدايات الطباعة فى نيوزيلندة كما رأينا سابقاً هى مطابع البعثات التبشيرية الثلاث، وقد انحصرت تلك المطابع الثلاث فى منطقة واحدة كما رأينا هى منطقة خليج الجزر، أما الانتشار الحقيقى للطباعة فى نيوزيلندة فقد جاء مع الاستعمار

---

(1) Maori Messenger.

والاستيطان المنظم الذى بدأ مع فرض بريطانيا لسلطانها على نيوزيلندة بعد توقيع «اتفاقية ويتانجى» سنة ١٨٤٠ على النحو الذى أشرت إليه سابقاً.

وكانت المطبوعات الأولى فى نيوزيلندة هى الجرائد أساساً، ذلك أن الرجال والنساء الذين هاجروا إلى نيوزيلندة من إنجلترا فى أربعينات القرن التاسع عشر نتيجة للصراع السياسى بينهم وبين الدولة بسبب وثيقة الإصلاح[١] وقوانين القمح[٢] جاءوا إلى نيوزيلندة ولديهم إصرار على مزاولة نفس نشاطهم فى الأرض الجديدة[٣]، وربما كانت تلك هى رغبة الحكومة الديمقراطية التى قذفت بهم إلى الأراضى الغربية الجديدة على الجانب الآخر من العالم فى رحلة تسعة شهور كاملة شاقة. ولقد نظروا إلى الجريدة على أنها الأداة الأساسية للديمقراطية، فقد كانت بوق الحكومة والمعارضة على السواء.

ومن هذا المنطلق كانت هناك فى كل مستوطنة تقريباً من مستوطنات المناضلين هؤلاء مطبعة وطابع وجريدة. لقد رأينا بداية الطباعة هناك فى أقصى الشمال فى خليج الجزر فى بائهيا وكوروراريكا وعبر شبه الجزيرة هناك فى مانجونجو. وبعد ذلك أخذت الطباعة فى الانتشار فى المستوطنات الساحلية حيث إدارات الشركات الاستعمارية المختلفة التى زاد عددها فى عواصم الأقاليم، كما انتشرت المطابع حيث وجد الاندفاع نحو مناجم الذهب فى أقصى بقاع الدولة.

ولم يكن إنشاء مطبعة وإصدار جريدة تحتاجان إلى رأسمال كبير. وكان أكبر قطعة فى المطبعة هى الطابعة إما من ماركة ألبيون وإما من ماركة إيجل المستعملة والتى كانت تفاخر بها صحيفة هيرالد ورننج فى سيدنى[٤] أو حتى تايمز فى لندن[٥]، والتى كان يمكن أن تعمل يوماً واحداً فى الأسبوع لطبع مائة أو مائتى نسخة من الجريدة، ثم تبقى بعد ذلك بقية الأسبوع فى راحة أو طبع ما تيسر من

(1) Reform Bill.
(2) Connlaws.
(3) G. H. Schefield. Newspapers in New Zealand. - Wellington: Reed, 1958.
(4) Sydney Morning Herald.
(5) London Times.

مطبوعات أخرى. لقد كان على الطابعين أن يكونوا متعددى المواهب بحيث يديرون المكتب ويكتبون بعض المقالات الطارئة للجريدة إلى جانب عملهم العادى كطابعين. وكانت المشكلة الأساسية بالنسبة لصحف تلك الفترة هى قلة عدد السكان البيض المتعلمين. وكان بيع مائتى نسخة من الجريدة هو رقم ضخم بالنسبة لذلك الوقت. ومن هنا كان إصدار جريدة مشروعاً مالياً غير مضمون حتى لو نجحت الجريدة في مخاطبة جميع قطاعات السكان. وكما كان يحدث فى أستراليا كانت هناك مشاكل كثيرة تحوط باستمرار صدور الجرائد، فهذه هى إحدى الجرائد تعلن على الناس: لقد أوقفنا الجريدة لنعلن على الجمهور العزيز أنه لا يوجد لدينا ورق، كما لم يعد لدينا حبر. ولو كان عند المشتركين المتأخرين فى السداد أى قدر من الشفقة فيجب أن يدفعوا لنا المستحقات المتأخرة عليهم حتى نستطيع أن نواصل عملنا، فإذا لم يفعلوا فإن هذا هو آخر فرخ يمكننا أن نرسله إليهم فقد سئمنا الكتابة بدون مقابل».

انتشار الطباعة فى خليج الجزر[1]

قبل وصول مطبعة بعثة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية سنة ١٨٤١ كانت الطباعة قد بدأت فى كوروراريكا بطبع أول جريدة لهم هناك وهى: «معلن نيوزيلندة ومجلة خليج الجزر»[2]. وكما أشرت سابقاً أسس الحاكم العسكرى الجديد الكابتن «وليام هوبسون» مقر قيادته فى كوروراريكا فى فبراير سنة ١٨٤٠م وقد صدر أول عدد من الجريدة فى الخامس عشر من يونية فى تلك السنة. وليس ثمة شك فى أن هذه الجريدة قد دانت بوجودها للدخل الذى تحققه من وراء الإعلانات الرسمية للحكومة، وهناك تنويه فى أول عدد إلى أن كل المواد المنشورة باسم الحكومة هى بالضرورة رسمية. وكما أشرت سابقاً بات محرر الجريدة ينتقد الحكومة بسبب سوء إدارتها فيما يتعلق بسياسة تملك الأراضى فى نيوزيلندة فى ذلك الوقت. ولذلك فإنه بعد العدد السابع والعشرين الصادر

(1) Bay of Islands.

(2) New Zealand Advertiser and Bay of Islands Gazette.

فى العاشر من ديسمبر سنة ١٨٤٠م قامت الحكومة بإغلاق الجريدة، استناداً إلى قانون نيوثاوث ويلز الذى يلزم أى محرر بدفع مبلغ كبير من المال قبل إصدار الجريدة. وكان طابع وناشر هذه الجريدة هو «جيوفرى إيجر» الذى كان يطبع قبل مجىء كولنسو إلى نيوزيلندة فى سيدنى لحساب جميعة مبشرى الكنيسة التى سبق ذكرها وبعد وقف جريدة إيجر حملت الحكومة كولنسو على طبع جريدة «مجلة غير عادية عدداً» فى مطبعة البعثة التبشيرية فى بائهيا. وفى نفس الوقت قدم إيجر التماساً للسماح له بطبع «مجلة الحكومة»(١)، وقد جاء فى هذا الالتماس «هل أحظى مرة أخرى بالطباعة للحكومة؟ ولسوف أبذل قصارى جهدى لإرضاء معاليكم وسوف أثبت لكم أنى أستحق ثقتكم فى». وقد تمت الموافقة على التماسه، وفعلاً صدرت ثانى جريدة حكومية فى التاسع عشر من فبراير سنة ١٨٤١ تحت عنوان «مجلة حكومة نيوزيلندة»(٢). وقد صدرت الأعداد على التعاقب أسبوعياً حتى العدد التاسع عشر الذى صدر فى الخامس عشر من يولية والذى بعده نقل مقر الحكومة إلى مدينة أوكلاند.

وبعد انتقال الحكومة إلى أوكلاند صدرت جريدتان أخريان فى كوروراريكا. **أولاهما** «مراقب خليج الجزر»(٣) التى صدر عددها الأول فى الرابع والعشرين من فبراير ١٨٤٢. **وثانيتهما** هى «محامى خليج الجزر»(٤) التى صدر عددها الأول فى الرابع من نوفمبر سنة ١٨٤٣م. وقد توفر على نشر الأولى وطبعها «جيمس بلغورد» وقد أغلقت أبوابها فى السابع والعشرين من أكتوبر من نفس سنة صدورها ١٨٤٢. أما الثانية فقد توفر على نشرها وطبعها «بنيامين إسحق» من جودستريت. وهو نفس إسحق الذى باعت إليه «جمعية مبشرى الكنيسة» المطبعة التى أحضرتها من إنجلترا والتى كان يستخدمها المبجل وليام بيت سنة ١٨٣٠. وقد دامت جريدة إسحق هذه لمدة ثلاثة شهور فقط، وبعدها انتقل إسحق بمطبعته إلى

(1) Government Gazette.

(2) New Zeadland Government Gazette.

(3) Bay of Islands Observer, 1842.

(4) Bay of Islands Advocate, 1843.

سيدنى حيث بدأ العمل فى بارامتا؛ وفى سنة ١٨٤٤ طبع على نفس المطبعة سيرة المبجل «صامويل مارسدن» مؤسس بعثة جمعية مبشرى الكنيسة فى نيوزيلندة.

وقد سبق أن ذكرت أن «جون تيلفورد» قد حل محل كولنسو فى مطبعة بعثة الكنيسة فى بائهيا فى الأول من يناير ١٨٤٣، وقد عمل هناك حتى ١٨٤٤. وقد طبع فيها ١٤ قطعة بما فى ذلك أول قاموس بلغة الماورى. وفى سنة ١٨٤٤ تسلم الأسقف «سيلوين» أول أسقف إنجليكانى فى نيوزيلندة العمل فى المطبعة من جمعية مبشرى الكنيسة، وحيث قامت الجمعية بإهدائه طابعة ستانهوب التى طبع عليها كولنسو أعماله. وقد نقلها معه سنة ١٨٤٥ عندما نقل مقر عمله من فى ويميت إلى أوكلاند. وكان سيلوين قد جلب معه مطبعة صغيرة عندما جاء إلى نيوزيلندة سنة ١٨٤٢ وأقامها فى تى ويميت إلى الداخل من بائهيا. وفى سنة ١٨٤٣ و١٨٤٤ طبع عليها مجموعة من الكتيبات والنشرات الخاصة بالكلية اللاهوتية فى سان جونز والخاصة بأسقفيته. وعندما انتقل إلى أوكلاند أرسل مطبعته الصغيرة إلى محطة البعثة التبشيرية فى كائتيا حيث بدأ الطبع عليها تحت إشراف المبجل «و. ج. بوكى» سنة ١٨٤٥.

انتشار الطباعة فى أوكلاند.

شهد العاشر من يولية سنة ١٨٤١م أول إصدارة من جريدة «نيوزيلاند هيراله ومجلة أوكلاند» التى توفر على إصدارها وطباعتها «جون س. مور»، وكان مور قد جاء إلى البلاد يعقد مع الحكومة، حيث أعلنت الحكومة فى سيدنى بعد وقف جريدة «معلن نيوزيلندة ومجلة خليج الجزر»[1] عن التقدم بعطاءات لطبع «مجلة حكومة نيوزيلندة» المشار إليها، وذلك فى فبراير سنة ١٨٤١. وفى مارس من نفس السنة وقعت الحكومة عقداً مع جون س. مور الذى كان الرجل الأول فى جريدة «مونيتور»[2] ومع شريكه «أبراهام دومبرين» وكلاهما من سيدنى. وقد حملا معهما مطبعتهما إلى أوكلاند، وبعد أسابيع قليلة باعاها إلى شركة جريدة

(1) New Zealand Herald and Auckland Gazette, 1841.

(2) Monitor.

وطباعة أوكلاند التى تصدر جريدة «نيوزيلاند هيرالدى». وقد تولى مور الإشراف العام على مكتب الطبع فى حين تولى دومبرين الأعمال الكتابية. وقد وقع عقد جديد بين تلك الشركة والحكومة بمقتضاه تولى مور طبع الجريدة (هيرالد) وسائر المطبوعات الحكومية.

ولم يدم ذلك الترتيب، إذ لم تتوقف الجريدة عن نقد الحكومة، وكان هناك أيضاً تأخير فى طباعة المطبوعات الحكومية الرسمية. وكانت الشركة نفسها فى ضائقة مالية. وقد أدت هذه العوامل جميعا إلى قيام الحكومة بشراء المطبعة والجريدة فى أبريل سنة ١٨٤٢ وإغلاق الجريدة. وكان ضمن معدات المطبعة طابعة ستانهوب ملكية عملاقة[١] وثلاثة آلاف رطل حروف؛ وقد دفعت الحكومة ١٤٢٥ جنيهاً إسترلينياً ثمناً لهذه الصفقة. وقد استمر مور طابعا لدى الحكومة وبشرط ألا يكون هناك تأخير فى مطبوعات الحكومة، كما سمح له بإصدار جريدته «أوكلاند ستاندارد»[٢]. وكان بيان الطبع الرسمى على المطبوعات الحكومية هو «مطبعة الحكومة». ورغم أن جريدة «أوكلاند ستاندارد» كانت موالية للحكومة إلا أنها لم تستمر لأبعد من ٢٥ من أغسطس من نفس السنة (١٨٤٢)م. وقد ساءت العلاقة بين مور والحكومة التى اتهمته باستخدام المطبعة زيادة عن اللزوم فى الطبع الخارجى، وأدت بالتالى إلى رفض الحكومة تجديد عقدها مع مور حين انتهت مدة التعاقد فى سبتمبر سنة ١٨٤٢.

ولم يكن الطابعون الأوائل فى نيوزيلندة يستطيعون تجنب النزاعات التى تدخل فيها جرائدهم مع الحكومة. ومع هذه على سبيل المثال ذلك النزاع الذى حدث بين الحكومة وبين «نيوزيلاند هيرالد ومجلة أوكلاند». وحيث جاء ضابط من قبل الحكومة وطلب من مور الأصل المخطوط لمقالة هجومية على الحكومة، وهدده باتخاذ إجراءات عنيفة ضده. وفى مرة ثانية استدعى مور إلى مكتب البوليس سنة ١٨٤١ وغرِّم لهجومه وقذفه فى حق جريدة منافسة.

(1) Super Royal Stanhope.

(2) Auckland Standard.

وكانت الجريدة المنافسة هى «حولية أوكلاند»[1] التى كان ينشرها ويطبعها «جيوفرى إيجر» الذى انتقل من كوروراريكا إلى أوكلاند وأصدر العدد الأول منها فى الثامن من نوفمبر ١٨٤١ وذلك لمنافسة الهيرالد سابقة الذكر. ولم تكن مدينة أوكلاند مدينة كبيرة تتحمل وجود جريدتين، فلم يكن عدد السكان آنذاك ليزيد عن ألفى نسمة، كما لم يكن بها العمال المهرة اللازمون لهذا العمل. ويبدو أن إيجر قرر منافسة «الهيرالد» فى مشتركيها والمعلنين فيها وأيضاً سحب العمال منها لأنه فى ذلك الوقت أعلنت جريدة «الهيرالد» عن حاجتها إلى ثلاثة منضدين أكفاء ولكن جهود إيجر لم تكلل بالنجاح حيث توقفت جريدة «حولية أوكلاند» عن الصدور فى نفس سنة ١٨٤١.

وتكشف محاولات ومحن رابع جريدة فى أوكلاند فى خلال أقل من سنتين عن أن الطباعة رغم رسوخها واستقرارها هناك إلا أنها كانت ماتزال فى مرحلة النضال والكفاح. تلك الجريدة الرابعة كانت «أوكلاند تايمز»[2] التى بدأت فى الصدور فى التاسع والعشرين من أغسطس ١٨٤٢ على يد رجل إنجليزى كان أساساً فى سيدنى صاحب محل بقالة واسمه «هنرى فولواسار». وكانت هذه الجريدة تطبع لدى جون مور على المطبعة التى اشترتها الحكومة من شركة جريدة هيرالد. ولكن عندما أخذ فولواسار فى نقد الحكومة، رفضت الحكومة أن تطبع هذه الجريدة فى مطبعتها بعد العدد العاشر، ومن ثم فقد أخذ فولواسار يطبعها بنفسه وبقدراته الذاتية وحيث لم تكن لديه طابعة فقد استعمل شيئاً مثل المكواة المزدوجة[3]، ولذلك جاء بيان الطبع على النحو الآتى: «طبعت (فى مكواة) ونشرت على يد هنرى فولواسار المحرر والمالك الوحيد». واستمر على هذا النحو من الكفاح فى سبيلها حتى صدر العدد الثانى والأربعون فى أبريل ١٨٤٣. وقد توقف الإصدار حتى شهر نوفمبر حين حصل فولواسار على مطبعة من سيدنى

(1) Auckland Chronicle.
(2) Auckland Times, 1842.
(3) Mangle.

واستمرت الجريدة فى الصدور حتى وفاته سنة ١٨٤٦، ورغم هذه العقبات فقد استمرت تلك الجريدة أطول من سابقاتها الثلاث.

ولم تكن حياة فولواسار بدون مشاكل، ففى سنة ١٨٤٤م استدعى إلى حضرة أحد الضباط البحريين حيث اعترض وبشدة على ما كتبه من انتقادات لسلوك البحرية ضد أحد رؤساء الماورى المتمردين. ومن حسن الحظ أنه لم يحدث أكثر من هذا أثناء تبادل القذائف حيث فقد الضابط أحد أزرار زيه العسكرى وأصابت فولواسار رصاصة اخترقت فقط البالطو الذى كان يرتديه.

وكانت ثمة مطبعة خاصة فى أوكلاند، هى تلك التى أحضرها معه الأسقف «سيلوينى» إلى بيوريوا حين نقل مقر عمله إلى أوكلاند سنة ١٨٤٥ وكانت هى مطبعة كولنسو التى أشرت إليها من قبل، وقد طبع فيها نحو خمسين عملاً باللغة الماورية بين ١٨٤٥ و١٨٥٦. وفى نفس تلك الفترة أيضاً طبع ستة أعمال باللغة الإنجليزية من بينها «تقويم كنيسة نيوزيلندة»[١] الذى كان يصدر على فترات سنوية حتى ١٨٦٩ تحت بيانات طبع مختلفة حسب استخدام المطبعة نفسها، ومنها على سبيل المثال «مطبعة الكاتدرائية»[٢]، «مطبعة ميلانسيا»[٣]. ويبدو أن هذه المطبعة التاريخية قد بيعت فى مزاد علنى سنة ١٨٧٥ حيث لم نعد نسمع عنها شيئاً بعد ذلك التاريخ.

انتشار الطباعة فى ويلنجتون

دخلت الطباعة إلى ويلنجتون مع أول مستوطنة نظامية؛ حيث جاءت شركة نيوزيلندة ومعها جريدتها «مجلة نيوزيلندة والمتفرج البريطانى»[٤] وكانت أول إصدارة طبعت منها فى نيوزيلندة هى الثانية من تلك الجريدة. وقد سبقت أول جريدة فى خليج الجزر بشهرين حيث صدرت فى الثامن عشر من أبريل سنة

(1) Newzealand Church Almanac.
(2) Cathedral Press.
(3) Melanesian Press.
(4) New Zealand Gazette and Britannia Spectator.

١٨٤٠. ولذلك فقد لقب طابع تلك الجريدة ـ صامويل ريفانز ـ «أبو الصحافة فى نيوزيلندة».

وقد تعلم «صامويل ريفانز» (١٨٠٨ ـ ١٨٨٨) الطباعة فى لندن. وقد كان فى كندا حيث اشترك فى الدعوة إلى الحكم الذاتى هناك فى ثلاثينات القرن التاسع عشر. وعندما عاد إلى بريطانيا أعجب بالمشروعات الاستيطانية لشركة نيوزيلندة. تلك الشركة التى أسسها «إدوارد جبون ويكفيلد» سنة ١٨٣٩ وذلك لتنمية استيطان واستعمار نيوزيلندة، وعلى أساس أنها من الناحية النظرية شركة مستقلة بذاتها تهدف إلى الربح. وقد وجدت لنفسها فى صراع مع مكتب المستعمرات الحكومى الذى كان تحت رئاسة السير «جيمس ستيفن» يريد وضع سياسات إنسانية لحماية الأهالى وحقوقهم وأراضيهم. وقد دخل ريفانز الذى تبنى وجهة نظر الشركة فى نزاع مع الحكومة وناصر الشركة ضدها.

ومن هذا المنطلق أصدر صامويل ريفانز فى الحادى والعشرين من أغسطس ١٨٣٩م من مكتبه فى لندن أول عدد من جريدة «مجلة نيوزيلندة»[1] والتى عرفت فيما بعد بعنوان «المتفرج»[2] التى أصبح يطبعها الطابع «فرانسيس توماس ييتس» وينشرها «إدوارد رو» وكانت هناك طبعتان من هذه الأخيرة. وبعد ذلك أبحر صامويل ريفانز إلى نيوزيلندة ونزل إلى أديلاد ومعه مطبعته «كولومبيا برس» التى يمكنها أن تطبع ٢٠٠ أو ٣٠٠ نسخة من جريدة أربع صفحات فى الساعة، كما كان معه بيت سابق التجهز مساحته ٢٠ قدما مربعاً. وفى مارس ١٨٤٠م أقام منشأته على شاطئ بيتون (ويلنجتون). وقد كتب فى مذكراته يقول: «كانت حياتى نشاطاً دائماً منذ وصلت إلى هناك، فكان على أن أقيم بيت المطبعة حيث ساعدنى الناس هناك بحيث تم تركيب البيت وأقيمت فيه المطبعة فى ظروف يوم ونصف حيث قمت بالعمل أنا واثنان من النجارين وثلاثة من العمال. وفى الثامن عشر من أبريل صدر العدد الثانى من المجلد الأول من الجريدة. وكان موظفوه عبارة عن: «ييتس» و«رو» وأحد الصبية الأشراق».

(1) New Zealand Gazette.

(2) Spectator.

وعلى الرغم من انتقادات ريفانز الدائمة للحكومة ـ وربما بسبب بعد المسافة ما بين ويلنجتون عن العاصمة آنذاك أوكلاند فى الشمال ـ فقد استمرت الجريدة فى الصدور حتى ١٨٤٤ . وقد اشترى ريفانز هناك أرضاً وأصبح عضواً فى البرلمان .

انتشار الطباعة فى نيلسون

كانت المستوطنة الثانية لشركة نيوزيلندة هى «نيلسون» التى صدر العدد الأول من جريدتها فى لندن قبل أن يبحر المستوطنون إليها . وقد قامت الشركة بمساعدة الناشر «تشارلز إليوت» مالياً، هذا الناشر الذى كانت له مطابع رائجة فى لندن . وقد قام هو وأخوه «جيمس» بتوصيل المطبعة إلى نيلسون بعد وصول المستوطنين إليها بأسابيع قليلة . ولقد صدر العدد الأول من «فاحصى نيلسون»[1] فى الثانى عشر من مارس سنة ١٨٤٢ . وقد حققت هذه الجريدة قبولاً واسعاً؛ حيث كانت المطبعة مملوكة للشركة، وكانت الجريدة موالية لها وتساند سياستها ضد حكومة نيوزيلندة .

ويلقى الاقتباس التالى بعض الضوء على لمحة من حياة هذه الجريدة حيث نشر فى عدد ١٨ من يونية ١٨٤٢ مايلى : «نستأذن فى أن نخطر قراءنا أن هناك احتمالاً قوياً بأن تصبح مطبعتنا عديمة القيمة تماما وذلك لحاجتنا إلى «رولمان بلى» وهو الذى يستخدم فى تحبير الحروف المنضدة، كما أننا فى حاجة إلى دبس السكر[2] الذى لم نستطع تأمينه بسبب نقص المال . فلو كان عند أحد من القراء أى من هذه المواد الأساسية ويستطيع أن يقدم لنا ما فاض عن حاجته منها للمحبة وحيث المحبة والمال يتحدان فسوف نكون له من الشاكرين . ونحن نحتاج لدبس السكر خاصة ليس للجريدة وحدها وإنما أيضاً للفواتير والشيكات واللوائح والقوانين وكلها لصالح المجتمع الذى يجب أن نضعه فوق كل اعتبار» .

---

(1) Nelson Examiner.

(٢) دبس السكر Treacle يلزم لتنظيف الحروف بعد استخدامها فى الطبع مثل برادة اللؤلؤ.

انتشار الطباعة فى خليج هوكيس

عندما عين وليام كولنسو ـ الطابع الذى سبق ذكره كثيراً من قبل ـ شماساً سنة ١٨٤٤ وذهب لينشئ المحطة التبشيرية الجديدة فى أهوريرى على نهر ويتانجى فى خليج هوكيس، كان من الطبيعى أن يصطحب مطبعة معه. وكانت مطبعة صغيرة من ماركة ألبيون. وقد كتب فى مذكراته يقول: «كان الناس هناك مبعثرين في مساحة شاسعة واسعة للغاية وكان السفر فيها سيرا على الأقدام وحيث لم تكن هناك طرق ممهدة، ومن ثم لم أستطع أن أفيد من مطبعتى الصغيرة كما رغبت». ومع ذلك فقد طبع أربع عشرة قطعة كلها تقريباً بلغة الماورى ومرتبطة بعمل البعثة؛ وذلك فى الفترة ما بين ١٨٤٧ و١٨٥٢ تاريخ تركه لمكتب البعثة.

وكانت المطبعة الثانية فى خليج هوكيس هى تلك التى جلبها «جيمس وود» من أوكلاند. وقد طبع عليها أول عدد من جريدته «هيرالد خليج هوكيس»[1] وذلك فى الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٥٧. ولنا أن نتخيل نجاح كولنسو فى تعليم جيمس وود الطباعة.

انتشار الطباعة فى خليج تراناكى

رغم أن مقاطعة تراناكى قد بدأ استيطانها سنة ١٨٤٢م، إلا أن الطباعة لم تدخلها ولم يكن لها جريدة إلا سنة ١٨٥٢م. وفى مدينة هذه المقاطعة نيوبلايموث كانت المذكرات والأوامر تكتب بخط اليد على قطع من الورق وتلصق على سور الكوبرى الذى كان يمثل أول معرض للمدينة. وقد ارتحل إلى تلك المقاطعة الطابع وليام كولنز ـ وقد مر ذكره ـ الذى كان يعمل فى قسم الطباعة فى جريدة «بريد الصباح»[2] فى لندن، وذلك سنة ١٨٥٠م. وعندما رأى أنه لا توجد مطبعة فى تلك المقاطعة ولا توجد جريدة، ذهب إلى أوكلاند واشترى مطبعة وقد شجعته على ذلك لجنة من المستوطنين. وقد اشترى طابعة مستعملة ماركة ألبون وحروفاً مستعملة أيضاً من «جون ويليامسون». وكانت هذه المطبعة تستطيع طباعة مائتى نسخة من الجريدة فى الساعة. وقد اشترك معه فى هذا

---

(1) Hawkes Bay Herald.

(2) Morning Post.

المشروع «جارلاند وليام وون» ابن «وليام وون» طابع بعثة ويسليان (الميثوديست) والذى سبق ذكره. وكان جارلاند وليام وون قد قضى فترة تعلمه الطباعة فى مؤسسة وليامسون الطباعية. وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك حروف كافية لطباعة الجريدة مرة واحدة إلا أن «تراناكى هيرالد»[1] قد شقت طريقها إلى الصدور فى الرابع من أغسطس سنة ١٨٥٢ ومازالت قائمة حتى الآن.

انتشار الطباعة فى أوتاجو

دخلت الطباعة إلى أوتاجو فى ديسمبر سنة ١٨٤٨ بعد تسعة أشهر فقط من وصول أول فوج من المستوطنين إليها. بيد أن «أخبار أوتاجو»[2] وهى أول جريدة هناك دأبت على نقد سياسة «اتحاد أوتاجو» الهيئة الرسمية لإدارة المستعمرة، وما كان من الاتحاد إلا أن سحب الإعلانات التى كان ينشرها فيها ومن ثم أغلقت الجريدة أبوابها بعد عامين من صدورها فى ديسمبر سنة ١٨٥٠.

وقد صدر فى نفس المقاطعة جريدة أخرى أطول عمراً هى «شاهد أوتاجو»[3] التى صدر أول أعدادها فى الثامن من فبراير سنة ١٨٥١ وعاشت لمدة ثمانية أعوام تالية. وكان الطابع الأول والناشر هو «دانييل كامبل» الذى تعلم الطباعة فى مؤسسة كونستابل فى إدنبرة. وقد كان «يوليوس فوجيل» - رئيس وزراء نيوزيلندة فيما بعد - محرراً لهذه الجريدة لفترة قصيرة سنة ١٨٦١ قبل أن يصدر جريدته «تايمز أوتاجو اليومية»[4] وهى أول جريدة يومية فى نيوزيلندة. ولقد استغلت جماعات البحث عن الذهب التى تسارعت فى ستينات القرن التاسع عشر هاتين الجريدتين اللتين اضطرتا الجريدة الثالثة «المستعمر»[5] إلى التوقف عن الصدور بسبب ارتفاع التكاليف وقلة التوزيع. وكانت جريدة «الشاهد» توزع ٤٥٠٠ نسخة فى وقت ذروة الاندفاع نحو الذهب سنة ١٨٦٤. ولقد كان اكتشاف الذهب سنة ١٨٦١ هو الذى أحضر المستثمر فوجيل من أستراليا.

(1) Taranaki Herald.
(2) Otago News.
(3) Otago Witness.
(4) Otago Daily Times.
(5) Colonist.

انتشار الطباعة فى كانتربرى

قرر «اتحاد كانتربرى» عندما كان يستعد لإنزال الأفواج الأربعة الأولى من المستوطنين من السفن الأربعة التى كانت تقلهم إلى الأرض الجديدة سنة ١٨٥٠م، أن يصدر جريدة «لإمداد السكان فى المستعمرة بتعليمات وآراء الإدارة، وكذلك بالمعلومات المحلية والأخبار العامة لنيوزيلندة. . . إلى جانب المعلومات والأخبار المتعلقة بإنجلترا وأوربا، هذا فى المقام الأول أما فى المقام الثانى إمداد الحزبين الكبيرين فى الوطن الأم بالمعلومات الخاصة بمدى التقدم الذى أحرزته المستعمرة والراحة والرفاهية للمستوطنين الأوائل؛ وأكمل وأوثق المعلومات المتعلقة بكافة الإجراءات المتخذة فى مستوطنة كانتربرى».

وقد اقترح «إنجرام شرمبتون» وهو أصلاً طابع من أكسفورد كان يعمل لدى العديد من الجمعيات العلمية، أن يكون هناك تأمين ضد الخسارة، ولذلك طالب أعضاء الاتحاد بدفع مبلغ جنيه فى السنة الأولى على الأقل من سنوات الإصدار. وقد دفع شرمبتون نحو ألفى جنيه إسترلينى فى المعدات والورق والحبر اللازمة لمدة اثنى عشر شهراً. وقد شحنت هذه الأدوات والمعدات والمواد مع المستوطنين الأول وكان بين المعدات طابعة أطلاس للطباعة الفاخرة وطابعة كولومبيا لزوم طباعة الصور وطابعة استانهوب لطباعة الجريدة. وقد صحب هذه المعدات ثلاثة طابعين: «جون فيريار» رئيسا للطابعين؛ «جورج تايلور»؛ «هنرى وينكستر». وقد قام إنجرام بإرسال ابنه الأصغر جون إنجرام شرمبتون لكى يكون ممثلا له فى مشروع اتحاد كانتربرى. وقد ركبت المطبعة فى بيت من صفيح على شاطئ ليتلتون، وكان أول مطبوع طبع فيها هو مطوية عن أسس اختيار الأراضى وأول عدد من «ليتلتون تايمز»[1] الذى صدر فى الحادى عشر من يناير سنة ١٨٥١. وكان على ورق أزرق من حجم الفولسكاب ويضم إلى جانب المادة العلمية ثلاثة

(1) Lyttelton Times.

أعمدة ونصف من الإعلانات وعشرين عموداً ونصف من الأخبار. وقد استمرت هذه الجريدة فى الصدور حتى سنة ١٩٣٥، وقد نقلت إدارتها إلى كريستشيرش العاصمة الإقليمية سنة ١٨٦٣. وقد جاء شرمبتون نفسه إلى المستعمرة سنة ١٨٥٣ وباشر العمل فى المطبعة. وفى سنة ١٩٥٤م أصبحت الجريدة تصدر كل أسبوعين وقد زاد عدد صفحاتها من ثمانى صفحات إلى اثنتى عشرة صفحة فيما بعد.

ولقد صدر فى هذه المقاطعة جريدتان أخريان ولكنهما لم تعمرا طويلاً. وقد صدرت الأولى سنة ١٨٥٢ تحت عنوان «الجارديان ومعلن كانتربرى»[١] وكان صاحبها هو «جون ثاكر» وصدر العدد الأول منها فى كريستشيرش فى الثالث من يونية ١٨٥٢. ولقد كانت جريدة أسبوعية تقع فى أربع صفحات وثمنها ستة بنسات واستمرت لثلاثة شهور فقط. أما الجريدة الثانية فقد صدرت سنة ١٨٥٤ تحت عنوان «كانتربرى ستاندارد»[٢] وقد استمرت لفترة أطول حيث توقفت عن الصدور سنة ١٨٦٦. وقد توفر على طبعها ونشرها «جيمس ويليس» فى كريستشيرش. وقد وصلتنا قائمة مفصلة بمعدات مطبعة هذه الجريدة الأخرى حيث كانت تضم طابعة ألبيون قيمتها ٨٠ جنيهاً إسترلينياً، ١٣٠ رطلا من الحروف قيمتها ١٣ جنيها إسترلينياً.

المطبعة الماورية

من الفترات البديعة فى تاريخ الطباعة فى نيوزيلندة تلك الفترة التى بدأت فيها المطبعة الماورية التى يملكها ويديرها الماوريون وحدهم. وكانت حركة الملك الماورى[٣] هى آخر الحركات النضالية للماوريين ضد موجات البيض الذين يستولون بالتدريج على أراضى الماوريين فى نيوزيلندة. ففى منتصف القرن التاسع عشر كانت مملكة الماورى من القبائل القوية فى وسط الجزيرة الشمالية ـ ويكاتو ـ

(1) Guardian and Canterbury Advertiser.

(2) Canterbury Standard.

(3) Maori King Movement.

ولم يكن يقربها الرجل الأبيض حتى خمسينات القرن. وفى سنة ١٨٥٨م تم اختيار أول ملك لهذه المملكة، وفى نفس هذه السنة ١٨٥٨م وصلت إلى نيوزيلندة سفينة الاستكشافات النمساوية نوفارا وعلى متنها «فيرديناند فون هوكستتر» العالم الجيولوجى الشهير الذى جاء لدراسة جيولوجية المستعمرة الجديدة بناء على طلب من حكومة المستعمرة. ولقد استقبل هوكستتر من من قبل. الماوريين استقبالاً حسناً واتخذوه ممثلا للأجانب فى نيوزيلندة وأرسلوا اثنين من مملكة ويكاتو إلى النمسا على ظهر السفينة نوفارا سنة ١٨٥٩ وهما: «تويثو» و«تى هيمارا» من زعماء المملكة. وهناك فى النمسا استقبلهما الأرشيدوق وسمح لهما بتعلم فن الطباعة والحفر فى دار الطباعة الامبراطورية. وقد أبديا استعداداً طيبا للغاية لدرجة أن حكومة النمسا الإمبراطورية أهدتهما مطبعة حملاها معهما إلى المملكة. وعندما عادا إلى نيوزيلندة عن طريق لندن سنة ١٨٦٠م ركبا المطبعة فى المملكة لكى تصبح لسان حال حركة المملكة. وكان الشىء الوحيد الذى طبع عليها هو جريدة ماورية بعنوان «طائر الحرب النيوزيلندى يحلق عاليا»(١) وكانت كلها باللغة الماورية وكان لها تأثير كبير لصالح حركة الملك. وقد صدر منها عشرة أعداد غير منتظمة فى تواريخها وترقيمها وحجومها وذلك فى الفترة من يونية ١٨٦٢ وحتى مايو ١٨٦٣.

ولمناهضة هذه الجريدة الماورية الخالصة قام مبعوث الحكومة البريطانية لدى قبائل ويكاتو بإصدار جريدة منافسة مستخدماً فى ذلك مطبعة كانت لدى محطة جمعية مبشرى الكنيسة فى تى أواموتو. وقد أطلق السير «جون جورست» مبعوث الحكومة البريطانية هناك على جريدته اسم (العصفور الوحيد على قمة المنزل)(٢). وقد صدر من هذه الجريدة أربعة أعداد فقط ثلاثة فى فبراير سنة ١٨٦٣م وواحد فى التاسع من مارس سنة ١٨٦٣م أيضا. وفى الرابع والعشرين

---

(1) Te Hokioi o Nui Tireni e Rere atu na = The War Bird of New Zealand Soaring Above.

(2) Te Pihoihoi Mokemoke i Runga i t e Tuani = The Only Sparrow on the House - top.

من مارس جاءت كتيبة من المحاربين الماوريين واقتحمت المطبعة وبدأت بشعائر الصلاة ثم حطمت باب المطبعة وعبأت الحروف فى أكياس وأخذت الطابعة والورق والحبر وحملت كل هذا على عربة أثقال تجرها الثيران وأخذتها إلى مقر المملكة. وقد اتضح فيما بعد أن هذا العمل لم يتم بناء على طلب من الملك وإنما مجرد مبادرة من مستشاريه، ولذلك أمر الملك بإعادة المطبعة إلى الحكومة وأن يتم إصلاح أى عطب أو تلف حدث بها. وطالما أن جريدة الملك «طائر الحرب: تى هيوكيو» قد توقفت، فقد رأى المبعوث الحكومة أن يوقف «العصفور الوحيد: بيهويهوى». ولا نعرف مصير المطبعة النمساوية ولكننا نعرف أن المطبعة الحكومية قد أخذت بعد ذلك إلى أوكلاند واستخدمت فيما بعد فى: «مكتب الطبع الحكومى»[1].

المطبعة الحكومية

سبق أن ذكرت أن أول طباعة حكومية رسمية هى تلك التى قام بها وليام كولنسو سنة ١٨٣٥ عندما طبع ثلاثة منشورات إلى «المقيم» جيمس بوسباى. أحدها يتعلق بمحاولة قتل هذا المقيم نفسه والآخران يتعلقان بادعاء البارون «ثيرى» الفرنسى سيادة فرنسا على نيوزيلندة. وفى سنة ١٨٤٠ قام كولنسو كما رأينا من قبل بطباعة «اتفاقية ويتانجو» والملاحق المصاحبة لها، كما توفر على طبع جريدة «مجلة غير عادية عددا». وكانت رغبة كولنسو فى أن يصبح الطابع الحكومى قد أغضبت لجنة المبشرين واضطرته إلى العدول عن ذلك، ومن ثم فإن جيوفرى إيجر كان محظوظا عندما تولى هذا العمل وأصدر «مجلة الحكومة» سالفة الذكر.

وقد سبق القول بأن أول طابع حكومى رسمى هو جون س. مور الذى جاء إلى أوكلاند من سيدنى بناء على تعاقد تم معه. وقد قام مور بالطبع لدى الحكومة من يولية ١٨٤١ حتى الثلاثين من سبتمبر ١٨٤٢؛ وقد اشترت الحكومة مطبعته فى شهر أبريل من ذلك العام ١٨٤٢.

(1) Government Printing Office.

وكانت أول مطبعة حكومية رسمية نيوزيلندية قد أسست فى الأول من أكتوبر سنة ١٨٤٢. وبدون تسمية مدير المطبعة كانت بيانات الطبع فى المطبوعات الرسمية تسير على النحو الآتى: «أوكلاند، طبعت ونشرت لدى المطبعة الحكومية». واعتباراً من ١٨٤٤ عين مديراً للمطبعة هو «كريستوفر فولتون» تحت مسمى طابع الحكومة، وبدأ اسمه يظهر فى بيانات الطبع. ومهما يكن من أمر فقد كانت تجربة المطبعة الحكومية غير ناضجة ولم تستمر، ذلك أنه فى سنة ١٨٤٦ كانت هناك عقبات مالية وإدارية بسبب الحرب والعلاقات المتردية مع الماوريين مما أدى بالحكومة إلى طرد الطابعين وإغلاق المطبعة الحكومية. ولمدة ثمانية عشر عاماً وحتى ١٨٦٤ كان الطبع للحكومة يتم عن طريق التعاقد. وكان أول عقد كبير قد تم مع جون ويليامسون الذى كان يقوم بالطبع للحكومة فى مكتب جريدة «النيوزيلندى». تلك الشركة - ويليامسون وويلسون ١٨٤٨ - ١٨٥٧ وويليامسون فقط ١٨٥٧ - ١٨٦٣، وقد انتخب ويليامسون مشرفا عاما على مقاطعة أوكلاند - احتكرت تقريبا الطبع الحكومى طوال تلك الفترة.

وقد طبع ذلك المكتب للحكومة فى تلك الفترة دورية صغيرة بالماورية والإنجليزية بعنوان «رسول نيوزيلندة»[1]. ومن المعروف أن السلطة البريطانية قد ذهبت إلى نيوزيلندة خصيصاً لمنع استغلال شعب الماورى من جانب التجار وصيادى الحيتان، رغم أن الحكومة قد ورثت التجار وصيادى الحيتان فى هذا الصدد واستولت على أراضى الماوريين وقسمتها للبيع على النحو الذى صادفناه من قبل مما أدى إلى الحرب مع الماوريين. وكان الهدف من إصدار دورية «رسول نيوزيلندة» هو شرح سياسة الحكومة وإجراءاتها للماوريين، ورغم الصدور المتقطع والتوقف أحياناً إلا أن هذه الدورية واصلت مسيرتها حتى سنة ١٨٦٣ تحت عناوين مختلفة، ولكنها عرفت بصفة عامة تحت اسم «رسول الماوريين»[2]. وكان الطابع «و. س. ويلسون» هو الذى يتوفر على طبعها اعتباراً من ١٨٥٦ على المطبعة التى اشتراها من بعثة الأسقف «بومباليه» الكاثوليكية الرومانية.

(1) Te Karere o Nui Tirini = The Messenger of New Zealand.
(2) Maori Messenger.

وفى سنة ١٨٦٤ أسس مكتب الطبع الحكومى الذى أشرت إليه سابقاً وهو الذى مازال موجوداً إلى اليوم. وكان أول طابع - أى مدير - لهذا المكتب هو «جوزيف ويلسون» ابن «و. س. ويلسون» الطابع الحكومى بالتعاقد سابق الذكر. وقد ولد جوزيف فى تسمانيا وجاء مع والده إلى نيوزيلندة سنة ١٨٤١. وكان مرتبه ٣٠٠ جنيه فى السنة. وكانت المعدات المبدئية فى مكتب الطبع الحكومى الجديد هذا قد تم شراؤها من شركة فيجنز فى لندن وتكلفت ٨٤٤ جنيها؛ وقد ضمت طابعتى ألبيون و٧٥٠٠ رطل من الحروف، ولم يكن ذلك يكفى العمل الكبير فى ذلك المكتب، ولذلك تم ردف هذه المعدات فى أكتوبر بطابعة ألبيون أخرى وطابعة بروفات فى شهر أكتوبر من نفس ذلك العام ١٨٦٤.

وفى سنة ١٨٦٥ نقلت الحكومة مقرها إلى ويلنجتون فى جنوبى الجزيرة الشمالية، وبالتالى تم نقل مكتب الطبع الحكومى فى نفس السنة. ومن ثم ضم المعدات والحروف التى كان يستخدمها السير «جون جورست» فى «تى أواموتو» فى طبع جريدة «العصفور الوحيد» وماتزال فى حوزة المكتب حتى الآن، وقد ظل المكتب فى نمو وتوسع مع توسع ونمو مطبوعات الحكومة. وخلال فترة الركود الاقتصادى هناك خلال سبعينات القرن التاسع عشر كان المكتب يدفع مرتبات أعلى من الشركات التجارية الخاصة. وقد أنيط بالمكتب اعتباراً من ١٨٦٦م إنتاج طوابع البريد وطوابع التمغة، وفى سنة ١٨٧٠ أسس فرع ستريوتايب وإلكتروتايب؛ كما بدأت طباعة الحجر التصويرية سنة ١٨٧٣.

وصفوة القول أن الطباعة دخلت وانتشرت فى نيوزيلندة نتيجة عوامل ليست مادية اقتصادية وإنما أولاً عوامل دينية وثانياً للحاجة الماسة إلى وسيلة اتصال ديموقراطية ألا وهى الجريدة. وقد اعتمد نمو الطباعة وازدهارها اعتماداً مباشراً على النمو الاقتصادى، ولعل هذا هو السبب فى أن الجرائد الأولى فى نيوزيلندة لم تعمر طويلاً، ولأنها قامت فى البداية بلا هدف مادى فإن التربة الاقتصادية كانت ضحلة للغاية ولم تسمح لها بأن تثبت جذورها فيها.

وكانت اكتشافات الذهب واندفاعاته فى ستينات القرن التاسع عشر قد جلبت الرخاء والازدهار للجزيرتين ووهبت الاستقرار للمستوطنات الفتية؛ مما أدى أيضاً إلى استقرار الطباعة ورسوخها منذ ذلك الوقت. واستطاعت المستوطنات الكبيرة أن تنشر عدة جرائد فى نفس الوقت ولكل منها مطبعتها الخاصة. وأصبح هناك مال كاف لاستيراد المطابع واستغلالها استغلالاً تجارياً يعود بربح معقول على رأس المال المستثمر فيها. وكان لتأسيس «اتحاد أعمال الطباعة»[1] فى الستينيات من القرن التاسع عشر دلالته الحقيقية على ازدهار هذه الصناعة.

وفى الثمانينات كان الرخاء الزائف الذى جلبته اكتشافات الذهب قد ولى، ودخلت الطباعة منعطفا سيئاً حيث أصبحت حرفة من لا حرفة له. وفى سنة ١٨٧٨ أصبح هناك صبغة قانونية للاتحادات المهنية فى نيوزيلندة، وبعد سنوات قليلة سجلت اتحادات المطابع ضمن الاتحادات المهنية طبقاً لذلك القانون. وفى سنة ١٨٨١ أعيد تنظم «اتحاد أعمال الطباعة النيوزيلندى» وغدت له فروع فى المراكز الرئيسية، ولكن مع سنة ١٨٨٩م أثبت فشله، ومن ثم تم حله فى تلك السنة. وقد بدأت الأحوال الاقتصادية فى التسعينات فى التحسن النسبى نتيجة للتوسع فى الأسواق، حيث ربطت نيوزيلندة بخطوط ملاحين عديدة وأصبح من السهل عليها أن تصدر كميات كبيرة من اللحوم ومنتجات الألبان والمحاصيل الزراعية التى تنتجها. وقد ازدهرت الاتحادات مرة أخرى. ولما دخلت آلة اللينوتيب تسببت فى بطالة العديد من العمال الذين تعودوا على الجمع اليدوى. ومن المعروف أن آلة الجمع الآلى اللينوتيب دخلت إلى نيوزيلندة لأول مرة سنة ١٨٩٧ . وكان دخول هذه الآلة سببا مباشراً فى تكوين «اتحادات العمال» على أنقاض «اتحادات العمل» التى كانت موجودة حتى ذلك الوقت.

ومن الناحية الفنية البحثية لم تتخلف الطباعة فى نيوزيلندة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كثيراً عن نظيرتها فى سائر دول العالم. ففى

(1) Typographlical Association.

الستينات دخلت أول آلات طباعة من ماركة وارفديل[1]، وفى ١٨٨٣ كانت إحدى جرائد أوكلاند تطبع على آلات طبع دوارة[2] ودخلت عمليات الطبع التصويرى سنة ١٨٨٨. ودخل نظام النقطة الأمريكى[3] سنة ١٨٩٠م.

ومع دخول آلات اللينوتيب (ماركة رقم ميرجنتيلرز) فى ثلاث دور صحف نيوزيلندية مرة واحدة سنة ١٨٩٧ بدأ عصر الطباعة الحديثة فى نيوزيلندة. لقد كتب كاكستون الطباعة النيوزيلندية وليام كولنسو إلى صديق له طابع شاب سنة ١٨٩٩ قبل وفاته بوقت قصير فى سن الثامنة والثمانين يقول له: «أود أن أرى اللينوتيب وإن كنت لا أفهم فيه».

وفى ختام هذه المعالجة لدخول الطباعة وانتشارها فى نيوزيلندة قد يجمل بنا أن نقف عند قليل من البيانات الجغرافية عنها، حيث تتألف من جزيرتين: الجزيرة الشمالية ومساحتها ١١٥,٣٨٧كم٢ (٤٤,٥٦٨ ميلاً مربعاً) وفيها عاصمة نيوزيلندة الحالية ويلنجتون فى أقصى الجنوب، وكانت العاصمة القديمة هى أوكلاند وتقع أيضاً فى الجزيرة الشمالية. والجزيرة الجنوبية أكبر قليلاً من الجزيرة الشمالية ومساحتها ١٢١,٥٢١ كم٢ (٥٨,٥٢٥ ميلاً مربعاً). وفيها مستعمرات نيلسون، كانتربرى، أوتاجو.

* * *

(1) Whorfdale machine.

(2) Rotary machine.

(3) American Point System.



الطباعة باللغة المحلية واللغة اليونانية والعبرية

أسفرت عملية انتشار الطباعة فى أوربا عن آثار فكرية لا حد لها على الأمم الأوربية، ونستطيع أن نتلمس فى هذا الصدد جانبين أساسيين. **الجانب الأول** تقوية الروابط الفكرية التى تربط الأمم الأوربية أو كما كانت تسمى أمم الكومنولث الأوربى؛ ذلك أن أفكار الفلاسفة واكتشافات العلماء وقصائد الشعراء وكتابات الكتاب وغير ذلك من ثمار العقل الأوربى غدت ملكية مشاعة عامة وأصبحت التراث الثمين لكل الأمم بصرف النظر عن أصلها ومنشأ صاحبها. وأصبح مفهوم الجمهورية المسيحية فى عداد الأموات منذ اختراع يوحنا جوتنبرج الطباعة.. ذلك الاختراع الذى أعاد صياغة ذلك المفهوم ليصبح «جمهورية الفكر» حيث تمارس كل أمة نصيبها فيه إنتاجًا واستهلاكاً. **والجانب الثانى** يكمن فى أن الطباعة ساعدت على تعميق، بل حتى خلقت الشعور بالإحساس الوطنى ووضعت الحدود الوطنية على الأقل فى المجال الفكرى والنشاطات الفكرية. وكلما اتسعت دائرة القراء، كلما قل اعتماد المؤلفين والناشرين على اللغة اللاتينية المسيطرة آنذاك والتى كانت لغة الاتصال العامة فى العصور الوسطى. والجمهور العام الآن الذى وجد وسيلة سهلة للحصول على الفكر أراد أن تكون الكتب التى توصل له هذا الفكر باللغة المحلية باللغة الأم وليس بلغة الباحثين والدارسين الجافة.

لقد كان الدارسون فى تلك الأيام هم طلاب المدارس ولم تكن الكتب التى تقرأ آنذاك هى مجرد الكتب المقررة فى المدارس، كتب «شيشيرون»، «ليفى»، «فيرجيل»، «هوراس» وغيرهم من أصحاب المؤلفات التى كانت تدرس آنذاك فى مدارس القرن السادس عشر.

حقاً لقد كان مدرسو المدارس الإيطاليون يعتقدون فى ضرورة المناهج الكلاسيكية؛ ولكن كان هناك فى المدارس فى أسبانيا، هولندا، ألمانيا، تربويون يفضلون تدريس كتب المؤلفين المسيحيين المعاصرين التى لا يمكن استيعابها أسرع وأحسن من كتب الوثنيين التى لا يمكن إستيعابها بيسر. ومن هذا المنطلق تم طبع إنجيل «متى» عشر مرات قبل سنة ١٥١٢، ذلك الإنجيل الذى شرحه وعلق عليه «سبانيارد جوفينكوس»، وطبعت قصائد معاصره ونده «برودنتيوس» عشرين طبعة بين ١٤٩٧-١٥٤٠ وكانت الأماكن التى نشرت فيها هذه الطبعات هى المدن التى انتشرت فيها حركة الأنسية المسيحية وأعنى بها: ديفنتر، زويل، ليبزج، سلامانكا، باريس، أنتويرب؛ كما لم تعدم المدن ذات الطابع العلمانى نشر بعض تلك الطبعات ومن بينها نورمبرج، ليون، روون. وعندما أصر «إراسموس» على لاتينية شيشيرون كأساس للتدريس قلص بالضرورة استعمال كتبه وكتب أمثاله فى المدارس. وإن كان الاتجاه الحديث لم يلغ تماماً الحماس إزاء الكلاسيكيات اللاتينية والأعمال التى حاولت تقليدها كما فعل الشاعر «باتستا مانتوفانو» (١٤٤٨-١٥١٦) الذى كان يقلد أعمال فيرجيل، وطبع من كتابه نحو ٣٠٠ طبعة منذ ظهوره أولى مرة سنة ١٤٨٨ وحتى أيام شكسبير.

لقد بدأت نسبة الكتب اللاتينية فى القرن السادس عشر إلى الكتب باللغات المحلية تقل عنها فى القرن الخامس عشر. ففى القرن الخامس عشر كان ثلاثة أرباع الكتب المطبوعة باللغة اللاتينية والربع فقط باللغات المحلية، وكان من بين هذه الأخيرة ١/١٢ باللغة الألمانية، ١/١٢ باللغة الإيطالية. وفى إنجلترا وأسبانيا وحدهما كانت الكتب باللغة المحلية تفوق الكتب باللغة اللاتينية. وكانت نسبة الكتب اللاتينية إلى الكتب الألمانية فى معرضى فرانكفورت وليبزج للكتاب على النحو الآتى:

١٦٥٠ ــــ ٧١ : ٢٩

١٧٠٠ ــــ ٣٨ : ٦٢

١٧٤٠ ــــ ٢٨ : ٧٢

١٨٠٠ ــــ ٤ : ٦٦

أما فى مدن الجامعات فقد ظلت نسبة الكتاب اللاتينى هى الغالبة على الكتاب المحلى، والأمثلة الآتية تصور ذلك الاتجاه :

جينا ــــ ١٧٠٠ ٥٨٪ لاتينى.

توبنجن ــــ ١٧٠٠ ٨٠٪ لاتينى.

بينما فى المدن التجارية فى نفس السنة كانت النسبة الغالبة للكتب المحلية، وعلى سبيل المثال كانت نسبة اللغة اللاتينية إلى المحلية فى مدينة هامبورج ٣٧ : ٦٣.

وتكشف أوائل الكتب باللغات المحلية عن معرفة ميول الطبقات التى لم تكن تقرأ باللاتينية وكانت قادرة على القراءة باللغة المحلية وتستطيع شراء الكتب بتلك اللغات. ويأتى على رأس قائمة الكتب التى طبعت باللغة الألمانية كتاب «أولرخ بونر»[1] وكتاب «جوهان فون تبيل»[2] اللذين نشرهما «ألبرشت بفستر» فى بامبرج سنة ١٤٦١، وكلا الكتابين يتضمنان حكايات خرافية ذات مغزى أخلاقى. وقد كتب الكتاب الأول أصلاً سنة ١٣٤٩، فى حين كتب الثانى أصلاً سنة ١٤٠٥. وقد راج الكتاب الأول أساساً بين التأصيليين والدارسين باللغة الألمانية، وقد ترجم عن اللاتينية وطبعه «جوهان منتلين» فى ستراسبورج.

وفى اللغة الإيطالية كان أول كتاب بهذه اللغة هو الكتاب المقدس المترجم إليها وهما فى الحقيقة ترجمتان لا واحدة نشرتا فى فينسيا سنة ١٤٧١، مما يكشف فى حقيقة الأمر عن منافسة سريعة بين اللغات المحلية.

وفى بارما وبعد سنتين يعتذر أحد الطابعين عن رداءة طبع كتاب والإهمال الشديد فيه بقوله : لقد كان طابعون آخرون يستعدون لطبع نفس الكتاب ولذلك كان يتعين عليه أن يتعجل دفع الكتاب إلى المطبعة قبل أن «تستوى الطبخة» على حد تعبيره. كذلك طبع كتاب دانتى «الكوميديا الإلهية» باللغة الإيطالية سنة

(1) Ulrich Boner. Edelstein.

(2) Johann von Tepl. Akermann aus Böhmen.

١٤٧٢ على يد الطابع «جوهان نيومستر» فى فولجنو. وطبع قاموس إيطالى - ألمانى فى فينسيا سنة ١٤٧٧ على يد «آدم» من روتفيل مما كان له أهمية خاصة، إذ كان أول قاموس بلغتين حيتين. وكان من بين أوائل الكتب التى نشرت بلغتين طبعات «آيسوب» اللاتينية الألمانية التى طبعها «جوهان زينر» فى أولم ١٤٧٦ - ١٤٧٧، وطبعات «كاتو» التى طبعها «بامار» فى أوجسبرج سنة ١٤٩٢.

وقد استخدمت اللغة الفرنسية واللغة الدنمركية فى المطبوعات لأول مرة فى طباعة الحوليات الوطنية : حوليات فرنسا.- باريس: ١٤٧٧[1]؛ الحوليات الدنمركية.- كوبنهاجن، ١٤٩٥[2]. وكان أول كتاب باليونانية الحديثة هو ترجمة إلياذة «هوميروس» التى نشرت فى فينسيا سنة ١٥٢٦.

ورغم أن جنيف ليس لها باع طويل فى أوائل المطبوعات إلا أنها من أكثر المدن نشراً باللغة المحلية، حيث أن ثلث ما طبع فيها من أوائل المطبوعات كان باللغة المحلية. ذلك أن الكتب الأربعة الأولى التى نشرت فى سنة واحدة - ١٤٧٨م - لطابع من جنيف هو «آدم شتاينشابر» الذى تخرج فى جامعة إيرفورت جاءت كلها باللغة الفرنسية: كتابان منها فى اللاهوت مترجمان عن القطالونية واللاتينية إلى الفرنسية والآخران عبارة عن روايتين رومانسيتين كتبتا أساساً بالفرنسية. وقد كان نشرا لروايات الرومانسية هو من ملامح النشر لدى الطابعين فى جنيف وربما كان ذلك بسبب إقبال القراء هناك على هذا النوع من الكتب منذ رواج أول رواية هناك سنة ١٤٨٠[3].

وتقف إنجلترا فى مكانة بارزة فى مجال الطباعة باللغة المحلية ولها فيها باع ونصيب كبير، وإنجلترا هى الدولة الوحيدة فى كل العالم المسيحى الذى جعل لغته لغة حية على الدوام منذ القرن السابع وحتى القرن الثانى عشر واستخدمها فى الشعر والنثر، فى حين أن الدول الأخرى على أرض القارة كانت تستخدم

---

(1) Chroniques de France.- Paris, 1477.

(2) Dankse Rym-Kronicke .- Copenhagen, 1495.

(3) Roman de La Rose.- 1480.

اللاتينية. وقد دخلت إنجلترا إلى حقبة الطباعة بفيض من الكتب باللغة الإنجليزية. وقد ألقى الملك «ألفرد» بهذا العبء الثقيل على كاهل ويليام كاكستون الذى كان ثلاثة أرباع الكتب التى نشرها باللغة الإنجليزية أو مترجمة إليها. وقد واصل الطابعون الإنجليز نفس المسيرة بعد ذلك، بحيث كانت الغلبة دائماً للغة الإنجليزية على اللغة اللاتينية منذ البداية.

وفى إنجلترا كما فى مناطق أخرى كثيرة يجب أن ننبه إلى أن الطباعة قد حافظت وقننت اللغة المحلية ولم تخلقها، فى حين أنه فى دول صغيرة وضعيفة اقتصادياً وسكانياً أدت الطباعة إلى اختفاء لغتهم الأصلية. والعامل الذى حافظ على استمرار لغة الويلش هو حرص أهلها على طباعة الكتب بها منذ سنة ١٥٤٦. وأول كتاب طبع بلغة الويلش (الكمرية) عبارة عن مجموعة صلوات بدون عنوان وإنما تعرف بكلمات البداية «فى هذا الكتاب»[1] وقد طبع فى لندن على يد «إدوارد ويتشيرسن» وبتمويل من معهد دراسات العاديات الويلزية الذى كان يرأسه السير «جون برايس». وكان أول كتاب يطبع داخل ويلز نفسها بلغة الويلش كان عبارة عن بعض الأغنيات (البالاد) التى توفر على طباعتها «إسحق كارتر» فى تريهيدن سنة ١٧١٨. ويعزو بعض الثقاة بقاء لغة الويلش اللغة الكلتية الوحيدة على قيد الحياة إلى الترجمة الرائعة للكتاب المقدس إلى تلك اللغة على يد الأسقف «ويليام مورجان» (١٥٨٨)، الذى جمع مفردات الشعر الملحمى الغنية المرنة مع الترانيم الساحرة فى ترجمة «جيروم» للكتاب المقدس، وكتاب جنيف المقدس. إنه بهذا العمل وضع قوالب قياسية يسير فيها النثر الويلزى كما فعل «مارتن لوثر» فى كتابه المقدس بالنسبة للغة الألمانية وكما حدث بالنسبة للترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس فى اللغة الإنجليزية.

وفى نفس هذه الفترة أيضاً فى أيرلندا ومع استقرار الكنيسة الوطنية فى العصر الإليزابيثى، دخلت اللغة الأيرلندية هى الأخرى كلغة طباعة. ففى سنة ١٥٦٧م أو قبلها أمرت الملكة إليزابيث الأولى بتصميم أبناط خاصة أيرلندية لطبع العهد الجديد وبعض الكتب التعليمية الإنجيلية بها، ولكنها استخدمت أول ما

---

(1) YnyLhyvyr hwnn.

استخدمت فى طباعة «الشعر الغنائى الأيرلندى» وذلك «فى يوم الحساب على يد شاعر ملحمى أيرلندى على العقيدة الرومانية سنة ١٥٧١». وكانت نتيجة تصميم هذا الحرف الأيرلندى على عكس ما قصدت إليه الملكة إليزابيث الأولى وكما يحدث عادة فى كل أنشطة الحكومة البريطانية إزاء الشئون الأيرلندية، فبدلاً من تحويل الكنيسة الأيرلندية إلى الكنيسة الإنجليزية أصبحت الحروف (الجايلية)[١] الأيرلندية سلاحاً قوياً ضد الكنيسة والدولة فى إنجلترا. وربما كان الفكر الأيرلندى والسياحة الأيرلندية أيضاً سوف يصبحان أحسن حالاً بدون دخول هذا الحرف الأيرلندى إلى كتابة اللغة الأيرلندية، لأن هذا الحرف يقف حائلاً دون فهم تلك اللغة الجميلة فهماً صحيحاً لأن له وظيفة زخرفية أكثر منها عملية. ولكن للأسف الشديد نشأ اقتصاد جديد لدى مصممى هذا الحرف ولدى المسابك التى تصبه مما يصعب معه العدول عنه. وبالنسبة للغة الكورنيش التالية للغة الويلش واللغة الأيرلندية كلغة محلية فإنها للأسف لم تجد فكراً يكتب بها أو وجدت فكراً قليلاً.

وقد حدث نفس الشيء بالنسبة للغة الباسك فى أسبانيا، وهى لغة أثرية فى أيبريا القديمة والتى بدأ الطبع بها مبكراً فى سنة ١٥٤٥م، وبالتالى كتبت لها الحياة والنجاة من الاندثار رغم غلبة وتفوق اللغة الأسبانية كوسيلة اتصال. كذلك فإن استمرار استخدام اللغة القطالونية يرجع إلى أن المطابع الأولى فى أسبانيا قد أسست أصلاً فى منطقة قطالونيا. وكانت الكتب الأولى المطبوعة فى أسبانيا هى باللغة القطالونية. وأول هذه الكتب «مجموعة قصائد على شرف العذراء المباركة» سنة ١٤٧٤؛ وترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة القطالونية سنة ١٤٧٨. ولقد قاسى كتاب بلنسية المقدس[٢] الأمرين إذ تم حرقه على يد هيئة التحقيق[٣] لأسباب عرقية أكثر منها أسباب دينية، والنسخة الوحيدة التى نجت من المحرقة، هلكت هى الأخرى عندما احترقت المكتبة الوطنية فى استوكهلم سنة ١٦٩٧ حيث كانت تلك النسخة مقتناة.

(1) Gaelic.

(2) Valencia Bible.

(3) Inquisition.

وحتى فى دول البلطيق والبلقان، وحيث كانت قبضة الثقافة والاقتصاد الألمانيين هى الأقوى، كان الجهد الأول والأثر الأعمق للطباعة هو إحياء اللغة والأدب المحلى فى تلك الدول. ومن هنا فقد تم إحياء اللغات والآداب: اللتوانية، اللاتفية، الاستوانية، الفنلندية خلال القرن السادس عشر. وقد استوعب الألمان والبولنديون والسويديون فى تلك المناطق، تلك اللغات والآداب كما استوعبتها القبائل البروسية والبوميرية، والكورلاندية من قبل. وهناك ترجمة لتوانية من «كتاب لوثر التعليمى»[1] طبعت سنة ١٥٤٧ فى كونجزبرج. وكتاب تعليمى آخر باللغة اللاتفية طبع فى فيينا سنة ١٥٨٥؛ وكتاب تعليمى ثالث طبع بالاستوانية سنة ١٥٣٥ فى ويتنبرج. أما كتاب «الدليل» الذى ألفه بالفنلدنية الأسقف أجريكولا فقد طبع فى استوكهولم ١٥٤٢. لقد كانت تلك هى الكتب الأولى التى طبعت بتلك اللغات الوطنية أو المحلية وقد طبعت أساساً خارج أوطانها. وعلى سبيل المثال فإن الطباعة لم تدخل إلى فنلندا إلا سنة ١٦٤٢. ولقد عانت لغات تلك الأوطان كثيراً حتى نشأت فيها آداب تستطيع الوصول إلى العالمية كما حدث للكاتب الفنلندى الذى حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٣٩ فى الآداب وهو : سيلانبا.

لقد كان قدر اللغات التى تحدثتها القبائل الجرمانية فى ظلال الإمبراطورية الرومانية المقدسة مرهوناً باستخدام الطباعة لها. فالأراضى الواطئة التى انسلخت رسمياً عن الإمبراطورية الرومانية سنة ١٦٤٨ وكونت لها لهجة فرنكية واطئة متميزة عن اللغة الهولندية العادية بعد طبع العهد القديم باللغة الهولندية (دلفت سنة ١٤٧٧)، وبعد ترجمة لوثر للعهد الجديد سنة ١٥٢٣ وطباعته فى أنتويرب. أما سويسرا ـ التى ظلت حتى سنة ١٦٤٨ ولاية اسمية فى الإمبراطورية الألمانية ـ قد اتخذت طريقاً مغايراً فقد حافظت طبعة زيورخ من العهد الجديد على النص الذى ترجمه لوثر، ولكن هنا وهناك ثبت كلمات وجمل جرمانية. وقد سار معظم الإنتاج الفكرى السويسرى على هذا المنوال منذ ذلك الحين. وقد باءت بالفشل كل محاولات رفع اللغة «السويسرية الألمانية»، أو «الألمانية السويسرية» بمعنى أدق إلى مستوى لغة الكتابة.

---

(1) Luther Catechism.

وكانت المستعمرات الألمانية النائية فى أوربا - فى ترانزيلفنيا ودول البلطيق - قد طورت لها لغات خاصة متقنة من الألمانية، كما حدث فى الأراضى الواطئة ولكنها لم تستخدمها كلغات طباعة بل بقيت فى حظيرة اللغة الألمانية الأم وتحت عباءتها. كما قبلت كتاب لوثر المقدس كما ترجمه، ولم تغير فيه.

إن الأمثلة السابقة تكشف عن تأثير انتشار الطباعة على استخدام اللغات المحلية فى الإنتاج الفكرى. ولقد لعب الكتاب المقدس الذى ترجمه مارتن لوثر دوراً كبيراً فى ترجمة هذا الكتاب إلى لغات محلية أخرى كثيرة فى القرن السادس عشر، بل ولعب دوراً أساسياً فى نشر الكتب الأخرى بتلك اللغات. ففى ألمانيا حتى سنة ١٥١٧ - وهى السنة التى نشر فيها لوثر ٩٥ رسالة أى بحثاً - كانت الكتب المنشورة باللغة الألمانية تزيد سنة بعد أخرى، ويمكن تتبع بعض السنوات على النحو الآتى :

١٥١٩ ــــ ١١١ كتاباً

١٥٢١ ــــ ٢١١ كتاباً

١٥٢٢ ــــ ٣٤٧ كتاباً

١٥٢٥ ــــ ٤٩٨ كتاباً

ومن بين كتب سنة ١٥٢٥ كان هناك ١٨٣ عملاً لمارتن لوثر نفسه، ٢١٥ لمصلحين آخرين، ٢٠ لعناصر من طائفة الإيمان الجديد. أما الثمانون كتاباً الباقية فكانت لمؤلفين علمانيين فى موضوعات علمانية. ولابد من التنبيه هنا إلى أن متوسط الكتب التى كانت تنشر فى ألمانيا كان يدور حول أربعين كتاباً فى السنة.

وحتى سنة ١٥٠٠ كانت هناك خمسون ترجمة للكتاب المقدس مطبوعة باللغات المحلية وكان معظمها باللغة الألمانية مقارنة بمائة طبعة من الكتاب المقدس باللغة اللاتينية. وبعد سنة ١٥٢٢ كانت لكل أمة أوربية ترجمة الكتاب المقدس بلغتها ويمكن تعقبها على النحو الآتى :

هولندا	١٥٢٣ و ١٥٢٥	(العهد الجديد، العهد القديم على التوالى).
إنجلترا	١٥٢٤ و ١٥٣٥	(العهد الجديد لتنديل، الكتاب الكامل لكوفرديل).
الدنمرك	١٥٢٤ و ١٥٥٠	(العهد الجديد - الكتاب الكامل).
السويد	١٥٢٦ و ١٥٤٠ - ١٥٤١	(العهد الجديد - الكتاب الكامل).
فرنسا	١٥٣٥	(الكتاب الكامل).
أيسلندا	١٥٤٠ و ١٥٨٤	(العهد الجديد - الكتاب الكامل)
المجر	١٥٤١	(الكتاب الكامل)
أسبانيا	١٥٤٣	(الكتاب الكامل)
كرواتيا	١٥٤٣	(الكتاب الكامل)
فنلندا	١٥٤٨ - ١٥٥٢	(الكتاب الكامل)
بولندا	١٥٥٢ - ١٥٥٣	(الكتاب الكامل)
سلوفينيا	١٥٥٧ - ١٥٨٢	(الكتاب الكامل)
رومانيا	١٥٦١ - ١٥٦٣	(الكتاب الكامل)
لتوانيا	١٥٧٩ - ١٥٩٠	(الكتاب الكامل)
تشيك	١٥٧٩ - ١٥٩٣	(الكتاب الكامل)

وبعد أن قوى الطابعون «حاجز أو حائط اللغة» بين دول وأخرى طفقوا يحطمون اللهجات واختلافات النطق داخل اللغة الواحدة، سواء فى المفردات أو قواعد اللغة أو التركيبات اللغوية. وعلى سبيل المثال فإن كانت **«إنجليزية الملكة»** هى التى سادت فى إنجلترا بين لهجات كنت، لانكشاير، نوثمبرلاند وسائر اللهجات ذات الأهمية والتى اختفت، فإن الفضل فى هذا إنما يرجع إلى ويليام كاكستون وإخوانه فى فن الطباعة. ولقد كان كاكستون هو الذى تغلب على مشاكل اللهجات الإنجليزية المتوسطة، وتبنى لغة لندن والمقاطعات الأم، ومن ثم وضع المعيار الذى استمر حتى الآن.

وكان كاكستون واعياً تماماً للخدمة التى يؤديها للغة الإنجليزية الموحدة، وكان يضرب أمثلة رائعة فكاهية أحياناً وساخرة أحياناً ثانية وتراجيدية أحياناً ثالثة على الاختلاف فى الكتابة والنطق الذى يحطم اللغة تحطيماً. وقد استمر «وينكن دى» ويرد فى نفس هذا الاتجاه، ذلك أنه عندما قرر إصدار طبعة من كتاب «بارتولوميوس أنجليكوس» سنة ١٤٩٥ استخدم نسخة مخطوطة مكتوبة قبل ذلك التاريخ بخمسين سنة واضطر إلى تغيير كل الكلمات التى لا تسير مع المعايير التى وضعها كاكستون من قبل. وكان وينكن دى ويرد أول من وضع دليلاً طباعياً مكتوباً بذلك حتى يتجنب عدم الاتساق بين المؤلفين المختلفين.

لقد أدى تقييس اللغة الإنجليزية ومعايرتها تحت تأثير الطباعة إلى توسع ضخم فى مفردات اللغة وتطور الصرف وعلم التراكيب منها، كما أدى إلى هوة سحيقة بين اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة؛ تلك الهوة التى ضاقت اليوم فى نهاية القرن العشرين، بل وتلاشت. كما أدى إلى ضغط وطى أية اختلافات محلية أو إقليمية فى اللغة على الرغم من أن عدداً كبيراً من الكلمات الإقليمية والمحلية رفعت إلى مستوى اللغة الوطنية ودخلت فيها. وعلى سبيل المثال كان سير «والترسكوت» يضطر فى كثير من الأحيان أن يشرح لقرائه الإنجليز بعض الكلمات الاسكتلندية التى تتردد فى كتاباته، وبعد ذلك دخلت إلى اللغة الأم وطبعت فى داخلها. ويحاول الأمريكيون على الجانب الآخر من المحيط أن يخلقوا لهم لغة مختلفة عن اللغة الإنجليزية الأم، وقد ظهر هذا الاتجاه جلياً فى تبسيط النطق وتبسيط الكتابة وبعث ألفاظ إنجليزية قديمة، واستحداث ألفاظ جديدة مولدة تغص بها المجلات الشعبية والأفلام والأغانى مما يدخل فى باب تطوير اللغة. وهل ينجح الأمريكيون فى ذلك وقد استقرت اللغة الإنجليزية فى صرفها ونحوها وتراكيبها منذ القرن السادس عشر الميلادى. ومنذ طبعت كتب النحو وأصبحت متاحة فى يد كل تلميذ وطالب ـ وكانت كتب النحو اللاتينى والإنجليزى من أوائل الكتب التى خرجت من المطابع ـ أصبحت هناك معايير ثابتة ومرعية

لدى الكافة للصحيح والخاطئ فى اللغة. وكانت القواعد التى تقرها كتب النحو وقواميس اللغة بمثابة الحاجز الذى منع التطور غير المقنن للغة على الأقل بعد ظهور الطباعة وانتشارها.

إن أحسن تعبير عن دور الطباعة فى تقييس اللغة ومعايرتها وتقنينها ـ والمثال هنا من اللغة الإنجليزية ـ يمكن أن نصادفه فى الهجاء الحديث للغة، ذلك أنه حتى اختراع الطباعة كان هجاء اللغة يتم صوتياً، أى أن كل كاتب أو مؤلف كان يكتب الألفاظ على الرق أو على الورق كما سمعها (على الرغم من أن مناسخ الأديرة ودواوين البلاطات كانت تحاول جاهدة توحيد الكتابة). ولكن الطابع الحديث يعتمد فى هجاء الكلمات على الأسلوب الذى وضعه هوراس هارت وكولنز. وكان «ميلتون» هو آخر المؤلفين الذين جرأوا على الخروج على طريقة الطابعين فى الهجاء[١].

وإن كان ثمة خروج أمريكى على اللغة القياسية فإنه يوازنه مكاسب أخرى كثيرة، فإنجليزية الملكة كما ثبتها وليام كاكستون وإخوانه فى الطباعة قد أصبحت وسيلة التعبير والتفكير ـ أى الكتابة ـ لدى مئات الملايين من البشر ـ إن لم يكن مليارات ـ فى جميع أنحاء العالم. وكل كتاب وكل جريدة تطبع بالإنجليزية تصل وتفهم من جانب الكوكنى (ساكن لندن) والكندى والكاليفورنى وساكن ويللنجتون وساكن نيوثاوث ويلز والهند وغير ذلك من قراء الإنجليزية كلغة أم أو لغة أجنبية، بصرف النظر عن اختلاف اللهجات وطرق النطق.

إن نفس تأثير الطباعة على اللغة نصادفه فى تطور اللغة الألمانية واللغة الإيطالية. ففى العصور الوسطى كانت اللغة الألمانية السفلى واللغة الألمانية العليا لغتين مختلفتين. ولقد لجأ طابعو كتاب لوثر المقدس إلى خليط حاذق ماهر وأريب من اللغة الألمانية العليا والوسطى والسفلى والذى اعتبر أصل **«الألمانية القياسية»** التى لم تلبث أن قلصت اللغات الأخرى إلى مجرد لهجات فقط. كذلك كانت

(١) على سبيل المثال hee بدلاً من he؛ eggys بدلاً من eggs؛ wyfe بدلاً من wife ويقاس عليها:
hee coude speke no frensh;
hee Vnder stod hym wel.

ترجمة «جوهان إستومبف» للتاريخ السويسرى من اللغة الألمانية السويسرية إلى لغة الدواوين الإمبراطورية والساكسونية التي طورها وعممها «كريستوف فروشاور» وجعلها لغة النشر سنة ١٥٤٨، هذه الترجمة إلى هذه اللغة كانت خطوة رائعة جعلت للكتاب شعبية كبيرة فى عموم سويسرا.

وحدث نفس الشىء فى إيطاليا حين استُخدم اللسان التوسكانى أى اللهجة التوسكانية فى كتابة وطبع «خطابات أنيبال كارو»[١] سنة ١٥٧٢-١٥٧٥؛ وقاموس أكاديمية تروسكا[٢] سنة ١٦١٢. هذه اللهجة لم تلبث أن تبناها الطابعون الإيطاليون جميعاً ومن ثم خفضت كل المزاعم المناوئة من جانب اللهجات الأخرى مثل لهجة روما، لهجة نابكى، لهجة لومبارد وغيرها من اللهجات الإيطالية.

هذا الاتجاه العام نحو توحيد اللغة وتقييسها لم يرض بطبيعة الحال كل مصلحى هجاء اللغة. ولقد بدأت صيحاتهم تتعالى من مطلع القرن السادس عشر. وعلى سبيل المثال طالب «ترسينو» فى سنة ١٥٢٤ بإدخال بعض حروف اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية لإظهار الفرق بين النواطق المفتوحة والنواطق المغلقة مثل O,W. وقد نجح فى ملاحقة الطابعين لتبنى اقتراحه العادل فى استخدام u و A للنواطق، واستخدام V,j للصوامت وقد أصبح ذلك هو القاعدة منذ ذلك الحين.

وفى فرنسا وضع «روبرت إستين»، كما أشرت إلى ذلك سابقاً، قواعد علامات النطق سنة ١٥٣٠م. وتمنى النحويون الفرنسيون لو كان أكثر جرأة فى إصلاحاته، ولكنه كان متحفظاً ولم تكن لديه جرأة التحديث التى أقدم عليها «لونسى ميجريت» ١٥٤٢، «جال بلتيير» ١٥٥٠، «هونوراث رامبود» ١٥٧٨م الذين قدموا إصلاحات جذرية فى هجاء اللغة الفرنسية. وفى إنجلترا كان كتاب تشارلز بتلر «تاريخ النحل»[٣] الذى نشر فى أكسفورد سنة ١٦٣٤م أول كتاب يتمرد على قواعد كاكستون ولا يعمل بها.

(1) Annibale Caro. Lettre Familiari.- 1572-1575.

(2) Accademia della Crusca. Vocabolario.- 1612.

(3) Charles Butler. History of the bees.- Oxfrd, 1634.

ولعل الكذبة الكبرى التى وقع فيها كل مصلحى الهجاء أنهم حاولوا جاهدين كما قال «آلان هربرت» ذات مرة فى البرلمان الإنجليزى «أن يجعلوا وظيفة الكلمة المكتوبة أو المطبوعة تمثل تماماً الكلمة المنطوقة، وأكثر من هذا قالوا بأن الوظيفة الحقيقية للكلمة المكتوبة أو المطبوعة هى أن تحمل المعنى من جهة، وأن تحمل إلى أكبر عدد ممكن من الناس نفس المعنى من جهة أخرى».

إن كل محاولات إصلاح الهجاء تبوء بالفشل إذا تجاهل أصحابها أهم عامل فى هذا الإصلاح، وأعنى به الطابع، وهو العنصر المحافظ فى القضية كلها. ويعتقد البعض أن «قواعد هوراس هارت للمنضدين»[1] أى جامعى الحروف سوف تستمر فى التغلب على كل النشرات والقواعد التى قالت وتقول بها «جمعية تبسيط الهجاء»[2] ورغم أن جريدة تايمز تتهجى لغتها كما يتكلمها الملك هنرى الثامن، إلا أنها تقرأ وتفهم بواسطة ملايين الناس الذين يتفاوت نطقهم من الرطانة الإنجليزية السوقية إلى الأمريكية إلى الكوكنى إلى الاسكتلندية إلى «إنجليزية الملكة».

الطباعة باللغتين اليونانية والعبرية

عندما قرر «ألدوس مانتيوس» سنة ١٤٩٠م أن يجعل طباعة وتحرير ونشر أعمال المؤلفين الإغريق شاغله الشاغل كانت أول مشكلة تواجهه هى كيفية تصميم وسبك الحرف اليونانى. وكانت الألفاظ اليونانية التى تتخلل نصوص المؤلف اللاتينى شيشيرون قد حملت الطابعين منذ البداية على تصميم حروف يونانية وإضافتها إلى أبناطهم اللاتينية على نحو مافعل كل من «شوفر» فى سوبينهايم و«بنارتز» سنة ١٤٦٥، وبعد أن كانت تضاف بخط اليد فى فراغات تترك لذلك خصيصا بين الكلمات اللاتينية المطبوعة. وكان الطابعون عادة ما يستخدمون حروفاً لاتينية للحروف اليونانية المشابهة فى المظهر والشكل والمشتركة بين الأبجديتين مثل A,B,E,H,O,P,C,T,X,Y ، وقصروا استحداث القوالب فقط للحروف اليونانية الصرفة مثل Δ وغيرها. وكان «جنسون» هو أول من استخدم

أبجدية يونانية كاملة على غرار الأبجدية اللاتينية سنة ١٤٧١ وكانت حروفه رائعة. وكان أول كتاب يطبع كله باللغة اليونانية كان كتاب «قسطنطين لاسكاريس» فى النحو اليونانى والذى طبع فى ميلانو سنة ١٤٧٦. وقد ظلت ميلانو منذ ذلك التاريخ المركز الرئيسى لطباعة اللغة اليونانية. وكان «ديمتريوس كالكونديلاس» الكريتى الذى كتب المقدمة اللاتينية لكتاب لاسكاريس سابق الذكر هو نفسه الذى حرر أول كتاب باليونانية لهوميروس وكان الكتاب مهدى إلى «لونزو دى مديتشىْ». وقد نشر الكتاب فى مجلدين من القطع الكبير فى فلورنسا ١٤٨٨-١٤٨٩. وقبل ذلك التاريخ قدم «إيرهارد راتدولت» مجموعة كاملة من الحروف اليونانية فى فرخ العينات التى طبعها سنة ١٤٨٦. وكل هؤلاء الفنانين حاولوا فى وقت مبكر تطويع الحرف اليونانى ليتمشى مع الحرف اللاتينى وينسجم معه من حيث الشكل. وربما كان أحسن تصميم للحرف اليونانى هو ذلك الذى ابتدع فى مدينة القلعة الأسبانية (الكالا) وسمى باسمها والذى صممه «آرناو جويلين دى بروكار» سنة ١٥١٤ وطبع به الأجزاء اليونانية من الكتاب المقدس متعدد اللغات الذى أعده الكاردينال «زيمينس» على نحو ما سبق أن ذكرناه خلال حديثنا عن الطباعة فى أسبانيا. وقد بنى هذا التصميم على أساس النموذج الذى قدمه البابا «ليو العاشر» للكاردينال لهذا الغرض خصيصاً.

ولسوء الحظ فإن ألدوس مانتيوس الذى قدم فى الطباعة اللاتينية الحرف المضلع الذى جعل منه رائداً فى هذا المجال، قاده إلى محاولة إدخال حرف مبتكر أيضاً فى الأبجدية اليونانية. وبدلاً من أن يتبنى الحرف الذى صممه الطابع الفينيسى «جيوفانى روسو» سنة ١٤٩٢م اختار ألدوس خط اليد الذى كان يكتب به زملاؤه الباحثون، ولذلك جاء الحرف الجديد قبيحاً فيه إهمال شديد ملىء بنتوءات وبروزات ومن ثم فقد هجر هذا الحرف بعد فترة.. حقاً لقد كان مريحاً للقراء المثقفين من أرباب القلم، ولكن لهذا السبب افتقر هذا الخط إلى الوضوح والنظام والشخصية التى هى سمات أى خط يحتاج إلى الانتشار بين العامة.

ومن مطبعة ألدوس مانتيوس صدرت تباعاً الطبعات الأصلية[١] من أعمال المؤلفين اليونانيين: موسايوس، ثيوقريطس، هيسويد ١٤٩٥، أرسطو ١٤٩٥-١٤٩٨، أرستوفانيس ١٤٩٨، ثيوكيديدس، هيردوت، سوفوكليس ١٥٠٢، أفلاطون ١٥١٣ وأكثر من عشرين مؤلفاً آخرين خلدت أعمالهم ألدوس مانيتوس على الأقل كباحث إن لم يكن كطابع.

وكانت سابقة ألدوس فى الحرف اليونانى سيئة الحظ قد تركت آثارها على الطباعة اليونانية عموماً إذ اتخذها بعض الطابعين نموذجاً يبنى عليه على نحو ما فعل «كلود جاراموند» عندما صمم حروفاً يطبع بها للملك «فرانسوا الأول» ملك فرنسا، ولذلك لم يجد حرف جاراموند انتشاراً لأنه كان عريضاً وغير اقتصادى، مما اضطر جاراموند إلى تصميم حرف يونانى جديد ظل السائد لفترة طويلة حتى جاء «روبرت بروكتور»، «جان فان كريمبين»، «فيكتور شولدرر» وأنتجوا مجموعات رائعة من الحرف اليونانى تضاهى أروع الحروف اللاتينية.

ولقد ظلت المجموعات الثلاثة من الحروف اليونانية التى أبدعها المصممون الثلاثة سابقو الذكر ملكاً لملك فرنسا وكان يطلق عليها الحروف اليونانية الملكية[٢] وبعد فترة من الزمن اتخذت طريقها إلى المطبعة الوطنية، ولكن الأمهات نفسها وضعت تحت تصرف الطابعين الذين يريدون صنع حروف منها بشرط أن يذكروا فى كتبهم عبارة «الحروف الملكية»[٣]. والحقيقة أن هذه الحروف الملكية من الناحية الطباعية كانت تفوق كثيراً حروف ألدوس مانيتوس من حيث استواء اللون عند الطبع، ومن حيث حدة السبك ومن حيث انتظام الحروف وتوضيبها. وهى تعتبر تطوراً عظيماً فى تصميم الحرف اليونانى مما حدا بأحد الثلاثة ـ روبرت بركتور ـ أن يقول عنها إنها أعظم حرف يونانى من نوعه على الإطلاق. وربما جاء هذا التقريظ لأن الحرف الذى صممه جاراموند هو الآخر بناه على خط يد أحد معاصريه من الإغريق واشتمل هو الآخر على كثير من النتوءات والالتوءات

(1) Editiones Principes.
(2) grecs du roi.
(3) typis regis.

أكثر مما وجد فى حرف ألدوس. وكان الخطاط الذى صمم الحروف الملكية قد حصل على لقب الأستاذية من الملك. وكان روبرت إستين هو أول طابع يسمح له باستخدام الحروف اليونانية الملكية. وقد طبع فى أربعة كتب من تأليف «يوسبيوس» (١٥٤٤-١٥٤٦) وثلاث طبعات من العهد الجديد (١٥٤٦-١٥٥٠)، استخدمت فى كل طبعة منها إحدى مجموعات الحروف. وقد استخدم روبرت إستين كل هذه المجموعات الثلاثة فى طبعته من كتاب «أبيان»[1] سنة ١٥٥١. ومن الغريب بعد ذلك أن يعين إستين طابعاً وتاجراً للكتب العبرية واللاتينية سنة ١٥٣٩، وحيث كان لقب الطابع الملكى للكتب اليونانية هو السائد، وقد حصل عليه «كونراد نيوبار» من كولون. وبعد وفاة نيوبار سنة ١٥٤٠م أطلق إستين على نفسه لقب الطابع الملكى.

وكما كانت إيطاليا هى موطن الحرف اليونانى كانت أيضاً موطن الحرف العبرى. وربما يرجع ذلك إلى أن الباحثين اليهود والحرفيين اليهود والممولين اليهود، كانوا موجودين على الساحة الفكرية والتجارية للطباعة منذ بدء اختراعها. وكما جاء الطابعون الألمان إلى إيطاليا بالعشرات لمدة طويلة أو قصيرة وانتشروا فى مدن إيطاليا الكبيرة والصغيرة على السواء فإن اليهود الذين كانوا موجودين فى طول شبه الجزيرة وعرضها كانت أمامهم الفرصة ليرقبوا الألمان وهم يبدعون المطبوعات. وقد ظهرت أول المطبوعات بالحروف العبرية ابتداءً من ١٤٧٥ فى عدد من الأماكن. وكان «أبراهام بن جارتون» من ريجيو دى كالابريا و«ميشولام» من بييف دى ساتشو هما أول الطابعين اليهود. ففى سنة ١٤٧٥ طبع أولهما شرحاً وتعليقاً على أسفار موسى الخمسة[2]، وطبع الثانى مجموعة قوانين يهودية. وكانت مانتوا، فيرارا، بولونيا، سونسيكو هى الأماكن التالية التى أتت منها المطبوعات باللغة العبرية. ومن بين تلك الأماكن تظهر قرية سونسينو بالقرب من كريمونا وقد اكتسبت شهرتها الخاصة بسبب أسرة الطابعين

(1) Appian.- 1551.

(2) Pentateuch.

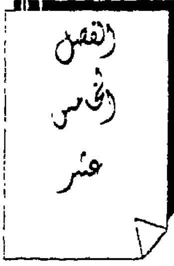
التى سكنتها وأخذت اسمها منها. وقد جاءت أسرة سونسينو أصلاً من ألمانيا (من سبيير فى البلاتينيت أوفيرث بالقرب من نورنبرج. وقد قام إسرائيل (توفى ١٤٨٩) باحتراف الطباعة بعد فشل مشروعاته البنكية. وقد أقام ابنه «جوشوا» مطبعة فى نابلى ولكنه مات مبكراً فى سنة ١٤٩٢. وقد أصبح ابنه الأصغر جيرسون «أعظم طابع أنجبته الدنيا على الإطلاق». وهو ككل الطابعين الأوائل كان دائماً قلقاً وارتحل إلى برسكيا، باركو، فانو، بيزارو، أورتونا، ريمينى، وقضى بعض الوقت فى فرنسا ثم أخيراً غادر إلى تركيا سنة ١٥٢٧. وقد مارس الطباعة هناك فى القسطنطينية وسالونيك حيث مات فيها سنة ١٥٣٤. وقد اشتغل خلفاء جيرسون أيضاً بالطباعة الجائلة فى الإمبراطورية العثمانية ثم استقر بهم المقام فى القاهرة ١٥٦٢-١٥٦٦.

ولقد أصدرت أسرة سونسينو نحو ١٥٠ كتاباً باللغة والحروف العبرية يضاف إلى ذلك أن جيرسون نفسه قد طبع بعض الكتب باللغة المحلية، ذلك أنه فى سبيل أن يطبع قصائد «بترارك» سنة ١٥٠٣م استخدم حروفاً من تصميم «فرانشسكو جريفو» من فينيسيا. وقد خرج جيرسون من سوق الطباعة فى إيطاليا بسبب المنافسة الشديدة من جانب أحد الطابعين فى فينسيا. هذا الطابع الذى أخرجه من سوق الطباعة هو «دانييل بومبرج»؛ وهو رجل أعمال مسيحى من أصل ألمانى، حصل من مجلس الشيوخ فى فينسيا على ترخيص باحتكار طبع الكتب العبرية ١٥١٥-١٥٤٩، وحتى نهاية القرن السادس عشر ظلت طباعة الكتب العبرية فى يد المسيحيين.

وكان أعظم مصمم للحروف العبرية رجل فرنسى من تروى هو«غليوم لوبيه» (١٥٢٥-١٥٩٥)، تعلم الحرفة في مسابك روبرت إستين. وفى سنة ١٥٤٥ ذهب إلى فينسيا وهناك صمم ما لا يقل عن ثمانية مجموعات من الحروف العبرية لاثنين من الطابعين المسيحيين فى ما لايزيد على أربعة سنوات، إضافة إلى ما صممه من قوالب يونانية ولاتينية. وعندما عاد إلى فرنسا مرة ثانية استمر فى تصميم الأبناط العبرية للطابعين جاراموند وبلانتين.

وبعد ذلك بدأت الطباعة العبرية تسير من سيئ إلى أسوأ باستثناء تلك الأبناط التي صممها «كريستوفر فان دايك»، وتلك التى كان يستخدمها «جوزيف آتياس» (يوسف عطية) من أمستردام (توفى ١٦٩١) الذى كان قد اشترى أمهات مسبك فان دايك ودانييل إلرفير بعد وفاة هذا الأخير (١٦٨٠) على نحو ما قدمت. ومؤخرا فى وقتنا هذا قامت شركة مونوتيب صممت حروفاً على غرار حروف رجيو، سونسينو. وقد قام **مسبك الحروف فى القدس** بإحياء الحروف العبرية والطباعة العبرية، وكانت أبناطه من تصميم «إيريك جيل» سنة ١٩٣٧، وهى الأبناط التى ظلت مستخدمة لفترة طويلة.

* * *



بين الطابع والناشر والراعى والمؤلف

فى الأيام الأولى للطباعة كان الطابع هو الشخصية المحورية فى صناعة الكتب فقد كان يستأجر أحد مصممى الحروف ليصمم له الأبناط ويصنع له القوالب ويذهب بها إلى المسبك لكى يسبك له الحروف. وكان هو الذى يختار المخطوطات التى تطبع وكان يحررها أو يستأجر من يحررها له، وكان هو الذى يحدد عدد النسخ التى تطبع وهو الذى يدفع بها فى السوق ويبيعها للزبائن. وكانت المكاسب والخسائر له وعليه وحده. وكان هو الذى يمسك بالدفاتر والسجلات إن كانت هناك مثل هذه الأدوات. وإذا لم يقم الطابع بكل هذه العمليات وحده فكان هو الذى يستأجر من يقوم بها ويدفع له مثل عمليات التحرير واختيار المخطوطات وما إلى ذلك، وإذا لم يقم هو بالتوزيع فقد كان له وكلاء يقومون بهذا العمل أيضاً.

ولم يدخل فى نطاق عمل الطابع لا صناعة الورق ولا تجليد الكتب فقد كانا على الدوام عملين منفصلين يقوم بكل منهما شخص مختلف. وكان هذا الاستقلال يرجع إلى عصر الخطاطة. ولكن الطابع كان العميل الأول لكل منهما: لصانع الورق والمجلد على السواء؛ وكانا دائماً فى خدمته.

ولكن بعد مرور وقت طويل أصبح الناشر ـ وليس الطابع ـ هو محور عملية صناعة الكتب، فهو الذى يختار المؤلف والكتاب وهو الذى يقرر النشر. وهو الذى يختار الطابع بل ونوع الحرف الذى يطبع به الكتاب والورق الذى يطبع عليه، وهو الذى يحدد سعر بيع الكتب، وهو أيضاً الذى ينظم ويختار قنوات التوزيع. وأصبح الطابع الآن مجرد ذيل فى ركاب الناشر. وليس هناك واحد فى كل عشرة آلاف من القراء من يهتم بالنظر إلى طابع الكتاب.

وكان لصعوبة الاستمرار فى الجمع بين وظائف الطابع، المحرر، الناشر، الموزع فى يد واحدة وخاصة مع التوسع الكبير فى عملية إنتاج الكتب أثر كبير فى الفصل التدريجى بين هذه الوظائف. وكان الميل الشخصى والاستعداد الفطرى هو الذى يجعل الشخص يختار من بينها ما يناسبه، وعلى سبيل المثال فإن «بيتر شوفر» الذى كان ميله منذ البداية إلى الطباعة فضل أن يستأجر من يقرأ البروفات ويصححها، والألمان الثلاثة الذين دعتهم جامعة السوربون إلى إنشاء مطبعتها سنة ١٤٧٠م أحضروا معهم ثلاثة مصححين ألمان. وبعد سنوات قليلة ظهر مصحح البروفات الإنجليزى «ديفيد لوكس» من إدنبرة بينهم هناك فى باريس. وقد عبر «جوهان فروبن» عن اهتمام الناشر إزاء القراء بقوله: «إن المشترى الذى يشترى كتاباً مليئاً بالأخطاء، لا يشترى فى الحقيقة كتاباً إنما يشترى أذى». وكان حرص مؤلفه النجم «إراسموس» على خلو كتبه من الأخطاء الطباعية هو الدافع إلى ظهور أول قائمة تصويبات وملحق فى سنة ١٥٢٩. وكان قد سبقه ألدوس مانتيوس الذى أدرج جذاذة فى أحد كتب أرسطو لسقوط سطر كامل من إحدى الصفحات، ولكن إراسموس ملأ ٢٦ صفحة كاملة بنحو ١٨٠ تصويباً حتى يقوم مشترو النسخ بتصحيح الأخطاء الطباعية فى النص ويقوم طابعو المستقبل بوضع الصواب فى مكانه عند إعادة طبع الكتاب.

ومنذ وقت مبكر تم التفكير فى إنشاء شركات نشر يضع فيها المؤلفون والمحررون ورجال الأعمال والطابعون كل خبراتهم وأموالهم ومعرفتهم. وأول شركتين من هذا القبيل عرفتا بأن الشركاء فيهما كانت لهم برامج نشر محددة. ففى ميلانو سنة ١٤٧٢م قام قسيس وناظر مدرسة وأستاذ جامعة ومحامٍ وطبيب وطابع بتكوين دار نشر. ولم يقم الشركاء بتمويل الطابع على وجه التحديد ولكنهم كونوا فيما بينهم مجلس سياسات يقوم باختيار الكتب التى تنشر وتحديد أسعارها. وهناك مشروع طموح مشابه بدأ فى بيروجيا سنة ١٤٧٥. فقد فكر «جاكوب لانجنبيك» ـ ابن عمدة مدينة هانزى ـ وأستاذ لاهوت فى سابينزا فيشيا

فى نشر الطبعة الرئيسية من **مجموع القوانين المدنية**[1]. ولتنفيذ هذا المشروع فكر لانجنبيك فى ضم أحد ممثلى الأسرة الحاكمة فى بيروجيا، ومصمم حروف من أولم، والطابع «ستيفان آرنديس» من هامبورج، ووراق الجامعة وهو مواطن من أرض الراين الذى كان عليه أن يقوم بتوزيع نسخ العمل على الأساتذة والطلاب إلى جانب «هيرمان» شقيق لانجنبيك وهو أستاذ القانون المدنى ونائب مدير جامعة جريفزفالد، والذى كان سيقوم بتحرير العمل. ولكن بعد وصول هيرمان إلى بيروجيا كان لانجنبيك قد مات وأفلس المشروع ولاحقته المحاكم، ولم يصدر من العمل سوى جزءين فقط. ليس ذلك فقط ولكن كان على عضوين من الشركاء أن يرحلا بعيداً عن مقر العمل وهما هيرمان لانجنبيك الذى أصبح عمدة هامبورج (١٤٨٢ ـ ١٥١٧) وستيفان آرنديس الذى أصبح الطابع الرئيسى فى مطبعة ألمانيا السفلى والعالم الدنمركى[2] فى لوبيك.

ولأن معظم الطابعين الأوائل كانت أوضاعهم المالية فى غاية التواضع، وهناك ندرة فى المعلومات الشخصية عنهم بما لا يسمح لنا بالتعميم فإن من الصعب علينا أن نقدر ثرواتهم الخاصة. ولكن هناك من المؤشرات مايدل على أن بعضهم قد نجح فى تكوين ثروات طيبة من وراء صناعة الكتاب، وهؤلاء القلة القليلة التى أثرت لم تثر من وراء الطباعة وإنما أثرت من وراء تجارة الكتب.

وتشير المصادر إلى أن أول من اشتغل بالنشر وتجارة الكتب دون أية وظيفة أخرى، هو **جوهان رينمان** الذى توفى فى أوجزبرج سنة ١٥٢٢م. وليس من بين المائتى كتاب التى ظهرت تحت اسمه كتاب واحد من إنتاجه هو، بل كان يأمر بطبعها لحسابه فى: أوجزبرج، بازل، هاجيناو، نورنبوج، فينسيا وأماكن أخرى متعددة، وقد ركز كل جهوده على تسويق هذه الكتب وبيعها.

ويبدو أن الطابعين الأوائل ـ بمن فى ذلك يوحنا جوتنبرج نفسه ـ كانوا طابعين أكثر منهم رجال أعمال أو مسوقين. ويعزى افتقارهم إلى النجاح التجارى إلى

(1) Editio Princeps of the Corpus Juris Civilis. -

(2) Low German and Danish world. -

أنهم لم يدركوا الأزمة الحقيقية فى صناعة الكتاب وهى ضرورة تدبير رأس المال الخاص بإنتاج كل كتاب أولاً وعدم انتظار عائد سريع لأن العائد عادة ما يكون بطيئاً. حتى و إن أدركوا تلك الحقيقة فإن كثيرين منهم ومن بينهم جوتنبرج نفسه لم يكونوا بقادرين على تدبير رأس المال اللازم. والطابعون ـ الناشرون الذين كانوا فى وضع يسمح لهم باستثمار مبالغ كبيرة من المال يتخطون بها فترة الانتظار، استطاعوا تحقيق الثروة على النحو الذى حققته شركات شوفر؛ أميرباخ ـ فروبن؛ مانتيوس؛ كوبرجر.

ولكن كقاعدة عامة كان على الطابعين أن يؤمنوا رأس المال اللازم لهم من مصادر خارجية. وهذا التعاون بين هؤلاء الطابعين (الصناع) والمولين (المرابين) أدى بالتبعية وبسهولة إلى انفصال الطابعين والناشرين. وهذا التطور انعكس على الطريقة التى قدم بها كل منهم نفسه إلى مشترى منتجاته.

وكان حرد المتن هو الوسيلة الأولى التى يعبر فيها الطابع ـ الناشر عن دوره فى العملية الفنية لإنتاج الكتاب ويسجل حقوقه الأدبية والقانونية فى استغلال الكتاب استغلالاً تجارياً، ويدرج إلى جانب ذلك أية معلومات إضافية يمكن أن تزيد من مبيعات الكتاب، وكما هو واضح من اسمه فإن حرد المتن هو آخر قطعة فى الكتاب أو هو ذنب الكتاب؛ ولذلك لم يكـن كوظيفة يتسع أصلاً إلا لمعلومات خارجة عن النص وتأتى بعده. ولذلك كان من المستنكر وضع اسم الناشر أو علامته على صفحة العنوان. وبسبب تقدم الناشر وتأخر الطابع فى زماننا فقد كان من الطبيعى أن يدفع باسم الطابع وبياناته إلى حرد المتن ويتقدم اسم الناشر إلى صفحة العنوان، ولكن بعد أن أصبحت بيانات الطابع تسجل فى ظهر صفحة العنوان، ومن ثم انقرض حرد المتن ولم تعد له وظيفة.

لقد كان حرد المتن يقوم إلى حد كبير مقام صفحة العنوان الحديثة وربما كان يتضمن أيضاً مادة تعريفية بالكتاب أو تقريظية عنه. كما كان يتضمن أحياناً تقديراً للمجهود الذى بذله الطابع فى طباعة الكتاب ومدحاً فى فن الطباعة، ذلك الاختراع الذى أتى بالمعجزات. على نحو ما فعل يوحنا جوتنبرج نفسه فى حرد

متن كتاب المعجم[1] سنة ١٤٦٠م. وعلى نحو ما فعل البروفيسور «غليوم فيشيه» الأستاذ بباريس سنة ١٤٧١ فى مقدمة أول كتاب طبع هناك.

أما حرد المتن الذى وضعه «آرنولد بنارتز» فى طبعته من كتاب «لورنزوفاللا»: «اللغة اللاتينية»[2] سنة ١٤٧٥م فقد اشتمل على إعلان عن الكتاب نفسه ونحن نقتبسه هنا: «أى شخص يريد أن يسيطر على اللغة اللاتينية المنطوقة، عليه أن يشترى هذا الكتاب، وسوف يصبح بسرعة ذا كفاءة لو انكب بعناية وحمية على العمل».

وبعض الناشرين حاول أن يستغل حرد المتن فى ترويج بضاعته والحط من بضاعة الآخرين، فهذا هو «أولرخ هان» فى حرد متن كتاب «الفتاوى البابوية»[3] المنشور سنة ١٤٧٤ يقول للمشترى «اطلب هذا الكتاب بقلب مستنير، وسوف تجده ممتازاً بالمقارنة بالطبعات الأخرى التى لا تستأهل قشة».

وبعض الطابعين كان يستأجر بعض الكتاب المحترفين لنظم كلمات حرد المتن ومنهم على سبيل المثال «فنلدين» من سباير الذى كلف الشاعر «رافاييل زو فنزونى» من ترستا خلال السنوات ١٤٧١ ـ ١٤٧٣ وكان يمهر اسمه مع أبيات حرد المتن بكل فخر.

ومن أطرف ما جاء فى حرد متن ما صادفناه فى كتاب «خطابات فالاريس» المنحولة التى أشارت فى نهاية القرن السابع عشر ضجة شهيرة خرج منها الباحث «ريتشارد بنتلى» بلقب أحسن باحث كلاسيكيات فى ذلك القرن، تلك الخطابات كانت قد حازت شهرة كبيرة فى تاريخ الكتاب الإنجليزى. وكانت طبعتها الأولى قد صدرت فى أكسفورد سنة ١٤٨٥ على يد الطابع «تيودور روود» من كولون. وتتضمن هذه الطبعة حرد متن مكتوباً بالشعر يقول فيها النبيل الذى أنشأها فى أكسفورد وينظر إليها البعض على أنها أول شعار «اشتر بضاعة بريطانية» ظهر فى بريطانيا وبصرف النظر عن الحقيقة يقول هذا الشعر ما ترجمته نثراً:

(1) Catholicon.

(2) Lorenzo Valla. De Elegantia Linguae Latinae. - 1475.

(3) Decretals.

«إن الفن الذى تعلمه أهل فينسيا من الرجل الفرنسى جنسون، تعلمته بريطانيا من أبنائها العباقرة. أسكتوا أهل فينسيا، ابعثوا إلينا بمزيد من الكتب المطبوعة فنحن سوف نبيعها الآن للآخرين».

وحرد المتن فى كتاب كاكستون الإنجليزى هو فئة قائمة بذاتها، فهى تمزج بين البيانات المبتكرة بإهداء للكتاب ومعلومات تقديمية تمهيدية من نوع تلك التى يكتبها المحرر فى المقدمة أو التصدير. وهى فى الواقع مقالات صغيرة براقة عن النص الذى تتلوه ويسبقها، وهى جزء من الأدب الإنجليزى كما هى جزء من الطباعة الإنجليزية.

وكانت علامات الطابع تأتى عادة كجزء من حرد المتن. وقد استخدمت تلك العلامات منذ بداية اختراع الطباعة. وكان التمييز والفصل بين الطابع والناشر سرعان ما حول علامة الطابع لتصبح علامة الناشر، ولم تعد للطابع علامة. وكان الهدف من علامة الناشر هو نفسه من علامة الطابع وهو أن تستخدم كعلامة تجارية على الجودة ولتحمى حق الناشر فى كتبه، وهو ما عرف فيما بعد بحق الطبع.

وقد حرص كثير من الطابعين الأوائل على أن تأتى تلك العلامات على هيئة دروع ذات تصميمات فنية عالية فيها ابتكار ولا تكرر بعضها بعضاً مما جعل كثيراً منها عينات فنية ثمينة. وتبلغ هذه العلامات قيمتها العالية عندما ترتبط باسم ومكان شركة مشهورة. وعلى سبيل المثال العلامة الشهيرة «لفوست» و«شوفر» والتى تأتى على هيئة درع مزدوج وهى توضع بين العلامات التجارية السائدة فى ذلك الوقت لصناعات أخرى مثل صياغة الذهب والمعمار. ويرى الثقاة أن علامات الطابعين الأسبان تأتى بين العلامات الرائعة. ومن العلامات الظريفة علامة الثعبان الملفوف حول الصليب (علامة ميلشوار لوتر من ويتنبرج)، وعلامة الغصن المزهر (علامة روبرت جرانجون من ليون)، وربما كانت علامة ألدوس مانيتوس: الدولفين والهلب، هى أشهر علامات الطابعين. ويلاحظ أن علامات

القرنين السادس عشر والسابع عشر قد تأثرت تأثراً شديداً بتصميمات عصر الباروك، ومن ثم جاء بعضها معقداً، وعلى سبيل المثال فإن علامة مطبعة ستيفانوس تمثل شجرة المعرفة على النحو الذى يراه فلاسفة الإنسيين، ويمكن أن نقول عنها إنها شعار فى شكل صورة، ولقد فشلت فعلاً كعلامة تجارية يمكن حفظها وتمثلها من النظرة الأولى.

وفى خلال عقدين من اختراع الطباعة كان الطابعون قد طوروا الأشكال الرئيسية للإعلان والدعاية والترويج عن بضاعتهم ومنتجاتهم؛ ونصادف منها: المطويات التى تحمل تفاصيل ببليوجرافية عن كتاب واحد أو عدة كتب منشورة بالفعل؛ الملصقات التى تجتذب عابر السبيل وتستوقفه؛ القائمة التى تعرض كل مخزون الطابع أو البائع من الكتب. ويقف الببليوجرافى مذهولاً كيف خرج كل هذا العمل من جوف فن الطباعة بهذه السرعة والإحاطة والتوسع والنضج كما خرجت أثينا من بطن زيوس.

وعندما نتوقف أمام قوائم المطبوعات والفهارس والإعلانات الأولى، يجب أن نضع فى أذهاننا حالة حفظ وتخزين تلك الأدوات الوقتية التى أخرجتها الطباعة ولذلك فإنه لم يصلنا من معظم هذه الأدوات إلا نسخة واحدة فى الأعم الأغلب. وعندما تصلنا قطعة أولى من هذه الأدوات فمن المؤكد أن تاريخ هذه الأدوات يمتد لأبعد من تاريخ تلك القطعة بكثير.

ويعتبر «هنريتش إيجشتاين» من ستراسبورج المعروف بأنه طابع ثانى ترجمة ألمانية للكتاب المقدس أول من نشر إعلاناً سنة ١٤٦٦، ثم تبعه فى هذا الصدد «بيتر شوفر»، «بيرتولد رونيل»، ثم «سوينهايم» و«بنارتز» ثم «منتلين» وكان ذلك حول ١٤٧٠م تلاهم وليام كاكستون فى ١٤٧٧ وجاء بعدهم كثيرون منذ ١٤٨٠ فصاعداً من أمثال «كوبرجر» و«راتدولت» وكان الإعلان الذى طبعه شوفر يتضمن واحداً وعشرين كتاباً منشورة بالفعل. أما إعلان سوينهايم وبنارتز فقد اشتمل على تسعة عشر كتاباً فى ١٤٧٠ وثمانية وعشرين سنة ١٤٧٢. وفى هاتين القائمتين نجد وصفاً لكل كتاب وثمنه وعدد النسخ التى طبعت من كل كتاب.

وقد تراوحت الأسعار من ١٦ قرشاً لخطابة «شيشرون»[١] إلى عشرة دوكات لكتاب «توماس الإكوينى»[٢] وعشرين دوكات للكتاب المقدس فى مجلدين. وقد تراوح عدد النسخ فى الطبعة الواحدة مابين ٢٧٥ إلى ٣٠٠ نسخة فى الأعم الأغلب.

وربما كانت أول قوائم للطابعين (فهارس) تقدم ثمن كل كتاب هى تلك التى أصدرها ألدوس مانيتوس سنة ١٤٩٨ (عن أول خمسة عشر كتاباً باللغة اليونانية)، سنة ١٥٠٣ وسنة ١٥١٣م.

وكانت قائمة (فهرس) «أنطون سورج» ذات الستة وثلاثين كتاباً (١٤٨٣-١٤٨٤) هى أول قائمة تقتصر على الكتب الألمانية وحدها. ومن هنا كان على الطابع فى هذه القائمة أن يشرح للقارئ العام - وليس للباحث - ما هى موضوعات الكتاب المعلن عنها وما هى الفوائد وجوانب المتعة التى يمكن أن يخرج بها منها. ومن هذا المنطلق فإنه مثلاً يوصى بقراءة «آيسوب للتسلية ففيه إيضاحيات عديدة»، ودليل عن كيف تكتب الرسائل مفيد للغاية لأن به قسماً عن كيفية مخاطبة الأشخاص ذوى الألقاب وقائمة بالمترادفات ومختلف الصيغ الأسلوبية.

وكان «شوفر» يحرص فى إعلانه على ذكر أن الكتاب المعلن عنه «قد طبع بعد صدور هذا الإعلان» أى أن الإعلان كان يأتى سابقاً على صدور الكتاب. وكان كاكستون يفعل المثل؛ أى أنه يصدر إعلانات كتبه سابقة على صدور الكتب نفسها على النحو الذى نصادفه فى مطوية كتابه «عن الرسامة»[٣] وقد جمع كوبرجر فى إعلان واحد كل تفاصيل الدعاية عن كتاب واحد سوف يصدر[٤] إلى جانب اثنين وعشرين كتاباً صدرت بالفعل وضعت فى ترتيب مصنف بالموضوع. وقد جاء كتاب اللاهوت لكبير الأساقفة أنطونينوس فى بداية قسم اللاهوت وفى القسم الخاص بالقداس نجد وصفاً لأحد الكتب بأنه «مدقق ومصحح للغاية بحق»[٥].

(1) Cicero . De Orator.

(2) Thomas Aquinas. Catena Aurea.

(3) Sarum Ordinale.

(4) Archibishop Antonius of Florence. Somma Theologiae.

(5) "denuo Correctum Fideliterque impressum".

ويشتمل إعلان كوبرجر على كل ما يمكن أن يفكر فيه مدير الإعلانات والدعاية فى أية دار نشر حديثة. فهو يبدأ ببعض الملاحظات العامة حول فائدة ومتعة كل فرع من فروع المعرفة البشرية: الكتب العلمية، كتب الثقافة العامة، كتب القصص متبوعة بطبيعة الحال بالأسماء اللامعة مثل هوميروس وأفلاطون ومن بعدهما فى تسلسل السياق التاريخى على نحو ما نفعل فى أيامنا هذه بالأسماء اللامعة فى عالم الأدب. ثم يتدرج كوبرجر بعد ذلك إلى الأهمية القصوى للاهوت لبنى البشر، وكيف أن القارئ سوف يجد جائزته الكبرى بين كتب اللاهوت. ويقول كوبرجر عن أحد الكتب فى قسم اللاهوت «إنه ليس فقط أشمل كتاب من نوعه كما يلاحظ من قائمة محتوياته وبحيث لايستطيع ناشر آخر أن ينشره. ولكن فى نفس الوقت أرخص من نظرائه وخاصة إذا وضعنا فى الحسبان التحقيق العلمى والعناية القصوى فى تصحيحه وجودة طباعته التى يمكن أن نتأكد منها من هذه المطوية.. ولقد راعينا راحة الزبائن خارج مدينة الجامعة ذلك أن وكلاءنا ورجال مبيعاتنا الجائلين يقومون بعرض بضاعتنا على الزبائن، ومن لايريد الشراء فيمكنه على الأقل أن يتفرج».

ومن الواضح أن بعض الكتب كان يحظى فى هذه الإعلانات بعرض مطول وبعضها بنبذات سريعة. وبعض تلك الإعلانات كان يطبع على هيئة إعلانات يدوية وبعضها على هيئة فروخ عريضة وملصقات. وهذه الأخيرة كان يقصد بها أن تلصق على أبواب الحانات والكنائس والمدارس والكليات والأماكن العامة. وكانت إعلانات كاكستون اليدوية تنتهى عادة بعبارة ظريفة وهى «من فضلك لاتمزق هذا الإعلان».

هذه المطويات التى نسميها الآن نشرات إعلانية، يقصد بها أن تصف كتباً نشرت بالفعل أو كتباً تحت النشر أو «تصدر قريباً». وهذه الأخيرة ظهرت أول ما ظهرت سنة ١٤٧٤ ويمكن تتبع أصولها فى النشرة التى أصدرها الفلكى عالم الرياضيات «رجيومونتانوس» وتضم بياناً بالكتب اليونانية الرياضية والعلمية التى تتولى مطبعته إنتاجها. وتقول هذه النشرة للزبائن بالضبط ما هى الكتب التى تم

طبعها ونشرها فعلاً ومعروضة للشراء؟ وما هى الكتب الموجودة تحت الطبع؟ وما هى الكتب التى تحت الإعداد ولم تدخل المطبعة فعلاً. وللأسف فإن هذا البرنامج لم يكتمل لأن «رجيومونتانوس» أغلق مطبعته فى العام التالى وارتحل ليتولى منصب أسقف ريجنزبرج.

وما يهمنا من قوائم الكتب هذه فى هذا المقام أن بيع الكتب بالتجزئة فى ذلك الوقت الباكر من الطباعة قد بدأ ينحو نحو الانسلاخ إلى حد ما عن دار النشر ودار الطبع معاً وأخذ يستقل عنهما رويداً رويداً. ونلحظ صدق ما نقول من قوائم كل من زينر، كوبرجر، وغيرهما من الناشرين ـ الطابعين التى دأبت قوائمهم من حين لآخر على إدراج كتب لطابعين آخرين غيرهم وتعرضها للبيع. وقد وصلتنا قائمة كتب مطبوعة أى القائمة فى مينجن فى سنة ١٥٠٠ تقريباً بها نحو ٢٠٠ عنوان من طباعة مطابع فينسيا ونورنبرج وبازل ومعروضة للبيع»[1]، أى أنها كانت قائمة عامة بما أنتجته مطابع مدن معينة ولا تنتمى لناشر أو طابع معين على حدة. وكانوا يطلقون على تلك القوائم اصطلاحاً غريباً فى ذلك الزمان هو «بريد الكتاب»[2]. وقد وصلنا من «بريد الكتاب» هذا اثنا عشر بريداً على هيئة قوائم بدافعى الضرائب من الطابعين فى مدينة أوجزبرج بين ١٤٨٣ و ١٥٠٠. وثلاثون «بريد كتب» من ليبزج بين ١٤٨٩ و ١٥٠٠.

هذه الجهود التى تبذل فى ترويج وتسويق الكتب غدت فى القرن الثانى للطباعة مسائل مقننة ومنظمة تمثل ظاهرة عامة. ففى سنة ١٥٥٢ قام «روبرت إستين» فى باريس و«جوهان أوبرينوس» فى بازل، وفى سنة ١٥٦٣ قام ألدوس مانتيوس فى فينيسيا بإصدار قوائم «فهارس» بكل كتبهم المعروضة للبيع. وكانت فى الواقع - وكما قال مدير الدعاية فى مطبعة فينسيا - استجابة لطلبات الباحثين وباعة الكتب الذين يحرصون على الحصول على الطبعات الأصلية من مطبعة ألدوس مانيتوس وليس على طبعات مقلدة وضيعة.

---

(1) Libri venales veneciis, Nurenbergae et Basileae impressi.

(2) book - Carrier.

الناشرون والرعاة

يمكننا أن نتتبع التمايز التدريجى بين الطابع والناشر وبائع الكتب من خلال الأشكال المختلفة التى اتخذها «**بيان الطبع**» فى الكتاب الغربى فى مراحله المتعددة. فالوظائف الثلاثة ظلت حتى نهاية القرن السابع عشر تظهر معاً ممتزجة فى بيان الطبع على النحو الذى يمثله النموذج الآتى:

«طبع على يد تو(ماس) كوتيس لحساب «أندرو كروك» ويباع فى الركن **الأسود** من ساحة كنيسة بولس». ونجد ذلك البيان فى كتاب توماس هوبز «ملخص فن البلاغة[1] المنشور سنة ١٦٣٧. ويبدو أن متجر الكتب الذى وجه إليه المشترون كان مملوكاً للناشر أو على الأقل هو الذى يديره. ويؤكد ما ذهبت إليه بيان طبع كتاب آخر من تأليف هوبز كذلك يسير على النحو الآتى:

«طبع لحساب أندرو كروك ويباع فى متجر كتبه فى **علامة الأخطبوط الأخضر** فى ساحة كنيسة القديس بولس، ١٦٢٢». ويدل هذا البيان على أن كعب الناشر بدأ يعلو على كعب الطابع بحيث لم يظهر اسم الطابع فى هذا البيان، إنما ظهر اسم الناشر فقط وعنوان المتجر الذى يديره. ومن هذا المنطلق أيضاً نجد أن أول طبعة من كتاب سيرفانتس «دون كيشوت» سنة ١٦٠٥ قد ذكرت فقط اسم الناشر والبائع ولم تذكر اسم الطابع «فى مدريد لحساب خوان دى لاكوستا ويباع فى دار فرانشسكو دى روبيلز كتبى الملك». ومن ناحية أخرى نجد أن أول كتاب طبع لويليام شكسبير يذكر الطابع فقط «طبع على يد إسحاق إياجارد و إد (وارد) بلونت، ١٦٢٣». وهى من الحالات النادرة التى يحذف فيها اسم الناشر والبائع ويبقى اسم الطابع وحده. ومن الممكن أن يكون الطابع هو فى نفس الوقت الناشر وبائع الكتب كما نصادف ذلك فى البيان الآتى «طباعة وبيع ب. فرانكلين». وكان من الظواهر أيضاً أن يقوم المؤلف بدور الناشر فيتكلف طبع كتابه كما نصادف ذلك فى كتاب «و.س. لاندور» الذى دفع تكاليف طباعة

(1) Thomas Hobbes. Briefe of the art of Rhetorique .- 1637.

كتابه الموسوم «قصائد من العربية والفارسية»[1] الذى صدر سنة ١٨٠٠م. وقد جاء فى بيان الطبع ما يلى:

«طبع على يد هـ. شارب، الشارع العالى (هاى ستريت) واروبك، ويباع على يد السادة ريفنجستونز، ساحة كنيسة سان بول».

وكان لتحسن أوضاع تجارة التجزئة وإعادة تنظيمها جعل من غير الضرورى للناشر أن يعتمد على النية الحسنة لأى تاجر تجزئة خاص، مما حدا بأحد الناشرين فى ليبزج سنة ١٧١٧م أن يعلن بكل جسارة عن أن مطبوعاته «متاحة فى جميع متاجر الكتب» ومنذ ذلك التاريخ يمكن القول بأنه غدت هناك شبكة متاجر للبيع بالتجزئة فى سوق الكتاب.

ومع مرور الوقت قل - بل ندر - أن يكون الطابع هو الناشر. وفى هذه الحالات القليلة النادرة نجد بيان الطبع يلح على هذه الحقيقة ويؤكدها ربما كأثر تاريخى أو ربما كمفخرة لفن الطباعة حيث يقوم الطابع بنشر الكتاب وليس الناشر بطبع الكتاب.

ومن هذا المنطلق نجد دور النشر التابعة للمطابع الجامعية تعرف باسم المطبعة أكثر مما تعرف باسمها على نحو ما نصادفه فى مطابع كمبردج وأكسفورد، فى حين نجد فى هاتين الجامعتين مراكز[2] تتحمل المسئولية الكاملة عن الطبع والنشر والتوزيع بل وصناعة الورق. ومن جهة أخرى نجد أن لجامعة أكسفورد ناشراً خاصاً له الحرية المطلقة فى نشر كتب خارج قائمة مجمع الجامعة. وكلا الجامعتين يستخدمان فى مطبعة بت (اسم مطبعة جامعة كمبردج) وفى مطبعة كليرندون علامتين مختلفتين للناشر.

وكانت كلتا الجامعتين على قناعة بوضع أسماء الطابعين على المطبوعات

(1) W. S. Landor. Poems from Arabic and Persian.- 1800.

(٢) يسمى المركز أو المجمع فى جامعة كمبردج باسم: Syndics ويسمى فى جامعة أكسفورد باسم: Delegates.

الأكاديمية، وكان بيان الطبع يظهر على الوجوه الآتية «طبع على يد تو (ماس) وجون بك الطابعين لدى جامعة كمبردج» أو «كمبردج: طبع على يد جون باسكرفيل الطابع لدى الجامعة» وكان توماس أول طابع لدى جامعة كمبردج قد أكد مكانته بوضع درع الجامعة على صفحات عنوان المطبوعات التى يطبعها؛ وقد استبدلها خليفته «جون ليجيت» بعلامة من عصر الباروك تضم أحد الشعارات. وقد استمرت علامتا توماس وليجيت بين علامات مطبعة جامعة كمبردج.

ولننتقل الآن من العلاقة بين الناشر والطابع إلى العلاقة بين الناشر والمؤلف. وينظر الثقاة إلى قانون «حق الطبع» البريطانى الذى صدر سنة ١٧٠٩م - أى فى مطلع القرن الثامن عشر - على أنه اللبنة الأولى فى سبيل تشجيع المؤلفين وجعل المؤلفين والناشرين هم أصحاب الحق الفعلى فى نسخ الكتب التى يطبعونها. وكان المستفيد الأول من هذا القانون فى الواقع هو المؤلف. ففى المقام الأول نظر إلى كتب المؤلفين على أنها بضاعة ثمينة قيمة تستحق حماية القانون وممتلكات يمكن أن تطرح فى السوق العامة وتحقق لهم منافع ومكاسب خاصة. والحقيقة أن الذى طلب إصدار قانون حق الطبع هم الناشرون رغم أن مكاسبهم من وراء هذا القانون كانت أقل من مكاسب المؤلفين وذلك للضمانات التى كفلها ذلك القانون لكل من مشترى الكتب وبائعها على حساب الناشر. والنقطة الأهم فى هذا القانون أنه ألغى قرصنة الكتب وتزويرها مما سمح للناشر بأن يثبت أسعار كتبه عند مستوى معين ويضمن له هامش ربح معقول يتيح للمؤلف أن يشاطره إياه.

لقد أدت هذه التغيرات القانونية إلى نتائج اجتماعية بعيدة المدى، فقد اختفت بالتدريج عملية «الرعاية» التى كان يلقاها المؤلفون من رعاة الفكر ويلقاها الطابعون من المحسنين. والمكانة التى كان يحتلها الراعى الفرد احتلها الآن جمهور القراء على اتساعهم؛ وللوصول إلى الجمهور العريض كان لابد من ابتداع طرق جديدة للدعاية والإعلان والترويج وتوسيع نطاق الطرق القديمة: الإعلانات، النشرات والمطويات وقوائم المطبوعات والببليوجرافيات العامة والمتخصصة، المجردة والمشروحة، عروض الكتب فى الدوريات؛ هذه جميعًا

وغيرها من أدوات الإعلان والدعاية والترويج تم استخدامها فى اجتذاب القراء والمشترين، كما تمت دراسات عديدة لأذواق وميول واتجاهات المشترين. وكان لصدور قانون سقوط حق المؤلف سنة ١٧٣١ أثره فى نشاط حركة النشر وخاصة بالنسبة للمطبوعات التى تنشر على حلقات والتى بدأت فى التوسع سنة ١٧٣٢ على نحو ما نصادفه فى سلسلة موكسون «تمرينات ميكانيكية» وهى سلسة كتيبات من طراز «علم نفسك بنفسك» وسلسة هنرى كير «باقة نصائح أسبوعية» وهى مجموعة كتيبات فى الدعاية البروتستانتينية، وكلاهما بدأ فى الصدور سنة ١٦٧٨ وهما يمثلان بواكير الكتب التى يمكن شراؤها على حلقات. وقد ظلت لهذه الكتب جاذبية خاصة لدى الناشرين وباعة الكتب والمشترين حتى وقت قريب.

وقد توالت مكاسب الناشرين الناجحين والمؤلفين الناجحين وزادت تباعًا. ذلك أن الناشر الذى استطاع من خلال التخطيط أو من خلال حسن الحظ أن ينشر بالضبط ما يحتاج إليه الجمهور، أو نجح فى أن يجعل الجمهور يحتاج إلى ما ينشره، هذا الناشر أصبح الآن يطبع من الطبعة الواحدة آلاف النسخ بدلاً من مجرد عدة مئات قليلة. والمؤلف الذى استطاع أن يكتب الكتاب المناسب للناشر المناسب والجمهور المناسب، هو الذى نجح فى أن «يتعيش» من عوائد كتبه. ولم يعد ذلك المؤلف الذى يستقطع من وظيفته وقتًا يتابع فيه كتابه سواء كان موظفًا رسميا أو مدرساً أو إكليركياً ولم يعد مضطراً إلى إذلال نفسه أمام ملك أو مطران أو نبيل أو عمدة مدينة... لقد كانت هذه للأسف الصورة المقبولة فى تلك الأيام حيث وصف أحد المصادر الثقاة الراعى الفرد بأنه «الخسيس الذى يدعم بغطرسة ويدفع مع التملق».

وكان من العار والعادات السيئة حتى منتصف القرن الثامن عشر أن يكتب المرء فى سبيل العائد المادى بدلاً من التقدير الأدبى. وحتى ذلك الوقت لم يكن هناك سوى عدد قليل من الكتاب يحصلون على عائد مالى من ناشريهم، وإذا حصلوا على هذا العائد فإنهم كانوا يحرصون أشد الحرص على إخفاء تلك الحقيقة. و«إراسموس» على سبيل المثال تأذى كثيراً عندما ألمح بعض زملائه الإيطاليين إلى

أن ألدوس مانتيوس قد دفع له مالاً مقابل أحد كتبه؛ ودافع عن نفسه دفاعًا مستميتاً ضد إشارات مماثلة من جانب «هوتين» وآخرين. هذا بينما لم يكن إراسموس يخجل من الحصول على مال من الرعاة مقابل ما يكتب. وكانت زياراته الثلاثة إلى إنجلترا بغرض الحصول على المال من الرعاة أيضا هناك، وقد توقع منها الحصول على «جبال من الذهب» على حد تعبيره. وإن لم يصل ما حصل عليه إلى هذا الحد فإنه على الأقل حصل على هدايا فردية ومعاش سنوى يصل إلى بضعة آلاف من الجنيهات الإنجليزية بتقديرنا الحال من الملك، كبير الأساقفة، الأساقفة، اللوردات، النبلاء. وهذه المكاسب كلها اختفت فقط وراء غطرسة إراسموس وعدم اعترافه بالجميل.

مارتن لوثر لم يحصل حتى ولا على ربع بنس من وراء مئات الكتب والكتيبات التى كتبها. ويبدو أن «توماس مورنر» الكاتب الكاثوليكى الرومانى هو أول من حصل على عائد مالى من وراء كتابه سنة ١٥١٤م[1].

والطريقة التى كان المؤلف يستدر بها الهبات والعطايا أو يشكر على الهبات والعطايا التى ترده هى أن يهدى عمله إلى فرد أو هيئة. والحقيقة أن هذه الإهداءات ومن ثم المكافآت أو الهبات كانت بنداً منظماً فى ميزانية الرعاة المحسنين والمؤلفين المتلقين. وعلى سبيل المثال فإن الشاعر الإنسى «كونراد سلتيس» تلقى فى سنة ١٥٠٢ مبلغ عشرين جيلدر من مجلس مدينة نورنبرج مقابل المعاناة التى عاناها فى إعداد كتيب المديح فى حق تلك المدينة الإمبراطورية. لقد تلقى مجلس مدينة زيوريخ ثمانية وثلاثين كتابًا مهداة جميعها إلى هذه المدينة ما بين ١٦٧٠ و ١٦٨٥. والمبالغ التى دفعت مقابل هذه الكتب هى جزء من ميزانيات تلك المجالس على نحو ما تفعل الدول الحديثة من دعم للفنون والآداب والعلوم.

ولقد وصلتنا بعض إهداءات فى كتب تكشف عن أن بعض المؤلفين كانوا يهينون أنفسهم فى سبيل العطايا والهبات؛ ويبدو أن بعض المؤلفين كان يضطر إلى ذلك اضطراراً لكى يعيش. وربما كانت الرعاية- وخاصة فى القرن السادس

(1) Thomas Murner. Geuchmatt.- 1514.

عشر - للمؤلفين مجرد رغبة فى الدعاية الشخصية فقط أكثر منها رعاية للفكر والأدب؛ فهذا هو «إيرل لايكستر» قد أهديت إليه مئات من الكتب كانت كلها تقريباً أدلة عملية، رسائل تاريخية، كتيبات دينية تدخل كلها فى مجال اهتمامات هذا الراعى. وكان كتاب هذه الكتب أو مترجموها أو جامعوها يهدفون أساساً إلى الحصول على وظائف مدنية أو دينية فى الدولة أو فى الكنيسة، وكانت المكافأة هى المنصب الرفيع عادة وليس المال.

ومما يدعو إلى الغثيان حقيقة أن تأتى هبات وعطايا تلك الإهداءات مخالفة تماماً للقيمة الفكرية للعمل المهدى ومخالفة تماماً لقدر الشخص المهدى إليه. وفى بعض الأحيان القليلة نجد علاقة وثيقة بين الإهداء والنص الذى يعالجه الكتاب. وعلى وجه العموم فإن تلك الإهداءات غالبًا ماتكون مؤشرات على نوعية الناس الذين يهدى إليهم العمل والذين يأمل المؤلف فى عطاياهم. وعادة لاتتغير الإهداءات من طبعة إلى طبعة من نفس العمل، إنما ربما تتغير من عمل إلى عمل لنفس المؤلف. وفى أحيان نادرة ما نصادف إهداءات مختلفة للطبعة الواحدة. وقد صادفنا فى كتاب إهداءً مختلفاً لكل نسخة من نسخه الألف.

وفى القرن الثامن عشر وبسبب الافتقار إلى احترام الذات أحياناً نجد نوعاً من التثبيت لقيمة المكافأة عن العمل الواحد. وكانت تتراوح ما بين خمسة إلى عشرين جنيهاً، عن القصيدة الواحدة فى الحد الأدنى إلى المسرحية فى الحد الأقصى. وكانت هناك عطايا أعلى قيمة من ذلك إذا قبل الإهداء من جانب البلاط الملكى، وعلى سبيل المثال تلقى «لورانس إيكارد» ثلاثمائة جنيه إسترلينى من «جورج الأول» عن إهداء كتابه «تاريخ إنجلترا»[1] سنة ١٧٠٧، وتلقى «بنيامين هودلى» مائة جنيه إسترلينى من «جورج الثانى» عن روايته الكوميدية «الزوج الشكاك»[2] سنة ١٧٤٧. ولقد لخص «توماس جوردون» (توفى سنة ١٧٥٠) الموقف بالنسبة لتلك الإهداءات الجوفاء التى وصفها بأنها «ادفع وحمِّل» بقوله:

---

(1) Laurence Echard. History of England.- 1707.

(2) Benjamin Hoaldy. The Suspicious Husband.- 1747.

«أعرف مؤلفًا مدح الإيرل فى عشرين صفحة كاملة رغم أنه لايعرف شيئًا عنه إلا أن لديه أموالاً يريد أن يضيعها؛ وجعل منه حكيم زمانه ورجل عدل ودين لا لسبب إلا أنه يطمع فى خير ويأمل فى أن يعطيه من قلبه الملىء لأن معدته هو خاوية».

ومع منتصف القرن الثامن عشر أخذ الإهداء من أجل المال يتلاشى بالتدريج وحل محله بالتدريج أيضًا ـ كما سبق القول ـ التعويض المالى الكبير من جانب الجمهور العريض. وعندما قام «هنرى فيلدنج» بإهداء كتابه «السجل التاريخى»[1] سنة ١٧٣٧م إلى جمهور القراء على إطلاقهم فإنه قد افتتح حقبة جديدة من الراعى الكبير إلى الراعى الأكبر الذى يرعى فكر المؤلف، ونعنى به الجمهور القارئ.

وربما كان أحد أسباب اختفاء الرعاة الأفراد هو ميلهم إلى الخلط بين القيمة الأدبية للعمل والمكسب السياسى، حتى الشخص الذى تسمى باسمه الرعاة، راعى الرعاة: ماكيناس[2] وضع «فيرجيل»، «هوراس»، «بروبيرتيوس» فى خدمة تأييد وتمجيد البرنامج السياسى للإمبراطور «أوغسطوس». وفى إنجلترا الأوغسطية استخدمت الرعاية الفكرية سلاحًا فى يد السياسة الحزبية. وقام الساسة الكبار بإضفاء رعايتهم على المؤلفين ليس حبا فى الفكر وإنما للدعاية على النحو الذى قام به اللورد «سومرز» الذى وضع مشروع «إعلان الحقوق» سنة ١٦٨٩ ومعاهدة الاتحاد مع سكوتلندا سنة ١٧٠٧، وكما فعل «تشارلز مونتاجو إيرل هاليفاكس» الذى حكم إكستيشيكر وكان وزيراً للخزانة فى عهد «وليام الثالث» و«جورج الأول» والذى أضفى رعايته على كل من: «أديسون»، «إستيل»، «كونجريف»، «بريور»، «فيرتشو»، «لوك»، «نيوتن» دعاية وترويجًا لحزب ويج. وكما فعل كل من «روبرت هارلى»، «إيرل أكسفورد» و«هنرى سان جون فيسكونت بولينجيروك» قادة حزب ثورى فى عهد الملكة «آن» الذين أضفوا

(1) Henry Fielding . Historical Register.- 1737.

(2) Maecenas (Patron of all Patrons).

رعايتهم على «درايدن»، «بوب»، «سويفت». وبينما قام هؤلاء المؤلفون الكبار بوضع كتاباتهم فى خدمة جماعة سياسية ذات أغراض نبيلة، نجد بعض صغار المؤلفين لم يتردد لحظة فى أن يبيع قلمه وضميره لمن يدفع أكثر.

لقد كانت الدوافع السياسية للرعاية هى بداية انهيار حب الفكر للفكر، حيث أقحم الرعاة ـ وخاصة من الأحزاب المتنافسة ـ مصالح دافع الضرائب فى هذه العملية. وقبض المؤلفون المكافآت مناصب رفيعة ووظائف؛ وعلى سبيل المثال حصل أديسون على منصب وزير الدولة، ودخل إستيل وكونجريف فى البعثات المختلفة للدولة، وحصل كونجريف على منصب سكرتير الدولة لشئون جامايكا. وقد عين ماتيو بريور فى وزارة الخارجية ثم أصبح سفيراً، وغدا سويفت عميداً فى سانت باتريك فى دبلن. أما ألكسندر بوب فقد احتل هو الآخر وظيفة مرموقة حيث كانت ظروفه تجعله غير محتاج لمكافآت مالية. وكان من بين الطرق الإنجليزية الفريدة فى مكافأة المؤلف عن خدماته السياسية والإعلاء من قدره وشأنه تعيينه فى وظيفة أدبية رائعة هى «شاعر البلاط». وقد حصل عليها درايدن سنة ١٦٦٨ لدفاعه عن حزب ستيوارت، وخسر هذه الوظيفة سنة ١٦٨٨ لصالح منافسه من حزب ويج واسمه «توماس شادويل». وقد حصل عليها لورانس إيسدين فى سنة ١٧١٨ عن كتاباته التى دبجها فى زفاف دوق نيوكاسل. وقد حصل عليها «كولى كيبر» سنة ١٧٣٠ لدفاعه الدائم عن الأرستقراطية وخاصة مسرحيته ضد اليعاقبة «غير المحلفين»(١) وحتى ووردزوورث (١٨٤٣) وتنيسون (١٨٥٠) حصلا عليها لولائهم وليس لموهبتهم الشعرية. ولقد احتاجت المسألة إلى مجهود ضخم ووساطة حتى يستطيع شاعر العشرين مجلدًا من الشعر السخيف «ألفريد أوستن» أن يحصل على هذا المنصب من خلال السلطة السياسية، وكان يغلف هذا المنصب بغلاف من التيه والكبر كما لو كان شاعراً عظيماً فذاً.

لقد عجل هذا الارتباط الوثيق بين السياسة والرعاية بنهاية فكرة الرعاية؛ حيث وجد الساسة البديل فى رشوة الصحفيين وأعضاء مجلس العموم مباشرة بدلاً من

(1) Colley Cibber. non - Juror .- 1730.

الطريق الملتف الطويل حول كتب وكتيبات المؤلفين ومسرحياتهم وقصائدهم الشعرية. ولقد لجأت الحكومات البريطانية المتعاقبة منذ «روبرت وولبول» وحتى وثيقة الإصلاح الصادرة فى ١٨٣٢م إلى هذا الأسلوب، ومن ثم قطعت حبال الوصل بين «رعاية الفكر» والسياسة. ولم يكن روبرت وولبول نفسه يستمتع بالأدب ولذلك لم يضف الرعاية إلا على اثنين من الشعراء فقط هما «إدوارد يونج» و«جون كليى»، ولكنه أضفى تلك الرعاية من الدولة. وخلال ستينات القرن الثامن عشر قام «جورج الثانى» وماركيزة بوث بمحاولة لإحياء الرعاية الرسمية الحكومية فعين «جيبون» وزيراً للتجارة والزراعة (بمرتب سنوى ٧٠٠ جنيه إسترلينى) وعين «روبرتسون» فى وظيفة المؤرخ الملكى لاسكوتلندا (بمرتب سنوى ٢٠٠ جنيه إسترلينى)؛ وعين «هيوم» وكيل وزارة لشئون اسكوتلندا. وقد قامت بوث بتسديد تكاليف طبع كتابى ماكفرسون «فنجال»(١)، «تيمورا»(٢)، وعين سكرتيراً لحاكم فلوريدا الغربية سنة ١٧٦٤.

وفى نفس ذلك الوقت بدأ البلاط والأرستقراطية يفقدون رغبتهم وحماسهم إزاء جماعة المؤلفين، كما أخذ المؤلفون فى احترام ذواتهم. ولم يتردد النبيل المثقف «هوراس وولبول» فى التهكم على المؤلفين من أمثال «سموليت»، «جونسون» جولدسميث قائلاً عبارته الشهيرة: «ماذا أضاف هؤلاء إلى مجد عصر كل الفنون والعلوم فيه تكافأ وتشجع». وقد رد عليه المؤلفون بشعر ساخر تمثل فى بيتين قالهما الشاعر «تشرشل» نترجمها هنا نثراً:

«إنهم يضفون الرعاية بغرض الشهرة ليس إلا

« ويحتفظون لديهم بشاعر كما يحتفظون ببغى(٣).

وقد صدر أول كتاب عن قضية التأليف وتجارة الكتب، وهل التأليف تجارة أم

(1) Macpherson. Fingal.
(2) Macpherson. Temora.
(3) Churchill:
They patronize for fashion sake- no more.
And keep a bard just as they keep a whore.

مهنة[1] سنة ١٧٥٨م أى فى منتصف القرن الثامن عشر. وقد ألف هذا الكتاب أحد الإنجليز المولودين فى أمريكا وكان من الكتاب الذين يكتبون لحزب ويج ويؤرخون له، وهو «جيمس رالف». وقد خلص المؤلف فى هذا الكتاب إلى أن التأليف مهنة ورسالة لايقوم بها إلا العقل المتفتح الحر. ولكن القضية هى أن الذين يمكن أن يعيشوا على مهنة الكتابه قليلون على مر التاريخ، ففى الوقت الذى كتب فيه جيمس رالف كتابه كان هؤلاء يتمثلون فى: الدكتور جونسون فى إنجلترا، فولتير فى فرنسا، ليسنج فى ألمانيا.

ويستطيع المؤلفون الآن فى زماننا أن يتفرغوا للكتابة ويحصلوا على عائد من ورائها دون حاجة إلى رعاية الرعاة، وحيث أصبح الناشر الآن يدفع للمؤلفين - حتى الهواة منهم - عوائدهم بنسب معينة يحددها التعاقد بينهم. وأصبحت هذه الأجور أو العوائد فى ازدياد مستمر بعد صدور قوانين حق المؤلف. وعندما نتحدث عن عوائد المؤلفين فى إنجلترا مثلاً فى القرن الثامن عشر يجب أن نضع فى حسباننا أن تكاليف المعيشة كانت فى المتوسط ثلاثين جنيهًا استرلينيًا فى السنة. يقول الدكتور «جونسون» وهو أحد المؤلفين الإنجليز الذى كانوا يتعيشون من كتاباتهم فى القرن الثامن عشر أنه تلقى عشرة جنيهات إسترلينية عن كتابه (لندن) سنة ١٧٣٨، عشرين جنيهًا عن كتابه «الغرور»[2] ١٧٥٩م ومائة وخمسة وعشرين جنيهاً عن كتابه «راسيلاس»[3]. سنة ١٧٥٩م أيضاً ومائة جنيه زيادة عن المقرر فى كتابه «حياة الشعراء»[4].

وفى مجال القصة ربما يكون «هنرى فيلدنج» هو أحسن من حقق دخلاً من وراء كتاباته، فقصته «جوزيف أندروز» سنة ١٧٤٢ حققت له دخلاً قدره (١٨٣ جنيهاً، ١٠ شلنات، ١٠ بنسات). وقصته «توم جونز» سنة ١٧٤٠م حققت له دخلاً قدره (٧٠٠ جنيه إسترلينى). أما قصته «إميليا» سنة ١٧٥٢ فقد حققت له

(1) James Ralph. The case of authorship by profession or trade, stated with regard to booksellers, the stage and the public.- 1758.
(2) Johnson. vanity.- 1759.
(3) Johnson. Rassellas.- 1759.
(4) Johnson . Lives of the poets.

دخلا مقداره (١٠٠٠ جنيه إسترليني). والترجمتان اللتان صدرتا لقصة «توم جونز» إلى الفرنسية والهولندية سنة ١٧٥٠م لم تحققا للمؤلف أى دخل بسبب عدم وجود حماية لحقوق المؤلفين على المستوى الدولى آنذاك. ولكنهما يقينًا أكدتا للناس مدى تأثير فيلدنج على الجمهور. هذا فى الوقت الذى لم يخرج القصاص «أوليفر جولدسميث» من ديونه ولم يكن السبب فى ذلك يرجع إلى الناشر بقدر مايوجه إلى أخطاء المؤلف نفسه. فقد حصل من الناشر على ستين جنيهًا عن قصته «قسيس ويكفيلد» وتسبب له فى خسارة كاملة.. ذلك الناشر الذى بعد ثلاث طبعات من تلك القصة كانت خسارته جنيهين، وستة عشر شلناً وستة بنسات. ولقد تقاضى جولدسميث ١٥٠ جنيها إسترلينياً عن كتابه «رجل طيب»[1]، ٢٥٠ جنيهاً إسترلينياً عن كل كتاب من كتابيه «تاريخ روما»، «تاريخ اليونان»، ٥٠٠ جنيه إسترلينى عن «التاريخ الإنجليزى»، ٨٠٠ جنيه عن كتابه «تاريخ الطبيعة الحية»[2]. هذا الترتيب فى قيمة العوائد المالية لكتب جولدسميث قد يبدو مبنياً على القيمة الأدبية والفكرية للكتب، ولكنه فى نفس الوقت يعكس رغبات وميول جمهور القراء التى لا يمكن للناشر أن يتجاوزها أو يغفل عنها. فلقد كان الجمهور فى حاجة إلى كتب فى التاريخ والتاريخ الطبيعى والرحلات والتراجم. ومما يذكر فى هذا الصدد أن مدعى الطب والكاتب اللاذع «السير» جون هيل كان يحقق دخلاً سنوياً قدره (١٥٠٠ جنيه إسترلينى) من تجميعاته فى الطب، النبات، الزراعة، الصيدلة، التاريخ البحرى، وغير ذلك من الموضوعات التى كان لها رواج فى فترة نشاطه ١٧٥٠-١٧٧٥. وقد قبض «وليام روبرتسون» ٦٠٠ جنيه إسترلينى عن «تاريخ اسكوتلندة»[3] و٤٥٠٠ جنيه إسترلينى عن كتابه «تشارلز الخامس»[4] ١٧٦٩. وبعيداً عن كتاب التاريخ هذا الذى طبعت منه أربع عشرة طبعة قبل وفاة روبرتسون سنة ١٧٩٣م حقق الناشر «أندرو ميللر» دخلاً

(1) Goldsmith. Good. natured man.
(2) Goldsmith . History of animated Nature.
(3) William Robertson. History of Scotland.- 1759.
(4) William Robertson. Charles V.- 1769.

صافيًا من ورائه قدره ستة آلاف جنيه. ويقال إن إعادة الطبع من هذا الكتاب فى أمريكا سنة ١٨١١ قد باعت ٧٥٠٠٠ نسخة. ونفس هذا الناشر أندرو ميللر قدم للمؤلف هيوم ٣٤٠٠ جنيه عن كتابه، وللمؤلف سموليت ٢٠٠٠ جنيه عن كتابه. وكان كلا الكتابين للمؤلفين المذكورين عن تاريخ إنجلترا. وقد تقاضى اللورد «ليتلتون الأول» ثلاثة آلاف جنيه إسترلينى عن كتابه «حياة هنرى الثانى»[١] ١٧٦٧-١٧٧١. وقد دفع وليام ستراهان «بلديات» الناشر ميللر وأحياناً شريكه ٥٠٠ جنيه إسترلينى لكل كتاب من الكتابين الآتيين: كتاب السير جيمس ستيوارت دنهام «بحث فى مبادئ الاقتصاد السياسى»[٢] سنة ١٧٦٧؛ كتاب آدم سميث «ثروة الأمم»[٣] إنجيل التجارة الحرة سنة ١٧٧٦م.

ولقد كانت هجرة الناشرين الاسكتلنديين إلى لندن نتيجة طبيعية لاتجاهات تجارة الكتب فى لندن نحو إسكوتلندة والتى كانت تشبه القطيعة للكتب الاسكوتلندية. وعلى سبيل المثال فإن كتاب التاريخ الذى وضعه هيوم ظل راكداً لدى ناشره الاسكوتلندى فى إدنبرة فترة طويلة من الزمن ولم يبع منه سوى أقل من خمسين نسخة فى لندن طوال عام كامل. ولم ينجح نجاحاً حقيقياً إلا بعد أن تولاه الناشر الاسكوتلندى «ميلار».

ترتبط فترة ازدهار وإثمار الكتاب الإنجليزى فى القرن الثامن عشر بميل الناشرين إلى تبنى مؤلفيهم ورعايتهم حق الرعاية ومحاولة الحفاظ على حقوقهم وربما كان أول الناشرين الإنجليز فى هذا الصدد هو «جاكوب تونسون» ١٦٥٦-١٧٣٦م الذى بدأ حياته تاجر كتب فى تشانسرى لين. وهو الذى سجل حق طبع كتاب ميلتون «الجنة المفقودة» وكانت طبعته من هذا الكتاب سنة ١٦٨٨م سابقة حقيقية فى تداول الكتب باللغة الإنجليزية. ذلك أن الناشر الأصلى لهذا الكتاب «بيتر باركر» كان قد باع ١٣٠٠ نسخة من أول طبعة ما بين أغسطس ١٦٦٧ وأبريل ١٦٦٩ وانتظر حتى سنة ١٦٧٤ قبل أن يطبع طبعة ثانية

(1) First Lord Littleton. Life of Henry II.- 1767.-1771.
(2) Sir James Stuart Denham. Inquiry into the principles of political economy.- 1767.
(3) Adam Smith. Wealth of Nations.- 1776.

منه. وكان تونسون قد أصبح فى تلك الفترة ناشراً للمؤلفين البارزين من أمثال درايدن، أوتوبى، أديسون، ستيل، بوب، رووى وغيرهم ممن أشرنا إليهم سابقاً، ومن خلال أعمالهم وأعماله هو شخصياً وعلى رأسها «كتاب المجموع»[1] أثرى الفترة الأوغسطية فى إنجلترا على نحو مافعل كوتا للكلاسيكية الألمانية بعد ذلك بقرن. ولقد اختط «بارنابى بيرنارد لنتون» ١٦٧٥-١٧٣٦ نفس الخط وأحياناً بالمشاركة مع تونسون، وقد نشر للعمالقة من أمثال: بوب، جيى، فاركوهار، روبى، بارنيل، فنتون وغيرهم. وتوفر الناشر «روبرت دودزلى» بمفرده أولاً ثم بالاشتراك مع أخيه جيمس على النشر للمؤلفين البارزين: بوب، أكينسايد، أنستى، تشرشل، يونج، جولدسميث، شينستون، ستيرن، الأسقف بيرسى، جونسون. وهو الذى اقترح على الدكتور جونسون فكرة إعداد معجم باللغة الإنجليزية وعين «إدموند بورك» محرراً «للسجل السنوى»[2]. ولقد بدأ روبرت دودزلى حياته العملية من الصفر وحقق شهرة أدبية واسعة كشاعر وكاتب مسرحى. ولقد ساعده ألكسندر بوب فى تأسيس دار النشر، وكان لتجاربه الأدبية الأولى أثر واضح فى توطيد علاقته بمؤلفيه وسخائه معهم. وعلى سبيل المثال فقد دفع لصديقه المؤلف «إدوارد يونج» مائتين وعشرين جنيهاً عن كتابه «أفكار الليل»[3] سنة ١٧٤٢، ودفع إلى المؤلف تشارلز تشرشل مبلغ ٤٥٠ جنيه إسترلينى عن كتابه «المبارز»[4] سنة ١٧٦٣ كما دفع للأسقف بيرسى ٣٠٠ جنيه إسترلينى عن كتابه «آثار (القديسين)»[5] وقد أعاد إلى «كريستوفر أنستى» حق طبع كتابه الناجح الساخر «دليل إلى حمام جديد»[6] سنة ١٧٦٦م إلى جانب أتعاب إضافية قدرها ٢٠٠ جنيه إسترلينى. ولقد ارتفع دودزلى إلى أعلى فجأة مثل كثير من الناشرين، وقد رفض نشر كتاب «تريسترام شاندى»[7] رغم أن المؤلف طلب

(1) Jacob Tonson. Miscellqny.
(2) Annual Register.
(3) Bishop Percy. Reliques.- 1765.
(4) Charles Churchill. The Duellist.- 1763.
(5) Christopher Anstey. New bath guide.
(6) Sterne. Tristram Shandy.- 1760.
(7) Sterne. Tristram Shandy.- 1760.

مبلغاً صغيراً هو خمسين جنيهاً فقط، وقد اضطر دودزلى أن يدفع فيها بعد ذلك ٦٥٠ جنيهاً بعد أن اضطر ستيرن أن يقترض مبلغاً من المال لنشره فى يورك سنة ١٧٦٠م. وقد نجحت كثيراً تجميعات دودزلى من المسرحيات والقصائد للمؤلفين القدامى، فى إحياء الرغبة فى الأدب الإليزابيثى إلى جانب أدب شكسبير.

لقد كانت الاتحادات التعاونية أو أقل الشركات التعاونية إحدى خواص النشر والناشرين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. حقاً لقد كانت الشراكة هى إحدى خواص صناعة الكتاب منذ فجر الطباعة، على النحو الذى كان بين جوتنبرج وفوست؛ ولكن كان ذلك بسبب الافتقار إلى رأس المال اللازم لإقامة المشروع من جانب جوتنبرج. ولكن هذه الاتحادات التعاونية ظهرت بعد ذلك بسبب الرغبة فى توزيع مسئوليات ومخاطرة المشروع على أكثر من جانب، لأن مثلاً هذه المشروعات لم تكن نتائجها مضمونة. ولقد قادت فرنسا الطريق فى هذا الاتجاه منذ مطلع القرن السابع عشر، عندما قامت مؤسسات تعاونية للنشر بسهولة شديدة، وحيث كان من السهل أن تنشأ مؤسسة لمشروع واحد ثم تحل بعد تنفيذ المشروع مباشرة. وكان نشر أول طبعة من مسرحيات كبيرة الحجم من تأليف ويليام شكسبير سنة ١٦٢٣ مشروعاً من هذا النوع التعاونى قام به أربعة من الناشرين الكبار فى لندن وهم: ويليام جاجارد؛ إدوارد بلونت؛ جون سميثويكى؛ ويليام أبسلي. ويبدو أن المحرك الرئيسى وراء هذا المشروع العظيم كان هو ابن «ويليام جاجارد» المدعو «إسحاق» الذى ولد سنة ١٥٩٥؛ الذى كان لتوه قد نشر الترجمة الإنجليزية من كتاب بوكاتشيو «ديكاميرون» سنة ١٦٢٠ وأعيد طبعه ١٦٢٥. ويبدو أن الناشرين الذين دخلوا هذا المشروع لم يحسبوا حسابهم بدقة لأن المسرحيات من حجم الفوليو التى طبعت من قبل لم تنجح بما فيه الكفاية: فأعمال «بن جونسون»[1] المسرحية التى نشرت سنة ١٦١٦ كان عليها أن تنتظر حتى ١٦٤٠ لكى تطبع مرة ثانية. ورغم مغامرة الشركاء الأربعة بالنشر فإن المغامرة كتب لها شيء من النجاح وليس النجاح المطلق كما كان متوقعاً.

(1) Ben Jonson. Works.- 1616.

لقد اتسمت تعاونيات النشر الإنجليزى فى القرن الثامن عشر بقصر المشاركة على الناشرين الكبار المؤسسين فقط، وحيث كانوا فقط هم الذين لهم حق شراء وبيع أسهم الشركة التعاونية. ومما يذكر فى هذا الصدد أن كتاب الدكتور جونسون سابق الذكر «حياة الشعراء» قد أسست لنشره شركة من ستة وثلاثين تاجر كتب؛ وقاموسه أسست له شركة من سبعة حيتان على حسب تعبير «سيجفريد هنرى ستاينبرج» الذى يحلو له أن يصف هذه التعاونيات النشرية بتعاونيات القنغر[1]. ولكن فى سنة ١٨٠٥ طرحت أسهم القاموس للبيع فى السوق وقد بيع منها ١٦٠ سهماً فى تلك السنة. وهذا العدد من الأسهم كان كبيراً للغاية، وكانت العادة أن يدور عدد أسهم مثل هذه التعاونيات حول أربع وعشرين سهماً. وكان «توماس لونجمان» مؤسس دار نشر لونجمان، جرين وشركاهما، أحد هذه الحيتان القناغرة، كما بدأ كل من «جون ريفنجتون» و«جون موريس» حياتهما النشرية بهذا الطريق.

ولقد اختفت تعاونيات النشر واختفى حيتانها القناغرة بالتدريج مع إثراء الناشرين الأفراد ثراءً كبيراً، مما مكن الواحد منهم أن يتحمل وحده المخاطرة فى نشر المشروعات الكبرى، ولأنه ـ للأسف الشديد ـ أفسحت روح التعاون مكانها مع مطلع القرن التاسع عشر لروح التنافس بل والتناحر الشديد غير المحدود.

ولم يشأ القرن الثامن عشر أن ينتهى دون أن يقدم لنا مفارقة تاريخية غير مفهومة إلا للناس الأذكياء فقط!! ذلك أن «جون بيل» ١٧٤٥-١٨٣١ يستحق نيشاناً فى تاريخ الطباعة بما فيها من صناعة الحروف والحبر والنشر والتجليد وتاريخ الصحافة وتوزيع الكتب والتعليم العام، فهو لم يجاهد فقط فى سبيل إعلاء شأن هذه المهن جميعاً ولكنه بالفعل حقق إنجازات ضخمة فى عدد كبير منها. إذ يعزى إلى هذا الرجل التربوى الغيور ناشر المشروعات الكبيرة والمحرر الفذ نشره للعديد من الأعمال الضخمة : «المسرح البريطانى»[2] فى واحد وعشرين مجلداً كانت قد نشرت أسبوعية فى حلقات اعتباراً من ١٧٧٦؛ «شعراء

(1) Congers.

(2) The British Theatre.

بريطانيا العظمى من تشوسر حتى تشرشل»[1] فى مائة وتسعة مجلدات ١٧٧٧-١٧٩٢؛ «الكلاسيكيات الكبرى»[2] ١٨١٣. وتضم الأعمال الكاملة للمؤلف «بلاكستون» ورغم مرور أكثر من قرنين عليها فإنه لم ينشر مثلها بعد. وفى مجال تصميم الحروف نحن مدينون لهذا الرجل جون بيل بالحرف المسمى باسمه «حرف بيل» الذى صممه له سنة ١٧٨٨ «ريتشارد أوستن»، هذا الحرف الذى انتشر أيضاً انتشاراً واسعاً فى المطابع الأمريكية.

لقد كان حرف بيل هذا مجرد منتج جانبى لنشاطات جون بيل الواسعة فى عالم الكتب والدوريات. فمما يذكر عنه أنه أحدث ثورة فى طباعة وإخراج الصحف الإنجليزية، فقد كان المؤسس الوحيد أو بالاشتراك لسنة على الأقل من الجرائد الصباحية والمسائية ويوم الأحد. ولقد تشاجر مع كل الشركاء ولكنه لم يتركهم إلا بعد أن يقبلوا إصلاحاته. وكانت إحدى الجرائد التى أسسها «بريد الصباح»[3] سنة ١٧٧٢ التى استمرت فى الصدور حتى سنة ١٩٣٧ وكانت واحدة من أفضل ثلاث جرائد متميزة. أما جريدته «الحولية الإنجليزية»[4] ١٧٨٦ وجريدته «العالم»[5] ١٧٨٧م فقد استبعدتا حرف f الطويلة من عالم الصحافة، وقد اضطر إلى إيقاف هذا الحرف والاستغناء عنه تماماً عند نشر طبعته من أعمال شكسبير التى بدأها ١٧٨٥م. وكان بيل أول من أدرك أن الجريدة تقرأ على وجه العجلة ولأغراض مختلفة تماماً عن قراءة الكتاب، ومن ثم نظم أساليب طباعة الجرائد على هذا الأساس. ولقد كسرت جرائد بيل قاعدة إخراج صفحات الكتاب وجعلت الأهمية الكبرى للفقرة كوحدة أساسية فى الجريدة تستحوذ على اهتمام وتركيز القارئ والحقيقة أن جريدة «السجل العالمى اليومى»[6] التى صدرت مباشرة ١٧٨٧ بعد توقف جريدة «العالم» كانت نموذجاً على الإخراج الصحفى

(1) The Poets of Great Britain from Chaucer to Churchill.- 1777-1792. 109 vols.

(2) Constitutional Classics.- 1813.

(3) Morning Post.- 1772.

(4) English Chronicle.- 1786.

(5) The World.- 1787.

(6) The Daily Universal Register.- 1787.

الرائع وتمثلت كل الملامح التى كانت موجودة فى جريدة العالم وظلت على هذا المستوى حتى الأول من يناير ١٧٨٨ عندما تغير اسمها إلى جريدة الزمان «تايمز»[1]. وكان الشيء الوحيد الذى لم تأخذ به جريدة تايمز من اقتراحات بيل ولمدة خمسة عشر عاماً منذ ذلك التاريخ هو اقتراحه استبعاد حرف f الطويل من الحروف الطباعية . وهكذا فإن بيل رغم أنفه قد لقب بالأب الروحى للصحافة فى العالم.

ولم يكد القرن التاسع عشر يطلع علينا حتى كانت مهنة النشر قد ترسخت كمهنة متكاملة الأركان أى مهنة الوقت الكامل، وأصبحت مصدر العيش الأساسى لمن يحترفها، وغدت المثالية هى السمة الأساسية للناشر الحق. ويمكننا أن نلاحظ ثبات هذه المهنة ورسوخها من العدد الكبير من دور النشر التى وصلتنا اليوم من ذلك القرن والامتداد الأسرى الفذ لكثير منها، فمن بريطانيا مثلاً وصلنا من القرن التاسع عشر حتى اليوم دور: لونجمان، ريفنجتون، كونستابل، مورير، بلاكوود، تشامبرز، نيلسون، ماكميلان، بلاكى، بلاك، كاسيل. ومن الولايات المتحدة وصلنا هاربر وإخوته، أبلتون، ليتل، براون وشركاه. ومن فرنسا نجد فلاماريون، جارنيير، بلون وهى دور نشر أسست فى بداية القرن التاسع عشر. أما فى ألمانيا فقد أدى الانهيار الاقتصادى بعد حرب القيصر والانهيار الأدبى فى ظل الحكم النازى وبلشفة ألمانيا الشرقية على يد الاتحاد السوفيتى، أدى هذا كله إلى خروج دور النشر الألمانية العظيمة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر من سوق النشر ولم يصل إلينا من عددها الكبير سوى قلة قليلة من بينها «س. هـ. بيك» فى ميونيخ؛ «كارل بايدكر» من ليبزج (والآن فى هامبورج)، «ف. أ. بروكهاوس» فى ليبزج (الآن فى فيسبادن)، «هيردر» فى فرايبورج.

وترجع قوة واستمرارية دور النشر الإنجليزية مقارنة بقريناتها الألمانيات والفرنسيات إلى الاختلاف الواضح فى سياسات النشر. فمنذ منتصف القرن التاسع عشر أصبح هناك اتجاه واضح نحو التخصص والتخصص العميق أحياناً فى كل من ألمانيا وفرنسا، بينما ظلت القاعدة العامة فى بريطانيا والولايات المتحدة

(1) Times.

هى عمومية النشر. ولذلك فإن التغير أو التحول الذى يقع فى الحركات الفكرية والمدارس الأدبية يؤثر تأثيراً سلبياً على مقدرات دار النشر التى تربط نفسها باتجاه فكرى معين أو مدرسة بالذات أو مجموعة محددة من الكتاب.

وكان للتقدم الكبير الذى حدث فى تكنولوجيا صناعة الكتاب أثره بالضرورة فى حدوث تقدم مماثل فى تنظيم وإدارة وتأمين حقوق المؤلف والناشر وصناعة النشر عموماً. وفى مجال تنظيم صناعة الكتاب يجب أن يعزى الفضل إلى «اتحاد تجار الكتب الألمان»[١] الذى أسس فى ليبزج سنة ١٨٢٥ والذى لم يلبث أن ضم الناشرين وباعة الجملة وباعة التجزئة فى الكتاب الألمانى ليس فقط فى ألمانيا وإنما فى كل الدول الناطقة بالألمانية. ولم يؤسس اتحاد بهذه الدرجة من التنظيم والكفاءة حتى اليوم فى أية دولة فى العالم. إلى جانب هذا الاتحاد، قامت اتحادات أخرى فى أماكن مختلفة خلال القرن التاسع عشر: اتحادات للناشرين واتحادات لباعة الكتب، كانت محصلتها جميعاً إنشاء «الاتحاد الدولى للناشرين»[٢].

ولم يقتصر نفع تلك الاتحادات على صناعة الكتاب فقط، وإنما امتد النفع كذلك إلى المؤلفين وإلى جمهور القراء. وكان من بين إنجازاتها العظيمة مناهضة التزوير والقرصنة وإقرار مبدأ السعر الموحد للكتاب.

ولقد وضع التنظيم الدولى لحقوق المؤلفين نهاية لفضيحتى القرن وهما: الطبعات الامتيازية والطبعات المزورة. فالفضيحة الأولى ـ ونعنى بها الطبعات الامتيازية ـ جعلت الناشر والمؤلف يكسبان كثيراً على حساب الجمهور؛ والفضيحة الثانية ـ أى الطبعات المزورة ـ دمرت الناشر والمؤلف المحترم لحساب الجمهور.

ومن المعروف أن القرصنة وتزوير الكتب هى مسألة قديمة قدم الطباعة نفسها. وقد ذهب هجوم مارتن لوثر على هؤلاء اللصوص أدراج الرياح لأن المكاسب التى تعود على هؤلاء القراصنة من وراء تزوير الكتب الرائجة كانت أقوى بكثير

(1) Börsenverein der deutschen Buchhändler.
(2) International Publishers, Association.

من المبادئ الأخلاقية. وكان المجلس الحاكم فى فينسيا[1] هو أول من أصدر سنة ١٤٩٢م قراراً بحماية أحد الطابعين ضد تزوير كتبه من قبل الآخرين. ولكن المشكلة الحقيقة كانت فى أن أية حكومة لا تستطيع تطبيق قراراتها خارج حدودها ولم يكن هناك اتفاق أو حتى تفاهم بين الحكومات المختلفة فى هذا الصدد. وكان أول سد منيع ضد القرصنة وتزوير الكتب قد شيد بصدور قانون حق المؤلف سنة ١٧٠٩. ولكن هذا القانون لم يطبق فى أيرلندا، واستمر الطابعون الأيرلنديون فى الاعتداء على حقوق المؤلفين الإنجليز والطابعين الإنجليز وكانت السلطات الأيرلندية تساعدهم وتساندهم إلى أن تمت الوحدة بين إنجلترا وأيرلندا سنة ١٨٠١م، ومن ثم وضع حد لهذا العبث. ومن الكتب الإنجليزية الشهيرة التي زورت فى أيرلندا كتاب «ريتشارد سون» سنة ١٧٩٣م عن «سير تشارلز جراندسون»[2] الذى صدرت له ثلاث طبعات مزورة فى دبلن قبل صدور الطبعة الأصلية فى لندن؛ حيث تسربت البروفات عن طريق العمال عبر قناة سانت جورج.

والحقيقة أن بعض الناشرين فى الولايات المتحدة كانوا يحترمون ـ وبدون قانون ـ حقوق المؤلفين الأجانب خلال القرن التاسع عشر. وفى هذا الصدد لابد من ذكر شركة هاربر وإخوته فى نيويورك التى كانت تدفع عوائد مجزية للمؤلفين الإنجليز الذين كانت تعيد نشر كتبهم من أمثال تشارلز ديكنز، ماكوليى وغيرهما.

وكان قانون حق المؤلف الإنجليزى سنة ١٧٠٩ وقانون حق المؤلف الفرنسى لسنة ١٧٩٣ (وكان المؤلف طوال حياته وسنتين فقط بعد مماته) هما أول قانونين لحماية حقوق المؤلف والناشر فى دولتين كبيرتين. أما قانون حق المؤلف الذى صدر فى دوقية ساكس رفيمار الكبرى والصادر ١٨٣٩م فقد كان أول قانون من نوعه فى ألمانيا، وكان أول قانون يمد الحماية لمدة ثلاثين عاماً بعد وفاة المؤلف. وقد استغرق الأمر نصف قرن كامل حتى خرج اتفاق برن الدولى إلى حيز

(1) Signoria of Venice.

(2) Richardson. Sir Charles Grandison.- 1753.

الوجود سنة ١٨٨٦. وقد أقر لأول مرة الحماية الدولية لحقوق المؤلفين والناشرين. وعند نهاية النصف الأول من القرن العشرين كانت كل الدول المتحضرة قد صدقت على هذا الاتفاق وإن بقى الاتحاد السوفيتى والدول التابعة بعيداً عنه.

ولقد كان لتجريم تزوير الكتب أثر فعال فى حساب سعر البيع. وتحضرنى هنا المقولة العظيمة التى قالها الناشرون فى هذا الصدد «الكتب غالية لأنها تزور وهى تزور لأنها غالية»، وعندما وقف التزوير كان لابد من الوقوف أمام أسعار الكتب وتوحيدها وتثبيتها، وجاءت اتفاقات «السعر الكامل» تترى واحداً وراء الآخر. وقد بدأ بذلك اتحاد باعة الكتب الألمان سنة ١٨٨٧م ثم تلاه اتحاد الناشرين فى بريطانيا سنة ١٨٩٩م وغيرهما بعد ذلك. وقد أنقذت تلك الاتفاقات باعة الكتب من المضاربة على الأسعار، وحمت الناشر الأمين وأكدت على حق المؤلف وحمته من التلاعب فى السعر.

من جهة ثانية لابد من الاعتراف بأن جمهور القراء قد أفادوا بعض الشيء من وراء تزوير الكتب؛ فقد كان لانخفاض أسعار الطبعات المزورة أثره فى إقبال الجمهور على الشراء لأن الطبعة الأساسية كانت فوق طاقتهم من جانب وربما بعيدة جغرافياً عن محل إقامتهم من جانب آخر. وعلى سبيل المثال فإن الطبعة الأصلية من كتاب «أعمال الفيلسوف سان ـ سوسى»[1] أى فردريك بروسيا الأكبر كانت تباع بـ ٢٧ فلورين، فى حين كانت الطبعة المزورة منها تباع بـ ١٢ فلورين فقط أى أقل من النصف. ومن الطبيعى أن يحرص الناشر الأصلى على أن يظل هو الوحيد الذى له حق طبع الطبعات المختلفة من الكتاب على الدوام. ومن جهة أخرى كان جمهور القراء دائماً يطمح إلى شراء طبعة رخيصة من الكتاب. وفى بريطانيا تم حل هذه المعادلة الصعبة من أوسع أبوابها. وقد بدأ بكسر الأسعار الناشر الاسكتلندى «ألكسندر دونالدسون» من إدنبره بالاتفاق مع باعة الكتب فى لندن وتبعه بعد ذلك جون بيل الذى أشرنا إليه مطولاً من قبل صاحب دار نشر «المكتبة البريطانية». ولقد ساهمت التطورات التكنولوجية التى

(1) Oeuvres du Philosophe de sons - Souci = Fredrick the Great of Prussia.

وقعت فى نهاية القرن الثامن عشر والتاسع عشر، والزيادة الكبيرة فى عدد القراء فى القرنين التاسع عشر والعشرين فى تخفيض أسعار الكتب وزيادة المعروض منها. وقد ظلت الأسعار منخفضة نسبياً حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى حين فرضت الضرائب وارتفع معدل التضخم وارتفاع أسعار المواد الخام والأجور، وغير ذلك مما قلب دفة الأسعار.

وكان للثبات النسبى والاحترام المتبادل بين المؤلف والناشر فى صناعة الكتاب والذى تحقق من مطلع القرن التاسع عشر أثرهما فى توطيد العلاقة بين المؤلف والناشر. وأصبح من عادة المؤلف أن يعرف بنفسه من خلال دار النشر التى ينتمى إليها، كما أصبح من عادة دار النشر أن تعتبر المؤلفين جزءا متكاملاً منها. ونحن نعترف بأنه كانت هناك قبل ذلك نماذج باكرة من المؤلفين الذين يؤثرون دار نشر على أخرى ـ ربما بسبب علاقات الصداقة الحميمة كالتى كانت بين إراسموس وفروبن ـ ونماذج مبكرة من الناشرين الذين يساعدون المؤلفين فى حال عسرهم. ولكن كقاعدة عامة كانت هناك حساسيات دفينة ربما تصل إلى العداء العلنى بين الاثنين. ولابد لنا من أن نقر بأن الثقة المتبادلة بين الاثنين والود الذى أصبح السمة العامة، إنما هى تطورات خدمية وليدة القرن العشرين فقط.

والشواهد على الجفوة والفجوة بين الناشرين والمؤلفين كثيرة، فهذا هو المؤلف النابغة «والتر سافدج لاندور» قد تنقل بين ثمانية وعشرين ناشراً على الأقل فى الفترة من ١٧٩٥ وحتى ١٨٦٣ وغيره كثيرون. ولكن هناك نماذج رائعة على علاقة المؤلف الواحد بالناشر الواحد، وتطور علاقة النشر بينهما إلى صداقة دائمة. وتاريخ دور النشر ملىء بمثل هذه الأمثلة.

لقد أدت علاقات العمل الطيبة والذوق الرفيع إلى إحياء فكرة علامة الطابع فى منتصف القرن التاسع عشر. تلك العلامة التى ابتدعها بيتر شوفر فى منتصف القرن الخامس عشر للدلالة على الجودة، سقطت بعد فترة من انتشارها فى مستنقع النسيان. وفى إنجلترا جعل قانون حق المؤلف سنة ١٧٠٩م من هذه العلاقة شيئاً سطحياً، حيث أعطى هذا القانون الاهتمام الأكبر لحماية حقوق منتج الكتاب حماية قانونية أكبر بكثير مما يمكن للعلامة التجارية أن تقوم به من

حماية شكلية. وأكثر من هذا فإن التحول من التركيز على الطابع إلى التركيز على الناشر، أدى بالضرورة إلى إهمال دور الطابع فى إنتاج الكتاب ومن ثم نادراً مايذكر فيه. وكان الناشرون من جهة ثانية غير راغبين فى إبراز دور الطابعين. وكانت التعاونيات الناشرة التى تألفت كما ألمحت من الحيتان غير راغبة أصلاً فى تبنى علامات تجارية كهذه.

ويعزى إلى «تشارلز ويتنجهام» (الأصغر) ابن أخ مؤسس مطبعة تشيزويك إعادة استخدام علامة الطابع سنة ١٨٥٠م، ثم التقط منه هذه الفكرة كل من «ر. ر. كلارك» من إدنبرة، «ت & أ. كونستابل»، «وليام موريس». وهذا الأخير طبع أول كتاب لحسابه فى مطبعة تشيزويك سنة ١٨٨٩م. وربما كان الدافع إلى إحياء هذه العادة القديمة كان دافعاً فنياً واقتصادياً فى نفس الوقت، فقد كان القصد من هذه العلامة خدمة الطباعة والدعاية فى وقت واحد. ولم يلبث الناشرون أن طوروا لأنفسهم علامات خاصة بهم. ومن المؤكد أن علامة السفينة المبحرة التى اتخذها «إنسل رفيرلاج»، والنافورة التى اتخذها «كولنز» وطائر البطريق التى اتخذها «بنجوين» وتسمى باسمه وغير ذلك كثير قد طبعت نفسها وترسخت فى ذاكرة الملايين من القراء. ومن المثير للدهشة أن كثيراً من الناشرين الإنجليز مازلوا يحجمون عن استخدام هذه الوسائل البسيطة المعينة على التذكر، وبعضهم ـ ومن بينهم مطبعتا الجامعتين العريقتين كمبردج وأكسفورد بل وماكميلان ـ يستخدمون هذه العلامات فقط من حين لآخر وليس استخداماً متصلاً. هذا فى الوقت الذى يبرز فيه كل ناشر ألمانى علامته التجارية على كل كتاب يحمل اسمه وبياناته.

ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل أن نحصل على تقدير ولو تقريبى لحجم الأهمية الاقتصادية لصناعة الكتاب فى العالم فى الفترات التاريخية المختلفة، فقد استقلت فروع الصناعة الواحدة وأصبحت اقتصاداً قائماً بذاته: الطابعون، المنضدون، سابكو الحروف، مصححو البروفات، الناشرون، باعة الكتب، الوراقون، الوكلاء الأدبيون، المجلدون. . كلهم وضعوا حدوداً فاصلة لأعمالهم تعزلهم عن الآخرين، بل وتجعل منهم أصحاب مهنة مختلفة. بل ويجب أن نضيف إلى هؤلاء جميعاً المؤلفين والمترجمين على اختلاف مشاربهم وتفاوت درجاتهم الذين تذهب أعمالهم إلى حبر الطابع وزنكاته.

لقد كان عدد «أسطوات الطباعة» ١٠٣ أسطى سنة ١٧٢٤م أى بعد جيل واحد من زوال قانون الترخيص، من بين هؤلاء ٧٥ فى لندن وحدها و٢٨ فى الأقاليم مجتمعة. وفى سنة ١٧٨٥م أصبح هناك ١٢٤ مكتب طبع فى لندن وفى سنة ١٨٠٨م زاد هذا العدد إلى ٢١٦. وبعد ذلك التاريخ لا يمكن الاعتماد على إحصاءات المطابع لأنها لم تعد دقيقة ولا ذات معنى. من جهة ثانية ران على المطابع نوع من التخصص لم نصادفه من قبل. ففى ذلك الوقت استقل منضدو الصحف وعزلوا أنفسهم عن منضدى الكتب واعتبروا أنفسهم طائفة مستقلة. وتخصص كثير من المطابع فى نوع واحد من الطباعة، مثل الطباعة للمسارح، الطباعة للسكك الحديدية، الطباعة الملونة، طباعة كتب القانون، طباعة كتب الفنون وهكذا. ولابد لنا من الاعتراف هنا بأن التوسع الكبير الذى حدث فى صناعة الكتاب قد أدى بالضرورة إلى ظهور طباعة عملاقة تطلبت رأسمال ضخم بشراء وتركيب أجهزة وآلات معقدة، وأصبح أسطوات الطباعة القدامى جزءا لايتجزأ من البنية العامة للاقتصاد الجديد.

ولأن الطابعين كانوا فى حقيقة الأمر من بين أفضل الجماعات تعليماً وأكثر الحرفيين مهارة وذكاء. فقد كانت شركاتهم واتحاداتهم أعمق أثراً فى الحياة من عددهم المحدود نسبياً. وعلى سبيل المثال تم الاتفاق بين أسطوات المطابع فى لندن سنة ١٧٨٥م واتحاد المنضدين على جداول أجور التنضيد (بما يعنى تقلص نفوذ وسيطرة شركة الوراقين على الصناعة). ومرة أخرى كانت الطباعة الإنجليزية سباقة إلى فكرة التفتيش الإجبارى على المطابع فى سنة ١٧٨٤م. ومنذ ١٧٩٠م وصاعداً بدأت الاتحادات الإنجليزية المتفرقة الداخلة فى نطاق الطباعة والمهن ذات الصلة فى التحرك نحو الدخول فى اتحاد عام وطنى، وهو ما ظهر سنة ١٩٠٢م تحت اسم «الاتحاد العام للطباعة والتجارات ذات الصلة». وكان عدد أعضاء هذا الاتحاد فى ذلك الوقت أقل من خمسين ألف عضو، ولكن فى منتصف قرننا العشرين وصل عدد المشتركين إلى نحو ٣٢٠٫٠٠٠ عضو. وربما تكون الأهمية النسبية للاتحاد ليست فى عدد الأعضاء بقدر ما تكون فى فاعلية

العمل والنشاط، وعلى سبيل المثال فإن «اتحاد مصممى الخرائط والتخطيطات» «وجمعية مصممى النوتات الموسيقية» لايزيد عدد أعضائهم معاً على ٨٢ عضواً، و ومع ذلك يؤديان وظائف جليلة كل فى مجال تخصصه. وهناك من ينظر إلى منضدى الحروف على أنهم أرستقراطيو مهنة الطباعة عموماً، ويقف منضدو مطابع لندن منهم موقف الصدارة ولهم جمعية خاصة بهم اسمها (جمعية منضدى لندن). هذه الجمعية بعد اندماجها فى جمعية أخرى سنة ١٩٥٥ تعرف بجمعية لندن الطباعية، وصل عدد أعضائها سنة ١٩٥٧م إلى ٢٠٠١٤ (عشرين ألف وأربعة عشر). وكان عدد أعضائها قبل ذلك الاندماج يسير على النحو التالى:

١٨٠٩ ــــــــــ ٧٢٢ عضواً

١٨٤٥ ــــــــــ ١٧٥١ عضواً

١٨٧٥ ــــــــــ ٤٢٠٠ عضواً

١٩٠٠ ــــــــــ ١١٣٥٥ عضواً

١٩٥٧ ــــــــــ ٢٠٠١٤ عضواً

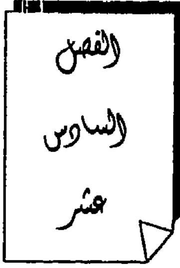
وفى سنة ١٩٠٠ كان هناك عدة آلاف من المنضدين خارج الجمعية ولا ينتمون لأية اتحادات، ولكن عددهم تقلص كثيراً مع منتصف القرن العشرين. وكان لإدخال الجمع الآلى أثر فى سرعة التنضيد وبحجم أكبر مما كان عليه الحال منذ خمسين سنة قبل ذلك الأسلوب فى التنضيد.

ولقد جلبت الحرب العالمية الثانية محاولات وانتصارات حقيقية فى معدلات غير مسبوقة سواء فى التنضيد أو الطبع. وكانت الطلعات الجوية الألمانية على لندن قد دمرت كل دور النشر حول شركة الوراقين التى دمرت عن آخرها تقريبا ودمرت معها نحو عشرين مليون مجلد، وكما تدين تدان قامت قوات الحلفاء بطلعات جوية على ليبزج ودمرت معها كل مركز تجارة الكتاب الألمانى، ثم ضم

ليبزج بعد ذلك فى منطقة الاحتلال السوفيتى. وكان على كل دور النشر القديمة هناك أن تبدأ من جديد فيما عرف بعد ذلك بألمانيا الغربية.

ولقد كانت الحاجة إلى مواد القراءة خلال سنوات الحرب تفوق بمراحل كل الأرقام السابقة على الحرب. ذلك أن أوقات الانتظار الطويلة المملة والبطالة ووقت الفراغ بين المعارك والخروج إلى البحار العليا وملاجئ الحماية من الطائرات والمستشفيات كلها أعلت من قيمة الكتاب، وكشفت عن معدنه الأصيل كصديق للملايين من جهة، بل وغرس عادة القراءة ـ ربما مضطرين ـ بين ملايين جدد لم يكونوا قبل الحرب بقارئين. وهكذا فإن قصد قوات النازى من تفريغ لندن من الكتاب قد ملأ لندن بالكتاب والقارئ، والرد البريطانى وقوات الحلفاء بتفريغ ليبزج من الكتاب قد حرك ذلك الكتاب إلى أماكن أخرى غربى ألمانيا. وكانت رغبة الجموع فى الحصول على الكتب وخاصة الكتب الرخيصة السعر فى ذلك الوقت، دافعاً قوياً للناشرين وباعة الكتب والمؤلفين فى الاستماتة فى وقف «الضريبة على المعرفة» التى هدد نائب إكتشيكز بفرضها سنة ١٩٤٠. ولم يكن ذلك النائب فى ذلك الوقت ليفرق بين الكتب والأحذية كما أعلن هو بنفسه، عندما أراد أن يخضع تلك السلع لضريبة المبيعات. ونفس الصرخة ضد هذه الفكرة جاءت من السير «جيوفرى فابر» مما حمل النائب المذكور على العدول عن مشروعه قبل أن تلحقه الهزيمة المؤكدة فى البرلمان. هذا النصر، إنما هو بمثابة إعلان رسمى عن أن الكتاب إنما هو ضرورة من ضرورات الحياة يقف على قدم المساواة مع رغيف الخبز اليومى. وهو فى نفس الوقت مجرد حصيلة واحدة من محصلات خمسة قرون من الطباعة.

* * *



تكاليف إنتاج الكتاب المطبوع

اعتمد نجاح اختراع الطباعة منذ البداية على حرفية العاملين بها والذين استطاعوا - فى ظل مناخ ملائم لإنتاج الكتب ميكانيكياً ـ تطوير أساليب صب الحروف وتنضيد الحروف وطبع النصوص. أما إتقان الطباعة وانتشارها - إلى جانب حرفية العاملين - فقد تطلب ذكاء وحساً إدارياً مرهفاً بالإضافة طبعاً إلى إدراك كامل وجسور لمتطلبات الجمهور القارئ المشترى للكتب. ولقد واجه الطابعون الأول العديد من المشاكل الاقتصادية التى لم يكن لها نظير فى إنتاج المخطوطات، والتى كان يتعين عليهم أن يتغلبوا عليها إن أرادوا أن ينجحوا. وسوف أحاول فى هذه الجزئية من البحث والجزئية التالية أن أتناول الجوانب الاقتصادية فى صناعة الكتاب، واضعاً فى الاعتبار أن المشاكل التكنولوجية والفكرية والقانونية والسياسية لها هى الأخرى تبعات اقتصادية.

ولابد لنا أن نتذكر أن كثيراً من الطابعين الأوائل كانوا حرفيين فى حرف أخرى قبل امتهان الطباعة، ومن ثم كانت لهم انتماءاتهم النقابية وارتباطاتهم بعاداتها وتقاليدها التى كانت سائدة آنذاك. وكانت تلك الانتماءات والارتباط محكومة بالقواعد والتعليمات المعمول بها فى المؤسسات والشركات التى جاءوا منها. ولكن صناعة الطباعة ككل لم تكن - باعتبارها مهنة جديدة - مضطرة للانخراط فى نظام نقابى صارم، ومن هنا فإن الغالبية العظمى من «الأسطوات» والطابعين الجائلين والصبية الأشراق لم ينضووا تحت طائلة النقابات. ولهذا فإن تلك الحرية والتحرر من سلطة النقابات ساعدتا كثيراً على نمو وتطور الفن الجديد، ولكنهما فى نفس الوقت أديا إلى شيء من النمو العشوائى للمطابع والمنافسة غير السوية مما أسفر عن فشل كثير من المطابع وخروجها من سوق الطباعة سريعاً. ولم يكن هناك تقعيد ولاتنظيم للعمل الطباعى، وتخفيض الأسعار كان يتم دون ضابط أو

رابط. وكان الإعداد المهنى للطابعين والدخول إلى هذه المهنة ليست له مواصفات أو معايير مرعية. وقد شجع غياب التنظيم والقواعد غير المؤهلين وغير الأكفاء والمغامرين إلى دخول مجال الطباعة والنشر دون المؤهلات والأدوات اللازمة لذلك.

لقد تطور الفن الجديد على أساس المشروعات الحرة، تطور على أساس فكرة التجربة والخطأ مما أعطى الطباعة كثيراً من الخواص الديناميكية الحركية التى لم تتوافر للمهن الراسخة، والتى جعلت من الطباعة مجالاً ممتعاً لدارسى التاريخ الاقتصادى. وطالما دخل إلى الميدان رجال (وبعض النساء) من فئات مختلفة متباعدة، فقد غدا من الصعب انصهارهم فى بوتقة التعاون أو فى شىء من التوحيد. وقد يكون من الأوفق أن نضيف أن التطور غير المحكوم والمستقل للطباعة كان من الممكن ألا يحدث إلا فى حالة اضمحلال قوة النقابات التى بسطت سلطانها فى معظم المناطق والمحليات فى الفترة التى دخلت فيها الطباعة إلى الميدان.

ولقد تعالت صيحات هنا وهناك من جانب النقابات الموجودة آنذاك تعترض على الحرية التى يتمتع بها الطابعون والمنافسة غير العادلة من جانبهم. ولذلك نجد «جونتر زينر» و«جوهان شوسلر» فى أوجزبرج يدفعان نقابة الفنانين إلى الاعتراض على استخدام الحروف الأولى المصنوعة من كتل الخشب فى سبعينات القرن الخامس عشر. وقد كان زينر وشوسلر من أوائل الطابعين. وكان استخدام الأولويات المأخوذة عن كتل الخشب يؤثر بطبيعة الحال على أعضاء ونقابة الفنانين. وقد حسم هذا الصراع بعد تدخل الأب «ملشوار فون ستامهايم» أب دير سانت أولرخ وأفرا الذى كان مرحباً بالفن الجديد، واستمر الطابعون فى أوجزبرج يستخدمون الأولويات والزخارف والأطر والصور المأخوذة من كتل الخشب دون أية مشاكل تذكر بعد ذلك. وفى نفس الوقت تقريباً حدث نزاع مشابه فى جنوا عندما تقدم الناسخون بالتماس إلى مجلس المدينة (فى ١٢ من مايو ١٤٧٢) وذلك لتحجيم «الغرباء الذين يطبعون المجلدات»، وإبعاد هؤلاء الطابعين الألمان الذين ينتجون أدلة الصلوات، وكتب القداس، وكتب الساعات، وكتب النحو، وقد تصادف أن كانت كل تلك الكتب من إنتاج منسخ «بارتولوميو لوبوتو» القائم فى نفس مدينة جنوا. وفى سنة ١٤٧٧-١٤٧٨م احتج المزوقون

والمزخرفون فى مدينة تولوز لدى مجلس المدينة ضد طباعة الكتب طالما أن الطابعين لا يمكنونهم من العمل معهم.

لقد كان الرسامون والناسخون والمزخرفون مهمومين فى السنوات الأولى للطباعة بنشاطات المطابع وآثارها على «العمل المنظم». ولكن مخاوفهم واعتراضاتهم لم تدم طويلاً. واستمر لوبوتو فى عملية إنتاج المخطوطات وبيعها إلى جانب الكتب المطبوعة، ليس لأن الطباعة لم تزدهر فى جنوا ولكن أيضاً لأنه لم يكن يستطيع أن يوقف تطور ذلك الفن فى مدينته. وفى حدود معلوماتنا لم تتكرر شكوى النقابات من الطابعين ولم يكن هناك المزيد من الاعتراضات من جانب تلك المنظمات فى نهاية القرن الخامس عشر. ولم يتناقص حجم عمل المحمرين والمزخرفين بل على العكس زاد فى معظم مراكز الطباعة، واستمر هذا التصاعد فى أعمالهم حتى نهاية القرن عندما انتشر استخدام الأولويات المطبوعة وتفوق على أعمال التحمير اليدوية التى كان المحمرون يقومون بها. ولكن من جهة ثانية استمر المزخرفون فى عملهم بعد هذا التاريخ بفترة، وكانوا يزودون الكتاب المطبوعة بالإيضاحيات المأخوذة من كتل الخشب، حيث كانت المطابع تستخدمهم كما كانت تستخدم الرسامين الذين يرسمون الصور على الكتل الخشبية. وتحول الناسخون والخطاطون الذين توقفوا عن النسخ والخطاطة إلى طابعين أو مساعدى طابعين.

وكان من مميزات النقابات أن النقابة كانت لديها قوة التوسط بين أعضاء النقابة وحكومة المدينة عندما يحدث نزاع أو خلاف أو تضار مصالح الأعضاء. وعندما أرادت مدينة استراسبورج أن تنظم أعمال الطابعين، كان الطابعون هناك يرغبون فى إقامة تنظيم قوى ووضع إجراءات محكمة. وكان بفضل مساعدة هؤلاء الطابعين أن أسست نقابة الفنانين فى وقت مبكر. وفى سنة ١٥٠٢م اتخذ مجلس المدينة قراراً بضرورة انخراط كل العاملين فى مجال الطباعة، فى تلك النقابة على أن تفرع إلى فرعين : «طابعون قادرون على إدارة مطابع كبيرة» و «طابعون ممارسون عموميون». وهذه الخطوة من جانب مدينة ستراسبورج كانت خطوة فردية ولم تكن ممارسة عامة فى ألمانيا ولم تمنع من ازدياد عدد المطابع، وانتشارها. ومن المعروف أنه فقط عندما وجدت نقابات أو منظمات قوية للوراقين (قبل دخول الطباعة) كانت هناك سيطرة قوية ناجحة على المهنة على

النحو الذى كان عليه الحال فى إنجلترا عندما أسست شركة الوراقين سنة ١٤٠٣ وضمت جميع الناسخين والمزخرفين والمجلدين، وفى سنة ١٥٥٦ ضمت إليها الطابعين وباعة التجزئة والجملة فى الكتب. ومن المؤكد أن وجود نقابة لصناع الكتاب كان نقطة التحول نحو وضع قواعد ولوائح لممارسة العمل فى المهنة الجديدة. ولقد أشار «جراهام بولارد» فى دراسته القيمة عن «شركة الوراقين» إلى حقيقتين هامتين فى هذا الصدد: أولاهما أنه لم يكن هناك سبب يدعو أعضاء شركة الوراقين إلى الاعتراض على دخول الطابعين إلى عضوية الشركة؛ وثانيتهما: أنه كان على الطابعين والوراقين أن يلتحقوا بالشركة قبل أن يضعوا بياناتهم على الكتب التى يطبعونها[(١)]. وهكذا نصادف فى نقابة واحدة القديم والجديد معاً فى صناعة الكتاب. وهى نفس النقابة التى أدت خدمات جليلة للكتاب الإنجليزى، فهى التى استصدرت قراراً ملكياً بمنع المنافسة غير الشريفة وغير العادلة بين أرباب الفئة الواحدة، ومنع الاستيراد غير المهم وغير اللازم، وهى نفس النقابة التى روجت للكتاب فى المحليات، وهى نفسها التى أخرت كما رأينا من قبل انتشار المطابع فى المدن البريطانية.

وباستثناء إنجلترا فإن سائر الدول الأوربية لم تتقدم فى اتجاه تنظيم المطابع ووضع لوائح وتعليمات العمل بها. وربما كانت هناك عوامل داخلية عوقت تلك اللوائح والتنظيمات خارج الحدود الاقتصادية. كما كانت هناك ظروف منعت أو حدّت من انتشار المطابع ونموها الكبير، ومن بين الأسباب المؤدية لذلك **أولاً:** المخاطرة الكبيرة فى إنشاء مطبعة ضخمة مرتفعة التكاليف وتجهيزها بالآلات والمعدات. **ثانياً:** ارتفاع تكاليف الورق وصعوبة العثور على المساعدين الأكفاء وتدريبهم ودفع أجورهم. **ثالثاً:** صعوبة العثور على النصوص المناسبة واختيارها وتقدير حجم الطبعات من كل كتاب التى كان يجب أن تلائم التكاليف والاستثمارات فيها، والتى يمكن تسويقها بسرعة وبدون بواقى كثيرة. وهذه

(1) Graham Pollard. "The Company of Stationers before 1557"in.- The Library, Series 4, XVIII, 1939.

التبعات كلها مشاكل جديدة ليس لها سوابق فى عصر المخطوطات وإنتاج المخطوطات. وكانت القضية فى ذلك الوقت قضية البقاء للأصلح وإن لم يكن بالضرورة الأفضل والأحسن. وكان عدد المطابع التى فشلت فى البقاء كبيراً ويجب أن نتعجب لماذا لم يكن أكبر من ذلك.

لقد كان بعض مراكز نسخ المخطوطات ينتج بعض المخطوطات دون طلب فعلى عليها، كما أن المطابع كانت تطبع ما تعتقد أن هناك حاجة فعلية إليه، وما كانت تعتقد أنها تستطيع أن تسوقه بأعداد كبيرة من النسخ تغطى تكاليفها وتترك هامش ربح للطابع. ولأن عدد النسخ المطبوعة كان أكبر فإن مخاطرة المطبعة بالتالى كانت أضخم من مخاطرة المنسخ. ويكشف التنوع الكبير للكتب المطبوعة فى الفترة الباكرة للطباعة عن أن الطابع لم يكن يستثمر فقط، بل كان يغامر أيضاً فالمكسب المتوقع كان مغريا والجمهور القارئ كان متعطشاً لاستيعاب تلك المنتجات بأعداد كبيرة. ولفترة ما كان الطابعون أو بعض خلصائهم هم الذين يتوفرون على اختيار المخطوطات التى يتم طبعها من بين فيض المخطوطات التى كانت موجودة آنذاك والتى كان بعضها مكتوباً بخط صعب القراءة وغير مألوف.

حقا لقد كان عدد المخطوطات الموجودة فى نطاق مدينة المطبعة وما حولها محدوداً صغيراً، ولكن كانت إعارة المخطوطات وتداولها فى تلك الفترة أمراً شائعاً وعلى نطاق واسع. وكان من السهل استخدام النساخ لنسخ أية مخطوط يرغب الطابع فى طبعه. من جهة ثانية قام الباحثون والعلماء بنصح الطابعين فى اختيار المخطوطات التى تنشر. ولم تلبث العجلة أن دارت ولم تعد المخطوطات وحدها هى المعول عليها فى الطباعة وإنما غدا الاعتماد على كتب مطبوعة كذلك فى إعادة الطبع. وكان هناك الكثير مما يستطيع الطابعون الاختيار من بينه، ولكنهم كانوا يواجهون عادة صعوبة اتخاذ قرار ماذا يطبعون : ماهى العناوين التى تجعل الطابع يربح وماهى تلك التى تجعله يخسر؟ وقد يكون من الملائم أن نستعرض القطاعات التى كان من الممكن أن يختاروا من بينها:

١- أعمال المؤلفين الكلاسيكين (منذ هوميروس وحتى كلوديان) وشروحات

وحواشى تلك الأعمال.

٢- كل الكتاب المقدس أو أجزاء منه، وكتابات آباء الكنيسة وشروحات وحواشى الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة والتى كانت كثيرة جداً.

٣- كتب العصور الوسطى عامة وعلى وجه الخصوص الكتابات اللاهوتية والقانونية، وكذلك سائر العلوم والآداب التى جدت وبالذات فى العصور الوسطى المتأخرة.

٤- أعمال المؤلفين المعاصرين الذين واكبوا عصر الطباعة أو قبلها بقليل، ومن بينهم الإنسيون والإصلاحيون واللاهوتيون والقصاصون. . .

ولقد تم اكتشاف مئات من المخطوطات غير المعروفة وإعادة اكتشاف مئات من المخطوطات التى وصلتنا أخبارها دون كياناتها، وذلك خلال البحث المحموم عن المخطوطات من قبل جماعات الإنسيين مثل «بوجيو براكيولينى» الذى كان يستغل فرصة حضوره اجتماعات مجلس بازل ليبحث عن المخطوطات «القديمة» فى أديرة سويسرا وألمانيا وفرنسا. كذلك فإن الرجال الذين كانوا يعيشون فى شمال الألب ـ والذين لايستحقون أن يطلق عليهم الإنسيون بالمعنى الدقيق ولكنهم كانوا يتشبهون بالإنسيين الإيطاليين المعاصرين لهم ـ هم الآخرون اكتشفوا كما اقتنوا العديد من المخطوطات القديمة، والتى أتاحوها للطابعين الباحثين عن نصوص يطبعونها[1]. ولعله من نافلة القول التذكير بأن المهاجرين الإغريق الذين هاجروا من اليونان إلى سائر الدول الطابعة ـ وخاصة إيطاليا، إضافة إلى البعثات العلمية المختلفة التى ذهبت إلى اليونان ـ كلهم جلبوا معهم مخطوطات يونانية وبيزنطية إلى إيطاليا. وقد يتعجب المراقبون كيف أن الطابعين فى القرن الخامس عشر لم يطبعوا كميات أكبر من تلك الذخائر ولم يفيدوا منها كما يجب. وقد اتهم هؤلاء الباحثون وعلى رأسهم «جورج سارتون» طابعى ذلك القرن بمرارة على تحفظهم

---

(١) كان من بين الباحثين عن المخطوطات فى تلك الفترة : نيقولاس دى كوزا، ماتياس ويدمان، سيجيسموند ميسترلين، أمبلونيوس راتلينك، الدوق همفرى من جلوكستر.

فى الطبع وعلى عدم وجود روح المبادرة والمخاطرة. والحقيقة أن هذه الانتقادات ليست واقعية بالمرة، لأن الطابعين كانوا محكومين بمتطلبات المجتمع القارئ المتعلم. وقد بنى سارتون وزملاؤه انتقاداتهم لطابعى القرن الخامس عشر بناء على تحليل إحصائى للعناوين فقط، وأنا لست ضد التحليل الإحصائى الرقمى ولكن يجب أن يربط بظروف المجتمع والبيئة والاقتصاد. ولعل سارتون ولينهارت وغيرهما قد أهملوا حقيقة أن العناوين التى درسوها كانت من أحجام وطبعات مختلفة وكان الهدف والمحتوى مختلفاً. وقد تحدثوا فقط عن المجموع الكلى لتلك العناوين بصرف النظر عن كونها فروخاً فقط أو حجم الثمن أو الربع أو القطع الكبير، كتيبات كانت أو مجلدات ضخام. وهم يساوون فى نقدهم بين الكتب البحثية والكتب الشعبية؛ التقاويم الفلكية مثل الدراسات الفلكية، كما يساوون بين الطبعات المدرسية من خطابة شيشرون وبين إلياذة وأوديسة هوميروس؛ إعلان بابوى من أربع ورقات ومجلدات سانت أوغسطين. وإن دراسة متأنية فى كتاب ج. إ. ساندى «تاريخ البحث الكلاسيكى» وخاصة الجدول المتعلق بالطبعات الأولى، تكشف لنا عن شجاعة وجسارة هؤلاء الطابعين الأوائل ونجاح كثير من الكتب التى طبعوها فى اختراق صفوف القراء والمشترين، فمع سنة ١٤٧٠م بدأ المؤلفون الآتى ذكرهم يظهرون على مسرح الطباعة : شيشيرون؛ أبوليوس، جيليوس، قيصر، لوكانوس، بلينى، فيرجيل، ليفى، سالوست، جوفينال، بيرسيوس، كوينتيليان، سويتونيوس، تيرنس، فاليريوس ماكسيموس، تاكتيوس. ولم تأت سنة ١٤٨٠م حتى كان هناك عدد من المؤلفين الإغريق قد ظهروا بدورهم على مسرح الطباعة وإن لم يكونوا بكتبهم الأصلية أى باللغة اليونانية وإنما بالترجمات اللاتينية لتلك الكتب وهم : إسترابو، لوسيان، أفلاطون، بلوتارك، هيسويد، هوميروس، بولبيوس، هيرودوت، هيروكليس، فيثاغورس، بطليموس، زينوفون، ديوقريطس، أرسطو وغيرهم. وإن كانت النسبة المئوية للكتب الكلاسيكية المطبوعة فى القرن الأول للطباعة ليست عالية فإنها فى ظل تلك الظروف تدعو حقيقة إلى الإعجاب.

لقد عرف الطابعون - كما عرف أسلافهم النساخون - من هم قراء الكتب المطبوعة. وقد كانت احتياجات رجال الدين والمهنيين والمدرسين والطلاب معروفة ومستقرة، ولتلبية تلك الاحتياجات كان على الطابعين أن يختاروا من بين المخطوطات المكتشفة حديثاً، والطبعات الجديدة والشروحات والتعليقات الحديثة على الأعمال القديمة والترجمات، كما كان عليهم أن يختاروا من بين الكتابات المعاصرة التى بدأ فيضانها يزداد. لقد كانت اختياراتهم عريضة وواسعة ولكن نجاحاتهم لم تكن مضمونة. هل يمكن للكتاب أن يسوق وكم نسخة يمكن أن تباع منه وبكم تباع النسخة؟ وهل هذا الكتاب أو شبيه له يطبع عند طابع آخر منافس؟ وهل عندما ينجح هذا الكتاب هل يقدم زميل آخر على طباعته، وهل تعطل الطبعة الأخرى بيع طبعة الكتاب عند الطابع الأول؟ وكان الطابعون عادة مايعتمدون على أصدقائهم المتعلمين والمثقفين لإحاطتهم علماً ببرامج النشر عند الطابعين المنافسين. وقد احتفظت لنا مراسلات الإنسيين بالعديد من التقارير من هذا النوع. ومع ذلك فإن اختياراً خاطئاً لكتاب أو نصيحة غير دقيقة كان يمكنُ أن تدمر طابعاً؛ ومن المفهوم أنه حتى الطابعين الناجحين يمكن أن يلجأوا إلى نصائح معارفهم وعلى سبيل المثال كان «يعقوب ويمفيلنج»[1] الإنسى الشهير كان يقترح بعض الكتاب على الطابع «أميرباخ»، وكانت اقترحاته غالباً صائبة وناجحة. ففى سنة ١٤٩٥م اقترح عليه طبع أعمال «روزويثا»[2] التى اكتشفها الكلتيون فى السنة السابقة فى ريجنزبيرج، ولم يستجب أميرباخ لهذا الاقتراح ولم تنشر تلك المخطوطات حتى سنة ١٥٠١م حين طبعها «هولتزل» فى نورنبرج. ولقد حاول ويمفيلنج عدة مرات أن يغرى أميرباخ بطبع أعمال «بابتستا مانتوانوس» وحثه على عدم التردد في ذلك حتى يلحق الكتاب بمعرض فرانكفورت. وطالما لم يعد بيع الكتب مخاطرة فى القرن السادس عشر فقد قلت فرص القلق إلى حد كبير على الأقل بالنسبة للكتب القياسية المعروفة، وأصبحت المعلومات عن نشاطات المطابع

(1) Jakob Wimpheling.

(2) Wroswitha.

المنافسة متاحة بل ومنشورة. لم يتحسن الوضع بالنسبة لمؤلفات المعاصرين، ولم تكن عائدات المولفين من وراء أعمالهم قد عرفت فى العهد الأول للطباعة على الرغم من أنه قد سجلت حالات تقاضى بعض المؤلفين والمحررين والمترجمين لمبالغ مقطوعة، كما تلقوا نسخاً من أعمالهم، كما كان كثير منهم يأملون فى مكافأة أو ثواب مقابل عملهم، على الأقل بعض الثناء والمديح فى مقدمات الكتب التى يكتبها الطابعون.

وحتى قبل أن يبدأ الطابع فى اختيار مايطبع كانت تصادفه مشكلة كيفية الحصول على مطبعة أو كيفية إقامة مبناها وكيفية شراء معدات السبك والمعدن اللازم لصب الحروف، أو كيفية شراء القوالب الضرورية لذلك. والحقيقة أن معلوماتنا عن قيمة تكاليف شراء معدات الطباعة فى القرن الخامس عشر هى معلومات مشوشة ونادرة. ولكن من المؤكد أن تلك الأسعار كانت تتفاوت تفاوتاً كبيراً اعتماداً ليس فقط على توافر المطابع والقوالب وحاجة البائع إلى الحصول على المال، ولكن أيضاً على حجم وحالة المطبعة والأدوات وعدد وحجم الأبناط المتاحة. ومن واقع وثائق الدعوى التى أقامها «فوست» على «يوحنا جوتنبرج» نعرف أن هذا الأخير قد تلقى من الأول مبلغ ١٦٠٠ جيلدر لإنشاء مطبعة وربما لإنتاج الإنجيل ذى الاثنين والأربعين سطراً. وقد عقد «س. ف. بوهلر» مقارنة شيقة مع مرتب الدكتور همفرى مدير جامعةماينز الذى كان يتقاضى فى ذلك الوقت ما بين ١٠٣ إلى ٢٠٨ جيلدر فى السنة «مما أتاح له أن يعيش عيشة هانئة». ولانعرف إن كان جوتنبرج قد دفع من ماله الخاص المحدود شيئاً آخر أم لا؟ وإن كان فكم؟. ولدينا معلومات عن بيع مطابع «شوسلر» الخمس بمبلغ ٧٣ جيلدر مع كل مستلزماتها إلى دير سانت أولرخ وأفرا فى أوجزبرج سنة ١٤٧٣، فى حين كانت التكلفة الكاملة لتركيب تلك المطابع هناك فى الدير قد بلغت ٧٠٠ جيلدر. ولدينا وثيقة تقول بأنه فى سنة ١٤٧٤م اشترى «أولدريكوس فورتونيو دى ألمانيا» وأرمانى وهوكتبى فى فينسيا من «بترو فورنايو» ـ الخباز ـ معدات للطباعة بمبلغ مائة جنيه، وعشرة سولدات وستة عشر بارفى. وقد تضمنت الصفقة مطبعة غير معروفة الحجم والحالة، كما تضمنت الحروف

وغير ذلك، وربما تكون هذه المعدات قد آلت إلى بترو الخباز تسديداً لديون على أحد الطابعين له. وفى سنة ١٤٩١م باع «مايكل فنسلر» معداته - التى لانعرف نوعها ولا عددها - مقابل ٢٥٣ جيلدر تسديداً لديون عليه. ويمكننا أن نحاول ترجمة تلك المبالغ إلى ما يقابلها بعملاتنا الحالية، وإن كانت النتائج ربما تكون بلا دلالة، طالما أن القوة الشرائية للعملات فى القرن الخامس عشر كانت مختلفة عنها تماماً اليوم. ولكن إذا ما قبلنا قائمة أسعار السلع التى قدمها لنا «و. كريج» عن ثمانينات القرن الخامس عشر فى منطقة النمسا السفلى لمجرد المقارنة فإننا يمكن أن نحدد أسعار المطابع على ضوء أسعار السلع، ومن ثم تكون المقارنة ذات معنى وذات اعتبار إلى حد كبير. مطابع شوسلر الخمس بكل معداتها بيعت كما ذكرنا بثلاثة وسبعين جيلدر؛ أى ما يساوى ١٩ طن قمح أو ٧٦٥٠٠ بيضة أو ١٣ طن ملح. وكانت التكاليف الإجمالية لإقامة مطبعة دير أولرخ وعفرا تبلغ عشرة أمثال هذا المبلغ أى ما يعادل ١٩٠ طن قمح تقريباً. وتكون معدات فنسلر قد بلغت نحو ٥٥ أو ٥٦ طن قمح. ويذكر «فوليم» وقائع شراء بعض الطابعين لمنازل فى بازل فى نفس تلك الفترة، والمنزل كان يتراوح مابين ٣٠ جيلدر و٥٠٠ جيلدر. وهكذا تكون معدات فنسلر بقيمة ثمانية بيوت صغيرة، أو نصف قيمة بيت ممتاز. وأياً كانت دلالة تلك الأرقام فإنها تشير إلى أن معدات الطباعة كانت غالية جداً سواء اشتريت كتفصيل أو جاهزة. وكان شراء المعدات مجرد خطوة أولى؛ ولكى نقدم فكرة عن تكاليف الإنتاج فإننا يجب أن نعول على حالة الطابع «بجانينو دى بجانينس». ذلك أنه عندما تقدم ذلك الطابع الناشر إلى حكومة جمهورية فينسيا سنة ١٤٩٢ بطلب لمنحه ترخيص طبع الكتاب المقدس مع تفسير وشرح «نيقولاس دى ليرا» وقد تم تحريره على يد «أربعة أساتذة لاهوت ممتازين»، زعم ذلك الطابع أن إنتاج ذلك العمل الضخم سوف يكلفه أربعة آلاف دوكات (أو مايساوى نفس هذا الرقم بالجيلدر الذهب). وقد سبق أن أشرت أن ألدوس مانتيوس عندما تقدم بطلب مماثل ذكر أن تكاليف تشغيل مطابعه شهرياً تصل إلى ٢٠٠ دوكات.

ولدينا أمثلة أكثر من القرن السادس عشر، ولكن مع استمرار عدم اليقين والتفصيل فى تلك الأرقام. وقد استمرت الأسعار فى ذلك القرن عالية أيضاً. يذكر أن «جوهان شونزبيرجر» من أوجزبرج باع معدات دكانه وهى تتألف من عدد غير محدد من الطابعات والقوالب (وربما كان فيها مواد لطباعة النسيج وبعض الأرصدة)، سنة ١٥٢٤ مقابل ٣٠٦٨ جيلدر. وفى سنة ١٥٦٠م قدرت طابعات زيبالدمبير الأربعة و ٣٠ قالباً فى ديلنجن بمبلغ ١٠٨٩ جّيلدر. وبعد ذلك التاريخ بأربعة سنوات باع «توماس ريبارت» عدداً مماثلاً من الطابعات بمستلزماتها فى مقابل ٦٠٧ جيلدر. ويقدم «لوسيان لوفيفر»، «هـ.ج. مارتن» فى كتابهما «ظهور الكتاب» (باريس، ١٩٥٨) أمثلة من فرنسا فى عشرينات القرن السادس عشر بمعدلات تتراوح ما بين ٣٥١ و ٧٠٠ جنيه باريسى. وارتفاع الأسعار فى الأمثلة الفرنسية وهى مماثلة لغيرها من الأماكن فى تلك الفترة، يرجع جزئياً إلى التحسن الذى طرأ على المعدات وتوسع حجم المطابع نفسها، وزيادة الحاجة إلى المطابع، أى زيادة الطلب على شرائها. كذلك فإن للتضخم الذى حاق بأوربا خلال الفترة المدروسة لعب دوراً أساسياً فى ارتفاع الأسعار. والحالات التى سجلناها هنا إنما تتعلق بالمطابع الكبيرة المحترمة. ذلك أن المعدات فى المطابع الصغيرة التى كان يديرها طابعون متواضعون وصبية كانت بكل تأكيد معدات بدائية فيها كميات قليلة من الحروف، وتعاورتها عدة مطابع من قبل، ولذلك كانت أسعارها منخفضة.

ولقد تفاوتت المعدات كثيراً كما تفاوت رأس المال اللازم للطابعين. ذلك أن أية منشأة لديها برنامج نشر معتبر كانت تحتاج بالضرورة إلى رأس مال محترم لإنشاء تلك المنشأة. وبعد شراء المطابع والقوالب ونقل المعدات وتركيبها فى الموقع المناسب، فإن الطابع يواجه بمشكلة شراء الورق وتمويله، وربما أيضاً بعض الرقوق. كما يواجه مشكلة دفع أجور العاملين معه فى المطبعة إذا كان الطابع يقتزم إصدار أعمال من أحجام كبيرة.

لقد أمدنا «ج. زيدلر» ببيانات هامة حول أثمان الورق والرقوق، ومن بينها أن «شوفر» الطابع الشهير فى ماينز دفع فى سنة ١٤٨٥م مائة وثلاثاً وثلاثين جيلدر

لشراء رقوق لطباعة ثلاثين نسخة من كتاب القداس[١]. ولما كان هذا الكتاب بهذه النسخ تقع فى ٧٣٢٠ ورقة (بصرف النظر عن المستهلك) فإن الورقة الواحدة من الرق بهذا الشكل تتكلف قرشاً واحداً (كروزر)، ويتكلف رق النسخة الواحدة الكاملة ٤ جيلدر و ٢٦ كروزر (قرشاً). وهنا لا تكون ثمة مخاطرة فى الطبع طالما أن دوقية ميسين هى التى تدفع التكاليف أو تضمن شراء النسخ. ومن المعروف أن الرقوق كانت تستخدم فقط لطباعة النسخ الفاخرة التى غالباً مايكون عددها محدوداً ولأغراض التوزيع الخاصة، ومن سوء الحظ أن زيدلر لم يتمكن من الحصول على أسعار الورق للنسخ العادية من كتاب القداس[٢]. وقد وصلنا عدد من الأرقام حول أسعار الورق، فقد قرر «كريج» أن رزمة الورق الجيدة من ورق الكتابة (٥٠٠ فرخ) كانت تباع فى سنة ١٤٨٢م - أى من ثلاث سنوات قبل طبع كتاب القداس سابق الذكر - نحو تسعين كروزر أى جيلدر ونصف، فى حين أن الورق الأقل جودة كانت رزمته تقل ٣٠٪ عن ذلك الورق الجيد. بينما يقول «زيدلر» أن نفس رزمة الورق كانت تتكلف فى سنة ١٤٥٠ جيلدراً واحداً وأن الأسعار تراجعت مع نهاية القرن بحوالى ٢٠٪[٣]. ويمدنا مصدر آخر بأسعار الورق فى مكان آخر بشىء من التفصيل والدقة[٤]. والجداول فى دراسة إلزاس تقدم فقط أسعار الورق المستخدم فى الدواوين والدوائر الرسمية، ولكنها تبدو رغم التضخم العام فى ذلك الوقت. وتسير أسعار الورق حسبما وردت فى دراسة إلزاس المذكورة على النحو الآتى، علماً بأن الأسعار الموضحة كانت هى السائدة فى مدينة فرانكفورت معقل معارض الكتب الألمانية، والتى كانت ملتقى الطابعين والناشرين من أماكن مختلفة. والأسعار هنا للرزمة:

---

(1) Missale Misnense.

(٢) كان الجيلدر الواحد يشتمل فى ذلك الزمان على ستين كروزر (قرشا). والكروزر الواحد يشتمل على أربعة فينج.

(3) G. Zedler. "Uber die Preise und Auflagenhöhe Unserer ältesten Drucke".- Beiträge zum Bibliotheks - und Buchwesen.-

(4) M. J. Elsa. Umriss einer Geschichte der Preise und Löhne in Deutschland.- Leiden, 1940-1949.

١٤٠١ ________ ١٨٠ - ٤٣٢ فينج

١٤٢٥ ________ ٣٢٤ فينج

١٤٥٠ ________ ٢٨٨ فينج

١٤٥٤ ________ ٢٥٢ فينج

١٤٥٩ ________ ٢٣٤ فينج

١٤٦٧ ________ ٢١٦ فينج

١٤٧١ ________ ١٨٦ فينج

١٤٧٢ ________ ٢٠٧ فينج

١٤٧٣ ________ ١٨٠ فينج

١٤٧٤ ________ ١٦٢ فينج

١٤٧٦ ________ ١٩٨ فينج

١٤٧٨ ________ ٢١٦ فينج

١٤٧٩ ________ ٢١٦ فينج

١٤٨٠ ________ ١٥٣-١٩٨ فينج

١٤٨١ ________ ١٩٨ فينج

١٤٨٢ ________ ١٥٦ فينج

١٤٨٣ ________ ١٤٤-١٨٠ فينج

١٤٨٤ ________ ١٦٢ فينج

١٤٨٥ ________ ١٤٤ فينج

١٤٨٦ ________ ١٦٠ فينج

١٤٨٧ ________ ١٨٩ فينج

١٤٨٨ ________ ١٧٦ فينج

١٤٨٩ ________ ١٧٦ فينج

١٤٩٠ ________ ١٧٦ فينج

١٤٩٢ ________ ١٧٦ فينج

١٥٠٥ ________ ١٧٦ فينج

١١٥١ ـــــــــــــــ ١٨٢ فينج

١٥٢١ ـــــــــــــــ ١٦٠ فينج

١٥٣١ ـــــــــــــــ ١٣٦ فينج

١٥٣٦ ـــــــــــــــ ١٣٦ فينج

وربما يكون عدد الكروززات (القروش) فى فرانكفورت مختلفاً فى ذلك الوقت عن المدن الأخرى، ولكنه فى معظم الوقت كان ستين كروزر، أى حوالى ٢٤٠ فينج. وهكذا يكون مجلس مدينة فرانكفورت سنة ١٤٢٠م يشترى رزمة الورق بجيلدر واحد و ٢١ كروزر، ولكن السعر انخفض سنة ١٥٣٦م إلى حوالى ٣٤ كروزر أى نصف جيلدر تقريباً. وفى نفس تلك الفترة اشترت دوائر أخرى فى نفس مدينة فرانكفورت نوعاً آخر من الورق ولكن ليس بنفس الأسعار:

١٤٥٧ ـــــــــــــــ ٢١٦ فينج

١٤٩٠ ـــــــــــــــ ١٩٢ فينج

١٥١٠ ـــــــــــــــ ١٧٤-١٨٣ فينج

١٥٢٠ ـــــــــــــــ ١٥٢ فينج

أما أسعار الورق فى فينسيا من الحجم الكبير فقد جاءت فى نفس الفترة على النحو التالى :

١٤٥٧ ـــــــــــــــ ١٠٨٠ فينج

١٤٦٣ ـــــــــــــــ ١٠٨٠ فينج

١٤٨١ ـــــــــــــــ ٥٩٤-٧٢٠ فينج

وربما يكون ورق فينسيا الذى كان من نوعية راقية جداً قد تراجعت أسعاره أكثر مما هو موضح. إذ تذكر بعض المصادر أن الورق الألمانى من ١٤٥٠ وحتى أوائل ثمانينات القرن الخامس عشر تراجعت أسعاره بين ١٥ ـ ٢٠٪ وورق فينسيا

ما بين ٣٤ ـ ٤٥٪ عن نفس تلك الفترة. وهذا البيان يؤكد ما ذهب إليه زيدلر من تراجع أسعار الورق فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر؛ وربما تكون نسبة ٢٠٪ التى ذكرها هى الحد الأدنى. ويتضح لنا من جداول إلزاس تراجع أسعار الورق بشدة حتى سنة ١٤٧٠، ثم ارتفعت بعد ذلك تدريجياً بنسب محدودة، ثم تراجعت مرة ثانية لتصل نسبة الانخفاض الكلى فى سنة ١٥١٣ نحو ٤٠٪.

وبعد هذا الاستعراض لأسعار الورق بالرزمة سوف نحاول ترجمتها إلى قيمتها فى المجلد المطبوع. وقد سبق أن ذكرنا أن قيمة الورق فى نسخة من كتاب كبير القطع (فوليو) من ٢٥٠ ورقة (١٢٥ فرخاً) تبلغ ربع جيلدر، أى نحو ١٥ كروزر فى القرن الخامس عشر. ولو أن هذا الكتاب الافتراضى طبعت منه طبعة من مائة نسخة فإن الورق المستخدم هنا فى كل المائة نسخة تبلغ قيمته الكلية ٢٥ جيلدر أى قيمة نحو ستة أطنان من قمح. وإن كان الكتاب المطبوع من حجم الربع (كوارجو) فى ٢٥٠ ورقة أيضاً فسوف يتكلف النصف فقط، وإذا كان ذلك الكتاب من حجم الثمن (أوكتافو) فإنه سوف يتكلف ربع هذا المبلغ فقط؛ علماً بأن تلك التقديرات لاتدخل فى حسابها ورق البروفات ولا الورق المهدر والتى قدرها «ك. هابلر» بنحو ١٠٪.

وفى القرن السادس عشر مباشرة عقب اندلاع حركة الإصلاح الدينى، ساءت نوعية الورق المستخدم فى الطباعة كما ساءت نوعية الطباعة نفسها؛ وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت تكلفة الورق داخل التكلفة العامة للكتاب ذات نسبة ضعيفة. وقد لاحظت وجود إشارات رسمية إلى انحطاط نوعية الورق على نحو ما جاء فى أمر لحكومة جمهورية فينسيا سنة ١٥٣٤ بمنع استخدام الورق الردىء فى طباعة الكتب، وإذا كان هذا هو لسان حال الحكومة فإن الشكوى الخاصة من رداءة الورق كانت أكثر. وقبل ذلك التاريخ بنحو ثلاثة عشر عاماً أشار «إيبرلين فون جونز بورج» إلى أن: «الطابعين يستخدمون ورقاً رديئاً وحروفاً سيئة ويصدرون كتباً مليئة بالأخطاء»! حتى فى القرن السابع عشر انحطت النوعيات

أكثر وأكثر كما رأينا من قبل فى هذا البحث. وكلما انحطت نوعية الورق كلما انخفضت أسعاره وكلما قلت نسبته فى التكلفة الكلية للكتاب. وكذلك كان الحبر عنصراً من عناصر التكلفة البسيطة، ذلك أنه فى بعض الأحيان كان يحضر ويعد داخل المطبعة نفسها ربما على يد أحد العاملين الخبراء فى ذلك. ومن هذا المنطلق فإن أجور العمالة وتكلفة العمل هى التى تعتبر عنصر التكلفة الأساسى وليس المواد الخام منخفضة الأسعار (الورق والحبر).

ويعتبر «ك. هابلر»[1] هو أحسن من قدم بيانات عن تكلفة العمالة فى المطابع، فقد ذكر أن الطاقم الذى يعمل فى مطبعة عادية متوسطة الحجم كان يتألف عادة من عدة أشخاص متمرسين مع استبعاد المستشارين والنصحاء وقراء البروفات والصبية الأشراق والمساعدين الذين لم يكونوا يتقاضون أجوراً على عملهم. ومن بين الطاقم العامل كان الشخص **المحبر** هو الذى يتقاضى أقل أجر فلم يكن التحبير يحتاج إلى مهارة كبيرة، يليه فى المرتبة الأعلى **الطباع**[2] الذى كان يعمل على الطابعات، ويأتى بعدهم فى المرتبة التى فوقهم **المنضد**[3] الذى يجمع الحروف ويصفها والذى كان لابد له من درجة تعليم كحد أدنى ليقوم بعمله، وهذا يفسر لماذا كانت أجور هؤلاء المنضدين ترتفع عن أجور الطابعين. وكان مدير المطبعة ـ أو قل رئيس العمال ـ يساهم غالباً فى إعداد القوالب أو ما يمكن أن نسميه **صانع الأمهات**[4]. وفى بعض الأحيان كان يعهد بمزج الحبر وإعداده إلى خبير متخصص، ويبدو أن هذا الشخص هو الذى يتقاضى أعلى أجر بعد رئيس العمال مباشرة. ومن الواضح أن المطابع الكبيرة فقط هى التى كانت تقدر على تعيين صانع أحبار دائم فى كل الوقت. أما فى المطابع الصغيرة فقد كان يتم جمع نشاطين أو أكثر من الأنشطة المتعلقة بالطباعة فى يد شخص واحد.

---

(1) K. Haebler. "Druckgesellen in der Frühzeit". - Gutenberg Jahrbuch .- 1936.

(2) torculatores.

(3) Compositores.

(4) intagliator .

وسوف نحاول تحويل تلك الوظائف والأنشطة إلى مبالغ مالية فعلية مع ملاحظة أن الأجور حتى داخل المطبعة الواحدة كان يمكن أن تدفع بعملات مختلفة: دوكات، جيلدر، جنيه وكانت أسعار العملات تختلف وإن كان الجيلدر الذى عم استخدامه فى عموم الإمبراطورية الرومانية المقدسة كان أقوى العملات وأكثرها ثباتاً[1].

وكانت المساعدات غير الرئيسية من جانب الطابعين تدفع عنها مكافآت خارج الأجر الرسمى الذى يسجل فى عقد مبرم مع كل العاملين الرئيسيين. ولابد من التنويه هنا أن العاملين الرئيسيين كان من الممكن أن يحصلوا على نسخة أو أكثر من كل كتاب يشتركون فى طبعه، وربما ينص فى عقد العمل على ذلك الامتياز. ويرى بعض العلماء أن تلك النسخ كان من الممكن أن تباع، كما يمكن أن تخرج نسخ أخرى من المطبعة بطرق غير شرعية وتطرح هى الأخرى للبيع، وكانت هذه النسخ هى المصدر الرئيسى للتجارة غير المشروعة فى الكتاب المطبوع، وخاصة أن الطابعين الألمان العائدين من إيطاليا قد حملوا معهم الكثير من النسخ التى

---

(١) قدم لنا «ف. هـ. ميير» قيم الجيلدر مقابل بعض العملات الأخرى فى تلك الفترة على النحو الآتى:

بازل

١٤٧٥	جيلدر واحد ذهب	=	٢٤ شلن إنجليزى
١٤٨٠	جيلدر واحد ذهب	=	١/٢ ٢٥ شلن إنجليزى
١٤٨٠/ ١٤٨١	جيلدر بازل	=	٢٥ شلن إنجليزى

نورنبرج

١٤٨٦	جيلدر الراين	=	٢٠ شلن إنجليزى
	جيلدر مجرى	=	٣/٤ ٢٦ شلن إنجليزى

وكانت دار سك النقود فى الامبراطورية الرومانية المقدسة تصدر عملة الجيلدر الامبراطورى الذهبى. وكانت قيمته تتفاوت مقابل العملات الأخرى على النحو التالى سنة ١٥٢٤م:- جيلدر واحد امبراطورى ذهب =

١٢٦ فينج استراسبورج
١٦٨ فينج فيرتمبرج
١/٢ ١٥٧ رابين سويسرى
٢١٠ فينج الراين
٢٥٢ فينج ساكسونى
٣١٢ فينج رادر

سنة ١٥٢٤ كان الجيلدر يشتمل على ٨٠ كروزر وليس ٦٠ كروزر كما كان قبل ذلك.

اشتركوا فى طبعها هناك. ومهما يكن من أمر فإن أجور العمل فى القرن الخامس عشر فى المتوسط كانت على الوجه الآتى: ٢ دوكات فى الشهر كأقل أجر. ومما يذكر فى هذا الصدد أن «ماوفر» صاحب مطبعة فى بادوا كان يدفع فى سبعينات القرن الخامس عشر ٢/١ ١ دوكات تزاد إلى ٢ دوكات إذا زادت نسخ الطبعة من ٣٥٥ نسخة إلى ٦٠٠ نسخة، مما يعنى أن العمل فى هذه الحالة كان بالقطعة كما كان مشاهرة أيضاً. وفى نفس الوقت كان «ماوفر» يدفع ٢/١ ٢ دوكات للمنضد والطابع. هذه الأرقام وردت فى سجلات نزاع العمل الذى نشب عندما كان ماوفر يطبع كتاب «الاستشارات الطبية» للمؤلف «مونتاجنانا»[1] والذى جاء فى بيان طبعه أنه تم فى الرابع من مايو ١٤٧٦. وقد حدث هذا النزاع عندما أوقف ستة مساعدين وثلاثة أسطوات (منضدين) وثلاثة محبرين العمل لأنهم لم يكونوا راضين عن أجورهم وتركوا المطبعة إلى مكان قريب، ومن ثم تضايق ماوفر وطردهم من العمل عندما رجعوا بعد فترة من الزمن. وقد تركوا ماوفر بعد أن وجدوا عملاً آخر لدى منافس له هو «فردريكوس دى هولانديا» - والذى لم يصلنا أى من كتبه - مقابل ثلاثة دوكات للمنضد واثنين ونصف من الدوكات للطابع. وقد قرر ماوفر أثناء التحقيق فى هذا النزاع أنه كان عليه أن يدفع ٢/١ ٤ جيلدر لكل منضد حل محل منضد منقطع عن العمل. ونحن فى الواقع لانعرف ما إذا كانت تلك الأرقام صحيحة أم غير صحيحة، ولكنها على أية حال تقدم مؤشرات لن تبعد كثيرا عن المتوسط العام. وإذا قارنا أرقام ذلك الزمان فإننا يمكن أن نقول بأن رئيس المطبعة كان يتقاضى ما بين خمسة إلى تسعة دوكات فى الشهر، فى حين كان الأسطى سواء كان منضداً أو طبأعا فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر يتقاضى أربعة دوكات فى الشهر.

وكانت المشاهرة فى تعيين العاملين فى المطابع إحدى الطرق على النحو الذى نصادفه فى سجلات الأجور التى وصلتنا من ذلك الوقت. وكانت هناك عقود عمل دائم وعقول عمل مؤقت، وهذه الأخيرة لإنجاز عمل محدد. ونحن نعرف

(1) Montagnana. Consilia medica .- 1476.

(2) M. Audin. "Les grèves dans L' lmprimerie a Lyon au XLe Siecle" .- Gutenberg yahrbuch .- 1935.

ما هو العمل المطلوب من المنضد فى حالات قليلة وصلتنا معلومات عنها. فقد ذكر «أ. سارتورى» أن المنضد الجيد فى بادوا يمكن أن ينضد يومياً أربعة أعمدة فى كتاب من حجم الفوليو (القطع الكبير) أى ما يعادل ورقتين = أربع صفحات من القطع الكبير أو ثمانية من القطع المتوسط أو الصغير، وتتفق المعدلات التى أتى بها «ك. هابلر» عن نهاية القرن ١٤٩٣ ـ ١٤٩٤ مع هذه المعدلات.

ومن الطبيعى فى الأوساط العمالية أن يساوم العمال من أجل أجور أعلى وظروف معيشة أفضل. وقد وصلتنا معلومات وبيانات فى هذا الصدد؛ من بينها ما ذكره «م. أودان» عن نزاعات العمل التى حدثت فى ليون سنة ١٥٣٩ وبعدها حين أضرب مساعدو الطابعين عن العمل بسبب الأجور وظروف العمل، وبعد ذلك قاموا بمظاهرات. وقد طرد الطابعون الذين كانوا يطالبون برفع أجورهم اليومية إلى ١٠ سولدات و٦ دنانير بدون خبز وبدون نبيذ ورحلوا إلى فيينا فى روفينيه على أمل أن يحصلوا على أجور وظروف أفضل. وقد أزعج ذلك الإجراء سلطات المدينة وأسطوات الطباعة، واتخذت خطوات لمنع رحيل هؤلاء العمال من ليون مركز الطباعة المزدهرة. وكان من بين تلك الخطوات منع تضامن العمال معاً فى وقف العمل، منع الإضراب والتظاهر، منع حمل السلاح وإثارة العمال غير المضربين؛ تقديم خبز ونبيذ أكثر وتحسين ظروف المعيشة. وقد صدر مرسوم ملكى بهذا الشأن فى شهر أغسطس سنة ١٥٣٩م ولم يغادر العمال مدينة ليون، ولكن ظلت مسألة الإقامة ورفع الأجور بدون حل حتى سنة ١٥٧١ عندما ألغيت الضرائب فى مدينة ليون. وفى نفس سنة ١٥٣٩ هدد عمال المطابع فى باريس بالقيام بإضراب مماثل، ولكن إجراءات وقائية اتخذت لمنع هذا الإضراب. وقد سجل «ب. ميللوتيه» وقائع ذلك التهديد بالإضراب فى كتابه «التاريخ الاقتصادى للطباعة»[1] الذى نشر فى باريس سنة ١٩٠٥. نص القرار الذى يمنع التظاهر والإضراب عن العمل وحمل السلاح، كما يمنع العاملين من ترك العمل قبل أن ينتهى إلا إذا قدم العامل إشعاراً أو إخطاراً قبل أسبوع من موعد تركه

(1) P. Mellottée. Histoire économique de L' imprimerie. - Paris, 1905.

العمل. وقد أكد هذا القرار على حق الأسطوات فى تشغيل الصبية الأشراق وإعادة توزيع العمل وطرد العمال العابثين من العمل. كذلك أكد القرار على ضرورة أن يدفع الأسطوات أجور العمال بصفة منتظمة وأن يوفروا لهم الخبز الكافى والنبيذ والغموس والإقامة المناسبة. كما حذر القرار من أن يستخدم أحد الطابعين علامة طابع آخر أو بائع كتب آخر. وقد أكد القرار على أن يستخدم الأسطوات مصححين أكفاء إذا لم يكونوا هم أنفسهم على درجة كافية من التعليم، وألا يباعدوا بين الطابعين الحائلين وصبيتهم. والحقيقة أن هذا القرار يعطى فكرة جيدة عن تجاوزات أسطوات الطباعة ومساعديهم، والخدمات أيضاً التى كانوا يقدمونها.

وإذا كان صاحب المطبعة يعمل على أساس تعاقد مع الغير وليس لحسابه هو فإن سعر العشرة ورقات من حجم الفوليو كان يصل إلى خمس دوكات. وقد سجل هابلر حالة تشير إلى أن ربع هذا المبلغ كان يذهب إلى العمال سنة ١٤٧٥م. وإذا كانت هذه الحالة إجراء عاماً فإن ربعاً آخر من هذا المبلغ يستهلك فى المواد الخام، وربعاً ثالث يجنب مقابل عائد استثمار رأس المال، ومن ثم يكون الربع الأخير الحقيقى من المبلغ هو الربح الصافى للمطبعة.

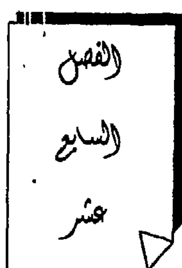
على الجانب الآخر يمكننا حساب تكاليف المواد الخام بنفس طريقة تكاليف العمالة، على أمل أن نصل إلى تقديرات أقرب إلى الدقة والواقعية. وعلى الرغم من أننا نعرف أن تكاليف الآلات والمعدات.عالية من البداية، إلا أننا لا نعرف ما إذا كانت قضية نسبة الاستهلاك السنوى لتلك الآلات والمعدات كانت معروفة أم لا للطابعين فى تلك القرون الأولى، وإذا كان هؤلاء الطابعون يعملون بأموال استدانوها فمن المؤكد أنهم كانوا يحملون فوائد تلك الديون على التكاليف ويعتبرونها جزءا من الكلفة الكلية. والمشكلة التى تواجهنا هى أن الوثائق والسجلات التى وصلتنا لا تتضمن الأجور ولا نسب الاستهلاك ولا حتى معدلات الأداء التى يفترض أن يقوم بها العاملون من الفئات المختلفة. والوثائق

التى تعطى معلومات عن الأجور الخاصة بالطباعين أو المنضدين لا تقدم تفاصيل عن علاقة هذه الأجور بكم أو نوع العمل الذى قاموا به. ولا نعرف على وجه اليقين كمية الوقت المستغرق فى تحبير وقراءة بروفات وتصحيح وجمع ملازم الكتاب العادى ومن ثم لا يمكننا أن نصل إلى تكاليف كل عملية من هذ العمليات.

وقد حاول كل من لوسيان لوفيفر ومارتن الوصول إلى بيانات تقريبية فى هذا الصدد. وقد بدأ بحالات محددة من بينها الطبعة اللاتينية من مؤلفات أفلاطون الصادرة سنة ١٤٨٤ التى طبعت لحساب دير النساء فى ريبولى على يد «لاورنتيوس دى ألوبا». وقد اتضح من تلك الحسابات أن الورق تكلف أكثر من الطباعة نفسها. وقد سجل هابلر أن «ملخص قانون جوستنيان»[1] الذى صدر سنة ١٤٧٩، طبع فى ١٢٥٠ نسخة تكلفت جميعها ١٦٠٠ دوكات من بينها ٨٠٥ دوكات للورق وحده. وفى هذه الحالة تكون تكاليف العمالة قد بلغت نحو ٤٠٪ ـ ٤٥٪ من مجموع التكلفة الكلية. وقد حاول لوفيفر ومارتن جهدهما الوصول إلى أجور كل فئة من الطابعين وتكاليف الورق ووصلا إلى نتيجة حذرة مؤداها: «أن الورق ما يزال يمثل نسبة مئوية عالية من إجمال تكاليف طباعة الكتاب وإن كانت هذه النسبة تتناقص حتى القرن الثامن عشر. وقد قدما نموذجاً على هذا من سنة ١٥٧١ حيث تناقصت نسبة تكلفة الورق لتصل إلى نحو ثلث التكلفة الكلية. ويمكننا أن نخرج بنتيجة حذرة أيضاً مؤداها أن الورق فى العقود الأولى للطباعة هو والأحبار ـ أى المواد الخام ـ كان يتكلف نفس النسبة أو أعلى قليلاً من نسبة تكاليف العمالة، ثم أخذت نسبة المواد الخام تتناقص بالتدريج حتى وصلت إلى ثلث التكلفة الإجمالية فى وقت ما فى النصف الثانى من القرن السادس عشر.

* * *

(1) Justinian. Digestum infortiarum. - 1479.



التكاليف والإدارة

فى السنوات الأولى للطباعة كان الطابعون يكيفون برامج طباعتهم - أى الكتب التى يصدرونها - على حسب احتياجات الزبون التقليدى المعروف لهم جميعاً، وهو نفس الزبون الذى كان يشترى المخطوطات فى قرون ما قبل الطباعة. وكان رجال الدين والمحامون والأطباء والكتبة والمدرسون - وهم الزبائن التقليديون للكتب - قد تعودوا على المجلدات الضخام الثقيلة. ومن هذا المنطلق فإن الأعمال التى نشرها «فوست» و«شوفر» فى ماينز، «منتلين» و«إيجشتاين» فى ستراسبورج، «روبل» و«فنسلر» فى بازل، مؤسستا «زيز» فى كل من أوجزبرج فى أولم، «سوينهايم» و«بانارتز» فى سوبياكو وروما، جوهان دى سبيرا فى فينسيا كانت هذه الأعمال من القطع الكبير أساساً المعروف بالفوليو. وكان هذا القطع يتكلف كثيراً، ومن ثم كانت أسعاره عالية. وكان الطابعان «زيل» و«ثيرهورنين» فى كولون استثناءً بين الطابعين الأوائل حيث حرصا على إنتاج كتب من القطع المتوسط الذى يسهل تداوله. وكان هناك طابعون يصدرون الكتب كبيرة الحجم والكتب صغيرة الحَجم فى نفس الوقت ومن بينهم على سبيل المثال «أولرخ هان» فى روما، «فندليكوس دى سبيرا» (شقيق جوهان سابق الذكر) فى فينسيا، «زاروتوس» و«لافاينا» فى ميلانو. وفى باريس بدأ إنتاج الكتب أساساً بالقطع المتوسط. بينما الطابعون الأوائل فى الأراضى الواطئة كانوا يفضلون القطع الكبير باستثناء «ثييرى مارتنز» فى ألوست الذى كان يصدر كتبه فى القطع المتوسط القريب من قطع طابعى كولون. ويبدو أن الكتب ذات الحجم الكبير قد شاعت فى دول الشمال فى العصور الوسطى أكثر من دول الجنوب، وبقى هذا الحجم هو المفضل فى بداية الطباعة فى عموم الإمبراطورية الرومانية المقدسة أكثر من فرنسا وإيطاليا. ويبدو أن هذا الحجم كان من تقاليد الطابعين الألمان، ويبدو

أنهم فعلوا ذلك إرضاء للذوق العام لدى جموع المشترين. من جهة أخرى فإن الطابعين الألمان خارج ألمانيا قد حرصوا على طبع كتب من أحجام عصرية، كما فعل «هان» فى روما و«جيرنج» فى باريس، متأثرين هنا مرة أخرى بأذواق المشترين أنفسهم والاحتياجات التى يفضلونها. ومن المؤكد أن القطع الكبير كان يلائم بعض الكتب ككتب اللاهوت، مجموعات القوانين، كتب القداس، وبالتالى استخدم هذا القطع فى تلك الكتب أينما صدرت وعلى سبيل المثال فى فينسيا من حين لآخر. ولأن كتب هذا القطع كانت تتكلف كثيرا فإنها بنفس الطريقة كانت تباع بأسعار عالية، ومن ثم فإن أرباح الطابعين فيها كانت أيضاً مرتفعة. وربما كان الاختفاء التدريجى للتجليد بألواح الخشب واستخدام الورق المقوى مكانها، كما كان لاستخدام الأبناط الأصغر حجما فى طباعة هذه الكتب أثره فى تخفيف وزن وحمل تلك الكتب. ومن المؤكد أن القطع الكبير كان هو المفضل فى حالة الكتب التى يحتفظ بها فى مكان واحد لا يتغير. لقد كان القارئ الجديد غير التقليدى هو الذى غير الاتجاه نحو إنتاج الكتب ذلك الاتجاه الذى نظر إلى الكتب باعتبارها شيئاً منقولاً ومحمولاً، يمكن استخدامه والاستمتاع به، وكان القارئ الجديد يرغب فى كتب يسهل تناولها وتداولها وبأسعار منخفضة. وكان على الطابع أن يستجيب للاتجاه الجديد، وإن لم يخلقه أو يتسبب فيه.

لقد غيرت الدائرة الجديدة من القراء طبيعة الكتاب وليس مجرد شكله الفيزيقى المادى، ولقد أقبل القراء على شراء أعداد كبيرة من كتب المؤلفين المعاصرين التى كانت أصغر فى المادة العلمية وأيضاً فى حجمها. لقد مهد كل من القارئ والطابع الطريق نحو الفكر الجدلى الذى بلغ أوج قمته فى عصر الإصلاح الدينى. وأصبحت الكتيبات محدودة الحجم والتى تطبع بأعداد كبيرة عملاً رائجاً أيضاً.

وتكشف دراسة ببليوجرافيات أوائل المطبوعات عن أن عدد المطابع قصيرة الأجل ذات الإنتاج المحدود كان كبيراً، وكانت أسباب توقف تلك المطابع وخروجها من سوق العمل كثيرة متنوعة، ولم يكن السبب المالى سوى واحد فقط من بين أسباب عديدة أدت إلى ذلك. وقد قدم لنا «بروكتور» معلومات هامة مفيدة فى هذا الصدد نستقى منها بعض الأمثلة التوضيحية من القرن الخامس

عشر عن المطابع التى كانت قائمة فى جمهورية فينسيا. فقد سجل فى تلك المدينة ١٥١ مطبعة وجدت لها مطبوعات وصلتنا نسخ منها فى مكتبة المتحف البريطانى ومكتبة جامعة أكسفورد. من بين تلك المطابع المائة والواحد وخمسون والتى أنشئت ومارست الطباعة قبل ١٤٩٠م لم يستمر منها حتى العقد الأخير من القرن الخامس عشر سوى ٢٣ مطبعة، وأقل من عشرة فقط كانت ما تزال نشيطة فى مجال الطبع سنة ١٥٠٠م[1]. ويعتبر كشاف بروكتور هذا هو أكبر حصر بأوائل المطبوعات مرتبة على الطابعين، وسوف أقتطع من هذا الكشاف الجدول الآتى الذى يكشف عن سرعة خروج كثير من المطابع من سوق الطباعة بعد فترة وجيزة: -

رقم الطابع في الكشاف	اسم الطابع كما ورد في الكشاف	أول نشاط للطابع	آخر نشاط للطابع
٤٠	بتروس دى بياسيس	١٤٧٩	١٤٩٤
٤٥	جوان وجريجوريوس		
٥٣	دى جريجوريس	١٤٨٠	١٥٠٠
٥٥	بابتستادى تورتيس	١٤٨١	١٥٠٠
٥٨	أندرياس توريسانوس	١٤٨١	١٥٠٠
٦٠	توماس دى بلافيس	١٤٨١	١٤٩١
٦٢	أندرياس بالتيسيكى	١٤٨٢	١٤٩٢
٦٨	هيرمان ليختشيتاين	١٤٨٢	١٤٩٤
٧٠	بيررنار دينوس ستاجنينوس	١٤٨٣	١٥٠٠
٧١	بريجرينو باسكال	١٤٨٣	١٤٩٤
٧٥	بيرنار دينوس بناليوس	١٤٨٣	١٥٠٠
٧٨	جورجيوس أريفا بينوس	١٤٨٣	١٤٩٩
٧٨	بيرنار دنيوس ريزوس	١٤٨٤	١٤٩٢
٧٩	أندرياس كالابرنسيس	١٤٨٥	١٤٩٥

(1) R. Procton. An Index to the early Printed books in the British Museum, with notes on those in the Bodleian Library .- London, 1898.

رقم الطابع في الكشاف	اسم الطابع كما ورد في الكشاف	أول نشاط للطابع	آخر نشاط للطابع
٨٢	ماتيو كابكازا	١٤٨٥	١٤٩٥
٨٥	بونيتوس لوكاتيلوس	١٤٨٦	١٥٠٠
٨٩	جويليلموس بيانكريتو	١٤٨٥؟	١٤٩٤
٩٠	جوان ريبوس (مطبعة ثانية)	١٤٨٦	١٥٠٠
٩٥	بيجانينوس بجانينيس	١٤٨٧	١٤٩٩
٩٧	جوهان همان	١٤٨٧	١٥٠٠
٩٨	بيرنار دينو دى كورى	١٤٨٨	١٤٩٢
٩٩	كرتسيتوفوروس دى بنسيس	١٤٨٨	١٥٠٠
١٠٠	تيودوروس دى راجازونيبوس	١٤٨٨	١٤٩٧
١٠٢	ديونسيوس بيرتوكوس (مطبعة ثالثة)	١٤٨٩	١٤٩٤

وقد يبدو اختيار مدينة فينسيا اختياراً تعسفياً من واقع الحصر الذى قام به بروكتور، ولكن الدراسات التى أجريت على أماكن أخرى كتلك التى أجراها بيرجر، بنزنج، نورتون، أسكاريللى تشير إلى نفس النتائج تقريباً، وأن أعمار المطابع فى القرن السادس عشر تفاوتت بنفس التفاوت الذى كانت عليه فى القرن الخامس عشر. وهناك دراسة أكثر شمولاً وإحاطة ربما تثبت أن بعض المدن الأوربية الأخرى كانت المطابع فيها أكثر استمرارية من البعض الآخر. وعلى سبيل المثال يبدو أن ميلانو كانت الظروف فيها مواتية لنجاح المطابع واستمرارها أكثر من فينسيا، كما كانت نورنبرج وأوجزبرج أكثر ملاءمة للمطابع فى القرن الخامس عشر من مدينة أولم ومدينة روتلنجن. أما ما هى أسباب نجاح مطبعة ما وفشل مطبعة أخرى فهى أسباب متداخلة ومن الصعب عزل بعضها عن بعض. وربما كان من الأسباب المؤدية للفشل: سوء الاستعداد، والعجلة فى التأسيس، عدم المعرفة والخبرة، ودراسة السوق، ربما عدم وجود التمويل الكافى، انسحاب

الراعى أو الشريك أو الكفيل فى الوقت غير المناسب، سوء تقدير التكاليف وحسابات الإنتاج، وربما أيضا المنافسة الضارية وعدم القدرة على الصمود أمامها. وكان الطابعون الصغار فى المدن الصغيرة، والمطابع الصغيرة فى المدن الكبيرة لا تستطيع تسويق منتجاتها بنجاح. كذلك فإن الأوبئة والأمراض الفتاكة والفتن السياسية كان لها دور فى خروج كثير من المطابع من سوق الطباعة. وعلى سبيل المثال تسببت الأوبئة فى مصاعب جمة للطابعين فى أولم، وزلزلت الموقف كله فى إيطاليا ١٤٧٨ ـ ١٤٧٩. ومن المؤكد أن حرب المائة عام والاستعدادات العسكرية من جانب «لويس الحادى عشر» قد أخرت دخول الطباعة إلى فرنسا وحتى عندما دخلت سنة ١٤٧٠ كان دخولها بسبب حماس اثنين من الرعاة وهما «هنلين» و«فيشيه». ورغم أن فيتنبرج كانت مدينة صغيرة للطباعة سنة ١٥٠٨ ولكنها أصبحت مركزاً طباعياً هاما بفضل حركة الإصلاح الدينى.

ولم تكن الحسابات الخاطئة للطابعين قاتلة دائماً، استناداً إلى الاحتياطى المالى للطابع ورصيده لدى الجماهير من قبل؛ وقد كان هذان العاملان دائماً يختلفان من طابع إلى طابع. ولقد قدم لنا الباحث «شتيلين»[1] بيانات عن ثلاثة من الطابعين فى بازل تعطينا على الأقل فكرة عامة عن المبالغ الخاصة بثلاث مطابع مشهورة. وأول هذه المطابع هى مطبعة «مايكل فنسلر» الذى أعلن سنة ١٤٧٥ـ وهى السنة الثانية لنشاطه كطابع ـ عن حجم عمل قدره ١٤٠٠ جيلدر، وكان قد طبع فى تلك السنة ثلاثة كتب أو أكثر، وفى سنة ١٤٧٦م طبع عدداً أقل، بينما فى سنة ١٤٧٧ نشر كتابين فقط، وفى سنة ١٤٧٨ زادت ثروته طبقاً لبيان الضرائب على الدخل حتى بلغت ١٦٠٠ جيلدر. وفى نفس تلك السنة صدرت له أربعة كتب. ويبدو أن سوء الحظ حالفه فى سنة ١٤٧٩ فلم يدفع الضرائب إلا على ١٠٠٠ جيلدر فقط. وربما يكون السبب فى انخفاض رأس ماله نشر كتب القانون الغالية المكلفة جداً التى كانت تطبع كثيراً فى أماكن أخرى مما أضر بمبيعاته. ومنذ ذلك الوقت ووضعه المالى يتطور من سيئ إلى أسوأ حتى فر هارباً مثقلاً بالديون سنة ١٤٩١ مخلفاً أسرته وراءه. وقد اتهمته زوجته بالإسراف،

(1) K. Stelin. "Register zur Geschichte des Buchdrucks bis zum Jahre 1500: aus den Büchern des Basler Gerichtrsanrchives". - Archiv Für Geschichte des deutschen Buchhandels, XI, 1885.

بينما أميل أنا إلى الاعتقاد بأن عوامل أخرى هى التى تسببت فى إخفاقه وفشله. وكان زميله «روبيل» قد حدثت له هو الآخر انتكاسات مشابهة، فقد دفع فى سنة ١٤٧٥م ضرائب عن حجم أعمال ١٦٠٠ جيلدر، وفى سنة ١٤٧٧م عن حجم أعمال ١٧٠٠ جيلدر وفى سنة ١٤٧٩ عن حجم أعمال ١٠٠٠ جيلدر، فقط. أما الطابع الثالث فى بازل فقد كان «مارتين فلاش» الذى كان يعتبر صاحب ثروة فى سبعينات القرن الخامس عشر ولكنه واجه مصاعب مالية فى نهاية الثمانينات، ثم طرحت ممتلكاته للبيع فى مزاد إفلاس. ولدينا إلى جانب تلك الحالات الثلاثة التى درسها شتيلين حالات أخر من بينها حالة «جوهان زينر» الذى واجه هو الآخر متاعب مالية بعد نشر أول طبعة من كتاب «بوكاتشيو»(1) وكتب أخرى كثيرة مصورة، وقد قلت موارده المالية ثم نضبت سنة ١٤٨٧ لدرجة أنه اتفق مع دائنيه على دفع ديون قدرها عشرة فلورين على أقساط ربع سنوية كل قسط منها فلورين واحد. وفى سنة ١٥١٠م أعلن الطابع «إ. أوجلين» من أوجزبرج أن أربعة عشر جيلدر راينى كانت له عند الإمبراطور «ماكسميليان» تسببت فى تدمير ثروته. ولكن على الجانب الآخر كان هناك بطبيعة الحال طابعون آخرون كونوا ثروات من وراء الطباعة واستمروا أغنياء، فهذا هو «جونتر زينر» فى أوجزبرج يعتبر من بين أغنى أغنياء مدينته، فقد أعلن عن حجم أعمال ٢٨٠٠ جيلدر سنة ١٤٧٥م. وكان رجلاً غنياً عندما مات بعد ذلك سنة ١٤٧٨م. ومن الطبيعى أن تتفاوت أحجام ثروات الطابعين تفاوتاً كبيراً لأن الطباعة الناجحة كانت عملاً مربحاً. وكانت فرص الطابعين للثراء وللمخاطرة أيضاً كبيرة فى المراكز التجارية مثل: فينسيا، ميلانو، ليون، باريس، كولون، ستراسبورج، نورنبرج، أوجزبرج، وبعد ذلك لندن، أنتويرب، فرانكفورت، فيينا.

ويذكر لنا الإنتاج الفكرى عن الطباعة الباكرة أزمتين واجهتا الطابعين آنذاك. إحداهما حدثت فى بداية سبعينات القرن الخامس عشر وأثرت تأثيراً بالغاً على المطابع الإيطالية، والثانية حدثت كذلك فى مطلع الثمانينات من نفس القرن الخامس عشر. وتكشف لنا سجلات تلك الفترة عن تخفيض حجم إنتاج المطابع،

(1) Bocaccio. De Claris mulieribus.

إغلاق المطابع ووقف العمل، ديون متراكمة على الطابعين، وتشير هذه المظاهر كلها إلى سبب رئيسى هو زيادة الإنتاج عن سوق الطلب والاستهلاك. فقد لجأ كثير من الطابعين إلى طبع نفس العناوين. ومن بين تلك العناوين التى تكرر طبعها مراراً كتب «أنطونينوس فلورنتينوس»، كتب «سانت أوغسطين»، كتب «كاراكيولوس»، كتب «دورانتى»، كتب «جريتش»، كتب «جاكوبوس دى فوراجين»، مراسيم البابا «بونيفاس الثامن»، «كليمفس الخامس»، كتب «جوستنيان»، «بيروتومس»، «شيشرون»، «ساللوست»، «فيرجيل»، «لوكانوس»، وغيرهم كثيرون[1].

ومما يذكر فى هذا الصدد أن «اعترافات» أنطونينوس قد طبعت عشر مرات قبل سنة ١٤٨٠ فى عموم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وست عشرة مرة بين ١٤٧٢ و١٤٧٨ فى إيطاليا وحدها، وطبعت مرة واحدة فى فالنسيا، أى أنها طبعت سبعة وعشرين مرة بين ١٤٦٩ ـ حين طبعت لأول مرة فى كولون ـ وقبل حلول ١٤٨٠م أى فى خلال عقد واحد. ويقدر عدد النسخ التى طبعت من هذه الاعترافات بنحو سبعة آلاف نسخة على الأقل. أما الكتاب المقدس المترجم إلى اللاتينية[2]، وكانت حاجة الناس إليه وطلبهم عليه أكثر بكثير من اعترافات أنطونينوس، فقد ظهرت منه سنة ١٤٧٠ سبع طبعات فى ألمانيا، ومع حلول سنة ١٤٧٩ كانت هناك تسع وثلاثون طبعة قد طرحت، وهو عدد كبير من الطبعات المختلفة هددت سوق الكتاب المقدس يقيناً. وحتى لو وصل عدد النسخ المطبوعة

(١) من العناوين التى تكرر نشرها لدى العديد من الطابعين فى وقت واحد
- Anrovinus Florentinus. Can fessionale.
- St. Augustine. De Civitate dei.
- Biblia Latina.
- Caraccciolus. Quadragesimale.
- Duranti - Rationale.
- Gritsch. Quadragesimale.
- Jacobus de Voragine. Imitatio Chrisri; Gadden Legend.
- Boniface VIII. Decretales.
- Clemens V. Constitutiones.
- Justinian. Institutiones.
- Perottus. Rudimenta.

(2) Vulgate.

من تلك الطبعات إلى عشرة آلاف نسخة كان من الممكن للسوق أن يستوعبها لو أن أسعارها كانت منخفضة فى متناول الناس، ولكن لأن ثمن النسخة كان يصل إلى عدة جيلدرات، فقد كان من الصعب على السوق آنذاك أن تمتص كل هذه الكمية. ونحن نضيف فى هذا السياق تاريخ طبع كتاب شيشرون(1) للتأكيد على ظاهرة الإنتاج الزائد عن احتياجات السوق، وأن الإنتاج الزائد لم يكن يقتصر فقط على كتب اللاهوت بل تعداها إلى الكتب فى المجالات الأخرى:

السنوات	عدد السنوات	أماكن الطبع
١٤٦٥ ـ ١٤٧٠	٦	كولون، ماينز [٢]، روما [٢]، فينسيا
١٤٧١ ـ ١٤٧٦	١١	باريس، فيفزانو، فينسيا [٣]، ستراسبورج، ميلانو [٢]، نابلى، بريشيا، بازل.
١٤٧٧ ـ ١٤٨٢	١١	فينسيا [٢]، بارما، باريس، ميلانو [٣]، نابلى، ديفنتر، روما، تورينو.
١٤٨٣ ـ ١٤٨٨	١	نابلى.
١٤٨٩ ـ ١٤٩٤	٢	ليبزج.
١٤٩٥ ـ ١٥٠٠	٤	ليبزج [٣]، فينسيا.

ومن المعروف أن كتاب شيشرون هذا قد استخدمه ككتاب دراسى، ومن هنا فإن كانت الطبعات المذكورة بعاليه قد كانت موجهة للمثقف العام دون حواشٍ وشروح فإن الطبعات المدرسية كانت مشروحة ومعلق عليها، ولذلك نجد بحلول ١٤٧٦ سبع عشرة طبعة مدرسية مشروحة، وبحلول سنة ١٤٨٢ نجد ثمانية وعشرين طبعة مدرسية. ولا نستغرب إذن ألا يطبع هذا الكتاب أية طبعة عادية (غير مدرسية) ما بين ١٤٨٤ و١٤٩٢. وألا يطبع منه بين ١٤٩٣ و ١٥٠٠م إلا ستة طبعات فقط، من بينها خمس طبعت فى ليبزج وواحدة فى نابلى، وربما كانت هذه الطبعات فى الأماكن البعيدة للاستهلاك المحلى. ومع نهاية القرن

(1) Cicero. De officiis.

الخامس عشر بدأ الطابعون يكيفون أعمالهم مع احتياجات السوق ومع ميول واتجاهات القراء، ومن ثم فإن نجاح أو فشل كتاب يمكن أن يكون معيناً لنا على معرفة ميول القراء واتجاهاتهم القرائية.

وكما سبق أن ألمحت فإن الزيادة السريعة فى عدد المطابع فى مراكز الطباعة الرئيسية، أدت بالضرورة إلى المنافسة الحادة وأحياناً غير العادلة فى وقت من الأوقات. ففى ماينز أعلن «بيتر شوفر» سنة ١٤٧٠ عن طبعته القادمة القريبة من «رسائل سانت جيروم» فى إعلان مفصل من ٤٦ سطراً، انتقد فيه نقداً مريراً طبعة موجودة بالفعل من هذا الكتاب دون أن يذكر أسماءً، ولكن كان من الواضح أنه يقصد طبعة منتلين فى ستراسبورج سنة ١٤٦٩. وهو ينصح الزبائن (ويسميهم الأحباء)[1] بالانتظار حتى صدور طبعته ولا يلجأوا إلى الطبعة الوضيعة الأخرى.

وفى تقديمه لكتاب شيشيرون «رسائل الرسل»[2] سنة ١٤٧٢ قال الطابع «فيليبوس دى لافاجنيا» الذى توفر على تلك الطبعة:

«لقد صدرت طبعات عديدة من هذا العمل فى مدن إيطالية مختلفة بفضل فن الطباعة الجديد. اثنتان فى روما، سبع فى فينسيا، واحدة فى كل من : فولنجو، ميلانو، موندوفى، ولو كانت تلك الطبعات مصححة بذمة وضمير، فلم تكن هناك حاجة إلى هذه الطبعة الجديدة، ولكن تلك الطبعات مليئة بالأخطاء... وهذه هى النتيجة قدر كبير من اللخبطة والاضطراب تسبب فيه جشع هؤلاء الأفاقين».

ومن بين الطابعين الذين عناهم فيليبوس دى لافاجنيا نجد «سوينهايم» و«بنارتز» فى روما، «فندليكوس دى سبيرا» و«جنسون» فى فينسيا. وفى سنة ١٤٧٤ قرظ أولرخ هان ساميون» و«نيكولاى شارديلا» طبعتهما فى روما من «مراسيم البابا جريجورى التاسع»[3]. وقد لفتا نظر المشترين إلى أنهم سيجدون فى السوق طبعات «لاتساوى قشة» وربما كانا يقصدان طبعة زميلهما «لاور» فى روما والمؤرخة بعد طبعتهما بشهر ونصف فى نفس السنة.

(1) Amici.
(2) Cicero. Epistolaead Familiares.
(3) Gregory IX. Decretales.

وفى حرد متن كتاب ستاتيوس[1] المطبوع فى بارما سنة ١٤٧٣ نقرأ ما نصه: «هل تجد عوجاً أو عيوباً فى هذا العمل ... نحّ الاحتقار جانباً، ذلك لأن استيفانوس كوراللوس فى ليون قد حاول ـ مدفوعاً بحقد بعض الناس الحاقدين - أن يطبع نفس الكتاب [وربما فشل فى ذلك لأن الكتاب لم يصدر عنه] بسرعة أسرع مما يطبخ الكرفس»[2] ونجد نموذجاً آخر فى التماس مقدم للحصول على ترخيص الطبع، فقد شكا «بيرناردو راسمو» سنة ١٤٩٦م أن بعض التجار، وقد سمعوا الاستعداد لإصدار الكتاب، فحاولوا سرقة بروفاته ليعدوا طبعتهم منها لمضاربة الطابع الأصلى للكتاب. وتكشف هذه الواقعة عن أن كيد الطابعين والناشرين لبعضهم البعض ممارسات موجودة منذ العقود الأولى للطباعة والنشر.

ويبدو أن قراءة البروفات وتصحيحها لم يكن لها إلا حيزاً محدوداً للغاية فى التخطيط الاقتصادى لدى معظم الطابعين؛ رغم أن «ك. هابلر» قد قرر أن الطابعين فى العقود الأولى للطباعة كانوا يدفعون أجوراً عالية لهذا العمل. وربما كان ذلك لأن الطابعين الذين يعتمدون على أصل مخطوط وهم غير متعلمين بما فيه الكفاية ولايستطيعون الاعتماد على أصدقائهم المتعلمين أو صبيانهم فى المطبعة فى تصحيح البروفات، فقد كان عليهم أن يستعينوا بمصححين متخصصين فى هذا النوع من العمل ويدفعون لهم بسخاء لقاء هذا العمل. ويضرب لنا هابلر مثلاً بحالة «بترونيوس نيكولاى دى زاجنيس» الذى تقاضى كما ورد فى عقد مؤرخ فى الرابع من نوفمبر ١٤٧٣م مائة وعشرين دوكات ونسخة مجانية لقاء تصحيح بروفات المجلد الأول من كتاب السجل القانونى الذى وضعه «بتروس دى مونت»[3]. ونفس هذا المبلغ وعد به كل من «بتروس دى لورداجنا» و«فرانشيسكوس دى هويكا» لتصحيح المجلدين الثانى والثالث من نفس العمل (ولم ينته العمل فيهما حتى سنة ١٤٧٦). ويشير هابلر أيضاً إلى حالة أخرى هى حالة المصحح «بوناكورسيوس بيزانوس» الذى استخدمه الطابع «فيليبوس دى لافاجينا» فى ميلانو سنة ١٤٧٤ لتصحيح بروفات ثلاثة كتب مطبوعة عن أصول

(1) Statius.
(2) Citiusquam asparagi Coquantur.
(3) Petrus de Monte. Repertorium utruisque juris.

مخطوطة مقابل ٦٠ دوكات ونسختين مجاناً، ونفس هذا المصحح - بوناكورسيوس - وقع عقداً لمدة سنة فى ٩ من مارس سنة ١٤٧٥ لتصحيح بروفات كتب فى البلاغة والشعر مقابل ٢٤٠ ليرة ونسختين مجانيتين من كل كتاب. وقد نشر الباحث «إ. أوريللو» نص عقد بمقتضاه يقوم «كارولوس دى مارسيلليس» (وهو طالب قانون)، بتصحيح بروفات كتاب جوان دى أنانيا «المرسوم الخامس الأعلى»[1] سنة ١٤٧٩م الذى توفر عليه الطابع «هنريكوس دى كولونيا» وذلك فى مقابل ١٤ دوكات ذهباً. كذلك نشر سارتوى نص عقد بمقتضاه يقوم «نيقوليتو فيرنيا» بتصحيح بروفات كتاب جايتانوس، ١٤٧٤-١٤٧٥ مقابل عشر دوكات واثنتى عشرة نسخة من الكتاب - ويبدو أن هذه الطبعة لم تنشر - وكان الطابع هو «جوان بونوس دى بيرتونيا».

وربما تكون هذه الحالات ممثلة تمثيلاً صادقاً لظروف تلك الفترة ولهذا النوع من الطبع. ولكننا على الجانب الآخر نعرف حالات كثيرة من الطابعين الأوائل الذين كانوا يتلقون المساعدة فى عمليات تصحيح البروفات من أصدقائهم المتعلمين والهيئات العلمية بدون أى مقابل مادى. (وربما يكون ذلك فى مقابل نسخ مجانية). وعلى سبيل المثال فليس لدينا أى دليل على أن طبيب مدينة أولم والإنسى المشهور والمترجم لعدد من الكتب [شتايهوول] كان يتقاضى أية مبالغ مقابل تصحيح البروفات التى كان يقوم بها لصديقه الطابع زينر. كذلك فإننا لسنا على يقين مما إذا كان «جيوفانى أنطونيو دى بوس» أسقف أليريا وسكرتير مكتبة الفاتيكان كان قد تلقى مبالغ مالية لقاء تصحيح بروفات كتب أول طابعين فى روما: «سوينهايم» و«بنارتز»، فالاحتمال وارد. كما أننا لا نعرف على وجه الدقة ما إذا كان «بومبونيوس لايتوس» أو «بارتولومايوس بلاتينا» المصححان لدى «جورج لاور» فى روما فى حاجة أو تقاضيا فعلاً أموالاً لقاء تصحيح كتب «كاردينال كارافا». والحقيقة أن هذه القائمة من الأصدقاء والعلماء الذين ساعدوا الطابعين فى تصحيح البروفات يمكن أن تمتد إلى ما لانهاية وتملأ صفحات عديدة، ولكننا يجب أن نضع فيها الأسماء اللامعة الآتية: فيلفلو، بوجيو، فيشيه،

(1) Joanes de Anania. Super V decretalium.- 1479.

لوفيفر، بيتوس ريناتوس، إراسموس، سباستيان، برانت، ريشلين، ميلانكتون، وكثيرين من أمثالهم. ويؤكد الثقاة من المصادر أن بعض هذه الأسماء قد تقاضى أجراً عن عمله، وبعضهم كان ينتظر منافع معينة من الرعاة، ولكن فى نفس الوقت هناك من بينهم من قدم هذه الخدمات دون انتظار لمكافأة مالية. ويقدم لنا «رودلف هيرش» مثلاً على مصحح لم يتقاض أجراً مالياً وإنما مجرد نسخ مجانية، وذلك من واقع عقد مفصل موقع سنة ١٤٧٢ بين الطابع الشهير «أنطونيوس زارتوس» وكل من: جابرييل دى أورسينيبوس ـ القسيس ـ وكولا مونتانوس ـ الأستاذ ـ وجابرييل دى بفاريس دى فونتانا ـ الأستاذ أيضاً ـ وبيتر دى بورجو ـ المحامى فى بارما. وقد نص هذا العقد على أن المصححين لا يتقاضون مقابلاً مالياً وإنما فقط نسخة أو نسختين من كل عمل توفروا على تصحيحه. ومن جهة ثانية لم يكن تصحيح البروفات فى كثير من الأحيان من مهام أشخاص خارجيين وإنما كان غالبا ما يعهد به إلى العاملين المتعلمين فى المطبعة، ولدينا نموذج رائع على ذلك من إحدى المطابع الإيطالية فى بولونيا التى كان يرأسها ثلاثة من الرجال ذوى التعليم العالى وهم: [الشريف] بالداسارى أزوجيدى؛ [الأستاذ] فرانشسكو بوتيولانو؛ آنيبال مالبجلى. وكانت مهمة بوتيولانو [الأستاذ] تحرير النصوص المخطوطة وتصحيح البروفات. وفى مقابل ذلك العمل الهام وفى مقابل نصيبه فى المطبعة كان يتلقى ـ كما نص عقد الشراكة ـ «ثلث إنتاج المطبعة أو ثلث الأموال الناتجة عن المبيعات بعد خصم نفقات الورق والعمالة».

وقد حصر لنا الباحث العظيم «ج.م. لينهارت» فى كتابه «الكتب والمطبوعات قبل الإصلاح الدينى»[1] ٧٦٠ مصححاً للبروفات فى الفترة من ١٤٥٧-١٥٠٠، والجداول التى قدمها تعطينا صورة واضحة عن التنوع الشديد بين هؤلاء الرجال. وقد تضمنت قوائم ٤٧ قسيساً؛ واحد كبير أساقفة، واحد رسول بابوى، واحد كاتب أول محكمة، ١٠ أساقفة. وكانت قراءة البروفات فى العقود الأولى ـ ثم بعد ذلك للمخطوطات الصعبة – تنطوى على مقارنة عدد من النسخ المتوافرة من

(1) Erasmus. Adagiorum opus.- Basil, 1528.

هذا العمل ومراجعة الاختصارات وكتابتها كاملة، وإن كانت هناك طبعات مطبوعة من الكتاب تراجع عليها وتقارن بها أيضاً، أى كنوع من التحقيق الذى نقوم به في أيامنا. وهذا العمل بكل تأكيد يحتاج إلى درجة معقولة من التعليم بل والسيطرة على مناهج البحث. أما إذا كانت المسألة مسألة إعادة طبع من نص مطبوع أو من نص كتب أو نسخ خصيصاً للمطبعة فلا تحتاج إلى مهارة شديدة ويمكن أن يعهد بها إلى بعض العاملين المتعلمين فى المطبعة. وبالنظر إلى كثرة الشكوى من الأخطاء الطباعية والطبعات الرديئة، تلك الشكاوى التى جاءت من مصادر عديدة: مؤلفين، محررين، مترجمين، قراء... فإننا نستنتج أن الاهتمام بتصحيح النص والبروفات قد تضاءل والعناية بضبط النص ودقته قد تراجعت. وللأسف الشديد نلاحظ أن خط الانهيار قد أصبح حاداً بعد حركة الإصلاح الدينى. أو كما كتب «إراسموس» فى مقدمة أحد كتبه[1]: «هؤلاء الذين يحرصون على توفير كل بنس لايستعينون بمصحح، بل يقدمون لنا نصوصاً مليئة بالأخطاء، والعيوب والاعوجاجات، نصوصاً رديئة على وجه الإجمال». ثم امتدح إراسموس ناشره «هيرونيموس فروبن» لدقته فى تصحيح كتبه ونوعية الإخراج التى يراعيها فيها. ومن الطبيعى أن يكون للصداقة كما للعداوة دور فى مدح أو ذم إخراج الكتب، ومن المعروف أن فروبن الأب والابن على السواء كانت لهما علاقات طيبة مع العديد من الإنسيين. وفى خطاب من المؤلف «زاسيوس» إلى صديقه «بيتوس رينانوس» مورخ فى ٢٦ من يناير ١٥١٩ ذم زاسيوس الناشر «جوهان فروبن» لطباعته المتدنية وطالب بعمل قائمة تصويبات فى بعض الكتب. وبصفة عامة كانت عمليات تحرير المخطوطات قبل طباعتها تتم بإهمال شديد، ولكن على الجانب الآخر كانت هناك نماذج رائعة على طابعين كانوا يحرصون أشد الحرص على حسن تحرير النصوص قبل مثولها للطبع، وعلى إدراج قائمة تصويبات لما يكون قد فات عليهم من أخطاء بعد انتهاء طبع الكتاب، وقد استعرضنا جانبا من ذلك فى فصول سابقة. ومن الطبيعى أن يكون هناك

(1) Erasmus. Adagiorumopus.- Basil, 1528.

فارق كبير وجوهرى فى العملية التحريرية بين المخطوط والمطبوع؛ فالمطبوع هو الذى أدى إلى تطورات غير مسبوقة فى فنيات التحرير وأساليبه. فكل مخطوط هو شىء فريد فى حد ذاته وكل نسخة من المخطوط الواحد هى أيضا متفردة بذاتها وكانت تخضع للمراجعة والفحص من جانب شخص أو عدة أشخاص، بينما المطبوع يخرج لنا من المطبعة فى نسخ متطابقة ويتعرض للاستعمال من جانب دائرة واسعة من القراء. ومن هنا كانت الشكاوى من أخطاء الطباعة تتعالى وتنعكس بالتالى على مقدرة المحرر والقائمين على الطباعة. وقد تزامنت الطباعة مع الاهتمامات اللغوية للإنسيين بالنصوص، فدفعا بعمليات التحرير وأساليبها قدماً إلى الأمام.

وقد تعرض كثيرون لسوء عمليات التحرير فى بعض المطبوعات وخصوصاً فى عصور انحطاط الطباعة، من بينها مقالة مبكرة جداً نشرت فى فينسيا سنة ١٤٧٢ وكتبها «جورجيوس ألكساندرينوس» أدان فيها النصوص سيئة التحرير التى يعدها غير المؤهلين وتعجب وتساءل هل الطباعة نعمة أم نقمة[1]. وكذلك ماورد فى الإهداء الذى قدمه «بيتوس رينانوس» إلى الطابع «ماتياس شورر» سنة ١٥١٨ فى كتاب «فن النحو» لمؤلفه «كيوريوس لانكيلوتوس باسيوس» والمطبوع فى ستراسبورج سنة ١٥١٨م حيث كتب يقول فيه: «كثير من الطابعين الآخرين وخاصة الإيطاليين - لأن الألمان أحسن منهم قليلاً - لايهتمون بالتحرير.. ولكنك [أى شورر] تعطى أقصى اهتمام لمطبوعاتك ولذلك لايخرج من مطبعتك أى كتاب سيئ التحرير أو معيب». وكان فروبن حسبما قرر إراسموس ينفق مبالغ كبيرة من المال فى سبيل التحرير الجيد لكتبه وكان بهذا قادراً على الاستعانة بأحسن الدكاترة ومن بينهم «سيجسمون جيلنيوس» الذى رفض منصب الأستاذية فى جامعة نورنبرج فى مقابل مرتب سنوى مائة جيلدر، وفضل عليه البقاء فى خدمة فروبن.

---

(1) Georgius Alexandrinus. Scriptores rei rusticoe.- Venice, 1472.

وكانت الكتب الخاصة تتكلف فى طباعتها تكاليف زائدة، ومن المؤكد أن طباعة الكتب المصورة كانت أندر من طباعة الكتب العادية ذات النصوص فقط؛ فالفنان والحرفى الذى يحمل الرسوم على كتل الخشب يتقاضى أجراً مقابل عمله، وكانت طباعة الكتب ذات الصور تحتاج إلى عمليات أكثر تعقيداً، كما كانت مستهلكة للوقت. وفى الكتب المصورة وحدها وجد المزخرفون والمحمرون عملاً لهم؛ كعضو فى طاقم المطبعة، وبعضهم بالقطعة أو حسب الطلب، وكان هذا هو الغالب. وقد أشار الباحث «و. ل. شريبر» إلى أن خمسة كتب مصورة نشرها زينر فى أولم تضمنت تكويناً باليد لعدد من الكتل الخشبية يصل إلى ٨٥٢٠٠ كتلة. وحتى لو كان هذا العدد مبالغاً فيه لأن الطابع لم يلون كل النسخ وحتى لو كان عدد النسخ أيضاً (٣٠٠ نسخة من كل كتاب) فيه مبالغة فإن العمل المصور لابد وأن يستهلك الوقت والجهد والمال على أية حال. فلنفترض أن عدد الكتل الملونة كانت نصف العدد المذكور ٤٢٦٠٠ كتلة، فإن هذا الرقم كاف لتشغيل عدة فنانين لفترة طويلة من الزمن. ومن هذا المنطلق فإن الطباعة تكون قد خلقت مورد رزق هؤلاء الفنانين ولم تغلق الباب كما يذكر البعض[1]. ولعله من نافلة القول أن عدد الكتل الخشبية الفعلية ألتى أخذت منها اللوحات فى تلك الكتب بلغت ٢٨٦ كتلة (مضروبة فى عدد النسخ التى تم تلوينها فقط لأنه لو تم تلوين كل النسخ لكانت اللوحات الملونة فى ١٥٠٠ نسخة من الكتب الخمسة لكانت اللوحات الملونة قد بلغت ٤٢٩٠٠٠ لوحة مما يعنى أن الربع فقط هو الذى تم تلوينه).

وكان على الطابعين أن يوائموا بين تكاليف الكتب المصورة والعائد الذى يعود عليهم من ورائها؛ وقد بدأوا باختيار الكتب التى يمكن تصويرها على غرار المخطوطات، ومن أمثلتها الكتاب المقدس للرجل الفقير[2]، والأسطورة الذهبية[3]، وكلما تطور فن الطباعة وتقدم كلما تطورت إيضاحيات الكتب

(1) W. L. Schreiber. "Die Anfänge des Buntfarbendrucks".- Gutenberg Jahrbuch, 1928.

(2) Biblia Pouperum.

(3) Golden Legend.

وصورها عما كان عليه الحال فى المخطوطات . ولعله من نافلة القول أن نذكر أن إنتاج الإيضاحيات المتعددة من كتلة واحدة كان أرخص كثيرا من رسمها باليد فى المخطوطات. ورغم ذلك فإن تصوير الكتب المطبوعة كان يحتاج بالضرورة إلى تكاليف عالية ومصروفات إضافية.

ويذكر فى هذا الصدد السخاء والكرم الذى جاد به الطابعون فى أولم على كتبهم المصورة. وعلى الجانب الآخر كان بعض الطابعين يقتصدون فى استخدام الإيضاحيات فى كتبهم، بل وكانوا يستخدمون نفس الكتلة الواحدة فى عدة مواضع من الكتاب الواحد، بل وأكثر من هذا فى عدة مطبوعات. وكما ذكرنا فى مواضع سابقة من هذا البحث كان يمكن للطابع أن يستعير الكتل الخشبية من طابع آخر، أو يشتريها أو ينتحلها. والأمثلة على ذلك كثيرة نقتطع منها بعضها، فقد قام الطابع **كونة** Kunne بأخذ أول صورة شخصية لمؤلف فى كتاب مطبوع (وأول صورة تطبع فى ميلانو على الإطلاق)، كما أخذ أول صورة مطبوعة بأسلوب عصر النهضة فى كتاب مطبوع، ووضعهما فى كتاب له صدر فى ميننجن سنة ١٤٨٦ . كما أن كل الإيضاحيات التى وردت فى كتاب بوكاتشيو «عن النساء الشهيرات»[1] والذى نشره زينر فى أولم سنة ١٤٧٣ ، أخذت وأعيد استخدامها لدى طابعين آخرين فى أوجزبرج، ستراسبورج، لوفان، سراقوسة. كما أن الكتل الخشبية التى استخدمت فى أول كتاب فرنسى مصور، صدر فى ليون سنة ١٤٧٨م[2] كانت قد صممت واستخدمت فعلاً فى بازل قبل ذلك التاريخ بعامين ١٤٧٦م. وبعد ذلك التاريخ بنحو أربعين عاما كانت الزخارف التى صممها الفنانون المعاصرون فى بازل من أمثال أورز جراف تصدر إلى باريس. ومن الأمثلة الطريفة أن كتلة صممت فى أوجزبرج أساساً لزخرفة ورق التغليف سنة ١٤٨٦م قد حرفت وأعيد استخدامها فى إطار أو برواز لصفحة عنوان أحد الكتب سنة ١٥٣١ فى زويكاو. ومثل هذه الهجرات ـ على حسب تعبير هيرش - لكتل الخشب كانت كثيرة، وربما كانت تتجاوز حدود الدولة الواحدة إلى غيرها من الدول؛ فالذوق الفنى كالذوق الأدبى لايعرف الحدود.

---
(1) Boccaccio. of famous women.- 1473.
(2) Speculum humanoe salvations.- Lyon, 1478.

كذلك استخدمت الأولويات المأخوذة عن كتل الخشب أو عن كتل المعدن بكثافة فى العقود الأولى للطباعة، وهى بدورها قد أضافت أعباء وتكاليف زيادة على الطابع، كما أن الطباعة باللون الأحمر والتى بدأت ممارستها سنة ١٤٥٧م أضافت هى الأخرى تكاليف إضافية على الطابع، وظل الطابعون ردحاً من الزمن يتركون هذه المهمة إلى المحمرين الذين يحمرون الحروف الأولى وبعض العناوين بخط اليد باللون الأحمر، وربما يحمرون بدايات الفقرات بل والجمل أحياناً. وكانت هذه الخدمة الإضافية يقدموها فى بعض النسخ دون الأخرى على حساب المشترى أو يتركونها للزبون نفسه إن كان يعرف محمراً جيداً.

والكتب التى كانت تستخدم بنطين مختلفين أو أكثر أحدهما للنص والآخر للحواشى والتعليقات كما هو حال كتب القانون وكتب اللاهوت كانت بالضرورة تنطوى على عمل أكثر تعقيداً ومن ثم أكثر تكلفة، وهكذا فعلت الحواشى[1] بالكتب المطبوعة. والحروف الأجنبية كانت تعنى بالضرورة تصميم حروف مختلفة وصبها مع مايستتبع ذلك من استخدام لأخصائيين مهرة فى هذه الحروف، مثل الحروف اليونانية أو العبرية أو العربية، وكانت الحروف اليونانية يتوفر عليها بعض هؤلاء المهاجرين من الشرق. ولعل هذا يفسر لنا لماذا كانت الطباعة بحروف غير لاتينية متأخرة ليس فقط لأنها كانت مكلفة، ولكن أيضاً لعدم وجود قراء كافين بتلك اللغات ولعدم توافر الصناع المهرة لتلك الحروف.

ولأن الاستثمار فى الأبجديات الأجنبية كان مكلفاً للغاية فقد سعى الطابعون فى فينسيا ـ وهم أول من أدخلوها ـ إلى حماية تلك الابتكارات عن طريق استصدار الامتيازات وتراخيص الحقوق من حكومة فينسيا. ولعله من نافلة القول أن المدونات الموسيقية والجداول الرياضية والرسومات الفلكية وكل الملامح الخاصة كانت تضيف إلى التكاليف والأعباء ومن ثم ترفع أسعار الكتب. ومما يعلى من قيمة الطابعين الأول ويرفع من شأنهم أن كثيراً من الابتكارات والمستجدات قد تم إدخالها وقبولها فى المائة سنة الأولى فى عمر الطباعة.

(1) Marginalia.

وقبل أن ينجح الطابعون فى تقدير حجم مبيعاتهم من الكتب - عن طريق دراسة السوق أو عن طريق الخبرة الذاتية أو عن طريق نصائح الأصدقاء ـ كانوا يتبنون برامج مختلفة فى النشر تمزج بين النشر التقليدى الذى يتضمن عناوين موروثة والنشر المستحدث الذى يشتمل على كتب جديدة غير تراثية. وقليل من الطابعين بدأ فى فترة مبكرة فى التخصص. والأمثلة التى نسوقها هنا لاتستغرق الكل وإنما هى مجرد عينات، وإن كان الكل فى مجمله قليلاً. فالطابع الباحث «روجيومونتانوس» (أو جوهان موللر فون كونجزبرج) تخصص فى طبع كتب الرياضيات والفلك فى نورنبرج من سنة ١٤٧٣ إلى ١٤٧٥م، وكان يساعده فى ذلك الراعى الغنى بيرنارد والتر الذى أمدَّ هذا الطابع الباحث بمرصد فلكى أيضاً. أما **رايكيرت بافرايت** الطابع فى ديفنتر فقد بدأ حياته الطباعية بطبع الكتب العامة المقبولة لدى الجموع مثل كتب اللاهوت وكتب المواعظ، ولكنه منذ ١٤٨٨م أضاف إلى نشاطه خطاً تخصصياً آخر هو : أعمال الرسل والكتب الكلاسيكية والإنسية والكتب المدرسية. وكذلك فإن «جونتر زينر» أول طابع فى أوجزبرج بدا هو الآخر ببرنامج محافظ فى طبع الكتب سنة ١٤٦٨، ولكنه بعد سنتين في ١٤٧٠ أخذ يتخصص فى كتب اللغات المحلية، إضافة إلى ترجمات عن «بوكاتشيو» و«بترارك» و«جيدو دى كولومنا»، وقد حذا حذوه نفر قليل من زملائه فى أوجزبرج. وفى فينسيا تخصص عدد من الطابعين فى كتب القانون؛ وواحد منهم - بونيتوس لوكاتيللوس - تخصص فى كتب أرسطو وكتب الطب. أما «إيرهارد راتدولت»؛ الذى بدأ حياته الطباعية فى فينسيا، فقد تخصص أساساً فى كتب الشعائر الدينية والفلك عندما استقر فى أوجزبرج. وقام «فيليب بيجوشيه» وعدد من الطابعين فى باريس بالتركيز على «كتب الساعات»[1] المربحة. وقد لاحظ «ف.ج. نورتون» أن الطباعة المتخصصة فى المدن الإيطالية فى القرن الخامس عشر استمرت كذلك فى القرن السادس عشر، ومن ثم فقد تميزت مدينة فلورنسا بكتب الإنسيين والأدب الشعبى؛ وتميزت بولونيا بكتب النبوءات، وتميزت

(1) Books of Hours.

بافيا بكتب القانون، وركزت سيينا على كتب الآداب الشعبية المحلية، وركزت روما على كتب الإنسيين والخطب السياسية والمواعظ والمنشورات البابوية، أما نابولى فقد تخصصت فى كتب الإنسيين المحليين.

وفى بعض الأحيان كان أعضاء هيئة التدريس والطلاب فى الجامعات يعتبرون هم السوق الأكبر للطابعين، ومن ثم فقد أثروا تأثيراً أساسياً فى برامج النشر لدى هؤلاء الطابعين. وعلى سبيل المثال فقد كان الاتجاه المفضل لدى الطابعين الأوائل فى كولون نحو كتب قطع الربع المتوسط سهل التداول والتناول ذى السعر المعقول الذى يناسب إمكانيات واحتياجات طلاب الجامعة هناك، مما يدخل أيضاً فى باب التخصص ولو أنه تخصص شكلى. ولقد قامت المطابع فى بولونيا بإنتاج العديد من الكتب اللازمة لطلاب الجامعة هناك أو الكتب التى ألفها أعضاء هيئة التدريس بها. وكان ٢٦٪ من الكتب التى تم نشرها فى بولونيا هى كتب القانون وذلك لأهمية هذا المجال ومكانة جامعة بولونيا فيه. ولم يكن العدد الكبير من كتب التنبؤات الصادرة فى بولونيا راجعاً إلى اعتقاد أهلها فى علم النجوم والتنجيم، ولكنه جاء نتيجة لتدريس علم الفلك والتنجيم فى الجامعة والقواعد التى تحتم جمع المحاضرات فى هذا المجال فى كتاب واحد على الأقل كل سنة. وفى ليبزج أيضاً قام الطابعون بطبع الكتب اللازمة لطلاب الجامعة، وابتكروا وسيلة طريفة للإعلان عن كتبهم على إعلانات مطبوعة تعلق على أبواب قاعات الدرس. وكانت صيغ تلك الإعلانات يمكن أن تسير على النحو الآتى: «يمكن الحصول على كتاب ألكسندر دى فيللا ديى بقروش قليلة فى دكان كونراد كاشيلوفن» أو «يمكن الحصول على نسخ محررة جيداً فى . . .» وخلاصة القول أن اختيار النصوص التى تطبع ومعظم الكتب التى نشرت فى ليبزج كانت لاستخدام الجامعة، ولذلك طبعت طبعاً خاصاً بحيث تكون المسافات بين السطور واسعة والهوامش عريضة لكتابة تعليقات بين السطور والهوامش وخاصة الهامش السفلى والخارجى.

والمطبعة التى أسست داخل جامعة السوربون - والتى سميت خطأ بمطبعة جامعة السوربون وقيل عنها إنها أول مطبعة جامعية، والأوفق أن نقول عنها أول مطبعة خاصة تنشأ فى جامعة السوربون - هى تلك التى أنشأها كما أسلفنا فى فصل سابق: هينلين فون شتاين وغليوم فيشيه، وقد استدعيا من ألمانيا ثلاثة طابعين ألمان هم: «جيرنج» و«فرايبورجر» و«كرانتز» إلى باريس. وقد توفر الفرنسيان على اختيار النصوص التى تطبع وحرراها وصححا تجاربها. ومن المؤكد أن الفرنسيين اللذين تخرجا فى الجامعة كانا حريصين على أن تكون تلك الكتب موجهة نحو الطبقة المتعلمة الجديدة والتى كان من بينها بكل تأكيد أساتذة وطلاب الجامعة. وكان الطابعون فى مدن الجامعات يحبون أن يذكروا المناصب الأكاديمية للمؤلفين الذين ينشرون لهم، بل كانوا أحياناً - وليس كثيراً - يشيرون إلى الطلاب فى حرد المتن وخاصة فى ألمانيا. وكانت أسماء الجامعات المحلية تذكر هنا وهناك عرضاً فى عناوين بعض الكتب أو فى حرد المتن، وخاصة إذا كان العمل له أية صلة بالجامعة على نحو ما نجده فى بعض الأعمال المنشورة فى بافيا، إنجولشتادت، توبنجن، إيرفورت. وربما كان الدافع إلى ذكر اسم الجامعة هو ترويج العمل وزيادة مبيعاته فى الوسط الجامعى. وكان «جون فون فيستفالين» (أو جوهان دى بادربورن) الطابع فى لوفان يستخدم اسم جامعة لوفان كثيراً فى حرد متن الكتب التى يطبعها. وفى بادوا كانت أول مطبعة قد أسست فى منزل دبرته الجامعة لصاحبها ولذلك كان حرد المتن يحمل عنوان هذا المنزل منسوباً إلى الجامعة[1]. ومع ذلك فإن البرامج النشرية الأولى فى هذه المطبعة والتى توفر عليها فى البداية كل من الطابعين «فالد زيشيو» و «زيبنرايشن»، لم تركز على المطبوعات الجامعية، ولكنها كانت موجهة إلى دائرة أوسع من القراء. وكان من بين كتبها الأولى كتب لكل من بترارك، بوكاتشيو وبعض القصص الرومانسى الإيطالى. ومن الملاحظ فى إيطاليا أن المبادرة فى تطوير برامج النشر حتى تلائم أغراض الاستخدام الجامعى كانت فى يد أعضاء هيئة التدريس أكثر مما

(1) in gymnasio patavino.

كانت فى يد الطابعين أنفسهم ودور النشر. وكان أساتذة الجامعة وموظفوها فى كثير من الأحيان شركاء فى تلك المطابع وتلك الدور. وكان الغالبية العظمى من الطابعين ـ الناشرين الذى ينشرون للاستهلاك الجامعى يعملون على مسئوليتهم الخاصة، وفى نهاية القرن السادس عشر بدأوا يعملون لحساب الجامعات بناء على عقود تبرم معهم، ومن ثم تحولوا فى ذلك الوقت إلى ناشرين.

وقد سار الطبع للكنائس والسلطات المدنية فى نفس الخطوط تقريباً. ذلك أن الهيئات الحكومية والرسمية كانت منذ البداية زبائن لدى المطابع تطبع لديها أنواعاً متعددة من المطبوعات: صكوك الغفران، منشورات البابا، رسائل البابوات، الخطب الرسمية، كتب التراتيل والأدعية والشعائر، الإعلانات والدعايات، مجموعات القوانين، تعليمات سك النقود، جوازات السفر... هذا الاستخدام للمطابع والذى بدأ مبكراً سنة ١٤٥٤ بطبع صكوك الغفران الأولى، زاد مع مرور الوقت بحيث أصبح فى مطابع القرن السادس عشر يمثل جزءاً هاماً من برنامج النشر لدى عدد محدد من المطابع ومن أمثلتها مطبعة شوبزر فى ميونيخ ومطبعة أنسلم فى توبنجن. وفى وقت من الأوقات أصبحت بعض المطابع مطابع رسمية مكلفة ومربوطة لحساب جهات حكومية معينة، وعلى سبيل المثال الطابع فرنشسكو كالسو الذى سمى فى سنة ١٥٢٧ «الطابع الرسولى»[١]. وقد أطلق عليهم ملوك فرنسا مصطلح «الطابع الملكى»[٢]. وقد أطلق على «هنرى استين» كما سبق القول اسم «الطابع الملكى»[٣] أولاً للكتب اليونانية وبعد ذلك للكتب اللاتينية والعبرية. وكان الإمبراطور «ماكسميليان الأول» يستخدم الطابع بيتر شوفر بكثرة فى مطلع النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى طباعة القرارات والمراسيم الإمبراطورية، ولكن استخدم بعد ذلك واحداً وعشرين طابعاً مختلفاً حتى نهاية القرن الخامس عشر لطباعة مطبوعات مختلفة التى كتبت فى ديوانه العام. وقد استمر «تشارلز الخامس» على خطى سلفه «ماكسميليان الأول» فى

(1) impressore apostalico Chalcognaphus apostalicus.

(2) imprimeur royal.

(3) impresson regius.

توزيع مطبوعاته بين عدد كبير من الطابعين. وقد كشف الباحث «ك. شوتنلوهر» النقاب عن بيانات دقيقة تتعلق بدخل سيلفان أوثمار الطابع فى أوجزبرج الناتج عن أوامر طبع رسمية قام بها لمدينة أوجزبرج. ولم تكن المبالغ التى حصل عليها كبيرة ولكن طالما أن ذلك الدخل كان مجرد جزء منه دخل هذا الطابع فقد كان دخلاً إضافياً مضموناً من خزانة المدينة. وسوف نقتطع من تلك البيانات العينات الآتية[1]:

١٥٢٢ ـــــ ٢ جيلدر ذهب، جنيه استرلينى، ١٥ شلن مقابل ٣٠٠ نسخة من أحد الكتب، ٣٠٠ نسخة من كتاب آخر.

١٥٢٣ ـــــ جيلدر واحد ذهب مقابل ٢٠٠ نسخة من إعلان عريض.
٢ليرة ذهبية مقابل ٢٠٠ نسخة أخرى من نفس الإعلان.

١٥٢٤ ـــــ جنيه استرلينى واحد، ١٥ شلن مقابل مائة نسخة من نفس العمل السابق.

ـــــ جيلدر واحد ذهب مقابل ١٠٠ نسخة من أحد الكتيبات.

ـــــ جيلدر واحد ذهب مقابل ١٠٠ نسخة من إعلان عريض.

ـــــ ٢ جيلدر ذهب، جنيه واحد استرلينى، ١٥ شلن مقابل عدد غير معين من النسخ من أحد المراسيم الخاصة بسوق النبيذ.

ـــــ ٤ جيلدر ذهب فى مقابل ٦٥٠ نسخة من إعلان عريض.

وقد قدم لنا «بنزنج» فى «قاموس الطابعين» سالف الذكر بياناً بالطابعين الذين طبعوا للدوائر الحكومية والرسمية بين ١٥٠٠ و ١٥٥٠ فكان عدداً كبيراً وتوزيعهم جغرافيا مدهشاً. ونقتطع من بياناته الجزء التالى:

---

(1) K. Schottenloher. "Silvan Otmar... Drucker des Schwäbischen Bundes" Gutenberg Jahrbuch .- 1940.

المدينة	الفترة	الطابع
أوجزبرج	١٥١٠ ـ ١٥١٣، ١٥٣٩	جوهان شونزبرجر، سيلفان أوثمار فيما بعد.
بامبرج	نهاية القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر	جوهان بفايل، جورج إيلنجر، هانز موللر.
فيينا	نهاية القرن الخامس عشر وحتى سنة ١٥١٩	جوهان فتنبرجر.
كولون	من نهاية القرن الخامس عشر حتى سنة ١٥٢١.	هيرمان بونجارت
ميونيخ	خلال القرن السادس عشر كله.	هانز وِ أندرياس شوبزر
نورنبرج	حتى سنة ١٥٣٦.	هيرونيموس هولتزل، فريدريتش بيبوس.
سبيير	حتى ١٥٣٠.	بيتر دراش.
كونستانس	١٥٠٦ ـ ١٥٢٠.	جوهان شافلر.
فرانكفورت (أودر)	١٥١٠ ـ ١٥٤٣	جوهان هاناو.
دانزج	١٥١٣ ـ ١٥٢٤	هانز فنرايتش.
لاندشوت	١٥١٣ ـ ؟	جوهان فيزنبرج.
مونستر	١٥١٣ ـ ١٥٣٥/ ١٥٣٦	ديتريتشن تويفل.
بازل	١٥٣١ ـ ١٥٣٥	توماسوولف.
شواز	١٥٢١ ـ ١٥٢٦	جوزيف بينسيلر.
زيورخ	١٥٢١ ـ ١٥٦٤	كريستوف فروشاور.
فيرزبيرج	١٥٢٥ ـ ١٥٥١	بالتاسار وجوهان موللر.
درسدن	١٥٢٦ ـ ١٥٤٠	وولفجانج ستوكل.
ماربورج	١٥٣٥ ـ ١٥٣٨	إيكاريوس سيرفيكورنوس.
برلين	١٥٤٠ ـ ١٥٤٧	هانز فيس.
إنسبروك	١٥٤٨ ـ وحتى نهاية القرن السادس عشر	ليونارد روزناجيل، روبريخت هوللر.
كونيجزبرج	١٥٤٩ ـ ١٥٧٣	هانز لوفت.

ونلاحظ من تلك العينة أن تعيين طابع معين لطبع مطبوعات الحكومة كان يتم لفترة قصيرة وخاصة فى المدن الكبيرة حيث لدى السلطات فرصة واسعة للاختيار. وبعض المدن الهامة جداً مثل فرانكفورت أم ماين واستراسبورج لم تعين قَط «طابعاً حكومياً» على الأقل فى النصف الأول من القرن السادس عشر. وعلى العكس من ذلك تماماً المدن الصغيرة قليلة الأهمية مثل أسقفية بامبرج وحكومة تيرول التى كانت مضطرة إلى قبول الطابع الوحيد فيها أو على الأقل الوحيد الذى يعتمد عليه، أو تحدد واحداً ليقوم بدور ناشر الحكومة لكى تبقى على المطبعة الوحيدة الموجودة فى منطقتها فى حالة عمل. وفى حالتين فقط هما ميونيخ وفيرزبيرج خلف الأبناء الآباء فى هذه المهمة استمراراً للعقود المبرمة مع الحكومة. وقد أصبحت العقود طويلة الأجل فى ميدان الطبع للحكومة ظاهرة عامة فى نهاية القرن السادس عشر. والأمثلة التى نسوقها للتدليل على هذه الظاهرة يمكن بلورتها على النحو الآتى.

المدينة	الفترة	الطابع
بامبرج	١٥٤٣ ـ ١٥٥٦	هانز موللر
	١٥٥٦ ـ ١٥٧٥	هانز هتزر
	١٥٧٥ ـ ١٥٨٠/ ١٥٨١	جوهان واجنر
	١٥٨١ ـ ١٦٢٠	أنطون هورتز
جراز	١٥٥٩ ـ ١٥٦٢	ألكسندر ليوبولد
	١٥٦٣ ـ ١٥٧٥	أندرياس فرانك
	١٥٦٣ ـ ١٥٧٩	زاكارياس بارتش
	١٥٧٩ ـ ١٥٨٧	هانز شميت
	١٥٨٧ ـ ١٦١٨	جورج ويد مانزتاتر

ولدينا أمثلة أخرى تفصيلية عن حالات أخرى فى إنسبروك وميونيخ.

ومنذ النصف الثانى من القرن السادس عشر تجمعت لدينا بيانات عن مبالغ المرتبات التى كانت تدفعها الحكومات المختلفة لعدد من الطابعين الرسميين تبدأ

كحد أدنى من ١٠ ـ ١٥ جيلدر فى السنة كما هو الحال مع «ب. موللر» فى فيرزبيرج وكحد أقصى ١٧٨ جيلدر فى السنة كما كان الحال مع الطابع «ج. بيرجين» فى درسدن. وكانت هناك بعض العقود ذات الطبيعة الخاصة كذلك العقد الذى أبرم مع «كاسبار فيتيل» فى زويبروكن الذى كان يتقاضى مبلغ ٦٠ جيلدر نقداً وكمية من الحبوب والبيرة عيناً. وأيضا ذلك الاتفاق الغريب الذى تم مع الطابع «دوبمان» فى كونيجزبيرج على أساس أن يطبع مطبوعات الكلية بدون مقابل مالى وإنما فقط كمية محددة من الحبوب. والحقيقة أننا نجهل تفاصيل هذه الاتفاقات، هل كانت هذه العقود على أساس كل الوقت أم بعض الوقت، أم على أساس كل ما يعهد إليه طباعته من قبل الحكومة، وهل كان ذلك فى مطبعة الطابع أم كانت الحكومة تمده بالمكان والأدوات!!.

ونحن نعلم تفاصيل إنشاء المطبعة البابوية فى الفاتيكان على يد «باولو مانتيوس» ابن ألدوس مانتيوس على نحو ما قدمناه فى فصل سابق سنة ١٥٦١، ولكنها أغلقت سنة ١٥٧٠م. وبعد سبعة عشر عاما، أنشئت مطبعة جديدة تحت اسم «مطبعة الفاتيكان»(١) التى أقيمت كمطبعة رسمية للبابوية. وقد قدمنا معلومات تفصيلية عن تلك المطبعة والدور الذى قامت به فى تصميم أبناط للأبجديات الإفريقية والآسيوية لطباعة الكتب التبشيرية بها. ولكننا لا نعرف إن كانت هذه المطبعة قد قامت بطبع قوانين ولوائح المدن الإيطالية والكتب العلمانية أم لا.

والأديرة التى كانت مراكز تقليدية لنسخ الكتب والتعليم وإنتاج الكتاب خلال فترة طويلة من العصور الوسطى على نحو ما قدمت فى كتابى «الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى» فقدت أهميتها كمراكز للحياة الفكرية اعتباراً من القرن الرابع عشر. ولكن بعض المذاهب حاولت وقف هذا التدهور فى أديرتها فقامت جماعة **«إخوان الحياة العامة»** بالتركيز فى دعوتها على أهمية الكتب والقراءة فى حياة الناس. وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على محاولة رجال الكنيسة المتنورين استعادة الوضع الذى كانت عليه الأديرة والمذاهب الدينية فى عالم الكتب والمكتبات. ومن هذا المنطلق قامت بعض الأديرة بإنشاء المطابع وإنتاج الكتب

(1) Stamperia Vaticana.

لاستعادة الأرض التى فقدتها. ولكن القدرة المالية للأديرة كانت قد تناقصت بتناقص تأثير وسلطان الأديرة على الناس. وكان إنشاء مطبعة كما رأينا عملاً باهظ التكاليف بمعايير ذلك العصر؛ وكانت القلة القليلة من الأديرة هى التى لديها القدرة على تسويق منتجات مطبعتها بنجاح. وهذا يفسر لنا لماذا كان عدد مطابع الأديرة قليل وإنتاجها محدود النسبة إذا قيست بالمجموع الكلى للمطابع والكتب المطبوعة فى تلك الفترة. وقد وصلتنا معلومات عن ثمانى مطابع ديرية على الأقل فى ألمانيا، كلها بدأت فى سبعينات القرن الخامس عشر، وكانت أولها مطبعة دير سانت أولرخ وأفرا سنة ١٤٧٤. وطبقاً لما ذكره «رودلف هيرش» فقد أصدرت تلك المطبعة تسعة عناوين فقط. أما مطبعة دير سانت بيتر فى إيرفورت (١٤٧٩) فقد أصدرت كتاباً واحداً، ومطبعة دير الإخوان فى مارينتال (١٤٧٥) أصدرت سبعة كتب؛ ديركولون (١٤٧٥) أصدر كتابين، دير سانت أوغسطين فى نورنبرج (١٤٧٩) أصدرت مطبعته عشرة كتب؛ والدير الوحيد لإخوان الحياة العامة فى روستوك أصدر خمسة عشر كتاباً خلال القرن الخامس عشر كله، وقد استمر هذا الدير حتى سنة ١٥٣٠ حيث أغلقت المطبعة بناء على دعوة من «مارتن لوثر». وقد أصدرت مطبعة دير شوزنرايد (١٤٧٨) كتابين اثنين، ومطبعة دير زينا التى أنشئت ما بين ١٤٩٣ و١٤٩٥ كتاباً واحداً. ورغم محدودية إنتاج مطابع الأديرة من الكتب إلا أنها طرحت للبيع العام، إذا حكمنا عليها من حيث التغطية الموضوعية والشكل العام. وكان برنامج النشر فى الأديرة الألمانية أوسع من برنامج النشر فى دير سان مارتير فى طليطلة (توليدو) أو مطبعة دير (سيدتنا فى براتو) بمدينة فالادوليد التى استخدمت الطابعين لإنتاج صلوك الغفران التى يستعملها الرهبان هناك. وكان برنامج النشر فى دير النساء الراهبات (أبود سانت جاكوب دى ريبولى) يشبه إلى حد كبير المطابع العلمانية، والاختلاف يكمن فقط فى أن الراهبات هن اللائى يقمن بالعمل الطباعى؛ أما التخطيط والإشراف فقد كان فى يد رئيس الدومينكان (دومينكو دى بستويا، ومتلقى اعترافات الراهبات بيترو دى بيزا) وكان الطابعون هم: دون إيبوليتو، لورنزو فنيزيانو وغيرهم. وكان من بين ما طبعنه الكتب اللاهوتية والكتب العلمانية للمؤلفين: ساللوست، سيتونيوس، بترارك، فيتشينو، بولشى. ولقد كان نشاط دير الراهبات فى

فلورنسا فريداً من نوعه وليس له مثيل فى إيطاليا كلها. وكانت هناك مطابع أديرة أخرى على الأرض الإيطالية بدأت فى القرن الخامس عشر وأصدرت كتباً قليلة منها دير «كارتوزا دى بارما» الذى أصدر كتاباً واحداً سنة ١٤٧٧م، ودير «نونانتولا» سنة ١٤٨٠، ودير «سان جيرمانو فيرسيليز» سنة ١٤٨٤ وكل منهما أصدر أيضاً كتاباً واحداً. وقد استمرت مطابع الأديرة فى العمل المتقطع حتى النصف الأول من القرن السادس عشر. وكانت مطبعة دير «فيزوبورن» قد قامت لفترة محدودة من ١٥٠٣ وحتى ١٥٠٥، ومطبعة دير «أوتوبيرن» كانت لها أهمية خاصة وعاشت لفترة أطول من ١٥٠٩ وحتى أربعينات القرن السادس عشر.

ويذكر هيرش أن أهم وأخطر كتاب طبع فى دير هو كتاب «مقدمة فى اللغة الكلدانية والسوريانية والأرمينية وعشر لغات أخرى»[1] الذى طبع فى مدينة بافيا سنة ١٥٣٩. وربما كان القليل من الفضل يرجع إلى دير سان بيترو الذى أصدر الكتاب، ولكن الكثير من الفضل يرجع إلى أب ذلك الدير: أمبروجيو تيسو الذى لم يكن فقط مسئولاً عن إصداره ولكنه كذلك صمم أبجديات وصب حروف أربعين لغة استخدمت فى هذه المقدمة. وكانت الطباعة الفعلية قد قامت بها أو أشرفت عليها «ماريا سيمونيتا» من كريمونا، فى الوقت الذى تم فيه إحياء مجلس ترنت للطباعة الكنسية تحت تأثير حركة الإصلاح الدينى نجد المطابع الكنسية الآتية فى النصف الثانى من القرن السادس عشر: مطبعة فيهنستيفان التى طبعت كتابين فقط فى سنة واحدة هى ١٥٥٨؛ مطبعة مجمع الجزويت فى فيينا ١٥٥٩ ـ ١٥٦٥؛ مطبعة تجيرنس ١٥٧٣ ـ ١٨٠٣؛ تيبرهوبتين ١٥٩١ ـ ١٥٩٩م؛ بروك فوق ثايا ١٥٩٥ ـ ١٦٠٨. وفى روما قامت مطبعة مجمع جمعية يسوع الرومانية[2] بإنتاج عدد كبير من الكتب اعتباراً من سنة ١٥٥٦ وحتى إغلاق المطبعة سنة ١٦١٥، كذلك يجب أن نذكر هنا مطبعة الفاتيكان التى أسست كما قلنا سنة ١٥٨٧ وإنتاجها من الكتب باللغات الشرقية والحروف الشرقية، كما أتينا

(1) Introduction in Caldaicaw Linguam, Sytniacam, atque Armeniam, et decem alias Linguas. - Pavia, 1539.

(2) Tipografia del Collegio Romano Socieratis Jesu.

قبلهاعلى ذكر مطبعة «باولو مانتيوس» والتى كانت تسمى مطبعة الشعب الرومانى[1] لأنها كانت تمول من ضرائب النبيذ التى كان يسددها مواطنو روما. ورغم أن الأديرة لم تعد إلى المكانة التى كانت عليها فى إنتاج الكتاب فى العصور الوسطى، إلا أنها كانت سوقاً هامة للكتب المطبوعة فى العقود الأولى للطباعة. ويكشف ثراء مكتبات الأديرة من أوائل المطبوعات، وكذلك مطبوعات القرن السادس عشر والسابع عشر وربما بعد ذلك أيضاً عن حنين تلك الأديرة للماضى العريق حين كانت تجمع الكتب بنهم شديد. وكان أعضاء الطوائف الدينية يعملون محررين ومصححين للكتب، كما كانت أديرة النساء الراهبات تساعد فى أعمال الطباعة على النحو الذى نصادفه فى ميلانو، نابلى، ستراسبورج، بازل ومدن أخرى غيرها. وإلى جانب ذلك فإن ازدهار مكتبات المدن والمكتبات الخاصة ومكتبات الجامعات والمكتبات المدرسية كان له أثره المباشر فى ازدياد مبيعات الكتب واتساع حركة تسويقها.

ولقد تحدثنا عن المنافسة وآثارها الطبيعية على سلامة وصحة صناعة الكتاب. ولعل من المظاهر الطيبة أيضاً فى صناعة الكتاب التعاون بين الطابعين والناشرين، ذلك التعاون الذى يمتص الآثار السلبية للمنافسة غير العادلة. والحقيقة أن بعض المؤسسات التعاونية فى جمال الطبع والنشر والتى قامت فى وقت مبكر من دخول الطباعة كانت تدعو إلى الإعجاب فعلاً. ويمكننا تتبع بذور ذلك التعاون فى اشتراك طابعين فى طبع كتاب واحد مثلاً كما حدث فى كتاب «المجموع»[2] الذى ألفه «أستيسانوس دى أستياينس» الذى تمت طباعته ليس بعد سنة ١٤٧٧ بطريقة طريفة حيث قام الطابع «مايكل فنسلر» بطباعة الأوراق من ١ ـ ٢٠٤ وقام الطابع «بيرنهارد ريتشل» بطباعة الأوراق من ٢٠٥ ـ ٤٣٢ وكلا الطابعين فى مدينة واحدة هى بازل. والحقيقة أننا لا نعرف السبب الحقيقى وراء قسمة هذا العمل طالما أن كلاهما كان مزدهراً فى ذلك الوقت، ويبدو أن القسمة مقصودة

(1) Tipografia del populo romana.

(2) Astesanus de Astesanis .- Summa, 1477.

لأن القسمين متساويين تقريباً، كما أننا نستبعد الاشتراك فى الطباعة لاقتسام المسئولية المالية وتقليل المخاطرة على جانب واحد، وهل كان المقصود بالقسمة هنا اختصار والإسراع بالطباعة؟ ربما يكون ذلك السبب الأخير هو الأقوى فالمشاركة فى إنتاج الكتب كانت موجودة فى عصر المخطوطات لمجرد تقسيم العمل.

وقد صادفنا طريقة أخرى للتعاون وهى طريقة من ابتكارات عصر الطباعة وليس لها نظير فى عصر المخطوطات؛ هذه الطريقة هى إنتاج الكتاب على نفقة مشتركة بين طابعين ويذكر بيانات الاثنين فى حرد المتن. وقد اتبعت هذه الطريقة فى كتاب نيقولاوس دى ليرا «عن أعمال الرسل»[1] وهو يحمل بيانات كل من الطابعين «بول بوتزباخ» فى بعض النسخ وبيانات «ألوازيوس دى سيلبرانديس» فى بقية النسخ. ومن المعروف أن هذا الأخير كان طابعاً لفترة معينة ثم بعد ذلك احترف تجارة الكتب. ونموذج آخر على ممارسة هذه الطريقة التعاونية فى إصدار الكتب نجدها فى كتاب «سانت جيروم»[2] حيث أن بعض النسخ التى وصلتنا تحمل بيانات الطابع «أنطون سورج» وبعضها يحمل بيانات الطابع «جوهان شوبسر». وكان كلا الطابعين نشيطاً فى أعمال الطبع فى ذلك الوقت، وإن كان سورج آنذاك قديماً فى الصنعة فإن شوبسر كان جديداً عليها. هذه الممارسات التعاونية هى المقدمات الطبيعية لنظم تعاونية أكثر تقدماً وتطوراً حدثت بعد ذلك، عندما يتعاون عدد من الزملاء - أو قل الأصدقاء - فى تمويل أو إصدار المطبوعات وتذكر أسماؤهم مجتمعين فى بيان الطبع.

لقد كان الناشر الذى لايتوفر بنفسه على طباعة كتبه فى العقود الأولى للطباعة، أو الذى كان نشاطه الطباعى مجرد نشاط ثانوى، نادراً ما يقتصر على طابع واحد أو الثبات على نفس الطابع، بل كان يتنقل غالباً بين عدد من الطابعين وخاصة إذا كان ينشر عدداً كبيراً من الكتب على فترات طويلة. ولدينا نموذج حى على ذلك من: ليونارد ولوكاس أتلانتسى، وهما شركة نشر هامة فى فينسيا فى

(1) Nicolaus de Lyra. Postella Super actus apostolorum. - Mantua, 1480.

(2) St. Jenome. Leben der heilign Altväter. - 1492.

القرن السادس عشر، وقد دأبا على طبع كتبهما عند العديد من الطابعين فى مدن مختلفة من بينهم: «آدم بترى» فى بازل؛ «لازاريس شوررر» فى شلتزتادت؛ «ماتياس شوررر» و«جوهان شوت» في ستراسبورج؛ «توماس آنسلم» فى هاجيناو؛ «فردريتش بيبوس» فى نورنبرج؛ «بيتر ليختشتاين» و«جاكوبو بنشيو دى لوكا» و«لوكا نتونيو دى جوينتا» و«الكسندر دى باجنينس» فى فينسيا. كل هؤلاء فى الفترة من ١٥٠٥ ـ ١٥٢٢.

ومن الأمثلة الأخرى على الناشر الذى يطبع كتبه عند عدد من الطابعين فى العديد من المدن: «جوهان راينمان» الناشر وبائع الكتب فى أوجزبرج، استخدم عدداً من الطابعين فى أوجزبرج، بازل، ستراسبورج، هاجيناو، نورنبرج، فينسيا فى الفترة من ١٤٩٨ وحتى ١٥٢٢. كذلك فإن «جوتفريد هيتورب» فى بازل استخدم عدداً من الطابعين من مدن مختلفة منها بازل بطبيعة الحال، باريس، توبنجن. والناشر بائع الكتب المشهور فى كولون «فرانز بيركمان» كانت له قنوات توزيع فى كل أنحاء ألمانيا، وفرنسا، وهولندا، وإنجلترا. وكانت كتبه تطبع فى باريس وهاجيناو وأنتويرب فى الفترة مابين ١٥١٣ ـ ١٥٢٩. ولم يكن لدى الناشرين الإيطاليين أى عذر فى استخدام طابعين من خارج البلاد؛ فقد كان لديهم وفرة من المطابع فى بلادهم وحيث يقال بأن الناشر «جيوفانى جاكوبو ليجنانو» وإخوته استخدموا كل المطابع الرئيسية ومعظم المطابع الصغيرة فى ميلانو، كما ذكر بأن الناشر «أوكتافيانوس» وورثته ومعظم الناشرين فى فينسيا استخدموا مطبعة واحدة أو عدة مطابع قليلة فى وقت واحد.

وكانت لهذه الظاهرة ـ ظاهرة الطبع لدى الآخرين ـ مخاطرها وعيوبها، ومن بين تلك المخاطر أن الطابع كان يمكن أن يهمل كتب الناشر الذى يعمل معه ويتجه نحو كتاب آخر أكثر ربحاً طالما أن الناشر مضمون لديه، ومن جهة أخرى دأب الطابعون فى مثل هذه الحالات على طبع عدد من النسخ زيادة عما اتفق عليه، ثم يبيع تلك النسخ لحسابه الشخصى بما ينافس الطبعة الأصلية التى طبعت لحساب الناشر. ومن الطرائف التى تذكر فى هذا الصدد أن «آدم بترى» الطابع عندما أفلس

باع النسخ التى طبعها للناشرين: «هيتورب» و«هورنكن». وقد كتب «أ. هيسى» بشىء من التفصيل عن الصعوبات التى وقعت للناشر كوبرجر مع العديد من الطابعين فى بازل وستراسبورج وكلهم على درجة عالية من رفعة الشأن[1]. وقد سبق أن تحدثنا عن أن الطباعة قد نشأت وتطورت بمعزل عن النظام النقابى مما كان له الكثير من المحاسن، ولكنه فى نفس الوقت انطوى على الكثير من السلبيات، ذلك أنه فى ظل نظام نقابى كان من الممكن السيطرة على مثل هؤلاء الطابعين الذين يسرقون الناشرين ولا يوفون بوعودهم لهم. ويقدم لنا هيسى مقتطفات من خطاب طابع شهير فى ستراسبورج هو «روش» موجه إلى زميل له فى بازل هو «بترى» يصور تلك الفضائح. يقول روش فى خطابه إلى بترى «فى حوزتى نحو مائة نسخة من القاموس[2] أبقيتها لدى دون علم كوبرجر كنوع من الادخار فقد أحتاج لبعض المال للإنفاق على شئونى اليومية فى المنزل».

ويذكر هيرش أن كوبرجر وغيره من الناشرين ربما سعوا إلى تجنب سلبيات الطابعين بإبقائهم على الدوام مشغولين بطباعة كتبهم والتربح من ورائهم. ولكن فى ظل العدد الكبير من المطابع المتنافسة فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر أشك فى نجاح هذا الاتجاه، فالبطالة بين تلك المطابع كانت تدفعها عادة إلى خرق الأعراف والقيم. وربما كانت عقود احتكار الناشر لمطبعة أو أكثر كان القصد منها إبعادها عن العمل لناشرين آخرين. ومن المعروف أن تلك العقود كانت تبرم مع الطابعين الأكفاء الذين لديهم إمكانيات طباعية كبيرة ومتقدمة، وربما أيضاً الذين يقدمون أسعاراً أقل.. كما يدخل عنصر العلاقات الشخصية كعامل هام فى اختيار الطابع. ومن المعروف لدينا أن الناشر الإيطالى الأول والأشهر «فيليبوس دى لافاجنيا» فى ميلانو كانت له علاقات وترتيبات مع المطابع الكبيرة تتيح لها احتكار تلك المطابع له وحده حتى يسد على الناشرين الآخرين منافذ الطباعة الجيدة لكتبهم. ففى العشرين من مايو سنة ١٤٧٢ تعاقد

(1) O. Hase. Die Koberger. - 2nd ed. Leipzig, 1885.

(2) Glossae.

مع مطابع «أنطونيوس زاروتوس» على احتكار وقتها كله له، ومع ذلك لم يظهر اسم هذه المطابع على أى من كتب لافاجنيا. كذلك تعاقد مع مطابع «كريستوف فالدارفر» فى الثامن من أغسطس سنة ١٤٧٥ وحيث ظهر اسمه على بعض كتب تلك المطابع، كما نصادف ترتيبات الاحتكار مع مطابع «باشيل إسكنزنزيلر» فى الرابع من فبراير سنة ١٤٧٨.

ولعل أهم تلك العقود على الإطلاق هو ذلك العقد المبرم فى الثامن من أكتوبر سنة ١٤٧٢م مع «فالدارفر». وقد نص هذا العقد على أن الطابع يخصص مطبعتين تخصيصاً كاملاً لمدة ستة شهور للناشر لافاجنيا الذى يقوم هو وزميله «كولا مونتانوس» باختيار النصوص التى تطبع، وعلى أن يتلقى لافاجنيا ومونتانوس خمسة وعشرين نسخة من الكتب المطبوعة مجاناً. ثم تقسم بقية النسخ على حسب الأسهم ولايحتفظ الطابع بشىء منها خارج أسهمه.

ويرى بعض مؤرخى الطباعة والكتاب الحديث أن أسلم طريقة للتغلب على المنافسين ومناورتهم هى إصدار كتب مطبوعة جيداً ورخيصة بقدر الإمكان وتسويقها بنجاح على أوسع نطاق ممكن. ومن المعروف أن الطابعين الأوائل كانوا يطبعون الكتب التى تروج فقط بين القراء فى منطقتهم ونادراً ما كانوا يخرجون عن إطارها. ولكن بعد فترة من الزمن أدرك الجميع أنه لابد من الخروج من الوادى الضيق الذى يعيشون فيه إلى نطاق أرحب وأوسع من السوق المحلية وخاصة فى حالة الكتب الضخمة. ولعل السبب فى فشل كثير من المطابع المبكرة وخروجها من سوق الطباعة بعد فترة وجيزة وخاصة فى المدن الصغيرة والتى ظلت لفترات طويلة ربما لقرون بدون مطبعة، هو أن تلك المطابع اعتمدت اعتماداً مطلقاً على السوق المحلية وحدها فى تسويق منتجاتها. وكان لإدراك أهمية البيع على نطاق واسع أبلغ الأثر فى التطوير السريع لفن البيع والتسويق من جهة، واستقلال عملية البيع والتسويق عن عملية الطباعة من جهة ثانية. وقد تمثل ذلك فى إصدار «إعلانات» عن الكتب، وإنشاء مكاتب فرعية فى المدن

الأخرى، وزيادة عدد أخصائيي البيع والتسويق والذين تميزوا فى ألمانيا كفئة مستقلة من العاملين فى مجال الكتب وقد أطلق عليهم «تجار الكتب»[1].

ولعله من نافلة القول أن نذكر أنه وقت اختراع الطباعة ولمدة نصف قرن بعد ذلك، كان فى فينسيا أفضل وأحكم نظام للتوزيع التجارى فى كل أنحاء أوربا؛ ولكن بعد ذلك بدأ فى الانهيار. لقد كانت البيوتات التجارية الكبرى فى فلورنسا، أوجزبرج، لندن وغيرها من المراكز، مشروعات أسرية أو عائلية، وفى الأعم الأغلب مقتصرة على عدد محدود من السلع وتدور فى دائرة جغرافية محدودة. ولكن على العكس من ذلك كانت شبكة تجار فينسيا أوسع مدى وأعمق أثراً. والسبب الرئيسى الذى من أجله دخلت فينسيا كأهم منتج وأهم مركز طباعى فى القرن الخامس عشر، لايكمن فى جودة المنتجات التى لم تكن لتتفوق على غيرها فى أماكن أخرى، بل فى كون فينسيا حاضرة تجارية وتسويقية كبرى قبل اختراع الطباعة. وقد سبق القول بأن فينسيا أنتجت كتباً أكثر من أية مدينة أخرى فى مجالات القانون، الكلاسيكيات، الحركة الإنسية، اللغات، الطب، الجغرافيا، علم النجوم والفلك. وقد أحصى «ج. م. لينهارت» العدد الإجمالى لما وصلنا من أوائل المطبوعات فى فينسيا فوجدها ٣٧٥٤ مهادية تليها باريس ٢٢٥٤ مهادية، ثم روما ١٦١٣ مهادية (ويدخل فيها عدد من المكتبات السطحية) ثم كولون ١٣٠٤ مهادية وأخيراً ستراسبورج ٩٨٠ مهادية.

وقد استطاع الطابعون فى فينسيا طبع كل هذا العدد من الكتب لأنهم نجحوا فى تسويقه فى إيطاليا، ألمانيا، فرنسا، أسبانيا، هولندا، إنجلترا وأى مكان آخر كانت به حاجة إلى الكتب. وحتى يومنا هذا نجد الكتب المطبوعة فى فينسيا على رفوف المكتبات العتيقة فى جميع أنحاء أوربا حيث استقرت هناك منذ القرن الخامس عشر والسادس عشر. ويلاحظ على كثير من الطابعين والناشرين فى فينسيا أنهم لم يسيئوا تقدير احتياجات السوق، ومن ثم لم يطبعوا نسخاً أو كتباً تزيد عن تلك الاحتياجات. وكانت تلك الميزة ـ ميزة التقدير الصحيح ـ سبباً من أسباب نجاح هؤلاء الطابعين والناشرين.

---

(1) Buchführer..

وقد قدم لنا رودلف هيرش نماذج رائعة على حسن تقدير الطابعين فى فينسيا لحجم وعدد الطبعات التى يطبعونها من الكتب المختلفة، وحصر تلك النماذج فى مجال القانون الذى كان لمدينة فينسيا فيه الباع الأكبر خلال القرن الخامس عشر. ومن بين تلك الأمثلة كتاب «بارتولوس دى ساكسوفيراتو» فى القانون[1] الذى نشرت منه ست طبعات قبل ١٤٨٥م بدأت فى ميلانو ثم ليون ثم نورنبرج، وقبل أن يأخذ الطابعون فى فينسيا فى طبعه. وقد طبع من هذا الكتاب بعد ذلك وحتى نهاية القرن الخامس عشر ثمانى طبعات نصفها فى فينسيا. وأهم من ذلك الكتاب الثانى لنفس المؤلف «مجموع القوانين»[2] الذى نشره أول مرة الطابع «رايزنجر» فى نابلى، ولكنه بعد ذلك أصبح احتكاراً مطلقاً للطابعين فى فينسيا. وقد أصدر الطابعون والناشرون فى فينسيا اثنى عشر من سبعة عشر مهادية فى البقية الباقية من القرن الخامس عشر. أما كتاب بارتولوس الثالث «الاستشارات»[3] فقد نشر لأول مرة فى روما سنة ١٤٧٣ ثم فى ميلانو قبل أن تتولاه إحدى المطابع فى فينسيا سنة ١٤٨٥. أما شروح «بارتولوس» القانونية المعروفة باسم «الملخص الجديد»[4]. فقد نشرت لأول مرة فى فينسيا وهى الحالة الأولى لكتاب من كتب بارتولوس. بينما شروحه المعروفة بـ «الملخص الحى»[5] فقد ظهرت فى نابلى وبيروجيا قبل أن تلتقطه فينسيا وتصدر منه عشر طبعات بلا منافسة من الطابعين فى المدن الأخرى. ومما يذكر فى هذا الصدد أيضاً أن مراسيم البابا «بونيفاس الثامن» قد نشرت فى طبعات كثيرة فى أنحاء متفرقة من أوربا اعتباراً من سنة ١٤٦٥ فصاعداً، قبل أن تلتقطها فينسيا. وكانت ليون وبازل من أقوى المدن المنافسة لفينسيا فى طبع هذه المراسيم، ولكن فينسيا تغلبت عليهما فى النهاية. هذه مجرد أمثلة فقط عن نجاح فينسيا فى تقدير حجم السوق، ومن ثم عدد الطبعات وحجم الطبعة من الكتب الواعدة بالنجاح. وليس من الضرورى أن

(1) Bartolus de Saxofferrato. Super outhentecis.

(2) Bartolus de Saxofferrato. Super Prima parte codicis.

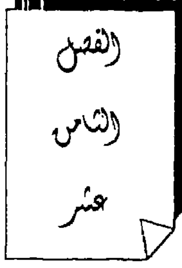
(3) Bartoluš de Saxofferrato. Consilia.

(4) Bartolus de Saxofferrato. Digestum novum.

(5) Bartolus de Saxofferrato. Digestüm vetus.

يكون كل طابع فى فينسيا هو أكبر طابع، وأكثر إنتاجا ممن سواه فى سائر مراكز الطباعة فى أوربا. حيث أن أغزر ثمانى مطابع إنتاجاً خلال القرن الخامس عشر كانت كلها خارج فينسيا بل على الترتيب فى : كولون؛ روما؛ ديفنتر؛ نورنبرج؛ جودا؛ أنتويرب؛ فلورنسا. ولكن يجب أن يفهم أن مجموع إنتاج فينسيا ككل كان أكبر من أى مدينة أخرى وإلى هذا المفهوم قصدنا. ولقد شهد القرن السادس عشر عدداً من التغيرات الكبرى فى الأهمية النسبية لمراكز الطباعة، وقد شمل هذا التغير انهيار فينسيا باعتبارها المركز الدولى الأول فى النشر؛ ليس فقط لأسباب اقتصادية ولكن أيضاً لعوامل سياسية ودينية واجتماعية عوقت بل شلت حركة الطباعة وتقدمها فى تلك المدينة العريقة.

* * *



الخصائص الوطنية والمحلية للكتاب فى دول الغرب

لقد كشفت الفصول السابقة عن أن الطباعة قد تطورت بخطى وإيقاع متباين وبطرق مختلفة فى مناطق مختلفة من أوربا. والأسباب وراء هذا التفاوت يمكن الوقوف عليها فى بعض الحالات، وفى بعض الحالات الأخرى قد لا يمكن الوقوف عليها. وهذه الأسباب قد تكون سياسية أو تشريعية أو اقتصادية أو تكنولوجية أو ثقافية أو اجتماعية، بل وقد تكون أسباباً نفسية. إن شكل الحكومة والأوضاع السياسية والاجتماعية والمناخ الفكرى العام كلها روافد تغذى تلك الخصوصيات والاختلافات بين الدول الأوربية المختلفة. فالنهضة والحركة الإنسية بدأت فى إيطاليا وبلغتا أوج اكتمالهما هناك فى القرن الخامس عشر مما لم يكن له نظير أو مثيل فى أى مكان آخر فى أوربا. حقاً لقد كانت إيطاليا مفككة سياسيًا وممزقة بسبب التنافس بين المدن الجمهورية. وكانت فخامة البلاطات الحاكمة والأبهة التى سادت أرجاءها على النقيض تمامًا للفقر المدقع الذى تعيش فيه الطبقات الفقيرة (على نحو ما كان عليه الحال فى معظم أنحاء العالم). ولقد نبعت البابوية من انشقاق الكنيسة، والمنتصر يجلس فوق الكرسى ١٤٤٩، ولكن قوة البابوية وسياساتها بقيت مزعزعة وقيادتها للعالم المسيحى كانت محل نظر وشك. وكانت فرنسا وإنجلترا قد أنهتا لتوهما حرب المائة عام (١٤٥٣) ولكن السلام بين الأمتين كان سلاما هشًا صعباً وكانت فرنسا قد عانت معاناة شديدة، وقد هلك عشر سكانها على الأقل وكسدت تجارتها وتراجعت ولم تلتئم جروحها إلا فى عهد الملك «لويس الحادى عشر» الذى وحد فرنسا تحت حكم مركزى واحد قوى. ومن جهة أخرى كانت قوة أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد أخذت فى الاضمحلال، إذ أخذ أمراء ألمانيا فى مناوأة الإمبراطور والتناحر فيما

بينهم. وفى أسبانيا كانت المملكة قد انشطرت ودخلت فى حربها مع العرب المسلمين حتى أنهت الوجود أو قل الحكم الإسلامى العربى سنة ١٤٩٢. وفى إنجلترا كانت حرب الورود ١٤٥٠ـ ١٤٨٥م قد عرضت العرش الحاكم للخطر. وكانت القسطنطينية قد سقطت فى يد «محمد الفاتح» العثمانى، ولم يلبث معظم الجنوب الشرقى من أوربا أن أصبح تحت سيطرة العثمانيين واستمر الخطر العثمانى يزحف نحو بقية أوربا. وكانت أوربا الشرقية عموماً متخلفة فكرياً ومنعزلة سياسيًا عن أوربا الغربية. وفى سنة ١٤٨٨ دار «بارتولوميو دياز» حول رأس الرجاء الصالح وبعد أربع سنوات تم اكتشاف أمريكا. وبينما كانت أوربا تعيش حالة قلق سياسى واجتماعية وفكرى، إلا أن التكنولوجيا كانت فى تقدم ونماء، ونحن لانقصد بذلك اختراع الطباعة وحده وإنما أيضاً التعدين، الرى، الشئون العسكرية، صناعة الآلات وتركيب المعدات.

هذه كلها حقائق معروفة عن النهضة الأوربية، ونحن نذكرها هنا لمجرد وضع اختراع الطباعة فى سياقه الصحيح من هذا الإطار العام. ومن الطبيعى جداً فإن الاستعداد لتقبل هذا الوافد الجديد، وتطور هذا الفن الأسود والآمال التى بنيت عليه، كان لابد أن تتفاوت من مكان إلى مكان طبقاً للظروف التى بسطناها من قبل. وفى حالات كثيرة فإن التطور البطىء، والتطور السريع يظلان أمرًا مبهماً وأسبابه لا يمكن العثور عليها. وقد بسط المئات من المؤلفين فى آلاف من المؤلفات عمليات انتشار الطباعة داخل وخارج أوربا، ولانجد حتى فى أعمق تلك الدراسات وأكثرها أكاديمية اتفاقًا حول التواريخ المحددة لدخول الطباعة إلى هذه المنطقة أو تلك. ومازال حتى الآن يتوالى نشر الوثائق والبحوث التصحيحية لمسائل اعتنقناها طويلاً. ولكن الخطوط العريضة اليوم أصبحت راسخة ومستقرة بما يمكننا من استخلاص كثير من الحقائق حول تاريخ ووضع الطباعة فى المناطق المختلفة وحول فقر الطباعة فى مناطق بعينها، بل غيابها لفترة طويلة عن مناطق أخرى[1]. ومن الطبيعى أيضاً أن يختلف تطور «الحرف» المستخدم فى الطباعة،

(١) لعل أحسن وصف لتطور الطباعة ودخولها إلى المناطق المختلفة نجده فى الفصل الرابع من كتاب لوسيان لوفيفر و هـ . ج. مارتين «ظهور الكتاب» الذى سبقت الإشارة إليه حيث توجد خريطة توضح ذلك بين ص ص ٢٧٢-٢٧٣. وربما تكون الخريطة التى نشرها ر. تيشيل سنة ١٩٢٦م أفضل من خريطة لوفيفر ومارتين.

R. Teichl. Der Wiegendruck im Kartenbild .- 1926.

وأسلوب اختيار النصوص التى تطبع، وتلقى الكتب المطبوعة، من منطقة إلى أخرى. هذه الاختلافات لاتصور فقط خصوصية التطور فى صناعة الكتاب فى منطقة إلى أخرى ولكنها أيضاً تكشف عن المناخ الفكرى السائد فى تلك المناطق. لقد صاحب تقدم الطباعة والنشر وبيع الكتب عبر خمسة قرون تغيرات عميقة فى عادات وميول القراءة. ففى القرن الخامس عشر وحده كانت هناك أربعون ألف طبعة (٤٠,٠٠٠ طبعة ولا نقول عنواناً).يقدر عدد نسخها بما لا يقل عن عشرة ملايين نسخة. وفى النصف الأول من القرن السادس عشر يقدر عدد الطبعات ولا نقول العناوين بنحو مائة ألف طبعة (١٠٠,٠٠٠ طبعة وليس عنواناً)، وعدد النسخ بما لا يقل عن خمسين مليون نسخة. ونحن فى هذه الجزئية من البحث سوف نركز على إنتاج الكتب في القرن الخامس عشر حيث تتوافر الأرقام والبيانات بدقة أكبر وفى مصادر أغزر.

لقد سار انتشار الطباعة فى العقود الأولى فى طريق معروف لنا ولا يمكن أن نخطئه، ذلك أن الرجال الذين تعلموا فن الطباعة فى ماينز خرجوا منها وأنشأوا ورش الطباعة فى المناطق المحيطة بها القريبة منها. وكان تركيز الطباعة فى وادى الراين أمرًا طبيعياً للغاية، ثم انتشرت فيه ومنه ببطء، وإذا تتبعنا انتشارها على العقود ـ حتى ١٤٧٠، ١٤٧١-١٤٨٠، ١٤٨١-١٤٩٠؛ ١٤٩١-١٥٠٠ وهو التقسيم الذى سارت عليه معظم المصادر فسوف نجد فى الفترة الأولى حتى ١٤٧٠م أن الطباعة قد زرعت على النحو الآتى:

أ - وادى الراين والمنطقة السويسرية الملحقة: ماينز ١٤٥٠؛ ستراسبورج ١٤٦٠ أو قبلها بقليل؛ كولون ١٤٦٥-١٤٦٦؛ إلتفيل ١٤٦٧؛ بازل ١٤٦٨؛ بيرومنستر ١٤٧٠.

ب ـ المنطقة المسماة الآن بافاريا: بامبرج ١٤٦٠-١٤٦١؛ أوجزبرج ١٤٦٨؛ نورنبرج ١٤٧٠.

ج ـ قلب شبة الجزيرة الإيطالية. سوبياكو ـ روما ١٤٦٥-١٤٦٧؛ تريفى ١٤٧٠؛ فولجنو ١٤٧٠.

د ـ لومباردیا. فینسیا ١٤٦٩؛ سافیجلیانو ١٤٧٠.

هـ ـ إل دی فرانس. باریس ١٤٧٠.

و ـ جنوبی إیطالیا. نابلی ١٤٧٠ تقریبًا.

ومن المعروف أن دخول الطباعة إلى قلب إیطالیا (سوبیاکو ـ روما) کان قد تم على ید أشخاص مقربین من البابا «بول الثانی». فی هذه المنطقة وفی المناطق الأخرى من إیطالیا تم دخول الطباعة إلیها عن طریق دعوة بعض الطابعین من الخارج لإقامة مطابع هنا ولیس عن طریق مبادرة شخصیة من جانب الطابعین أنفسهم. وهی علامة على معرفة قدر الطباعة وأهمیتها فی ذلک الوقت المبکر من حیاة الطباعة. ولا یهمنا فی کثیر أو قلیل ما إذا کان الدافع إلى ذلک هو الاهتمام بزیادة إنتاج الکتب، أو الاهتمام بالجانب الاقتصادی أو لمجرد المکانة.

ونلاحظ فی تلک البیانات افتقار مناطق کثیرة فی شرقی ألمانیا إلى وجود مطابع، وکذلک فی وسط ألمانیا وشرقی نورنبرج، وفی هولندا وفی إنجلترا وجمیع مناطق فرنسا فیما عدا باریس، وکذلک فی شبه جزیرة أیبریا. ولا یجب أن ننسى أنه فی تلک الفترة کان فن الطباعة ما یزال جدیدًا بحیث یسترعی انتباه الناس إلى عدم وجود المطابع أو یجعلهم یحسون بآثار هذا الغیاب. وربما کان السبب وراء ذلک تردی الأوضاع السیاسیة والاجتماعیة أو انخفاض مستوى التعلیم، وربما الفقر وعدم الاستقرار، وربما الافتقار إلى المناخ الفکری والثقافی العام. قد نجد کل هذه العوامل أو بعضها فی منطقة دون منطقة ولیس هناک تطابق مقنع أو نهائی ینسحب على جمیع الأماکن المذکورة.

وفی العقد التالی ١٤٧١-١٤٨٠ نجد انتشار الطباعة فی المناطق الآتیة:

أ- الأراضی الواطئة (هولندا). بدأت الطباعة تنتشر فیها اعتبارًا من ١٤٧٣؛ وقد رتبت المدن فی هذا السیاق ترتیبًا زمنیاً على حسب تاریخ دخول الطباعة إلیها: ألوست ـ أوترخت ـ لوفان ـ بروغیر ـ بروکسل ـ دلفت ـ جودا ـ دیفنتر ـ سنت مارتنزدیل ـ أودینارد ـ نیمویجن ـ زویل ـ هازلت.

ب ـ سوابيا. بدأت الطباعة تنتشر فيها اعتباراً من ١٤٧٢؛ وقد رتبت مدنها ترتيبًا زمنياً على حسب دخول الطباعة إليها: أولم - إيزلنجن ـ لوينجن ـ بلاوبورن ـ أوراخ.

ج ـ وسط وشمالى ألمانيا. أخذت الطباعة فى الانتشار بها اعتباراً من سنة ١٤٧٣. وقد رتبت المدن فى هذا السياق فى ترتيب زمنى على حسب دخول الطباعة إليها: إيرفورست ـ ميرزبيرج ـ لوبيك ـ روستوك ـ ماجدبيرج.

د- أوربا الشرقية. أخذت الطباعة تنتشر فيها اعتبارا من ١٤٧٣ على السياق الزمنى لترتيب المدن: بودابست - كراكاو - بلسين.

هـ ـ أسبانيا. بدأت الطباعة فى الدخول إليها اعتباراً من ١٤٧٣ وذلك على التتابع الزمنى للمدن: برشلونة ـ بلنسية (فالنسيا) ـ سراقوسة ومدن أخرى قليلة.

و ـ بقية أنحاء فرنسا. ليون ١٤٧٣ ـ انجرس ١٤٧٦ ـ تولوز ١٤٧٦ ـ ألبى ١٤٧٧ ـ تشابليز ١٤٧٨ ـ فيين أون دوفينيه ١٤٧٨ ـ بواتييه ١٤٧٩ - كاين ١٤٨٠.

ز ـ إنجلترا. بدأت الطباعة فى الدخول إليها اعتباراً من ١٤٧٦ على الترتيب الآتى للمدن: ويستمنستر ـ أكسفورد ـ سانت أو لبانز ـ لندن.

وفى نفس ذلك العقد تكثف وجود المطابع فى المدن التى وجدت بها فى الفترة الماضية بمعنى الزيادة العددية؛ وكانت الزيادة لافتة للنظر فى لومبارديا على وجه الخصوص وقد دخلت مدن جديدة إلى المجال هناك حيث دخلت الطباعة إلى بولونيا، بريسشيا، فيرارا، مانتوا، ميلانو، مودينا، بادوا، بارما، بيروجيا. وكانت المدن الصغيرة التى دخلت إليها الطباعة فى منطقة لومبارديا فى ذلك الوقت المبكر تدعو إلى الدهشة وتستحق وقفة خاصة، فإلى جانب المدن الكبيرة سابقة الذكر يمكن أن نضيف المدن الصغيرة والقرى الكبيرة الآتية: كاسيل، بنيرولو، سالوتزو، موندوفى، كومو، سافونا، بيرجامو، توسكولانو، بيانسترا، كريمونا، ريجيودى إيميليا، نوناتولا، ترتنتو، توريبلفيسينو، فيرونا، سانتورسو، تريفيزو، بيوف دى ساشو. وبعض هذه المدن الصغيرة أقام المطابع بسبب الظروف

المواتية والحاجة الملحة إليها. وفى مدن أخرى (كبيرة وصغيرة) أنشئت المطابع لأن بعض المواطنين من ذوى الحيثيات دعوا بعض الطابعين إلى الحضور وممارسة الطباعة، وكان ذلك الاتجاه امتداداً طبيعيا للأساس الذى قامت عليه المطابع الأولى فى إيطاليا على النحو الذى حدث فى سوبياكو.

ولابد لنا أن نتوقف برهة أمام تاريخ دخول الطباعة إلى المدن اللومباردية الصغيرة لنلقى عليها نظرة سريعة خاطفة لنرى الأسباب التى أدت إلى دخول الطباعة إلى كل منها. فقد كانت **كاسيل** المكان الذى أنشئ فيه واحد من أوائل مصانع الورق. ولعل هذا المصنع كان هو السبب فى إنشاء المطابع قصيرة العمر فى ذلك المكان. وربما كان هو نفس السبب الذى أدى إلى إنشاء مطبعة فى **بنيرولو**. وقد دخلت الطباعة إلى **موندوفى** على يد هارب من الوباء الذى اجتاح مدينة جنوا. وتدين مدينة **سافونا** بمطابعها إلى جهود مجموعة من المواطنين الذى اكتتبوا فى إنشاء مطبعتها. وفى **كومو** توفر اثنان من الأشراف على إقامة المطبعة بها. وكان قرب مصانع الورق من مدينة **توسكولانو**. وكانت رغبة دير **نونانتولا** فى طبع كتاب واحد سبباً فى إدخال المطبعة إليها. ويرجع فضل إدخال الطباعة إلى **توريبلفيسينو** إلى مبادرة فردية من جانب قسيس الأبرشية فى سان لورنزو الذى كان قد تعلم الطباعة فى فيسنزا وجلب معه مطبعة عندما انتقل إلى تلك المدينة. وفى **بوجانو** لم يطبع سوى كتاب واحد هو كتاب لـ «بترارك»[1] وربما يكون قد طبع على يد أحد الطابعين الجائلين[2] الذى وصلوا إلى هناك. وربما يكون هذا الطابع المتجول هو «أكاتيس» من بازل الذى نصادفه كذلك جائلاً فى فينسيا وبادوا وفيسنزا وقد استطاع طبع عدد من الكتب الهامة. وربما يرجع الفضل فى إدخال الطباعة إلى **«بيوف دي ساشو»** لإحدى الأسر اليهودية التى استقرت هناك، وقد طبعت هناك واحداً من أول الكتب بالحروف العبرية. هذه المصفوفة من العوامل التى أدت إلى إنشاء المطابع تمثل أنماط الأسباب التى دعت

---

(1) Petrach. Libro degliuomini Famosi.

(2) Wanderdrucker.

إلى وجود المطابع قصيرة الأجل فى شمال إيطاليا، ويمكن بلورة أنماط الدوافع والأسباب وتركيزها على النحو الآتى:

١- طموحات وحماس بعض المواطنين من ذوى الحيثيات.

٢- حماس فرد عادى.

٣-حاجة جماعة معينة.

٤- وجود مصانع ورق قريبة.

٥- حادث عارض.

ولعل المدينة الإيطالية الوحيدة الهامة فى جنوب بولونيا التى شهدت دخول الطباعة فى هذا العقد من الزمان ١٤٧١-١٤٨٠ كانت مدينة فلورنسا، وقد أدخل الطباعة إليها واحد من الإيطاليين القلائل الذين عملوا بالطباعة فى ذلك الوقت المبكر هو «بيرناردو سنينى» والذى بدأها هناك ١٤٧١. وكانت أغلبية الطابعين فى هذه المدينة وغيرها هم من الألمان الذين جاءوا من المناطق المتحدثة بالألمانية: وقد قدم لنا «ك. هابلر» أهم الأسباب المقنعة لهذه الظاهرة حين قال، بأنه كانت هناك فى ألمانيا وفرة من الطابعين الذين تعلموا فن الطباعة فى ماينز واستراسبورج وبازل فى بادئ الأمر ثم فى مدن أخرى دخل إليها هذا الفن الجديد. وقد ضاقت تلك المدن بهؤلاء الطابعين الراغبين فى العمل لحسابهم الشخصى. وقد ساعد الرعاة الإيطاليون هؤلاء الألمان على إقامة مطابعهم الشخصية سواء كان معهم رأس مال بسيط أو لم يكن معهم أى رأسمال. وكان شمال إيطاليا تسوده خصائص سياسية واقتصادية تسمح بنظام الطباعة المكفولة[1]، ففى خلال القرن الخامس عشر كانت الكفالة والرعاية أمرًا شائعاً فى إيطاليا وإنجلترا، وأكثر شيوعاً من أى مكان آخر فى أوربا، نلاحظ ذلك من كثرة الإهداءات التى تظهر فى الكتب هناك[2]. هذه الكفالة والرعاية أصبحت شائعة

(1) System of Protoge' Printing.

(٢) لمزيد من المعلومات عن الرعاية والكفالة والرعاة فى إنجلترا انظر: =

أيضا فى فرنسا وألمانيا منذ بداية القرن السادس عشر؛ ومن المؤكد أن نظام الرعاية هذا قد أثر فى اختيار الكتب التى تطبع، ولكن لا يجب أن نتوقف أمام تلك الحقيقة كثيراً عندما ندرس تطور إنتاج الكتب فى إيطاليا، ونقص إنتاج الكتب البحثية فى إنجلترا خلال القرن الخامس عشر وردحاً من القرن السادس عشر. وعندما تراجعت أعداد الطابعين الألمان فى إيطاليا فى ثمانينات القرن الخامس عشر، أغلقت بعض المطابع الصغيرة أبوابها.

وكان لقرب مصانع الورق فى بعض الأحيان أثر كبير فى دخول الطباعة إلى المنطقة، ولكن لا ينبغى أن نأخذ ذلك قاعدة عامة ونستنتج وجود علاقة بين صناعة الورق ودخول الطباعة إلى أى منطقة حتى فى إيطاليا نفسها. ولكن النتيجة التى يمكن أن نخلص إليها هى أن المدن الكبيرة الهامة ذات إمكانيات إنتاج الورق كانت تملك أيضاً مطابع منذ فترة مبكرة فى تاريخ الطباعة، وربما كان وجود مصانع الورق حافزاً إلى دخول الطباعة فى المدن الصغيرة؛ ولكن ليس معنى وجود مصنع ورق هو بالضرورة سبب إنشاء مطبعة مبكرة فى المكان. وليس ثمة شك فى أن تجارة الورق كانت مزدهرة وراسخة فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر، ولكن ليس لدرجة أن تتسبب فى إقامة مطابع على مسافات بعيدة جداً من مصانع الورق، ولم تكن المواصلات فى ذلك الوقت صعبة، وكل ما هناك أنها كانت تزيد من التكاليف.

فى ذلك العقد أيضاً ١٤٧١-١٤٨٠ زاد عدد الأماكن التى دخلتها الطباعة فى الأراضى الواطئة كذلك. فقد كان العديد من المدن هناك مراكز تجارية ناجحة وكان جزء من إنتاجها يصدر إلى أسواق خارجية أوسع. وكان التعليم قد انتشر على نطاق واسع هناك بفضل نشاطات محفل ويندشايم وجماعة إخوان

= H,S. Bennett. "Printers, authors, and readers" **in** .- The Library .- Series 5, vol. IV, 1949.

وحيث ورد فى هذه المقالة أنه من بين ٧٨ طبعة توفر عليها كاكستون كانت هناك ٢٣ طبعة (بنسبة ٣٠٪) طبعت تحت نظام الرعاية والكفالة.

الحياة العامة مما أتاح سوقاً واسعة للكتاب هناك. وفى كل أنحاء أوربا نجد أن بعض المدن التى دخلتها الطباعة فى ذلك العقد سرعان ما تحولت إلى مراكز نشر هامة ومن بينها: ديفنتر، أولم، ليون، ميلانو، فلورنسا.

واعتباراً من ١٤٨١ استقر الحال على ما هو عليه فى العقد السابق حيث زادت كثافة المطابع فى نفس المناطق: لومبارديا، جنوب ألمانيا، الأراضى الواطئة. وبقيت الطباعة فى إنجلترا محدودة وقاصرة على عدد قليل من الأماكن (بسبب قرارات شركة الوراقين) مع ملاحظة أن مطبعة جامعة أكسفورد قد أغلقت أبوابها سنة ١٤٨٧. وفى أسبانيا دخلت الطباعة إلى سلامانكا وإشبيلية (سيفيل) وعدد آخر محدود من المدن. وقد دخلت الطباعة إلى البرتغال سنة ١٤٨٩ وبدأت بطباعة الكتب العبرية. كذلك دخلت الطباعة إلى أماكن جديدة فى ألمانيا والأراضى الواطئة وإيطاليا. ومن بين المدن التى دخلتها المطابع بعد ١٥٨٠ نصادف: أنتويرب، ليبزج، براغ، فيينا، وهى المدن التى تميزت بإنتاج راق من الكتب فى عقد الثمانينات. وفى أوربا الشرقية ظلت المطابع مبعثرة متناثرة متباعدة اللهم إلا فى بوهيميا ومورافيا حيث كانت المطابع مزدهرة فى الثمانينات فى المدن الهامة مثل: برنو، كوتنبرج، بلسن، براغ، وتنبرج (وقد تبعتها مدينة أولموتز فى التسعينات) وقد أنتجت تلك المدن كتباً كثيرة باللغة التشيكية. ولقد توفر «شفيبولد فيول» (واسمة الأصلى سيبالد فييل من نيوشتادت) وكان نساجًا فى البداية ثم صائغاً ثم مخترعاً لآلة تعدين، على طباعة أول كتاب باللغة الأوكرانية فى كراكاو سنة ١٤٩١. وكان إنتاجه من الكتب الدينية متأثراً باهتمامه باتحاد الكنائس، وقد اتهمته الكنيسة الكاثوليكية بالهرطقة ولم تثبت إدانته. وقد غادر بولندا إلى المجر حيث عمل مهندس مناجم. وحتى نهاية القرن الخامس عشر لم تكن الطباعة قد استقرت فى النرويج و روسيا و اليونان. فقط استطاعت مونتنجيرو إنتاج بعض كتب قليلة (بلغة سيتنجى وأوبور) فى دولة البلقان.

ولقد استمر عدد المدن التى دخلتها الطباعة فى ازدياد فى القرن السادس عشر. كما استمرت المدن التجارية القوية التى دخلتها الطباعة فى القرن الخامس

عشر، فى مقدمة المدن الطابعة فى فترة ما بعد الإصلاح. وعلى الرغم من تفاوت الحظوظ والثروات بين المدن إلا أنه لم يحدث تغيير فى الكتل الطباعية الرئيسية ربما باستثناء ألمانيا، ويزعم بعض الكتاب أن حركة الإصلاح الدينى تسببت فى نقل مركز الثقل الطباعى من الجنوب إلى الشمال؛ وهناك بعض الصدق فى تلك المقولة ولكنها ليست صحيحة كلها على إطلاقها.

لم تلعب أية مدينة فى شمال ألمانيا خلال القرن الخامس عشر أى دور هام فى عملية الطباعة فيما عدا مدينة كولون ـ التى لم تكن مدينة شمالية ولن تكون بالمعنى الصحيح الدقيق للشمال ـ ومدينة لوبيك. ولقد زادت عدد المدن التى أصبح فيها مطبعة أو أكثر زيادة واضحة ولكن بطيئة، ولكن أيضاً من تلك المدن الشمالية لم تصبح مركزًا طباعيا هاماً كتلك المراكز التى كانت فى الجنوب خلال القرن الخامس عشر؛ ولكن فى فترة حركة الإصلاح تغير هذا الوضع نسبيًا وأصبحت هناك فى شمال ألمانيا مدن مراكز طباعية مثل هامبورج، ماجدبرج، روستوك (وهى جميعاً مما دخلتها الطباعة فى القرن الخامس عشر). أما منطقة وسط ألمانيا[1] ـ وخاصة ليبزج وإلى حد ما إيرفورت ـ فقد كانت لها وضع متميز طباعياً منذ القرن الخامس عشر وكانت فيها تجارة كتب مزدهرة قبل طوفان الكتيبات التى قذف بها البروتستانت من المطابع. وعلى أية حال فلو أننا درسنا كل ما صدر من مطبوعات منذ بدء حركة الإصلاح حتى منتصف القرن السادس عشر فلن نجد أى دليل على أن الجنوب قد فقد مكانته التى كان عليها من قبل. ذلك أن ستراسبورج، بازل (التى كانت جزءا من المناطق المتحدثة بالألمانية رغم وجودها فى سويسرا) ونورنبرج قد بقيتا فى نفس المكانة التى كانتا عليها من قبل، ولم يطرأ عليهما تغير ملحوظ إلا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر. وقد يكون من الأهمية بمكان فى هذا السياق أن نقدم قائمة بالمراكز الطباعية العشرة الأولى فى المناطق الناطقة بالألمانية وعدد المطابع فى كل منها فى العقود الستة الأولى للطباعة فى القرن السادس عشر، وقد وضعت العقد الأخير من نفس القرن لمجرد المقارنة فقط. مع اعترافنا بأن الأرقام وحدها

(1) Mitteldeutschland.

دون كمية الإنتاج ونوعيته قد لا تكفى. ولكن كون هذا الجدول يحمل بيان المراكز العشرة الأولى فى ألمانيا مع ما كانت عليه هذه المراكز من كم الإنتاج ونوعيته، فإن من الضرورى أن تكون له قيمة دلالية:

جدول المراكز الطباعية العشرة الأولى
في ألمانيا ومرتبة كل مركز فيما بينها
أ = الأول ب = الثاني ج = الثالث
د = الرابع هـ = الخامس وهكذا

العقد / المدينة	١٥٠٠-١٥٠٩	١٥١٠-١٥١٩	١٥٢٠-١٥٢٩	١٥٣٠-١٥٣٩	١٥٤٠-١٥٤٩	١٥٥٠-١٥٥٩	١٥٩٠-١٦٠٠
كولون	١٢ (ب)	١٢ (ب)	١٩ (أ)	١٤ (د)	١٣ (د)	٢٣ (ب)	٣٢ (أ)
نورنبرج	١٤ (أ)	١١ (ج)	١٠ (د)	١٩ (ب)	٢٠ (أ)	٢٥ (أ)	١٥ (ج)
ستراسبورج	١١ (ج)	١٣ (أ)	١٩ (أ)	٢٣ (أ)	١٤ (ج)	١٦ (د)	١١ (د)
بازل	٩ (د)	١١ (ج)	١٣ (ج)	١٨ (ج)	١٧ (ب)	١٨ (ج)	١٠ (هـ)
أوجزبرج	٨ (هـ)	١٢ (ب)	١٥ (ب)	١٢ (هـ)	١٢ (هـ)	١٠	١١ (د)
فرانكفورت	صفر	١	صفر	٢	٩	١٢ (هـ)	٢٥ (ب)
وتنبرج	٥	٣	١١ (د)	٥	٨	١١	١١
ليبزج	٥	٦ (د)	٧ (هـ)	٥	٧	١٠	٩
إيرفورت	٥	٣	٧ (هـ)	٨	٤	٥	٧
ماجدبرج	٣	١	٤	٥	٤	٧	٨

ويكشف ذلك الجدول أنه فى العقد الأول من القرن السادس عشر كانت مدينة نورنبرج هى الأولى فى عدد المطابع التى أنشئت بها فى ذلك الوقت، وفقدت تلك المكانة فى السنوات الأولى لحركة الإصلاح الدينى حيث أخلت مكانها لمدينتى ستراسبورج وأوجزبرج، وقد استعادت مكانتها الأولى بعد ذلك فى منتصف القرن. أما ستراسبورج التى احتلت مركز الصدارة من العقد الثامن حتى الرابع فإنها قد فقدتها بعد ذلك ثم أخذت فى التردى؛ وقد تولت مدينة فرانكفورت أم ماين معظم مشروعاتها النشرية، فرانكفورت تلك المدينة التى لم تدخلها الطباعة إلا فى سنة ١٥١١ ولم تأخذ دورها الطباعى الحقيقى إلا بعد سنة ١٥٣٠. ولابد لنا أن نتذكر أن فرانكفورت لم تكتسب أهميتها كمركز سياسى

وتجارى إلا بعد انتظام سوق فرانكفورت، وهذا كله جعل منها مركزاً طباعياً هاماً حول ذلك الوقت. وباعتبار وتنبرج عاصمة النشر اللوثرى البروتستانتى. فإنها لم تنتج شيئًا له قيمة فى المجالات الأخرى إذا قورنت بمدن أخرى مثل فرانكفورت، كولون، نورنبرج، بازل. ولقد ظلت كولون عاصمة النشر الكاثوليكى على مكانتها حتى فى ذروة سنوات ثورة الإصلاح وكانت نشيطة إلى جانب نشر كتب الكاثوليك، فى نشر الكتب فى مجالات أخرى عديدة بما فى ذلك نشر كتب الإنسيين، ثم أخذت فى الانهيار بعد ذلك فى منتصف الفترة المدروسة وأخذت فى استعادة مكانتها بعد منتصف القرن السادس عشر. وفى سويسرا نجد أن زيوريخ وبرن قد لحقتا بمدينة بازل كمراكز هامة للطبع والنشر.

ومن أسف أن البيانات المتعلقة بالمطابع فى إيطاليا غير مكتملة ولا يمكن الخروج مما هو متاح من بيانات بصورة عامة ذات دلالة رقمية. ولكن بصفة عامة يمكن القول بأن تغيرات هامة قد حدثت فى إيطاليا فى نفس الفترة وإن لم تقارن بما حدث فى ألمانيا، ذلك أن ثورة الإصلاح الدينى قد أفرزت دوافع غير متوازنة فى إنشاء المطابع الجديدة. ففى الفترة من ١٥٠١ و ١٥٢٠ كانت هناك ٤٩ مدينة إيطالية فيها مطابع، ١٩ منها دخلتها الطباعة لأول مرة فى تلك الفترة. وتكشف الدراسات التى أجريت حول النشر والطباعة فى إيطاليا وعلى رأسها دراسة نورتون «الطابعون الإيطاليون»[(١)] عن أن فينسيا قد فقدت مكانها كمركز لنشر الكتب الإنسية بل وأيضاً كمركز لنشر كتب القانون والكتب الدينية والكتب البحثية فى كل المجالات الأخرى. ومع ذلك فإن تسعة وعشرين مطبعة جديدة قد ظهرت فى تلك الفترة فى فينسيا ما بين ١٥٠١-، ١٥٢٠ ولكن كما أشار نورتون فى صفحة ١٢٦ من بحثه فإن أربعة عشر من تلك المطابع لم يعش إلا فترة قصيرة أى لمدة خمس سنوات فأقل. وربما يفسر لنا انهيار فينسيا كمركز للطباعة ذلك الاقتراح الذى تقدم به ألدوس مانتيوس لإقامة أكاديمية فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة والانتقال إلى ألمانيا سنة ١٥٠٥م، وقد حرر «ف . ج. نورتون» أن الأوضاع السياسية والأحداث فى فينسيا قد أجبرت مانتيوس على

(1) F. J. Norton, Italian Printers.

التوقف التام عن العمل فى الفترة من ١٥٠٦-١٥٠٧ وكان هناك اتجاه عام بين الطابعين فى المدينة إلى مغادرتها والرحيل عنها. وكان «جوهان كونو» هو المتحدث الرسمى باسم مانتيوس فى ألمانيا وقد ظل هناك مدة ثلاثة شهور. ونحن نعلم أن تكاليف التشغيل فى مطابع ألدوس كانت قد ارتفعت بشكل ملحوظ فى تلك الفترة ولم يكن العمل يسير بشكل جيد. ويتساءل نورتون هل كانت الأوضاع المتردية فى فينسيا وراء طلب ألدوس نقل عمله إلى ألمانيا أم أنه استشعر بحسه الأكاديمى والتجارى أن الدراسات الكلاسيكية والإنسية فى إيطاليا آخذة فى الأفول فى إيطاليا وسوف تأخذ فى الازدهار فى العقود التالية فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا والأراضى الواطئة. ورغم أن فينسيا ظلت مدنية هامة طباعياً إلا أنها فقدت مكانتها السابقة كمركز رئيسى فى منتصف القرن السادس عشر، وفى ذلك الوقت اتسعت الطباعة فى روما؛ وقد سجل نورتون تسع عشرة مطبعة جديدة تم إنشاؤها بين ١٥٠٦-١٥٢٠، وكثير من هذه المطابع لم يعش إلا لفترة قصيرة، ولكن كان من بين الطابعين الذين قدموا إلى روما «أنطونيو بلادو اسولانو»، «زاكارياس كالبير حيس»، «أنجيلوس كوللوتيوس»، «استيفانوس جوبلليريتى»، «جاكوب مازوخيوس» وهم جميعا من الناشرين الطابعين الهامين. وقد جرت محاولات ممتعة فى العديد من المدن الإيطالية ومنها على سبيل المثال قيام طابع مجهول لمدة سنين فى فينسيا بطباعة كتب باللغة الأرمينية وحروف أرمينية بطبيعة الحال ١٥١٢-١٥١٣، كما توفر «فرنشيسكو دى بولونيا» على تصميم حرف مائل جديد محسن بدون أى رابطات، فى مدينة فانو؛ وقام «جيانجيورجيو تريسينو» بتصميم حرف يونانى جديد فى فيسنزا، وقام «جيوليتو دى فيرارا» بإنشاء مطبعة فى ترينو وقد أصبح هو وخلفاؤه من أهم الناشرين للأدب الإيطالى فى فينسيا. وفى مطلع القرن السادس عشر قام «فيليبو جوبنتا» بتكوين إمبراطورية طباعة عائلية فى فلورنسا وفينيسيا وليون وقد امتدت وكالاتها ومندوبيتها فى كل من فرانكفورت، أنتويرب، باريس، مدريد وأماكن أخرى كثيرة.

وفى فرنسا ظلت الطباعة متمركزة فى باريس وليون ولكن عدد المطابع زاد فى

هاتين المدينتين وبدأت فى مناطق أخرى فى بداية القرن السادس عشر.

وطبقاً لما ذكره «لوسيان لوفيفر» و«هـ. ج. مارتين» فإن ٣٩ مدينة فرنسية بدأت بإدخال الطباعة إليها بين ١٥٠١-١٥٥٠م و٤٠ مدينة أخرى بدأت فى إدخال المطابع فقط فى النصف الثانى من القرن السادس عشر. وقد اكتسبت مدينة رووين أهمية خاصة حيث دخلتها الطباعة فى ثمانينات القرن الخامس عشر وأخذت تنتج الكتب للسوق البريطانية. وقد أصبحت جنيف عاصمة للدعاية والمطبوعات الكالفينية. وكان تقدم الطباعة في بريطانيا بطيئًا للغاية. وقد أنشئت فى جامعة كمبردج مطبعة لفترة قصيرة من ١٥٢١ حتى ١٥٢٢ وبقيت بدون مطابع من ١٥٢٣ وحتى ١٥٨٣. وقد افتقرت أكسفورد إلى الطباعة من ١٤٨٧ وحتى ١٥١٦ ومن ١٥٢١ حتى ١٥٨٥. وقد أنشئت مطابع فى أسكوتلندة لفترات قصيرة وعلى سبيل المثال فى إدنبرة ١٥٠٧-١٥١٠. وفى إنجلترا طبعت بعض كتب قليلة خارج لندن فى يورك وفى أبنجدون وغيرهما. وقد نشر «أ. جوردون دوف» بكتابه «قرن من تجارة الكتاب الإنجليزى»[1] ملحقًا رقم ٣ ص ص ١٩٥-٢٠٠ يتضمن بياناً بأسماء الأماكن والطابعين والوراقين الأجانب الذين عملوا وأنتجوا للسوق البريطانية، وهو كشاف مستفيض يكشف كم كانت بريطانيا تعتمد على الطابعين فى القارة الأم فى سد احتياجاتها من الكتب. لقد كان الموردون الأساسيون للسوق البريطانية موجودين فى: أنتويرب، باريس، رُوون ولكن مدناً أخرى ساهمت فى توريد الاحتياجات البريطانية من الكتب من بينها: فينسيا، فلورنسا، روما، جنيف، زيوريخ، ليون، ليبزج بل وحتى مالمو.

لقد كان انتشار وانحسار الطباعة فى مناطق معينة مؤشراً للمناخ الفكرى فى المنطقة. بيد أن تجارة الكتب قد امتدت إلى آفاق أرحب فى سبعينات القرن الخامس عشر، ومن ثم فإن غياب وعدم وجود المطابع فى منطقة ما لايعنى بالضرورة أن تلك المنطقة تعانى من نقص فى الكتب والقراءة. ومن الواضح أن

(1) E. Gordon Duff. A Century of English book trade.

لكل مدينة طباعية تاريخها الخاص الذى يجب أن يدرس جيداً قبل أن نطلق الاستنتاجات النهائية.

ومن البديهى أن نتوقع وجود علاقة وثيقة بين الجامعات ونشاطات الطباعة. فقد كان من الطبيعى أن يكون أعضاء هيئة التدريس والطلاب لهم اهتمام أساسى بالكتب، كما كانت الجامعات فى العصور الوسطى سوقًا رائجة للمخطوطات، وكان الطلاب من ذوى الإمكانيات المحدودة يقومون بنسخ الكتب بأيديهم لتوفير بعض المال. وعلى أرض الواقع لابد وأن تكون العلاقة بين التعليم العالى والطباعة أكثر من مجرد إمداد بالكتب المطبوعة، بل يجب أن تمارس الجامعة نوعاً ما من الطباعة، وقد نقل هيرش عن «ر. جوتشهوف» أوضاع الطباعة فى الجامعات فى القرن الأول للطباعة وذلك فى مقال لهذا الأخير عن جامعة كولون فذكر أن خمس جامعات من عشرين جامعة فى إيطاليا ليس فيها مطابع، وسبع من سبع عشرة فى فرنسا ليس بها مطابع، واثنتان من سبع جامعات فى آراجون ليس بها مطابع؛ وثلاث من ست جامعات فى كاستيل ليس بها مطابع. «وليس هناك من مدن الجامعات سوى عدد قليل يملك مطابع ذات قيمة، وتاريخ طباعة متصل وهى فقط المدن الكبيرة والمراكز التجارية». وقد قدم جوتشهوف بياناً بأسماء تسع مدن جامعات كان لها أهمية فى تاريخ الطباعة فى القرن الخامس عشر وهى: كولون، بازل، ليبزج، لوفان، بولونيا، نابلى، باريس، برشلونة، فالنسيا (بلنسية). ولم تكن كولون مركزاً تجارياً كبيرًا كسائر المدن المذكورة. ومن مدن المراكز الطباعية الكبيرة التى لم يكن بها جامعات ذكر جوتشهوف: ستراسبورج، نورنبرج، فينسيا، ميلانو، ليون. وكانت محمية فينسيا الكبرى - وليس المدينة نفسها - تضم مدينة بادوا ذات الجامعة. وهى معلومة نضيفها هنا فقط للعلم وليس لها أى تأثير على نجاح الطباعة فى فينسيا نفسها. وقد توسع جوتشهوف فى المعلومات التى قدمها عن الجامعات ومطابع الجامعات فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة نستخلص منها الجدول الآتى:

الجامعة	تاريخ التأسيس	تاريخ بداية الطباعة	المرتبة فى تاريخ إدخال الطباعة
فيينا	١٣٦٥	١٤٨٢	٣٦
هايدلبرج	١٣٨٥	١٤٨٤	٤٢
كولون	١٣٨٨	١٤٦٥-١٤٦٦	٤
إيرفورت	١٣٩٢	١٤٧٣	١٤
ليبزج	١٤٠٩	١٤٨١	٣٢
روستوك	١٤١٩	١٤٧٦	٢٢
جريفزوولد	١٤٥٦	١٥٨١	متأخرة فى إدخال الطباعة
فرايبورج أب	١٤٦٠	١٤٩٠	٥٢
بازل	١٤٦٢	١٤٦٨ (أو قبل ذلك بقليل)	٧ (أو أقل)
إنجولشتادت	١٤٧٢	١٤٨٤	٤٣
تريير	١٤٧٣	١٤٨١	٣٤
ماينز	١٤٧٧	١٤٤-؟	١
توبنجن	١٤٧٧	١٤٩٨	٦١
ويتنبرج	١٥٠٢	١٥٠٢	متأخرة فى إدخال الطباعة
فرانكفورت أ. م	١٥٠٦	١٥٠٢	متأخرة فى إدخال الطباعة
ماربورج	١٥٢٧	١٥٢٧	متأخرة فى إدخال الطباعة

وكما رأينا فى هذا الجدول فإن من بين الجامعات الثلاث عشرة التى أسست سنة ١٤٧٧ وما قبلها لانجد سوى جامعة واحدة (جريفزوالد) لم تقم بها مطبعة فى القرن الخامس عشر. مع الأخذ فى الاعتبار أنه رغم إنشاء مطابع فى جامعات: فيينا، هايدلبرج، فرايبورج، إنجولشتادت، تريير، توبنجن فإن برامج النشر وإنتاج الكتب بها لم تكن كبيرة ولم تكن بذات أهمية فى القرن الخامس عشر. وقد ظلت جامعة هايدلبرج بدون مطبعة بين سنتى ١٤٩٣-١٥٠٩ وبين سنتى

١٥٤١ و ١٥٤٦. وكذلك جامعة توبنجن لم تستطع تدبير طابع فى الفترة من ١٥٠٢-١٥١٠ وبين ١٥١٧-١٥٢٢. ومن الجدير بالذكر أنه من بين مدن المراكز الطباعية الأولى فى المناطق الناطقة بالألمانية لم يكن هناك سوى ثلاث مدن فقط ذات جامعات وهى مدن: ماينز، كولون، بازل. وأكثر من هذا فإن جامعة ماينز أنشئت بعد ٢٥-٣٠ سنة من دخول الطباعة إلى المدينة، وليس هناك أى دليل على أن وجود الجامعة فى مدينة ماينز كان له تأثير من نوع ما على برامج الطابعين هناك بعد ١٤٧٧م أو أنه كان هناك أى تأثير من جانب المطابع على إنشاء الجامعة. ولكن ليس ثمة شك فى أن الأفراد الذين كانت لهم علاقة بالجامعة - طلابًا أو أعضاء هيئة تدريس - كانوا من القراء الممتازين للكتب وبالتالى كان لهم دخل فى النجاح التجارى للمطابع والطباعة، وكان هناك بالضرورة أسباب تدعو الجامعات إلى الاعتماد - على الأقل فى الفترة الأولى - على إنتاج المطابع المحلية فى مدنها. فقد كانت المطابع تبحث عن المشترين حيثما وجدوا وكانت شبكة المواصلات فى ذلك الوقت منظمة جيداً بحيث تحمل منتجات المطابع حيث توجد الأسواق مهما بعدت ومهما نأت. وهذا لاينفى أن العديد من الجامعات قد أفادت إلى أقصى حد من المطابع المحلية وخاصة فى بولونيا، بادوا، ليبزج.

ورغم الفيض المغرق من البحوث التى أجريت ونشرت حول تاريخ الطباعة المبكرة فإن ثمة جوانب عديدة ومشاكل لاحصر لها قد بقيت بدون بحث وبدون حل. ومنذ أن نشر «إرنست شولز» كتابه الرائع «واجبات وأهداف دراسة أوائل المطبوعات»[1] سنة ١٩٢٤م والبحوث تجرى على قدم وساق بناء على النقاط التى اقترحها فى هذا الكتاب، باعتبار أن أوائل المطبوعات هى عنصر أساس فى التاريخ الفكرى. وقد توقع شولز أن تصبح هذه الدراسات «اتجاهاً» أو «تيارًا» عاماً يسفر عن بحوث ونتائج لها شأنها وخطرها. ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا أن التاريخ الفكرى[2] للطباعة وحدها يحتاج إلى بنك معلومات ومعرفة لا

(1) Ernst Schulz. Aufgaben Und Ziele der Inkunabel Forschung .- Munich, 1924.

(2) Kulturgeschichte.

يقدر عليه رجل بذاته. وأنا على يقين من أن الأمر يحتاج إلى دراسات دقيقة تتناول كل منها جزئية واحدة صغيرة للغاية على غرار لوحات الفسيفساء، حتى تتكون لدينا فى النهاية صورة واحدة متكاملة ومنسجمة.

لقد نشر «كورت ف. بوهلر» مقالاً حول «الحرف الرومانى والطباعة الرومانية فى القرن الخامس عشر» قارن فيه بين استخدام هذا الحرف الجديد (الذى يسمى القديم[1] أيضاً حيث بنى على أساس الكتابة القديمة) والحرف الغوطى فى عدد من المدن الإيطالية: روما، سيينا، نابلى، بافيا، فلورنسا، ريجيو، مودينا. وقد وجد أن هناك تفضيلاً للحرف الغوطى فى طباعة كتب اللاهوت وكتب القانون فى تلك المدن، كما استخدم بكثرة فى كتب العلوم، كما استخدم أيضاً فى الكتب الكلاسيكية من حين لآخر على العكس مما كان سائدًا فى كتب الإنسيين والروح الإنسية. وكان من الواضح قبل هذه الدراسة أن الطابعين والناشرين الإيطاليين كانوا متحمسين للحرف الرومانى أكثر من حماس القراء والزبائن أو كما فهمنا ذلك من دراسة تاريخ طباعة (مجموعة القوانين المدنية)[2] وغيره من النماذج. وقد نشر الطابعون الإيطاليون عشر طبعات من هذا المجموع بين ١٤٧٣-١٤٧٦ كلها بالحرف الرومانى، ثم توقفت التجربة بعد ذلك حيث لم يطبع فى خلال ربع القرن التالى مجلد واحد من هذا المجموع بذلك الحرف الرومانى. والسبب فى ذلك أن القراء أنفسهم هم الذين اعترضوا على استخدام ذلك الحرف فى كتب القانون، وقد طارد اتجاههم هذا الطابعين والناشرين وطالبهم بالعودة إلى الحرف الغوطى المحافظ. وكان إصدار الكتب الكلاسيكية والإنسية والشروح والتفاسير بالحرف الغوطى أمرًا مخالفًا للمألوف وخارجاً عنه، ذلك أن عادة النساخين قد جرت على استخدام الخط الإنسى فى تلك الكتب قبل ظهور الطباعة. وكان هناك بطبيعة الحال استثناءات من تلك القاعدة التى جرت عليها النساخون والطابعون الأول حيث نجد أن سبع طبعات إيطالية من كتب شيشرون بين

(1) antiqua.

(2) Corpus Juri Civilis.

١٤٧٥-١٤٩٢م قد طبعت بالحرف الغوطى: فيها واحدة فى نابلى، واثنتان فى روما، وواحدة فى فيرارا، واثنتان فى بادوا، وواحدة فى ميلانو. ونحن لانعرف على وجه اليقين ما إذا كانت تلك الطبعات وغيرها من الكتب الكلاسيكية قد طبعت خصيصاً لطلاب المدارس، ومن ثم يمكن أن نستنتج أن شباب إيطاليا كان ما يزال فى ذلك الوقت أكثر ألفة بالحرف الغوطى من الحرف الرومانى، أو أن تلك الكتب الكلاسيكية بالحرف الغوطى كانت تعد للتصدير فقط، وإن كانت تلك الفرضية مستبعدة أو غير محتملة لأن ذلك الحرف الغوطى قد استخدم فى كتب كلاسيكية من طباعة محلات طباعة صغيرة لا تقوى على المنافسة فى السوق الدولية.

وقد يكون من التبسيط المخل للحقائق العلمية أن نقرر أن المطابع الإيطالية كانت ملتزمة باستخدام الحرف الرومانى فى أنواع بعينها من الكتب، بنفس القدر من الخطأ الذى نقرر فيه أن طابعى مناطق الشمال قد رفضوا أى تجديدات ـ كالحرف الرومانى ـ لأنه لم يكن محلياً. ولقد خاض «ك. هابلر» فى هذه القضية وبحثها بعمق فى كتابه «سجل الحروف»[1] الذى حصر فيه خمسة وعشرين مطبعة فى المناطق الناطقة بالألمانية خلال القرن الخامس عشر كانت تملك وتستخدم الحرف الرومانى، مما يدحض الحقيقة القائلة بأن طابعى الشمال رفضوا استخدام الحرف الرومانى وآثروا حرفهم الغوطى التقليدى. وكانت المراكز الرئيسية التى تستخدم ذلك البنط الرومانى هى: ستراسبورج، بازل، وعلى غير المتوقع أوجزبرج و نورنبرج و أولم. وتظهر فى قائمة هابلر مدن صغيرة كذلك مثل بيرومنستر، لووتجين، روتلنجن. ومما يلفت الانتباه حقيقة هو غياب الحرف الرومانى فى مدن الجامعات الثلاث وهى هايدلبرج وكولون وليبزج، بل وأيضاً غياب هذا الحرف تماما فى مطابع ماينز مهد الطباعة. ولا نجد فى الأراضى الواطئة سوى مطبعة واحدة تستخدم الحرف الرومانى هى مطبعة جوهان من

---

(1) K. Haebler. Typenrepertorium .- Halle, 1905-1925.

وخاصة المجلد الرابع الذى صدر ١٩٢٢م الذى يتعلق أساساً بالحرف الرومانى.

بادربورن فى لوفان. وطبقاً لما ذكره هابلر فى «سجل الحروف» أو الأبناط فإنه فى فرنسا كانت هناك ٢٤ مطبعة فرنسية تملك وتستخدم تلك الأبناط، وكان معظم هذه المطابع فى مدينة باريس (١٤ مطبعة بنسبة ٦٠٪). وقد يكون من الجدير بالذكر هنا أن الطابعين الأوائل فى فرنسا ـ والذين جاءوها بدعوة من هينلين و فيشيه على ما أشرت إليه سابقًا ـ كان لديهم برامج عمل إنسية الروح تماماً، وقد بدأوا عملهم بحرف مشتق من حرف أنتيكا الذى استخدم فى روما. كذلك فإن الطابعين فى ليون قد استخدموا الحرف الرومانى وإن كان ذلك فى فترة متأخرة (١٤٨٧) وكان هذا الحرف موجودًا فى سبع مطابع على الأقل هناك فى السنوات الأربع عشرة الأخيرة من القرن. وقد استخدم هذا الحرف الرومانى فى ثلاث مدن فرنسية أخرى هى: ألبى، أنجرس، تولوز. وتعتبر أسبانيا أكثر الدول استخداماً لحرف أنتيكا إذا ما قورنت بفرنسا وألمانيا، وربما كان ذلك راجعاً إلى قلة عدد المطابع فى أسبانيا فى القرن الخامس عشر. وحيث سجل هابلر مجموع المطابع فى أسبانيا فى ذلك القرن على أنه مجرد ١٣ مطبعة موزعة على مدن: برشلونة، بورجوس، سالامانكا، إشبيلية (سيفيل)، بلنسية (فالنسيا)، سراقوسة. ولم يثبت لنا أن أياً من المطابع فى إنجلترا قد استخدمت الحرف الرومانى خلال القرن الخامس عشر. لقد نشأ خط «أنتيكا» الرومانى فى إيطاليا وكانت حركة «الإنسية» مبعث فخر وكبرياء وطنى لهم. ومن الواضح أن الطابعين الذين طبعوا كتب الإنسيين أو أمدوهم بالكتب هم ورعاتهم، سواء كان هؤلاء الطابعون من مواليد إيطاليا أو جاءوا عبر الألب، كانوا يفضلون استخدام الحرف الرومانى على الحرف الغوطى، وكذلك فعلوا فى كل الكتب التى كانت موجهة لصفوة المثقفين والمتعلمين. ويجب أن نلاحظ مع ذلك أن عددًا كبيرًا من المطابع الإيطالية بلغ ١٣٨ مطبعة فى القرن الخامس عشر لم تكن تملك الحرف الرومانى، أى أنها لم تستخدم إلا الحرف الغوطى فى كتبها، وكثير من تلك المطابع كان يقع فى مدن صغيرة وكان يديرها طابعون جائلون فى الأعم الأغلب ومن بينهم «كريستيان بريللر» فى كابوا، «جوهان فابرى» فى كاسيل، «جيراردوس دى ليزا»

فى كيفيديل، «دومينيكوس دى فيفالديس» فى موندوفى. ولكن مما يلفت النظر أيضاً أن بعض مطابع الجامعات لم يكن لديها كذلك الحرف الرومانى مثل جامعة بولونيا، بادوا، بافيا مما يكشف عن أن الجامعات الإيطالية القديمة ذات التعليم التقليدى لم تكن لتهتم بالتعليم الجديد الذى دخل إلى الجامعات المناظرة على الجانب الآخر من جبال الألب؛ وكان حرص الجامعات الإيطالية شديداً على الدراسات الوسيطة التقليدية. ومن هنا كان الخط الغوطى باختصاراته الكثيرة ورابطاته (تشبيكاته) والذى يحتل مساحة أقل؛ ملائماً وأكثر اقتصاداً، كما أشار كورت هابلر فى دراسته. ورغم أن هذا الخط الغوطى كان متداخلاً ومتعرجًا وصعب القراءة إلا أنه كان مألوفاً من جانب الغالبية العظمى من القراء الذين تعودوا على الرموز والتى تعتبر عقبة بالنسبة للمبتدئين.

وقد شاكلت فينسيا ـ أكبر مصدر للكتب ـ سائر المدن الإيطالية ولم تشذ عن النمط العام، وقد حصر هابلر لتلك المدينة ١٥١ مطبعة، بعضها لم نتمكن من التعرف عليه وبعضها ينتمى للقرن السادس عشر فقط وقليل منها لم يطبع سوى الكتب اليونانية. من بين هذه المطابع المائة وواحد وخمسين كان هناك ٣٦ مطبعة أى حوالى الربع لم تستخدم الحرف الرومانى ولم تتملكه. ولابد من التأكيد هنا على أن من بين هذه المطابع كانت هناك مطابع صغيرة، ولكن على الجانب الآخر كان ثمة مطابع على قدر كبير من الأهمية مثل مطبعة «جوهان هامان» (١٤٨٧-١٥٠٠)، مطبعة «هيرونيموس دى بجانينيس» (١٤٩٢-١٤٩٧)، «جوهان إيميريكوس دى سبيرا» (١٤٩٢-١٥٠٠). وقد يكون من المفيد هنا القول بأن الطابع فى ذلك الزمان إذا سمحت ظروفه بتغيير الحرف الذى يستخدمه فإنه يتحول إلى الحرف الذى يفضله القارئ، ومن ثم فإننا يمكن أن نستنتج بأنه حيثما ينتشر الحرف الغوطى فلابد وأن يكون هناك الزبون التقليدى.

ولقد دأب طابعو الشمال على استخدام حرف بين بين من حين لآخر، حرف لا هو غوطى تمامًا ولا هو رومانى قح بل مزيج منهما. وهو حرف قريب الشبه بخط اليد الإنسى، مدور شبه غوطى نشأ أساسًا فى إيطاليا، ولكن استخدم فى فترة مبكرة على يد «كوبرجر» فى نورنبرج، كما شاع أيضًا فى فينسيا وأسبانيا.

وعندما استورد جوهان هامان هذا الخط من فينسيا إلى لوفان أطلق عليه اسم «الحرف الأخضر الحديث»[١] واستخدمه فى كتاب من تأليف «بتروس كريستنس»[٢] سنة ١٤٧٤م. والحقيقة أن الانتشار السريع للخط الرومانى ـ أنتيكا ـ فى إيطاليا، وتعثر تقدمه فى دول الشمال يعضد النظرية القائلة بأن تكوين مجتمع المتعلمين وأشباه المتعلمين فى إيطاليا يختلف عنه فى ألمانيا. ذلك أن الخط الرومانى قد راق للصفوة التى كانت تمثل قطاعًا هامًا بين مجموع القراء فى إيطاليا. وكان هذا الخط قريب صلة بالخط الإنسى، ولذلك تم الانحياز إليه عاطفياً فى عصر الطباعة وفيما بعد أيضا إلى الخط المائل. أما الجماهير العريضة من القراء فى دول الشمال ـ وكان الإنسيون بينهم أقلية ـ فلم تكن لهم بالخط الإنسى ألفة أو حتى معرفة إلا قليلاً. وقد بدأ كثير من القراء فى الشمال والغرب يتكيفون مع الخط الجديد خلال جيل واحد «أى مع تسعينات القرن الخامس عشر»، وهو وقت ليس بطويل، فى خلال ذلك الجيل الواحد أصبح القراء فى ألمانيا وهولندا وفرنسا وإنجلترا سعداء بذلك الخط الإيطالى[٣].

وهناك من يزعم بأن الحرف الرومانى استخدم أول ما استخدم فى استراسبورج على يد «رودلف روش» وليس على يد «سوينهايم» و«بنارتز» فى سوبياكو. ويفند رودلف هيرش ذلك الزعم بأنه بنى على تواريخ خاطئة طبعت فى كتب من إنتاج ذلك الطابع المراوغ المحير فى استراسبورج الذى كان يعرف قبل ذلك باسم «طابع حرف R الغريب». وهناك إجماع الآن من جانب الباحثين على أنه لم يبدأ الطبع قبل ١٤٧٠-١٤٧١. وكان برنامجه النشرى موجه أساسًا نحو طبع الكتب الكلاسيكية والإنسية متأثراً فى ذلك بصداقته مع «رودلف أجريكولا» و«رودلف فان لانجن». وكان عدد المطابع التى تملك الحرف الرومانى لا تزيد عن أربع مطابع فى أوجزبرج، خمس مطابع فى بازل، اثنتين فى نورنبوج، خمس فى ستراسبورج، ثلاث فى أولم.

(1) Littera Vera moderata.

(2) Petrus de Crescentiis. Liber ruralium .- Louvain, 1474.

(3) Italo Cedere.

لقد كان «إ. ب. جولدشميت» مقتنعا تماماً بأن الحرف الرومانى كان يستخدم أساسًا فى طباعة الكتب الكلاسيكية والإنسية. وربما كان ذلك يصدق أكثر ما يصدق على إيطاليا، ولا ينطبق بالضرورة على أى مكان آخر، فقد قام لينهارت بإعداد قائمة بالطابعين الذين طبعوا أكبر عدد من الكتب فى القرن الخامس عشر؛ ومن بينها المطابع الآتية التى يفترض فيها أنها طبعت أكبر كمية من الكتب الكلاسيكية والإنسية، وهذه القائمة تؤكد على النتيجة التى خرجت بها سابقًا وهى أن ذلك يصدق بصفة عامة على إيطاليا: .

١- زاروتوس ١٤٧٠ - ١٤٩٣. ميلانو ١٠٢ عنوانًا

٢- بافرايت ١٤٧٧ - ١٥٠٠. ديفنتر ٩٧ عنوانًا

٣- لاندسبرج ١٤٩٢ - ١٥٠٠. ليبزج ٦٥ عنوانًا

(ويلاحظ هنا أيضاً أن كثيراً من هذه العناوين كان كتيبات صغيرة).

٤- بلانك ١٤٩٢ - ١٥٠٠. روما ٦٤ عنوانًا

(يلاحظ هنا أيضًا أن كثيراً من هذه العناوين كان كتيبات صغيرة).

٥- سلبر. ١٤٨٠ - ١٥٠٠. روما ٥٤ عنوانًا

(معظم كتبه عناوين خفيفة سريعة مثل بلانك).

٦- سكنزنزيللر ١٤٨٧ - ١٥٠٠. ميلانو ٥١ عنوانًا

٧- باشيل. ١٤٨٧ - ١٥٠٠. ميلانو ٤٩ عنوانًا

٨- دى تورتيس ١٤٨١ - ١٥٠٠. فينسيا ٤٣ عنوانًا

٩- جيرنج ١٤٧٤ - ١٤٨٤ . باريس ٤١ عنوانًا

١٠- ليبرى ١٤٨٢ - ١٥٠٠. فلورنسا ٤١ عنوانًا

١١- كاشيللوفن ١٤٨٥ - ١٥٠٠. ليبزج ٣٨ عنوانًا

(يلاحظ أن جانبًا كبيراً من إنتاجه كان كتيبات خفيفة).

ومن المتفق عليه بين المصادر المختلفة أن الطابعين الإيطاليين المذكورين هنا (أرقام ١ ، ٤-٨، ١٠) كان لدى كل واحد منهم ثلاثة قوالب على الأقل للحرف الرومانى. وفى حدود معلوماتنا فإن «زاروتوس» لم يطبع سوى كتاب واحد لـ «آيسوب» بالحرف الغوطى، ولم تكن «خرافات آيسوب»[١] مشهورة فى ذلك الوقت أم منتشرة بين الإنسيين انتشارها بين الفئات الأخرى من القراء. وفيما عدا ذلك الكتاب فإن سائر كتب الطابعين الإيطاليين الكلاسيكية والإنسية طبعت بالحرف الرومانى. أما «بايغرايت» الثانى فى القائمة والذى كان ثلث إنتاجه على الأقل يدور حول العلوم الجديدة فإنه لم يستخدم حرفا واحدا رومانيا على نحو ما حدث بالنسبة لكل من «لاندسبرج» و «كاشيللوفى» (الثالث والحادى عشر فى القائمة). والنتيجة التى نخلص إليها من دراسة إنتاج هؤلاء الطابعين المكثرين ودراسة عينات من المطبوعات الكلاسيكية عامة، أن الطلاب الذين مالوا إلى الإنسية والطلاب الإنسيين كلية لم تكن أعدادهم كافية ولم يكونوا اتجاها قويا نحو الحرف الرومانى فى **الشمال** بحيث يؤثرا تأثيرا قويا فى اختيار الحرف لدى الطابعين حتى العقد الأخير من القرن الخامس عشر عندما بدأت الحروف الرومانية تهزم «البرابرة». لقد بدأ قبول الحرف الرومانى خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، وقد أخذ ينتشر على نطاق واسع فى كل مكان من الناحية العملية البحتة، ليس فقط فى طبع النصوص الإنسية والكلاسيكية وإنما فى كل المطبوعات البحثية. ولكن لابد لنا من أن نلاحظ أن الخط الغوطى ومشتقاته كانت له اليد الطولى فى الشمال فى الكتب الدينية وكتب الآداب والعلوم الطبية وفروخ الأخبار وكافة المطبوعات التى قصد بها أن تسوق على نطاق واسع.

وكما أشرت لماماً من قبل فإنه فى العقدين الأولين للطباعة (حتى السبعينات) كانت أبناط الطباعة تقلد نفس خصائص خط يد الكتب على النحو الذى ظهرت عليه فى المخطوطات المحلية ـ على الأقل فى معظم الأحيان ـ ونتيجة لذلك نجد فيضا من أشكال الأبناط فى فترة أوائل المطبوعات، أكثر بكثير من أى وقت

---

(1) Aesop. Fables.

آخر. وقد أخذ هذا التنوع الكبير فى التراجع عندما بدأ الطابعون فى إدراك أنها تروق للمشترين المحليين فى المنطقة والتى لا تعتبر فى الوقت نفسه عقبة فى سبيل بيع تلك الكتب فى مناطق بعيدة. ومن ثم فإن «ك. هابلر» كان على حق عندما جزم بأنه لم يكن هناك فصل بين تصميم الحروف وإنتاجها وبين بيع الأبنط طوال القرن الخامس عشر. فالطابعون لم يبيعوا فقط القوالب التى توقفوا عن استخدامها، ولكن أيضاً باعوا نسخًا من القوالب التى كانوا يستخدمونها بكثرة. ولم يأت عصر ثورة الإصلاح الدينى حتى غدا هناك نوع من التوحيد فى الحرف الواحد، ومن ثم أصبح من الممكن القول بأنه منذ ذلك الحين أصبحت قوالب الحروف تصنع وتباع وتشترى فى سوق الحروف.

ومن الملاحظ أنه فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر حدث نوع من الاندماج بين خصائص خطوط اليد المستخدمة فى البلاطات الوطنية مع الخطين الأساسيين المستخدمين وهما الخط الغوطى والخط الرومانى. وهذا الاندماج أدى فى القرن السادس عشر إلى ظهور ما يشبه «الحرف الوطنى» مثل الحرف المائل فى إيطاليا[1]، والحرف المدنى فى فرنسا[2] والحرف الفراكتور[3] فى المناطق الناطقة بالألمانية، وهو الحرف الذى انتشر من تلك المناطق إلى هولندا والدول الاسكندنافية والحرف الأسود[4] فى إنجلترا. وكان الحرف المائل هو الحرف الوحيد من بين تلك الحروف الوطنية الذى غدت له صبغة دولية واستخدم أساسًا فى الدول الأخرى لطبع الكتب الكلاسيكية والكتب الإنسية؛ ذلك أن فيه ميزة ملاءمته للكتب صغيرة الحجم والتى تباع بسعر زهيد، والتى كان لها رواج شديد بين الجماهير. ولقد وصف ألدوس مانتيوس سلسلة كتبه من قطع الثمن (كتب الجيب) فى إحدى طبعاته من كتب «جوفينال» بأنها «رقيقة الحجم مليئة

---

(1) Italics.

(2) Lettre batarde = Civilité.

(3) Schwabacher = Fractur.

(4) Black Letter.

بالمعلومات»[١]، وفعلاً كان من بين مميزات هذا الحرف تقديم كميات كبيرة من المعلومات فى حيز محدود وكانت كتب الجيب يسهل حملها ومريحة فى قراءتها وحيث كان الحجم الكبير التقليدى فى الكتب مزعجاً يصعب التنقل به من مكان لمكان. وقد عبر كثير من الكتاب آنذاك عن مللهم من الحجم الكبير الذى كان مزعجًا أيضاً للقراء؛ وفى نفس الوقت كان من الصعب تسويقه. وفيما عدا هذا الخط المائل ظل استخدام الحرف الوطنى داخل حدود وطنه، وكان مدعاة للفخر من جانب الطابعين والناشرين الوطنيين بل والقراء أيضاً. وقد عبر كثير من المؤلفين عن هذه النعرات العرقية فى معرض حديثهم عن اختراع الطباعة، وقد توفر «ج. ميرمان» على جمع قطوف من تلك التعليقات العرقية فى كتابه «أصول الطباعة»[٢] الذى نشر فى مدينة الهاج (لاهاى) سنة ١٧٦٥. وكما فعل أيضا الطابع «جونتر زينر» فى كتاب له[٣] وكما قال «جيدو دى بييزو»[٤]. وقد واكب هذا التطور فى الحرف الوطنى ظهور النزعات الوطنية السياسية. وقد حل الحرف الوطنى تماماً محل الخط الغوطى وليس الخط الرومانى الذى صمد وبقى واستمر حتى الآن بسهولة بعد أن أنشئت المسابك التجارية للحرف. وفى إنجلترا فقط على وجه الخصوص - رغم قلة إمكانياتها فى سبك الحروف - لم يدخل الحرف الرومانى أى لم يستورد قبل جاراموند وجرانجون[٥] اللذين فتحا الباب واسعًا أمام دخول الحرف الرومانى وكان غالباً ما يستورد من: أنتويرب، كولون، ستراسبورج، بازل، باريس، ليون.. ومن الغريب ألا يكون بين المدن المصدرة للحرف الرومانى والمائل أية مدينة إيطالية.

لقد كان لاختراع الطباعة وانتشارها على أرض الراين، ومن ثم فى المناطق المجاورة قبل انتشارها فى الدول الأجنبية، ميزة إعطاء ألمانيا صاحبة هذا الاختراع

(1) Ut Commodius teneri manibus.

(2) G. Meerman. Origines typographicae .- The Hague, 1765.

(3) Günther Zainer. Ne italo Cedere Vidimus.

(4) Guido de Baysio. Rosorium decretorum.. Rome: S.Chardella, 1477.

(5) A.F. Johnson. "Sources of roman and italic types used by english printers in the Sixteenth Century' .- in- The Library, ser. 4, XVII, 1937.

الفرصة للتجريب والتجديد، وبالتالى أدخلت عددًا من التطويرات على هذا الاختراع وهو ما يزال فى حضنها. ومنها على سبيل المثال ما أدخله فوست وشوفر، حيث تم استبدال الأوليات التى تحمر بخط اليد بأوليات مأخوذة عن الكتل الخشبية، كما أتما إدخال الطباعة باللون الأحمر التى بدآ فى إدخالها تجريبيا فى الإنجيل ذى الاثنين والأربعين سطرًا؛ وكان هذان الطابعان هما اللذان اخترعا فكرة علامة الطابع. ولم ينتشر أى من تلك التجديدات والتطويرات فى الحال أو مباشرة. ذلك أن شوفر نفسه ومن بعده بايملر فى أوجزبرج - وكلاهما كان نساخًا- وقلة أخرى من الطابعين استخدموا الطباعة بالحبر الأحمر على استحياء ويحذر، ربما لأنها كانت تزيد من تكاليف الإنتاج، وقد شاعت الطباعة بالحبر الأحمر أولاً فى كتب القانون والتقاويم وكتب القداس وغيرها من كتب الشعائر. وقد لفت «إ. ب. جولد شميت» فى كتابه «كتب عصر النهضة المطبوعة»[1] نظرنا إلى أن الأوليات والإطارات وأشكال الدروع فى كتب عصر النهضة - وهى الزخارف الوحيدة التى كانت مقبولة لدى جموع الإنسيين - كانت ترسم بخط اليد وعلى حساب المشترى نفسه، وقد يقوم بذلك العمل المؤلفون أو المحررون لاستعراض مهاراتهم. وكانت هذه الزخارف تستخدم فى المخطوطات والمطبوعات على السواء، ولكن اعتبارًا من ثمانيئات القرن الخامس عشر بدأ الطابعون يضيفون هذه الزخارف - فيما عدا أشكال الدروع - طباعة وبالتالى تخرج النسخ من المطبعة محلاة بتلك الزخارف ولم تعد وقفًا على نسخ دون نسخ كما كان الحال من قبل.

ومن الجدير بالذكر أن جونتر زينر فى أوجزبرج كان يستخدم الأوليات المأخوذة عن كتل خشبية كثيرا منذ ١٤٧١ - ١٤٧٢، وقد أصبحت تلك الأوليات شائعة فى السبعينات ولكن فقط فى جنوب ألمانيا، حيث خرجت من هناك إلى إيطاليا على يد «راتدولت» وزملائه. ونفس هذه المطبعة (بيرنهارد بكتور، بيترلوسلاين وإيرهارد راتدولت فى فينسيا) كانت أول مطبعة تستخدم الأوليات والإطارات ذات العقد والمضفرات، وهو نمط من الزخارف أخذ من مخطوطات عصر النهضة وأدخل إلى الكتب المطبوعة. ولم تنتشر علامات الطابعين فى ممارسة عامة، وكان انتشار استخدامها بطيئاً للغاية، ولم تصبح تلك العلامات شائعة بين

(1) E.P. Galdschmidt. The printed book of the Renaissance .- Cambridge, 1950.

كبار الطابعين والناشرين إلا فى نهاية ثمانينات القرن الخامس عشر. وكان «بفستر» هو أول طابع يطبع كتاباً مصوراً بالحروف المتحركة سنة ١٤٦٠ - ١٤٦١ فى بامبرج. وبعد عشر سنوات قام الطابعون فى كولون بإنتاج أول صفحة عنوان مرسومة[١] وقد توفر عليها «تيرهورنن»، وهذا الطابع هو نفسه الذى أدخل الترقيم بالأوراق، بينما أدخل جويتز الترقيم بالصفحات.

وفى كولون أيضاً قام أحد الطابعين باستخدام الترقيم بعلامات الملازم، هذا الطابع هو كولهوف. وكان ذلك سنة ١٤٧٢. وفى سنة ١٤٩١ قام راتدولت فى أوجزبرج باختراع الطباعة بخمسة ألوان. ويجب أن نتذكر أنه ليست كل التجديدات التى دخلت على الطباعة فى القرن الخامس عشر ألمانية، بل كان بعضها خارجياً، حيث كانت علامات الملازم ابتكاراً إيطالياً وظلت نوعاً من الاحتكار لهم.

وكانت أول صفحة عنوان كاملة تحمل بيانات المؤلف والعنوان والطابعين والتاريخ والمزخرفة بإطار عصر النهضة قد ظهرت فى فينسيا على يد الطابعين الثلاثة الذين صادفناهم من قبل، وهم: برناردوس بيكتور، بيتر لوسلين، إيرهارد راتدولت. وبعد أن انفرد راتدولت بالعمل بعد عدة سنوات، استخدم الطباعة المذهبة فى حروف الإهداء على النحو الذى كان معمولاً به فى المخطوطات، ربما كى يعلم منافسيه كيف يكون إهداء المطبوعات إلى الرعاة. وكان النحاس المحفور فى جلود الكتب قد خرج من فلورنسا سنة ١٤٧٧. كما استخدمت الزخارف النحاسية هذه أيضاً فى الصور وانتشر هذا الأسلوب فى إيطاليا أكثر من انتشاره فى أى مكان آخر، ولكن استخدم أيضا فى كولون بين حين وآخر، كما استخدم فى فرنسا وخاصة فى «كتب الساعات»[٢].

وكانت الإيضاحيات ـ المظهر الهام لتزيين الكتب ـ فى العقود الأولى للطباعة قد أدخلت إلى إيطاليا على يد الفنانين الألمان. وكان أول كتاب إيطالى مصور قد صدر سنة ١٤٦٧ وهو طبعة من كتاب التأملات[٣] لمؤلفه «توريكريماتا» وصدر فى روما للطابع «هان».

(1) Soi- disant title - page.

(2) Livres d'heures.

(3) Turre cremata. Meditationes .- Rome: Han, 1467.

وقد بلغت الإيضاحيات وتكاملها مع النص أوجهما فى فينسيا وفلورنسا وقد ارتقت نوعياتها على يد الفنانين الإيطاليين بعد أن تعلموها وأتقنوها من الألمان.

والحقيقة التى يجب أن نعيها تمامًا هى أنه طالما أن التذوق والحكم الجمالى والفنى هما مسألة شخصية تمامًا وليست لهما معايير موضوعية، فليس هناك مبرر للدخول فى جدل حول مقارنة إيضاحيات عصر الطباعة بعصر الخطاطة ومقارنة الأسلوب الغوطى بأسلوب عصر النهضة لأنه جدل لن يثمر معايير ولن يقر مقاييس، ولم يكن الجمال التصويرى فى يوم من الأيام وليد دولة بعينها أو فئة معينة من البشر، كما أنه ليس قاصرًا على أسلوب دون آخر أو مدرسة دون غيرها. ولكن يمكننا القول فى هذا الصدد أن الانتقال من الأفكار الوسيطة إلى الأفكار الحديثة وتمثيلها تقدم بسرعة ونجاح فى الجنوب أكثر من الشمال. وكانت إيطاليا بالذات أقل ارتباطاً بالتعبير الفنى للعصور الوسطى المتأخرة. ويرى بعض الباحثين أن التغير البطيء والتدريجى من القديم إلى الحديث فى مناطق الشمال كانت له أيضاً مميزاته، ذلك أن الملامح الوطنية والمحلية للفن الغوطى قد امتزجت مع أسلوب عصر النهضة لتفرز رسومات وإيضاحيات كتب فى مختلف الأنحاء عبر الألب، جاءت بالضرورة متميزة فى كل منطقة حتى عن الرسومات الدولية على نحو ما نصادفه فى العديد من الكتب الهامة التى صدرت فى الثلاثين أو الأربعين سنة الأولى من القرن السادس عشر فى فرنسا وألمانيا وهولندا. والحقيقة أن إنجازات رسوم الكتب وإيضاحياتها فى تلك الفترة على يد الفنانين المتازين ـ سواء ذكرت أسماؤهم على تلك الإيضاحيات أو لم تذكر ـ تأخذ بالألباب أياً كانت المطبعة التى أخرجتها وفى أى مكان كان: فلورنسا، فينسيا، نورنبرج، بازل، باريس.

لقد نضجت إيضاحيات الكتب المطبوعة ورسوماتها فى خلال جيل واحد ١٤٦٠ - ١٤٩٠ وهى دورة استغرقت ألف عام فى حالة الكتب المخطوطة. ومن المعروف أنه فى بواكير كتب الكتل الخشبية وكتب بفستر المطبوعة بالحروف المتحركة كانت الإيضاحيات عملاً منفصلاً ولم تكن لتدرج داخل النص. وفى

مطلع السبعينات من القرن الخامس عشر أصبحت الإيضاحيات جزءا متكاملاً مع النص وحقق الاثنان صورة جمالية للكتاب المطبوع. وفى نهاية القرن الخامس عشر كانت الإيضاحيات فى كثير من الكتب تطغى على صفحة النص نفسه، ولم يعد الفنان الرسام يتنبه لطبيعة الحرف، ومن ثم تراجعت وحدة النص مع الرسم. وهذه الظاهرة لا تنطبق على الإيضاحيات الفردية التى تستخدم لتزيين صفحة العنوان أو النص أو على بعض الكتب الجميلة المصورة فى القرن السادس عشر مثل كتاب «هولبين»: رقصة الموت[١].

والحقيقة أن نسبة الكتب المصورة الصادرة فى ألمانيا والأراضى الوطنية وفرنسا كانت أعلى بكثير من نسبتها فى إيطاليا. وربما كان ذلك بسبب أن معظم الكتب التى أنتجها الطابعون الإيطاليون كانت موجهة أساسًا للإنسيين وأصدقائهم ومؤيديهم وأتباعهم. وكان هؤلاء جميعًا يحتقرون كل أنواع الصور والرسوم وهذا الاتجاه قلل بكل تأكيد من عدد الكتب المصورة فى إيطاليا بطريقة أوتوماتيكية.

وفى كل دول أوربا نالت كتب اللغات المحلية هى الأخرى نصيبها منُ الإيضاحيات على حسب نوع الكتاب. ومن المعروف أن هناك فئات معينة من الكتب اللاتينية تنفر بطبيعتها من أن تكون محلاً للتصوير والإيضاحيات مثل كتب اللاهوت، وخاصة المباحث العلمية منها وكذلك كتب القانون وغيرها من الفئات. أما لماذا انتشر التصوير بصورة أكبر من كتب اللغات المحلية فتفسيره بسيط، ذلك أن هؤلاء الذين لا يقرأون باللاتينية وهؤلاء الذين يفضلون قراءة الكتب بلغاتهم الوطنية كانت تجذبهم الإيضاحيات التى ساعدت البعض منهم على أن يتمثل معانى الكلمات التى يقرأها ويفهمها بسهولة. وقد بقيت الإيضاحيات ملمحًا هاماً فى الكتب الشعبية وكل الكتب التى يقصد بها أن توزع على نطاق جماهيرى.

ومن نفس ذلك المنطلق فإن علامات الطابعين والناشرين هى الأخرى كانت تعكس كثيراً من الخصائص الفنية والطباعية فى الدول المختلفة. وهذه العلامات هى بالنسبة لنا ضرب من ضروب الألغاز والأحاجى. فهى تشبه فى جانب

(1) Holbein. Dance of Death.

العلامات التجارية أو علامات بنائى الأحجار، ولكننا لا نعرف على وجه اليقين أصل هذه العلامات وكيف تطورت. ومن المضحك أن الطابعين كانوا يتخذون علامات بعضهم البعض، فقط يستبدلون حروف العلامات الأخرى بحروفهم هم (وهى عادة تدخل فى باب الغش التجارى أو انتحال علامات الغير). ولقد تنوعت أساليب تلك العلامات كثيرا، ولكن مهماً كان تنوعها فإن الخصائص الوطنية كانت تظل بارزة فيها. وعلى سبيل المثال فإن الطابعين الألمان فى القرن الخامس عشر عندما كان نشاطهم فى أوجه داخل المناطق الناطقة بالألمانية كانوا دائمًا يفضلون شكل الدرع الذى كانوا يضعون عليه حروفهم، أو رموزاً مسيحية أو شعارات المدن. وكانوا نادرًا ما يستخدمون الإيضاحيات مع أسمائهم فى الفترة المبكرة. وقرب نهاية القرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر، أصبحت علامات الطابعين فى ألمانيا أكثر تفصيلاً وتشتمل على صور من حين لآخر. وفى إيطاليا كان الطابعون ـ سواء من الوطنيين أو الأجانب المقيمين (ومعظمهم من الألمان) ـ يجنحون نحو استخدام رسومات هندسية ذات خطوط بدلاً من الدروع وقد غلب عليها الشكل المستطيل بالأسود والأبيض أو الملون بالأحمر ثم توضع عليه حروف الطابع أو الناشر بخط زخرفى وبلون متضاد مع لون أرضية العلامة ويلحق بهذا المخطط الهندسى فى كثير من الأحيان رمز كنسى وخاصة الصليب. وكان وضع الصور كعلامة على الطابع مسألة نادرة نسبيًا فى إيطاليا قبل القرن السادس عشر.

ولقد عكست العلامات الإيطالية روح عصر النهضة، فى حين كان الألمان مشدودين إلى العصور الوسطى. وقد بدأ استخدام علامات الطابع فى المناطق الناطقة بالفرنسية فى جنيف وليس فى باريس أو ليون، وبدأت هناك بتصميم مبتكر وشكل غير مسبوق حيث ظهرت حروف الطابع فى دائرة مزدوجة صغيرة على شكل ميدالية. أما الطابعون الفرنسيون فقد استخدموا عناصر زخرفية وأشكالاً بشرية وحيوانية فى علاماتهم. وقد استخدم الطابعون فى الأراضى الواطئة علامات متنوعة الأساليب والأشكال ولكن غلب عليها التأثر بالعلامات الألمانية. وكانت أول علامة هناك علامة «جوهان فيلدينر» سنة ١٤٧٦، وقد

أضافت إلى الدرع الألمانى حلية وزخارف يعتقد أنها إيطالية. أما «جوهان بادربورن» الذى عمل لفترة فى إيطاليا، فقد استخدم صورة شخصية كعلامة متأثراً فى ذلك بالأسلوب الذى ساد عصر النهضة والذى استخدم لأول مرة فى إنيادة فيرجيل. وفى إنجلترا استخدمت العلامات لأول مرة فى كتاب القساس سنة ١٤٨٢ (ساروم) الذى طبعه فى باريس «و. مينيال» لحساب «وينكن دى وورد». وقد جاءت هذه العلامة فرنسية الشكل أكثر منها إنجليزية. وقد استخدم وينكن دى وورد هذه العلامة كذلك فى مطبوعاته خلال القرن السادس عشر. وتكشف العلامات الإنجليزية - على قلتها فى نهاية القرن الخامس عشر - عن تأثر واضح بالعلامات الإيطالية حيث استخدمت المستطيل الهندسى مع الطغراء. ويصدق نفس القول على العلامات الأسبانية، حيث كان الطابعون فى الخارج على معرفة تامة بالكتب الإيطالية وملامحها.

ولقد توفر العديد من الباحثين على جمع علامات الطابعين فى القرن الخامس عشر واستنساخها ووصفها والتعليق عليها، ومن بين الأعمال الهامة فى هذا الصدد تلك السلسلة الجيدة التى نشرت فى ميونيخ بين ١٩٢٤ و ١٩٢٩م[1]. ويمكننا أن نتوقف قليلاً لنسرد بعض ملامح التطور التاريخى لتلك العلامات، فقد كانت ثانى علامة ألمانية (بعد علامة فوست وشوفر فى ماينز) كانت فى كولون للطابع «ثيرهورنين» بدءا من سنة ١٤٧١، ودخلت تلك العلامات أيضاً فى عقد السبعينات فى مدن: أوجزبرج، بازل، نورنبرج. وفى إيطاليا كان الطابع الوحيد الذى استخدم العلامة خلال سبعينات القرن الخامس عشر هو «سكستوس رايزنجر» فى نابولى وكانت عبارة عن درع تحمله امرأة، وقد انتشر استخدام تلك العلامات

(1) Ernest Weil. Die deutschen Druckerzeichen;
- M.J. Husung. Die Drucker- und Verlegerzeichen Italiens;
- Wilhelm J. Meyer. Die Französischen Drucker-und Verlegerzeichen.
- R. Juchoff. Drucker - und Verlegerzeichen... in den Niederlanden, England, Spanien, Böhmen und Polen.

وقد نشرت كلها فى ميونيخ ما بين ١٩٢٤ - ١٩٢٩.

فى ثمانينات ذلك القرن بطريقة متوازنة بين الطابعين والناشرين على السواء فى إيطاليا. وكانت العلامات الإيطالية فى الأعم الأغلب ذات نسب متوازنة، وكانت مزخرفة حتى ولو كانت تضم فقط الطغراء أو الحروف المتفرقة. وكان «نيقولاس فيلبى» هو الذى أدخل علامة الطابعين إلى ليون سنة ١٤٨٣ بالأسلوب الإيطالى وقد تبعه «فيرار» فى باريس سنة ١٤٨٥ بعلامة ناشر مزخرفة. وقد حمل «فنسلر» ـ الذى غادر بازل مثقلاً بالديون ـ معه علامته القديمة واستخدمها فى كلونى وليون. وهناك علامة واحدة فى الأراضى الواطئة تستحق وقفة لأنها تمثل نوعا من الاستخدام الخاص، وهى عبارة عن صورة مأخوذة من كتلة خشبية نحتت عليها طغراء الطابع، وهى من العلامات النادرة التى وجدت فى بعض كتب مطبوعة فى زويل.

لقد كان الطابعون متأثرين فى اختيار حروفهم وإيضاحياتهم بذوق زبائنهم من القراء؛ حيث كان الطابع يفسح مساحة كبيرة من عمله لهذا الذوق. وكانت العواقب وخيمة إذا لم يقدر الطابعون الذوق الأدبى لمشترى الكتب، وقام بطبع كتاب لايروق لهم أو يرضى أذواقهم. وكان رفضهم أو قبولهم لنص ما يلقى الضوء على ميول واتجاهات القراء فى فترة ما وفى بلد معين. وتاريخ كتاب بعينه إنما قد يكون استبصاراً لرد فعل الجموع إزاء الأحداث المعاصرة. وعلى سبيل المثال قام «فريتز ببير» سنة ١٩٣٧ بنشر مقالة فى «كتاب جوتنبرج السنوى» حول صكوك الغفران المطبوعة تتضمن تحليلاً لتلك الصكوك التى صدرت لتمويل حملة صليبية ضد الأتراك، وقد خلص من دراسته بنفس النتيجة التى خلصنا إليها من قبل وهى أن عدد تلك الصكوك كان يتراجع ويقل كلما بعدت الفترة عن تهديدات الترك. وقد قام رودلف هيرش بدراسة عينة قوامها ٢٣٧ صك غفران ورتبها زمنياً وخلص منها بالتوزيع الآتى:

١٤٥٤ ١٣ صكاً (كلها فى مدينة ماينز ربما صدرت فى طبعات صغيرة. كلها فى نصين أساسيين مع تعديلات طفيفة فى باقى النصوص).

١٤٥٥-١٤٧٤ لاشىء البتة

١٤٧٥	واحد	
١٤٧٦	صك واحد	
١٤٧٧-١٤٧٩	لاشيء البتة	
١٤٨٠	٣٠ صكا	١٠٩ جرى ذكر جزيرة رودس فى كثير من الصكوك الصادرة ١٤٨٠-١٤٨٢
١٤٨١	٤٣ صكا	
١٤٨٢	٣٦ صكا	
١٤٨٣	٤ صكا	
١٤٨٤	٧ صكا	
١٤٨٥	٢ صكا	
١٤٨٦	٤ صكا	
١٤٨٧	٨ صكا	٧٧ صكا
١٤٨٨	٣٣ صكا	
١٤٨٩	١٨ صكا	
١٤٩٠	٢٦ صكا	
١٤٩١-١٤٩٧	لاشيء البتة	
١٤٩٨	٨ صكا	
١٤٩٩	لاشيء البتة	
١٥٠٠	٣ صكا	

ومن الواضح أن عدد الصكوك التى طبعتها المطابع لم يكن كبيراً (المتوسط العام خمسة صكوك فقط فى السنة) باستثناء الفترات الثلاثة الآتية:

١٤٥٤-١٤٥٥ وهى فترة مبكرة جداً من حياة الطباعة مما يكشف عن إدراك الكنيسة لأهمية المطبعة. والصكوك الثلاثة عشر التى صدرت فى تلك الفترة (٥, ٠٪ من المجموع الكلى)

صدرت تحت ضغط سقوط القسطنطينية فى يد «محمد الفاتح» سنة ١٤٥٣ م.

١٤٨٠-١٤٨٢ صدر فى هذه الفترة مائة وتسعة صكوك بنسبة ٤٥٪ من إجمالى الصكوك، وقد ربط معظم الصكوك بحصار الترك لجزيرة ردوس.

١٤٨٨-١٤٩٠ صدر فى هذه الفترة سبعة وسبعون صكاً بنسبة ٣٢٪، وهى جميعاً نتيجة جهود «بيرولد» الذى كان يتصرف بأوامر من البابا «إنوسنت الثامن».

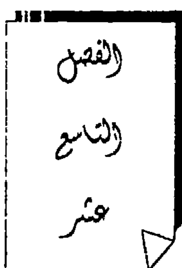
وكانت القسطنطينية ورودس بعيدتين عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى طبع فيها ٨٢٪ من الصكوك المذكورة. وكان ضياع العاصمة البيزنطية وقرب ضياع جزيرة رودس فى البحر الأبيض المتوسط لايعنى شيئاً كثيراً بالنسبة للألمان، ولكن يعنى الكثير بالنسبة للإيطاليين؛ ومع ذلك فلم يطبع فى إيطاليا سوى ستة صكوك فقط. والخلاصة التى خلص إليها هيرش أن تلك الصكوك لم تطبع فى الأماكن التى كان الخطر والتهديد فيها كبيرين، وإنما طبعت حيث فرص البيع كبيرة ومتاحة وحيثما كان الناس سذجًا ويصدقون فكرة تلك الصكوك. وإلا بماذا نفسر أنه رغم التهديد التركى المباشر لكل من ستيريا وكارنثيا ١٤٩٢ - ١٤٩٤ لم يكن هناك أى أثر لهذا التهديد على إصدار أية صكوك، ولم يثر اجتياح الأتراك للمناطق البولندية ١٤٩٧ - ١٤٩٨م أية تحركات على الإطلاق هناك. ويتهكم روش قائلاً بأن جهود بيرولد قد أثارت حماس الألمان السذج الخدج فأقبلوا على شراء تلك الصكوك بينما غيرهم لم يأبه بها. وقد أعد قائمة بأسماء المدن التى طبع فيها خمسة صكوك فأكثر ورتبها ترتيباً تنازلياً على حسب العدد:

ماينز	٣٨
نورنبرج	٣٧
أوجزبرج	٢٣

لوبيك	١٩
روتلنجن	١٢
ليبزج	١١
لندن	١٠
ويستمنستر	٩
مميننجن	٨
كولون	٧
فيرزبرج	٦

لقد كانت تلك الصكوك تطبع بسرعة فائقة للتوزيع المباشر من جانب رجال الدين داخل المنطقة التى طبعت فيها وما حولها، رغم أن بعضها قد طبع فى أماكن مثل ماينز، نورنبرج، أوجزبرج للتوزيع فى دوقيات أخرى بعيدة. ورغم أن كولون كانت مركزاً هاماً فى ذلك الوقت إلا أنه لم يطبع بها سوى سبعة صكوك فقط. كما أن المطابع الرئيسية فى بازل وستراسبورج لم تطبع إلا عددًا قليلاً من تلك الصكوك: ثلاثة وأربعة على التوالى. وقد طبعت المطابع الإنجليزية من صكوك الحملة الصليبية أكثر مما طبعت مطابع إيطاليا (١٩ فى مقابل ٦). أما الأراضى الواطئة فقد طبعت ١٤ صكاً، بينما الأراضى الأسبانية لم تطبع سوى صك واحد، ولم يصدر عن المطابع الفرنسية أى صك على الإطلاق.

* * *



الكتب والسياسة والقانون

فى الوقت الذى اخترعت فيه الطباعة؛ كان كثير من المدن الأوربية يعيد صياغة الحكم فيه ويعيد بناء حكومته وسن قوانينه وتشريعاته، وقد استغرقت هذه العملية النصف الثانى من القرن الخامس عشر وربما القرن السادس عشر كله. وقد تضمنت معظم القوانين جزءاً يتعلق بالتجارة والصناعة. ومن النادر فى تلك القوانين أن نجد إشارة إلى الطباعة والطابعين وهم الذين بدأوا حرفتهم الجديدة بعيداً عن أية تنظيمات أو قواعد أو لوائح تحدد واجباتهم وحقوقهم.

ومع ازدهار الطباعة وازدياد عدد المطابع وارتفاع حدة التنافس بين الطابعين وتجاوز الأمر حدود المنافسة العادلة بين الطابعين، بدأ الاهتمام بوضع إطار عام تشريعى يمنع التجاوزات وإساءة الطابعين إلى الحرفة. ولقد تم عقد اتفاقات عديدة بين الطابعين والناشرين وتجار الكتب وتم توثيق تلك الاتفاقات أمام الموثقين الشرعيين، وقد تدخلت المحاكم فى بعض الأحيان لفض النزاعات والفصل فيها حسب مقتضيات الأمور؛ كما كان الأمر يرفع أحياناً أخرى إلى البلاط الحاكم. كذلك فإن بعض الطابعين كان يطلب الحماية من الاعتداء على حقوقه ويطلب صك امتياز من الحكومة. ومن جهة أخرى كانت السلطات الكنسية والمدنية مهتمة للغاية بفرض رسوم على واردات الكتب، والسيطرة على المطابع وما يطبع فيها وخاصة فيما يتعلق بالأمور الدينية أو السياسية. ولسوء الحظ أن اللوائح الحكومية الصادرة فى تلك الفترة لم تدرس دراسة منظمة فيما يتعلق بأمور تجارة الكتب بالذات.

لقد كانت صكوك الامتياز هى السلف المبكر لتشريعات حقوق المؤلفين وقوانين حماية الملكية الفكرية. لقد كانت صكوك الامتياز هذه تمنح وتصدر لمنع المنافسة غير المشروعة وخاصة فيما يتعلق بإعادة الطبع. وقد تمثلت الأشكال الأولى من

هذه الامتيازات فى منح حق «الاحتكار» العام دون إشارة إلى كتاب أو كتب بعينها، أو احتكار طابع معين لعمليات الطباعة فى مكان محدد، وذلك بقصد الاحتفاظ به وإغرائه على البقاء وممارسة العمل فى ذلك المكان وحماية مصالحه فيه. ولعل هذا يفسر لنا صك الاحتكار الذى منح إلى «جوهان دى سبيرا» فى الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٤٦٩ من قبل حكومة جمهورية فينسيا لمدة خمس سنوات، حيث كانت الطباعة فى إيطاليا آنذاك فى مهدها ولم تمض إلا أربع سنوات فقط على إنشاء سوينهايم وبنارتز لمطبعتهما فى سوبياكو.

وعندما توفى جوهان دى سبيرا سنة ١٤٧٠ لم ينتقل حق الاحتكار إلى شقيقه أو إلى مساعده المسمى «فانديليكوس دى سبيرا» وإنما جمد هذا الحق. وربما تكون الطباعة فى تلك الفترة المحدودة قد انتعشت وازدهرت فى فينسيا، ولذلك لم تر الحكومة أن تمد حق الاحتكار إلى ورثة جوهان دى سبيرا أو غيره. بل قد تكون رأت أن الاحتكار سيمنع تقاطر الطابعين إلى المدينة.

لقد تقاطر على المدينة بعد ذلك طابعون على درجة عالية من الأهمية من بينهم «نيقولاس جنسون»، «كريستوف فالدارفر»، «فرانز ريز»، «ليوناردوس أخيتس». ولم يكن «**حق الاحتكار**» الذى تمنحه حكومة فينسيا هو النوع الوحيد من الامتيازات الذى تقدمه حكومة فينسيا، وإن كان من الظواهر النادرة فى التاريخ المبكر للطباعة.

ولقد حاول العديد من الطابعين الآخرين الحصول على هذا الحق المطلق فى مدن أخرى. ولقد حصل على هذا الحق فى ميلانو طابع غير مشهور اسمه «أنطونيو بلانيلا»؛ ولكن يبدو أن هذا الحق لم يمارس لأنه لم يصلنا أى كتاب يحمل بيانات هذا الطابع، مما يرجح أنه لم يشتغل بالطباعة بعد حصوله على هذا الصك إن كان قد صدر فعلاً. لقد وصلتنا وثيقة الاتفاق فعلاً وهى بتاريخ السابع من سبتمبر سنة ١٤٧٠م، وأول كتاب طبع فى ميلانو يحمل تاريخ الثالث عشر من مارس ١٤٧١. وفى نفس سنة ١٤٧٠ حاول «كليمنت دوناتى» أن يحصل هو الآخر على صك احتكار الطباعة المطلقة فى فيرارا، ولكن طلبه رفض. ولقد جاهدت المدن الصغرى فى اجتذاب الطابعين إليها بشتى الإغراءات، وكان هناك على الأقل صك احتكار لأحد الطابعين فى مدينة أكويلا سنة ١٤٨١. وكان من

بين الحوافز تقديم مكان العمل بالمجان، الإعفاء من الضرائب، وغير ذلك من المنافع. ونجد تطابقا أحيانا فى صكوك الاحتكار هذه على النحو الذى نصادفه فى صك كل من «لورنزو كانيزارى»، «جاكوبو جيرميونى»، «لوقا دى مارتينيس» شركاء «هنريكوس دى كولون». هؤلاء الطابعون تقدموا بطلباتهم فى الحادى عشر من مايو سنة ١٤٨٤م إلى حكومة مدينة سيينا وذلك لمنح «هنريكوس دى كولون» إذناً خاصاً لاستيراد الورق وتصدير الكتب المطبوعة والإعفاء من كافة الرسوم والجمارك. وقد قبل هذا الطلب وصدر الأمر بذلك فى ١٣، ٢١ من نفس الشهر مايو، ولكن بعد إدخال بعض التعديلات على الاتفاق.

وقد منحت حكومة جنوا حق الاحتكار المطلق للطبع إلى «فرانشسكو دى سيلفا» من تورينو سنة ١٥٠٦، ثم جدد فى ١٥١٢م ولكن لم يصلنا مايدل على أنه أو سواه قد مارسوا الطبع فى جنوا آنذاك.

وفى سنة ١٥١١ منح الطابع «نيقولو برنتا» - الذى مارس الطباعة فى فينسيا فى وقت من الأوقات - الإذن بممارسة الطباعة فى ريمينى لمدة خمسة عشر عاماً مع إعضائه من كافة الرسوم والضرائب وإعفائه منزلا لورشته وعائلته. وحتى فى سنة ١٤٧٣م استدعت «مارجريت» ملكة فرنسا الطابع «نيقولو بيفيلاكوا» إلى تورينو، ومنحته امتياز الطباعة من تورينو وأنعمت على «شركة طباعة بيفيلاكوا»[١] ببعض الشروط الخاصة التى من بينها أن يكون فض أى نزاع معها أمام مجلس الشيوخ وليس أى محكمة عادية سواء مدنية أو جنائية؛ إلى جانب حق جميع أعضاء هذه الشركة وأسرهم فى حمل السلاح، كما أنعم على بيفيلاكوا نفسه بلقب الطابع الأول فى الدوقية. ومثل هذه المعاملة الخاصة لم تكن تقتصر على إيطاليا وحدها، ولكنها كانت أكثر شيوعاً فيها أكثر من غيرها من دول أوربا. ولكن الأنظمة السياسة للمدن الجمهوريات جعلها تتنافس فيما بينها من جانب وبين الأسر النبيلة من جانب آخر على تشجيع وحماية واجتذاب ودعم الطابعين الذين من المؤكد كان وجودهم يدعم دخل المدينة ومكانتها.

ومن أشكال الامتيازات التى كانت تمنح لطابعين فى ألمانيا فى العقود الأولى للطباعة خطابات من السير «والسلوك»[٢]، ومن أمثلتها ذلك الخطاب - أو قل

(1) Campania deela stampa de Bevilaqua.

(2) Schutzbrief.

الشهادة ـ التى منحها «كونت بالاتين فردريتش الأول» إلى الطابع «هنريتش إيجيشتاين» فى ستراسبورج سنة ١٤٦٦، وهى الحالة الوحيدة الموثقة لدينا. ومن المؤكد من مثل هذه الشهادات أنها كانت تمنح للعديد من الطابعين تكريماً لهم فى أوقات مختلفة. ولقد أغرى اثنان من الأساقفة الطابع «إيرهارد راتدولت» بالعودة إلى بلدته أوجزبرج ولكننا لانعرف نوع الضمانات التى قدماها له كما لا نعرف أيضاً الضمانات التى قدمها قضاة هاجيناو كى يعود إليها الطابع «هنريتش جران».

ولقد قدم لنا «بنزنج» العديد من الحالات فى القرن السادس عشر على طابعين تلقوا تسهيلات وضمانات. ولقد قدمت الحماية لبعض الطابعين على شكل براءات اختراع تعطى الطابع حق الاحتكار لمطبوعات معينة فترة من الزمن أو على الإطلاق داخل مدينة، ولقد ظل هذا الإجراء معمولاً به فترة طويلة من الزمن وكان شائعا فى جميع الدول الأوربية. ويرى البعض أن هذا الامتياز رغم أنه كان براءة اختراع إلا أنه كان قيداً على التجارة والصناعة. ومن المعروف أن أقدم براءة اختراع هى تلك التى منحت للطابع ألدوس مانتيوس على كل الكتب التى طبعها بالحرف اليونانى الجديد الذى ابتكره.

لقد كانت الاحتكارات والامتيازات الخاصة (مثل الإعفاء من الرسوم والضرائب) ضد طبيعة الطبع والنشر كمشروعات حرة. وكانت حماية عناوين بعينها من خلال الامتيازات التى تشبه حقوق الطبع لا تهدد بحال من الأحوال حرية الطابعين بصورة جدية. وكان من المعروف أن هذه الامتيازات لاتمتد لأبعد من المنطقة الجغرافية التى تسيطر عليها السلطات المانحة للامتياز. ولعل أول امتياز حقيقى هو ذلك الذى منح فى سنة ١٤٨٦م إلى «ماركانيتونيو كوتشيو دى فيكوفارو» (أو سابلليكو) فى «كتاب شئون فينسيا»[١]، وقد منح هذا الامتياز قبل دخول النص إلى المطبعة، وقد نص على أنه لايجوز لأى شخص أن يعيد طبع هذا الكتاب وإلا اعتبر ذلك تهديداً لمصالح جمهورية فينسيا. ولقد كان لهذا الامتياز[٢] الأول من نوعه صداه وأثره، حيث لم تصدر طبعة أخرى من هذا

(1) Rerum Venetarum libri. - Venice: Marcantoniococcia de Vicovaso (Sabellico), 1486.

(2) Privilegium.

الكتاب عند أى طابع آخر طوال اثنتين وعشرين سنة. ويدل هذا الامتياز على أن الطابعين والناشرين والمؤلفين أصبحوا واعين للعيوب الاقتصادية لإعادة الطبع لدى آخرين. ولقد طلبت إحدى السلطات الحكومية إصدار قواعد منظمة للطباعة والنشر.

والذى أريد لفت الأنظار إليه هو ألا نسقط نظرتنا الحالية إلى تزوير الكتب وإعادة طبعها على ما كان عليه الأمر فى ذلك الوقت البعيد، فلم تكن الحماية التى تضفى آنذاك مبنية على أسس فكرية، أى حماية الحق الأدبى على النحو الذى ذهب إليه البعض مثل «هـ. ف. براون». فلم تكن الأخلاق ولا الرأى العام هى الدافع وراء تلك الامتيازات، وإنما فقط الدوافع الاقتصادية هى التى كانت تحرك هذه الامتيازات؛ أى أنه كان جانباً واحداً فقط من حق الطبع (الجانب المادى) وليس الجانب الأدبى المعنوى. وكان لابد من الانتظار سنوات طويلة حتى تتبلور وترسخ فكرة الملكية الفكرية.

لقد كانت الامتيازات من وجهة نظر الحكومة نوعا من التشريع أو التقنية يفتح للمدينة أبواباً جديدة للدخل. ولقد ظل «التقليد» حتى القرن السادس عشر لا يدخل فى باب الانتحال، فقد كانت إعادة الطبع تتم بدون أى تردد أو شبهات على نحو ما كان يحدث فى المناسخ فى عصر الخطاطة. ولا أتذكر حالة واحدة فى عصر الخطاطة كان النسخ محظوراً فيها اللهم إذا اعترض المؤلف الذى لا يرغب فى إتاحة الكتاب إلا بعد أن يأخذ شكله النهائى. بل أكثر من هذا نجد أن لوائح الجامعات الأوربية ـ كما هو حال جامعة باريس ـ كانت تنص على إباحة النسخ وتحظر تقييده. بيد أن المسألة فى حالة الطباعة كانت جد مختلفة حيث كان الاستثمار كبيراً وخطر إغراق السوق وارداً. والطابع الذى يطلب الحصول على حماية كتبه من إعادة الطبع إنما يحمى فى حقيقة الأمر استثماراته، فلم يكن لدى المؤلفين سبب يدعوهم إلى الاعتراض على إعادة الطبع، طالما أنهم لايتقاضون مقابل المادة العلمية أو على الأقل لم يكونوا يحاسبون على المبيعات أو النسخ المطبوعة، اللهم إلا إذا كان المؤلف واعياً لخطورة إعادة الطبع على الحياة الاقتصادية أو كان صديقاً للطابع أو أى سبب آخر خاص به.

ولابد لنا أن نميز بين إعادة الطبع بمعنى جمع النص من جديد لطبعة جديدة من كتاب مطبوع بالفعل - وهو أمر لم يكن هناك اعتراض عليه آنذاك إلا لأسباب اقتصادية أو مالية - وبين نسخ نفس النص بنفس حرفه وهيئته أو تزوير بيان الطبع أو أخذ نفس المقدمة والتنويه، الخاصة بطابع آخر. ولعل أول حالة انتحال حاول فيها طابع أن ينسب فيها عملاً لنفسه هو ما حدث فى كتاب «سانت أوغسطين»(١) حيث قام فوست و شوفر بنقل نفس مقدمة طبعة منتلين التى أصدرها فى نفس السنة أو قبلها لسنة واحدة ١٤٦٦ فى ستراسبورج، والتى يقول فيها المحرر كيف أنه ألح على منتلين حتى أقنعه بضرورة طبع هذا الكتاب (فن الوعظ) وذلك خدمة لرجال الدين الإكليريين. وقد كانت طبعة منتلين فى ستراسبورج نموذجاً لطبعة فوست وشوفر فى ماينز. وما كان من فوست و شوفر إلا أن حذفا اسم منتلين من المقدمة ووضعا اسم فوست بدلاً منه.

وفى بعض الأحيان عندما نجد بيانات طبع مضللة فإننا لا نستطيع أن نقرر ما إذا كان ذلك خطأ مطبعياً تسبب فيه المنضدون أم قصد به عن عمد خداع المشترى أو خداع المنافس أو تضليل السلطات الحاكمة. فى الحالة الأولى - خطأ المنضد - نجد أن المنضد ينقل أو يكرر عن غفلة البيانات الموجودة على النسخة التى ينضد منها. وقد كان الناسخون فى عصر الخطاطة يقعون فى نفس هذا الخطأ عندما ينقلون حرد المتن وختام النص الموجود فى المخطوط الذى ينسخون عنه، فكانوا يكررون التاريخ الأصلى للمخطوط ومكان النسخ الأصلى بل واسم الناسخ الأصلى. وكان هذا الخطأ من الممكن حدوثه فى المطبوع ولكنه لم يكن شائعاً. والشائع هو أن يتم استخدام بيانات طبع مضللة عن عمد كما هو الحال بالنسبة لبعض الطابعين فى ميلانو وعلى رأسهم: «ليونارد باشيل» و «أولرخ إسكنزنزيللر» اللذين دأبا على استخدام بيانات طبع مزورة عن قصد. فقد ظهر كتاب للمؤلف «بولوس دى كاسترو» وهو يحمل بيانات طبع: فينسيا، أريفابين سنة ١٤٨٦. بينما كان هذا الكتاب فى حقيقة الأمر إعادة طبع على يد اسكنزنزيللر فى ميلانو

(1) St. Augustine. De Arte praedicandi: Book IV: De doctorina Christiana.

فى تاريخ غير معروف. كذلك ظهر كتاب للمؤلف «مانفريد دى مونتفيراتو» تحت اسم طابع وهمى هو: «لوكانوس»، وهو فى حقيقة الأمر من إنتاج اسكنزنزيللر. وكتاب النحو الذى ألفه «ديو ميديس» الذى ظهر وعليه بيانات الطبع: فينسيا؛ وطابعه «دى بنسيس» سنة ١٤٩١ كان فى حقيقة الأمر من طباعة «بيشيل» فى ميلانو. وقد قدم لنا «ك. هابلر» المزيد من هذه الأمثلة التى انتحلت فيها أسماء وهمية فى روما و ميلانو، كما أعطى أمثلة على حرد المتن أيضاً المنتحل أو المنقول خطأ من الأصل. كذلك أضاف «د. أ. روديس» نماذج وأمثلة من بيانات الطبع المزورة فى مدينة سيينا[1]. كما أضاف بوهلر[2] أمثلة كثيرة أخرى، وكل هذه المصادر تؤكد على أن تزوير بيانات الطبع كانت مسألة شائعة وعادية.

لقد كانت مسألة إعادة طبع كتاب ما قديمة منذ أوائل الطباعة، وقد بدأ بالكتاب المقدس ذى الستة والثلاثين سطراً الذى أخذ عن الكتاب المقدس ذى الاثنين والأربعين سطراً. حيث دأب الطابعون على إعادة إصدار أى كتاب يرون أن هناك حاجة إليه سواء كانوا هم الذين أصدروه أول مرة أو أصدره غيرهم، وقد استمرت هذه الممارسات فترة طويلة. ولكن الغش والخداع دخلا بوضع بيانات طبع غير حقيقية عندما أصبح لكتابة تلك البيانات قيمة تجارية أو سياسية، ذلك أنه مع حلول سنة ١٤٨٠م أدرك الطابعون والناشرون قيمة الاسم فى ترويج المبيعات، ومن هنا فقد بدأ تجهيل المنتج الذى ورثناه عن عصر المخطوطات، حيث كان الناسخ يغفل اسمه من على المخطوط، حتى بدأ يختفى كما أن الجمهور المشترى نفسه قد أخذ يكون اتجاهاً نحو تثمين وتقدير المطابع التى تقدم كتباً جيدة المظهر، جيدة المضمون، مراجعة ومصممة بعناية، ذات حرف واضح مقروء وتباع بأسعار متهاودة فى متناوَل القراء. من هذا المنطلق عندما يقوم طابع مثل إسكنزنزيللر أو باشيل باستخدام اسم طابع آخر أو بتقليد أسلوبه وطريقة إخراجه فإنه إنما يفعل ذلك جزئياً للإفادة من المكانة والتقدير الذى حصل عليهما ذلك الغريم المنافس.

---

(1) D. E. Rhodes. "More light on Fifteenth Century piracies in Northern Italy". - Gutenberg Jahrbuch, 1958.

(2) C. F. Bühler. The Fifteenth Century book.

لقد دأب الطابعون فى ليون على تقليد شكل وإخراج الكتب التى يطبعها ألدوس مانتيوس وكذلك الحرف والزخارف، وتلك مرحلة متقدمة فى التزوير.

وفى خلال الأزمات والتقلبات السياسية والدينية التى أخذت بخناق أوربا قبل وإبان ثورة الإصلاح الدينى، ظهرت بيانات الطبع المزورة بكثرة، ولكن لغرض آخر مختلف. ذلك أن الطابع كان يتخفى وراء اسم مستعار أو اسم خادع ليخفى شخصيته الحقيقية حتى لايقع تحت طائلة المقاطعة أو ينفذ فيه حكم الإعدام.

ولقد شاعت فى تلك الحقبة محاولات خداع السلطات وتضليلها وخاصة فى المناطق التى كانت الأحكام فيها ضد المخالفين عنيفة وقاسية. ومن الطريف أن يستخدم الطابعون أسماءً مستعارة غريبة ومضحكة لتسلية القارئ وإمتاعه، أو يستخدمون أسماء مزورة تنم للوهلة الأولى عن نوع الكتاب.

لقد خلص «هـ. كونز» إلى أن ٥٠٪ من مطبوعات القرن الخامس عشر كانت لها إعادات طبع كثيرة، وأن هذه النسبة قد زادت كثيراً خلال فترة الإصلاح الدينى. ويمكننا القول هنا أن أول اهتمام بابوى بقضية تزوير الطبعات وبيانات الطبع كان سنة ١٥١٧ عندما اشتكى «بيرولدوس» إلى البابا حول إعادة الطبع صفحة بصفحة لطبعة روما من الكتاب الخامس من «حوليات تاكيتوس» التى توفر على تحريرها. وقد طلب من طابع الطبعة الثانية أن يدخل تعديلات عليها حتى لا تكون حرفية من الطبعة الأصلية.

لقد فقدت «الامتيازات» فاعليتها أو قلت فاعليتها بعد لامركزية القوى السياسية والقانونية، ولكن حتى لو لم تكن لها فاعلية أو تأثير فإنها على الأقل كانت تضفى مكانة أو تعطى صبغة الموافقة على نشر الكتاب. وعندما تمنح الامتيازات لكتب ذات أهمية محلية فإن هذه الكتب تكلل بالنجاح. إنها الصدفة البحتة أن يمنح أول امتياز لكتاب محدد بعينة لكتاب «كتاب شئون فينسيا» الذى لم يكن للطابعين إليه حاجة حتى يعاد طبعه خارج حدود فينسيا. ولعله من نافلة القول ـ وقد أشرنا إلى هذا الكتاب من قبل ـ أن الامتياز قد منح لمؤلف الكتاب وليس لطابعه، ومؤلفه هو «سابلليكوس». وكذلك فإن أول امتياز يمنح لطابع

كان للطابع «ب. بيناليوس» سنة ١٤٩٢، وكذلك كان لكتاب شبيه بالكتاب السابق فى محتوياته أى ذى طابع وصبغة محلية. ولقد اتسعت مجالات تلك الامتيازات بسرعة. وكان ثانى الامتيازات التى منحتها حكومة فينسيا مباشرة للمؤلف لم يكن لكتاب واسع الانتشار وإنما لكتاب محدود الانتشار هو كتاب «فونيكس» لمؤلفه «بتروس فرانشسكوس دى رافينا»[1]. ومن المؤكد أن الطابعين والمؤلفين قد تلمسوا فائدة ما فى تلك الامتيازات، وكذلك لجأوا إلى طلبها.. ويؤكد لنا ذلك الزيادة الكبيرة فى عدد الطلبات المقدمة وعدد الامتيازات الممنوحة. ففى سنة واحدة هى ١٤٩٢ منحت سبعة امتيازات، من بينها واحد لإعادة منح (امتياز سابق) ونفس هذا العدد لسنة ١٤٩٣م، ستة عشر امتيازا لسنة ١٤٩٤م وخمسة امتيازات فقط عن سنة ١٤٩٥م ثم واحد وعشرون لسنة ١٤٩٦. وإذا كان هذا العدد هو ما وصلتنا وثائقه، فمن المؤكد أن ما صدر بالفعل كان أكثر من ذلك.

والحقيقة أن النظرة التحليلية لمجموعة الامتيازات التى جمعها «ر. فولين» والتى لم يتوفر على دراستها بعمق أى باحث حتى الآن تكشف عن بعض الخصائص الشيقة للغاية.. ومن حسن الحظ أنه وصلتنا محاضر جلسات بعض هذه الامتيازات حيث كان لابد للمجلس الحاكم (الشيوخ) أن يصوت على منح الامتياز، وبحسب عدد الأصوات المؤيدة أو المعارضة يمنح الامتياز أو يمنع، وعلى سبيل المثال عندما جاء التصويت على كتاب «الكتاب المقدس اللاتينى» لطابعه «هيروينموس (أو بجانينو) بجانينيس» وعليه شروح وتعليقات نيقولاوس دى ليرا. «وقد حرره من جديد أربعة من كبار اللاهوتيين». هذا التصويت يحمل تاريخ ١٤٩٢/٩/٢٠. وكانت نتيجته ٩٠ لصالح المنح و٦٠ ضد المنح وثمانية ممتنعون عن التصويت. وفى الطلب الذى تقدم به بجانينو يقول: إن إنتاج هذا الكتاب سوف يكلفه ٤٠٠٠ دوكات. وفى عشرينات القرن السادس عشر نصادف حالات تصويت أخرى، وكانت الغالبية فى جانب منح الامتياز يسير بعضها على النحو التالى بدون ذكر أسماء المؤلفين أو عناوين المؤلفات:

---
(1) Petrus Franciscus de Ravenna Phoenix.

١١٢ مع، ٢ ضد، ٢ امتناع عن التصويت.

١٦٥ مع، ١٤ ضد، ٢ امتناع عن التصويت.

١١٥ مع، ١٣ ضد، ١ امتناع عن التصويت.

ولعل أعلى نسبة تأييد كانت لكتب «بمبو» حيث كانت النتيجة على النحو التالى:

١٢٩ مع، ٢٦ ضد. ولم يكن ثمة امتناع عن التصويت.

ومن الصعب علينا أن نقول كيف كانت طبعة بجانينو من الكتاب المقدس اللاتينى فى درجة تفوقها على سائر الطبعات التى طبعت خارج نطاق جمهورية فينسيا فى أماكن كثيرة. ومن المؤكد أن الطابع هنا كان يحسب حساب المنافسين فى داخل فينسيا أكثر من هؤلاء الموجودين فى مدن بعيدة، ولذلك أعد للأمر عدته من لاهوتيين ممتازين يحررون الكتاب، ومفسر عبقرى يضع الشروح والحواشى وطباعة فاخرة وسعر منخفض وعلاقات تسويقية جيدة.

لقد استخدمت تراخيص الامتيازات أيضاً لحماية الأسعار ومنع المضاربة فيها أو تخفيضها؛ ويبدو أن ذلك الأسلوب قد أثار الاستياء العام أو هكذا فهمنا من الملحق الذى ألحق بالامتياز الممنوح إلى الطابع «بيرناردينو دى لاندريانو» لطبع كتابين فى القانون وكتاب آخر فى التأملات[1] سنة ١٤٩٦. وفى هذا الملحق تم تحذير الطابع من أن يغالى فى سعر هذه الكتب للطلبة «كما فعل البعض».

ولإثارة عطف صانعى القرار والقانون لجأ بعض الطابعين إلى ادعاء الفقر والظروف الصعبة مثلما فعل «بنيديتو فونتانا» الذى بدأ طلبه بأن كان يتيماً ويعول ثلاث أخوات بنات. وفى طلبات أخرى نجد أن بعض الطابعين يزعم بوجود ملامح خاصة وشروح وتحريرات جديدة فى العمل.

ولابد لنا من الاعتراف بأن هذه الحماية كانت محدودة المدة، وقد تفاوتت مدة الحماية من كتاب لآخر، ولكنها بصفة عامة كانت لمدة عشر سنوات فى المتوسط.

(1) Speculum.

وبعض تلك التراخيص حددت عقوبة خرق ما جاء فيه. وقد أعلن بعض الطابعين ـ الناشرين أنهم يعتزمون طبع كتاب معين[١] وحصلوا على الترخيص دون أن يطبعوه قَط، ومن ثم حالوا دون قيام أى طابع آخر فى محمية فينسيا من طبعه لأنهم يملكون ترخيص امتياز طباعته. ومن بين هؤلاء الذين لجأوا لذلك الأسلوب «لازارو دى سورديس» وآخرون غيره، وإن كان هو قد برع فيه.

وبعض الطابعين كان يكتب فى طلبه أن الكتاب موضوع الطلب لم يطبع قبل ذلك قَط[٢] بينما يكون الكتاب قد طبع ويكون ما سجل فى الكتب غير صحيح، وممن لجأوا إلى هذا الأسلوب فى وقت مبكر «بنيديتو بوردون» (مزخرف الكتب) فى إحدى طبعات كتاب «لوسيان» التى توفر على طباعتها له الطابع «سايمون بيفيلاكوا»، والذى حصل على ترخيص امتيازه فى ٣ من مايو ١٤٩٤ وطبع فى ٢٥ من أغسطس فى نفس سنة ١٤٩٤، وكان ذلك الكتاب قد طبع عدة مرات من قبل فى السنة السابقة على الترخيص فى مدن إيطالية أخرى مثل نابلى، بل وفى نفس مدينة فينسيا. وقد ظلت تلك المخالفات تحدث حتى فى القرن السادس عشر مما حدا بمجلس الشيوخ فى المدينة إلى أن يلغى كل التراخيص والامتيازات القائمة والتى لم تطبع كتبها حتى أغسطس ١٥١٧، والتى لم تصدر إلا عن **مجلس المستشارين** وأهم من ذلك قرر مجلس الشيوخ أن أى امتياز طبع لابد وأن يحصل على أغلبية الثلثين على الأقل، ولا تمنح تراخيص الامتياز إلا للأعمال الجديدة فقط.

ولما كانت الكتب التى تطبع فى فينسيا تشاهد وتباع فى كل أنحاء أوربا فقد انتشرت معها فكرة هذه التراخيص فى أماكن مختلفة من أوربا وإن كان ذلك بصورة غير متكافئة أو متوازنة. ولهذا نجد «ك. هابلر» فى كتابه عن «الكتاب» ـ والذى أشرنا إليه مراراً من قبل ـ يقرر أن تراخيص الامتياز كانت تصدر فى فرنسا وأسبانيا وألمانيا خلال القرن الخامس عشر، ولكن للأسف لم يعطنا نماذج أو أمثلة على نحو ما حدث بالنسبة إلى فينسيا. ولكن هيرش يذكر لنا أمثلة من أسبانيا

(1) Vuole Stampare.

(2) Piu non Stampare.

ومن بينها ترخيص الامتياز الممنوح للطابع «ب. هاجنباخ» سنة ١٤٩٨ عن كتاب للمؤلف «جوليانو جوتييريز»[1] باعتباره الترخيص الثانى. وهناك كتاب[2] نشر فى إشبيلية (سيفيل) سنة ١٥٠٠ يتضمن ترخيص امتياز ممنوح من «فرديناند الخامس» و «إيزابيلا» ملك وملكة أسبانيا إلى «جارسيا ديللا تور» و «ألونسو لورينزو» مقابل التعهد أن يبيعا ذلك الكتاب بسعر ١٦ (مارافيدى)[3] فقط.

وفى المناطق الناطقة بالألمانية منح أول ترخيص امتياز - وصلنا خبره ونصه - سنة ١٥٠١م إلى الطابع الإنسى الذى سبق ذكره «كونراد سلتس» عن طبعته من أعمال «هو ريثويزا» من جاندرشايم[4] التى اكتشف مخطوطتها قبل ذلك التاريخ بعام واحد. وطبقاً لما ذكره «أ. س. رينورد»[5] فإن أول ترخيص امتياز فرنسى صدر سنة ١٥٠٧. وكانت هناك حاجة ماسة إلى تلك الامتيازات، وكانت تعطى حاملها مكانة خاصة. ومما يذكر فى هذا الصدد أن «والتر رايف» الطبيب والمؤلف المشهور، والطابع «بالتاسار» - وكلاهما من ستراسبورج - زوّرا تراخيص إمبراطورية فى عدة كتب سنة ١٥٤٠ مما أوقعهما تحت طائلة القانون ومثلا أمام مجلس المدينة.

ولم يقتصر منح تراخيص الامتياز على كتاب بعينه، بل امتدت إلى فئات بعينها من الأعمال مثل «كتب القانون»، «كتب القداس»، كما امتدت إلى «الحرف» المبتكر والإيضاحيات المبتكرة. ففى الخامس والعشرين من فبراير سنة ١٤٩٦ منح ألدوس مانتيوس امتيازاً لمدة خمس وعشرين سنة فى الحرف اليونانى الذى ابتكره على النحو الذى بسطناه تفصيلاً من قبل. ورغم ذلك فقد حصل «بارتولوميوس بيلوسيوس» و «جابرييل براكيوس» و «جوهان بيسولوس» - الذين ربما عملوا لفترة فى مطابع ألدوس - على ترخيص امتياز طباعة بعض الكتب اليونانية،

---

(1) Juliano Gutierrez. Cura dela piedra. - Toledo: P. Hagenbach, 1498.

(2) Capitulos governadores. - Seville: Garcia della Torre and Alonso Lorenzo, 1500.

(3) maravedis.

(4) Hroswitha of Gandersheim.

(5) A. C. Renouard. Traité des droits d' auteur. - Paris, 1838 - 1839.

وحيث ذكر أن الترخيص الأول قد منح لكتاب «رسائل القديس بولس» مع تعليقات وحواشٍ فرنسية وقد توفر على طبعه فى سنة ١٥٠٧م الطابع أنطوان فيرار (ص ١٠٨).

استخدموا فيها نفس حرف ألدوس رغم أنهم فى طلبهم زعموا أن الحرف الذى سيستخدمونه جديد تماما[1]، والمنافسة غير الشريفة واضحة تماماً هنا، ولكن كيف كان للسلطات المانحة للترخيص أن تدرى بذلك؟

ويبدو أن ألدوس قد اتخذ إجراءات قانونية عندهم لأن «بيلوسيوس» و«براكيوس» اختفيا من على مسرح الطباعة بعد ذلك، كما أن «يبسولوس» ترك مدينة فينسيا إلى ميلانو.

وفى سنة ١٤٩٨ تقدم كريتان نيقولاس فلاستوس بطلب ترخيص امتياز فى حرف يونانى جديد مختلف عن حرف ألدوس. وقد قدم هذا الطلب «زاكارياس كاليبرجيس» «بلديات» فيلاستوس لطباعة بعض الكتب اليونانية الجميلة فى فينسيا، وقد انتقل بعد ذلك إلى روما للطبع هناك ما بين ١٥١٥ ـ ١٥٢٣. وفى ٢٣ من مارس ١٥٠١ تقدم ألدوس بطلب امتياز للحرف المائل الجديد الذى صممه له فرنشسكو من بولونيا واستخدمه فى طباعة بعض كتب «فيرجيل» فى تلك السنة. وقد منح هذا الامتياز لمدة عشر سنوات مع منع استيراد أية كتب مطبوعة بهذا الخط إلى داخل محمية فينسيا، وربما كان ذلك إشارة واضحة إلى توقع ألدوس تقليد هذا الحرف واستخدامه فى مناطق أخرى كثيرة خارج فينسيا. وفعلاً حدث ما توقعه؛ فقد زور ذلك الحرف فى عدة كتب مباشرة بعد صدور كتاب فيرجيل مما حدا بألدوس إلى التقدم بشكوى فى أكتوبر سنة ١٥٠٢ يطلب فيها إعادة تأكيد حق امتيازه فى ذلك الحرف. ولتقوية موقفه حصل ألدوس على امتياز آخر من البابا فى روما حول هذا الحرف سنة ١٥٠٢ وتم تأكيده سنة ١٥١٣، ولكن كل ذلك لم يمنع تقليد هذا الحرف واستخدامه لدى الكثير من الطابعين، خاصة وأنه حرف اقتصادى مرن وجد انتشاراً واسعاً بين الإنسيين.

وفى سنة ١٤٩٨ تقدم «ديموكريتو تيراسينا» بطلب ترخيص امتياز طبع باللغات العربية والمراكشية والسوريانية والأرمينية والهندية والبربرية[2] وذلك لمدة خمس وعشرين سنة. ولكن للأسف لم يتم طبع شىء فى هذه اللغات، رغم أن

(1) belissima nova inventione.

(2) in lingua arabica, morescha, Soriana, armenicha, indiana ebarbarescha.

تيراسينا قد حصل على الترخيص وتم تجديده لصالح أولاد أخيه سنة ١٥١٣.

وفى سنة ١٤٩٨ منح الطابع «أوتافيانو بتروتشى» امتيازاً لطبع النوتات الموسيقية بالحروف المتحركة. وفى سنة ١٥٠٠ تقدم تاجر ألمانى اسمه «أنطون كولب» بطلب للحصول على ترخيص امتياز عن صورة طبيعية لمدينة فينسيا مأخوذة من كتلة خشبية. وفى سنة ١٥١٣ تقدم صاحب مسبك حروف واسمه «جاكومو» أو «بخارو» بطلب براءة اختراع عن طريقته الجديدة فى طباعة «الأغانى المصورة»، وقد منح الترخيص «إذا لم يتعارض مع تراخيص منحت سابقاً»، وربما كان ذلك إشارة إلى الامتياز الذى حصل عليه «بتروتشى» من قبل.

وفى سنة ١٥١٤ تقدم الرسام «زوان دى بوركسا» بطلب براءة اختراع عن رسوماته فى كتاب «تاريخ تراجان»[١]. وفى سنة ١٥١٥ تقدم «لودو فيكو آريستو» بطلب امتياز لحماية أعمال من الطبع غير الشرعى وهى وفى حالة فريدة تتضمن أول واقعة لحماية الحقوق الأدبية للمؤلف حيث أن لودوفيكو الذى تقدم بهذا الطلب هو مؤلف وليس طابعاً. وفى سنة ١٥١٦ تقدم «أوجو دى كابرى» بطلب للحصول على امتياز الطبع من كتل خشبية بطريقة التضاد: الوضوح - العتمة[٢]. رغم أن هذه الطريقة كانت موجودة قبل ذلك.

ولعل الحالة الوحيدة التى وصلت إلى علمى لحماية **علامة الطابع** كانت المرسوم الملكى الفرنسى الصادر سنة ١٥٣٩، والذى تضمن تحذيراً للمستهلك من شراء كتاب قليل الجودة نشر تحت علامة طابع مزيفة. ولقد تضمنت تراخيص الامتياز التى أصدرتها حكومة فينسيا بعض عقوبات المخالفة، ولكن ما وصلنا منها لا يجعلنا قادرين على أن نؤسس منها قاعدة عامة.

ويبدو أنه فى منتصف القرن السادس عشر كانت الإجراءات المتعلقة بالطباعة قد جنحت نحو التقنين فى عموم الإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ فالطلبات الخاصة بالحصول على الترخيص يجب أن تقدم إلى سلطة الرايخ[٣] حيث لايملك غير الإمبراطور منحها وتسجل فى سجل الرايخ[٤] وذلك مقابل رسم معين. وكانت فترة سريان الترخيص تتراوح ما بين ثلاث سنوات وثلاثين سنة، والرسم الذى يدفع هو ١٠ جيلدر.

(1) Historia de Trajano.

(2) Stampane chiara e Scura = clair - obseure woodcuts.

(3) Reichshofrat.

(4) Reichsregister.

ويجب ألا نخلط في الواقع بين «الامتياز»[١] و«التصديق»[٢]، فكلاهما استخدم في حماية الطابع والمؤلف، وكلاهما كانت له قيمة دعائية وإعلامية. ولكن في حالة «الامتياز» تأتي المبادرة عادة من قبل الطابع أو الناشر أو المؤلف، بينما في حالة «التصديق» جاءت الفكرة من جانب الكنيسة الكاثوليكية كإجراء وقائي ضد كتب الهراطقة والكتب غير المرغوب فيها. وذلك أن الكنيسة والسلطة العلمانية على السواء بدأتا تتخذان موقفا ضد الكتب المطبوعة منذ العقود الأولى للطباعة والتي تكون مخالفة لميولها ورغباتها. والرقابة لم تكن شيئا جديداً ولا ظاهرة مستحدثة ـ وسوف نتناولها بشيء من التفصيل في فصل تالٍ ـ وهي موجودة منذ العصور القديمة والعصور الوسطى! وعندما نتوغل في دراسة تاريخها سوف نجد أن الغرض منها والأساليب المتبعة فيها والنتائج المترتبة عليها كانت وستظل واحدة ومتشابهة على مر العصور. ولكن كل الذي حدث في العصر الحديث ـ عصر الطباعة ـ هو أن الإنتاج الكبير للكتب المطبوعة قد وسع من مخاطر الدعاية «الشائنة» و«الشنيعة». ذلك أن «الفضيحة» و «تشويه السمعة» و «الهرطقة» تنتشر أكثر وأبعد مع الكتب المطبوعة من الكتب المخطوطة، كما تنتشر مع الصحف والمجلات أكثر مما تنتشر مع الكتب المطبوعة. وهذه الجرائم المكتوبة أوسع انتشاراً وأعمق أكثر من تلك المتواترة شفوياً. ومن المؤكد أن القلاقل السياسية والاجتماعية والدينية التي انتشرت في أوربا في نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، خلقت فرصاً واسعة للديماجوجية والإصلاحيين ولكل الساخطين على السواء. ومن هنا لا نستغرب إذا فرضت السيطرة والرقابة على المطابع بُعيد اختراع الطباعة مباشرة.

ولعل أقدم «تصديق» على الطبع وصلنا لم يكن من فرض السلطة، إنما كان مبادرة من جانب المؤلف نفسه.. فنحن نقرأ في نهاية الكتاب المعادي للسامية «مطارحات ضد افتراءات اليهود»[٣] الذي ألفه اليهودي الصابئ المرتد «بتروس نيجر»

(1) privilegium.

(2) opprabatur.

(3) Petrus Nigerl. (Perer Schwartz). Tractatus Contra perfidos Judeos. - Essilngen: Conrad Fyner, 1475.

(بيتر شفارتس)، والمطبوع فى إيزلنجن على يد «كونراد فاينر»، ١٤٧٩.. نقرأ فى نهاية النص أن هذا الكتاب قد قدم للمراجعة والتصحيح والموافقة عليه من قبل أسقف «ريجنزبرج» لأسباب لا نعرفها. وبعد أربع سنوات فى سنة ١٤٧٩ حدثت أولى الوقائع الرسمية للتصريح بطبع الكتب عندما منح البابا «سكستوس الرابع» هذا الحق فى مرسوم له «تصريح طبع»[1] إلى جامعة كولون مؤرخ فى ١٧ من مارس ١٤٧٩م. (ونصه موجود فى معظم المصادر). وهذا التصريح من جانب البابا إنما يكشف عن أن الرقابة فرضت من جانب السلطة الدينية فى فترة مبكرة من ظهور الطباعة (مجرد ١٥ سنة). وربما تكون السلطة المدنية العلمانية هى الأخرى قد فرضت الرقابة على المطبوعات فى نفس الوقت.

لقد نشر «أوتو زارتسكى دراسة مستفيضة[2] حول أول محاولة للرقابة معروفة لنا فى العصر الحديث، وقد أثبت بما يشبه القطع أن الإجراءات التى اتخذت مع الطابع سنة ١٤٧٨ لإساءته استخدام المطبعة لم تقم بها الجامعة ولم تكن تتعلق بكتاب «الخلاف بين السلطة الدينية والسلطة العسكرية»[3] على النحو الذى قال به «إ. فوليبم» ولكنها كانت محاولة من جانب آباء الكنيسة فى المدينة لمنع صدور كتاب «الخلاف حول السلطة الدينية المطلقة»[4] والذى كان يتعلق أساساً بالصراع بين القوى الدينية والقوى العلمانية فى «ذينن» وهو اسم لمكان وهمى، وهو فى الحقيقة مدينة كولون. ومؤلف هذا الكتاب هو «هنريتش أوردمان»، وهو رجل كنيسة معروف فى كولون. وقد كتب هذا الكتاب للهجوم على مجلس المدينة الذى كان يحاول تخفيض المخصصات العينية الممنوحة لرجال الدين فى مدينة كولون. ومن هذه الواقعة يرى البعض أن أول محاولة بفرض الرقابة جاءت من جانب السلطة المدنية، وكان الدافع إليها هو نزاع اقتصادى أو خلاف سياسى ولم تكن قضية عقيدة أو دين أو لاهوت.

(1) accepimus Literas.

(2) Otto Zaretzky. Der erste kolner Zensus Prozess. - Cologne, 1906.

(3) Dialogus intes Clericum et militem. - 1478.

(4) Heinrich Urdmann. Dialogus super Libertate ecclesiastica. - [Thenen] - Cologne, 1478.

حقاً لقد قامت جامعة كولون مركز الدراسات الأكاديمية فى أرض الراين بوضع الإطار القانونى للرقابة تحت السلطة البابوية ولكنها لم تقم بأية محاولة للرقابة على كتاب بعينه، وهى التى وضعت فى سنة ١٤٨٠ صيغة قانون أو لائحة الرقابة[١].

لقد أورد «ك. هابلر» صيغة تصديق أو تصريح طبع يفترض أنه صدر فى فينسيا سنة ١٤٨٠م ثم تجاوزه مباشرة ـ مثل معظم من كتبوا حول هذا الموضوع ـ إلى مرسوم الرقابة الذى صدر فى ماينز سنة ١٤٨٧م؛ وأغفل حالات رقابة قبل ذلك التاريخ ربما على نفس القدر من الأهمية أو أكثر.

الحالة الثانية للرقابة على المطبوعات هى أيضاً من ألمانيا، وهى التى وقعت فى ماينز ولكن ليس فى ١٤٨٧م كما ذكر هابلر، روش وغيرهما وإنما وقعت ـ فيما يقول هيرش ـ قبل ذلك بعامين سنة ١٤٨٥م. ذلك أنه فى سنة ١٤٨٥م قام «بيرتولد فون هينبرج» كبير أساقفة ماينز وأهم متحدث رسمى لحركة الإصلاح السياسى فى عموم الإمبراطورية بإصدار أول أمر رسمى يشار فيه إلى تجاوزات المطابع وإساءة استخدام الطباعة، وقد تتبع فى هذا الأمر الممارسات السيئة للطابعين المتعطشين للمجد، النهمين للمال. وتحدث ضد نشر الكتب الدينية باللغة الألمانية وضد ترجمة الفقة الدينى (القوانين الشرعية)، وضد استخدام الأسماء السرية الشهيرة (يقصد المستعارة) على الكتابات الوضيعة. وطلب فرض رقابة قبلية على كل الكتب المترجمة من اليونانية أو اللاتينية إلى اللغة المحلية، ورقابة قبل البيع على تلك الكتب التى طبعت بالفعل. وقد عهد بسلطة الرقابة إلى أساتذة الجامعات فى ماينز و ايرفورت، وفى ختام ذلك الأمر قدم تشكيلاً بلجنة للرقابة على معرض فرانكفورت. وكانت عقوبات المخالفة التى قررها هذا الأمر هى: الحرمان من الكنيسة[٢]، مصادرة الكتب المخالفة[٣] وغرامة مالية قدرها مائة جيلدر. وقد أعيد إصدار هذا الأمر بدون تعديلات جوهرية سنة ١٤٨٦ و

---

(1) admissum et approbatum ab alma Coloniensi universitate,

(2) excommunication.

(3) Confiscation.

١٤٨٧ ، والتعديل الجديد فى هذا الأخير هو تعديل لجنة الرقابة التى عهد بها فيه إلى: لاهوتى و قاضٍ وطبيب وأستاذ فى الآداب.

وإذا كان لنا حقيقة أن نعتبر سنة ١٤٨٧ سنة هامة بصفة خاصة فى تاريخ الرقابة فليس ذلك بسبب الأمر المشار إليه (فى إصدارته الثالثة)، ولكن لأنه فى نفس تلك السنة تدخلت البابوية لأول مرة مباشرة ضد نص فى كتاب من كتب الصلاة، وقد عمم أمر البابا وعمل به فى جميع أنحاء العالم المسيحى. وقد أعرب البابا «سكستوس الرابع» كما ذكرنا من قبل عن خطورة الطباعة بالحروف المختصرة فى منشور سنة ١٤٧٩ ومرة أخرى سنة ١٤٨٥ والذى أمر فيه بمصادرة كتاب «بدرو دى جوى»[١] المطبوع فى برشلونة بأسبانيا.

ولقد منع البابا «إنوسنت الثامن» سنة ١٤٨٥ فى منشور له تداول ٩٠٠ كتيب من تأليف «بيكو ديللا ميراندولا»[٢]. وكان هذا الإجراء هو أول إجراء يتخذ مباشرة ضد إنتاج فكرى كامل من تأليف مؤلف واحد فى تاريخ الطباعة؛ بل وكان تمهيداً لظهور «كشاف الكتب الممنوعة من التداول»[٣]، بل وأخطر من هذا فقد أصدر نفس البابا «إنوسنت الثامن» فى نفس سنة ١٤٨٥ قراراً عاماً[٤] يأمر فيه الطابعين بأن يقدموا النصوص التى يريدون طباعتها للسلطات الكنسية للموافقة عليها قبل الطبع وإلا تعرضوا للطرد من رحمة الكنيسة، كما أمر رؤساء المجامع المقدسة[٥] والأساقفة أن يفحصوا الكتب التى تم نشرها بالفعل وأن يدمروا كل الكتب التى يرون أنها كتب هرطقة أو تمثل خطورة من أى نوع. وقام البابا فى هذا القرار بامتداح الطباعة والثناء على هذا الفن، ولكنه أبدى استياءه الشديد من إصدار كتب ضد تعاليم الكنيسة مما قد يتسبب فى وقوع فضيحة عامة[٦] !

ولقد تم إعادة إصدار نفس هذا القرار سنة ١٥٠١م ولكن على يد

---

(1) Pedro De Gui. Janua artis Raimundi Lulli. - Barcelona: Pietro Posa.

(٢) عرف هذا المنشور تحت عنوان: .Etsi ex injuncto

(3) indices Librorum prohibitorum.

(4) Inter multiciples.

(5) Sacrum palatium.

(6) Scandalum generare.

البابا «ألكسندر السادس» ولكنه وجهه لأرشيدوقات كولون وماينز و تيرير و ماجدبرج. ولقد كشفت الدراسات التى أجريت على الرقابة فى فترة ما قبل حركة الإصلاح الدينى فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة عن أنها كانت عنيفة وقاسية. والخلاصة أن انتشار الفكر غير الأرثوذكسى فى الديانة المسيحية كان عملاً خطيراً وتهديداً فى كل مكان. ومن الملاحظ أن قراءة الكتب الدينية باللغات المحلية كانت أكثر انتشاراً فى الشمال عنها فى الجنوب.

لقد كانت القيود المفروضة على الفكر قبل حركة الإصلاح خارج الإمبراطورية الرومانية المقدسة أخف وطأة وأقل حدة وأضيق نطاقاً، وكانت عبارة عن حوادث فردية متفرقة مثلما حدث فى حجب حاشية «ريموندوس لوللوس» فى أسبانيا، أو ذلك القرار الذى أصدره «نيقولاس فرانكو» أسقف تريفيزو والمبعوث الرسولى سنة ١٤٩١م والذى يجرم أى شخص يطبع أو يتسبب فى طبع كتب تعالج العقيدة الكاثوليكية أو أى موضوع لاهوتى (إلا الموضوعات العامة فى التكريس والعبادة) دون أخذ موافقة صريحة من الأسقف أو القسيس العام فى مدينته.

ولعل أعنف قرار بابوى رقابى يرجع قبل حركة الإصلاح هو ذلك الذى أصدره البابا «ليو العاشر» عقب جلسة الرابع من مايو سنة ١٥١٥ لمجلس اللاتيران(١)، وربما يكون قد تسبب فى إصدار هذا القرار النزاع والخلاف مع «ريشلين»، ولو أنه لم يوجه ضد منطقة بعينها أو مدينة بالذات.

لقد طالب البابا «ليو العاشر» بتطبيق الرقابة على جميع الترجمات التى تتم من العبرية واليونانية والعربية والكلدانية إلى اللغة اللاتينية، ومن اللاتينية إلى اللغات المحلية. على أن تطبق هذه التعليمات بقوة على يد الأساقفة أو مندوبيهم أو «لجان التحقيق الخاصة ضد الهرطقة»(٢). وقد ختم هذا القرار بأن الطابعين يقدمون للقراء كتباً «لا تفشل فقط فى تصحيح عقيدتهم بل تزعزع إيمانهم وتشيع فيه الأخطاء كما تشيعها فى الحياة اليومية والأخلاقية». وقد رأى البابا خطراً داهماً لأن «الشيطان يستفحل يوماً بعد يوم» كما وقع بالفعل، بحيث

(١) جاء هذا القرار تحت عنوان : Inter Solicitudines

(2) inquisitores haereticae pravitatis.

لم تأت سنة ١٥١٥م إلا وكانت قراءة الكتب «الخطرة» قد بلغت حدا خطيراً ـ من وجهة نظر الكنيسة القائمة ـ هدد بالفعل العقيدة الأرثوذكسية.

إننا يمكن أن نقارن الرقابة قبل الإصلاح بما كانت عليه فى خلال فترة الإصلاح نفسها، ولولا الطباعة واتساع رقعة القراءة لما كانت هناك ضرورة أصلاً للرقابة. وأكثر من هذا أنه لولا انتشار الطباعة لربما فشلت ثورة «مارتن لوثر» الإصلاحية أساساً.

والحقيقة أننا لا نعرف عدد الكتب التى خطط لإصدارها ومنعتها الرقابة، كما لا نعرف كم عدد الكتب التى صدرت ولكن لم تصل إلينا بسبب المصادرة. ويعتقد كثير من الباحثين أن الغالبية العظمى من كتابات لوثر والكالفينيين والزونجيليين التى صدرت بشأنها العديد من القرارات والقواعد، نجحت فى الوصول إلينا، ذلك أنها كانت تصدر بكميات كبيرة من النسخ كما رأينا فى فصل سابق، كما كان يعاد نشرها وطبعها مرات عديدة للحاجة إليها، ولو نجحت السلطة فى مصادرة طبعة بأكملها فثمة فرصة فى طبعة أخرى. أما الفقدان الكامل فإنه كان وارداً بين أعمال من عرفوا أو أطلق عليهم «اليسار»، أى كتابات الإصلاحيين الثوريين، وقد كانوا مكروهين على السواء من جانب النظام الكاثوليكى، ومن جانب زملائهم الإصلاحيين المعتدلين أو المحافظين.

ومن المؤكد أن الرقابة قد عوقت انتشار الفكر هنا وهناك، وفى نفس الوقت فإنها لم تنجح فى القضاء تماماً على أى فكر. ربما تكون الرقابة فى القرن السادس عشر قد ساعدت فى تحجيم الأفكار المناوئة ووضعها داخل حدود منطقتها وعدم انتشارها خارجه. فقد حدت ـ أو منعت ـ نشر الفكر البروتستانتى فى المناطق الكاثوليكية، وحدت أو منعت توزيع المطبوعات الكاثوليكية كذلك فى المناطق البروتستانتينية، وهكذا قوت الرقابة ـ أو قل عملت ـ على تقوية الحواجز ضد انسياب الأفكار المطبوعة، ولكنها لم تحل أبداً بين انتشار الأفكار عن طريق المشافهة والتواتر عبر الحدود البعيدة.

لقد كان أول إجراء رسمى تتخذه الكنيسة الكاثوليكية ضد تعاليم «مارتن لوثر» هو ما ورد فى قرار البابا «ليو العاشر»[١] الصادر فى الخامس عشر من يونيو سنة ١٥٢٠. ولقد طبق هذا القرار ببطء، أبطأ مما لجأت إليه السلطات المحلية، ذلك أن السلطات اللاهوتية فى كولون ولوفان توقعت إدانة رسمية لكتابات لوثر سنة ١٥١٩م، كما أن الجماعات الدينية فى جامعة فيينا قد رفضت كتابه عن الهرطقة[٢] فى أبريل سنة ١٥٢٠م، أى قبل شهرين من صدور قرار البابا. ومع صدور قرار البابا أصبح هناك نموذج يحتذى، ومن ثم صدرت قرارات وتعليمات ضد كتابات البروتستانت فى كل عموم الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وفى فرنسا وأسبانيا وإنجلترا وفى معظم أنحاء العالم المسيحى.

ولعل أعنف أول تشريع علمانى ضد كتابات الثورة هو مايسمى «قانون الطباعة»[٣]. هذا القانون أصدره «شارل الخامس» واتخذ فيه خطاً متشدداً يتمشى مع نفس خط البابا، ودون أية محاولة لحلول وسط مع لوثر وأتباعه. وقد شكت «ف. كاب» فى أن يكون هذا القانون جزءا من خطة يستعدى بها «شارل الخامس» البابا ويطلب منه التعاون أو التحالف معه ضد «فرنسيس الأول» ملك فرنسا، حيث أن الهدف واضح تماماً من وراء هذا القانون الصارم. فقد حرم بيع وقراءة وحيازة ونسخ أو طبع ووعظ وحماية كتابات لوثر. كما نص هذا القانون على حرق كتب لوثر وإعلاناته العريضة والإيضاحيات والصور التى صدرت أو التى تصدر سواء عن طريق خط اليد أو الطباعة أو الرسم فى أى مكان فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة وممتلكات آل هابسبرج. وتهدد هذا القانون بالعقاب كل من يحاول معاضدة حركة الإصلاح: من الكتاب أو النساخ أو الطابعين أو الرسامين أو البائعين أو المشترين. وقد تجاوزت الرقابة مجرد كتابات لوثر وأتباعه إلى مراقبة كل الكتب فى جميع المجالات[٤] ومن المؤكد أن هذا القرار الإمبراطورى

(1) Leo x. Exsurg domine.

(2) Martin Luther. pravitas haeretica.

(3) Gesetz der Druckerei Der römichen Kaiserlichen Majestat Edickt wider Martin Luthers Bücher Und Lehre, seine Anhänger, Enthalter und Nachfolger und etliche andere schmähliche Schriften. Auch Gesetz der Druckerei.

(4) andere Bücher, auf welchen Gebieten sie auch sein mögen.

قد طبق بكل حزم وعنف استناداً إلى نفوذ «شارل الخامس» وسطوته وموقف السلطات من لوثر والإصلاحيين الآخرين. ولقد فتح هذا القانون أبواباً أخرى لسلطات علمانية فى مناطق أخرى لإصدار قرارات ومراسيم للرقابة على المطبوعات.

لقد قام البيبليوجرافى البريطانى العظيم «أ. و. بولارد» بدراسة الرقابة على المطبوعات الباكرة فى بريطانيا بشىء من التفصيل، ونشر جانباً كبيراً من أوامر الرقابة وقوانينها فى القرن السادس عشر الإنجليزى[1]. وتلقى دراسة هذه الوثائق الضوء على جوانب هامة لم تكن معروفة لنا عن نظام الرقابة فى إنجلترا، كما تكشف عن تحالف كثير من القوى العلمانية والقوى الدينية الكنسية على قهر الحركة البروتستانتنية فى جميع أنحاء أوربا، كما تكشف عن أن السلطات المدنية عملت فى هذا الاتجاه فى تناغم تام مع - بل ونيابة عن - رجال الدين. ومن الواضح أن السلطات المدنية قد مارست الرقابة على المطبوعات منذ فترة مبكرة، وأحكمت هذا العمل ربما أكثر مما كان عليه الحال فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وقد وضعت السلطان الإنجليزية منذ منتصف العشرينات فى القرن السادس عشر عملية الرقابة البعدية فى يد عمدة المدينة. وكان الهدف من وراء ذلك إلقاء المسئولية كاملة على كاهل الطابعين والناشرين الذين كان يجب عليهم أن يعرفوا ما هو مسموح بطبعه وما هو غير مسموح. ومع حلول سنة ١٥٢٠م - أى قبل نشوب الصراع النهائى والقطيعة بين «هنرى الثامن» وبابا روما صدرت جميع أوامر الرقابة وقراراتها عن - أو نيابة عن - الملك. لقد كانت إنجلترا مبكرة فى إعداد وإصدار قوائم بالمطبوعات الممنوع تداولها. ويذكر بولارد أن أول كشاف بالكتب المحظورة صدر سنة ١٥٢٩، بينما يذكر روش أن هناك قائمة صدرت سنة ١٥٢٦ فى إنجلترا تتضمن حظر تداول كتب من تأليف لوثر وهوس وزونجلى وبرنز؛ وقد توفر روش على حصر عشرة كشافات إنجليزية بالكتب المحظورة. وكان آخر هذه الكشافات قد صدر سنة ١٥٥٤ ويضم خمسة وثمانين عنواناً.

(1) A. W. Pollard. "Regulations of the book trade in the 16th Century". The Library Ser.3, VII, 1916.

ومن المعروف أن الكتب البروتستانتنية كانت تستورد من الخارج إلى إنجلترا فى بادئ الأمر قبل أن تطبع فى داخل البلاد. وطالما أن الطابعين فى القارة الأم كانوا يطبعون كتباً لتسويقها فى السوق البريطانية فترة طويلة من الزمن قبل ازدهار الطباعة فى إنجلترا؛ فقد كان من الطبيعى أن تدخل كتب البروتستانت إلى تلك السوق عبر القنوات الشرعية لتجارة الكتب.

وكما أسلفت القول كان نشر الكتب اللاهوتية باللغات المحلية غير مرضى عنه من الكنيسة فى بلاد كثيرة. ذلك «أن بعض الجهلة وأنصاف المتعلمين قد جرأوا على ترجمة الكتب العلمية بلغة ألمانية سوقية وغير سليمة، وقد تسببوا بتصرفهم هذا فى الفهم الخاطئ لتلك المعلومات» كما أشار إلى ذلك كبير أساقفة ماينز سنة ١٤٨٥. ونفس هذا الشعور فى ماينز دفع رجال الكنيسة فى العديد من المناطق إلى وقوف نفس الموقف من الترجمة إلى اللغات المحلية. ولقد كان هناك موقف رافض من جانب الكنيسة ورجال الدين لترجمة الكتاب المقدس من اللغة اللاتينية أو اللغة اليونانية إلى اللغة المحلية فى كثير من الدول، وكان هذا الموقف أشد ما يكون فى إنجلترا. ومن المعروف أن ترجمة «وايكليف» للكتاب المقدس[1] إلى اللغة الإنجليزية ـ والتى تمت فى ثمانينات القرن الرابع عشر ـ قد ووجهت باعتراض شديد من قبل السلطات الدينية هناك وأثارت الرأى العام لفترة طويلة، مما حدا ١٤٠٨م برجال كنيسة كانتربرى أن يعلنوا بوضوح أنه «لن يترجم أحد الكتاب المقدس أو أجزاء منه مستقبلاً على مسئوليته الخاصة إلى اللغة الإنجليزية» ولذلك فإنه عندما طلب «ويليام تاينديل» الإذن بترجمة الكتاب المقدس رفض أسقف لندن «تونستول» هذا الطلب بشدة. ولذلك غادر تايندل الجزر البريطانية ليترجم الكتاب المقدس هناك فى ألمانيا. وطبع العهد الجديد بالإنجليزية بدون بيانات طبع سنة ١٥٢٥م (ربما فى كولون). وقد ذكرنا فى موضع آخر من هذا البحث التتابع الزمنى لترجمات الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية ونعيد هنا ذكر هذا السياق مرة أخرى:

---

(1) Wyclif. Translation of the Bible.- 1380's.

اللغة	السنة	الحالـــة
الألمانية العليا	١٤٦٦	كل الكتاب المقدس.
الإيطالية	١٤٧١	كل الكتاب المقدس.
التشيكية	١٤٧٥	العهد الجديد فقط.
الهولندية	١٤٧٧	جزء من العهد القديم فقط.
الكاتالانية	١٤٧٨	كل الكتاب المقدس.
التشيكية	١٤٨٨	كل الكتاب المقدس.
الفرنسية	١٤٩٨	كل الكتاب المقدس (ولكن فى شكل مختصر مبسط).
الهولندية	١٥١٢	جزء من العهد الجديد فقط.
الهولندية	١٥٢٢	العهد الجديد فقط.
الفرنسية	١٥٢٣	العهد الجديد كاملاً.
الدنمركية	١٥٢٤	العهد الجديد فقط.
الإنجليزية	١٥٢٥	العهد الجديد فقط.
الهولندية	١٥٢٦	كل الكتاب المقدس.
السويدية	١٥٢٦	العهد الجديد فقط.
الفرنسية	١٥٣٠	كل الكتاب المقدس.
الإنجليزية	١٥٣٥	كل الكتاب المقدس.
الدنمركية	١٥٣٥	العهد القديم فقط.
المجرية	١٥٣٦	العهد الجديد فقط.
الأيسلندية	١٥٤٠	العهد الجديد فقط.
السويدية	١٥٤٠-١٥٤١	كل الكتاب المقدس.
الفنلندية	١٥٤٨	العهد الجديد فقط.
الدنمركية	١٥٥٠	كل الكتاب المقدس
البولندية	١٥٥٢	العهد الجديد فقط.

هذا، ولقد انتشرت مستخرجات وقصص الكتاب المقدس فى كل مكان وأقبل الناس عليها، وربما لم تجد الكنيسة ضرراً فى ذلك فلم تحارب ولم تشجب ذلك الاتجاه، إنما كان ما يؤرقها هو شروح وتفاسير الكتاب المقدس كله، أو العهد الجديد على حدة، والتى كان يقوم بها أشخاص غير أكفاء، ولذلك حرصت على محاربة تلك التفاسير، وإصدار شروح وتفاسير معتمدة يقوم بها اللاهوتيون الأكفاء، ولكنها لم تتح إلا التفاسير المكتوبة باللاتينية. ولذلك نشط الطابعون والمترجمون إلى نشر ترجمات باللغة المحلية فى طبعات متلاحقة، مما يكشف عن وجود حاجة ماسة إليها لأن الجموع لم تكن قادرة على قراءة الكتاب المقدس وتفاسيره باللغة اللاتينية أو اليونانية.

ومن المعروف أن الكتاب المقدس باللغات العامية السوقية كان موجوداً فى عصر المخطوطات بلغات مختلفة وفى مناطق متعددة من أوربا، ولكنه على أية حال لم يكن واسع التداول والانتشار؛ وعلى سبيل المثال فقط كان هناك كتاب مقدس باللغة الفرنسية منذ القرن الثالث عشر ومع ذلك؛ فكما رأينا من العرض السابق للترجمات أن ترجمة الكتاب المقدس إلى الفرنسية فى عصر الطباعة سارت ببطء شديد، وربما يرجع ذلك إلى سلطة جامعة السوربون التى وقفت طويلاً ضد هذه الترجمة.

ومن الغريب حقيقة أن الطابعين فى القارة الأوربية لم يبادروا فى وقت مبكر بطبع ترجمة وايكليف سابقة الذكر وتصديرها إلى الجزر البريطانية، ضمن ما كانوا يطبعونه من كتب للسوق البريطانية؛ خاصة وأن «إ.ج. دوف» قد أعد قوائم بالكتب الإنجليزية(1) التى طبع بعضها فى القارة الأوربية للسوق البريطانية فى القرن الخامس عشر وقد بلغ عددها ٤٣١ كتاباً؛ ومن بين تلك الكتب ٦٩ كتاباً (١٦٪) طبعت فى القارة وليس من بينها كتب فى اللاهوت على الإطلاق، وأربعة منها فقط باللغة الإنجليزية. ويفهم من ذلك أن التاج البريطانى لم يكن ليأبه فى ذلك الوقت المبكر من حياة الطباعة باستيراد الكتاب من القارة إلى داخل الجزر، وذلك لأن طبع الكتب باللغات المحلية كان تحت السيطرة وخاصة الكتب

(1) E. G. Duff. Fifteenth - Century English Book .- London, 1917.

الدينية؛ وأن الاستيراد كان يتم للكتب الدينية العامة والكتب القانونية والكتب الكلاسيكية وكتب الإنسيين، والكتب العلمية أو شبه العلمية باللغة اللاتينية. ويبدو أن التاج البريطاني كان يرحب باستيراد الكتب من الخارج على النحو الذى نستنتجه من القرار الملكى بالحد من الاستيراد من الخارج إلى داخل إنجلترا «فيما عدا الكتب»، ذلك القرار الذى صدر سنة ١٤٨٤.

ومما يدل على ذلك أيضاً ما ذكره «هـ. س. بنيت»[١] من أن «بيتر أكتور»، رخص له فى ١٤٨٥م أن يستورد من الكتب ماشاء فى أى وقت دون دفع أى رسوم استيراد أو جمارك. بيد أن هذه التسهيلات لم تكن لتدوم طويلاً؛ ذلك أنه فى فترة مبكرة من الصراع الدينى تغير الاتجاه جذرياً، حيث بدأ كثير من الناس يتعاطفون مع تعاليم لوثر ويميلون إلى ترجمة الكتاب المقدس، وبدأت تنشر كتابات مؤيدة لحركة الإصلاح باللغة الإنجليزية فى أوربا ثم تستورد أو تهرب إلى داخل الجزر البريطانية.

لقد انتشرت عدوى حركة الإصلاح إلى الطابعين أنفسهم الذين أخذوا بالفعل ينشرون الكتب المؤيدة لها والمدافعة عنها والتى تتبنى وجهات نظرها، وهو نشاط كبير لهم، وإن لم يعتنقوه فقد ملأ جيوبهم بالمال. ومع حلول سنة ١٥٣٠م بدأ بالفعل منع استيراد فئات بأكملها من الكتب إلى داخل إنجلترا باللغة الإنجليزية، ولم يكن ذلك بقصد حماية الطباعة والنشر داخل إنجلترا وإن خدمها بطريقة غير مقصودة. ولكن رغم كل الأوامر والقرارات استمرت طباعة الكتب بالإنجليزية فى مدن أوربية مختلفة من بينها أنتويرب، روون، ماربورج وغيرها، وكانت تدخل إلى إنجلترا بكميات كبيرة.

ولقد أصدر «هنرى الثامن» قراراً غريباً سنة ١٥٤٣ بعنوان «قرار تطوير الدين الحق»[٢] حدد فيه قراءة الكتاب المقدس بأسلوب فريد من نوعه، فقد حرم هنرى الثامن قراءة الكتاب المقدس على فئات بعينها من الناس: «النساء، الصناع الحرفيون، الصبية الأشراق، الباعة الجائلون، الخدم من الفئات الدنيا -husband

---

(1) H. S. Bennett. English Books and readers : 1475-1557.- Cambridge, 1957.

(2) Act of advancement of true religion, 1543.

men, yeaoman والعمال». وقد أعطى هذا القرار اهتماماً بالغاً لانتشار الأفكار الهرطقية؛ ليس فقط بين الطبقات العليا من الذكور ولكن أيضاً من النساء، كما شجب انتشارها بين الطبقات الدنيا من النساء والذكور ممن وصفهم بأشباه المتعلمين، مما يؤكد على أن القراءة كانت منتشرة على نطاق واسع بين كل طبقات المجتمع الإنجليزى.

وإذا اتجهنا صوب فرنسا فسوف نجد أن الرقابة كانت فى يد الملك على أوسع نطاق، وقد اتخذ من أعضاء هيئة التدريس فى جامعة السوربون مستشارين له ونصحاء فى هذا الصدد؛ وحيث نص أول أمر ملكى مؤرخ فى ١٥٢١ على ألا يقوم الطابعون هناك بإنتاج أية كتب دينية باللاتينية أو الفرنسية قبل عرضها على أعضاء هيئة التدريس اللاهوتيين فى الجامعة، وفى نفس السنة صدر قرار آخر بتهديد أى طابع يطبع كتباً تدافع عن لوثر أو تعاليمه أو أى كتب تدافع عن الهرطقة أو تتسبب فى فضائح عامة[١]، بغرامة قدرها ٥٠٠ جنيه فرنسى. ورغم هذا الخطر فقد كانت كتب لوثر تقرأ على نطاق واسع فى فرنسا كما كانت تقرأ فى كل مكان على نحو ما كتبه «غليوم بريكونيت» فى رسالته إلى المؤمنين فى مو سنة ١٥٢٣ حيث قال: «لقد ملئ العالم كله تقريباً بكتبه (أى لوثر)، والناس كلهم القاصى والدانى متأثرين بحيوية أسلوبه». وقد حذر بريكونيت من شراء، وقراءة، وحيازة، وتوزيع أو الموافقة على طباعة أو تصديق أو وصل كتب مارتين المزعوم. لقد سجل لنا «ب. ديبونت»[٢] فى كتابه عن تاريخ المطبعة الفرنسية واحداً من أقسى الإجراءات فى تاريخ الرقابة على الإطلاق حين اقترح أعضاء هيئة التدريس اللاهوتيين على «فرانسوا الأول» (فرنسيس الأول) فى السابع من يوليو سنة ١٥٣٣م إصدار قرار بالرقابة العنيفة على المطابع حماية للدين[٣]. والمفروض أن «جان دى بلليى» و«غليوم بيديه» قد حالا دون تنفيذ هذا الاقتراح. وقد بذلت مجهودات أخرى لتنفيذ هذا الاقتراح بعد وقوع عدة أحداث

(1) Libros Lubricos in perditionem juvenum ac perturbaticos totius ordinis hierarchiae, ecclesiae scandalosos.

(2) P. Dupont. Histoire de L'imprimerie.- Paris, 1854.

(3) "Pour sauver La religion... il est indispensable d'abolir pour toujours en france par un édit severe, L'art de L'imprimerie".

خلقت المناخ الملائم لذلك، ومن ثم فقد أرسل الملك فى الثالث عشر من يناير ١٥٣٤م مذكرة إلى البرلمان[1] بفرض الرقابة الصارمة على المطابع، وقد وافق عليها البرلمان بعد كثير من التعديلات. وقد نشر ديبونت نص هذا المرسوم الذى استخرجه من مضبطة البرلمان المؤرخة فى يوم الجمعة التاسع والعشرين من فبراير سنة ١٥٣٤[2]. وكان اقتراح كلية اللاهوت فى جامعة السوربون يكشف عن قوة الأرثوذكس والشعور العدائى لحركة الإصلاح فى حرم أول جامعة فى كل أوربا، كما يكشف هذا الاقتراح عن الافتقار إلى الواقعية، إذ كيف لأعضاء هيئة التدريس فى كلية محترمة أن يسيئوا التقدير كلية للنجاح المحتوم للطباعة وانتشار الميل نحو القراءة؟

وكان الوقت متأخراً تماماً لوقف تقدم الطباعة وزحفها قدماً إلى الأمام، وإن صح فعلاً هذا الاقتراح فإنه يكون قد صدر عن أشخاص لا إحساس عندهم. ويبدو أن المسألة فعلاً كانت مسألة كلمات لامسألة أفعال، والمعركة معركة خطب وقرارات فقط لأن الرقابة الكلية والعنيفة لم تفرض فى فرنسا بسبب التناقضات بين الملك والبرلمان والسوربون والتى دامت حتى ١٥٤٢ على الأقل.

وفى سنة ١٥٤٣م بدأ التطبيق العنيف، حيث سجن «بيير سولان» لا لذنب ولا لجريمة إلا أنه قام بتجليد كتاب هرطقة. وبعد عام واحد كانت تعاليم «كالفن»[3] و ١٤ كتاباً من طبع «إيتين دوليه» قد أحرقت علناً فى ميدان عام. وكان من بين كتب دوليه التى أحرقت هكذا كتاب من تأليف «لوفيفر ديتابل» وآخر من تأليف إراسموس والعهد الجديد بالفرنسية. وفى سنة ١٥٤٤ صدر كشاف بخمسة وستين كتاباً محظوراً وقد أعيد نشره مرة أخرى كجزء من قرار ملكى فى الثامن والعشرين من يونية سنة ١٥٤٥م وعليه إضافات سنة ١٥٤٧م. وقد أشار القرار الملكى إلى خطاب[4] موقع من ٤٨ كتبياً (وراق ـ بائع كتب)[5]

(1) que nul n'eust dés lors ena vant à imprimer ou faire imprimer aulcuns livres en nostre royaulme sur peine de la hart.

(2) Extrait du registre au conseil du Parlement de Paris, Du vendredy XXXvje fèvrier MVcXXXIII.

(3) Calvin. Institutiones.

(4) humblement.

(5) Libraires jurés.

زعموا فيه ـ ربما ببراءة – أن الطابعين لايعرفون حتى محتويات الكتب التى يطبعونها، واستشهد هؤلاء الكتبيون بالعديد من العناوين، وضعت جميعها فى الكشاف وكانت متداولة لفترة طويلة.

وفى نفس سنة ١٥٤٢ تعرض «فرانسوا استيين» ـ وهو بائع كتب معتمد ـ لتفتيش مخازنه تحت طائلة السجن[1]. وفى سنة ١٥٤٦ تعرض طابع مغمور اسمه «أنطوان لو سوت» لعقوبة الشنق والحرق والخنق. إن هذه القصص الحزينة بلغت ذروتها بإعدام «دوليه» سابق الذكر سنة ١٥٥٦؛ وكذلك أيضاً فى ذبح «سانت بارتولوميو». وعلى عكس القانون المضاد للإصلاح فى إنجلترا وفرنسا، كان القانون الأسبانى مباشراً وصريحاً ويعكس قوة الكنيسة الكاثوليكية، ومنع صدور كثير من الكتب مما أدى إلى معاناة حقيقية فى نشر الكتب البحثية فى أسبانيا. وكان التشريع الإيطالى يتفاوت من مدينة إلى مدينة. ويبدو أن تطبيق المرسوم البابوى لم يكن صارماً وحاسماً خارج مناطق حكم البابوية. وكما أسلفت صدر أول كشاف بابوى بالكتب المحظورة سنة ١٥٥٩م.

إن الأمثلة التى سقناها سابقاً عن الرقابة الدينية قد توحى بأن الرقابة الدينية كانت قاصرة على الكنيسة الكاثوليكية وأن كشافات الكتب المحظورة نبعت من تلك الكنيسة ومن جانب الكاثوليكيين فقط، ولكن الحقيقة أن البروتستانت أيضاً مارسوا الرقابة، وإن اتخذت رقابتهم طريقاً مختلفاً، ففى بداية حركة الإصلاح كان أنجح سلاح وأمضى سلاح لدى البروتستانت ضد هذه الحركة هو السخرية والتهكم والهجاء. وحيثما وطأت حركة الإصلاح أرضاً كان البروتستانت ينشرون ضدهم كتيبات ساخرة متهكمة. وكان الطابعون فى كل مكان يفضلون طباعة كتب البروتستانت الجدلية لأسباب اقتصادية وإن لم تكن أيديولوجية. ومن هذه الزاوية لم يكن هناك مبرر من جانب البروتستانت لقهر فكر حركة الإصلاح فى تلك الفترة. ولم تبدأ رقابة البروتستانت حقيقة إلا بعد أن دب الخلاف بين الإصلاحيين أنفسهم وخاصة بين الجناح الأصولى والجناح المحافظ. ويقول

(1) Sous Peine de prison.

روش: إن رقابة البروتستانت على الفكر كانت أفضل من رقابة الكاثوليك، ذلك لأن البروتستانت كانوا يفتقرون إلى التنظيم الموحد الذى كانت عليه الكنيسة القائمة (الكاثوليكية) ولجنة التحقيق والتقصى الخاصة بالهرطقة[1] وسلاح الحرمان من الكنيسة أو ما هو أسوأ، والذى سهل مهمة الكنيسة الكاثوليكية فى ممارسة القهر. ومن الطريف أن مارتين لوثر ـ الذى كانت له خبرة سابقة بالرقابة وحاربها ـ كان هو نفسه الذى طلب من دوق ساكسونيا سنة ١٥٢٥م أن يحظر كتابات «كارلشتادت»، وكان هو نفسه المسئول عن إغلاق مطبعة جماعة «إخوان الحياة العامة» فى روستوك سنة ١٥٣٠. كما أدت رقابة حركة الكالفينيين إلى حرق مايكل سيرفتوس فى جنيف سنة ١٥٥٣.

ولم يكن هناك مجال للرقابة الأخلاقية، فقد اختلطت الأخلاق بالدين وامتزجت فيه وتلاحمت معه وأصبحا شيئاً واحداً لا يمكن فصلهما من الناحية النظرية والناحية العملية. وحتى فى الحالات الرقابية التى كانت تثيرها المدينة ضد الشعر الخليع أو المسرحيات المبتذلة فإنها كانت تثيرها من وجهة نظر دينية بحتة وليست من وجهة النظر الأخلاقية. وكون التشريع ضد الكتب الداعرة جاء جزءاً من تشريعات مجلس ترنت[2] فإن ذلك يؤكد الغلاقة بين الدين والأخلاق.

لقد كانت الرقابة فى مسائل العقيدة لاهوادة فيها، وكانت هى أساس فرض الرقابة.. وعلى الرغم من أن أول محاولة رقابة ـ كما أسلفت ـ جاءت من قبل السلطة المدنية وكانت حول نزاع وخلاف اقتصادى، إلا أنها كانت محاولة فردية وحالة خاصة. لقد كانت أغلب ممارسات وتشريعات الرقابة هى فى الأصل دينية بحتة بدأتها الكنيسة الكاثوليكية ضد كل من اختلف معها فى الرأى. أما الرقابة التى مارستها السلطات المدنية فقد كانت شيئاً مختلفاً إلا فى الحالات التى كانت تمارسها نيابة عن الكنيسة. ذلك أن الحالات المختلفة التى مورست فى العصور الوسطى جاءت أساساً ضد السخرية المريرة والمنشورات المعادية للسلطة، وكانت

(1) inquisitores haereticae pravitatis.

(2) Council of Trent.

تلقائية. . وحسب كل حالة على حدة. ولم تكن لتقوم على قانون أو تشريع وممارسة راسخة وأقصى ماكان هناك من إجراء هو المصادرة. وكما لاحظ «و. باور»[1] لم تكن السلطة السياسية مجهزة أو منظمة لمقاومة المطبوعات المفاجئة التى تحمل أفكاراً خطرة.

لقد اتبعت الرقابة السياسية فى العقود الأولى للطباعة نفس الأساليب التى كانت متبعة فى الفترة السابقة على الطباعة، وكانت أقرب للإجراءات التعسفية منها إلى الأساليب المقننة المنظمة، كذلك الإجراء الذى اتخذه «فردريك الثالث» ملك ألمانيا عندما وجه طلباً إلى قضاة ستراسبورج بمصادرة أى مطبوع غير مسمى (ليس عليه اسم مؤلفه) أو بيانات (الطبع) وسحبه من التداول إذا كان فيه مايسىء إلى الدولة أو ينطوى على معلومات غير لائقة.

وفى سنة ١٤٩٤ كان على «هانز سبورر» أن يترك مدينة بامبرج بعد أن طبع قصيدة هجاء ضد الدوق «ألبرخت» دوق ساكسونيا. وفى سنة ١٥١٠ ضغط الإمبراطور «ماكسميليان الأول» على طابعى أوجزبرج من خلال «كونراد بيتنجر» لعدم طبع كتاب «حوليات شفتزر»[2]. هذه الحالات وغيرها كان مجرد إجراءات ضغط فردية من أشخاص لهم سلطة ونفوذ، ولم تؤسس سوابق وحالات عامة تنبع من سياسة أو قانون ثابت على نحو ما صدفناه فى الرقابة الدينية.

ولكن يبدو أن أول قرار اتخذته مدينة بشأن الرقابة ومن ثم كانت أول حالة تقنين، هو ذلك القرار الذى اتخذ فى مدينة ستراسبورج. فقد نشر روش وثيقة صادرة عن مجلس مدينة ستراسبورج سنة ١٥٠٤ تحظر نشر أى كتاب موجه ضد البابا أو الإمبراطور أو الأمراء أو الذوق العام. وفى سنة ١٥٠٧م نصادف ثانى قرار فى هذا الصدد، وهو الذى أصدرته مدينة فلورنسا بمراقبة المطبوعات.

وفى ألمانيا كان للانقلاب الاجتماعى الذى أعقب حركة الإصلاح الدينى أثره فى فرض الرقابة على المطبوعات ووضع ضوابط وسياسات لها، وتسبب فى التحول الشديد من سياسة «دعه يعمل» إلى سياسة وضع تعليمات صارمة للطباعة، وإن لم تنفذ

(1) W. Bauer. Die offentliche Meinung.- Tübingen. 1914.
(2) Schweitzer. Cronica.

فعلاً إلا اعتباراً من نهاية القرن السادس عشر. وعلى الرغم من أن قانون الرايخ[1] لسنة ١٥٢٤م قرر بصفة عامة حظر كل الكتابات الثورية المناهضة[2]، إلا أنه كان موجهاً بالدرجة الأولى ضد مارتين لوثر وكتابات جميع الأحزاب الإصلاحية، ويصدق نفس هذا الكلام على القرارات والمنشورات التى تلت ذلك القانون.

وفى الحقيقة لا نجد فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر حالات مما نسميه اليوم فى زماننا «الرقابة على المصنفات الفنية» أى محاولة السيطرة على الإبداعات الفنية. ويبدو أن الحالة الوحيدة التى حدثت فى إنجلترا لاتؤسس قاعدة عامة حتى هناك، فقد صدر القرار الإنجليزى لسنة ١٥٤٦م بفرض «الرقابة على الكتب الفنية والباليه والمسرحيات الإنجليزية»[3] مما اعتبره الخبراء تدخلاً من جانب السلطة المدنية فى الكتابات الإبداعية. وكان المؤلفون فى وقت من الأوقات يطلبون من الحكومات السيطرة على الناقدين لهم، وربما كان هذا هو السبب الذى حدا بمجلس مدينة ستراسبورج إلى حظر كتاب «مورنر» المسمى «ألمانيا»[4] الذى جاء هجوماً عنيفاً وحاداً على كتاب لـ «ويمفيلنج» بنفس العنوان سنة ١٥٠٢. وقد شكا إراسموس لقضاة نفس المدينة من هجوم «هوتن» و «برونفيلز» ولم يهدأ له بال حتى مثل هذان الشخصان أمام القضاة. وكان الهجوم قد تم على كتابيه: الرسائل ١٤٧٧، ١٤٨١. ومثل هذه الحالات ربما لا تدخل فى عداد الرقابة إلا من بعد.

ولدينا دراسة رائعة ترجع إلى القرن الثامن عشر عن الكتب التى أهلكت مؤلفيها وكانت قاتلة لهم، ولكن ليس لدينا مثل هذه الدراسة عن الكتب التى أهلكت طابعيها أو ناشريها.

لقد كانت مصادرة الكتب عملية قاتلة بالنسبة للطابع أو الناشر يمكن أن تخرجه من السوق، وهو مصير أسوأ من مصير المؤلف، وفى كثير من الأحيان ـ كما رأينا من الأمثلة القليلة التى تحت أيدينا ـ كان الناشرون والطابعون الذين لايتعاونون مع السلطة - الدينية أو المدنية - يتعرضون للغرامة أو السجن أو

(1) Reichstagsabschied·

(2) Schmähschriften.

(3) "any manor of english boke, balet or playe".

(4) Thomas Murner. Germania.

التعذيب أو الإعدام. وقد رأينا كيف أن الدخول فى النزاعات الدينية والسياسية التى اشتعلت فى القرن السادس عشر فى أوربا كان يجلب نتائج خطيرة على الطابعين فى بعض الأحيان، ويبدو أن هذا الخطر قد أحبط كثيرا من الطابعين وجعلهم يحجمون عن استخدام مطابعهم فى الانحياز لطرف أو طبع كتب مثيرة للجدل. وقد قرأنا كثيراً عن طابعين كاثوليك فى المناطق الكاثوليكية يشكون مر الشكوى من أن زملاءهم الطابعين البروتستانت قد حققوا نجاحاً كبيراً لأنهم لم يدخلوا فى متاهات التعصب الدينى. وقد اعتذر الطابع «جوهان جرونىنجر» الذى طبع كتاب «توماس مونرو»[1] الذى حمل فيه على لوثر وتعاليمه، وندم على إنتاجه ذلك الكتاب لأنه لم يكن له رواج فى ستراسبورج أو فى أى مكان آخر كانت الأغلبية فيه مع حركة الإصلاح الدينى! وكما قال ذلك الطابع إنه أقدم على طباعته لأنه كان يتوقع له رواجا كبيراً وربحاً عظيماً.

لقد كان «مورنر» صاحب مدرسة أيضاً وكان له أتباعه ومحبوه والمعجبون به. ولقد شكا «كوكلاوس» من أنه لايجد ناشرين أو طابعين لمؤلفاته، وماكان له أن يلوم الطابعين كما فعل، لأن معظم الطابعين كانوا موالين للكاثوليك، وعلينا أن نبحث فى أصل شكوى كوكلاوس، فقد كان أسلوبه فى الكتابة ثقيلاً صعبا على القراء فهمه على العكس من أسلوب معارضيه، ومن ثم لم يفلح فى أن يكون له قراء، ولم يستطع جل المدافعين عن الكنيسة القائمة (الكاثوليكية) أن يواكبوا الطرق الجديدة فى الدعاية والإعلام التى استوعبها تماماً وعمل بها من كل من لوثر وهوتين وكارلشتادت وكثيرون غيرهم من البروتستانت الذين نجحوا فى صياغة أفكارهم وما يريدون توصيله للناس باختصار وبطريقة مفهومة وسهلة، وفى بعض الأحيان فى أسلوب وقالب عاطفى أخاذ. بينما المدافعون عن العقيدة الكاثوليكية استخدموا الأسلوب البحثى الدراسى الكلاسيكى التقليدى، وهو أسلوب يفشل فى الوصول إلى الجماهير العريضة!

لقد كان هذا الأمر مفهوماً للأسقف «جوهان فابرى»، أسقف فيينا الذى طلب من الكاثوليك أن يستخدموا نفس أساليب لوثر وطرقه: الإعلانات، الدعايات، المطابع، الكتيبات الجدلية، الكتاب الحديث... وكما رأينا تسببت

(1)Thomas Murner. Ob der König von England ein Lügner sei oder der Luther.- 1522.

المطبوعات الإعلامية الدعائية فى دخول الطابعين فى صراع مع السلطة وخاصة بعد ١٥١٧م، ذلك أن الطابعين خلال القرن الخامس عشر لم تكن أمامهم فرصة للدخول فى صراعات كبرى، فلم تكن الصراعات والخلافات الرئيسية قد نشبت بعد، ولم تكن إمكانيات المطبعة كأداة إعلامية دعائية قد اتضحت وتحققت بعد. ولم تنضج فكرة استخدام المطبعة كوسيلة لتوصيل الأفكار إلى الجموع من القراء إلا فى نهاية ذلك القرن. ولم تبدأ «فروخ الأخبار»[١] سلف الجرائد فى الظهور إلا حوالى سنة ١٥٠٠م. وبالتبعية قام الطابعون باستخدام مطابعهم فى تعضيد القضايا التى يعتنقونها، وخاصة أيضاً إذا كان هناك مكسب مادى كبير من ورائها. ويصدق هذا أكثر ما يصدق على «بارتولوميو فرانشسكو دى لبرى» الذى أصدر مابين ١٤٩٥ و ١٥٠٠م اثنين وأربعين عنواناً للمؤلف «سافونا رولا»، وخصص برنامجه الطباعى كله لكتيبات سافونا رولا خلال سنتى ١٤٩٧-١٤٩٨م. ولقد توفر طابعون آخرون فى فلورنسا على طباعة بعض كتيبات هذا الواعظ العظيم، ولكن هذه الكتيبات كانت بالنسبة لإنتاج هؤلاء الطابعين نشاطاً جانبياً على النحو الذى كانت عليه كتيبات أنطونيو توبينى.

ومن الصعب علينا فى الواقع أن نعرف دوافع إقبال الطابعين على طبع كتب مؤلف معين أو فئة معينة من الكتب الجدلية. لقد أثار الثقاة قضية فى غاية الأهمية حول جهل بعض الناشرين أو الطابعين بفحوى بعض الكتب التى طبعوها والغرض منها، وشككوا فى أن يكون ناشرو رسائل «ريشلين»[٢] يعرفون مايقومون به أو يستمتعون بنشر تلك الكتب الجدلية. ولكى يصلوا إلى بر السلامة تستروا جميعاً وراء بيانات طبع وهمية على النحو الذى أسلفت جانباً منه. وفى حالتنا هذه نجد الجزء الأول صدر فى ثلاثة طبعات وتحت بيانات طبع مزيفة تحمل زوراً وبهتانا اسم وعنوان مطبعة ألدوس مانتيوس فى فينيسيا[٣]، وكان الطابعون الحقيقون للطبعات الثلاث هم:

---

(1) Newssheets.

(2) Epistolae obscurorum virorium

(3)Invenetia impressum in impressoria Aldi Minutii

«جران» فى هاجيناو، «بيبوس» فى نورنبرج، «جاكوب شميت» فى سباير. أما الجزء الثانى فقد ظهرت فيه بيانات الطبع «روماناى كورياى» فى طبعة، «برن» فى طبعة أخرى. بينما هما فى الواقع من إنتاج «جرونجر» و«شميت».

لقد كان هناك صراع حقيقى داخل كل طابع بين التزاماته الأدبية ورغبته فى حياة آمنة مطمئنة، وقد غدا هذا الصراع أكثر حدة نتيجة للمعايير القمعية الجديدة التى جاءت عقب حركة الإصلاح. ولقد وجد الطابع فى بيانات الطبع الوهمية الزائفة ستاراً آمناً مريحاً يتستر وراءه. وطالما بات نجاح ثورة لوثر غير مؤكد ومثار شكوك، وطالما كانت السلطات المؤيدة لحركة الإصلاح ما تزال محدودة العدد، فإن غالبية المطبوعات «الخطرة» أى الجدلية لم تكن لتحمل اسم ومكان الطبع الحقيقى. لقد حلل «ج. لوثر» المجلد الثانى عشر من طبعة «فيمار» لأعمال مارتن لوثر، ذلك المجلد الذى يشتمل على كتاباته الصغيرة سنة ١٥٢٣م، فوجد أنه من بين الـ ١٨٩ كتيباً المكتوبة باللغة الألمانية والمسجلة فى هذا المجلد كان هناك ٢٢ كتيبا فقط هى التى تحمل اسم الطابع بنسبة ١١,٦٪! وحتى بدون دراسة مسحية إحصائية يمكننا أن نقرر مطمئنين أن الطابعين فى ويتنبرج ترددوا فى تأييد حركة الإصلاح علناً؛ والسبب الأول والواضح فى هذا الصدد هو أن هذه المدينة هى مهد اللوثرية، وهى ذات صبغة إصلاحية بروتستانتينية، وثمة سبب آخر هام يدعونا إلى ذلك، وهو أن ويتنبرج كانت مركزاً هاماً للطباعة قبل حركة الإصلاح، ولذلك فإنها لم تكن لتهتم بالوصول إلى القرار فى مناطق بعيدة، على العكس من الطابعين فى ليبزج، نورنبرج، أوجزبرج، بازل، ستراسبورج، وغيرها من المدن التى كانت تنتج كتيبات لوثر بكميات كبيرة، والذين وجدوا معارضة جزئية على الأقل من جانب زبائنهم القدامى، بل ومن جانب حكوماتهم فى بعض الأحيان. وفى نهاية العشرينات من القرن السادس عشر أصبح الطابعون والناشرون خبراء فى الصراع الدينى وبقيمتهم فى تشكيل أو تشويه الرأى العام، وغدا هناك اعتراف من الجميع بذلك الوضع. ومنذ ذلك الوقت غدت الحكومات حريصة على استثمار المطابع والسيطرة عليها إذا رغبت فى التأثير على الجموع.

ومن المعروف أن استخدام المطابع من قبل الحكومات المدنية والكنسية على نطاق واسع لأغراض سياسية يرجع يقيناً إلى ماقبل «الطابع المسيس» الذى صادفناه فى نهاية عشرينات القرن السادس عشر.

لقد أخذت الكنيسة فى استخدام المطبعة فى إصدار صكوك الغفران. أما استخدام المطابع فى أغراض سياسية فقد بدأ مع سنة ١٤٦٢ عندما تنافس مرشحان على منصب أسقفية ماينز. لقد بقيت استخدامات السلطات المدنية لأغراض سياسية مسألة عرضية قبل ١٤٨٠م، ولكن منذ ذلك التاريخ اتخذ استخدام المطبعة فى الغرض السياسى ظاهرة ملحة. إن التفاوت والاختلاف فى مدى ونوعية الاستخدام السياسى للمطبعة إنما يعكس الظروف السياسية، ودرجة وعى الحاكم بإمكانيات الطباعة واتجاهات القراء. والنماذج الآتية استقيناها عن القرن الخامس عشر من مصادر عديدة مبعثرة هنا وهناك، وتثبت يقيناً أن تاريخ الطباعة يمكن أن يمدنا بقرائن مادية ملموسة على وقائع تاريخية محددة معاصرة.

لقد كان لضغط الإمبراطورية العثمانية على أوربا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وقعه وأثره الملموس فى كل أنحاء أوربا. وكان هناك ردود أفعال متباينة الدرجات من جانب البابوية، وأباطرة هابسبرج، والحكومات الأخرى إزاء التهديد التركى، وقام الكثيرون بجمع الأموال لتنظيم حملة صليبية جديدة ضد الأتراك، تلك الحملة التى لم تنفذ قَط، وقد استخدمت الكنيسة صكوك الغفران فى هذا الصدد، وجمع الإمبراطور ضرائب خاصة[1]. وطبعت الإعلانات العريضة ضد الأتراك بكميات كبيرة لمطالبة الناس بالتبرع لدعم الصراع ضد الأتراك (وسوف نتناول هذه الإعلانات العريضة بشىء من التفصيل فيما بعد). وتكشف القائمة الببليوجرافية المستفيضة بالإعلانات العريضة فى القرن الخامس عشر وملاحقها عن مدى استخدام تلك الإعلانات فى هذا الصدد، رغم أن كثيراً من تلك الإعلانات قد اندثر، ورغم أن بعضها ما يزال طى المجهول لم يكتشف بعد. ومن المعروف أن أول صكوك غفران بيعت للحصول على المال للنضال ضد

(1) Türkensteuer.

الأتراك قد تم طبعها فى ما ينز ١٥٥٤ ـ ١٥٥٥ ، وطوال الخمسينات كان قد صدر ١٣ صكاً وقد صدر هذا العدد الكبير بالضرورة تحت تأثير سقوط القسطنطينية فى يد «محمد الفاتح» ١٤٥٣ . وفى الستينات صدر صك واحد ولم يكن صك غفران بالمعنى المفهوم وإنما دعوة للتبرع ضد الترك[١]، وقد زاد العدد قليلا فى السبعينات إلى اثنين فقط، وقفز فى الثمانينات إلى ١٨٥ صكاً، وربما كان ذلك بسبب حصار الترك لجزيرة رودس، وقد تناقصت بشدة مابين ١٤٩٠ ـ ١٥٠٠ إلى ٣٧ فقط. ونحن لا نعرف على وجه اليقين هل كان تناقص مبيعات صكوك الغفران فى ذلك العقد راجعاً إلى تراجع خطر الترك أو عدم الاهتمام به، أم إلى عدم إقبال الناس على شراء تلك الصكوك. وربما كان انصراف البابا «ألكسندر السادس» عن إصدار هذه الصكوك وعدم رغبته فيها هو السبب الأول والوحيد، وربما رأى فى التهديد التركى لمملكة هابسبرج فائدة مباشرة له لكبح جماح هؤلاء الأباطرة وطموحاتهم.

ولم تكن صكوك الغفران والدعوات إلى التبرع بالمال لصد الأتراك هى وحدها التى أصدرها البابوات أو صدرت باسمهم، بل كانت هناك مطبوعات «رسمية» أخرى من بينها: الخطب، الصلوات، المنشورات والأوامر الصادرة عن دواوين البابوات. ومن حسن الحظ أن ما وصلنا منها قد جمع فى ببليوجرافية واحدة[٢]. ولم يصلنا حتى اليوم أية إعلانات عريضة نشرت تحت اسم «نيقولاس الخامس»، «كاليكستوس الثالث»، «بول الثانى». وهناك ثمانية إعلانات عريضة نشرت تحت اسم «بيوس الثانى»، وأربعون نشرت تحت اسم «سكسوس الرابع»؛ أربع وثلاثون تحت اسم «إنوسنت الثامن»، وستة فقط تحت اسم «ألكسندر السادس» خلال السنوات ١٤٩٢-١٥٠٠.

وإذا اتجهنا صوب الإعلانات العريضة التى أصدرها الإمبراطور «فردريك الثالث» والإمبراطور «ماكسميليان الأول» سوف نجد أن الأول قد أصدر إعلاناً واحداً ولكن فى ثلاثين طبعة، وهى جميعاً تحمل اسمه فى الفترة من ١٤٦١

(1) turcium.

(2) Einblattdrucke.

وحتى ١٤٩٣م. وقد أصدر الإمبراطور الثانى أيضاً إعلاناً واحداً فى أربعة وثمانين طبعة تحمل اسمه، ولكن فى فترة أقصر تقع ما بين ١٤٨٩-١٥٠٠م. ومن الواضح أن الإمبراطور «ماكسميليان الأول» قد أحسن استغلال فن الطباعة فى الدعاية لنفسه وكان هذا الأمر جديدا أن يعلن الإمبراطور عن نفسه بين أفراد الشعب، حيث كانت تلك الإعلانات العريضة والقرارات والأوامر الامبراطورية ترسل نسخها إلى الأفراد المهمين والرسميين فى الولايات، كما كانت تلصق على المبانى، وتقرأ على الملأ فى التجمعات المختلفة للناس مثل تجمعاتهم فى الكنائس والأسواق. وهذه الطريقة فى توزيع تلك المطبوعات غالباً ما كان يجرى وصفها أو تحديدها فى توجيهات مطبوعة أيضاً على النحو الذى نجده فى دعاية مطبوعة طبعا عن نفسه ـ الدوق «أولرخ» دوق فيرتمبرج حوالى سنة ١٥٤١(١). لقد قام ما ماكسميليان الأول فى الفترة من ١٤٨٩ و ١٥١٨ بإصدار سبعة وستين نصاً مختلفًا، ليست طبعات لأوامر وتعليمات على شكل إعلانات عريضة أو مطويات مطبوعة ويجب أن نضيف إليها ستة عشر نصا مخطوطًا لم يصلنا من هذه الأخيرة سوى ثمانية فقط، والباقى عرفناه من خلال المصادر والإشارات الببليوجرافية. ومن بين الـ ٦٨ نصًا هناك عدد كبير من الوثائق الخاصة بالحرب ضد فينسيا، أولاها مطبوعة سنة ١٥٠٩م على شكل كتيب(٢) وتضم الوثائق التى تغطى السنوات ١٥٠٦-١٥٠٩. وقد كثف ماكسميليان استخدامه للمطابع فى هذه الأغراض ١٥٠٧-١٥١١ حيث أصدر ٢٨ نصاً مختلفًا.

ولقد تكثف استخدام المطابع فى إصدار مطويات سياسية، إعلانات مختلفة، أوامر، دعوات، شهادات حسن سير وسلوك، إشعارات قانونية، حيث كانت هذه المواد تصدر بكميات كبيرة اعتبارًا من العقد الأخير فى القرن الخامس عشر.

---

(1) R. Hirsch. "The Duke adresses his subjects..- Library Quarterly, xx, 1952.

كما كانت النشاطات الإعلامية والدعائية التى يقوم بها ماكسميليان الأول موضوع رسالة دكتوراه فى هايدلبرج. وبياناتها كالآتى:

P. Diederichs. Kaiser Maximilian als politischer Publizist.- Heidelberg. 1932.

(2) Weissbuch.

وننقل هنا عن هيرش بعض مجموعات الإعلانات العريضة التى كان يجرى استخدام المطابع فى إنتاجها، وبعض قوانين إشاعة السلم العام[1] والتى جرى نشرها حتى سنة ١٥٠٠م.

١٤٧٤ فردريتش الثالث.

١٤٨٦ أوتو أسقف كونستانس؛ بيرتولد من هِننبرج أسقف ماينز؛ فردريتش الثالث.

١٤٩٥ بيرتولد من هننبرج.

١٤٩٥ فردريتش الحاكم العسكرى فى براندنبرج.

١٤٩٥ لورنز أسقف فيرزبيرج

١٤٩٥ ماكسميليان الأول.

١٤٩٥ ماكسميليان الأول.

وكانت قوانين إشاعة السلم العام قد بدأت تطبع سنة ١٤٧٩، وكان ما صدر منها فى سنة ١٤٩٥م يتحدث عن نقطة الاتفاق الوحيدة التى تم التوصل إليها بين ماكسميليان والأمراء. وقد صدر عدد من تلك القوانين أو القرارات التى تهدف إلى دعم السلم العام تحت اسم فردريتش وماكسيميليان. كما صدرت عدة إدانات مطبوعة تتضمن إجراءات ردعية ضد من يكدر السلم العام كانت عادة ما تلحق بالقوانين المشار إليها، وكانت هذه الإدانات موجهة ضد مرتكبى تكدير السلم. ومن بين تلك القوانين ما صدر:

١٤٧٩ فردريتش الثالث.

١٤٨٦ فردريتش الثالث.

١٤٨٦ فردريتش الثالث.

١٤٨٦ فردريتش الثالث.

١٤٨٦ رودلف أسقف فيرزبرج.

---

(1) Landfrieden.

١٤٨٩ فردريتش الثالث.

١٤٩١ فردريتش الثالث.

١٤٩١ ماكسميليان الأول.

١٤٩١ ماكسميليان الأول.

١٤٩٦ ماكسميليان الأول.

١٤٩٦ ماكسميليان الأول.

١٤٩٧ ماكسميليان الأول.

١٤٩٧ ماكسميليان الأول.

١٤٩٧ ماكسميليان الأول.

١٤٩٩ ماكسميليان الأول.

١٤٩٩ ماكسميليان الأول.

١٤٩٩ ماكسميليان الأول.

١٥٠٠ ماكسميليان الأول.

١٥٠٠ ماكسميليان الأول.

وكان نشر ١٩ إدانة ضد مرتكبى حوادث تكدير السلم العام خلال ٢٢ سنة ـ مع احتمالات أن يكون هناك أكثر من ذلك العدد ولكن لم يصلنا ـ يدل دلالة قاطعة على اهتمام بالغ بتلك الأحداث المكدرة للسلم العام فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

ولعل النوع الثانى من المطبوعات الرسمية الذى يجب أن نتوقف عنده هو «لوائح سك النقود»[1] فى محاولة للتقليل من المشاكل التى سببها وجود عدد كبير من العملات ولوقف التضخم. وجل اللوائح التى وصلتنا؛ وصلتنا على شكل إعلانات عريضة ولم يصلنا منها شىء على شكل مطويات أو كتيبات. ولعل أقدم تلك اللوائح هى تلك التى صدرت سنة ١٤٨٧ والثانية سنة ١٤٨٨

(1) Münzordnungen = Mint.

والثالثة ١٤٩٢؛ والعدد الأكبر منها صدر ما بين ١٤٩٣-١٥٠٠، وكان التركيز فى سنتين اثنتين ١٤٩٣-١٤٩٤ (٨لوائح). ١٤٩٩-١٥٠٠ (٩ لوائح). والحقيقة أن توزيع هذه اللوائح جغرافياً يقدم لنا معلومات ممتعة. ففى فترة ثلاث سنوات ١٤٩٢-١٤٩٤ صدرت تسع لوائح فى منطقة كولون ـ جوليخ، وثلاث لوائح سنة ١٤٩٩ صدرت فى بيرجانديا وخمس لوائح فى السنة التالية ١٥٠٠ فى ساكسونيا؛ لائحة واحدة لكل من براندنبورج ١٤٨٧؛ زويل ١٤٨٨، ميلانو ١٥٠٠ وصدور عدد كبير من اللوائح المتعاقبة فى مناطق كولون ـ جوليخ؛ بيرجانديا؛ ساكسونيا ربما يشير إلى الضرورة الملحة لإصلاح حال العملات فى تلك المناطق ذات النشاط التجارى الكثيف.

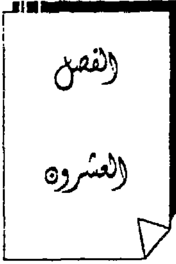
لقد استخدمت الطباعة خلال القرن الخامس عشر فى أغراض متنوعة، وقد زاد تنوع تلك الأغراض فى القرن السادس عشر، فإلى جانب الأغراض التجارية المألوفة من نشر الكتب والمطبوعات العادية استخدمت فى طبع: البحوث والرسالات، العفو العام، لوائح وتعليمات منع الشحاذة، المطبوعات السياسية، الحرمان من الكنيسة، قوائم الطعام، اتفاقات السلام، جوازات السفر، منح الإقطاعيات، تعليمات الرقابة، تحذيرات ضد خلط النبيذ بالماء.

ولقد اهتمت الحكومات بإصدار الإعلانات العريضة بأنواعها المختلفة، وكانت هذه الإعلانات من كل لون أمراً شائعًا فى عموم الإمبراطورية الرومانية المقدسة أكثر من أى مكان آخر. وكان اندثار هذه الإعلانات العريضة ظاهرة غريبة لأنها كانت تصدر بكميات كبيرة، وحيث كان متوسط نسخ الطبعة منها ١٠٠ نسخة ومع ذلك فإن ما وصلنا منها قليل محدود؛ رغم أن الأرشيفات الألمانية كانت أكثر تنظيماً فى وقت مبكر من الأرشيفات فى فرنسا أو إيطاليا، ولعل هذا هو ما ساعد على وصول عدد من تلك الإعلانات العريضة إلينا. ويذكر هيرش أن ما وصلنا من هذه الإعلانات العريضة من القرن الخامس عشر يبلغ ١٥٧٤ قطعة مطبوعة؛ وتوزيع هذه الإعلانات العريضة جغرافياً يسير على النحو الآتى:

إيطاليا	٤٢	بنسبة	٢,٧ ٪
فرنسا	٩	بنسبة	٠,٦ ٪
أسبانيا	٢٦	بنسبة	١,٧ ٪
إنجلترا	٣٩	بنسبة	٢,٥ ٪
ألمانيا	١٤٥٨	بنسبة	٩٠,٥ ٪

وعندما نقول ألمانيا فى هذا السياق فنحن نقصد كل المناطق الناطقة بالألمانية. ويكشف العدد الكبير من تلك الإعلانات العريضة التى نشرت هنا عن بالغ اهتمام الحكام بآراء وأفعال وردود أفعال الشعب المحكوم واهتمام الناس بالشئون العامة، كما تكشف عن درجة عالية من انتشار التعليم فى تلك المناطق أعلى من أى مكان آخر فى أوربا.

* * *



الرقابة على المطبوعات

فى خلال قرن واحد من اختراع الطباعة أصبحت الرقابة على المطبوعات ممارسة عامة فى أوربا سواء من جانب السلطة الدينية ممثلة فى الكنيسة أو من جانب السلطة العلمانية ممثلة فى الحكومة المدنية. ولكن مع نهاية القرن الثامن عشر ألغيت تلك الرقابة فى إنجلترا وفرنسا والسويد والدنمرك والولايات المتحدة، واستمر النضال ضدها فى أماكن أخرى من أوربا.

لقد كانتماينز مهد الطباعة هى أيضاً مهد الرقابة على المطبوعات، فقد طلب كبير الأساقفة «بيرتولد فون هيننبرج» (١٤٨٤-١٥٠٤) من مجلس مدينة فرانكفورت أن يفحص كل الكتب المطبوعة التى يتم عرضها فى معرض ليتين سنة ١٤٨٥ فحصاً جيداً وأن يتعاون مع السلطات الكنسية فى قهر المطبوعات الخطرة. واستجابة لذلك الطلب قام عمدة ماينز وحاكم مدينة فرانكفورت سنة ١٤٨٦ بالتعاون معاً بإنشاء أول مكتب مدنى للرقابة على المطبوعات.

والملمح الجديد فى اقتراح بيرتولد فون هيننبرج أن الرقابة على المطبوعات أصبحت حقاً مقرراً للسلطة المدنية، وهو أمر لم يكن كبير الأساقفة يتوقعه ولم يكن ليريده. فلقد كان بيرتولد شخصية عصور وسطى بمعنى الكلمة: الشخصية التى تعترض على الروح الجديدة التى أتى بها الإنسيون والحركة الإنسية، وتعارض بشدة التعليم المدنى العلمانى وخاصة بين أفراد الطبقة الوسطى، وأراد أن تبقى الأداة الجديدة للتعليم - الكتب المطبوعة ـ تحت إشراف صارم ووصاية حادة من جانب الكنيسة. ولقد مارست السلطات الكنسية فى العصور الوسطى المتأخرة وخاصة الجامعات رقابة عنيفة ودائمة على الكلمات المكتوبة المخطوطة.

وفى سنة ١٤٧٩ قامت جامعة كولون باستصدار مرسوم بابوى يخول لأعضاء التدريس مد رقابتهم إلى الكتب المطبوعة كذلك إلى جانب المخطوطات.

ومهما يكن من أمر فإن الرقابة الكنسية على الفكر كانت تمارس ولمدة طويلة لمصادرة وقهر كتابات الهرطقة وملاحقة الهراطقة بلا رحمة ولا هوادة، ولكنها أبدت تسامحاً كبيراً مع كتب الجنس المنحلة وكتب الفحش. وهكذا فقد كان أول مرسوم رقابى يتعلق بالكتب المطبوعة أصدره رقيب فرانكفورت بمنع ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات المحلية، وكانت الخطوات الأولى التى اتخذها المجلس البابوى هى منع كتب الهرطقة وكتب المنشقين على الكنيسة.

ولقد حاول البابا «ألكسندر السادس» سنة ١٥٠١ أن يوحد الرقابة فى كل العالم المسيحى. وفرض الرقابة كواجب على كل من هم فى السلطة وأدخل الرقابة الوقائية وأخضع الكتب غير اللاهوتية لإشراف السلطات الكنسية. ويحمد للطابعين فى كولون أنهم اعترضوا على الفور على محاولات البابا من الرقابة الكنسية خارج حدود الكتب الدينية اللاهوتية وكتب الهراطقة. وهذا الموقف الشجاع كان موقفاً فردياً لم يمتد لأبعد من كولون. فالكنيسة الرومانية وقد اهتزت أركانها تحت وطأة حركة الإصلاح البروتستانتى؛ وتوسيع القوة المدنية العلمانية لسلطاتها، كان عليها أن تطبق التعليمات التى أصدرها البابا بشأن الرقابة الجديدة وهذا هو الكاردينال «كارافا» رئيس الديوان البابوى يصدر فى سنة ١٥٤٣ قراراً بعدم طبع أو بيع أى كتاب ـ جديداً كان أو قديماً وبصرف النظر عن محتوياته ـ دون إذن من هيئة التحقيق بالديوان. وقام «جيوفانى ديللاكازا» وهو أحد مساعدى كارافا بإعداد أول قائمة بالكتب المحظورة والمطبوعة فى فينسيا، وقد اشتملت على سبعين عنواناً فى تلك السنة.

وقد أعدت قوائم أكبر بالكتب المحظورة فى فلورنسا (١٥٥٢)؛ ميلانو (١٥٥٤)؛ وفى سنة ١٥٥٩ قام كارافا - الذى أصبح فى ذلك الحين البابا «بول الرابع» ـ بإعداد وإصدار أول فهرس عام بالكتب المحظورة[1]. وقد حظر هذا

(1) Index Librorum Prohibitorum.

الفهرس من بين ما حظر كتابات العديد من الكرادلة، وقصائد ديللاكازا نفسه وكتاب مجهول المؤلف «حول جدوى المسيح»[1] وهو كتاب لم تصلنا منه نسخة واحدة. وطبقاً لما ورد فى تقرير هيئة التحقيق يبدو أن هذا الكتاب يشبه كتاب توماس كمبس : «حول التشبه بالمسيح»[2] الذى كان أوسع كتب التكريس انتشاراً بعد الكتاب المقدس.

وكان فهرس أو كشاف الكتب المحظورة يحدث أولاً بأول، وكانت آخر إصدارة له تلك التى صدرت سنة ١٩٤٨. وبعد ذلك توقف تدخل الكنيسة فى الرقابة على الإنتاج الفكرى. وظل هذا الفهرس هو الأداة الأساسية حتى اليوم لتنظيم القراءة بين الكاثوليك الرومان. وفى الوقت الذى صدر فيه هذا الفهرس كانت السلطات العلمانية هى الأخرى تمارس الرقابة كسلاح سياسى لحماية سلطانها وليس لحماية أرواح الناس ونفوسهم.

وكان «هنرى الثامن» ملك إنجلترا هو أول ملك يصدر قائمة بالكتب المحظورة (١٥٢٩). وفى سنة ١٥٣٨ منع استيراد الكتب المطبوعة بالإنجليزية خارج إنجلترا. وإذا أخذنا هذا الإجراء على ضوء الامتيازات التى منحها سنة ١٥٤٣ إلى كل من «جرافتون» و «يتشيرش» فإن هذه المراسيم تعكس المزيج الغريب من الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية التى اصطبغت بها نظريات وممارسات جميع رجال الدولة فى أوربا فى القرن السادس عشر إزاء الكتب المطبوعة.

ويصور لنا تاريخ معارض فرانكفورت التأثير القاتل لتدخل الدولة فى الشئون الفكرية والشئون التجارية للكتاب، فمنذ نهاية القرن الخامس عشر أصبحت فرانفكورت مركز تجارة الكتاب فى ألمانيا واجتذبت إليها عدداً كبيراً من الناشرين وتجار الكتب الأجانب. ومن المعروف أن وكلاء ألدوس مانتيوس كانوا يتركزون هناك. وفى سنة ١٥٧٩ وضعت سوق الكتب فى فرانكفورت تحت إشراف بعثة الرقابة الإمبراطورية حيث كانت فرانكفورت مدينة إمبراطورية حرة، ولم يلبث

(1) On the Benefit of christ.

(2) On the Imitation of christ.

ضيق أفق وحيل أعضاء هذه البعثة أن خنقوا تجارة الكتب فى هذه المدينة ثم دمروها بعد ذلك، ولم يأت منتصف القرن الثامن عشر إلا وكانت سوق فرانكفورت قد ماتت. ولم يشتمل آخر فهرس لهذه السوق ـ وهو الصادر سنة ١٧٥٠ ـ إلا على ٤٢ كتاباً باللغة الألمانية، ٢٣ كتاباً باللغة اللاتينية، ٧ كتب باللغة الفرنسية هى كل ماسمح بتداوله فى هذا السوق فى الوقت الذى كان ينشر فى ألمانيا فى السنة الواحدة ١٣٥٠ عنواناً.

وفى نفس الوقت أعلنت الجمهورية الهولندية عن النتائج الإيجابية للرقابة الرمزية على الحياة الفكرية. والإجراءات التى اتخذت ضد «اسبينوزا» التى تشير إلى عكس ما أعلن إنما ترجع فى الواقع إلى نشاط وجماعات الضغط: الربابنة اليهود، الأصوليون الكالفان، الملكيون البرتقاليون. لقد آوى التجار الأرستقراطيون بالمدن الهولندية اللاجئين اليهود من أسبانيا، وجماعات الهوجينوت من فرنسا وجماعات الكالفان من ألمانيا وجماعات سوسين من بولندا، وقد كان محكوماً عليهم بالإعدام فى بلادهم. ولقد تمتع الصناع والحرفيون والتجار ورجال الأعمال بالأمن والاستقرار الاقتصادى فى هولندا. وجعلت منها الحرية الفكرية فى جامعاتها ومطابعها مركز العلم والفكر والصحافة فى أوربا فى القرن السابع عشر. وكما رأينا من قبل قام الناشرون والطابعون الهولنديون ـ وعلى رأسهم إلزفير ـ بإصدار الكتب باللغات المختلفة: اللاتينية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والهولندية مما يعكس حقيقة أن هولندا وبحق محور العلم فى أوربا.

لقد تحولت مراوغة الرقيب فى أوربا إلى فن، وكان الإجراء الشائع فى مراوغته هو وضع بيانات طبع كاذبة بما فى ذلك عنوان واسم ناشر أو طابع أجنبى أو يتم الاستغناء كلية عن اسم الطابع ومكان الطبع وتاريخ الطبع أو وضع تاريخ كاذب.

وكان الطابعون الهولنديون من ذوى العقيدة البروتستانتية فى عشرينات القرن السادس عشر يضعون بدلاً من مكان الطبع كلمة يوتوبيا أى المدينة الفاضلة

ويكشف ذلك عرضاً عن شعبية كتاب «توماس مور» الذى طبع فى لوفان سنة ١٥١٦. وثمة طابعون آخرون يضعون على صفحة العنوان أسماء مدن مثل: ويتنبرج، ماربورج أو ستراسبورج وهى المدن التى نبعت منها الكتابات اللوثرية هذه، وربما يعكسون الآية فيسجلون عليها اسم «روما»، ساحة سانت بيتر. وربما يتعمدون التشويش أكثر بكتابة اسم الطابع الحقيقى، ولكن مع مكان طبع غير حقيقى، وعلى سبيل المثال : هانزلوفت (من ويتنبرج) فى ماربورج. وبينما ذهب بعض الطابعين الهولنديين إلى المحرقة لنشرهم كتباً بروتستانتية فإن هؤلاء الذين استخدموا بيانات طبع وهمية نجوا جميعاً ولم يكشف عن أحدهم.

وبينما كانت لدى الناشر الإنجليزى «ج. تشارلزوورث» الشجاعة فى أن ينشر الرسائل الثورية للفيلسوف اللاتينى المنفى «جيوردافو برونو»، فإنه فى نفس الوقت اتخذ احتياطات شديدة بأن جعل كتابه الذى نشره سنة ١٥٨٤[١] صادراً فى فينسيا، وكتابه الذى نشره له سنة ١٥٨٨م[٢] صادراً عن مطبعة «أ. بياو» فى باريس.

ويبدو أن عائلة إلزفير هم الآخرون قد لجأوا إلى تلك الحيل لتضليل الرقباء الأجانب أكبر من خوفهم من المتاعب داخل بلدهم. ذلك أنه بسبب تسامح الرقابة الهولندية وسعة أفقها كانت الكتب الجدلية المنشورة فى هولندا ينظر إليها بكثير من الشك فى الدول الأجنبية. والأمثلة على ذلك كثيرة، فكتاب «بيترو آرتينو» الذى نشر سنة ١٦٦٠ حمل مكان النشر (كوزموبولى) بدون اسم طابع[٣]، وكتاب «باسكال» الذى نشر سنة ١٦٥٧ حمل بيانات طبع (كولون لدى بيير دى فاليه)[٤] وكتاب «هوبز» المنشور سنة ١٦٥١ حمل بيانات طبع (لندن لحساب أندرو كروك)[٥]. وهذه الكتب جميعاً هى من نشر إلزفير فى أمستردام.

ويرى بعض الباحثين أن معظم الأعمال الفرنسية العظيمة فى القرن الثامن

(1) Giardino Bruno. De La Cousa, principioe Uno.- 1584 (Venice).

(2) Giardino Bruno. De gli eroici Furari.- 1588. (A. Baio, Paris).

(3) Pietro Aretion - Capricciosi epiacevoli ragionamenti.- 1660 (Cosmopoli).

(4) Pascal. Provinciales.- 1657. (Cologne chez Pierre de Valée.

(5) Hobbes. Leviathan.- 1651 [London For Crooke].

عشر إما أنها نشرت خارج فرنسا أو أنها نشرت داخلها ببيانات طبع كاذبة، وعلى سبيل المثال فإن خطابات «مونتسكيو»(١) التى نشرت سنة ١٧٢١ نشرت فى هولندا وتحمل بيانات طبع (كولون لدى بيير مارتو). ولعل هذا الأسلوب الذى ابتدعه إلزفير أول مرة سنة ١٦٦٠ قد اتبعه ناشرون وطابعون كثيرون فى كتب كثيرة وذلك لتجنب الرقابة، ويؤكد أنه ظهر على صفحات العنوان سواء فى الكتب الدينية أو الكتب العلمانية أو كتب الفجور والفحش الجنسى. إذ أن نفس الصيغة نجدها لدى الناشر الألمانى «بروكهاوس» باللغة الألمانية عندما ينشر كتباً عسكرية أو سياسية يرى أنها ستثير غضب الرقابة البروسية العنيفة على الناشر(٢). ومن الكتب الفرنسية التى نشرت خارج فرنسا كتابان لمونتسكيو أحدهما عن سقوط الدولة الرومانية،و نشر فى أمستردام سنة ١٧٢٤(٣)، والثانى عن روح القوانين ونشر فى جنيف سنة ١٧٤٨(٤)، كذلك فإن كتب «جان جاك روسو» الثورية نشرت هى الأخرى فى هولندا: هيلواز الجديدة سنة ١٧٦١(٥) والعقد الاجتماعى ١٧٦٢(٦) وكلاهما نشر فى أمستردام، إميل ١٧٦٢(٧) وقد نشر فى مدينة لاهاى.

كذلك فإن بعض أعمال «فولتير» قد نشرت خارج فرنسا، وكتابه الموسوم «هنرياد»(٨) قد نشر لأول مرة تحت عنوان آخر هو «الرابطة» وقد وضع عليه بيانات نشر كاذبة (جنيف لدى جان موكباب). أما الطبعة الثانية التى تحمل عنوان لاهنرياد الآن فقد طبعت فى لندن سنة ١٧٢٨ حاملة إهداء بالإنجليزية إلى الملكة «كارولين»، قرينة «لويس الرابع عشر» فى برلين ١٧٥١ .

---

(1) Montesquieu. Lettres persanes.- 1721 [Cologne chez Pierre Marteau].

(2) [Bei Peter Hammer in Köln].

(3) Montesquieu. Considérations sur La Cause de La grandeur des Romains et de Leur dècadence.- Amisterdam: 1724.

(4) Montesquieu. Esprit deslois.- Geneva: 1748.

(5) J. J. Rousseau. La Nouvelle Héloise.- 1761.

(6) J. J. Rousseau. Contrat Social.- 1762.

(7) J. J. Rousseau. Émil.- 1762.

(8) Voltaire. Henriade.- 1723 [La Ligue], [Genève Chez Jean Mokpap].

وربما كانت من الآثار السلبية الحسنة للرقابة هى أن حظر كتاب ما أو حرقه علناً إنما يشعل الرغبة لدى الناس فى هذا الكتاب ويزيد من بحثهم عنه، وأحسن نموذج على ذلك عندما وجهت الحكومة الأسبانية سنة ١٥١٨ طائفة المتطهرين (البيوريتان) نحو خطر رواية أماديس[1] على الأخلاق العامة، تلك الرواية التى طبعت لأول مرة كان هذا التدخل الرسمى مدعاة إلى زيادة الطلب على هذه الرواية فى طبعتها الأصلية، وأدى إلى زيادة شعبيتها بل وإعادة طبعها عدة مرات وتزويرها وتعديلها. وعندما حظر كتاب «هوبز» سابق الذكر قام «صمويل بيبيز» على الفور بشرائه، ولكن كان عليه أن يدفع ثلاثين سو لنسخة مستعملة بينما كان سعر النسخة الجديدة مجرد ٨ سو فقط. ولما كانت هناك حاجة ماسة إلى هذا الكتاب سنة ١٦٦٨ فقد قام أحد الناشرين فى أمستردام بطبعه تحت بيانات نشر كاذبة.

وكانت أول انتفاضة ضد الممارسات التعسفية للرقابة على الكتب قد جاءت من إنجلترا، ذلك أن مرسوماً فرضه البرلمان على الطابعين والباعة سنة ١٦٤٣م قد أثار الكاتب «ميلتون» ودفعه إلى أن يكتب كتابه المعروف «آريو باجيتيكا»[2] وهو عبارة عن احتجاج فى صورة خطاب موجه إلى البرلمان سنة ١٦٤٤، وهو أحسن دفاع عن حرية الطباعة وعدم تقييدها بالتراخيص الرسمية. يقول ميلتون فى هذا الخطاب «إن التعبير الحر هو امتياز للمواطن كما أنه مفيد للدولة.. إن من يقتل كتاباً جيداً كمن يقتل رجلاً طيباً... إن من يقتل رجلاً فإنه يقتل مخلوقاً عاقلاً، ولكن من يدمر كتاباً فإن يقتل العقل نفسه.. يقتل صورة الله». ثم يخلص إلى القول بأن «أبطال الرقابة وفرسانها يجب أن يميزوا بين الكتب الجيدة والكتب الرديئة.. إن الحقيقة لا تحتاج إلى ترخيص لكى تنتصر».

ومن سخرية القدر أن يأتى إلغاء **ترخيص الطبع** عن طريق كتيب انتحل آراء ميلتون وفى قضية تافهة، ذلك أن شخصاً يدعى «تشارلز بلونت» هاجم فى سنة ١٦٩٣ مكتب إعطاء التراخيص فى رسالتين سمح بنشرهما وكان البحثان مجهولى المؤلف: «مجرد دفاع عن حرية العلم وحرية الطباعة»[3]؛ «أسباب حرية الطبع

(1) Amadis, 1508.
(2) Milton. Areopagitica.
(3) Just Vindication of Learning and Press Liberty.

بدون تراخيص»[١]. وكان البحثان مسروقين بكاملهما من خطاب ميلتون سابق الذكر. ولم يتم للأسف تعقب سارق هذين البحثين، ولكن كان من نفعهما أن تحققت على يديهما فكرة ميلتون فى إلغاء تراخيص الطبع، إذ أن باعة الكتب والمجلدين والطابعين تقدموا بالتماسات إلى البرلمان يطلبون إلغاء التراخيص، وتم تجديد العمل بنظام التراخيص لمدة عامين فقط وبعد انتهاء هذه المدة قرر مجلس العموم البريطانى بالإجماع وقف العمل بقانون تراخيص الطبع. وقد اعترض مجلس اللوردات على ذلك ولكنه استسلم فى النهاية فى ١٨ من أبريل سنة ١٦٩٥، وكان قانون منح التراخيص الذى هو بمثابة الرقابة القبلية فى إنجلترا قد صدر لتنظيم عمل المطابع ومنع إساءة استعمال الطباعة. وعنوان هذا القانون طويل نسبياً ولكن نورده كاملاً لتحقيق الفائدة: «١١ قانوناً لمنع إساءة استغلال الطباعة فى طباعة الكتب غير المرخصة المثيرة للفتن والخيانة، ولتنظيم الطباعة والمطابع»[٢].

ومن هذا المنطلق قال ماكوليى فى عبارة شهيرة: «لقد تحرر الفكر الإنجليزى، تحرر إلى الأبد من سلطة وتحكم الحكومة.. لقد تحرر عن طريق صوت لم يجتذب الانتباه إليه فى ذلك الوقت، ولم يحدث ضجة ولم يلتفت إليه المؤرخون، ويمكن للتاريخ إذا أراد تتبعه أن يتتبعه فى أرشيف البرلمان. لقد فعل هذا الصوت للحرية والحضارة أكثر مما فعل «**الميثاق الأكبر**» أو «**وثيقة الحقوق.**»».

وكانت هناك صرخة أخرى أكبر فى سبيل حرية الطباعة أطلقها «جون ويلكس»، أحد أبطال الحرية والديمقراطية والذى عتم نظام العصر الفيكتورى على إنجازاته العظيمة فى مجال الأخلاق. لقد أدت وقفة ويلكس الشجاعة ضد الملك والحكومة والبرلمان واللوردات، إلى إلغاء «**المبررات العامة**»[٣] للقبض على «المؤلفين والطابعين والناشرين على وجه الإطلاق». ومنذ ذلك الحين لابد أن يكون هناك اتهام محدد وسبب واضح للقبض على فرد بذاته.

---

(1) Reasons for the Liberty of Unlicenced Printing.

(2) "Act for preventing abuses in printing seditious, treasonable and unlicenced pamphlets, and for regulating of printing presses".

(3) General Warrants.

ويشير «شتاينبرج» إلى نقطة هامة فيما يتعلق بحرية الفكر فى المستعمرات البريطانية فى العالم الجديد وخاصة أمريكا. . حيث يقول إنه مما يجب ملاحظته أن القائمة الطويلة والمفصلة من شكوى المستعمرات الجديدة فى أمريكا من الحكومة البريطانية والمضمنة فى «إعلان الاستقلال» لم تشتمل على أية إشارة لتدخل تلك الحكومة فى حرية المؤلفين أو الطابعين أو الناشرين. وكان من الممكن للمؤلف - الطابع - الناشر العظيم «بنيامين فرانكلين» وهو أحد الموقعين على وثيقة الاستقلال أن يشير إلى مثل هذا التدخل لو كان قد وقع فعلاً، ولذلك جاء دستور الولايات المتحدة خلواً من أية ضمانات لحرية الفكر، وترك معالجة هذه المسألة فى حالة حدوث أى شيء للمحاكم والقضاء العادى. وهذا هو حال كل الدول الناطقة بالإنجليزية.

وكان من الملفت للنظر حقاً أن يقر الكونجرس الأمريكى فى سنة ١٧٩٠ قانوناً - يعتبر ذيلاً من ذيول قانون الترخيص الإنجليزى - يقصر امتياز وحق الطبع على فئة معينة فقط من الطابعين. هذا القانون فى الواقع لم يكن يقتصر على عدد من الطابعين وأماكن الطبع، ولكنه كان يضم كل «المواطنين فى الولايات المتحدة والمقيمين على أرضها». وبحيث يمنع حماية الناشرين غير الأمريكيين لمدة ١٦٠ سنة، تلك الحماية التى كانت ممنوحة لهم فى كل مكان فى العالم المتحضر. ولقد ألغى القانون الذى أصدره الكونجرس سنة ١٩٤٩ هذه القيود، كما أزال انضمام الولايات المتحدة إلى الاتفاقية الدولية لحماية حقوق المؤلفين سنة ١٩٥٧ أية آثار باقية لتلك القيود.

ولقد كان الموقف فى أوربا مختلفاً تماماً، ذلك أنه مع ظهور القوميات ونمو الإحساس الوطنى فى القرن الثامن عشر، أصبحت الرقابة على المطبوعات أكثر حدة وقسوة وخاصة فيما يتعلق بالكتابات السياسية، وكانت القاعدة فى تلك الفترة هى التشكك فى أى كاتب(١). وكان من الطبيعى أن تتسبب الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية فى قلق زائد للسلطات الحاكمة. وكانت الكتب والنشرات الموالية لهاتين الثورتين تسحق دون تمييز بين الانتماءات السياسية

(1) "Non Licet de illis Scribere, qui possunt pro Scribere".

للكُتّاب. وعلى سبيل المثال أدين شجب «بورك» للثورة الفرنسية بنفس القدر الذى أدينت به كتابات «هيلفتيوس» و «مونتسكيو» و«روسو» و«فولتير» الذين مهدوا الطريق إلى الثورة، وعلى الرغم من التباين الشديد فيما بينهم فى الدوافع التى دفعتهم للكتابة والهدف النهائى من ورائها. ومما يذكر هنا أيضاً أن الرقابة الألمانية فى بافاريا كى تكون فى مأمن وتأخذ كل احتياطاتها فيما يتعلق بما تعتقده جذور الأفكار المؤدية إلى ثورة ١٧٨٩م الفرنسية، أضافت إلى الكتاب السابق ذكرهم المؤلفين الآتى ذكرهم: فردريك العظيم من بروسيا؛ اسبينوزا، كانط؛ إراسموس من روتردام؛ سويفت؛ تشيللر؛ فيلاند؛ أوفيد؛ فيرجيل، توماس مور؛ أفلاطون، إلياذة هوميروس !! ولماذا أغفلوا الأوديسة؟ للأسف لم تصلنا إجابة على ذلك.

وعلى الجانب الآخر فإن عمدة هانوفر وهو منذ سنة ١٧١٤ المعتمد البريطانى كان يحاول إعطاء قدر من التحرر من الرقابة. ولقد حظيت المجلات السياسية التى كان يحررها «شلوتزر» الأستاذ فى جامعة جوتنجن بتقدير عظيم وتداول واسع النطاق فى كل أنحاء أوربا. وكانت السويد هى أول دولة أوربية تعلن رسمياً إلغاء الرقابة على أرضها سنة ١٧٦٦، وقد تبعتها الدنمرك سنة ١٧٧٠.

إن التطبيق المتحرر من الرقابة يمكن الحصول على نتائجه من قيمة صادرات الكتب من النمسا، ففى سنة ١٧٧٣ بلغت صادرات النمسا ١٣٥٠٠٠ فلورين وبعد عشرين سنة وتبعاً للإصلاحات العظيمة التى قام بها الإمبراطور «جوزيف الثانى» ارتفعت الصادرات إلى ٠٠٠ر٢٦٠ر٣ فلورين.

لقد جاءت نقطة التحول مع الثورة الفرنسية التى توجت أفكار ميلتون بأفعال دستورية. وعشية الثورة الفرنسية أصدر «ميرابو» كتيبه «حول حرية الطباعة: النموذج الإنجليزى»[1] الذى كان إعادة صياغة أو سبك لأفكار ميلتون. وكان هذا

---

(1) Mirabeau.- Sur La Liberté de La Press: inité de L'anglais.- Londre, 1778.

المطبوع هو الأداة الأولى المحركة لإعلان الجمعية العمومية فى الفقرة الحادية عشر من حقوق الإنسان الصادرة فى السادس والعشرين من أغسطس ١٧٨٩م الذى نص على أن:

«التوصيل الحر للأفكار والآراء هو من أثمن حقوق المرء؛ وكل المواطنين يمكنهم التحدث والكتابة والطباعة بحرية»[1].

وقد تأثرت الدساتير المتعاقبة بهذه الفقرة وكان لابد من النص عليها فيها. ورغم النص عليها فإن تطبيقها قد خضع للظروف، فكم من ديكتاتور وكم من جاهل تحدى هذه الفقرة وضرب بها عرض الحائط وكمم الأفواه وكسر الأقلام وأغلق المطابع وهو يتشنج بالحرية والديمقراطية والشرف!

وثمة ثلاثة عوامل تعمل ضد تيار الرقابة حتى فى ظل الحكومات الديكتاتورية: -١- عامل الزمن بين النشر والحظر -٢- نوعية الرقباء أنفسهم -٣- مقاومة الجمهور، وعلى سبيل المثال فإن كتاب هوبز لسنة ١٦٤٢[2] وضع فى الكشاف الرومانى بالكتب المحظورة سابق الذكر سنة ١٦٥٤، وبين تلك السنتين كانت هناك أربع طبعات قد صدرت منه، كما طلبت جامعة أكسفورد حرق الكتاب سنة ١٦٨٣ عندما وصل عدد طبعاته فى يد الجمهور إلى ست طبعات.

وعامل الزمن هنا لا يمكن أن يفسر على ضوء وسائل الاتصال البطيئة فى ذلك الوقت، ولكن يجب تفسيره على ضوء طبيعة البشر الذين كانوا يمسكون بسيف الرقابة وجوانب الخير وجوانب الشر فيهم. وكلما كان الرقيب متفتحاً كلما كان بطيئاً فى اتخاذ الإجراءات الرسمية ضد الكتب، ونحن نعرف رقباء كانوا يحاولون دائماً مساعدة المؤلفين، ومنهم على سبيل المثال اللورد «تشامبرلين» المسئول عن منح تراخيص طبع المسرحيات، والذى كان يساعد على قدر الاستطاعة المؤلفين فى هذا الصدد كما كان يفعل ذلك أيضاً سير «آلان هربرت».

(1) La Libre Communication des pensées et des opinions est un des droits Les plus Précieux de L'homme' tout citoyen peut donc parler, écrire, imprimer Librement.

(2) Hobbes. De cive.- 1642.

وعلى العموم فإن تاريخ الرقابة فى القرون الأولى للطباعة ملىء بالأخطاء القاتلة فى حق الفكر. فالرقابة لأسباب سياسية أو أخلاقية كانت فى معظم الأحيان تدعو إلى السخرية والاشمئزاز لأنها كانت تسىء إلى الأخلاق والسياسة أكثر مما تدعمها. وفى مجال الدين تركت المسألة لصغار اللاهوتيين لكى يقرروا ما إذا كان العمل ضاراً بالدين أم لا. وفى ميدان السياسة والأخلاق لايمكن التمييز الصارم بين ما هو صالح وما هو طالح، لأن القضية فى أساسها هى نية المؤلف الذى يمكن أن ينقسم حولها رأى الناس.. حتى الرقباء أنفسهم.

إن الرقابة هى الخطوة الطبيعية التى تتلو السيطرة والتوحيد التى تلجأ إليها الأداة الحكومية فى ذلك الوقت فى أوربا. ومن غير المتوقع أن تجد لها أنصاراً ومؤيدين من أمثال «ج. و.فون ليبنتز» وهو من هو أحد كبار الفلاسفة المتنورين وعلماء السياسة فى عصره، والذى طالب بتطهير تجارة الكتب الألمانية التى حولت المؤلفين والناشرين وباعة الكتب إلى موظفين لدى الدولة (١٦٦٨-١٦٦٩). ومن هنا كانت القواعد والتعليمات بدلاً من المحاولة والخطأ؛ التوجيه بدلاً من الاستشراف، هى الأسس التى تقود الفكر فى ذلك الوقت. وكانت العبارة الشهيرة «يجب ألا يطبع شىء» هى العبارة السائدة حتى دون بيان تمهيدى عما قدمه المؤلف من معلومات جديدة يفيد بها مجتمعه.

وكانت هناك فى النمسا خطة مماثلة لما يحدث فى ألمانيا قدمها المستشار النمساوى «مترنيخ» المسئول عن حماية الحركات التحررية فى عموم أوربا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث وضع خطة لإنشاء تنظيم مركزى لكل تجارة الكتب فى ألمانيا تحت سيطرة حكومية صارمة، وذلك «للحد من القوة غير المحدودة لباعة الكتب الذين يوجهون الرأى العام الألمانى».

ولقد طبعت خطة مترنيخ فى نفس السنة ١٨١٩ عندما حاولت قوانين الرقابة فى كارلسباد سحق الحركة التحررية فى ألمانيا وفرض الرقابة القبلية الوقائية على كل الكتب السياسية الأقل من ٣٢٠ صفحة. ولقد حاول الطابعون والناشرون الالتفاف حول هذه القوانين بنجاح شديد حين استخدموا أصغر قطع من الكتب

وأكبر حجم من الحروف وأكبر عدد من العلامات والإيضاحيات، وجميع الحيل التى استخدمت طوال قرن من الرقابة لكى يصلوا بالكتب السياسية إلى ما فوق ٣٢٠ صفحة.

ومنذ القرن التاسع عشر فصاعداً استطاع الطابعون والناشرون وباعة الكتب أن يفلتوا من القواعد الصارمة التى حدت من انطلاق صناعة النشر والطبع فى القرون التى سبقت. وقد قامت نقابات واتحادات هذه المهن على اتفاقات ودية تطوعية بين الأطراف المعنية وليس على قواعد وتعليمات إجبارية من جانب السلطات الحكومية والدينية. ولم يكن هناك فى ذلك الوقت حدود لكم ولا لنوع الكتب المنشورة والكلمة المطبوعة. فالعمل الذى يعتبره أحد الطابعين خطراً أو غير مربح قد يقبله طابع آخر دون خرق لميثاق شرف المهنة. وكان الباعة الجائلون يستطيعون توصيل الكتب إلى مناطق لا يستطيع تجار الكتب العاديون الوصول إليها، وهكذا يجلبون السعادة والعلم إلى تلك المناطق البعيدة النائية «وطالما أن تجارة الكتب هى منطقة النفوذ لجمهورية الحروف؛ فإن الدستور الحر هو الشىء الوحيد الذى يناسب هذه المهنة: مهنة تجارة الكتب» على حسب تعبير مؤسسى اتحاد تجار الكتب الألمان سنة ١٨٢٥.

لقد حظيت طباعة الكتب وتجارتها بأكبر قدر من التحرير والتشجيع خلال القرن التاسع عشر، مع الاختفاء التدريجى للرقابة على الكتب والطباعة. وكان إلغاء الرقابة رسمياً فى ألمانيا سنة ١٨٤٨ وفى فرنسا سنة ١٨٧٢ ذا أهمية خاصة ودلالة بالغة لما يتمتع به هذان البلدان فى مملكة الحروف. ومع ذلك فإن «الحقوق الأساسية» المشار إليها فى الدساتير كانت فى حقيقة الأمر تعبيراً عن مثل واضعى هذه الدساتير أكثر من ممارسات الإدارة التنفيذية لما جاء فى تلك الدساتير. وبمساعدة من قوانين الطوارئ والقوانين الاستثنائية حاولت الحكومات وبنجاح عادة أن تفرض الرقابة بطريقة أو بأخرى، ولكن لحفظ ماء الوجه كانت تتجنب هذا الاسم «الرقابة» وتزينها بأسماء أخرى.

إن الحرب ضد الهرطقة قد خفتت حدتها فى القرن التاسع عشر بفضل **الكشاف الرومانى** والذى نسيه الناس أو أهملوه هو الآخر. ولكن هذه الحرب بعثت من جديد فى القرن العشرين على غير المتوقع، وجاءت فى صورة رقابة سياسية على أسس أيديولوجية. وقد بدأ الألمان هذه الحرب الجديدة سنة ١٩٣٣ بحرق كتب اليهود، والماركسيين، والمؤلفين الباسفيين وغيرهم من أتباع المدرسة الرمزية فى القرن التاسع عشر والتى كانت تضم آنذاك «بودلير» و«فيرلين» و«ماليرميه» الذين استبعدت كتبهم من المكتبات ومتاجر الكتب. ولقد وضع المؤلفون والناشرون وباعة الكتب قسراً فى منظمات أو تنظيمات تسيطر عليها الدولة والحزب، والتى كان من نتيجتها الحتمية - ولاستمرار مملكة الألف عام - أن غلف الظلام الشامل الفكر الألمانى ودفنه تحت غلالته.

لقد أدت الرقابة الصارمة التي فرضها الألمان على الدول المهزومة ١٩٤٠-١٩٤٥ إلى إحياء الحيل والمراوغات التى كانت تلجأ إليها الأجيال الباكرة من الطابعين، والتى وجدوا فيها عزاء وسلوى. فهذا هو «رينيه بيللوكس» فى «موسوعة الفنون الجرافيكية الزمنية» المنشورة فى باريس سنة ١٩٤٣[١] يطبع على ظهر صفحة العنوان ترخيص الطبع الذى منحه «هنرى الثالث» سنة ١٥٨٢ لأحد الناشرين الباريسيين، وحيا الرقيب الألمانى لإحيائه تقليداً قديماً. وقام الناشر الهولندى الشاب «ج.ج. فان ديروود» (المتوفى سنة ١٩٥٨) بإدخال حيلة جديدة فى «كتاب عن صناعة الكتاب»[٢]؛ المنشور فى أوترخت سنة ١٩٤١. وفيه شرح لجامع الحروف ـ أى المنضد ـ عن كيفية إعداد النسخة، وكان نموذجه فى ذلك نص عن «هولندا أرض قلوبنا» وفى هذا النص نصادف قصيدة وطنية حماسية أخاذة، ومزج فى هذا النص بين طبع كتل الخشب والحروف المتفرقة، ووضع فيه صورة من القرن السابع عشر مع النشيد الوطنى المحظور بشدة (فيلهلم فان رناساو) إلى جانب الصورة. ووضع فيه صورة أحد الربابنة اليهود من رامبراندت

(1) René Billoux. Encyclopedie Chronologique des artes graphiques.- Paris, 1943.

(2) Boekje over het maken van boeken.

كعينة على كتل الخشب الخطية. وفى الجزء الخاص بتصحيح البروفات جاء بنصوص فكهة عن النازيين الألمان والهولنديين.

ولكن مما يحمد للفاشيين والنازيين والفالانجيين (الكتائبيين) أنهم لم يستولوا مباشرة على دور النشر والمطابع فى تلك الدول. حتى الدار التى كانت ملكاً خالصاً لهتلر (فرانز إيهر فرلاج) فى ميونيخ لم تحاول أن تحتكر حتى كتابات النازيين. هذا بينما فرض الاتحاد السوفيتى والدول الدائرة فى فلكه على الكلمة المطبوعة نوعاً من التنميط والرقابة الصارمة بشكل لم يعرف فى أى من المجتمعات المتحضرة أو المتخلفة الجاهلة أو المتعلمة.

ولما كانت الحكومة السوفيتية تسيطر على جميع وسائل الإنتاج والتوزيع، فإنها لم تسمح بقيام أية مطابع خاصة. ولم يسمح بالنشر إلا فقط للكتب الموافق عليها من قبل رقباء الحكومة، كما لايسمح باستيراد أو بيع أو قراءة إلا الكتب التى تسمح الحكومة بتداولها. وهو الأمر الذى يهدم كل ما سعى إلى تحقيقه الطابعون والمؤلفون خلال قرون.

وهناك على الأقل حالة واحدة موثقة لجأت فيها الرقابة السياسية السوفيتية إلى الغش أكثر منه إلى القهر، وذلك فى الطبعة الرسمية من أعمال «تشيكوف» التى نشرت تحت كفالة الأكاديمية السوفيتية، والتى تزعم أنها تطبع أعمال الرجل كما كتبها وكما خلفها. ولكن الحقيقة أن المحررين قد تلاعبوا بالنص، وتم حذف أقسام بأكملها وعلى سبيل المثال: مراسلاته مع الثوار السوفيت التى لم يرض عنها الحكام فى الكرملين، أو بمعنى آخر: لم يعودوا راضين عنها وعنهم. وكل الإشارات العابرة التى كتبها تشيكوف وترجع إلى ما قبل ١٩١٤ حول الصفوة والمتفوقين الأوربيين (وخاصة البريطانيين) وكذلك حول المؤسسات والعادات والقيم والمعايير الأوربية الممتازة، حذفت أو - على حد تعبير اشتاينبرج - اجتثت بلا رحمة. وليست هناك أدنى إشارة تكشف سر هذا التحول إزاء هذا الوطنى الروسى التقدمى.

ومن ناحية أخرى ثمة أمثلة على أن الرقابة من أسفل يمكن أن تكون أكثر تعصباً وأكثر عنفاً من الرقابة من أعلى. ولدينا نموذج رائع على ذلك من نضال

«جيرهارت هوبتمان» ضد حظر نشر كل رواياته تقريباً من ١٨٨٩ وحتى ١٩١٣. وكانت جماعات الضغط الخاصة فى ألمانيا وفرنسا والنمسا والمجر وإيطاليا وروسيا والولايات المتحدة تضغط على السلطات التى تمنح التراخيص لمنع تلك الروايات وذلك لحماية الأخلاق والامتناع عن المسكرات والدين والأسرار العسكرية والطفولة البريئة والوطنية. وكانت تلك الجماعات من التنظيم والإدارة بحيث تصل إلى أصغر قرية.

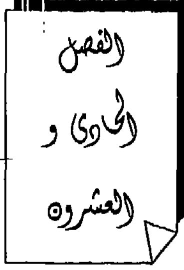
والحقيقة أن الأقسام غير الدينية اللاهوتية فى كشاف الكنيسة الرومانية ما تزال حتى الآن تحير دارسى الإنتاج الفكرى حتى من بين المسيحيين أنفسهم.. أرثوذكس أو كاثوليك. وبينما حذف اسم كل من «بوكاتشيو» و«رابيليه» من هذا الكشاف فى الطبعات الحديثة فإن قائمة المؤلفين المحظور تداول كتبهم ما تزال تضم: فرانسيس بيكون، سير توماس براون، ريتشاردسون، جيبون، لوك، هوبز، جون ستيورات ميل، واللورد أكتون من بين المؤلفين الإنجليز. أما من بين المؤلفين الفرنسيين فإننا نصادف: مونتان، باسكال، ستندال، بالزاك، ديماس، فيكتور هيجو.

إن الرقابة فى بريطانيا تضع المرء فى موقف محير ومربك، سواء خارج بريطانيا أو داخلها. فمن الناحية النظرية البحتة هناك رقابة سياسية شاملة يفرضها القانون لحماية : الأسرة المالكة، البرلمان بمجلسيه: العموم واللوردات، الحكومة، الدستور. كما أن هناك رقابة على كل من يتدخل فى شئون الملكة الخاصة أو يبذر بذور الفتنة الطائفية بين أفراد المجتمع من خلال الوسائل المختلفة، ومن بينها «الطباعة أو الكتابة». ولكن على أرض الواقع لايدرك معظم الإنجليز هذه القيود وهم أصلاً غير عارفين أو واعين لوجودها. ولايعرفون أصلاً أن هناك رقابة سياسية. والأخطر من هذا أن كل قاض ومحكم ورجل شرطة يحمى الحرية الفكرية بصرف النظر عن القالب النظرى الذى تتحرك فيه السلطات الحكومية. وإن مايحدث فى حديقة هايد بارك فى لندن من حرية التعبير العلنى دليل حى على ذلك.

وهناك اتفاق الآن بين كل الناس فى العالم الحر على أن الرقابة السياسية - إلا فى حالة الطوارئ القصوى - هى عمل بشع فى حد ذاته. إلا أن الأمر يختلف جذرياً فى حالة الرقابة الأخلاقية - وهو مصطلح يستخدم أساساً بالنسبة لمطبوعات الدعارة والفحش الجنسى - فهناك تباين فى وجهات النظر حولها ما بين مؤيد لها ومعارض. والمشكلة تكمن فى تغير القانون الأخلاقى نفسه، فما هو أخلاق فى بلد ما قد لا يكون كذلك فى بلد آخر، بل داخل البلد الواحد يختلف الأمر من الريف إلى الحضر، ناهيك عن الزمن؛ فما هو أخلاق فى زمن ما قد لا يكون كذلك فى زمن آخر. وتعريف الرقابة الأخلاقية نفسه أمر لا يمكن الإجماع عليه. ومن هنا تترك هذه المسألة لتقدير رابطة الناشرين أنفسهم ليضعوا القواعد التى يمكن الالتزام بها فى هذا الصدد وتكون مرنة حتى لا تتحول إلى قوالب جامدة.

لقد نظر البعض إلى حرق مذكرات وذكريات «بايرون» التى اعتبرها «چون موريى» عمل فاضح وفاحش وفيه قذف وتشهير هو الأسوأ من نوعه، نظر إلى هذا العمل على أنه خسارة كبيرة للفكر. ومن جهة ثانية يقال إن شركة «كوتَّا» قد أحسنت صنعاً وأدت خدمة جليلة للعلم والتاريخ بالتوقف عن نشر المجلد الثالث من مذكرات «بسمارك» أثناء حياة «ويليام الثالث». وكان نشره سنة ١٩١٩ بعد خروج الإمبراطور غير المشرف من على مسرح الحياة السياسية؛ حيث رسم لنا بسمارك صورة للحياة العابثة للملك الشاب وأراد أن يطرحها على العالم فى ذلك الحين.

* * *



حقوق التأليف والنشر

حق الطبع له وجهان : حق المؤلف وحق الناشر.

وفى العصور القديمة والعصور الوسطى لم يكن هناك أى من الوجهين، لا حق للمؤلف ولا حق للناشر بأى قدر من الحقوق. وفى العصور الوسطى كانت الكتب تنسخ أساساً وتنتج داخل الأديرة، حيث كان الرهبان يتجردون من أى ثروة أو ملكية شخصية. وفى خارج الأديرة ـ فى العالم العلمانى ـ لم يكن للمؤلف أى سلطان على عدد النسخ أو حتى على المادة العلمية فى كتابه طالما خرج العمل من حوزته. ولفترة طويلة بعد ظهور الطباعة لم يحاول المؤلفون بذل أى جهد فى حماية حقوقهم فى مؤلفاتهم. وكانت هناك أسباب كثيرة تكمن خلف تلك الظاهرة: أولها كان يكفى المؤلف شرفاً أنه مؤلف، وهذه هى المكافأة الكبرى له كما أسلفت. وثانيها: أن معظم المؤلفين كانوا من الباحثين الأغنياء الذين لم يكن يعنيهم كثيراً الحصول على عائد مادى من الطابعين وباعة الكتب، بل كانوا يترفعون عن التعامل المالى معهم، وبعضهم كان يعتبر ذلك عيباً وعاراً. وكان نظام الرعاية والرعاة القائم آنذاك يعين فقراء الباحثين ويمدهم بالمكافآت السخية أو الكافية فى هذا الصدد ولذلك نادراً ما كان أحد المؤلفين ينتظر عائداً مالياً من وراء عمله.

من جهة ثانية كانت التكاليف والأعباء المالية على الطابع - الناشر مرتفعة. إذ كان عليه أن يدفع ثمن الورق والحبر وتصميم الحروف وصب الحروف وجمع الحروف وطبع النص، وكلها كانت عالية فى ذلك الزمان.. ويضاف إليها الأجور التى تدفع للمحررين ومصححى البروفات. ولهذا كله لم يكن الطابع ـ الناشر فى البداية يدفع عائداً للمؤلف إذا وجد، وكان يعمد إلى كتب التراث

الكلاسيكية التى مات عنها مؤلفوها منذ زمن سحيق. ولكن إزاء كل هذه التكاليف وإزاء كل هذا النصب كان الطابع - الناشر حريصاً كل الحرص على ألا يسرق جهده هذا ناشر آخر، وقد رأينا فى امتيازات طابعى البندقية بواكير حماية حقوق الطابعين الناشرين. ومن الواضح أن حماية حقوق الناشرين والطابعين قد سبقت بفترة طويلة حماية حقوق المؤلفين.

فى إنجلترا نجد أن أول شكل من أشكال حماية الطابعين - الناشرين قد جاء من قبل التاج البريطانى، ففى سنة ١٥٠٤م قام الملك «هنرى السابع» بتأسيس **مكتب الطبع الملكى** وعين أول طابع فيه **وليام فاكيس**. وقد جاء بعد فاكيس، «ريتشارد بنسون» حيث صدر له أول امتياز ملكى سنة ١٥١٨؛ وكان هذا الامتياز عبارة عن احتكار لمدة سنتين فى طبع كتاب «خطابة ريتشارد باكى»، كذلك منح امتياز مماثل للطابع «وينكن دى ويرد» فى طبعته الثانية من كتاب ويتينتون «رسالة فى النحو». وفى سنة ١٥٣٠م نجد حالة وحيدة وهى منح أحد المؤلفين امتياز طبع كتابه لمدة سبع سنوات، وهى حالة فريدة لم نصادف مثلها لمؤلف أوربى فى ذلك الوقت المبكر. وفى عهد الملك «هنرى الثامن» نصادف عدداً من الامتيازات المحددة التى منحت لطابعين وناشرين، وعلى رأسها ذلك الامتياز الذى منح إلى الطابع الناشر «أنطونى موررلار» سنة ١٥٤٢، والذى يخول له حق طبع الكتاب المقدس الإنجليزى لمدة أربع سنوات، كما منح «جرافتون» و «ويتشيرش» سنة ١٥٤٣ حق طبع «كتاب الخدمة المقدسة».

وفى سنة ١٥٤٧ نجد امتيازات تمنح لطابعين مختلفين فى احتكار طبع فئات بعينها من الكتب وليست مجرد كتب بعينها؛ وعلى سبيل المثال حصل «ريجنالد وولف» على امتياز حق احتكار طبع الكتب اللاتينية واليونانية والعبرية. كما منح «ريتشارد جرافتون» الحق المطلق فى طبع كتب اللوائح والقوانين. وفى سنة ١٥٥٣م حصل «وليام سيريس» حق احتكار طباعة كتب تعلم مبادئ القراءة

والكتابة وكتب الأسئلة والأجوبة باللغة الإنجليزية وكتب الأبجديات. وفى نفس السنة حصل «ريتشارد توتيل» الحق المطلق لطباعة كتب القانون العامة.

ولكن بعد صدور قانون إنشاء «جمعية الوراقين»[1] سنة ١٥٥٧م لم يعد من حق أى شخص أن يطبع أى شىء ويطرحه للبيع داخل المملكة إلا إذا كان عضواً فى الشركة أو يحمل امتيازاً ملكياً. وقد أصدرت الملكة «إليزابث» تأكيداً لميثاق الجمعية سنة ١٥٥٩، وفى تلك السنة تقرر أن يسجل الأعضاء أسماء الكتب التى يعتزمون نشرها أو نشروها بالفعل فى سجل داخل الشركة مقابل رسم معين يحصل عن كل كتاب. وكانت الكتب التى تطبع بناء على امتياز ملكى تعفى من ذلك التسجيل ومن ثم من ذلك الرسم؛ ولكن سائر الكتب كان لابد من تسجيلها.

ورغم اعتماد ميثاق شركة الوراقين إلا أن الملكة إليزابث استمرت فى منح امتيازات واحتكارات الطبع لعدد من الأفراد. سنة ١٥٥٩ على سبيل المثال حصل «ريتشارد توتيل» على امتياز حق احتكار طبع الكتب القانونية. وحصل «وليام سيريس» على حق احتكار طبع كتب مبادئ تعليم القراءة والكتابة وكتب الصلاة، بينما حصل «جون ديى» على امتياز طبع كتاب كننجهام «علم الكونيات»[2]. وقد تبع هذه الامتيازات، امتيازات أخرى من أنواع مختلفة، مثل طول الحياة لفترات أطول، مما ضيق الخناق على الطابعين الآخرين فى طبع أعمال غير مشروعة. وقد جاء أول اعتراض على هذه الامتيازات من جانب شركة الوراقين التى اعترضت وبنجاح شديد سنة ١٥٧٦ على منح أى امتياز يعطى الطابع احتكار جانب كبير أو مساحة كبيرة من الكتب. وفى السنة التالية قدم اعتراض مشترك من الطابعين، وصانعى السكاكين، وبائعى الزجاج.. قرروا فيه أن الامتيازات التى تعطى لأفراد بعينهم تضر بالآخرين فى المهنة. وعندما لم يلتفت إلى تلك الاعتراضات طفق

(1) Stationer's Company.

(2) Cunningham. Cosmographical Glasse.

بعض الطابعين يعيد طباعة وبيع الكتب الناجحة حتى تلك التى طبعها أصحاب الامتيازات الملكية، بل واستخدموا أسماءهم وعلاماتهم التجارية. وكان قادة هذه الحركة «جون وولف» و«روجر وارد». ورغم أنهم سجنوا عدة مرات لخرقهم الامتيازات الملكية إلا أنهم تمسكوا بموقفهم، وأعلن وولف بعد سجنه للمرة الثانية أنه حر فى اختيار ما يطبع. ونتيجة لذلك شكلت لجنة خاصة لدراسة الموقف، وتم التوصل سنة ١٥٨٤م إلى حل وسط تنازل بعض أصحاب الامتيازات طواعية عن بعض تلك الامتيازات. وقام جون ديى بصفة خاصة بالتنازل عن ستة وثلاثين كتاباً. كذلك تم الاتفاق على أن مالك امتياز حق الطبع إذا لم يشأ استغلاله فإنه يجب أن يتنازل عنه لطابع ممن ليس معهم امتياز، على أن يدفع هذا الأخير مبلغ ستة بنسات عن كل جنيه من تكلفة الكتاب.

ورغم السخط العام، استمرت الملكة إليزابث فى منح تراخيص امتياز الطبع هذه لعدد من الأشخاص. ففى سنة ١٥٨٨ سمحت للطابع «ريتشارد واتكنز» بتجديد حق احتكاره طبع «التقاويم» و «كتب النبوءات» لمدة واحد وعشرين سنة أخرى. وأصدرت ما بين ١٥٨٩ و ١٥٩٢م ثلاث تراخيص امتيازات على الأقل لمؤلفين تخولهم طبع كتبهم. ولكن فى سنة ١٦٠١ وتحت ضغط السخط العام الذى اشتد، اضطرت إليزابث إلى وقف كل الاحتكارات الشخصية وتعليق استخدام ما منح منها إلا بعد موافقة خبراء القانون الملكيين.

ولسوء الحظ أن مهنة الطباعة عموماً لم تفد من إجراء الملكة إليزابث هذا طويلاً لأن خليفتها «جيمس الأول» لم يكتف بتأكيد بعض الامتيازات التى سبق وأن منحتها الملكة إليزابث، ولكنه منح عدداً من الامتيازات الجديدة لطابعين لم يكونوا أصلاً أعضاء فى شركة الوراقين. ولكنه مع ذلك أفاد تلك الشركة من جهة ثانية وسمح لها تحت إشرافه أن تنشئ صندوقاً لتنمية الكتاب[1] ينقسم إلى خمسة صناديق فرعية تقابل خمسة فئات من الكتب هى على وجه التحديد: كتب الأغانى الشعبية؛ الكتاب المقدس؛ الكتاب الأيرلندى؛ الكتاب اللاتينى؛ الكتاب

(1) Book Trust.

الإنجليزى. وكل صندوق فرعى هو ملكية مشتركة لجميع أعضاء الشركة وليس لأصحاب التخصص وحدهم.

وفى سنة ١٦٠٣ رخص الملك لصندوق الكتاب الإنجليزى حق احتكار مطلق لطبع كتب مبادئ القراءة والكتابة وكتاب المزامير الذى بمقتضاه تم سحب هذه الكتب من چون و ريتشارد دى اللذين كانا يحملان من قبل حق هذا الاحتكار. وقد منحت مثل هذه التراخيص لسائر الصناديق الفرعية بالتدريج حتى صار للشركة سلسلة هامة من الاحتكارات أزالت بها شكواها.

وفى عهد الملك «تشارلز الأول» كان هناك قدر كبير من الطباعة غير الشرعية، وفى محاولة لوقف هذه الأعمال غير المشروعة صدر مرسوم من «غرفة النجمة»[1] سنة ١٦٣٧، بمقتضاه حدد عدد الطابعين العاملين فى إنجلترا بثلاثة وعشرين مطبعة فقط، بما فى ذلك المطبعة الملكية ومطبعتى جامعتى أكسفورد وكامبردج. كما فرض هذا المرسوم ضرورة الحصول على تصريح قبل طبع الكتاب على حسب موضوع الكتاب. فالكتب القانونية تصدر تصاريحها من قبل اللورد قاضى القضاة[2]. وكتب التاريخ والسياسة من قبل وزير الخارجية (سكرتير الدولة)، كتب المبارزة من إيرل مارشال، وسائر الكتب الأخرى تصدر تصاريحها من السلطات الكنسية أو من مديرى ونواب مديرى جامعتى أكسفورد وكامبردج. وكل كتاب ـ سواء كان جديداً أو إعادة طبع ـ لابد وأن يسجل فى سجل شركة الوراقين: اسم المؤلف وعنوان الكتاب واسم الطابع والناشر. وأى مخالفة لتلك التعليمات كانت تقابل بعقوبة صارمة.

وبمجرد حل غرفة النجمة سنة ١٦٤١م أصبح ذلك المرسوم باطلاً كأن لم يكن. ورغم قسوة هذا المرسوم إلا أن إلغاءه لم يعد بنفع كبير على شركة الوراقين التى أصبحت مهددة بفقد الامتيازات التى حققها لها القانون. وحدث فعلا بعد ذلك أن انتشرت المطابع دون قيد أو شرط، وطفق الطابعون والناشرون ينشرون كتب الامتيازات والاحتكارات. وبسبب هذه الفوضى تقدمت شركة الوراقين بطلب إلى البرلمان صدر بناء عليه قرار سنة ١٦٤٣ تلاه بعد عشرين عاماً قانون تصريح الطبع سنة ١٦٦٢. وفى هذا القانون الجديد إحياء لنفس قرارات

(1) Star Chamber.

(2) Lord Chief Justice.

غرفة النجمة، وخفض عدد الطابعين فى لندن إلى عشرين فقط. كما أن هذا القانون أكد على فكرة حق الطبع الموجودة فى القانون العام، وأعطى للمرة الثانية شركة الوراقين حق السيطرة والتحكم فى جميع المطابع ووجوه الطباعة فيما عدا مطابع أكسفورد وكامبردج. وأكد القانون على ضرورة تسجيل كل الكتب فى مقر الشركة، وأهم من هذا وذاك أكد على ضرورة **إيداع ثلاث نسخ من كل كتاب سواء كان جديداً أم إعادة طبع** فى مقر الشركة قبل عرض الكتاب للبيع العام. وهذه النسخ الثلاث كان يجرى توزيعها على الوجه الآتى : نسخة للمكتبة الملكية ونسخة لكل من جامعتى أكسفورد وكامبردج. وقد تم تجديد هذا القانون سنة ١٦٦٤ لمدة عام، وفى سنة ١٦٦٥ عدلت فقرة الإيداع بحيث يتم إرسال النسخ الثلاث من الناشر مباشرة إلى جهة الإيداع دون حاجة إلى إيداعها أولاً فى مقر الشركة. وكان المفروض أن ينتهى العمل بهذا القانون سنة ١٦٧٩، ولكن تم تمديد العمل بمقتضى «قانون استمرار القوانين المنتهية» سنة ١٦٨٥م، ومن ثم ظل هذا القانون سارياً حتى سنة ١٦٩٥.

قانون حق الطبع الإنجليزى لسنة ١٧٠٩

بانتهاء العمل بقانون ١٦٦٢ وتمديداته المختلفة فى ١٦٩٥ فقدت شركة الوراقين سيطرتها مرة أخرى على حق الطبع، وأن حق الطبع وإنشاء المطابع والطباعة قد فتح على أوسع أبوابه دون قيود ودون حدود. وتبعاً لذلك قدم باعة الكتب فى لندن سنة ١٧٠٣ التماساً بضرورة إصدار قانون محدد لحماية حقوق الطبع، وتكرر هذا الالتماس مرة ثانية فى سنة ١٧٠٦. وقد فشل هذان الالتماسان فى تحقيق أى استجابة، ولكن الالتماس الثالث الذى قدم سنة ١٧٠٩ نجح فى استصدار «قانون تشجيع العلم بحماية النسخ المطبوعة لمؤلفى ومشترى هذه النسخ خلال الفترة الموضحة فيه»[(١)] ولعل الملمح الهام فى هذا القانون المعروف باسم «قانون الملكة آن لحماية حق الطبع»[(٢)] أو «قانون حق الطبع لسنة

---

(1) "An act for the Encouragement of Learning by vesting the Copies of Printed Books in the Authors or Purchasers of Such Copies during the Times Therein Mentioned".

(2) Copyright Act of Queen Anne.

١٧٠٩»[1] هو أنه لأول مرة فى التاريخ يعترف بحق المؤلف فى مؤلفاته. وهو يقرر أن حق طبع الأعمال المنشورة بالفعل هى للمالك الفعلى الحالى، سواء كان المؤلف أو الناشر، وذلك لمدة واحد وعشرين سنة. أما مؤلفو الكتب الجديدة التى لم تنشر بعد فلهم وحدهم الحق المطلق فى طباعتها، ولهم حق بيع هذه الحقوق إذا رغبوا لمدة أربعة عشر عاماً، على أن تسجل بيانات الكتب قبل طباعتها فى سجلات شركة الوراقين لحماية هذه الحقوق.

والحقيقة أن هذا التشريع قد نقل المؤلف من أقصى نقاط الضعف إلى أقصى نقاط القوة، وأعطاه وضعاً رائعاً للحصول على أفضل عائد من وراء كتابه. ويلاحظ أن فترة الحماية وهى أربعة عشر عاماً كانت تجدد لمدة أخرى إذا كان المؤلف مايزال حياً، وتسقط هذه الحقوق إذا توفى المؤلف. وكان يمكن للمؤلف قبل ذلك أن يتنازل أو يبيع تلك الحقوق بيعاً مطلقاً، ولكن فى القانون الجديد لايكون بيع هذه الحقوق إلا لمدة أربعة عشر عاماً فقط تعود بعدها إليه، ويمكن إعادة بيعها لمدة أربعة عشر عاماً أو لفترات أقل من ذلك، وإذا كان الكتاب من الكتب الرائجة فإن للمولف أن يرفع سعره وأجره فى حالة إعادة بيع تلك الحقوق. ومن جهة ثانية فإن هذا القانون عندما حدد فترة معينة لحق الطبع فإنه يكون بذلك قد ألغى فكرة الاحتكار المطلق لحق الطبع، وهى فكرة كانت قد شاعت بين الطابعين ـ الناشرين فى ذلك الوقت. ولقد زاد هذا القانون الإيداع من ثلاث إلى تسع نسخ؛ والنسخ الست الأخرى كانت ترسل إلى : كلية سيون فى لندن؛ مكتبة المحامين فى إدنبرة، المكتبات الجامعية فى كل من : جلاسجو، إدنبرة، أبيردين، سانت آندروز.

ولقد اعترض كثير من الطابعين على إلغاء الحق المطلق الدائم فى الطبع وعلى زيادة عدد نسخ الإيداع من ثلاث إلى تسع نسخ. ولقد تجاهل بعضهم تماماً تعليمات الإيداع فلم يودعوا، كما أن بعضهم تجاهل مسألة تسجيل الكتب غالية الثمن فى سجلات الشركة، وذلك لأنه حسب نص القانون أن الإيداع يتم متى سجل الكتاب. ولكن هذا الموقف تم تداركه سنة ١٧٧٥ فى «قانون الجامعة (حق الطبع)» حيث أكد على أن الناشر مجبر على أن يودع نسخاً من كل الأعمال الجديدة كشرط أساسى لحماية الحقوق فى العمل.

(1) Copyright Act of 1709.

ورغم أن النص فى قانون ١٧٠٩ كان واضحاً وصريحاً وقاطعاً، إلا أن بعض الطابعين ـ الناشرين لجأ إلى التلاعب بألفاظ القانون وفسرها لصالحه أو ضد الآخرين. ولدينا قضية شهيرة فى هذا الشأن تعرف بقضية «دونالدسون»، وهذه القضية تتصل بكتاب «الفصول» الذى ألفه «جيمس طومسون». وتبدأ القصة عندما باع طومسون حق كتابه إلى الناشر «آندرو ميللر» سنة ١٧٢٩ وطبقاً لقانون ١٧٠٩م فإن حق الناشر يسقط ويعود للمؤلف سنة ١٧٣٨م.. واعتقد ميللر أن باستطاعته أن يدعى الحق المطلق طبقاً للقانون العام. وقد نظرت القضية أمام دائرة قضاة الملك حيث رفعها ميللر ضد الناشر الجديد لكتاب الفصول، وهو «روبرت تيلور» الذى نشر الكتاب سنة ١٧٦٣. وقد حكمت المحكمة للناشر ميللر على اعتبار أن القانون العام أقوى من قانون حق الطبع لسنة ١٧٠٩. ومن ثم استمر العمل بالحق المطلق لمدة خمس سنوات تالية عندما تم تحديه من قبل «ألكسندر دونالدسون» وهو بائع كتب وناشر فى إدنبرة ورائد من رواد إعادة الطبع، وقد أراد أن يكسر نظرية الحق المطلق هذا ويؤمن حقوق إعادة الطبع للناشرين عموماً، بأن قام بإعادة طبع كتاب الفصول. وكان ميللر فى ذلك الوقت قد باع حق الطبع فى هذا الكتاب إلى ناشر آخر هو «توماس بيكر» الذى اتخذ إجراء فورياً ضد دونالدسون وطالب بوقف توزيع طبعته. وقد قام دونالدسون من جانبه بتقديم دعوى أمام «مجلس اللوردات» الذي نقض حكم محكمة أول درجة وقرر بأغلبية ٢١ صوتاً ضد ١١ صوتاً بإلغاء حق الطبع المطلق الموجود فى القانون العام.

قانون حق الطبع الإنجليزى لسنة ١٨٠١.

كانت إحدى شكاوى الناشرين الإنجليز الدائمة والمزمنة هى عدم وجود قانون لحماية الكتاب الإنجليزى فى أيرلندة، حيث دأب الناشرون الأيرلنديون على إعادة نشر الكتب الإنجليزية مباشرة بعد نشرها فى إنجلترا دون حسيب ودون رقيب وحيث لا يملك الناشرون الإنجليز لهم دفعاً ولا يملكون حماية حقوقهم هناك. ولذلك تم تدارك الأمر فى قانون جديد صدر سنة ١٨٠١ عرف بـ «قانون حق

(1) James Thompson. The Seasons.

الطبع لسنة ١٨٠١»[1] الذى مد حماية القانون القديم ١٧٠٩ إلى أيرلندا، وذلك بشرط أن يودع الناشرون الإنجليز نسختين من كل كتاب ينشرونه فى كل من: مكتبة كلية ترينتى فى أيرلندة[2] ومكتبة خان الملك[3] فى دبلن أيضاً. وبهذا الإجراء ارتفع عدد النسخ التى يودعها الناشرون الإنجليز، ولم يحدد القانون ما إذا كانت النسخ المودعة من أحسن النسخ أم من النسخ العادية، ومن ثم فإن الناشرين لم يكونوا ليودعوا إلا من النسخ العادية. وفى سنة ١٨١٢ قامت جامعة كمبردج برفع دعوى ضد طابع يدعى براير لأنه لم يودع نسخة من كتاب للمؤلف «هيوود» بعنوان «سرد تاريخ السيد فوكس»[4] وقد قررت المحكمة فى حكمها أن جميع النسخ الإحدى عشرة التى تودع لابد وأن تكون من أحسن النسخ فى الطبعة، ولابد من الإيداع سواء سجل الكتاب فى سجلات الشركة أم لا.

قانون حق الطبع الإنجليزى لسنة ١٨١٤

ولقد أثار حكم المحكمة سابق الذكر اعتراضات عنيفة من جانب الطابعين والناشرين، واحتجاجات على تلك الاعتراضات من جانب المكتبات صاحبة امتياز الإيداع. وتمت إحالة الموضوع برمته إلى لجنة مختارة من مجلس العموم، وكانت نتيجة أعمال تلك اللجنة إصدار «قانون حق الطبع لسنة ١٨١٤»[5]. وقد أقر هذا القانون إيداع الإحدى عشرة نسخة، ولكنه أكد على أن نسخة المتحف البريطانى هى وحدها التى تكون من أحسن النسخ فى الطبعة. وأكد على أن نسخة المتحف البريطانى تودع تلقائياً، أما باقى النسخ فتودع فى حالة طلبها من جانب المكتبات صاحبة امتياز الإيداع. وقد حددت فترة الحماية فى القانون الجديد بثمانية وعشرين سنة أو طوال حياة المؤلف ـ أيهما أطول.

قانون حق الطبع الإنجليزى لسنة ١٨٣٦

استمر الاعتراض على عدد النسخ المودعة، وطالب الناشر بتقليل العدد أو

(1) Copyright Act ,1801.
(2) Trinity College Ireland.
(3) King's Inn, Ireland.
(4) Heywood. Vendication of Mr. Fox's History. - 1812.
(5) Copyright Act, 1814.

إلغاء الإيداع كلية. وقد حقق الناشرون نجاحاً كبيراً فى هذا الصدد سنة ١٨٣٦ عندما صدر قانون يقلل عدد النسخ المودعة إلى خمس فقط، بما يعنى أن ست مكتبات قد فقدت امتياز الإيداع فى مقابل مبلغ مالى يدفع لها سنوياً. وكانت المكتبات الخمسة المتمتعة بالإيداع فى القانون الجديد هى : مكتبة المتحف البريطانى؛ مكتبة بودلى (جامعة أكسفورد)؛ مكتبة جامعة كامبردج، مكتبة كلية المحامين (إدنبرة)، مكتبة كلية ترينتى (دبلن).

خطوات فى سبيل الحماية الدولية لحقوق المؤلفين

صدر فى إنجلترا «قانون حق المؤلف الدولى»[1] سنة ١٨٣٨م، وبمقتضاه تسرى الحماية على الأعمال الإنجليزية التى تنشر لأول مرة خارج إنجلترا والأعمال الأجنبية التى تنشر لأول مرة داخل إنجلترا، بشرط تسجيل بيانات الكتاب وإيداع نسخة مكتبة المتحف البريطانى لدى شركة الوراقين. وقد تم تعديل هذا القانون عدة مرات فى ١٨٤٤ ، ١٨٥٢، ١٨٧٥.

ولقد بدأ هذا القانون بعد عدد من الاتفاقات بين دول فردية ؛ ففى سنة ١٨٥١ عقدت اتفاقية بين كل من إنجلترا وفرنسا بمقتضاها تتم الحماية التبادلية لمؤلفى وناشرى البلدين. وقد تم تأكيد هذه الحماية فى قانون صدر سنة ١٨٥٢ وطالب بضرورة عقد مثل هذه الترتيبات مع دول أخرى. وقد أدت هذه الاتفاقات الثنائية فى النهاية إلى اتفاقيات دولية عديدة: بيرن ١٨٨٦، باريس ١٨٩٦، برلين ١٩٠٨، بيرن ١٩١٤، روما ١٩٢٨، بروكسل ١٩٤٨. وكانت هناك تسع دول ـ من بينها إنجلترا وليس من بينها الولايات المتحدة ـ هى المؤسسة لاتفاقية بيرن الدولية[2] سنة ١٨٨٦، وقد طرحت الاتفاقية بعد ذلك للتصديق عليها تباعاً، وفى كل سنة كانت تكسب دولاً جديدة مصدقة حتى بلغ عدد الدول التى انضمت إلى هذه الاتفاقية فى سنة ١٩٦٠ خمساً وثلاثين. والمشكلة الأساسية فى اتفاقية بيرن المزعومة أنها اتفاقية تبادلية تحمى الدول الداخلة فيها ولا تحمى الدول

(1) International Copyright Act, 1838.
(2) Berne Convention 1886.

غير الداخلة فيها، كما لا تحمى الدول الداخلة فيها فى دول غير منضمة إليها. ورغم أن الولايات المتحدة لم تنضم إليها إلا أنها قد عقدت العزم على حماية دولية للمؤلفين، وخاصة بعد انضمامها إلى «الاتفاقية العالمية لحق الطبع»(١) وكذلك قيادتها لمنظمة التجارة العالمية.

لقد قامت منظمة اليونسكو فى سنة ١٩٥٢ بالدعوة إلى عقد اتفاقية دولية لحماية حقوق المؤلفين بطريقة أفضل من الطريقة التبادلية لاتفاق بيرن، وفعلاً عقدت «الاتفاقية العالمية لحق الطبع» فى جنيف سنة ١٩٥٢ تحت رعاية المنظمة الدولية، كما قامت اليونسكو بدورها أيضاً فى عقد اتفاقية أخرى سنة ١٩٥٤ لتمد الحماية إلى الدول غير الداخلة فى اتفاقية جنيف.

قانون حق الطبع الإنجليزى لسنة ١٩١١

فى سنة ١٩٠٩ شكلت «لجنة حق الطبع» لدراسة قانون حق الطبع الإنجليزى الذى كان قائماً آنذاك، وقد خلصت إلى أن ذلك القانون يعيش حالة من الفوضى والتداخل وفى حاجة إلى إصلاح شامل. وبصدور القانون الجديد سنة ١٩١١ فإنه يكون قد جبٌ على الأقل واحداً وعشرين قانوناً آخر يتعلقون من قريب أو بعيد بحق الطبع. هذا القانون الجديد أعطى الحماية للمؤلف طول حياته ولمدة خمسين سنة بعد وفاته لمن لهم الحق، بحيث يتمكن أى ناشر فى الخمس وعشرين سنة التالية للوفاة من طبع ونشر الكتاب بشرط دفع عائد قدره ١٠٪ لمن له حق الطبع. وأكد على ضرورة إيداع النسخ الخمس على أن تكون من أحسن نسخ الطبعة ورقاً وتوزع على النحو التالى: نسخة لمكتبة المتحف البريطانى فى خلال شهر من النشر؛ نسخة لمكتبة بودلى (مكتبة جامعة أكسفورد)؛ نسخة لمكتبة جامعة كامبردج، نسخة للمكتبة الوطنية الاسكوتلندية (مكتبة المحامين، ثم مكتبة كلية المحامين فى إدنبرة سابقاً)؛ مكتبة كلية ترينتى فى دبلن. هذه المكتبات الأربع الأخيرة يودع فى كل منها نسخة من أي كتاب ينشر فى بريطانيا إذا طلب ذلك من الناشر فى خلال سنة من نشر الكتاب، وإلا سقط حقها فيه، وتكون النسخة فى الأحوال الأربعة من النسخ العادية. كذلك نص القانون على أحقية

(1) Universal Copyright Convention.

المكتبة الوطنية فى ويلز فى الحصول على نسخة من أية كتب تنشر بلغة ويلش أو يتعلق موضوعها بويلز من أية ناحية.

قانون حق الطبع الإنجليزى لسنة ١٩٥٦

فى أبريل سنة ١٩٥١ شكلت لجنة أخرى لدراسة قانون حق الطبع القائم آنذاك، وخاصة على ضوء التطورات الجديدة فى وسائط حمل المعلومات مثل التسجيلات الصوتية والتسجيلات الضوئية وتكنولوجيا الاستنساخ الجديدة والإذاعة والتليفزيون، حيث قد مضى على قانون ١٩١١ فترة طويلة حدثت خلالها تحولات جمة فى عالم الكتاب. وطلب إلى اللجنة أن تدرس موقف بريطانيا من حق المؤلف الدولى على ضوء توصيات اتفاقية بروكسل سنة ١٩٤٨. وبينما كانت اللجنة عاكفة على دراسة هذه الأمور كلها عقدت تحت رعاية اليونسكو «اتفاقية جنيف» أو «الاتفاقية العالمية لحق المؤلف» التى أشرت إليها من قبل سنة ١٩٥٢، وكان العديد من بنود تلك الاتفاقية ذا قيمة كبيرة بالنسبة لهذه اللجنة، أفادت منها فى تقريرها الذى رفعته إلى البرلمان. وقد أوصى هذا التقرير بالتصديق مباشرة على اتفاقية بروكسل وقبول المبادئ العامة التى جاءت فى «الاتفاقية العالمية لحق الطبع». وكان من الضرورى صدور قانون جديد لحق الطبع فى بريطانيا لكى يمكن مواكبة التطورات العالمية الحادثة فى هذا الميدان، والتطورات التكنولوجية التى طرأت على وسائط المعلومات.

ومن هنا صدر قانون حق الطبع ١٩٥٦[1] وقد تضمن كل ما كان قائماً فى قانون ١٩١١. وأهم ملامح القانون الجديد هذا:

١- أن يكون الكتاب المحمى عملاً مبتكراً من قبل **شخص مؤهل**. وهو مفهوم جديد على قانون حق الطبع الإنجليزى، حيث يناط حق المؤلف بالشخص بصرف النظر عن جنسيته، سواء كان وطنياً أم مقيماً على أرض الوطن بدلاً من مكان النشر الأول كما كان فى السابق.

٢- أزال القانون الجديد الغموض الذى غلف «الاستخدام المعقول»[2] أو

(1) Copyright Act, 1956.
(2) Fair dealing, Fair use.

«الاستخدام العادل» الذى ورد فى قانون ١٩١١، وحدد الحالات التى يتم فيها الاستنساخ بدون خرق لقانون حق المؤلف.

٣- قدم القانون تعليمات واضحة، وحدد المكتبات المسموح لها باستنساخ الكتب لأغراض بحثية بحتة.

٤- تم تعديل مصطلح فترة الحماية بحيث تبدأ فترة الخمسين سنة من أول يناير من السنة التالية لسنة وفاة المؤلف. وكانت الخمسون سنة تحسب بالضبط من تاريخ اليوم الذى توفى فيه المؤلف.

٥- ألغيت مسألة السماح لأى ناشر فى فترة الخمس وعشرين سنة الأولى من وفاة المؤلف بطبع كتابه بعد إخطار كتابى لمن يحمل حق الطبع، ودفع ١٠٪ من عائدات الكتاب إليه. وأصبح ورثة المؤلف أو من يحمل حق الطبع هم وحدهم الذين لهم حق استغلال الكتاب طوال الخمسين عاماً، حتى يتمشى القانون الإنجليزى مع اتفاقية بيرن.

حق المؤلف فى أمريكا

كانت ممارسات حق المؤلف فى المستوطنات الأمريكية تعتمد اعتماداً كلياً على الممارسات الإنجليزية القائمة فى إنجلترا الأم. إلا أنه فى سنة ١٧٨٣ قامت ولايات ميريلاند، كونكتكت، ماساشوستس بوضع قوانين خاصة بها، وقد أوصى الكونجرس الذى عقد فى شهر مايو من تلك السنة بأن تقوم بقية الولايات بسن مثل هذه التشريعات، وفعلاً لم تأت سنة ١٧٨٦م إلا وكانت سائر الولايات قد قامت بسن قانون حق المؤلف بها بطريقة أو بأخرى إلا ولاية دلاور.

ولأن تلك التشريعات كانت مجرد تشريعات ولائية تختلف من ولاية إلى أخرى، فقد أصدرت الحكومة الفيدرالية أول «قانون فيدرالى لحق المؤلف» سنة ١٧٩٠م[1]. وقد غطى هذا القانون الكتب، الخرائط، التخطيطات، وكما أشرت فى مواضع سابقة لماماً أن هذا القانون كان يحمى المؤلف الأمريكى فقط، وكانت

(1) Federal Copyright Act, 1790.

فترة الحماية أربعة عشر عاماً تجدد لفترة أخرى. وكانت هناك ثلاثة شروط لتطبيق الحماية على العمل الفكرى:

١- إيداع نسخة من صفحة عنوان العمل قبل طرح الكتاب فى السوق.

٢- يقوم المؤلف بالإعلان عن وقائع نشر كتابه لمدة أربعة أسابيع فى إحدى الجرائد، وذلك فى خلال الشهرين التاليين للنشر مباشرة.

٣- لابد من إيداع نسخة من الكتاب نفسه فى مكتب وزير الدولة خلال ستة أشهر من ظهور الكتاب.

وكان من الطبيعى أن تدخل تعديلات مختلفة على هذا القانون فى القرن التاسع عشر. ففى سنة ١٨٠٢م تم مد القانون ليشمل بحمايته التصميمات والرسومات والمحفورات، كما أكد هذا التعديل على ضرورة أن يشتمل الكتاب المطبوع على بيان حق الطبع. وصدر تعديل عام فى سنة ١٨٣١ ليضفى الحماية على النوتات الموسيقية ومد فترة الحماية إلى ٢٨ عاماً بعد أن كانت ١٤ عاماً فقط، مع حق المؤلف فى تمديدها لمدة ١٤ عاماً أخرى. وقد ألغيت الفقرة الخاصة بضرورة الإعلان عن إجراءات النشر فى الجرائد. وفى تعديل ١٨٤٦ صار من الضرورى إيداع نسختين من العمل المنشور، إحداهما فى مكتبة الكونجرس والثانية فى مكتبة معهد سميثونياتن. وبمقتضى القانون الجديد الذى صدر سنة ١٨٧٠م أصبح حق المؤلف والإيداع من اختصاص مدير مكتبة الكونجرس، وتم مد الحماية إلى اللوحات الزيتية والصور والتماثيل والنماذج، كما حتم تسجيل عنوان الكتاب قبل اتخاذ إجراءات النشر، ولابد من إيداع نسختين من كل كتاب فى غضون عشرة أيام فقط من نشره. وفى سنة ١٨٧٤ حددت صيغة بيان حق الطبع التى تطبع فى الكتاب بحيث تشمل:

أ- كلمة «حق الطبع».

ب- سنة النشر.

جـ- اسم صاحب حق الطبع.

وفى سنة ١٨٩١ صدر قانون جديد باسم «قانون تشيز»[1]. وهو القانون الذى مد الحماية لتشمل كتب الأجانب بشرط أن تكون منشورة فى الولايات المتحدة وتحمل بيان حق الطبع الأمريكى. وقد أنشئ بمقتضى هذا القانون مكتب حق الطبع وحتم إرسال نسختين إلى هذا المكتب بالبريد فى يوم ظهور الكتاب.

وفى سنة ١٩٠٩ صدر قانون جديد ينطوى على عدد كبير من التعديلات الجوهرية، فقد أصبحت مدة الحماية ٢٨ سنة من يوم صدور الكتاب تجدد لفترة مماثلة، أى ٢٨ سنة أخرى. ولم تعد الكتب الأجنبية المنشورة فى الخارج بلغات أجنبية فى حاجة إلى أن تكون منشورة فى الولايات المتحدة لكى تحظى بالحماية داخل الولايات؛ بينما كان الكتاب الإنجليزى غريب الوضع فى هذا القانون؛ ذلك أنه باستثناء كتب المكفوفين وكتب الحماية المؤقتة فإن كل الكتب الإنجليزية المعروضة للبيع داخل الولايات المتحدة لكى تحمى فلابد وأن تكون مصنوعة بالكامل داخل الولايات المتحدة.

وقد أدخلت تعديلات عديدة على قانون ١٩٠٩ هذا لمدة أربعين عاماً تقريباً وبعدها أصبح الأمر لايحتمل المزيد من التعديلات، وغدا من الضرورى إصدار قانون جديد، وفعلاً صدر القانون الجديد سنة ١٩٤٧ ليشمل الصورة الكاملة لحق المؤلف فى الولايات المتحدة. وقد مدت المادة التاسعة من هذا القانون الحماية على المؤلفين الأجانب المقيمين على أرض الولايات المتحدة حين النشر الأول لكتابهم، كما مدت الحماية إلى مؤلفى أية دولة تدخل فى اتفاقية حماية متبادلة مع الولايات المتحدة. ولما لم تكن هناك مثل هذه الاتفاقية آنذاك بين الولايات المتحدة وإنجلترا، فإن الكتاب الإنجليزى الذى لم يكن مؤلفه مقيماً فى الولايات المتحدة أثناء نشره الأول تنحسر عنه الحماية، ولكى تسرى عليه الحماية لابد وأن يكون مطبوعاً ومجلداً بالكامل داخل الولايات.

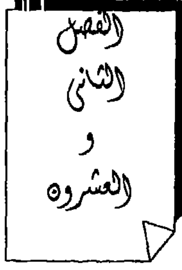
وقد صدر قانون آخر سنة ١٩٥٤ ظل معمولاً به فترة طويلة، وقد جاء هذا القانون نتيجة لانضمام الولايات المتحدة إلى «الاتفاقية العالمية لحق الطبع» المعقودة

---

(1) Chase Act, 1891.

فى جنيف ١٩٥٢. وفى القانون الجديد بقيت فترة الحماية كما هى ٢٨ سنة تجدد لفترة مماثلة. وقد شمل التعديل شكل طباعة بيان حق الطبع، كما مدت الحماية إلى مؤلفى جميع الدول الموقعة على «الاتفاقية العالمية لحق الطبع» كما جرى تعديل شروط حماية الكتب الإنجليزية غير المصنعة بالكامل داخل الولايات المتحدة. وأصبح فى الإمكان بعد هذا القانون دخول طبعات الكتب الإنجليزية التى لايزيد عدد نسخها على ١٥٠٠ نسخة خلال خمس سنوات من النشر الأصلى بشرط أن تحمل بيان حق الطبع.

* * *



بيع الكتب

يعانى الباحثون معاناة شديدة فى الحصول على البيانات المتعلقة بتجارة الكتب وتسويقها فى نهاية عصر المخطوطات وبداية عصر المطبوعات، والأسباب وراء ذلك واضحة، ذلك أن تجار الكتب بالمعنى الحديث كانوا قليلين قبيل ظهور الطباعة، ومعظم الناس الذين كانوا يبيعون المخطوطات فعلوا ذلك كنشاط جانبى وليس كعمل رئيسى يحترفونه. وسوف يلاحظ أن هؤلاء الذين احترفوا بيع الكتب كمهنة رئيسية لهم يتعيشون منها، اتخذوا المدن الكبرى جداً مركزاً لهم أو كانوا مرتبطين بالجامعات أساساً. وكان بيع الكتب غالباً ما يرتبط بإنتاجها، أى نسخها. ولدينا أمثلة قليلة على هؤلاء الوراقين الذين كانوا ينسخون الكتب ويبيعونها مثل «أوريسبا»، «بيستيشى»، «لاوبر» وذلك على نحو ما قام به الطابعون الأوائل حيث كانوا يطبعون الكتب ثم يتولون بيعها وتسويقها. والمشكلة فى هذا الصدد أيضاً أن بعض المصطلحات قد يدل على أكثر من مفهوم مما يضاعف البلبلة، وعلى سبيل المثال المصطلح اللاتينى Librarius الذى يعنى بائع كتب، ناسخ، خطاط، كاتب، أمين مكتبة. كذلك فإن التجار العاديين فى سبيل الحصول على بنس زيادة كانوا يتاجرون فى الكتب ضمن سلعهم الأخرى عندما تسنح الفرصة لذلك.

ونحن فى الواقع لانجد اختلافاً كبيراً فى فئات تجار الكتب المخطوطة عن فئات أوائل الطابعين. والحقيقة أنه لم تتكون فى القرن الخامس عشر ما يمكن أن نطلق عليها تجارة متخصصة فى الكتب أو تجار متخصصون فى الكتب أو تجار كتب بالمعنى البحت، وإذا وجد تاجر كتب بالمعنى النقى فإن ذلك يعتبر حالة فردية لايعول عليها ولايعتبر ظاهرة، على النحو الذى نصادفه فى الإعلان التالى:

إن جورج بائع الكتب.

لديه كتب كثيرة.

أكثر مما فى كل المدينة.
كتب من كل لون وكل شكل.
سواء مسروقة أو مستعارة.
أو حتى مبتاعة.
لديه المراسيم البابوية وكتب الأخبار.
وكتب ساعات سيدتنا.
ونحو دوناتوس وأجزاء وأخبار الحوادث.
ومزامير داود المصورة.
والمزوقة بقطع من الفضة.
لدينا كتب الفيزياء والطب.
والمزامير السبعة والتقاويم.
والحبر والرقوق.
وأقلام البجع.
وأقلام الإوز.
وأدوات مفيدة.
تستأهل أموالاً كثيرة.

ومن المعروف ـ كما فصلت فى كتابى «الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى: الغرب المسيحى» ـ أن وراقى الجامعة كانوا ينسخون الكتب الجامعية سواء للإيجار أو للبيع. وعندما نقرأ بتمعن كتاب «آلبرشت كيرشهوف» عن تجارة الكتب وهو الوحيد من نوعه فى الموضوع، سوف نجد أن قائمة أسماء تجار الكتب تضم: صيدلياً، تاجر توابل، مدرسين، عرضحالجية (كتاب خطابات)، نساخين وإكليريين[1]! وعندما أصدر «شارل السادس» ملك فرنسا مرسومه سنة ١٤١١ بحماية بائعى الكتب الباريسيين، فإننا نجده يتحدث عن المخالفات التى تصدر عن باعة الملابس المستعملة[2] والحدادين[3] وباعة القطع الصغيرة[4] والفرائين[5]

(1) Albrecht Kirchhoff. Die.
(2) Frippiers.
(3) Ferrons.
(4) Merciers.
(5) Pelletiers.

والباعة[1] ومعنى هذا أن هؤلاء جميعاً كانوا ينافسون تجار الكتب الفعليين فى بيع الكتب. وقد جرت العادة فى المدارس الألمانية أن يقوم المدرسون ببيع الكتب للتلاميذ. وفى سنة ١٤٩٢ أصدرت تعليمات تحظر على المدرسين إكراه التلاميذ على شراء الكتب بالقوة إلا فى حالة كتب تعليم القراءة والكتابة[2] فقط. وقد أشارت بعض المصادر إلى أن تجار الرقوق كانوا يبيعون الكتب أيضاً، وأضافت تلك المصادر إلى أن جماعة إخوان الحياة العامة لم تكن لتكتفى بنسخ الكتب فقط بل كانت تتجر فيها وتبيعها أيضاً بأعداد كبيرة. ومع كل هذا فإن عدد المخطوطات التى كان يتم تداولها فى سوق المخطوطات كان قليلاً.

وفى حدود المصادر المتاحة لى يمكن القول بأن بائع الكتب المتخصص ـ أى الذى يقتصر عمله وكسب رزقه من تجارة الكتب وحدها ـ لم يكن يمثل ظاهرة فى الجيل الأول بعد اختراع الطباعة. وكان للإنتاج الكبير للكتب المطبوعة أثره فى ازدهار تجارة الكتب بالمفهوم الذى عليه الآن. وكان نجاح الطابعين فى عملهم يتوقف على تحويل منتجاتهم إلى أموال سائلة. وكان لابد من فتح منافذ تسويق أكثر وأحسن لتصريف المنتج الجديد ولإشباع الحاجة المتزايدة نحو مواد القراءة. وفى نفس الوقت فإن الكميات الكبيرة من الكتب التى أتاحتها الطباعة جعلت من تجارة الكتب عملية مربحة وممتعة فى نفس الوقت، بل وجذابة أيضاً. وكان على تاجر الكتب الجديد ـ سواء كان موظفا عند الطابع أو عند الناشر أو مستقلاً بنفسه ـ أن يكون ذا حس تجارى من جهة، وعلى درجة من التعليم من جهة ثانية. لقد كان عليه أن يكون متعلماً وأن يفهم ولو بطريقة عامة محتويات الكتب التى يتاجر فيها حتى يرضى أذواق المشترين والزبائن. ومن النتائج المباشرة للجمع بين الحس التجارى والتعليم فى تاجر الكتب أن نال بعض تجار الكتب وضعاً شبه أكاديمى، أخذ بالفعل صبغة رسمية فى وراقى الجامعة فى عموم الجامعات الأوربية، ولكن ملك فرنسا عبر عن ذلك الوضع تعبيراً صريحاً سنة ١٦٤٩ بقوله:

(1) Venderesses.

(2) Tafeln.

«إننا نعتبر باعة الكتب والطابعين والمجلدين على الدوام جزءا من جامعتنا المحبوبة [السوربون] وهم مختلفون عن المهن والحرف والتجارات الأخرى. إن تاجر كتب الجامعة ليس كسائر تجار الكتب الآخرين الذين يدخلون فى عداد المهن».

لقد كان الوضع فى فرنسا مختلفاً، ولكن تجارة الكتب ككل كانت لها آنذاك مكانة مشرفة على نحو ما هى عليه الآن فى معظم الدول المتحضرة. وكما أشرت من قبل كان إنتاج كميات كبيرة من الكتب وطرحها على دوائر متسعة من القراء يتطلب من الطابعين والناشرين بطبيعة الحال البحث عن منافذ تسويق خارج نطاق المنطقة التى يعملون فيها. وقد قرر بعض الثقاة أن الكتب فى العقود الأولى للطباعة كانت للاستهلاك المحلى فقط، ولكن الحقائق تؤكد أن بعض الطابعين الأول ـ ومن بينهم على سبيل المثال «فوست» ـ كانوا يرتحلون من مناطق عملهم إلى دول أخرى لتسويق كتبهم، وطالما كانت اللغة اللاتينية هى السائدة فى كل أنحاء أوربا فكان من الممكن تسويق كتاب مطبوع فى ألمانيا أو إيطاليا فى أى مكان آخر فى أوربا. ومما يذكر فى هذا الصدد أن «فوست» كان فى رحلة تسويق كتب منماينز إلى باريس عندما مات هناك فى باريس سنة ١٤٦٦. ويؤكد ذلك أيضا أنه فى سنة ١٤٦٨م ـ أى بعد وفاة فوست بسنتين ـ قام «لويس دى لافريند» رئيس برلمان لانجيدوك بطلب نسخة من طبعة شوفر التى طبعها سنة ١٤٦٦ من كتاب شيشرون (الرسميات)[1] فى باريس، حيث كان قد أقيم مكتب فرعى لمطبعة ماينز هناك فى الفترة مابين ١٤٦٦ـ ١٤٧٧. وفى سنة ١٤٧٣ كان هناك متجر كتب[2] قد أقيم فى الجامعة البعيدة؛ جامعة تولوز؛ كان يتلقى الكتب المطبوعة من ألمانيا، روما، فينسيا، باريس، ليون، وغيرها من المدن. وبعد ذلك بقليل كان ثمة طابع آخر هو كوبرجر فى نورنبرج - أشرنا إليه مراراً من قبل - كان له ممثلون فى أماكن بعيدة مثل بودابست، فينسيا، أنتويرب، باريس، وغيرها من

(1) Ciceron. De Officiis.

(2) Stationorius.

المدن. ومن الأمثلة أيضاً على خروج الطابعين من قوقعة مقر مطابعهم «بيتر دراخ» فى سباير الذى كانت له مستودعات ليس فقط فى ستراسبورج، فرانكفورت، كولون، ليبزج وإنما أيضاً فى نورنبرج وأوجزبرج وما امتد إليه يمكن أن يدرس بتأن من واقع دفاتر حساباته التى نشرها «فيرديناند جيلدينر» فى «أرشيف تاريخ الكتب» المجلد الخامس سنة ١٩٦٢.[1] والذى تضمن تفاصيل دقيقة. ومن بين تلك التفاصيل على سبيل المثال أنه فى خلال سنتين ونصف فقط فى نهاية ثمانينات القرن الخامس عشر باع ممثله فى ليبزج ما قيمته ٢١٠٩ جيلدر راينى، وهو مبلغ كما نرى كبير بمقاييس ذلك الوقت. وأتصور أن جل المطابع الكبرى آنذاك كان لها وكلاء أو ممثلون لتصريف كتبها فى المدن الهامة وحيث تروج. ونحن نعلم أن معرض فرانكفورت الذى كانت المخطوطات تباع فيه لفترة، قد أصبح فى عصر الطباعة مزاراً للطابعين والناشرين بصفة منظمة منذ بداية الثمانينات من القرن الخامس عشر، وذلك لعرض منتجاتهم والدعاية لها هناك والحصول على أصول ينشرونها. ونحن نعلم أن الطابعين قد بدأوا فى استخدام الإعلانات عن منتجاتهم منذ نهاية ستينات القرن الخامس عشر، وكانت هذه الإعلانات كما سبق القول تعلق أو تلصق على أبواب الكنائس والجامعات والمدارس ومحلات بيع الكتب، كما كان الباعة الجائلون يحملونها معهم فى رحلاتهم التسويقية. وكان أول من استعمل الإعلانات العريضة «هنريتش إيجشتاين» فى استراسبورج ما بين ١٤٦٨ـ١٤٧٠، وذلك للإعلان عن عزمه طبع الكتاب المقدس ذى الواحد والأربعين سطراً.

وكان هذا الإعلان العريض - وغيره من تلك الإعلانات - يطبع منها عادة ما بين خمسين إلى مائة نسخة. وكانت هذه الإعلانات يقصد بها أن تعلق وتلصق فى الأماكن العامة، ومن الثابت أنها كانت تخرج عن نطاق المدينة بل والبلد التى صدرت فيها إلى مدن وبلاد أخرى.

وكما أشرت فى موضع سابق من بحثنا هذا، وصلنا إعلان آخر أعده شوفر

(1) Ferdinand Geldner. Archiv für Geschichte des Buchwesens, V, 1962.

فىماينز نحو ١٤٦٩-١٤٧٠م وكان بمثابة قائمة بالمطبوعات المتوافرة فى مخازنه. وتضم تلك القائمة عشرين عنواناً نشرها كل من فوست وشوفر وحدهما بين ١٤٥٨ و ١٤٦٩. ويبدو أن هذه القائمة اقتصرت على الكتب المتوافرة فقط والموجود منها نسخ فى السوق لأن الكتب التى كانت قد نفدت لم تدرج بين تلك العناوين. وفى نحو سنة ١٤٧١ قام «منتلين» فى ستراسبورج بالإعلان عن تسعة من كتبه، وفى سنة ١٤٧٣ توفر «باملر» فى أوجزبرج على الإعلان عن ثمانية. وفى ١٤٧٤ قام «زينر» أيضاً فى نفس مدينة أوجزبرج بالإعلان عن خمسة عشر كتاباً، وفى السنة التالية أعلن عن أربعة عشر كتاباً باللاتينية وأربعة كتب بالألمانية.. وإن كانت تلك الإعلانات قد اقتصرت على إنتاج طابع واحد فإنه اعتباراً من ١٤٧٦-١٤٧٧ ظهرت الإعلانات التى تضم إنتاج عدد من الطابعين معاً، وربما كان ذلك إيذاناً بقيام بعض المطابع أو تجار الكتب بالاتجار فى كتب أكثر من مطبعة ومن ثم الإعلان عنها وتوزيع تلك الإعلانات على الممثلين والوكلاء.

وقد ظهر أول إعلانين من هذا القبيل فى وقت واحد: أحدهما توفر عليه «كروسنر» فى نورنبرج وقد تضمن ٣١ عنواناً مطبوعة فى نورنبرج وأوجزبرج وستراسبورج وبازل، ويغلب عليه أن يكون قائمة أحد تجار الكتب. والآخر يتضمن تسعة وعشرين عنواناً كُتِبَ عليها أنها من مطبوعات فينسيا وربما يكون من إعداد «جوهان دى كولونيا» و«جوهان مانثين» فى فينسيا، وربما بقصد استخدامها من قبل مؤسسة التوزيع الخاصة بهما. وقام كوبرجر فى نورنبرج فى ١٤٧٩ بنشر قائمة تتضمن اثنين وعشرين عنواناً من إنتاجه وإنتاج الآخرين من بينهم : «سنشميدت» و«فرزنر» فى نورنبرج، «منتلين» و «روش» فى ستراسبورج، دير سانت أولرخ وأفرا فى أوجزبرج. وفى سنة ١٤٨١ قام «جوهان هيربورت» فى فينسيا بإصدار فهرس مصنف مطول يضم فى معظمه مطبوعات من فينسيا. وقام «راتدولت» أيضاً فى فينسيا بإصدار قائمة تتضمن ٤٥ عنواناً معظمها أيضا من نفس مطابع فينسيا، وصدرت تلك القائمة سنة ١٤٨٤م.

ولعل أطول قوائم المطبوعات طراً هى تلك التى أصدرها "كونة Kunne" فى مييننجن ـ لحساب شخص أو أشخاص لا نعرفهم ـ وقد تضمنت ١٩٠ عنواناً مطبوعة فى فينسيا، نورنبرج، بازل. وقد وزعت هذه العناوين على موضوعات

عريضة على النحو الآتى: اللاهوت ٥١ كتاباً؛ القانون الكنسى ١٨؛ القانون العام ٢٦؛ الطب ١٠؛ الفنون ٢٠؛ البلاغة ٥٩؛ متفرقات ٦. وهذه القائمة غير مؤرخة، ويرجح الثقاة أنها طبعت فى العقد الأول من القرن السادس عشر. وفى سنة ١٤٩٨ قام ألدوس مانتيوس بإصدار قائمته الرائدة التى تضمنت ١٩ عنواناً يونانياً كان قد توفر على طباعتها.

ويغلب على تلك الإعلانات أنها صدرت فى ألمانيا وهولندا أو فى إيطاليا على يد الطابعين الألمان. والاستثناء من تلك الصبغة هو الإعلان الإنجليزى الوحيد وقائمة ألدوس مانتيوس. وفى حدود معلوماتنا حتى الآن لم تصدر مثل هذه الإعلانات لا فى فرنسا ولا فى شبه جزيرة أيبريا. ويبدو أن الإعلانات العريضة قد فقدت جاذبيتها فى بداية القرن السادس عشر وتركت مكانها بالتدريج للقوائم والفهارس المطبوعة التى أصبحت ظاهرة واسعة الانتشار فى الربع الأخير من ذلك القرن.

وأتصور أنه فى خلال القرن السادس عشر بدأ بائع الكتب الجَّوال يفقد مكانته وتختفى بالتدريج صورته القديمة وحل محله تاجر الكتب المقيم فى مكان دائم حول الطابعين والناشرين، ويدعم هذا الرأى الحلول التدريجى فى نفس الوقت للقوائم والفهارس المطبوعة محل الإعلانات العريضة سابقة الذكر.

ويجب أن نضع فى أذهاننا أن تلك الإعلانات التى بدأت فى الظهور فى العقد الأول للطباعة، إنما هى دليل حى على اهتمام الطابعين والناشرين بتسويق منتجاتهم، وحيث يوجد المشترى وليس فقط للزبون والاستهلاك المحلى. وأنقل هنا نصاً من «كارل فيهمر» يؤكد ما ذهبت إليه:

«لقد أحدثت المطبعة تطوراً هائلاً بحيث لم تعد الكلمة المكتوبة مربوطة إلى مكان أو زمان. لقد أسفرت التكنولوجيا والحافز التجارى عن إنتاج الكتب بكميات كبيرة ورخيصة جداً وكسلعة متاحة فى كل مكان. وكان الاهتمام الأول للمنتج أن يبيع أكبر كمية ممكنة من الكتب إلى أوسع دائرة متاحة من الزبائن. وبالطباعة بلغت الصلة بين القارئ والمنتج إلى مسافات بعيدة جداً».

ولم نستطع فى الحقيقة أن نصل إلى أرقام دقيقة لعدد النسخ التى يمكن بيعها من كل كتاب وهى «أكبر كمية ممكنة» التى أشار إليها فيمر. ويرى هيرش أن الطابعين فى بداية الأمر كانوا متحفظين، ومن ثم كانوا يطبعون عدداً من النسخ أقل من احتياجات السوق، وربما استمر هذا التحفظ لمدة عشرين عاماً، ولكنهم منذ ١٤٧٠ بدأوا يطبعون كميات من النسخ أكثر من احتياجات السوق. ورغم أن الطابعين فى بداية الأمر كانوا يطبعون نسخاً قليلة من كل كتاب، إلا أن السوق أحياناً لم يكن ليستوعب تلك النسخ.. وعلى سبيل المثال الكتاب «الشامل»(١) الذى طبع ١٤٦٠ ظلت نسخه فى السوق تسع أو عشر سنوات بعد ذلك. ومن جهة ثانية يبدو أن إعادة طبع الكتاب الواحد عدة مرات لدى نفس الطابع فى فترات محدودة، هى دليل حى على أن الطابع لم يقدر حجم السوق تماماً منذ البداية فطبع نسخاً أقل، ولذلك عاد إلى الطبع مرات ومرات. ولدينا مصدر واحد يتيم عن حجم الطبعات فى الفترة بين ١٤٦٥-١٤٧١ وهى قائمة كتب سوينهايم وبنارتز فى روما التى نستخلص منها الرقم الدقيق لنسخ العناوين التى طبعت حتى ذلك التاريخ الذى ظهر فيه «معجم مفردات»(٢) نيقولاوس دى ليرا (الذى ظهرت به تلك القائمة). وحيث تدور نسخ الطبعة الواحدة من الكتاب حول ٢٧٥ نسخة مع قليل جداً من الاستثناءات(٣). ولابد هنا من التأكيد على أن هذا الرقم قد استخلص من مقدمة القائمة التى كتبها الكاردينال المبجل «بوسى» وجهها إلى البابا «سكستوس الرابع» يطلب فيها المساعدة المالية للطابعين. ولا نعرف على وجه اليقين إن كان المقصود بهذا الرقم كتبهما الأربعة فقط أم سائر الكتب التى وردت بالقائمة. وهل كان ذلك الرقم لأول طبعة أم لإعادة الطبع أيضاً. وأنا أعتقد حقيقة ـ كما أسلفت فى مواضع سابقة ـ

---

(1) Catholicon.
(2) Nicolaus de Lyra. Glossae.

(٣) بعض هذه الاستثناءات طبع منها ٣٠٠ نسخة وليس ٢٧٥ نسخة ومنها:
أ- كتاب دوناتوس فى النحو فى طبعاته الباكرة فى سوبياكو.
ب- كتاب روديريكوس زامورينسيس ١٤٦٨.
ج- كتاب بيزاريون. الدفاع عن أفلاطون ١٤٦٩.
د- كتاب بلينى. التاريخ الطبيعى ١٤٧٠.

فى صحة هذا الرقم لذلك الوقت من حياة الطباعة، وينسحب على كل أنواع الكتب وأشكالها: المجلدات الصغيرة والمجلدات الكبيرة، الطبعة الأصلية أو المُعادة، الكتب الكلاسيكية، كتب آباء الكنيسة، كتب الأدب وكتب العلوم على السواء. والكتب الأربعة الموجودة فى تلك القائمة للطابعين. هى:

- شيشرون : رسائل عن الأغبياء.[1]
- الكتاب المقدس باللاتينية[2].
- شيشرون : الرسائل العائلية[3].
- لاكتانتيوس : الصنائع[4].

ويتساءل هيرش: هل يعقل أن طابعين محنكين مثل سوينهايم وبنارتز بكل ما لديهما من حنكة وتجربة يطبعا نفس العدد من كتاب سانت أوغسطين فى طبعته الأولى ١٤٦٧، وطبعاته المتعاقبة ١٤٦٨، ١٤٧٠، وكذلك من رسائل شيشيرون ١٤٦٨، ١٤٦٩، وأيضاً من كتاب لاكتانتيوس ١٤٦٥ و ١٤٦٨ و ١٤٧٠، ومن كتاب فيرجيل ١٤٦٩. وعلى الرغم من المصاعب المالية التى كانا يمران بها؟!

ومع سنة ١٤٧٠ بدأ حجم الطبعات يكبر، ولدينا بيانات مبكرة صدرت عن بعض الطابعين تؤكد أنه فى ذلك الوقت بدأت طبعات من ٤٠٠ نسخة تصدر لبعض الكتب. يذكر «فيندليكوس دى سبيرا» أنه طبع من كتاب «ساللوست»[5] ٤٠٠ نسخة. وقد ذكر الطابع «جوهان نوميستر» فى حرد متن طبعته من رسائل شيشيرون العائلية فى فولجينو سنة ١٤٧٠ أنه طبع فقط ٢٠٠ نسخة. والحقيقة أننا فى حيرة من أمر هؤلاء الطابعين؛ لماذا نشروا معلومات عن حجم طبعة

(1) Cicero. Epistolae ad Brutum.

(2) Vulgate Bible.

(3) Lactantius. Institutiones.

(4) Cicero. Epistolae ad Familiares.

(5) Sallust. Catilina.- Venice, 1470.

الكتاب؟ هل كان الهدف تثبيط همة الطابعين الآخرين حتى يلجئوا إلى طبع طبعات أخرى من نفس الكتاب حين يروا أن حجم الطبعة كبير، أم أن الأمر كان مجرد مباهاة وتفاخر؟

لقد جمع «كونراد هابلر» نماذج أخرى عديدة من مصادر متنوعة عن حجم الطبعات فى القرن الخامس عشر. وهذه النماذج تشير إلى كتب طبع منها ٤٥ نسخة فقط وهى من طبع بيتر شوفر، وإن كان هابلر لا يذكر لنا هذا الكتاب محدود النسخ وإنما يصفه بأنه نص توثيقى محدود التوزيع، طبع سنة ١٤٨٠. وربما كان المقصود بهذا هو منشور البابا سكستوس الرابع وهو الوحيد الذى طبعه شوفر فى تلك السنة بتلك المواصفات. كما ذكر بعض كتب طبعت منها مائة نسخة فقط. وهابلر يصف تلك الطبعات بأنها «متواضعة للغاية». ومع هذا الحد المنخفض لتلك الطبعات هناك على الجانب الآخر كحد أقصى طبعة من ٢٣٠٠ نسخة من مراسيم البابا «جريجورى التاسع»[1] التى طبعها مرتين فى خلال أربع سنوات طابع فينسيا «بابتستادى توريتس» مابين ١٤٩١-١٤٩٤، على الرغم من أن آخرين قد طبعوا نفس العمل فى نفس الفترة. وربما يكون بابتستادى تورتيس قد حاول إحباط محاولات منافسيه وطرح هذه الكمية من النسخ بسعر رخيص تنافسى. ولابد أن الطابعين قد أدركوا منذ ذلك الوقت المبكر أن الطبعة كلما كانت أكبر كلما كان سعر النسخة أقل وكلما كانت فرص التسويق أوسع[2].

ولعل أقدم معلومات عن طبعة من ألف نسخة هى تلك المتعلقة بمراسيم البابا «جريجورى التاسع» لسنة ١٤٧١ والتى توفر على جمعها وشرحها والتعليق عليها «بانورميتانوس»؛ وطبعها فى فينسيا «فندليكوس دى سبيرا» فى تلك السنة[3].

---

(1) Gregory IX. Decretals .- venice: Baptista de Tortis, 1491-1494.

توفر رودولف هيرش على مناقشة هذه القضية بالتفصيل فى دراسة له:

(2) Rudolf Hirsch. "The size of editions of books produced by Sweynheim and Panartz between 1465 and 1471".- in.- Gutenberg Jahrbuch, 1975.

(3) Gregory IX. Pars secunda super Librum secundum decretalium / Panormitanus .- Venice: Vendilicus de spira, 1471.

وما أن جاءت ثمانينات القرن الخامس عشر حتى أصبحت طبعات الألف نسخة مسألة شائعة، بل وصلتنا بيانات عن طبعات تزيد عن ألفى نسخة من بعض الكتب فى نفس ذلك العقد. ومن الأمثلة على ذلك كتاب كاراكيولوس «عن المواعظ المقدسة»[1] والذى طبعه فى نابولى «مورافوس» سنة ١٤٨٩. وفى عقد التسعينات من ذلك القرن قفزت الطبعات إلى مافوق ثلاثة آلاف نسخة، وربما كان ذلك أيضاً من مراسيم البابوات حيث أحصى «ف. ج. نورتون» نسخ طبعات المنشورات بنحو ١٣٢٨٠٠ نسخة التى طبعت لأسقف كينالو على يد الطابع «ليفينوس» فى ميسينا. ونحن لا نعرف على وجه الدقة أو حتى التقريب عدد المنشورات التى طبعت هناك فى ميسينا والتى لم يصلنا منها أى منشور على الإطلاق.

ورغم كل ذلك فإنه بالنسبة لأنواع معينة من المطبوعات كان الطابع يستطيع تقدير حجم السوق المتاحة لها بشىء من الدقة. ومن الأمثلة على ذلك كتاب «الصلوات»[2] الذى طبع لحساب الأسقف «هنريتش فون أبندسبرج» وقد طبع فى فيرزبيرج سنة ١٤٨٠. وقد طبع من هذا الكتاب ٤٠٠ نسخة وثبت سعر النسخة عند ٣ جيلدرات راينى. وقد قام الأسقف بنفسه بحث رجال الدين فى دوقية ريجنزبيرج على شراء الكتاب فى خطابات بعث بها إليهم حتى يتمكن من استرداد التكاليف التى دفعها. وقد سبق أن قدمت معلومات عن بعض المطبوعات الحكومية وحجم الطبعات فيها وتكاليفها، وعلى سبيل المثال: الإعلان العريضة الذى طبعه «ريجر» لمجلس مدينة أولم فى ثلاث طبعات كل منها مائة نسخة ورابعة فى مائتى نسخة؛ وفى سلسلة من هذه الفروخ طبعت لمجلس مدينة بامبرج بين ١٥٢٧ و ١٥٣٧ نجد طبعات كحد أدنى ١١٠ نسخة وكحد أقصى ١٥٠٠ نسخة.

ومما يذكر أن كتاب «التساؤلات» الذى ألفه «جوارينى»[3] ونشر فى

(1) Caracciolus. Sermones de Laudibus Sanctorum.- Naples: M. Moravus, 1489.

(2) Breviarum ratisponense.- Würzburg, 1480.

(3) Guarini. Erotemata.- Ferrar, 1508.

القرن السادس عشر. وليس ثمة شك فى أن كثيراً من بحوث حركة الإصلاح الدينى كان تصدر فى طبعات كبيرة وخاصة كتيبات مارتن لوثر، وإحداها[1] طبع منها سنة ١٥٢٠م أربعة آلاف نسخة فى فيتنبرج، وأعيدت طباعتها كثيرا بعد ذلك. ومنذ ذلك الوقت أصبح المؤلفون والطابعون يقيسون نجاحهم بحجم الطبعات وعددها وتهافت الجماهير عليها. وكذلك أصبحت الشعبية معياراً هاماً للحكم على الكتب، وقد قال لوثر نفسه فى إحدى رسائله التى نشرت سنة ١٥٤١[2] إن رسائله وكتيباته قد غطت كل ألمانيا فى أسبوعين.

وصفوة القول أنه لم تكن هناك قاعدة محددة حتى منتصف القرن السادس عشر يمكن الأخذ بها فى تحديد حجم الطبعات. والبيانات المتاحة حول هذه الجزئية ناقصة غير كاملة، والمناقشة حول هذه النقطة تدور حول تعميمات خاطئة لا أساس لها من الصحة بنيت على نماذج وأمثلة فردية واستخرجت منها قاعدة واستنتاجات إذا درست دراسة وافية مفصلة فإنها ـ واضعين فى الاعتبار الظروف التى أفرزتها تثبت بالقطع خطؤها.

ونفس ذلك الكلام ينطبق على أسعار الكتب، فقد حذر «أولبرخت كيرشهوف» من أن أسعار المخطوطات المسجلة فى المصادر المختلفة والوثائق ليست إلا تعميمات خطيرة بنيت على حالات فردية متناثرة، والأمثلة التى نجدها فى تلك المصادر والوثائق غير مؤرخة فى معظم الأحيان، وتحدد فقط ما إذا كان الكتاب قد بيع مجلداً أو غير مجلد، محمراً أم غير محمر، مزخرفاً أم بدون زخارف، ومن أين وممن تم شراء هذا الكتاب، وهل كان المخطوط جديداً أم مستعملاً، وحتى لو كانت الإشارات إلى أسعار المخطوطات موجودة فى الوثائق وليس فى المصادر الروائية فإننا كذلك نشك فى أن تكون دقيقة. ومن النادر أن تحدد تلك الوثائق المادة التى كتب عليها المخطوط، هل هى ورق أم رقوق وماهى الحالة التى كان عليها المخطوط؟

لقد كانت المخطوطات المذكورة فى المصادر المعاصرة لها معقولة إلى حد كبير،

(1) Martin Luther. An den Christlichen Adel deutscher Nation.- Wittenberg, 1520.
(2) Martin Luther. Wider Hans Worst.- 1541.

وخاصة تلك التى كانت تستنسخ بكثرة لأغراض الاستخدام المدرسى والجامعى ولخاصة المتعلمين. ونحن نعلم أن إخوان الحياة العامة قد كان من ضمن واجباتهم واهتماماتهم استنساخ النصوص الدينية «التقية» وبيعها بأسعار زهيدة. ولكن بصفة عامة يمكن القول بأن المخطوطات التى كانت تنسخ لأغراض تجارية كانت مرتفعة الثمن. ولعل من أمتع ما كتب حديثاً عن أسعار الكتب المخطوطة فى أوربا ذلك البحث الذى أعده «جيو بستارينو» بعنوان «بارتولوميو لوبوتو» ونشر فى جنوة سنة ١٩٦١[1]. وهو يسجل لنا قائمة طويلة من المخطوطات التى خرجت من نفس دار الوراقة ودخلت فى حوزة هذا الرجل (١٤٤٨-١٤٥٧). وقد أدرجت هذه القائمة تكاليف المواد وأجور العاملين.

إن الأسعار المسجلة فى هذا المنسخ فى جنوا تشير إلى وجود اختلافات كبيرة أحياناً فى أسعار الكتاب الواحد. وعلى سبيل المثال فإن سعر كتاب دوناتوس» فى النحو» يتراوح مابين ١٣ سولدى (وهو معقول جداً) وثلاث جنيهات إسترلينية وستة شلنات وثمانية بنسات (وهو سعر غالِ جدا). إلا إذا كانت هذه النسخة قديمة وفاخرة للغاية، أو إذا كان المجلد يحوي مؤلفات أخرى إلى جانب دوناتوس. ولقد كانت كتب القداس أحد جوانب تخصص لوبوتو الأساسية وكانت أسعارها تتفاوت قليلاً، لكنها عموماً كانت تكلف غالياً مابين ٢٢ إلى ٣٢ جنيها إسترلينياً. ولقد قدم لنا «هـ.إ. بيل» بعض أسعار المخطوطات من القرن الخامس عشر فى إنجلترا فى مقال له بعنوان «أسعار الكتب فى إنجلترا الوسيطة» سنة ١٩٣٧[2]. ومنها على سبيل المثال تسع نسخ من كتاب سانت أوغسطين «مدينة الله» يتراوح سعْر النسخة من جنيه واحد إلى جنيهين، وسبعة نسخ من كتاب سانت جريجورى Pastoralia ويتراوح سعر النسخة من شلنين إلى ٤ شلنات، وإحدى عشرة نسخة من كتاب بتروس كومستر (التاريخ الكنسى) وسعر النسخة يتراوح ما بين جنيه إلى جنيه ونصف. وقد ثبتت لوائح مدارس بوتزن سنة ١٤١٨م سعر كتاب تعليم القراءة والكتابة عند قرش واحد للنسخة، ولكتاب دوناتوس فى النحو عند عشرة قروش، وكتاب الأخلاق عند ثمانية أو تسعة قروش.

(1) Geo Pistarino. Bartolomeo Lupoto.- Genoa, 1961.
(2) H.E. Bell. The price of books in Medieval England .- in - The Library, series 4, vol. XVII, 1937.

وقد سردنا تلك الأسعار للمخطوطات لمجرد المقارنة ـ أو لنقل المقابلة أو المعارضة ـ مع أسعار المطبوعات، آخذين فى الاعتبار أن هناك عوامل كثيرة غير واضحة وغير معلومة بل وغير قاطعة. ولكننا سنحاول فقط عرض الخطوط العريضة والملامح العامة. ذلك أنه بعد ظهور الطباعة مباشرة أى فى المرحلة التجريبية منها، كانت أسعار الكتب المطبوعة تنافس بنجاح شديد أسعار الكتب المخطوطة، وكان هناك فارق فى السعر وإن بدا صغيراً حتى سنة ١٤٦٠ حيث كانت المطبوعات أرخص، إلا أنه أخذ يزداد مع مرور الوقت ليغطى كل المطبوعات التجارية؛ مما حدا بالكاردينال «بوسى» إلى القول بأن الكتب التى كانت تتكلف فى عصر الخطاطة ١٠٠ جيلدر يمكن الآن (١٤٦٨) شراؤها فقط بعشرين جيلدر. ويمكننا القول بأنه فى سنة ١٤٧٠ كان سعر الكتاب المطبوع يقل ٥٠٪-٨٠٪ عن سعر الكتاب المخطوط. ومعنى هذا أن الطباعة قد خفضت ـ كما ذهب الكاردينال بوسى ـ سعر نسخة الكتاب إلى ٢٠٪ من سعر النسخة المخطوطة فى كثير من الأحيان وإلى ٥٠٪ من السعر أحياناً أخرى؛ أى إلى الخمس أو النصف. وإذا تركنا أسعار المخطوطات جانباً فسوف نجد أن أسعار المطبوعات هى الأخرى لا تتبع خطاً واضحاً أو نمطاً محدداً. هذه هى النتيجة التى نخرج بها من دراسة حديثة قام بها «و. كريج» ومن مصادر ونماذج أخرى مبعثرة هنا وهناك.

وقد حذر هابلر من التسرع والخروج بنتائج مبنية على حالات فردية مثل بيع نسخة من الإنجيل ذى الاثنين والأربعين سطراً (المطبوع فى ماينز ١٤٥٤-١٤٥٥) بمائة دوكات، ونسخة من كتاب (الشامل) بمبلغ ٤١ دوكات، ونسخة من كتاب سانت أوغسطين «مدينة الله» (سوبياكو ١٤٦٧) مقابل $\frac{١}{٢}$ ٨ دوكات. ومع ذلك فإن تحذير هابلر يجب ألا يحبطنا عن الاستمرار فى تجميع المعلومات حول الأسعار.

وهناك العديد من المكتبات الأوربية التى تقتنى المئات من الكتب التى وصلتنا من العصر الأول للطباعة ومسجل عليها أسعارها، ولو جمعت تلك الحالات لاستخرجنا منها ظواهر، عامة ولزاد فهمنا كثيراً حول سياسة التسعير وأسعار الكتب. لقد وصلتنا قائمة كتب من طبع سوينهايم وبنارتز وضع عليها «هارتمان

شيديل» ـ وهو إنسى من نورنبرج ـ الأسعار، ومن ثم فهى مصدر ثقة موضوعى ودال. ونقتطع منها النماذج المصورة الآتية:

- سانت أوغسطين . مدينة الله (١٤٧٠) ــــ ٥ دوكات[1].
- ليفى. ديكاديس (١٤٦٩) ــــ ٧ دوكات[2].
- لاكتانتيوس . المعجزة (١٤٧٠) ــــ ٣ دوكات[3].
- فيرجيليوس . المعجزة (١٤٦٩) ــــ ٢ دوكات[4].
- شيشرون . الرسائل العائلية (١٤٦٩) ــــ ٥ دوكات[5].
- بلينى . التاريخ الطبيعى ١٤٧٠ ــــ ٨ دوكات[6].
- الكتاب المقدس اللاتينى (٢ مج) ــــ ٥ دوكات . لكل مجلد[7].

وبدراسة التسعة عشر عنواناً الموجودة فى تلك القائمة التى اقتطعنا منها هذه العناوين السبعة، وجد «ك. هابلر» أن الدوكات الواحد يشترى ٤٧-٦٧ ورقة من القطع الكبير ومن ٦٠-٨٠ ورقة من القطع المتوسط. وأن الفروق تتراوح فقط مابين ٢٠-٣٠٪. وأعتقد أنه حتى فى تلك المرحلة المبكرة لم تكن الأسعار لتبنى على التكلفة الحقيقية للعمالة والموارد، لأن هذين العنصرين لهما علاقة طردية مع طول المطبوع، أى حجمه وعدد صفحاته. ولابد أن الطابعين من جهة ثانية قد وضعوا فى الاعتبار الملامح الخاصة والمشكلات المرتبطة بالكتاب، وكذلك حجم الطبعة (أى عدد نسخها)، احتمالات السوق، احتمالات المنافسة من جانب الطابعين الآخرين، قدرة الزبائن على الشراء، وغير ذلك من الاحتمالات. وقد وجد «ك. هابلر» فى دراسته أيضاً أنه بعد عشر سنوات كان الدوكات الواحد يشترى ١٢ ملزمة[8] (١٢٠ ورقة) من الحجم الكبير وعشرين ملزمة من الحجم المتوسط (٢٠٠ ورقة).

---

(1) St. Augustine. De Civitate dei, 1470.
(2) Livy. Decades, 1469.
(3) Lactantius. Opera, 1470.
(4) Vergilius. Opera, 1969.
(5) Cicero. Epistolae ad Familiares, 1469.
(6) Pliny. Historia naturalis, 1470.
(7) Biblia Latina, 2 vols., 1471.
(8) quentern.

وقد يكون من المفيد أن نقارن أحد الكتب التى وردت عند شيديل بطبعة أخرى من نفس الكتاب طبعت لدى طابع آخر بعد سنوات قليلة. وهو كتاب «ليفى» الذى كما رأينا طبع عند سوينهايم وبنارتز سنة ١٤٦٩م وكان سعره آنذاك حسبما ذكر شيديل سنة ١٤٧١م ـ بسعر سبعة دوكات. ونحن حقيقة لا نعرف كم كان سعره للتاجر إذا كان سعر بيعه للجمهور هو المذكور. المهم أنه فى الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٤٧٦ قام بائع الكتب «هنريكوس تيتونيكوس» فى روما بالحصول على نفس كتاب ليفى المذكور من طابعه «دانييل» لبيعه على سبيل الأمانة (دانييل مواطن من ستراسبورج ولكن ربما كان يعمل فى روما آنذاك) وذلك مقابل دوكات واحد. ومن المؤكد أن هنريكوس لم يكن يتوقع ربحاً ٦٠٠٪ لأن السعر هنا هو سُبع السعر الذى كان عليه الكتاب من خمس سنوات فقط.. فهل انخفضت الأسعار إلى هذا الحد لزيادة عدد النسخ المطبوعة؟ أم كانت طبعة شعبية هى تلك التى يطرحها دانييل؟ أم كانت طبعة مليئة بالأخطاء؟.. لا نعرف السبب الحقيقى.

كان دير كارثوزيان فى بازل يدخل فى حسابات تكاليف الكتاب وتحديد أسعارها الهبات والمنح التى يقدمها المتبرعون، ومن ثم تنخفض أسعار كتبه. وقد نشر «ج. زيدلر» مقتطفات ونماذج من «كتاب المتبرعين»[1] تصور انخفاض أسعار تلك الكتب فى مقابل أسعار السلع الأخرى. وإذا درسنا تلك الأسعار وجدنا أنه فى سنة ١٤٨٤م كان الدوكات الواحد يشترى ١١٣ ورقة من الحجم الكبير، وفى سنة ١٤٨٩ كان يشترى بالفعل ١٨٠ ورقة. ولو أمعنا النظر فى الأسعار الواردة فى ذلك الكتاب نجد أن ٢ جيلدر كانت تشترى :

فى سنة ١٤٧٠ ـــ ٥٣٩ ورقة.

فى سنة ١٤٨١ ـــ ٥٧٠ ورقة.

فى سنة ١٤٨٢ ـــ ٤٥٦ - ٥٧٠ ورقة.

فى سنة ١٤٨٧ ـــ ٧٥٣ ورقة.

فى سنة ١٤٨٩ ـــ ٤٩٠ ورقة.

(1) Liber benefactorum = Book of benefactors.

فى سنة ١٤٩٢ ـــــ ٨٦٢ ورقة.

وكل هذه النماذج كانت من الحجم الكبير، وكان عدد السطور فى الصفحة ٤٧ سطراً للسنوات الأولى، وما بين ٥٢-٥٤ للسنوات الأخيرة.

وبصرف النظر عن تذبذب الخط فإن الاتجاه العام للسعر كان نحو الانخفاض. وكان هذا هو الوضع الطبيعى لزيادة عدد المطابع وزيادة المنافسة واتساع الأسواق. وكان انخفاض السعر أمراً محتوماً عندما كانت الكتب تطبع بكميات كبيرة من النسخ بقصد الوصول إلى دائرة واسعة من الزبائن. وبناء على تلك الحقيقة نفذ ألدوس مانتيوس مشروعه بطباعة سلسلة كتب من القطع الصغير قطع الثمن[1] فى سنة ١٥٠١ حيث وقر فى يقينه أنه يستطيع أن يبيع منها كميات كبيرة من النسخ لو كانت أسعارها منخفضة، فقد كانت هناك حاجة ماسة إلى كتب الكلاسيكيات وكتب الإنسيين فى كل مكان فى أوربا؛ ولقد استخدم الحرف المائل الصغير الذى صممه له «فرنشسكو جريفو د ابولونيا» خصيصا، هذا الحرف الذى ساعده على توفير الحيز لنص أكبر، كما ساعده على تضييق المسافات بين السطور وتضييق الهوامش. وهذا كله يترجم إلى توفير فى النفقات، مما يعود بالنفع على المستهلك. وربما لم يكن ألدوس يتوقع كل هذا النجاح لفكرته ولحرفه الجديد بحيث ينقلها عنه مباشرة على الرغم من صك الامتياز الذى منحته له حكومة فينسيا فى الحرف الجديد المائل.

ولقد وصلنا العديد من الأمثلة من مطلع القرن السادس عشر على كتب «شعبية» ذات أسعار معقولة لأنها نشرت دون مخاطرة وبطبعات كبيرة. وكانت هذه الكتب مقدمة طبيعية للإنتاج الكبير للاستهلاك الكبير الذى أخذ محله بعد بداية اندلاع حركة الإصلاح. ذلك أنه للوصول إلى أكبر عدد من القراء كان لابد للكتب التنويرية والجدلية أن تكون رخيصة السعر. وفى نفس الوقت كانت نسخة العهد الجديد التى ترجمها مارتن لوثر (وطبع منها ٣٠٠٠ نسخة) كانت تباع بجيلدر ونصف وكان هذا السعر مرتفعاً إلى حد ما لو أننا قارناه مع الكتاب

(1) enchiridii Forma.

المقدس سنة ١٤٦٦ والذى كان يسمى باسم طابعه «منتلين»، الذى كان يباع بمبلغ ١٢ جيلدر.

إن تقلب أسعار الكتب فى ذلك الوقت أمر غير مفهوم ويظل ضرباً من ضروب الطلاسم.. فقد ظهرت رسائل «سانت جيروم»[1] التى طبعها سوينهايم وبنارتز فى روما سنة ١٤٧٠ فى قائمة شيديل سابقة الذكر بسعر خمسة دوكات للمجلد الواحد. وفى مكتبة المتحف البريطانى نجد نسخة من طبعة أخرى لنفس الطابع سنة ١٤٦٨م من نفس الكتاب وعليها تمليكة لشخص معاصر هو الكاردينال «أنجيلو كابرانيكا»، وفى هذه التمليكة نجد بياناً بسعر كل مجلد وهو عشرة دوكات للنسخة غير المجلدة. وفى هذه التمليكة كتب فيها أنه دفع أربعة دوكات للمجلد الأول كى يجلد ويحمر، ودفع ستة دوكات للمجلد الثانى لنفس الغرض، كما دفع ٢ دوكات لكل مجلد مشال ونقل إلى مييننجن. وبهذا يكون المشترى قد دفع ٣٤ دوكات للحصول على مجلدى رسائل سانت جيروم. ومن هنا يكون الفرق فى السعر بين الطبعتين قد وصل إلى نحو ٢٠٠٪! والسؤال الآن هل خدع الكاردينال فى السعر أم أن شيديل قد حصل على خصم كبير أم أن الطبعة الثانية كانت أرخص كثيراً من الطبعة الأولى؟ ربما لا نحصل أبداً على إجابة لهذا السؤال.

ورغم الاتجاه العام نحو انخفاض الأسعار إلا أنه من الخطأ الاعتقاد بأن كل الكتب كانت رخيصة أو كانت أسعارها معقولة. فقد كتب القاضى الإيطالى «تانر» خطاباً إلى «بونيفاكيوس أميرباخ» فى بازل سنة ١٥٥٤ يشكو فيه من أن ارتفاع أسعار الكتب الإيطالية منعت المشترين من شراء الكتب. ولقد اتخذت خطوة هامة فيما بعد لوضع نظام خصم للوكلاء وتجار التجزئة بصفة عامة، ونتج عن ذلك إحكام عملية بيع الكتب وجعل منها حرفة أو مهنة ليس للهواة فيها إلا دور طفيف. ولم يعد نظام المقايضة يعمل به إلا نادراً، ورغم أن فكرة السعر الثابت المحدد لم تكن قد رسخت بعد إلا أن خطوات هامة قد اتخذت فى هذا الصدد بين حين وآخر، وربما كان الخصم واحدا من الخطوات فى ذلك الاتجاه.

(1) St. Jerome. Epistolae.

ولقد خلص «فرديناند جيلدنر» فى دراسته عن «بيتر دراخ» فى سباير إلى أن المتوسط العام للخصم الممنوح لتاجر الكتب يصل إلى ١٠٪، وأنه فى المعاملات الكبيرة التى قام بها دراخ فى العقدين الأخيرين من القرن الخامس عشر، كانت فكرة السعر المحدد تتردد من حين لآخر.

وفى سنة ١٥٠٢ قام «جروننجر» فى ستراسبورج بطباعة ألف نسخة من كتاب «جاكوبوس فوراجين»[1] لحساب «شونزبيرجر» فى أوجزبرج، وذلك بمقتضى اتفاق يقضى بأن يحتفظ جروننجر بمائتى نسخة تباع فقط فى ستراسبورج بسعر محدد يعادل جيلدر واحد للنسخة. وهى حالة شبيهة للحالة التى ذكرتُها من قبل، وهى الخاصة بأسقف ريجنزبرج الذى ثبت سعر كتاب الصلاة سنة ١٤٨٠م. وكما أسلفت من قبل فإن تجارة الكتب نمت بعيداً عن التنظيم النقابى وعن أية قواعد نقابية، ولذلك وضعت لنفسها قواعدها الخاصة. وكانت هذه القواعد الخاصة ضرورية لنجاح هذه التجارة، وكان يمكن الاتفاق عليها ورسم حدودها فى اللقاءات العديدة للطابعين والناشرين وباعة الكتب فى معارض الكتب وأسواقها فى فرانكفورت، ليون، ليبزج.. تلك المعارض التى اتخذت فى القرن السادس عشر صبغة دولية. وفى نهاية ذلك القرن أصبح الكتاب المطبوع سلعة ثابتة.

وعند هذه النقطة يجب أن نتوقف لنلخص بسرعة الجوانب المعقدة والهامة فى نفس الوقت فى مسألة الطبعات والأسعار. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نضع معياراً محدداً كحجم الطبعات، إلا أنه يمكن القول بصفة عامة أنه مع ثمانينات القرن الخامس عشر استطاعت المطابع أن تنتج طبعات من ٢٠٠٠ نسخة بطريقة فعالة واقتصادية. واستطاع الطابعون فى ذلك الوقت تسويق تلك الطبعات الكبيرة بأسعار يقدر عليها القراء ويطيقونها؛ وبينما كانت الطبعات الكبيرة متاحة وشائعة ظلت الكتب محدودة السوق تطبع فى طبعات صغيرة ولكن أيضاً بأسعار عالية.

فى النصف الأول من القرن السادس عشر ارتفع حجم طبعات نفس الكتب إلى أربعة آلاف نسخة أو أكثر. وبينما أخذت أسعار الكتب فى التناقص

(1) Jacobus Voragine. Heiligenleben.-1502.

خلال المائة سنة الأولى من الطباعة ظل عدد من الكتب الأساسية محتفظاً بأسعاره العالية. ومع نهاية القرن الخامس عشر كان ٢ جيلدر يشتريان ما بين ٨٠٠-٩٠٠ ورقة مطبوعة من الحجم الكبير (الفوليو) أو ضعف ذلك العدد من الحجم المتوسط (الكوارتو). وكان مبلغ ٢ جيلدر مبلغاً كبيراً من المال يساوى - أو ربما يزيد - على أجر أستاذ الكلاسيكيات فى الجامعة فى الأسبوع.

وفى حدود الوقت الذى قامت فيه حركة الإصلاح الدينى، بدأت نوعية الورق فى الانهيار، وجرت محاولات لتوحيد مواصفات الكتب، وتزايد الطلب على الكتب بما أدى إلى تدهور إنتاج الكتب القيمة. وقد أصبحت الطباعة والنشر وبيع الكتب أقل مخاطرة وأكثر أماناً، ولم تعد مهنة المغامرات والمخاطرات.

وكان من مصلحة المنتج أن يجعل سلعته جذابة ونافعة، ولهذا كانت صفحة العنوان من التجديدات والابتكارات المفيدة فى هذا الصدد بحيث تدل المشترى من نظرة واحدة إلى الكتاب على المؤلف والمحتوى والمنتج. وطالما كان عدد الكتب المتاح للبيع محدوداً فى وقت واحد، لم تكن ثمة حاجة إلى التعرف السريع على المنتج. ولكن هذا الاتجاه تغير فى الوقت الذى أخذت فيه صفحة العنوان فى الانتشار، أى فى ثمانينات القرن الخامس عشر. وهو الوقت أيضاً الذى زاد فيه عدد الكتب التى يتعامل فيها تاجر الكتب سواء كان الطابع نفسه أو الناشر أو الوكيل، أى منذ ١٤٨٠ فصاعداً. ومنذ تلك السنة أصبح لدينا قائمة مطبوعات - أو لنقل قائمة أسعار - لبائع الكتب «دومنيكو جليو» فى بادوا؛ مسجل فيها بأسعار متهاودة: نسخة واحدة من أعمال «كليمونت»، ٣ نسخ من أعمال «أولوس جيليوس»، نسختين من أعمال «جوفينال»، نسختين من أعمال «بيرسيوس»، ٣ نسخ من أعمال «فاليريوس ماكسيموس»، ٤٠ نسخ من الكتاب المقدس، نسخة واحدة من أعمال «أوبيان»، نسختين من كتاب القداس، ٥ نسخ من أعمال «دوناتوس»، ٣ نسخ من أعمال «بوجيو»، ٣ نسخ من أعمال مختلفة لـ «شيسرون»، نسختين من أعمال «بلوتارك»، نسختين من أعمال «دانتى». . . وكان مجموع الأعمال فى هذه القائمة يصل إلى ١٩٠ عملاً فى ٦٢٨ نسخة، يضاف إليها قائمة ملحق تضم ٦١ عملاً فى ١٩٩ نسخة.

وبعد عامين قام «بيتر ميتلنجر» - الذى عرفناه فيما بعد طابعاً فى بيزانسون،

دول، ريجون، ولكنه فى ذلك الوقت كان ممثلاً أو وكيلاً للطابع أميرباخ فى باريس - قام بالشكوى من أنه لم يستطع تسويق كتاب «فنسنتيوس بيللوفاسنسيس»[1] وكتاب «نيدر»[2] ومعجم «ريشلين»[3] ولكنه طلب ٦-٨ نسخ من المراسيم البابوية[4] (وهى ليست من طبع أميرباخ)، ٣-٤ نسخ من «بانورميتانوس»، ٥ نسخ من كتاب «بالبوس» (الشامل)[5] وهو ليس من طباعة أميرباخ، ٦ نسخ من الأساطير الذهبية[6] وهو ليس من طباعة أميرباخ. ولابد لنا أن نفهم تحديد عدد النسخ فى الطلب على أنها بضاعة رائجة وأنها ربما تكون مباعة سلفاً. وعندما مات «سيجموندو دى لبرى» بائع الكتب والناشر سنة ١٤٨٤ خلف لنا قائمة جرد بمخزونه من الكتب التى زادت على ٣٠٠ مجلد ومعها فهرس غير مؤرخ لتاجر كتب غير مسمى من تورز يرجع إلى نهاية القرن الخامس عشر، وقد تضمن ذلك الفهرس ٢٦٧ عنواناً ما بين مخطوط ومطبوع كلها باللغة الفرنسية، وتدور أساساً حول التاريخ والأدب. ويضم سجل حسابات بيتر دراخ الذى يمتد من ١٤٨٠-١٥٠٣م - والذى وصلتنا منه قطع غير متصلة - مئات من الكتب بالآف من النسخ.

ومن بين الطرائف المستخدمة فى الإعلان عن الكتب كانت الصور المأخوذة عن كتل الخشب والتى تصور التلاميذ مع المدرس على صفحة العنوان، مما يدل فى الحال على أن الكتاب مدرسى.

وكان من بين التجديدات التى أدخلت على الكتب المطبوعة لإرضاء القراء وجذب انتباههم وإمتاعهم وحملهم على شراء الكتب أكثر وأكثر، آخر الصفحات المزخرفة والأولويات المزخرفة، الترقيم السليم الدقيق للأوراق والصفحات، قوائم المحتويات المفصلة، الكشافات التحليلية للنص. وطالما أن كثيراً من مزخرفى الكتب وفنانيها كانوا فى نفس الوقت طابعين وناشرين فقد كان من السهل عليهم إخراج الكتب من الناحية الفنية بما يناسب ذوق واحتياجات تجار الكتب ورجال التسويق.

(1) Vincentius Bellovacensis. Liber gratiae.
(2) Nider. Praeceptorium.
(3) Reuchlin. Vocabularius.
(4) Decretales.
(5) Balbus. Catholicon.
(6) Golden Legends.

والحقيقة أن الوكلاء الذين كانوا يمثلون عدداً من الطابعين فى وقت واحد كانوا يقومون بدور عظيم فى شراء الكتب فى مكان وبيعها فى مكان آخر، مما خلق ما يشبه شبكة توزيع تحمل الكتب حيث يوجد القارئ. ونحن لا نعرف فى حقيقة الأمر إن كانت هناك سوق بواقى أم لا ولكننا على يقين من أن بعض الطابعين الذين تراكم لديهم مخزون من النسخ غير المباعة فترة طويلة من الزمن حاولوا تحويلها إلى أموال سائلة، ولدينا أمثلة على ذلك ذكرتها المصادر عرضاً وعلى سبيل المثال كتاب «ريشلين»[1] الذى طبعه له «أنسلم» ولم يتمكن من تصريف ٧٠٠ نسخة بقيت فى مخازنه من ١٥٠٦ وحتى ١٥١٠ تم بيعها دفعة واحدة كبواقى إلى أميرباخ كل ثلاث نسخ بمبلغ فلورين واحد، ولدينا أمثلة أخرى كثيرة على حالات تم بيعها فى سوق البواقى.. فقد اشترى كوبرجر فى سنة ١٥٠٦م ألف وستمائة نسخة من كتاب «ألبرخت فون إيب» عن الشعر المسيحى[2] نشره أميرباخ و بترى فى بازل سنة ١٥٠٣م. أما كتاب «جيدو دى بيزيو» الذى[3] طبعه توريسانو سنة ١٤٩٥م فإنه لم يتم تصريفه، وأعيد طرحه مرة أخرى فى مطلع القرن السادس عشر مع إهداء من خمسة سطور مؤرخ فى ١٥٠٣ على ظهر صفحة العنوان وبعض تعديلات قليلة طفيفة. وكانت أيضاً إحدى طبعات دوناتوس فى النحو قد ركدت وكسد سوقها وكانت قد طبعت فى حدود ١٥٠٥ وبعد ٣٠ سنة أعيد طرحها فى مدينة أخرى هى إنجولشتادت، حيث قام «إبيانوس» بتزيين صفحة العنوان بصور مأخوذة من الكتل الخشبية وكتب عليها تاريخاً جديداً هو ١٥٣٦. وكانت هذه الطبعة قد طبعت أصلاً فى ستراسبورج على يد «هوبفوف». وكان الطابع إبيانوس قد اشترى تلك النسخ من سوق البواقى.

ولا مراء فى حقيقة أن الكتب كانت تطير من مكان إلى مكان لا تعرف الحدود ولا تعرف القيود سواء كان ذلك عن طريق تجارة الكتب الرسمية المعتمدة (الوكلاء - الممثلون - المكاتب الفرعية - باعة الكتب الجائلون والمقيمون) أو عن طريق العلاقات الشخصية الودية.

(1) Reuchlin. De rudimentis hebraicis.- 1506.

(2) Albrecht von Eyb. Margarita poetic.- Basil: Amerbach and petri, 1503.

(3) Guido de Bayasio. Rosarium decretorum.

وتفيض خطابات الإنسيين فى شمال الألب بالإشارات إلى كتب تم اجتلابها من إيطاليا وخاصة الكتب الكلاسيكية باللاتينية واليونانية. وكان الرحالة والزوار يحملون معهم الكتب عبر الألب سواء كان هؤلاء طلابا ـ وخاصة فى جامعة بولونيا ـ أو تجاراً عاديين يعودون من فينسيا مركز التجارة العالمى آنذاك، أو أشخاصاً رسميين فى مهام رسمية وخاصة إلى البلاط البابوى، أو أشخاصاً عاديين فى زيارات شخصية، أو رحلات حج إلى المزارات المقدسة وخاصة فى روما. وكان هؤلاء جميعاً يحصلون على الكتب من إيطاليا ويعودون بها إلى شمال الألب، فهذا هو «شيديل» فى خطاب له إلى «هارتمان» صديقه يشير إلى شرائه كتاب بلينى فى التاريخ الطبيعى[1] (طبعة فينسيا سنة ١٤٦٩ على يد جون دى سبيرا) وكتاب آخر بمبلغ ثمانية دوكات أو عشرة فلورين راينية، ويضيف أن «جوهان توتشر» الموجود آنذاك فى فينسيا قد عارض تلك النسخة بطبعة أخرى بنفس البنط من طبع سوينهايم وبنارتز فى روما.

وفى خطاب إلى أبيه وصف «ويليبالد بيركهايمر» كثيراً من الكتب الكلاسيكية لفتت نظره وأنظار كثير من الزوار من جميع أنحاء أوربا. وفى سنة ١٤٧٨ سنة ١٤٧٨ قام الإنجليزى «ويليام توس» ببيع كتب من طبع جنسون وغيره من الطابعين فى فينسيا داخل إنجلترا. وقد وجدت الكتب اللاتينية سبيلها إلى إنجلترا وغيرها من البلاد الأوربية فى تلك الفترة المبكرة، إما عن طريق الوكلاء أو عن طريق باعة الكتب المحليين رغم أن مستوى خدمات التوزيع لم يكن متوازنا أو متساوياً بطبيعة الحال؛ حيث كان بعض الباعة أنشط وأسرع فى الحصول على أحدث الكتب من البعض الآخر. وعلى سبيل المثال فقد كتب «جاكوب ويمبهيلنج» سنة ١٤٩٦م إلى صديقه «كلتس» من سباير فى خطاب إليه يقول «ليس لدى باعة الكتب هنا أى شىء جديد، لديهم القواميس وكتب المواعظ فقط، تلك التى يحاولون بها الحصول على المال من رجال الدين». وحتى فى مطلع القرن السادس عشر نجد بيتوس رينانوس سنة ١٥١٧ يكتب إلى صديقه «زوينجلى» يشكو من كسل وإهمال تجار الكتب: «لقد حاول صديقى مايكل هيو

(1) Pliny . Historia Naturalis.- Venice : Johann de Spira, 1469.

ميلبرجر فى رافنزبيرج جاهدا أن يحصل على كتاب جديد كتبه إراسموس بدون جدوى. . إن السوق هنا متسعة لمزيد من الكتب ولكن باعة الكتب هنا غير راغبين فى البحث عن الكتب المرغوبة وطلبها من مظانها»!

لقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه حركة الإصلاح الدينى على أشدها، وكان الناس قد تأثرت حياتهم بها ومن بينهم باعة الكتب، حيث وجد كثير منهم أن الاتجار فى كتب الجدل والنزاعات أسهل وأكثر ربحية من كتب الأدب والعلوم. وفى سنة ١٥٢٤م شكا إراسموس من نفس الشىء.

وكان الإنسيون الجدد فى شمال الألب ـ مثل أسلافهم فى الجنوب ـ لديهم حب الكتب والاطلاع ولذلك لجأوا إلى استيراد الكتب من الخارج إذا لم يجدوا ما يسد احتياجاتهم فى الداخل، وتدل اختياراتهم على النحو الذى تكشف عنه مراسلاتهم أو قوائم الكتب التى خلفوها على ذوقهم الأدبى الرفيع على النحو الذى سأتناوله تفصيلاً فى الفصل الخاص بالقراءة فى هذا البحث. وليس معنى حديثنا الآن حول شمال الألب أن تجارة الكتب واستيرادها كان فى اتجاه واحد من الجنوب إلى الشمال أى من إيطاليا إلى ماوراء الألب ـ على النحو الذى قال به كثير من الباحثين، ولكن أيضاً كانت هناك تجارة كتب من الشمال إلى الجنوب، ولكن الذى حدث هو أن الجنوب ـ ونعنى به هنا إيطاليا ـ بالذات كانت خلال القرن الخامس عشر موطن نشر وطباعة الكتب الكلاسيكية والإنسية، ولم يكن ينازعها فيها مكان آخر ومن ثم كان على الشمال أن يتجه إليها إذا أراد أن يشترى تلك الأنواع من الكتب!

ونحن نعلم أن محبى الكتب والقراءة فى إنجلترا كانوا يعتمدون أساساً على استيراد الكتب من الخارج، وربما كان ذلك هو السبب الرئيسى وراء عدم إقبال الطابعين هناك على طبع الكتب العلمية والبحثية. وعلى العكس كانت كتب آباء الكنيسة التحليلية النقدية، والكتب الدينية والكنسية الرئيسية، وكتب المؤلفين المعاصرين والشروح، وكتب الطب الشعبى وكتب الأعشاب، وأعمال «روجيومونتانوس»، كانت هذه الكتب هى التى يتم طبعها فى الشمال ومن ثم كانت تتخذ سبيلها إلى الجنوب فى تجارة عكسية للكتب. لقد كانت تجارة الكتب تتم من بلد إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى داخل البلد الواحد.

ولكى ندرس اتجاه تجارة الكتب من الخارج إلى إيطاليا فإننا لابد وأن ندرس بعناية «الفهرس الإيطالى الموحد بأوائل المطبوعات»، وسوف نذهل للنتائج التى تكشف عنها تلك الدراسة. . .

سنجد أن ٢٨٪ من الألف مدخل الأول عبارة عن كتب لم تطبع فى إيطاليا بل سنجدها: ألمانية، فرنسية، سويسرية، هولندية، أسبانية، وجانب كبير من تلك الكتب تم جلبه إلى إيطاليا فى العقود الأولى للطباعة.

ومما يؤكد على استيراد الكتب من الخارج إلى إيطاليا أنه فى سنة ١٥٠٩ ظهر اسم تاجر كتب ألمانى فى بولونيا واسمه «بيتر فيرنر» فى سجلات الحسابات الختامية للطابع الشهير كوبرجر وذلك تحت كتاب شيديل الشهير «كتاب الحوليات»[١] المطبوع سنة ١٤٩٣، وقد ورد فى ذلك السجل أن فيرنر قد أخذ أربعين نسخة من الكتاب ولكنه دفع فى سنة ١٥٠٩م عشرين فلورين فقط (ربما تحت الحساب). وكان من بين التجار النشطاء الذين يجلبون الكتب من الخارج إلى إيطاليا «فرانشسكو كالفو» بائع الكتب فى ميلانو، وكان صديقا للعديد من الإنسيين، وكان ممثلاً لجامع الكتب الأشهر «جروليبه»، ثم أخيراً كان الطابع الرسولى فى روما. وقد كتب سنة ١٥١٧م من بافيا إلى فروبن يمتدحه ويقرظ الكتاب الذى طبعه للمؤلف إراسموس (الأمثال)[٢] وكتاب «سينيكا» وكتاب «سانت جيروم». وفى نفس هذه الرسالة أخذ يناقش بعض الأمور التجارية واقترح على فروبن توثيق العلاقات التجارية أكثر وأكثر، وضمن الرسالة قائمة بالكتب الإيطالية التى رأى أنه يمكن أن يوردها إلى فروبن بخصم معقول، وقائمة أخرى بكتب يريد أن يستوردها من فروبن وأيضاً بخصم مماثل. ولقد وافق فروبن على كل ما جاء فى خطاب كالفو. ونورد فيما يلى بعض ماجاء فى قائمة كالفو من طلبات.

عدد النسخ المطلوبة	الكتاب المطلوب
١٢	سانت جيروم. المعجزات.ـ بازل: فروبن، ١٥١٦.
٢٥	سانت جيروم. الرسائل.ـ كولون: د. ن، ١٥١٨.

(1) Schedel. Liber Chronicasum. - 1493.
(2) Erasmus. Proverbia.

(لاتوجد طبعة من إنتاج فروبن له قبل ١٥٢٠).

٥٠	سينيكا. [العنوان غير مذكور]. ـ بازل: فروبن، ١٥١٥ أو ١٥١٧.
٥٠	إراسموس. الأمثال. ـ بازل: فروبن، ١٥١٥ أو ١٥١٧.
١٢	الكتاب المقدس. ـ بازل: فروبن، ١٥١٦.
١٢	إراسموس. المبادئ الأساسية للمسيح. ـ بازل: فروبن، ١٥١٥ أو ١٥١٧.
٢٥	إراسموس. كتاب الأخلاق. ـ بازل: فروبن، ١٥١٦. (وكان نفس الكتاب قد طبع لدى ألدوس مانتيوس ١٥١٥).
١٢	ريشلين. دراسات عبرية. ـ من طبع بفورز هايم ولكنه يباع لدى أميرباخ منذ ١٥٠٦.
٥٠	ريشلين. الكلمة المعبرة. ـ توبنجن: د. ن، ١٥١٦.
٦	سانت أوغسطين. المعجزات. ـ بازل: د. ن، ١٥٠٥ ـ ١٥٠٦.
١٢	سانت أوغسطين. مدينة الله. ـ بازل: د. ن، ١٥١٢م أو ١٥١٥.
٦	الكتاب المقدس اللاتينى. ـ بازل، ١٤٩٨ ـ ١٥٠٢م أو ١٥١٤.
٦	إراسموس. الرسائل. ـ بازل، ١٥١٨م (طلب قبل نشره، أى حجز قبل الطبع).
٢٥	ريشلين. الدفاع. ـ توبنجن: د. ن.، ١٥١٤.
١٠	فرنشسكو ديلا ميراندولا. المعجزات. ـ ستراسبورج، ١٥٠٦.

١٢ [ألبرخت فون إيب]. الشعر المسيحى. ـ بازل، ١٥٠٣.

١٢ مانكنيللى. المواعظ. ـ ستراسبورج، ١٥١٠.

١٢ هيروديانوس. [بدون عنوان] مع كشاف. ـ ستراسبورج: د. ن، ١٥١٣.

٢٥ كتاب مطبوع فى ستراسبورج بصور للآلات الموسيقية؟.

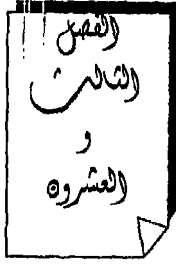
هذه مجرد عينات مما ورد فى طلبية كالفو إلى فروبن، ومن الواضح أن بعضها ليس من طباعة فروبن، وبعضها مطبوع خارج بازل مدينة فروبن ومقره. وقد بلغ عدد المجلدات المطلوبة فى هذه القائمة ٥٤٨ مجلداً. ومن المؤكد أن معظم هذه المجلدات كان مطلوباً لزبائن داخل إيطاليا. ويغلب على كتب هذه الطلبية أنها لكتاب إنسيين أو تمثل نشاط تلك الحركة التى أخذت فى الازدهار فى عموم الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان فروبن فى الواقع قد تخصص فى هذا النوع من الكتب أو لنقل كان اهتمامه الأول.[٢]

والحقيقة أن مثل هذه الوثائق قليلة ونادرة، ولكننى على يقين من أن مثل هذا النشاط التجارى فى الكتب المجلوبة إلى إيطاليا كان شائعا ومنتشراً، وربما بدأ يتشكل اعتباراً من سبعينات القرن الخامس عشر مع تأسيس شبكة التوزيع التى أسسها «نيكولاس جنسول» والتى كان يمولها التجار الألمان فى فينسيا الذين كانوا راغبين تماماً فى جلب البضائع عبر الألب إلى إيطاليا، بنفس القدر من الرغبة فى تصدير البضائع منها إلى الخارج. وقد سبق أن عالجت فى فصل سابق نشاط الطابعين الألمان من كولون فى إيطاليا، والذين كان لهم باع طويل فى تصدير ما يطبعون إلى الخارج ويستوردون من أقرانهم هناك ما يطبع فى الخارج.

والحقيقة أن الوثائق الكثيرة التى وقفت عليها والمصادر العديدة التى تحدثت فى الموضوع تجعلنى على يقين من أن تجارة الكتب منذ ذلك الوقت قد اتخذت طابعاً عالمياً وأنها كانت تجارة دولية وأن نشاطها كان أكبر كثيراً من الإشارات المتناثرة هنا وهناك فى المصادر المختلفة، وأن شراء الكتب وبيعها لم تكن تحده

حدود جغرافية أو عرقية أو نعرات وطنية. بيد أن تجارة الكتب كالطباعة كانت تتركز حيث تزدهر التجارة والفكر عامة. ومن سنن الحياة أنه مع تغير طرق التجارة وظهور حركات فكرية جديدة، فإن المراكز القديمة تتدهور (مثل أولم) وتظهر مراكز جديدة (ويتنبرج). لقد ازدهرت فينسيا طباعة وتجارة ولكنها بعد فترة أخلت مكانها لأماكن أخرى. ولكن مهما يكن من أمر فقد ازدهرت تجارة الكتب وصناعة النشر ولم تتراجع للوراء حتى يومنا هذا.

* * *



أروج الكتب وأحسن المبيعات

كان معيار رواج الكتاب المخطوط هو عدد النسخ التى وصلت إلينا منه، وعلى سبيل المثال وصلنا من كتاب وولفرام فون إيشنباخ «بارزينال» أكثر من ثمانين نسخة مخطوطة، ومن كتاب تشوسر «قصص كانتربرى» أكثر من ستين نسخة، لأن هذين الكتابين يعدان من أفضل القصص والروايات الترويحية. ومن هنا كانا يورقان بكميات ضخمة من النسخ، وبالتالى كان ما وصلنا منها كبيراً أيضاً.

وبعد دخول الطباعة أصبح معيار رواج الكتاب المطبوع هو عدد الطُبعات التى تطبع من الكتاب وعدد النسخ التى تطبع فى كل مرة. ولكن مع ذلك يجب أن نكون واعين مع ذلك للفرق بين النجاح السريع المباشر لبعض الكتب الذى يمكن التعبير عنه بالأرقام، وبين الكتب البطيئة التوزيع والتى تخدع عادة التحليل الإحصائى. وهناك دائماً كتب رغم تداولها المتواضع كان لها تأثير كبير على الرأى والمناخ العام فى محيطها. وعلى سبيل المثال لم يكن كتاب جاكوب بوركهارت «النهضة فى إيطاليا» أو كتاب كارل ماركس «رأس المال» عملين مربحين بالنسبة للناشر، ولم يحققا أى نجاح نشرى يذكر. ولكن دراسة التاريخ وتاريخ الفن وعلم الاجتماع والنظرية الاقتصادية وعلم السياسة وأحوال العالم كان يمكن أن تكون مختلفة تماماً عما هى عليه الآن دون هذين العملين.

من جهة ثانية فإن أروج الكتب وأحسن المبيعات تقدم للمؤرخ والببليوجرافى أداة هامة لقياس اتجاهات الفكر والذوق فى تلك الفترة. ولابد أن نعترف بداية أن هناك فئات من الإنتاج الفكرى المطبوع لا يمكن أن تعتبر مقياساً أو مفتاحاً لدراسة ميول واتجاهات القراء. وعلى سبيل المثال عندما طبع «جوهان لوشنر»

فى برشلونة ١٨٠٠٠ صك غفران لدير مونتسيرات فى شهر مايو سنة ١٤٩٨، فإن ذلك لا يمكن أن يقارن إلا بنماذج ضرائب الدخل التى يطبعها مكتب الطبع الحكومى فى أية دولة ولا يمكن أن يعول عليه فى معرفة استجابة الناس المتعطشين للمعرفة والترويح.

وبنفس الطريقة فإننا يجب أن نستبعد الكتب الوظيفية وعلى رأسها الكتب المدرسية عند دراستنا لأروج الكتب وأحسن المبيعات على الرغم من أنها كانت منذ عصر المهاديات فصاعدا أكثر فروع صناعة النشر وتجارة الكتب ربحية ورواجاً. ومن المعروف أن مطبعة جوتنبرج قد أصدرت ما لايقل عن ٢٤ طبعة من **نحو دوناتوس**، وقد توفر أحد الطابعين فى كولون على طبع نحو عشرين كتاب نحو لاتينى ومعجم فى غضون أربع سنوات فقط. وبين ١٥١٨ و ١٥٣٣ نشر روبرت ويتنجتون ١٣ كتاب نحو لاتينى، أعيدت طباعتها جميعا عدة مرات. وتكشف الإحصاءات الدقيقة عن أن عشرة آلاف نسخة قد بيعت من الكتاب الشعبى الشهير «مبادئ القراءة والكتابة»[1]فى خلال ثمانية أشهر سنة ١٥٨٥. ونفس المعدل بالنسبة لكتاب نوح وبستر «كتاب الهجاء الأمريكى»[2] الذى نشر سنة ١٧٨٣م وبيعت منه ٦٥ مليون نسخة خلال مائة سنة. وكذلك الحال بالنسبة لكتاب «هول» و«ستيفنز»: «الهندسة المدرسية» الذى نشر لأول مرة سنة ١٩٠٣[3] واعتبر أحسن الكتب المدرسية مبيعاً فى إنجلترا. ومهما يكن من أمر تلك الكتب المدرسية فإنها لا تعبر عن رغبات حقيقية فى ميول واتجاهات القراءة لأنها مفروضة على التلاميذ فرضاً.

والصعوبة الكبيرة التى تواجهنا فى دراسة أروج الكتب وأحسن المبيعات هى عدم معرفتنا بالعدد الحقيقى من النسخ المطبوعة والمباعة من كل كتاب. وبصفة عامة فإن الناشرين عادة ما يتكتمون تلك الأرقام ويعتبرونها سرية إلا إذا أرادوا استخدامها لأغراض الدعاية والإعلان، وإن عبارات «الطبعة الثالثة» أو «الإصدارة العاشرة»، قد لايكون لها أية دلالة فيما يتعلق بحجم الطبعة أو الإصدارة. ولعله

(1) ABC and Little Catechism .- 1585.

(2) Noah Webster. The American Spelling Book .- 1783.

(3) Hall and Stevens. School Geometry, 1903.

من الطريف أن نذكر أن كتاباً ما لم يطبع منه سوى ألف نسخة، بينما الإعلان عنه يقول «لايمكن لأى قارئ ذكى أن يفوته هذا الكتاب».

لقد كان متوسط عدد نسخ الطبعة الواحدة من الكتاب فى القرن الخامس عشر هو ٢٠٠ نسخة، ومائتا نسخة مطبوعة هو عدد يفوق بكثير ما كان عليه متوسط نسخ المخطوط الواحد. ولو طبع من أى كتاب نسخ أكثر من ذلك لكان ذلك استثناءً له ظروفه ومبرراته الخاصة، وعلى سبيل المثال فإن طبع ٨٠٠ نسخة على ورق و١٦ نسخة على رق من كتاب: «إلهامات سانت بروجت»[1] الذى طبعه الطابع «جوثان» فى ليبك سنة ١٤٩٢ وقد توفر على دفع تكاليفه دير فاد ستينا فى السويد. ويبدو أن ألدوس مانتيوس كان الطابع الوحيد فى فينسيا الذي يطبع طبعات من ١٠٠٠ نسخة، ويبدو أنه الطابع الوحيد الذى جعل من اسم شركته اسماً رائجاً يؤدى إلى تسويق الكتب التى يطبعها، فكان مشترو الكتب فى ١٥٠٠ يطلبون طبعة ألدوس من كتاب «هوراس» مثلاً بسبب السمعة والمكانة التى حققتها مطبعته آنذاك على النحو الذى شرحته تفصيلاً من قبل.

ويبدو أن أول كتاب يستحق أن يطلق عليه أحسن المبيعات وأروج الكتب هو كتاب توماس كمبس «محاكاة المسيح»[2]، ذلك أنه بعد وفاة المؤلف بعامين سنة ١٤٧١ قام «جونتر زينر» الطابع فى أوجزبرج بطبع الطبعة الأولى الرئيسية من هذا الكتاب وقبل انتهاء القرن الخامس عشر أى فى غضون أقل من ثلاثين عاماً كانت هناك ما لايقل عن تسعة وتسعين طبعة قد صدرت من المطابع المختلفة من بينها بعض الترجمات، فالترجمة الفرنسية نشرها «هنريتش ماير» سنة ١٤٨٨ فى تولوز، والترجمة الإيطالية نشرها الطابع «ميسكومينى» فى فلورنسا سنة ١٤٩١. هذا على جانب ذلك الكتاب، بينما الأعمال المجمعة لنفس المؤلف والتى نشرها «هوشفيدر» فى نورنبرج سنة ١٤٩٤م كانت أقل نجاحاً بكثير. ولكن كتاب المحاكاة ظل أوسع الكتب انتشاراً فى العالم بعد الكتاب المقدس. وقد سجلت

(1) Elevations of St. Bridget.- Lübeck: Gothan, 1492.

(2) Thomas à Kempis - De Imitatione Christi .

البيليوجرافيات من هذا الكتاب ما لا يقل عن ٢٠٠٠ طبعة، وكان أول مطبوعات المطبعة الملكية الفرنسية فى باريس سنة ١٦٤٠ ونشر فى سلسلة بنجوين الشهيرة فى بريطانيا.

ولعل ثانى مؤلف لأحسن المبيعات وأروج الكتب هو «إيراسموس» من روتردام وهو الآخر هولندى، وقد طبع بين ١٥٠٠ و١٥٢٠م أربعة وثلاثين طبعة كلها من فئة الألف نسخة من كتاب «أراجيا»[1]، وخمسة وعشرين طبعة بين ١٥١٨ و١٥٢٢ من كتابه «المجموعات الشهيرة»[2] ونشر منها طبعات مزيدة ومنقحة سنة بعد أخرى، وقد فاق الكتابين كتاب ثالث تلاهما عن الأخلاق[3].

لقد كان إراسموس رائداً فى عالم الأدب، كما كان رائداً فى شخصيته الفذة التى نستمتع بها فى مراسلاته كما نستمتع بها فى كتاباته. وقد وضع كتاب المجموعات وكتاب الأخلاق ضمن الكتب المحظورة فى الكشاف الرومانى الذى أشرنا إليه مراراً من قبل[4] والذى لم ينجح قَط فى التقليل من تداولهما وانتشارهما. ولقد كان أول مؤلف وفق فى البحث عن ناشر جيد ومناسب، وكان أول مؤلف يتدخل فى سياسة النشر، وأول مؤلف يحصل على عائد مالى من كتبه، وهو أمر لم يحدث من قبل ولم يتكرر بعد ذلك لمدة مائتى عام مقبلة. ولكن إراسموس كان فى وضع يجعله يملى شروطه على الناشرين الذين كانوا على يقين أنهم يكسبون من ورائه أضعافاً مضاعفة. وفى فينسيا ١٥٠٧-١٥٠٨م عمل الرجل فى مطبعة ألدوس مانتيوس، وفى باريس تعاون مع مطبعة أسنيسيان التى كان يملكها صديقه «جوس باديوس»؛ وجاء إلى بازل بطريق الخطأ أو الخداع من جانب وكيله الأدبى فى كولون، سنة ١٥١٣ ليتعاقد مع شركة بازل لصاحبها «جوهان فروبن» والتى لم يرتبط بها بعد ذلك أبداً. وفى وصيته جعل ورثته ومديرى أعماله مديرين لشركته.

والحقيقة أنه منذ بدأ مارتن لوثر حركة الإصلاح الدينى وبدأ فى إصدار كتاباته

---

(1) Adagia.

(2) Colloquia Familiaria.

(3) Encomium Moriae.

(4) Index Librorum Prohibitarum.

هو والمصلحون الآخرون اصطدم حتماً مع كتابات إراسموس اللاهوتية والأخلاقية وشروحه للكتاب المقدس وكتب آباء الكنيسة والمسائل اللغوية، مما أثر حتماً فى مبيعات أعمال إراسموس. يذكر الثقاة أنه قبل كتاب لوثر المقدس كانت كتب إراسموس تبيع نحو ٣٠٠٠ نسخة فى السنة، ولكن بعد نشر أعمال لوثر انخفضت مبيعات إراسموس إلى ٦٠٠ نسخة فقط.

لقد كان النجاح الأكبر فى مبيعات الكتب يتم فى القرن السادس عشر فى مجال كتب اللاهوت. والمثال على ذلك من الـ ٩٥ بحثاً «رسالة» التى نشرت فى سنة ١٥١٧م لأستاذ مجهول مغمور شاب فى جامعة ويتنبرج، هذه الأبحاث أو الرسائل فى خبطة واحدة جعلت من ذلك الشاب نجماً قومياً ذا شهرة وطنية واحتلت مطبعة «هانز لوفت» الصغيرة فجأة وبدون مقدمات مكانة ساحقة بين المطابع الكبيرة. لقد طبع من بحث لوثر «موعظة حول صكوك الغفران»[١] ثلاثين طبعة، ومن كتابه «موعظة حول الإعداد الصحيح للقلب»[٢] واحد وعشرون طبعة، وتدفقت الطبعات - صحيحة ومزورة - من المطابع فى سنتين اثنتين ١٥١٨-١٥٢٠. وطبعت من رسالته «إلى النبالة المسيحية»[٣] ٤٠٠٠ نسخة بيعت فى خمسة أيام فقط سنة ١٥٢٠م. ولكن شهرة وشعبية تلك الكتيبات والنشرات احتجبت بعد نشر الترجمة الرائعة للكتاب المقدس التى قام بها لوثر والتى اكتسحت ما عداها.

لقد ظهرت قبل طبعة لوثر من الكتاب المقدس عشرون طبعة ألمانية منه، كل منها وجدت صدى ومكاناً لها فى السوق، وعلى رأسها الطبعة الفاخرة التى قام بها «استيفن آنديس» فى لوبيك وقد كانت باللغة الألمانية السفلى. ولكن طبعة لوثر المترجمة ـ والتى جمعت كما قلنا بين اللغات الألمانية الثلاث: العليا والوسطى والسفلى وألفت بينها فى واحدة ـ كانت بلا منازع أروج كتاب بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ولكلمة أحسن المبيعات.

(1) Martin Luther. Sermon on Indulgences.
(2) Martin Luther - Sermon on the Right preparation of the Heart.
(3) Martin Luther. To the Christian Nobility.

لقد خرجت الطبعة الأولى من العهد الجديد من كتاب لوثر فى سبتمبر ١٥٢٢ وعلى الرغم من ارتفاع ثمنها : ١١/٢ فلورين (حوالى ٣٠ بنساً إنجليزياً) فقد بيع من هذا الكتاب ٣٠٠٠ نسخة فى غضون أسابيع قليلة. وفى ديسمبر من نفس السنة طلب الناس طبعة ثانية. وفى خلال العامين التاليين تم طبع ١٤ طبعة رسمية صحيحة و٦٦ طبعة مزورة. وبعد ذلك أخذ العهد القديم فى الظهور على أجزاء منذ ١٥٢٣م. وظهر الكتاب المقدس كله مرة واحدة سنة ١٥٣٤ على نحو ما أشرت إليه سابقاً وطرح بسعر مرتفع نسبياً هو ثلاثة جنيهات[1]. ونحن لا نعرف على وجه الدقة عدد النسخ التى طبعت من الكتاب الكامل فى تلك السنة ولكننا نعرف أنه طبع منه فى سنة ١٥٤١م ألف وخمسمائة نسخة. ولابد من التأكيد هنا على أنه قد طبع من هذا الكتاب المقدس فى حياة مارتن لوثر فقط ٤٣٠ طبعة كاملة أو على أجزاء.

ومن الصعوبة بمكان أن نقدم ـ ولو على سبيل التقريب ـ عدد النسخ التى طبعت من كتاب لوثر المقدس، خاصة وأنه كانت هناك طبعات مزورة تنطوى على قدر كبير أو صغير من الاختلافات. ولقد استخدم خصم لوثر العنيد «هيرونيموس إيمزر» نفس نص لوثر حرفيا فى ترجمته، ولكنه وضع فى تلك الترجمة لوحات مأخوذة من كتل الخشب من تصميم «لوكاس كراناخ» بما فيها تلك اللوحة التى تصور روما البابوية كالمرأة البابلية التى تتلقى الوحى، وهى درجة عالية جداً من الحرص من جانب المزورين.

وخارج كتابات إراسموس ولوثر، هناك كتاب واحد فى القرن السادس عشر يدخل فى عداد الكتب الرائجة وأحسن المبيعات. ذلك الكتاب هو كتاب «أورالندو فوريوزو»، لمؤلفه «لودوفيكو أريوستو»[2] الذى قيل عنه إنه نقطة تحول فى تطور الشعر الملحمى أو الروايات الملحمية الإيطالية، والذى نشر فى صورته الكاملة سنة ١٥٣٢م بعد وفاة هذا الشاعر مباشرة. وقد نشر فى السنوات العشر

---

(1) Guineas.

(2) Ludovico Ariosto. Orlando Furioso.

التالية ستة وثلاثين مرة، وطبع منه الآن أكثر مما يطبع من أى كتاب إيطالى آخر. وهذا الكتاب هو أفضل نموذج على أحسن المبيعات وأروج الكتب الوطنية.

وإذا كان مفهوم الكتاب الرائج وأحسن المبيعات يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعدد النسخ التى تباع منه، فلابد وأن ندرك أن عدد النسخ هذا يرتبط هو الآخر بالزمان والمكان، فإذا كان الكتاب الرائج فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر هو ما كانت طبعته ومبيعاته ألف نسخة فى المتوسط، فإن هذا الرقم كان مرتبطاً بسوق معينة هى سوق الأفراد والمكتبات الشخصية أساساً، ودرجة تعليم ووسط محدود من المتعلمين وميول واتجاهات قرائية معينة. ومن هذا المنطلق فلابد لرقم الألف نسخة هذا أن يتزحزح ويزيد مع كر القرون ومر الزمن؛ فمع تقدم الزمن تزداد رقعة التعليم ومن ثم عدد المتعلمين، وبالتالى تتسع سوق الكتاب. ومع مر الزمن تظهر سوق جديدة للكتاب لم تكون موجودة من قبل ألا وهى المكتبات العامة والمكتبات المتخصصة والمكتبات المدرسية، إلى جانب المكتبات الجامعية التى كانت موجودة قبل ظهور الطباعة. . ولكنها بعد الطباعة، وعلى مرور القرون، ازدادت عدداً وعدة. وربما كان أهم من هذا وذاك اتساع شبكات التوزيع وظهور منافذ تسويق لم تكن موجودة، وخاصة نوادى الكتب. هذا كله أدى بالضرورة إلى تغير مفهوم الكتاب الرائج، ولا أقصد المفهوم العام ولكن أقصد حدود عدد النسخ المباعة من الكتاب. وعلى سبيل المثال كان الكتاب الرائج فى القرن السابع عشر هو الذى يباع منه خمسة آلاف نسخة، وفى سنة ١٨٠٠م ارتفع العدد إلى عشرة آلاف نسخة. وكان عدد خمسين ألف نسخة فى القرن التاسع عشر يعتبر عدداً ضخماً جداً لكتاب واحد. وفى منتصف القرن العشرين أصبح طلب مائة ألف نسخة وحجزها مقدماً من كتاب ما أمراً مألوفا، وهناك كتب فى تلك الفترة حطمت حاجز نصف مليون نسخة. وفى الربع الأخير من القرن العشرين هناك كتب باعت خمسين مليون نسخة وترجمت لأكثر من ثلاثين لغة وحولت إلى أفلام سينمائية، والمثال هنا من كتاب «قصة حب» لمؤلفها المحظوظ «إيريك سيجال».

وليس معروفاً لدينا على وجه اليقين مهما تفلسفنا وتحذلقنا تلك الخصائص

والمقومات و الظروف التى تجعل من كتاب معين كتاباً رائجاً ومن أحسن المبيعات لأنها مزيج رهيب ومعقد من الجوانب الأخلاقية والجمالية والنفسية (فردية ووطنية) وتعليمية وذوقية، يضاف إليها الجوانب الإدارية والدعائية الإعلامية من جانب الناشرين ووكلاء الإعلان. ومن ناحية أخرى فليس هناك من يزعم بقدرته على تفسير ظاهرة أحسن الكتب وأروجها فيقدم للمؤلفين والناشرين والقراء النصح والإرشاد حول ما يمكن أن يكون كتاباً رائجاً فى المستقبل فيقبلون على تأليفه ونشره واقتنائه. فليس كل فكر عظيم يمكن أن يكون كتاباً رائجاً، وليس كل قصة جيدة شديدة الحبكة رائعة الموضوع ممتازة الأسلوب والعرض يمكن، أن تصبح عملاً رائجاً. . وكم من أعمال لم يرض عنها مؤلفوها ثم غدت كتابا رائجاً ليس فقط على المستوى الوطنى وإنما كذلك على المستوى الدولى، والمثال هنا من كتاب «ذهب مع الريح» للسيدة الرائعة «مارجريت ميتشيل» التى رمت هذه القصة فى درج مكتبها غضبا عليها واستياءً منها.

إننا ونحن بصدد ربط مفهوم الكتاب الرائج بعدد النسخ يجب أن نستبعد هنا الكتب المقدسة لأنها يجب أن تكون فى كل بيت ـ وبصور مختلفة ولأسباب متنوعة ـ وفى كل مسجد وكنيسة وهيكل بمئات من النسخ، سواء قرئت أو لم تقرأ بل والموضة الجديدة وضع نسخ من الكتاب فى حجرات الفنادق والموتيلات علها تصيب مؤمناً يقرأ فيها أو لمجرد حدوث البركة. لأننا لو أخذنا بمعيار النسخ فإن الكتاب المقدس هنا سيصبح أروج كتب العالم بترجماته الألف وطبعاته الكاملة والجزئية منذ دخوله الطباعة إلى اليوم؛ وسواء طبع للبيع أم للتوزيع المجانى من قبل عشرات الآلاف من الجهات فى جميع أنحاء العالم. وعلى سبيل المثال فإن **جمعية الكتاب المقدس**[1] التى أسسها فى سنة ١٧١١م البارون «فون كاشتيان» فى مدينة هالى؛ كانت هذه الجمعية ومطبعتها هى أول مؤسسة خيرية تسعى إلى طبع الكتاب المقدس وتوزيعه بأسعار رمزية رخيصة. وفى خلال الثلاثين سنة الأولى من نشاط هذه الجمعية طبعت ٣٤٠٫٠٠٠ نسخة من العهد الجديد بسعر النسخة (٢ جروشين/ قرش) أى ما يعادل ٢١/٢ بنس. كما طبعت

(1) The Bible Society.- Hale, 1711.

فى نفس الفترة ٤٨٠,٠٠٠ نسخة من كامل الكتاب المقدس بسعر (٩ جروشين/ قرش) أى ما يعادل شلناً إنجليزياً واحداً للنسخة. ومن المؤكد أن عدد النسخ التى طبعت من الكتاب المقدس منذ ذلك الحين، وخاصة بعد تأسيس جمعية الكتاب المقدس البريطانية والأجنبية[1] فى لندن سنة ١٨٠٤، قد وصلت إلى أرقام فلكية. وفى خلال مائة وخمسة عاماً من تأسيس هذه الجمعية الأخيرة أصدرت تلك الجمعية ما لايقل عن ٦٠٠ مليون نسخة من الكتاب المقدس الكامل فى نحو ثمانمائة لغة مختلفة. ولابد وأن نذكر هنا أن مطبعة جامعة أكسفورد فى شهر مايو سنة ١٨٨١م أصدرت طبعة منقحة من العهد الجديد[2] بيع منها مليون نسخة فى اليوم الأول لصدورها. وقد قامت صحيفتان أمريكيتان بشراء حق نشر النص على صفحاتها أو ملاحقها.

ومن جانب آخر فإن الطبعات الرخيصة من الكتاب المقدس لم تؤثر فى يوم من الأيام فى بيع الطبعات الفاخرة الغالية من الكتاب. لقد طبع «بلانتين» من الكتاب المقدس متعدد اللغات[3] ذى الثمانية مجلدات ١٢٠٠ نسخة (١٥٦٨-١٥٧٣) على الرغم من ارتفاع سعره من ٧٠-٢٠٠ فلورين (٧٠-٢٠٠ جنيه إسترلينى آنذاك). وكتاب أكسفورد المقدس[4] الذى صممه «بروس روجرز» سنة ١٩٢٩ ليستخدم على المقرأة فى الكنائس والذى صدر سنة ١٩٣٥ بسعر خمسين جنيهاً، وكان من المتوقع ألا ينفد قبل خمسين سنة، نفد عن آخره فى خلال عشرين سنة فقط سنة ١٩٥٥.

ويأتى بعد الكتاب المقدس فى مجال أحسن المبيعات أو بمعنى آخر المبيعات المتئدة فى القرن السابع عشر وما بعده أعمال «هوميروس» و«هوراس» من المؤلفين الكلاسيكيين؛ وكتاب «دانتى» الكوميديا الإلهية، وكتاب «توماس كمبس» محاكاة المسيح الذى أشرت إليه من قبل، من مؤلفى العصور الوسطى. كما تأتى

(1) British and Foreign Bible Society.- London, 1804.
(2) Revised New Testament.
(3) Polyglot Bible.- Plantin, 1568-1573.
(4) Globe Shakespeare.- London: Macmillan, 1864.

مسرحيات شكسبير وقصة سيرفانتس «دون كيشوت» من مؤلفات عصر الباروك الأوربى.

وليس ثمة شك فى أنه ما من مؤلف فرد أدر ربحاً وفيرا على ناشر أو بائع كتب فى جميع أنحاء العالم وفى كل العصور أكثر من وليام شكسبير. ويؤكد تلك الحقيقة الطبعات الأربعة ذات القطع الكبير من أعماله، ١٦٢٣، ١٦٣٢، ١٦٦٤، ١٦٨٥. أما الطبعات العشرون ذات القطع الصغير والتى نشرت بين ١٧٠٩ و ١٧٩٠ فقد انتشرت انتشاراً واسعاً بين طبقات المتعلمين. وفى نهاية القرن الثامن عشر جلبت طبعات أعمال شكسبير سنة ١٧٧٤م وسنة ١٧٨٥م على ناشرها «جون بيل» الرخاء والانتشار بين الجمهور. وفى القرن التاسع عشر دخل شكسبير كل بيت وكل فصل فى مدرسة، ويعتبر مجلد «شكسبير العالمى»[1] الذى نشره ماكميلان سنة ١٨٦٤ «خبطة معلم» كما يقولون، وقد بيعت بسعر ٣ شلنات وستة بنسات. كما قام «ركلام» فى ألمانيا بترجمة أعمال شكسبير ونجح فى نشرها نجاحاً منقطع النظير[2]. أما طبعة «ج.م. دنت» التى نشرها بعد عنوان «شكسبير المعبد»[3] فى أربعين مجلداً بين ١٨٩٤-١٨٩٦ فقد اكتسحت كل الطبعات، وعندما أعيد طبعها تحت عنوان «شكسبير المعبد الجديد»[4] طبع منها خمسة ملايين مجلد لتوزيعها على تلاميذ المدارس وغيرهم سنة ١٩٣٤.

ومما يؤسف له أن القوميات التى أخذت فى الظهور منذ القرن الثامن عشر وتجسدت فى القرن التاسع عشر والعشرين قد وضعت الحواجز ضد انتشار أعمال المؤلفين الانتشار العالمى الذى صادفناه فى أعمال وليام شكسبير، فليس هناك على المستوى العالمى اليوم سوى هؤلاء الذين برزوا منذ القرن الثامن عشر من أمثال: موليير، والترسكوت، ديكنز، إبسن، دوستويفسكى، تولستوى، جورج برنارد شو الذين يعتبرون ملكية عامة للبشرية. أما الكتاب الآخرون الذين برزوا

(1) Globe Shakespeare.- London: Macmillan, 1864.
(2) Unser Shakespeare.- Reclam.
(3) Temple Shakespeare.- London: J.M. Dent, 1894-1896.
(4) New Temple Shakespeare.- London: J.M. Dent, 1934.

كنجوم فكرية فى أوطانهم سواء من بين الإنجليز أو الفرنسيين أو الألمان أو الإيطاليين فليس لديهم إلا حضور وطنى فقط ولايخترقون غالباً حاجز حجرات الدراسة فى الجامعات والمدارس، والقلة القليلة المثقفة التى تتردد بينهم أعمال بلزاك، هوجو، جوته، شيللر، ألفييرى، مانزونى، ليرمونتوف، بوشكين، ووردزوورث، تنيسون.

وربما كانت كتب الأطفال هى المجال الذى ما تزال للعالمية فيه نصيب كبير ولأروج الكتب أو أحسنها مبيعاً فرص ذهبية ماتزال قائمة. وما يزال للفرنسى «بيترولت» والألمانيين «جريم»، وللدنمركى «أندرسون»، والأمريكى «مارك توين»، والإيطالى «كولودى»، والسويد «سلما لاچرلوف» والإنجليزيين «لويس كارول» و«كبلنج» سمعتهم الدولية، ومازالوا يقرءون من معظم أطفال العالم وهم ملكية عامة لهم؛ وحتى بالنسبة للشباب مازالت بعض الكتب التى سحبت من على رفوف المكتبات لها جاذبيتها ورونقها ومن بينها «روبنسون كروزو» من تأليف «ديفو»، «رحلات جليفر» من تأليف «سويفت»، وكذلك الحال بالنسبة لكتاب سيرفانتيس «دون كيشوت» الذى يروق للأطفال والكبار فى نفس الوقت.

ولعله من نافلة القول أن شركة الوراقين فى إنجلترا فى سنة ١٥٨٧ قد ثبتت أحجام الطبعات على حسب فئات الكتب، ففى حالة الكتب العادية (كتب الثقافة العامة) ثبت عدد نسخ الطبعة مابين ١٢٥٠ و ١٥٠٠ نسخة. أما الكتب المدرسية وكتب الصلاة والكتب التعليمية فقد سمح لها بأربعة إصدارات فى السنة الواحدة مابين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ نسخة كل سنة. أما اللوائح وكتب الدعاية والترويج والتقاويم وما شابه فقد كانت معفية من هذه القيود. أما فى سنة ١٦٣٥م أى فى القرن السابع عشر فقد زيد حجم الطبعة إلى ٣٠٠٠ نسخة. ورغم أن هذه القواعد قد وضعت أساساً لحماية العاملين فى المطابع من الاستغلال ومنع المضاربة والمنافسة غير الشريفة بين الناشرين، إلا أنها يمكن فعلاً أن تمثل طاقة السوق الفعلية فى ذلك الوقت. وفى نهاية القرن الثامن عشر أعلنت إدارة سوق معرض ليبزج الدولى سنة ١٧٨٦م أن أقصى عدد من النسخ يمكن أن يستوعبه السوق من الكتب غير القصصية هى ستمائة نسخة.

لقد احتلت القصص وكتب التعليم الشعبى التى تأخذ طابعاً ترفيهياً، منذ القرن السابع عشر فصاعداً، مكانة كبيرة فى سوق الكتب. وفى هذا المجال نجد أن أول كتاب راج فى أوربا كان كتاب «تقدم الحاج» الذى وضعه «جون بونيان»[1]. وقد ظهرت الطبعة الأولى منه فى الثامن عشر من فبراير سنة ١٦٧٨م وبالحجم العادى للطبعات آنذاك وهو ألفا نسخة (٢٠٠٠ نسخة)، ولكن مع نهاية السنة كان قد طبع منه عشرة آلاف نسخة، منها أربعة آلاف زورها طابع منافس للطابع الأصلى. وعندما قام الطابع الأصلى «ناتانييل بوندر» بطبع الطبعة الرابعة من الكتاب فى الثالث من فبراير سنة ١٦٨٠م علم بوجود ستة طبعات أخرى مزورة. وكانت أول طبعة أمريكية من هذا الكتاب قد نشرت فى السنة التالية ١٦٨١ وتوفر عليها «صامويل جرين» من بوسطون. وعندما مات الناشر الأصلى بعد عشر سنوات من صدور الطبعة الأولى سنة ١٦٨٨ كانت إحدى عشرة طبعة من الكتاب قوام كل منها أربعة آلاف، قد خرجت من المطبعة، مطبعة بوندر.. ومنذ ذلك التاريخ انتشر الكتاب إلى أقصى أركان الأرض. ولم يفق هذا الكتاب انتشاراً سوى الكتاب المقدس. لقد ترجم هذا الكتاب إلى ١٤٦ لغة من بينها لغة الإسكيمو، مالاجاش، التبتية، فيجان وغيرها من اللغات الإفريقية والهندية.

لقد كتب «بونيان» هذا الكتاب كقصة دينية تصور الخطوات التى يخطوها الحاج فى طريقه إلى الأماكن المقدسة، وكيف يعبر المرء من هذه الدنيا إلى الدنيا التى تأتى فيما بعد. وهذا الكتاب يقرأ اليوم كقصة مليئة بالأحداث الدرامية، ولقد كان الاتجاه منذ القرن الثامن عشر نحو القصص العلمانى وليس الدينى.

لقد بدأت هذه الموجة بقصة ديفو «روبنسون كروزو» التى نشرت لأول مرة فى ٢٥ من أبريل سنة ١٧١٩م (وقد تقاضى المؤلف عنها عشرة جنيهات إسترلينية)، وظهرت الطبعة الثانية فى الثامن من مايو، والثالثة فى السادس من يونية، والرابعة فى السادس من أغسطس. وفى تلك الأثناء صدرت طبعتان مزورتان على الأقل. وفى السنة التالية ترجمت إلى الفرنسية والهولندية والألمانية. وبناء

(1) John Bunyan. Pilgrim's Progress.

على اقتراح من «جان جاك روسو» عدلت هذه القصة لتناسب الشباب.١٧٥٨م. وأى نجاح أصابته محاولات تقليد هذه القصة إنما يجب أن يعزى إلى القصة الأصلية، فقبل سنة ١٨٠٠ نشرت نحو مائة محاولة تقليد فى ألمانيا وحدها. وظهرت تقليدات أخرى لها فى سويسرا، روسيا، سيليزيا، وظهر روبنسون كروزو فى المهن المختلفة، ومن بينها روبنسون كروزو تاجر الكتب[١].

أما أول طبعة من رحلات جليفر التي وضعها سويفت سنة ١٧٢٦ فقد بيعت عن آخرها فى أول أسبوع لها، وطبعت الطبعة الثالثة بعد شهرين. وقد طبع من الطبعات الثلاثة جميعاً عشرة آلاف نسخة. إن ما جذب الناس إلى هذه القصة هو السخرية السياسية الموجهة نحو الحكومة والمجتمع، النكتة الطريفة والتطلع العلمى المستقبلى، والنظرة التشاؤمية الصادرة عن المجتمع البشرى ككل، الأقزام والعمالقة على سجيتهم، وهى جميعاً العناصر التى ينجذب إليها الناس اليوم.

وجاءت بعد هاتين القصتين قصص أخرى أسرت أوربا منذ اليوم الأول لنشرها ومن بينها على الولاء : قصة ريتشاردرسون «باميلا» سنة ١٧٤٠[٢]؛ قصة فولتير «كاندين» سنة ١٧٥٩[٣]؛ قصة والبول «قلعة أوترانتو» سنة ١٧٦٤[٤]؛ قصة جولد سميث «قسيس ويكفيلد» سنة ١٧٦٦[٥] ؛ قصة جوته «فيرذر» سنة ١٧٧٤[٦]. وكل قصة من هذه القصص كانت تعكس، ومن ثم تكثف، وجهاً من وجوه الفكر المعاصر والمشاعر المعاصرة. لقد انطوت تلك القصص على عناصر إنسانية حققت لها استجابات فورية بين الناس فى جميع طبقات المجتمع من صالون الطبقة الراقية إلى سلم الخدم. إننا نجد فى هذه القصص مكافأة الفضيلة ومعاقبة الرذيلة؛ التحليل النبيل للقلب والعقل الإنسانى، الإيمان والفكر، التأصيل وعدم التأصيل للعقل الباطن وما وراء الطبيعة؛ المزج بين التعلم الأخلاقى والخطوط المحكمة...

---

(1) Bookseller Robinson.

(2) Ritchardson. Pamela.- 1740.

(3) Voltaire. Candide.- 1759.

(4) Walpole. The Castle of Otranto.- 1564

(5) Goldsmith. The Vicar of Wakefield.- 1766.

(6) Geothe. Werther.- 1774.

وتمثل قصة «قلعة أوترانتو» القائمة اللانهائية من الصدمات التى اجتاحت أوربا فى الجيلين اللاحقين. وكانت تمثل القطع الأدبية الرائعة التى يقبل القراء على قراءتها من مكتبات التأجير التى بدأت فى أوربا فى ذلك الوقت. كذلك فإن قصص الأدبية «آن رادكليف» وعلى رأسها قصة «خفايا أودولفو»[١] التى نشرت سنة ١٧٩٤ قد حققت أوسع انتشار وتداول فى ذلك الوقت، ومازال لها قراء كثيرون حتى الآن. وقد أفاد منها كتاب القصص البوليسى.

وقصة جوته «فيرذر» التى نشرت سنة ١٧٤٤ تمثل مشكلة ببليوجرافية طريفة إذ أن عدد الطبعات المزورة والغير شرعية أكبر بكثير من الطبعات الشرعية، وكذلك أيضاً الترجمات غير الرسمية أكثر من تلك الرسمية. والبيانات الببليوجرافية فيها من المستحيل فك خيوطها وتشابكاتها؛ ففى خلال سنتين فقط صدرت ١٦ طبعة ألمانية مختلفة، وفى خلال عشرين سنة كانت هناك ١٥ ترجمة فرنسية على الأقل، ١٢ ترجمة إنجليزية، ٣ ترجمات إيطالية، وواحدة فى كل من اللغات: الأسبانية، الهولندية، السويدية، الدنمركية، الروسية، البولندية، البرتغالية، المجرية. وعندما قابل نابليون «جوتة» سنة ١٨٠٨ قال له إنه قرأ «فيرذر» سبع مرات.

وبعد أن حققت فيرذر هذا النجاح كله لم يصب جوته هدف أحسن المبيعات بعد ذلك أبداً، على العكس من معاصريه الأصغر منه سكوت وبايرن المعجبين دائماً به، واللذين لم يسقطا قَط تحت خط أحسن المبيعات وأروج الكتب بل ظلا فوقه دائماً. ووضعهما فى هذا الشأن فريد من نوعه لأنهما الوحيدان من كتاب الشعر اللذين حققا تلك المكانة. ففى سنة ١٨٠٥ باع كتاب سكوت المعنون «أنشودة المغنى الأخير»[٢] التى نشرها كونستابل ولونجمان وشاركاه حق المؤلف، ٤٤٠٠٠ نسخة فى خلال ربع قرن. أما كتابه الثانى «سيد البحيرة»[٣] الذى نشر سنة ١٨٠٠ فقد حقق الثروة العابرة لكل من كونستابل وبالانتاين وسكوت. أما ناشر (بايرون) جون موريى فكان قد اعتاد أن يطبع خمسمائة نسخة فقط من

(1) Ann Radcliffe. The Mysteries of Udolph.- 1794.

(2) Scott. Lay of the Last Minsterl.- 1805.

(3) Scott. Lady of The Lake.- 1810.

كتب الشعر، فإنه عندما طبع النشيدين الأولين من ديوان بايرون «تشايلد هارولد» سنة ١٨١٢[١] تم بيعهما فى ثلاثة أيام، واضطر إلى طبع أربع طبعات كبيرة خلال الشهور التسعة التالية. وعندما طبع ديوان «القرصان»[٢] فى أول فبراير سنة ١٨١٤ طبع منه عشرة آلاف نسخة وقد بيعت كلها فى اليوم الأول من طرحها فى السوق. وهذه الأرقام تدل عادة على أن الشعر كانت سوقه محدودة. ويدل على ذلك أيضا أن لونجمان عندما اشترى سنة ١٨٠٠م أرصدة «جوزيف كوتيل» لم يدفع شيئاً مقابل كتاب «الأغانى الشعبية» التى ألفها كل من «ووردذويرث» و«كوليردج»[٣].

ولقد كشف النقاب اليوم عن سجلات لونجمان وجرين وشركاهما، وهى دار النشر التى نشرت دواوين ووردزيروث؛ وتمدنا هذه السجلات بتفاصيل أكثر حول اتجاهات الناشر والجمهور نحو الشعر بين ١٨٠٠ و ١٨٣٥؛ فقد طبعت «الأغانى الشعبية (البالاد)» هذه سنوات ١٨٠٠ ، ١٨٠٢، ١٨٠٥م وكانت جميع المبيعات فى هذه الطبعات ١٧٥٠ نسخة من المجلد الأول و ٢٠٠٠ نسخة من المجلد الثانى، واعتبر لونجمان ذلك مكسباً كبيراً له. ولذلك جرؤ على أن يطبع من كتاب «القصائد» سنة ١٨٠٧م ألف نسخة، ولكن تفاؤله ذهب أدراج الرياح لأنه بعد سبع سنوات من نشر الكتاب كانت هناك ٢٣٠ نسخة ماتزال راكدة فى مخازنه. وحتى سنة ١٨٢٧ كان لونجمان مايزال مصراً على العدد العادى من نسخ طبعات الشعر وهو خمسمائة نسخة. وحتى فى هذه الحالة لايحقق الناشر أو المؤلف ربحاً يذكر. وعلى سبيل المثال فإن ديوان «أغنيات عيد الشكر»[٤] الذى نشر ١٨١٦ بقيت منه ٢٢٠ نسخة فى المخازن حتى ١٨٣٤، ديوان «الترانيم الكنسية»[٥] المنشور ١٨٢٢ ظلت منه ٢٠٣ نسخة لم تبع حتى سنة ١٨٣٣. والقصيدة الوحيدة التى حققت مبيعات وئيدة هى قصيدة «العودة»[٦] والطبعة غير

(1) Byron. Childe Harold.- 1812.
(2) Byron. Corsair.- 1814.
(3) Lyrical Ballads / by Wordsworth and Coleridge.
(4) Thanksgiving Ode.- 1816.
(5) Ecclesiastical Sketches.- 1822.
(6) Excursion.- 1814.

العادية من قصيدة «زيارة يارو الثانية»[١] سنة ١٨٢٥ والتى طبع منها ١٥٠٠ نسخة تم بيعها جميعاً فى نفس السنة. وقد بدأ لونجمان يستعيد الثقة فى شاعره عندما نشر «الأعمال الشعرية» سنة ١٨٢٧م فى خمس مجلدات عندما باع كل النسخ الـ ٧٥٠ فى خلال خمس سنوات، إذ انتهى منها سنة ١٨٣٢، ثم طبع ٢٠٠٠ نسخة من طبعة من أربع مجلدات تم بيعها حتى سنة ١٨٣٦. وفى هاتين الطبعتين كان المجلد الذى يحمل قصيدة العودة تزيد نسخه ٢٥٠ نسخة و ٥٠٠ نسخة على التوالى عن المجلدات الأخرى.

وربما كان من أسباب عدم التسويق السريع لكتب الشعر فى الأمثلة السابقة ارتفاع أسعار تلك الكتب وعدم الحاجة الملحة إليها من جانب الجمهور، ففى الطبعة الأولى من قصيدة العودة كان سعر.النسخة ٤٢ شلناً، وفى الطبعة الثانية ١٨٢٠ كانت النسخة تباع بأربعة عشر شلناً. وكان سعرها فى داخل «الأعمال الشعرية» ١٠ شلنات و ٦ بنسات سنة ١٨٢٧ و٧ شلنات سنة ١٨٣٢، الصفحات القليلة من «أغنيات عد الشكر» تكلفت ٤ شلنات وهكذا.. وهذه التكاليف العالية إنما ترجع بطبيعة الحال إلى قلة عدد النسخ المطبوعة فى المرة الواحدة ومن ثم ترتفع تكلفة الوحدة ومعها يرتفع سعر بيع النسخة.

أما أشعار «روبرت بيرنز» فقد كانت أكثر نجاحاً، فديوانه الموسوم «قصائد أساساً باللهجة الاسكتلندية»[٢] قد طبع منه لأول مرة سنة ١٧٨٦ ستمائة نسخة وأعيد طبعه ثلاث مرات خلال سبع سنوات، لا يدخل فيها طبعتان أمريكيتان فى فيلادلفيا ونيويورك سنة ١٧٨٨م، زادت نسخها جميعا عن ٢٥٠٠ نسخة. هذا فى حين كان حظ الشاعر «ويليام جونسون» هو حظ الشعراء العاديين، إذ قام الناشر بنشر ديوانه «أيونيات»[٣] حيث طبع الناشر الطبعة العادية من ٥٠٠ نسخة سنة ١٨٥٨م، وبعد ١٤ سنة كان فى مخازنه ١٣٨ نسخة سنة ١٨٧٢. وفى حالة

(1) Yarrow Revisited.

(2) Robert Burns. Poems Chiefly in the Scottish Dialect.- 1786.

(3) William Johnson. Ionica.- 1858.

الشاعر «بالجريف» وديوانه «الكنز الذهبى»[1] نجده أسعد حظاً، حيث نشر الناشر ٢٠٠٠ نسخة فى يولية ١٨٦١م، وفى ديسمبر من نفس السنة وصل عدد النسخ إلى تسعة آلاف نسخة مع الإصدارة الرابعة من الديوان.

إن الشعراء الذين حققوا درجة معقولة من النجاح فى مبيعات شعرهم خلال حياتهم قلائل ويعدون على أصابع اليد الواحدة. ويعتبر الشاعر «جون كيبل» واحداً من هؤلاء، حيث أن ديوانه الموسوم «السنة المسيحية»[2] طبعت منه ١٥٠ إصدارة بين ١٨٢٧ و ١٨٦٦ سنة وفاته. وكذلك دواوين شعر «إيمانويل جيبل» و «ج. ف. فون شيفيل» و«مارتين توبر»، أصحاب الشعر المنثور، والتى طبعت منها عدة مئات من آلاف النسخ بين ١٨٤٠ و ١٨٨٠، إنما تدل على الذوق الردىء للطبعات الوسطى الإنجليزية والألمانية فى الحقبة الفيكتورية.

لقد حاز «والترسكوت» شهرته من أنه مبدع الرواية التاريخية أكثر من شهرته كمبدع للرواية الشعرية. ومما يذكر فى هذا الصدد أنه منذ صدور المجلد الأول من روايته «ويفرلى»[2]. فى السابع من يوليو سنة ١٨١٤ والمطابع تصدر الإصدارة تلو الإصدارة. وحتى قصته الصغيرة «روب روى»[3] التى نشرت سنة ١٨١٨ باعت ١٢٠٠٠ نسخة فى شهر واحد. ولقد اشترى «روبرت كاديل» زوج ابنة كونستابل حق النشر سنة ١٨٢٧، ومنذ ذلك التاريخ حتى وفاته سنة ١٨٤٩ باع ٧٨٢٧٠ مجموعة من هذه السلسلة. ولاتقارن هذه المبيعات فى إنجلترا واسكوتلندا بما بيع فى أيرلندا والولايات المتحدة، حيث زورت طبعات عديدة إذ لايوجد فيهما حق يحمى المؤلفين فى تلك الفترة.

وكان الطابعون فى نيويورك، بوسطون، فيلادلفيا يتلهفون على نسخة من روايات سكوت الجديدة، ففى سنة ١٨٢٢ وصلت نسخة رواية «ثروات نيجيل»[4] يوم الخميس إلى المطبعة، وفى يوم السبت التالى كانت مع الباعة. ورواية «بيفريل على القمة»[5].. جمعت وطبعت فى ٢١ ساعة؛ رواية

(1) Palgrave. Golden Treasury.- 1861.
(2) Sir Walter Scott. Waverley.- 1814.
(3) Sir Walter Scott. Rob Roy.- 1818.
(4) Sir Walter Scott. Fortunes of Nigel.
(5) Sir Walter Scott. Peveril of the Peak.

«كوينتين دورّوارد»[1] سنة ١٨٢٣م لم تستغرق سوى ثمانية وعشرين ساعة فى الجمع والطبع. وقد بيعت ٣ آلاف نسخة فى ثلاثة أيام من طبعة مزورة. وحتى سنة ١٨٣٠ كانت عشرين دار نشر أمريكية تطبع روايات ويفرلى.

نفس الشىء حدث فى أوربا؛ وحيث لايوجد قانون يحمى المؤلفين آنذاك تزاحم المترجمون والناشرون على إصدار طبعات من تلك الروايات. وجميع تلك الطبعات كانت رخيصة بكل معنى الكلمة: ترجمة ركيكة، طباعة سيئة، أسعار منحطة للمنافسة.

لقد أصدر أحد الناشرين الألمان طبعتين كاملتين كل منهما فى ثمانى مجلدات فى سنة واحدة (١٨٢٥) وكان يبيع إحداهما بثمانية قروش (٩ بنسات) والثانية بأربعة قروش (٥ بنسات) للمجلد. وفى نفس السنة كانت هناك دار نشر ألمانية أخرى باعت ثلاثين ألف نسخة من طبعتها؛ وكانت هناك طبعتان أخريان من نفس الكتب فى نفس الفترة.

وعلى أيام «ريتشاردسون» و«جولدسميث» فرضت الرواية الإنجليزية موجتها الأدبية على العالم الغربى، كما فرضت الرواية التاريخية قوانينها وقواعدها كما أرساها والترسكوت. وجاءت بعد روايات والترسكوت التاريخية روايات أخرى تاريخية فرضت نفسها كأروج المبيعات على المستوى الوطنى، وتجاوز بعضها إلى المستوى العالمى، ونذكر من بينها:

* فنمور كوبر : آخر الموهيكان، ١٨٢٦.
* فيلهلم هوف : ليختنشتاين، ١٨٢٦.
* ألساندرو مانزونى : بروموزى سبوزى الأول، ١٨٢٧.
* فيكتور هيجو : نوتردام باريس، ١٨٣١.
* ألكسندر ديماس: الفرسان الثلاثة، ١٨٤٤.
* و.م. ثاكيراى : هنرى إزموند، ١٨٥٢.
* ل.ن. تولستوى : الحرب والسلام، ١٨٦٢-١٨٦٩.

---

(1) Sir Walter Scott. Quentin Durward.- 1823.

* س. ف. مير: جورج جيناتاش، ١٨٧٦.

* ج. ب. جاكوبسن: فرو مارى جروبيه، ١٨٧٦.

هذه مجرد نماذج ممثلة لبعض أحسن المبيعات وأروج القصص من الأدب الأمريكى والألمانى والإيطالى والفرنسى والإنجليزى والروسى والسويسرى والدنمركى على الولاء.

فى خلال القرن التاسع عشر كان بيع عشرة آلاف نسخة من كتاب يعتبر نجاحاً لذلك الكتاب، وأى عدد من النسخ زيادة عنها يدخل الكتاب فى عداد أروج المبيعات. ولقد كانت سنة ١٨٥٩م سنة متميزة فى أحسن المبيعات فقد ظهرت فيها الكتب الرائجة الآتية:

- تنيسون. مُثل الملك.
- صمويل سمايل. المساعدة الذاتية.
- السيدة/ بيتون. كتاب التدبير المنزلى.
- جورج إليوت. آدم بيد.

وقد باعت تلك الكتب فى خلال اثنى عشر شهراً نحو عشرين ألف نسخة من كل منها. ومما يذكر فى هذا الصدد أنه كان يتوقع لكتاب «رباعيات عمر الخيام» الذى أعده «فيتزجيرالد» ونشر فى نفس سنة ١٨٥٩م أن يصبح من أروج كتب ذلك العام، ولكنه حقق فشلاً ذريعاً على الرغم من التخفيضات التى جرت على سعره الأصلى ـ وهو خمسة شلنات ـ والتى لم تحرك فيه ساكناً!

والمشكلة الكبرى التى تواجه الناشرين هى حقيقة كيف يعثر على مؤلف ناجح وكتاب جيد؟ ومما يذكر فى هذا الصدد أن كتاب كونان دويل «دراسة فى اللون القرمزى»[1] قد رفض من جانب ثلاثة ناشرين قبل أن يقبل الناشر الرابع على نشره. وكانت دار ماكميلان قد رفضت أربع مرات العمل الأول لجورج برناردشو، كما رفض من جانب «مورلى»، «شاتو»، «بنتلى» وغيرها من دور

(1) Conan Doyle. A Study in Scarlet.

النشر المشهورة. كذلك ولأسباب سياسية وليست أدبية رفض «جون موريس» نشر كتاب دزرائيلى «الدوق الصغير»[١].

ويحكى ماكميلان عن نفسه قصة طريفة؛ حيث جعل الطابع من أحد كتبه كتاباً رائجاً رغم أنف الناشر؛ إذ قام طابع ماكميلان وهو «ر. ر. كلارك» من إدنبرة بطبع تسعة آلاف نسخة على مسئوليته الخاصة من قصة «ج. هـ. شورتهاوس»: «جون إنجلسانت» سنة ١٨٨٠م، وهو رقم أعلى بكثير مما طلبه الناشر، وكأن الطابع أكثر إحساساً برواج القصة من الناشر نفسه.

ومن الطريف أيضاً أن ماكميلان قد حول كتاب «هـ. ج. ويلز» «كبز»[٢] الذى لم يبع منه إلا ١٨٠ نسخة فى سنتين إلى ناشر آخر هو «نيلسون» الذى استطاع فى خلال شهور قليلة أن يبيع ٤٣ ألف نسخة. ومن الطريف أيضاً أن ماكميلان كان متحفظاً فى عدد النسخ التى يطبعها من الطبعة البريطانية من كتاب «مارجريت ميتشيل»: «ذهب مع الريح»[٣] حيث قرر طباعة ثلاثة آلاف نسخة فقط سنة ١٩٣٦ رغم أن هذا الكتاب على الجانب الآخر من المحيط كان من أحسن المبيعات وقد كانت هناك مائة ألف نسخة محجوزة قبل النشر. وكانت قصة «ذهب مع الريح» هى أول كتاب بعد «كوخ العم توم»[٤] يحقق هذه الشهرة المتعادلة بين البلدين: الولايات المتحدة وبريطانيا. وحتى بعد أن ظهرت القصة مسلسلة فى مجلة «أسبوعية واشنطن»[٥] طلب أحد الناشرين فى بوسطون تحويلها إلى كتاب. وقد جن جنون صاحب المجلة عندما رأى القصة القصيرة التى نشرت فى مجلته قد تحولت إلى مجلدين كبيرين. وفى خلال ستة أشهر من يوم نشر القصة فى كتاب من مجلدين يوم ٢٠ من مارس ١٨٥٢ تم بيع مائة ألف نسخة من المجلدين بسعر دولار ونصف. وطرحت طبعة رخيصة من مجلد واحد بسعر ٢/ ٣٧١ سنت للنسخة، بيع منها مائتا ألف نسخة قبل أعياد الكريسماس. وطالما أن حقوق المؤلفين الأمريكيين لم تكن محمية فى بريطانيا

(1) Disraeli. The Young Duke.
(2) H. G. Wells. Kipps.
(3) Margaret Mitchell. Gone With The Wind.
(4) Harriet Beecher Stowe. Uncle Tom's Cabin, 1852.
(5) Washington Weekly.

فقد صدرت من هذه القصة هناك أربعون طبعة مختلفة سميت بالإصدارات الإنجليزية فى نفس السنة، وقد تراوحت أسعار النسخة فى تلك الإصدارات الإنجليزية من ستة بنسات إلى ١٥ شلناً. ويبدو أن «روتلدج» كان أنجح المزورين الإنجليز لهذا الكتاب فقد، كان يرسل إلى باعة الكتب يومياً عشرة آلاف نسخة وباع وحده نصف مليون نسخة من المليون ونصف المليون نسخة التى صدرت فى بريطانيا. وفى نفس سنة ١٨٥٢ ترجمت قصة «كوخ العم توم» إلى عدة لغات: الفرنسية، الإيطالية، الدنمركية، الهولندية، الألمانية، المجرية، البولندية، السويدية، كما ترجمت بعد ذلك إلى أكثر من ثلاثين لغة أخرى.

هذه الأرقام يجب أن تقاس بما تدره من عائد لأن مفهوم أروج الكتب يتفاوت بطبيعة الحال من بلد إلى بلد. ففى إيطاليا مثلاً كان الناشرون الإيطاليون يعتبرون القصة الرائجة هى التى تبيع خمسة آلاف نسخة فأكثر، بينما زملاؤهم الناشرون الأمريكيون يعتبرون القصة الرائجة هى التى تبيع مليون ونصف المليون من النسخ. وفى أستراليا اعتبرت قصة «تشارلز شيلدن»: «فى خطواته» سنة ١٨٧٩م[1] أروج المبيعات لأنها باعت فى أستراليا مائة وخمسين ألف نسخة فى متجر واحد.

ومن المؤكد أن كتباً غير القصص لا يمكن أن تنافس القصص فى عدد النسخ التى تطبع وتباع، ومن هنا فإن ما يعتبر كتاباً قصصياً رائجاً بحكم عدد النسخ لاينطبق بالضرورة على كتب غير القصص. والنقاد الذين يميلون إلى الحكم على الكتب الجادة بنفس معايير الحكم على الكتب الخفيفة والقصص يظلمون الكتب الجادة ظلماً بينا. لقد رأى «ماكوليى» مؤلف كتاب «تاريخ إنجلترا»[2] أن هذا الكتاب سوف يبيع أكثر من أية قصة رائجة آنذاك؛ وفعلاً حدث ذلك، حيث أن أول مجلدين ظهرا سنة ١٨٤٩ بيع منهما أربعون ألف نسخة فى بريطانيا و١٢٥,٠٠٠ نسخة مزورة فى الولايات المتحدة قبل أن يظهر المجلدان الثالث والرابع. من هذه النسخ خمسة وعشرون ألف بيعت فى نفس يوم النشر ١٧ من

(1) Charles M Sheldon. In his steps.

(2) Macaulay. History of England.

ديسمبر سنة ١٨٥٥ ، وكان هناك أحد عشر ألف طلب حجز أخرى لم تجد نسخاً لها، وفي خلال شهر طرحت ١٥٠ ألف نسخة أخرى؛ من بينها ٧٣٠٠٠ نسخة مزورة في نيويورك و ٢٥٠٠٠ في فيلادلفيا.

ولقد اعتقد «ويليام هوارد رسيل» أن نشر «الرسائل» التى كان يبعث بها إلى جريدة تايمز من مسرح الحرب فى كتاب يمكن أن يحقق مبيع خمسة آلاف نسخة ولكن ناشر الكتاب روتلدج توقع أكثر من ذلك، ولدهشتهما معاً بيع من هذا الكتاب فى خلال سنة ١٨٥٥-١٨٥٦ مائتا ألف نسخة. وكتاب «ج.ر. جرين»: «التاريخ المختصر للشعب الإنجليزى»[1] بدأ مبيعاته بما لايقل عن خمسة وثلاثين ألف نسخة فى السنة الأولى لنشره (١٨٧٤) وعشرة أمثال هذا الرقم فى الولايات المتحدة، وهذا الكتاب مثل كتاب ماكليى ظل الطلب عليه وئيداً على جانبى المحيط الأطلنطى.

وإذا تركنا كتب التاريخ إلى كتب فلسفة التاريخ فسوف نجد أن كتاب «أوزوالد شبنجلر»[2] وكتاب «كونت كيسيرلنج»[3] تجاوزا مبيعات المائتى ألف نسخة فى ألمانيا فى العشرينات من القرن العشرين، كما حدث بالضبط بالنسبة لكتاب أرنولد توينبى «دراسة التاريخ»[4] حيث باع مبيعات هائلة فى بريطانيا والولايات المتحدة وفى ألمانيا عن طريق الترجمة الألمانية. ومن بين كتب التراجم التي حققت مبيعات رائجة نجد كتاب جون مورلى «حياة جلادستون»[5] الذى حقق نجاحاً منقطع النظير؛ حيث باعت مجلداته الثلاثة خمسة وعشرين ألف نسخة فى أول سنة لنشره (١٩٠٣) وقد باعت النسخة الرخيصة منه خمسين ألف نسخة ١٩٠٨-١٩٠٩ بسعر خمسة شلنات للنسخة، وقد ظل الكتاب من أروج المبيعات لسنوات طويلة بعد ذلك.

ومن اليسير علينا بطبيعة الحال أن ندرك لماذا أصبح كتاب سير ونستون تشرشل

(1) J. R. Green. Short History of the English People.- 1873.
(2) Oswald Spengler. Utergang des Abendlandes.
(3) Count Keserling. Reisetagebuch eines Philosophen.
(4) A. J. Toynbee. A Study of History.
(5) John Morley. Life of Gladstone.- 1903.

«الحرب العالمية الثانية»[(١)] من أحسن المبيعات؛ فقد ظهرت مجلداته الستة بين ١٩٤٨-١٩٥٤، وكان كل مجلد يزاد عدد نسخ طبعته عن المجلد الذى يسبقه، وكان هناك إعادة طبع للمجلدات السابقة؛ ولذلك يمثل العمل ككل بعض المشاكل الببليوجرافية. والسبب فى رواج هذا الكتاب يكمن بطبيعة الحال فى حقيقة واحدة: هى أن أعظم قصة فى تاريخ البشرية يحكيها أكبر مشارك فيها، وهو فى نفس الوقت واحد من أعظم الكتاب الإنجليز فى اللغة الإنجليزية.. وقد حصل على جائزة نوبل فى الأدب!

ولايخلو مجال العلوم هو الآخر من بعض أروج الكتب وأحسن المبيعات ففى منتصف القرن التاسع عشر نال المبجل «جون جورج وود» نجاحاً ساحقاً بفضل تبسيطه لكتب التاريخ الطبيعى، حيث بيع من كتابه «الأشياء العامة فى الريف»[(٢)] مائة ألف نسخة من الطبعة الأولى فى أسبوعها الأول. وفى مطلع القرن العشرين كان من بين الكتب التي حققت نجاحات كبيرة فى ميدان العلوم كتاب «حياة النحل»[(٣)] للمؤلف مايترلنك سنة ١٩٠١، وكتاب سير جيمس جينز «العالم من حولنا»[(٤)] سنة ١٩٢٩، كتاب راشيل كارسون «البحر من حولنا»[(٥)]. سنة ١٩٥١، وكتاب ثور هايردال «كون - تيكى»[(٦)] سنة ١٩٥١ أيضاً.

وهناك بصفة عامة شبه إجماع على استبعاد المطبوعات الحكومية والكتب المدرسية من أن تدخل فى عداد أروج الكتب وأحسن المبيعات، ولكن شتاينبرج يرى أن بعض الكتب التي تخرج من المطابع الحكومية وتكون لها صبغة عامة وليست رسمية يمكن أن تدخل هنا فى أروج الكتب طالما حققت مبيعات عالية بمعايير بلدها، ويضرب لنا أمثلة من مكتب الطبع الحكومى الملكى فى بريطانيا،

---

(1) Sir Winston Churchill. The Second World War.- 1948-1954.

(2) John George Wood. Common Objects of The Country.- 1858.

(3) Maeterlink. La vie des abeilles.- 1901.

(4) Thomas Jeans. The Universe Around Us.- 1929.

(5) Rachel Carson. The Sea Around US.- 1951.

(6) Thor Heyerdahl. Kon - Tiki.- 1951.

ومن بين تلك الأمثلة كتاب «معركة بريطانيا»[1] الذى طبع منه أربعة ملايين نسخة وخمسمائة، وكتاب «ألفباء الطهى»[2] الذى طبع منه ٧٠٠٫٠٠٠ نسخة، وكتابا السير إرنست جاوارز «الكلمات السهلة»[3]، «ألفباء الكلمات السهلة»[4] الذى تجاوزت مبيعات الواحد منهما ٣٥٠٫٠٠٠ نسخة، والتقرير الذى وضعه السير «ويليام بيفردج» سنة ١٩٤٢ وباع حتى سنة ١٩٥٤ ٢٧٥٫٠٠٠ نسخة[5].

وكان لنمو فكرة نادى الكتاب فى الدول الغربية أثره فى إعادة النظر فى مفهوم أروج الكتب وأحسن المبيعات؛ فقد قامت شركة واحدة هى شركة سيرز ـ روبك وشركاهما سنة ١٩١٣ ـ وهى شركة أمريكية للإرسال بالبريد ـ قامت بطلب طبع مليون نسخة من كتاب لوى والاس: «بن هور»[6] وذلك لتوزيعها على أعضاء نوادى الكتاب. وربما يكون هذا الرقم غير عادى، ولكن الرقم العادى فى حالة نوادى الكتب هو مائة ألف نسخة. . هذا الرقم الذى كان حلم أى مؤلف فيما مضى، ولكنه أصبح رقماً عادياً للمؤلف الذى يسوقه حظه إلى مجلس إدارة نادى الكتاب.

ولو كان من الممكن أن نعزل العناصر التى تجعل من كتاب ما كتاباً رائجاً عن بعضها البعض ونحلل كلاً منها على حدة، لوجدنا أن المناخ العام للرأى هو العامل الرئيسى، فحديث الناس عن الكتاب وكلامهم عنه ربما يكون له تأثير فى الإقبال على شرائه.

ومن ناحية أخرى فليس هناك لمكانة المؤلف وكتبه السابقة أى تأثير على جعل كتاب ما كتاباً رائجاً. ولذلك يجب أن نتوقف ملياً أمام العبارة التى ساقها «بيرون» الذى أشرنا إليه من قبل كواحد من مؤلفى أروج الكتب حين قال: «لقد استيقظت ذات صباح فوجدت نفسى مشهوراً». تلك العبارة التى تعكس تجربة

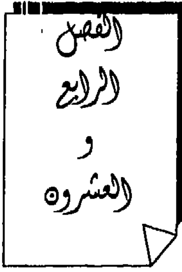
(1) The Battle of Britain.
(2) The ABC of Cookery.
(3) Ernest Gowers. Plain Words.
(4) ABC of Plain Words.
(5) William Beveridge. Report of 1942.
(6) Lew Wallace. Ben Hur.- 1913.

واحد من أصحاب الكتاب الرائجة وأحسن المبيعات. ولم يمنع الفشل الذريع الذى منى به كتابه «ساعات البطالة»[1] سنة ١٨٠٧ كتابه «تشايلد هارولد»[2] من تحقيق نجاح سريع ساحق، وجعله يقول تلك العبارة السابقة. كذلك فإن نجاح قصص والترسكوت الشعرية الباكرة لم يتسبب فى النجاح الكبير لروايته النثرية «ويفرلى» سابقة الذكر حيث نشرت مجهولة المؤلفة.

والحقيقة التى يجب أن نتوقف أمامها مليًا كذلك هى أن معظم أروج الكتب وأحسن المبيعات كتبها أشخاص مغمورون بدون أسماء، أى أسماء معروفة للجمهور من قبل. والأكثر من هذا أن بعض هؤلاء المؤلفين لم يؤلفوا سوى هذا الكتاب الواحد الرائج، ومن بينهم «مارجريت ميتشيل» نفسها و«هاربيت بيتشر ستو».

ولا نستطيع أن نؤكد على أن لاسم الناشر أو الناقد الذى يعرض الكتاب فى الصحف والمجلات ووسائل الإعلام دوراً فى جعل الكتاب من أروج المبيعات. وتحضرنى هنا عبارة شيخ الناشرين «ستانلى أنوين» أن الدعاية والترويج تزيد الكتاب الناجح نجاحاً، ولكنها لاتحرك كتاباً فاشلاً، وهو يذكر أنه دفع عشرين ألف جنيه إسترلينى فى حملة دعاية وترويج عن كتاب راكد لديه ولم يبع بعد ذلك من هذا الكتاب إلا بألف جنيه فقط. ومن جهة أخرى قد ينظر القارئ إلى عروض الكتب فى الصحف والمجلات نظرة مختلفة عن نظرة الناقد بل قد تكون نظرة عكسية. وعلى سبيل المثال شن النقاد حملة ضارية غير عادية على كتاب جوته «فيرذر» سابق الذكر، ولكنه مع ذلك نجح نجاحاً غير مسبوق. وعلى النقيض كان للنقاد أثر كبير فى توسيع رقعة المبيعات الهائلة من كتابى تشارلز ديكنز «ملاحظات أمريكية»[3]، «مارتين تشوزليوت»[4]؛ حيث أطالت الجرائد الأمريكية المديح والثناء على الكتابين واعتبرتهما من أحسن ما أنتج على الرغم من أنهما كانا من أعمال ديكنز الصغيرة.

(1) Byron. Hours of Idleness.- 1807.
(2) Byron. Childe Harold.
(3) Dickens. American Notes.
(4) Dickens. Martin Chuzzlewit.



السلاسل الشعبية

كان الشعار الذى «رفعه فرانسيس بيكون»: «المعرفة قوة» هو المفتاح الذى أمسكت به الطبقات الوسطى فى المجتمع الأوربى، وهى الطبقات التى توجهت إليها الدول بالتعليم الإلزامى. وهو نفس الشعار الذى وضعه «جوزيف ميير» على صفحات عنوان سلسلته «مكتبة المليم»[١]. إن من السهل أن نسخر من أنصاف المتعلمين ومن نصف العلم الذى تعلموه فى القرن التاسع، ولكن من الصعب علينا أن ننحيهم من سوق الكتاب ونبعدهم عن سعيهم الدائب فى سبيل تحصيل كميات أكبر من العلم، فقد سعوا حثيثين إلى المدارس الليلية، ومدارس تويع التعليم، كما لجأوا إلى كتب الثقافة العامة ينهلون منها. ولقد أفاد الناشرون من هذا الاتجاه فنشروا لهم سلاسل من الكتب الشعبية الرخيصة.

ويعود الفضل فى بدء تلك السلاسل للناشر الرائد «جون بيل» الذى توفر على إعادة طبع بعض الكتب فى طبعات رخيصة موحدة الشكل، موحدة السعر. وقد بدأ عمله هذا بسلسلة «شعراء بريطانيون»[٢] أصدر فيها ١٠٩ أعداد بسعر ستة شلنات بين ١٧٧٧ـ١٧٨٢. وكانت هناك سلسلة منافسة له توفر عليها الدكتور «جونسون» بعنوان «حياة الشعراء»[٣] ولكنها فشلت رغم أهميتها، واستمرت سلسلة جون بيل. وربما عثرنا على السبب فى اختلاف اتجاه كل من المحررين؛ ذلك أن بيل كان يهدف إلى تعليم الجموع من وراء سلسلته، فى حين كان الدكتور جونسون غير مؤمن بالطبعات الرخيصة أصلاً التى وصفها أحد الناشرين بأنها تشبه «روبين هود» الذى كان يسرق الأغنياء ليعطى الفقراء. ولابد أن نكون على قناعة بأن الناشر أو المحرر لا يمكن أن ينجح إلا إذا اعتنق رسالته وآمن بنا.

(1) Groschen Bibliothek.
(2) British Poets.
(3) Lives of Poets.

لقد وضع شتاينبرج يده على عاملين هامين أثرا فى اتجاه الناشرين نحو الطبعات والسلاسل الرخيصة التى توجه للجمهور العام. وأول هذين العاملين: دخول العامة من غير أصحاب الثراء والأبهة إلى المسرح السياسى حوالى ١٨٣٠. وثانى هذين العاملين ظهور السكة الحديد بما وفرته من انتقال مريح ووقت سفر طويل منذ ١٨٤٠. وكان «آرشيبالد كونستابل» هو أول من تحدث عن «الكتب للملايين»[(١)]. . تلك الكتب التى تطبع على ماكينة الطباعة الجديدة وورق من لب الخشب وتجلد بالكرتون أو القماش الرخيص وتباع لدى تجار القرطاسية والأدوات الكتابية (الوراقين)، ومحطات السكك الحديدية. . هذه الكتب يمكن - بل وقد قصد بها - أن ترمى بعد استعمالها دون أسف أو ندم عليها من جانب أغلب المشترين.

من هذا المنطلق أصدر كونستابل سلسلته «المعارف العامة»[(٢)] (١٨٢٧ - ١٨٣٥)، وأصدر «جون موريى» سلسلته «مكتبة الأسرة»[(٣)] (١٨٢٩ - ١٨٣٤)؛ وأصدر «كولبورن» و«بنتلى» سلسلة «روايات»[(٤)] (١٨٣١ - ١٨٥٤). وكانت تلك هى السلاسل الأولى التى صدرت فى العالم كله. وكانت هذه السلاسل تركز أساساً على الهدف التعليمى التربوى أكثر من الهدف الترويجى الترفيهى. وقد اشتملت سلسلة كونستابل أساساً على كتب فى الرحلات والتاريخ كتب معظمها عن طريق التكليف خصيصاً لهذه السلسلة. وقد كتبت صحيفة «سبكتيتور» عن سلسلة كولبورن وبنتلى فقالت: «عندما توضع الأعمال الكلاسيكية والكتب الغالية الثمن فى يد البسطاء بسعر رخيص، فإنه لن تنقضى سنوات طويلة إلا ويكون فى كل بيت له حقه بالتصويت فى الانتخابات مكتبة صغيرة».

وكانت أسعار الكتب فى هذه السلاسل تدور حول ستة شلنات، وهو مبلغ زهيد إذا قورن بالسعر القياسى للرواية فى القرن التاسع عشر وهو ٣١ شلناً و ٦ بنسات.

لقد حدث تطور آخر فى إنتاج السلاسل الرخيصة وبكميات كبيرة من النسخ

(1) Archibald Constable Literature For Millions .
(2) Miscellany.
(3) Family Library.
(4) Novels.

عندما صدرت سلسلة «مكتبة الساحة الأيرلندية»[1] التى توفر عليها «سمز» و«ماكناير» بين ١٨٤٧ ـ ١٨٦٣، وقد صدر فيها نحو ٣٠٠ مجلد. وسلسلة جورج روتلدج «مكتبة السكة الحديد»[2] التى صدرت ما بين ١٨٤٨ و١٨٩٨ وصدر فيها ١٣٠٠ مجلد. وقد اقتصرت كلتا السلسلتين على الروايات، وكانت النسخة تباع بشلن واحد. ويعزو المراقبون النجاح الفورى لهاتين السلسلتين إلى بيعهما فى محطات السكة الحديد التى كانت شركة «و. هـ. سميث» قد بدأت فى افتتاحها سنة ١٨٤٨ بدءاً بمحطة إستون.

وقد دخلت هذه الشركة أيضاً مجال نشر الكتب خصيصاً لمحطات السكة الحديد، وبدأت بمجموعة من الروايات تباع الواحدة منها بستة شلنات.

فإذا تركنا بريطانيا إلى أوربا الأم فسوف نجد أن إصدار السلاسل هناك قد تأثر تأثراً كبيراً بالنمط الإنجليزى. وقد بدأت السلاسل هناك على يد طابع من ليبزج فى ألمانيا هو «كريستيان بيرنهارد توتشنيتز» (١٨١٦ ـ ١٨٩٥) الذى بدأ سنة ١٨٤٢ بإصدار سلسلة «مجموعة المؤلفين الإنجليز والأمريكيين»[3]. . وكانت فى البداية مقتصرة على المؤلفين الإنجليز، ثم أضيف إليهم فيما بعد المؤلفون الأمريكيون. وقد رفعت هذه السلسلة من قدر تلك المطبعة الصغيرة إلى مصاف دور النشر الكبرى الدولية. ومع حلول سنة ١٩٣٩ كانت هذه الدار قد طبعت ٥٤٠٠ عنوان فى هذه السلسة التى ظلت لمدة قرن كامل الرفيق المفضل للسائحين الناطقين بالإنجليزية والراغبين فى الأدب الانجليزى والأمريكى، كما كانت رفيق الطلاب الذين يركبون السكة الحديدية ذهاباً وإياباً. لقد أوصلت هذه السلسلة فكر الكتاب الإنجليز والأمريكيين بطريقة غير مسبوقة. ورغم أنه لم يكن مضطراً ـ أى «توتشنيتز» ـ إلى استئذان المؤلفين أصحاب الكتب الأصلية فى تلك الفترة التى لم تكن تحمى فيها حقوق المؤلفين، إلا أنه من تلقاء نفسه استأذنهم فى إعادة

---

(1) Irish Parlour Library = Simms and McIntyre. - (1847 - 1863).

(2) George Routledge = Railway Library. - 1848 - 1898).

(3) Christian Bernhard Tauchnitz = Collection of British and American Authors.

طبع كتبهم ومنحهم عوائد مالية على تلك الكتب. كما تعهد فى نفس الوقت بألا يبيع تلك المعادات داخل بريطانيا وعموم الإمبراطورية طالما أنه لم يكن هناك اعتراض على بيع أصولها داخل ألمانيا نفسها. وطوال فترة صدور هذه السلسلة لم تكن هناك أية انتقادات على طباعتها التى كانت جيدة على وجه العموم، ومع ذلك فقد أدخلت بعض التغييرات الأساسية على الطباعة فى الثلاثينيات من القرن العشرين.

ومن المؤسف أن الرصيد الموجود فى المخازن من كتب تلك السلسلة دمر عن آخره خلال الحرب العالمية الثانية. ولكن فى سنة ١٩٥٢ بدأت الشركة من جديد أعمالها فى شتوتجارت واستأنفت إصدار السلسلة. وقد بدت فى ثوبها الجديد القشيب الذى صممه الفنان الإيطالى «جيوفانى ماردرشتيج» من فيرونا امتداداً عصرياً لماضيها المشرف وتقاليدها العريقة.

ولقد كانت أعمال «ويليام شكسبير» هى عصب السلاسل الشعبية بأسعار زهيدة داخل أوربا الأم. ولقد سبقت سلسلة شكسبير الألمانية(١) التى أصدرها «أنطون فيليب ركلام» الناشر فى ليبزج سلسلة شكسبير الإنجليزية(٢) التى توفر عليها الناشر الإنجليزى ماكميلان سنة ١٨٦٤؛ والتى باع منها عشرين ألف نسخة بسعر النسخة ثلاثة شلنات وستة بنسات فى شهور قليلة.

ولنعد إلى سلسلة شكسبير الألمانية التى توفر عليها أنطون فيليب ركلام الألمانى فأصدرها سنة ١٨٥٨ فى طبعة من ١٢ مجلداً بسعر ٢/١١ تالتر (٤ شلنات و٦ بنسات)، أى بنصف ثمن الطبعة الألمانية التالية من كتب شكسبير. وقد طبع ركلام من هذه المجموعة ست طبعات فى تلك السنة. وقد شجع هذا النجاح الساحق ركلام على أن ينشر سنة ١٨٦٥ مسرحيات شكسبير الخمس والعشرين فرادى بسعر يعادل ٣ بنسات لكل مسرحية خفضت إلى ٢/٢١ بنس منذ ١٨٧١.

وبهذه المناسبة أذكر هنا بأن دراسات مشاكل النصوص (الببليوجرافيا النصية أو النقدية) قد بدأت وانتعشت فى تلك الفترة، وخرجت أساساً من بطن أعمال

---

(1) Unser Shakespeare = Anton Philipp Reclam.

(2) Globe Shakespearc = Macmillan.

شكسبير. وقد بدأت الببليوجرافيا النقدية هذه على يد «تايكو مومسن» سنة ١٨٥٥ وسار من بعده كبار الببليوجرافيين «أ. و. بولارد»، «ر. ب ماكرو»، السير «و. و. جريج»، «ف. ب ويلسون»، «فريدسون باورز». ومازالت مادة هذه الببليوجرافيا النقدية هى نصوص شكسبير ونصوص عصره.

وقد أوحى النجاح العظيم لمجموعة شكسبير الألمانية بإصدار سلسلة كتيبات مماثلة من الأعمال الأدبية الشهيرة الأخرى وطرحها بسعر زهيد بحيث يباع كل مجلد على حدة. ومن هنا تولدت فكرة سلسلة ركلام الشهيرة «المكتبة العالمية»[1] وهى النموذج الحى لكل السلاسل الشعبية فى العالم. وقد بدأت سنة ١٨٦٧ بالجزء الأول من «فاوست» جوته؛ وعلى الرغم من أن المسرحيات ولفترة طويلة كانت تمثل العمود الفقرى لهذه السلسلة، إلا أنها تضمنت أيضاً فى الأربعين عدداً الأولى قصصاً قصيرة ودواوين شعر ومقالات. وظل سعر بيع الكتاب الواحد وهو ٢٠ فينجاً (٢/١ ٢ بنس) ثابتاً دون تغيير حتى سنة ١٩١٧. وبعد خمسة وسبعين سنة ـ أى فى سنة ١٩٤٢ ـ كان عدد الكتب التى صدرت فى هذه السلسلة قد ناهز ثمانية آلاف عنوان؛ كما ربا عدد النسخ المطبوعة منها على ٢٧٥ مليون نسخة. وبعد تدمير مخازن الشركة خلال الحرب العالمية، أخذ ركلام فى إعادة بناء الشركة مرة أخرى فى شتوتجارت عقب الحرب سنة ١٩٤٧. ومع حلول سنة ١٩٥٨ كان قد أعاد إصدار ٩٠٠ عنوان فى ستة وثلاثين مليون نسخة، وكان أول كتاب أعيد إصداره هو كتاب شيللر «ق»[2] الذى بيع منه ٩٧٠,٠٠٠ نسخة.

ومن بين المؤلفين الذين حققوا نجاحات كبيرة فى تلك السلسلة الكاتب المسرحى السويدى الأشهر «إبسن». ذلك أنه بين ١٨٧٧ و ١٩٤٢ باعت ركلام أكثر من ستة ملايين نسخة من ترجمات ألمانية لتسع عشرة من مسرحياته. وقد جاءت مسرحية «النبيل جاينت»[3] فى المقدمة حيث باعت ٧١٩٠٠٠ نسخة تلتها

(1) Universal Bibliothek.
(2) Schiller. Tell.
(3) Ibsen. Peer Gynt.

مسرحية «بيت الدمية»[1] التى باعت ٥٨٤٠٠٠ نسخة ثم «الأشباح»[2] التى بيع منها ٥٤٤٠٠٠ نسخة. وحتى دواوينه الشعرية وصلت إلى مائة ألف نسخة. ويلاحظ المراقبون أيضاً أن مبيعات كتب «أفلاطون» و«كانط» فى هذه السلسلة قد تجاوزت ٩٣٠ر٠٠٠ نسخة، ويأتى بعدهما كتب «شوبنهاور» التى تجاوزت ٨٦٠ر٠٠٠ نسخة. ويلاحظ على اتجاهات الجمهور الألمانى تفضيل المؤلفين الإنجليز على المؤلفين الأمريكيين على النحو الذى تكشف عنه أرقام المبيعات الآتية فى هذه السلسلة:

شكسبير ـــــ ٦ر٤٠٠ر٠٠٠ نسخة.
ديكنز ـــــ ١ر٥٠٠ر٠٠٠ نسخة.
مارك توين ـــــ ٧٧٦ر٠٠٠ نسخة.
إدجار آلان بو ـــــ ٤٥٥ر٠٠٠ نسخة.
بيلامى ـــــ ٤٣٤ر٠٠٠ نسخة.
والتر سكوت ـــــ ٤٠١ر٠٠٠ نسخة.
أوسكار وايلد ـــــ ٤١٠ر٠٠٠ نسخة
بايرون ـــــ ٣١٢ر٠٠٠ نسخة.

أما إصدارات ما بعد الحرب فى هذه السلسلة فقد تضمنت فيما تضمنت ترجمات لكتاب بيوولف، جليفر، روبنسون كروزو، سبع عشرة مسرحية من مسرحيات شكسبير، بعض أعمال قصيرة لكل من: بيرل بك، جوزيف كونراد، تيودور درايزر، فاراراى، إ.م. فورستر، جالزوورثى، جراهام جرين، إرنست همنجواى، ألدوس هكسلى، كبلنج، ت. لورانس، جاك لندن، هيرمان ميلفل، إدجار آلان بو، ج.ب. برستيلى، «بجماليون» من تأليف جورج برناردشو، ر.ل. ستيفنسون؛ أوسكار وايلد. ويرى طلاب التذوق الأدبى وعلم النفس زاداً رائعاً لدراستهم فى هذه القائمة من الأعمال.

---

(1) Ibsen. Doll's House.

(2) Ibsen. Ghosts.

وإذا كنا قد عالجنا هذه السلسلة الشعبية بشيء من التفصيل، فليس ذلك راجعاً فقط لأنها أقدم وأطول السلاسل عمراً، ولكن أيضاً لاستطاعتنا الحصول على بيانات وأرقام مفصلة عنها، فى حين لم يتيسر لى ذلك فى سلاسل أخرى.

ولقد حاول كثير من الناشرين الألمان تقليد هذه السلسلة، وقد أصاب بعضهم نجاحاً فى هذا الصدد، إلا أن أياً منهم لم يصل إلى ما وصل إليه ركلام فى سلسلته من إنتشار وشعبية وعائد. والوحيد الذى تضامن مع ركلام هو إنسيل فيرلاج الذى بدأ يصدر سلسلته «مكتبة إنسيل»[1] فى سنة ١٩١٢، والتى وصلت إلى جمهور لم يصل إليه ركلام أو لم يضعه ركلام فى حسبانه عندما أصدر سلسلته. ومن الملاحظ أن سلسلة إنسيل فيرلاج أكثر تدقيقاً فى اختيار الكتب التى تنشرها، ولكنها تراعى فى طباعتها معايير الإنتاج بالجملة بحيث يكون السعر زهيداً يعادل ٦ بنسات للنسخة مع عدم الإخلال بجمال الطباعة وحسن الإخراج. وإذا نظرنا إلى الثمن العالى نسبياً للنسخة فى هذه السلسلة، فإن ذلك راجع إلى أنها موجهة أساساً للطبقة المتعلمة فى ألمانيا. وبعد خمسة وعشرين عاماً من صدور هذه السلسلة - أى فى سنة ١٩٣٧ - بلغ عدد الكتب فيها خمسمائة عنوان فى نحو خمسة وعشرين مليون نسخة، والكتب الثلاثة الأولى فيها كانت لكل من: رودلف بايندنج[2] وقد باع كتابه ٩٠٠٫٠٠٠ نسخة؛ ريلكه[3] وقد باع كتابه هو الآخر ٩٠٠٫٠٠٠ نسخة، ثم استيفان زفايج[4] وقد باع كتابه ٥٠٠٫٠٠٠ نسخة. وحتى مجموع القصائد التى اختارها الشاعر «كاروسا» بنفسه بيع منها سنة ١٩٥٣ نحو مائة وخمسين ألف نسخة. وسرعان ما أصبحت كتب هذه السلسلة تشتمل على صور وإيضاحيات مأخوذة من كتل الخشب، وصل عددها فى بعض الكتب خمسين صورة. وككل شيء تأثرت السلسلة بظروف الحرب العالمية الثانية، وارتفع سعر النسخة عما كان عليه قبل الحرب دون أن يؤثر ذلك على معدلات الإنتاج أو التسويق.

---

(1) Insel. Bücherei = Insel - Verlag.
(2) Rodulf Binding. Opfergang.
(3) Rilke. Cornet.
(4) Stefan Zweig. Sternstunden.

لقد جرت محاولات أخرى كثيرة فى بريطانيا ودول القارة لإنتاج سلاسل شعبية بأسعار زهيدة على غرار سلسلتى ركلام وإنسيل. وقد خطط «ألين لين» سنة ١٩٣٥ لإصدار سلسلة تضم كتباً ممتازة فى شكل جذاب وبسعر زهيد، وقد توقع الناشرون الإنجليز الراسخون للسلسلة الجديدة الفشل السريع، ولكن خاب ظنهم ونجحت سلسلة «بنجوين»[١] نجاحاً منقطع النظير فى زمن قياسى، وضمت السلسلة الجديدة معادات من كتب القصص الشهيرة وكتب التراجم، كما ضمت كتباً غير قصصية جادة. وقد ضمت العناوين العشرة الأولى فى هذه السلسلة كتباً قصصية لكل من أندريه موردا؛ إرنست همنجواى، مارى ويب وكتبا غير قصصية لجورج برناردشو (دليل المرأة الذكية إلى الاشتراكية والرأسمالية والسوفيتية (الشيوعية) والفاشية)[٢] وليونارد وولى «نبش الماضى»[٣] وسير جيمس جينز «الكون الخفى»[٤]. وقد أدت الظروف السياسية والدولية التى حاقت بالغالم فى ذلك الوقت وأسرعت بالحرب العالمية الثانية، بهذا الناشر إلى طبع ونشر كميات كبيرة من الكتب فى سلسلة «بنجوين الخاصة»[٥] تناولت أحداث الساعة ومشكلات إعادة بناء العالم. وكان بعض هذه الكتب بتكليف من الناشر للمؤلفين. ومن أمثلة التكليفات تكليف «إ. ف. ريو» بترجمة الأودية سنة ١٩٤٦ أى بعد عشر سنوات من صدور أولى كتب هذه السلسلة، وكانت باكورة سلسلة جديدة لترجمات الكتب الكلاسيكية، وفى سنة ١٩٥٥ كانت هذه الملحمة قد باعت مليون نسخة والسلسلة الشقيقة لسلسلة بنجوين «كتب بليكان»[٦] لقيت هى الأخرى رواجاً كبيراً، وكانت معظم كتبها عبارة عن تكليف مباشر، وكتبت خصيصا لهذه السلسلة الرخيصة. وحققت بعض الكتب مبيعات تصل إلى ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف نسخة، حتى الكتب ضيقة

(1) Penguin Books = Allen Lane.
(2) G. B. Shaw. The Intelligent Woman's Guide to Socialism, Capitalism, Sovietism and Fascism.
(3) Sir Leonard Woolley. Digging Up the Past.
(4) Sir James Jean. The Mysterious Universe.
(5) Penguin Special.
(6) Pelican Books.

التخصص فى الآثار والفلاسفة وعلماء النفس وكتب التاريخ الدراسية كانت مبيعاتها تدور حول مائة ألف نسخة.

فى منتصف القرن التاسع عشر ظهرت أيضاً «سلسلة الشلن»(1) التى بدأها «هـ.ج. بون» سنة ١٨٥٠م، وقد نظر إليها الناشرون الإنجليز فى ذلك الوقت على أن هذا السعر هو الحد الأدنى الذى لا يمكن النزول عنه لأى كتاب فى «المكتبة القياسية»(2) أو «كلاسيكيات»(3) وهاتان الأخيرتان هما آخر السلاسل رخيصة الثمن (أقل من شلن) وقد صدرتا على التعاقب سنة ١٨٤٦ و ١٨٥٣ على يد نفس الناشر بون. ولم تتمكن سلسلتا «السبع بنسات»(4) التى أصدرها نيلسون و «مكتبة القارئ»(5) ذات الستة بنسات من تجاوز الحد الذى وصلت إليه من النجاح.

وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعد هو سلسلة كاسيل «**المكتبة الوطنية**»(6) التى كان يحررها «هنرى مورلى» (١٨٢٢-١٨٩٤) والذى سبق أن عمل محرراً فى سلسلة «المكتبة العالمية» التى كان يصدرها روتلدج بسعر شلن واحد للنسخة.

لقد بدأت سلسلة المكتبة الوطنية سنة ١٨٨٦م، وفى غضون أربع سنوات فقط صدر فى هذه السلسلة ٢٠٩ كتب بمعدل كتاب كل أسبوع وبسعر ثلاثة بنسات لكل نسخة مغلفة وستة بنسات لكل نسخة مجلدة بالقماش. وكان مورلى يكتب مقدمة لكل كتاب، وقد غطت السلسلة كل فروع الأدب الإنجليزى، ومن بينها القصص القياسية التى سقطت فى الملك العام. ولقد حققت هذه السلسلة نجاحاً كبيراً وكان متوسط مبيعات الكتاب الواحد ثلاثين ألف نسخة بمجموع كلى نحو سبعة ملايين نسخة. ومن بين الأعداد الغفيرة الذين أدخلت هذه السلسلة السرور

(1) Shelling Series = H.G. Bohn.

(2) Standard library = H.G. Bohn.

(3) Classics = H. G. Bohn.

(4) Nelson's Sevenpennies.

(5) The Reader's library.

(6) Cassell's National Library/ edited by Henry Morely.

على قلوبهم لرخص أسعارها أحد التلاميذ فى قرية من قرب ويلز أصبح بعد ذلك الأستاذ الدكتور السير «إرنست باركر». لقد ارتفع السعر بعد ذلك إلى ستة بنسات ولكن ظلت المبيعات على حالها. وفى سنة ١٩٠٧-١٩٠٨ أصدر «كاسيل» سلسلة جديدة شبيهة هى **«مكتبة الشعب»** صدر فيها خمس وثمانون عنواناً بعدد إجمالى من النسخ وصل إلى ٩٠٠ر٠٠٠ نسخة بسعر النسخة ثمانية بنسات، وكان معظم الكتب فيها عبارة عن قصص مطعمة ببعض كتب مقالات «بيكون»، تأملات «ماركوس أوريليوس»، مقالات «ماكوليى».

ويرجع السعر الخاص لهاتين السلسلتين إلى عاملين أساسيين: العامل الأول هو عامل ارتفاع التكلفة فى إنجلترا بسبب ارتفاع أجور المنضدين الإنجليز والطابعين الإنجليز مقارنة بمثيلاتها فى الخارج. والعامل الثانى هو اتجاهات القراء فى العهد الفيكتورى الذين كانوا دائماً فى حاجة إلى كتب بهذا السعر.

ويعزو البعض النمو المطرد الذى حدث فى «المكتبة العالمية» التى كان يصدرها ركلام إلى التسهيلات التى وضعتها ألمانيا فى حق المؤلف سنة ١٨٦٧ ورفع القيود التى كانت قد فرضت على المؤلفين والناشرين. ومن بين تلك التسهيلات إسقاط حق المؤلف فى مؤلفاته بعد ثلاثين سنة من وفاته. وهذا الإجراء سمح بإدخال مؤلفات أمثال جوته، شيللر، ليسنج، كليست، هوفمان، جان بولى وغيرهم من المؤلفين الكلاسيكيين وكتاب القصص الرومانسية، فى هذه السلسلة الرخيصة دون حاجة إلى دفع عوائدهم.

ونفس الشىء تقريباً فى بريطانيا بعد صدور قانون حق المؤلف لسنة ١٨٤٢ والذى نص على سقوط حق المؤلف المالى بعد سبعة أعوام من وفاة المؤلف، أو بعد مرور اثنين وأربعين عاماً على نشر الكتاب لأول مرة؛ وكانت نتيجة ذلك أنه فى حوالى سنة ١٩٠٠م سقطت كل أو معظم كتب: ديكنز، شاكيريى، دزرائيلى، لاتيون، جورج إليوت، برونتيس، كارلايل، رسكين... أو باختصار: كل مؤلفى العصر الفيكتورى سقطت كتبهم فى الملك العام. ولم يتوان الناشرون البريطانيون عن اغتنام هذه الفرصة.

وليس من قبيل الصدفة أن تنشأ فى تلك الفترة سلاسل جديدة شهيرة لاستغلال تلك الفرصة الذهبية. ومن بينها:

* سلسلة نيلسون «مكتبة القرن الجديد»[١] بدأت سنة ١٩٠٠، وتحولت إلى كلاسيكيات نيلسون سنة ١٩٠٥.

* سلسلة «كلاسيكيات العالم»[٢] بدأها «جرانت ريتشاردز» سنة ١٩٠١ وتحولت إلى جامعة أكسفورد سنة ١٩٠٥.

* سلسلة «كلاسيكيات الجيب»[٣] التى بدأها «كولنز» سنة ١٩٠٣.

* سلسلة «مكتبة كل شخص»[٤] التى بدأها «دنت» سنة ١٩٠٦.

هذه السلاسل التى بدأت مع بداية القرن العشرين كانت بينها مجموعة من الخصائص المشتركة طالما أنها نشأت فى ظروف واحدة وتخدم تقريباً نفس فئات القراء وطبقاتهم وتعيش نفس العوامل الاقتصادية والاجتماعية والتجارية والعلمية. من بين تلك الخصائص عدم قدرة أى من هذه السلاسل على الحفاظ على السعر المبدئى الذى بدأت به، بل وعدم قدرتها على الاحتفاظ بسعر موحد لكل الكتب داخل السلسلة. وفى سبيل تعويض القارئ دأبت سلسلة كولنز «الكلاسيكيات الجديدة» على إعادة تحرير وإعادة جمع النص، كما دأبت سلسلة دنت «مكتب كل شخص» على تغيير الطباعة والإخراج بشكل عصرى. وكانت سلسلة كولنز وسلسلة نيلسون تركزان على الروايات والقصص القصيرة والأشكال القصصية الأخرى، فى حين أن سلسلة «كلاسيكيات العالم» وسلسلة «مكتبة كل شخص» كانت أوسع مجالاً، وضمت الشعر والدراما والتاريخ والتراجم واللاهوت والفلسفة حتى تروق - حسب كلمات «ج.م. دنت» - «لكل فئات القراء: العامل، الطالب، المثقف، الطفل، الرجل، المرأة».

---

(1) Nelson's New Century Library .- 1900 = Nelson's Classics.- 1905.

(2) World's Classics / Grant Richards.- 1901; Oxford University Press.- 1905.

(3) Collins's Pocket Classics.- 1903.

(4) Dent's Everyman's Library.

ولقد كان نجاح هذه السلاسل الأربعة سريعاً ومباشراً ومستمراً؛ فبعد نصف قرن تخطى نيلسون حاجز الخمسين مليون نسخة، وباع كولنز فوق سنة ١٩٥٣ بعد صدور السلسلة الجديدة (كلاسيكيات جديدة). أما دنت الذى ربت كتبه على ألف عنوان فقد باع ما يزيد على٤٣ مليون نسخة. أما سلسلة كلاسيكيات العالم فقد بلغ عدد عناوينها ٥٥٠ عنواناً وباعت ١٢٫٥ مليون نسخة.

ويكشف الفحص المتأنى للعناوين الرائجة فى هذه السلاسل الشعبية عن زاد علمى زخرت به تلك السلاسل. فى سلسلة كولنز كان هناك أربعة كتب فقط برزت بين أروج ١٢ كتاباً بين ١٩٤٠-١٩٦٠. وأروج أربعة كتب فى هذه السلسلة هى :

أ- ديفيد كوبرفيلد: دائماً فى المقدمة أو المرتبة الثانية.

ب- أوليفر تويست.

ج- قصة مدينتين.

د- جزيرة الكنز.

ويأتى بعد هذه الكتب فى المرتبة ثلاثة كتب أخرى تقترب منها وهى: «لورنادون»؛ «الكبرياء والهوى»[1]؛ «جين إير». ويظهر «تشارلز ديكنز» مرة أخرى بكتبه «التوقعات الكبرى»[2]، «أوراق بيكويك»، «نيقولاس نيكيلباى». ويبدو أن التصنيف الذى قامت به هيئة الإذاعة البريطانية وفلمنة بعض تلك القصص قد ساعد على زيادة مبيعات تلك الكتب على نحو ما حدث عندما أعد مسلسل تليفزيونى لقصة «جين إير» سنة ١٩٥٦، حيث تضاعفت مبيعات طبعة كولنز من هذه القصة فى تلك السنة. وهذه الحالة يجب أن نضعها فى الحسبان عندما نناقش أثر الإذاعة والتليفزيون على سوق الكتاب.

من بين كتب كولنز هناك ٢٤ كتاباً راجت مبيعاتها بالنسبة إلى سائر كتب هذه السلسلة، فى حين راج سبعون كتابا فى سلسلة «مكتبة كل شخص». ومن بين

(1) Pride and Prejudice.
(2) Great Expectations.

كتب «مكتبة كل شخص» الرائجة نجد عشرة كتب غير قصصية من بينها: كتابان لأفلاطون، كتاب لديكارت، كتاب لجون ستيوارت ميل، كتاب رأس المال لكارل ماركس، **القرآن** (وقد نشر فى هذه السلسلة بناء على اقتراح جورج برناردشو)، حولية الأنجلو - ساكسون. وأقل الكتب رواجاً كانت لكل من: بيبز، بوزويل، جيبون. ولم يرج للسير والترسكوت إلا كتاب واحد فى سلسلة كولنز رغم وجود ثمان روايات له فى السلسلة الجديدة فى مقابل ٢١ رواية فى السلسلة القديمة.

ومن أروج الكتب فى سلسلة «كلاسيكيات العالم» نجد كتاب بالجريث «الكنز الذهبى»[1] الذى يقف على قدم المساواة مع أروج كتب سلاسل كولنز و «مكتبة كل شخص». وفى سلسلة مطبعة جامعة أكسفورد نجد ستة كتب رائجة يأتى فى مقدمتها: «ثلاثة وعشرون» من تولستوى، قصص إنجليزية قصيرة فى مجلدين، مجموعة مقالات إنجليزية.

وربما يرغب الببليوجرافيون ومؤرخو الأدب فى معرفة الأعمال الأولى فى كل سلسلة وكيف تم اختيارها:

كلاسيكيات العالم: بدأت بالكتب الثمانية الآتية: جين إير، قصائد تنيسون، قس ويكفيلد، حديث المائدة لهارليت؛ قصائد كيتس؛ أوليفر تويست، مقالات إيليا، مرتفعات ويذرنج.

مكتبة كل شخص: بدأت بالكتب الآتية: حياة جونسون لبوزويل فى مجلدين، حياة نابليون للوكهارت؛ قصص العفاريت لأندرسون، كتاب العجائب، قصص تانجلوود وهذان الأخيران من تأليف هوثورن.

سلسلة كولنز: بدأت بالكتب الآتية: ديفيد كوبرفيلد، آدم بيد، منذ سنتين، رجل جون هاليفاكس المهذب[2]، الاتجاه غرباً[3].

---

(1) Palgrave. Golden Treasury.

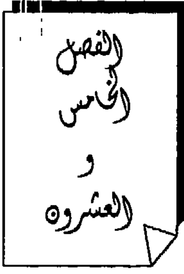
(2) John Halifax Gentleman.

(3) Westward Ho.

هذه الكتب فى الواقع تعكس ذوق وفكر وتجربة المحرر الذى توفر على البدء بها، .وربما كان «إيرنست رايس» (١٨٥٩-١٩٤٦) الذى توفر على تحرير سلسلة «مكتبة كل شخص» منذ بدايتها حتى وفاته هو أكثر المحررين تأثيراً فى عملية الاختيار. وربما تدخل عملية كون الكتاب مقرراً على تلاميذ المدارس فى ترجيح اختياره للنشر فى السلسلة كما هو الحال فى ديفيد كوبرفيلد، أو قصة مدينتين. . مما يدفع بالكتاب إلى المرتبة الأولى أو الثانية بين الكتب. كذلك يدخل اسم المؤلف وسمعته كعنصر مرجح للاختيار وخاصة فى مجال الكتب غير القصصية. ولكن لم يكن الكتاب المقرر أو سمعة المؤلف ومكانته هما دائماً العناصر المغلبة للاختيار. المهم هو إحساس المحرر ومجلس إدارة السلسلة فى هذا الشأن. وعلى سبيل المثال فإن دار نشر ركلام نشرت كتاب ديفيد كوبرفيلد وهو ليس مقرراً فى المدارس الألمانية، ومع ذلك نجح الكتاب لديها نجاحاً كبيراً. ومثال آخر من كتاب «فاوست الأول» المقرر فى المدارس الألمانية باع فى سنة ١٩٤٢م مليوناً وثمانمائة وتسعين ألف نسخة، أما «فاوست الثانى» وهو غير مقرر فى المدارس الألمانية فباع مليوناً وأربعمائة وستين ألف نسخة بفارق ٤٠٠ر٠٠٠ نسخة فقط على مدى خمس وسبعين سنة.

ولا يمكننا القول بأن نجاح أعمال تولستوى فى سلسلة «كلاسيكيات العالم» و«مكتبة كل شخص» يمكن أن يعزى إلى كونه مقرراً فى المدارس أو الكليات. فقد كانت أعظم مبيعات «الحرب والسلام» خلال الحرب العالمية الثانية عندما كان الموضوع وكل ما هو سوفيتى يدعو إلى الإعجاب ويعتبر عاملاً من عوامل الترويج. كما كانت مقالات تولستوى ورسائله وقصصه القصيرة ذات انتشار وشعبية قبل الحرب. كذلك شق «نيقول جيجول» و«أنطوان تشيكوف» سبيلهما إلى سلسلة «مكتبة كل شخص» التى تضم «الجريمة والعقاب»، «الأخوة كرامازوف» بين أروج الكتب فى قائمتها.

* * *



ظهور الدوريات وانتشارها

أدت الحاجة إلى المعلومات السريعة والمتعة المنتظمة إلى ظهور الدوريات، وقد تولت الجرائد مهمة تقديم المعلومات السريعة، فى حين تولت المجلات العامة تقديم المتعة المنتظمة. ويرجع الفضل فى ظهور الجرائد والمجلات إلى فن الطباعة الجديد هذا مهما تحدثنا عن جذور الدوريات (الجرائد والمجلات) فى عصر الخطاطة، سواء فى العصور القديمة أو العصور الوسطى، فالدوريات - شئنا أم أبينا - هى بنت العصور الحديثة، وهى بنت شرعية تماماً للطباعة.

لقد أدرك الطابعون بعد قرن ونصف تقريباً من اختراع الطباعة أن أحداث العصر الجارية السريعة التى يحتاج رجال الدولة والباحثون الإلمام بها تحتاج بالضرورة إلى وسيط جديد مختلف عن الكتاب بطىء الصدور والوصول. كما أدركوا من جهة ثانية وجود جمهور متعطش للتزود بتلك التطورات الجارية واللحاق بها، وكان على الطابعين أن يضعوا تلك المعلومات فى قنواتها السريعة ويدفعوا بها إلى مستقبلها.

لقد كانت هناك خطابات مكتوبة بخط اليد ومنشورات خطية تتناول معلومات سياسية واقتصادية واجتماعية يتم تداولها بحرية كاملة بين الإدارات والفروع والمكاتب فى شركات التجارة الكبرى والدواوين الحكومية طوال النصف الأول من القرن السادس عشر. وكانت هناك نشرات إخبارية تصدر عن شركة «فوجر» فى أوجزبرج وتتاح للجمهور العام حتى يطلع على مجريات الأمور ويراها كما تراها الشركة نفسها فى الداخل. ومنذ منتصف القرن السادس عشر أخذ الطابعون الخطوة الجريئة، وهى تحويل تلك الخطابات الخطية والنشرات الإخبارية إلى كتب إخبارية مطبوعة، والتى سرعان ما تحولت إلى فروخ إخبارية ثم إلى جرائد.

ويقال إن أول كتاب إخبارى بالإنجليزية هو كتاب «**الخبر اليقين**»[1]، وهو تقرير إخبارى عن موقعة فلوبين فيلد الذى توفر على طبعه فى ١٢ صفحة فى لندن «ريتشارد فياكيس» بعد الموقعة مباشرة (٩ من سبتمبر ١٥١٣). كذلك أفرزت لنا الحرب الأنجلو سكتلندية التى وقعت فى أربعينات القرن السادس عشر العديد من الكتب الإخبارية من هذا النوع، بما فيها تقرير أحد شهود العيان الذى نشره «ريتشارد جرافتون» فى الثلاثين من يونية ١٥٤٨ (مثل تقارير المراسلين الصحفيين فى زماننا). ومهما يكن من أمر فقد كانت تلك الكتب الإخبارية مطبوعات خبطات عشوائية تتعلق بحدث رئيسى يهم الرأى العام، تصدر مرة واحدة ولا نية لمتابعتها أو ملاحقتها. ولقد غدت تلك الكتيبات الإخبارية تصدر على فترات متقطعة مع نهاية القرن السادس عشر.

ولم تلبث الخاصيتان الأساسيتان للجرائد كما نعرفها اليوم أن لازمتا الجرائد فى بداية القرن التالى، أى السابع عشر، وهما خاصيتا المعلومات العامة والانتظام فى الصدور. وقد مهد لذلك الصحائف أو الأفرخ الإخبارية[2] التى بدأت فى الظهور فى مدينة ستراسبورج ومدينة بازل، حيث كانت تلك الأفرخ أو الصحائف ترقم بأرقام مسلسلة لتعلن عن أنها أجزاء من كلٍ متسلسل، وكانت تلك الصحائف الإخبارية المرقمة تظهر فى تلك المدينتين سنة ١٥٦٦م. هذا إلى جانب تلك الحالة، ولكن على الجانب الآخر كانت هناك صحائف إخبارية كثيرة لا ترقم.

ويستحق منا محرر وناشر ووكيل (وليس طابع) سلسلة الصحائف الإخبارية غير المرقمة التى ظهرت فى أوجزبرج بين ١٥٩٤ و١٦١٥، يستحقون منا وقفة لسرد تجربة ممتعة فى مجال المطبوعات الدورية هذه. فقد ولد «صمويل ديلباوم» فى أوجزبرج سنة ١٥٣٠، وبدأ فى يناير سنة ١٥٩٧م مطبوعاً شهرياً تحت عنوان «العلاقة التاريخية أو حكاية أهم وأشهر الأحداث التى وقعت هنا وهناك فى كل أنحاء أوربا تقريبا فى شهر «. . .» ١٥٩٧» وكانت المادة العلمية فى هذا المطبوع توزع وترتب على رؤوس موضوعات مثل: «أخبار الأراضى الواطئة»، «التاريخ الفرنسى»، «الأحداث فى إنجلترا»، «الشئون الأسبانية» وكان كل عدد من هذه

(1) The trewe encountre
(2) News Sheets.

الأعداد الشهرية يقع فيما بين ست إلى اثنتى عشرة ورقة. وكان العزم على إصدار العمل بصفة دورية يتضح من الإعلان عن محتويات العدد التالى فى العدد السابق. وقد استمر هذا المطبوع الشهرى حتى نهاية عام ١٥٩٧ وقد جمعت الأعداد الاثنى عشر كلها فى مجلد واحد تحت صفحة عنوان واحدة. ومع ذلك فقد كتب لهذه المحاولة التى سعت إلى طبع سجل أحداث سنوى على فترات شهرية التوقف وعدم الاستمرار بعد عامها الأول. ولم تصلنا من هذا العمل سوى مجموعة واحدة كاملة، وبعض أعداد شهرية متفرقة. وربما يكون سوء حظ هذا الكتاب الشهرى قد جاء من اختيار المدينة السويسرية الصغيرة رودشاخ على بحيرة كونستانس كمكان للطبع مما أدى إلى فشل المشروع. كما يضيف إلى سوء حظه اختيار الطابع «ليونارد ستروب» (١٥٥٠ ـ ١٦٠٦) للقيام بطبعه، وقد كان ستروب تاجراً أكثر منه طابعًا، وقد تعلم الصنعة على يد «فروشاور» فى زيوريخ و «فروبن» فى بازل وأصبح أول طابع فى دير سانت جال ولم تكن حياته تخلو من أزمات مالية جلبها على نفسه بسبب مصنع الورق الذى أنشأه سنة ١٥٨٢.

أما الجرائد بمعناها الصحيح الحديث فقد بدأت بجريدة «أفيزا»[١] المطبوعة فى ولفنبوتل (وفى قول آخر فى أوجزبرج) وجريدة «العلاقة»[٢] التى كانت تصدر من ستراسبورج ويتوفر على طبعها «جوهان كارولوس»، وكلتاهما بدأت فى الصدور فى يناير سنة ١٦٠٩م. وبعد عقد من الزمان بدأت الوقائع[٣] ـ كما كان يطلق على الجرائد فى تلك الفترة ـ فى الانتشار إلى أمستردام، لندن، باريس وغيرها من الأماكن. وكان الطابعون الهولنديون هم أسرع وأول الطابعين فى هذا الشأن خارج ألمانيا. فقد بعثوا إلى الخارج بشبكة مراسلين منظمة ومنتظمة جاءوا إلى «شركة شرقى الهند الهولندية»[٤] و«الحاكم العام للمقاطعات المتحدة»[٥] بالأخبار والتحليلات التجارية والسياسية. وفى سنة ١٦١٨ ظهرت الوقائع الإيطالية[٦]. وبعد عام ظهرت الوقائع المنافسة لها[٧] سنة ١٦١٩م. وكانتا تصدران

(1) Avisa Relation Oder Zeitung. - Wolfenbüttel or Augsburg, 1609.
(2) Relation. - Strasbourg. Johann Carolus, 1609.
(3) Corantos.
(4) Dutch Easter India Company.
(5) States General of the United Provinces.
(6) Courante uyt Italien Duytslandt cre.
(7) TiJdinghet uyt Venrschede Quartieren.

مرة أو مرتين فى الأسبوع حسب مقتضيات الأحوال. وفى سنة ١٦٢٠ قام الطابعون الهولنديون فى أمستردام بإصدار «وقائع» بالفرنسية والإنجليزية. ولم يصدر كتاب إخبارى فرنسى فى باريس إلا سنة ١٦٣١ عندما قام الطابع «ريشيلو» بنشر «الجازيت»[١] التى توفر عليها «رينودوت».

ولم ينتظر الطابعون الإنجليز التشجيع والدعم الرسمى. ذلك أنه بعد شهور قليلة من قيام مصمم الخرائط الطابع الهولندى «بيتر دى كيرى» بنشر أول كتاب إخبارى باللغة الإنجليزية فى أمستردام (والذى لم يصلنا منه سوى ستة عشر عدداً). قام الوراق الإنجليزى «توماس آرشر» فى لندن بطبع «الوقائع الإنجليزية»[٢] سنة ١٦٢١م، حيث يذكر أن العدد الأول نشر فى صيف تلك السنة ولم يصلنا منها شىء، ولم نتعرف عليها إلا من خلال المصادر المعاصرة فقط، وهى أساساً مجموعة من الخطابات والمراسلات.

وينظر الباحثون إلى «ناتانييل بوتر» الذى تحرر من شركة الوراقين سنة ١٦٠٤ على أنه أبو الصحافة الإنجليزية. فقد دأب أبوه وأمه الأرملة بعد وفاة أبيه على نشر بعض «التقارير» حول الأحداث الهامة، ونستطيع القول إن ٥٠٪ من المطبوعات التى طبعها بوتر ـ والتى بلغت مائتين تحت اسمه من ١٦٠٢ وصاعداً كانت كتباً إخبارية تتعلق بالأحداث الجارية فى الهند، روسيا، بلاد فارس، السويد كما غطت الأحداث الجارية داخل بريطانيا نفسها. ومن الجدير بالذكر أن بوتر كان أول من طبع مسرحية «الملك لير» ١٦٠٨. وقد استمر بوتر ينشر «الوقائع، الإعلانات، النبذات، الأخبار، العلاقات...»[٣] لمدة عشرين سنة من مقره فى علامة بيد بول عند بوابة سانت أوغسيطن. وقد تضمنت هذه الأعمال أول سلسلة كتب إخبارية إنجليزية مرقمة ومؤرخة: ٥٠ عدداً تبدأ من ١٥ من أكتوبر سنة ١٦٢٢ حتى ٢ من أكتوبر سنة ١٦٢٣ طبع معظمها «بارتولوميو دونز» لهيئة مؤلفة منه، إلى جانب بوتر نفسه «نيقولاس بورن» و «توماس آرشر» وغيرهما.

(1) Gazette/ Renaudot. - Paris: Richelieu, 1631.
(2) English Corantos.
(3) Corantos, Avisos, Passages, News, Relations etc

ولم يكن لتلك الدوريات فى معظم الأحيان عناوين ثابتة، بل كانت تتغير ربما من عدد إلى عدد أو كل مجموعة أعداد، وربما لم يشأ الناشرون الاعتماد على عنوان وعلامة دائمة، وذلك لاجتذاب المزيد من الزبائن والقراء، وهى وظيفة «المانشتات» العريضة الآن. وحتى المطبوع الذى حمل عنوان «الأخبار الأسبوعية» لم يستمر كذلك. وفى نهاية ١٦٣١ ومطلع ١٦٣٢ على سبيل المثال أصدر «بوتر» و «بورن» «استئناف مخبرنا الأسبوعى»[1] وكان ذلك فى أيام ٩، ١٠، ١٩، ٢٢، ٢٩ من نوفمبر ثم ٨ و١٧ من ديسمبر ثم ٢، ١٢، ١٩، ٢٤، ٣٠ يناير ثم ٨، ١٣، ٢٤، ٢٧ من فبراير. وقد أعلن المحرر صراحة أن «الرياح والبحار» هى السبب الرئيسى فى عدم الانتظام، حيث أن وصول الأخبار تعتمد كلية على وصول السفن والقوارب. وفيما يتعلق بمسألة الانتظام هذه كانت الصحافة الإنجليزية مختلفة عن نظيراتها فى دول أوربا الأم، حيث كانت هذه الأخيرة تحرص على الصدور فى أيام محددة. وبعد أن كان بوتر يعلن لقارئه «أنها ستصدر فى يوم محدد كل أسبوع» عدل تلك العبارة لتصبح «أو على الأقل كل أسبوعين لو أن البريد لم يخلف وعده».

وفيما عدا مسألة الانتظام هذه كانت الصحافة الإنجليزية والصحفيون الإنجليز والطابعون ـ على حد تعبير الباحث السويدى «فولك دال» ـ متقدمين أميالاً جديدة عن جميع زملائهم تقريبًا فى القارة الأم. وثمة ملمحان هامان يبرزان فى صحائف الأخبار الإنجليزية؛ **الملمح الأول:** علاقات الود السلسة والبسيطة التى تربط المحررين بالقراء، والتى بدأت فى عشرينات القرن السادس عشر مبكراً، حيث حمل المحررون القراء على الثقة بهم، مما حدا بهؤلاء القراء إلى إرسال همومهم ومشاكلهم إليهم فى باب «رسائل إلى المحرر». **والملمح الثانى:** الإخراج الرائع لتلك الصحائف الإخبارية الذى ينم عن عبقرية صحفية فذة فى جذب انتباه القارئ. وعلى سبيل المثال ما جاء فى العدد ٤٤ بتاريخ ٢١ من أغسطس سنة ١٦٢٣ من سلسلة بوتر و بورن حيث عرض فى بداية هذا العدد (آخر أخبارنا الأسبوعية):

---

(1) Butter and Bourne: the Continuation of our weekly inteeligence.

آخر ما حدث فى الإمبراطورية بين الإمبراطور والأمراء.

حالة جيوش تللى وبرونزويك منذ آخر تقرير.

استعدادات ملك الدنمركيين.

استعمال الكونت «مانسفيلدز».

كل هذا مع شئون أخرى عن الأراضى الواطئة وجريسونز.

انتخاب البابا الجديد.

القرصنات التركية.

وبعض أعاجيب أخرى شوهدت فى الإمبراطورية.

هذا المسح الشامل لمسارح الحروب الأوربية المختلفة مع التركيز على نقطتى الخطر هناك ـ وأعنى بهما الأراضى الواطئة وممرات الألب ـ والاعتراف بقيمة خبر الانتخابات البابوية، وخوارق الطبيعة والقرصنة التركية وخطرها على التجارة والملاحة فى البحر الأبيض المتوسط. هذا المسح وحسن اختيار العناوين وصياغتها أمور اختصت بها الصحافة الإنجليزية وتفوقت بها على الصحافة فى دول أوربا الأم.

وفى نفس الوقت كان بوتر و بورن يدركان حساسية الشعور الوطنى، وعندما كتبا عن الحملة المظفرة لجوستاف أدولفوس فى السويد (١٦٣١ ـ ١٦٣٢) لم تَنْسَ الوقائع أن تسجل بعض بطولات رجال الأمة الإنجليزية مثل حملات اللورد الجنرال الماركيز «هاميلتون» فى سيليزيا، أو جرح اللورد «كرافين» أو موت الكولونيل «تالبوت» فى عاصفة كروزناخ. هذه المعلومات التى قدمتها تلك الوقائع عن الضباط الإنجليز والاسكتلنديين هى دليل على القدرة الصحفية والحس الصحفى لدى المحررين.

ومما يذكر فى هذا الصدد أن الحماس الزائد من جانب المحررين لنجاح القوى المعادية لقوات هابسبورج لم يكن فى صالح تلك الوقائع ولم يكن أصلاً من

شأنهم، ولذلك قدم المراسلون الأسبان والنمساويون شكاوى رسمية ضد تلك الوقائع فى لندن. ولذلك طلب «تشارلز الأول» بنفسه من غرفة النجمة[1] وقف صدور تلك الكتب الإخبارية؛ وفعلا صدر قرارها فى السابع عشر من أكتوبر سنة ١٦٣٢ بحظر صدورها، ولم يرفع هذا الحظر إلا فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٦٣٨. وفى نفس يوم رفع الحظر أصدر بوتر و بورن عدداً من وقائعهم فى ٩٦ صفحة.

ولقد حملت أخبار الحرب ومناظر المعارك الكتب الإخبارية والصحائف الإخبارية على وضع إيضاحيات وصور بين ثناياها من حين لآخر، وقد بدأ هذا العمل كتاب «الخبر اليقين» سابق الذكر. ولكن الطابع البلجيكى «أبراهام فيرهوفن» من أنتويرب هو الذى جعل من الإيضاحيات سمة منتظمة فى صحائف الأخبار. وقد دأب فى صحيفة «الخبر الجديد»[2] التى بدأها سنة ١٦٢٠ على وضع زخارف وصور صغيرة على صفحة المحتويات تدل على طبيعة كل مادة. وكانت الصور الأولى فى الصحف الإنجليزية ذات صبغة سياسية. وكانت صورة مجلس العموم البريطانى من بين الصور التى توضع سنة ١٦٤٣ لعلها تغرى الرجل الإنجليزى «بشراء نسخة كاملة من جورنال وقائع البرلمان». وقد ذهبت صحيفة «الشئون المدنية»[3] إلى ما هو أبعد من هذا، فغيرت من صور الملك والملكة والأمير روبرت من حين لآخر حتى تتفق مع الأخبار والمواد المنشورة. وعلى أية حال ظلت الإيضاحيات فى الصحف لمدة مائة وخمسين سنة بعد ذلك قليلة وغير منتظمة ومتباعدة. ولم تبدأ الإيضاحيات فى الانتظام والتقارب بالصحف إلا مع القرن التاسع عشر، حيث أصبحت ملمحاً أساسياً من ملامح الدوريات.

بعد منتصف القرن السابع عشر حل «الفرخ الإخبارى»[4] محل «الكتاب الإخبارى»[5]. وكانت جريدة ليبزج[6] التى بدأت فى الصدور سنة ١٦٦٠

(1) Starchamber.
(2) Nieuwe Tijdinghen.
(3) Mercurius Civicus.
(4) News - Sheet.
(5) News - book.
(6) Leipziger Zeitung.

واستمرت حتى ١٩٢١ وكذلك «مجلة لندن»[١] التى أخذت فى الصدور سنة ١٦٦٥ من بين أوائل المطبوعات الدورية التى تحولت إلى الشكل الجديد. ولم يكن هذا التحول من الكتاب إلى الفرخ (الصحيفة) بسبب أن الشكل الجديد مريح طباعيًا، بل على العكس جلب الشكل الجديد معه مشاكل فنية طباعية، خاصة وأن حجمه لم يكن مألوفًا. إنما جاء التغيير بسبب طبيعة القارئ الجديد فى تلك الفترة وطبيعة المادة المطبوعة، فلم يعد القارئ هو ذلك الباحث المتعمق بل غدا القارئ هو رجل الدنيا الذى تغيرت نظرته إلى الناشر ومنتجاته، غدا ذلك السياسى ورجل الأعمال، رجل المدينة الذى يرتاد المقاهى فى لندن، باريس، ليبزج، هامبورج ويريد أن يسلى وقته ويتتبع آخر الأخبار. ولم تعد الكتب هى الأداة المناسبة لتقديم التسلية والمعلومات، بل غدت الصحيفة التى من نظرة عامة عليها يستطيع أن يكون فكرة سريعة عن الأحداث والمنجزات.

ونفس هذا الاتجاه نحو الرغبة فى الحصول على مادة علمية ومعلومات غير إخبارية بطريقة أسهل وأسرع وأحدث والذى أدى إلى التحول من الكتاب الإخبارى إلى فرخ الأخبار، هو الذى أدى إلى خلق **المجلة الدورية**. والمجلة فى حقيقة أمرها هى كتاب مجزأ، ولكنها تحمل معلومات أحدث وأسرع يدفع القارئ ثمنها على دفعات .ولهذا كانت الفلسفة والعلم هما المجالان الأساسيان اللذان ملئا صفحات الدوريات الأولى أو المجلات الأولى. وقد انطلقت هذه الدوريات العلمية والفلسفية فى جميع أنحاء أوربا فى وقت واحد تقريباً. ففى ألمانيا قام اللاهوتى والشاعر «جوهان رست» بإصدار أول دورية فى هامبورج «أحاديث شهرية»[٢] سنة ١٦٦٣ . وفى فرنسا قام «دينيس دى ساللو» عضو برلمان باريس بإصدار مجلة العلماء[٣] سنة ١٦٦٥ . وفى إنجلترا فى نفس السنة صدرت «الوقائع الفلسفية»[٤] تحت رعاية الجمعية الملكية. وفى إيطاليا أصدر «فرنشسكو نازارى» مجلة «الأدب»[٥] فى

(1) London Gazette.
(2) Monatsges - Präche / Johann Rist
(3) Journal des SÇavans / Dennis de Sallo.
(4) Philosophical transactions / Royal Society.
(5) Giornale de' Litterari.

روما سنة ١٦٦٨ . وبعد ذلك صدرت «مجلة عطارد» الفرنسية سنة ١٦٧٢م والتى أعيدت تسميتها إلى «عطارد فرنسا»[١] سنة ١٧١٤م، والتى عالجت موضوعات شتى سياسية واجتماعية، وكذلك النقد الأدبى والشعر. وكانت نظيرتيها الإنجلزيتين هما «عطارد الأثينى»[٢] و«مجلة الرجل المهذب»[٣] ١٦٩١، ١٦٩٢ على التوالى. وفى ليبزج أصدر «كريستيان توماسيوس» - وهو أحد المؤصلين الألمان - سنة ١٦٨٨ دورية يكشف عنوانها الطويل عن محتوياتها واتجاهات، شأنها فى ذلك شأن العديد من الدوريات التى جاءت بعدها، حيث يسير العنوان كما يلى «أفكار ترفيهية وجادة، تأصيلية وغير معقدة حول كل أنواع الكتب والموضوعات المناسبة والنافعة». وقد رحب توماسيوس بالمرأة قارئة لمجلته، ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى نشأت هناك مجلات موجهة كلية للمرأة مثل «عطارد الهوانم»[٤]، سنة ١٦٩٣؛ «مجلة المرأة»[٥] وهى قرين المجلة الألمانية التى كان يصدرها «ستيل» و«أديسون» أو «جوتشيد» «مجلة المرأة الأصيلة»[٦] سنة ١٧٢٥م.

ومع السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ترسخت أقدام الدوريات، سواء الجرائد أو المجلات. ومن عقد إلى عقد كانت تزداد قوة ونجاحاً. ولم تتوقف الدوريات عند حد المستوى الوطنى بل غدا للأقاليم داخل البلد الواحد دورياتها المحلية؛ وقد بدأ معظمها بفترة كل أسبوعين. والأمثلة من بريطانيا: «بريد نورويتش»[٧] ١٧٠١م - ١٧١٢م؛ «ساعى بريد بريستول»[٨] ١٧٠٢ - ١٧١٢؛ «ساعى بريد سام فارلى الخارجى»[٩] ١٧٠٤ - ١٧٢٥م، «ساعى بريد ووركستر»[١٠] ١٧٠٩ - حتى الآن تحت عنوان جورنال ووركستر.

(1) Mercure Galant = Murcure de Fnance.
(2) Athenian Mercury.- 1691.
(3) The Gentlemans Journal. - 1692.
(4) The Ladies Mercury. - 1693.
(5) The Female Tarler. - 1825.
(6) Die Vernünftigen Tadlerinnen, 1725.
(7) Norwich Posr. - 1701 - 1712.
(8) Pristol Post. - Boy. - 1702 - 1712.
(9) Sam Farley s Exeter Post - Nan. - 1704 - 1725.
(10) Worcester Posr - Man. - 1709 = Worcester Journal.

وبعد أن أصبحت الخدمة البريدية يومية بين دوفر ولندن سنة ١٦٩١م التى أمنت وصول الأخبار الخارجية إلى العاصمة البريطانية يوميا، أصبح من الميسور على الجرائد التى تصدر مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً أن تصدر يومياً. والأمثلة على ذلك من الجرائد التى تحمل فى عناوينها كلمة يومية: «الرسول اليومى»[1] سنة ١٧٠٢، «البريد اليومى»[2] سنة ١٧١٩م، «الجورنال اليومى»[3] سنة ١٧٢٠م، «المعلن اليومى»[4] سنة ١٧٣٠م. ولقد ظلت هذه الجريدة الأخيرة حتى توقفها واحتجابها سنة ١٨٠٧ ما يمكن أن نسميه «تايمز» القرن الثامن عشر: خدمة إخبارية مكثفة؛ معلومات تجارية واقتصادية قيمة؛ ثروة من الإعلانات.. مما جعلها أداة لا غنى عنها للطبقات العليا والمتوسطة فى المجتمع.

وفى نفس الفترة تقريباً بدأ ظهور الصحافة المسائية، حيث صدرت «النشرة الإخبارية» التى توفر عليها هوك[5] سنة ١٧٩٦م؛ «البريد المسائى»[6] سنة ١٧٠٦؛ «الرسول المسائى»[7]؛ «بريد الليل»[8] وكلاهما سنة ١٧١١م. هذه الصحف الأربعة كانت جميعها تصدر ثلاث مرات أسبوعياً. ولكنها هى وليست الجرائد اليومية التى كانت تحمل آخر الأخبار حتى لحظة مثولها للطبع. ولكى تلحق جريدة «البريد المائى» ببريد الأقاليم الذى كان يغادر لندن أيام الثلاثاء، والخميس والسبت مساءً فإنه كان يتم طبعها فى الساعة السادسة من مساء تلك الأيام البريدية. ومن الطريف أن تكون هناك جرائد منتصف النهار وإن لم تعش طويلاً، مثل «جريدة الظهر»[9] التى بدأت فى الصدور سنة ١٧٨١ وكانت تصدر فى تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً؛ وجريدة «مجلس الوزراء»[10] التى تصدر فى

(1) The Daily Courant. - 1702.
(2) The Daily Posr. - 1719.
(3) The Daily Journal. - 1720.
(4) The Daily Advertiser . - 1730.
(5) Dawk's Newsletter. - 1696.
(6) The Evening Posr. - 1706.
(7) The Evening Courant. - 1711.
(8) The Night Post. - 1711.
(9) Noon Gazette. - 1781.
(10) The Cabinet. - 1792.

تمام الساعة الخامسة بالضبط مع تغيير الحرس الملكى. هذا الانتظام فى الصدور ليس فقط على الأيام، وإنما أيضاً على الساعات أصبح السمة الغالبة على الجرائد فى إنجلترا، والتصق بجريدة الزمان «تايمز»[1] التى انتظمت صدوراً منذ الثانى من يناير سنة ١٨٠٤م التى يتم طبعها يومياً فى تمام الساعة السادسة وستة دقائق صباحاً.

مثل هذه الدقة البالغة فى إصدار الجرائد لم تكن ـ وليست ـ مطلوبة فى إصدار الدوريات. ولكن حتى فى هذه الحالة كان القرن الثامن عشر هو الوقت الذى صدر فيه التوحيد والتقييس. ففى الوقت الذى أصبح فيه الظهور **اليومى** للجرائد هو المعدل الطبيعى، أصبح الظهور **الأسبوعى** للمجلات الخفيفة والترفيهية هو المعدل الطبيعى، فى حين أن الدوريات العلمية والأدبية ذات المادة المعلمية الثقيلة، غدت تصدر شهرياً وفصلياً فى الأحوال العادية.

لقد وضع «ريتشارد ستيل» (١٦٧٢ ـ ١٧٢٩) و«جوزيف أديسون» (١٦٧٢ ـ ١٧١٩) أسس وأسلوب المجلة العامة أكثر من أى محرر آخر، ذلك الأسلوب وتلك الأسس التى لم تلبث كل الدوريات العامة فى كل الدول المتحضرة أن احتذتها وقلدتها وتبنتها. هذا الأسلوب هو أن تكون المجلة العامة: المرشد والصديق والمرفه والمعلم للملايين من القراء فى القرن الثامن عشر.

لقد كانت دوريتا «تاتلر»[2] التى صدرت ١٧٠٩ ـ ١٧١١ و«المفتش»[3] التى صدرت ١٧١١ ـ ١٧١٤ أهم الدوريات التى توفر هذان المحرران على تحريرها والتى نشرا فيها مقالات عن الحياة والسلوك. لقد أمدت هاتان المجلتان قراءهما بتعاليم أخلاقية وتعليقات على الموضوعات الأدبية والفنية وبالأخبار المباشرة والمحللة وبالترفيه الممتع بدون ابتذال. وقد بلغ عدد المشتركين فى مجلة «المفتش» نحو ثلاثة آلاف مشترك. ولقد قامت المجلة بتجميع المقالات الأولى فيها فى كتاب سنة ١٧١٢م طبع منه تسعة آلاف نسخة، وأعيد إصداره عشرين مرة فى غضون عشرين عاما.

لقد كان تأثير هاتين المجلتين على أوربا وأمريكا تأثيراً عظيماً. ولقد بلغ عدد

(1) Times. - 2 January, 1804.
(2) The Tatler.
(3) The Spectator.

المجلات التى تأثرت بهما وحذت حذوهما خلال القرن الثامن عشر وحده ثمانمائة مجلة، ولكن معظمها للأسف لم يدم أكثر وأطول من حماس محرريه وقرائه، وهذا حين كانت الإدارة المالية والسياسة التحريرية لعدد آخر من الدوريات زاداً له ليستمر فترة طويلة من الزمن.

من هذه المجلات الأخيرة والتى يجب أن نتوقف عندها «مجلة الرجل المهذب»[1] التى استمرت فى الصدور بين ١٧٣١ ـ ١٩٠٧ . وقد وصلت إلى عشرة آلاف نسخة سنة ١٧٣٩ و ١٥٠٠٠ نسخة سنة ١٧٤٥م. وقد ساعد على سعة تداولها وانتشارها ما تضمنته من صور وإيضاحيات. ولقد كان لكلمة مجلة التى ظهرت فى عنوان هذه الدورية الأثر الفعال فى أن تصبح هذه الكلمة مصطلحاً فئوياً يدل على هذا النوع من المطبوعات الدورية، ظهر بعد ذلك فى العديد من الدوريات مثل «مجلة لندن»[2] التى صدرت بين ١٧٣٢ ـ ١٧٨٤، «مجلة الاسكوتلنديين»[3] ١٧٣٩ ـ ١٨١٧؛ وقد تغير عنوانها فى تلك السنة إلى «مجلة إدنبرة» واستمرت حتى سنة ١٨٢٦ .

وكان من بين الملامح المميزة لتلك الدوريات عروض الكتب الجديدة، بل إن بعض الدوريات جعلت اهتمامها الأساسى هو النقد الأدبى. ومن بين تلك الدوريات مجلة «روبرت دودزلى» التى لم تعش طويلاً والمسماة «المتحف»[4]، والتى كانت تصدر كل أسبوعين واستمرت عامين فقط (١٧٤٦ ـ ١٧٤٧)؛ «المجلة الشهرية»[5] التى بدأها «رالف جريفيث» سنة ١٧٤٩. وجاء من بعده ابنه «جورج إدوارد» واستمرت حتى ١٨٢٥؛ «المجلة النقدية»[6] التى صدرت بين ١٧٥٦ و ١٨١٧ والتى كان أول محرر لها هو «توبياس سموليت». هذه المجلة كان لها تأثير كبير على تعريف الجمهور العام والطبقات الوسطى بالإنتاج الفكرى

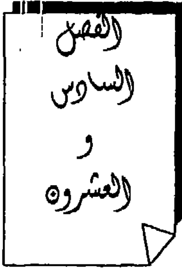
---

(1) The Gentleman's Magazine. - 1731 - 1907.
(2) The Londan Magazine. - 1732 - 1784.
(3) Scots Magazine. - 1739 - 1817 = Edinburgh magazine until Ceased in 1826.
(4) Museum. - 1746 - 1747.
(5) Monthly Review. - 1749/ Ralph Gneffith' George Edwand till 1825.
(6) Critical Review. - 1756 - 1817 / Tobias Smollet.

الجارى، سواء الأجنبى أو البريطانى. وكانت عروض الكتب التى تقدم فى تلك الدوريات طويلة نسبياً. وكانت تعطى القارئ فكرة بما يتضمن الكتاب مع تعليقات عليه واقتباسات مصورة لما فيه. ولم تنطو هذه العروض بطبيعة الحال على انتقادات للأعمال التى تعرضها، فلم يكن ذلك من سياستها. وكانت النزعة العامة فى هذه العروض أقرب إلى نبذات الناشر منها إلى العرض الفنى. وربما كانت المجلة التى تحرص على أن يكون نقاد الكتب وعارضيها على مستوى عالٍ من الموضوعية والتخصص هى «دورية إدنبرة»[1] التى بدأت سنة ١٨٠٢.

* * *

(1) Edinburgh Review. - 1802.



تطور الببليوجرافيات التجارية

لا نغالى إذا قلنا إن الببليوجرافيات التجارية قد بدأت فى أوربا فى عصر المخطوطات، عندما كان نسَّاخو المخطوطات يعلقون ملصقات تعلن عن كتبهم على أبواب الكنائس والجامعات والحانات، وعلى جدران الأماكن التى يتردد عليها باعة الكتب الجائلون.

وبعد ظهور الطباعة استمرت هذه الملصقات فى الإعلان عن الكتب، ولكن الملصقات أصبحت مطبوعة بعد أن كانت مخطوطة، وغالباً ما كانت الملصقات الجديدة من الحجم الكبير، وكانت تلصق فى نفس الأماكن وبنفس الأسلوب.

وبعد ذلك بفترة جاءت قوائم الكتب التى أطلق عليها القوائم اليدوية فى حجم الربع أو حجم الثمن، وسميت باليدوية لأنها كانت تتضمن عدداً قليلاً من المداخل فى بيانات مختصرة، وغالباً على صفحة واحد أو ورقة واحدة، وتوزع يدوياً على الناس فى أماكن التجمعات التى يرتادونها كالكنائس والأسواق، كما كانت هذه القوائم تدرج فى نسخ الكتب المطبوعة التى تعرض للبيع فى أسواق الكتب الأوربية المختلفة. وكان من الطبيعى فى ذلك الوقت المبكر من الطباعة أن تطبع الملصقات (الإعلانات العريضة) والقوائم البدوية على السواء باللغة اللاتينية.

وكان من الطبيعى أن تتطور القوائم اليدوية تلك إلى فهارس كاملة. وكان أول فهرس مطبوعات هو فهرس أصدره «جورج ويللر»، بائع الكتب فى أوجزبرج سنة ١٥٦٤، ويقع هذا الفهرس فى تسع عشرة صحة ويسجل بيانات مختصرة عن ٢٥٦ كتاباً موزعة على رؤوس موضوعات عريضة. وهذا الفهرس يتضمن تنويهات موجهة إلى المشترين فى المعارض حتى يساعدهم على تقديم

طلباتهم سلفاً بحث يمكن تنفيذها وتأمين تسليمها لهم خلال فترة المعرض.

وقد استمر جورج ويللر فى إصدار هذه الفهارس حتى وفاته، واستمر أبناؤه من بعده فى إصدارها حتى سنة ١٦٢٧م. معنى هذا أن تلك الخدمة الببليوجرافية قد امتدت نحو خمسة وستين عاماً. ولقد حاول آخرون تقليد تلك الخدمة الببليوجرافية ولعل أبرزهم كان «جوهان بورتنباخ» و«توبياس لوتز». ولقد قام «نيقولاس باس» من فرانكفورت بتركيم فهارس جورج ويللر بين ١٥٦٤ و ١٥٩٢م وقد كشفت هذه التجمعية عن أن تلك الفهارس كانت أداة قيمة وعملاً مرجعياً مهماً لتجارة الكتب فى حينها.

ومن بين الأعمال الببليوجرافية التركيمية الهامة فى تجارة الكتاب الألمانى فهارس «جوهان كليسيوس» المعنونة: «فهارس الكتب الألمانية»[1] والتى نشرها الناشر «بيتر كوبف» فى فرانكفورت سنة ١٦٠٢. والأعمال الببليوجرافية المختلفة التى توفر عليها «جورج درودسيوس» والتى نشرت جميعها سنة ١٦٢٥ وهى:

١- المكتبة الكلاسيكية[٢].

٢- المكتبة الغريبة[٣].

٣- مكتبة الكتاب الألمانى الكلاسيكى[٤].

ولقد تطورت فكرة فهارس ويللر إلى «فهرس المعرض»[٥] الألمانى والذى صدرت منه سلسلتان، إحداهما صدرت فى فرانكفورت والثانية فى ليبزج متزامنة مع معرض **لنتن** ومعرض **مايكلماس** فى هاتين المدينتين.

. لقد كان فهرس معرض فرانكفورت على سلسلتين: **الأولى** منذ بدايته سنة ١٥٦٤ وحتى ١٥٩٧، وقد تألفت هذه السلسلة من فهارس المعرض الفردية التى أصدرها الناشرون الأفراد وباعة الكتب. ولكن فى سنة ١٥٩٧ عندما فشل أربعة من باعة الكتب البروتستانت فى إدراج قوائم الكتب البروتستانتينية سواء عن عمد

(1) Catalogi Librorum Germani Corum.
(2) Bibliotheca Classica.
(3) Bibliotheca Exotica
(4) Bibliotheca Librorum Germanicum Classica.
(5) Mess Katalog.

أو عن صدفة، قامت الكنيسة بالضغط على مجلس مدينة فرانكفورت لمنع إدراج أية فهارس فردية فى ذلك المعرض. ولهذا السبب بدأت فى سنة ١٥٩٨ **السلسلة الثانية**، والتى برغم أنها كانت تضم فهارس فردية من إعداد كل ناشر على حدة إلا أنها جمعت وأصدرها مجلس مدينة فرانكفورت كمطبوع رسمى تحت إشرافه. وقد تضمنت السلسلة الثانية هذه بيانات مفصلة عن كل كتاب: المؤلف، العنوان، الطابع، مكان الطبع. وكان لابد من الموافقة على الكتب المدرجة فى هذه الفهارس من قبل أعضاء اللجان التى شكلها «رودلف الثانى»؛ وحتى هذه الترتيبات لم ترض السلطات الدينية، لأنه فى سنة ١٦١٤م انفرد الكاثوليك بإعداد فهرس خاص بهم، ظهر فى معارض ماينز وبعد ذلك فى فرانكفورت وميونخ[١].

أما فهارس معرض ليبزج فقد تألفت هى الأخرى من سلسلتين من الفهارس التجارية. وقد بدأت السلسلة الأولى بتلك الفهارس التي أعدها «هننج جروس» سنة ١٥٩٥ وتابعها خلفاؤه، وبعدهم «رابطة تجارة الكتب»[٢] حتى سنة ١٨٥٠م. أما السلسلة الثانية أو الحديثة فقد بدأت سنة ١٨٥١ على يد «جورج ويجاند» واستمرت من ١٨٥٣ وحتى ١٨٦٠ على يد «آفيناريوس» و«ميندلسون» وقد صدرت طبعة تركيمية من هذه الفهارس من بدايتها وحتى سنة ١٧٦٥، وذلك سنة ١٨٥٠. كما صدرت طبعة تركيمية أخرى تدمج الفهارس من ١٧٦٦ وحتى ١٨٤٦، وذلك فى سنة ١٨٧٧. وفى سنة ١٨٩٧ قام كل من «برتيكوبف» و«هارتيل» بإصدار ملحق تكميلى لهذه الفهارس.

وفى سنة ١٧٩٨م كانت هناك أول محاولة لإعداد أدق فهرس بالكتب التى نشرت فعلاً خلال السنة التى سبقت (١٧٩٧)، وهو إنجاز لم تستطع الفهارس العادية أن تحققه، لأنها غالباً ما كانت تأتى ناقصة مبتورة أو تدرج كتباً لم تصدر بعد.

لقد صدر هذا الفهرس بعنوان «قائمة الكتب الجديدة»[٣] التى نشرها كل من

(1) Catholic Mess Katalog.
(2) Weidmannsche Buchhandlung.
(3) Verzeichniss Neuer Bücher.

«راينكه» و«هنريتشش. ولقد حقق هذا الفهرس نجاحاً كبيراً، وأصبح يصدر كل ستة أشهر بعد ذلك. ومن هنا يمكن القول بأن ألمانيا تملك أطول ببليوجرافية تجارية بكتبها منذ منتصف القرن السادس عشر حتى اليوم.

وإذا توجهنا شطر إنجلترا فسوف نجد أن أكمل وأول فهرس صدر هناك هو ذلك الذى توفر عليه «آندرو مونسيل» سنة ١٥٩٥[1] وطبعه له الطابع «جون ويندر». ومن المعروف أن مونسيل كان تاجر كتب فى ساحة كنيسة سانت بول. وقد أهدى المجلد الأول إلى الملكة وإلى «القديسين المبجلين ومحبى الكتب الدينية» وإلى شركة الوراقين. وقد سجل هذا المجلد ٢٦٣٩ كتاباً دينياً كتبت أو ترجمت باللغة الإنجليزية ورتبت هجائياً. أما المجلد الثانى فقد طبعه «جيمس روبرتس» وأهدى إلى «إيرل إسيكس» وإلى «أساتذة علوم الرياضيات.. والفيزياء... والجراحة» وإلى «شركة الوراقين»، وقد ضم هذا المجلد ٣٢١ كتاباً فى موضوعات الرياضيات والعلوم والطب. وفى هذا المجلد الثانى أعلن آندرو مونسيل عن عزمه على طبع مجلد ثالث يضم كتب النحو والقانون والتاريخ والشعر... ولكنه توفى ١٥٩٦م ولم يصدر هذا المجلد الثالث قَط. ولقد قوبل المجلدان اللذان نشرا استقبالاً حسناً من قبل تجار الكتب؛ ومنح مونسيل مكافأة سخية من قبل شركة الوراقين مالية وعينية (مجموعات من كتب).

فهارس القرن السابع عشر فى إنجلترا.

بعد وفاة مونسيل لم تصدر فهارس بالكتاب الإنجليزى حتى سنة ١٦١٧. ففى تلك السنة قام «جون بيل» الطابع الملكى فى عهد الملك «هنرى الأول» - والذى كان يتردد على أسواق الكتب الأوربية لشراء الكتب لمكتبة الملك وغيره من جماعى الكتب المشاهير فى إنجلترا - قام على إصدار طبعة إنجليزية من فهارس معرض فرانكفورت، واستمر فى نشرها هناك مرتين فى السنة حتى سنة ١٦٢٨. وكانت طبعات لندن ترديداً لقوائم فرانكفورت. ولكن فى خريف سنة ١٦٢٢ قام بيل بإصدار أول فهرس يضم ملحقاً بالكتب الإنجليزية، وقد ظل هذا الملحق

(1) Maunsell,s Catalogue 1595.

تقليداً معمولاً به على الأقل حتى سنة ١٦٢٦، وربما وصل به إلى سنة ١٦٢٨.

وفى عام ١٦١٨-١٦١٩ قام «ويليام جاجارد» بنشر «فهرس الكتب الإنجليزية المنشورة أخيراً والتى هى قيد الطبع فى سبيل النشر»[١]. وقد غطى هذا الفهرس الفترة من أكتوبر ١٦١٨ وحتى مايو سنة ١٦١٩. وربما كان مشروعاً جماعياً طبعه جاجارد لنفسه ولواحد وعشرين طابعاً وبائعاً آخرين فى لندن ذكرت أسماؤهم جميعاً فى ذلك الفهرس. ولم نقف على ذكر إصدارات أخرى لهذا الفهرس، ويبدو أنه لم يصدر سوى هذه الإصدارة منه.

وفى سنة ١٦٢٨ قام «جون ليجيت» بطبع أول فهرس إنجليزى مصنف بالكتب الأجنبية المعروضة للبيع فى إنجلترا، وذلك لحساب مستورد الكتب الإنجليزى الشهير «هنرى فيذرستون». وفى سنة ١٦٣١م صدر فهرس مجهل لحساب أحد تجار الكتب فى لندن ويتضمن الكتب الإنجليزية واللاتينية التى نشرت فى إنجلترا فى الفترة من ١٦٢٦-١٦٣١. ورغم أنه نوه إلى أنه سوف يصدر بانتظام إلا أنه لم تصدر منه أية إصدارات بعد ذلك.

وفى سنة ١٦٥٥ قام «جون روثويل» بإصدار فهرس بالكتب الدينية التى عليها اتفاق تام، والتى نشرت بين ١٦٣٥ و ١٦٥٥. وبعد عامين أصدر طبعة ثانية تغطى الفترة من ١٦٣٥ وحتى ١٦٥٧م، وقد أردف ذلك بسلسلة من الملاحق حتى وفاته فى سنة ١٦٦١.

وتعتبر فهارس «وليام لندن» التى بدأها سنة ١٦٥٧ بعنوان «فهرس الكتب الأكثر مبيعاً فى إنجلترا»[٢] من العلامات البارزة فى البيليوجرافيات التجارية فى بريطانيا فى القرن السابع عشر. ومن المعروف أن وليام لندن كان تاجر كتب كبيراً فى نيوكاسل - على - التاين. وقد سجل هذا الفهرس ٣٠٩٦ عملاً «ركزت تصنيفياً وهجائياً»[٣]. وتغطى دائرة واسعة جداً من المجالات بدءاً من الإلهيات

(1) William Jaggard. Catologue of Such English Books as lately have been, and now are in Printing for Publication.

(2) William London. Catalogue of the most vendible Books in England.- 1657.

(3) "Orderly and Alphabetically Digested".

وحتى البستنة، وقد أعطيت بيانات كاملة عن كل مدخل قدر الإمكان. وقد أعيد نشر هذا العمل سنة ١٦٥٨ مع ملحق يضم ١٠٦ كتب نشرت بين أغسطس ١٦٥٧، ويونية ١٦٥٨. وبعد عامين نشر لندن فهرساً بعنوان «فهرس بالكتب الجديدة، وبالمناسبة ملحق للسابق»[١]. وهذا الفهرس الملحق سجل ٣٩٦ عملاً أخرى تغطى الفترة من يونية ١٦٥٨ وحتى عيد الفصح سنة ١٦٦٠. ومن هنا يكون مجموع ما سجلته أدوات وليام لندن مجتمعة قد بلغ ٣٥٩٨ عملاً وصفت وصفاً تفصيلياً، كما تضمنت مقدمة طريفة شيقة عن «كيفية استعمال الكتب»[٢]. ولقد استقبلت فهارس لندن هذه استقبالاً حسناً من قبل تجار الكتاب الذين استخدموها كمرجع ببليوجرافى.

ومن الجدير بالذكر أن ميثاق تأسيس شركة الوراقين[٣] التى تردد ذكرها مراراً فى هذا البحث، والذى صدر لها سنة ١٥٥٧، يحرم طباعة أى كتب تجارية إلا لأعضاء الشركة فقط، أو هؤلاء الذين لديهم ترخيص ملكى. ولتأكيد ذلك الميثاق سنة ١٥٥٩م أصدرت الملكة «إليزابث» مرسوماً يقضى بضرورة تسجيل الكتب التى يطبعها الأعضاء أصحاب حق الطبع فى سجل خاص تعده الشركة بهذا الخصوص. وكما ذكرت من قبل أعفى من هذا التسجيل من صدرت لهم تراخيص امتياز ملكية. ورغم كل ذلك فإن سجلات الشركة تحصر الغالبية العظمى من الكتب التى نشرت فى إنجلترا. وتعتبر الطبعة التى استخرجها «إدوارد آربر» من هذه السجلات ونشرها فى خمسة مجلدات بين ١٨٧٥-١٨٩٤ تحت عنوان «صورة طبق الأصل من سجلات شركة الوراقين فى لندن ١٥٥٤-١٦٤٠»[٤]، تعتبر أداة بالغة الأهمية فى دراسة إنتاج الكتاب الإنجليزى فى تلك الفترة.

وفى سنة ١٦٦٤ قام «جورة توكفيلد» سكرتير شركة الوراقين بنشر فهرس

---

(1) William London. A Catalogue of New Books, By Way of Supplement to the former.- 1660.

(2) "Introduction to the use of books".

(3) Charter of Incorporation of Stationers' Company.

(4) Edward Arber. Transcript of the Rigisters of the Company of Stationers of London : 1554 - 1640.- London, 1875 - 1894.

بالكتب التى دخلت إلى سجل الشركة فى تلك السنة، وقد نوه فى ذلك الفهرس إلى أنه يعتزم نشر هذا العمل سنوياً، ولكن لم نقف على شيء من ذلك الفهرس بعد تلك الإصدارة، وربما كان ذلك بسبب الحريق الهائل الذى حدث سنة ١٦٦٦ واكتسح تجارة الكتب فى لندن كلها.

وكان أول فهرس بالكتب التجارية يصدر بعد **الحريق الكبير**[١] قد نشر سنة ١٦٦٨ عندما نشر «جون ستاركى» أول حلقة فى «الفهارس الفصلية»[٢]، وقد سميت بذلك لأنها كانت تنشر أربع مرات فى السنة فى منتصف الفصول الدينية الأربعة: مايكلماس، هيلارى، إيستر، ترينتى[٣]. وقد أطلق على الحلقة الأولى هذه عنوان «فهرس الكتب»[٤]. وقد صدر فى فصل مايكلماس لسنة ١٦٦٨؛ كذلك توفر ستاركى على نشر فهرس فصل هيلارى، أما الحلقات الخمس الأخرى فقد نشرها ستاركى بالتعاون مع «روبرت كلافيل».

والحقيقة أن باعة الكتب فى لندن لم يرضوا عن هذه الفهارس الفصلية، وقد تضمن فهرس فصل إيستر سنة ١٦٧٠ الذي وصف بأنه «جمع وطبع لحساب تجار الكتاب فى لندن»، تعليقات حول أعمال كلافيل والنواقص التى وقعت فى فهارسه. ولذلك نجد كلافيل يتدارك تلك الأخطاء فى إصدارة مايكلماس من الفهرس الفصلى سنة ١٦٧٠م التى توفر هو نفسه على جمعها وطبعها. ومنذ ذلك التاريخ وحتى سنة ١٦٧٧م نشر كلافيل سائر إصدارات هذا الفهرس الفصلى. أما بعد ذلك التاريخ وحتى سنة ١٧٠٩ فقد سجلت كل الإصدارات على أنها «طبعت لحساب باعة الكتب فى لندن».

وتقع السلسلة الكاملة من «**الفهرس الفصلى**» فى ١٥٩ عدداً أو إصدارة تغطى الفترة من مايكلماس سنة ١٦٦٨م حتى ترينتى ١٧٠٩م، وكانت النسخة الواحدة من الإصدارة تباع بستة بنسات، وكان لها رواج كبير. ورغم أن السلسلة

---

(1) Great Fire.

(2) John Starkey. Term Catalogues.

(3) Michaelmas, Hilary, Easter, Trinity.

(4) Mercurius Librarius.

الكاملة تسجل نحو عشرين ألف عمل، إلا أن الخبراء يرون أنها لا تغطى كل ما نشر من الكتب الإنجليزية فى تلك الفترة، ولأنه فى تلك الفترة كان الرقيب سير «روجر لسترينج» هو الذى يراقب مطبعة «الفهارس الفصلية» ولم يسمح إلا بتسجيل الكتب الموافق عليها، وكان كثير من الكتب الإنجليزية يطبع فى الخارج ويستورد ويوزع سراً داخل إنجلترا.

وفى سنة ١٦٧٣ قام كلافيل بنشر أول فهرس كبير خاص به بناء على مادة استقاها من الفهارس «الفصلية»، وقد حمل هذا الفهرس عنوان «فهرس بكل الكتب المطبوعة فى إنجلترا منذ الحريق الرهيب فى لندن سنة ١٦٦٦ وحتى نهاية فصل مايكلماس ١٦٧٢»[1] وفى سنة ١٦٧٤ نشر ملحقاً صغيراً له يتضمن الكتب التى نشرت بين ١٦٧٢-١٦٧٤. وفى سنة ١٦٧٥ نشر الطبعة الثانية من الفهرس نفسه ويتضمن تغطية للفترة من ١٦٦٦ وحتى نهاية فصل ترينتى سنة ١٦٧٤، وقد ضمن هذا الفهرس إلى جانب الكتب العادية محاضر أعمال البرلمان، وكتب العظات، والمسرحيات، مع مستخلص «النصوص العامة حول الغناء»[2] منذ سنة ١٦٦٠. وفى هذا الفهرس رتبت الكتب أولاً بالموضوعات، وتحت الموضوعات قسمت على حسب الحجم، وتحت الحجم رتبت على حسب السعر. أما كتب العظات فقد رتبت على حسب ترتيب النصوص المتعلقة بها فى الكتاب المقدس. وكان هناك كشاف بالمؤلف ناقص وغير مرض.

أما الطبعة الثالثة من هذا العمل فإنها تغطى الفترة من ١٦٦٦ وحتى نهاية فصل ترينتى سنة ١٦٨٠، وصدرت فى سنة ١٦٨٠ وقد أضاف إليها ـ كما حدث من إضافات فى الطبعة الثانية ـ قائمة عامة بالكتب اللاتينية التى كان قد وعد بإدراجها فى الطبعة الثانية، ولكنه لم يفعل. وقد وقعت هذه القائمة بالكتب اللاتينية فى ثمانين صفحة، وقامت أساساً على فهارس مستوردى الكتب العشرة والتى نشرها بين ١٦٧٦ و ١٦٧٩ كل من «موسى بيت» و«جورج ويللر» و«صامويل كار». وقد صدرت الطبعة الرابعة من هذا الفهرس سنة ١٦٩٦ وتغطى الفترة من ١٦٦٦ وحتى نهاية فصل مايكلماس سنة ١٦٩٥.

(1) Robert Clavel. A Catalogue of all the books printed in England since the Dreadful fire of London to the end of Michaelmas term, 1672.
(2) General Bills of Mortality.

ومن بين فهارس تلك الفترة كذلك «فهرس كامل بكل الكتب المخيطة والأفرخ المفردة المطبوعة منذ اكتشاف المؤامرة البابوية»[1]. وقد سجلت في هذا الفهرس الإعلامات والخطب الملكية والوقائع البرلمانية المنشورة في الفترة من ١٦٧٨ - ١٦٨٠م. وقد صدر له ملحقان، وبعدهما أعيد نشر العمل كله سنة ١٦٨٠. ونحن لا نعرف في الواقع مَن المسئول عن هذا العمل. وثمة فهرس آخر نشره «راندال تيلور» سنة ١٦٩٣ تحت عنوات «المكتبة الجديدة»[2] وكانت ناقصة ولا تتضمن إلا ٣٢ صفحة فقط.

دوريات تجارة الكتب الباكرة.

جاءت أول محاولة لإصدار دورية ببليوجرافية منتظمة تغطي كل الكتب الجديدة باللغة الإنجليزية سنة ١٦٨٠، وصدر عددها الأول في أبريل من تلك السنة، وكان عنوانها هو «فهرس الكتب»[3] وكانت دورية أسبوعية يطبعها الطابع «توماس جيمس» لحساب ناشر اسمه (فايل) الذي يبدو أنه لم يكن عضواً في مهنة الطباعة أو النشر، ولذلك لم تقابل تلك الدورية بالاستحسان الواجب، ومن ثم لم تستمر إلا إلى نهاية نوفمبر من نفس سنة ١٦٨٠.

وجاءت بعد تلك الدورية دورية أخرى بعنوان «الإعلان الأسبوعي عن الكتب»[4] والتي كان يطبعها الطابع «روبرت إيفرنجهام» لحساب عدد من باعة الكتب وصدر أول عدد منها في أكتوبر سنة ١٦٨٠. ورغم أنها كانت تنشر تعليقات ساخرة على المجلة المنافسة لها إلا أنها هي الأخرى لم تلق نجاحاً يذكر وتوقفت بعد ستة أعداد فقط.

وصدرت في تلك الفترة أيضاً دوريتان آخريان فاشلتان هما : «التذكرة الأسبوعية»[5] التي صدر أول أعدادها سنة ١٦٨٣؛ «التذكاريات الأسبوعية»[6] التي صدر أول أعدادها سنة ١٦٨٩.

---

(1) A Complete Catalogue of all the Stitch'd books and Single Sheets printed since the first discovery of the Popish Plot.
(2) Bibliotheca Novissima, 1693.
(3) Mercurius Librarius.
(4) Weekly Advertisement of Books.
(5) Weekly Momento.
(6) Weekly Memorials.

وفى القرن الثامن عشر أيضاً صدرت بعض الدوريات الببليوجرافية، ففى شهر مايو ١٧١٤ توفر «بيرنارد لينتوت» على نشر أول أعداد دوريته «الفهرس الشهرى»[١] الذى كان يباع بسعر ٣ بنسات للنسخة، ولم تعمر هذه الدورية طويلاً حيث لم يصدر منها سوى ثمانى إصدارات فقط.

وفى شهر مارس ١٧٢٣ توفر «جون ويلفورد» على إصدار أول دورية ببليوجرافية ناجحة، وجاء أيضاً بنفس العنوان السابق «الفهرس الشهرى»[٢] وكان يحصر ويسجل ويصف الكتب الإنجليزية والأجنبية، وقد صدر منه على الأقل ثمانون عدداً واستمر حتى ١٧٢٩، وربما دخل أيضاً فى سنة ١٧٣٠م. وقد أعيد طبع الأعداد الستة الأولى سنة ١٧٢٦ ملخصة، كما أعيد إصدار الأعداد ١ـ٢٠ فى طبعة مختصرة مع كشاف سنة ١٧٢٥، والأعداد ٢١ـ٢٤ مع كشاف سنة ١٧٢٧؛ والأعداد ٤٥ـ٥٨ مع كشاف سنة ١٧٢٩، والأعداد ٦٩ـ٨٠ أيضاً فى نفس سنة ١٧٢٩. ويعتقد بعض الثقاة أن هذا الفهرس الشهرى قد صدرت منه أعداد سنة ١٧٣٠ حيث توقف بسبب ظهور دورية أخرى هى دورية «مجلة الرجل المهذب»[٣] التى أشرت إليها لماماً من قبل، والتى نشرها «إدوارد كيف» سنة ١٧٣١. وكانت مجلة «الرجل المهذب» تنشر شهرياً هى الأخرى ومعها ملحق يسجل الكتب التى نشرت خلال الشهر. ويبدو أن نجاحها جعل «جون ويلفورد» يوقف دوريته سابقة الذكر. وفى سنة ١٧٣٢ صدرت دورية أخرى «مجلة لندن»[٤] التى كانت هى الأخرى تنشر قائمة بكتب الشهر توفر على إعدادها جون ويلفورد نفسه. هذ الدوريات وأمثالها أمدت تجارة الكتب بقوائم أو ببليوجرافيات تجارية طيلة ثلاثين عاماً تقريباً. وقد جاء بعدها دوريتان عمرتا حتى القرن التاسع عشر هما «المجلة النقدية»[٥]، «المجلة الشهرية»[٦].

(1) Bernard Lintot. Monthly Catalogue.
(2) John Wilford. Monthly Catalogue.
(3) Edward Cave. Gentleman's Magazine, 1931.
(4) London Magazine, 1732.
(5) Critical Review.
(6) Monthly Review.

فهارس الكتب التجارية فى القرن الثامن عشر

لعل أولى الببليوجرافيات التجارية فى القرن الثامن عشر كانت ذلك الفهرس الذى نشره «روبير» و«تيرنر» بعنوان : «المكتبة السنوية»[١]، وهو كما يبدو من اسمه ببليوجرافية سنوية صدر منها أربعة مجلدات تغطى السنوات ١٦٩٩ـ١٧٠٤ . ومنذ سنة ١٧٠٤ وحتى ١٧٦٠ كان حصر وتسجيل ووصف الكتب التجارية يتم عن طريق الدوريات الببليوجرافية. ففى سنة ١٧٦٠م أصدر الناشر رالف جريفيث «المجلات الشهرية» المشار إليها، والتى أصدرت «الفهرس الكامل لكل الكتب والنشرات المنشورة فى السنوات العشر الماضية»[٢]. وكان هذا الفهرس فى حقيقة الأمر عبارة عن كشاف للكتب التى تمت الإشارة إليها فى هذه «المجلة الشهرية» فى العشر سنوات ١٧٤٩-١٧٥٩ .

وفى سنة ١٧٦٦ صدر «فهرس كامل بالكتب الحديثة»[٣] لناشر مجهول ويغطى كتب الفترة من ١٧٠٠ وحتى ١٧٦٦ . وقد ظهرت منه حلقة أخرى سنة ١٧٦٧ ويضم قائمة إضافية بالكتب القانونية والكتب المدرسية لنفس الفترة السابقة ١٧٠٠-١٧٦٦ .

وفى سنة ١٧٧٣ نشر «و. هاريس» فهرسا مماثلاً بعنوان «فهرس لندن»[٤] وقد غطى هذا الفهرس الكتاب الإنجليزى منذ بداية القرن. وقد رتبت المفردات فيه ترتيباً مصنفاً مع تقسيمات هجائية.

وفى سنة ١٧٧٩ ظهر الفهرس المجهل «فهرس عام بالكتب فى كل اللغات والفنون والعلوم التى طبعت فى بريطانيا العظمى ونشرت فى لندن منذ سنة ١٧٠٠»[٥] ويرجح الببليوجرافيون الثقاة أن يكون هذا الفهرس من عمل «وليام

(1) Roper and Turner. Bibliotheca Annua.

(2) A Complete Catalogue of all books and pamphlets published for ten years past.- 1760.

(3) A Complete Catalogue of Modern Books, 1766.

(4) W. Harris. The London Catalogue.

(5) General Çatalogue of Books in all Languages, Arts and Sciences, That have been printed in Great Britain, and published in London, since the year 1700.

بنت» الذى نشر فهرساً آخر بعنوان «فهرس عام»[1] سنة ١٧٨٦ ، والذى أصدر ما بين ١٧٨٨ وسنة وفاته فى ١٨٢٣م ستة عشر فهرساً مختلفاً بعضها تحت عنوان «الفهرس الحديث للكتب»[2] وبعضها تحت عنوان «فهرس لندن للكتب»[3].

وفى سنة ١٨٠٥م أسس وليام بنت الدورية الببليوجرافية المعنونة «المعلن الأدبى الشهرى»[4]، وهى مجلة مخصصة لعرض الكتب التجارية مع كشاف سنوى فى إصدارة كل ديسمبر. ورغم وفاته سنة ١٨٢٣ إلا أن زملاءه ظلوا يصدرونها حتى ١٨٢٨م، وتوقفت عن الصدور منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٨٣٢ ، حيث استأنف إصدارها «روبرت بنت» ولكنه أضاف اسمه إلى العنوان ليصبح «معلن بنت الأدبى الشهرى»[5]. وقد جاء من بعد روبرت بنت، «توماس هودجسون» حتى سنة ١٨٦٠ حين اندمجت فى مجلة «بائع الكتب»[6] التى أسسها قبل ذلك التاريخ بعامين (١٨٥٨) «جوزيف هويتكر».

الببليوجرافيات التجارية فى القرن التاسع عشر

فى اجتماع عقده تجار الكتب فى لندن سنة ١٨٣٦ طلب إلى «سامبسون لو» أن يقوم بنشر دورية ببليوجرافية تكون لسان حال تجارة الكتب الإنجليزية. وفعلاً صدر أول عدد من هذه الدورية تحت عنوان «دورية الناشرين»[7]، وكان ذلك فى خريف ١٨٣٧ ، وكانت تصدر كل أسبوعين، وكان عنوانها الفرعى طويلاً ويسير على النحو الآتى:

«تضم إعلانات تتعلق بالآداب والفنون مع كشاف مصنف. . . وفهرس هجائى كامل بكل الأعمال الجديدة والطبعات الجديدة وأحجامها وأسعارها وتواريخ النشر وأسماء الناشرين». وبعد أن أتمت الدورية مجلداتها الاثنى عشرة الأولى انفرد

(1) William Bent. Genero Catalogue ,1786.
(2) William Bent. The Modern Catalogue of Books.
(3) William Bent. The London Catalogue of Books.
(4) Monthly Literary Advertiser, 1805.
(5) Bent's Monthly Literary Advertiser, 1832.
(6) The Bookseller, 1858.
(7) The Publishers' Circular, 1837.

السيد «سامبسون لو» بملكية هذه الدورية. وفى سنة ١٨٤٥ نشر أول فهارسه السنوية الذى ظل ينشر حتى ١٨٥٣ تحت عنوان : «فهرس الكتب المنشورة فى المملكة المتحدة خلال سنة. . .»[1]. واعتباراً من ١٨٥٣ فصاعداً أصبح عنوانه «الفهرس البريطانى للكتب»[2]. وكل إصدارة تضمنت كشافاً مصنفاً يشير إلى المداخل الكاملة فى «دورية الناشرين»، وفى سنة ١٨٦٠م أدمج «الفهرس البريطانى» مع «فهرس لندن» الذى أشرت إليه سابقاً، والذى كان مملوكاً فى وقت من الأوقات للسيد توماس هودجسون، وخرج من هذين العملين عمل جديد باسم «الفهرس الإنجليزى للكتب»[3] وغطى الفترة من ١٨٣٥ إلى ١٨٦٠. ومنذ ١٨٦٤ صار يصدر سنوياً حتى يومنا هذا. وقد صدرت منه حتى نهاية القرن ١٩ ست طبعات تجميعية تغطى الفترة من ١٨٣٥-١٩٠٠، وفى القرن العشرين صدرت طبعات تجميعية مختلفة تغطى كل منها فترة خمس سنوات.

وكانت الدورية الببليوجرافية الكبرى الثانية فى القرن التاسع عشر هى «بائع الكتب» التى أشرت إليها منذ قليل، والتى أسسها «جوزيف هويتكر» كما قلت سنة ١٨٥٨. وهى الدورية التى ابتلعت كما أسلفت «معلن بنت الأدبى الشهرى». وفى سنة ١٨٧٤ نشر هويتكر أول إصدارات «الفهرس المرجعى للكتب الجارية»[4] والذى يتضمن - حسبما جاء فى عنوانه الفرعى - «البيانات الكاملة عن الكتب الموجودة فى السوق والمتاحة للبيع». وقد صدرت منه إصدارات تالية فى ١٨٧٥، ١٨٧٧، ١٨٨٠، ١٨٨٥، ١٨٨٩، ١٨٩٤. ومازالت دورية «بائع الكتب» و «الفهرس المرجعى» يصدران إلى اليوم.

وفى سنة ١٨٧٥ نشرت شركة «سمبكين مارشال» تجار الجملة فى الكتب أول عدد من دورية «كتب الشهر»، وقد تم توزيع هذه الدورية على تجار الكتب لاستخدامها كأداة لهم فى عملهم، وأيضاً لتوزيعها على المكتبات والمؤسسات.

---

(1) "A Catalogue of Books Published in the United Kingdom during the year...".
(2) The British Catalogue of Books.
(3) The English Catalogue of Books.
(4) Reference Catalogue of Current Literature, 1874.

ولم تكن هذه الدورية بكمال واكتمال «بائع الكتب» أو «دورية الناشرين» سالفتى الذكر، ولكنها ظلت تنشر وظلت أداة هامة لبائعى الكتب حتى توقفت مع إغلاق شركة سمبكين سنة ١٩٥٥.

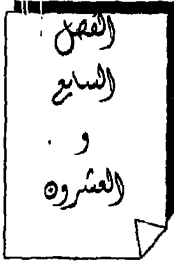
وفى سنة ١٩٤٩ شكل «مجلس الببليوجرافية الوطنية البريطانية» من أعضاء يمثلون مكتبة المتحف البريطانى، اتحاد المكتبات، اتحاد الناشرين، اتحاد باعة الكتب، رابطة الكتاب الوطنى وغيرها من الهيئات العاملة فى مجال الكتاب والمهتمة به. وكان هدف هذا المجلس أن ينشر ببليوجرافية جارية كاملة موثقة بالكتب البريطانية الجديدة. وقد بدأت هذه الببلوجرافية «الببليوجرافية الوطنية البريطانية»[1] فى الصدور سنة ١٩٥٠. ويتوفر على إعدادها هيئة متخصصة من المكتبيين المؤهلين، وتعتمد أساساً على الكتب المودعة فى المتحف البريطانى. وتصدر الببليوجرافية أسبوعياً مع كشافات شهرية وتجميعات على فترات كل ثلاث وكل ست وكل تسعة وكل اثنى عشر شهراً. والمجلد السنوى يصدر مجلداً بجلدة سميكة، وهناك تركيمات للكشافات كل خمس سنوات، صدر أولها سنة ١٩٥٥ ليغطى ١٩٥٠-١٩٥٤.

وفى الولايات المتحدة لابد وأن نتوقف أمام دوريتين ببليوجرافيتين بدأتا فى القرن التاسع عشر؛ أولاهما : «أسبوعية الناشرين»[2]. التى أسسها ونشرها سنة ١٨٧٢م الناشر العظيم «ر.ر.بوكر» فى نيويورك، وثانيتهما: «الكشاف التركيمى للكتب»[3] التى أسسها أيضاً فى نيويورك سنة ١٨٩٨م الناشر الألمعى «هـ.و. ويلسون». وقد بدأت الدوريتان بتغطية الكتاب الأمريكى فقط، ولكن منذ ١٩٢٩ وسع نطاق «الكشاف التركيمى للكتب» ليشمل كل الكتب الصادرة باللغة الإنجليزية فى أى مكان. ويصدر فى إصدارات شهرية مع تجميعات نصف سنوية ثم مجلدات سنوية دائمة، وتركيمات كل سنتين. وهو مرتب ترتيباً قاموسياً مع إحالات كاملة.

* * *

---

(1) British National Bibliography.
(2) Publishers' Weekly.
(3) Commulative Book Index.



القراءة فى عصر الطباعة

الهدف المطلق من طباعة ونشر الكتب هو وضع هذه الكتب فى يد القراء، سواء قصد الطابع والناشر إلى الربح المادى - وهو حق لهما - أم لم يقصدا إلى ذلك وهو ما يحدث فى بعض الأحيان. وقد يخطىء الطابع أو الناشر فى تقدير حجم السوق المتاحة للكتاب ومن ثم يطبع عدداً من النسخ زيادة عن استيعاب السوق وتبقى النسخ فى المخازن إلى أن تباع فى سوق البواقى. وقد تباع نسخ الكتاب ولكنها قد تظل على رفوف المكتبات وفى خزائن الكتب دون أن تمتد إليها يد أبداً. ولكن أياً كانت النسخ التى بيعت فى سوق البواقى وأياً كانت النسخ التى تبقى على الرفوف دون استخدام فإن الغالبية العظمى من الكتب والكتيبات والاعلانات العريضة تم بيعها وتمت قراءتها على يد جمهور متزايد من القراء وخاصة منذ العقد الثانى للطباعة وحتى العقد الخامس من القرن العشرين. ولسوف أتناول فى هذه الجزئية من البحث التاريخى حول الكتاب تحليل ما تيسر لى من أرقام وبيانات حول إنتاج الكتب فى أوربا، وهذا التحليل سوف يقودنا يقيناً إلى فهم عادات وميول القراءة وبالضرورة إلى معرفة الذوق الأدبى الذى كان سائداً.

ومن الملاحظ أن معرفتنا بإنتاج الكتب فى القرن الخامس عشر هى معرفة كافية بحكم محدودية حجم ذلك الإنتاج واستطاعتنا السيطرة عليه؛ أما معرفتنا بالإنتاج الفكرى فى القرن السادس عشر وما تلاه فهى معرفة جزئية مليئة بالثقوب والثغرات، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ننسج منها خطوطاً عامة عريضة تكفينا فى هذا المقام.

وفى هذا السياق قد يقدم لنا العنوان المفرد معلومات هامة عن القراءة وأذواق القراء. وعلى سبيل المثال عندما يطبع الكتاب الواحد عند أكثر من طابع فى نفس الوقت فقد يكشف ذلك عن وجود حاجة ماسة إليه ولهذا تهافت عليه عديد من الطابعين لسد حاجة القراء إليه.

وكما أشرت فى مواضع أخرى من هذا البحث فإن المعلومات المتعلقة بأحجام الطبعات محدودة وتتعلق بعدد قليل من الكتب بحيث لا نستطيع الخروج منها بمتوسطات عامة للفئات المختلفة. كما فقدنا طبعات بأكملها من كتاب ما ولم تصل إلينا أيه نسخ منها، وهناك طبعات ماتزال طى الخفاء لم يكشف عنها النقاب ولم توصف. وعلى سبيل المثال كتاب «م. م. بوياردو»[1] الذى قالت بعض المصادر إنه طبع منه ٢٢٨ نسخة فى طبعته الأولى ١٤٨٤ ولكن لم تصلنا منه أية نسخ على الإطلاق، ومن طبعته التالية فى ١٤٨٧م لم تصلنا سوى نسخة واحدة غير كاملة؛ وقد وصلتنا نسخة واحدة من طبعة ١٤٩٥. وقد ذكرت المصادر أن طبعة أخرى من نفس الكتاب صدرت فى نفس السنة فى ١٢٥٠ نسخة، ولكن لم يصلنا من كل هذا العدد أى نسخ قَط. ولا نعرف بطبيعة الحال ما هو عدد الطبعات التى صدرت من كتب لم تصلنا بل ولم تصلنا أخبار عنها.

ومن المعروف أن بعض الكتب تصدر فى طبعات من مائة نسخة فى القرن الخامس عشر، ثم تقفز بعد ذلك إلى بضعة آلاف من النسخ للطبعة الواحدة فى القرن السادس عشر. ومهما كان حجم الطبعة من الكتاب صغيراً فإن هذا الحجم يعتبر ضخمًا بالنسبة لعدد النسخ التى كانت تخط من الكتاب فى عصر المخطوطات والتى كان المنسخ يستطيع بقدرته المحدودة على إنتاجها.

لقد توفرت المطابع على إنتاج الجملة من نسخ الكتاب الواحد. ولقد قدر عدد الطبعات الصادرة فى جيل واحد من الطابعين نحو أربعين ألف طبعة. ورغم أن بعض الطبعات كان يدور حول ٤٥ نسخة إلا أن حجم الطبعة ارتفع حتى وصل إلى نحو ٧٥٠٠ نسخة فى القرن السادس عشر أحياناً[2].

ومن المفيد أن نتعرف على أنماط الناس الذين كانوا يقرأون الكتب ويستهلكون

---

(1) M.M. Boiardo. Orlando Innamorata.

(٢) انظر على سبيل المثال البيليوجرافيات الآتية بأوائل المطبوعات:

- British Museum. Catalogue of books printed in the XV th Century .- London, 1908;
- Indice generale degli in incunabulidelle bibliotheche d'Italia, 1943;
- Pellechet. Catalogue géneral des in cunables des bibliothèques publiques de France, 1897-1909.;
- Polain. Catalogue des livres imprimés au XVe Siecle des bibliatheques de Belgique, 1932.

هذه الكميات من النسخ ومستوى تعليمهم، علما بأن عدد السكان فى الدول الأوربية فى ذلك الوقت (القرن الخامس عشر) كان صغيراً نسبيًا، والشريحة المتعلمة منهم كانت ضيقة. وتصور البيانات الآتية عدد السكان فى بعض المدن الرئيسية فى تلك الفترة:

باريس	٢٠٠٠٠٠ نسمة
فينسيا	١٠٠٠٠٠ نسمة
نابلى	١٠٠٠٠٠ نسمة
ميلانو	١٠٠٠٠٠ نسمة
لندن	٦٠٠٠٠ نسمة
فلورنسا	٥٠٠٠٠ نسمة
كولون	٣٥٠٠٠ نسمة
ستراسبورج	٢٥٠٠٠ نسمة
لوبيك	٢٠٠٠٠ نسمة

ولابد لنا من أن نحكم على القراء والقراءة من واقع المناخ الفكرى السائد من القرنين الخامس عشر والسادس عشر. والحقيقة أنه ليس لدينا بيانات عن نسبة المتعلمين ومدى انتشار التعليم بين السكان، وتوزيع تلك النسب بين الطبقات المختلفة فى المجتمع فى المناطق المختلفة من أوربا.

ومهما يكن من أمر فقد كانت الأمية منتشرة والغالبية العظمى من السكان فى ذلك الوقت (القرن الخامس عشر والسادس عشر) لا تعرف القراءة أو الكتابة. وليس هناك اتفاق عام حول حجم أو تركيبة الجمهور القارئ والجمهور الكاتب. وقد فرقت بعض المصادر بين من يعرفون القراءة ومن يعرفون الكتابة ومن يعرفون الاثنين، إذ ليس من الضرورى أن يكون القارئ كاتباً وليس من الضرورى أن يكون الكاتب قارئًا. والقانون الكنسى على سبيل المثال اشترط لمنصب القسيس أن يكون القسيس قارئاً ولم يشترط أن يكون ملماً بالكتابة، وهناك أمثلة كثيرة على قساوسة لم يكونوا يعرفون الكتابة ولكنهم يجيدون القراءة. وقد انتهت هذه المفارقة فى بداية القرن الخامس عشر ولكن المشكلة أن

تعليم القراءة والكتابة بقيا أمرين منفصلين حتى نهاية ذلك القرن على الأقل. وقد ذكر «أ. ب. جولدشميت» أن القراءة فى ذلك الوقت كانت قاصرة على فئات بعينها: أعضاء الجامعات (فئاتها الثلاثة: المدرسون، الطلاب، كبار العاملين)، الإكليريون فى الأديرة والكنائس، موظفو الدولة، النبلاء الإقطاعيون، المحامون، الأطباء، تلاميذ المدارس، مدرسو المدارس. وأكد جولدشميت فى كتابه «النصوص الوسيطة»(١) أن قراء الكتب خرجوا يقينا من بين هذه الفئات وخاصة قراء الكتب الأدبية والبحثية، ويبدو أنه لم يكن معنياً بقراء كتب الأساطير، كتب الصلاة، التقاويم، كتب الكهانة والعرافة، والإعلانات العريضة، وقراء الكتب المهنية وشبه العلمية. ومن الواضح أن الفئات التى حددها جولدشميت هى فئات محدودة حتى بالنسبة للكتب الأدبية والبحثية.

ومن المؤكد أنه قبل تطوير أساليب الدعاية والإعلان وطرق تشكيل الذوق العام والاتجاه نحو القراءة؛ كانت ميول القراء هي التى تؤثر فى اختيار النصوص التى تطبع. ومن هذه الزاوية فقط يمكن أن يكونْ تحليل إنتاج الكتب مؤشرا إلى حد ما نحو ميول القراءة وأولوياتها لدى القراء فى ذلك الوقت. والحقيقة أن أفضل من قام بذلك العمل هو «ج. م. لينهارت» فى «الكتب المطبوعة قبل ثورة الإصلاح»، وكذلك «ر. ستيل» فى سلسلة مقالاته فى مجلة المكتبة(٢). ولابد لنا قبل الاستطراد فى هذه النقطة من أن نعرف أنه قبل انتشار الطباعة وتطورها واتساع الرقعة التى تغطيها، وقبل أن يكون هناك عدد كاف من الكتب المطبوعة التى يمكن أن يختار منها ما يعاد طبعه، وقبل أن يقوم المؤلفون والمترجمون المعاصرون بتأليف وترجمة الكتب خصيصًا للطباعة.. قبل ذلك كله كان لابد للطابعين من اللجوء إلى المخطوطات للاختيار من بينها ما يطبع، وقد ذهب مستشارو الطابعين إلى مكتبات الأديرة والمكتبات الخاصة والمكتبات الجامعية لنسخ أو للحصول على المخطوطات التى يرون أنها جديرة بالطبع والتوزيع.

(1) E.P. Goldschmidt. Medieval texts and their first appearance in print.. London, 1943.

(2) J.M. Lenhortt. Pre- Reformation printed books. New York, 1935.
R. Steel. "What Fifteenth Century are about" .- The Library Series 2, IV, VI, VIII. 1903-1907.

ومن المؤكد أن مكتبات الأديرة والكنائس كان يغلب على مخطوطاتها الطابع الدينى والنصوص اللاهوتية. وكانت المكتبات الجامعية ومكتبات المدن حديثة عهد، وكانت مجموعاتها عموماً محدودة صغيرة، وقليل من مخطوطاتها ما كانت له قيمة عند الطابعين. ومن المؤكد أن تجارة الكتب المخطوطة كانت من بين الوسائل التى ساعدت الطابعين فى الحصول على الأصول التى يطبعونها. وكان بعض الباحثين الدارسين يملكون مخطوطات صالحة للطبع والتوزيع. ومن هذا المنطلق نريد التأكيد على أن تيسر المخطوطات وسهولة الوصول إلى الأصول قد لعب دوراً هاماً فى اختيار النصوص اللازمة للطباعة. ومن المؤكد أن غلبة الطابع الدينى اللاهوتى على مخطوطات الأديرة كان سبباً هاماً من أسباب نشر الكثير من الكتب الدينية التى ظهرت فى العقود الأولى للطباعة، ومن جهة ثانية لابد من الانتباه إلى أن رجال الدين كانوا يعتبرون فى ذلك الوقت الشريحة الرئيسية بين شرائح القراء ومشترى الكتب.

ولاشك أن «ج.م. لينهارت» قد جدول كتب القرن الخامس عشر وصنفها تصنيفاً جيداً فى كتابه سابق الذكر، ولكننا بالضرورة سوف نختلف معه فى بعض التفسيرات والنتائج التى خرج بها، ومع فكرة التصنيف الدقيق لتلك الكتب. ومهما يكن من أمر فقد خرج لينهارت بأن ٤٥٪ من كتب القرن الخامس عشر كانت كتباً دينية لاهوتية. وداخل هذا القطاع نجد أن سدس هذه الكتب اللاهوتية كان كتب تكريس، العشر كتب المقدسة، وتفاسير الكتب المقدسة؛ والثُمنْ كتب وعظ وإرشاد. ورغم أن لينهارت لم يوزع كتب اللاهوت هذه توزيعاً جغرافيا ولكن من قائمة مراكز الطبع الواردة فى صفحة ٧٦ من ذلك الكتاب يمكننا الخروج بالمؤشرات الآتية: تفوقت فينسيا فى عدد الكتب المقدسة وتراجم القديسين، وتفوقت باريس فى أجزاء الكتاب المقدس وكتابات آبا آباء الكنيسة واللاهوت العام. أما روما فقد تفوقت فى نشر كتب الوعظ. وعندما نتوغل فى تفاصيل كتب اللاهوت فسوف نجد أن من بين طبعات الكتاب المقدس: الكتاب

المقدس اللاتينى[١]، الكتاب المقدس باللغات المحلية[٢] وقد أشرنا إلى ترجماته المختلفة من قبل، والكتاب المقدس للفقراء[٣]. هذه الفئات الثلاث من الكتاب المقدس كانت موجهة بالضرورة إلى ثلاث فئات من القراء: فالكتاب المقدس اللاتينى كان موجهاً لرجال الدين وخاصة المتعلمين منهم؛ والكتاب المقدس باللغات المحلية كان موجهاً إلى الأتقياء الذين لم تكن لهم معرفة باللغة اللاتينية؛ أما الكتاب المقدس للفقراء فإنه كان موجهاً بالضرورة إلى الفقراء الذين لا يقدرون إلا على هذه الطبعة المختصرة المركزة. وتحت كتب التكريس ـ أى الخدمة فى الكنائس والأديرة والكاتدرائيات ـ نصادف كتب الشعائر وأدلة الصلوات وغيرها مما يستخدمه الإكليريون، ونصادف هنا أيضا كتب التكريس الخاصة مثل كتب القداس وكتب الساعات وكتب الترانيم والإنشاد ومعظم هذه الكتب باللغة العامية وموجهة للدهماء وحرافيش العامة والسوقة. وتحت رأس «اللاهوت» نصادف كتباً موجهة لتشكيلة كبيرة من القراء وللعديد من الاستخدامات، ومن التبسيط المخل أن العدد الكبير من الكتب الدينية هو دليل سطوة للدين على الشعوب التى كانت تعيش عيشة «ثورة الإصلاح الدينى» فيما ذهب لينهارت. ولقد أمدنا لينهارت (ص ص ٦٨-٧٠) بإحصائيات عامة ممتعة نقتطع منها بعض البيانات:

اللاهوت ٤٤,٤٩ ٪

الأدب والفلسفة ٣٦,٠٧٪

القانون ١٠,٩٣ ٪

العلوم (والعلوم الشعبية) ٨,٥١ ٪

وأقدم فيما يلى المجالات التى غطتها الكتب المنشورة فى القرن الخامس عشر لعلها تكشف عن ميول واتجاهات القراءة لدى الفئات العريضة من السكان القارئين وليس فقط للصفوة القارئة:

---

(1) Latin Vulgate.

(2) Vernacular Bibles.

(3) Biblia pau perum.

القصص الرومانسية والحكايات

والقصص الواقعية	٣,٨١٪
الشعر	٤,٣٠٪
المسرحيات، الخطب، الرسائل	٤,١٢٪
التاريخ والتراجم	٣,٣٦٪
مريم العذراء	١,٤٤٪
التقاويم والكتب السنوية	٠,٧٣٪
السحر	٠,٢٧٪
العرافة والتنجيم	٠,٩٤٪
مجموع نسب الأعمال الموجهة للعامة	١٨,٩٧٪

ولعله من الجدير بالذكر أن لينهارت قد جمع أساطير ومعجزات القديسين تحت «حياة القديسين وتاريخ الكنيسة»، وقد بلغ نسبتها ٣,٤٤٪. وإن كان «إرنست شولز» يرى أن تلك الأساطير والمعجزات طبقاً لمفاهيم العصور الوسطى تدخل ضمن التاريخ. وأياً كان أمر وضع هذا الموضوع فهو من الموضوعات التى كان يقبل عليها العامة، ومن ثم ترتفع نسبة كتب العامة فى هذا الحصر إلى نحو ٢٢,٥٪ من مجموع الكتب المنشورة فى القرن الخامس عشر. تلك الموضوعات السابقة لا خلاف حول تصنيفها، ولكن من الموضوعات الأخرى التى وردت عند لينهارت وقد تثير القلق من حيث تصنيفها نورد:

كتب الترانيم والتراتيل	٠,٣٧٪
منشورات بابوية	١,١٤٪
الاعترافات	٢,٥٠٪
تفاسير الكتاب المقدس	٢,٤٠٪
الكافرون	٠,٨٤٪

ومن جهة أخرى نجد أن مؤلفًا آخر هو إرنست شولز يقدم لنا تحليلاً لبعض قطاعات الإنتاج الفكرى الصادر عن المطابع فى القرن الخامس عشر بناه على معرفته بالكتب المدروسة نفسها[1]، وطالما أن كتاب شولز هذا لم يطبع منه سوى أربعين نسخة فقط وهو غير معروف إلا للخاصة، فسوف ألخص بعض النتائج التى توصل إليها مع بعض تعليقات سريعة، حيث كشف تحليله عن أن ٤٠٪ (خمسى) أوائل المطبوعات جميعها كتبها الدومنيكان والفرنسيسكان (ص ٣٠) مما يكشف عن تأثير هذين المذهبين على الناس فى وقتهما، فى حين كانت كتابات الأوغسطيين والكارثوزيين لا تمثل إلا نسبة صغيرة، وكذلك المذاهب القديمة مثل البندكتيين والسستريين (ص٣٠). وقد تجاهلت الكنيسة تقديم وجهة نظر البروتستانت إلى الناس.

وقد كشف تحليل شولز أيضاً عن أنه قد نشر فى الأربعين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر نحو خمسة آلاف مجلد فى **الوعظ** وحده (ص ٣٠-٣١). وهذا الرقم يمثل حوالى ١/٨ الإنتاج الفكرى كله فى ذلك القرن، ويدل دلالة قاطعة على اهتمام بالغ من جانب الجموع القارئة بهذا الموضوع. ونحن نعلم أن تلك الفترة كانت حبلى بالتفاعلات والصراعات والخلافات الدينية، مما أفرز معه هذا الكم الكبير من الكتب الوعظية الإرشادية.

وفى مجال كتابات آباء الكنيسة نجد تفوقاً كبيراً لكتابات «سانت أوغسطين» و«سانت جيروم» على «سانت جريجورى» (١٢٠ طبعة لكل من سانت أوغسطين وسانت جيروم فى مقابل ٧٥ طبعة فقط (سانت جريجورى) ويأتى بعد هؤلاء الثلاثة بمسافة «أمبروسيوس» (٣٠ طبعة)؛ «لاكتانيوس» (٢٣ طبعة)؛ «كايبريان» (١٠ طبعات). وكان «سانت كرايسستوم» و«سانت يوسبيوس» هم أكثر آباء الكنيسة الإغريق طبعا لهم (٢٥ طبعة لكل منهما)؛ أما «إثناسيوس» و«ديونسيوس» فقد نشر للأول سبع طبعات وللثانى خمس طبعات خلال القرن الخامس عشر (ص ٣٣). وقد أجمعت المصادر على أن كتابات سانت أوغسطين كانت أوسع انتشاراً بين العامة، وأى كتاب دينى لأى مؤلف آخر موجه للعامة

---

(1) Ernt Schulz. Aufgaben und Ziele der Inkunabelforschung .- Munich, 1924.

كان يجب أن يتضمن معلومات وعناصر أوغسطية. وكانت فترة طبعات النقد الكبير ككتابات آباء الكنيسة على وشك أن تبدأ فى نهاية ذلك القرن.

وبالنسبة للكتب الأحدث (فى ذلك الزمان) يشير شولز إلى كتاب «محاكاة المسيح»[1] الذى كان واسع الانتشار فى عصر الخطاطة، وقد طبع منه فى القرن الخامس عشر أكثر من مائة طبعة، و «اعترافات» سانت أنطونيوس[2] أكثر من مائة وخمسين طبعة، و«الأسطورة الذهبية»[3] لصاحبها «جاكوبوس دى فوراجين» التى طبع منها طبعات أكثر من طبعات سانت أوغسطين وسانت جيروم معًا (ص ٣٤). وقد ترجمت إلى اللغة المحلية الإنجليزية بنفس العنوان[4] وطبع منها بهذه الترجمة عدد كبير من الطبعات وكانت تقرأ للتدبر والتسلية فى وقت واحد.

ويذكر أن إرنست شولز أن الآداب المسيحية المبكرة وآداب العصر الكارولنجى لم يطبع فيها إلا عدد قليل من الكتب، وكان عليها أن تنتظر الصحوة التى قام بها الإنسيون فى القرن السادس عشر، هؤلاء الإنسيون الذين كانت نظرتهم أبعد من مجرد الكتب الكلاسيكية. وكان جل هذا القليل الذى نشر فى القرن الخامس عشر فى الآداب المسيحية والكارولنجية قد طبع فى الأراضى الواطئة، وإلى حد ما فى فرنسا. ومن بين المؤلفين الذين لم ينشر لهم أو نشر لهم عدد محدود من الأعمال فى فترة المهاديات نصادف: كاسيودوروس؛ باولوس وياكونس، ألكوين، هرابانوس ماوروس، والاهفريد سترابو، سيدوليوس، جوهان سكوتوس إيريجنا (ص ٣٤ وما بعدها). ويستمر عرض شولز للإنتاج الفكرى عبر القرون التى تلت، ويخلص إلى القول بأنه فى الفترة الأولى للطباعة تم إهمال عدد كبير من أهم كتب العصور الوسطى، ليس فقط فى مجال اللاهوت وإنما فى سائر مجالات المعرفة، وربما جاء ذلك بسبب عدم اتساع السوق لها. ويستطرد شولز فيقول بأن كتاباً مثل كتاب (لوسيداريوس)[5] كانت له شعبية

(1) Imitatio Christi.
(2) St. Antonius. Confessionale.
(3) Jacobus de Voragine. Legenda aura.
(4) Golden Legend.
(5) Lucidarius. (الاستبصار)

خاصة، إذ طبع خمسا وثلاثين مرة خلال القرن الخامس عشر بالألمانية والإيطالية والفرنسية فى حين أن الأصل الذى بنى عليه هذا العمل وهو (إلوسيداريوس)[1] لمؤلفه «هونوريوس أوغسطتو دیننسیس»، الكتاب المفصل المطول الجاد لم ينشر قط، مما يدل دلالة واضحة على أن الطبعات الشعبية من تلك الأعمال هى التى تلاقى النجاح والانتشار، أما أصولها الأكثر تفصيلاً فتنسى وتهمل (ص ٤٠). ولم يطبع من أدب العصور الوسطى بما فى ذلك الكتابات اللاهوتية إلا كسرة صغيرة خلال القرن الخامس عشر، ونفس هذا القول يصدق على كتب التاريخ؛ فلم ينشر من كتب تاريخ وحوليات ما قبل الحقبة الأوتونية - وبالذات الفترة من القرن العاشر حتى الثانى عشر - إلا النزر القليل فى القرن الخامس عشر، ولا حتى فى ألمانيا التى شهدت قمة ازدهار القوة الإمبراطورية. وهناك سببان رئيسيان يعقدان - بل ويعرقلان - كل المساعى الرامية إلى تجزىء الإنتاج الفكرى إلى وحدات فى القرن الأول للطباعة:

أ- أن قسماً كبيرًا من هذا الإنتاج الفكرى يعالج قطاعات متداخلة من الموضوعات، وينطوى الكتاب الواحد على عدة مجالات، ومن ثم يندرج تحت عدة رؤوس موضوعات مثال ذلك كتاب المبجل بيديه «التاريخ الكنسى»[2] الذى يعالج موضوعينْ كبيرين: التاريخ العام والكنيسة، وكتاب «بيدبا»[3] وهو مجموعة حكايات أخلاقية شرقية، وهو كتاب أدبى فلسفى، وكان الإكليريون يستخدمونه فى الخطب والمواعظ التى يلقونها على جموع المصلين، وكتاب «رايش» عن «الفلسفة المسيحية»[4] الذى لم يكن كتاباً فى الفلسفة بالمعنى الدقيق، بل كان موسوعة عامة فى كل العلوم والمعارف، وكتاب «سيسوليس» عن لعبة الشطرنج[5] الذى لم يكن فيه إلا القليل عن الشطرنج والكثير جداً عن الأخلاق

---

(١) Elucidarius/ Honorius Augustodinensis. (عن الاستبصار).

(2) [Venerable] Bede. Historia ecclesiastica.

(٣) Bidpai. وربما المقصود به كتاب كليلة ودمنة

(4) Reisch. Margarita philosophlica.

(5) Cessolis. Ludus Scaccorum.

وفلسفة الأخلاق. كذلك فإن أساطير ومعجزات القديسين تندرج تحت ثلاثة مجالات كبيرة هي الأدب واللاهوت والتاريخ. وكتب التكهن والنبوءات التى توضع تحت رأس الموضوع (العلوم والعلوم الشعبية)، وهى فى حقيقة الأمر تنتمى إلى كل أنواع الخرافات الشديدة والخفيفة والتى نشر منها الكثير، وليس فقط إلى علم النجوم والتنجيم. وكتاب «الوصفات السحرية»[1] الذى نشر كثيراً تحت اسم «ألبرتوس ماجنوس» كان يقرأ على نطاق واسع من قبل الكثيرين لعلهم يفيدون من وصفاته السحرية العجيبة.

ب ـ أن قسماً كبيراً أيضاً من ذلك الإنتاج الفكرى كان يروق لأكثر من فئة من فئات القراء، وقلة قليلة فقط من القراء هى التى قصرت نفسها على مجال واحد محدود. لقد شكا «جيلر فون كيزربرج» فى إحدى مواعظه سنة ١٤٩٦ من أن القساوسة أهملوا قراءة الأناجيل وسير الأنبياء وتوجهوا إلى قراءة الكوميديات والمسرحيات. وخلال العصور الوسطى كلها كانت مكتبات الأديرة مستودعاً لكتب اللاهوت، وبالإضافة إلى مكتبات الأديرة كانت المؤسسات الأكبر والأغنى تقتنى الكتب فى جميع مجالات المعرفة، وكانت المخطوطات ترد إليها إما عن طريق النسخ أو الإهداء، وكانت من بين تلك المخطوطات الكتب الكلاسيكية التى كان الإنسيون يبحثون عنها بإلحاح. ومع ظهور الطباعة سعت تلك المؤسسات إلى اقتناء المطبوعات، إما عن طريق الاستهداء أو الشراء إن استطاعت إلى هذا الأخير سبيلاً، بما فى ذلك كتب الإنسيين وكتب الآداب والعلوم المعاصرة. ومن المؤكد أن المكتبات الشخصية التى كانت موجودة فى عصر الخطاطة على استحياء قد أخذت فى التوسع فى عصر الطباعة، وعلى سبيل المثال راعى الشعر والموسيقى الألمانى «هانز ساخس» كانت لديه مجموعة كتب اشتراها ـ وغالباً قرأها ـ من بينها حوليات الدنمرك للمؤلف كرانتز[2]، وكتاب الساعات بالألمانية[3] والأوديسة لـ

---

(1) Secreta Secretorum/ Albertus Magnus.

(2) Krantz. Chronicle of Denmark.

(3) Hortus Sanitatis.

«هوميروس»[1]. وكانت هناك سيدة لم تسجل المصادر اسمها لديها ثلاثة كتب: واحد فى الدين وواحد فى الأدب وواحد فى الطهى[2]. والسؤال الآن: من كان يقرأ الطبعات الكثيرة باللاتينية، ومن كان يقرأ الطبعات الكثيرة باللغات المحلية من كتب «أسطورة الإسكندر»[3]، «الأسطورة الذهبية»، «تأملات»[4] سانت بونافنتور وغيرها من تلك الكتب التى نشرت باللاتينية واللغات المحلية فى وقت واحد ؟

ولو أننا القينا نظرة عامة على القائمة التى أعدها «جورج سارتون» عن أكثر المؤلفين ترددًا فى العلوم والطب والذين تنشر أعمالهم عبر القرون، لوجدنا على قمة القائمة ثلاثة هم: ألبرتوس ماجنوس، أرسطو، أبقراط.

لقد كانت الطائفة المتعلمة العالمة المثقفة تجيد اللاتينية قراءة وكتابة ربما أفضل من لغتها الأم. وكانت الكتب التى تنشر باللغات المحلية هى كتب كل الناس سواء المبتدئ منهم أو العالم. ودارس القراءة والذوق الأدبى لابد وأن يهتم بالمبتدئ اهتمامه بالعالم. لقد كانت اللغة اللاتينية ـ لغة المتعلمين ـ هى اللغة الدولية العالمية طوال العصور الوسطى. وقد انعكست تلك الحقيقة على إنتاج الكتب، أو بمعنى آخر عكس إنتاج الكتب تلك الحقيقة، إذ نجد أن أكثر من ثلاثة أرباع أوائل المطبوعات التى وصلت إلينا مكتوبة باللاتينية، والربع فقط باللغات المحلية المختلفة! وخلال القرن السادس عشر زادت نسبة الكتب المكتوبة باللغات المحلية ويرجع ذلك جزئيا إلى اهتمام الطابع والناشر بل والمؤلف بالقارئ **العامى** سواء الرجل أو المرأة أو الطفل الذى يريد أن يقرأ الكتب بلغته العامية وليس باللغة

---

(1) Homer: Odyssey.

(٢) هذه الكتب على التوالى:

Livre d'heures, Lancelot du Lac, L'Art de faire Coanfitures.

هذه المعلومات ذكرها شوتز فى كتابه «كتب اللغة المحلية فى مكتبات باريس فى القرن السادس عشر».

A. H. Schutz. Vernacular books in Parisian Libraries of the Sixteenth Centuries .- Chapel Hill, 1955. University of North Carolina Studies in Roman languages and literature XXV).

(3) Alexander Legend.

(4) St. Bonaventure. Meditations.

اللاتينية، كما يرجع ذلك جزئياً أيضاً إلى أن اللغة اللاتينية كلغة اتصال بين المتعلمين أنفسهم بدأت تفقد مكانتها، رغم إحياء الحركة البحثية وزيادة الاهتمام بالكلاسيكيات وأسلوبها العلمى.

وفى النصف الأول من القرن السادس عشر تساوت ـ أو كادت ـ نسبة الكتب المنشورة باللاتينية مع نسبة تلك الكتب المنشورة باللغات المحلية، ومع نهاية القرن السادس عشر كانت نسبة الكتب المنشورة باللغات المحلية قد احتلت أكثر من نصف عدد الكتب المطبوعة. وفقدت اللاتينية منذ ذلك الوقت صبغتها، الدولية اللهم إلا بين رجال الدين وخاصة التابعين للكنيسة الكاثوليكية ومجموعة من الكتاب الجدد باللاتينية، وقلة قليلة من الدارسين والمهنيين. ولقد ربحت اللغات المحلية المعركة، وكان نشر الكتب باللغات المحلية مجرد سبب واحد فى كسب المعركة بين مجموعة من الأسباب، حيث كانت الاضطرابات السياسية والدينية تمس عدداً متزايداً من الناس، ولكى يصل القادة إلى أن يستخدموا اللغات المحلية لمخاطبة هذه الجموع. ومن بين الأسباب أيضاً تحول اتجاه الطبقة المتعلمة نحو لغتهم الأم. وفى هذا الصدد نجد من يتصدي للدفاع عن اللاتينية ومن يتصدى للدفاع عن اللغة المحلية، وكان من بين من تصدى للدفاع عن الإيطالية ليون باتستا ألبرتى (بين ١٤٤٠-١٤٥٠)، الذى وصف بأنه النقطة المحورية والمدافع القوى عن اللغة الإيطالية فى مقدمات كتبه، ومع مرور الوقت اكتسب استخدام اللغة الأم مزيداً من الأنصار ومزيداً من المدافعين. وكان كل فريق يتعصب للغته باعتبارها أحسن من كل اللغات الأخرى، وكانت تلك هى نقطة البداية فى الاعتراف باللغة الوطنية وتميزها وانفصالها عن اللغة اللاتينية، وما صحب ذلك من شعور بالقومية والإحساس بالوطن، وأخذ علماء اللغات فى إعداد كتب قواعد اللغة لكل لغة، وبدأوا فى دراسة وتحسين الهجاء وضبط الإملاء، ومن بينهم «جيوفرى تورى» و«دوبوا»[1]. . كما بدأت عند هذه النقطة عملية ترجمة الكتب الكلاسيكية وغيرها من الأعمال إلى اللغات المحلية؛ وكان من بين من نشطوا فى هذا الاتجاه بين ١٤٥٠ و ١٤٨٠ «هنريتش شتاينهوول»، «نيقولاس

---

(1) Geoffrey Tory. Champ Fleury; Dubois. In Linguan Gallican Isagoge.

فون وايل»؛ «لودفيج فون هو هنوانج». وفى سنة ١٥٤٠ ظهر أول كتاب عن فن الترجمة وهو كتاب «إ. دوليه»: «طريقة الترجمة الجديدة من لغة إلى أخرى»[1]. أضف إلى هذا كله أن كثيراً من المؤلفين المعاصرين كانوا يكتبون فى لغتهم التى أقبل عليها الكثيرون على النحو الذى أشار إليه «وليام بوند»[2] فى «رحلة الحج» المنشور سنة ١٥٢٦.

ولقد حصر «ج.م. لينهارت» ٢٤٢٤١ مهادية وحللها ووزعها على لغاتها فى المصدر سالف الذكر (ص ص ٣٦-٤٠). وخرج بالاتجاهات الآتية:

اللغــة	عدد الكتب		النسبة المئوية	
اللاتينية	١٨٩٠٩		٪٧٧,٤٢	
الإيطالية	١٨٠٥		٪٧,٣٩	
الألمانية	١٤٢٣		٪٥,٨٢	
الفرنسية	١١١٦		٪٤,٥٦	
الهولندية	٣٣٠	٥٠١	٪١,٣٥	٪٢,٠٥
الفلمنكية	١٧١		٪٠,٧٠	
الأسبانية	٣١١		٪١,٢٧	
الإنجليزية	١٦٢		٪٠,٦٦	

ومن الغريب فى تلك البيانات التمييز؛ فى ذلك الوقت المبكر بين اللغة الهولندية واللغة الفلمنكية، لأن الفروق بينهما كانت طفيفة للغاية لا يلحظها إلا المتخصصون فقط.. ولو أدمج الرقمان مع اللغة الألمانية التى خرجت من بطنها هاتان اللغتان لأصبح المجموع الكلى: الألمانية (بما فى ذلك الهولندية والفلمنكية)

(1) E. Dolet. Lamaniére de bien traduire d'une Langue á L'autre .- 1540.

(2) William Bond. The pilgrimage of perfc-tion.

١٩٢٤ كتاباً بنسبة ٧,٧٨٪. وقد استبعدت من جداول لينهارت عدداً آخر من اللغات التى نشرت فيها كتب محدودة مثل اللغة التشيكية واللغة العبرية والعربية وغيرها، والتى يصل مجموعها فى جداول لينهارت إلى ٥٣١٨ كتابا، أى حوالى ٥٤٠٠. ومن الواضح من الأرقام السابقة النتيجة التى خلصنا إليها من قبل وهى غلبة اللغة اللاتينية على الإنتاج الفكرى فى القرن الخامس عشر، لدرجة أن أكثر من ثلاثة أرباع الكتب المطبوعة جاءت بهذه اللغة التى كانت ما تزال آنذاك اللغة الدولية، والتى لا تقتصر على دولة بعينها، فى حين أن اللغات المحلية كان الإنتاج بها لا يتخطى حدود سيطرة الدولة التى تتكلمها. وقد تكون النسب المئوية السابقة مفيدة لأغراض المقارنة، ولكن أخطر ما فى البيانات السابقة هو عدد الكتب المنشورة داخل كل لغة.

وفى فصل آخر من كتابه المذكور قام لينهارت بتحليل ٢٣٢٧٩ مهادية ووزعها على دولة المنشأ، أى الدولة الطابعة (لاحظ الفرق بين الرقمين) دون التعرض لنوع أو محتوى الكتب. وإذا أخذنا الجدولين: جدول اللغات السابقة وجدول الأماكن اللاحق ومزجناهما فسوف نخرج منهما بمؤشرات ممتعة. سوف نجد أن ١٧,٥٪ فقط من المهاديات المطبوعة فى إيطاليا كانت باللغة الإيطالية؛ ١٩,٧٪ من تلك المطبوعة فى المناطق الألمانية جاءت باللغة الألمانية؛ ٢٤,٤٪ من المهاديات المطبوعة فى الأراضى الواطئة طبعت باللغة الفلمنكية أو الهولندية، ٢٩,٣٪ من الكتب المطبوعة فى فرنسا خلال القرن الخامس عشر كانت باللغة الفرنسية (ولا يدخل فى الحساب هنا أربعة كتب بالفرنسية النورماندية، ثلاثة بفرنسية البروفنسال، واحد بفرنسية بريتون)، ٥٥٪ من الكتب المطبوعة فى إنجلترا كانت بالإنجليزية، ٥١,٩٪ من الكتب المطبوعة فى أسبانيا جاءت باللغتين الأسبانية والقطالونية. هذه النسب داخل كل بلد على حدة تكشف عن الاهتمام البالغ بلغة البلد. وكم كنا نود لو أن لدينا تفاصيل أكثر عن عدد الكتب بلغة البلد فى كل عقد من العقود وفى المجالات المختلفة، لكنا قد خرجنا بفيض من المعلومات

والمؤشرات. والجدول الآتى من كتاب لينهارت (ص ص ٢٦-٣١) يوزع المهاديات فى القرن الخامس عشر على الدول الطابعة:

إيطاليا	٪٤١,٩٤	
ألمانيا	٪٢٩,٥٢	٪٣٧,٩٧
الأراضى الواطئة	٪٨,٤٥	
فرنسا	٪١٥,٦٤	

وفى مصدر آخر نجد طريقة أخرى ونتائج مختلفة إلى حد ما. هذا المصدر هو «أوائل المطبوعات» من إعداد «س. فيهمر»[1] الذى صادفناه من قبل. وتسير نسب فيهمر وتوزيعاته على النحو الآتى:

إيطاليا	٪٣٥,٦
ألمانيا، سويسرا الناطقة بالألمانية، الأراضى الواطئة، بوهيميا، بولندا، المجر	٪٤٣,٠
فرنسا، سويسرا الناطقة بالفرنسية	٪١٧,٢
أسبانيا	٪ ٣,٠
إنجلترا	٪ ١,٢

ومن واقع فهرس أوائل المطبوعات فى مكتبة المتحف البريطانى قام «ج. د. بينتر» باستخراج المؤشرات الآتية لأوائل المطبوعات على اللغات:

الإيطالية ٪٢١

(1) C. Wehmer. Inkunabelkunde .- 1940.

الألمانية ٢٤٪ (المناطق الناطقة بالألمانية)

الهولندية ٢٧٪

الفرنسية ٣٥٪ (المناطق الناطقة بالفرنسية)

الإنجليزية ٥٨٪

الأسبانية ٥٤٪

ولقد كان «أ. شوروكاور» على حق عندما أكد على أن الطباعة لعبت دوراً كبيراً فى تقنين اللغة الألمانية وذلك بعد نشر كتب النحو ومعاجم اللغة وأدلة النطق والهجاء. ومن المؤكد أن ثمة علاقة وثيقة بين الطباعة والقراءة وجهود توحيد اللغة التى تساعد الأفراد من مختلف مناطق الدولة على فهم معنى الكلمات وتركيب الجمل بنفس الطريقة.

وكما قيل، كان الهدف المطلق لعلماء اللغة فى القرن السادس عشر هو إعطاء اللغة صيغة الاتساق. وقد حمل الحماس بعض اللغويين إلى الذهاب وراء ما هو أبعد من مجرد توحيد النطق والهجاء.. لقد ذهبوا إلى تحسين النطق على نحو ما فعل «تريسينو» فى اللغة الإيطالية و«دوبوا» فى اللغة الفرنسية، وجرت مناقشات مستفيضة حول استخدام الحروف الكبيرة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر على نحو ما فعل «س. دى فيللالون»، «ل. سالفياتى»، ولكن هذه المحاولات جميعاً كانت مغرقة فى الأكاديمية بحيث لم يكن تأثير كبير بين الجموع. لقد قاد اللغويون فى النصف الأول من القرن السادس عشر حركة تطوير شاملة أدت فى النهاية إلى تقنين النطق والهجاء. وفى هذا الصدد لابد أن ننسب الفضل إلى أهله فى حالة اللغة الإنجليزية، حيث أن الذى ساعد على تقنين هجائها وإملائها ونطقها هو الطابع الإنجليزى الأشهر «وليام كاكستون» الذى أتينا على ذكره فى بداية هذا البحث.

نعم لقد كان هناك تاريخ طويل فى إعداد المعاجم اللغوية قبل اختراع الطباعة. ولكن المعاجم المخطوطة وضعت أساسًا لخدمة أغراض خاصة أو جماعات بعينها

حيث كانت أدوات معينة على قراءة الكتاب المقدس والأناجيل وكتابات آباء الكنيسة. وفهم النصوص، كما كانت تلك المعاجم تخدم الخطباء والوعاظ والمحامين وغيرهم من فئات الباحثين. وكانت هذه المعاجم فى الأعم الأغلب باللاتينية، وإن كان بعضها يعطى المقابل أو الشرح باللغة المحلية. وكانت هناك معاجم مصنفة بلغتين لخدمة السائحين والرحالة، أو لمن يريد تعلم لغة أجنبية، حيث يساعد الترتيب الهجائى للمفردات على الحصول على المقابل باللغة الأخرى، وكما تخدم فى حالة الترجمة.

ولكن لم يكن لأى من المعاجم المخطوطة أى تأثير على توحيد النطق والهجاء والإملاء، وذلك لأن عدد النسخ كان محدودًا وتداولها كان على نطاق ضيق للغاية. وعندما جاءت الطباعة أحدثت ثورة هائلة وتغيرات كبيرة وصدرت المعاجم اللغوية بأعداد كبيرة وبنسخ كثيرة. وكان أول قاموس مطبوع بلغتين حديثتين قد صدر سنة ١٤٧٧ فى فينسيا ثم هو نفسه فى بولونيا سنة ١٤٧٩ مع مقدمة مستفيضة تفسيرية، ثم أعيد طبعه فى فيينا سنة ١٤٩٨، وظل مستخدماً حتى سنة ١٥٢٩ بنفس المقدمة، وقد تم توسيعه ليضم خمس لغات هى اللاتينية، الإيطالية، الفرنسية، الأسبانية، الألمانية. وقد نشره بيبوس فى نورنبرج تحت عنوان «قاموس خماسى اللغات» وقد جاء فى مقدمة طبعة ١٤٧٩ أن هذا القاموس طبع لمساعدة الألمان على تعلم اللغة الإيطالية ومساعدة الإيطاليين على تعلم اللغة الألمانية، وأنه قد أعد خصيصًا للصناع، والمقدمة الإيطالية أوصت بهذا القاموس للسيدات الإيطاليات الراغبات فى مصاحبة الصناع الألمان.

ويلاحظ أن اللغة والهجاء فى طبعة ١٤٧٩ رديئان حتى بالنسبة لتلك الفترة، وتتفق محتويات هذا القاموس مع احتياجات الأشخاص الموجه إليهم. ويتضمن إلى جانب الأقسام التى تدور حول الله والثالوث المقدس أسماء القديسين ومقدمة جيدة عن النطق الصحيح، أيام الأسبوع، أجزاء الجسم، الأعداد، العملات، المعادن، التوابل، والألوان، الأدوات المنزلية، الطعام، الموسيقى، الأمراض. . . ونحن لا نعرف حقيقة إلى أى مدى كانت القواميس تستخدم كدليل للنطق

الصحيح، ولكن من المعترف به تمامًا أن القوائم الهجائية للألفاظ كانت عبر فترة طويلة من الزمن عاملاً مساعدًا فى تقنين اللغات المحلية.

ولكى تكون الطباعة اقتصادية كان لابد من إنتاج الكتب والكتيبات باللغات المحلية فى طبعات كبيرة، ولابد من بيع النسخ عبر مناطق واسعة موحدة لغوياً. ولتحقيق ذلك كان لابد للطابعين ـ كما فعل وليام كاكستون ـ والمؤلفين أن يتجنبوا استخدام الكلمات والتعبيرات والهجاءات ذات الخصائص المحلية والإقليمية والمستخدمة فى لهجات دون لهجات. لأنهم إذا استخدموا تلك السمات الخاصة فإن القراء فى بعض المناطق قد يشق عليهم فهم النص. والنظرية التى تقول بأن مارتن لوثر هو الذى خلق اللغة الألمانية الموحدة صحيحة إلى حد ما لأنه هو وزملاؤه بل ومعارضوه حاولوا جهد الطاقة أن يوصلوا ما يريدون من رسائل إلى الشعب كله ومن هذا المنطلق عملوا وساعدوا على تقوية الاتجاه الذى كان موجوداً بالفعل نحو توحيد اللغة المكتوبة حتى تكون مفهومة من جانب الجميع بطريقة واحدة، وبهذه الطريقة تعرضت كلمات الأقليات اللغوية المكتوبة للانقراض ليس فى ألمانيا وحدها وإنما فى كل المناطق اللغوية الأوربية. ومن الأمثلة على ذلك الصقلية، الرايتو ـ رومانية، البروفنسال، البريتون، الفريزيان وهى جميعاً كانت شائعة فى المخطوطات، وطبعت لفترة محدودة وعلى نطاق ضيق قبل حركات إحياء القوميات فى نهاية القرن السادس عشر والسابع عشر.

ومن المقطوع به أن انتشار القراءة قد أثر بكل تأكيد فى علامات الترقيم وعلامات النطق وتقطيع الكلمات. وطالما كانت طريقة الاتصال الرئيسية هى المشافهة: الواعظ يلقى مواعظه، المنادى يقرأ على الناس فى الشوارع المنشورات والقراءات، الشاعر يلقى على الناس قصائده فى الأسواق والمنتديات، فقد كانت حركات الكلمات صوتية ولم تكن هناك حاجة إلى تسجيلها كتابة، ولكن ذلك كله تغير عندما أخذ الناس يقرءون لأنفسهم ما كان يقرأ أو يلقى عليهم، فاستخدمت علامات الترقيم وحركات الكلمات لتوضيح المعنى وتقطيع الجمل الطويلة والفقرات والنصوص: المسافات بين الكلمات، الفاصلة، النقطتان

الرأسيتان (الشارحة)، علامات الاستفهام وعلامات التعجب وما إلى ذلك. وقد بدأ الاهتمام بعلامات الترقيم الصحيحة أو المنطقية - كما أطلق عليها - بمقرر يدرس للتلاميذ فى فيرارا، وكان أول من أدخل هذا المقرر الذى سمى باسم فن أو مادة «علامات الترقيم»[1]، هو «جورينو» من فيرونا أستاذ علم البلاغة واللغات الكلاسيكية الذى كان يشرح للتلاميذ استخدامات علامات الوقف، النقطة، الفاصلة، المسافة، علامة الاستفهام، علامة التعجب[2]. . وكان من بين تلاميذه «بيتر لودر» الذى أصبح يدرس بدوره علامات الترقيم فى ليبزج سنة ١٤٦٢.

ولعل أول إشارة إلى أهمية علامات الترقيم الصحيحة فى القراءة «الصامتة» وفى الكتب المطبوعة هى تلك التى وردت فى ترجمة «شتاينهوول» لكتاب «بوكاتشيو»[3] والتى نشرت فى أولم سنة ١٤٧٣. وهذه الإشارة تسير على النحو الآتى: «لكى تفهم هذا الكتاب وغيره الذى ترجمته من اللاتينية إلى الألمانية، يجب أن تنتبه إلى علامات الترقيم المختلفة»[4] وهناك ثلاثة أنماط بثلاث دلالات مختلفة (ورقة ١٣٩ ظ، ورقة ١٤٠ و). ونفس هذه الفكرة نجدها عند «نيقولاس فون فايل» فى كتابه عن «الترجمة»[5]. ولم يكتف البعض بذلك القدر من معالجة علامات الترقيم بل بالغوا فيها. وهناك مخطوطة موجودة فى ألمانيا (مكتبة الدولة فى ميونيخ رقم ٧٣٨) مجهولة المؤلف ألحق بها بحث صغير عن علامات الترقيم والبحث مؤرخ بسنة ١٤٨٠، وهو يشتمل ليس فقط على علامات الترقيم المعروفة بما فيها علامات التعجب، ولكنه أضاف إليها علامة للحزن[6] تختم بها فقرات الحزن، وعلامة للفرح[7] تختم بها فقرات الفرح. وأضاف علامتى وقف جديدتين أطلق على إحداهما علامة نهاية السرد[8] والثانية علامة نهاية الكلام[9].

(1) ars (LRatio) punctandi.

(2) Suspensio, Punctus, Comma, Periodus, Puntus, interrogativus, Puntus, exclamativus.

(3) Boccaccio. De Claris mulierbus.

(4) Unterscheid der Punkten.

(5) Nicolaus Von Wyle. Tranlationem .- 1478.

(6) Punctus Lamenti.

(7) Punctus gaudi.

(8) Oratio Perfecta.

(9) Oratio Finalis.

وتستحق علامات الترقيم منا وقفة تاريخية يقتضيها السياق، ذلك أن نظرية علامات الترقيم هذه قد نشأت أصلاً فى إيطاليا على يد الإنسيين للإنسيين، وذلك كنوع من إصلاح الكتابة حتى يسهل فهمها. ومن المعروف أن هؤلاء الإنسيين أدخلوا نوعًا جديداً من الخطوط سبقت الإشارة إليه، وهو الذى اتخذ قاعدة لتصميم الحرف المطبوع المسمى بالرومانى، وقد قلت من قبل إن جورينو الأستاذ فى فيرارا أفرد مقرراً خاصًا لعلامات الترقيم كان يدرسه لتلاميذه. وقد انتقلت نظرية علامات الترقيم هذه إلى الشمال عن طريق تلاميذ جورينو هذا، ومن بينهم كما ذكرت بيتر لودر أحد الإنسيين الصغار الذى توفر على تدريس علامات الترقيم فى جامعة ليبزج.

وقد بدأ استخدام علامات الترقيم عملياً فى الكتب المطبوعة كل من شتاينهوول وفايل فى الكتب الألمانية، وليس فى الكتب اللاتينية ومن ثم تعود عليها قارئ الشمال فى كتب بلغته المحلية، ولذلك كان انتشارها هناك سريعاً. ومن المعروف أن الإنسيين ـ وخاصة الإنسيين الإيطاليين ـ كرسوا أنفسهم ووجودهم لقضايا فكرية أخرى، وكان رعاتهم قادرين على قراءة الكتب والنصوص بدون علامات الترقيم المختلفة هذه ولم يكن الإنسى الأصلى ليعطى القارئ العادى اهتماما يذكر، وإنما كان اهتمامه كله أو جله منصبا على صفوة المثقفين والقراء. ومن هنا يمكننا القول بأن التطوير الحقيقى لعلامات الترقيم والاهتمام بالكتابة لعموم القراء جاء من الإنسيين فى الشمال وراء الألب.

لقد كانت هناك أسباب عديدة وقوية وراء طبع الكتب الكلاسيكية والإنسية بغزارة فى إيطاليا بالذات، فقد نشأت حركة الإنسية هناك وكانت إيطاليا فخورة وعن حق بتراثها القديم، وكان فيها فى تلك الفترة صفوة من المفكرين؛ وكانت مجموعات المخطوطات الموجودة على أراضيها تشتمل على العديد من النصوص القيمة التى تصلح للتحرير والطبع. وتأكيداً لتلك الحقيقة كتب «فيكتور شولدر» فى مقدمة المجلد السابع من «فهرس الكتب المطبوعة فى القرن الخامس عشر» بالمتحف البريطانى يقول:

«تتصدر إيطاليا من الناحية الفكرية كل دول أوربا الغربية. وليس هناك موضوع ـ ماعدا اللاهوت ـ إلا وهو مقدمة فيه، سواء من الناحية العددية أو

الناحية النوعية لكتبها. وهناك عدة موضوعات وخاصة فى الإنسانيات والعلوم الطبيعية لها فيها نوع من الاحتكار، ومن هنا فإن طلاب العلم من الدول الأخرى كانوا يعتمدون اعتماداً مطلقًا على ما تنتجه مطابعها من أدوات التعليم. وفى نفس الوقت الذى تمثل فيه المهاديات الإيطالية أهم وأثمن مجموعة مهاديات وأكثرها تنوعا فى العالم، فإنها تنطوى على فكر مستفيض وعلم غزير إلى أبعد مدى ممكن. إن ما أضافه الشمال إلى الطباعة المبكرة [أى أوائل المطبوعات] يعتبر فى كثير من الجوانب متواضعاً جداً قياسًا إلى ما قدمته إيطاليا ولكنه - أى إنتاج الشمال - على أية حال يكشف عن أن العقل الشمالى هنا وهناك وضع قدمه على الطريق. (ص ٣٧- xxxvii).

لقد كان طبع الكتب الكلاسيكية يحتاج بالضرورة إلى قوة روح المبادرة، ومن الضرورى أن نتوقف طويلاً أمام سجل الطبعات الأولى للكتب الكلاسيكية. ولابد من التأكيد على أن ما أسهم به الشمال فى مجال طبع تلك الكلاسيكيات فى القرن الخامس عشر لم يكن فذًا ولا قويًا. فقبل أن تتقدم الطباعة فى إيطاليا قام «أولرخ زيل» فى كولون بطبع كتاب «الرسميات»[1] الذى كتبه «شيشرون» وربما لأنه كان كتاباً مدرسياً ١٤٦٥-١٤٦٦. كما قام فوست وشوفر فى ماينز بطبع «الرسميات» مع كتاب «التناقضات»[2] فى طبعة أنيقة سنة ١٤٦٥ وأعيد طبعها ثانية فى ١٤٦٦. وكان «منتلين» فى ستراسبورج هو أول من طبع لـ «تيرنسى»، وكان «جيرنج» وزملاؤه فى باريس أول من طبع لـ «فلوروس»، كما كان «ريجيومونتانوس» أول من طبع فى نورنبرج كتاب «مانيليوس». وظهرت الترجمة الألمانية لكتاب تاريخ أبولونى[3] سنة ١٤٧١ وفى الأصل اللاتينى سنة ١٤٧٥ فى أوترخت، كما ظهرت فى نفس السنة فى إيطاليا كطبعة رئيسية[4]. كذلك فإن عدد الكتب اليونانية التى طبعت مترجمة إلى اللاتينية محدود للغاية

(1) Ciceron. De Officiis.

(2) Ciceron. Paradoxa.

(3) Historia Apollonii regis Tyri.

(4) editio princeps.

ويظهر من بينها: جوزيفوس فلافيوس الذى نشر كتابه فى أوجزبرج سنة ١٤٧٠، رسائل أفلاطون التى نشرت فى باريس حوالى ١٤٧٠، تاريخ تروى[١] للمؤلف ديكتس كريتنسس الذى طبع فى كولون سنة ١٤٧١، وكتاب ديونيسيوس آريو باجيتا «الآلام»[٢] الذى نشر فى بروغيز ١٤٨٠. وفى باريس سنة ١٤٩٨ ظهرت من كتاب أثيناجوراس «اكسيوخوس»[٣] وكتاب كيبس «اللوحة»[٤] أول طبعة تجمعهما معًا. وبكل المعايير بعد ذلك فإن أكبر عدد من الطبعات الأولى قد ظهر فى إيطاليا. وقد بدأت أعمال المؤلفين الإغريق تظهر بلغتها الأصلية هناك على استحياء فى البداية فى إيطاليا وقد بدأت بالكتاب النادر تقليد هوميروس[٥] فى برسيشيا حوالى سنة ١٤٧٤م الذى طبع باليونانية واللاتينية، ثم جاء بعده كتاب لـ «آيسوب» باليونانية فى ميلانو حوالى ١٤٨٠. وقد بلغ النشر باليونانية ذروته بنشر أعمال هوميروس فى فلورنسا ١٤٨٨-١٤٨٩، ولم يطبع أى كتاب يونانى كامل خارج إيطاليا طوال القرن الخامس عشر.

ومن الواضح أن ما نشر من كتب كلاسيكية فى الشمال كان قليلاً ولا يسد احتياجات الإنسيين على النحو الذى أشار إليه «ف. شولدر»، ولذلك كان على طلاب العلم هناك أن يتوجهوا إلى الطبعات الإيطالية. والحقيقة أن الصورة فى الشمال لم تكن بالقتامة التى ترددت فى المصادر المختلفة، خاصة إذا تفحصنا الأعمال الفردية التى نشرت هناك عن قرب، فهذا هو كتاب لوسيان «الأبله»[٦] على سبيل المثال ترجم من اليونانية إلى اللاتينية على يد «بوجيو» ونشر لأول مرة فى أوجزبرج وليس فى إيطاليا سنة ١٤٧٧، وقد ظهرت فى نفس المدينة ترجمة نادرة جداً لنفس الكتاب إلى الألمانية وفى نفس السنة، وكان لهذا العمل نفس

---

(1) Dictys Cretensis. Historia Troiana.

(2) Dionysius Areopagita. Opera.

(3) Athenagoras. Axiochus.

(4) Cebes. Tabula.

(5) Batrachomyomachia.

(6) Lucian. Asinus.

مكانة كتابى بوكاتشيو «ديكاميرون»[1] و «زوجة صريحة»[2]. وإذا تركنا الكتب المألوفة الشهيرة إلى تلك الغير متوقعة فسوف نجد مثلاً كتاب كاتوللوس «كارمينا»[3] أى النغم الذى لم يطبع إلا فى إيطاليا وحدها خلال القرن الخامس عشر (ست طبعات من ١٤٧٣-١٤٩٦). ولكن نشرت لنفس هذا الشاعر كاتوللوس قصيدتان فى ليبزج خلال تسعينات القرن الخامس عشر، ولكن يبدو من شكل الطباعة أنهما كانتا لأغراض مدرسية.

ويقرر هيرش فى هذا الصدد أن طبع الكتب الكلاسيكية والإنسية فى ليبزج كان متنوعاً ومتقدماً، وتميز بسعة المسافات بين السطور، والهوامش العريضة، ووجود فراغات لإتاحة الفرصة للطلاب لكتابة الملاحظات. والمتأمل فى إنتاج الطابعين فى ليبزج، يجد أنه فى ظل هذا الإنتاج ووجود الجامعة هناك تخرج جيل من الإنسيين لم يكن له نظير طوال القرن الخامس عشر فى كل الشمال، حتى فى مراكز العلم والبحث الرئيسية هناك مثل بازل، ستراسبورج.

ولقد فقدت إيطاليا احتكارها لطبع الكتب الكلاسيكية اعتباراً من مطلع القرن السادس عشر، يدلنا على ذلك تحليل تاريخ طباعة أعمال الدراميين الإغريق الأربعة الكبار: أسخيلوس، يوريبيدس، سوفوكليس، أرستوفانيس. والجدول الآتى عن طبعات أعمالهم حتى سنة ١٦٠٠ يكشف عن أن إيطاليا تأتى فى المرتبة الثالثة وليس كما كان من قبل:

الكتلة اللغوية / المؤلف	الإيطالية	الفرنسية	الألمانية	الأراضى الواطئة	متفرقات	المجموع
أسخيلوس	٢	٨	٤	١	–	١٥
يوريبيدس	٩	١٧	٣٨	٨	٣	٧٥
سوفوكليس	٤	١٦	٢١	٦	١	٤٨
أرستوفانيس	١٣	١٨	١٥	٨	٢	٥٦
الجملة	٢٨	٥٩	٧٨	٢٣	٦	١٩٤

(1) Boccaccio. Decamerone.

(2) Boccaccio. Declaris mulieribus.

(3) Catullus. Carmina.

وكانت باريس هى الرائدة فى إنتاج كتب هؤلاء الدراميين الأربعة؛ حيث بلغ إنتاجها نحو ربع مجموع ما نشر من طبعات هذه الكتب. وكانت بازل قد طبعت ما يقرب من ٥٠٪ من أعمال هؤلاء الدراميين حتى سنة ١٥٦٨ حين توقف طبع الكتب اليونانية هناك فجأة، وحلت فرانكفورت واستراسبورج محل بازل فى النصف الثانى من القرن السادس عشر. وكانت فينسيا هى المركز الرئيسى لطبع كتب هؤلاء الدراميين (بنسبة ١١٪ من المجموع الكلى) فى إيطاليا. وقد تميزت فلورنسا بطبع مختارات من أعمال يوريبيدس باليونانية (لورنزودى أليبو سنة ١٤٩٥). ويظهر أسخيلوس كأول الدراميين طبعا، ولكنه كان الدرامى الرئيسى فى السوق الفرنسية، رغم أن الطبعة اللاتينية الوحيدة من أعماله «تراجيديا»[1] خرجت من بازل سنة ١٥٤١. وكانت طبعات يوريبيدس أوسع انتشاراً فى المنطقة الألمانية. ومن الغريب ألا يكون هناك إقبال على طبع دراميات سوفوكليس فى إيطاليا، على العكس من أرستوفانيس الذى كان عليه إقبال كبير هناك.

وإذا ما حللنا هذا المضمار حيث طبعت ١٦ طبعة من ٢٨ طبعة أى بنسبة ٥٧٪ ..حيث كان هناك إقبال كبير من جانب القراء الإيطاليين على قراءة الأدب الكلاسيكى بلغتهم المحلية خلال القرن السادس عشر أكثر من قراء الشمال. ويبدو أنه فى تلك الفترة كان هناك إقبال عام على قراءة ترجمات أعمال المؤلفين الكلاسيكيين، فى حين تراجعت الدراسات الأكاديمية لهذه الأعمال.

وإذا توجهنا صوب تاريخ طباعة أعمال مؤلفى عصر النهضة فسوف نجد عدداً كبيراً من المفاجآت، فقد طبعت أعمال الإنسى الضليع «بترارك» إلى حد كبير فى مناطق الشمال فيما عدا عملان له هما: (كانزونير) و(تروينفى)[2] اللذان ظلا احتكاراً للسوق الإيطالية لأسباب معروفة. وإذا رجعنا إلى ببليوجرافية «ف.ر. جوف» «أوائل المطبوعات فى المكتبات الأمريكية» والتى سجلت المجموعة العظيمة لمطبوعات بترارك فى مكتبة جامعة كورنيل، فسوف نجد أن الطبعة

(1) Aeschylus. Tragoediae .- Basel, 1541.

(2) Petrarch. Conzoniere, Trionfi.

الوحيدة للأعمال الكاملة لـ «بترارك» هى تلك التى نشرت فى بازل ١٤٩٦ ، كما نجد أن «قصائد الرعاة»[١] نشرت لأول مرة فى كولون ١٤٧٣ ، وأعيد طبعها فى بولونيا بعد خمس وعشرين سنة ١٤٩٧ ، وفى ديفنتر ١٤٩٩ وفى فينسيا فى ختام القرن. ولا نجد فى تلك القائمة إلا طبعة واحدة من «الرسائل العائلية»[٢] هى تلك التى ظهرت فى فينسيا ١٤٩٢ .

أما كتاب «تاريخ جريسيلدس»[٣] فقد طبع فى كولون سنة ١٤٦٩ مرتين، وفى أولم سنة ١٤٧٣ ، وهناك ثلاث طبعات للترجمة الألمانية: اثنتان سنة ١٤٧٣ وواحدة سنة ١٤٨٢ . أما كتاب «أشياء للذكرى»[٤] فقد طبع فى لوفان ١٤٨٥ تقريبًا، وكتاب «علاج سوء الحظ»[٥] طبع فى إزلنجن حوالى ١٤٧٥ ، وفى هيدلبرج سنة ١٤٩٠ تقريباً، وفى كريمونا سنة ١٤٩٢ ، وقد ظل هذا الكتاب الأخير واسع الانتشار فى دول الشمال طوال النصف الأول من القرن السادس عشر. أما كتاب «الصراع السرى»[٦] فقد نشر فى أنتويرب سنة ١٤٨٩ ، وفى ديفنتر ١٤٩٨ ، كما طبع كتاب «سر العالم المعاصر»[٧] فى استراسبورج فى حدود سنة ١٤٧٣ ، وكتاب «حياة يوليوس قيصر»[٨] فى إزلنجن سنة ١٤٧٣ ، وكتاب «حياة منفردة»[٩] فى استراسبورج فى حدود ١٤٧٣ ، وفى ليون ١٤٨١ ، وفى ميلانو ١٤٩٨ . وأخيراً كتاب «مصير الإمبراطورية الرومانية»[١٠] فقد طبع مرة واحدة فى فلورنسا ١٤٧٨-١٤٧٩ . وبينما فقد بترارك جاذبيته بين الإنسيين الإيطاليين فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر فمن الواضح أنه حاز قبولاً واسعاً واحتراماً كبيرًا فى الدول الأخرى.

أما «بوكاتشيو الإنسى» (ليس بوكاتشيو مؤلف ديكاميرون بل مؤلف نساء

---

(1) Bucolicum Carmen.

(2) Epistolae Familiares.

(3) Historia Griseldis.

(4) De rebu memorandis.

(5) Deremediis utriusque Fortunae.

(6) De Secreto Conflictu curanum Saurum.

(7) Secretum de Comtemptu mundi.

(8) De Vita Julii Caesaris.

(9) De Vita Solitari.

(10) Vite dei pontifici e imperatori romani.

شهيرات[١]، سقوط الأمراء[٢]) فإن له تاريخاً مدهشاً فى طباعة كتبه يلخصه لنا «إ. ب. جولدشميت» فى كتابه «الكتب المطبوعة فى عصر النهضة» (ص ٣٥) فيقول:

«من المثير للدهشة أنه لا توجد طبعة إيطالية واحدة من كتاب [نساء شهيرات] ولا حتى باللاتينية أو المحلية قبل ١٥٠٦، بل وربما بعد هذا التاريخ. ومن الغريب أيضاً ألا توجد طبعة من كتابه الثانى «سقوط الأمراء» فى إيطاليا قبل ١٥٤٥ سواء باللاتينية أو مترجمة... ومن هذه البيانات يمكننا أن نستنتج أن كتابى بوكاتشيو كان لهما انتشار واسع فى شمال غرب أوربا، ويقرآن كقصص مسلية وممتعة عن الإغريق والرومان.. ولكن بعد مائة سنة من طباعة هذين الكتابين على يد الطابعين الأوائل لفظهما الذوق الرفيع للباحثين والمجتمع الإيطالى المتعلم، واعتبرهما من الكتب البدائية و«موضة» قديمة. إن بوكاتشيو لم يكن مؤلفاً أنيقًا».

وثمة قصة مختلفة لا تقل طرافة عن سابقتها وتدور حول تاريخ طبع أعمال «ليوناردو برونى»، فقد طبع كتابه الشهير «أخلاق إيساغوجى»[٣] كشرح وتفسير لكتاب أرسطو عن «الأخلاق»[٤] لأول مرة فى كولون سنة ١٤٧٠، ولم تكن له هناك إعادة طبع فى ألمانيا بعد ذلك، ولكن طبع ثلاث مرات بعدها فى إيطاليا ١٤٧٠/ ١٤٧١، ١٤٧٧، ١٤٩٥، ومرتين فى فرنسا ١٤٨٣، ١٤٩٧. ولم يطبع له فى إيطاليا وحدها سوى كتاب «الإيطالى الجميل»[٥]. وإذا استبعدنا ترجمات هذا الكتاب وكتاب إيساغوجى، فسوف نجد أن طبعات كتب برونى تكاد تتساوى خلال القرن الخامس عشر بين الشمال والجنوب (١٢ طبعة إيطالية، ١٠ طبعات شمالية). وإلى جانب كتاب أخلاق إيساغوجى هناك كتابان آخران لـ «برونى» طبعا خارج إيطاليا: واحد فى كولون ١٤٧٠، والثانى فى شوزنرايد ١٤٧٨. ونخلص من هذا كله إلى أن كتابات إنسيى إيطاليا كان لها رواج فى دول الشمال.

---

(1) Famous Women.

(2) Fall of Princes.

(3) Leonardo Bruni. Isagogicon moralis disciplinae.

(4) Aristotele. Ethica.

(5) Leonardo Bruni. De bello italico.

وإذا تحولنا بعد ذلك إلى «لورنزو فالا» فسوف نجد أن كتابه «اللغة اللاتينية الأنيقة»[1] قد طبع على الأقل ستة وعشرين طبعة خلال القرن الخامس عشر، نصف هذا الطبعات على الأقل طبع فى فينسيا وحدها، وبيعت نسخها على نطاق واسع، ومن بينها طبعتان طبعتا فى كولون وأربعة فى باريس، أى أن ربع هذه الطبعات كان وراء الألب. ومثال آخر وأخير من كتب المؤلف «بابتستا مانتوانوس» أو «فيرجيل المسيحى الجديد»[2] كما يطلق عليه هذا المؤلف، كان يمثل جانباً واحداً من جوانب الإنسية، وهو الجانب الذى لم يرق لمعاصريه الإيطاليين ولكنه راق كثيراً وبقوة لقراء الشمال؛ حيث امتزجت التقوى بالإنسية هناك بالفعل. ولعل الجدول الآتى يوضح انتشار كتب هذا المؤلف فى الشمال أكثر كثيراً من انتشارها فى بلده إيطاليا فى الجنوب:

الكتاب	الإيطالية	الفرنسية	الألمانية	الأراضي الواطئة	بولندا	أسبانيا
* معارضة الشعراء						
حتى ١٥٠٠	١	٥	٥	٥	–	
١٥٠١ ـ ١٥٢٠	١	١٠	١٤	٧	١	–
الجملة	٢	١٥	١٩	١٢	١	–
* القصائد						
حتى ١٥٠٠	٢	–	–	–		–
١٥٠١ ـ ١٥٢٠	٥	١٥	٤٤	٩	–	–
الجملة	٧	١٥	٤٤	٩	–	–
* النبتات الأولى						
حتى ١٥٠٠	٢	٦	٢	٥	–	–
١٥٠١ ـ ١٥٢٠	١	١٠	١٧	٧	–	١
الجملة	٣	١٦	١٩	١٢	–	١

(1) Lorenzo Valla. Elegantiae Linguae Latinae.

(2) Baptista Mantuanus = Nouva Virgilio Christiano.

ولا تختلف الكتب الأخرى لهذا المؤلف عن النمط السابق فى الانتشار والشيوع، حيث كان لها انتشار واسع في فرنسا وألمانيا والأراضى الواطئة، وكانت طبعاتها فى إيطاليا قليلة نسبياً، حيث لم يكن للإنسيين المسيحيين قبول يذكر فى إيطاليا.

لقد تطورت حركة الإنسية فى إيطاليا قبل أن تنتقل وتترسخ فى فرنسا وألمانيا بمائة عام على الأقل. وفى تلك الفترة ترسخ الإيمان والتقوى والإيمان بالغيب والشعور الدينى لدى العامة فى الشمال أعمق بكثير من الجنوب. ولذلك فإن الإنسية فى الشمال أخذت منعطفاً منع من الإقبال على دراسة الكلاسيكيات واعتبارها غاية فى حد ذاتها. وعلى العكس من ذلك وجدت الإنسية فى إيطاليا رعاة أسخياء يدعمونها، وكان هؤلاء الرعاة من ذوى الحيثيات والمكانة فى المجتمع على العكس من ألمانيا التى لم يأت التأييد والدعم فيها من الأمراء بل جاء من الأشراف الذين لم يكن لهم نفوذ وأموال فوارس إيطاليا[1] والذين دانوا بالولاء للنهضة الدينية.

وفى المناطق الناطقة بالألمانية (بما فيها الأراضى الواطئة) كانت الأعمال الكلاسيكية والإنسية تطبع على أساس انتقائى لفئة مختلفة تماماً من القراء الذين جمعوا بين النهضة الفكرية والنهضة الروحية فى آن واحد، بينما فى إيطاليا كانت الحركة الإنسية فى تلك الفترة حركة علمانية بحتة.

ولقد فضل الطابعون فى الشمال فى البداية المؤلفين الذين تدرس كتبهم ويقرؤها المدرسون والطلاب وتلك التى يستخدمها الإكليريون وعلية القومى فى المدينة. أما القراء من ذوى النزعات الإنسية الخالصة فقد كان عليهم أن يعتمدوا على الكتب التى تستورد من إيطاليا. ولم يهتم طابعو الشمال بطباعة الكتب اليونانية بلغتها الأصلية إلا اهتماماً قليلاً وبطيئا، ولم يبدأ طبع تلك الكتب إلا بعد أن صمم «نيقولاوس مارشولك» فى إيرفورت الحرف الإغريقى (وأيضاً الحرف العبرى) للطابع «وولفجانج شنك» فى سنة ١٤٩٩. فى ١٤٧٥ ألف «ريشلين» كتاب النحو اليونانى، ولكن لم يكن هناك عليه إقبال يذكر ولذلك لم ينشر ولم يطبع كتاباً باليونانية[2]

(1) Maecenas.

(2) Micropeideia.

إلا بعد هذا التاريخ[1] بربع قرن بحروف مارشولك المذكورة.

وفى فترة ثورة الإصلاح الدينى كانت دراسة الكلاسيكيات قد رسخت. ولكن عداء ثورة الإصلاح الدينى ووقوفها ضد كل ما هو بابوى وتركيزها منذ البداية على البساطة، كل هذا خلق اتجاهاً سلبياً نحو المدارس الفكرية، وخاصة فى المناطق التى سيطر عليها البروتستانت؛ مما انعكس بشدة على تدريس وتعلم اللغات الكلاسيكية. ولقد ثار على هذا الوضع التعليمى المتدهور للكلاسيكيات كثير من زعماء الإصلاح من بينهم «ميلانكثون»، «إيبرلين فون جونزبيرج»، «جوهان برنز»، «جوهان ستورم»، وكتب مارتن لوثر فى إحدى رسائله[2] التى طبعت سنة ١٥٢٤ يقول: «قد تسألون لماذا نتعلم اللاتينية، اليونانية، العبرية؟.. لأنها لغات الله». لقد تأثرت الحركة الإنسية فيما وراء الألب بإحياء العلوم فى إيطاليا، وخاصة فى المراحل الأولى.. ولكن هؤلاء الذين احتذوا النهج الإيطالى المباشر قلة قليلة. وكانت الجامعات الألمانية قد أخذت بالفعل بين ١٤٥٦ و ١٤٧٠ فى تدريس الحركة والفلسفة الإنسية على نحو ما نصادفه فى جامعات هيدلبرج، ليبزج، إنجولشتادت، فيينا.

وفى فرنسا بدأت طباعة كتب الإنسيين بداية قوية على النحو الذى أوضحته سابقاً؛ حيث ركزت مطابع باريس على طبع الكتب البحثية الجديدة فى سبعينات القرن الخامس عشر، وذلك بفضل تأثير «فيشيه»، «هنلين»، «غليوم ثارديف»، «روبارت جاجوين». وبعد عقد واحد من الطباعة الفرنسية تساوت نسبة الكتب الإنسية المطبوعة فى فرنسا مع تلك المطبوعة فى ألمانيا تقريباً. وكانت المطابع الفرنسية - وربما القراء الفرنسيون - يفضلون كتب التاريخ على غيرها من الموضوعات. وفى نهاية القرن الخامس عشر كانت الكتب المترجمة قد أصبحت شائعة بحيث أصبح كثير من مؤلفات المؤلفين الكلاسيكين منقولاً إلى اللغات المحلية. وكان على رأس هؤلاء المؤلفين: أرسطو الذى ترجمت معظم أعماله،

(1) N. Marschalk. Orthographia.

(2) Martin Luther. An die Ratsherrn.

قيصر، شيشرون، جوزيفوس فلافيوس، ليفى، أوفيد، بطليموس، ساللوست، ترينسى، سينيكا، سيتوينوس، فاليريوس ماكسيموس، فيجيتيوس وغيرهم. ويكشف استعراض تاريخ طباعة كتب شيشرون عن أن باريس كان لها قصب السبق فى هذا الصدد. وفى الفترة ما بين ١٤٦٥ ـ ١٤٧٩م كان قد طبع من أعمال شيشرون ١٢٦ طبعة كان توزيعها الجغرافى على النجو الآتى:

١ ـ فينسيا ــــــــــ ٣٢ عنوانا بنسبة ٢٦٪.

٢ ـ روما ــــــــــ ٢٢ عنوانا بنسبة ١٧٪.

سوبياكو

٣ ـ ميلانو ــــــــــ ٢٠ عنوانا بنسبة ١٦٪.

٤ ـ باريس ــــــــــ ١٣ عنوانا بنسبة ١٠٪.

٥ ـ كولون ــــــــــ ١١ عنوانا

٦ ـ نابلى ــــــــــ ١٠ عناوين أقل من ١٠٪ لكل منهما.

أما الطبعات الأولى التى كانت تحتاج إلى مبادرة وجرأة فإنها جاءت على النحو التالى:

١ ـ روما ــــــــــ ٦.

٢ ـ كولون ــــــــــ ٥.

٣ ـ فينسيا ــــــــــ ٣.

٤ ـ باريس

ميلانو ــــــــــ ٢ لكل منهما.

٥ ـ بولونيا

نابلى ــــــــــ ١ لكل منهما.

وتظهر باريس على قدم التعادل مع ميلانو أو تالية لها مباشرة؛ مع أنها تأخرت خمس سنوات عن روما وكولون فى دخول الطباعة.

لقد كان قراء الكتب الكلاسيكية والإنسية فى فرنسا يختلفون عن نظرائهم فى ألمانيا؛ حيث كان الأشراف وعلية القوم فى المدينة يقومون بدور هام فى دعم العلوم الجديدة على ما أشرت من قبل. وقد نقل هيرش عن «هانز بارون» وصفه لخصائص المجتمع المتعلم فى فرنسا فى ذلك الوقت فذكر أن «رجال المناصب القيادية فى المدن لم يكونوا يمثلون أية طبقة تجارية أو صناعية ذات بعد قومى ولكنهم شكلوا فى الواقع مجرد طبقات أرستقراطية محلية ذات اهتمامات إقليمية بحتة. . . . وقد استمر تراث فروسية العصور الوسطى هو العنصر السائد. . . ولم تنتعش الدراسات الكلاسيكية وتزدهر إلا بين الإكليريين فى الدواوين الفرنسية، وداخل هذه الدوائر ـ خلال العصور الوسطى ـ وجدت علاقة متينة بين العقل والكلاسيكية اللاتينية للإنسية الإيطالية». والحقيقة أن إنتاج المطابع الفرنسية فى القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر يؤكد صدق تلك المقولة، فهو يعكس جزئيا صبغة إقليمية محلية بحتة، مع تركيز واضح على أدب الفروسية، كما يعكس جزئياً من حين لآخر روح القيادة والمبادرة نحو العلوم الجديدة، والبحث العلمى الخلاق، ومنهم على سبيل المثال «جودوكوس باديوس آسينيوس.

وإذا ولينا وجوهنا شطر هولندا وبلجيكا فسوف نجد دراسة مسحية جيدة قام بها «ج. د. بينتر» فى المجلد التاسع من «فهرس الكتب المطبوعة فى القرن الخامس عشر» والموجودة فى مكتبة المتحف البريطانى، وقد جاء فى هذا الدراسة أن هولندا قد أنتجت ١٥٨ عنواناً من الكتب الكلاسيكية، ولكنها فى معظمها قطع صغيرة من الواضح أنه قد قصد بها أن تستخدم ككتب دراسية لطلاب المدارس وتلاميذها؛ وربما كان ذلك تحت تأثير جماعة إخوان الحياة العامة ومجامع بيرسفيلد و ويندشايم. أما بلجيكا فقد أصدرت ٥٩ عنواناً، أى حوالى ثلث عناوين هولندا. . ولكنها فى مجموعها مجلدات كبيرة وهامة.

من بين المؤلفين الذين نشرت أعمالهم فى هولندا ـ والتى سجلها بينتر فى دراسته ـ محاورتان من محاورات «لوسيان»، بعض كتب أفلاطون، واثنتان

من أوائل الطبعات إحداهما لـ «سيدونيوس أبوللناريس» والثانية لـ «فيجتيوس» (وكلاهما طبعتا فى أوترخت حوالى سنة ١٤٧٤). أما فى بلجيكا فقد كان من بين أهم المؤلفين الذين نشرت أعمالهم: جوفينا، بيرسيوس، أوفيد. أما فيما يتعلق بالمؤلفين الإنسيين الذين نشرت كتاباتهم فى الأراضى الواطئة فإننا نصادف بترارك، برونى، بوجيو، فليلفو، وبالطبع بابتستا مانتوانوس. وقد حصر بينتر ٦٣ عنواناً من كتب الإنسيين نشرت فى هولندا، و٢٨ عنواناً فقط لهم فى بلجيكا. وقد أشار أيضاً إلى أرقام الكتب التعليمية الخاصة بالمدارس (كتب تعليم القراءة والكتابة واللغة) وقد بلغت ٣٧٩ كتاباً فى هولندا و ٦١ كتاباً فى بلجيكا.

ويتفق مؤرخو النهضة ومؤرخو العلوم اتفاقاً أساسياً على أن الإنسيين - كقاعدة عامة - لم يكن لهم اهتمام بالعلوم، وما تصادف وجوده فى سجلاتهم[1] من كتب علمية فإن مبعثها أن تكون كلاسيكية الأصل أو من الكتب العربية - اللاتينية التى وضعها العرب حول كتب أرسطو وحواشيها. وقد أشار بعض الكتاب إلى أن الإنسيين بهذا المسلك قد أساءوا عرضاً وبدون قصد إلى العلوم البحتة والطب، وأتحفوا الآداب بكتب رائعة، فى الوقت الذى كانت فيه العلوم البحتة والطب فى حاجة إلى تطبيق المنهج العلمى عليها. وقد أشرت من قبل إلى الدراسة التى قام بها «جورج سارتون» حول الكتب العلمية والطبية المنشورة فى القرن الخامس عشر، والتى وزعها على الفترات التاريخية التى كتبت فيها بدايةً بصرف النظر عن تاريخ النشر، حيث وجد سارتون أن ١٢٪ من المؤلفين ينتمون إلى الفترة الكلاسيكية وقبل الحقبة الكارولنجية (أى قبل الميلاد وبعد الميلاد حتى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى). ووجد سارتون أن ٦٥٪ من الكتب تقريباً فى العلوم والطب هى لكُتّاب من القرن الخامس عشر. ومهما يكن من أمر هذه النسب والأرقام فلابد من أن نضع فى اعتبارنا أن كثيراً من الأعمال الكلاسيكية كانت كبيرة الحجم.. غزيرة المحتوى.. علمية الدراسة، فى حين أن

(1) Repertoire.

الغالبية العظمى من الأعمال المؤلفة فى القرن الخامس عشر كانت أعمالاً سريعة سطحية وليست علمية بالمعنى الدقيق، وكانت عبارة عن كتيبات متواضعة فى محتوياتها ومعالجتها للمادة، من بينها على سبيل المثال: كتب تفسير الأحلام وتدبير المنزل، أى أنها كتب لم توجه للمتخصصين بل للعامة. ويرى البعض أن ما أسهم به الإنسيون فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية لا يعدو أن يكون منهجا فى نقد وعرض الكتب العلمية على نحو ما قام به أحدهم عندما عرض لكتاب «بلينى» فى التاريخ الطبيعى[1] وقال عنه إنه أول كتاب علمى تخرجه المطابع، وقد أثار برأيه هذا زوبعة كبيرة من الجدل والنقاش حول ما جاء فى كتابه.

لم يكن الطابعون لديهم القدرة على المبادرة باختيار النصوص العلمية الأساسية، وإنما تركوا ذلك لخلصائهم ومستشاريهم. وأول كتاب علمى حديث نشر فى القرن الخامس عشر الأوربى كان استثناء من هذه القاعدة، لأن الطابع والعالم كان شخصاً واحداً هو «ريجيومونتانوس» (= جوهان موللر فونكونجزبرج). وقد طبع هذا الكتاب فى نورنبرج بين ١٤٧٢ و١٤٧٦.

لقد قام ريجيومونتانوس بجمع كتابات أستاذه الراحل «جورج بيرباخ» إلى كتاباته هو، وأخرج منها هذا الكتاب الذى يعتبر بشهادة العلماء أساس علم الفلك والرياضيات الحديث. ومن المعروف أن بيرباخ وريجيومونتانوس كانا صديقين للإنسى الإغريقى الكاردينال «بيزاريون». ويبدو من دراسة الإنتاج الفكرى الباكر أن الطابعين والناشرين - وخاصة فى القرن السادس عشر - كانوا ميالين إلى إنتاج الأعمال العلمية المعاصرة التى تضم النظريات العلمية الحديثة أو تعالج نتائج البحوث بأسلوب جديد، ومن المؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك إلا إذا كانوا واثقين من أنهم يستطيعون تسويق تلك الكتب. وهذا الاتجاه له معنى واحد هو أنه كان هناك عدد كاف من القراء راغبين فى شراء كتابات مؤلفين من أمثال: ريجيومونتانوس، بيرنجوتشيو، برونفلز، أجريكولا، فيساليوس، كوبرنيكوس، فينى. وقد لاحظ الباحثون أن الدراسات العلمية المتقدمة كانت تكتب باللغات المحلية أكثر مما تكتب

(1) N. Leonicenus. De Plinii aliorumque in medicina erraribus. - 1492.

باللاتينية، بل وتكتب بالعادية أكثر مما تكتب باللغة العلمية على نحو ما نصادفه فى كتابات «كوبرنيكوس» ١٥٤٣، «أنطونيو فرانشيكو دونى» ١٥٥٢، «بيرنجوتشيو» ١٥٤٠، «أجريكولا» ١٥٥٦، «فيسال» ١٥٤٣، «جزنر» وكتاباته الكثيرة حول علم الحيوان وعلم النبات ١٥٥١ ـ ١٥٨٧. وقد لقيت كتب العلوم التطبيقية رواجاً سريعاً. ولقد ساعدت الطباعة على نشر المعلومات العلمية والطبية بين الناس. كما ساعد التداول السريع على نطاق واسع للكتب على فحص ونقد المعلومات الواردة فيها، وأدى هذا بالمؤلفين إلى مراجعة المادة العلمية وتنقيحها فى الطبعات التالية، وفى بعض الأحيان إلغاء الكتاب القديم كلية ونشر كتاب جديد أفضل منه وأحسن. وفى بعض الأحيان نصادف كتابا رديئاً طبع بعد مائة سنة من اختراع الطباعة حول موضوع علمى هام، ويستمر تداوله بين القراء ولا يقوم مؤلفه بتنقيحه أو سحبه من التداول وتقديم آخر بدلاً منه، ولكن مثل هذا الكتاب يتعرض لنقد شديد من حين لآخر على صفحات الكتب والدوريات. ومن بين أيادى الطباعة البيضاء على تقدم العلوم والطب: الاستخدام المتزايد للإيضاحيات والصور فى كتب تلك الموضوعات وخاصة فى كتب النبات والجراحة.

وتكشف الوثائق والمصادر التى وصلتنا من العقود الأولى للطباعة عن أن القارئ المستنير كان يستطيع بمجهود بسيط أن يحصل على الكتب التى يريدها أياً كان مكان طباعتها ونشرها، ولدينا خطابات ووثائق وفهارس مكتبات شخصية وإشارات داخل كتب كلها ترجع إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر تثبت أن الشخص القارئ الذى لديه روح المبادرة والصبر والمال الكاف لم يكن ليكتفى بالكتب التى تنشر فى محيطه أو دولته، بل يشترى الكتب من أى مكان يريد. كتب بترارك التى نشرت فى نورنبرج فى سبعينات القرن الخامس عشر اتخذت طريقها إلى إيطاليا، وكتب هوميروس التى نشرت فى فلورنسا سنة ١٤٨٨م اتخذت سبيلها إلى دول الشمال، ومما كشفت عنه تلك المصادر أنه كلما انخفض مستوى التعليم كلما انخفض معدل قراءة الكتب التى نشرت بعيداً، وكلما قنع

الأفراد بما نشر فى محيطهم. وكان أنصاف المتعلمين الذين لا يقرأون إلا بلغتهم المحلية لا يبذلون أى جهد فى الحصول على الكتب خارج دائرتهم الضيقة.

لقد أعجبت جميع فئات القراء بالطريقة الجديدة فى إنتاج الكتب، ولقد خرج من بطن هذا الإعجاب «القارئ الجديد»، الشخص الذى كان فيما مضى ينتمى لجماعات تحب الكتب ولكنها لا تستطيع الوصول إليها أو الحصول عليها، إنه هو ذلك القارئ الذى أفاد كثيراً من الطباعة.

لقد كانت الكتب فيما مضى يتم إنتاجها فردياً بمعنى نسخة بنسخة ولفرد بفرد وحسب الطلب، وكما ذكرت فى كتاب «الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى: الغرب المسيحى» كانت الكتب المخطوطة مرتفعة الثمن جداً إلا مع استثناءات قليلة، ولم يكن «كل شخص» لديه الفرصة لكى يقرأ أو يقتنى الكتاب. ولابد وأن نعترف بأنه لولا الطباعة ما انتشر التعليم على هذه الصورة التى عليها الآن سرعة ومساحة.

الطباعة إذن خلقت القارئ الجديد، والقارئ الجديد هو الذى ساعد على دعم الطباعة ورسوخها ونجاحها وتقدمها، وأتاح لها سوق إنتاج الجملة الحالى. إنه القارئ الجديد الذى كان مادة للصراعات الدينية والاجتماعية ـ السياسية فى القرن السادس عشر، وهو الذى أعطى الدعم العام لهذه الحركات التقدمية، وهو نفسه كان ميدان الدعاية والترويج لتلك الحركات. إنها الطباعة التى جعلت من كل شخص «شخصا عاماً». لم يعد القارئ الجديد هو القارئ الذى ينتمى إلى الطبقة المحظوظة اقتصاديا. ولقد ارتفع عدد القراء ارتفاعاً لم نعهده فى أى وقت مضى، لقد جاء القراء بعد الطباعة من بين الأطفال الذين لم يكونوا قبل ذلك قادرين على أن يذهبوا إلى المدرسة، وجاءوا من بين النساء اللائى لم يكن لهن من قبل حظ كبير فى قراءة الكتب واقتنائها، وجاءوا بكل تأكيد كذلك من بين الطبقات غير المحظوظة اقصاديا. إنه من أجل «القارئ الجديد» صدرت معظم الكتب البسيطة السهلة: كتب التقوى والورع، التقاويم، فروخ الأخبار، كتب الدعاية والإعلام،

صكوك الغفران، كتب عن تربية الأطفال[1]، كتب عن الحمل والولادة[2]، كتب عن كيفية إعداد الخمور[3]، كتب عن علاج الخيول المريضة[4]، كتب عن كيف تكون فلاحاً ناجحاً[5]. وكما سبق أن ذكرت فإن التغير فى تركيبة القارئ الجديد والقارئ العام كانت تؤثر تأثيراً أساسياً فى اختيار النصوص التى تطبع وتنشر. ولقد تزايد عدد الكتب التى تنشر باللغات المحلية، وارتفعت نسبة الكتب المطبوعة لغير المهنيين - أى للقارئ العام ورجل الشارع - وزادت نسبة الكتب التى قصد بها أن تستخدم فى الحياة اليومية، زادت وارتفعت نسب هذه الكتب عقداً بعد عقد، بل وسنة بعد سنة كلما تقدمت الطباعة فى العمر والجودة والسرعة.

لقد حدث تطور آخر وبنفس الإيقاع فى اللغة والأسلوب، ذلك التطور الذى بدأ قبيل الطباعة بقليل ولكن الطباعة بلورته وساعدت على نموه. إن هذا التطور حدث بسبب التحول من طريقة الاتصال الشفوى السماعى إلى طريقة الاتصال المرئى المكتوب، حيث انتشر الاتصال المكتوب بين قوم بدأوا لتوهم يفكون شفرة الكتابة والخط ببطء وربما فى بعض الأحيان بصعوبة.. وجاءت الطباعة لتساعدهم على القراءة والاتصال المكتوب.

لقد كانت المنشورات والإعلانات من قبل تكتب بطريقة وأسلوب مناسب لتلاوتها وإلقائها على الناس من قبل منادى المدينة، أما الآن فقد غدت تكتب بأسلوب يناسب القراءة الصامتة، سواء لصقت على الجدران والأبواب أو وزعت على الناس فى الأسواق والميادين العامة. وكان المؤلفون الراغبون فى الوصول إلى القاعدة العريضة من القراء يكتبون بأسلوب سهل بسيط، بعيد عن التكرار الممل والجمل والمفردات المتقعرة والمصطلحات العلمية الجافة.. أساليب أقرب لتلك التى كانت تستخدم فى مخاطبة الجموع شفوياً. وكان بعض الكتاب يستخدمون أسلوب الحوار حتى يقدموا قضيتهم إلى القراء بطريقة تفاعلية بين

(1) Metlinger. Regiment der jungen Kinder.

(2) Ortloff von Bayereand. Büchlein Wie Sich die Schwangeren, Gebärenden und Wöchnerinnen halten sollen.

(3) Schrick, Von ausgebrannten Wassern.

(4) Meister Albrecht. Arzneibuch der Rosse.

(5) Bauern Practica.

المؤلف والقارئ. لقد أصبح الحوار (ديالوج)[1] سلاح دعاية خطيرة فى يد المصلحين ودعاتهم من أمثال «هوتين»، «مورنز» وكثيرين غيرهم. والغريب أن كثيراً من النصوص التى كانت تكتب مقفاة مثل الأغانى[2] كان يعاد كتابتها نثراً. وقد شرح لنا أحد محررى الكتب[3] ذلك سنة ١٤٩٨م بقوله: إن هذه الطريقة تجعل من النصوص أكثر شعبية وقابلية لدى دوائر أوسع من القراء. ولقد تعود الطابعون فى الفترة الأولى للطباعة أن يصدروا الكتب بطريقة تجعلها صالحة للقراءة الجهرية صلاحيتها للقراءة الصامتة. وعلى سبيل المثال: ورد فى حرر متن أحد الكتب[4] أن هذا الكتاب موجه «لمن يقرأ ولمن يستمع»[5]. وتكررت هذه العبارة وأمثالها فى العديد من الكتب.

تقودنا دراسة الكتب المطبوعة فى القرن الخامس عشر والسادس عشر بالذات إلى أن عدداً كبيراً من الأفراد - رجالاً ونساءً وأطفالاً من البسطاء - تعلموا كيف يقرأون. ولم يكن التقدم صوب هذا الاتجاه متساوياً ومتوازناً، فالكتب التى كانت موجهة للطبقات الدنيا لم تحظ بنفس القبول فى كل مكان، بل كان القبول متفاوتاً بطبيعة الحال.. فقد انتشرت فى عموم الإمبراطورية الرومانية المقدسة الإعلانات العريضة وكتب الصناعات والمهن الشعبية، ولم تكن بدأت الانتشار فى دول ماوراء الألب الأخرى، وكانت غائبة تقريباً حتى ربما ١٥٠٥م عن الساحة الإيطالية، وربما كان السبب فى ذلك أنه حتى الطبقات الدنيا هناك لم تكن راغبة فى تحسين معلوماتها ومعرفتها المهنية عن طريق القراءة، أو أن المسئولين عن اختيار النصوص للطباعة لم يكونوا يعتبرون الرجل العام سوقاً هامة للكتب، ومن ثم أغفلوا هذا النوع من الكتب المهنية والحرفية الشعبية.

وفى تصورى أن كلا الرأيين صواب، فهناك حقيقة تاريخية ثابتة وهى أن البسطاء من الرجال والنساء (عامة الشعب) فيما وراء الألب تعلموا كيف

(1) Gresprăch, Zwiegesprăch, Discours.

(2) Chansons de geste.

(3) Tristan und Isolde. - Augsberg. - 1498.

(4) Golden Spiegel.

(5) Wer dies liest und hört.

يقرأون، فى حين أن عامة الشعب فى إيطاليا لم تشأ أن تتعلم كيف تقرأ، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى البنية السياسية والاجتماعية، وخاصة فى المناطق الناطقة بالألمانية والأراضى الواطئة، حيث كانت رغبة الناس فى التعليم والقراءة شديدة تحت تأثير الحركات الصوفية والسياسية والقلاقل الاجتماعية والاقتصادية قبل حركة الإصلاح وما صاحب الإصلاح الدينى من تطورات.

لقد توجه المؤلفون والمترجمون والطابعون بكتبهم أيضا إلى القارئ المحتمل، وهناك إشارات وردت فى كتب ذلك الزمان على قدر كبير من الأهمية تحدد نوعيات هذا القارئ فى كل اللغات الأوربية[(١)] الذى يتوجهون إليه بهذا الكتاب أو ذلك، وعلى سبيل المثال: كتاب «عقيدة الحكمة»[(٢)] الذى ينسب إلى «جيى دى روى» وكان فى الأصل مكتوباً باللاتينية سنة ١٣٨٨م.. ذلك الكتاب كان له قبول شعبى واسع، وقد طبع إحدى وعشرين مرة فى القرن الخامس عشر ابتداءً من سنة ١٤٧٨م، وكان الهدف من ترجمته إلى الفرنسية أن ينتفع به كل الناس وخاصة البسطاء منهم[(٣)]. وعلى الرغم مما يبدو فى عنوان الكتاب من أنه قد وضع لرجال الكنيسة لتلاوته على المؤمنين؛ فإن آلاف النسخ التى طبعت منه (أكثر من ستة آلاف نسخة) تشير إلى أنه فعلاً وصل إلى أيدى البسطاء من القراء.

والمثال الثانى الذى نسوقه فى هذا الصدد ربما كان أول كتاب فى آداب السلوك أو الإتيكيت أو على الأقل من أوائل تلك الكتب فى حدود علمنا، ويدور حول آداب المائدة[(٤)] وقد وجهه المؤلف إلى الأطفال المحتاجين إلى تلك الآداب ولكل الناس أيضاً[(٥)]. وربما لا يكون هذا الكتاب ملائماً للناس البسطاء من الرجال

---

(١) من أمثلة الفئات التى ورد ذكرها وترددت فى أوائل المطبوعات الأوربية:
Simples gens, gens Laiques, Jeglicher Mann, gemeiner Mann, indoctus.

(2) Guyde Roye. Doctorinal de Sapience.

(3) tanscrit... pour le Salut de Son âme et des âmes de Son peuple et especialement des samples gens Laiques.

(4) Contenance de La table.

(5) enfant, qui Veult astre Courtoys'

والنساء والأطفال كما تمنى المؤلف، ولكن فكرة تعليم آداب الجلوس إلى المائدة هى فى حد ذاتها تستحق الوقوف عندها فى كتاب مطبوع فى ذلك الوقت المبكر. ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب قد طبع سبع مرات فى ليون خلال القرن الخامس عشر وله نظير فى اللغة الألمانية أيضاً فى نفس القرن[١].

ونموذج ثالث من كتاب «رقصة الموت»[٢]. ذلك الشيء الذى يسوى بين الجميع والذى وجهه المؤلف إلى كل الناس فى كل الطبقات فى طبعته سنة ١٤٨٦ بباريس وما جاء بعدها من طبعات.

ونموذج رابع من كتاب «عقيدة البنات»[٣] وهو كتاب شعر عن السلوك المهذب للبنات والذى طبع عدة مرات فى ليون اعتباراً من نهاية ثمانينات القرن الخامس عشر. والحقيقة أن هذه الكتب رغم أهميتها فقد كانت قليلة نسبياً، وهناك طبعات بأكملها اختفت ولم يصل إلينا إلا خبرها فقط. وكما رأينا فإنها كانت موجهة خصيصاً إلى الأطفال، الشباب وخاصة البنات ولكل الناس من جميع الطبقات حتى البسطاء منهم.

وفى كتاب للمؤلف «لانزكرانا» سنة ١٤٨٤ يقول فى المقدمة:

«لقد وضعت هذا الكتاب واستخدمت فيه ألفاظاً بسيطة لأبين كيف يجب أن يعيش الرجال! لقد فعلت هذا من أجل الفقير والجاهل، من أجل النشيط والكسول، من أجل النزق الهجن، من أجل كثير النسيان ومن أجل البسيط»[٤].

ولقد كتب كتاب «طريق السماء»[٥] كما ورد فى مقدمته «لكى يقرأ على ـ أو يقرأ بواسطة ـ الناس البسطاء». وكثير جداً من الكتب فى كل أنحاء أوربا فى القرن الخامس عشر والسادس عشر ـ ومن بينها كتب خرجت من أوجزبرج وأولم ـ كانت توصى بالكتب المطبوعة باللغات المحلية «إلى كل الناس».

---

(1) Tischzucht. - Heidelberg, 1492.

(2) Dance macabre. - Paris, 1486.

(3) Doctinal des Filles.

(4) Lanzkranna. Himmelstrasse.

(5) Heavenly. Road.

ونصادف الدعوة إلى القراءة وبان القيمة الأخلاقية لها فى العديد من مؤلفات ذلك الزمان على نحو ما نصادفه في كتاب الغفران المطلق[1] الصادر سنة ١٤٩٣، وبشكل موسع فى كتاب آخر للغفران المطلق سنة ١٥١٤م، وهو ما يعيد إلى أذهاننا ما كان يدعو إليه آباء الأديرة وتعاليم جماعة إخوان الحياة العامة ودعوة رجال الإصلاح الدينى للمؤلفين بأن يقرأوا ويفهموا الكتابات المقدسة باللغة المحلية. لقد ذكر «جيلر فون كيزربرج» - الواعظ الكبير - فى مقدمة ترجمته لكتاب جيرسون «العمل الثلاثى»[٢] الذى طبع فى ستراسبورج سنة ١٥١٠م؛ أن تلك الترجمة «قد أعدت للقساوسة والإكليريين الجهلة والبسطاء، ولعامة الناس غير المتعلمين، ولرجال الكنيسة، للأطفال والشباب، وهؤلاء الذين يرعون المرضى». وكانت مثل هذه الدعوات للقراءة قليلة ونادرة نسبياً فى الكتب الإيطالية، ولم أجد سوى إشارة واحدة فى كتاب للمؤلف «دومينكو كافالكا»[٣] يوصى فيه بكتابة ذلك إلى عموم القراء ولكل الناس.

هذه الإشارات وغيرها مما لم نقف عليه تؤكد اهتمام المؤلفين والطابعين بالقراء الذين كانوا يتوجهون إليهم بكتبهم، رغم أنها إشارات عامة يتوجهون بها إلى أكبر عدد ممكن من الناس الذين يمكن أن يشتروا الكتاب وخاصة القارئ الجديد (الشخص العام). وهذه الإشارات - أو قل هذا الشكل من أشكال الإعلام - والإعلام عن الكتاب يفترض قدرة الشخص العام - سواء كان رجلاً أو امرأة أو طفلاً أو شاباً - على قراءة هذه التوصيات بالقراءة. أما تعليم أو تدريس كيفية القراءة فقد كانت مهمة مدرسى المدارس والجامعات ورجال الدين، ثم أخيرا «المصلحين». ومن المؤسف حقيقة أن كتب تاريخ التعليم لم تحتفظ لنا بمعلومات كافية عن الطرق المختلفة لتعليم القراءة وعدد الناس الذين أفادوا من هذا الفن

(1) Plenary. (وهو (اسم لله)

(2) Gerson. Opusculum trapartitum translated by Geiler Von Keysersberg. - Strassburg. - 1510.

(3) Dominico Cavalca. Trattato di pazienza, 1488.

الجديد: فن القراءة.. ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله، فقد وصلتنا بعض القطوف حول هذه الجزئية؛ حيث جاء فى أحد كتيبات مارتن لوثر[1] ما نصه:

«يقول الناس: ما فائدة تعليم الأطفال الذين لن يصبحوا قساوسة ورهبانا وراهبات؟.. أيها السادة: نحن ننفق كل سنة مبالغ طائلة على الأسلحة النارية والطرقات والجسور والدور وغيرها من المرافق، كل ذلك لتأمين السلم والحياة السعيدة لكافة المدن. إذن لماذا لا ننفق المزيد أو على الأقل مثل هذه المبالغ على الشباب المحتاجين. إن إهمال الطالب هو أسوأ من إفساد عذراء... هناك سبب وجيه لإنشاء المدارس النموذجية فى كل مكان.. ذلك أننا نريد رجالاً مؤهلين ونساءً مؤهلات، رجالاً للحكم ونساء لتدبير المنزل وتربية الأطفال وملاحظة الخدم».

وبالنسبة للأطفال الذين كانوا يتوجهون للخدمة فى البيوت أو تعليم حرفة أو صنعة، طالب مارتن لوثر بالحد الأدنى من التعليم (ساعة أو ساعتان يومياً). ونفس هذه الدعوة للتعليم والقراءة رددها مصلحون آخرون وكتاب عاديون، فهذا هو «جوهان كولروس» فى مقدمة كتاب له عن تعليم القراءة والإملاء[2] نشر فى بارل سنة ١٥٣٠:

«إن مما يرضى عنه الله أن يطبع نص الكتاب المقدس باللغة المحلية، لأن ذلك سوف يغرى الكثيرين بأن يرسلوا أطفالهم إلى المدارس الأولية (ممن لا يستطيعون إرسال أولادهم إلى المدارس التى تدرس الكتاب المقدس بالعبرية أو اليونانية أو اللاتينية). ومن المؤكد أن بعض أولياء الأمور أنفسهم، والصناع والبنات سوف يحاولون تعلم الكتابة والقراءة بالألمانية».

لقد غالى بعض دعاة القراءة فى دعوتهم وأغروا بالقراءة إلى حد التبسيط

---

(1) Martin Luther. An die Ratsherrn, 1524.

(2) Johann Korloss. Enchiridion, das ist Handbüchlein deutscher Orthographie .- Basel: 1530.

المخل لدرجة دعت أحد كتاب ذلك العصر[1] إلى أن يقول: «لقد غدا من المألوف اليوم (١٥٣٣)، استخدام العناوين المزخرفة.. التى تعد بجبل من الذهب كى تغرى القارئ البسيط بالشراء، إنها تخدع من أجل المال، لقد نشرت كتب تعد القراء بتعلم فن القراءة فى ٢٤ ساعة ولكن ذلك أمر مستحيل!».

وفى فرنسا كانت الدعوة إلى التعليم والقراءة تأتى عادة من جانب رجال الدين الكاثوليك؛ حيث قرر مجمع الأساقفة فى سنة ١٥٢٦م ضرورة إنشاء مدرسة فى كل أبرشية، يقوم فيها القسيس والإكليريون بتعليم الأبجدية والقراءة والعقيدة.

ولعل أفضل ما كتب فى هذا الصدد ما نجده فى كتاب «اتجاهات التعليم»[2] الذى وضعه «ج. ل. فيفز» سنة ١٥٣١م والذى نقتبس منه العبارة الآتية:

«إن الرجل الذى ينشد الحكمة يجب أن يبحث عنها فى الكتب أو عند هؤلاء الرجال الذين يحلون محل الكتب... فلننشئ مدرسة فى كل مدينة، ويعمل فيها مدرسون ذوو علم واستقامة وحصافة. ولتدفع لهم أجورهم من الخزانة العامة. وليكن المدرس على معرفة تامة باللغة الأم للتلاميذ لأنه عن طريق اللغة المحلية يستطيع أن يعلمهم بسهولة وإمتاع. وعلى المدرس أن يستحضر فى ذهنه تاريخ لغته الأم».

وفى كتاب آخر لنفس المؤلف عن «تعليم المرأة المسيحية»[3] يقول فيفز سنة ١٥٢٩: «ليس هناك امرأة فاضلة ترفض التعليم من الكتب؛ إنها من الآن فصاعداً يجب أن تدرس وتقرأ كتب الرجال المقدسين والحكماء العاقلين، وإذا لم

---

(1) Peter Jordan. Laienschule. - Mainz, 1533.

(2) J. I. Vives. De Tradendis disciplinis, 1531.

ولأهميته ترجم إلى الإنجليزية:

F. Watson (trans.). On education. - Cambridge, 1913.

(3) J. V. I. Vives. De institutione faeminae christianae. - 1529.

وأنظر حول هذا الكتاب:

F. Warson. Vives and the Renaissance Education of Women. - New York, 1923.

تفعل ذلك من أجل شخصها فعلى الأقل من أجل صالح أولادها، حتى تعلمهم وتنشئهم تنشئة صالحة».

ورغم هذا التركيز على فوائد القراءة وأهميتها إلا أنه لم تصلنا إلا أعداد قليلة من كتب مبادئ القراءة والكتابة وغيرها من الأدوات التى كانت مستخدمة آنذاك فى تعليم الأساسيات. حيث من المعروف أن بعض الأبجديات كانت تكتب على ألواح، وبعضها الآخر كان يلحق «بالكتاب الأساسى»[1] الذى يحفظ عن ظهر قلب، والذى كان يستخدم كنص أساسى لتعليم فن القراءة. وبعض الأبجديات كان يكتب على بطاقات تشبه ورق الكوتشينة. والحقيقة أننا لا نعرف إلا أقل القليل عن الأدوات التى كانت تستخدم فى تعليم الناس كيف يقرأون، حتى نقف على كيفية تطورها وأثرها فى نشر التعليم والقراءة.

ومن المؤكد أن حركة الدعوة إلى القراءة والتعليم كانت قد بدأت قبل اختراع الطباعة وقبل حركة الإصلاح الدينى الشهيرة، ولكن الطباعة ساهمت مساهمة فعالة فى توسيع رقعة التعليم وبسط القراءة فى كل الأنحاء وساعدت فى خلق أدواته. ويمكننا التأكد من امتداد التعليم والقراءة إلى فئات أكثر وأكثر من ذلك الكم الهائل من الإعلانات العريضة والمكتبات والكتب التى قذفت بها المطابع إلى السوق، كما يشهد على ذلك الأغنية التى كان يرددها داعى الشعر والموسيقى «دانييل هولزمان» فى الربع الأخير من القرن السادس عشر والتى مطلعها: «إن من لا يقرأ أو يكتب ليس سوى نصف رجل»[2].

* * *

ولقد قاد تحالف عصر التنوير مع الثورة الصناعية إلى نشوء مذهب العقلانية وانتشاره بين الطبقة الوسطى الصاعدة؛ على الأقل فى جيلها الثانى؛ نتيجة للرغبة الشديدة فى التحسن العقلى بعد التحسن الاقتصادى. ولقد حددت الخلفية العلمانية

(1) Pater Noster. (ابونا)

(2) He who does nor nead or write is only half a man.

Dieser ist nun halber Mann der nicht lesen und schreiben kann.

ـ وليست الدينية هذه المرة ـ والتجريبية للعقلانية والثورة الصناعية الاتجاه الفكرى فى العصر الجديد؛ بحيث غدت أوربا تحكم على السلوك الشخصى والإنتاج الفكرى بمعايير «الذوق»[1] وهو الكلمة الدالة فى تلك الفترة. ولقد حل النقاش الهادئ الرصين الأنيق محل الجدل العنيف الذى ساد القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وأصبحت «القصة» فى القرنين السابع عشر والثامن عشر هى وسيلة الترفيه والترويح الجديدة.

وحتى نهاية القرن السابع عشر كان التعلم والرفاهية مرتبطين أشد الارتباط بالباحثين وأولاد الذوات. وخلال القرن الثامن عشر سعت الطبقة التجارية المتوسطة ـ وخاصة نساؤها ـ إلى الحصول على مواد القراءة وتذوق القراءة. وكان إدخال نظام التعليم الإجبارى فى القرن التاسع عشر أقوى عامل فى توسيع دائرة القراء المحتملين للكتب التى نعم بها القرن العشرون بما فى جميع معظم دول العالم.

لقد اتخذت فى القرن السابع عشر بعض الخطوات الكبيرة باتجاه توسيع رقع التعليم العام. وجاءت الصيحات الأولى من شرق أوربا من عند التشيك، ويبرز اسم «آموس كومينيوس» ١٥٩٢ ـ ١٦٧١م التربوى التشيكى كأعظم اسم فى هذا الصدد فى ذلك القرن، وهو الذى وضع الخطوط العامة العريضة للتعليم الابتدائى التى اتبعها المدرسون منذ ذلك الحين. وكان كتابه «العالم فى صور»[2] هو أول كتاب صور وضع خصيصاً للأطفال. وكانت دوقية فايمار الصغيرة هى أول دويلة فى العالم تفرض التعليم الإجبارى سنة ١٦١٩م على الأقل من حيث المبدأ، فى حين كان على بروسيا أن تنتظر مائة عام أخرى لتدخل هذا النظام سنة ١٧١٧م، وكانت أول دولة كبيرة تفعل ذلك. ولم تقم بريطانيا بتبنى هذا النظام إلا سنة ١٨٧٠م أى بعد قرن ونصف من بروسيا وقرنين من دويلة فايمار. ولكن

(1) على الترادف فى المناطق اللغوية المختلفة Goût, gusro, Geschmack, Taste.

(2) Amos Comenius, Orbis Pictus, 1654.

التخلف الرسمى فى التعليم فى إنجلترا عوضته الجهود الأهلية والمبادرات الفردية والجمعيات الخيرية. وقد تخرج فى المدارس الخيرية التى أنشأتها (جمعية ترقية المعارف المسيحية)[1] سنة ١٦٩٩، وفى مدارس الأحد[2] التى رعاها الطابع «روبرت ريكس» فى جلوكستر ١٧٨٠، وفى أكاديميات جماعة الكويكرز[3]، وجماعة الميثودست[4] وغيرها من الهيئات والجمعيات، تخرج فيها أعداد متزايدة من القراء المحتملين.

وفى سنة ١٧٩١م كتب الناشر الإنجليزى «جيمس لاكنجتون» نبذة فى مذكراته يقول فيها بأن «بيع الكتب زاد بصفة عامة فى العشرين سنة الماضية بصورة واضحة، ذلك أن أفقر الفلاحين وحتى الناس الفقراء فى الريف بصفة عامة الذين كانوا من قبل يقضون لياليهم وأمسياتهم الشتوية فى قص حكايات الساحرات والعفاريت والأشباح والغيلان.. أصبحوا الآن يقصرون ليل الشتاء الطويل فى الاستماع إلى أبنائهم وبناتهم وهم يقرأون عليهم القصص والحكايات، وإذا دخلت إلى بيوتهم وجدت كتب توم جونز، رودريك راندوم وغيرها من الكتب موضوعة على مناضد الطعام ورفوف المطابع. وإذا ذهب جون إلى المدينة يبيع حملاً من الحطب فإنه يكلف بأن يحضر معه «مغامرات بيريجرين بيكل»[5] وإذا ذهبت دوللى لتبيع بيضها فى السوق فإنها تكلف بألا تنسى شراء «تاريخ جوزيف أندروز»[6] والخلاصة أن على الطبقات والدرجات الآن تقرأ الكتب».

وكما سنرى فى فصول تالية قامت «مكتبات التأجير» بدور هام فى إشباع تلك الحاجة المتنامية إلى القراءة، وإذا رجعنا إلى سجل أروج الكتب وأحسن المبيعات

---

(1) Society for the Promotion of Christian Knowledge .- 1699.

(2) Sunday Schools.

(3) Quakers.

(4) Methodests.

(5) Peregrine Pickle Adventures.

(6) The History of Joseph Andrews.

سوف نجد أن الرواية قد احتلت المكان الأكبر بينها لأنها كانت تشبع احتياجات الغفير الأعظم من القراء وتمنحهم متعة ما بعدها متعة.

بيد أن المتعلمين الجدد لم يشبعوا نهمهم فقط من معين الروايات والقصص، ذلك أنه منذ منتصف القرن السابع عشر فصاعداً دخل «التقويم» أو الكتاب السنوى الذى يحتوى على خليط من المعلومات العامة مع قليل من المعلومات الدينية إلى بيوت العامة الذين يحتاجون إلى تلك المعلومات السنوية، ولعل أقدم التقاويم التى استمرت فى الصدور حتى قرننا العشرين هو «تقويم ماينرز»[1] الذى بدأ صدوره فى جوسلار منذ ١٦٥٠م. لقد حول رجال التربية هذه التقاويم إلى أداة لتعليم الطبقات الدنيا العلم العام، حيث كانت هذه التقاويم تتضمن نصائح عملية للعناية بالمنزل والحديقة، ومعلومات فى الطب البيطرى للعناية بالحيوانات المنزلية وحيوانات المزرعة، ومعلومات علمية فى الزراعة وتهجين الحيوانات ولايضر أبداً أن يكون هناك بعض الأفكار الفلسفية بأسلوب مبسط، ولا مانع من بعض القصص ذات المغزى الأخلاقى، وقليل من الشعر التعليمى والوعظى. ولقد حققت بعض هذه التقاويم نجاحات باهرة. وكان التقويم الذى ينشره بنيامين فرانكلين فى فيلادلفيا (١٧٣٢ ـ ١٧٦٤) تحت عنوان «تقويم ريتشارد الفقير»[2] يوزع أكثر من مائة ألف نسخة. ويدخل فى هذا النطاق أيضا التقويم الذى كان ينشر فى ألمانيا ولو أنه كان أكثر تواضعاً فى مادته العلمية من التقويم الأمريكى: تقويم «زكريا بيكر»[3] الذى بدأ سنة ١٧٨٨ وباع أكثر من ١٥٠,٠٠٠ نسخة فى إصدارة ١٧٩٨ ومليون نسخة سنة ١٨١١م.

ومن الطريف أن نستطرد ونقول بأن «جون» و «دوللى» الواردين فى مذكرات لاكنجتون كانا يكلفان بشراء تقويم السنة التالية إذا ذهبا إلى سوق الكريسماس، ولكن فى بقية أيام السنة كانا يكلفان إذا ذهبا إلى السوق أن يحضرا معهما آخر

---

(1) Miners' Calendar.- Goslar, 1650.

(2) Benjamin Franklin. Poor Richard's Almanack. - Philadelphia. 1732 - 1764.

(3) Zachariah Becker. Noth und Hilfsbüchlein Für Bauersleute, 1788.

أعداد الجرائد والمجلات: النجم، العالم، الزمان، أوراكل. . . ومع نهاية القرن الثامن عشر أصبحت الدوريات صديقاً منتظماً فى الحياة اليومية للأسرة الأوربية والأمريكية.

لقد حدثت تطورات كبيرة وتحسينات فنية وتنظيمية فى مجال الطباعة فى القرنين التاسع عشر والعشرين استدعتها التوسعات التى حدثت فى مجال التعليم والأعداد المتزايدة من المتعلمين من كل الطبقات. من جهة ثانية أصبح المجتمع القارئ أكبر وأكبر بسبب طرح كميات أكبر وأكثر تنوعاً من مواد القراءة وبأسعار زهيدة، أو عن طريق استعارتها من المكتبات أو تأجيرها.

ويمكننا على سبيل المثال والتمثيل أن نصور حركة تطور التعليم فى بلد مثل بريطانيا عن طريق التواريخ الآتية:

١٧٨٥	إنشاء جمعية لندن لتنمية مدارس الأحد.
١٨٠٣	اتحاد مدارس الأحد.
١٨٣٣	أول منحة عامة ترصد للأغراض التعليمية.
١٨٦٧	بداية حركة التوسع الجامعى.
١٨٦٩	أول كلية للمرأة.
١٨٧٠	فرض التعليم الإلزامى.
١٨٨٠	إقرار التعليم المجانى بالمرحلة الابتدائية.

والحقيقة أن التعليم الإلزامى والمجانى قد تم إقراره فى معظم الدول المتحضرة فى القرن التاسع عشر، على الأقل فى المرحلة الابتدائية، وهو الأمر الذى أخذت به بعد ذلك فى القرن العشرين سائر الدول حتى المتخلفة منها.

وإلى جانب التعليم الرسمى كانت هناك حملات محو الأمية لمن فاتهم قطار التعليم، وقد أتى هذا كله بنتائج وثمار طيبة فى تهيئة أعداد متزايدة من القراء. وفى نفس الوقت تعالت الصيحات حول جدوى هذا التوسع فى التعليم والنتائج

المترتبة عليه. وتساءل البعض عن الهدف من تعليم الجموع، ما فائدة معرفة القراءة إذا مارستها حثالة مفسدة لا تستحق؟.. ولم يكن المتفائلون فى القرن التاسع عشر يشعرون بهذا الغثيان. وكان «ليو تولستوى» وحده هو الذى يصرخ فى البرية عندما لعن «آلة الجهل القوية، انتشار المادة المطبوعة» سنة ١٨٦٦، وكان أهل مذهب «النفع أعظم» على ثقة من أن تحسن التعليم سوف يؤدى بالناس بالضرورة إلى مواكبة التطورات الاقتصادية والتكنولوجية التى يفرزها العصر. كما نظر الساسة إلى التعليم على أنه يعد الناس لـ «مواطنة أفضل» وإلى تنمية التفاهم الدولى. وقد قال أحد الكتاب فى جريدة التايمز (الملحق الأدبى) الثلاثين من أكتوبر ١٩٥٣ تحت عنوان «عقوبة التعليم العالمى»[1]: «إننا نعرف النتائج مقدماً.. إننا نتحرك نحو عصر عندما يعرف كل فرد فيه كيف يقرأ، ولكن لن يوجه أحدهم معرفته إلى الصالح العام!».

ومن جهة أخرى كان هناك شك كبير حول جدوى التعليم الإلزامى ونتائجه الفعلية، ذلك التعليم الذى بدأ على استحياء ـ كما رأينا ـ فى القرن السابع عشر والثامن عشر ثم اتسعت رقعته فى القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث تشير الإحصائيات إلى تفشى الأمية وشبه الأمية بين الذين أتموا هذا التعليم الإلزامى حتى فى دولة مثل بريطانيا. ولكن مهما يكن من أمر هذه الشكوى فإنه منذ اخترعت الكتابة مروراً باختراع الطباعة فإن عدد المتعلمين يزيد باستمرار، وفى نهاية القرن الثامن عشر كان عدد القادرين على القراءة فى أوربا يصل إلى عدد القارئين بالفعل، بمعنى آخر كانت الأمية حوالى ٥٠٪ ولا ينبغى لنا أن ننكر أن مستوى التعليم فى أوربا وأمريكا الشمالية ظل فى تحسن متصاعد، مع تحسن مؤسسات التعليم.

لقد أخذ الكتاب والكتب وسائر المطبوعات غير الدورية تنزل عن عرشها رويداً رويداً منذ مائة وخمسين سنة كمادة للقراءة، وحلت محلها المطبوعات الدورية وخاصة الجرائد والمجلات العامة. ويعزى فضل تحول الجريدة إلى أداة لتعليم

(1) The Times Literary Supplement, Oct., 30, 1953.

الجموع وتقديم المعلومات لهم كمظهر من مظاهر الديمقراطية، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى إضافة كبرى فى تاريخ الكلمة المطبوعة.

لقد كانت الجريدة الأمريكية هى أكبر عامل مؤثر فى تحويل ملايين المهاجرين من روسيا الاستبدادية وألمانيا الأوتوقراطية، وأيرلندا اللاقانونية وإيطاليا الأمية، تحويلهم إلى مواطنين متساوين فى جمهورية ديمقراطية وجعلتهم يلقون بتناقضاتهم الوطنية والدينية والاجتماعية فى أتون الانصهار، وعلمتهم ما أصبح معروفاً للجميع بنمط الحياة الأمريكية. لقد تطلبت هذه العملية لغة بسيطة وأسلوباً سهلاً وتمثيلاً بالصور والألوان للأفكار والمعلومات، تختلف فى مجموعها عن تلك التى تعود عليها الصحفيون والقراء الأوربيون وألفوه، ولكنها على أية حال أثبتت أنها الأداة المثلى الصحيحة لعصر الديمقراطية الواسعة.

وعلى العكس من الصحف الأمريكية؛ كانت الصحف البريطانية حتى منتصف القرن التاسع عشر مكبلة بضريبة التمغة. لقد أعيد تنظيم الصحف البريطانية حتى منتصف القرن وارتفع ثمنها على التتابع من ١/٢ بنس إلى ٤ بنسات للنسخة سنة ١٨١٥م، وكانت «ضريبة المعرفة هذه سبباً فى ارتفاع ثمن الجرائد البريطانية عن نظيراتها فى أى مكان آخر، وخاصة الولايات المتحدة.. فكان سعر نسخة جريدة تايمز ٧ بنسات من ١٨١٥ وحتى ١٨٣٦ حين خفضت ضريبة التمغة إلى بنس واحد، ولكن كان سعر النسخة مع ذلك خمسة بنسات حتى ١٨٥٥ حتى ألغيت تلك الضريبة»: وأكثر من هذا فقد اضطرت هذه الضريبة المحررين إلى استغلال كل بوصة مربعة على صفحات الجريدة حتى لا يبدو أى جزء فى الجريدة دون أن يملأ بكلام مطبوع بحيث لا تترك أية فراغات، مما أساء إلى إخراج الجريدة الإنجليزية واضطر القراء إلى قراءتها بعناية سطراً بسطر، وسبب ضغطاً على أعصاب عيونهم.

ورغم إلغاء ضريبة التمغة فإن إخراج الصحيفة الإنجليزية لم يتحسن، فقد كانت الجريدة الإنجليزية موجهة أساساً وتقرأ فى الأعم الأغلب بواسطة الطبقات المتوسطة، تلك الطبقات التى كانت الجريدة بالنسبة لهم هى وسيلة

الحصول على المعلومات أكثر مما كانت وسيلة للحصول على المتعة والاسترخاء.

ولم يحدث التحول إلا عندما دخلت الطرق الأمريكية المسماة بـ «الصحافة الجديدة» إلى بريطانيا؛ وقد حدث ذلك فى سنة ١٨٨٨م، أى بعد أربع سنوات من «قانون امتيازات الريف»[١] الذى ضاعف عدد أصوات الناخبين. لقد توجهت الصحافة الجديدة نحو هؤلاء الجدد الذين حصلوا على حق الانتخاب. وقد جاء هذا الاتجاه الجديد على يد صحفيين عباقرة من أمثال: «و. ت. ستيد»؛ «ألفرد هارمزوورث»؛ «جورج نيونيس»؛ «س. أ. بيرسون»؛ وهم الذين أخرجوها من جمود الصحافة الفيكتورية إلى تحرر الصحافة الجديدة. وكان للنجاح الملحوظ لصحف: ستار، أخبار المساء، الإكسبريس اليومى، الأخبار اليومية؛ أثره الفعال فى حمل الصحف الأرستقراطية وصحف الطبقات العليا مثل ديلى تلغراف، التايمز إلى إدخال عناصر الإخراج الأمريكية فيها: المقالات الموقعة، الأعمدة الصحفية، الإيضاحيات؛ الكلمات المتقاطعة، الإعلانات المبوبة وغير المبوبة.

ويمكننا أن نؤكد مطمئنين أنه فى نهاية النصف الأول من القرن العشرين كان كل بيت تقريباً يشترك فى إحدى الجرائد اليومية، وأن كل ولد أو بنت فى أوربا كان ينال حظه من القراءة. وكان الأثر التجميعى لهذه القراءة عظيماً فى تنمية الوعى والارتباط بالحياة العامة، ولكن السؤال الذى كان يطرح نفسه: فى أى اتجاه يسير هذا الأثر التجميعى؟ إن الصحف لم تنجح فى خلق اتجاه نحو حزب سياسى معين، وعلى سبيل المثال فإن التأييد اللامحدود من معظم الصحف الأمريكية للحزب الجمهورى لم يمنع من سقوطه ونجاح الحزب الديمقراطى فى دورات متلاحقة بين ١٩٣٣ ـ ١٩٤٩. كذلك فإن جريدة «مانشيستر جارديان»[٢] الواسعة الانتشار والاحترام فى بريطانيا، والتى يدعمها أعضاء من جميع الأحزاب، لم تستطع وقف الهزائم المتلاحقة لحزب الأحرار وهى التى كانت من أحسن المدافعين عنه!

إن الجرائد تحدث تأثيرها عندما تتفق جميعها أو معظمها على شىء معين.

(1) Country Franchise Act.

(2) Manchester Guardian.

وعلى سبيل المثال: عندما تبنت الجرائد الأمريكية شكل «نمط الحياة الأمريكية»؛ وعندما أجمعت الجرائد الإنجليزية على البعد عن نقد السلطة وحماة القانون وقبول الأحكام القضائية والقرارات العليا وحماية الأطفال والحيوانات، وهى تقاليد صحفية إنجليزية ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر، وأصبحت معايير تحترمها الصحف الإنجليزية ولا تختلف عليها.

وإذا كانت أمريكا قد ولدت الجريدة الجديدة، فإن اسكوتلندا قد ولدت الدورية للجريدة، فكما رأينا من قبل فإن الدوريات الجادة التى توجه نفسها إلى طالب وباحث العلوم السياسية والآداب والفنون قد ولدت بميلاد فصلية «دورية إدنبرة»[1] التى صدرت بين ١٨٠٢ و١٩٢٩. وكان ناشرها هو «آرشيبالد كونستابل» وأول محررين لها هما: «سيدنى سميث» و «فرانسيس (اللور) جيفرى». وبعدهما جاءت منافستها «المجلة الفصلية»[2] من ١٨٠٩- والتى كان ناشرها هو جون «موريى» وأول محرر هو «وليام جيفورد». وجاءت المجلة الشهرية «مجلة إدنبرة»[3] التى يصدرها «بلاكوود» منذ ١٨١٧ منافساً وشريكاً للدوريتين السابقتين، وإن كانت تقدم الأدب على السياسة. ولم تلحق لندن بالاسكتلنديين إلا فى عشرينات القرن التاسع عشر، حين صدرت «مجلة لندن»[4] (١٨٢٠-١٨٢٩)؛ «دورية ويستمنستر»[5] ١٨٢٤-١٩١٤، «اسبكتيتور»[6] ١٨٢٨ -٠، «آثينايوم»[7] ١٨٢٨ - ١٩٢١. ومن بين الدوريات الهامة للغاية والتى صدرت بعد ذلك «دورية السبت»[8] ١٨٥٥- ١٩٣٨؛ «مجلة كورنهيل»[9] ١٨٦٠ - ٠، «دورية

(1) Edinburgh Review 1802 - 1929.

(2) Quanterly Review.

(3) Edinburgh Magazine 1817 -.

(4) London Magazine 1820 - 1829.

(5) Westminster Review 1824 - 1919.

(6) Spectator 1828 -.

(7) Athenaeum 1828 - 1921.

(8) Saturday Review 1855 - 1938.

(9) Cornhill Magazine.

الأسبوعين»[1] ١٨٦٥ ـ ٠، «الدورية المعاصرة» ١٨٦٦ ـ.[2] ويعزى نجاح تلك الدوريات حقيقة إلى تعاون الساسة مع الكتاب، بحيث بلغ توزيع مجلة كورنهيل إلى ما يقرب من مائة ألف نسخة.

وبسبب الإيقاع السريع للحياة فى القرن العشرين أصبح الاتجاه واضحاً نحو تفضيل المجلة الأسبوعية على المجلة الفصلية والشهرية. نجد مصداق ذلك فى الملحق الأدبى الأسبوعى لجريدة التايمز (الذى بدأ سنة ١٩١٢ ـ ٠) والذى أصبح دليلاً وبوتقة فى موضوعات الأدب فى جميع أنحاء العالم الناطق بالإنجليزية، وفى مجلات سبكتيتور، نيوستيتسمان (١٩١٣) وغيرهما من المجلات التى تشكل الرأى الواعى المستنير فى مجالات السياسة والفكر وغيرهما من مجالات الثقافة العامة.

وتتفوق بريطانيا على ما عداها من الدول فى مجلات الشئون السياسية والاقتصادية. فى حين أن المجلات الأسبوعية الفرنسية والألمانية والإيطالية الجادة تتفوق فى موضوعات الآداب والفنون. وتبرز فى هذا الصدد من فرنسا: «مجلة العالمين»[3] ١٨٢٩ ـ ١٩٤٤؛ «مجلة باريس الجديدة»[4] ١٨٦٦ ـ ٠؛ «الأنطولوجيا الجديدة»[5] ١٨٦٦ ـ ٠؛ «مجلة الثقافة» الإيطالية[6] ١٨٨١ ـ ١٩٣٥؛ «المجلة الألمانية الجديدة»[7]، ١٨٧٤ ـ .

وفى ألمانيا حاول الناشر العظيم «ف. ل بروكهاوس» ١٧٧٢ ـ ١٨٢٣ تأسيس مجلة على غرار دورية إدنبرة سابقة الذكر على نحو ما قاله عندما أصدر مجلة «هيرميس»[8] ١٨١٩ ـ ١٨٣١، مجلة تدافع عن حرية الفكر، مجلة تحارب كل ما يعوق التقدم الحضارى وتحرير الشعوب المستعبدة بقدر المستطاع فى ظل تخلف

---

(1) Fortnightly Review 1865 - .

(2) Contemporary Review 1866 - .

(3) Revue de Deux Mondes 1829 - 1944.

(4) Nouvelle Revue de Paris. - 1866 -.

(5) Nouva Antologia. - 1866 -.

(6) La Cultura 1881 - 1935.

(7) Neue deutsche Rundschau, 1874 -.

(8) Hermes.

المعرفة السياسية فى ألمانيا. ولكن كل مشروعات بروكهاوس تحطمت على صخرة الرقابة أو عدم رغبة الناس فى المجلة. ومما هو جدير بالذكر أن جوته قد أوقف مجلة إيزيس سنة ١٨١٩. وكان النجاح الوحيد الذى حققه بروكهاوس فى هذا الجانب هو مجلة «النقد الأدبى»[١] ١٨٢٠ ـ ١٨٩٨. وهى مجلة متخصصة كما يبدو من عنوانها، وكانت تصدر حتى ١٨٥٣ من أربع إلى ست مرات أسبوعياً.

لقد أدى الصراع الشرس بين حزبى ويج و تورى فى بريطانيا خلال الحروب النابليونية إلى صراع أشد ضراوة بين المدارس الأدبية المتنافسة هناك، وقد أثرى ذلك الصراع المجلات الأدبية الثقيلة المعاصرة. وبعد جيل واحد من هذا الصراع نشب صراع آخر من أجل إصلاح البرلمان، ومنح قطاعات كبيرة من السكان امتيازات التصويت والانتخاب، أدى بدوره إلى صعود نجم أخلاقيات الطبقة الوسطى وواقعية البحث العلمى فى الفلسفة والأدب، وكان ذلك كله مسئولاً عن ظهور النوع الخفيف من المجلات، وهو نوع من المجلات الأسبوعية الرخيصة تكرس كلها للتعليم الشعبى العام مصحوباً بمادة أصيلة للتسلية والفكاهة على نحو ما قصد إليه «روبرت» و «ويليام تشامبرز» عندما أصدرا «جورنال إدنبرة»[٢] التى بدأت سنة ١٨٣٢ بثلاثين ألف نسخة، ووصل توزيعها سنة ١٨٤٥ إلى تسعين ألف نسخة مما حقق طموحات الأخوين تشامبرز. وبعد حياة حافلة امتدت إلى مائة وعشرين عاماً توقف جورنال تشامبرز عن الصدور بعد إصدار الكريسماس سنة ١٩٥٦ عندما توقف توزيع المجلة عند حد عشرة آلاف نسخة. وكانت هناك مجلة ألمانية[٣] ١٨٥٣ ـ ١٩١٦ تحاول عبثاً أن تمزج بين التعليم العام الشعبى مع الترفيه الخفيف حتى بلغ توزيعها ٤٠٠,٠٠٠ نسخة فى سبعينات

(1) Literarisches Wochenblatt 1820 - 1898.

(2) Edinburgh Journal. - 1832.

(3) Gartenlaube 1835 - 1916.

القرن التاسع عشر، ويمكن القول إنها خلطت التذوق الأدبى بالفلسفة العلمانية مع ليبرالية البروتستانت البورجوازية فى القرن التاسع عشر.

ولقد نجحت مجلات المليم فى تقديم الثقافة الدائمة للمجموع. وقد بدأت مجلات المليم هذه فى الولايات المتحدة فى عشرينات القرن التاسع عشر، ثم انتقلت إلى إنجلترا بعد ذلك مباشرة، ومن إنجلترا غزت القارة الأوربية.

لقد قام «تشارلز نايت» كما أسلفت فى فصل سابق بتأسيس «جمعية نشر المعرفة النافعة»[1] سنة ١٨٢٦، تلك الجمعية أصدرت اعتباراً من ١٨٣٣ «موسوعة المليم»[2] والتى كانت تنشر على حلقات أسبوعية وتوزع نحو ٧٥,٠٠٠ نسخة بسعر النسخة بنس واحد (مليم). وعندما ارتفع سعر النسخة الأسبوعية إلى بنسين؛ هبط التوزيع إلى ٥٥,٠٠٠ نسخة، وعندما زاد ثمن النسخة مرة أخرى سنة ١٨٤٣م إلى أربعة بنسات هبط التوزيع إلى عشرين ألف نسخة فقط. أما أول مجلة مليم[3] ألمانية فقد بدأت أيضاً سنة ١٨٣٣ بعدد من النسخ يصل إلى ٣٥,٠٠٠ نسخة، وظل يرتفع حتى وصل إلى مائة ألف نسخة. ولقد وصف تشارلز نايت تأثير هذه المجلات على القراء بقوله: «لقد انتزعت تلك المجلات أقلام رجال الأدب من يد الصفوة التقليدية ووضعتها فى يد الشعب. وربما لم تخلق تلك المجلات الشعراء والفلاسفة؛ ولكنها منعت الملوك واللوردات من التظاهر بخلقهم».

لقد اختفى تيار التحسين الأخلاقى والتنوير العلمى من تلك المجلات الخفيفة بالتدريج فى ثمانينات القرن التاسع عشر، وأصبح الترفيه البحت هو الطابع السائد فيها، حتى كتاب المقالات والأبواب الثابتة التربوية حاولوا بعد ذلك أن يقدموا مادتهم بدون «دموع»، حتى المتحدثين عن القنابل الذرية والميزانية.

ومن جهة ثانية أصبح هناك اتجاه واضح نحو التخصص فى المجلات مع زيادة عددها زيادة واضحة، بحيث لم يعد هناك الآن نشاط أو موضوع أو هواية إلا

(1) Society for the Diffusion of useful Knowledge, 1826.

(2) Penny Cyclopedia, 1833.

(3) Pfennig Magazin.

ويصدر فيه مجلة أو مجلات أسبوعية أو شهرية. وتتفوق البستنة على ما عداها من الموضوعات فى عدد المجلات المتخصصة التى تروق لأعداد غفيرة من القراء.

وكانت هناك فئتان بالذات من المجلات الخفيفة استحوذت على كل اهتمام قرائهما وسحقتا الفئات الأخرى من تلك المجلات؛ ألا وهما: مجلات المرأة ومجلات الأطفال. وقد ارتفعت أعداد المجلات الصادرة لهما بين ١٨٥٠ - ١٩٥٠، ارتفاعاً لا مثيل له. وكانت مجلات المرأة تدور عادة حول الموضة، الطهى، صالونات المجتمع، قصص الحب العنيف والعفيف، شئون المنزل والأسرة والأطفال... ويرى المراقبون أن تأثير تلك المجلات الخفيفة الموجهة للمرأة على الحضارة الغربية كان صفراً. وعلى العكس من ذلك كانت مجلات الأطفال التى مارست تأثيراً كبيراً عليهم وخاصة فى الفترة ما بين ١٨٧٠ - ١٩١٠ حيث كانت تلك المجلات تساعد فى المناهج والمقررات الدراسية. ويقف على رأس مجلات الأطفال المفيدة مجلة «المجلة الخاصة بالولد»[1].

وليس ثمة شك فى أن الجرائد والمجلات أصبحت لها مكانة راسخة الآن بين الصفوة، وبين الجموع، مكانة أرسخ وأوسع من مكانة الكتاب لأسباب عديدة ليس هنا مجال سردها. ولكن يلاحظ أنه مع تدهور مكانة الكتاب كأداة أولى وأساسية فى القراءة، وجد زيادة ملحوظة فى عدد الكتب الصادرة فى العالم عاما بعد عام وزيادة تداول الكتب أيضاً عن ذى قبل. وتبرز فى هذا الصدد ثلاث مؤسسات كان لها الفضل الأكبر فى هذا الصدد هى: مكتبات التأجير - المكتبات العامة - نوادى الكتب. لقد وصف الكاتب المسرحى والقصص القصيرة الألمانى «هنريتش فون كليست» المناخ الذى ازدهرت فيه مكتبات التأجير سنة ١٨٠٠م بقوله: «لا يمكن أن ندرس ثقافة مدينة ما أو الذوق السائد فيها بسرعة وبدقة متناهية إلا من خلال مكتبات التأجير فيها ... إنك لا تجد فيها كتب فيلاند أو شيللر أو جوته لأنه ما من أحد يقرؤها.. إذن ماذا فيها؟ فيها قصص غوطية،

(1) Boy's Own Paper.

فقط قصص غوطية: هناك على اليمين قصص الأشباح، وعلى اليسار قصص بلا أشباح. . . تخير ما تشاء».

لقد كتب «فيلهلم هوف» الروائى الألمانى (سوابيا) سنة ١٨٢٥ نبذة (سكتش) عن الكتب والقراء تؤكد ما ذكره «كليست» على النحو السابق. فعلاً كانت المادة الرئيسية فى مكتبات التأجير هى القصص الغوطى وقصص الحب، وكتب والترسكوت، وسعة انتشار قصص وأشعار والترسكوت لا تحتاج إلى شرح أو تفسير، وكان انتشارها بلا ضابط ولا رابط فى عموم أوربا مرجعه إلى عدم وجود قانون أو اتفاق حول حق المؤلف قبل اتفاق برن (١٨٨٦) مما أتاح الفرصة أمام الطابعين والناشرين فى عموم الدول الأوربية لترجمة ونشر رواياته دون دفع حقوق أو عوائد مقابل تلك الترجمات. ووجود قصص سكوت بهذه الكثافة والطلب الكبير عليها يعود إلى السعر الزهيد لتلك القصص.

لقد اخترع سكوت فكرة قصة المجلدات الثلاثة[1] التى انتشرت خلال القرن التاسع عشر، حيث كانت القصة تنشر فى ثلاثة مجلدات بسعر زهيد للغاية هو ٣١ شلناً، ٦ بنسات للمجموعة الثلاثية هذه، وهذا السعر أكثر من أى عامل آخر يفسر حرص مكتبات التأجير على التعامل فى هذه الكتب ما بين ١٨٢٠ - ١٨٩٠.

ويرتبط مكتبات التأجير فى إنجلترا باسم «تشارلز إدوارد مودى» ١٨١٠ - ١٨٩٠ الذى افتتح «مكتبة مودى للتأجير» فى لندن سنة ١٨٤٢. وكان الاشتراك السنوى فى تلك المكتبة جنيهاً واحداً، أى قيمة مجموعتين فقط من روايات المجلدات الثلاث المشار إليها، مما ضمن لتلك المكتبة نجاحاً ساحقاً. وبعد فترة قصيرة أصبح مودى هذا محتكر تأجير كتب القصص تقريباً فى لندن، ومارس نوعاً من الدكتاتورية على مؤلفى وناشرى هذا النوع من الكتب، وساعده على ذلك أنه كان يخدم الطبقة المتوسطة التى ارتفع نجمها فى العصر الفيكتورى. وقد لمعت أسماء كثيرة على يد مكتبات التأجير هذه وعلى رأسها العمالقة: «شارلوت

---

(1) three - decker.

يونج»، «رودا بروتون»، «أوويدا مارى كوريللى» وغيرهم. والحقيقة أن مودى كان قد وضع لنفسه معايير ومستوى معيناً لا ينزل عنه فى القصص التى تتداولها مكتبته، ومن ثم فإن المؤلفين والناشرين الذين التزموا بتلك المعايير الأخلاقية والاجتماعية ضمنوا لأنفسهم مبيعات عالية لديه، وعندما التزموا بأسعار مخفضة لقصصهم حققوا شعبية عالية بين جمهور القراء. وربما نذكر هنا أن قصة الكاتب ميريدث: «محاكمة ريتشارد فيفريل»[1] وقصة الروائى جورج مور «عاشق حديث»[2] كانتا من بين النماذج التى استبعدها مودى من رفوفه لأنها لا تناسب الجمهور الإنجليزى القارئ.

ويرى كثير من النقاد أن نجاح الروايات التى كانت تتداولها مكتبة مودى كان نجاحاً كاسحاً مؤقتا، ولم تكن تلك الروايات تضيف إلى القارئ علماً أو معلومات وإنما كانت تعطيه متعة إلى حين. وكان نجاح هذا النوع من القراءات هو نجاح النوع وليس الفرد، بمعنى أن حجم المبيعات والإيجارات لم يكن لكل قصة فى حد ذاتها بل كان بسبب وجودها فى المجموع على نحو ما يحدث فى أيامنا هذه بين «نوادى الفيديو». ويشير النقاد إلى نجاح فردى واحد فى حد ذاته هو نجاح قصة الأديبة شارلوت يونج «وريث ريدكليف» ١٨٥٣، والتى حققت نجاحاً ساحقاً لصفات وسمات خاصة بها.

لقد جاءت بداية النهاية لمكتبة مودى فى تسعينات القرن التاسع عشر عندما تغلبت رواية المجلد الواحد على رواية المجلدات الثلاث وحلت محلها، بل وأخرجتها من السوق. وعلى الرغم من وجود بقايا فى أوربا من مكتبات التأجير هذه إلا أن انتشار المكتبات العامة الرسمية طغت عليها وأخرجتها هى الأخرى من المسرح على نحو ما سنراه بالتفصيل فى معالجتنا لتطور المكتبات فى العصر الحديث.

لقد انتشرت المكتبات العامة فى أوربا وأمريكا منذ القرن التاسع عشر انتشاراً

(1) Meredith. The Ordeal of Richard Feverel.

(2) George Moore. A modern Lover.

كبيراً باعتبارها مؤسسة متكاملة مع المنظومة التعليمية والترويحية فى تلك الدول وباعتبارها مظهراً من مظاهر الديمقراطية وباعتبار القراءة حقاً لكل مواطن، وذهبت أمريكا إلى اعتبار المكتبة العامة جامعة للشعب تهب العلم حراً لكل من يقصد إليها. والحقيقة التى لا مراء فيها أنه حتى النصف الأول من القرن العشرين ـ الحد النهائى لدراستنا التاريخية هذه ـ تعتبر الدول الناطقة بالإنجليزية والدول الدائرة فى فلك الأنجلو ـ أمريكية السياسية والثقافية هى جذور وأصول حركة المكتبات العامة الحديثة. أما الدول الاسكندنافية والأراضى الواطئة وسويسرا بل وألمانيا نفسها فقد تخلفت فيها حركة المكتبات العامة كثيراً عن نظيراتها فى الدول الأنجلو ـ أمريكية ولم تنهض إلا فى نهاية القرن العشرين (خارج فترة دراستنا التاريخية).. ومن أسف أن أكبر مدن تلك الدول لا تملك مكتبة عامة تنافس مكتبة مدينة صغيرة أو قرية كبيرة فى أمريكا أو إنجلترا فى فترة دراستنا هذه، على الرغم من وجود المكتبات العامة فى دولة عظيمة مثل ألمانيا قبل إنشائها فى بريطانيا أو الولايات المتحدة بزمان طويل كما سنرى فيما بعد ذلك أن مارتن لوثر كان قد طالب فى سنة ١٥٢٤ السلطات البلدية هناك باستخدام الأوقاف والأموال التى نتجت عن حل الأديرة لإنشاء ليس فقط المدارس، ولكن أيضا «المكتبات الجيدة أو دور الكتب».

وريثما نعود بالتفصيل إلى نشأة وتطور المكتبات العامة فى القسم الثانى من بحثنا هذا عن الكتب والمكتبات فى العصور الحديثة، فإننا نقدم بعض الأرقام الخاصة بمقتنيات المكتبات العامة والاستعارات فى أمريكا سنة ١٩٥٧ وهى فترة نهاية دراستنا هذه: مكتبة نيويورك العامة وفروعها بلغت مقتنياتها ٩,٨ مليون مجلد؛ مكتبة كليفلاند ـ أو هايو ٢,٨ مليون مجلد؛ مكتبة شيكاغو العامة ـ إلينوى ٢,٣ مليون مجلد؛ مكتبة لوس أنجلوس ـ كاليفورنيا ٢,٣ مليون مجلد؛ مكتبة بوسطون ـ ماساشوستس ٢,١ مليون مجلد، مكتبة فيلادلفيا العامة ـ بنسلفانيا ١,٩ مليون مجلد؛ مكتبة سنسناتى ـ أوهايو ١,٨ ؛ مكتبة دترويت العامة ـ متشجان ١,٧ مليون مجلد. يضاف إلى ذلك مكتبات سانت لويس العامة ـ

مونتانا؛ بتسبرج العامة ـ بنسلفانيا؛ ميلووكى العامة ـ ويسكوسن؛ بالتيمور العامة ـ ميريلاند؛ بفالو العامة ـ نيويورك، التى تخطى المليون مجلد فى نهاية النصف الأول من القرن العشرين.

وتكشف إحصائيات الإعارات فى تلك المكتبات عن حركة القراءة فى النصف الأول من القرن العشرين. ونجدول فيما يلى عدد الإعارات السنوية (١٩٥٧) فى بعض المكتبات المذكورة: ـ

مكتبات نيويورك العامة	٢٨,٥ مليون مجلد
مكتبة لوس أنجلوس العامة	٩,٥ مليون مجلد
مكتبة شيكاغو العامة	٩,ـ مليون مجلد
مكتبة كليفلاند العامة	٦,٣ مليون مجلد
مكتبة بفالو العامة	٥,٢ مليون مجلد
مكتبة دترويت العامة	٤,٧ مليون مجلد
مكتبة فيلادلفيا العامة	٤,٤ مليون مجلد

يضاف إلى ذلك مكتبات ٤٢ مدينة أخرى فى نفس السنة ربت الإعارة من مقتنياتها على مليون مجلد. ومن الجدير بالذكر أنه فى تلك السنة كان أكثر من مائة مدينة أمريكية قد رصدت كل منها ما يربو على مائة ألف دولار كميزانية للخدمات المكتبية العامة، ٢٣ مدينة رصدت أكثر من مليون دولار للخدمات المكتبية فى كل منها، ونيويورك الكبرى وحدها أنفقت ١٧ مليون دولار على الخدمات المكتبية العامة.. وهذه المبالغ بمعايير منتصف القرن العشرين تعتبر ضخمة قياساً إلى الدول الأخرى.

وإذا توجهنا صوب بريطانيا فسوف نجد أن مشروع إيوارت[1] لسنة ١٨٥٠ قد أعطى دفعة برلمانية كبيرة وتأييداً للمكتبات العامة هناك.

(1) Ewart Bill, 1850.

وعلى الرغم من أن المكتبات العامة فى بريطانيا لا تقوى على المنافسة أمام المكتبات العامة الأمريكية إلا أن دورها فى الحياة الفكرية البريطانية لا يجمد ولا ينكر وهو دور نامٍ متزايد. ولأن المكتبات العامة هى مرافق عامة فإنها لا تفرض رأيها لا على القراء ولا على الناشرين والموردين. ولقد دعمت المكتبات العامة النظام التعليمى هناك دعماً كبيراً وذلك عن طريق مكتبات الأطفال، مكتبات المراجع، الخدمات الببليوجرافية والقوائم التى تعدها للطلاب فى موضوعاتهم المفضلة. وهى عادة تقيم توازناً فعالاً بين طرفى النقيض من القراء: صفوة القراء وحرافيش العامة. ويدير تلك المكتبات مجالس من الأوصياء المنتخبين غالباً من قبل أهل المنطقة بما يضمن بعد تلك المكتبات عن أية تيارات سياسية أو عرقية ويضمن لها الحيدة والديمقراطية فى الأداء، اختياراً وتزويدا وخدمات. وإن كان هذا كله لا يمنع من تعرض أمناء المكتبات ومجلس الأوصياء لانتقادات مدبرة من جانب القراء، وتكون نتيجة ذلك كله الارتفاع بمستوى الخدمات المكتبية العامة لجميع فئات القراء.

أما نوادى الكتب فقد بدأت نواتها فى الولايات المتحدة فى القرن الثامن عشر ولكن نادى الكتب بمعناه الحديث بدأ فى سويسرا حوالى سنة ١٩٠٠ مع ما عرف باسم «الحركة التعاونية السويسرية» التى كانت تقدم لأعضائها الكتب دون أرباح أو على أساس اقتسام الربح بين الأعضاء. ولكن أكبر نوادى الكتب على الإطلاق فى أوربا هو ذلك الذى أسس تحت اسم «نادى جوتنبرج للكتاب»[١] سنة ١٩٢٤ فى ألمانيا على يد القسم التعليمى فى اتحاد الطابعين الألمان. وكان أول كتاب قدمه هذا النادى لأعضائه هو مجموعة قصص قصيرة لمارك توين. ولقد بدأ هذا النادى بخمسة آلاف عضو، ولم يلبث بعد نحو ربع قرن أن ارتفع عدد الأعضاء إلى أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ عضو. وعلى الرغم من انتماء هذا النادى إلى اتحاد الطابعين الألمان إلا أنه يعمل تماماً بعيداً عن أية مؤثرات فى اختيار الكتب لأعضائه على خلاف «نادى الكتاب اليسارى» و«نادى الكتاب اليمينى» اللذين تتحكم فى اختياراتهما العوامل والتيارات السياسية التى عصفت بالبلاد فى

(1) Büchergilde Gutenberg.

النصف الأول من القرن، وأدت إلى دخول البلاد حربين عالميتين انتهت ثانيتهما بتقسيم البلاد إلى ألمانيتين؛ وأدت إلى انهيار الناديين بعد فترة وجيزة.

أما نوادى الكتب فى إنجلترا والولايات المتحدة فقد شقت طريقها إلى الوجود فى ثلاثينات القرن العشرين، وهى نفس الفترة التى انتشرت فيها فى معظم بلاد العالم. ولقد نجحت تلك النوادى فى حمل الأعضاء على تكوين مكتبات منزلية بأسعار زهيدة (من ربع إلى نصف الثمن الأساسى للكتب وأحياناً يمنح العضو كتاباً أو كتابين مجاناً كل سنة). ومن الطريف أن هذه النوادى خدمت أشخاصاً ما كان يمكنهم أن يقرأوا أو يكونوا مكتبات شخصية بدونها ربما بسبب بعدهم عن متاجر الكتب وأسواقها. وكما أن بعض مكتبات التأجير ـ مثل مكتبة مودى التى أشرت إليها سابقاً ـ تضع القارئ فى قنوات ضيقة من الاختيارات وربما يلعب العامل التجارى دوراً فى هذا الصدد، نجد أن اختيارات نادى الكتاب لايحكمها إلا رغبات الأعضاء. وأكبر ناد للكتاب وأقدمها فى إنجلترا هو نادى «كتب العالم» الذى وزع أول كتاب على أعضائه فى أكتوبر سنة ١٩٣٩. ومعظم اختيارات هذا النادى من كتب غير القصص، وأقلها من الكتب القصصية. وقد بلغ عدد أعضائه فى منتصف القرن العشرين ١٥٠,٠٠٠ عضو، ومن بين الكتب التى وزعها على أعضائه مذكرات «ونستون تشرشل» والسيرة الذاتية للسير «أوسبرت ستويل» وغيرهما من المشاهير.

وقد قامت بعض نوادى الكتب ببعض عمليات نشر الكتب بترتيبات خاصة مع الناشر الأصلى وتوزيعها بسعر زهيد على الأعضاء بعشرات الآلاف من النسخ دون أى تأثير على مبيعات الطبعة الأصلية، بل بالعكس فى كثير من الأحيان تنمى تلك المبيعات.

لقد رحب الناشرون بقيام نوادى الكتب وتعاونوا معها لما فى ذلك من خير للطرفين والارتقاء بمستوى الكتب. ومن الفوائد المحققة لنوادى الكتب تقديم الكتب بسعر زهيد إلى قطاع عريض من القراء، بل وجعل قطاع عريض من السكان على وعى بأهمية الكتب وسهولة الحصول عليها، كما أنها تجعل عادة القراءة واقتناء الكتب جزءا طبيعياً من الحياة اليومية للناس. كما أن نوادى الكتب

تنعش صناعة النشر على وجه العموم بتوصيل الكتب إلى قوم ما كانت لتصلهم لولا تلك النوادى.

ويرى المراقبون أن نوادى الكتب فى الولايات المتحدة تؤثر بالسلب على صناعة النشر على عكس كثير من دول العالم، ويضربون مثلاً بذلك «نادى كتاب الشهر» و «رابطة الأدب» اللذين أنشئا سنة ١٩٢٦، وقد بلغ عدد أعضاء كل من الناديين مليون عضو فى سنة ١٩٤٦. وفى خلال عشرين عاماً وزع الناديان على الأعضاء نحو مائة وخمسين مليون نسخة، مما هدد تجارة الكتب الأصلية لأنه بمجرد إعلان النادى عن كتاب معين فإن بيع الطبعة الأصلية للكتاب تتوقف، بل ويتوقف الناس عن شراء أى كتاب على أمل أن يعلن النادى عن كتاب يريدونه. وقد انبثق عن نادى كتاب الشهر، نادى كتاب الأسبوع، نادى كتاب اليوم، وكلها تعمل فى نفس هذا الاتجاه.

* * *

كان ذلك عرضاً عاماً أفقياً للإنتاج الفكرى والقراءة فى عصر الطباعة عبر خمسة قرون، وحان الآن وقت استعراض الإنتاج الفكرى والقراءة على المناطق، ونبدأ بالأراضى الواطئة، ثم نثنى بفرنسا فألمانيا، ونختمها بالمناطق المتحدثة بالإنجليزية، أى إنجلترا ـ اسكوتلندة ـ الولايات المتحدة. وحيث وقفنا بالعرض العام عند نهاية القرن السادس عشر.

الأراضى الواطئة.

كانت المطبعتان ـ أو لنقل دارا النشر ـ القياديتان فى الأراضى الواطئة فى القرن السابع عشر هما: **بلانتين** ـ التى سيطرت على الجزء الجنوبى الرومانى الكاثوليكى من البلاد ـ و **إلزفير** التى كانت تسيطر على الجزء الشمالى البروتستانتى من البلاد. وكان الهولنديون فى الواقع هم أهل تجارة وروح مغامرة متوثبة، وقد ساعدتهم السلطة الحاكمة على الانطلاق شرقاً وغرباً دون قيود تذكر. وكان للمكانة الراسخة للأراضى الواطئة فى الشئون الأوربية خلال

النصف الثامن من القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر أثرها فى مد السوق المتاحة لهاتين الدارين خارج نطاق الدولة بكثير. ولقد ذهب وكلاء بلانتين إلى مناطق بعيدة حتى شمال إفريقيا ليبيعوا الكتاب المقدس الذى طبعه إلى اليهود والجاليات اليهودية هناك.

كان كريستوف بلانتين فرنسى المولد، استقر فى أنتويرب سنة ١٥٤٩م، وبسرعة أصبح الناشر الأول الذى يقود حركة تجارة وصناعة الكتب فى أوربا الشمالية. ويذكر الثقاة أن أكثر من نصف الكتب التى طبعت فى الأراضى الواطئة قبل منتصف القرن السادس عشر خرجت من مطابع أنتويرب. ويقال إن بلانتين قد استخدم فى طباعة كتبه سنة ١٥٧٦ ستة عشر مطبعة رغم أنه كان يتباهى بأن لديه اثنتان وعشرون مطبعة، ومهما يكن من أمر فإن أية شركة أخرى لم تكن تملك أو تدير مثل هذا العدد من المطابع بما فى ذلك دار ألدوس مانتيوس و دار ستيفانوس التى كانت الواحدة منهما تدير ما بين مطبعتين إلى ست على الأكثر.

وكان بلانتين يحرص أشد الحرص على العناية بمطبوعاته فيستخدم لها أحسن مصممى الحروف وأحسن الرسامين والمزخرفين، وكان يستعمل ألواح النحاس بدلاً من الكتل الخشبية، بل وتوفر على تطويرها إلى حد كبير. ولكن الاهتمام الأول لبلانتين لم يكن بالطباعة، وإنما بالنشر والتوزيع بحيث يوزع بقدر ما استطاع كل نسخة طبعها. والحقيقة أنه نشر مجموعة متوازنة من الكتب: كتباً دينية ـ وخاصة كتب الصلاة والشعائر ـ وكتباً كلاسيكية لمؤلفين لاتين وإغريق، وكتباً طبية، وكتباً علمية، إلى جانب كتب المؤلفين الفرنسيين المعاصرين. ولعل أعظم ما نشره بلانتين هو الكتاب المقدس متعدد اللغات فى ثمانية مجلدات ١٥٦٨ ـ ١٥٧٣، الذى كان من المفروض أن يدعمه ملك أسبانيا «فيليب الثانى» الذى عين بلانتين طابعاً ملكياً سنة ١٥٧٠ وجعله مشرفاً عاماً على كل الطباعة الهولندية، ولكن يبدو أن فيليب لم يدعم هذا العمل، ومع ذلك فقد سماه «الكتاب المقدس الملكى»[1] على شرف الملك فيليب.

(1) Biblia regia.

وقد كان الهدف من هذا الكتاب المقدس متعدد اللغات أن يحل محل الكتاب المقدس الكومبلتنسى[1] (نسبة إلى كومبلتنس) الذى فقدت نسخه فى ذلك الوقت. وقد طبع بلانتين من هذا العمل ١٢١٢ نسخة كان من بينها اثنتا عشرة على رقوق للملك والباقى على ورق من أنواع مختلفة، ومن ثم بأسعار متفاوتة.

ولقد بقى هذا الكتاب المقدس معلق المصير طيلة عشر سنوات، حيث حاول اللاهوتيون فى سلامانكا وضعه فى «كشاف الكتب المحظورة»[2] وربما كان السبب فى ذلك أن بلانتين كان يدعم إحدى الطوائف البروتستانتينية سراً، وكانت تلك الطائفة ذات نشاط واسع فى شمال الأراضى الواطئة، وهو أمر لم يقبل به الكاثوليك، ومن ثم عطلوا توزيع «الكتاب المقدس الملكى». وعندما اجتاح الجنود الأسبان مدينة أنتويرب سنة ١٥٧٦ غادر بلانتين المدينة من ١٥٨٣ - ١٥٨٥ وعمل فى ليدن طابعاً لدى الجامعة هناك. وقد ترك مطابعه فى أنتويرب فى عهدة زوجى ابنتيه: «فرانسيس فان رافلنجن» (رافلجنيوس)، و«جان مورينتورف» (موريتوس ١٥٤٣ - ١٦١٠). وبعد عودة بلانتين إلى أنتويرب سنة ١٥٨٥ ترك مطبعته فى ليدن لزميل له بروتستانتى (أيضاً اسمه رافلنجيوس) وقد أصبح هذا الأخير أستاذاً فى جامعة ليدن. وقد أصبح موريتوس المساعد الأول لبلانتين حتى وفاته فى سنة ١٥٨٩، ومن ثم ورث فرع الشركة فى أنتويرب وأصبح المالك الوحيد له.

وعبر ثمانية أجيال متعاقبة من نسل موريتوس بقيت الشركة تعمل بهمة ونشاط فى نفس الموقع حتى قام «هياسينث موريتوس» ببيعها إلى بلدية أنتوبرت سنة ١٨٧٥م لتحولها إلى متحف عرف باسم «متحف بلانتين - موريتوس»[3] أقدم وأول متحف فى تاريخ الطباعة. وكان تحرير شمال هولندا من أيدى الغزاة الأسبان قد تبعه وبسرعة حركة نشر قوية وازدهار فى الآداب والعلوم والفنون والبحث العلمى والرخاء الاقتصادى المتصل، مما جعل القرن السابع عشر هو

(1) Complutensian Bible.

(2) Index Librorum prohibitonum.

(3) Musée Plantin - Moretus.

العصر الذهبى للشعب الهولندى، وبالتالى كان العصر الذهبى لصناعة الكتاب فى هولندا، وكان ذلك من حظ شركة إلزفير.

وكما قلت فى موضع سابق بالتفصيل كان مؤسس هذه الشركة هو لويس الأول وهو مواطن من لوفان الذى دخل إلى صناعة الكتاب من خلال عمله فى شركة بالنتين فى أنتويرب. ولأنه كان من بين الثوار الكالفينيين[1] فقد فر من حكم عليه بالإعدام واستقر سنة ١٥٨٠ فى ليدن كتاجر كتب. وكانت علاقته بالجامعة التى عمل بها شماساً قد شجعته على احتراف النشر. أما أول كتاب نشره فكان للمؤلف «إتروبيوس» ١٥٩٣، ومن بعده أصبح معظم نشره فى الكلاسيكيات. وقد تواكب نشاط وازدهار هذه الشركة مع عصر ازدهار البحث العلمى الكلاسيكى فى هولندا، والذى تبعه بالضرورة تقدير واحترام النشر الدقيق المحقق الذى لم نصادفه بعد القرن السابع عشر إلا فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

ومن بين الطلاب الذين اجتذبتهم جامعة ليدن بين ١٥٧٥ و ١٧٠٠ كان هناك ١٧٠٠٠ طالب أجنبى (من أصل ٣٨٠٠٠ طالب) جاء كثير منهم من أماكن بعيدة مثل النرويج وأيرلندا وأسبانيا وبولندا، بل وتركيا وبلاد فارس. وكل منهم يعود إلى بلده محملاً بعدد من الكتب الدراسية التى اشتراها من ليدن من نشر إلزفير. وكانت العلامة التجارية لشركة إلزفير عبارة عن نسر يحمل سبعة أسهم وشعار المقاطعات المتحدة[2]. وكانت الروح التجارية العظيمة التى انتشرت فى عموم الجمهورية الهولندية المحررة هى نفسها التى أدت إلى تطور شركة إلزفير وانتشارها.

لقد كان آل إلزفير يؤمنون بالتخصص واحترامه، ولذلك تركوا عملية تحرير النصوص للمحررين، وتركوا عملية الطباعة للطابعين، أما هم فقد تفرغوا للإدارة وتوزيع الكتب. وعلى عكس ماهو شائع لدى بعض الوكلاء وجماعى الكتب فإن طباعة كتب إلزفير طباعة متواضعة وعادية. وكانت حاجة لويس الأول إلى تكوين رأس المال تدفعه إلى الاتجار فى الكتب المستعملة، حيث كان يشترى مكتبات بأكملها من المزادات ثم يبيعها ويكسب فيها كثيراً، وقد أثبتت هذه الطريقة أنها ناجحة ومثمرة. وقد التصقت تجارة الكتب المستعملة بالأجيال المتعاقبة من

---

(1) Calvinists.

(2) Concordia porvae es crescunt.

هذه الأسرة؛ شأنها فى ذلك شأن الكتب الجديدة والطباعة والنشر. وكان احتكاكهم المباشر بجمهور القراء قد أفادهم فى معرفة ميول واتجاهات القراءة لديهم، ومن ثم فى توجيه برامج النشر والتوزيع بالشركة. لقد خبروا الأسواق جيداً من الناحيتين الفكرية والمالية وعرفوا يقيناً كيف يستفيدون من هذه الخبرة.

وعند وفاة لويس الأول (١٦١٨) كانت الشركة قد حازت قبولاً دولياً واسع النطاق. واستقر اثنان من أبنائه فى مدينة لاهاى وأوترخت كتجار كتب، فى حين أن «ماتياس» الابن الأكبر و«بونافنتورا» الابن الأصغر استقرا فى الدار الرئيسية فى ليدن. وقد اعتزل ماتياس العمل مبكراً سنة ١٦٢٢. ومن ثم انفرد بونافنتورا بالشركة الرئيسية وبلغ بها القمة فى حياته (١٥٨٣-١٦٥٢) وحياة ابنيه «ماتيالى أبراهام» الأول (١٥٩٢-١٦٥٢) وإسحاق (١٥٩٦-١٦٥١). ولقد نشروا منذ ١٦٢٩ سلسلة كتب الجيب الكلاسيكية التى طارت باسم إلزفير فى جميع أنحاء فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا والدول الاسكندنافية. ونحن نتذكر أن ألدوس مانتيوس كان الرائد فى كتب الجيب الكلاسيكية هذه والتى كانت ذات طباعة جيدة وسعر رخيص، ولكن الذى فعله آل إلزفير هو التحرير الجديد والدراسة الممتازة لكل كتاب مع السعر الرخيص، وإن لم يكن الإخراج جيداً. وكان السعر الموحد لكتب هذه السلسلة هو جيلدر واحد لكل كتاب، مع العلم بأن عدد صفحات الكتاب الواحد كان ٥٠٠ صفحة ومن ثم كان الحجم الكبير والسعر الرخيص دافعاً قوياً نحو بيع نسخ كثيرة من الكتاب الواحد.

كذلك قامت هذه الدار بنشر مجموعة «الجمهوريات الصغيرة»، وهى مجموعة كتب من خمسة وثلاثين كتاباً من الحجم المتوسط تتناول الجوانب الجغرافية والسياسية والاقتصادية والسكانية للدول الأوربية والأجنبية، وكان مدير شركة شرق الهند الهولندية هو محرر هذه السلسلة النافعة من الكتب الصغيرة.

وفى ظل هذا كله قام إسحق بإنشاء شركة طباعة خاصة به سنة ١٦١٦، وفى سنة ١٦٢٠م غدا طابع جامعة ليدن؛ وتخصص فى طبع الكتب الشرقية، ولكن بعد فترة باعها إلى بونافنتورا و أبراهام، وقد عينهما الآخران طابعين لدى الجامعة، وهـو شرف توارثته هذه الأسرة جيلاً بعد جيل.

وكان أول مؤلف معاصر ينشر له آل إلزفير هو «هوجو جروبتوس» سنة ١٦٠٩[1]. وهذا الجانب من النشر - أى النشر للمعاصرين - قد لقى اهتماماً كبيراً من جانب فرع الشركة الذى افتتحه لويس الثالث فى أمستردام - وهو ابن تاجر الكتب فى أوترخت - سنة ١٦٨٣. وقد شاركه هذا الفرع «دانييل» ابن بونافنتورا (١٦٢٦-١٦٨٠)، وبينما كان فرع ليدن ينهار رويداً رويداً كان فرع أمستردام يحافظ على اسم العائلة ودفع إليه دماً جديداً. وكانت مؤلفات ديكارت، بيكون، كومينيوس، باسكال، موليير، ميلتون، هوبز وغيرهم من المؤلفين المعاصرين هى الأساس الذي قام عليه برنامج شركة إلزفير فى أمستردام. ومع وفاة دانييل سنة ١٦٨٠ كانت شركة إلزفير أمستردام قد غدت متميزة. وكان إحياء كتب الجيب سنة ١٧٩٤م إحياء لاسم إلزفير، وقد بدأت فى تلك السنة بنشر كتاب جون لوك «تدبير الفهم»[2] الذى نشر فى لندن، ولكنه يحمل «طبع لحساب دانييل إلزفير الأصغر». ورغم الانهيار التدريجى لفرع ليدن إلا أنه عاش فترة أطول من فرع أمستردام، ولكن تحت إدارة ابن إبراهام الأول (جان) ١٦٢٢-١٦٦١. وحفيدة أبراهام الثانى ١٦٥٣-١٧١٢. وقد انهارت هذه الشركة بهدوء واختفت دون تكريم ودون بكاء.

لقد تميز الإنتاج الفكرى الهولندى عما عداه بصفة خاصة بتصميم ونشر الخرائط والأطالس. ومصطلح أطلس كان فى الأصل عنواناً لكتاب جمع فيه «رومولد ميركاتور» الخرائط التى رسمها أبوه الخرائطى العظيم «جيرهارد» (١٥١٢-١٥٩٤)، وبعد ذلك صار اسم هذا العنوان كاسم فئة.

وفى سنة ١٦٠٤ بيعت لوحات ميراكتور المعدنية إلى «جوست دى هونندت» وهو حفّار وتاجر خرائط، وقد عمل لفترة فى لندن وتزوج هناك أخت «بيتر فان دى كير» الذى كان هو الآخر حفار خرائط اشتهر بعد ذلك كأول طابع لكتب الأخبار الإنجليزية. واعتباراً

(1) Hugo Grotius. Marc Liberum .- 1609.

(2) John Locke. Conduct Understanding.

من ١٦٠٦ حتى نهاية القرن الثامن عشر كانت الأطالس التى تنشرها شركة هودنت تغطى جميع أنحاء أوربا. وكان المنافس لأطالس هذه الشركة أطالس ناشر آخر فى أمستردام هو «وليم بلاو» ١٥٧١-١٦٣٨ وابناه من بعده: «جان» و «كورنيليس». وقد نشرت هذه الدار الأخيرة «الأطلس الجديد»[١] فى ستة مجلدات ١٦٣٤-١٦٦٢، «الأطلس الكبير»[٢] فى أحد عشر مجلداً ١٦٥٠-١٦٦٢. وقد نشر هذا العملان كذلك باللغات الألمانية والفرنسية والأسبانية. وكان فى الواقع قطعاً فنية من حيث المعلومات الجغرافية والرسم والطباعة والتصميم، ويرى الخبراء أنه لم ينشر بعد ذلك حتى فى العقود الأخيرة من القرن العشرين مثل هذه الأطالس.

وثمة جانب آخر من الإنتاج الفكرى تفوقت فيه هولندا على ما عداها من الدول، ألا وهو ماعرف بكتاب الصور، أو بمعنى أدق: «الشعارات المصورة»[٣] والذى اكتسب شهرة دولية عالية منذ سنة ١٥٨٠، والذى صدرته هولندا إلى جميع أنحاء أوربا. وكان لتفوق الحفارين الهولنديين والطابعين الهولنديين فى إنتاج الإيضاحيات والكتب المصورة الفضل الأكبر فى هذا الصدد. ويعتبر كتاب «عرائس الروح»[٤] الذى نشره فى أمستردام الناشر «رومر فيسشر» سنة ١٦١٤ هو أحسن نموذج على ذلك النوع من الإنتاج الفكرى، إذ يشتمل هذا العمل على ١٨٠ لوحة مصورة رسمها «كلايس جانزسون فيسشر» وتمثل كل صورة موضوعاً من موضوعات الحياة اليومية لأوساط الناس والفلاحين الهولنديين.

ومن الطريف أن أول كتاب بريطانى مصور من كتب الشعارات هذه «مختارات من الشعارات والعلامات»[٥] قد طبع هناك فى هولندا ونشره بلانتين فى ليدن سنة ١٥٨٦. وبعد جيل واحد قام أحد الفلمنكيين (المولودين فى لندن) واسمه

---

(1) Atlas Novus, 1634-1662.

(2) Atlas Major, 1650-1662.

(3) Emblem Book.

(4) Sinnepoppen.

(5) A choice of Emblems and other devices, 1586.

مارتن روز هوت» بحفر صورة شكسبير، وقد وضعت كلوحة الواجهة فى أول كتاب طبع لشكسبير سنة ١٦٢٣م.

لقد قامت مطبعة بلانتين ـ التى تفوقت إلى حد كبير فى طباعتها وصنعة كتبها ـ بنشر الموجة الثانية من كتب الشعارات المصورة تلك، وعندما بدأت البلاطات والنبلاء يزهدون فى كتب الصور هذه؛ تحول الناشرون بالصور والشعارات إلى الجوانب الدينية والتعليمية، ولذلك استخدمها الجزويت والبيوريتان (المتطهرون) فى توضيح الموضوعات الروحية والأخلاقية للمؤمنين. ويعبر عن تلك الموجة أحسن تعبير المجلد الذى نشره موريتوس بمناسبة مرورة مائة سنة على قيام جمعية السيد المسيح[1] سنة ١٦٤٠، وكان أفضل كتب تلك الموجة على الإطلاق.

وهناك دار طباعة ونشر هولندية ترجع جذورها إلى العصر الذهبى وما زالت موجودة إلى اليوم، وهذه الدار لم تكتف بالعمر المديد الطويل هذا وإنما أعادت إلى هولندا فى القرن العشرين ماكان لها من مكانة فى تصميم الحروف والطباعة الأنيقة الراقية فى القرن السابع عشر على الساحة الدولية. تلك الدار هى دار «جوهان أونشيديه و زونين» من هارلم[2]، ومؤسسها هو «إسحق أونشيديه» ١٦٨٢-١٧٦٢م الذى بدأ عمله الطباعى فى دكان صغير ١٧٠٣م. ومنذ سنة ١٧١٣ حتى اليوم ظلت هذه الشركة تطبع كتاب المزامير[3] «للكنائس الهولندية المنصلحة»[4]، ومنذ سنة ١٧٣٧ حتى الآن وهى تطبع جريدة هارلم[5]، وهى الجريدة الناطقة بلسان حال المدينة منذ سنة ١٦٥٦، وهى المدينة التى تعلم فيها إسحق صناعة الكتاب. وقد ظل أفراد أسرة أوشيديه هم الذين يحررون هذه الجريدة حتى ١٨٦٩. وقد تولى «جوهان الأول» ابن اسحق العمل سنة ١٧١٩ وقد أضاف إليه تجارة التجزئة فى الكتاب وتسويق جريدة هارلم. وبعد فترة انفصل الابن والأب إلى فرعين اعتبرا العمود الفقرى للشركة عندما اشتريا فى

(1) Imago primi saeculi societatis Jesu.

(2) Johann Enschedé & Zonen of Haarlem.

(3) Book of Psalms.

(4) Duch Reformed Churches.

(5) Haarlmsche Courant.

تلك السنة مسبك الحروف الخاص بـ «هنردريك فلوريس ويتستاين» فى أمستردام. وقد اشتمل ذلك المسبك على حروف شتى، من بينها حروف رومانية ومائلة من تصميم «فلايشمان»، وهى أشهر حروف وأكثرها مبيعاً فى ذلك الوقت فى السوق العالمية. وقد أضافت الأسرة إلى ما تم شراؤه حروفا جديدة رائعة كلها تقريباً من تصميم مشاهير القرن الثامن عشر من أمثال «ديرك فوسكنز»، «ج.ف أونجر»، «فيرمين ديدوت». ولقد توفى جوهان الأول سنة ١٧٨٠م.

وفى القرن التاسع عشر قامت شركة جوهان أونشيديه وزونين (وقد تغير اسمها إلى هذا الاسم سنة ١٧٧١) بشراء مسابك «بلوز فان أمستل» التى كانت تشتمل على الحروف العبرية الجميلة التى كانت فى حوزة «جوزيف أتياس» (يوسف عطية) فى يوم من الأيام، ومجموعة الأمهات الجميلة التى كان «بيير ديدوت» قد جمعها. ولقد بلغت هذه الدار الطباعية قمة النجاح والاعتراف بها عندما كلفها بنك الأراضى الواطئة سنة ١٨١٤ بطبع أوراق النقد، كما كلفتها الحكومة الهولندية بطباعة طوابع البريد (البوستة) سنة ١٨٦٦. وقد بعثت فى الدار روح جديدة وحياة وحيوية من نوع آخر عندما تولى العمل فيها منذ ١٩٢٣م مصمم الحروف العالمى ومستشار الطباعة «جان فان كريمبن» (توفى ١٩٥٨). وقد جعل من هذه الشركة أحسن شركة طباعة وتصميم حروف فى العالم.

فرنسا

على النقيض من جو الحرية والليبرالية وروح التجارة والمغامرة التى كانت عليها الأمور فى هولندا، عاشت فرنسا فى جو من المركزية والمحافظة على القديم والتقاليد الكلاسيكية التى ترجع إلى عهد «فرانسوا الأول» راعى الفكر والنهضة الفكرية فى فرنسا وروح البحث والعلم الذى كانت عليه أسرة «ستيفانوس» وقواعد وأصول الطباعة كما وضعها «جاراموند» و«جرانجون».

لقد كان «لويس الثالث عشر» الراعى الأعظم للفنون والآداب وفن الطباعة بالذات على النحو الذى كان عليه فرانسوا الأول منذ قرن قبله. ولكن مشكلة لويس الثالث عشر (١٦٠٨-١٦٤٣) أنه كان يفتقر إلى الوسائل المباشرة السهلة

لتنفيذ مشروعاته، كما كان يفتقر إلى حب الاستطلاع الفكرى الذى كان عليه أسلافه. وكان السخاء والدعم اللامحدود للطابعين والمجلدين بالنسبة له وسيلة للمجد الشخصى المطلق. ومن المعروف أن لويس الثالث عشر قد أسس فى سنة ١٦٢٠ مطبعة في قصر اللوفر، وفى سنة ١٦٤٠ جعل منها «ريشيليو» مكتب طبع حكومى تحت سلطة الدولة، وسميت باسم المطبعة الملكية، وعين الطابع - الناشر الباريسى «سباستيان كريموازى» أول مدير لهذه المطبعة وعبر التقلبات التاريخية التى لحقت بالحكم الفرنسى كان اسم المطبعة. يتغير: من الملكية إلى الجمهورية إلى الإمبراطورية ثم إلى الملكية مرة ثانية ثم الوطنية ثم الإمبراطورية مرة أخرى وأخيراً **الوطنية** . وقد ظلت هذه المؤسسة منذ إنشائها مركز الطباعة الفرنسية حتى اليوم. وكانت الطبعات الفاخرة[1] من كتاب توماس أكمبس «محاكاة المسيح»[2]، ١٦٤٠م والأعمال الكاملة للمؤلف «برنارد كليرفو» ١٦٤٢ هى الثمرات الأولى لهذه المطبعة. وقد أتبعت هذه الأعمال فيما بعد بمجموعات مجالس الكنيسة فى ٣٧ مجلداً، أعمال المؤلفين البيزنطيين فى تسعة وعشرين مجلداً. وأعمال المؤلفين القدماء فى ٦٤ مجلداً، والأحداث الرئيسية فى عهد «لويس الكبير»[3] سنة ١٧٠٢م وغيره من الكتب حول التاريخ الفرنسى، بالإضافة إلى كتب الرياضيات والعلوم. وقد اتسمت جميع هذه الكتب بالكلاسيكية فى محتوياتها والجمال والأناقة فى مظهرها.

ولقد امتدت رعاية لويس كذلك إلى طبعة الحجم الكبير من أعمال آباء الكنيسة الإغريق التى توفرت جمعية النافير الأعظم[4] واتحاد باعة الكتب فى باريس على طباعتها «بالحروف الملكية الإغريقية»[5] سنة ١٦٢٤، كما امتدت رعايته إلى طبع

(1) Editions de Luxe.

(2) Thomas a Kempis. Imitatio Christi, 1640.

(3) Mèdailles sur les principaux èvènements du régne de Louis Le Grand, 1702.

(4) Societé de La Grande Navire.

(5) grecs du roi.

الكتاب المقدس متعدد اللغات[1] الذى قصد به أن ينافس أو يحل محل الكتاب المقدس الملكى[2] الذى طبعه بلانتين على النحو الذى أسلفت.

وكانت للتحالف السياسى الذى عقدته فرنسا مع الأتراك منذ عهد فرانسوا الأول قد سهل على الفرنسيين استيراد الحروف الشرقية والباحثين الشرقيين. وكان «أنطوان فيتريه» قد عين «الطابع الملكى للغات الشرقية»[3] سنة ١٦٢٢. وقد شملت المجلدات الخمس للكتاب المقدس الفرنسى اللغات: الأرمينية، الكلدانية، ، القبطية، السوريانية، السامرية والترجمات الباكرة من الكتاب المقدس، وكان معظم هذه اللغات غير معروف فى الغرب. ولقد توفر عضو البرلمان الفرنسى بباريس المدعو «جى - ميشيل لوجيى» على دفع نفقات تحرير وطباعة هذا العمل من جيبه الخاص. وبعد وفاة كل من فيتريه ولوجى (كل منهما مات سنة ١٦٧٤) استقرت الحروف الشرقية الجميلة فى المطبعة الملكية سنة ١٦٩٢.

وكان الاتجاه العام للملكية نحو تطوير الحياة العامة ودفعها قدماً إلى الأمام قد شمل ضمن ما شمل صناعة الكتاب كذلك. فقد أصدر لويس الثالث عشر قراراً فى السادس من يولية ١٦١٨م لتنظيم شامل لصناعة الكتاب، وبمقتضى هذا القرار أنشئت «غرفة النقابات»[4] لكى تقوم بوظائف أشبه ما تكون بوظائف شركة الوراقين فى إنجلترا التى قامت قبل ذلك التاريخ بنحو ستين عاماً، ولكن مع اختلاف جوهرى هو حضور موظفين بلاطيين رسميين اجتماعات ومناقشات نقابة صناع الكتب. ومن الناحية العملية البحتة غدت هذه النقابة إدارة من الإدارات الملكية وليس لها استقلال ذاتى كما كانت عليه شركة الوراقين، ولكى تسهل عملية السيطرة على نقابة صناع الكتب هذه تم تقييد عدد الطابعين الذين يصرح لهم بمزاولة المهنة إلى: ٣٦ طابعاً فى باريس، ١٨ فى ليون و روونى، ١٢ فى بوردو. وقد ظلت الرقابة على المطبوعات فى أيدى جامعة السوربون إلى أن

---

(1) Polyglot Bible.

(2) Biblia regia.

(3) Imprimeur du roi pour les Langues orientales.

(4) Chambre des syndicats.

استطاعت حركات الإصلاح نزعها من يد الجامعة، فوضعت فى يد موظفى البلاد الملكى.

ولابد لنا من أن نعترف بأن القيود التى فرضت على الناشرين والطابعين الفرنسيين فى ظل الحكم القديم[1] جعلت الطابعين والناشرين يختارون الطريق السهل ونشر الكتب التى لا تثير المشاكل، مثل كتب القصص والشعر والمسرحيات والأدب العام لكبار الكتاب والمؤلفين، ومن ثم تجنبوا الكتب التى تجلب عليهم سخط السلطات الدينية والمدنية، أو على الأقل تشد انتباهها. ومع كل ذلك فإن الكتب الفرنسية داخل هذه الحدود قد أثرت الفكر الأوربى وأيقظت فى الدول الأوربية الأخرى الاهتمام بالذوق الفرنسى والحضارة الفرنسية، خاصة وأن رسامى الكتب الهولنديين تفوقوا عليهم. فهذا هو «هنرى إستيين» يؤلف كتاباً رائعاً عن «فن تصوير الكتب»[2] نشر فى باريس ١٦٤٥م أصَّلَ فيه تقاليد الكتب المصورة، وقد حاز هذا الكتاب شهرة عالمية جابت كل أرجاء أوربا، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية بنفس العنوان فى خلال سنة واحدة من صدوره على يد «توماس بلونت»[3].

ولم يلبث الناشرون الفرنسيون أن استقطبوا كبار الفنانين الفرنسيين فى زمانهم: «كلود جيلوت» الذى رسم لوحات كتاب هو دار دى لاموت «الخرافات»[4] سنة ١٧١٩؛ «فرانسوا بوشير» الذى كان يرسم لوحات كتب «موليير» سنة ١٧٣٤؛ «جرافيلوث» الذى رسم لوحات الطبعة الإيطالية والطبعة الفرنسية من كتاب ديكاميرون سنة ١٧٥٧؛ الفنان «جوزيف إيزين» والفنان «فيليب شوفارو» اللذان توافرا على رسم الصور والمنمنمات فى «أقاصيص لافونتين» ١٧٦٢[5]،

(1) ancien régime.

(2) Henri Estienne. L'Art de faire des devises.- Paris, 1645.

(3) Henri Estienne. The Art of Making devices / translated by Thomas Blunt.- London, 1646.

(4) Hodar de La Motte. Fables.- 1719.

(5) Lafontaine. Contes.- 1762.

ومسخ الكائنات[1] لـ «أوفيد» سنة ١٧٦٧ - ١٧٧١. وقد قام «جان بابتست أودرى» رسام الحيوانات الشهير برسم ٣٠٠ لوحة فى «خرافات لافونتين» ١٧٥٩-١٧٧٥، وقام برسم كتاب «الأولاد» لمؤلفه «كوشان»[2] كما توفر على وضع لوحات كتاب «رولاند فوريير» لمؤلفه أريستو[3] سنة ١٧٧٥-١٧٨٣م. هذه النماذج الرائعة على تصوير الكتب الفرنسية وغيرها جعلت كبار الناشرين فى بلد مثل إنجلترا وعلى رأسهم «باسكرفيل» و«بيل» يتوجهون إلى الفنانين الفرنسيين من أجل رسم لوحات وصور كتبهم الإنجليزية.

وتعتبر الطبعة الأولى من الأعمال الكاملة لـ «فولتير» التى صدرت سنة ١٧٨٥-١٧٨٩ فى سبعين مجلداً من الحجم المتوسط واثنين وتسعين مجلداً من الحجم الصغير، إحدى العلامات البارزة فى تاريخ الكتاب الفرنسى والنشر الفرنسى. هذه الطبعة خطط لها ونفذها «بيير - أوجستين كارون دى بومارشيه» ١٧٣٢-١٧٩٩ مؤلف كتابى «حلاق أشبيلية» و«زواج فيجارو»[4]. وقد اشترى هذا الرجل حق طبع كل أعمال فولتير من الناشر الفرنسى «بانكوك» الذى كان فولتير قد عهد إليه بنشر أعماله الكاملة. وقد دفع بومارشيه إلى بانكوك مبلغ ١٦٠ر٠٠٠ فرنك، فرنسى فى مقابل هذه الصفقة. ولإنجاز هذا العمل قام بومارشيه بشراء كل معدات مطبعة باسكرفيل من أرملته مقابل مبلغ ١٥٠ر٠٠٠ فرنك وبذلك ضمن أجمل حرف فى القرن الثامن عشر لأعظم كاتب فى ذلك القرن، ومن مارجريف بادن استطاع تدبير مقر للعمل فى كيل المواجهة لمدينة استراسبورج، مما هيأ له كل الظروف الملائمة لإنتاج هذا العمل العظيم.

وقد قام بومارشيه بتأسيس «جمعية الأدب والطباعة»[5] التى كان هو العضو الوحيد فيها. ولقد توفرت تلك الجمعية على عمل الدعاية والترويج لدار نشر كيل، وقد خصصت جائزة يانصيب قدرها ٢٤٠٠٠ فرنك لمن يفوز

---

(1)Ovid. Metamorphoses.- 1767-1771.

(2) Cochin. Fils.

(3) Ariesto. Roland Furieux,- 1775-1783.

(4) Caron de Beaumarchais. The barber of Seville, The Marriage of Figaro.

(5) Societé Littéraire et typographique.

فى السحب من المشتركين فى شراء أعمال فولتير، وقد نجحت هذه الفكرة فى جذب أعداد كبيرة من المشتركين سلفاً فى شراء هذه الأعمال الكاملة. وقد تطوعت الإمبراطورة «كاترين الثانية» إمبراطورة روسيا بأن تكون راعية هذا المشروع، وقد طبعت لها نسخة من الأعمال الكاملة هذه على ورق اشترتها بمبلغ ٤٠٬٠٠٠ فرنك. ولكن هذه الإمبراطورة احتجت على إدراج مراسلاتها وخطاباتها مع فولتير فى هذه الطبعة، وسخطت على بومارشيه! ومما زاد سخطها وغضبها اندلاع الثورة ضدها. ومهما يكن من أمر تاريخ هذا العمل فإن الأعمال الكاملة لفولتير التى طبعها بومارشيه تعتبر بكل المعايير الببليوجرافية عملاً تحريرياً ممتازاً وعملاً طباعياً راقياً.

ألمانيا

كما أشرت فى مواضع سابقة من هذا البحث؛ بلغت ثورة الإصلاح الدينى أوج عظمتها فى منتصف القرن السادس عشر، ورغم ذلك فإن هذه الثورة التى قادها المفكر العظيم «مارتن لوثر» ظل أثرها على الحياة الفكرية وصناعة الكتاب ممتداً حتى مطلع القرن التاسع عشر. وقد استتبع ذلك نقل مركز الثقل الفكرى من جنوب ألمانيا إلى الوسط والشمال. وكانت الحواجز التى أقامها حكام أسرة هابسبرج وأسرة فيتيلباخ أمام نشر ما سمى بكتب الهرطقة، وقد تسببت فى إعطاء الناشرين فى فيينا وميونخ الفرصة الذهبية لاحتكار نشر هذه الأعمال، ولكن يرى المراقبون أن أثر هذه الأعمال الهرطقية لم يكن عميقاً على الحياة الفكرية فى ألمانيا ولم يكن لها من فاعلية فى الأدب الألمانى.

وقد ظل للكتب الكاثوليكية اليد العليا فى تلك الفترة، وقد برز فى هذا الصدد الناشر «بارتلوماى هيردر» ١٧٧٤-١٨٣٩، وهو الذى توفر على نشر ١٤ طبعة من كتاب كارل فون بوتيك «التاريخ الألمانى»[1] سنة ١٨١٢-١٨٤٠ فى تسعة مجلدات. هذا الكتاب لم يكن له نظير فى إيقاظ الوعى السياسى والتحرر والديمقراطية فى ألمانيا، ولكن هذا الكتاب ينتمى إلى فترة متأخرة من تاريخ الكتاب الألمانى، فماذا عن الكتب الألمانية قبل ذلك؟

(1) Carl von Rotteck. Allgemeine Geschichte.- 1812-1840.

لقد تحدثت بشيء من التفصيل فى المعالجة العامة عن الكتاب الألمانى فى القرن الأول للطباعة، وحان الآن معالجة تاريخ الإنتاج الفكرى من ١٥٥٠-١٨٠٠.

فى هذه الفترة الممتدة طويلاً والتى نجحت فيها ثورة الإصلاح الدينى فى تشكيل الحياة الفكرية فى ألمانيا، يمكننا القول بأن تصميم الحروف والطبع والنشر وبيع الكتب اصطبغ بصبغة بروتستانتينية بحتة، ويصدق هذا القول على فرانكفورت نفسها حتى عندما فرض الجزويت الرقابة على معرض الكتاب بها وتسببوا فى انهياره. لقد ظلت مدينة فرانكفورت رائدة فى تصميم وتسويق الحروف، وفى تصميم وإنتاج الكتب المصورة. ولم تقف شهرة تلك المدينة عند حد التفوق فى إنتاج الصور والإيضاحيات من الكتل الخشبية والتى توفر على نشرها «إيجينولف» و«فييرأبند» بل امتدت إلى إنتاج الصور والرسوم من الألواح النحاسية التى بلغ فيها «تيودور دى براى» (١٦٢٨-١٦٩٨) وابناه «جوهان تيودور» و«جوهان إسرائيل» أقصى درجات النجاح فى ذلك الوقت.

لقد أفادت صنعة الكتاب فى ألمانيا من التقدم الذى كانت عليه فى سويسرا والأراضى الواطئة، بل ومن القوى العاملة فيهما، فقد كان «تيودور دى براى» مواطناً من لييج، كما جاء زوج ابنة «جوهان تيودور» فيما بعد «ماثيوس ميريان» (١٥٩٣-١٦٥٠) من بازل. وكان ماثيوس هذا هو المنافس الخطير لشركة دى براى. وعلى امتداد القرن الثامن عشر كله قام خلفاؤه وخاصة حفيده «جوهان ماثيوس» (١٦٥٩-١٧١٦) بالسير على نفس التقاليد التى أرساها ماثيوس فى ميدان الكتب المصورة كبيرة الحجم. ومن بين الكتب العديدة التى توفرت هذه الشركة على إنتاجها كانت هناك سلسلتان شهيرتان غطت كتبهما كل أنحاء أوربا أو كادت. **الأولى**: «المسرح الأوربى»[١] من ١٦٣٣ وحتى ١٧٣٨م وهى حوليات تسجل الأحداث المعاصرة فى كل أوربا وتشبه «السجل السنوى»[٢] الذى كان ينشره «إمرموند بورك» منذ ١٧٥٩. **والثانية**: «الطوبوغرافيا»[٣] ١٦٤٢-١٦٧٢ وهى عبارة عن سجل مصور تصويراً رائعاً للمدن الأوربية فى القرن السابع

(1) Theatrum Europaeum, 1611-1738.
(2) Edmund Burke. Annual Register - 1759.
(3) Topographia, 1642-1672.

عشر، وقد صدر في هذه السلسلة تسعة وعشرون مجلداً لا تقدر بثمن لما فيه من دقة الرسم وواقعيته لكل مدينة والمستوى الفنى الرفيع للخرائط التى بلغت ٩٢ خريطة والصور التى بلغت ٢١٤٢ صورة ومنظراً والمعلومات المفيدة التى صحبتها.

ولقد غدت مدينة نورنبرج على أيام أنطون كوبرجر مكانا للعمالقة من الطابعين الناشرين. وكانت أول شركة عملاقة هى تلك التى أسسها «جورج إندتر» (١٥٦٢-١٦٣٠) وقد قادها ابنه «وولفجانج» ١٥٩٣-١٦٥٩م إلى القمة. وكان أعظم إنتاج لهذه الشركة هو «الكتاب المقدس المختار»[1] سنة ١٦٤١م الذى موله «ألدوف إنست التقى» دوق جوثا، وقد توفر على رسم صوره «يواقيم فون ساندرارات» الذى جعل منه كتابه «الأكاديمى»[2] ١٦٧٥-١٦٦٩م أباً لتاريخ الفن الألمانى.

وثمة كتابان آخران صدرا عن نفس هذه الشركة - شركة إندتر - يجب أن يسجلا فى التاريخ الألمانى، أولهما: كتاب «جورج فيليب»: هارزدورفر[3] فى ثمانية أجزاء ١٦٤٤-١٦٤٩، وهو كتاب يقدم مادة علمية خصبة للحوار والمناقشة الهادئة الرصينة، والكتاب الثانى[4] لنفس المؤلف أيضاً حول الشعر والشعراء، فى ثلاثة أجزاء ١٦٤٧-١٦٥٣ وهو تأريخ للشعر العقلانى فى تلك الفترة.

وللكتاب المقدس المختار سابق الذكر قصة؛ ذلك أن الدوق إنست كان قد خطط لطبع هذا الكتاب ونشره لدى شركة شتيرن فى لونيبرج التى كانت أكبر منافس لشركة إندتر فى صناعة الكتاب الألمانى فى القرن السابع عشر. وشركة شتيرن هذه لها تاريخ ممتد دون اهتزاز، وراسخ دون انقطاع على مدى ٤٥٠ سنة منذ أسسها سنة ١٥٨٠م المؤسس الأول «هانز شتيرن» والذى توفى سنة ١٦١٤.

---

(1) Electors Bible.

(2) Teutsche Akademie - 1676 - 1679.

(3) Georg Philipp Harsdorffer. Frauenzimmer - Gesprächsspiele, 1644-1649.

(4) Georg Harsdorffer. Poetischer Trichter, 1647-1653.

ويتولى أمر هذه الشركة منذ ذلك التاريخ الخلفاء المباشرون للمؤسس. وكان العمود الفقرى لكتب هذه الشركة هى كتب اللاهوت، الكتاب المقدس، كتب التراتيل؛ التقاويم والكتب السنوية. وكانت القطعة الهامة التى اشتهرت بها هذه الدار هى «كتاب شيتنز المقدس» نسبة إلى «ماثياس شيتز» الذى رسم لوحاته المائة والخمسين، وهو فنان حفار من هامبورج، عرف بفنه الراقى. وقد نشر هذا الكتاب المقدس سنة ١٦٧٢. وقد امتد نطاق عمل هذه الشركة إلى مناطق واسعة من أوربا وبلغ أمستردام، كوبنهاجن، ستوكهولم، دانزج، كونجزبرج، ريفال، فلنابل وحتى نورنبرج نفسها. ونحن فى الواقع لا نعرف السبب الذى جعل الدوق إنست يعدل عن قراره بنشر الكتاب المقدس المختار فى لوينبرج لدى هذه الشركة وفضل نشره فى نورنبرج لدى شركة إندتر.

تقف مدينة ليبزج بين المدن الألمانية شامخة لا تقارن بها مدينة أخرى طوال القرن السابع عشر، والتى أصبحت فى منتصف هذا القرن مركز إنتاج وتسويق الكتاب الألمانى. ويرجع ذلك إلى أن ليبزج تمتاز بموقعها الجغرافى المتميز فى قلب وسط أوربا، مما جعل الحكومة الساكسونية تنظم فيها الأسواق الدولية والمعارض، كما تتميز المدينة بحرية الحركة والتحرر من القيود، والتى تمت الاستفادة منها كأحسن ما تكون لصالح المدينة، كما تميزت المدينة بجامعتها المتطورة التى كان من بين أساتذتها العظام «جوتشيد» و«جلبرت» اللذين سيطرا على الحياة الفكرية فى ألمانيا بين ١٧٣٠ و ١٧٧٠.

ومن بين ما تميزت به المدينة وتوجت به تاريخها؛ العظماء من الطابعين والناشرين وباعة الكتب. وعلى سبيل المثال دار النشر التى أسستها «جوهان فرديتش جليدتش» (١٦٥٣-١٧١٦) سنة ١٦٩٤ واستمرت فى الوجود حتى ١٨٣٠ عندما اشتراها «بروكهاوس» وضمها إلى مؤسسته. ومن أمثلة دور النشر الرائعة أيضاً تلك التى أسسها «موريتس جورج فيدمان» سنة ١٦٨٢م واستمرت فى الوجود حتى النصف الثانى من القرن العشرين بعد أن ورثها شخص آخر من أسرة جليدتش سابقة الذكر الذى تزوج أرملة فيدمان، هذا الشخص هو «جوهان لودفيج جليدتش» (١٦٦٣-١٧٤١)، والذى طاردولاحق باعة الكتب الهولنديين

الكبار حتى ينقلوا نشاطهم من وسط وشرقى أوربا ومن فرانكفورت إلى ليبزج.

لقد كان جليدتش هذا هو الذى اشترك مع شركة فيدمان فى تدمير سوق فرانكفورت الدولية للكتاب عندما حل فرع شركته فى فرانكفورت سنة ١٧٦٤، وجعل غيرها من الشركات تحذو حذوها وتركز عملها فى ليبزج. وكان هناك فى ليبزج نجم آخر يسطع فى سماء صناعة الكتاب فى ليبزج هو «فيليب إراسموس رايخ» (١٧١٧-١٧٨٧) وقد خلد اسمه فى حوليات صناعة الكتاب على أنه مبتدع فكرة «السعر الكامل» فى بيع الكتب، وأنه المناضل الشجاع ضد سرقة الكتب بمعنى تزويرها وتقليدها، وأنه صاحب الفضل فى فكرة اتحاد باعة الكتب ١٧٦٥م التى تجسدت بعد ذلك فى إنشاء «اتحاد باعة الكتب الألمان»(١). سنة ١٨٢٥. وقد نشر مجموعة من الكتب عبر بها عصر الكلاسيكيات فى الأدب الألمانى(٢)، وإن بقى العصر الغوطى متمثلاً فى إنتاج ثلاثة من الناشرين الألمان هم جوشين، كوتا، أونجر.

لقد بدأ «جورج يواقيم جوشين» (١٧٢٥-١٩٢٨) - وهو مواطن من بريمن - عمله فى النشر ١٦٨٥ فى ليبزج. وقد نشر بعض أمهات الكتاب للمؤلفين : شيللر ١٧٨٧، جوته ١٧٨٧، ١٧٨٨، ١٧٩٠(٣). وقد جمع جوشين أعماله كلها فى طبعة ١٧٨٦. وعندما تحول جوته وشيللر من جوشين إلى كوتا، أغرى جوشين المؤلف «فيلاند» بالانسلاخ عن فيدمان ونشر من أعماله طبعتين من قطع الربع وقطع الثمن بين ١٧٩٤-١٨٠٢.

أما «جوهان فردريتش كوتا» (١٧٦٤-١٨٢٨) فقد انحدر من سلالة جوهان جورج كوتا ١٦٣١-١٦٩٢ وهو مواطن من ساكسونيا، وقد تعلم الصنعة على يد

---

(1) Bärsenverein, 1825.

(2) Classical era of German Literature.

(3) Schiller. Don Carlos, 1787, Goethe. Iphigenie - 1787, Egmont - 1788, Tasso - 1790, Faust - 1790.

«ولفجانج إندتر» سابق الذكر فى نورنبرج. وقد أسس شركته فى توبنجن مدينة الجامعة فى سوابيا سنة ١٦٥٩م، ثم انتقلت الشركة من توبنجن إلى شتوتجارت سنة ١٨١٠. ولقد التقى كوتا مع شيللر سنة ١٧٩٣ واتفق معه على نشر معظم أعماله من «دى هورين» سنة ١٧٩٥ حتى «وليام تل» سنة ١٨٠٤[١]. وقد قدم شيللر جوته إلى الناشر كوتا الذى أصبح الناشر الرئيسى لأعمال جوته الأخيرة من فاوست ١ (١٨٠٨) إلى فاوست ٢ (١٨٣٢) وبعض الأعمال المجمعة الأخرى ١٨٠٦-١٨٠٨ وما بعدها. وقد قام بنشر الأعمال الكاملة تتويجاً لهذه العلاقة فى ستين مجلداً بين ١٨٢٧-١٨٤٢. وبناء على توصية من شيللر نشر كوتا كتاباً لـ «هولدرلين» ١٧٩٧-١٧٩٩[٢] وكتابا آخر لنفس المؤلف سنة ١٨٢٦[٣] كطبعة أولى، وقد توفر على تحريرها كل من «أوهلاند» و «شواب» كما توفر هذا الناشر على نشر التقويم الأدبى لسنة ١٨٠٢م[٤] الذى كتب فيه «أ. و. شليجيل» و«تييك» دراسات وافية عن شعراء المدرسة الرومانسية. ولكن هذا العمل الأخير تسبب له فى خسار مالية كما حدث فى تقويم كلايست[٥] بعد ذلك سنة ١٨٠٨. وبعدها لم يعد كوتا يطيق الرومانسية والرومانسيين.

أما عن «جوهان فردريتش أونجر» (١٧٥٣-١٨٠٤) فقد استغرقه تماماً العمل الطباعى (١٧٨٠) وسبك الحروف (١٨٩٠) وإصدار الجريدة (١٨٠٢)[٦] فلم يعط الوقت الكافى لنشر الكتب، ومع ذلك فقد نشر مجموعة أعمال متميزة لكل من جوته وشيللر. وقد نشر أعمال جوته الجديدة[٧] فى سبعة مجلدات ١٧٩٢-١٨٠٠، ونشر كتاباً من تأليف شيللر[٨] سنة ١٨٠٢م بالحرف الرومانى،

(1) Schiller. De Horen 1795 to Wilhelm Tell 1804.

(2) Hälderlin. Hyperion, 1797-1799.

(3) Hälderlin. Gedichte, 1826.

(4) Musenalmanach Für 1802.

(5) Kleist's Penthesilea, 1808.

(6) Vossische Zeitung, 1802.

(7) Goethe. Neue Schriften, 1792-1800.

(8) Schiller. Jungfrau von Orleans, 1802.

وفوق كل ذلك نشر ترجمة شليجيل لمؤلفات شكسبير فى ثمانية مجلدات ١٧٩٧-١٨٠١. وكانت وفاة أونجر الفجائية سبب إفلاس الشركة، بل وحرمته من أن يكون واحداً من مؤسسى اتحاد تجار الكتب الألمان سنة ١٨٢٥م الذى شارك فى تأسيسه كل الناشرين والطابعين وباعة الكتب الذين ذكروا هنا فى هذا السياق.

الدول الناطقة بالإنجليزية - إنجلترا

منذ أدخل كاكستون الطباعة إلى إنجلترا سنة ١٤٧٦ حتى منتصف القرن السادس عشر، ثم من ١٥٦٠ وحتى اندلاع الحرب الأهلية استمتع جمهور القراء بنوع من الاستقرار فى نشر الكتب، وكذلك فى استقرار أسعارها الرخيصة. وقد امتدت كل فترة من هاتين الفترتين نحو ثلاثة أرباع القرن. وكان الخط الفاصل عادة بين فترة وأخرى هو انخفاض قيمة العملة فى أربعينات القرن السادس عشر، أو ارتفاع قيمتها بعد ذلك لأن ارتفاع أسعار الكتب يأتى فى مؤخرة ارتفاع أسعار السلع الأخرى. وعلى سبيل المثال كان كتاب «قصص كانتربرى» للمؤلف الشهير «تشوسر» تباع فى الفترة بين ١٤٩٢-١٥٤٥ بسعر ٢ شلنين للنسخة غير المجلدة و ٥ شلنات للنسخة المجلدة، أى بمتوسط بنس واحد لكل ثلاث أفرخ؛ أى ورقات. وظل الأمر كذلك حتى ١٥٥٠، وارتفع السعر إلى ٢/ ١١-٢ بنس لكل ثلاثة أفرخ أيضاً من ١٥٦٠-١٦٣٥، وهو التاريخ الذى ارتفع بعده سعر الكتاب بنسبة ٤٠٪. وكانت أسعار الكتب المصورة مضاعفة بالنسبة للفرخ الواحد إذا قورنت بالكتب الخالية من الصور، وكانت كتب الشعر نادرة وعزيزة، وفيما يلى قائمة بأسعار بعض الكتب التى اشتهرت فى عصر الملكة «إليزابيث»:

- آشام . المدرس، ١٧٥٣ ـــ ٦ بنسات[١].
- كامدن. شئون بريطانية ١٥٩٤ ـــ ٥ شلنات[٢].
- كاستجليون . الحمَّال ١٥٧٧ ـــ ٢ شلن، ٤ بنسات[٣].

(1) Ascham. The Schooemaster, 1573.
(2) Camden. Britannica, 1594.
(3) Castiglione. The Courtyer, 1577.

- هاكليوت . الرحلات ١٥٨٩ ـــ ١١ شلناً، ١١ بنساً(١).

- هولنيشد . الحوليات ١٥٧٧ ـــ ٢٦ شلناً(٢).

- هوكر . الحكومة المسيحية ١٥٩٧ ـــ ٦ شلنات، ٦ بنسات للنسخة غير المجلدة(٣).

- لايلى. إيفيوس ١٥٨١ ـــ شلنان، غير مجلد(٤).

- بلوتارك . الحيوات / ترجمة نورث ١٥٧٩ ـــ ١٤ شلناً(٥).

- سبنسر . تقويم شبردز ١٥٩١ ـــ شلن واحد غير مجلد(٦).

- شكسبير . فينوس أو أدونيس ١٥٧٣ ـــ شلن واحد(٧).

وتعتبر الفترة من نهاية القرن السابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر هى فترة صناعة الملاحم فى تاريخ الكتاب الإنجليزى، ذلك أن إلغاء قانون ترخيص الطبع سنة ١٦٩٥ ثم صدور قانون حق المؤلف سنة ١٧٠٩ (يبدأ سريانه من أول أبريل وحتى ١٧١٠) مغيراً تماماً من مجرى تاريخ الكتاب الإنجليزى.

ومن جهة أخرى لم يكن نشر الكتاب الإنجليزى لينتظر حتى تخفف غرفة النجمة وشركة الوراقين من قيودهما التى فرضتاها على ذلك الكتاب، كما لم يكن لينتظر حتى يصبغ البرلمان الحماية القانونية على المؤلف والناشر. ولكن هناك بدون تلك الإجراءات علامات على طريق الكتاب الإنجليزى فى القرن السابع عشر كلها مضيئة وبراقة، منها الكتاب المقدس الذى طبع باسم الملك «جيمس»(٨).

---

(1) Hakluyt. Voyages, 1589.

(2) Holinshed. Chronicles, 1577.

(3) Hooker. Ecclesiastical Polity, 1597.

(4) Lyly. Euphues, 1581.

(5) Plutarch. Lives / translated by North, 1579.

(6) Spenser. Shepheardes Calender, 1591.

(7) Shakespear. Venus and Adonis, 1573.

(8) King James Bible.

والأعمال الأربعة كبيرة الحجم لـ «وليام شكسبير» وسائر أعماله من القطع المتوسط؛ ومقالات «بيكون» وجنة «ميلتون» المفقودة وتقدم الحاج لـ «بونيان» وكتب «هيريك» وسير «توماس براون» و«إسحاق والتون» وغيرهم من المشاهير كلها تؤكد أن القيود لم تمنع النشر الراقى من حيث القيمة الفكرية، ولكن كما يقول بعض الثقاة كانت من حيث القيمة الفنية والطباعية لا تدعو إلى الاحترام على النحو الذى كان عليه تحفة الأدب الأسبانى فى القرن السابع عشر «دون كيشوت» لـ «سيرفانتس».

ولكن من وجهة نظر الناشر - الخبز والزبد - كانت هذه القطع الأدبية القومية مربحة جداً، وقد حققت أعمال شكسبير نجاحات كبيرة منذ البداية إذا أخذنا فى الاعتبار السعر العالى لأول كتاب كبير الحجم[1]، والذى وصل إلى جنيه إسترلينى واحد. وكان أحد كتب «بونيان» قد بدأ ككتاب رائج. وبين هذين المؤلفين نجد آخرين غير معروفين إلا للمتخصصين فى أدب القرن السابع عشر الإنجليزى ذكرهما «فهرس الكتب الأكثر مبيعاً فى إنجلترا» لسنة ١٦٥٧ وهما: «فرانسيس كوارلز» و «جورج ويذر». وقد ظهرت أروج كتبهما معاً فى نفس السنة ١٦٣٥. وكان كل منهما نجماً ساطعاً لنوع معين من الكتب المصورة.

لقد توفر ويذر (البرلمانى البيوريتانى) على إعداد «مجموعة الصور القديمة والحديثة»[2] التى صور بها حياة الفروسية وحياة الطبقات المتوسطة فى عصر إليزابيث. كما توفر كوارلز - الملكى الإنجيلى - على مزج روح «سبنسر» و«سيدنى بمعايير» «كارولين» فى العملين المصورين الرائعين اللذين قدمهما وهما: «الصور»[3] سنة ١٦٣٨، وكتاب «الصور الهيروغليفية لحياة الإنسان»[4] سنة ١٦٣٨ كذلك. وقد تم دمج العملين معاً فى مجلد واحد سنة ١٦٣٩م أعيد طبعه سنة ١٦٤٣. وفى فترة الكومنولث أعيد طبعه مراراً: ١٦٥٨-١٦٦٠-١٦٦٣-١٦٦٩-١٦٧٦-١٦٨٣-١٦٨٤-١٦٩٦-١٧٠١-١٧١٠-١٧١٦-١٧٢٣ - ثم بعد ذلك ١٧٣٦-١٧٤٥-١٧٧٧. وقد كتب ويذر شرحاً وتعليقاً جيداً على هذا العمل بعد أن فقد جاذبيته الفكرية والاجتماعية.

---

(1) First Folio.

(2) Wither. A collection of emblemes : ancient and modern.

(3) Quarles. Emblemes 1638.

(4) Quarles. Hieroglyphikes of the Life of man, 1638.

وكما أشرت فى مواضع كثيرة من هذا البحث، تأثر الكتاب الإنجليزى فى تلك الفترة برداءة الإخراج التى تميزت بها كل كتب القرن السابع عشر تقريباً حتى طباعة الكتاب المقدس نفسه، وحيث كان الإهمال هو السمة الغالبة. ومن الأمثلة الدالة على ذلك «الكتاب المقدس اليهودى»[١] سنة ١٦١١ الذى جاء مليئاً بالأخطاء الطباعية، وكذلك «كتاب ويكيد المقدس»[٢] لسنة ١٦٣١، و «كتاب الطابعين المقدس»[٣] لسنة ١٧٠٢، «وكتاب فنجر المقدس»[٤] لسنة ١٧١٧. وإذا قارنا تلك الطبعات من الكتاب المقدس التى صدرت فى القرن السابع عشر بتلك التى صدرت فى القرن السادس عشر فى إنجلترا سنجد البون شاسعاً، وعلى سبيل المثال فقط «كتاب رايمز المقدس» ١٥٨٢م الذى يعد علامة على عصر إليزابيث والذى جاء آية فى التحرير والتنقيح والطبع والإخراج. ولم تكن هناك أعمال ضخمة من حيث جمال الإنتاج والإخراج فى ذلك القرن السابع عشر الإنجليزى.

ويعتبر الدكتور «جون فيل» (١٦٢٥-١٦٨٦) رئيس كنيسة المسيح ونائب رئيس جامعة أكسفورد وأسقف مدينة أكسفورد هو باعث نهضة الطباعة الإنجليزية. وقد أشرت من قبل إلى أنه جلب الحروف والأمهات الفرنسية والهولندية، كما أنه أغرى مصمم حروف هولندى بالعيش فى أكسفورد، حيث قام فيل سنة ١٦٧٦ بإنشاء مسبك حروف تابع للجامعة. وكان أول إنتاج فى عهده «تقويم» جامعة أكسفورد[٥] وكتاب «أنطونى وود»[٦] وكلاهما صدر سنة ١٦٧٤. وقد خطط لمطبعة جامعة أكسفورد فى ذلك الوقت على أساس أن تنتج كتباً أكاديمية رفيعة المستوى وفى نفس الوقت ذات مستوى طباعى راقٍ.

(1) Judas Bibe, 1611.
(2) Wicked Bible, 1631.
(3) Printers Bible, 1702.
(4) Vinegar Bible, 1717.
(5) Oxford University Almanack, 1674.
(6) Anthony Wood. Historia et antiquitates universitatis Oxiniensis, 1674.

وحتى فى ظل القيود الصارخة فى عهد آل «ستيوارت» كان لدى مطابع الجامعتين درجة من الحرية؛ فى حين كان الطابعون فى لندن لا يملكون أى قدر من الحرية وكبلوا بقيود لاحدود لها، وعملوا مباشرة تحت أعين رقباء الملك وغرفة النجمة وشركة الوراقين. وقد حدد عدد الطابعين فى لندن بخمسة وعشرين سنة ١٥٨٦م وبثلاثة وعشرين (وأربعة مسابك) سنة ١٦٣٧، ثم تناقص العدد مرة أخرى إلى عشرين سنة ١٦٦٢، وظل العدد ثابتاً عند هذا الرقم حتى سنة ١٦٩٥. وفى سنة ١٦٦٢ فقط سمح لمدينة يورك بأن تصبح رابع مدينة فى المملكة بممارسة الطباعة. وقد تم التخفيف من هذه القيود خلال الحرب الأهلية، حيث دعت الضرورة إلى إنتاج مواد دعائية وإعلامية لصالح الملكية، وحيث قام «تشارلز الأول» باصطحاب الطابعين الملكيين آنذاك معه بمطابعهم إلى يورك وشروزبرى لإنتاج المواد المطلوبة. وفى الفترة ما بين مارس ١٦٤٢ وأغسطس ١٦٤٣ كانوا قد طبعوا نحو ١٧٠ مادة فى هذين المكانين.

وكان إلغاء قانون تراخيص المطابع سنة ١٦٩٥ وقصر إنشاء المطابع والطباعة على أربعة مدن فقط من العوامل التى وسعت من نطاق الطباعة، وإقامة المزيد من المطابع فى سائر المدن والأقاليم. ومن هنا كانت مسابك «باسكرفيل» فى برمنجهام ومسابك «فراى» و«مور» فى برستول من بين المؤسسات الطباعية الهامة فى منتصف القرن الثانى عشر. ولكن معدات باسكرفيل الطباعية - كما أشرت من قبل - كانت بعد وفاته قد نقلت إلى فرنسا كما أن شركات فراى و مور انتقلت هى الأخرى إلى لندن. ومهما يكن من أمر فإن إضافة الأقاليم الإنجليزية إلى الإنتاج الفكرى الإنجليزى كانت أكثر من متواضعة، فلم يصدر عن المطابع هناك سوى عدد محدود من الكتب الرائدة من بينها - على سبيل المثال - كتاب «أوليفر جولد سميث»: قسيس ويكفيلد، الذى نشر فى سالسبورى سنة ١٧٦٦.

وكان الناشر «كوتيل» فى برستول (١٧٧٠-١٨٥٣) هو الناشر الإنجليزى الوحيد خارج لندن الذى تلألأ اسمه فى سماء الإنتاج الفكرى الإنجليزى. ولأنه كان من عاشقى الحركة الرومانسية فقد توفر على نشر عدد من الأعمال لكبار

كتاب هذه الحركة من بينها «قصائد كوليردج»[1] ١٧٩٦م وكتاب «جان دارك»[2] للمؤلف «سوثى» أيضاً فى نفس السنة، و «الأغنيات الشعبية» (البالاد) للشاعرين «ووردزوورث» و «كوليردج» سنة ١٧٩٨[3]. . هؤلاء المؤلفون الثلاثة انتقلوا بعد ذلك إلى الناشرين فى لندن لنشر أعمالهم التالية حيث لم يستطيعوا مقاومة سحر العاصمة.

الدول الناطقة بالإنجليزية - اسكوتلندة

احتلت اسكوتلندة هى الأخرى مكانة جيدة فى عالم الإنتاج الفكرى خلال القرن الثامن عشر. وربما كانت آخر الدول المتحضرة التى دخلتها الطباعة. ومن حظ هذه المنطقة أن الطابعين الأوائل كانوا من أبنائها، كما كان كاكستون بالنسبة لإنجلترا. ففى سنة ١٥٠٨م أقام «والتر شيمان» و«أندرو ميلار» مطبعة فى إدنبرة، وقد منحهم «جيمس الرابع» الحماية ضد المنافسين الإنجليز. ومع ذلك فقد ظل الطابعون الاسكتلنديون لمدة قرنين من الزمان على الأقل لا يقوون على المنافسة ضد الطابعين الإنجليز والأجانب. ولم ينجح منهم إلا «توماس - بارزنداين» (توفى سنة ١٥٧٧) الذى نشر طبعة من كتب المؤلف «ديفيد لندساى» وأول طبعة من العهد الجديد فى اسكتلندة، وقد استخدم الحروف الفرنسية والهولندية فى مطبوعاته، وهو بين الناشرين فى اسكتلندة يعد استثناء فى ذلك الوقت.

وفى سنة ١٥٩١م غدا «روبرت والدجريف» الطابع الملكى عندما اضطر إلى مغادرة لندن لنشره كتابات معادية للكنيسة بما فى ذلك كتيبات «ماربريليت». وقد نشر للملك جيمس السادس «التمرينات الشعرية»[4] ١٥٩١، وكتابا آخر[5] طبع فى سبع نسخ فقط للتوزيع الخاص سنة ١٥٩٩. وبعد أن تم تنقيحيه، نشر نشراً عاماً سنة ١٦٠٣. وبعد أن أصبح «جيمس السادس»، «جيمس الأول» ملك بريطانيا العظمى، قامت نقابة لندن بطبع هذا الكتاب أربعة مرات فى نفس السنة، ورغم أن الكتاب كتب باللهجة الاسكتلندية - حيث أن جيمس لم يتقن فى حياته

(1) Coleridge. Poems, 1796.

(2) Southey. Joan of Arc, 1796.

(3) Wordsworth and Coleridge. Lyrical Ballads, 1798.

(4) King James VI. Poeticall Exercises, 1591.

(5) Basilicon Doron, 1599.

اللغة الإنجليزية - فقد قام والدجريف بنشر الكتاب باللغة الإنجليزية. وقد تصادف أن يصبح هذا الكتاب هو أول كتاب إنجليزى أصلى يترجم إلى اللغات الحديثة. فكانت أول طبعة فرنسية سنة ١٦٠٣، ثم أعيدت طباعتها مرتين سنة ١٦٠٤، وقد صدق عليها «روبرت سيسيل» والسفير الإنجليزى فى باريس رغم أن جيمس لم يدفع للمترجم الأتعاب التى اتفق عليها نظير الترجمة. وقد ظهرت ثلاث طبعات مزورة لهذا الكتاب فى نفس تلك السنوات. وكانت هناك كذلك ترجمات : هولندية (طبعتان سنة ١٦٠٣)، ألمانية (١٦٠٤)، سويدية (١٦٠٦)، لاتينية (فى لندن وهانا، ومرتين سنة ١٦٠٤) وكانت هناك طبعة ويلش (لندن ١٦٠٤) وقد عَوَّقَ الوباء توزيعها، وقام الناشر الويلشى «توماس سالسبورى» بالهروب من لندن خوفاً على نفسه من الوباء وترك طبع الكتاب. ولأسباب غير مفهومة أصبح هناك إقبال جديد على هذا الكتاب سنة ١٦٨٠، فأعيد طبع الطبعة الإنجليزية فى لندن سنة ١٦٨٢ والترجمة اللاتينية سنة ١٦٧٩ و ١٦٨٢ وكلاهما فى فرانكفورت ـ على الأودر.

ولقد تطورت الطباعة فى اسكوتلندا تطوراً عظيماً، وتطور الإنتاج الفكرى فيها بعد اتحادها مع إنجلترا. ففى سنة ١٧١٣ نشر هناك فى إدنبرة «تاريخ فن الطباعة»[1] وهو أول كتاب باللغة الإنجليزية عن الطباعة مع أنه فى الجزء الأكبر منه عبارة عن ترجمة عن الكتاب الفرنسى الذى كتبه المؤلف الفرنسى «جان دى لاكالى» بعنوان «تاريخ الطباعة»[2] ونشر فى باريس ١٦٨٩. وكان مؤلف الكتاب الإنجليزى هو «جيمس واطسون» (ت١٧٢٢) وهو ناشر «جازيتة إدنبره» و «أخبار إدنبره» ومجموعة من «قصائد سكوتلندية كوميدية وجادة» ١٧٠٦-١٧١١[3]. ولقد سعى واطسون إلى جلب مجموعة من الطابعين الهولنديين إلى سكوتلندة لتطوير وتحسين الطباعة هناك، وتجاهل الطباعة الإنجليزية تماماً ـ ماضيها وحاضرها ـ فى كتابه، وأشار إلى أن فى المملكة الجنوبية «كتاب يستطيعون الحكم بالعدل على أنفسهم».

(1) History of the art of printing, 1713.

(2) Jean de La Caille. Histoire de Limprimerie, Paris, 1689.

(3) Edinburgh gazette, Edinburgh Courant, Comic and Serious Scottish Poems, 1706-1711.

وعلى أية حال فإن جلاسجو وإدنبره هما المدينتان اللتان ازدهرت فيهما الطباعة فى سكوتلندة ١٧٤٠-١٧٧٥، فهنا قام الأخوان «روبرت» ١٧٠٧-١١٧٦ «وآندرو» ١٧١٢-١٧٧٥، «فوليس» (تنطق فى الأصل فولز)[1] بممارسة أرقى درجات تجارة الكتب والطباعة والنشر والتحرير على النحو الذي كان عليه ألدوس مانتيوس، أميرباخ، فروبن، استين فى العقود الأولى للطباعة. ولقد تخصص الأخوان إلى جانب كتب اللاهوت فى كتب الفلسفة وبحوثها العميقة. وهو نهج اتبعه الناشرون فى سكوتلندة إلى اليوم، بل والقراء هناك كذلك، وفى الكتب الكلاسيكية وخاصة الإغريقية، سواء بلغتها الأصلية أو الترجمات.

ويظهر الاتجاه الأكاديمى فى عملهما من التصحيح الدقيق للبروفات، فكل ملزمة روجعت على الأقل ست مرات: ثلاث مرات منها فى المكتب وثلاث منها على يد أساتذة الجامعة الذين كان الأخوان يستعينون بهما كمحررين. ومن الواضح أن عمل هذين الأخوين الطباعى كان يرقى إلى مستوى الطباعة الهولندية والإنجليزية والفرنسية فى زمانهما. ولكن ما يذكر للأخوين فى تاريخ الكتاب هو التطوير الذى أدخلاه على إخراج صفحة العنوان لدرجة أن الببليوجرافيين يقولون إن ما قدماه يستحق أقصى درجات التقدير. وكان التجديد الذى أدخلاه هو عدم استخدام الحروف الصغيرة أو الحروف المائلة، ولا يستخدمان حجمين من الحروف الكبيرة فى نفس السطر. لقد كانت ثورة فى صفحة العنوان.

وفى سنة ١٧٩٥م عندما قام «أندرو» الأصغر ابن روبرت بإغلاق المكتب وإنهاء المشروع كانت الدار قد طبعت ٧٠٠ كتاب وكتيب، كان من بينها أعمال هوميروس ١٧٥٦-١٧٥٨، و «الجنة المفقودة» ١٧٧٠م وهما يدخلان فى عداد الأعمال الطباعية الراقية فى القرن الثامن عشر.

وكان جانب كبير من شهرة هؤلاء الطابعين الناشرين باعة الكتب من آل فوليس يرجع إلى «الحرف» الذى استخدموه فى الطباعة، ذلك الحرف الذى صممه لهم «ألكسندر ويلسون» من سانت أندروز ١٧١٤-١٧٨٦م. وهو نفس

(1) Robert and Andrew Folis (Faulls).

الحرف الذى بنى عليه جيوفانى ماردرستيج «حرف فونتانا» لشركة كولنز للطباعة. وكان تصميم ويلسون للحرف الرومانى والمائل قريباً من حرف كاسلون، كما كان تصميمه للحرف اليونانى يحاكى الحروف الملكية الإغريقية التى صممها جاراموند. وكان للتعاون الوثيق بين طابعى الجامعة ومصممى الحروف بها أثره الفعال فى وضع معايير طباعية أفادت منها مهنة الطباعة الاسكتلندية فائدة كبرى لاتزال تنعم بثمارها حتى الآن.

الدول الناطقة بالإنجليزية - أمريكا

كان بنيامين فرانكلين واحداً من كبار المعجبين بـ «باسكرفيل». ومن المعروف أن فرانكلين هو أول طابع أمريكى كبير. وقد دخلت الطباعة كما أسلفت إلى مستعمرات نيوإنجلند سنة ١٦٣٨؛ ففى تلك السنة قام «جوزيف جلوفر» - مدير سابق لـ «سوتون» فى سوربى ـ باستيراد مطبعة وثلاثة طابعين من كامبردج (إنجلترا) إلى كامبردج (ماساشوستس). وكما رأينا؛ توفى جلوفر نفسه خلال الرحلة، ولكن أسرة داى (ستيفن وولداه ستيفن و ماتيو) أنشأت المطبعة تحت رعاية رئيس كلية هارفارد الذى تزوج أرملة جلوفر. وكان أول مطبوع يخرج من هذه المطبعة وعلى كل الأرض الأمريكية فى مستعمرة إنجليزية هو «يمين الولاء للملك»[١] سنة ١٦٣٩، وكان أول كتاب طبع هناك بعد عام واحد هو «كتاب المزامير الكامل»[٢] الذى اشتهر بـ «كتاب مزامير الخليج»[٣]، وبعد عشرين عاماً تم استيراد مطبعة أخرى من إنجلترا إلى نفس المكان ـ أى كلية هارفارد ـ التى كانت السبب فى إدخال الطباعة إلى كامبردج ماساشوستس.

وفى سنة ١٦٦٣ توفر «جون إليوت» ـ خريج كلية يسوع ـ كامبردج ـ (١٦٠٤-١٦٩٠) على ترجمة الكتاب المقدس إلى لغة الهنود الحمر (اللغة الهندية)، وقام «مارمادوك جونسون» بطباعته، وهو أول أسطى طباعة مهنى فى كل أمريكا. وكان جونسون أيضاً أول من سحب امتياز كمبردج، ونقل مطبعته

---

(1) Oath of Allegiance to the King.

(2) The whole Booke of Psalmes.

(3) Bay Psalm Book.

إلى بوسطون سنة ١٦٧٤ . وقد حذا حذوه «وليام برادفورد» - كويكر من لندن - وأنشأ فى سنة ١٦٨٥م أول مطبعة فى فيلادلفيا، ثم أول مطبعة فى نيويورك سنة ١٦٩٣ ، واستغرق الأمر سبعين عاماً أخرى حتى تنشأ مطبعة فى جورجيا آخر المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة، وكان ذلك سنة ١٧٦٣ .

وفى حدود ذلك الوقت كانت الطباعة قد انتشرت فى كندا عندما أقام «بارتولوميو جرين» وهو مواطن من بوسطون - مطبعة فى هاليفاكس فى نوفا سكوتيا سنة ١٧٥١ . وكان أول طابع باللغة الفرنسية هو «فليرى ميسبليه» (١٧٣٤-١٧٩٤) والذى كان دخوله إلى الطباعة نوعاً من المغامرة، فقد تعلم صناعة الطباعة فى بلده ليون، وارتحل إلى باريس حيث أدخلته اتجاهاته الجمهورية والعدائية ضد رجال الدين فى مشاكل وصراعات مع السلطة، فرحل إلى لندن وأقام مطبعة هناك سنة ١٧٧٣ ، وفى السنة التالية أغراه بنيامين فرانكلين بالهجرة إلى فيلادلفيا. وفى سنة ١٧٧٦م انتقل إلى مونتريال، ولكن بسبب الاضطرابات هناك وميوله الثورية وضع فى السجن ولكن مع ذلك لم ينقطع عن الطباعة فطبع هناك نحو سبعين كتاباً باللاتينية والفرنسية والإنجليزية وأيضاً بلغة (إيروكوار)، وقد أسس «مجلة مونتريال الأدبية»[1] سنة ١٧٧٨م والتى استمرت فيما بعد تحت عنوان «مجلة مونتريال»[2].

الدول الناطقة بالإنجليزية - أستراليا

كانت أول مطبعة تدخل إلى سيدنى هى تلك التى أدخلها «جوفرنور فيليب» سنة ١٧٨٨ ، ولكنه لم يجد طابعاً يقوم بعملية الطباعة لمدة سبع سنوات حتى عثر على شاب اسمه «جورج هوز» فى سنة ١٧٩٥م قام بإدارة المطبعة هناك. وقد تناولنا ذلك تفصيلاً من قبل، وبحيث يمكن القول إن الطباعة الحقيقية لم تبدأ هناك فى الأقيانوسية إلا فى القرن التاسع عشر، شأنها فى ذلك شأن بلد مثل مصر.

(1) Gazette Litteraire de Montreal, 1778.

(2) Montreal Gazette.

المكتبات ودورها فى تنمية القراءة

كانت هناك قبل اختراع الطباعة مكتبات كثيرة ومنظمة جيداً تزخر بمجموعات المخطوطات منذ العصور القديمة، فقد عرفت مصر القديمة أنواعاً شتى، منها ـ وعلى رأسها ـ دورة مكتبات العصور القديمة : مكتبة الاسكندرية، كما عرفت بلاد اليونان مكتبات خاصة عديدة ومكتبات أكاديمية، وقيل بعض المكتبات العامة. وفى العصر الرومانى كان «يوليوس قيصر» هو أول رجل دولة يفكر فى إنشاء المكتبات العامة لصالح المواطنين، ولكنه ـ كالإسكندر الأكبر ـ مات قبل تنفيذ مشروع المكتبات العامة هذه فتوفر على تنفيذه «س. أسينيوس بوليو» وهو راعٍ محب للفكر من رعاة فيرجيل و هوراس، ويقال إنه أنشأ أول مكتبة عامة فى روما سنة ٣٩ ق.م، وقد حذا حذوه كثير من الأباطرة الرومان بدءاً من «أغسطس» و«تبيريوس» فصاعداً، وقد وصل عدد المكتبات العامة فى روما بذلك إلى ثمان وعشرين مكتبة ومع تدمير روما ودفنها تحت الأنقاض دفنت معها فكرة المكتبات العامة فى أوربا لمدة ألفية كاملة.

وكانت المكتبات التى أنشئت فى العصور الوسطى ـ كما شرحنا فى كتابنا عن الكتب والمكتبات فى العصور الوسطى المسيحية ـ إما مكتبات أديرة أو مكتبات كنائس، وبعد ذلك مكتبات أكاديمية. أما المكتبات العامة التى تجمع الكتب وثمار الفكر الإنسانى من كل العالم المتحضر وتقدمها للإنسان العادى البسيط والمواطن المتعطش للمعرفة وتفتح أبوابها للجميع بطريقة أو بأخرى فإنها بلا ريب ثمرة مؤكدة من ثمار فن الطباعة الذى تكلمنا عنه طويلاً طويلاً من قبل.

لقد قام الملوك والأمراء والنبلاء والتجار والباحثون فى عصر النهضة بجمع مجموعات كبيرة من الكتاب وكونوا منها مكتبات شخصية خاصة. حقاً لقد قام شخص مثل «فيدريجو» دوق أوربينو بجمع مجموعات من الكتب اقتصر فيها على المخطوطات فقط دون المطبوعات، ولكن ذلك كان استثناءً بنى على اتجاه شخصى بحت. أما مكتبة الملك «مايتاس كورفينوس» فى بودابست فقد ضمت مجموعة كبيرة من المطبوعات إلى جانب المخطوطات وإن كانت قد تبددت فى الاتجاهات الأربع بعد وفاته سنة ١٤٩٠.

وقد ذكرت المصادر أن مكتبة الإنسى هارتمان شيديل قد تكونت من ٢٠٠

كتاب مطبوع و ٤٠٠ كتاب مخطوط. وكان معاصره الأصغر «ويليبالد بيركهايمر» قد كون هو الآخر مكتبة قوامها ٢١٠٠ كتاب ليس من بينها سوى ١٧٠ مخطوطة فقط. وقد اشترى هذه المكتبة «إيرل أروندل الثانى» سنة ١٦٣٦. وفى سنة ١٥٠٠ بلغت مكتبة كنيسة هيرمانشتادت (سيبيو) فى ترانزيلفانيا ٣٢٠ كتابا، من بينها ١٦٧ كتاباً مطبوعاً.

يقول «سيجفريد شتاينبرج»: إن بعض هذه المكتبات الخاصة أصبحت فيما بعد نواة لبعض المكتبات الوطنية. فقد خرجت المكتبة الوطنية الفرنسية من بطن مكتبة «شارل الخامس» الشخصية. ومكتبة «مديتشيو - لورنزيانا» ضمت مكتبتى «كاسيمو» و«لونزو دى مديتشى». ومكتبة الدولة فى بروسيا خرجت هى الأخرى من بطن مكتبة «فردريك وليام» المختار الأكبر، ومكتبة المتحف البريطانى قامت على مكتبة سير روبرت كوتون. ومكتبة جامعة اكسفورد قامت على مجموعة الدبلوماسى الباحث سير «توماس بودلى» الشخصية، ولذلك سميت مكتبة جامعة أكسفورد باسمه، وقد افتتحت سنة ١٦٠٢. ومن الطريف أن سير توماس بودلى قد لاحق شركة الوراقين فى إنجلترا لإيداع نسخة مجانية من كل كتاب يصدر فى إنجلترا فى تلك المكتبة. وقد أصبحت فكرة مكتبة الإيداع هذه حقيقة تشريعية ضمنت فى قانون تراخيص الطبع الذى صدر سنة ١٦٦٣م الذى نص على إيداع ثلاث نسخ مجانية من كل مطبوع، وقد زيد العدد بالتدريج إلى إحدى عشرة نسخة، ثم خفض بعد ذلك إلى ست نسخ فقط (نسخة للمتحف البريطانى، نسخة للمكتبة الوطنية فى سكوتلندة، نسخة لمكتبة جامعة أكسفورد (مكتبة بودلى)، نسخة لمكتبة جامعة كمبردج، ونسخة لمكتبة كلية ترنيتى فى دبلن). وقد أخذت أمم كثيرة بهذا المبدأ ولكن يجب أن نعرف أن أول من اخترع فكرة الإيداع هذه هو الملك «فرانسوا الأول» ملك فرنسا سنة ١٥٢٨ قبل إنجلترا وتوماس بودلى بفترة. وأياً كان فإن فكرة الإيداع فى حد ذاتها فكرة جيدة ومفيدة لكل الأطراف: للناشرين والطابعين وباعة الكتب والباحثين والقراء عموماً والمكتبيين، حيث يمكن إعداد أدوات الضبط الببليوجرافى من هذه المجموعات، والقيام بالدراسات الببليوجرافية والعلمية المختلفة.

وكانت أول مكتبة كبيرة فتحت لجمهور القراء هى تلك التى أعدها «جابرييل نوديه» لحساب الكاردينال «مازاران» سنة ١٦٤٥ . وكان جابرييل نوديه هو أول من كتب دراسة فى علم المكتبات الحديث حول جمع واختزان وتنظيم وفهرسة الكتب وجاءت هذه الدراسة بعنوان «مشروع بناء مكتبة»[١]، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية «جون إيفيلين» سنة ١٦٦١ . ويقال إن «ريتشارد دى بيرى» أسقف يرهام وأشهر جماعى الكتب فى العصور الوسطى كان قد ألف كتاباً أيضاً فى هذا المعنى بعنوان : جمع الكتب[٢]، وكان دى بيرى قد توفى سنة ١٣٤٥ . وقد طبع كتابه هذا فى كولون سنة ١٤٧٣م، ومازال حتى يومنا هذا يستحق القراءة والاطلاع للحب الكبير الذى كان ريتشارد دى بيرى يكنه للكتب.

هذا ولقد أنشئت معظم المكتبات الوطنية فى القرن السابع عشر والثامن عشر، وكانت رمزاً للفكر وعظمة الملوك والحكام الذين أنشئوها : مكتبة الدولة فى بروسيا (برلين) ١٦٥٩، المكتبة الملكية فى كوبنهاجن ١٦٦١، المكتبة الوطنية الاسكوتلندية ١٦٨٢، المكتبة الوطنية فى مدريد ١٧١٢، المكتبة الوطنية المركزية فى فلورنسا ١٧٤٧، مكتبة المتحف البريطانى ١٧٥٩، مكتبة الكونجرس ١٨٠٠. وكانت المكتبة الوطنية الفرنسية قد امتدت جذورها ربما إلى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر.

ويذكر الثقاة أن الببليوجرافيات الوصفية التى أصبحت جزءا هاماً من وظائف المكتبات الوطنية فى جميع أنحاء العالم تمتد جذورها فى تلك الفهارس التى كانت تعدها متاجر الكتب لضبط مقتنياتها. ولعل أول ببليوجرافية شاملة ومنتظمة هى تلك القوائم النصف سنوية التى كان يعدها ويصدرها تاجر جملة الكتب «جورج فيللر» فى أوجزبرج (١٥١٥-١٥٩٤)، وقد ظل ينشرها بانتظام بين ١٥٦٤-١٦٢٧. هذه الببليوجرافيات كانت تحصر وتسجل وتصف الكتب التى

(1) Gabriel Nudé. Avis pour dresser une bibliothéque, 1627.

(2) Richard de Burg. Philobiblion.

تعرض فى معرض فرانكفورت الذى أصبح منذ ذلك الوقت المكان الرئيسى الذى يلتقى فيه الناشرون وباعة الكتب والطابعون وسباكو الحروف من كل أنحاء أوربا. وفى سنة ١٥٦٥ حصر فيللر ٣١٨ عنواناً من نشر الناشرين الألمان و ٢٢٦ عنواناً من نشر الناشرين غير الألمان. وقد كتب «هنرى استين» الناشر وتاجر الكتب والطابع الفرنسى الأشهر مقالاً يقرظ فيه هذا المعرض ويعدد فوائده[1].
ومنذ ١٥٩٨م بدأ مجلس مدينة فرانكفورت فى إصدار فهرس رسمى حل محل الفهارس الخاصة التى كان يصدرها فيللر وغيره من الشركات. وقد قام وراق بلندن اسمه «جون بيل» بنشر طبعة إنجليزية من فهرس فرانكفورت هذا بين ١٦١٧-١٦٢٨؛ مع ملاحق بالكتب المطبوعة باللغة الإنجليزية ١٦٢٢-١٦٢٦.
ومع انهيار معرض فرانكفورت للأسباب التى فصلناها من قبل أصبحت فهارس معرض ليبزج ذات قيمة عظمى، تلك الفهارس التى بدأت سنة ١٥٩٤ واستمرت بطريقة أو بأخرى حتى الآن، بينما انهارت فهارس فرانكفورت مع انهيار السوق وتوقفا سنة ١٧٥٠م.

ويرى البعض أن فهارس تلك المعارض هى السلف الصالح للببليوجرافيات الوطنية الجارية حتى اليوم، ويرى البعض الآخر أنها السلف الصالح والند للببليوجرافيات العالمية التى بدأها «جزنر» سنة ١٥٤٥م. ولكنها على أية حال ثمرة مؤكدة لجهد ببليوجرافى خلاق أفادت منه المكتبات عموماً والوطنية على وجه الخصوص.

ومن بين الببليوجرافيات الوطنية التى تعد استئنافاً لتلك الجهود وأقدمها: الببليوجرافية الفرنسية ١٨١١، الكشاف التجميعى للكتب فى الولايات المتحدة ١٨٩٨، الببليوجرافية الوطنية الألمانية التى استأنفت فهارس معرض ليبزج اعتباراً من ١٩٣١، الببليوجرافية الوطنية البريطانية ١٩٥٠. وعلى الرغم من التفاوت الكبير بين هذه الببليوجرافيات فى الوصف والتنظيم إلا أنها أدوات مفيدة للغاية.

---

(1) Henri Estienne. Francofordiense emporium sive francofordiensesn undinane.

وطالما أننا بصدد الحديث عن ببليوجرافيات الكتب القديمة، فإن الجائزة الكبرى لابد وأن تمنح للفهرس الموحد للكتب المطبوعة[1] الذى يحاول حصر الكتب القديمة الموجودة فى المكتبات الألمانية. وهناك أيضاً «فهرس الكتب المطبوعة فى القرن الخامس عشر بالمتحف البريطانى»[2] الذى يعتبر أداة هامة لدراسة أوائل المطبوعات الأوربية. وهناك فهارس أخرى تخدم جزئيات محددة وفترات معينة من بينها: **فهارس العناوين**[3] التى أعدها «أ. و. بولارد» «وج.ر. ريدجريف» حتى ١٦٤٠، وتلك التى أعدها «د.ج. وينج» للفترة ١٦٤١-١٧٠٠. وقد قامت جميعاً على أكتاف أول «فهرس الكتب الإنجليزية المطبوعة»[3] الذى أعده «آندرو فونسيل» سنة ١٥٩٥م، والذى أرسى به أسس الببليوجرافيا الوصفية فى إنجلترا. وتستحق ببليوجرافيات الببليوجرافيات الذكر، هنا ويأتى على رأسها «الببليوجرافية العالمية للببليوجرافيات»[4] التى أعدها «تيودور بسترمان» (ط ٢. سنة ١٩٥٠).

والحقيقة أن حركة المكتبات العامة لم تتخذ سيماءها الحديثة إلا فى القرن التاسع عشر الأمريكى على وجه الخصوص. وحتى ما عرف بأنه مكتبات عامة قبل الربع الأخير من ذلك القرن لم يكن يفتح رفوفه للجمهور بسهولة، وكان الوصول إلى الكتب لابد وأن يتم عبر خازن الكتب. والطريقة التى كان ينظر بها أمين المكتبة إلى القارئ تعكسها قواعد المكتبة التى أعدها أمين مكتبة جوتا سنة ١٧٧٤م، والتى تنص على «أى شخص يريد أن يطلع على كتاب يجب أن يتقدم بطلب إلى أمين المكتبة الذى سوف يريه له، وفى حالة الضرورة يسمح له بقراءته».

ولم تكن مكتبات الدولة ومكتبات المحليات ومكتبات الكليات مهيأة بحال من الأحوال لخدمة القارئ العام غير الأكاديمى وغير المهنى والذى - كما رأينا من قبل - أنه مع مرور العقود أصبح يمثل النسبة الغالبة من القراء. ومن هذا المنطلق سعى هؤلاء القراء إلى خدمة أنفسهم، وبطريقة أو بأخرى خلقوا نوعين من

(1) Gesamtkatalog der Wiegendrucke.
(2) British Museum Catalogue of Printed Books in the 15 Century.
(3) Catalogue of English Printedbooks
(4) Woned bibiography of bibligsaphies.

المكتبات يلائمان احتياجاتهما: **المكتبة العامة**[١] بالمعنى الدقيق الحديث للمصطلح، **ومكتبات التأجير**[٢]. وكلا النوعين أطفال القرن الثامن عشر، وكلا النوعين ولدا فى الدول الناطقة بالإنجليزية.

وربما يعزى ظهور **المكتبة العامة** الحديثة إلى نظام التعليم العام المتطور فى الولايات المتحدة، وقد لخص «جورج تكنور» باحث هارفارد العظيم الفكرة الأساسية وراء تلك المؤسسة (المكتبة العامة) حين قال: «المكتبة العامة يجب أن تأتى فى ختام نظام التعليم المجانى عندنا، وذلك لاستمرارية وفاعلية هذا النظام عن طريق التثقيف الذاتى الذى هو ثمرة القراءة». وقد قاد كومنولث ماساشوستس حركة إنشاء المكتبات العامة. وكانت بوسطون أول مدينة فى العالم الجديد تنشئ مكتبة عامة، وكان ذلك سنة ١٦٥٣. وفى سنة ١٧٩٨م كانت ولاية ماساشوستس أول ولاية تنص فى تشريعها على دعم المكتبات العامة. ويعزى «شرف» فرض ضريبة على المواطنين سنوياً لصالح إنشاء مكتبة عامة مجانية إلى المدينة الصغيرة مدينة بيتربورو فى ولاية نيوهامبشاير، وكان ذلك سنة ١٨٣٣.

أما **مكتبات التأجير** فإنها مزيج من المشروع التجارى والمشروع التثقيفى فى وقت واحد، وهو فى الأصل من ابتداع رجل اسكوتلندى اسمه «آلان رمسى» وقد كان شاعراً وصانع شعر مستعار وبائع كتب، وهو والد رسام الصور الشخصية الشهير الذى حمل نفس الاسم. هذا الرجل ألحق بمتجر كتبه فى إدنبرة «مكتبة تأجير» سنة ١٧٢٦. وبعد سنوات قليلة فى ١٧٣١م قام بنيامين فرانكلين فى بداية حياته كطابع وناشر ودبلوماسى، بافتتاح «مكتب اشتراكات» فى فيلادلفيا. وقد قام المبجل «صامويل فانكورت» ـ المنشق على الكنيسه ـ بافتتاح أول مكتبة تأجير[٣] فى لندن سنة ١٧٣٠، ولكن لا هذه المكتبة ولا مشروعه الثانى«مكتبة الإعارة والتثقيف للنساء والرجال»[٤] ١٧٤٦ حققا أى نجاح. لقد

(1) Public Library.

(2) Lending Library, Popular Library, Subscription Library.

(3) Lending Library.

(4) The Gentlemen and Ladies Growing and Circulating Library.

تحقق النجاح فعلاً لـ «المكتبة البريطانية»[1] التى أقامها «جورج باث» فى ستراند ثم اشتراها منه «جون بيل» بعد ذلك.

ومع نهاية القرن الثامن عشر أصبحت مكتبات التأجير ملمحًا عاماً وهاماً من ملامح أية مدينة فى أوربا الغربية. وفى المدن الصغيرة والقرى الكبيرة التى لم تنجح فيها تلك المكتبات فى تحقيق ربح؛ قامت نوادى الكتب والجمعيات الأدبية بوظائف وأدوار تلك المكتبات فى إمداد الأعضاء بآخر ثمار الفكر. ويمكننا من جهة ثانية أن نصنف تلك المكتبات على أنها أسلاف مكتبات البلديات والمحليات. ولقد أدهش ظهور تلك المكتبات وانتشارها هذا الانتشار الكبير دهشة المراقبين المعاصرين فقال أحدهم فى سنة ١٧٩٥ : «لقد تعود الناس على القراءة الآن فى مناطق لم يكن يدخلها الكتاب منذ عشرين سنة إلا بشق النفس». وبعد عدة سنوات قليلة من هذا التاريخ نسمع أن «عاطفة القراءة أصبحت تنتشر بين الناس يوما بعد يوم، وغدت شيئاً عادياً بين جميع الطبقات». فى سنة ١٨٠٤ كانت مكتبات التأجير الثلاث الكبرى فى مدينة درسدن تتعامل فى ستين ألف مجلد، أى بنسبة مجلد واحد لكل نسمة من سكانها.

ولقد لخص «جيمس لانكنجتون» ـ وكان واحدًا من كبار باعة الكتب فى لندن ـ (١٧٤٦-١٨١٥) موقف مكتبات التأجير هذه بقوله فى مذكراته التى سبق أن أشرت إليها: «عندما افتتحت تلك المكتبات فى البداية دق جرس الإنذار عند باعة الكتب، ومع الزيادة السريعة فى عددها بدأت مخاوفهم تزداد، وتصوروا أن مبيعات الكتب يمكن أن تتناقص بسبب تلك المكتبات، ولكن التجربة أثبتت أن المبيعات لم تنخفض؛ بل زادت إضافة إلى عمل دعاية وترويج للكتب وحيث أصبحت تلك المكتبات مستودعات لإمداد آلاف الأسر بالكتب الرخيصة، مما أدى فى النهاية إلى انتشار عادة القراءة وتذوق الكتب، وقام آلاف الناس ممن تعودوا على تأجير الكتب بشرائها أيضاً من متاجر الكتب وتكوين مكتبات شخصية دائمة فى بيوتهم».

* * *

(1) British Library.

المحتويات

الصفحة